
الكتاب
عدد ممتاز
نوفمبر ١٩٤٦
دار المعارف للطباعة والنشر
بمصر



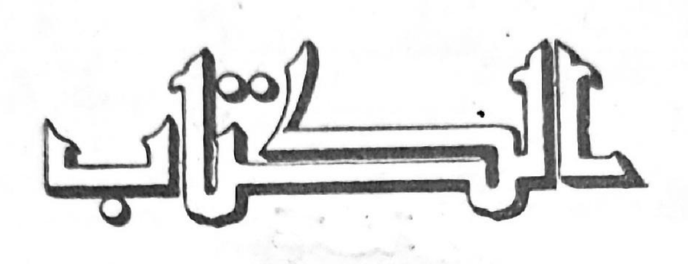
مجلة شهرية

تصدر عن دار المعارف بمصر

رئيس تحريرها عادل الغضبان



السنة الثانية — المجلد الثالث



مجلة شهرية

تصدر عن دار المعارف بمصر

رئيس تحريرها عادل الغضبان



السنة الثانية — المجلد الثالث

تهنئة

لايكاد يصل هـذا الجزء الممتاز إلى أيدي القراء حتى يكون العالم العربي في بهجة ومسرة تتألق في نفوس أبنائه وقلوبهم ومرائي أعينهم أنوار عيد الأضحى المبارك ويتطلع المسلمون بأبصارهم وبصائرهم إلى جبل عرفات ويشاطرون الحجيج فرحة الطواف بالكعبة وزيارة البيت الحرام .

و« الكتاب » تقدم أصدق التهانئ إلى الأمة العربية في هذا العيد السعيد ضارعة إلى الله سبحانه وتعالى أن يغدق على بني البشر نعمة الإخاء والمحبة وأن يحقق للشرق العربي قصي الأماني وأعذب الآمال .



السـنة الثانية | المجـلد الثالث | ذو الحجة ١٣٦٥
الجـزء الأول | | نوفمبر ١٩٤٦

الأمـل

قيل إن الإسكندر لمَّا همّ بزحفه العظيم وزّع على قوّاده وأصحابه جميع ما ملكت يداه فسئل ماذا احتفظ لنفسه فقال : لقد احتفظت لنفسي بالأمل .

ومَثَلُ الإسكندر مثل جميع الناس من محاربين وغير محاربين ممن انطوت حناياهم على عزيمة مشرّبة بالشجاعة والإقدام فإن لم يحذ من عرفنا من أصحاب المساعي الجليلة حذو الإسكندر في توزيع مقتنياتهم على الصحاب والخلاّن رجاء الظفر بأفضل منها وأبقى فقد خالجت نفوسهم عاطفة شبيهة بعاطفته حدتهم إلى امتطاء مراكب الآمال للسير بها في فجاج النجاح فاتحين أو رائدين أو عاملين . ولولا الأمل في الفوز وفي جني ثمار العمل والجهاد لظلوا في أماكنهم لايتحركون ولا يريمون ولوقفت مركبة الدنيا في مستهل الطريق وبقي الناس حيث كان أبوهم آدم وأمهم حواء يتسترون بورق الشجر ويطعمون نبات الحقول ويبيتون في الكهوف والأكواخ وما كان أبوانا الأولان لينصبا ويجاهدا لولا أملهما في العودة إلى الفردوس المفقود .

ومنذ أن خلق الله الإنسان على مثاله وفرض عليه أن يأكل خبزه بعرق جبينه غرس في فؤاده حبّ الأمل ليستروح نسيمه ويستهدي بضيائه ويكون له نعم العزاء في ليالي الخيبة والإخفاق .

حتى الأساطير حفلت بالأمل ومثّلته عزاء للنفوس وتقول هذه الأساطير: إن الشر كان سجيناً في علبة فلما فتحت هذه العلبة تطايرت منها ذراته وملأت العالم ولكن بقي الأمل في قرارتها ليعزي النفوس الشقيّة ويواسي القلوب الكليمة . ولما شاء العباد أن يرمزوا إلى الأمل رمزوا إليه باللون الأخضر وشخّصوه للعيان بحوراء ذات وجه صبيح تفتر شفتاها عن ابتسامة حلوة ويزين رأسها إكليل من الورد النضير وتحمل في كفها باقة من الريحان ثم جنّحوا هذه الحوراء ليرمزوا بالجناحين إلى طيران الأمل إذا ما افتُقد

ساعة الحاجة إليه غير أن الفن بعد ذلك كان أرحم بالقلوب وأشفق فقد جعل المرساة من لوازم الأمل في صوره وتماثيله للدلالة على استقراره في نفوس الطامحين إليه كما جعل من لوازمه أيضاً كل مايقر العين ويشرح الصدر ويقوي النفس من الزنبق الوضاح وسنابل القمح وخلايا النحل فضلا عن الكوكب اللماح الشاخصة إليه العيون في مدارج السماء .

وكثيراً ما كانت النجوم والكواكب هي الرموز إلى الأمل ومن طريف ما يروى عن أولئك الذين يستعملون حساب الجمّل في معرفة خوافي الحظوظ وإزاحة الحجب عن وجوه المستقبل ومقادير الناس أنهم يرمزون بالرقم ٧ إلى السمو وبالرقم ١٠ إلى المثال الأعلى وبالعدد ١٧ وهو مجموع الرقمين السابقين إلى النجوم ويفسرون النجوم بالأمل الشعشع الوضّاء .

على أن الكاتب الفرنسي « كور دي جبلان » قد عمد في كتابه « العالم البدائي » إلى تصوير النفس والحياة والأمل تصويراً رمزياً جميلا يتحلى بوشاح من الابتكار والطرافة فقد مثّل هذه العناصر بفتاة عارية ساجدة على الأرض وإلى جانبها إناءان أحدهما من الذهب والثاني من الفضة تسكب منهما ماء الحياة وقد بدا فوق رأسها كوكب مضيء تحفّ به سبعة نجوم وقامت إلى يمينها شجيرة على أحد فروعها عصفور يهم بالطيران. ومعنى هذا الرمز أن الفتاة وإناءيها تمثل مباهج الحياة وأن العصفور وجناحيه إشارة إلى النفس الخالدة التي كتب لها البقاء بعد خروجها من الجسد المرموز إليه بالشجيرة وأن الشجاعة التي يحتاج إليها البشر في احتمال أحداث الحياة تأتيهم من علٍ من مدار النجوم .

وكلما تملّى الإنسان هذا الرمز وملأ نفسه من معانيه عرف للأمل نعمته الكبرى في هذه الحياة وجهد أن لا يجعل لليأس إلى قلبه سبيلا فأشد السموات حلوكة وظلاماً لا تخلو إذا حدّق الناظر إليها من نجم يتلألأ وراء الحنادس والغيوم .

والصورة التي حلّينا بها غلاف هذا الجزء من مجلة الكتاب رمز للأمل من صنع الرسّام ج . ف . وطس الرسام الفيلسوف أو الرسام الواعظ كما كانوا يسمونه وله في الصور الرمزية آثار جميلة طار بها له شهرة وصيت ومن مأثور كلامه على طريقته في التصوير أن غايته القصوى لم تكن مقصورة على رسم لوحات تقرّ بها العين بل كان جلّ همّه أن ينفض ريشته عن رسوم وصور تثير في الذهن تفكيراً عميقاً وتحوز إعجاب القلب والخيال وتضيء في النفس أنوار الكرم والنبل . ولو تأمل القارئ صورة الأمل هذه بتدبر وإنعام رويّة لرأى أسلوباً جديداً في الرمز إلى الأمل فكأنّ الرسّام استوحى معانيها من قول الشاعر العربي : « وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر » فلم يرمز إلى الأمل بالريحان

النضير والغصون المورقة والسماء المشرقة والواحة الخضلة بل تابع طريقته في تصوير النفوس المعذبة والقلوب القريحة ليجعل من الأمل دفة النجاة في أثباج خضم الحياة الثائر حتى يصل بهذا الطباق إلى أعماق النفس فيهز جوانبها هزاً عنيفاً فتفيض بالكرم والنبل .
أراد وطس أن يعلي من شأن الأمل فجمع رموزه في فتاة معصوبة العينين جلست فوق كرة أرضية معلقة في الفضاء وقد اعتمدت بين يديها قيثارتها لتعزف في جهد ونصب على الوتر الوحيد الباقي في تلك القيثارة لحناً لعلّ فيه كشف الغمّة وتفريج الكرب ولعله يرقى إلى النجم الضئيل الوحيد الذي لا يكاد يرى في السماء المكفهرة فيكون في ضيائه الرجاء والأمل . لقد كان الرسام وطس على نقيض الشاعر خليل مطران في نظر كل منهما إلى إلى أحداث الحياة فالرسام لم يفقد الأمل وإن بقي في معزفه وتر واحد والشاعر فقد الأمل وودّ لو يحطم عوده لأنه لم يترك الزمن فيه غير وتر الأنين فاسمعه يقول في رثاء ميّ :

أيها الشاعر الذي كان حيناً يتغنّى وكان ينحب حينـا
حطّم العود إن كرّ الليالي لم يغادر في العود إلا الأنينا

* * *

أيها الأمل ما أقوى يديك وأرحم جناحيك وأثقب ناظريك ...
أيها الأمل ما أحلى نجاءك وأطرب غناءك وأشجى دعاءك ...
أيها الأمل ما أعجب أمرك وأنفذ سحرك وأعذب خمرك ...
أنت السلوة والعزاء والبرء والشفاء والنور والضياء ...
أنت ريحان العمر وجُنّة الصبر والسلاح على عدوان الدهر ...
أنت خبز الشقيّ ونعمة الحريب وجناح القلب المهيض ...
أنت الربيع الدائم والفجر الباسم والشراع الحالم ...
يستسلم إليك اليفع ويعتمد عليك الرجل ويتطلع إلى سمائك الشيخ الفاني ...
يشقى الإنسان فتسعده وييأس فتنعشه ويجهد فتضفر له أكاليل الفلاح ...
كلما شابت الدنيا بعثتها شابة فتية وكلما زادت بشاعة سوّيتها حسناء وضيّة ...
خلقت مع الحياة وسايرت موكب الحياة وستبقى ما بقيت الحياة ...

وصف سرك الكتّاب وصوّر سحرك الرسامون وتغنى بوحيك الشعراء فما زادوك وصفاً وتعريفاً ولا جلوا عن كنهك الخوافي والأسرار وأنّى لهم أن يتمثلوك وأنت الروح اللطيفة تسكن حنايا الضلوع وتسبح في مسارب الهواء . نظر الشاعر العربيّ إليك فوجد العيش ضيقاً لولا شعابك الفساح والتفت الشاعر الفرنسي إليك فرأى الحياة

في فقدانك خزياً والموت بعدك ضربة لازب . فما لحيٍّ على وجه الأرض عنك غناء إلا أن يكون من سكان الجحيم فيقرأ على بابه ما كتبه دنتي : « أيها الهابط إلى دركات الجحيم نحِّ عنك خلجات الأمل » .

ولكن آمال الأحياء تختلف درجات فمنها الصحيح والزائف ومنها المرجو والمحال ومنها الملألئ تلألؤ الفجر والمتواري مع شمس المغيب :

وما صبابة مشتـــاق على أمل من اللقاء كمـــشتاق بلا أمل

وأجدى الآمال عائدة ما نزع عنه وشائج الوهم والخيال وبني على أسس الإيمان واليقين ورقبت منه النفس الخير المنتظر فكما أن اليقين يفضي إلى الأمل كذلك الأمل يتحدر من اليقين ويهيء النفس للوصول إلى أهدافها القصية فكلما بلغت هدفاً تجاوزته إلى سواه لأن الحركة المستمرة فيها كما يقول « ملبرنش » لا تقف بها عند غاية بعيدة إلا لتسيرها إلى غاية أبعد . فالأمل المبني على اليقين هو الذي يدير تلك الحركة ويدفع بالنفس إلى الكمال الأعلى غاية غاية حتى تشعر دائماً بالنقص وتفزع بآمالها إلى خالق الآمال فلا يأخذها الزهو والخيلاء فتطغى وتتكبر . لما غمر الناسُ العالم بستور بالمديح والثناء وأطنب بعضهم في وصف علمه ومأثرته والتنويه بجلال كشفه عن تلك العوالم الصغرى قال :«أولى بكم أن تتحدثوا عن جهلي فكل خطوة أخطوها في هذا العالم المجهول تزيدني اقتناعا بما أنا عليه من جهل فإني لا أكاد أعرف شيئاً أمام هذه الأسرار التي تكتنفني من كل جانب». ثم إن أوفر الآمال نبالة هي ما اختلجت في قلب الفرد لمصلحة المجموع فمهمة الإنسان في كل مكان وزمن هي ترقية أخيه الإنسان وقد يعتور هذه المهمة مصاعب ومشاق تغير طبيعتها ولا تغيّر جوهرها ويستعين عليها الإنسان بالأمل في عاقبة الجهاد ويا ويل رجل ليست له في الحياة مطامح وآمال .

ومصاعب الحياة ما هي إلا البوتقة التي تصهر فيها العزائم والقرائح فينفَى عنها الخبث والزغل وتنجلي خالصة صافية حرة المعدن غالية الثمن يشري بها الإنسان خير الجماعة ورقيها وهناءتها ويستقل في سبيل ذلك الخير نزوات الألم ونكآت الجراح لأن البشرية في وادي الدموع لن تمشي إلى غايات السمو والرفعة إلا على بساط من الأشواك والسهام يضمد القروح فيه بلسم الأمل والرجاء ويسبل الستر فيه على الأحداث ازدهار الخواتيم والنتائج وتلك سنّة الحياة يذبل الزهر ويذوي ثم يشرق ويسطع طيباً وينشر الليل أذياله على الآفاق ثم تنبثق عنه بسمة الصباح فالسعيد من ملأ بالأمل قلبه وانتظر إشراق الزهر وانبلاج السَّحر .

من الناس من يعيش في ظلمات التشاؤم وقيود اليأس فيتجاهل مباهج الدنيا ويرى رجحان كفّة الشر على كفة الخير في ميزان الحياة على حد قول القائل :

الخير لا يأتيـــك متصلا   والشر يسبق سيله المطر

ومنهم من يغرق في التفاؤل فيتجاهل الشر والألم ولا يريد أن يحس لهما وجوداً كما لا يرغب أن يرى في الحياة إلا متعة يصل فيها ليله بنهاره اقتداء بمن قال :

لا تنم واغتنم مـــلذة عيش   إن تحت التراب نوماً طويلا

وفي كلا الإفراط والتفريط تعامٍ عن حقائق الحياة فصواب الرأي أن نعترف بوجود الشر اعترافنا بوجود الخير وأن نتغلب على قوة الشر بسلاح الخير غير وانين عن تضحية ولا محجمين عن بذل وعطاء في سبيل ازدهار الإنسانية مؤثرين رأي « رنان » بتجاوز الأهداف الخاصة إلى الهدف الاجتماعي الهدف الإنساني الهدف العام .

وهذا الهدف العام هو ما أنشئت هذه المجلة من أجله لتكون لألسنة الحق منبراً صادقاً وللدعوة إلى الحق لواءً خفاقاً ولأشعة الفكر منارة عالية ولعرائس الفن والجمال مرسماً ومجالا . سلخت من عمرها عاماً كاملا راضية مزهوة بأن حملت فيه إلى أطراف العالم العربي رسالة حملة الأقلام فيّاضة بالخير والحق والجمال وهاهي ذي تبتدئ عامها الثاني بهذا الجزء الممتاز وقد رمزت فيه إلى ما يخالج الأمة العربية من آمالٍ تعتمد في تحقيقها على حماسة الشباب وحكمة الشيوخ وإلى ما يخالج كتابها وشعراءها من آمال المضيّ في الجهاد لنشر العلم والأدب والفن .

إن إيمان الأمة العربية بجلال شأنها وعزة ماضيها وسمو روحها بعث فيها الأمل إلى الضرب في مناكب الخلود فسارت فيها قُدُماً وجازت المسالك والشعاب مرحلة مرحلة في ضوء نهضة مباركة نورانية الأفق روحانية الشعاع .

لقد عدت الأحداث على الشرق العربي فعصبت عينيه ورمته حائراً قلقاً بين رياح الطمع في هذه الكرة الأرضية ثم غيبت نجوم الحرية من سمائه إلا نجماً ضئيلا وقطعت أوتار قيثارته غير وتر واحد ولكنه الأمل المختلج في صدور أبنائه هو الذي نزع العصابة عن عينيه وأطلع كواكب السعد في سمائه وركب أوتار الحرية في معزفه فأبصر وغنى وعزف أناشيد الرقي والكرامة فتلفّت الدهر وابتسمت نجوم السماء .

أيها الشرق : لتهنئك نهضتك ولتسعدك من أبنائك النفوس الكبيرة والهمم العالية

فلا هجمتَ بهـا إلا على ظفرٍ   ولا وصلتَ بها إلا إلى أمل

عادل الغضبان

المدنية الحديثة والحياة الدينية

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق

حضرة صاحب الفضيلة الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الجامع الأزهر، إمام المسلمين وقبلة أنظارهم في مختلف أقطار الشرق ، يهيمن اليوم على شؤون الأزهر ويقوده إلى النجاح والفلاح ، بما أثر عنه من فضيلة وتقوى ، وعلم وحكمة ، ونبل وكياسة . ولقد كان لتوليه مشيخة الأزهر صدى حبيب إلى جميع النفوس . وهو إلى هذا محدث لبق ، وكاتب ناضج ، تلمس في حديثه وفي كتابته أسمى خلجات النفس وأبين مجالي العقل والفكر . سأله مندوبنا السؤال الآتي :

« هل ارتقاء العلوم الحديثة وتقدم المدنية القائمة عليها ، هل هذا كله من شأنه أن يبعد الناس عن المعاني الروحية وعن الحياة الدينية » ؟

فأجاب فضيلته بهذه الكلمات المشرقة النافذة الحاسمة :

لا أعتقد أن ارتقاء العلوم الحديثة وتقدم المدنية يبعد الناس عن الحياة الدينية والمعاني الروحية ، فإن الله أراد للناس أن يكملوا في أمر دنياهم ، وليس الكمال في أمر الدنيا إلا بأن ترتقي حضارتهم وتكمل مدنيتهم ، وأراد لهم أيضاً الكمال في الدين ، بأن تكون عقائدهم صحيحة وأعمالهم صالحة . فإذا كان الله أراد للناس هذين الأمرين معاً فلا يمكن أن يكون بينهما تعارض .

وقد تأتي ظروف ينصرف فيها الناس إلى التماس كمالهم الدنيوي حتى يغفلوا عن النظر إلى الجانب الديني ؛ وتأتي ظروف أيضاً ينصرف فيها الناس إلى العناية بالجانب الديني وينسون جانب الكمال الدنيوي ، فيظن الظانون أن بين المنهجين تناقضاً وأنهما كالليل والنهار .

والليل إن طال غال الصبح بالقصر

كلتا الحالتين ، التوجه إلى أحد الكمالين دون الآخر ، نقص فيما ينبغي أن يكون عليه أمر الإنسان في التماس الكمال .

والذي نسعى إليه ونعمل له ونؤمله ، هو أن يقبل الناس على الكمال الديني والكمال الدنيوي معاً ، بأن يعودوا إلى توازن في النظر إلى الحياتين ، لا يطغى فيه جانب على جانب . ويومئذ لا يستطيع أحد أن يظن أن أحد الكمالين يعارض الكمال الآخر .

والواقع أن المتمرسين بالمعارف الدنيوية قد أصابوا من قوة العقل وسعة العلم وصقل الإحساس ما يجعلهم أدنى إلى إدراك المعاني الدينية حين يتوجهون إلى إدراكها .

وطائفة العلماء الذين تعمقوا في علوم الدنيا وعرفوا أسرارها هم أقرب إلى تقدير الحياة الدينية حق قدرها ومعرفة أسرارها .

وكذلك الذين تعمقوا في أمور الدين وأدركوا حقائقها وذاقوا أسرارها ، يكونون أقرب إلى حسن تقدير العلوم الدنيوية والإقبال على الاشتغال بها والنفاذ إلى أعماقها والانتفاع بنتائجها في عمارة الكون التي حث الله عليها .



حديقة الأفكار

الوجودية أو الوجدانية

للأستاذ عباس محمود العقاد

ما هي الوجودية ؟ هي كلمة منسوبة إلى الوجود .

ولكن لا يفهم منها بالبداهة أن المراد بها هو مطلق الوجود ، لأن الحجر موجود والشجرة موجودة والحيوان موجود ، وقد تكون كلها موجودة بالنسبة إلى غيرها ، لأن غيرها هو الذي يحس وجودها ويعرف لها صفة الموجودات .

والإنسان على كونه مخلوقاً حيًّا عاقلا قد يكون موجوداً أيضاً بالنسبة إلى غيره لا بالنسبة إلى نفسه ، ويكون حكمه في وجوده كحكم الحجر والشجرة والحيوان أو قريباً منها في مجمل التقدير .

فهل نفهم من الوجودية إذن أنها منسوبة إلى الحياة ؟ . . . كلا ، ولا هذا هو المقصود بالمعنى الفلسفي لهذه الكلمة، لأن الإنسان يكون في الحياة من مولده إلى مماته ، ولا يخرج منها في خلال ذلك ولو ذهب في النوم أو غاب عن وعيه .

فالوجودية لا تعني مطلق الوجود ولا مطلق الحياة ، ولكنها تعني أن يهتدي الإنسان إلى وجوده بنفسه ، وأن يكون موجوداً بالنسبة إلى نفسه ، وأن يسبر غور وجدانه و يستجمع نقائضه في وحدة شاملة تمضي إلى اتجاه متناسق لا تنازع فيه ، وأن يكون بهذه المثابة شيئاً لا يتكرر ولا يتعدد ، لأن الناس — من حيث هم موجودات — خلائق متشابهة ، يجوز فيها التعدد والتكرار . ولكن الإنسان الذي اجتمع بنفسه وسبر غورها وعمل في الحياة بكل قوة من قواها شيء واحد لا تعدد له ولا تكرار لكيانه ، وهو في امتناع تكراره أحرى من الكف في امتناع تكرارها بين إنسانين اثنين بالغاً ما بلغ التقارب بينهما في النسب أو في الملامح والقسمات . و إذا امتنع أن

تتشابه كفان فتشابه الوجودين النفسانيين أحرى وأقمن بالامتناع .

وتسأل : كيف نهتدي إلى هذا الوجود الذي نعرف به أنفسنا كما نعرف به مدى العلاقة بين وجودنا وهذا الوجود العظيم المحيط بكل كائن من هذه الكائنات ؟

أترانا نهتدي إليه بالتحليل النفساني والمراقبة الباطنية ؟

كلا ، لأن التحليل النفساني يفترض انقساماً في النفس بين القوة التي تحلل والقوة التي تخضع للتحليل، أو يفترض نوعاً من القرابة بين المستطلع وما يراد استطلاعه ، وإنما يتحقق الوجود بكل جوانب الوجود ، ويتحقق بأن يعمل الإنسان « موجوداً متناسقاً » ولا يتحقق بأن يعرف ويقنع بمجرد العرفان .

كذلك لانستهدي إلى الوجودية أو الوجدانية بهدي الأخلاق المقررة وأصول الآداب المتواضع عليها ، لأن الأخلاق والآداب تسيطر على الجماعات وتنشأ قبل نشوء الأفراد ، ولا تنبعث من أعماق الفرد في دخيلة وجوده التي ينطوي عليها دون غيره .

وإنما نهتدي إلى وجودنا بثورة في أعماق هذا الوجود : نهتدي إليه بصدمة في عاطفة قوية ، أو بيقظة من يقظات الضمير ، أو بضربة من ضربات التجارب تفصلنا من المجتمع الذي نعيش فيه أو تتناول مكاننا منه بالتحويل والتبديل .

نهتدي إليه بمحنة تردنا إلى أغوار حياتنا وتطيل بحثنا في سراديبها وزواياها ، وتضع أيدينا على ميزان شعورنا وتفكيرنا وخيالنا ، فنعرف كم « نزن » في كل هذا وماذا نستطيع وماذا لانستطيع ، وماذا نقف عنده فلا نحاول الاستطاعة فيه .

ومتى أدركنا هذه الآونة وجب علينا أن « نعقد اختيارنا » ولا نتردد في مفترق الطريق بين نهجين حائرين إلى غير التقاء .

***

مؤسس هذا المذهب هو الدنمركي سورين كركجرد Soren Kierkegaard الذي ولد في سنة ١٨١٣ وتوفي في الثالثة والأربعين .

وحياته تفسر مذهبه أتم تفسير .

لأنه صدم الصدمة التي تضطر الإنسان إلى « الاختيار » وهو في مقتبل الشباب : أحب الفتاة ريجينا ألسن ، وبادلته الحب في بادئ الأمر ، ولكنها تركته واقترنت بغيره ، وتبين له وهو في الثامنة والعشرين أنه لم يخلق للصلة الجنسية المثمرة ، فقرر المتجه الذي يتجه إليه عند مفترق الطريق .

وهذا الاختيار هو ماعناه في كتابه الباكر الذي سماه « إما . أو » وفحواه :



إما أن تجد نفسك أو تفقدها كل الفقدان » .

وقد أدار الكتاب على الحوار بين إنسان فنان وإنسان يدين بالأخلاق ، وكان كركجرد نفسه مزيجاً من الإنسانين ، لأنه كان مطبوعاً على التدين ، مطبوعاً على تذوق الفن والجمال . وقد جعل الفنان في كتابه مثلا للحيرة المضللة ، وجعل المتدين مثلا للطمأنينة الوادعة ، وهي — من العجيب — طمأنينة الأسرة والزواج !

واختار كركجرد وجوده ، فاختار أن يعيش على سنة السيد المسيح في هذه الدنيا التي لا تجتمع فيها القداسة والوجاهة ، واتخذ شعاره أن لايخدم سيدين ، فإن السيد المسيح قد خلص من تبعات الأسرة والوطن والعرف الشائع ، فاستطاع أن يخدم سيداً واحداً لا يدين بسواه .

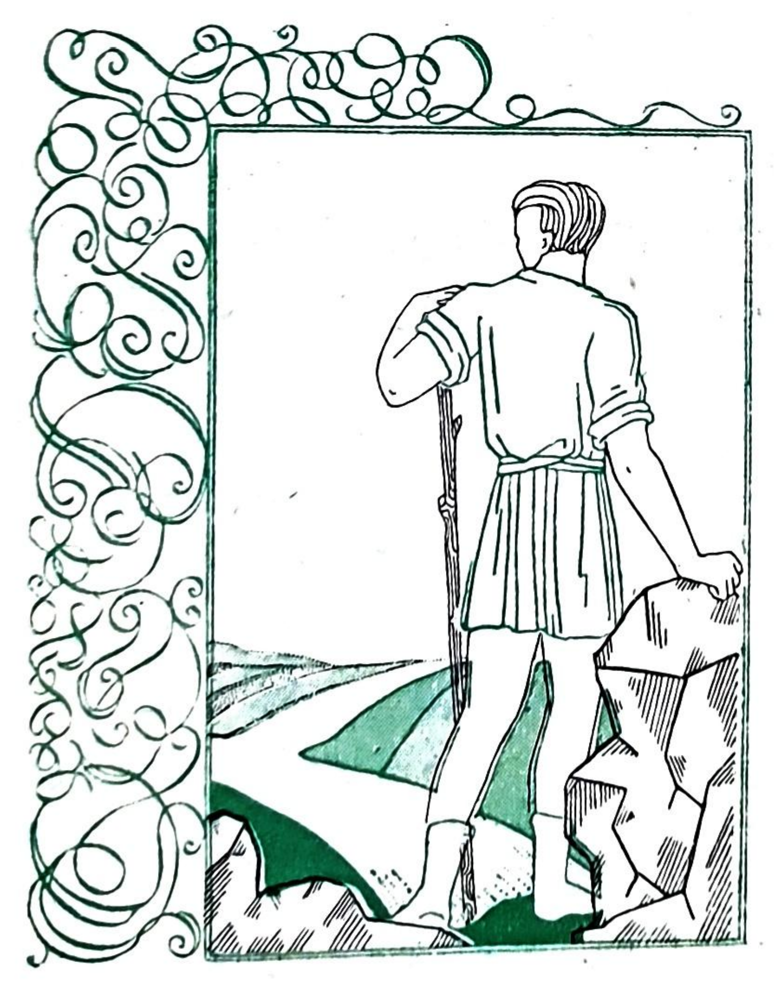
وكانت أطوار الفيلسوف غريبة وأسلوبه في الكتابة أغرب ، فقد يصدر له كتابان في وقت واحد أحدهما بتوقيع صريح والآخر بتوقيع مستعار ، وقد يؤلف كتاباً كله مقدمات وليس فيه غير المقدمات موضوع ، وقد يستخدم عبارة الوعاظ تارة ويستخدم عبارة الملغزين المتصوفين تارة أخرى ، ويبدو في جميع ذلك صادقاً لطبيعة واحدة : وهي طبيعة الإيمان .

وكان مذهب « هيجل » الفيلسوف الألماني الكبير هو البدعة الفلسفية الشائعة في شباب كركجرد ، وخلاصة هذا المذهب أن الكون كله هو مرآة « الكائن الأبدي المطلق » . . . وأن هذا الكائن الأبدي المطلق تجلى في الموجودات جميعاً و بلغ أقصى

مراتب التجلي وعرفان الذات في الإنسان . . . فالإنسان إذن هو صورة العقل الإلهي في أرفع مظاهر الوجود .

ولم يتعرض مذهب هيجل هذا لحملة قط أعنف من حملات كركجرد عليه ، لأنه يرتفع بالصورة الإلهية عن هذه الصورة الإنسانية ، ويؤمن بأن الوجود الإنساني على عكس ذلك هو الذي يتسامى إلى عرش الله ، فلا يسمو إلى مرتبة أعلى وأشرف من أن يحب الله ويشعر بحب الله إياه ، وكل إنسان محبوب من الله في اعتقاد كركجرد ، ولـكن الفرق بين إنسان وإنسان هو الفرق بين من يشعر بهذا الحب الإلهي ومن لايشعر به ، لأنه مستغرق في ألوان أخرى من الحب أو من العلاقة : كعلاقة الطمع أو كعلاقة الهوى أو علاقات الأزواج والأبناء .

وغني عن القول أن كركجرد يتدين على سنة في الدين غير سنة العرف المتفق عليه بين سواد الناس ، لأنه يؤمن بأن حق الفرد في اختيار عقيدته أعظم من حق الـكنيسة وحق الجماعة ، ويؤمن كما قدمنا بأن وجود الفرد وحدة غير قابلة للتكرار ، وكل مايستطيعه المؤمن للمؤمن أن يريه بالمثل المحسوس أن باب الاختيار مفتوح ، وأنه إما أن يختار وجوده بإلهام ضميره أو يضيع .



والذي نراه أن مكان كركجرد بين كبار المتعبدين وذوي الشاعرية أصح وأوفق من مكانه بين كبار الفلاسفة ، لأنه كان حساساً ثاقب الذكاء عميق الوجدان ، ولم يكن من أصحاب العارضة القومية والفكر الواسع المحيط بآفاق القضايا العظمى .

فلا جرم كان يفصل بين العقيدة والمعرفة ، ويباعد بين عالم الفكر وعالم الحقيقة ، ويعتبر التعمق في الوجود

ممكناً بغير التعمق في الوعي المفكر والمنطق السديد .

٭٭٭

على أن الوجودية قد بدأت بكركجرد ولكنها لم تنته بالخاتمة التي وقف عندها واستقر عليها في حياته القصيرة .

فإن هذا المذهب قد سرى في البلاد الألمانية وتجدد نشاطه في أعقاب الحرب الأولى على أثر الهزيمة التي مني بها الألمان وجنحت ببعضهم إلى العقائد المادية وببعضهم إلى التنفيس عن ضمائرهم بنزعة من النزعات الروحية أو الوجدانية . واشتهر من فلاسفة المذهب أعلام نابهون مثل كرل جسبرز Karl Jaspers وإدمند هسيرل Husserl ومارتن هيدجار Heidegger ودلثي Dilthey وزمل Zimmel وقد مات منذ سنوات .

واتسعت أطراف المذهب حتى وجد فيه من يؤمن إيمان كركجرد ومن ينكر وجود الله ولا يرى في الكون ظاهرة إلهية على الإطلاق ، ولكنهم كانوا على التقاء في بعض المسائل المتشابهة ، لاتخفى الصلة بينها وبين الوجودية في جوهرها الصميم .

فجميع الفلاسفة الوجوديين قليلو التعويل على « معنى عقلي » يفسرون به الحياة، متبرمون بالمقررات المنطقية والعلمية وسائر المقررات التي ترجع بالأمر إلي سلطات أونظام .

وجميعهم معتصمون بتجارب النفس ودوافع السريرة التي تستقل بها الشخصية الإنسانية في جهادها الباطني ، ونزوعها الدائم نحو التوفيق بينها وبين مشكلات الوجود الكبرى .

ومعظمهم يوصي بتماسك الأخلاق ومقابلة الحيرة النظرية بالعمل الخلقي وتجريد النفس في جملتها لكفاح الحياة .

ولم تنقض على الحرب العالمية الأولى أربع سنوات حتى ظهر المذهب في فرنسا واشتغلت به الطبقة التي بلغت من الثقافة ومن الذوق الفني أن تبحث لها عن فلسفة للوجود تملأ بها فراغ الضمائر من العقائد الروحانية في عصرنا الحديث .

لكن الوجودية لم تزل في فرنسا بدعة مقصورة على فئة قليلة من طلاب الغرائب إلى أن كانت الحرب العالمية الثانية ومنيت فيها فرنسا بتلك الهزيمة النكراء فثارت على المادية الشيوعية وعلى الروحانية التقليدية في وقت واحد ، واندفعت فيها بين الطبقة الوسطى دفعة جامحة إلى الإيمان والحرية الديمقراطية ، ولكنه الإيمان الذي لايدين بالسلطان لرياسة مقررة أو هيئة من الهيئات .

وأعلام هذه المدرسة في فرنسا هم : جان بول سرتر Sartre وألبرت كاموس Albert Camus ومدام سيمون دي بوفوار Simone de Beauvoir ويتبعهم طائفة غير قليلة من الكتاب الصحفيين .

فالوجودية التي تتمثل في كتابة سرتر هي وجودية الفخر بالألم والشدة ، واعتماد النفس على النفس في اختيار الطريق المرتسم لها في أعماق سريرتها ، على وفاق كيانها الشخصي ، ولو كان اختيارها مناقضاً لاختيار المقادير .

والوجودية التي تتمثل في كتابة كاموس هي وجودية الاطمئنان إلى عبث الحياة . وعنده أن الإنسان في هذه الدنيا شبيه ببطل الأسطورة الإغريقية سيسفوس . . . وهو رجل عصى مشيئة الأرباب والتمس منهم بعد الموت أن يعود إلى الدنيا ليؤدب زوجته على خيانتها ، فسمحوا له بالعودة إلى أجل محدود ، وجاوز هو الأجل المحدود غير مكترث بنذير القضاء ، فحكموا عليه بأن يتردى إلى الجحيم مسخراً في عمل لا طائل تحته وليس له انتهاء ، وذاك أن يستجمع جهده ليرفع صخرة عظيمة من أسفل الجبل إلى قمته العليا ، ثم تنحدر الصخرة فيعود إلى رفعها مرة بعد مرة إلى غير نهاية معلومة ولغير قصد معروف .



وكل إنسان في رأي كاموس هو سيسفوس مسخر في مثل هذا الجهد الضائع والعبث العقيم ، ولكنه يبحث عن معنى هذا الكفاح فيشقى ، ويطمئن إلى خلوه من كل معنى ، فيخرج منه ببطولة الجلد والثبات ، ويستريح من قلق الانتظار ، ومتى قدر

على الإنسان أن يحرم الجهاد في قضية رابحة معلومة الأسباب فأشرف الجهاد بعد ذلك جهاده في قضية خاسرة مجهولة الأسباب .

ومدام بوفوار تضرب على نغمة كهذه النغمة ، وتزيد عليها بشيء من الغلواء والتكلف واتخاذ الأوضاع أو « البوزات » كما يسمونها في لغة التمثيل .

٭٭٭

هذه الوجودية في فرنسا — بعد الحرب العالمية — ظاهرة تقبل التعليل القريب .

ففيها النزعة الوجدانية ، وفيها الإيمان بالحرية الفردية ، أو باختيار الإنسان لنفسه في عالم الضمير ، وفيها التمرد على سلطان الكهانة وسلطان الرياسة المقررة على الإجمال ، وليس بعجب أن تروج بين الفرنسيين — بعد الحرب العالمية — عقيدة تجمع هذه النزعات في نسق واحد ، لأنها النتيجة الطبيعية لطغيان الحركات الجماعية أو الزحامية ، ويقظة الإيمان الفردي مع ثورة الفرد والأمة على رجال الدين .

ويمكن أن يقال إن فلسفة « هيجل » قد تمخضت عن أخوين شقيقين يجمعان نقائض الأسرة كلها في طرفين متقابلين ، كما يشاهد في كثير من الأشقاء بين أسر الآباء والأبناء .

فأحد الشقيقين هو المادية الجماعية ، أو هو المادية الثنائية Dialectical Materialism كما شرحتها الشيوعية المركسية .

والشقيق الآخر هو الوجودية أو الوجدانية ، كما تسلسلت من مذهب كركجرد ، وهذه الوجودية هي معسكر الوجدان والحرية الفردية يتأهب لاتخاذ مكانه في الميدان أمام معسكر المادة والجماعة العمياء .

ولا بد للمعركة من قرار .

عباس محمود العقاد

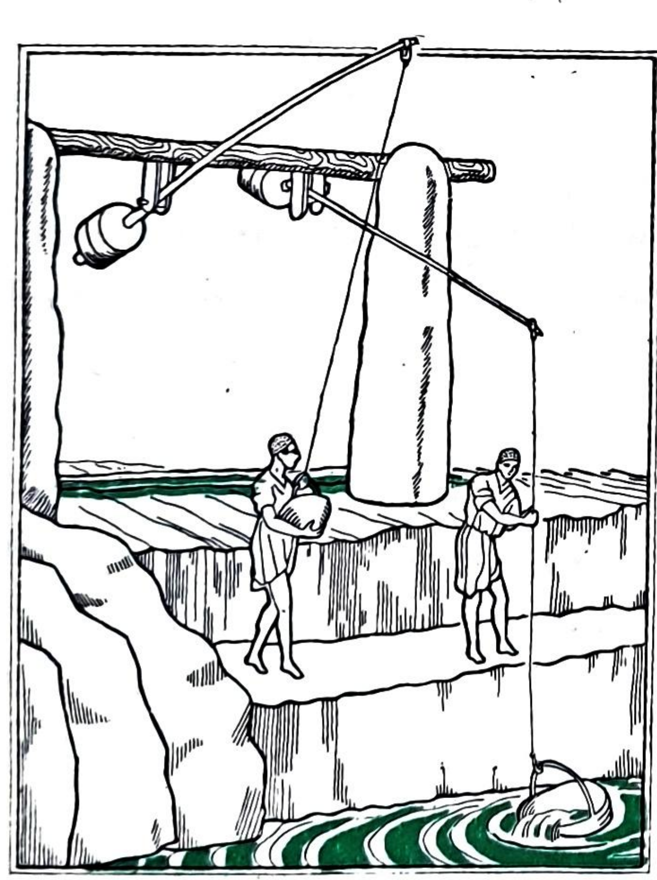


بين ضجيج الآلة وأنات النواعير

لسعادة الأستاذ محمود توفيق الحفناوي باشا

قرأت منذ عدة سنوات قصة للكاتب الإنجليزي الشهير ولز Well اسمها آلة الزمن The Time Machine ذهب فيها خياله إلى استحداث آلة بها أزرار يختص كل منها بعصر من عصور التاريخ المختلفة ، بما يشبه طريقة استعراض الأخبار من محطات الإذاعة في مختلف أنحاء العالم بواسطة جهاز المذياع . فإذا ضغط على زر معين من أزرار هذه الآلة أمكن استعراض صور الحياة في العصر الذي يتمثل في هذا الزر . فهذا زر خاص بالعصر السابق على ميلاد المسيح ، وآخر خاص بعصر القرون الوسطى، وثالث بعصر النهضة ، وهكذا حتى عصرنا الحاضر ، عصر القنابل الذرية والطائرات الصاروخية وأجهزة تكييف الهواء وغير ذلك من المستحدثات المتلاحقة .

وهكذا جعل ولز من اختراعه الخيالي سجلا آلياً لتاريخ الجنس البشري وتطوراته منذ وجدت الحياة على الأرض ، قوامه المحسوسات ومادته المرئيات . ولو أنه قدر لولز زيارة القطر المصري قبل إخراج مؤلفه هذا لما احتاج لإجهاد خياله إلى هذا الحد ، لأنه كان يجد من بعض صور الحياة القائمة في الوقت الحاضر ما يغنيه عن التفكير في استحداث وسيلته الآلية لاسترجاع هذه الصور الخاصة بما كانت عليه الحياة في العصور الغابرة ؛ فإذا أردنا أن نرى صورة مصر في



العصور الوسطى فما علينا إلا أن نتجول في بعض الأحياء الأهلية بمدينة القاهرة ، فسنجد أزقة ضيقة متعرجة ملأى بالأتربة والقاذورات ، وعلى جانبيها مساكن ضيقة قديمة أو متهدمة خالية من الوسائل الصحية ، ليس بها دورات مياه صحية ولا مواسير لمياه الشرب ، مما يضطر نساء الحي للخروج جماعات وهن حاملات فوق رؤوسهن جراراً يملأنهما بمياه الشرب من حنفيات عامة تبعد عن منازلهن مئات الأمتار ، كما كان يفعل أسلافهن منذ مئات السنين . ونرى في بعض الأسواق مختلف السلع محمولة على الحمير والبغال والجمال ، وهي سائرة في شكل قافلة من القوافل التجارية التي كانت من مميزات العصور الوسطى ، والتي كانت تستغرق رحلاتها بضعة أشهر ، بينما نحن الآن في عصر تنقل فيه الطائرات البريد وبعض السلع من أمريكا إلى بلاد الشرق في زمن لا يتجاوز يومين أو ثلاثة .

وإذا أردنا أن نرى صورة لمصر منذ خمسين قرناً ، فرحلة إلى مديرية قنا تتيح لنا رؤية هذه الصور ، حيث نجد مئات الآلاف من الأفدنة بأراضي الحياض ما زالت إلى الآن تزرع مرة واحدة في العام ، حيث تنتج طائفة من الحاصلات الشتوية التي تزرع بعد أن تنحسر مياه الفيضان عن الأراضي ، ثم تبقى بعد ذلك خالية من المزروعات طوال العام ، عدا بعض مساحات قليلة تروى بالسواقي والشواديف والآبار الأرتوازية ، ويتبع الفلاح في زراعة هذه الحاصلات نفس الطرق التي كان يتبعها أجداده زمن الفراعنة ، ويستخدم نفس الآلات التي كانت تستعمل قبل بناء الأهرام . فهذه المساحات الواسعة من أراضي الحياض تغمرها مياه النيل وقت الفيضان ، كما كانت تغمرها منذ أقدم عصور التاريخ ، حتى إذا انحسرت المياه عن الأرض بادر الفلاح إلى بذر قمحه وشعيره وفوله وعدسه ، مستخدماً الفأس والمحراث اللذين اهتدى إليهما أسلافه قبل عصر الفراعنة ، حتى إذا نضج المحصول حصده بنفس المنجل الذي استنبطه أجداده في ذلك العصر تقليداً لفك الحيوان ، ثم يدرس المحصول بواسطة النورج الذي عرفه المصريون منذ العصر البطلمي ويتمثل فيه بطء الماضي السحيق وعدم اعتداده بمرور الزمن ، ثم يستعين على تنظيف الحبوب بواسطة المذراة التي استعملها الفلاح المصري منذ العصر الفرعوني ، ويستغرق إعداد المحصول بهذه الوسائل البالية والآلات البدائية بضعة أشهر ، يظل فيها عرضة لسطو الطيور واللصوص ، وما يتبقى منه يتعرض للاحتراق بالنيران التي تلتهمه فلا تبقي منه إلا رماداً تذروه الرياح .

وما زال فلاح أراضي الحياض يستعين على ري أرضه بالشادوف ، تلك الآلة التي

عرفها المصريون منذ عصر الفراعنة ، وهي رغم ما يستلزمه استعمالها من جهود شاقة مضنية لا تعطي الفلاح من المياه طوال يومه إلا حفنات من الماء لا تكفي مع عرقه المتصبب لري أكثر من بضعة قراريط من الأرض ، وفي كثير من الحالات التي يرتفع فيها مستوى الأرض كثيراً عن منسوب مياه الري لا يكفي شادوف واحد لأداء هذه العملية ، بل لا بد من شادوفين أو ثلاثة متدرجة في ارتفاعها عن منسوب الماء ، بحيث يناول الشادوف الأدنى الماء للشادوف الذي فوقه ، وهكذا مما يستلزم جهود بضعة رجال أشداء ، وتبلغ نفقات الرية الواحدة للفدان بهذه الوسيلة نحواً من مائة وخمسين قرشاً . والساقية آلة أخرى للري تديرها الماشية ، ولا يزيد محصولها من الماء كثيراً عن محصول الشادوف . ومما يزيد في غرابة هذه الحالة التي تكاد تعم مديرية قنا ، أن نهر النيل يمر بالأراضي الزراعية التي تروى بالشادوف والساقية كما يجري تحتها نيل آخر في باطن الأرض أكبر من هذا النيل الظاهر ، ومع ذلك يشقى الفلاح هذا الشقاء ، ويبذل هذه النفقات لري أرضه ، وقد صدق عليه قول الشاعر العربي :

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

ولا شك أنه يمكن إحياء مناطق الحياض بهذه المديرية وتخليص أهلها مما يقاسونه من الفقر وشظف العيش والمرض ، بتحسين وسائل ريها ، وذلك بإقامة آبار أرتوازية ترفع المياه التي في جوف الأرض ، فيستغلها الفلاح في ري أرضه دون كلفة تذكر أو مشقة ، فإذا رويت حاصلاته الشتوية خلال موسم النمو مرة أو مرتين زادت غلتها بنسبة ٥٠٪ في المتوسط ، كما يتمكن من زراعة حاصلات صيفية تزيد موارده ، وبذلك يستبدل ببؤسه وشقائه الحاليين نعيما ورخاء قريبي المنال .

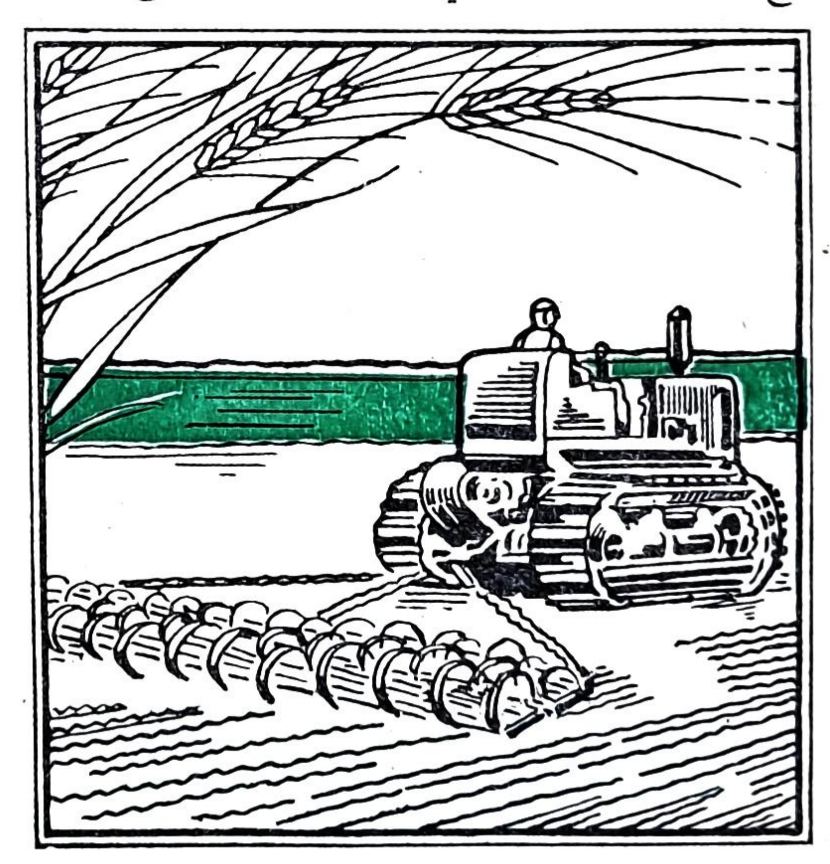
وقد انعكست صورة الفلاح في قنا على ماشيته ، من أبقار وثيران وأغنام ، فهي هزيلة ضعيفة لا تكاد تدر شيئاً من اللبن ، لشدة ما تعانيه من العمل المرهق وسوء التغذية ، مضافين إلى ما تلاقيه من ويلات الظروف الجوية القاسية . وهكذا نجد أن عنصري الثروة الزراعية المصرية في هذا الإقليم في حالة من التأخر والضعف خاعت على الإقليم وسكانه لباس الفقر المدقع ، وما ترتب على ذلك من تعرضهم للأمراض والأوبئة ، وعدم مقدرتهم على مقاومتها بدرجة وضحت تماماً فيما انتاب هذا الجزء من صعيد مصر من أمراض في الثلاث السنوات الأخيرة ، كالملاريا والحمى الراجعة .

ومن الغريب أننا لا نزال نسمع إلى الآن دعايات قوية توجه ضد استعمال الآلات الحديثة في الزراعة ! وقد قام بهذه الدعاية في أول الأمر المستعمرون ، ليحققوا

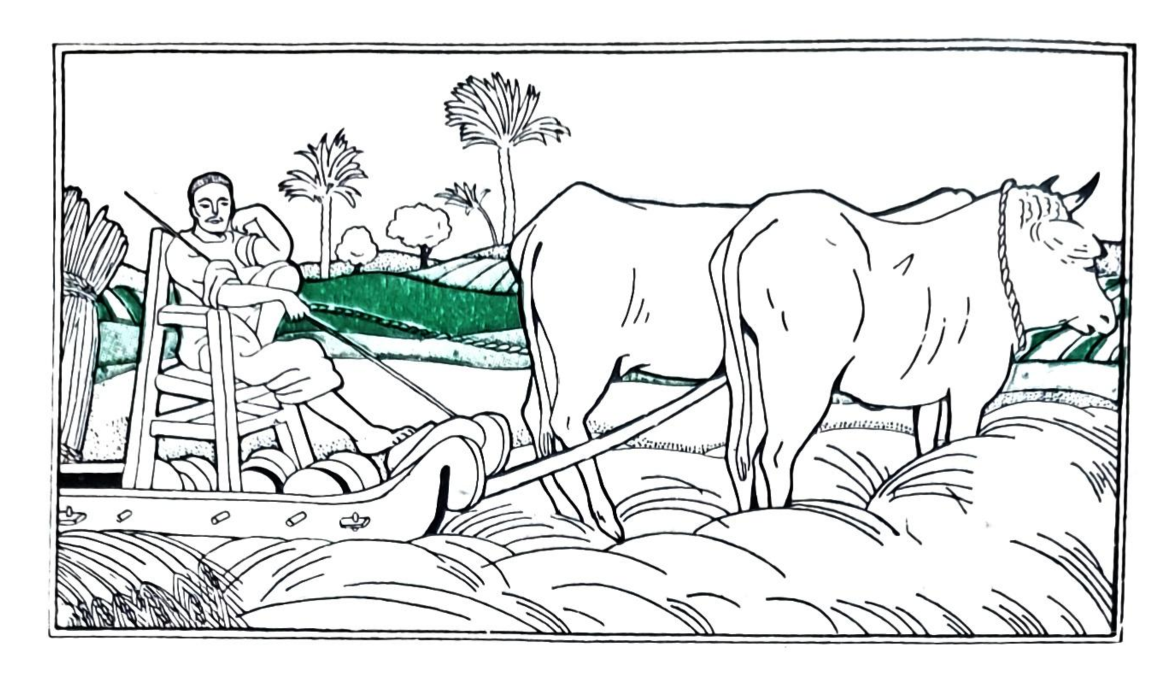
أغراضهم من استبقاء أكبر عدد من الأيدي العاملة في المزارع والزراعة ، فلا تجد الصناعة ما يلزمها من هذه الأيدي، ويبررون دعايتهم هذه بادعاءات ظاهرها الإشفاق على الأهالي من التعطل وآثاره ، إذا أدخلت الآلات الحديثة في الزراعة . كما أنهم كانوا يذيعون في طول البلاد وعرضها أن أمام الصناعة في مصر عقبات لا يمكن التغلب عليها ، يرجع بعضها في زعمهم إلى أن مناخ البلاد لا يلائم الصناعة مطلقاً ، وأن افتقار مصر إلى الفحم اللازم للصناعة وضرورة استيراده من الخارج يجعل تكاليف المنتجات الصناعية باهظة لدرجة غير اقتصادية لا تمكنها من الصمود أو منافسة المنتجات المستوردة .

وقد قضي بطريقة عملية على الزعم القائل بعدم ملاءمة مناخ البلاد للصناعة ، وعلى الزعم بأن افتقارنا إلى الفحم عقبة لا يمكن التغلب عليها ، وذلك بقيام مصانع بنك مصر للغزل والنسيج منذ عدة سنوات ونجاحها في سد جانب كبير من حاجات مصر ، وعلى الأخص خلال سنوات الحرب الأخيرة ، وهذا مع ملاحظة أن صناعات الغزل والنسيج من أكثر الصناعات تأثراً بالمناخ المزعوم .

إن مصر لا تستطيع أن تسير مع قافلة الحضارة إلا إذا عدلت عن استعمال الآلات الزراعية البدائية في الزراعة ، واستبدلت بها آلات حديثة ، فبذلك لا بغيره تكفل رفع مستوى إنتاجها الزراعي ومستوى معيشة الفلاح بالتبعية ، وتقتصد عدداً كبيراً من الأيدي العاملة الآن في الزراعة ، توجهه للصناعات المختلفة ، التي لا بد منها لتحسين أحوال البلاد الاقتصادية ، وعلى الأخص الصناعات الزراعية التي تعتمد في خاماتها على الزراعة لأنها مكفولة النجاح اقتصادياً وعملياً.



والوسيلة الناجحة لإدخال الآلات الحديثة في الزراعة المصرية هي قيام الحكومة بتشجيع



استعمالها وانتشارها في شتى القرى لمصلحة صغار الزراع بواسطة الجمعيات التعاونية . فبذلك تتوفر جهود الإنسان ، وتتحول جهود الحيوان الموجهة في الوقت الحاضر للأعمال الزراعية الشاقة إلى إنتاج اللبن واللحم والصوف وما إلى ذلك من منتجات حيوانية، تزيد في إيراد الفلاح وترفع مستوى معيشته .

ويكفي أن نستدل على ما تستطيع مصر تحقيقه من إصلاح بتعميم استعمال الآلات الزراعية الحديثة بأن الفلاح في كندا وأستراليا يستطيع زراعة نحو مائة فدان ، بينما الفدان الواحد في مصر يستنفد جهود رجلين وما يلزمهما من ماشية .

لقد استطاعت الصناعة أن تقوم في مصر بنجاح في عصر الفراعنة ، كصناعة البيرة من الشعير ، والنبيذ من الكروم ، وصناعة تجفيف الفاكهة ، كالعنب والتين والبلح ، وتجفيف الأسماك وتمليحها ، وازدهرت صناعة الورق من نبات البردي ، كما ازدهرت صناعة غزل الكتان ونسجه ، حتى كان يطلق على الأقمشة الكتانية المصرية لدقة صنعها « نسج الهواء » فإذا كان هذا شأن الصناعة المصرية في تلك العصور السحيقة فكيف بها الآن في عصر التقدم الصناعي وارتقاء الآلات وتقدم المخترعات ؟ !

لاشك أن ميدان الصناعة في مصر فسيح ، وعلى الأخص في الصناعات الزراعية ، فلتقتحم البلاد هذا الميدان بعزم أكيد وتصميم صادق ، ولتهيئ لنجاحها فيه العوامل التي تكفله ، وهي معروفة ميسورة متى صح العزم وتوفرت الإرادة الصادقة .

محمود توفيق الحفناوي

النبي المنتظر

للأستاذ أحمد أمين بك

أتى على الناس زمان كانوا يرون فيه أن المدنية الحاضرة هي الأمل المرتجى والمثل الأعلى ، وأنها ستملأ الدنيا سعادة كما ملئت من قبل شقاء ، ثم خاب الأمل وكذب الرجاء ، فالعلم الواسع لم يسعد ، والمخترعات الكثيرة لم تقلل من الشقاء ، والمدنية الحاضرة إن قيست بمظاهرها أعجبت ، وإن قيست بحقيقتها أيأست ، والمبادئ التي يتحارب عليها من نازية وفاشية وشيوعية وديمقراطية خابت ، لأنها لم تحول العالم عن طريقه المألوفة في الجشع وحب السيادة والانتقام . والحريات الأربع ، وهي التحرر من التعصب الديني ومن الخوف ومن الحاجة إلى الضروريات ومن الضغط على الرأي ، كلها أمور سلبية ، فهبها حدثت للعالم كله فما غاية العالم المنشودة الإيجابية ؟ والوطنية التي أسست عليها التربية ماذا أفادت ؟ حولت الأنانية من أنانية فردية إلى أنانية قومية ، فكل أمة تريد كل خيرات العالم لها لا لغيرها ، وكل السيادة والعظمة لها ، فكان التناحر والتسابق والتحارب . والعالم أمامه مدى فسيح ليربح السلام ويحتفظ به .

واعتز العالم الحديث والمدنية الحديثة بالعلم ، فماذا كان أثره ؟ ما زال بالإنسان حتى جرده من روحه ، فالإنسان في نظره ليس إلا حيواناً ، وغاية الأمر أنه حيوان كبير أو حيوان راق ، وبذلك وحده حدد مركزه في الطبيعة . وليس الفرق بينه وبين الحيوانات الأخرى إلا فرقاً في الكم لا في الكيف ، وهو خاضع للغريزة والبيئة خضوع الحيوان . وما يأتيه مما نسميه خيراً ناشئ من هذين العاملين ، وما يأتيه من شر هو من نتاج غريزته مضافاً إليهما ما يحيط به من نظام سياسي واجتماعي واقتصادي . قالوا ولقد كان الفلاسفة الأولون الروحيون أمثال أفلاطون ، والأنبياء الأولون أمثال موسى وعيسى ومحمد سباحين في الخيال ، والرأي العلمي هو رأي دروين ومركس وفرويد ، وساد الاعتقاد أن الحياة السعيدة هي ملك المادة والحصول على وسائل العيش المادية ، وملك أسباب اللذة ، ووجود النظام السياسي والاجتماعي الذي يكفل تحقيق هذه الأشياء . والاحتفاظ به ، ومقياس تقدم العالم هو مقدار تحقيق هذه الوسائل ، وعلى هذا ينبغي

أن نضع أساس التربية ونطبع عقول الناشئين بهذا الطابع ، فنؤسسه على العلم، وخاصة علم النفس والحياة ، ولكن العلم شرح المادة ولم يشرح غيرها ، وشرح كيف نعيش ولم يشرح لِمَ نعيش وكيف ينبغي أن نعيش ، وهدم الإيمان القديم ولم يحل محله إيماناً جديداً .

ومهما وصل العلم في تقدمه ، ومهما اخترع من آلات حرب وأدوات ترف، ومهما أخصب الأرض وملأها بالمنتجات ، ومهما اخترع من نظم سياسية واقتصادية ، فليس يحل المشكل . إن العالم في حاجة إلى « نبي جديد » هو الإنسانية .

إن هذا النبي الجديد يتطلب أن نتصور المدنية والحضارة تصوراً جديداً .

لقد اعتمدنا أن نتصور المدنية تقدماً في الآلات والمخترعات والصناعات ووسائل المعيشة وتنظيم الآلة الحكومية ، واعتدنا أن نتصورها — في التعليم والتربية — تهذيب العقل ودراسة اللغات القديمة والحديثة ، ومعرفة قوانين العالم والمنطق والفلسفة والرياضيات والطبيعيات ، ودراسة علم النفس واستخدامه في التربية . وفي الفن تصوير الجمال وتقويمه ، إلخ . . .

ولكن كل هذا لا يغني في نظر النبي الجديد شيئاً ، وليست المدنية في نظره ثروة وغنى وسيادة وقوة مادية ، ولا عقلا وعلماً وأدباً وفناً ، وإنما هي أن تنفذ معاني الإنسانية إلى كل قلب حتى قلوب الساسة ورجال الحكم ، وأن يتجه الناس إلى رفع البؤس عن البائسين ، وإعانة المصابين ، والأخذ بيد الضعفاء والمساكين من أفراد وأمم ، والشعور العام بالأخوة التامة ، من غير تفرقة بين جنس وجنس ولون ولون وإقليم وإقليم ، ومحاربة القسوة والظلم حيث يكون ، ونصرة العدل حيث يكون .

هذه هي المدنية الحقة ، لا اختراع سيارات ومدمرات وقنابل ذرية وأدوات ترف وزينة وما إلى ذلك ، فهذه مدنية النفوس الصغيرة والعقول الأسيرة .

إن النوع الإنساني اليوم في أشد الحاجة إلى أن يقلب نظره الحالي إلى قيم الأشياء ويعيد تقويمها على أساس الإنسانية ، فليست الحياة خبزاً يؤكل ، ولا آلة تصنع ، ولا ترفاً ونعيماً ينال ، بل ولا فلسفة من نوع الترف العقلي ، ولا دراسة للماضي الميت ولا أدباً قديماً ولا حديثاً يعنى فيه بجمال اللفظ وجمال الأسلوب ، ولا فنًّا يبعث على حياة الشهوات ، إنما هي قلب ينبض بالحب العام للإنسانية كلها ، من غير اعتبار لطبقة ولا لون ولا حسب ولا نسب ولا غنى ولا جاه ولا ثقافة .

إن الإنسانية بهذا المعنى تقضي على كل المذاهب السياسية القائمة ، من نازية

وفاشية وبلشفية وديمقراطية ، وتقضي على كل معنى من معاني الوطنية ، لأن الإنسانية لا تعترف بالقومية ، ولكن تعترف بالناس جميعاً ، فإذا عرفت الديمقراطية بأنها حكم الناس بالناس للناس ، فلا سيادة لإنجليزي أو أمريكي أو روسي على غيره ، ولا سيادة لغربي على شرقي ، ولا سيادة لأبيض على أسود أو أصفر ، وإنما كل الناس سواء ، وإن اختلفوا في الثقافة علّم المتعلم الجاهل ، وإن اختلفوا في المال أمد الغني الفقير ، وإن اختلفوا في القوة أعان القوي الضعيف ، وإن اختلفوا في الصحة عالج الصحيح المريض .

وهذا النظر يتطلب إعادة وضع القيم للأشياء ، فليس أعلى شيء في القائمة القوة ولا المادة ، ولكن الروح الحية والقلب الطاهر ، ثم تقوّم الأشياء حسب تغذيتها لهذه الروح وهذا القلب — والحق أن كل إنسان فيه هذه النفحة ، ولكن البيئة وأساليب الحياة التقليدية وأنماط التربية تفسدها .

وعلى هذا الأساس ينبغي قلب أساليب التربية رأساً على عقب ، ولا فرق في وضاعة أساليب التربية الحالية بين الأمم المتقدمة والمتأخرة ، فكلها مؤسسة على الرغبة في ترقية العقل وتمرين اليد ومعرفة ما يحيط بنا من العالم المادي ، أما الروح والقلب والشعور بالإنسانية العامة فلم يلتفت إليها في أي نمط من أنماط التعليم . لقد أسست كلها على تنمية النزعة الوطنية ، وأفسد من أجل ذلك التاريخ ، بل العلم أحياناً ، ولويت الحقائق لتتفق مع الدعوة إلى الوطنية ، وعلى ذلك أسست العصبية القومية ، فكانت سبباً في كل ما نرى من حروب وحب سيادة وحب انتقام وخصام في الحرب وخصام في السلم ورغبة في الاستعمار ورغبة في الاستقلال وسعي في نشر النفوذ ، إلى آخر أنواع الشرور . إن التربية الحديثة أيضاً تعتمد على العلم وحده ، ولكن وجه الخطأ في ذلك أن العلم أحد الطرق لفهم العالم وحسن السلوك ، ولكن ليس هو الطريق الوحيد ، بل لا بد له أن يدعم بوسائل أخرى وطرق أخرى روحية . إن العلم يوصلنا إلى فهم ما هو كائن ، وقد يمدنا بفهم ما سيكون ، ولكنه لا يمدنا بفهم الغاية مما هو كائن ومما سيكون ، ولا يمدنا بفهم ما ينبغي أن يكون .

إننا نحتاج إلى نوع آخر من التربية يتفق والإنسانية ، يعيد إلينا عقيدة شرف الإنسان وأنه ليس دودة كبيرة ، بل هو نوع ممتاز بروحه وقلبه ، نوع من التربية لا يكون برنامجه تربية العقل وحده ، ولا اليد وحدها ولكن تربية الروح والقلب أيضاً نوع من التربية يحتقر الوطنية إذا تعارضت مع الإنسانية ، ويثير حب الإخاء والمساواة ، لا بين أفراد الأمة الواحدة ، ولكن بين أفراد الناس جميعاً .

هذه هي تعاليم « النبي المنتظر » فإن تحققت فطوبى للعالم ، وإلا فويل للعالم .

إن مما يبشر بالخير ما نرى من علامات الإرهاص لهذا النبي ، فالحروب الأخيرة شككت عقلاء الناس بل الجماهير في المدنية الحاضرة وأسسها ، وشككتهم في أساليب التربية ، وجعلتهم يكفرون بالسياسة ورجالها وتقاليدها ، وبدأت الدعوة من هنا وهناك إلى أن العالم يحتاج إلى أسس جديدة في التربية والسياسة والاقتصاد والاجتماع .

وآخر ما قرأت في ذلك أن جماعة من أشهر رجال العلم يمثلون علم الفلك والكيمياء والاقتصاد والتاريخ والأدب والفلسفة والدين اجتمعوا في جامعة كولمبيا ، وبحثوا في مشاكل العالم الحاضرة ، ووضعوا تقريراً جاء فيه : « إن الديمقراطية الصحيحة والثقافة الحقة يجب أن لا تعتمد على أن الإنسان جزء من الطبيعة فقط ، بل هو أيضاً كائن روحي ، وأن الحياة الروحية لا يمكن أن تفسر بالقوانين الطبيعية التي يشرحها علماء الطبيعة ، وأن الروح الإنساني مستقل عن الجسم وبيئته ، وأن اتصال الروح بالمنبع الأبدي مسألة أساسية في فهم الروح الإنساني ، وأن إنكار الطبيعيين لعلاقة الإنسان بالروح الأعلى والقوة التي تسيطر على العالم أجمع حرمه من قوة الخالق ، وأبعده عن الصراط المستقيم » .

كل هذا الإرهاص وأمثاله وما يصيب علماء النفس في السياسة والاقتصاد والاجتماع من فشل بسبب سيرهم على التقاليد القديمة والأوضاع العتيقة الخيالية يجعلنا نؤمل في ظهور « النبي المنتظر » سريعاً لينقذ البشرية من ضلالها وورطتها ويهديها من ضلالها .

أحمد أمين



التفاهم الدولي

للأستاذ السيد أبي النصر أحمد الحسيني الهندي

إن الأمل عند نشوب كل حرب — أنها ستنتهي ، وأن الناس سيعيشون بعدها عيشة هادئة هنيئة ، وأن الدول ستتمتع بسلم حقيقي دائم — قديم جداً . ولكن كما أشار إليه الشاعر العربي المتنبي :

ما كل ما يتمنى المـــرء يدركه   تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

لا يبلغ الإنسان جميع حاجاته ، وقل أن ظفر بمعظم آماله . فمنذ قرنين تقريباً نجد أهل الغرب يحلمون بالاتحاد الدولي حلماً واضحاً ، فينشد بركات تحقيقه السياسي والمصلح ، والفيلسوف ، والعالم ، والأديب ، والشاعر ، ويبذل كل منهم قصارى جهده في إقامة صرحه ، فما برح أن ينهار على صخرة التنافس .

في أوائل القرن الماضي نوه لنا فون جنتز Von Gentz (١٧٦٤ — ١٨٣٢ م) سكرتير مؤتمر برلين الشهير في تاريخ أوربا السياسي المنعقد في سنة ١٨١٥ : «أن المجتمعين وعدوا من تلقاء أنفسهم بإقامة إصلاح عام شامل في أوربا كما ضمنوا السلم العام» . ولكنه ما فتىء أن أعقبه في آخر التقرير بقوله : « إن المؤتمر انتهى بغير أن يقوم بأمر ذي بال ، أو يتدبر في نظام شامل ، أو يفكر في خير عام يمكن أن يكافىء الإنسانية على آلام حملتها مدة طويلة ، أو يكفل لها السلم في المستقبل » .

ثم حاول قيصر روسيا في سنة ١٨١٦ م إقامة الاتحاد المقدس على أساس الدين بينه وبين إمبراطور النمسا وملك بروسيا ، ولكن ذلك الاتحاد أيضاً لم يستمر طويلاً فإن القادة السياسيين رفضوا فكرة إقامة الاتحاد على أساس الأخلاق المسيحية .

وحين اتفقت الدول في أوربا على إقامة المعرض الدولي في سنة ١٨٥١ في لندن توسم فيه قادة الفكر وولاة الأمر في الحضارة الغربية ، مخايل النجاح لتحقيق ذلك الحلم ، فعقدوا به حبل أمانيهم ، واعتبروه افتتاح عهد جديد للسلم العام ، ولكن مرور الزمن أثبت أنهم كدموا غير مكدم .

هكذا ردت معظم جهود الساسة في تحقيق الحلم بالخيبة حيناً بعد حين ، فتقدم

المصلحون ، وصرفوا عنايتهم في تحقيقه بنظم اجتماعية جديدة ، مثل الاشتراكية والوطنية وفروعهما .

أما الأولى و إن نبتت قبل مئات من السنين ، ولكنها ظهرت في الحقيقة في ثورة سنة ١٨٤٨ م كقوة خطيرة الشأن ، أجبرت دول أوربا على أن لا تستهين بها فيما بعد . فكان من كبار أقطابها فيها سان سيمون St. Simon (١٧٦٠ — ١٨٢٥م) وفوريه Fourier (١٧٧٢ — ١٨٣٧م) وكومت A. Comte (١٧٩٨ — ١٨٥٧ م) ولويس بلان L. Blanc (١٨١١ — ١١٨٢ م) وكان الأخير على الأخص يحوز بينهم منزلة داعيها الأكبر .

أما الثانية فكان كبير دعاتها مازيني G. Mazzini (١٨٠٥ — ١٨٧٢ م) ، لم تحدج أوربا بسمعها ولا لحظت بأبصارها أحداً مثل مازيني ، فقد دعا في سنة ١٨٣٢ م إلى رسم الخريطة الأوربية من جديد ، وتنظيم الشعوب والأمم فيها حسب الأحوال الجغرافية والجنسية والتاريخية الخاصة بكل منها . وكان يراه حلاً وحيداً للسلم الدائم . ولكن الرأي نفسه كما ثبت حال دون تحقيق ذلك . قال الأستاذ فيلبس A. Phillips : « إن نظرية الوطنية كانت أكبر عائق عن تحقق السلم الدائم . فإنها مثل الحاكم بالإرث لم تخل عن الطمع في الترفع على الغير والاستبداد ، وإن كانت إحدى القوى الهامة التي عملت للسير والتغير في العالم السياسي »

كان بجنب المذهبين المذكورين الإصلاحيين مذهب آخر يقوم على تمجيد الدولة ، وكان من كبار دعاته مكيافيلي الإيطالي Machiavelli (١٤٦٩ — ١٥٢٧ م) ثم ترايتشكة الألماني Treitschke (١٨٣٤ — ١٨٩٦) ، فكانا يريان أن الدولة نفسها غاية ، وأنه لا يمكن أن يتصور شيء أرفع منها ، وأنه يجب أن لا تساوى الأخلاق الخاصة بالأخلاق العامة . وكان هذا الرأي جزءاً أساسياً في ثقافتي الجرمان واللاتين خلاف الثقافة الأنجلوسكونية . قال المؤرخ الألماني الشهير إدورد ماير E. Meyer (١٨٥٥ — ١٩٣٠ م) : « لا يقتصر الاختلاف بين الفريقين (أي الجرمان والأنجلوسكسون) على مكانة الدولة فقط ، بل يتناول أيضاً حدود الحرية الفردية إزاء سلطة الدولة . فللفرد في نظر الإنجليزي (أي الأنجلوسكسوني) حق السعي والارتزاق دون أن تتعرض الحكومة لحريته ، وعليه في المسائل العامة قبول حكم الأغلبية . أما في نظر الألماني (أي الجرماني) فالحرية تعني الخضوع لمصلحة الجماعة والأماني الجنسية . وبعبارة أخرى : إن الإنجليزي يعد الحكومة ضغطاً لحريته ويطلب أن تنحصر سلطتها

جهد المستطاع ؛ و بعكسه الألماني . فإنه يعد الدولة ممثلة لأسمى أماني جنسه ، ويرى أن لها أن تبسط جناحيها على جميع مظاهر الحياة الوطنية ، لأن أوامرها في نظره وصايا أدبية يقبلها غير كاره ولا متململ ، لأنه عضو من المجموع الشامل ، فكأنه يحولها بقبوله التام إلى أعمال صادرة من إرادته الحرة » [١] .

يوجد هذا الفرق نفسه في فهم الديمقراطية لدى الجنس اللاطيني والجنس الأنجلوسكسوني ، فإنها عندالجنس اللاطيني جمود إرادة الفرد ، وسكون إقدامه الذاتي ، واستعلاء كلمة الحكومة . بينما هي لدى الجنس الأنجلوسكسوني كما أبانها الدكتور ماير الألماني انزواء الحكومة وارتفاع صوت الفرد .

لم يأل الفلاسفة والعلماء والأدباء والشعراء جهداً في تحقيق الحلم المذكور ، فإن عدداً جماً من مصنفاتهم لتحقيق شتى نواحيه يميط لنا عنه اللثام ، ولسنا بصدد استقصاء ذكرها هنا . على أننا سنكتفي بالإشارة إلى بعضها : صنف الفيلسوف الألماني الشهيركنت I.Kant فيه مصنفاً هاماً [٢] أبان فيه رأيه بجد وعناية ، كذلك استنفدالأستاذ فيلبس A. Phillips وسعه في تعزيز فكرة تحقيقه في كتابه النفيس « تحالف أوربا » [٣] كما رسم الأستاذ ماريوت J. A. R. Marriott خطة تحقيقه في كتابه الشهير « تجديد أوربا الحاضرة » [٤] . ورأى الأستاذ الإنجليزي نورمان أنجل Norman Angell الحائز جائزة نوبل للسلم في مصنفه الذائع الصيت « الوهم الأكبر » [٥] أن توقف الدول الاقتصادي بعضها على بعض قد بلغ الآن حداً أصبح معه نشوب الحرب تقريباً من المستحيل . وتمثل لحس الشاعر تنيسون Tennyson (١٨٠٩ — ١٨٩٢ م) قرب يوم ستطوي فيه الأمم أعلامها الخاصة لأجل « برلمان إنساني » فناشده في شعره بلوعة المشتاق بخاصة في سنة ١٨٤١ م . كذلك تغنى الشاعر الشهير وردز ورث Words Worth (١٧٧٠ — ١٨٥٠ م) قائلا : إن الحرب ستنعدم . ألم تسمع أن « الفتح » أقلع عنه .

لم تكن المساعي السياسية محصورة فيما ذكرناه ، بل كانت هناك صروح سياسية

(١) راجع E. MEYER : England, seine staatliche und politiche. Entwickelung und der Krieggegen Deutschland.

(٢) راجع I. KANT : Zum ewigen Frieden.

(٣) » A. PHILLIPS : Confederation of Europe.

(٤) » J.A.R. MARRIOTT : Remaking of Modern Europe.

(٥) » N. ANGELL : The Great Illusion.

أخرى أقيمت لتعزيز فكرته وتحقيقه ، مثل معاهدة فرنكفورت ، ومؤتمر لاهاي ، وتشييد المحكمة الدولية فيها وغيرها ، ضربنا صفحاً عنها خشية الإطناب .

ومع ذلك فإنه حين قامت في سنة ١٩١٤ الطامة الكبرى انهدت أركان تلك الصروح وتقوضت حصون آمال السعاة ، فتقطعت بهم الأسباب ، وكذبتهم الظنون ، فعادوا إلى طبعهم ولجأوا إلى حصنهم القديم ، وهو تركيز الرجاء في نهاية الحرب وإرجاع كل خير إلى ما بعدها ، وتعلقوا من ذلك بهدب أمل جديد ، ونشطوا ، وتصدوا لتحقيق الحلم من جديد ، وأظهروا وفاء وكفاية واضطلاعاً ، فنجم عنه المبادئ الأربعة عشر الولسونية لتقرير المصير ، ثم أخذت عصبة الأمم حيز الوجود ، ففرحت بها الأمم واستبشرت راجية أن يكون وجودها علاجاً ناجعاً لأسقامها وعللها الناشئة عن الظلم والجور ، وأن التفاهم الدولي الذي ولدها بلغ غاية يتعسر معها أن يجتث دابره بسهولة .

لم تمض عشرون سنة حتى هبت العاصفة مرة أخرى في سنة ١٩٣٩ م وكسحت ريح صرصر عاتية كل ما أقامه سعاة التحقيق لحلم الاتحاد الدولي ، واستمرت المعارك الدامية أكثر من خمس سنين أكلت في غضونها كل رطب ويابس ، ولكنها لم تفت في عضد هؤلاء السعاة لتحقيق الحلم ، ولا صرفتهم عن نياتهم ، فشادوا عند نهايتها هيئة الأمم ومجلس الأمن وغيرهما ، والله يعلم بمصير مستقبلها ونجح أمانيها .

إن الخيبة التي أصيب بها التفاهم الدولي حيناً بعد حين بنشوب الحروب الضارسة تحدونا على أن نوجه فكرنا إلى تلك الحروب ونسبر غور أسبابها . وحين نقلب فيها نظرنا ونتأملها ملياً نجد أن الحروب منذ أن وجدت لم تخل من أنها كانت إما للفتح والسيطرة ، وإما للمبدأ ، وإما للمنفعة والتجارة .

أما حروب الفتح والسيطرة فكان في القديم يغلب على أصحابها رغبة الفتح والشهرة على رغباتهم الأخرى في إثارتها ، وكانوا صريحين في نياتهم مهما بلغت أعمالهم فيها من القساوة ، ولا تزال تتقد تلك الحروب إلى اليوم ولكنها مقنعة . قال الأستاذ أركوهارت F. F. Urquhart : إن حروب الفتح والسيطرة لاتسعر اليوم بنيات صريحة مثل السابق ، بل هي تذكى بأقنعة مختلفة مثل ، « الضرورة الاقتصادية » أو « الحدود الطبيعية » أو « الحدود الحربية » أو « العطف الجنسي أو الديني » أو « الأماني القومية » وغيرها . ويمكن أن نزيد على قول الأستاذ « الوطن القومي » وهو ماتعاني آلامه اليوم بلاد فلسطين .

أما حروب المبدأ فهي التي أججت لأجل المبدأ . وقد ضحى الإنسان في سبيله

راحته ومنفعته بل حياته ، وأحسن مثلها الحروب الدينية . ففي الإسلام لم يبتغ النبي عليه الصلاة والسلام بجهاده ملكا أومنفعة مادية ، بل قسم كل ما غنم فيها على المجاهدين والمستحقين[١] ، وكان يؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة[٢]، وحذا حذوه فيه خلفاؤه الراشدون ، إلى أن انقلبت الخلافة إلى ملك عضوض، فتصرف الملوك فيه حسب هواهم، ومع ذلك لم يمح تصرفهم أثر سنته عليه الصلاة والسلام في الأجيال والقرون ، فالتاريخ يشهد أن كل من رزق من هؤلاء إيماناً وتوفيقاً لج به الشوق إلى التأسي بأسوته ، وهفا قلبه للاقتداء بقدوته عليه الصلاة والسلام . فلما فتح عبد الرحمن بن سمرة بلاد الدوار[٣] ودخل على الزور ، وهو صنم من ذهب عيناه ياقوتتان ، قطع يده ، وأخذ الياقوتتين ، ثم قال للمرزبان[٤] : دونك الذهب والجواهر ، وإنما أردت أن أعلمك أنه لا يضر ولا ينفع[٥] . وفي القرن الثالث الهجري حين انتصر إسمعيل بن أحمد الساماني (٢٧٩ — ٢٩٥هـ) على ملك تركستان قسم ما غنم من الغنائم الكثيرة على المجاهدين ، اقتداء بسنة النبي عليه الصلاة والسلام ، فأصاب كل فارس منهم ألف درهم ، عدا الخيل والجمال والشاة التي لا تعد[٦] . وفي القرن السادس الهجري كان الملكان المجاهدان نور الدين زنكي (٥٤١ — ٥٦٩ هـ) وصلاح الدين الأيوبي (٥٧٠ — ٥٨٩ هـ) يبذلان قصارى جهدهما في التأسي بالنبي عليه الصلاة والسلام في غزواتهما ضد المحاربين الصليبيين ، حتى اعترف أعداؤهما الصليبيون بعلو كعبهما في الأخلاق والمعاملة الحسنة مع أعدائهما وأسراهما في أيام الحرب ، كما يبين لنا غير واحد من مصنفاتهم إلى اليوم .

هـذا نزر يسير من الأمثلة الكثيرة في تاريخ الإسلام ، سقناها لإثبات ما كان لحروب المبدأ من المنزلة العالية بالنسبة إلى الحروب الأخرى . ولذلك لم يقدر الأستاذ

---

(١) تبين جميع كتب السير والتاريخ هدية هذا في غزواته عليه الصلاة والسلام .

(٢) مثلاً كانت غنائم وقعة بني النضير خاصة له عليه الصلاة والسلام ، ولكنه فرقها بين المهاجرين ومن استحق من الأنصار (راجع تاريخ اليعقوبي طبع العراق ج ٣ ص ٣٧) .

(٣) أصله بالفارسية « زمين دوار » يطلق على وادي نهر هندمند (بالإفرنجية الآن Helmand) الواسع ، والنهر يصدر من جبال هندوكش ويصب في بحيرة هامون التي كانت تسمى في القديم بحيرة زرّه . والبلاد اليوم جزء من مملكة أفغانستان .

(٤) معناها حارس ، وهي مركبة من كلمتين : « مرز » و « بان » . مرز معناها بالفارسية الحد أو الثغر ، و « بان » أصلها بالسنسكريتية « وان » معناها : السيد أو الحاكم . فمرزبان معناها : سيد الحدود أو حاكم الثغور، أي الحارس .

(٥) فتوح البلدان للبلاذري طبع مصر ص ٤٠٢ .

(٦) راجع تاريخ روضة الصفا لمحمد خاوند شاه بالفارسية طبع الهند ج ٤ ص ١١

أركوهارت أيضاً أن ينكر فضلها على غيرها ، قال : « إن للحروب الدينية ، مع قساوتها الشاملة[١] ، لعظمة لن تقدر حروب أخرى على أن تدعيها » .

أما حروب المنفعة والتجارة فهي من مميزات الحضارة الغربية ، ولقد أصاب الأستاذ الأديب الكاتب السياسي الأمريكي أبتون سنكلير Upton Sinclair حين وصفها قائلا : « إن حضارتنا حضارة التاجر ، حضارة رجل ، كما نقول فيه عادة إن صنعته التجارة ، ونشاهد كيف أن التجارة الكبيرة تبتلع التجارة الصغيرة وتتضخم وتتقوى بالاستمرار »[٢] .

ولما كانت غاية أعمال التاجر المنفعة ، أصبح طابع حضارته طبعاً الطمع والجشع ، ورحم الله الإمام الشافعي فقد أشار إليه منذ قرون بقوله : اثنان لا يشبعان طالب علم ، وطالب مال . ثم التجارة لا تترعرع ولا تتقدم إلا بالمنافسة ، وإليه أشار الأستاذ أبتون سنكلير بقوله : ونشاهد كيف أن التجارة الكبيرة تبتلع التجارة الصغيرة .

إن المنافسة وإن كان لها بعض الفوائد ، ولكن ضررها في هدم الكيان الأخلاقي أشد ، ولذلك أظهر النبي عليه الصلاة والسلام خوفه من أن تبتلى أمته بها قال : « وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ، ولكن أخاف أن تنافسوا فيها[٣] » وقد شرحه فيلسوف الشرق السيد جمال الدين الأفغاني ، وأبان أثرها السيء في أحد أقواله المأثورة قائلا : « إن المنافسه تمحو فضيلة الإيثار » .

لذلك نجد أن الإسلام سعى لتجريد حضارته من مثل تلك الطوابع المهنية الخاصة التي لا يعرف معها وجه الخير لسياسة الناس وتنظيم أمورهم ، ولا المنهج القويم لإصلاح الهيئة الاجتماعية ، يكون مبتغاه الخير المحض المجرد عن فساد النية والمنزه عن مطامع النفس ، فيعود عليها بنفع جزيل ورجع كثير . فكان مثلا أبو بكر رضي الله عنه أول الخلفاء الراشدين يمارس صناعة التجارة حين تولى أمر المسلمين ، فكان في إمكانه بعد أن أصبح صاحب أمر ونهي أن ينتهز الفرصة ويوسع تجارته ، فتدر له منها المنافع الجزيلة

---

(١) إن تصور الأستاذ أركوهارت هذا عندي تصور خاطئ ، فإنه لم يثبت أن بلغت الحروب الدينية قساوة أكثر مما بلغت إليه الحروب الأخرى ، فالمحاربون الدينيون لم يستعملوا بل لم يتصوروا تدمير المدن والبلاد بالقنابل الطائرة أو القنابل الذرية . وأي قساوة أفظع من الفتك بالأبرياء بالجملة

(٢) راجع : U. SINCLAIR : Aristocracy & Democracy. Hindustan Review. Vol. XLIV p. 29.

(٣) هذا جزء من حديث طويل رواه البخاري عن عقبة بن عامر ، راجع صحيح البخاري طبع الحلبي ج ٣ ص ٢٦٢ .

وتنجم له عنها الفوائد العظيمة ، ولكنه لم يستغل مركزه الجديد لمنفعته الخاصة مع كونه في حاجة إليه ، حتى لم يترك بعده شيئاً لورثته مع قيامه بجلة الأعمال للاسلام والمسلمين ، قال لزوجته عند وفاته : « أما أنا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم ديناراً ولا درهماً ، ولكنا قد أكلنا جريش طعامهم ، ولبسنا خشن ثيابهم ، وليس عندنا من فيء المسلمين إلا هذا العبد ، وهذا البعير ، وهذه القطيفة ، فإذا مت فابعثي بالجميع إلى عمر »[1] . فلما مات بعثته إلى عمر ، فلما رآه بكى حتى سالت دموعه إلى الأرض ، وجعل يقول : رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده ، ويكرر ذلك .

وكان رضي الله عنه قد أدرك بقوة بصيرته أن خير المسلمين المحض لا يمكن أن يتحقق بالطريق الذي كان يسلكه ـــ طريق التجارة ، لذلك تركه قائلا : « مايصلح أمور الناس مع التجارة ، وما يصلح إلا التفرغ لهم ، والنظر في شأنهم »[2] ولذلك وجد لدى العرب قول مأثور ذو مغزى عظيم ، وهو : ما من ذنب إلا اتفاق الصناعتين .

إن الحضارة التي غايتها المنفعة بالتجارة طبعاً لايقوم لديها شيء مقام التجارة ، لذلك كان من مبادئها في إبان نهضتها : « أن التجارة تتبع العلم » ، ولكن حين لاحت لها مخايل الظفر حولته وجعلته : « إن العلم يتبع التجارة » وهذا المبدأ حقيقة ظهرت نتائجها في استيلاء أصحابه على الهند ، وعلى جزر أندونيسيا ، وعلى بعض مدن الصين . ولذلك كان الأستاذ الأمريكي أليوت C.W. Eliot الحائز جائزة كارنجي للسلم الدولي يرى تصادم المنافع التجارية من أسباب الحروب المقبلة ، قال : « إنه من المحتمل جداً أن يكون من الأسباب المقبلة للحرب بين الشعوب الغربية ، فضلا عن التنافر الوطني ، التصادم بين المنافع التجارية والصناعية ، والمنافسة لأجل الأسواق الجديدة ، والفرص المستحدثة لاستثمار رأس المال النافع ، ويمكن كذلك أن يكون من تلك الأسباب مهاجرة العمال الواسعة »[3] .

وعليه فمهما بذل السلميون جهودهم وحاول دعاة الاتحاد الدولي إيجاد تفاهم له فيما بين الدول أوطد ثباتاً ، لم يقدروا على إهمال إمكان الحرب مادامت المنافسة أساس الحضارة التجارية . قال السياسي الألماني الشهير البرنس فون بيلوف : « إن السياسة الاقتصادية يجب أن ترضع تقدم البلاد في أمن وسلام ، ولكن يجب أن لايفوت عن

---

(١) تاريخ الكامل لابن الأثير طبع مصر ج ٢ ص ٢٠٦ .

(٢) تاريخ الكامل لابن الأثير طبع مصر ج ٢ ص ٢٠٧ .

(٣) C.W. ELIOT : Some Roads towards Peace, p. 14

نظرها إمكان الحرب ، ولأجل هذا يجب أن تكون غايتها قبل كل شيء المطالبة بتقسيم الأملاك بالتسوية »[١] .

إن العظمة التي بلغتها الأمور الاقتصادية في حياة الغرب في الحقيقة وليدة الحضارة التجارية الغربية ، وقد تغلغلت فيها إلى درجة التعقيد والغموض ، حيث أصبح تصور ناحية من نواحيها بدونها من المستحيل . قال الأستاذ مرتون فولرتون M. Fullerton « تحكم على أقدار العالم اليوم قوتان غامضتان من وراء واجهات الحكومات . إحداهما ثروة الديمقراطية المبثوثة ، يصرفها أولاً حكومة المثرين Oligarchy من أصحاب البنوك الذين من زبائنهم الدول الحاضرة المضطرة إلى طلب القروض الباهظة منهم ، سواء كانت كبيرة أم صغيرة . وثانياً كبار أصحاب الصناعة ومديرو المناجم الذين لايعملون إلا لأجل المنافع الاقتصادية ويجمعون مع ذلك الاحتكارات الدولية التي لايؤثر في إجراءاتها مسائل السياسة الوطنية أو الشرف الوطني إلا تشويشاً بسيطاً .

والقوة الثانية هي القوة الخفية النافذة التي تعرف اليوم بالرأي العام . فهو يزداد يوماً فيوماً شعوراً بتأثير نفسه ، ويظهر الغيرة النشيطة لحقوقه الخاصة كلما زاد تيقظه لرخاء الجمهور وللحقائق الدولية »[٢] .

لذلك كان الأستاذ فولرتون يرى أن سياسة أمة ستحددها في المستقبل حاجاتها الاقتصادية[٣] وهي حقيقة في الحضارة الغربية ، فإن المنفعة المخولة القوية دائماً مهددة لأن الثروة قوة ، تسيطر مواردها المتراكمة لكبار الماليين على الحكومات ؛ فإن المنافع الاقتصادية تمثلها مجالس الشورى لدى الشعوب ، وقد تقع القوة التنفيذية أيضاً في أيدي الذين يرون المسائل الوطنية بمنظار اقتصادي ، وإن بلغ إخلاصهم غاية قصوى .

ومما زاد عظمة الأمور الاقتصادية لدى الحضارة الغربية أيضاً إفادتها كعدة نافذة المفعول في فتح البلاد ، لأن هجوم رأس المال الأجنبي سلمياً على البلاد الضعيفة المتأخرة باسم استثمار ثروتها الطبيعية كان في الحقيقة أول خطوة ، إن لم يكن للاستيلاء فللوصاية السياسية المحتمة عليها ، بدون أن يزاحمه فيه أحد . فالتدخل الاقتصادي الأجنبي في بلاد مقدونيا وفي جزيرة قريط Crete ومصر كان فاتحة نهاية الحكم التركي فيها ، كذلك الدور الذي لعبه البنك الإيطالي Banka de Italia في الاستيلاء على طرابلس ليس بخفي

(١) راجع Prince VON BULOW : Imperial Germany p. 221
(٢) راجع M. FULLERTON : Problems of Power p. 4
(٣) المصدر نفسه ص ٢١٣

إن معالم طابع الحضارة الغربية التجاري أو روح التنافس فيها ليست بمقصورة على ما ذكرناه لك، بل صفحاته بادية في جميع نواحيها سياسية كانت أو عملية أو فلسفية أو غيرها. «فتنازع البقاء» أو «بقاء الأنسب» لدروين، أو «بقاء الأحسن» لإسبنسر ونيتشه* أو «إرادة الحياة» لشوبنهاور، أو «إرادة القوة» و «سوبرمان» لنيتشه، أو «النشاط الروحي» لموليان، أو «الفلسفة الروحية» لكروتشة، أو «الفلسفة الانتقادية» لكنت، أو «الإطلاق» لهيجل، أو «المثالية المجردة» لرايس، أو «الحقيقة الغامضة» لهوكنج، أو «الظاهرية» لهوسرل، أو «النشوء الخالق» لبرجسان، أو «المذهب النفعي» (براجماتزم) لجيمس، أو «الآلية» لديوي أو «النشوء المفاجىء» لمورجان، أو «الحقيقة النشوئية» لهوب هاؤس، لكل منها علاقة وثيقة لذلك الطابع التجاري.

قد علمت مما سبق حقيقة أساس التفاهم الدولي الذي يحاول محبو السلم ودعاة التحقيق لحلم الاتحاد الدولي تشييد البناء عليه، وفهمت كذلك مما عرضنا عليك أن أبناء الحضارة الغربية في حاجة ماسة إلى صفاء النفس وتنقيتها من جميع المنافسات الناشئة عن الطمع والجشع، وبذلك إلى بعث أخلاقي جديد. وأما إذا أقاموا ما ابتغوه على غيرهذا الأساس، فإن كان من ناطحات السحاب، فسيكون مثلهم فيه كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت، لو كانوا يعلمون.

السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي

---

* قد يأخذك العجب من اتفاق الفيلسوفين المذكورين على هذا المبدأ، مع أن لكل منهما منهجاً خاصاً في تفكيره وأسلوبه. فلا تتعجب فإني أشرحه لك: كلاهما فيلسوف من مذهب النشوء والارتقاء، ويعتبر كل منهما «تقدم الحياة» غاية. ولكن عند إسبنسر «تقدم الحياة» عبارة عن إنتاج صورة مثالية من الوحدة الاجتماعية. أما نيتشة، فيراه عن طريق فردي بحت. كل منهما يعترف بأن المقصد الذي يقصده ليس بقاء الأنسب كما يراه دروين، بل بقاء الأحسن، فإسبنسر يراه في صورة هيئة اجتماعية حرة مبنية على التعاون، بينما يراه نيتشة في فوق البشر (سوبرمان).

يدل هذا على أن الغاية ليست لديهما الحياة على الإطلاق، بل طرازاً خاصاً من الحياة، ثم هما لا يقدران الأشياء من جهة قيمة بقائها، بل من جهة استعدادها للمساعدة في تقدم ما يعتبر لديهما أعلى الطراز من الحياة. وفيه يتجلى الطابع التجاري لحضارتهما أو روحها التنافسية.

مستقبل المتاحف والآثار بمصر والشرق العربي

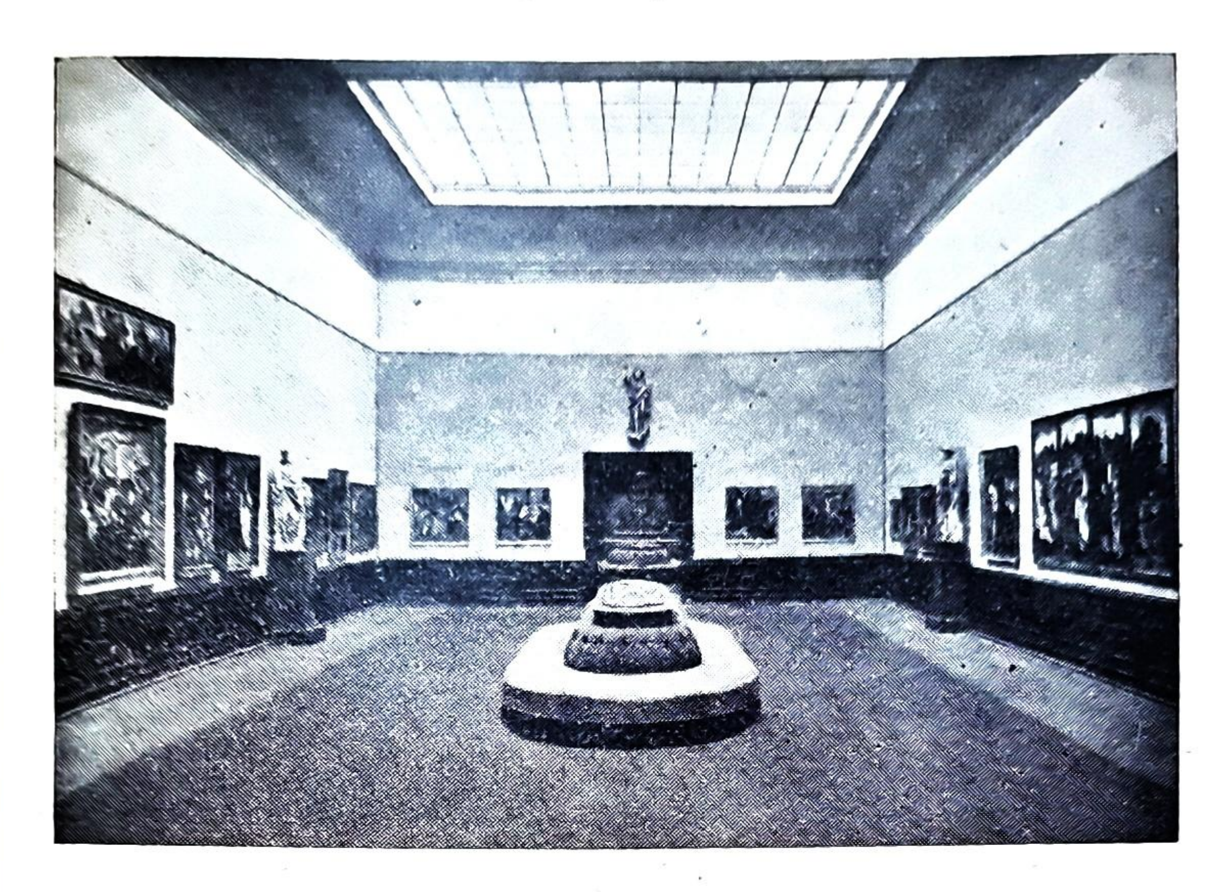
للدكتور زكي محمد حسن

إن لنا في البلاد العربية متاحف وإدارات للآثار ، كما في باقي البلاد المتمدنة . ولا عجب ، فالمتاحف من مقومات الحضارة الحديثة ، تمخضت عنها عصور الديمقراطية والسرعة والأسفار والرحلات . ولكن هل يستطيع المنصفون منا أن يذهبوا إلى أن تلك المؤسسات الثقافية قد أدت في مصر والشرق العربي قسطاً وافراً من رسالتها ، كما أتيح للمتاحف في البلاد الأوربية والأمريكية ؟ أخشى أن يكون الجواب بالسلب . ولكن عشرين عاماً من الاتصال الوثيق بمتاحفنا المصرية تبعث في نفسي الأمل في المستقبل القريب ، أن يتاح لمتاحفنا كما يتاح لمتاحف البلاد العربية الأخرى ، أن تقوم بنصيبها في تربية الشعب ، ليعرف الطبيعة والوطن ويحبهما ، وليعظم آثار الماضي ويتفهم بدائع الفنون القديمة والحديثة .

وهذا الأمل له عندي ما يبرره ؛ فإن القائمين على أمور الثقافة في بلادنا العربية قد فطنوا إلى ما في نظم المتاحف وإدارات الآثار عندنا من علل دفينة ، فهبوا يعملون على علاجها . وفكرت اللجنة الثقافية بالجامعة العربية في توثيق الصلة بين متاحف الدول العربية وإدارات الآثار فيها ، ليفيد كل منها بما تسفر التجارب عن نجاحه في سائر دول الجامعة ، وليمكن توحيد المصطلحات وأساليب البحوث الأثرية في هذه الدول .

وسأحاول في هذا المقال أن أعرض لبعض المسائل التي يجب التفكير فيها عند العمل على علاج ما في متاحفنا وإدارات الآثار عندنا من نقص وعيوب .

إن نجاح المتاحف في تأدية رسالتها يقاس بقدر نجاحها في جذب أفراد الشعب وحثهم على زيارتها . ومما يؤسف له أن ما حققته متاحفنا في هذا الصدد ضئيل لا يؤبه له . ولذا فإننا لا نستطيع أن نزعم أنها أصابت توفيقاً يستحق الذكر في تهذيب الذوق الفني وتثقيف طبقات الشعب . والمفروض أن المتاحف معاهد للثقافة ، تفتح أبوابها للجميع ، ويفيد منها الزائر في ساعة واحدة أكثر مما يفيده من قراءة عدة ساعات ، أو من سماع عدد من الدروس والمحاضرات النظرية . فهي ذات شأن عظيم



قاعة لعرض اللوحات الفنية فى متحف كارلسروهة يبدو فيها جمال العرض

في نشر الثقافة التي يشير إليها الأستاذ الدكتور طه حسين بك حين يقول : «ولا بد من أن يتعاون الشعب والدولة على نشر أعظم حظ ممكن من الثقافة بين طبقات الشعب ، على أن تكون هذه الثقافة التي تنشر في طبقات الشعب واسعة عميقة منوعة ، بحيث تتحقق الصلة العقلية والقلبية بين صفوة الشعب الممتازين وبين غيرهم من الطبقات التي تصرفها الحياة اليومية عن الفراغ للمعرفة »[١]. والمتاحف لن تستطيع أن تساهم بنصيبها في هذه المهمة إلا إذا عظم الإقبال على زيارتها . فلا بد إذن من الإعلان عنها وتحبيب النشء في زيارتها ، وجذب المواطنين إليها ، بشتى الوسائل التي سنعرض لبعضها في هذا المقال.

* * *

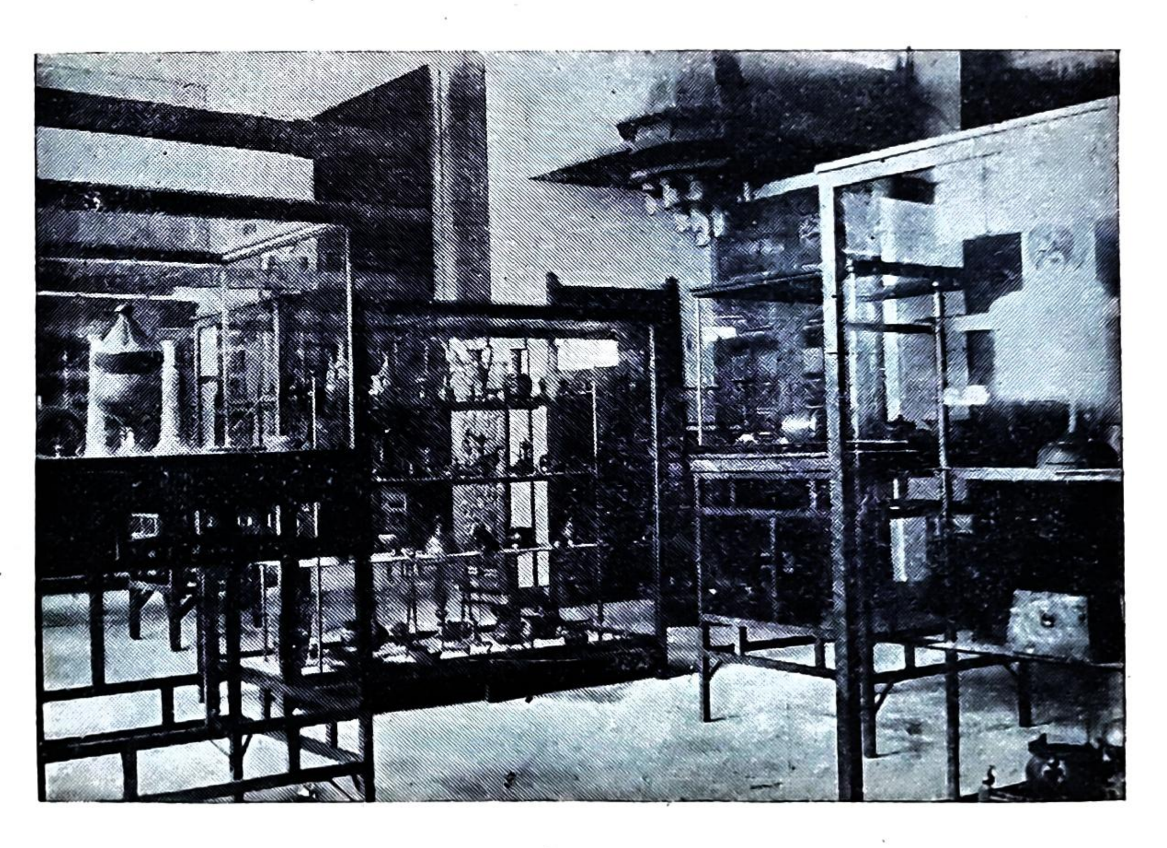
وأيسر نظرة فيما وصلت إليه متاحفنا الآن تكفي لإقناعنا بأنها أصبحت مخازن مكدسة فيها الآثار ، تتعب الزائر وتدفعه إلى أن يمر بها مسرعاً ، ولا تشجعه على أن يكرر زيارته ، وتجعل فائدته منها يسيرة أولا تكاد تغني شيئاً . فلا بد من أن تكون لمتاحفنا سياسة منظمة في عرض التحف ، قوامها اختيار طائفة من التحف تجمع بين الجمال والقيمة الأثرية ، ثم عرض هذه التحف عرضاً فنياً ترتاح له النفس ، وينهض بالغرض

(١) طه حسين : مستقبل الثقافة فى مصر ص ٤٨٨

العلمي الذي نقصده ، ثم شرح هذه التحف شرحاً طيباً يبين قيمتها التاريخية والفنية في وضوح وإيجاز . أما باقي التحف التي تضمها المتاحف فلتخصص لها قاعات يدرس فيها العلماء والاختصاصيون ما ينشدونه من مادة في الآثار وما يتصل بها من العلوم .

إني أخشى أن يكون تقصير متاحفنا في هذا السبيل أول الأسباب التي جعلتها لا تستطيع أن تنهض بأعباء ما يطلب منها في تثقيف الشعب وتربية ذوقه الفني . وإني أعرف متحفاً من المتاحف ، في كل قاعة من قاعاته ضعف ما يجب أن يكون فيها أو يزيد ، فلا تكاد تستطيع أن تفهم الحكمة في عرضه أو الصلة بين وحداته ! وأشنع من ذلك كله أنك لا تكاد تظفر بلافتة صغيرة (إيتيكيت) تشرح للزائر هذه المعروضات وما لها من قيمة فنية . والزائر معذور بعدهذا كله إذا تاه بين المعروضات ودب إليه الملل.

ودور الآثار ليست مكاناً للبحث العلمي فحسب ، بل هي مدرسة للذوق الفني ، والزائر لا يستطيع أن يطمئن إلى رؤية تمثال مكسور الرأس ، أو قاع إناء من الفخار ، أو جزء من سجادة ثمينة ، أو قطعة من نسيج نفض لونها . فقلما يظفر بمن يشرح له أن التمثال معروض لأن النحات أصاب قسطاً وافراً من التوفيق في تمثيل العضلات والتعبير عن الحركة ، وأن قاع الإناء معروض لأن عليه رسماً يبين أن القوم كانوا



قاعة فى دار الآثار العربية يبدو فيها تكديس المعروضات لضيق المكان

يعرفون نوعاً معيناً من لباس الرأس ، وأن جزء السجادة معروض لأن رسومه تبين تطور زهرة اللوتس في الزخرفة النباتية ، وأن قطعة النسيج معروضة لأنها تشهد بأن القوم عرفوا في العصور القديمة ضرباً من القماش ذي الزخارف المطبوعة !! كل هذا حسن ولكن خير منه أن يقتصد في عرض مثل هذه التحف في القاعات المعدة لعامة الزوار ، وأن تحفظ في قاعات خاصة يحج إليها طلاب البحث من الاختصاصيين . وقد رأيت في معظم المتاحف الأوربية في فرنسا وإنجلترا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا وسويسرا قاعات من المتاحف ، جمعت فيها تحف عليها رسوم أو كتابات يعنى بها علماء الآثار ويقبلون على دراستها ، وتحف أخرى لم توضع في قاعات المعرض لأن فيه مايشبهها . والحق أننا نود أن نصل في متاحفنا ومعارضنا إلى ما وصل إليه الغربيون من أساليب العرض ، فلا نكدس التحف في القاعات وعلى الجدران فيطغى كل منها على الآخر ، كما تطغى مجموعات الصور والتحف على الجدران أو في قاعات البيوت الشرقية ، لأننا لانفطن إلى أن الاقتصاد في عدد الصور أو التحف التي تعرض في مكان واحد يساعد على بيان مميزاتها ولفت النظر إلى شأنها .

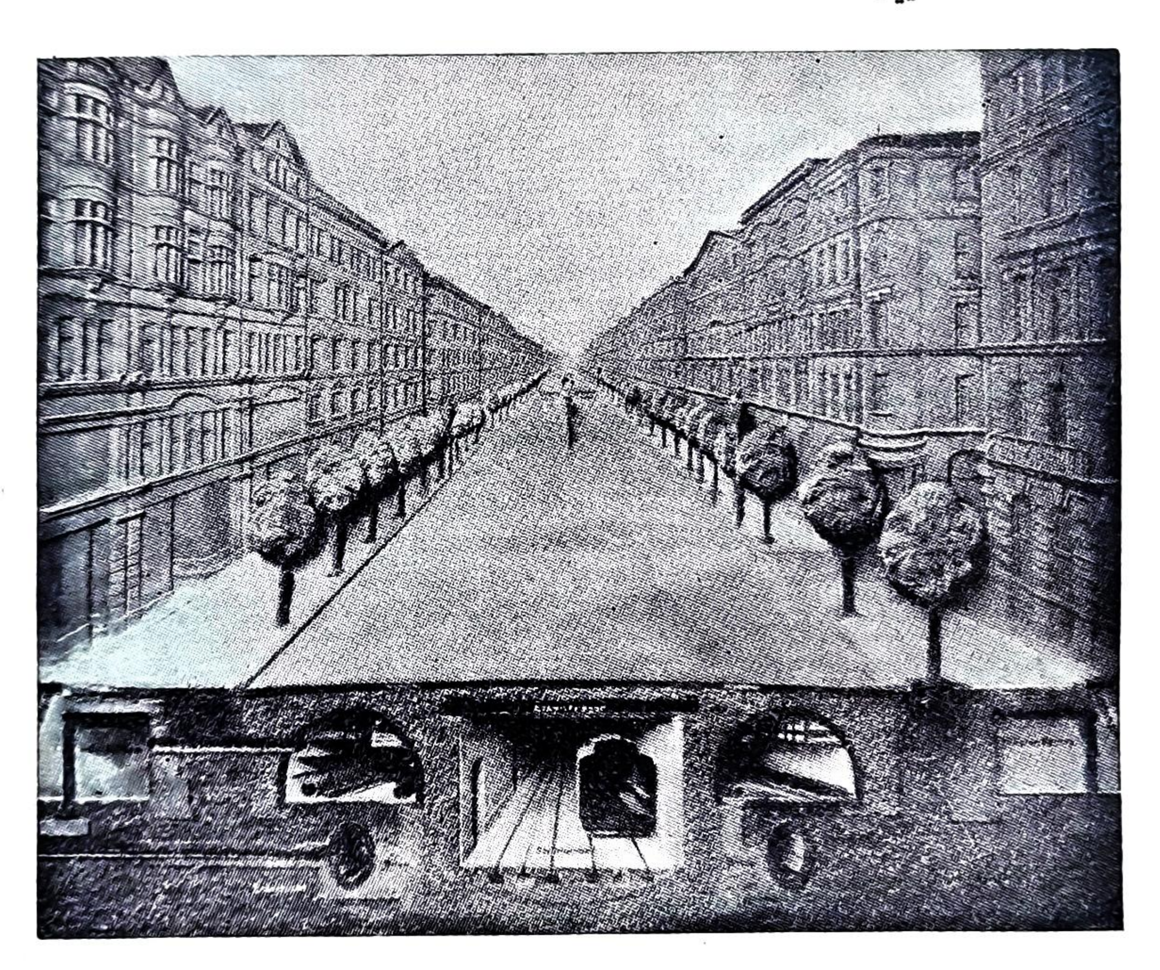
* * *

وأيسر مانطلبه من حكوماتنا العربية أن تعنى باختيار المشرفين على المتاحف والعاملين فيها ، وأول ماينبغي لذلك أن يكون أمين المتحف اختصاصياً في العصر أوالفرع الذي يمثله المتحف الذي يراد له أن يعمل فيه ، وأن يكون في المتحف الذي يمثل عصوراً مختلفة عدد من الاختصاصيين يساوي تلك العصور . يومئذ يستطيع أمناء المتاحف تحقيق الآمال التي نعقدها عليهم ، ويومئذ لانكلفهم فوق مايطيقون حين نطلب إليهم شرح التحف المعروضة وتعريف الجمهور بها . أما أن نبعد الاختصاصيين الأجانب عن العمل في متاحفنا بدون أن نهيئ من المواطنين من يصلح ليخلفهم في العمل فيها فأمر ينتج أقبح الآثار في حياتنا الثقافية .

أعرف متحفاً من متاحفنا يضم نفراً من الشبان النابهين ، ولكن ليس بينهم من تخصص في آثار العصر الذي يمثله هذا المتحف تخصصاً يمكن الاطمئنان إليه . وأعرف أن في جامعة فؤاد الأول معهداً لدراسة الآثار الإسلامية ، ولكني لم أظفر فيه بمبعوث من البلاد الشقيقة يتخصص في دراسة تلك الآثار ، ليعني بالتحف الإسلامية في بلاده . ونتيجة ذلك واضحة في أن نصيب الآثار الإسلامية من العناية والدراسة في الأقطار الشقيقة أقل مما ينبغي .

* * *

وهناك مسألة أخرى لابد من أن نقف عندها قليلا ، وهي مسألة المطبوعات التي تقوم على نشرها المتاحف في بلادنا . حسن جداً أن يكون لبعض متاحفنا — كالمتحف المصري ودار الآثار العربية — مطبوعات علمية يشار إليها بالبنان في عالم الآثار، ويقدرها الاختصاصيون حق قدرها . ولكننا نخدع أنفسنا إذا قنعنا بهذه الموضوعات ، وذلك لسببين : الأول أنها كلها أو جلها باللغات الأوربية ، والآخر أنها مطبوعات فنية لطائفة الاختصاصيين .



نموذج شارع حديث في المتحف الألماني بمدينة ميونخ يبدو فيه ما تحت أرض الشارع من طرق للترام ومجار للغاز والمياه والكهرباء وغيرها

ومن غير المعقول أن تكلف كثرة المصريين أن تتقن الفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية لتفيد من هذه المطبوعات التي أقبل الأجانب — مشكورين — على تأليفها حين كانوا يسيطرون على إدارات الآثار والمتاحف في شرقنا العربي .

حقاً إن هذه المطبوعات أدت إلى تراث الإنسانية كلها أجل الخدمات ، ولكن هذا لاينبغي أن يصرفنا عن التفكير في تثقيف مواطنينا . فبدون ذلك لانستطيع القول

بأن المتاحف نجحت في تأدية مهمتها الأولى . ينبغي إذن أن تقبل متاحفنا على إخراج المطبوعات السهلة باللغة العربية ، لتبسط فيها مسائل الفنون والآثار ، وتحببها إلى طبقات الشعب ، حتى لا تظل وقفاً على نفر قليل من الاختصاصيين . والحق أني أعجب لتقصير متاحفنا في هذا الميدان ، ونحن أحوج إلى العناية به من بعض البلاد ، كفرنسا وإنجلترا وألمانيا والولايات المتحدة ؛ فإن المتاحف في هذه البلاد أقبلت على إخراج طائفة كبيرة من الكتب في شرح محتوياتها وتبسيط تاريخ الفن وسائر فروع علم الآثار . وحسبنا أن نشير في هذا الصدد إلى مطبوعات متحف اللوفر والمتحف البريطاني ومتحف فكتوريا وألبرت ، ومتاحف الدولة في برلين ومتحف المتروبوليتان في نيويورك ، وقد بدأت دائرة الآثار في العراق تتبع هذه الخطة المحمودة .

وقد جرت بعض الدول الغربية على سنة يجب علينا أن نتبعها ، وهي تنظيم المحاضرات في المتاحف والعمائر الأثرية ، يقوم بإلقائها اختصاصيون في تبسيط علوم الفنون والآثار ، فيحببون طبقات الشعب فيها ، ويكسبون لها الأنصار يوماً بعد يوم . وقد فطنت إلى ذلك وزارة المعارف عندنا ، وحبذا لو عممته ، وأعفت أمناء المتاحف من إلقاء تلك المحاضرات ، وتركته لغيرهم من المساعدين الذين يحذقون إلقاءها ويجدون فيه متعة وفرصة طيبة لإظهار مواهبهم والانتفاع بما درسوه . وينبغي أن لا تكون تلك المحاضرات وقفاً على شرح معروضات المتاحف ، بل لا بد من أن تضم موضوعات منوعة مستمدة من تاريخ الحضارة ومظاهر المدنية . وقد قال بعض المعترضين على هذه المحاضرات في المتاحف إنها لا يمكن أن تكون وسيلة طيبة لتفهم بعض المعروضات ، لأن الزائر يحتاج إلى بعض الهدوء والتأمل لتذوق الجمال في كثير من بدائع الفنون . ومع أن هذا صحيح إلى حد ما ، فإن المحاضرات في المتاحف تستطيع أن تفتح آفاقاً للزائر ، وأن تدفعه إلى أن يعود إلى المتحف ليدرس وحيداً ما سمع الإشارة إليه في تلك المحاضرات .

وينبغي أيضاً أن تعمد المتاحف إلى وسائل منظمة لجذب الزائرين إليها ، ومن ذلك تنظيم المعارض الشهرية لعرض المقتنيات الحديثة ، أو لشرح التطور في أي صناعة أو فن من الفنون ، أو لعرض بعض المجموعات التي يعيرها كبار الهواة .

ونذكر في هذه المناسبة أن متاحفنا لا تلقى من الهواة وأفراد الشعب ما تستحقه من عناية ؛ ففي كثير من البلاد الغربية تنظم الجماعات لرعاية المتاحف المختلفة ، فتكتتب لشراء التحف لها وتعنى بشؤونها وتعمل على تنمية محتوياتها . فهل يأتي حين نرى فيه

« جماعة أصدقاء المتحف المصري » « وجماعة أصدقاء المتحف القبطي » « وجماعة أصدقاء دار الآثار العربية » وهل يتاح لنا أن نلمس نشاط هذه الهيئات في العمل على ازدهار المتاحف التي تشملها برعايتها ؟ ومن الإنصاف أن نشير هنا إلى فضل ملوك مصر وأمراء بيتها المالك على المتاحف المصرية ، بما يهدون إليها من المجموعات الثمينة . فبعض متاحفنا مدين بجزء كبير من تحفه إلى المغفور لهم الملك فؤاد الأول والأمير كمال الدين



ركن في قاعة بدار الآثار العربية فى القاهرة عرضت فيه التحف
عرضاً فنياً لم يتلفه ازدحام المعروضات

حسين والأمير عمر طوسون ، وإلى جلالة الفاروق والأمير محمد علي والأمير يوسف كمال . كما أن جمعية الآثار القبطية تقوم بخدمات جليلة لتمكن المتحف القبطي من تأدية مهمته وكذلك تبذل جمعية محبي الفنون الجميلة جهوداً طيبة في رعاية المتاحف ، ولا سيما متحف الفن الحديث . أما الأقطاب من هواة الآثار فى مصر فقليل منهم من أقبل على التعاون مع المتاحف وتخفيف العبء عن الحكومة في النهوض بكل ما يلزم لها .

وليس من الخير أن تبقى العمائر التي تضم متاحفنا على حالها ، فإن نمو مجموعاتها وتطور وسائل الإنارة والتهوية في العمارة الحديثة ووسائل عرض التحف ، كل ذلك جعل معظم العمائر المذكورة ضيقاً لايستطيع معه أمناء المتاحف أن ينهضوا بما يطلب منهم

على أطيب وجه . ولعل أصلح مثال لبيان مايؤدى إليه ضيق المكان هو دار الآثار العربية بالقاهرة . ولست أدرى لماذا تتردد الحكومة في تشييد بناء مستقل ينتقل إليه هذا المتحف فتستقل دار الكتب بالبناء الذى يشتركان فيه ، أو في بناء دار جديدة للمكتبة ، فتستقل دار الآثار بالبناء كله . والرأى الأخير أفضل عندي ، لأن نقل الكتب أيسر وأقل خطراً من نقل الآثار، ولأن طراز البناء عربي يناسب المتحف الإسلامي ، ويسهل — إذا استقل به المتحف — أن تقام فيه بعض إصلاحات لتغيير وسائل الإضاءة ، فيصبح مكاناً لا بأس به ، إذا لم تستطع الحكومة أن تشيد بناء جديداً تنفق فيه الأموال الطائلة .

✡ ✡ ✡

بقى أن نذكر أن بلادنا في الشرق العربي ينقصها أنواع من المتاحف لابد من العمل على إنشائها إذا أردنا أن ننهض بتثقيف الشعب في شتى ضروب العلم والمعرفة .

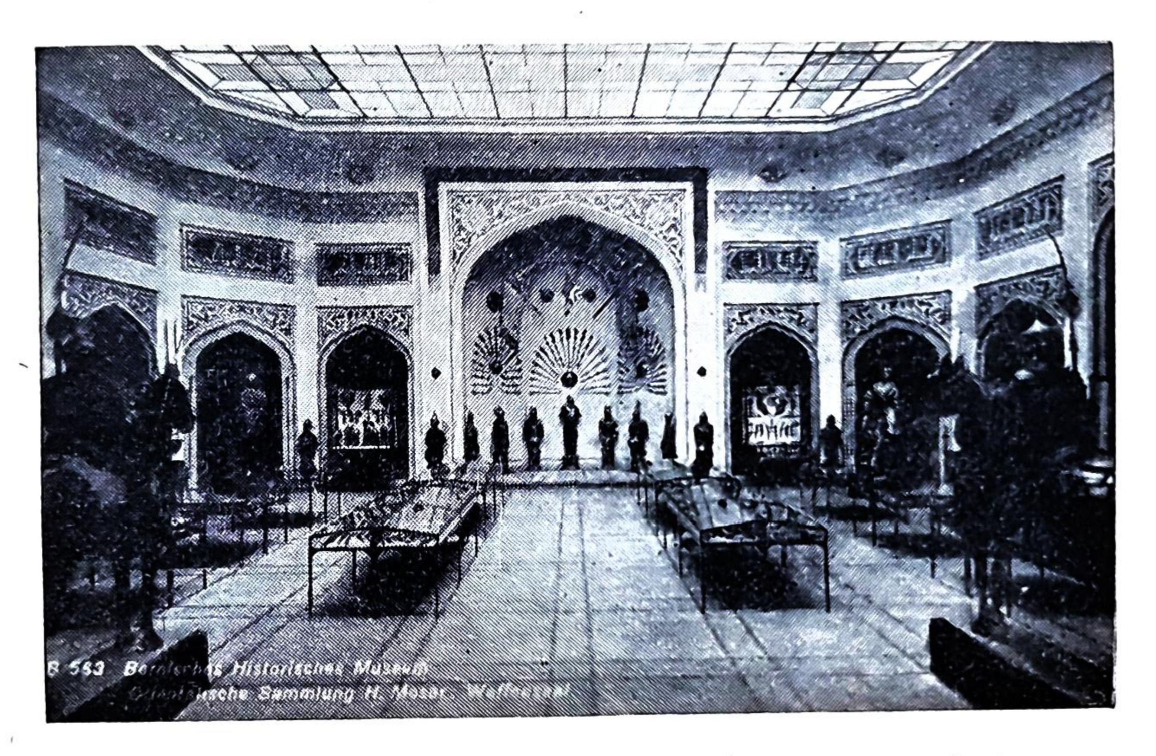
فينبغي أن يكون لنا متحف عام لتاريخ الفنون ، فإن عناية دول الشرق العربي قد اتجهت إلى متاحف الفنون القومية فقط ، ولكن الخير كل الخير في أن نضيف إلى ذلك بعض العناية بدراسة تاريخ الحضارة والفنون عند سائر الأمم في العصور المختلفة . قد يقال إن من العسير أن نحصل اليوم في سوق العاديات على تحف إغريقية أو رومانية تستحق الذكر ، أو على لوحات فنية من ريشة أعلام المصورين في عصر النهضة ، وإني أعلم أن هذا صحيح ، ولكنا إذا أردنا أن يكون هذا المتحف تعليمياً فلا بأس أن نعرض فيه نماذج مصبوبة لبدائع الفنون في المتاحف المختلفة ، ولوحات فنية منقولة عن لوحات أقطاب الفنانين . وأكبر ظني أننا لن نعجز عن أن يتم لنا في فترة من الزمن إنشاء متحف يمثل حضارة الأمم المختلفة من شرقية وغربية . ولا شك في أن هذا سيكون فتحاً كبيراً يظفر به الجيل الحديث ، فيعينه على تفهم عناصر الثقافات التي عرفتها الإنسانية .

ومن الخير أيضاً أن يكون لدينا متحف كبير لتقدم الفنون والصناعات المختلفة ، يستطيع الزائر أن يتبين فيه الخطوات التي تغلب بها الإنسان على قوى الطبيعة واستخدم عناصرها ، والاختراعات التي أصبحت أعظم مقومات الحضارة الحديثة ، وما إلى ذلك ، مما لا يجد المواطن العاديّ سبيلا إلى دراسته في دور العلم إذا لم يكن من الاختصاصيين والمغرمين بالقراءة في نواحي العلوم والصناعات .

ولا بأس من أن يكون لنا متحف لنقود الأمم في العصور المختلفة ومتحف كبير للتاريخ الطبيعي ينهض بنصيب وافر في تثقيف الشعب ، ولا بأس من أن نعنى بمتحف الشمع ،

وأن نمثل فيه أعظم الأحداث التي مرت بالإنسانية عامة ، وبمصر على وجه خاص . ولا بأس من أن يكون لنا متحف كبير للفنون المصرية في العصر الحديث ، تظهر فيه جهودنا في سبيل التقدم ، ويتنافس أعلام الفنانين والصناع بيننا على أن تستحق آثارهم الفنية أن تخلد في هذا المعرض .

وجدير بنا أن نعنى بالمتاحف الإقليمية ، لتقوم بنصيب في تهذيب الذوق الفني وتثقيف المواطنين من أبناء الريف والأقاليم . وحبذا لو أقبلت الأقاليم المختلفة على إنشاء



قاعة مجموعة « موزر » الشرقية في المتحف التاريخي بمدينة برن في سويسرا ، مثال من العرض الطيب

متاحف محلية تشرح تاريخها ، وتعرض ما اختصت به من الآثار الفنية والصناعية ، حتى يرى المواطنون ألوان الحياة في شتى الأقاليم التي يتألف منها الوطن .

* * *

وينبغي لحكوماتنا العربية ألا تضن بالمال اللازم لاقتناء التحف النفيسة التي تظهر في سوق العاديات في بلادنا ، ولا سيما ما كان منها متصلا بتاريخنا القومي وتراثنا الفني . ولا ريب في أن مهمة حكوماتنا في هذا الصدد أثقل من مهمة الحكومات الغربية؛ لأن في الغرب هواة كثيرين يقبلون على شراء التحف الثمينة فيحفظونها من التسرب إلى البلاد الأخرى ويؤلفون منها مجموعات خاصة يؤول معظمها إلى دولهم بطريق الإهداء

أو الشراء . أما في بلادنا فإن الهواة الذين يقومون إلى جانب الحكومة في هذا الميدان قليلون جداً . وإن تهاونت الحكومة أو أولئك النفر من الهواة في شراء تحفة من التحف فإن مصيرها إلى التجار أو الهواة من أهل الغرب وفي ذلك خسارة أدبية وفنية للوطن .

* * *

وجدير بالقائمين على شؤون الآثار في بلادنا أن يعنوا أشد العناية بتدريب الشبان والاختصاصيين على القيام بالحفائر والتنقيب عن الآثار بأحسن الأساليب العلمية . فالمشاهد أن أعمال الحفر للتنقيب عن مخلفات الماضي في بلادنا كانت حتى السنين الأخيرة وقفاً على العلماء الأجانب . ولابد من أن يكثر عندنا علماء الآثار الذين يستطيعون القيام بهذه الأعمال العلمية والذين يمكنهم أن يكسبوا ثقة رجال الآثار في العالم واطمئنانهم إلى نتائج الحفائر التي يديرونها وما تسفر عنه من الحقائق العلمية . والحق أن مصر قد قطعت في هذا الميدان شوطاً طيباً وتستطيع دوائر الآثار عندنا أن تفخر بفريق من الاختصاصيين في الحفائر . ولكننا نبغي المزيد لنا وللأمم الشقيقة ، ونود أن نرى اليوم الذي تقوم فيه بعثات علمية مصرية بالتنقيب عن الآثار في الأقطار العربية إلى جانب البعثات الأوربية والأمريكية .

* * *

أما العمائر الأثرية فينبغي أن نعنى بالمحافظة عليها وإنقاذها من الدمار ، وينبغي أن نيسر زيارتها بوضع شرح موجز في كل منها ، وينبغي أن تعمل حكومتنا على المحافظة جهد الطاقة على « حرم » العمائر الأثرية والمحيط الذي تقوم فيه . فلم يكن خيراً أن تقوم إلى جانب الجامع الأزهر عمارات حديثة مختلفة الطرز على النحو الذي نراه في ميدان الأزهر وشارع الأزهر .

ولا بد من أن تتعاون البلاد العربية في الذي عرضنا له في هذا المقال ، ليستطيع الشرق العربي أن يحقق ماينشده في تنظيم الثقافة وتوحيد برامجها . والحق أني أعجب أن يكون لنا في لندن معهد مصري ، وأن لا يكون لنا مثله في بغداد أو دمشق أو عمان أو بيروت ! ولست أعتقد أننا نستطيع أن نقوم بما نحن له أهل ، بحكم مركزنا الجغرافي ونهضتنا الحديثة ، إذا لم نقبل على التعاون مع سائر الدول العربية تعاوناً صادقاً في مختلف النواحي الثقافية ، فضلا عن النواحي السياسية والاقتصادية .

زكي محمد حسن

العناصر الإنسانية في أدبنا الحديث

للأستاذ محمد لطفي جمعة

ما هي العناصر الإنسانية التي ينطوي عليها الأدب قديماً وحديثاً ؟ ليس الأمر مقصوراً على تفسير الإنسانية ، بمعنى الشفقة والحنان أو المروءة والنخوة ، وإغاثة الملهوف ونجدة المحتاج ، فإن هذا عنصر من العناصر ، وإنما المقصود بالعناصر الإنسانية في الأدب سائر شؤون الجنس البشري ، وانشغال الأديب بها ، وإيداعها أدبه ، سواء أكان شعراً أم نثراً ، ليحدث بها الأثر المرجو في تحويل الناس من الشر إلى الخير ، وليدرس الإنسان حق دراسته ، وليريح الأديب نفسه من عبء ثقيل على النفس ، هو تبعته وواجبه نحو بني جنسه .

فأشعر الشعراء وأكتب الكتاب وأفصح الخطباء وأجدرهم بالثناء وأحقهم بالتمجيد ، سواء في ذلك المتقدم والمتأخر ، والمشهور والمغمور ، والنابه والخامل ، أقدرهم على وصف حالات النفوس وأثر مشاهد الكون وآيات الآفاق ، وأملكهم لتمثيل ذلك وتصويره ، تصويراً صادقاً ، كمن يعرض الشيء بذاته على أنظار الناس عرضاً أو يضعه في يديهم وضعاً ليلمسه القارئ والسامع لمساً .

فإن الشاعر والناثر لا يملك أحدهما أن يمر بمشهد من المشاهد ، التي تثير في نفسه الحزن الشديد أو الطرب القوي ، فيمنع نفسه عن محاولة الإفضاء بما تركه عنده ذلك المشهد من خير أو شر ، إما بالحديث وإما بالكتابة نظماً أو نثراً .

ولما كان الأديب أرق شعوراً وأدق إحساساً وأرهف سمعاً وأنفذ بصراً من غيره ، فهو يشعر بمرارة الحياة في أفواه الفقراء ، ويلمس مواقع سهام الزمن في أحشاء المنكوبين والمنكودين والمظلومين والمحرومين ، فإذا نظم أو نثر أو خطب أو تحدث فإنما ليطلب عدلاً للمظلوم ، ورحمة للضعيف ، ونصفة للفقير والمسود ، وعزة للذليل ، وفرجاً للمكروب ، وبذا يؤدي بعض رسالته أو كلها .

وليس هذا كل الأمر ، وإنما الأديب يعلم ما يهجس في نفس المحب المهجور ، وما يجول في قلب الحائر الضال إذا فقد سواء السبيل ، وفي خاطر الكريم العاطف إذا

لاحت له بارقة أمل في الجود ، والسجين وراء جدران سجنه ، والخائف المضطرب بين الرضى والغضب ، والشريف إذا عبث بعرضه عابث ، والمظلوم إذا تحكم فيه مستبد ، والأم إذا ثكلت وحيدها ، والفتاة الضعيفة إذا عضلها عاضل غاشم ، وغير هذه من الحالات التي يدركها ؛ لأن الأديب يعرف خلق الدهر في تحوله وتنقله ، في تحكمه في البرية ، بين رفع وخفض ، وجدة وفاقة ، وإقبال وإدبار، ورجاء ويأس ، وشدة ورخاء ، ولكن كل أديب يدرك هذه الشؤون حسب طبعه وسجيته ، ويرى الناس والأشياء من زاوية حادة أو قائمة أو منفرجة ، تبعاً لمزاجه واستعداده .

عندما كان لامرتين الشاعر الفرنسي الشهير في لبنان ، كتب في ديوانه « التأملات الشعرية » : وكان العرب يدخنون الطباق في قصبات لهم طويلة ، وهم ساكنون ، وينظرون إلى الدخان متصاعداً كأعمدة زرقاء لطيفة ، إلى أن يضمحل في الهواء اضمحلالا يشوق الرائي ، والهواء إذ ذاك شفاف لطيف ، وقد اجتمعوا تحت ظل زيتونة من أعظم ما يكون ، وفرشوا تحتهم على الأرض حصيراً شامياً ، وأخذوا في الحديث والحكايات عن البادية ، وينشدون الشعر وقد بلغت الأشعار منهم مبلغ التبغ في النرجيلة ، وحين كان يرد عليهم من الأبيات ما يؤثر في حسهم أكثر ، كانوا يرفعون أيديهم إلى آذانهم ، ويطرقون برؤوسهم ، ويصرخون تارة بعد تارة : الله الله الله ! ! . .

إلى أن قال في وصف أرملة رآها تبكي عند قبر زوجها «وكان شعرها مسدولاً من عند رأسها ، سابغاً يلمس الأرض ، وكان صدرها مكشوفاً كله على ما جرت به العادة عند النساء في بلاد العرب ، وحين كانت تطأطىء للثم صورة العمامة على رجام القبر ، أو تصغي أذنها إليه ، كان ثدياها البارزان يمسان الأرض ، ويرسمان في التراب شكلهما كالقالب » ص ٢٤ من ديوان « التأملات الشعرية » .

هذا هو العنصر الإنساني الذي تجلى للشاعر في هذه اللحظة فسجله في ديوانه .

ولما حكم على فكتور هيجو بالنفي من وطنه سنة ١٨٥٠ إلى جزيرة جرسي ، كان قريباً من فرنسا يرى شاطئها ، وبعيداً عنها لا يستطيع الوصول إليها ، فنظر إلى العالم نظرة حزينة باكية ، فألف كتاب « البؤساء » وقصته « الذين يعملون في البحر » و « أحدب نوتردام » و « ديوان الأجيال » و « صواعق العقاب » صبها على رأس نابليون الثالث صبًّا مفزعاً .

ولما زار فُلني بلاد الشرق مهد الحضارات القديمة ، وضع كتاباً ضخماً في وصف الخرائب ، وعمي وصم عن كل ما يحيط به من أسباب العمران والمدنية والحياة

النابضة ، وهذا هو العنصر الإنساني الذي تجلى على فلني ، والزاوية الحادة التي نظر منها إلى الدنيا .

ومن أدباء العرب من بكى مثله وندب : بكى الشريف على المناذرة في خرائب الحيرة ، وبكى أبو عبادة البحتري على الأكاسرة في خرائب المدائن ، وبكى الرضي على بني هاشم ، والرقاشي على البرامكة .

هذه كلها حالات نفسية ، وصور إنسانية ، وجدت مخارجها على ألسنة الأدباء وأسنة أقلامهم ، بدوافع من إنسانيتهم ، وحوافز من شعورهم .

وهناك من يرى هذه المشاهد فيتعظ ويعتبر وينطق بالحكم ، ومن قد يرى فيها جانباً فكهاً ضاحكاً ، فيبتسم ساخراً ، فلا يقل فناً ولا قدراً ولا شعوراً عمن بكى واستبكى واستوقف الصحب على الأطلال من ذكرى الأحباب والمنازل ؛ لأن المعاني والخواطر الإنسانية ليست مقصورة على الحزن أو الفرح أو التفاؤل والتطير ، كما أنها ليست خطوطاً وأقساماً وأنصبة وأسهماً ، بعضها للشرق وبعضها للغرب ، وهذا للعرب وذاك للعجم ، إنما هي كلها ملك الإنسانية وتراثها وثروتها ، تخص العناية منهم من تشاء بما تشاء ، فينميه ويزيده بالتفكر والسهر ، أو يبدده ويتلفه بالتقصير والاستهتار .

وفي كل حال ثبت لأهل النظر أن الأديب لا تنمو ملكته وتزدهر مواهبه ، إلا إذا ملك الحرية في التصرف والافتنان ، والذهاب في مذاهب القول ومناحيه ، كما يريد وحيث يشاء ، دون أن يسيطر عليه في ذلك سوى طبعه وسجيته ، وإن اختلفت الطباع والسجايا ، فإن الأدب مرتبط متصل قديمه بحديثه أشد اتصال .

* * *

الأدب القومي في كل أمة كنزها وتراثها وثروتها العقلية ، ومجموع معارفها وذخيرتها العلمية والفنية بما أودعته نثرها وشعرها من ثمرات تفكير أبنائها ، وتصوير طباعهم وأخلاقهم ، وأمثلة نفسياتهم وأخيلتهم ، وغاية ما بلغوا من البيان والفصاحة في التعبير ، ومدى ما وصلوا إليه من تثقيف العقول وصقل الألسنة .

والغرض من هذه كلها تهذيب النفوس وترقية الفطرة ، والانتقال من الحياة البدائية إلى درجات الحضارة ، وتتبع أدوار التطور في المجتمع ، وتعهد تلك الأدوار بتصوير المثل العليا وتقويم الاعوجاج واختيار الأفضل والأرقى والأسمى والأجمل من كل شيء . وأدوات هذا العمل الجليل الضخم هي الكلام ، ومنه الحديث والحوار والخطابة ، ثم الكتابة ، ومنها الشعر والنثر .

هذا هو الأصل والأساس والمبدأ في ضوء البحوث الحديثة ، ومنه يتفرع كل شيء ، وعليه يبنى كل رأي ، سواء أكان قديماً أم حديثاً ، في الشرق أو في الغرب.

وقد جعلوا للأدب تاريخاً . وتاريخ الأدب العربي يختلف عن تواريخ آداب الأمم الأوربية ، لأن تاريخ الأدب العربي يتبع أحوال اللغة نثرها ونظمها في عصورها المختلفة ، ويمتاز بشدة الاتصال الروحي بسبب وحدة الجنس والنشأة ، بالرغم من اختلاط الأمم بالعرب . وقد حصر العلماء همهم في بحوث اللغة والألفاظ وأساليب الإنشاء .

أما تواريخ الأدب في الأمم الأوربية فموضوعها ما كان لعباقرتها ونابغيها من الآثار البينة في ترقية الأفكار وإحداث الانقلابات الاجتماعية والسياسية ، وتوجيه الرأي العام الوجهة المثلى ، واتباع الخطة الفضلى ، والنظر فيما كان لنثرهم وشعرهم وتأليفهم من نتائج محمودة ، أو عواقب ممقوتة ليحتذي القراء أمثلة المحسن ، ويتنكبوا عن طريقة المسيء .

وعرف العرب النقد الأدبي ، ليقفوا على من نظم أروع الشعر ، وكتب أبلغ النثر . وسبب ذلك أن اللغة كانت عزيزة على النفس العربية ، ثم ظهر جيل رأى الفكرة والمذهب العقلي والحياة الإنسانية هي الغاية والمأرب والمقصد الأسمى ، فسلكوا الخطط القويمة في الأدب ، وجعلوا للإنسانية المكان الأول .

أما سبب انشغال بعض النوابغ عن الأغراض الإنسانية عند العرب قديماً ، فهو أن اللغة كانت تستعمل في أغراض الحياة البدوية في العصر الجاهلي ووصف مرافقها ، وفي إثارة الحروب والحض على الثارات ، والتفاخر والمباهاة وإشعال نار حمية الجاهلية ، يتبع ذلك قليل من المشاهدات والأخبار والقصص التي تمت للحالات الأولى بصلة أو نسب ، أو قل إن الأغراض الإنسانية كانت محصورة في هذا النطاق الضيق في العصر الجاهلي .

ومما عاق اللغة العربية عن بلوغ الغاية من تمام إدماج العنصر الإنساني في أدبها ، تلك البدعة القديمة العقيمة التي لازمت الكتابة ، وهي ما وصفوه بالنثر الفني في قرون الانحلال العربي ، ولا سيما الثالث والرابع ، وتحكم السجع في الأسلوب ، ذلك التحكم المعطل للتفكير ، الذي وصفه أحمد فارس بالرجل الخشبية (ص ٣٤ من كتابه) .

ومما يرفع من شأن الخطابة العربية أنها كانت جميعها وسيلة لأغراض إنسانية ، وأنها ثمرة الارتجال وتأثير الانفعال الوقتي والبديهة الفوارة ، وأن الغاية منها مقصورة على خير ، كالتوصية بفعل الرغائب واقتناء المحامد والنظر في العواقب وإصلاح ذات البين

عند نشوب الحرب ، أو خاصة بشر ، كالتحريض على القتال وشن الغارات .

ولقد كان العرب في خطبهم يعمدون إلى إثارة الشعور وإيقاظ الوجدان ويعتمدون على البراهين الواضحة والأدلة الناصعة التي تؤثر في العقول ، وعلى تصوير المعاني المرتجلة في قوالب رائعة للوصول إلى الأفئدة وإهاجة العاطفة .

وأقدم هؤلاء الخطباء الأفذاذ المصاقعة كعب بن لؤي ، وكان قومي الأغراض ، إنساني النزعة ، يحض على البر ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويعدّ في الجاهلية لسان حال القوم وباقعتهم وزعيمهم ومقدّمهم ، وإن يكن من كنانة ، ولما مات ذلك الخطيب القومي أكبروا موته وأرخوا به .

وأشهرهم بعده قس بن ساعدة ، وكان واعظاً نصرانياً من نجران ، سمعه النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة يخطب في عكاظ على جمل أورق ، فعجب من حسن كلامه ، وأظهر من تصويبه وأثنى عليه . وكان أكثم بن صيفي يتجه اتّجاهاً إنسانياً في خطبه ، ومن أقواله في هذا المعنى : « إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعي ، من فسدت بطانته كان كالغاص بالماء . شر الملوك من خافه البريء ، خير الأعوان من لم يُراء بالنصيحة » .

أما عهد الأدب الجاهلي فقد كان قصيراً لم يطل أجله إلى أكثرمن قرن ونصف قرن . لأن العرب كانوا أميين اتخذوا الشعر ديوان علمهم ومنتهى حكمتهم ، به يأخذون وإليه يصيرون ، ولكن أغراضه وفنونه كانت لاتتجاوز النسيب وذكر النساء ووصف محاسنهن وشرح أحوالهن ، وذكر المنازل والديار والحنين إلى الماضي ، ووصف جداول الماء والأزهار ، واتخذوا الشعر وسيلة مستورة للتعبير عن الحب وتعلق الذكر بالأنثى ، فهو لم يتعد غاية الطبيعة من الإعجاب بالجمال في سبيل الزواج وتأسيس الأسرة إن استطاع الشاعر إلى ذلك سبيلاً ، وهو غرض يمت للفكرة الإنسانية الكريمة بصلة روحية قوية ، وأما الفخر والمدح والوصف والهجاء والحث على الثأر فكان العنصر الإنساني فيها ضئيلاً ، ماعدا الوصف ، فإنه يظهر أثر الطبيعة في نفس الشاعر .

ونجد في الشعر الجاهلي غرضين يمكن إلحاقهما بالإنسانية لغرض يسمو على التشبيب والوصف ، وهما الاعتذار بين الأحياء ورثاء المتوفين . أما الاعتذار فمناطه درء الشاعر أو الكاتب والخطيب تهمة عن نفسه ، والتلطف في الاحتجاج لبراءته منها ، وهو نوع من الدفاع المشروع في التقاضي ، والدفاع في ذاته أدب رفيع ذو غرض إنساني ، ومن يحسن الدفاع عن نفسه يحسنه عن غيره ، والنابغة في الجاهلية فارس هذه الحلبة ، وهو القائل :

لئن كنت قد بلغت عني خيانة لمبلغك الواشي أغش وأكذب

وبهذا يكون العرب أول من وضع الأدب القضائي وفن المرافعات ، التي نبغ فيها الفرنسيون المعاصرون .

أما الرثاء فكان فناً إنسانياً عظيما في الشعر والنثر ، بل هو أظهر تلك الفنون ، وقد تأثر الأدب العربي الحديث بالقدماء ، وقلدهم فيه ، وأضاف إلى تقليدهم تعداد المناقب التي عرفها الرائي ، وأثر تفجعه وتلهفه على المتوفى ، وذكر الأسباب المعروفة منه ومن سامعيه لاستعظام المصيبة في الفقيد الراحل . وقلنا إن الرثاء فن إنساني لأنه في الأغلب يكون خالياً من الأغراض الشخصية ، ومنصباً على العرفان بالجميل ، أو التنويه بفضل لصاحبه ، أو الحث على التحلي بالجمال ، والتعزية والنصح بالصبر والرضا على ضيم الدهر والتسليم بالأقضية والأقدار، وهذه كلها أغراض إنسانية لاشك فيها ، ولذا يقتضي الرثاء في الشعر والنثرضرب الأمثال بموت الأنبياء الكرام والملوك العظام ، وفناء الممالك الكثيرة والأمم القوية ، وقد لايخلو الرثاء من غرض سياسي ، مثل رثاء أنطنيوس ليوليوس قيصر وجثته مازالت طريحة الأرض مضرجة بدمائها ، ولكن هذا نادر ، وقد جاء على على لسان الشاعر شكسبير في مأساته ، فهو أقرب إلى فن الدرامة منه إلى فن الرثاء .

واشتهر الكاهن بوسويه الخطيب الفرنسي الكبير بالمراثي بعد العرب بألف سنة . وتطور الرثاء فصار « فن التراجم » ومصدر التاريخ ، فاحتوى على ثلاثة عناصر إنسانية ، وأصله عاطفة واحدة .

وعند ما نبحث عن العنصر الإنساني في الأدب العربي القديم نعثر عليه في شعر امرىء القيس ، ولكنه يغلب على شعر زهير ، لأنه كان صاحب روية وتعمل وتهذيب لما يقول ، يتجنب الكذب والسخف والهذر ، كثير العفة . وسئل عمر بن الخطاب عن أشعر العرب فقال : هو الذي يقول ومن . . ومن ، يقصد زهيراً .

وقد ظهر العنصر الإنساني في أدبه ، فأكثر من الأمثال والحكم . والنصح ، لتبصير العرب بأحوالهم وحقن دمائهم ، ففتح باب الخير على مصراعيه لمن خلفه من الشعراء .

* * *

أما العصر الحديث وهو يشمل القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين فقد وصلت الدولة إلى طور الفساد والاضمحلال حكومة وشعباً وأخلاقاً ولغة وأدباً ، فهجم الفرنسيون على الشرق ، طمعاً في مصر وسوريا وإمبراطورية الهند ، ولكن كان في

غزوتهم هذه خير وبركة لمصر ، فإنهم جلبوا معهم العلماء والمؤرخين والأدباء والطباعين ، ووضعوا نظام حكم أقرب ما يكون للحكم في دولتهم . وقد سجل الجبرتي في تاريخه الممتع ما يثبت هذا ، وقيد أوابد أخبارهم ، ودون شوارد أفعالهم وأقوالهم .

فكان من أثر ذلك الفتح الفرنسي في الأدب العربي ، وظهور محمد علي ، اتصالنا باللغة الفرنسية وعلومها وآدابها وفلسفتها وشرائعها ، ورحلة البعثات المصرية طلباً للثقافة في جامعاتها ومعاهدها ومدارسها ومراصدها وأنديتها وبيوتها ، وأن اتصلنا بالمستشرقين ، أمثال كاترمير ودي ساسي ، واطلعنا على ذخائر العلوم والآداب ، وبدأنا نقتدي بالمدارس الأدبية لتصحيح توجهنا بعد سبعة قرون من الخمول والنسيان والدعة ، اختفى خلالها العنصر الإنساني من الأدب ، بل اختفى الأدب نفسه ، ولم يبق منه إلا ألوان باهتة ، وآثار يحدق بها البوار .

وسرى تيار تلك النهضة المباركة إلى البلاد العربية والأمم الشقيقة ، ولا سيما سوريا ولبنان ، بفضل رجال الدين المسيحي ، فأنشأوا المدارس والكليات ، وانتظم فيها كثير من شبان سوريا ولبنان ، كان لهم الفضل في نشر اللسان العربي الفصيح ، وتوسيع دائرة علومه وآدابه .

وللفحول منهم أثر ظاهر باق في الأدب العربي ، وقد تخلل أدبهم المنظوم والمنثور عناصر إنسانية لا ريب فيها .

وإن قيل إن جبران ونعيمة والريحاني وإيليا أبو ماضي وغيرهم من أدباء المهجر تأثروا بأدب أمريكا ، أجبنا بأننا نحكم على أدبهم العربي الصميم الذي كتبوه بلغة الضاد وأودعوه خلاصة ذكرياتهم عن أوطانهم وحياتهم وحنينهم وأواصر المحبة العميقة التي ربطتهم بأرضهم وقومهم وأهلهم ، وقد عاد منهم من عاد إلى وطنه ، مثل فرح أنطون والريحاني وميخائيل نعيمة ، ودهم القضاء منهم من لم يعد ، وكان يضمر العودة ، حتى القدماء منهم ، مثل أحمد فارس ، لم يطق صبراً على الهجرة بعد طول الاغتراب في مصر ومالطة وتونس ولندن وباريس والقسطنطينية ، فعاد إلى وطنه ودفن في الأرض التي ولد فيها ، وكتابه بل كتبه كلها تفيض بالحب والوفاء للشرق والعرب ، ومن هؤلاء من أدخل فنون التأليف والتمثيل الدرامي والكوميدي والتراجيدي ، مثل أديب إسحق ، وخليل اليازجي ، ونجيب الحداد ، وفرح أنطون ، وقد نظموا شعراً وكتبوا نثراً ، وأوجدوا فناً جديداً في مصر والشام ، فعاد ذلك على القطرين بالتقدم في الفصاحة وسعة الخيال وحرية الفكر وقوة الإرادة ، وهذه أمس الصفات بالعنصر الإنساني .

ومن السيدات العربيات اللواتي ألفن كتباً في الأدب منطوية على عنصر إنساني عائشة التيمورية ، وكانت شاعرة ناثرة ، وزينب فواز ، وضعت كتاب « الدر المنثور في طبقات ربات الخدور » وهو في تاريخ النابغات من نساء العرب وغيرهم ، والسيدة وردة اليازجي ، ولها ديوان ، والآنسة مي ، والسيدة ملك ناصف (باحثة البادية) ، وكانت شاعرة بنت شاعر فحل وكاتب كبير .

وكانت حياة المرحومة (مي زيادة) مأساة إنسانية في تاريخ الأدب الحديث ، عاشت للفكر والأدب وخدمة الإنسانية ، وضحت بشبابها وجمالها ومالها في سبيل نصرة الفنون الرفيعة والأدب العالي ، خطابة وكتابة ونظما وتأليفاً وتصنيفاً ، وخلدت ذكرى أختها باحثة البادية بكتاب جميل .

ثم بدت العناصر الإنسانية تتجلى أظهر وأوضح وأجمل ما تكون في القصة العربية الحديثة بأنواعها ، سواء أكانت طويلة « كعذراء الهند » لأحمد شوقي ، أو « زينب » لحسين هيكل ، أم قصة متوسطة أم قصيرة ، لأن كتابة القصة تشمل شعبة واسعة من فنون الأدب ، يربطها جميعاً رباط الخيال القصصي والعنصر الإنساني .

وقد بدأت كتابة القصة المصرية بقلم المرحوم محمد عثمان جلال ، صاحب «العيون اليواقظ في الأمثال والمواعظ» .

وتبعه المرحوم مصطفى صادق الرافعي في كتاب « المساكين » ، وعنوانه يدل على موضوعه ، وقد عاصره ونافسه في هذا الباب المرحوم السيد مصطفى لطفي المنفلوطي فوضع كتاب « النظرات » وكتاب « العبرات » عالج فيهما موضوعات إنسانية بحتة مثل الدفين الصغير (يصف وفاة أحد أولاده) والغني والفقير ، والرحمة ، وعبرة الدهر ، والانتحار . وفي سبيل الإحسان ، والنبوغ ، إلى آخره .

وعندما تعرض المرحوم محمد حافظ إبراهيم لنقل كتاب «البؤساء» عن الفرنسية أوجس أصدقاؤه خيفة لقلة معرفته بتلك اللغة ، ولكن حالة حافظ النفسية وانطواءه على ما كان يسميه فلاكة أو بؤساً (في سنة ١٩٠٣) ، وغزارة مادته في اللغة العربية ، وحسن ذوقه ، وصلته بالمرحوم الإمام محمد عبده ، كل هذه عوضت عن تقصيره في لغة فكتور هوجو .

وإليك العنصر الإنساني متجلياً في الصفحة الأولى من كتابه إلى الأستاذ الإمام :

إنك موئل البائس ومرجع اليائس ، وهذا الكتاب أيدك الله ، قد ألم بعيش البائسين ، وحياة اليائسين ، وضعه صاحبه في منفاه ، تذكرة لولاة الأمور ، وجعله بيتاً لهذه

الكلمة الجامعة ، وتلك الحكمة البالغة . الرحمة فوق العدل . وقد عنيت بتعريبه لما بين عيشي وعيش أولئك البؤساء من صلة النسب .

الأبيضان أبردا عظامي الماء والفت بلا إدام

ثم أخرج حافظ « ليالي سطيح » سنة ١٩٠٧ . وفي سنة ١٩١٢ ظهر كتاب « ليالي الروح الحائر » لمؤلف مجهول ، والمتحدث في هذا الكتاب روح متجسدة وأغلبه فى انتقاد الأحوال الاجتماعية في مصر . ثم ألف الأستاذ طنطاوي جوهري كتاب « أين الإنسان » وقدمه إلى المؤتمر الدولي الذي انعقد في لندن سنة ١٩١١ . أما المتكلم في هذه الرساله فهي روح سماوية وأما الحديث فيدور حول التقدم العالمي والإخاء البشري ، وهذه الرسالة مفخرة للأدب العربي العصري ، وهى جديرة أن تكون موضوع دراسة خاصة (انظر مقال البروفسور جيب في مجلة الآداب الشرقية ج ١ سنة ١٩٣٥) .

ووضع الدكتور حسين هيكل عام ١٩١٤ قصة «زينب» وهي من الأدب العصري الحي ، تغمره العناصر الإنسانية ، ويعد بناء هـذه القصة ممتعاً من الناحيتين الإنسانية والنفسية ، وواضح أن المؤلف قصد إلى نقد الروح الرجعية التي ما زالت تسيطر على طبقة خاصة من الناس في مصر ، على الرغم من التقدم الحديث ، حتى تعميهم أحيانا عن الحب والرحمة والأواصر الإنسانية والعواطف الملتهبة في عهد الشباب ، ثم الإشادة بفضائل العفة والوفاء والإخلاص ، وكان نظام الأسرة وتحرير المرأة هما المحور الذي تدور عليه انتقادات المؤلف الاجتماعية ، أضف إلى ذلك مظاهر الحياة الاجتماعية في مصر ، مثل الحكيم البلدي ، وطبيب القرية ، ومشايخ الطرق .

وقد أشار إلى حقارة الخدمة العسكرية تحت سيطرة الأجنبي . ويمكن القول إن الأدب العربي الحديث قد استطاع تمثيل العواطف والعناصر الإنسانية في الأخلاق السائدة في الحياة الاجتماعية .

وجاء الأستاذ توفيق الحكيم « بعودة الروح » في وصف ثورة سنة ١٩١٩ وأخيراً « بالرباط المقدس » وهو قصة مصرية حديثة تشرح الفساد الاجتماعي السائد ، واستهتار بعض النساء المتعلمات بالرباط المقدس ، وهو العلاقة الزوجية وحياة الأسرة .

إن العواطف النبيلة لا تزهر ولا تثمر في حياة اجتماعية يقف فيها الشعور عند نقطة تقوم معها الأغراض الجسدية مقام أي عاطفة سامية من عواطف الإنسانية ، وإن أي فن لا يكون في الأصل قائماً على حب الفنان لناحية من نواحي الحياة لا يمكن مطلقاً أن يصل إلى درجة الكمال ، ثم إن تطور غريزة الحب إلى عاطفة إنسانية سامية

يحتاج إلى تدريب طويل شاق ، وحتى فضيلتا العطف والإحسان كان يندر وجودهما في مظهرها الاجتماعي الراقي في مصر ، وكان مرجع هذا الضعف إلى أسباب قد زالت بانتشار الثقافة ، ونهوض الأدب في العالم العربي بعد الحرب العالمية الأولى ، وامتزاج الشعوب ، وتغذية الأدب العربي بأفكار حديثة في علم النفس والاجتماع والتاريخ ، فأثبت الأدب العربي حيويته ، وسار قدماً في طريق الاستقلال .

وعندما نذكر الأدب العربي إنما نقصد إلى الأدب بجميع أنواعه : الشعر والنثر والرسائل والفصول والمسرحيات والقصص وفصول المجلات ومقولات الصحف وخطب السياسة ومرافعات المحاكم ومحاضرات العلماء والأدباء ، ولا نفضل الجديد على القديم دائماً ، ولا نتعصب للقديم على الجديد دائماً ، لأن لكل منهما خصائصه ومحاسنه ، ورب قديم بزّ حديثاً وتفوق عليه . وقد أسهبنا في الاستشهاد بالقصة لأن الرسالة أو الموضوع الأدبي في المقالة أو الفصل أقل من أن يفي بالغرض الذي نسعى إليه ، وهو الإبانة عن العناصر الإنسانية .

وقد أتينا على العناصر الإنسانية في أدب القصة الطويلة ، ولسنا نغفله في القصة الوسطى والصغيرة اللتين اشتهر بهما الأستاذان عباس محمود العقاد (سارة) ومحمود تيمور بعد وفاة المرحوم أخيه محمد تيمور ، ونكتفي بالإشارة إلى مجموعاته التي نقل بعضها إلى اللغتين الفرنسية والألمانية ، ولا نكتم إعجابنا بسارة وببعض قصص تيمور القصيرة . ولكن هناك قصصاً أخرى كتبها أدباء معاصرون لا تقل شأناً في الحيوية والإنسانية عما ذكرنا ، فما حوته تلك القصص يحقق الآمال التي علقها النقاد والقراء على انتاج مؤلفيها من الناحية الإنسانية والاجتماعية .

وغني عن البيان أن فنون الأدب في الشرق والغرب هي ألسنة أحوال المجتمعات الإنسانية ، فلا يمكن أن يخلو أي أثر أدبي من نزعة إنسانية أو عنصر بشري ، لأن الملاحم والقصائد القصصية الطويلة والقصيرة ، وكتب الأدب المشهورة قديماً وحديثاً ، كمؤلفات الجاحظ والمبرد ، ودواوين الشعراء ، حتى المتصوفين كابن الفارض ومؤلفات المعري ، والكتب العصرية في النهضة الأدبية الجديدة منذ مئة سنة إلى يومنا هذا ، لا تنحصر أهدافها في بلاغة التعبير وفصاحة التركيب ، بل كلها تنطق بأفصح بيان عن عصر تأليفها ونظمها ، وعن شخصية مؤلفها وعقله وأحوال أمته ومن يعاصره من الأمم والجماعات والأفراد ، وفي كل منها كشف بل كشوف عن شؤون تلك العصور وعاداتها وأخلاقها ، ومعتقداتهم ونفسياتهم ، يستشفه القارئ والناقد بأدنى لمح .

فإن القصة المؤلفة بقصد القراءة والتسلي، والمسرحية الموضوعة بغية التمثيل والتلهي ترمي إلى أغراض مهمة ، أولها غرض إنساني ، وفائدة اجتماعية ، وإن المؤلف لم يضعها إلا لإفهام القراء والسامعين والنظارة مقاصده الأدبية والفنية .

وليست هذه المقاصد خاصة بأدباء أمة دون أمة ، أو بعصر دون عصر ، فيتعين أن يكون في الأدب العربي الحديث عناصر إنسانية بعدد ما فيه من ألوان وأنواع ومؤلفات من كل جنس ، وإلا فإنه لا يستطيع أن يعيش ويترعرع لفقد علة وجوده ، لأن العنصر الإنساني هو حيوية الأدب ومادته الروحية ، ووسيلة ذيوعه وأداة انتشاره وممازجته الأرواح حتى الخلود .

لقد كان أبو العلاء مثلا يصوغ الحقائق في شعره ، ويوعي تجاريب الحياة في منظومه ، ويشرح حالات النفس حتى يكاد ينال سريرتها ، ومن تأمل قوله :

فلا هطلت علي ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا

وكيف شرع سنَّة الإيثار وبالغ في إظهار رقة النفس للنفس ، وانعطاف الجنس نحو الجنس ، فمن تأمل هذه المعاني أبى أن يصف الأدب العربي بالجمود والسكون ، وعلم أن شعراء العرب ، من امرىء القيس إلى أحمد شوقي ، لم تغرب عنهم حقائق الكون الكبرى ، ولم يفتهم تقرير المبادىء الاجتماعية العالية ، وأنهم من أقدر الأمم على تقريبها من الأذهان ، وإظهارها في أجلى صور البيان وأجملها .

والأمل معقود على الشباب من أدبائنا وشعرائنا في أن يسلكوا هذه الطريق ، لتنعم آثارهم بالبقاء والخلود :

محمد لطفي جمعة

صناعات عزيزة

للدكتور ابرهيم جمعة

يحق للفنون العربية أن تفخر بمجموعة من الصناعات الدقيقة لا نظير لها في فنون الأمم الأخرى ، هي صناعة الحفر في الجص والرخام والخشب والنحاس وصناعات التطعيم ، والتكفيت ، والفسيفاء والتذهيب وتجويد الخطوط وزخرفتها ، وكلها صناعات تحتاج بطبيعتها إلى كثير من الأناة والاحتمال ، يحذقها أصحابها في غير مدرسة ويتلقونها عن غير معلم ! ذلك لأن حذقها والتفوق فيها راجع إلى الوراثة أكثر من رجوعه إلى التلقين .

وغالباً ما يحرص أصحابها على الاحتفاظ بسر المهنة فيها ، فلا يمارسون صناعاتهم على مرأى من الناس ، إلا حيث لا يكون من ذلك محيد . وهم يؤثرون أن يزاولوا أعمالهم في شبه العزال . ومن عجيب أمر هذه الصناعات أنها لا تجود إلا حيث يسود الهدوء ويتوفر الانعزال ، ولذلك كانت العناصر الثلاثة الضرورية لنجاح صناعة من هذه الصناعات هي الأناة والاحتمال والانعزال .

سر المهنة



شكل ١ : نموذج من الحفر على الرخام في مسجد السلطان حسن من القرن الثامن الهجري

الاحتفاظ بالوباء

ويكاد يكون المجيدون في هذه الصناعات ، وهم قلة على كل حال، أشبه الناس بالعبّاد : ثوابهم على الأناة والاحتمال والانقطاع رضاً يلتمسونه عند الله وعند الناس ، لولا ما هو مركب في نفوسهم من « الأنانية » التي مبعثها رغبتهم في الاحتفاظ بأصول الصنعة لأنفسهم وبنيهم والأقربين.

ولو أصبحت هذه الصناعات مشاعة المعرفة سهلة التناول ،

لآلات سريعاً إلى الابتذال ، ذلك ما شوهد من أمرها حين أصبحت لها في زماننا مدارس تعلم فيها ، وعنـدما دخلت عليها « الآلة » فأكثرت من الإنتاج ، فكأنما هي لا تجود إلا حيث تبقى سرًّا من الأسرار ، وحيث لا يزاولها إلا قلة من الناس، وحيث تكون « اليد » دون الآلة هي العامل الأساسي في الإخراج . . .



شكل ٢ : نموذج من « وكالة » قايتباي للحفر على الرخام من القرن التاسع الهجري .

٭٭٭

وقد بدأت طائفة منها في خدمة « العمارة الدينية » فنشأت صناعة الحفر في الجص والرخام والخشب وفسيفساء الزجاج والرخام لتزيين الكنائس والمساجد ، ثم وجدت سبيلها بعد ذلك إلى « الدور » فاستخدمت لتجميلها . كما بدأت طائفة ثانية في خدمة « الكتب المقدسة » كتجويد الخط والتذهيب ، ثم جاوزتها بعد ذلك إلى أغراض أخرى، وأدت صناعات التطعيم والتكفيت والفسيفساء أغراضاً مدنية وأخرى دينية منذ قدر لها الإزدهار في العصور الوسطى . . .

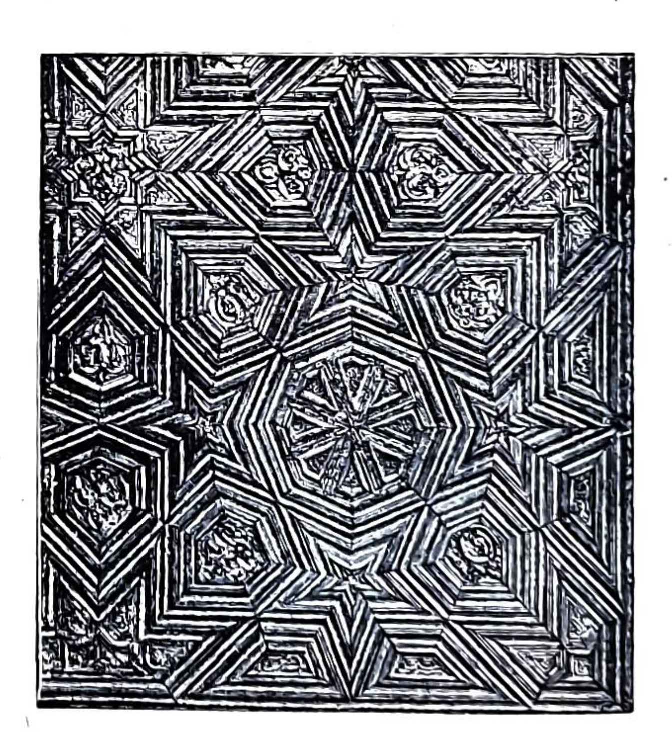
وقد ظلت هذه الصناعات زاهرة حتى نهاية عصر المماليك ، ثم أدركها الضعف بصفة عامة ، ولكن مصر استطاعت أن تحتفظ على الزمن بنفر من حذاق هذه الصناعات الذين ورثوها لأبنائهم جيلاً بعد جيل ، حتى أدركت الزمن الذي نعيش فيه وما أن انتهت هـذه الصناعات إلى زماننا ، زمان الآلة والمدرسة ، حتى أصابها شيء غير قليل من التدهور وإن بدت معنياً بها في معاهد التعليم الفني والصناعي ، ذلك لأنها أصبحت في هذا العصر تعلم للاحتراف وكانت قبل اليوم هواية قبل أن تكون احترافاً ، وطغت عليها « الآلة » العاتية فأحالت بعضها سلعاً رخيصة تباع في الأسواق بالمئات ، وكان صناعها الأوائل لا ينتجون الواحـــدة منها إلا بعد بذل الكثير من الجهد والوقت والمال .

وما يزال « شغل اليد » في زماننا يقدر تقديراً خاصاً ويقوم تبعاً لما يبذل فيه من جهد ووقت ، في كل ناحية من نواحي الميدان الصناعي الفني ، وما تزال في الوجود بقية

من هواة « النادر والثمين » يبحثون عن الصانع المجيد يلتمسون عنده التحفة ذات القيمة ويثيبون منتجها إثابة تدل على التقدير والإعجاب ، وهذه البقية من الناس ممن يقتدرون الصنعة والصانع هي « العوض » الوحيد الذي يتسرى به الصناع المجيدون في زمان أخص صفاته عدم التقدير وقلة التدقيق في الإنتاج الفني ، قامت فيه الآلة مقام اليد في سرعة الإنتاج ، وحلت « الأسطمبة » محل التصميم ، و « العقل الميكانيكي » محل العقل الواعي ، و « الخامة » الرخيصة محل الخامة المنتقاة ، بصرف النظر عما تتكلفه من ثمن ...

على أن أكبر ما أصيبت به هذه الصناعات الفنية ، بسبب طغيان « الآلة » في ميادينها ، إنما هو انعدام « الطابع الشخصي » الذي كان يميز تحفة عن تحفة وصانعاً عن صانع ، وفي هذا الطابع الشخصي تتمثل المقدرة الفنية الخاصة وتظهر المواهب ، وتتصل نفس الصانع بالتحفة التي يصنعها ، وتقوم لليد بدور الوسيط ودور المنفذ في آن .

ولا شك أن المبدعين من صناع هذه الفنون قد رزقوا الصبر واعتدال المزاج ومتانة الأعصاب واتزان الفكر ، ومرونة اليد ، وغلب طابع الهدوء على كل ما صدر عنهم من أعمال ، وقنعوا من عرض المادة بما يقيم الأود ، ومن تقدير الأشخاص بالدعاء لهم بسلامة اليد والذوق !



شكل ٣ : لوح من الخشب المزخرف به حشوات من ضريح الصالح نجم الدين أيوب من القرن السابع الهجري .

ومن عجب أننا نجد الكثير من هؤلاء الحذاق أميين ، لم يتلقوا أصول الكتابة ولم يعلموا فنون الرسم ، ولم يدرسوا التناسب والتقاسيم . ولم يحصلوا معاييرهم في الجمال عن كتاب قرؤوه أو درس لقنوه ، وإنما توفرت لهم حاسة الجمال بدقة الملاحظة والمرانة على المحاكاة ... وقد يخيل إلينا أن « مهرة » الفنون الصناعية الدقيقة من الأميين لا بد أن تكون بهم حاجة إلى الاستعانة بجهود المزخرفين والخطاطين وغيرهم من ذوي الكفايات الخاصة ، ولكن الأمر الواقع دل

على غير ذلك فقد ثبت أنهم هم الذين يضعون «التصميم» لأنفسهم بغير حاجة إلى «مصمم» وأنهم يعتدّون بمقدرتهم على الابتداع والافتنان بقدر ما يعتدّ «المصممون» الذين خلقهم «تقسيم العمل» في الزمن الأخير، بل عدوا أنفسهم خيراً من هؤلاء، لأنهم يصممون «وينفذون»، ويزيدون على ذلك دراية بنسبة خلط المواد، وحسن انتقائها، ومعرفة خواصها، ومزاياها وعيوبها، ومقدار صلاحيتها للأغراض الصناعية.

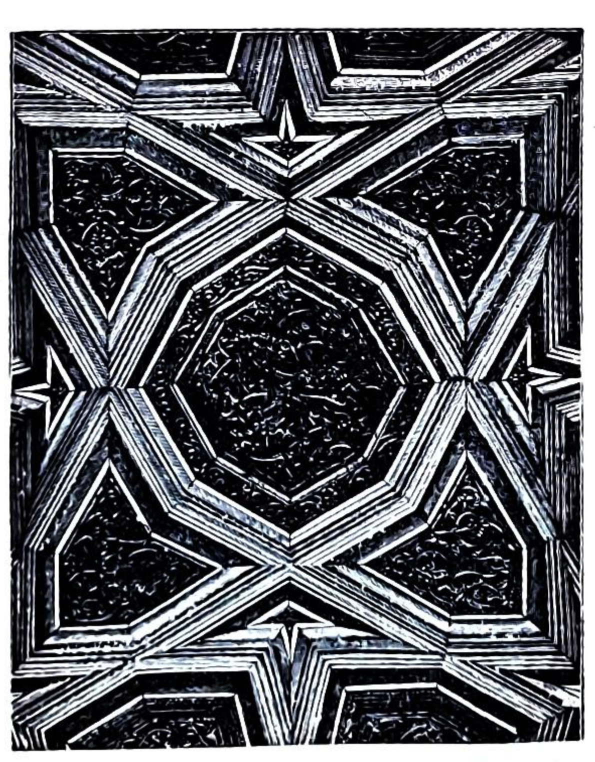
وقد كان صناع العصور الوسطى العربية في ميادين الحفر والتطعيم والتكفيت، والفسيفساء والزخرفة والخط والتذهيب يتنقلون من بلد إلى بلد على طول القيصرية العربية وعرضها، يؤدون رسالة كاملة، لا فرق بين موصلي يخدم بفنه في وادي النيل، ومصري يؤدي دينه للفن في عاصمة الخلافة، لأن فكرة الوطن الخاص لم تكن تقف حائلا دون خدمة الجماعة العربية العامة.

موصلي

وكان الأمراء والخلفاء والسلاطين حماة للفن في كل مكان يجتذبون إلى بلاطهم مهرة الصناع ويعهدون إليهم بزخرفة المباني الدينية والمدنية وصنع الأثاث وإنتاج التحف التي تحلى بها القصور ... ومن الإنصاف أن نقول إن ازدهار هذه الصناعات كان رهناً في العصور الوسطى الإسلامية بتقدير الأمراء والخلفاء والسلاطين وتشجيعهم وإثابتهم على الجهود.

٭٭٭

عرف المصريون منذ زمن مبكر فن زخرفة السطوح بالحفر على الجص والحجر والرخام وقد أبدعوا من الزخارف الهندية والنباتية والكتابية شيئاً يبهر الفكر والبصر وأقدم أمثلة الزخارف الجصية المحفورة ما يوجد في بواطن العقود بالجامع الطولوني، وهي من التنوع بحيث لا تشبه واحدة أخرى في كافة أنحاء المسجد على سعته، ولو ذهب الذاهبون إلى أن صناع هذه الزخارف مستجلبون من العراق،



شكل ٤ : لوح من الخشب المحفور به حشوات ذات زخارف نباتية في مسجد قوصون من القرن الثامن الهجري

لا نحصر فخر المصريين فيما أبدعوه من زخارف الجص الرائعة في مسجدي الظاهر بيبرس ، والمنصور قلاوون في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ؛ فهنا يصل هذا الفن إلى الذروة من تقدمه لاسيما في ضريح « المنصور قلاوون » بجهة النحاسين . وقد عاشت في مصر سلالة من هؤلاء المزخرفين توارثت المهارة كابراً عن كابر حتى أدركت عصرنا وهي ما تزال تعمل الآن بنجاح منقطع النظير في ترميم هذه المساجد بإشراف من إدارة حفظ الآثار العربية .

أما زخارف الحجر والرخام فهي على الأرجح مصرية الأصل فقد عرفها الأقباط في العصر السابق على الإسلام ، تدل على ذلك الزخارف الحجرية التي ما تزال تشاهد على جوانب المراقي التي تشبه المنابر في الكنائس ، وما يضمه المتحف القبطي منها . وقد تطورت هذه الصناعة الدقيقة في مصر وبلغت على أيدي المزخرفين المصريين شأواً عظيما في العصر المملوكي ، تشهد به زخارف الرخام في جامع السلطان حسن شكل (١) ، وفي المنبر الحجري الذي صنعه « قايتباي » لمسجد السلطان « برقوق » بالقرافة ، وهي نموذج فريد لتقدم صناعة الحفر على الحجر في مصر ، وكذلك ما يشاهد من هذه الزخارف في جامع قايتباي ولا سيما القبة وفي « وكالته » بجهة باب النصر بالقاهرة (شكل ٢) ولايزال نفر من المصريين يزاولون هذه الصناعة بنفس التقاليد والمهارة المعروفين عن عصر المماليك ، تستخدمهم إدارة حفظ الآثار في أغراضها الخاصة، ويستفيد من فنهم ذو اليسار في تحلية السبل وتركيبات القبور .



شكل ٥ : قطعتان من الخشب المخروط من نوع المشربية من صناعة مصر في عصر المماليك .

* * *

وهذه صناعة عزيزة أخرى كانت في وقت مضى ميداناً برع فيه الصناع المصريون ألا وهي صناعة



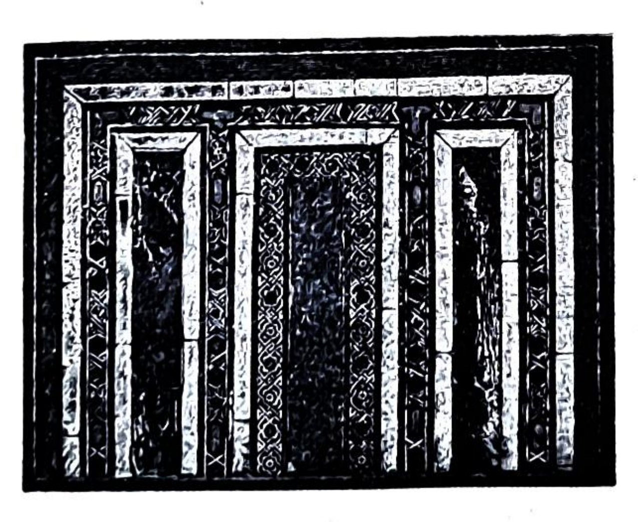
شكل ٦ : نموذج من الخشب المطعم بالعاج من منبر إحدى الكنائس بمصر من القرن الثامن — التاسع الهجري .

الأخشاب المزخرفة لتحلية المنابر والمحاريب المتنقلة وجوانب المشاهد وكراسي المصاحف والأبواب وغيرها « بحشوات » الخشب المحفور ، بلغت ذروة تقدمها على طول حكم الفاطميين والأيوبيين والمماليك ، وفيها تجلت عظمة المزخرف المصري ومقدرته على الإبداع والتأليف والتركيب . نسوق منها أمثلة باهرة ندلل بها على تفوق المصريين في هذا الفن الدقيق ، وهو التفوق الذي ما نزال نلمسه إلى اليوم ؛ والذي نريد أن نتشبث به على الزمن ونحميه من عدوان الإغفال وعدوان عصر الآلة الطاغية ، فهو بقية من بقايا المجد الفني الذي كان لنا في العصور الوسطى .

ولا تكاد تقع العين على قطعة منه حتى تشيع في النفس موجة من الإعجاب لا تلبث أن تتحول إلى تدقيق وإعمال للنظر والفكر فيما أبدعت يد المصريين في هذه الصناعة .

وأروع أمثلة هذا الفن الدقيق قطعة من الخشب المزخرف من ضريح الصالح أيوب (شكل ٣) — وقطعة أخرى يقال إنها من منبر كان في جامع « قوصون » من العصر المملوكي (شكل ٤) .

وتمت إلى هـذه الصناعة بصلة قوية أخشاب « المشربيات » وهي أخشاب مخروطة « معشقة » كانت تستخدم في عمارة البيوت



شكل ٧ : مثال من الفسيفساء الرخامية لتغشية السفل في جدران المساجد من القرن الثامن — التاسع الهجري .

أكثر من استخدامها في الأماكن الأخرى وكان استخدامها في البيوت على هيئة الحواجز أو الشبابيك أو « الخارجات » يقصد منه أن يحجب من بداخل الدور عن أعين المارة في الوقت الذي يسمح فيه للمحتجبين برؤية هؤلاء ، فضلا عن إمكان نفاذ الهواء منها إلى داخل الدور . . . وهذا النوع من الصناعة علم على القرون الوسطى ، فما إن تقع عليه العين في منزل من منازل المماليك في جهة النحاسين ، حتى تسارع إلى الذهن ذكريات كريمة غالية . وهو بدوره دليل على افتتان الصانع وسمو خياله ومقدرته على الإبداع وجمال التركيب وسلامة الذوق (شكل ٥) .

ومما يمت إلى هذه الصناعة أيضاً صناعة تطعيم الخشب بالعاج والأبنوس أو بهما معاً وهي معروفة في بلادنا منذ العصر القبطي ؛ وفي دار الآثار العربية نماذج من هذه الصناعة يرجع أقدمها في العصر الإسلامي إلى الدولة الطولونية ، وزخارفها هندسية على الأغلب ، ويدل وجودها في الكنائس والمساجد على أنها كانت معروفة للمسلمين والأقباط على السواء ، وهي أكثر ظهوراً في الكنائس منها في المساجد (شكل ٦) .

وفي دار الآثار العربية بالقاهرة نماذج رائعة من ألواح الخشب المطعم بالعاج والأبنوس ، تدل على تفوق المصريين في هذه الصناعة منذ زمن بعيد . وما تزال هذه الصناعة زاهرة في بلادنا ، تستخدم في نفس الأغراض التي وجدت من أجلها منذ العصور الوسطى : في الأثاث المنزلي ، وفي تحلية الحشوات التى تجمل بها جوانب المنابر وفي غير هذا وذاك . وتشتهر بلادنا بصناعة الصناديق الخشبية المطعمة بالعاج أو الصدف والمعروفة « بالشكمجيات » وقد تبلغ من الإجادة والإتقان بحيث تصبح تحفاً نادرة مرتفعة الثمن ، لا يقتنيها غير ذوي اليسار . ومن المؤسف أن الآلة بدأت تغير على هذا النوع فأنتجت مصانع دمشق الآلية مثلا نوعاً رخيصاً من هذه الصناديق الصغيرة ، أخذ يهدد صناعة التطعيم بالعاج والصدف بدمار قريب .

* * *

ومن الصناعات الدقيقة التي ما تزال باقية في مصر ، يحذقها نفر قليل من ذوي الخبرة فيها ، صناعة الفسيفساء الرخامية والزجاجية ، ولا سيما الأولى منهما . وهي منحدرة إلينا من العصر المملوكي ، حيث كانت تغشى بالفسيفساء مساحات معينة من داخلية المساجد ، أخصها السفل فيما يحيط برواق القبلة وحنايا المحاريب ؛ والألوان الغالبة فيها عندنا الأسود والأصفر والاحمر والأبيض بدرجاتها المختلفة . وتتكون الفسيفساء الرخامية من قطع من الرخام مختلفة الألوان ، تقطع بأشكال هندسية متباينة ، لتعشق

في الأرضية على هيئة الأشرطة أو المعينات أو المثلثات أو الخطوط المتقاطعة والمتشابكة ، بحيث تكون زخارف عربية من طراز معين لا تألفه العين إلا في هذه الصناعة . وكثر استخدام الفسيفساء في بيوت العصور الوسطى في تغطية الأرضية وإنشاء « الفساقي » وهي بدورها ظاهرة مميزة للعمارة الإسلامية ابتداء من عصر المماليك ، (شكل ٧) .

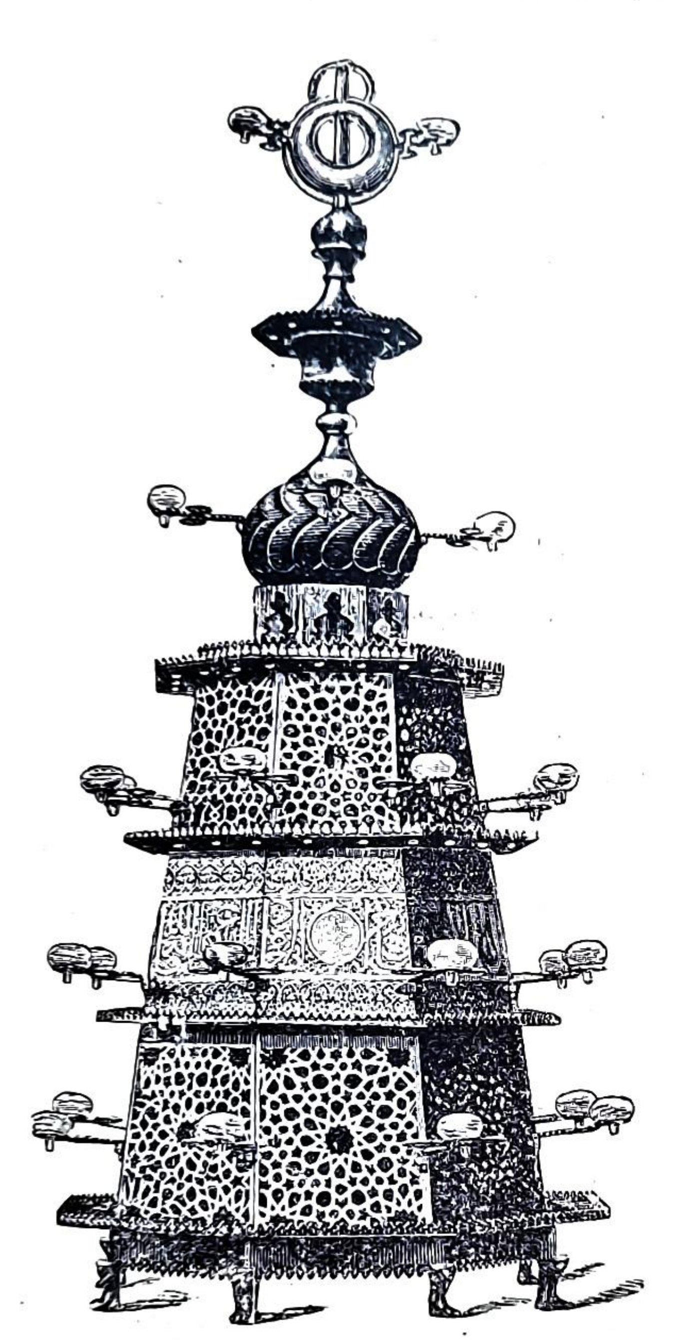
ويتعشق هذه الصناعة اليوم كل محب للفن الإسلامي ، وكثير من الدور الحديثة المقامة على الطراز العربي في مصر وغيرها مزين في بعض جهاته بفسيفساء الرخام وتعيش بيننا طائفة ما تزال تحذق أساليب القدماء في هذه الصناعة ، تشتغل بها لحساب الأثرياء أو لترميم الدور الأثرية .

شكل ٨ : نموذج من صناعة تكفيت النحاس وتخريمه وهو كرسي طعام عليه اسم الناصر محمد بن قلاوون من القرن السابع الهجري .

أما فسيفاء الزجاج ، التي كانت تستخدم أصلا لتزيين الشبابيك في المساجد ، فلا يزال لها بعض الوجود لشدة الحاجه إليها فى ترميم المساجد القديمة ، وإنشاء الحديث منها على غرار القديم .

ومن الصناعات الذاهبة صناعة « التكفيت » ، والتكفيت هو ترصيع معدن بمعدن آخر وهي صناعة قديمة دخلت مصر في العصور الوسطى من الشام ، وأتت إلى الشام من شمالي الجزيرة العراقية ، شغف بها سلاطين المماليك وأمراؤهم ، وقلدهم في التعلق بها علية القوم ، ويغلب أن يكون تكفيت النحاس بالفضة هو القاعدة العامة في هذه الصناعة ، وجمع صناع التكفيت أو « المكفتون » إلى المقدرة على التكفيت ، المقدرة على تخريم المعادن ، وصنعوا من ذلك آيات رائعات في دقة الفن وجماله :

اي من الموصل



شكل ٩ : قنديل من البرنز المكفت والمخرم من صناعة مصر في عصر المماليك .

من القناديل إلى المباخر « والشمعدانات » والصواني والأكواب والعلب والقدور وكراسي الطعام والأسلحة . ومن أجمل ما تحتفظ به دار الآثار العربية في القاهرة كرسي للناصر محمد بن قلاوون (شكل ٨) يجمع بين تخريم النحاس وتكفيته ، وقنديل من البرنز المخرم والمكفت ، تنم صناعته عن مقدرة خاصة في صناعة النحاس في عصر المماليك (شكل ٩) وفيها كذلك عدد من الشمعدانات النحاسية المكفتة بالفضة ، وكلها غاية في إبداع الصنعة ، وقد تكون صناعتها فى مصر كما قد تكون بالشام وليس هناك ما يمنع من الاعتقاد بأن المصريين قد نبغوا في هذه الصنعة لأنهم لا يزالون يمارسون صناعة من هذا النوع وإن تكن متدهورة بعض الشيء .

ومن الصناعات الدقيقة التي حذقها المصريون في عصر المماليك صناعة تجويد الخط فقد كان في الفسطاط على عهدهم مكتبون يعلمون تجويد الخط بأنواعه المعروفة إذ ذاك ومن الخطوط التي حذقوها واستخدموها في تزيين واجهات المساجد خط الطومار ، وأجزاؤه المختلفة التي اقتطعوها منه (خط النصف وخط الثلثين وخط الثلث) وقد استخدموا خط الثلث في كتابة المصاحف المملوكية التي يحفل بها معرض دار الكتب المصرية بالقاهرة .

وقد صاحب هذه الصناعة صناعة أخرى ملازمة لها ، هي صناعة التذهيب ،

والأصل في وجودها أن تكون في خدمة فنون الكتاب ، ولاسيما « الكتاب المقدس » .

وقد برع في التذهيب نفر من المصريين ، عكف على خدمة المصاحف الكبرى التي كانت تكتب للسلاطين لتوقف بأسمائهم في المساجد .

وكان الخطاطون والمذهبون على جانب كبير من النبوغ الفني ، يجيدون الزخارف الهندسية ، ويعرفون خلط الألوان في حذق ومهارة بالغين .

وقد انحدرت هذه الصناعة إلينا ، وكانت عرضة للتدهور ، لولا ما كان من عناية الأتراك بأمر هذين الفنين ، ومنذ توثقت العلاقة بين مصر والإستانة في القرن السادس عشر الميلادي وهذان الفنان في نمو وازدهار . وقد توجت العناية بأمرهما بإنشاء مدرسة تحسين الخطوط الملكية وقسم التذهيب فيها .

وحبذا لو لقيت هذه الصناعات الفنية الدقيقة التي أجملنا الكلام عنها في هذا المقال ما هي جديرة به من عناية . فنحن في عصر « المادة » أحوج ما نكون إلى غذاء الروح ، وفي عصر « الآلة » أحوج ما نكون إلى حماية اليد الفنية من عدوان هذه الآلة .

إبرهيم جمعة



أولادنا

للأستاذ محمد فريد أبو حديد بك

كانت المباحث التي تمس التربية إلى عهد قريب لا تفوز من جمهور الناس إلا بعناية قليلة، وكان الآباء ينصرفون إلى أعمالهم هادئين، ويرسلون أولادهم إلى معاهد التعليم ويحرصون على نجاحهم، ولكنهم كانوا لا يكلفون أنفسهم مشقة الاهتمام بما في تلك المعاهد من مسائل خاصة بأبنائهم. حتى لقد كان يخيل إلى رجال التعليم في بعض الأحيان أن الآباء إنما يبعثون أبناءهم إلى المعاهد لكي يخلصوا من متاعبهم في المنازل.

وهذا أمر يبدو عجيباً! لأن الآباء جميعاً يعرفون مقدار محبتهم لأبنائهم، وليس في الحياة شيء يحرص عليه الأب أكثر من أن يرى أبناءه ينشؤون نشأة «صالحة» تمهد لهم سبيل «المستقبل السعيد».

ولكن هذه الحال قد تغيرت في الوقت الحاضر تغيراً عظيماً، حتى إن المؤلفات التربوية تجد بين عامة القراء رواجاً كبيراً في الأمم المتمدنة، فقد طبع السر إرثر لفنجستون ألوفاً وألوفاً من مؤلفه «التربية للمستقبل». ولا شك أن كثيراً من هذه الألوف المؤلفة تسربت إلى مكتبات الآباء والأمهات.

والذي يتأمل حقيقة الأمور لا يعجز أن يدرك أن شؤون التربية لا تقل عن شؤون السياسة العليا في خطرها واتصالها بمستقبل حياة الأمم. فأجيال الغد هي التي تكوّن المستقبل، وهي التي تحل محل صفوف الأجيال الحاضرة. وكل تطور في حياة الأمم يتوقف على قيمة التربية التي أعدت تلك الأجيال الناشئة.

قيل إن الفلسفة قد هبطت في العصور الحاضرة من علياء السحب الغامضة إلى زحمة الحياة والسياسة، ومن الممكن أن يقال كذلك إن التربية قد خرجت من نطاق جدران المدارس ومعاهد العلم لتشارك في الحياة والسياسة العامة. وليست مباحث التربية سوى زبدة الفلسفة المتصلة بالحياة؛ بل إنه من الممكن أن يقال إن فلسفة التربية هي الطليعة السباقة التي ترتاد الحياة المستقبلة وتنظر فيما يتجه إليه التطوّر فيها.

ولكن خروج مباحث التربية إلى ميدان الحياة العامة جعلها تتشعب، وتختلف

مسائلها ، وتتضارب فيها الآراء ، وتثور فيها المجادلات ، شأنها في ذلك شأن كل مسائل الحياة . وليس هذا الاختلاف في الآراء نقصاً أصاب مسائل التربية ، بل إنه في صميم الاتجاه الصحيح ، لأنه مع ما فيه من تباين في وجهات النظر ينطوي دائماً على وجهة عامة مسلم بها ، وهي : كيف نعد أولادنا ليكونوا جيلاً « صالحاً » في الحياة المستقبلة ؟

ولكن مباحث التربية معرضة لصعوبة تعترضها دائماً ، وهي صعوبة الاتفاق على معنى «الصلاحية» . ولو أمكن الإنسانية أن تهتدي إلى ذلك المعنى لما كانت التربية مشكلة ، بل لهان أمرها واستقر الاتجاه إلى ما ينبغي فيها ، ولكن فلسفة التربية مثل كل فلسفة، لا يمكن أن تكون موضع اتفاق عام . « فما هو الإنسان الصالح » ؟ قد يمكن أن نعرف ما نقصده إذا أردنا أن نربي نوعاً « صالحاً » من النبات أو الحيوان ، فإننا إذا قصدنا تربية قطن يمتاز بطول التيلة أو نعومتها أو بياض لونها ، لم يكلفنا الأمر أكثر من التوفر على بعض المباحث العلميـة وبعض التجارب العملية، ثم نصـل في يسر إلى استنبات الفصيلة التي نريد اجتناء ثمرتها والإكثار منها ؛ وذلك لأننا نعرف الصفة التي نقصد إلى تحقيقها في نوع القطن الذي نريد تربيتـه . وهكذا الحال إذا أردنا أن نربي نوعاً من الماشية فمن السهل أن نقرر أننا نريد فصيلة تمتاز بكثرة لحمها أو طول أصوافها ، فإذا حددنا ما نريده من النوع الذي نريد تربيته ، سهل علينا تحقيق ما نبغي ، ولا يحتاج الوصول إلى ذلك إلى أكثر من بعض المباحث في التغذية والبيئة ، وبعض التجارب في المزاوجة أو التهجين والإنسال . ولكن المسائل الإنسانية تختلف عن تلك اختلافاً عظيماً ؛ فإننا لا نستطيع أن نقول إننا نريد جيلا من ذوي الأجسام الطويلة أو جيلا من ذوي اللحوم السمينة ، أو من ذوي الشعور الصفراء ! فالإنسان أكرم على نفسه من أن يتخذ موضعاً للتوجيه إلى مقصد معين ؛ ومن جهة أخرى لا يمكن أن يتفق الناس جميعاً على غاية واحدة أو غايات محددة ، فكل ما يمكن الاهتداء إليه هو أن يكون الإنسان « إنساناً صالحاً » .



فالتدخل في نمو النبات والحيوان لتحقيق صفة معينة إنما هو إهدار للنمو الطبيعي المقدر لذلك النبات أو الحيوان ؛ لأنه عبارة عن إخضاع ذلك النبات أو ذلك الحيوان

لسيطرة عليا تقصد إلى استغلاله ، ولا يمكن أن يعامل الإنسان بنفس هذه المعاملة .

وقد حاولت بعض الأمم أن تعامل الإنسان مثل هذه المعاملة ، فبدأت بتحديد بعض غايات ظنت أنها هي المثل العليا للانسانية التي تريد أن تحققها ثم اتخذت التربية وسيلة لتحقيق هذه الغايات . هكذا فعلت ألمانيا النازية ، وهكذا فعلت إيطاليا الفاشية ، وهكذا تفعل بعض أمم أخرى تبدأ بتحديد غايات معينة ، تفترض أنها هي الصفات الجوهرية للانسانية ، ثم على هدي هذه الغايات تختط أساليب التربية ، لتكفل وجود الجيل الصالح على حسب زعمها .

ولكن التجربة دلت على أن مثل هذه المحاولات تؤدي إلى أن إنساناً واحداً ، أو بعض أفراد من الإنسان يعمدون إلى أن يفرضوا فلسفة خاصة على مجموعة إنسانية . وفي هذا تجاهل للطبيعة ذاتها ؛ لأنه يقيد الحرية ، ويزيل شخصية الفرد التي هي أثمن ما وهب الله للانسان .

وقد صاحب مثل هذه الحركات كثير من العنف ، وكثير من العسف والقسر ، لأن الذي يتعمد توجيه الإنسان لابد له أن يتغلب على كل مخالفة ، وأن يكبت كل رأي غير متفق مع فلسفته . وتكون النتيجة في كل الحالات شيوع اعتقاد متعصب تسيره فكرة معينة ، لا عن تفكير حرّ صادر عن إيمان صحيح ، بل عن امتثال وخضوع صادرين عن نوع من عمى البصيرة ، يجعل التفكير مشلولاً ، ويجعل الاتجاه ناشئاً عن إيحاء عميق قوي يستعبد الذكاء البشري .

وقد كان الرقي الإنساني دائماً وليد الانطلاق من القيود والاستعباد الفكري ، ولولا ذلك الانطلاق لما زاد مستوى الذكاء الإنساني فوق مرتبة الحيوان الأعجم . فكل محاولة ترمي إلى تحديد فلسفة خاصة للحياة ، وتحديد التربية في حدودها لإعداد جيل جديد لا يفكر إلا في دائرتها ، إنما هي محاولة تنتهي برجوع الإنسان إلى الوراء ، ووقف التطور الإنساني الذي هو عنصر التقدم في الحياة البشرية .

فهذه العقائد التي تفرض على الناس قسراً لا تولد إلا التعصب والكوارث الناشئة من المصادمات بين الأمم . وما دام الإنسان مقسما إلى مجموعات منفصلة ، فقد جرت العادة على أن الساسة الذين يضعون أسس التربية لبلادهم إنما يقصدون من وراء ذلك تكوين جيوش تصدع بالأمر وتتجه كالآلات الصماء لتحقيق الغايات السياسية التي صورها هؤلاء الساسة ، وهم أبعد الناس عن المثل الأعلى الإنساني ، بل إن كثيراً منهم كانوا من أكبر زلات الطبيعة في التقهقر بالإنسانية إلى عهود الوحشية .

والنتيجة التي يمكن أن نؤكد أن العالم المتمدن قد اتفق عليها في شؤون التربية هي أن الأساس الصحيح للحياة الإنسانية إنما هو نمو الفرد وبلوغه قصارى ما يمكن أن يبلغه . فليس الأساس وجود مثل إنساني يجب تعميمه ، وصب الشباب في قالب تربوي يجعلهم جميعاً نسخاً منه ، بل هو نمو كل فرد بحيث يقدر على تحقيق أكبر قسط من القدرة الطبيعية التي يؤهله لها استعداده في مجتمع متضامن حر يعرف معنى الحرية الصحيحة .

قال أحد كبار المربين في العصر الحاضر : « جرت العادة أن نرى الدولة حقيقة عظيمة تأتي بأجل الأعمال وأخطرها ، ولكن هناك في نظر التربية حقيقة أعظم من الدولة ، وهي الفرد ، فمنه تتكون الدول ، ومن أجله توجد الدول، ولم يخلق الله الأفراد من أجل الدولة ، فكل ما في الدول من حياة ومن ذكاء ومن نشاط مستمد منه ، فالفرد هو القوة المحركة التي تنبعث منها كل قوى الدول » .✲

وتنطوي تحت هذا الغرض العام مباحث لا حصر لها ، وقد تشعبت فيها آراء المفكرين والمربين ، وإن كان اتجاههم جميعاً واحداً . فما معنى المجتمع ؟ ذلك المجتمع الحر المتضامن الذي نسميه في هذه الأيام بالمجتمع الديمقراطي ؟ وما هي غاية الحياة الاجتماعية ؟ وما حدود الحياة الاجتماعية ومدى الواجبات التي يجب على الأفراد أن يلتزموها نحوها ؟ ثم إلى أي حد تكون للأفراد الحرية في تصرفهم ؟ وهل هناك تعارض بين الفردية ومصلحة المجتمع ؟

وقد تأثرت مباحث التربية بهذا التفكير، فكل همّ المربين في هذه الأيام أن يلمسوا الوسائل التي تتيح للأبناء فرص إنماء فرديتهم ، بحيث يكونون أساساً صالحاً للمجتمع الذي يعيشون فيه ، وللعالم الواسع بوجه عام . فما هي المناهج التي تحقق هذه الغاية ؟ وما هي الأساليب التي تتبع في تعليمها ؟ وكيف تكون خطة الحياة المدرسية في مجملها كفيلة بتحقيق كل هذا ؟

هذه وغيرها من المباحث لا محل لها في مثل هذا الحديث العام ، ولكننا لا نجد غنى عن التعرض لبعض الجوهريات في تربية أولادنا . ونسارع إلى القول بأن هذه الجوهريات في نظرنا هي التي يكاد يكون متفقاً عليها في اتجاهات التربية المختلفة في عصرنا الحاضر .

فإذا كان أول ما تحرص عليه التربية هو نمو الفرد من جميع نواحي وجوده ،

✲ من كتاب « العناصر الخالدة في الفردية » للأستاذ وليم أرنيست هوكنج .

كان معنى ذلك أن هذا الكائن الحي ينبغي أن ينمو نموه الطبيعي الذي ترسمه الطبيعة ذاتها ، ومن ثم كان أول ما يعنى به المربون هو معرفة طبائع الأبناء . وهذا ما جعل التربية الحديثة تقوم على أساس مباحث علم النفس، الذي أصبح اليوم الرائد الأول في ميادين التعليم . وقد نشأت من هذا اتجاهات جديدة في أساليب التعليم ، تكاد تبلغ حد الثورة ، ولا سيما في الأدوار الأولى من حياة الأبناء .



ولنضرب لذلك مثلا بسيطاً :

فبعد أن كانت المدرسة في المراحل الأولى لا تزيد على حجرات يجلس فيها التلاميذ لتلقي الدروس على معلم يلقي عليهم ما يعتقد أنه العلم المناسب لهم، أصبحت المدرسة الأولى عبارة عن مجال تهيأ فيه الفرصة لنشاط الأطفال الذي يحتاج في هذا الدور من الحياة إلى منفذ من الحركة ، لأن طبيعة الطفل عند ذلك تجعل إحساسه وتفكيره وحركته متصلة اتصالا مباشراً ، فكل المادة الدارسية في هذه المرحلة عبارة عن مجموعة من تجارب تستمد مما يتصل بمحيط الطفل، ومما يستطيع هو أن يستجيب له في نشاطه، باللعب والتقليد والتمثيل والتصوير والتجسيد والتعبير اللفظي سواء أكان في صورة أحاديث أم قصص ، وأصبح غرض المدرسة أن يقرب هذا المحيط إلى الطفل ، بحيث تصبح له تجربة خاصة يحسها

ويدرك أثرها ومعناها ، لا عن طريق الإلقاء الذي كان وسيلة التعلم فيما مضى ، بل عن طريق الممارسة في الأعمال اليدوية ، أو بتمثيل المناظر والقصص ، أو بالقيام بمشروعات يشترك التلميذ في وضع تصميمها ، وتنفيذ مايلزم لها من تفاصيل تحتاج إلى أعمال فنية ، أو حركات تحتاج إلى مهارات خاصة ، أو مناقشات وأحاديث تحتاج إلى معلومات علمية .

وأما في المرحلة الثانية التي تلي هذا الدور الأول ، وهي المرحلة التي تعادل التعليم الابتدائي ، فإن الطفل يتدرج نحو تنظيم خبرته التي يكتسبها عن طريق النشاط ، والأخذ في سبيل معرفة القوانين العامة التي تسير عليها الحياة ، وهذا يدفعه تدريجاً نحو الرجوع إلى الكتب والأساتذة في الموضوعات المختلفة ، لاستيضاح ما يغمض عليه ، واستكمال التفاصيل العلمية التي تلزمه لإيضاح ما يقع في تجربته .

فإذا بلغ الأبناء بعد ذلك إلى المرحلة التالية ، وهي المرحلة الثانوية ، كانت التربية في المرحلتين الأولى والثانية أكبر دافع لهم على الاستمرار في الاتصال بحقائق الحياة ، والتزود من أسرارها بالاطلاع والتنظيم ، وفي هذا الدور يتمكنون من طريقة البحث العلمي ، ويستطيعون تنظيم تفكيرهم وترتيب « العلوم » ترتيبا منطقياً يمهد لهم طريق التخصص في الدراسة بعد ذلك في الفن أو العلم الذي يتجه إليه استعدادهم العقلي والنفسي ✫

هذا هو مجمل الأسس الجوهرية التي تتجه إليها التربية الحديثة ، ولكنّ هناك أغراضاً معينة تقوم على هذه الأسس العامة ، فإن نمو الفرد لا يقتصر على نمو ذكائه العقلي ، بل يشمل جميع شخصيته بصفته كائناً حياً من جهة ، وبصفته عضواً في مجتمع من ناحية أخرى .

١ — النمو من الناحية الجسمية

مما لا شك فيه أن الجسم هو أداة الحياة ، فإذا لم يكن سليماً لم تكن حياة الفرد نفسها سليمة . ولهذا كانت العناية بالبدن والصحة من أول ما تهدف إليه التربية في هذا العصر .

ومهما حاول الفلاسفة أن يفسروا غاية الحياة ، فلن يستطيع أحدهم أن ينكر أن التماس السعادة هو غاية البشر أنفسهم ، والناحية السلبية التي لا تتوفر السعادة إلا

✫ ملخصة عن مقال للأستاذ ديوي

بتحقيقها ، هي أن يخلو البدن من أسباب الألم ومن أسباب العجز عن أداء الوظائف الطبيعية . فإذا كانت التربية الحديثة ترمي إلى العناية بالبدن ، فهي بذلك تحقق غاية فلسفية بطريق غير مباشر ، وهي إزالة الأسباب التي تعكر صفو الأفراد وتعوق التماسهم للسعادة ، ولكن للصحة الجسمية أثراً مباشراً في تحقيق السعادة ، ولا سيما للصغار ، فيجب أن لا ننسى أن أولادنا يقضون في المدارس مايقرب من خمس مدة الحياة أو ربعها لأنهم يبدؤون الحياة المدرسية في حوالي الخامسة ، ويبقون فيها إلى حوالي العشرين .

ومن أهم ظواهر الحياة في الطفولة والشباب التمتع بالحركة وباللعب المرح . فالتربية الجسمية ، فوق مساعدتها على تحقيق السعادة بطريق غير مباشر كما أسلفنا ، تحقق مسرة إيجابية للأولاد في شطر كبير من حياتهم .

وقد كان اعتقاد القدماء أن مدة الدراسة مرحلة مشقة ينبغي أن يتحملها الأولاد بصبر حتى يجنوا ثمارها في مستقبل أيامهم ، وكثيراً ما كانت مدة الدراسة سبباً في تحطيم تلك السعادة المرتقبة في المستقبل ، فالتفكير السليم يرفض مثل هذا الاعتقاد ، والتربية الحديثة تسعى إلى توفير المرح والسعادة أثناء الحياة المدرسية ، فذلك أجدر أن يجعل الأفراد أكثر استفادة من التعليم ، ويجنبهم كثيراً من الاتجاهات النفسية الشاذة التي تقيم عقبات كثيرة في حياتهم فيما بعد .

٢ — اكتساب المهارات

ويتصل بناحية قوة البدن معنى آخر ، وهو اكتساب المهارات . فمن الضروري للأفراد أن ينموا ما وهبت لهم الطبيعة من استعداد لأداء الأعمال المختلفة ، فدقة الحواس ومرونة الحركة ، والمقدرة على استعمال اليد والأصابع في إنفاذ فكرة أو تحقيق تصميم ، كل هذه وأمثالها في نظر التربية الحديثة جدير بكل عناية ، ومن أجل ذلك كانت الأشغال اليدوية والأعمال الفنية من أهم ما يتجه إليه التعليم ، ولا سيما في المراحل الأولى من الحياة المدرسية .

٣ — تقدير ناحية الجمال في الحياة

وقد أصبح من المسلم به أن السعادة تتوقف إلى حد كبير على التمتع بنواحي الجمال في الحياة ، فوق توقفها على سلامة الجسم وقوته ، فإن الجمال كامن في مظاهر شتى لا حصر لها . فهناك جمال المنظر ، وجمال النظام ، وجمال النغم ، وجمال المعنى . ولعل

أكبر ما يفرق بين المدنية والهمجية هو إدراك ما في الحياة من جمال في نواحيها المختلفة ، ومن مقاصد التربية الحديثة أن يقرن تقدير ما هو جميل بما هو مفيد ، وأن يستطيع الفرد أن يطلّ من جانب من جوانب شخصيته على نواحي الجمال في المحيط الذي حوله ويستمتع به .

فمجمل المبادئ السالفة أن التربية الحديثة ترمي إلى أن تتيح للفرد كل فرص النمو والإدراك ، حتى يكون سليم الجسم ، قادراً على مقابلة الحياة بما تحتاجه من مهارات وأن يكون فوق ذلك مصفى النفس قادراً على إدراك ما في الحياة من انسجام وجمال ، ليستطيع أن يشيع الجمال في حياته الخاصة من نواحيها المادية والمعنوية ، وأن يعمل بذكائه في الوسط الذي يعيش فيه ، ويكتسب الخبرة عن طريق نشاطه الذاتي وتجربته الخاصة للبيئة الطبيعية والاجتماعية التي يعيش فيها .

٤ — التربية الاجتماعية والخلقية

ولكن الفرد إذا كان يراد به أن ينمي شخصيته ومواهبه إلى أقصى ما تؤهله له طبيعته فيجب أن نذكر دائماً أنه يعيش في مجتمع ، وقد كان نمو الإنسان منذ القدم في وسط مجتمع هو فرد منه .

فالحياة الاجتماعية هي الظرف الذي لا بد للفرد أن ينمو في دائرته ، ولا بد له في كل تجربة يصل اليها أن يعتد بهذا المجتمع الذي يعيش فيه ، فلا يمكن أن تكون تربية الفرد سليمة إلا إذا عرف مكانه من المجتمع ، وأدرك حقيقة معنى التعاون والمشاركة بين الأفراد فيه ، فهو لا يحقق نموه الخاص إلا في حياة اجتماعية شاملة .

فمن الأساسي في كل تربية صحيحة أن تتيح المدرسة لتلاميذها فرص الحياة الاجتماعية . ففي أثناء اللعب ، وفي أثناء السمر ، وفي ساعة الدرس ، وفي الرحلة الخلوية ، وفي الرحلة العلمية ، وفي الجمعيات العلمية ، وفي النادي ، وفي الغناء ، وفي حفلات العرض ، وفي سائر نواحي الحياة الخاصة بالمدرسة ، تتاح الفرص ليتعاون الفرد مع غيره في سبيل تحقيق فكرة مشتركة أو مصلحة عامة ، وهذا خير طريق لإدراك معنى الحق ومعنى الواجب ، ومعنى التضامن الاجتماعي ، ومعنى الديمقراطية الصحيحة ، التي تصدر القوانين بناء على رغبة إجماعية ، ويخضع لها الجميع نتيجة إدراك لطبيعتها الاجتماعية . هذه الحياة الاجتماعية هي التي تستطيع تحقيق معاني الخلق السامية ، وهي التي توثق العلاقة بين المثل العليا والعواطف الإنسانية ؛ لأن الخلق والمثل العليا لا تكون مجرد ألفاظ تسمع ودروس

تحفظ ، بل تكون ممتزجة بتجارب الحياة ذاتها . ولعلنا لانغالي إذا قلنا إن كل فكرة التعليم الخلقي عن طريق التلقين والتدريس قد ظهر فشلها . وليس من وسيله لتحقيق الخلق الصالح إلا ممارسة الحياة الاجتماعية في مجتمع تسوده المثل العليا والأخلاق الفاضلة .

٥ — **الانطلاق**

والمدرسة الجديدة تسعى كل جهدها إلى إطلاق الأفراد من قيود الكبت ، وتفتيح أعينهم وقلوبهم إلى الحقائق الماثلة حولهم في الطبيعة والمجتمع ، فهي تثير الأفراد دائماً نحو التطلع ونحو الملاحظة ، ولا تألو جهداً في تشجيع ذلك بكل الوسائل كالرحلات الرياضية والرحلات العلمية والمشروعات العملية . ولا شك أن الخطوة الأولى في سبيل الوجود الإنساني الحقيقي أن يتجه الإنسان إلى معرفة الكون ويتأمل ما فيه ، ويتبصر في علاقاته ونسب الكائنات بعضها إلى بعض .

وقد كانت هذه المعاني كلها بعيدة عن تصور المدارس فيما مضى ، لأن المدرسة كانت إلى عهد قريب لاتدل إلا على الحجرة التي يتلقى فيها التلاميذ دروسهم على المعلم . ولهذا أصبحت التربية الحديثة تنظر إلى مهمة المدرسة على أنها مهمة مزدوجة ، فهي من ناحية تعنى بالدرس وتحصيل المعارف ، ومن ناحية أخرى تعنى بإنماء الأفراد من النواحي المختلفة التي أشرنا اليها في هذه الفقرات السابقة . وقد جرت العادة أن تقسم جهود المدارس إلى قسمين ، يسمى أحدهما الدروس ، ويسمى الثاني خارج الدروس . ولكن هذه تسمية تقريبية ؛ لأن المدرسة الحديثة لاتعترف بالفواصل ولا تميل إلى تقسيم جهودها ، فهي تعمل على أن تكون التربية متكاملة يتداخل فيها كل وجه من وجوه نشاطها بالوجوه الأخرى .



٦ — **استبعاد فكرة الاستيعاب**

بقي أن نتحدث قليلا عن تلك الدروس ، أو ما سميناه تحصيل المعارف ، فإن هذا هو لب الحياة المدرسية في نظر الأكثرين . فقد كانت المدارس إلى عهد قريب لاتعرف

إلا الدرس ، أي المعلم والكتاب ، وكانت طريقة التدريس بسيطة لا تحتاج إلى أكثر من إيضاح المدرس للموضوع ثم حفظ التلميذ من الكتاب .

ولكي نبسط بإيضاح التغير الذي طرأ على تفكير المربين في العصر الحاضر نسأل سؤالا بسيطاً : هل من الممكن أن يستوعب الإنسان المعرفة في أي فن من الفنون ؟ ولا شك أن الإجابة على ذلك واضحة ، فقد صار من المستحيل على فرد استيعاب المعرفة في أي فن من الفنون أو علم من العلوم .

ثم نسأل سؤالا آخر : إذا أراد إنسان أن يكتب أو يستعمل في حياته نوعاً من أنواع المعرفة ، أفليس الطبيعي له أن يرجع إلى المظان التي يستمد منها المعلومات الضرورية له ؟

كان العالم عند القدماء هو الذي يدخر في صدره كنزاً من المعرفة . ولكن العلم اتسع إلى أن صار من المستحيل على أحد أن يلم به وأصبح المهم هو تقوية روح محبة المعرفة وطريقة التوصل إلى تحصيلها ومعرفة أساليب البحث فيها ، وصارت مهمة المدارس لا تتعدى توجيه الطلاب إلى الأوليات الجوهرية وطريق البحث العلمي . ولهذا يمكن أن ندرك السبب الذي من أجله تغيرت وجهة التربية الحديثة ، فأصبح حفظ المعلومات أمراً ثانوياً ، ولا سيما في المراحل الأولى من التعليم ، وصار المهم هو تكوين العادات الفكرية التي تجعل الفرد يتجه إلى ما حوله اتجاهاً صحيحاً ، ويحاول أن يفكر فيما يقع تحت حسه تفكيراً سليما .



أو بقول آخر : صار مبدأ التربية أن تتاح الفرصة للأفراد أن يكتسبوا الخبرة بالاتصال بما

حولهم ، ومعالجة المشاكل التي تعترضهم بتفكيرهم ، وكلما اكتسب الفرد خبرة زادت مقدرته على اكتساب الخبرة في المستقبل ، بوساطة المقدرة الجديدة التي اكتسبها من خبرته الجديدة .

فعندما يقال في الوقت الحاضر إن المعلومات وتفاصيل الحقائق الصغيرة قد أصبحت في المحل الثاني ، فليس المقصود بذلك التقليل من قيمة المعارف ، بل المقصود هو أن العنصر الأهم في الحياة هو عنصر التفكير و اكتساب الخبرة .

ولذلك تكون دروس الطبيعة مثلا عبارة عن ظروف يتصل بها التلميذ بالبيئة الطبيعية ليتمكن من ملاحظة أسرارها واكتساب الخبرة بطريقة مباشرة من هذا الاتصال . وكذلك تكون دروس التاريخ عبارة عن ظروف يتصل بها التلميذ بالحياة الماضية التي أثرت في حياتنا الحاضرة . وهكذا صارت كل المواد الدراسية عبارة عن وسائل للتفكير واكتساب الخبرة للأفراد .

والنتيجة التي وصلت إليها التربية الحديثة من وراء نظراتها الجديدة هي أن الأفراد يستطيعون أن يعرفوا عن الحياة الحاضرة والماضية وعن الأقاليم القريبة والبعيدة ما يصبح جزءاً من بناء تفكيرهم الخاص .

هذا مجمل لاتجاهات التربية نحو أولادنا في العصر الحاضر ، حاولت أن أبسطه بسطاً هيناً ، وتحاشيت فيه كل ما يتصل بالاصطلاح أو الدخول في التفاصيل . وأرجو أن يطلع علينا ذلك اليوم الذي يجد المربون فيه أصداء الاهتمام بمسائل التربية تتردد في ميدان الحياة الفسيح ، لأنها تتصل بأعز ما وهبنا الله في الحياة — بأولادنا .

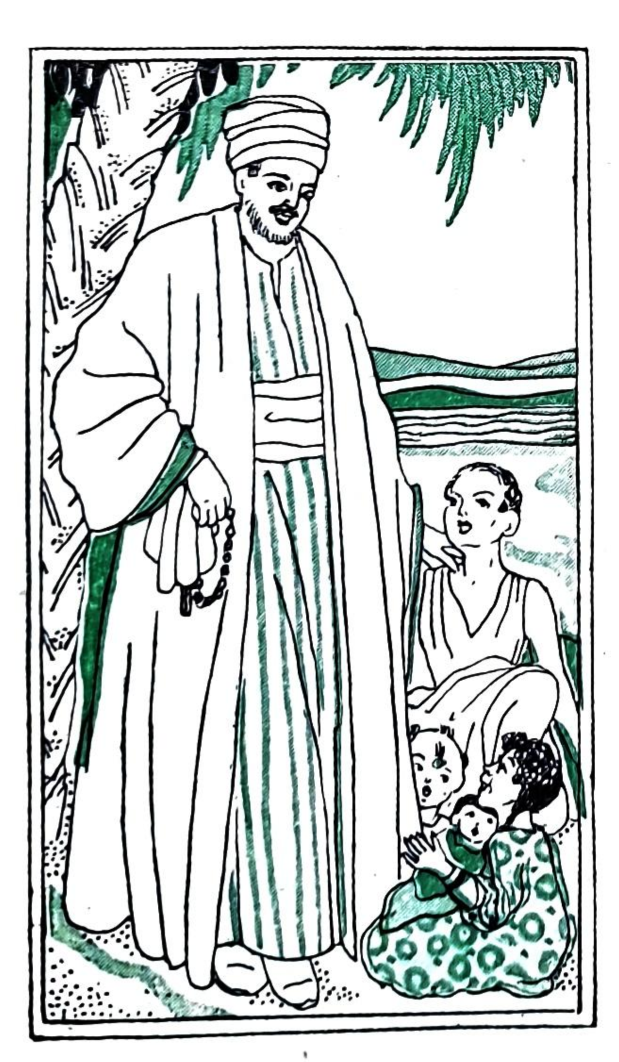
محمد فريد أبو حديد



مشكلة الفلاح

للدكتور محمد غلاب

إن الأزمة العميقة التي كان العالم يعانيها منذ الحرب العظمى الأولى في محاولة التطور والإصلاح ، قد استحالت بعد هذه الحرب الأخيرة ثورة عنيفة ، ترمي إلى قلب أكثر الأنظمة الاجتماعية رأساً على عقب . ولما كان السير بالإرشاد في طليعة المميزات الفطرية للثورات ، فقد كان من الطبيعي أن تلتبس الشؤون ، وتنبهم القواعد ، وتضل العقول ، فتأخذ كل أمة في البحث عن طريقها بين الخرائب والأطلال ، في ظلمة حالكة السواد . ولا ريب أن المشاكل الاجتماعية هي في مقدمة مايشغل أذهان الأمم ، ويقض مضاجعها ، ومن ثم كان ما يشاهده العالم الآن من صنوف الانقلابات ، وضروب التطورات الاجتماعية التي تكاد تصبغ بصبغتها كل كبير وصغير من شؤون الشعوب ، والتي يختلف عنفها شدة وهوناً باختلاف طبائع الأمم التي تنشأ فيها وأمزجتها ، ولكنها دائماً أو غالباً تتولد من ضغط جماهير عمال المدن الذي لايلبث أن تتسرب عدواه إلى دهماء القرى ، سواء أكان ذلك الضغط ناجما عن غبن أولئك وهؤلاء حقوقهم ، أم ناشئاً من سوء قيادة جماعة مغرضة من الخاصة استطاعت أن تغرر بالجماهير وتستهويها إلى هذه المبادىء البراقة التي تتلألأ فوق صفحتها الخارجية أسماء الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية ، وهي مشتملة في داخلها على سعير يحرق لظاه القلوب قبل أن يشوي لهيبه الجلود .

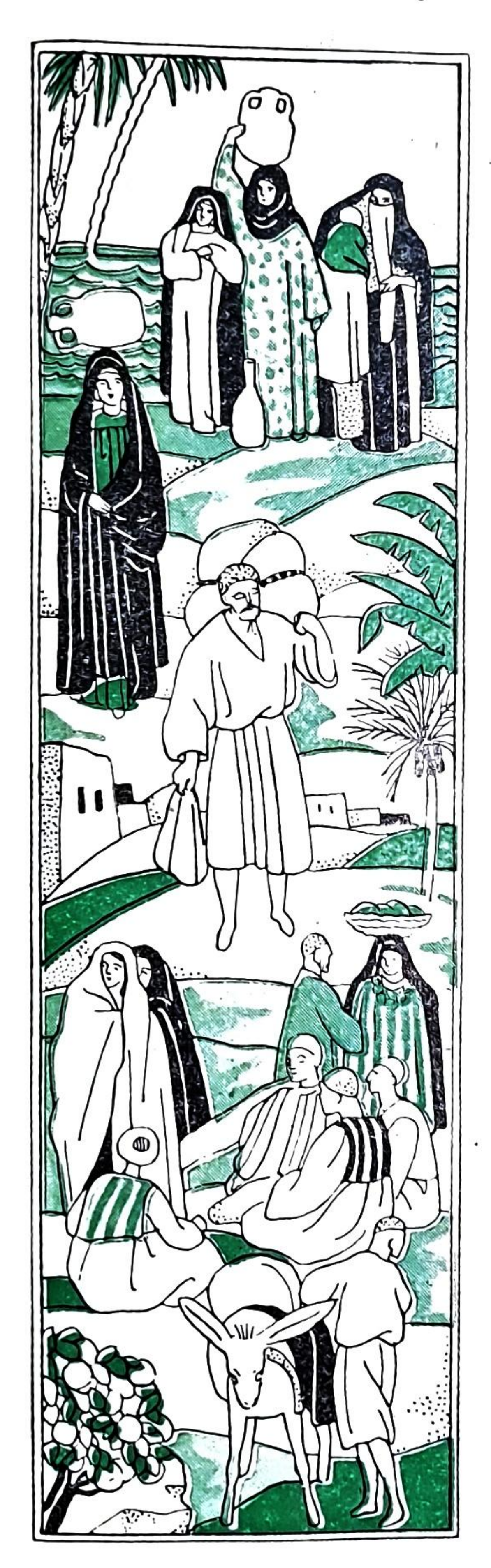


غير أن المشاكل الاجتماعية في مصر — وقد حفظها الله ، بفضل حكمة مليكها المفدى ، من جحيم الحرب — ليست من العنف بالقدر الذي هي عليه في البلاد الأخرى ، ومع ذلك فإن العقول الراجحة والرؤوس المثقفة تشعر شعوراً قوياً بأن الضرورة الملحة تفرض عليها البحث عن حلول لهذه المشاكل في غير هوادة ولا إبطاء . وفي الحق إنه يجب على الصفوة الممتازة الإسراع في إيجاد الحلول الحاسمة لهذه المعضلات على أكمل الوجوه وأكثرها ضماناً لإسعاد بني الوطن جميعهم ، وإن كل تلكؤ من جانبهم في هذه المهمة يعد إثماً خلقياً مادامت هـذه المشكلات تبدو على مسرح الحياة المصرية . وليس عليها البتة مسحة العنف ، ولا ملامح القسر أو الضغط ، وإنما هي تخطو نحو الصفوة في تريث وأناة ، مستغيثة بوطنيتهم ، مستعينة بمواهبهم ومعارفهم ، استعانة الشقيق الحدث بشقيقه الرشيد ، فإذا أهمل في أداء هـذا الواجب كان ذلك على وجدانه عبئاً ثقيلا عسير الاحتمال .

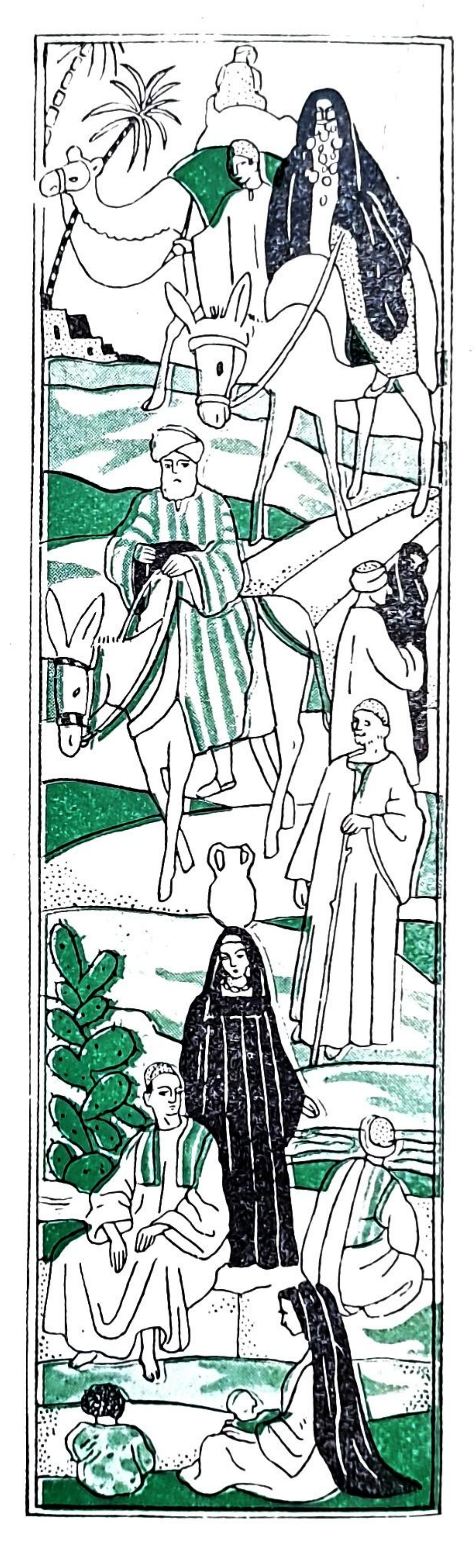
ونحن إذا نظرنا إلى أهم المشكلات الاجتماعية ، بالعين المصرية المجردة عن كل اعتبار آخر ، ألفيناها تتركز تقريباً في شقاء الفلاح وما يقاسيه أمام أعدائه الثلاثة الألداء الأشداء : الجهل والفقر والمرض ، إذ أن طبقة عمال المدن عندنا لا تزال أقلية ناشئة ، وبالتالي لم يحن الوقت بعد للاصطدام بتلك العقبة الكأداء التي يلتقي بها المصلحون من حين إلى آخر في بلاد الغرب ، بينما أن حالة الفلاح تدعو في إلحاح شديد إلى وجوب إيجاد الحل الحاسم السريع لمشكلته . ومما لاشك فيه أن هذه المشكلة ليست جديدة بل قد تناولها عدد من الكتاب بالبحث والتحليل . ولكن كل هذا لا يزال في مرحلة النيات الحسنة ، والمشروعات الخلابة ، أما الحلول الواقعية المنتجة فهي ضئيلة كل الضآلة ، وإذا كان شيء منها قد تحقق ، فالوطن مدين به لذوي الأريحية من الأفراد ، أكثرمما هومدين به للحكومة ، فهي إلى الآن ، لم تضع في الإصلاح منهجاً محدداً ثابتاً . ومع ذلك فلا ينبغي أن ننسى أن مصرف التسليف الزراعي قد خفف عن الفلاح كثيراً من فداحة الإرهاق ، التي كان قساة المرابين يجرعونه كأسها المريرة ، كلما اقترض منهم شيئاً من المال لينفقه على زراعته ، وإن كنا لانزال نرى في هذا المصرف بعض عيوب ، هي دون شك ناشئة من التطبيق لا من الفكرة . وكم نتمنى مخلصين أن تكون جميع وزاراتنا إنتاجية تبرز ثمار إصلاحها إلى حيزالوجود ، بدل أن تقنع بالمشروعات النظرية . ومهما يكن من شيء ، فإن العناية الفائقة التي يبديها حضرة صاحب الجلالة المليك المحبوب بمشكلة الفلاح ، واهتمام جلالته الدائم بإيجاد حلها الحاسم ، ليحملاننا

على الإيمان بقرب زوال عهود المشروعات القاحلة ، وإخلاء الميدان لإبراز الواقعيات المثمرة .

أما الآن ، وبعد أن ألممنا بهذه الإشارة العابرة إلى مشكلة الفلاح العظمى المؤلفة من معضلات : الفقر والجهل والمرض ، وما يثار حولها من جدل عقيم ، فإنا نود أن ننبه الأذهان إلى العامل الأساسي الذي وقف حجر عثرة في طريق تحسين حالة الفلاح المصري ، منذ فجر النهضة الحديثة في أواخر القرن الماضي ، ولا يزال كذلك حتى الآن . بل إن فريقاً من المفكرين يجزم في غير تحرج بأن مستوى الفلاح في العشرين عاماً الأخيرة قد هوى إلى دركة أنزل بكثير مما كان عليه قبل ذلك . ومجمل هـذا العامل المعوق ، فيما نرى ، هو أن حركة المركزية التي أثيرت في أواخر القرن التاسع عشر لهدف آخر غير مصلحة الدولة ، والتي تمت ونفذت في سرعة البرق ، قد قلبت كيان النظام الاجتماعي الذي كان يسود الريف المصري منذ الأزمنة الغابرة ، ويدبر شؤونه تدبيراً حسناً ، والذي لو أنه بقي على حاله إلى ظهور النهضة العصرية لساعد القائمين بالإصلاح على نجاح مهمتهم ، بدل وقوف هـذا النظام المشوه البغيض الذي حل محله عقبة كأداء في سبيل النهوض . والسر في ذلك واضح ، وهو أن النظام الأول كان قوميًّا إلى حد أن طبع نفسية الفلاح وعواطفه وحياته بطابعه الخاص . ومن آيات ذلك أنه — رغم هذا الانقلاب الفجائي الذي أحدثه في حياته نظام المركزية الدخيل — لا يزال يتردد متأرجحاً بين النظامين : فالقديم يجتذبه بما جبل عليـه من العواطف الخيرة والميول الروحية ، والجديد يغريه بما يلوح له به مما يدعوه بحقوق المساواة والعدالة الاجتماعية وما إلى ذلك من صنوف الفتنة والإغراء . ونحن إذا نظرنا إلى هذه الحالة نظرة عادلة ، ألفينا أن النظام الدخيل — وهو نظام المركزية — قد أفقد الفلاح عدة امتيازات كان النظام القومي قد أفاضها عليه ، دون أن يعوضه في مقابلها شيئاً . وليس معنى هذا أننا نجحد حقوق الحرية والعدالة والمساواة أمام القانون ، أو نرى الضن بها على أية جماعة من بني الإنسان أياً كانت جنسيتها، فضـلا عن مواطنينا الذين نود أن نراهم في أرفع المستويات الاجتماعية ، ولـكننا نرى أن ذلك النظام الدخيل ، حين نشر هذه المبادىء ، لم يكن يعنيه أن تنتج الثمرة النافعة التي يتطلع إليها المصلحون ، وإنما كانت أمامه غاية معينة يرمي إليها ولا يأبه لغيرها ، فأعلن هذه المبادىء البراقة وهو على يقين من أن الإعداد لإثمارها لم يتم ، بل لم يبدأ فيه بعد ، وأن النتيجة الحتمية في مثل هـذه الحالة لابد أن تكون سيئة العواقب ، وهذا طبعاً لا يعنيه كثيراً ولا قليلا . وقد كان ذلك بالفعل ، فإن بأساء الفلاح — فضلا



عن أنها لم تقل البتة — قد أخذت تنمو لأن ركب الحياة يسير، أستغفر الله بل يطير، والزمن يتقدم إلى الأمام بقفزات واسعة، والمدنية تتطلب أضعافاً مضاعفة من الحاجات، وهذا كله يزيد في اتساع الهوة بين الفلاح ومعاصريه من المدنيين، وبالتالي يزيد في إحساسه بالألم والشقاء، كما أنه يضاعف من حيرة المصلحين المخلصين الذين كلما حاولوا سلوك منهج في الإصلاح أخفقوا في الخطوات الأولى دون أن يعرفوا لإخفاقهم سبباً واضحاً، ولكنهم لو دققوا النظر مليًّا لرأوا أن نظام المركزية — مع ماجر إليه من مبادئ فجة — كان من العوامل الأساسية التي عاقت الإصلاح ولا تزال تعوقه إلى الآن، ولأيقنوا بأن تلك الطفرة المباغتة نحو ما يدعونه خطأ أو مغالطة باسم العدالة الاجتماعية، دون إعداد النفوس — عن طريق التربية العالية والثقافة الواسعة — لتفهمه كما ينبغي وهضمه بهيئة كاملة، هو أخطر من اقتحام سفينة شراعية عباب المحيط في ساعة اهتياج العواصف والأعاصير، ولآمنوا بأن الوسيلة المثلى لإنتاج الإصلاح في بيئة الفلاح هي قبل كل شيء إلغاء المركزية وإعادة نظام حكم القرى إليها، والأمر برد اعتبارها القديم الذي محته الحكومات المتعاقبة بمساهمتها في تنفيذ ذلك النظام الدخيل، فكانت مهمتها في ذلك توحيد



الصور رغم أمر الطبيعة بتباينها ، وإزالة الفروق التي شاءت نواميس الكون تثبيتها بين الأفراد والطبقات ، وهكذا حاولت القضاء على التقاليد القومية وقطع العـلائق بين الماضي والمستقبل ، ولكن هل نجحت في تحقيق هذه المحاولة ؟ كلا ، والسر في إخفاقها هو أن المدن التي انحلت فيها التقاليد بعض الشيء تعد أقلية لايؤبه لها إلى جانب بقية الأهلين الذين يقطنون القرى والذين اتخذوا من متانة الأخلاق ، وصلابة العزائم ، ونبل العواطف ، درعاً حصيناً حماهم من ذلك التفكك الذي أذاعته الفتن المغرضة بين المدنيين . وبهذا ظل الفلاحون من القرويين إلى عهد قريب يعيشون مع الأسر الريفية التليدة في نظام تقليدي يشبه أن يكون نظاماً إقطاعيًّا مفعماً بالخير والحب والرحمة ونبل العاطفة إلى حد جدير بأن يفتن المؤرخين العصريين ويستهوي أقلامهم إلى تصويره والإفاضة في وصفه. ونحن لانغالي إذا جزمنا بأن آثار هذه العلائق السامية لا تزال باقية في مصر الوسطى ومصر العليا إلى اليوم . وبيان ذلك أنه يوجد إلى الآن في كل قرية من تلك الأصقاع سلطان تقليدي ممثل في أسرة أو أسرتين لهما الصدارة على غيرهما من الأسر ، وهذا السلطان — رغم أنه لايستمتع بأية صفة رسمية — يفوق كثيراً سلطان المأمور والمدير اللذين يمثلان

الحكومة على بعد كفيل بتلطيف الرهبة، وهذه حال واقعية يستطيع تصويرها والإيمان بها من أتيح له أن يشاهدها عن قرب . على أنه لايكاد أحد اليوم يجحد هذه الظاهرة إلا إذا كان يجهل الريف المصري جهلا تاماً ، بل إن فريقاً من الكتاب الذين نصبوا أنفسهم للدفاع عن العدالة الاجتماعية يعزون إليها شقاء الفلاح ، إذ هم يعلنون أن الأسر القوية في القرى هي المسئوولة عن تلك البأساء التي يرزح الفلاحون تحت نيرها ، بل هم يذهبون إلى ماهو أبعد من هذا ، فيقررون أن وجود هاتيك الأسر نفسه هو عقبة في سبيل التقدم . ولاريب أن هذا الرأي الفج إن دل على شيء فإنما يدل على جهل أصحابه بتاريخ التطورات الاجتماعية ، التي ليس للجماعات والدول مندوحة عن المرور بمراحلها في ترتيب ونظام عند ماتتهيأ لها الوسائل اللازمة والعوامل الضرورية للتطور والارتقاء ، تلك العوامل التي شل فعلها وحول تيارها في مصر نظام الطفرة الدخيل إلى ناحية العقم والإجداب كل هذا الزمن الطويل . وفوق ذلك فإن القائلين بهذا الرأي قد أساؤوا معرفة الخدمات الجليلة التي أدتها الأسر المصرية العريقة ، وأخطؤوا تقدير مجهوداتها الجبارة في قيامها بمهمة القواعد الأساسية ، أو الحصون المنيعة التي لاتفتأ ترد عن الضعفاء عوادي الزمن وطوارئ الأحداث مادام فيها قلب ينبض بالحياة .

وغير خاف عن كل ذي فكر ثاقب أن هذا النظام القومي الشبيه بالأنظمة الإقطاعية قد تكون في مصر عندما دعت إلى وجوده ضرورة تشبه تلك الضرورات التي دعت إلى تكون أمثاله في البلاد الأوربية ؛ إذ من النواميس القومية الثابتة أنه حينما تعجز السلطة المركزية عن الاحتفاظ ببقائها ، أو عندما تأخذ في الضعف ، فإن الذي يحتل مكانها في تلك الحالة هو النظام الإقطاعي ، الذي يجمع فيه الرئيس بين الملكية والرياسة التقليدية التي تكاد تدرج جميع زراعه وأعوانه في عداد أسرته . وهنا لايفوتنا أن ننوه بأن هذه الرياسة خاضعة لقاعدة : « من عليه الغرم فله الغنم » إذ أن رؤساء الأسر الكبرى في الريف يسهرون في إخلاص على حماية جميع أعوانهم ، ويبذلون جهوداً محمودة في تأمينهم من كل شر ، ويعينونهم على اجتياز مصاعب حياتهم المحدودة ، ويختصمون مع نظرائهم إذا هم ألحقوا بأولئك الأعوان أضراراً مادية أو أدبية . وبالإجمال هم يعنون بهم في كل كبيرة وصغيرة إلى درجة لايكاد أهل المدن يتصورونها ، خصوصاً في هذه الآونة الراهنة التي طغى فيها تيار الأنانية على أكثر معالم الإنسانية الراقية . ومن أبرز المواقف التي كانت الحماية والرعاية والغيرية تتجلى فيها باهرة فاتنة من رؤساء الأسر التليدة نحو أعوانهم وأشياعهم من الزراع هي حالات المحن التي كان الأجانب المحتلون

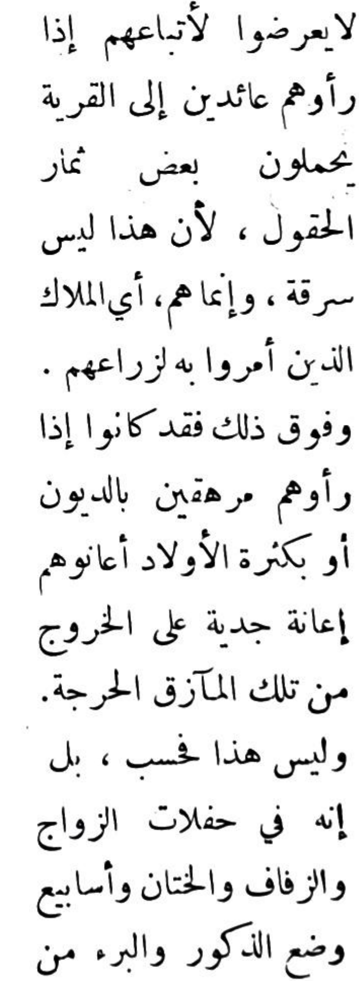
ينزلونها بالقرى من سلب ونهب وتشريد واضطهاد ؛ إذ لما لم تكن الحكومات المصرية في تلك الأحيان إلا صوراً رسمية سلبية ، لم يكن أمام الفلاحين إلا حصن واحد يحتمون به ضد طغيان الطغاة وعسف المتعسفين ، وهو رؤساء الأسر الكبرى ، وسرعان ماوضعوا أنفسهم تحت حمايتهم ، فلبى هؤلاء دعوة الأريحية ، وأدوا رسالة الشهامة نحوهم خير أداء ، وقد تصل هذه الأريحية في بعض الحالات إلى عنجهية بدوية تعرض حياة أولئك الرؤساء إلى الخطر . ومن أمثلة تلك العنجهية هذه الحادثة الآتية التي كنت أنا فيها شاهد عيان ومجملها : أنه عندما بدأت الحكومة المصرية إبان الحرب العظمى الأولى تجمع رجالا من الوطنيين لترسلهم إلى السلطة العسكرية ، سمعت بأذني أحد رؤساء الأسر الريفية الكبرى يقول لعمدة القرية — وهو إذ ذاك من أسرة أخرى — هذه العبارة حرفياً : « أقسم بالله أنك لومددت يدك إلى أحد الفلاحين التابعين لأسرتنا مسلمين كانوا أو أقباطاً لأسكنت بين عينيك رصاصة من مسدسي هذا » . ولقد كانت هـذه العبارة إحدى العبارات التي نقشت في ذهني منذ الإيفاع ولا تزال عالقة به حتى اليوم .

كان هذا النظام كأنه سياج يحيط بالفلاحين إحاطة تجعلهم كأنهم يعيشون في عزلة عن العالم وما يموج به من مظاهروأحداث ، فلا يعنيهم — بعد أعمالهم في الحقول — سوى تشرب ميول رؤسائهم وآرائهم وخصوماتهم مع الأسر الأخرى ، والمساهمة فيها بنصيب فعلي وافرقد يصل أحياناً إلى حد التوحش ، لا ضد تلك الأسر المعادية وحدها بل ضد الفلاحين المنتمين إليها أيضاً . ولا شك أننا لسنا في حاجة إلى التدليل على ذلك ، فهاهي ذي المآسي الريفية التي تحدث من حين إلى آخر أصدق شاهد واقعي على هذا التصوير .

على أنه لاينبغي أن يفهم من هذه التبعية معنى المهانة أو العبودية ، فإننا نستطيع أن نجزم في غير مغالاة أن الصلة بين رئيس الأسرة وفلاحيه كانت بعيدة كل البعد عن مواطن الكبرياء والاحتقار ، ولم يكن شعور الاستعباد يشوبها بأدنى شوائبه ، وإنما هي صلة خـيّرة كريمة ترفرف في أجوائها أجنحة المحبة والعطف والعرفان بالجميل . ومن مظاهر هذه الأحاسيس أن الفلاحين يتجهون كل مساء إلى منزل الرئيس فيستقبلهم باش الوجه باسم الثغر ، وبعد أن يستطلعهم أنباء الزراعة يسألهم عن أحوالهم الخاصة ، فإذا وجد فيها معضلة أسرية حلها بجاهه ، وإذا ألفى بينها ضائقة اقتصادية فرجها بماله ، وإذا كانت أحوالهم لا تستدعي معونته كان حسبه أن يوزع عليهم لفافات التبغ ، وأن يأمر خدمه بأن يقدموا إليهم الشاي في مجلس آخر غير مجلسه ، ليحتفظ — في رقة ووداعة — لكل طبقة بمنزلتها الاجتماعية .

وهكذا كان النبل العنصري ، والسخاء الفطري ، والميل إلى الأبهة والفخفخة ، واحترام أوامر الدين الحاثة على العدل والخير ، والتمسك بالتقاليد القومية ، كل هذه العوامل قد تكاتفت على أن تكون في نفوس رؤساء الأسر العريقة نوعاً من الأريحية ، يجعل الفلاحين في بحبوحة من الرغد ، لا يحلمون بمثلها في ظل هذا النظام الدخيل الذي جعل ينشر التعاليم التجارية الجافة المؤسسة على الأنانية وحب الذات . نعم إن الفلاحين في العصور الغابرة لم يكونوا ملاكا للأراضي التي يعملون فيها ، وكانوا من الجهل بالشؤون الصحية والاجتماعية بالقدر الذي هم عليه اليوم ، ولكن الغذاء والكساء كانا إذ ذاك أكثر وفرة منهما في الثلاثين سنة الأخيرة . ولم يكن هذا راجعاً إلى الرخص والغلاء كما يتصور البعض ، وإنما هو ناشئ من تقلص ظل النظام القومي القديم . وليس علينا — لكي نؤمن بهذه النظرية — إلا أن نستمع إلى قصص الشيوخ المعمرين من الأسر العريقة ومن الفلاحين ، فأولئك وهؤلاء يحدثوننا أن كبار الملاك من رؤساء الأسر كانوا يخصصون حقولا كاملة من أملاكهم لاستهلاك أتباعهم من الفلاحين وماشيتهم دون مقابل ، بل إن بعض أولئك السادة كانوا ينبهون على الحراس النظاميين بأن





لايعرضوا لأتباعهم إذا رأوهم عائدين إلى القرية يحملون بعض ثمار الحقول ، لأن هذا ليس سرقة ، وإنما هم ، أي الملاك الذين أمروا به لزراعهم . وفوق ذلك فقد كانوا إذا رأوهم مرهقين بالديون أو بكثرة الأولاد أعانوهم إعانة جدية على الخروج من تلك المآزق الحرجة. وليس هذا فحسب ، بل إنه في حفلات الزواج والزفاف والختان وأسابيع وضع الذكور والبرء من

الأمراض ، والارتحال إلى الحج والأوبة منه ، وفي الأعياد الستة : الفطر والأضحى وعاشوراء والمولد النبوي ونصف رجب ونصف شعبان ، وعند حمل الحبوب من البيادر إلى المنازل ، وعند السقية الأخيرة للذرة، في هذه المناسبات كلها — وما أكثر دورانها في البيوت الكبرى — كانت أسر الفلاحين تنغمس في شهي الغذاء وطلي الكساء . وقد يكون من الحق علينا للتاريخ هنا أن نعلن أن هذه الأبهة لم تكن كلها ناشئة عن بواعث بريئة ، وإنما كانت أيضاً متأثرة إلى حد بعيد بالمنافسات القوية التي كان أوارها دائم الاشتعال بين الأسر الثرية .

أما اليوم فقد تبدل كل شيء تقريباً ، وأصبح ذلك المظهر « الفخفخائي » الفاتن ضئيلا باهت اللون . فبقدر ماجعل نظام المركزية الدخيل يسود ويتغلغل في البيئات الريفية ، طفقت أحوالها تتغير واحدة بعد الأخرى . فالأسر الثرية قد تطورت في صورة خاطفة ، وأخذت تنحصر في إطار المبادئ الحديثة ، وتركت نفسها تنسحب مع تيار جاذبية المدن الصغيرة أولاً ثم العاصمة أخيراً . والشباب الذي اضطرته ضرورة الدراسة إلى هجر القرية قد أخذ يتخلص من روابطها شيئاً فشيئاً حتى كاد ينساها . وليس ذلك فقط ، بل إن الوظائف العامة قد بدأت تروقه وتستولي على مشاعره ، حتى أفقدته التقدير الحقيقي للقرية ، وفتنته عن منزلة آبائه وأجداده ، وأنسته مهمتهم الجليلة الشأن . وهنا ينبغي أن نقف هنيهة لنوجه إلى المشرفين على الإصلاح الاجتماعي في مصر هذا السؤال وهو : إذا كان كل الشبان الذين يظفرون بالشهادات سيقطنون المدن ، فهل معنى هذا أنه لن يبقى في القرى إلا الجهلة والذين أخفقوا في التعلم ؟ أو ليست هذه المعضلة إحدى النواحي التي يجب الاهتمام بها من مشكلتنا الكبرى ؟ .

على أن أولئك الذين يثوون الآن في القرى ليديروا ممتلكاتهم ، أوالذين يديرونها على بعد من خلال قصورهم في القاهرة أو الإسكندرية أوعواصم الأقاليم ، لم تعد عقلياتهم تفكر ، ولا قلوبهم تشعرعلى النحو الذي صورناه لك آنفاً ، وإنما أصبحوا عمليين أقرب إلى التجارية الجافة منهم إلى الأريحية والخيرية الغابرتين ، فهم لايحسون بالمسئولية التي كانت ترهق أجدادهم نحو الفلاح ، وقد يكون لهم في هذا بعض العذر ، مادامت الحكومة — تنفيذاً لنظام المركزية — قد أعلنت أنها هي التي ستتولى منذ الآن النهوض بجميع الأعباء ، وفعلا قد فرضت نظام الملكيات الصغيرة ، وأنشأت المحاكم للدفاع عن حقوق الفلاحين ، وأسست لهم مصرفاً يعينهم على الإنتاج ، ووضعت حدوداً معينة يحميها القانون بين حقوقهم وحقوق الملاك ، فلم تلبث هذه الامتيازات النظرية ، التي

ليس لها من القيمة العملية إلا حظ ضئيل ، أن حملت الأسر الثرية على أن تكون واقعية ، فتساير التيار التجاري الذي شرعت الحكومة قواعده . وهكذا بدأت تضن بما لديها ، فلا تزيد على الأجور المقررة إلا شيئاً طفيفاً يتمثل في موائد الطعام التي لا تزال مسحة الوفرة تلوح عليها في مناسبات الزفاف أو الحداد . أما تلك الهبات الموسمية التقليدية فلم يبق منها إلا آثار تعيد إلى الأذهان ذكريات الماضي البعيد . ومن هذا يبدو جلياً أن ما أحاطت الحكومة به الفلاح من امتيازات لايساوي حتى الآن مافقده بفقد عطف الأسر العريقة عليه . ومن آيات ذلك أن حالته اليوم أشد بؤساً مما كانت عليه في نهاية القرن الماضي ، ولكن لنا موطد الأمل في أن تنمو هـذه الامتيازات الحكومية ، حتى لايكون الفلاح بسيره وراءها قد أشبه الغراب الذي اشتهى أن يحاكي مشية القطا فلم يستطع ، وكان قد نسي مشيته الطبيعية فلم يتمكن من العودة إليها .

غير أنه من الخطأ أن يستنبط من هذا أن الفلاح قد قطع علائقه العاطفية بتلك الأسر ، فهو لايزال وثيق الصلة بها يحبها ويحترمها ، ويؤيد جانبها ، ويشد أزرها ، ويلجأ إليها في محنه ، ويسترشد بنصائحها في ملماته ، ويأبى من تلقاء نفسه أن يعمل في حقول الأسر المعادية لها ، وليس هذا فحسب ، بل إنه يبدو لنا أن هـذه الميول توشك أن تكون غير قابلة للتبدل ، لأنها قومية قد امتزجت بدمائهم منذ فجر التاريخ . ولهذا لم تكن دقة الانتخابات في مصر بالقدر الذي يتحقق في الدول الأخرى ، ولا جرم أن هذا كله يحدونا إلى المساهمة في العمل ، إما على إيجاد نظام جديد يلتئم مع طبيعة القومية المصرية كما يلتئم مع روح العصر الحاضر ، وإما على انتقال الفلاح من النظام الإقطاعي إلى الوطنية العامة . ولكن ينبغي أن نصارح الحكومة بأن أولى الخطوات التي يجب أن تخطوها للوصول إلى إحدى هاتين الغايتين هي المبادرة بإلغاء نظام المركزية المباغت ، الذي كان عقبة في سبيل تقدم البلاد حتى الآن . وبعد التخلص من هذا النظام البغيض يجب عليها أن تسارع إلى القضاء على الجهل والمرض والفقر بصورة عملية ، لا خيالية قوامها الخطب والأحاديث ، حتى لايشعر الفلاح — أكثر مما شعر — بفقد تلك البقية الضئيلة الباقية من مستواه المادي بسبب انتقاله من النظام الإقطاعي إلى الحياة الوطنية .

بقي علينا الآن أن نقول كلمتنا في هذا التطور الذي يجب على الصفوة أن تلهب شعلته في بيئة الفلاح ، لتتمكن من رفع مستوى حياته الفكرية إلى مثل ما عليه طبقات الشعوب الأخرى . غير أن الموقف هنا أدق من نظيره لدى غير هذه البيئة . وسر ذلك هو أنه ليس من الهين أن يتخطى المرء نوعاً من الوجود تتكدس فيه كل ألوان النشاط

وتنحصر في إطار ضيق تتحدد فيه أخلاق جماعة من الجماعات الخاضعة لقواعد قاسية من التقاليد الموروثة منذ أزمنة لا تعيها ذاكرة التاريخ ، كما هو الشأن في مصر ، ثم يجتاز ذلك إلى صنف آخر من الحياة العامة لدى جميع الأجناس البشرية التي تأثرت طباعها بالمؤثرات الأجنبية ، ففي مثيلات هـذه الحالة يخشى المصلح أن يحطم التقاليد المحترمة ، أو أن يتسبب في خلط رفيع الأخلاق بوضيعها . وإذن فالمنقذ الأمثل من هذا الحرج هو أن يخطو المصلح إلى هـذا التطور خطوات حذرة متبصرة توسع الإطار ولا تحطمه ، وتثني التقاليد دون أن تكسرها ، وتسير نحو التقدم دون أن تقفز إليه ، وتأخذ بحظ من المدنية الأوربية دون أن تنسى أن مصر هي أستاذة الدنيا وملهمة الإنسانية.

ومن ثم كان الدور الذي تقوم به التربية في طليعة الأدوار الأساسية ، وبالتالي هو يتطلب إعداداً خطيراً يختلف كل الاختلاف عن الخطط المرتجلة أو المغرضة التي سلكت إلى اليوم . ولذا نحن ننتظر بفارغ الصبر ذلك الإصلاح الشامل الذي وعدت به الحكومة الحاضرة ، وألفت له من أعضائها لجنة عليا ، نرجو أن يكون التوفيق حليفها ، ليحقق وادي النيل بفضل منهجها تلك النبوءة العالية التي تنبأ له بها ذلك الكاتب الفرنسي الجذاب « بييرلوتي » الذي كان يحب الشرق وينظر إليه بعين النفس المجردة عن الأهواء إذ قال : « مسكين ذلك العنصر العريق ذو العضلات التي لا يعتريها الكلل !... فلقد كان النور في غابر الأزمان يشع على الكون من بين يديه ، وهاهو ذا الآن قد هوى منذ أكثر من ألفي سنة في هذا النوع من النوم المنهك ، الذي يسر مهمة الغزاة في الماضي ، كما صير مجهود المشتغلين اليوم هيناً ... نعم إن الوقت قد حان لإيقاظ هؤلاء النائمين منذ أكثر من عشرين قرناً ، ولرؤية ماعسى أن ينتجوه بعد الذي كان ! ياليت شعري أية مفاجأة تلك التي يحتفظون لنا بها إثر هذا السبات الطويل الذي هو مصلح لهم بلا ريب ، فإذا استيقظوا فإن الجنس البشري الذي هو الآن في طريق التدهور بسبب الإفراط ، سيجد لدى أولئك المغنين على الشادوف والحراثين بالمحراث العتيق رؤوساً لم تكد القحول تمسها ، وذخراً من الجمال الهادئ ، واتزاناً بدنياً حسناً ، وقوة بدون بهيمية » .

محمد غلاب

رسالة الجامعات في المجتمع الحديث

للدكتور عباس مصطفى عمار

تعنى البلاد المتمدنة بالتعليم الجامعي عناية بالغة ، وترصد له في ميزانياتها مبالغ هائلة ، وتعتبره دعامة قوية من دعائم التقدم في شتى مرافق الحياة . . . وقد أثبتت التجارب الطويلة التي مرت بها تلك البلاد أن ليس هنالك قوة أعظم من قوة الجامعات في توجيه المجتمع توجيهاً صحيحاً ، وأن ليس هنالك ما يستطيع أن يبصر الشباب بالمسائل العامة كما تستطيع الجامعات ، ولو أن هذه المؤسسات العلمية اتجهت في إعداد الجيل اتجاهاً سليما لاستطاعت أن تساهم مساهمة فعالة في حل مشاكل المجتمع على أحسن الوجوه . ولهذا كان الجامعيون — في نظر عدد كبير من المفكرين — مسؤولين قبل غيرهم عن استقرار المجتمع وتقدمه ، وراحة المواطنين ورفاهيتهم . . وإذا كان هنالك من يرى ذلك عبئاً ثقيلا ينوء به الجامعيون ، ويعجزون كل العجز عن أن يواجهوا مطالبه ، فإن مرجع هذا إلى أن هؤلاء المتشككين إنما يرمون إلى إصلاح سريع تنفرد هذه الطائفة به دون غيرها من الطوائف والهيئات ، مع أن المقصود هو أن نضمن تآزر الجهود وتعاون القوى مع تلك الزعامة الاجتماعية التي نريد أن نسلم قيادتها للجامعات ، إذ بهذا وحده يكون لصوت الجامعيين صداه ، وتكون هنالك تلبية للدعوة الخالصة التي تنبعث من تلك الأوساط .

وما ينبغي أن نعارض هذا الرأي — الذي يبدو لبعض الناس غريباً — على أساس أن المجتمعات قد نهضت وتقدمت في عهود لم يكن للجامعات فيها وجود ، فتلك عهود كانت الأحوال فيها بسيطة ، والمشاكل القائمة غير معقدة ، ولهـذا استطاعت الهيئات غير الجامعية أن تتحمل المسؤولية وأن تنجح فيها إلى حد معقول . . أما الآن فقد تغيرت الظروف وتبدلت الأحوال ، وأصبحنا أمام مهمة أعظم ثقلا ، ومشاكل أشد تعقداً ، وعجزت المجتمعات عن أن تعالج أمورها بالأسلوب القديم الذي سارت عليه من قبل ، كما فشلت الهيئات التي سلم إليها مقاليد الأمور في أن تواجه مطالب هذا العهد الجديد ، ولم يجد استخدام الوسائل التقليدية نفعاً في أن يوفر للشعوب ما تطمح إليه من سعادة ورفاهية . .

ولا بد للجامعات — إذا هي شاءت أن تحقق ثقة الناس فيها ، وأن تتزعم حركة الإصلاح لتخلق في الأرض فردوساً تتخلص الشعوب فيه من كثير مما تقاسي الآن — من أن يعيد رجالها النظر في الوظيفة التي يجب أن تكون لهم في المجتمع الجديد ، ولا مناص من أن يفكروا تفكيراً أعمق في الأهداف التي ينبغي أن تهدف إليها الجامعات في هذا العالم المعقد الذي تفسد أموره إن سيرت بنفس الطريقة التي لا تلائم حاجات العصر ، ولا تساير مطالب الزمن الحديث ... وليس على الجامعات جناح إن أعادت التفكير في أهدافها ، لأنها — كمؤسسات اجتماعية حية — لا تستطيع أن تعيش بمعزل عن التيارات الفكرية والاقتصادية والروحية التي تؤثر في المجتمع البشري ، وإلا تحجرت وجمدت وأضاعت من يدها فرصة قل أن تتاح لها مرة أخرى .

وإذا كانت الجامعات قد ظلت بمنأى عن النقد الشعبي العنيف ، واستطاعت أن تحتفظ لنفسها بكثير مما أضفاه عليها الزمن من تقديس واحترام ، فإن من مصلحتها أن لا تطمئن كثيراً إلى هذه الحالة . فالناس مع شديد احترامهم حتى الآن لها ، ومع عظيم إجلالهم لرجالها ، سيثيرون قريباً حولها ما أثاروه حول غيرها من أسئلة كثيرة محرجة ، وسيكون عليها وقتئذ أن تخضع لحساب عسير ، يطالبها الشعب فيه بأن تدفع له ثمن ما أولاها من ثقة ، وينتظر منها أن تقدم له من الخدمات مايعادل سخاءه في الإنفاق عليها ، وكرمه في تلبية مطالبها دون تلكؤ أو تسويف .

ونحن لا ننكر على كثير من الجامعات أنها كانت تعيد دراسة أحوالها ، وأنها غيرت وبدلت في كثير من نظمها ولوائحها . فالمعروف مثلا أن الدولة في بريطانيا — مع محافظتها التامة على استقلال الجامعات فيها — تحتفظ لنفسها بحق تكوين « اللجان الملكية » لبحث حالة الجامعات ، وأن ما يزيد على اثنتي عشرة لجنة من هذه اللجان قد شكلت منذ عام ١٨٥٠ ، وأن لهذه اللجان آراء وتوصيات أخذت بها الجامعات مغتبطة راضية . لكن الذي نلاحظة أن مثل هذه الدراسة إنما تعرضت أكثر ماتعرضت للنواحي الإدارية والمسائل الشكلية .

لسنا إذن نطالب بتغييرات شكلية في شؤون التعليم الجامعي ، فقد بدأ العالم كله يفكر في الأسس ، ويلح في أن تتجاوز الحلول دائرة الشكليات التي لا تقدم كثيراً ولا تؤخر . ولعلنا في مصر وغيرها من بلاد الشرق أشد حاجة إلى مثل هذا التفكير العميق في أمر التعليم الجامعي ، تفكيراً يوضح لنا أهدافه ، ويبين رسالته ، ويحدد موقفنا من كل هذا تحديداً لا لبس فيه ولا غموض ؛ فقد بدأنا نهتم بهذا اللون من التعليم ،

ونرسم الخطط لتوسعه وانتشاره ، ونرصد له في ميزانيتنا العامة مبالغ لا تتناسب وجملة ما يرصد فيها لكل ألوان التعليم . وإذا كنا نتلمس لأنفسنا بعض المعاذير في هذا الإنفاق السخي على الجامعة وكلياتها ، فإنا نطالب بأن يكون هنالك ضمان بأن هذه الأموال الطائلة ستكون لها نتائج طيبة محققة ، وإلا كان الأمر أمر تبذير يجب أن نتحاشاه ، حتى لا يصبح هذا الاتجاه عاملا من عوامل الإضرار بالمصلحة العامة ، يحمل في نفسه معاول هدمه ويورطنا في سياسة تعليمية مضطربة لا يسهل التراجع فيها مستقبلاً .

لقد بدأت مصر تعليمها الجامعي الحديث منذ أنشئت الجامعة المصرية (الأهلية) في عام ١٩٠٨ ، وأخذ هذا التعليم قوة جديدة بإنشاء الجامعة الأميرية في مارس عام ١٩٢٥ ، لكن الشيء المحقق أنه لم تكن هنالك أهداف واضحة للتعليم الجامعي ، ولا رسالة محددة للجامعة والجامعيين ، وإنما يبدو أن هذا النظام قد فرض علينا فرضاً ، فلم يأت — كما حدث في كثير من بلاد العالم الغربي — نتيجة تطور طبيعي ، وما دعت إليه وقتئذ حاجة ماسة ملحة . ولا أدل على هذا من أن المادة الثانية من اللائحة الأساسية للجامعة المصرية تنص على أن : « من اختصاص الجامعة المصرية كل ما يتعلق بالتعليم العالي الذي تقوم به الكليات التابعة لها ، وعلى وجه العموم فإن عليها مهمة تشجيع البحوث العلمية والعمل على رقي الآداب والعلوم في البلاد » . وهذا نص غامض لا يحدد رسالة الجامعة تحديداً دقيقاً ، ولا يبين أهدافها بشكل كامل . وإذا كان مدير الجامعة المصرية السابق — معالي أحمد لطفي السيد باشا — قد رأى في خطبة ألقاها عن رسالة الجامعة عام ١٩٤١ أن في هذا الغموض قوة « لأن الشارع رأى أن رسالة الجامعة أوسع مجالاً من أن تحدد بحدود معينة ، فوضع نص رسالتها مرناً يتسع لكل ما تقدر عليه من الألوان المختلفة لخدمة العلم والقيام بالتعليم » ، فإنا مع الأسف لا نرى أن هذه المرونة في تحديد رسالة الجامعة قد أفادت التعليم الجامعي عندنا ، أو ساعدت على أن تطاق يد الجامعيين منا ، فما يتقيدون بالأهداف التقليدية المنقولة عن جامعات الغرب ، بل هم يرسمون الأهداف على ضوء حاجات المجتمع المصري ووفق ما تطلبه الحياة المصرية . نعم لم يستفد التعليم الجامعي عندنا من هذا الغموض وتلك المرونة ، بل هو — في رأيي — قد ضُرَّ من ذلك ضرراً بليغاً ، إذ ما أظن أن الجامعيين عندنا تتضح في أذهانهم رسالة الجامعة عند ما يعلمون أو يتعلمون . وما أظن أن أولياء أمور الطلاب يفهمون وظيفة الجامعة على وجهها الصحيح عندما يرسلون أولادهم وبناتهم إلى مختلف الكليات . وما أظن أن الدولة — التي تنفق على الجامعة كل هذه الأموال الطائلة — قد كوَّنت

لها صورة واضحة عما ينتظر من الجامعة أن تؤديه للرقي بمرافق البلاد .

ولا أدل على أن هذا الغموض في تحديد رسالة الجامعة عندنا قد أضر أكثر مما أفاد ، من أن الأسلوب الذي نسير عليه في قبول الطلاب بالجامعة ، والطريقة التي نعلمهم بها ونختبرهم آخر العام على أساسها ، والمقاييس التي نتخير بمقتضاها أعضاء التدريس بالكليات المختلفة ونقرر بها نظام ترقياتهم ، كل هذا ليس مما يرتاح إليه ، لو أننا فحصناه على ضوء ما هو مقرر في الجامعات الأخرى التي تحددت رسالتها إلى حد مقبول . . بل إن هنالك من يرى أن مستوى التعليم في بعض المعاهد العليا لم يكن أقل — إن لم يكن أعلى — منه في الكليات التي حلت محل تلك المعاهد ، وان أسلوب التعليم وخطة الدراسة والحياة الاجتماعية لم تتغير تغيراً يشعر حقيقة بأن هنالك انتقالاً ملموساً من لون من التعليم إلى لون آخر يختلف عنه اختلافاً بيناً . . كذلك لم يشعر المجتمع المصري بأن إنشاء الجامعة عندنا قد أثر في الحياة العامة تأثيراً لم يحدثه التعليم العالي بمدارسه الملغاة ، ولم ير رجال الأعمال ولامصالح الحكومة فروقاً جوهرية بين المتخرجين في الكليات وبين من سبقوهم من خريجي المدارس العليا ، لا في الكفاية ولا في الروح ... وما أظن أن النشاط العلمي في الوسط الجامعي قد بلغ درجة يمكن أن يطمأن إليها كل الاطمئنان ، ومع ذلك فالتعليم الجامعي عندنا سائر في طريق التوسع ، وعدد الطلاب آخذ في الزيادة المطردة السريعة ، والجامعيون — في غالبيتهم — راضون عن هذه الحال ، والدولة مرتاحة إلى هذه النتيجة ، بدليل أنها أنشأت جامعة ثانية بالإسكندرية ، وكانت تفكر في إنشاء جامعات أخرى في الدلتا والصعيد . . . وقد تستمر الحال على هذا الشكل سنين طويلة في المستقبل ، فتظل الأمور تجري في الجامعة على هذا النمط الذي تجري عليه الآن ، ويظل الرأي العام والجامعيون وأولو الأمر راضين بهذه الحال التي رضوا بها منذ قامت الجامعة عندنا في عام ١٩٠٨ أو عام ١٩٢٥ ، ذلك لأن وظيفة الجامعة لم تحدد لنا تحديداً كافياً ، ورسالة الجامعيين لم توضح توضيحاً صريحاً ، وليس هنالك إذن هذه المقاييس التي يمكن أن يقاس بها نجاح التعليم الجامعي أو فشله ، ولا تلك الأهداف التي نتبين على ضوئها مبلغ ما أصبنا في جهودنا الجامعية من توفيق .

وما أظن أن مصلحة الشرق في أن تظل الأمور على وضعها الراهن ، إن كنا حقيقة نرمي إلى إصلاح في شؤوننا العامة وتقدم في شتى مرافق الحياة .

والغريب أن الجامعيين قد ساهموا — بألسنتهم وأقلامهم — في موضوعات كثيرة أدبية وعلمية واجتماعية ، لكن موضوع الجامعة لم يلق منهم عنايه تستحق الذكر ،

وأن مجالس الكليات — على كثرة الاجتماعات التي تعقدها ، وتنوع المسائل التي تبحثها — لم تتعرض للمشاكل الكبرى من شؤون الجامعة ، ولم تمس أسس التعليم الجامعي مسًّا يذكر . . . ووزراء المعارف الذين تعاقبوا على الجامعة ، ولم يتوانوا في أحيان كثيرة عن أن يستخدموا سلطتهم ، لم نر منهم جهوداً ظاهرة وجهت إلى بحث شؤون الجامعة بحثاً شاملاً يتجاوز العرض لينفذ إلى جوهر الموضوع . . وما نظن أن مثل هذه الدراسة — أيا كان مصدرها ، وأيا كانت العناصر التي تساهم فيها — مما يمكن اعتبارها تداخلاً في شؤون الجامعة أو مسًّا باستقلالها . فالجامعة — قبل كل شيء — مؤسسة قومية ، ومن حق كل مفكر أن يعنى بها ويقترح من الآراء ما يعتقد أن فيه نفعاً ومصلحة ، والجامعيون أنفسهم أولى الناس بتقدير النقد ما دام منزهاً عن الغرض والهوى ، وقد أشرنا إلى أن الحكومة في إنجلترا — التي تتمتع الجامعات فيها بأكبر قسط من الحرية والاستقلال — تكون لجانا لدراسة شؤون الجامعات فيها ، فما يضيق الجامعيون بهذا الحق الذي تتمسك الدولة به ، بل هم على العكس يفسحون صدورهم لآراء هذه اللجان ، ويجدون في تلك الدراسة لوناً من التعاون المشكور .

وما نستطيع نحن أن نبرر هـذا الإهمال من جانبنا في توضيح وظيفة الجامعة وتحديد رسالة الجامعيين بأن هذه أمور قد فرغ منها واستقر الناس فيها على قرار ، وإلا فما هذه التطورات الكثيرة التي مرت بها فكرة الجامعة منذ العصور الوسطى إلى الآن ؟ وما هذا الاختلاف البين في موقف الأمم الغربية من فلسفة التعليم الجامعي وأهدافه الكبرى ؟ وما هذه الضجة التي أثيرت في الأوساط الجامعية — منذ الحرب العالمية الأولى — حول قصور الجامعات عن أداء مهمتها في التحول العالمي الحديث ، ومطالبة المفكرين بضرورة القيام بإصلاح شامل يمكن لهذه المؤسسات العلمية من أن تحقق كل ما يعلق الناس عليها من كبير الآمال ؟ ويكفي أن نوضح هذا الكلام توضيحاً بسيطاً ، لنرى أن فكرة الجامعة لم تأخذ بعد شكلها النهائي عند أرسخ الأمم قدماً في التعليم الجامعي وأعرقها في التقاليد الجامعية ، ولنعلم أن من واجبنا أن نعيد التفكير في كل ما يتصل بأمور الجامعات عندنا ما استطعنا إلى ذلك سبيلا . . ولعل من المصلحة أن نحصر المناقشة — حول وظيفة الجامعة ورسالتها — في أهم النقط التي كانت ولا تزال مثار الجدل ومبعث التفكير ، وهي نقط يجب أن يستوفيها الجامعيون في الشرق بحثاً ، وأن يصلوا فيها إلى رأي يحدد موقفهم من فكرة الجامعة ، ويوضح الفلسفة التي نريد أن يقوم عليها صرح هذا اللون من التعليم ، إذ أن من العبث أن يشغل الجامعيون أنفسهم بالتفصيلات المتصلة

بشؤون هذا التعلم وخطط الدراسة وحياة الطلاب ، قبل أن يكون هنالك اتفاق على الأهداف التي توصل تلك الخطط إليها ، لأن مثل هذه الأمور التفصيلية — أيا كانت قيمتها — لا شك متأثرة بالغايات التي تخدمها ، مرتبطة بالأهداف التي نبغي تحقيقها عن طريق هذه الوسائل .

وفي الإمكان أن نقسم هذه المسائل — التي يقوم الخلاف عليها — تقسيما مبدئياً إلى مجموعتين رئيسيتين : أولاهما تلك النواحي المتصلة بالجانب التعليمي البحث ، وثانيتهما تلك النواحي التي تتعدى الجانب الفني المحدود إلى مكانة الجامعة بين القوى التي توجه المجتمع وتؤثر في سياسته العامة . . .

أما المجموعة الأولى فتدور كلها حول تلك المسألة التقليدية التي طالما أثارها الكتاب وناقشها المفكرون ووقف منها الجامعيون والجامعات موقفاً يختلف باختلاف روح العصر ويتلون بحسب نزعات الأمم وعقليات الشعوب ، فكل مهتم بالشؤون الجامعية يذكر تماماً أن الرأي لم يستقر بعد على الوظيفة التعليمية للجامعة إذا قيست بوظيفة المعاهد الأخرى من معاهد التعليم العالي ، ترى أتشغل الجامعة بالإعداد المهني ، أم أن وظيفتها أن تعلم الطلاب تعلما عاماً حرًّا ، لا يهدف إلى غاية نفعية ، ولا يبغي إلا البحث الخالص المجرد والثقافة العالية بأوسع ما يتضمنه هذا اللفظ من معان ؟ ! وقد ارتبط بهذه المشكلة ذلك الخلاف القائم بين العلماء حول وظيفة البحاث منهم وموقفهم مما يصلون إليه من نتائج جديدة . ترى أتقف مهمة الجامعيين عند حد الناحية النظرية من العلوم ، أم هم يستطيعون أن يتعدوا الجانب النظري إلى النواحي التطبيقية لما يتصلون إليه من نظريات ؟ ! كذلك ارتبط بهذه المسألة الكبرى ذلك الخلاف القائم الآن بين الجامعيين على أشده حول تلك النزعة التي غلبت في السنين الأخيرة ودفعت إلى هذا التخصص الضيق في أشد فروع العلم ارتباطاً واتصالا ، بل إن بين الذين لا يبغون تضييق دائرة التخصص خلافاً على لون هذا التوسع في نوع التثقيف العام الذي يجب أن يعطى للجامعيين : ففريق يقف بالتوسع الذي ينشده عند حد المواد التي تسمو بالذوق وترتبط بمواضع الجمال كما يعرفها الأدباء وأنصار الدراسة الكلاسيكية والروحية ، وفريق لا يعرف لهذا التوسع حدوداً ، ويرى أن في التخصص الضيق تجاهلا لما بين مواد الدراسة كلها من تفاعل وترابط ، فمن الخير إذن أن لا يتورط المتعلم الجامعي فيه بهذا الإسراف الذي أدى إلي خلق مشاكل لا تحصى.

وليس من شك في أن في الإمكان أن نرد هذه المشكلة الكبرى إلى اختلاف الظروف التي أحاطت بالجامعات في الأطوار التي مرت بها منذ عهد النهضة إلى عصر الانقلاب

الصناعي ، وما استدعاه هذا الانقلاب من مطالب وحاجات ، ومع ذلك فلا تزال هنالك نزعات غالبة على اتجاهات التعلم الجامعي في كثير من دول العالم ، تكاد تطبعه بطابع خاص : فنزعة الإعداد المهني بكل مايتصل به من انقطاع للبحث وتضييق في التخصص كانت صفة بارزة في الجامعات الألمانية ، وطابع التثقيف الواسع والتعليم الحر غالب في التعليم الجامعي بفرنسا . وإنجلترة مقسمة في جامعاتها تقسيما نلمسه في الفرق الواضح بين التعليم الجامعي في أكسفورد وكمبردج من ناحية ، وفي جامعة لندن وجامعات الأقاليم من جهة أخرى ، أما أمريكا فقد غلبت فيها النزعة العملية ، وسخرت الجامعات للاعداد المهني فما تأخذ من ألوان التثقيف العام إلا بقدر معلوم . . ومع ذلك ففي كل بلد من هذه البلاد جدل قائم حول الفلسفة التعليمية التي ارتضتها لجامعاتها ، ومحاولات مستمرة لتعديل اتجاهات هـذا التعليم ، وتحوير رسالة الجامعة بما يتفق وما جَـدّ من ظروف وملابسات ، أما نحن فما نستطيع أن ندعي بأن لنا اتجاهاً واضحاً أو موقفاً محدداً من هذه المشكلة الجامعية الـكبرى ، ويكاد الإنسان يحس بأننا لا نزال متأثرين كل التأثر بطابع التعليم فى المدارس العليا التى قامت على أنقاضها كليات الجامعة ، وأن غايتنا الأولى والأخيرة غاية «تدريسية» ترمي إلي تلقين الطلاب هذا القدر المحدود من المعلومات ، التي لا تفتق ذهناً ولا تسمو بتفكير .

أما الجانب من رسالة الجامعة المتصل بمكانتها بين القوى المؤثرة في توجيه المجتمعات ، فقد بدأ يبرز في السنين الأخيرة بروزاً كاد يغطي على الجانب التعليمي البحت من أهداف الجامعات ، وأصبح الجامعيون يطمعون في أن تنتقل الزعامة من يد أولئك الساسة المحترفين ورجال الأعمال النفعيين إلى يد رجال العلم وقادة الفكر ، ماداموا هم في الواقع عصب التقدم المادي والروحي في هذا العصر الحديث . . . فلا أمل في صلاح العالم إلا إذا انقضى « عهد الاعتباطية » في السياسة القومية والدولية ، وحل محله تنظيم مقنن موجه ، يسيطر العلم فيه على الإنتاج والتوزيع ، كما يسيطر على شؤون الحكم وأمور السياسة والإدارة . . ومن واجب الجامعات إذن أن ترمي في تعليمها إلى إعداد طلابها لهذه الزعامة إعداداً لا يكتفى فيه بأن يكون في الطلاب صفات العلماء المبرزين والبحاث المنقطعين ، وإنما يعنى بأن يجعل منهم قوة اجتماعية يتوافر فيها كل ما تحتاج إليه الزعامة المستنيرة من مهارة وشخصية واستعداد للتضحية وتفان في خدمة الجماهير .

وما يصعب علينا أن نربط بهذا الهدف الجديد من أهداف الجامعات كل تلك الاتجاهات الحديثة التي بدأ الجامعيون يتجهون إليها ويقيمون عليها رسالتهم في العهد

الجديد ، « فانعزالية » الجامعات أصبحت موضع التهكم والسخرية الآن ، والانقطاع للبحث والتفرغ للعلم والانزواء في المكتبات والمعامل لم يعد الحياة المثالية للجامعيين في عصر الديمقراطيات ، وقد أصبحت صيحات العلماء تدوي ملحة في ضرورة توجيه العلم توجيهاً اجتماعياً ، وإعطاء البحاث والمكتشفين الكلمة الأولى في تقرير الطريقة المثلى للاستفادة بنتائج بحوثهم وثمرات أفكارهم ، بعد أن عاشوا طويلاً أرقاء لرجال الحكم تارة ورجال الصناعة والمال تارة أخرى . كذلك بدأت الأمم — في أشد المجتمعات تمسكا بالحرية ، وأكثرها بغضاً لتداخل الحكومات في المشروعات العامة — تستمع إلى رأي هؤلاء القادة من رجال العلم والفكر ، فهي الآن متجهة إلى أن تقيم سياستها على خطط مرسومة تعتمد على العلم والعلماء ، وبهذا أخذ العالم يشهد بداية مجهود يرمي إلى التخلص من زعامة المحترفين إلى زعامة المتخصصين ، وأصبح من المألوف أن يحال كثير من المسائل العامة الكبري إلى شخصيات لم تكن لتعرف في الماضي غير الكتب والأجهزة.

وفوق هذا فإن ذلك الهدف الجديد من أهداف الجامعات قد قضى على كثير من « ارستقراطيتها » ودفع بالجامعيين إلى صفوف الجماهير ، يحتكون بهم ، ويشيعون في أوساطهم ما يريدون من مبادئ وأفكار . ذلك أن تغيير القيم التي انحدرت إلى الناس من جيل إلى جيل ، وتحقيق الإصلاحات الجوهرية الشاملة ، وهز أركان الحالة الراهنة ، والتغلب علي المقاومة التي لابد من أن يثيرها أصحاب المصالح الخاصة ، كل هذا محتاج إلى ثورة فكرية تزيل ما على أعين الناس من غشاوة . ومن هنا بدأ النشاط الشعبي للهيئات الجامعية يتغلغل في كل أنحاء البلاد ، وأخذت أصوات الجامعيين تصل إلى طبقات الشعب بشتى الوسائل : فحركة تثقيف الجماهير ارتبطت بجهود الجامعات في غالب الدول المتمدنة ، وفكرة تبسيط المعلومات ونشرها وتيسير الحصول عليها مرجعها إلى الجامعيين أساتذة وطلاباً ، وكثير من الجماعات الشعبية تستمد استشارتها وتعتمد في توجيهها على تلك العناصر الجامعية ، التي تجد في ذلك فرصة ذهبية لا ينبغي أن تفوت .

هكذا تنبهت الجامعات في الغرب إلى أن رسالتها في المجتمع أخطر بكثير مما قنعت به في الماضي من أهداف . فهل ترى شيئاً من هذا التفكير قد داز بخلد قلة محمودة من الجامعيين عندنا ، أم أن ذلك اتجاه لم يطرأ لهم حتى الآن على بال ؟ ! أغلب الظن أن جامعاتنا لم تنضج بعد لتقبل مثل هذه الآراء ، وأن هذه الفكرة قد تلقى من الجامعيين أنفسهم عدم اكتراث ممزوج بابتسامة ساخرة . . . وإذا كانت الجامعات عندنا لما تبدأ

بتحديد رسالتها العلمية الضيقة ، فكيف ننتظر منها أن تلتفت إلى هذا الجانب الاجتماعي الخطير ؟ ! ! . . من أجل هـذا تعيش الجامعة عندنا بمنأى عن المجتمع ، لا تؤثر فيه ولا توجهه ، لا تنقل أفكارها إليه ، ولا تنعكس مصالحه فيما ترسم الجامعة من خطط أو تحدد من قيم ، وإلا فأين هو الأثر الذي تركه التعليم الجامعي — وقد مضى عليه في مصر أكثر من ربع قرن — في مرافقنا العامة ؟ وأين هو التغيير الذي طرأ على تفكيرنا نتيجة ما أشعه على المجتمع ما يملأ الجامعة عندنا من ألوف الطلاب والطالبات ؟ ! ولقد جدت ظروف في تطورنا الاقتصادي وتحولنا الاجتماعي والسياسي ، كانت تتطلب تنظيما علمياً وتفكيراً سليما وتوجيهاً منزهاً ، ومع ذلك ظلت الجامعة والجامعيون منكمشين ، يعيشون في برجهم العاجي ، وتركت المسائل العامة تعالج معالجة سطحية ، وتناقش مناقشة حزبية ، وغلبت علينا الأفكار « الديماجوجية » التي أفسدت أمورنا ورجعت بكثير من مرافق حياتنا إلى الوراء ... بل الأدهى من ذلك أن الجامعة لم تنجح بعد في أن تخلق من نفسها مجتمعاً متماسكا له مثله وتضامنه ، ولم تستطع أن تكون داخلها رأياً عاما يلتف حول مبادئ يؤمن بها ، وعاش الطلاب في الجامعة حيارى ، لا يجدون في حياتها ما يشبع رغباتهم ، ويستغرق نشاطهم ، ويعـدهم للزعامة الفكرية إعداداً صحيحاً .

إن من المحتم علينا — رغم تلك السنوات الطويلة التي مرت على نشأة الجامعة عندنا — أن نعود فنحدد رسالة التعليم الجامعي ، ونتفق على الأهداف الكبرى له ، وإلا فكل كلام في المسائل التفصيلية — مهما عظمت خطورتها — لن يحل إشكالا ، ولن يجلب خيراً ، وكل إبطاء في مواجهة الموقف — بهذا الشكل الحاسم ، وعلى ذلك الأساس السافر الصريح — سيخلق للنظام الجامعي عندنا مشاكل خطيرة ، ويضع في سبيل تقدمه عقبات جسيمة ، وقد ينتهي الأمر بأن يفقد الناس ثقتهم في قدرة الجامعات على أن تحل للمجتمع مشاكله ، وأن يتشككوا في قيمـة هذه المؤسسات التعليمية كقوى موجهة خطيرة . وعندئذ تزول عن الجامعات قدسيتها وهيبتها ، ويعيد الناس التفكير في مبررات هذه الرعاية الكبيرة التي تحظى بها الجامعات ، وأحقيتها في أن تستأثر دون غيرها من المؤسسات الأخرى بتلك المكانة التي لم ينازعها إلى الآن فيها منازع ، وقد تغل الأيدي التي انبسطت للتعليم الجامعي كل البسط ، ثم لا يسهل بعد ذلك استرجاع الثقة ، وإزالة الشكوك .

عباس مصطفى عمار



تذوق الجمال

للدكتور يوسف مراد

جاء في منثور الحكم الصينية القديمة : « إذا كان لديك رغيفان من الخبز فبع أحدهما واشتر بثمنه باقة من الزهر » . في هذا القول حكمة بليغة قد لا تؤدي إلى غلبة أمة على غيرها بالسلاح والنار ، ولكنها تبعث بلا جدال في قلوب المؤمنين بالجمال شعاعاً دافئاً من السعادة الهادئة .

ما أتعس الإنسان الذي لا يسعى إلا لإشباع حاجاته الجسمية ، مسخراً قواه العقلية لتحصيل أكبر قسط من المتعة المادية ، غافلاً عن أن الروح أيضاً في حاجة إلى ما يغذيه وينعشه ، وإلا أظلمت سماؤه ، ونضبت عيون سعادته ، وشعر بوحشة مكفهرة .

وما وحشة الحياة التي يموج في أكنافها عبيد حضارتنا المادية إلا من وحشة الروح وحرمانه ما يروي تعطشه إلى الجمال ! وما الصمت الهائل الذي يملأ أرجاء القلوب التي غمرتها سورة اللذات الفانية إلا من صخب المدنية المسلحة الميكانيكية ، صخب الهمجية المقنعة ، الذي حطم أوتار الحساسية البريئة منذ فجر الطفولة ! وما الظلام الشامل الذي أرخى على النفوس سجوفه — على الرغم من أنوار المدنية الساطعة — إلا من تحول الأغلبية العظمى إلى وسيلة طيعة لإرضاء المنفعة الشخصية والمآرب الدنيئة !

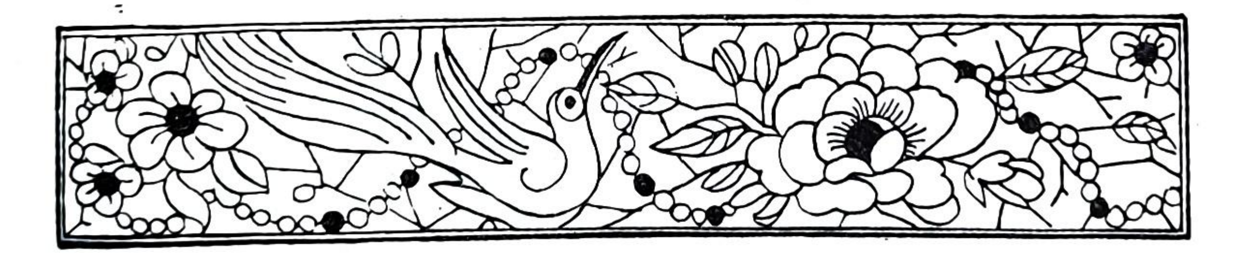
ابحث عمن يرضون أن يستبدلوا برغيفهم زهرة وديعة ، فانية في جمالها الحي ، باقية في ذكراها العطرة . إنهم لقليلون حقاً . وإذا عثرت عليهم ألفيت القوم يعدونهم من المجذوبين الذين يسبحون في عالم من الخيال الزائف . ولكنهم هم الذين ظفروا بلب الواقع ، وارتشفوا الحق من ينبوع الجمال الخالد . فاللذة المادية لاتترك وراءها من ذكرى إلا حسرة وغماً ، مما يزيد النفس فقراً وتصدعاً ، في حين أن ذكرى اللذات المعنوية السامية تنمي النفس وتزيدها قوة وثراء .

٭٭٭

جوهر الحياة تجديد وإبداع وخلق ، لا جمود وتكرار آلي . جوهر الحياة صعود وتسام نحو النور ، لا هبوط واستسلام لظلام المادة وقوانينها الغاشمة . إن قوة هائلة تدفع بالإنسانية نحو الخلود ، ولكن العيون التي غشيتها سحب المنفعة المادية العاجلة لا تدرك غير السراب الخادع ، فتعود القلوب محطمة الآمال ، ظمأى إلى ما يسكن شجوها ويرضي حنينها ، إلى الفردوس المفقود !

والحياة في تواصل موكبها وترابط حلقاتها صورة الخلود ، ومعين الأمل الذي لاتنضب مياهه . وهي كالفن ، تكشف وتعبر . هي الفنان الأول ، بل مصور كل فن . ولايمكن تفهم كنهها والاتحاد بها ، كما لا يمكن تذوق الفن واستشفاف جمال آياته ، إلا عن طريق الإعجاب الساذج الطليق ، والإعجاب طريق الحب قبل أن يكون طريق المعرفة .

وينعدم الإعجاب كلما حل التحجر محل الحياة ، والتكرار الآلي محل الإبداع . وبقدر اقترابنا من ينبوع الحياة وارتشاف مياهه المتدفقة ترهف حواسنا ، وتصفو أرواحنا ، لتقبل رسالة الجمال ، وتلقي وحيه المنبعث من كل ما هو حي ، الوحي المنبعث من أعماق نفوسنا الحية الوثابة ، والذي يتردد صداه في منظر من مناظر الطبيعة



في زهرة وديعة ، في تغريد طير ، في نغمة صوت حنون ، في كل حركة يبعثها الحب الخالص الطاهر .

وآفة حضارتنا العصرية القائمة على الآلة الصماء — وهي رمز التكرار الأعمى الذي

تستمر بلا هوادة — أنها يسرت السبل إلى إرضاء كل ما يشتهيه المرء ، وقدمت صوراً زائفة ممسوخة من الإرضاء العاجل . ولهذا السبب يعيش إنسان القرن العشرين في جو رهيب من القلق والخوف والوحشة ، لأن السعادة الحقة ليست في إرضاء حاجات الجسد ، بل في إرضاء حاجات الروح ، وري تعطشه إلى المثل العليا ، والمثال الأعلى كما يقول جوتة : يستأنس وحشة الحياة الدنيا .

الإنسان مخلوق نبيل حقير في آن واحد : نبيل إذا نظرنا إلى غايته القصوى ، وهي اتحاده بالحق والخير والجمال . حقير من حيث هو فرد من أفراد القطيع الذي ينقاد إلى حيث لا يدري . ونظام الحضارة العصرية أشبه ما يكون بنظام القطعان ، فقد نسي الإنسان غايته القصوى . ولا تخدعنا الخطب الرنانة التي يتشدق بها مدعو القيادة والزعامة ، ومحترفو الإرشاد الخلقي والتوجيه الاجتماعي ، فهي ليست قبساً من نور الحق ، بل هي صدى الأصوات التي ترددها قطعان العبيد المصفدين .

لا تزدهر المثل العليا إلا في جو من الطمأنينة والحرية ، إذ في غير هذا الجو تموت حاسة الجمال ، وهي في الوقت عينه حاسة الخير والحق . وكلما تقدم المرء في السن مخلفاً وراءه سني الطفولة ، ازدادت القيود التي يفرضها نظام القطيع على أفراده ، فيصبح مقلداً بعد أن كان في طفولته مبدعاً ، وتحل المحاكاة العمياء محل الابتكار ، وتختنق



جميع الأحاسيس التي كانت تبعثها في نفسه قدرته على الإبداع أيام كان طفلا ، تختنق تحت أعباء ما يلقنه إياه قادة القطيع وسادته .

وإذا كانت المعارف التي قد تفيد المرء في حياته المادية قابلة لأن تلقن ، فإن هناك

كنوزاً روحية تزول عند محاولة تلقينها ، لأنها لا تخضع لنظام القطيع ومعايير الأغلبية ؛ ومن هذه الكنوز الروحية إدراك الجمال وتذوقه . ولهذا السبب خابت جميع المحاولات لإحياء حاسة الجمال في البالغين بعد موتها ، وبعد أن تحجرت النفس بتأثير التقليد الأعمى . وإذا كان هناك بصيص ضئيل من نور الجمال لا يزال يلوح في أعماق نفوس البالغين الذين فقدوا نعمة الحرية والقدرة على التجديد والتعجب الساذج ، فلا يؤدي ما يدعى بالتثقيف الجمالي للبالغين في غالب الأحيان إلا إلى إضافة ضرب آخر من ضروب الآليات والتصنع ؛ أي إلى توثيق أغلال النفوس بدلا من تحريرها .

يجب إذن رعاية حاسة الجمال منذ نشأتها في الطفولة ، وتوفير جميع الأسباب لازدهارها ، بعد أن تنبثق حرة طليقة مع فيض الحياة الوثاب الذي يغمر الطفولة من كل صوب ، حاملا إياها على أجنحة الحب والأمل . والحياة تجديد متواصل ، وإبداع مستمر ، وهي في أقوى حالة من التدفق والغزارة عند ينبوعها قبل أن تركد مياهها في القوالب الجامدة التي تفرضها التقاليد والعادات .

هناك حقيقة ثابتة لم يفطن إليها المربون إلا أخيراً ، وهي أن الطفل فنان بطبعه ، مهما كان مستوى البيئة التي يعيش فيها حقيراً ؛ وذلك لأنه أدنى إلى ينبوع الحياة والإبداع من الفتى البالغ ، فهو مرهف الحساسية ، طليق الخيال يحظى بقسط كبير من الحرية ، ولما يتقيد بقيود المنطق والمعارف العقلية ، ولأن جانب النشاط الوجداني فيه أقوى وأشمل من أي نشاط آخر .

والفن هو في جوهره تعبير وجداني . ونشاط الطفل لا يعدو أن يكون في جميع مظاهره تعبيراً متصلا عن وجدانياته ، وعما يغمر نفسه من أحاسيس ورغبات ، وما يرد على قلبه من تخيلات وأطياف ، يعبر عن كل ذلك في مناغاته العذبة ، وأصواته الإيقاعية وشتى أنواع ألعابه وحركاته ، فيما تخطه يده من رسوم وزخارف ، وما ينطق به لسانه من قصص وتلفيقات بريئة . والطفل عندما يكون محمولا على أمواج الحياة التي أبدعته ، وعندما ينصت ، وكأنه في حلم ، إلى نشيد الخلق الذي يتصاعد من أعماق كيانه ، لا يمكن أن يأتي إلا بما هو جميل رشيق .

فطن بعض المربين إلى هذه الحقيقة ، وعملوا على استغلالها في رياض الأطفال ، وفي مدارس التربية الحديثة التي ترى أن مهمة المربي ليست تغيير طبيعة الطفل وقهرها وإخضاعها لمعايير الكبار وقيم الجماعة ، بل مساعدتها على الازدهار والنمو وفقاً لنواميسها ، وأن ثروة الطفل النفسية هي في بدء الأمر ثروة وجدانية . فإن لم يهيأ له الجو الملائم

لإرهاف حساسيته وتغذية خياله ماتت فيه حاسة الجمال وهددت تنشئته الخلقية بالغلظ والجفاف ، وحرم في كبره أعذب مورد من موارد السعادة والهناء ، بل هدد تكوينه العقلي بالانحراف والتضخم ، فيعجز عن تقدير الأمور تقديراً إنسانياً كاملا ، كما يعجز عن إدراك المثل العليا والاتحاد بها في إخلاص عميق وحب هادىء . ومتى خلت حياة



من الأشعة التي تفيض بها المثل العليا أصبحت قاحلة باردة ، أشبه ما تكون بالمناطق القطبية التي يغطيها الجليد على الدوام .

* * *

جاء في لائحة التأسيس لمعهد علم النفس والتربية ، الذي أنشأته جامعة ليون في فرنسا سنة ١٩٤٢ ، أن الغرض من التربية أن نعلم الطفل كيف يعجب ويفكر ويعمل . فمن الواضح أن الخطوة الأولى في مساعدة الطفل على تنمية ملكاته وتكوين شخصيته بحيث تنسجم جوانبها وتتكامل مقوماتها ، ويتهيأ الجو الملائم الذي تتطلع فيه نفسه إلى كل شيء جميل عجيب ، كما تتفتح الزهرة النضرة لتقبل ندى الفجر المشرق ، هي أن نحيط الطفل بجو من السعادة والطمأنينة والتقدير ، وأن نتيح له أكبر عدد ممكن من الفرص لكي يعبر عن نفسه ، ولكي يبدي إعجابه بما يرد عليه من جديد وطريف ، وأن نرفع عنه القيود التقليدية التي تحد من طموحه وتغل حركاته الوثابة ، وتميت على شفتيه صرخة الإعجاب ، وتطفىء في عينيه هذا البريق الذي تنعكس عليه آيات الجمال ، جمال الحياة التي تدب في عروقه وقلبه ، جمال الخليقة الذي يتجدد في كل صباح .

ما أجمل التسمية التي أطلقها أنصار التربية الحديثة على مدارس الصغار ومعلمات هذه المدارس ، فأصبحت المدرسة روضة وبستاناً ، والمعلمة مهذبة هذه



الروضة ، ترعى الأطفال برفق وحنان ومحبة ، كما يرعى البستاني برفق وحنان ومحبة لآلئ بستانه المشرقة . كانت المدرسة القديمة بفنائها الضيق الموحش ، وبنائها القبيح الصارم ، وغرفها المظلمة العابسة ، أشبه ما تكون بقبر تذبل فيه الأغراس ، في جو تسوده الرهبة والقسوة ، تموت فيه آمال المستقبل ، والأطفال شاحبو اللون ، محبوسو الأنفاس ، تحدق عيونهم الذاهلة في الجبين المقطب والعصا الأثيمة ، يرددون ما لا يفهمون ، يقومون بحركات شوهها التصنع ، وحجرتها القيود ، فلا عجب أن تتحطم أوتار الحساسية الرقيقة ، وتخنق المخيلة في مهدها ، وتغلظ القلوب ، فلا يعود يصدر عنها إلا صرخات الرعب وأنات الألم ، كتلك التي يتردد صداها في الغاب عند ما يطعن القناص فريسته طعنة الموت .

كيف يتسنى لنا أن ننتظر من أطفال شبوا على الخوف وعدم التقدير أن تظل حاسة الجمال فيهم حية مرهفة ، وأن يتذوقوا آيات الفن التي لا تقاس بمقياس المنفعة ، بعد أن لقنوا أن الغرض الوحيد من ذهابهم إلى المدرسة أن يتسلحوا لخوض معارك الحياة المادية ، وأن عنوان النجاح أن يتمكن المرء في المستقبل من أن يشتري رغيفين ، لا أن يستبدل بما يفيض عن حاجته القصوى زهرة جميلة تقر العين وتنعش القلب .

فلنحطم هذه الدور القبيحة العابسة ولنشيد مكانها دوراً جميلة زاهية ، تشع فيها السعادة والمرح بالألوان والأنوار ، لا تقع فيها العين إلا على ما يبعث في القلب الإعجاب وحب الحياة ، ليشعر الطفل أن هذا الشخص الكبير الذي يراقبه هو صديق حنون ، هو إنسان مثله ، لا يؤدي واجباً ، بل يقوم برسالته عن رضى وحب ، وأن هذا الشخص الكبير الذي يقبل عليه باسماً هو الساحر الأكبر الذي يرد ذكره في هذه القصص الخيالية التي يسمعها وهو يلهث عجباً وشوقاً ، الساحر الذي سيكشف له عن كنوز الجمال الباهرة التي أخذ بريقها يلوح في قلبه من حين إلى آخر ، وهي لما تنبلج مشرقة وضاءة .

ليخرج الأطفال إلى الهواء الطلق في حضن الطبيعة الزاهرة ، ليتحدوا بها وهي الأم الحنون ، مبعث البهجة والحياة ، لينصتوا إلى أصواتها الشجية ، وترانيم الفرح والسرور التي تتصاعد من كل ما تدب فيه الحياة الخالقة . ولنسمح لهم أن يعبروا عن الأحاسيس والرغبات التي تختلج بها قلوبهم ، أن يعبروا عنها بأسلوبهم الرشيق الجميل وبطلاقة وحرية ، لا بأسلوب الكبار بتصنع وجفاف . والطفل بطبعه شاعر وفنان ، له أسلوبه الخاص في التعبير الفني . وهو كالشاعر ، لا يمكن أن يحيا إلا إذا عبر وغنى ورقص وجسم انفعالاته وعواطفه في صيحاته وكلامه وحركاته وألعابه .

والشاعر أيضاً ، وكذلك كل فنان مهما اختلفت لديه وسائل التعبير ، كالطفل الطليق الحر الذي لايتقيد بقيود الصنعة ! هو كالطفل ، لأن قدرته على الإعجاب لا تزال حية فياضة ، لأنه لا يزال يتطلع إلى آفاق بعيدة مجهولة ، ستشرق شمسها في هذه اللحظات المقدسة التي تتحرر فيها الروح من قيود المكان والزمان ، لكي تتحد بمصدر الفيض والجمال .

الفن تعبير صادق ، ولا يكون التعبير الفني جميلا إلا إذا كان صادقاً ، ولا يمكن تذوق الآية الفنية الجميلة إلا إذا كانت بطريقة مّا تعبيراً عن جانب من جوانب أنفسنا . الفنان البارع هو الذي يجعلنا نتناغم مع ما يصدر عن فنه من شعر أو رسم أو موسيقى . هو الذي يذكي فينا جذوة الجمال التي كادت تطفئها مشاغل الحياة المادية ، بحيث نشعر في لحظة خاطفة كأننا نشاركه في وحيه ، وفي صعوده نحو النور والجمال . هو الذي يهتدي إلى كهوف النفس ومغاورها ، منادياً بصوته السحري أطياف الطفولة وأحلامها ، ليبعثها حية من جديد .

لا يتم تذوق الجمال إذن إلا عن طريق المشاركة الوجدانية . وهو في الواقع خبرة فنية لا يمكن أن نعاينها إلا بعد تصفية النفس من كل ما علق بها من أدران المنفعة الخسيسة والأنانية الضيقة ، والعودة إلى سذاجة الطفولة وطلاقتها . فالمتعة الفنية نعمة يهبها الله لكل من أمكنه مشاركة الجمال في صفاته وبهجته ، كما تهب الحياة جبين الطفل النور والإشراق .

يوسف مراد

بين البحر والصحراء

للأستاذ شفيق جبري بدمشق

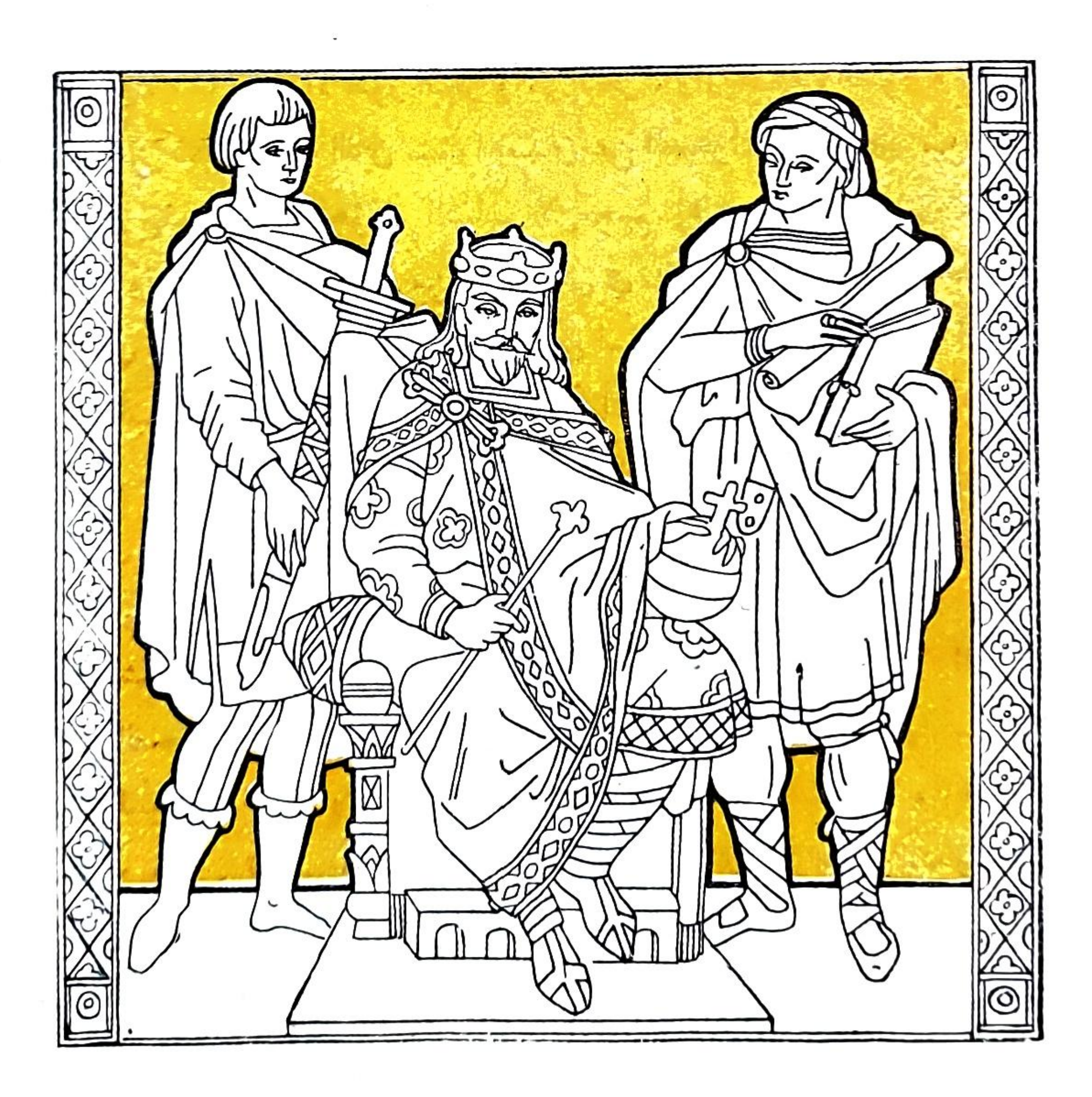
تهيأ لي وأنا في القاهرة أن أطالع كتاب « إميل لدويج » الذي سماه : البحر المتوسط . ولست في حاجة إلى وصف أسلوب هذا الكاتب العظيم ، فإن الذين قرؤوا كتب : « النيل » و « نابليون » و « بسمارك » وغيرها من كتب التاريخ والتراجم يعرفون خصائص هذا الأسلوب . وفي جملة خصائصه أن « لدويج » يجعل في تراجمه صلة بين الحياة الخاصة والحياة العامة . واهتمامه بالكشف عن الرجل من وراء أعماله أشد من اهتمامه بالأعمال نفسها . وإذا كان المؤرخون يعنون بتاريخ الملوك أكثر من عنايتهم بتاريخ العمال فهذا ناشىء عن أن تاريخ العمال لا يشتمل على المصادر والوثائق الكافية . *



* لا اظن ان هذا السبب ، على وجاهته ، هو الوحيد ، وثمة واحد آخر من اسباب عديدة ، هو ان العمال ، عبر التاريخ ، يعدون بمئات الملايين ، والملوك يعدون في الوقت نفسه ، بعشرات الآلاف .

كنت أودّ لو أصف ما يحتوي عليه « كتاب البحر المتوسط » وهل يحيط الوصف بهذه المحتويات ؟ نخير لي أن أمر مر السحاب بالسواحل التي نشأت على آفاقها الأديان والفلسفات والعلوم والفنون ، ثم نمت ونضجت ودرجت من طور إلى طور . إلى هذه السواحل هبطت عقول الأوربيين وأرواحهم فأخذت عن أهلها أشكال حكومتهم وصيغ فكرهم وقوالب فنهم .

يهتم « لدويج » في كتبه بآثار العقل والفن ، فإن هذه الآثار تخلد في الدنيا بعد ذهاب أصحابها . أما أعمال الملوك ورجال الدولة والرؤساء والقواد الذين أعاروا أسماءهم عصور التاريخ فإنها تذهب بذهاب هذه العصور ، فالمعاهدات كلها والاتفاقات جميعها تصبح ورقاً ممزقاً ، ولكن الروح التي تصدر عنها هذه المعاهدات والاتفاقات تخلد من بعدها . فآثار اليونان والنصرانية التي بقيت في آسيا بفضل الإسكندر والصليبيين مهمة في نظر « لدويج » مثل آثار العرب في أوربة . أما الصور العتيقة التي بقيت للمعارك الماضية فإنها موضوع سخرية ، ولا يستنبط القائد منها أية فائدة ، فليست المعارك في البحر



المتوسط هي الجديرة بالذكر ، ولا معاهدات الصلح ، وإنما عظمة عصر من العصور تقاس بما أبقاه هذا العصر من آثار الحكمة والفن والأخلاق !

لقد وجدتني وأنا أتمتع من هذا الكتاب أشذّ عن الموضوع الذي يعالجه الكاتب وأغرق في بحر من الصور غير البحر الذي وصفه « لدويج » وصفاً لا أدري هل يستطيع قلم غير قلمه أن يقوم ببعضه . يحاول « لدويج » أن يجر القارئ إلى البحر ولكني كنت أشعر وأنا أطالع كتابه بالحاجة إلى التفكير في الصحراء ، ولست أعلم ما الذي زحزحني عن موضوع الكتاب ، ومثل لذهني صورة غير الصورة التي يعرضها « لدويج ». لم تفارق صورة الصحراء ذهني في خلال ما قرأته من كتاب البحر المتوسط، وكأني كنت أجد شبحاً من الحرب بين البحر والصحراء ، وإذا ملت إلى التوضيح في التعبير قلت : كأني كنت أجد اختلافاً بين عقلين ، وروحين ، وذوقين . ولكن هل هذا الاختلاف صحيح ؟ في كل يوم أجالس شباباً مثقفاً ، ولكنه شباب ثائر . إنه ثائر على كل شيء ، على الاجتماع وعلى السياسة وعلى الأدب ، فما لقيت واحداً منهم إلا أفضى إلي بنقمته على هذا الأدب المنحدر من الصحراء ، وعلى الصور التي بقيت في هذا الأدب من آثار الصحراء ، فما تعجبه إلا صور البحر وآثار البحر ، وأريد بهذه الصور وبهذه الآثار ما يصدر عن كتاب الغرب الذين نشؤوا بعيدين عن الصحراء ، قريبين من البحار ، أو ممتزجين بهذه البحار . هؤلاء الشباب لا يعجبهم إلا « شكسبير » و « غوتي » وأمثالهما ، وقد قال لي واحد منهم من أيام : دلني في الأدب المنحدر عن الصحراء على خطاب مثل الخطاب الذي ولده « شكسبير » على لسان أنطونيوس !

شباب ثائر على الصحراء ! هذه الصورة تمثلت لي وقويت في ذهني لما كنت أقرأ كتاب «البحر المتوسط» ، وقد أصبح هؤلاء الشباب في حالة لا يستطيع فيها المنطق أن يرشدهم إلى ما قذفت به الصحراء إلى البحر من المحاسن ، فهم ثائرون على الحاضر وعلى الماضي .

لا شك في أن بين الصحراء والبحر شيئاً من التفاوت ؛ فالصور التي توحي بها شمس الصحراء المحرقة وهواؤها الجاف غير الصور التي توحي بها سماء البحر الصافية ونسيمها العليل . ولكن هل نشعر بشيء من تنافر الصحراء والبحر ؟ هل نحس بشيء من تباعد ما بينهما ؟ لقد غزت قبائل جرمانية البحر المتوسط من القرن الخامس إلى القرن التاسع فلم تكن أصحاب رأفة ورحمة في سياسة الشعوب على الرغم من أن تلك القبائل كانت تدين بدين النصرانية وهو دين الشعوب

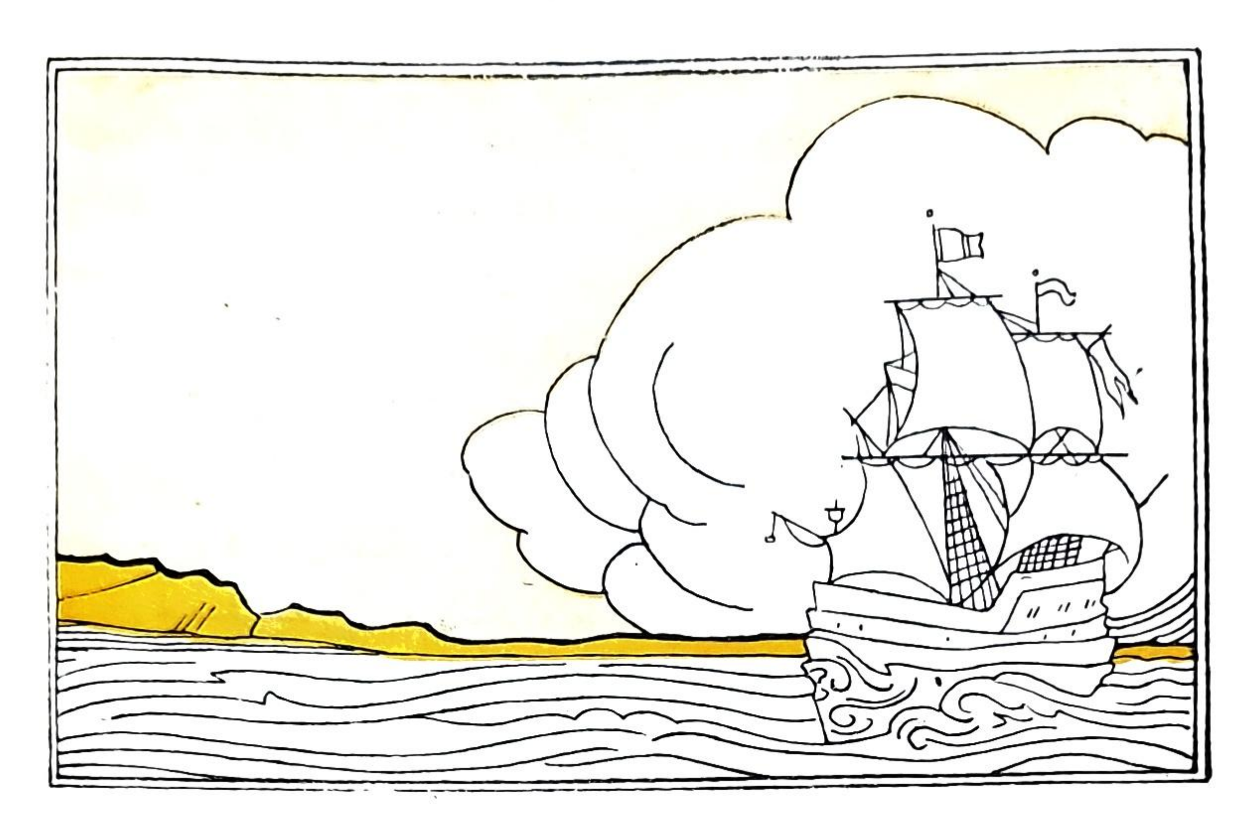
التي غزتها. وغزت العرب — أبناء الصحراء — البحر نفسه، فأمّوا — بفضل استعدادهم للتمثل — الحضارات الرفيعة التي وجدوها منبسطة حول البحر المتوسط، فلم تستوحش الصحراء من البحر. لقد أنس العرب بحضارات هذا البحر وبفلسفاته وبعلومه وبفنونه على الرغم مما بين الصحراء والبحر من تفاوت في الطبيعة، فلا نزال نرى على سواحل البحر المتوسط في الشرق والجنوب والغرب كثيراً من آثار أبناء الصحراء، لأنهم نشروا لغتهم في هذه السواحل. أما الجرمانيون فقد درست معالم ممالكهم فيها لأنهم لم يأتوا إلى هذه السواحل بشيء جديد في آفاق الفكر!

لم يستوحش أبناء الصحراء من موج البحر ولا من حضاراته ولا من تصاويره. وصلوا إلى البحر المتوسط فكانت محاسن سحناتهم تفوق محاسن سحنات اليونانيين والأسبان، ولكن هذه السحنات كانت مطبوعة بطابع الشرق: عيون براقة، ولون قاتم مثل لون شعرهم، ماهرون في السلاح والصيد، محبون للخيل وللثياب الفاخرة، فصحاء الألسن، فكانوا على خلاف الجرمانيين القساة، المحدودين الذين وصلوا قبلهم إلى هذا البحر. ولم يقنع العرب بالبحر المتوسط وحده، فانهم أدركوا «الأطلانطيك» من القرن الثامن. والغالب على الظن أنهم وصلوا إلى البرازيل سنة ١١٥٠.



كل هذا يدلنا على استئناس الصحراء بالبحر. وقد بلغ من براعة أبناء الصحراء في التلون بألوان بيئة البحار أنهم سحروا أهل البحار وفتنوهم. وليست أخبار وفود هرون الرشيد بخافية، فما كادت هذه الوفود تصل إلى قصور «شرلمان» حتى أخذ شعراء تلك القصور والمؤرخون يقصون على العالم أخبارهم، فلم ير أهل الغرب في زمن من الأزمان ما يشبه عظمة تلك الوفود، والقصص التي عاد بها تجار الغرب وعلماؤه إلى أوطانهم من بلاد الصحراء تدل على عظمة الفاطميين في القاهرة وعلى بهجة قصور ملوك دمشق وحلب!

كلا! ثم كلا! لم تستوحش الصحراء من البحر، فقد كانت تأخذ وتعطي. وجدت على سواحل البحار فلسفات وعلوماً وفنونا فأخذت منها ما أخذت وأعطت



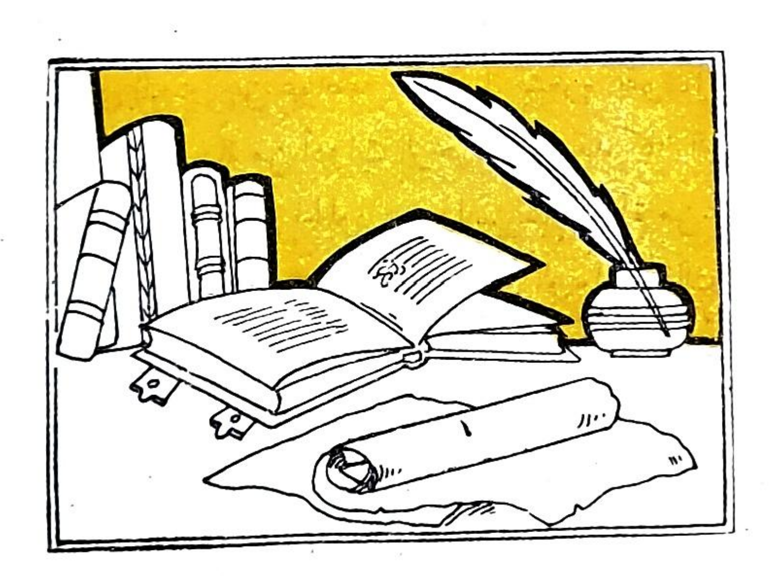
ما أعطت ، فقد رجع الصليبيون من بلاد الصحراء بنفائس الأشياء ، من جملتها هذه البسط التي تدل على غرابة الشرق . بسط عليها صور غرائب الحيوان والنبات وصور الفرسان وهم في أفخر الثياب، والسيدات والمراكب والخيل والإبل. ولو لم يرجع الصليبيون بغير قصص الشرق لكان في هذا مقنع . فالذي كسبه الصليبيون من غزوة بلاد الصحراء إنما هي كنوز الفن والشعر !

امتزجت الصحراء بالبحر امتزاجاً قوياً حتى كادت تغير في بعض الحالات مجرى البحر . لقد كان تأثيرها في البحر قويـًا في خصب الفكر ، فالبحر المتوسط كان مجال حركة فكرية جديدة ، وفي خلال قرنين كاملين علم أبناء الصحراء الأم القديمة أشياء كثيرة في مختلف العلوم والصناعة والزراعة .

لم أدون هذه الخواطر لتكون مقالا في التاريخ ، وإنما كل ما أحببت الإشارة إليه أن الصحراء والبحر قد يجتمعان ، فلا تنافر بين عقليهما وروحيهما وذوقيهما . وإذا كان البحر أخصب صوراً من الصحراء ففي الصحراء صفاء السماء وجفاف الهواء. كل غايتي من تدوين هذه الخواطر التنبيه على أن مهمتنا معاشر الأدباء في هذه الثورة المخيفة التي نرى نارها في أكثر بلاد العرب : في مصر والشام والعراق ، ثورة الشباب على الصحراء أن نعرف كيف نقرب من أذهان الشباب صور الصحراء البارعة حتى تأتلف في هذه الأذهان الرقيقة الصورتان : صورة البحر وصورة الصحراء .

لقد ثار معظم هؤلاء الشباب على الحاضر والماضي ، فإذا تركوا في ثورتهم على الماضي وشأنهم فإنهم لا يلبثون أن ينفضوا أيديهم منه فلا يهزهم إلا « شكسبير » و « غوتي » ومن هم في طبقتهما . مهمتنا أن نكون حكماء في مجاراتهم لا في معاكستهم حتى نردهم إلى الصحراء قليلا ، فإذا استطعنا إلى ذلك سبيلا جعلنا بين الصحراء والبحر الصلة التي كانت بينهما في ماضينا ، نأخذ من هذا البحر ونعطيه ، حتى تتم أدبنا ، فإذا لم نكن حكماء في التخفيف من ثورة الشباب على الصحراء فإنا نخاف أن تنقطع الصلة بين ماضينا وحاضرنا ، وحينئذ الموت الأحمر !

شفيق جبري



عالم المرأة

المرأة في التصوير

للسيدة شهرزاد

المرأة والتصوير صنوان متلازمان أبد الدهر ، لاينفصل أحدهما عن الآخر ، فهي الوحي وهو قابس الوحي . وأثر المرأة في الرسام متعدد المناحي مختلف الشعاب ، فهي تارة تساعده على التعبير عن عواطفه ، وحيناً تشعره بقوة الجمال ، فيتخذ منها موضوعاً أصيلا ، أو أداة دخيلة من أدوات الزخرف . ولقد كان الرسام الصيني القديم لاوكونج يعد الفنان « رجلا يتلمس الخلود » ، وليس غير المرأة من عبّد له السبيل إلى ذلك . وكثيراً ما كانت المرأة ممحوة القسمات في عمل الرسام ، ذلك بأن عصبية الفنان لفنه ورغبات الرجولة فيه تمتزجان في عمله وفي حياته ، بحيث يصعب تمييز إحداهما من الأخرى، كما يصعب على الفنان نفسه معرفة الناحية التي يؤثرها والتي يحفها بعطفه ورعايته .

فرسالة كهذه تتطلب من المرأة منتهى الإخلاص والحب ، ولا قدرة لأحد عليهما سوى قلب المرأة . والمرأة هي وحدها التي تستطيع أن تجعل من « الجمال » و « الطيبة » لفظين مترادفين . غير أن جهادها اليوم إلى جانب الرجل أو ضد الرجل قد أنساها رسالتها ، وأفقدها ميادين الجمال والطيبة ، وإن ما تمنى به المرأة من هزيمة في جهادها ، ومن ضياع خصائصها ، لايعود شره عليها وحدها ، بل على الإنسانية جمعاء .

لامراء أننا نجتاز وقتاً عصيباً مضطرباً ، وهذا الاضطراب الروحي يملك على الإنسانية شعابها ، والرسام العصري — وهو المرآة المجردة من الشفقة — يعكس فنه تلك الكآبة في أقبح صورها ، ولا ذنب له في ذلك ، فهو ترجمان آمالنا الممزقة ونفوسنا المعذبة.

ولئن شئنا أن نزود الإنسانية بقوة التفاؤل عن طريق الفنان ، أو إن شئنا أن نساعد الفنان على تجنب مهاوي اليأس والقنوط ، إن علينا أن نستعين بالمرأة .

إن الوحدة التي يعيش الفنان في جوها لا تقاس على الوحدة التي يعانيها الناس .

فهذه الحاسة السادسة التي حباه الله بها ووهبه نعمة الخضوع لها تجعله يحب وحدته ويتفانى فيها ، ولكنه يشعر أحياناً بحاجته إلى أن ينزل من علياء فنه ليحس دفء الحياة وحلاوتها في جوار رفيقة تذكره بأول محبوب له في هذا الوجود ، تذكره بأمه .

فالأم والحبيبة والزوجة والمثال الأعلى إنما هي أشكال صيغت بها المرأة في التصوير. وها هو ذا تاريخ التصوير ، يعلمنا كيف تستطيع المرأة العصرية أن تخدم الفن وأن تخدم روح العصر فيما توفره لهما من جمال وطيبة ، فيحل الأمل محل القنوط .

كان التصوير في مستهل عهده يختار الجدران وجوانب الأشياء مجالا للهوه وعبثه ؛ وكان التصوير على الجدران وثيق الصلة بقوانين الهندسة المعمارية ، نشهد ذلك في آثار قدماء المصريين . وكانت المرأة تتجلى فيها على أنها رمز ونمط زخرف ، فتلبس أقنعة الآلهة ، ولا يبدو شيء من قسماتها حتى في تصاوير النواويس ، لأن جوهر الصورة كان من مهمة النحات . وحذا الشرق الأوسط في العهد القديم هذا الحذو في فن التصوير ، فأغفل القسمات الواضحة ، واتخذ الجدران مكانا تجول فيه ريشة المصور . وكل ما وصل إلينا من تصاوير فارس والهند والصين حتى اليابان ، جرى على وتيرة واحدة ؛ فهي على روعتها لم يكن للمرأة فيها إلا مكان الزخرف والزينة .

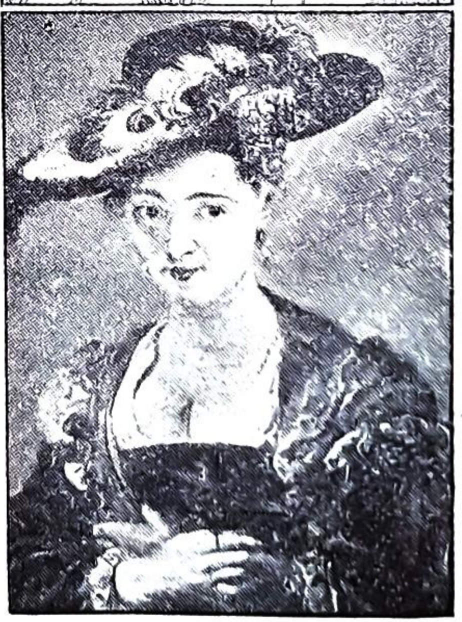
ثم إن الفن الإغريقي الذي مجد جمال المرأة في النصب والتماثيل ، لم يحفظ لنا الزمن منه غير وثائق قليلة عن التصوير ، كذلك الفنون التطبيقية التي تغرق في تصوير المرأة على الآنية لا تقصد إلا إلى الزخرف . ولقد عدا الزمن على آثار مصوري الإغريق ، ولم يسلم من عدوانه غير نزر يسير ، وما عرفنا هؤلاء المصورين إلا من تواتر الأساطير والروايات فيقال : إن أبيل كان الرسام المقرب إلى الإسكندر الأكبر ، وأن أبولودور هو الذي كشف عن معجزة النور والظل ، وهناك عدد كبير من الروايات تبرز إعجاب الإغريق بجمال المرأة ، فإن زكسيس لما أراد أن يصور فينوس لمدينة إكريجنت قدم له مواطنوه اثنتي عشرة امرأة من أجمل النساء ليتخذهن نموذجاً يقيس عليه .



ومشت روما على غرار الإغريق في تقديس جمال المرأة ، ولكنها لم تشذ عنهم في اعتبار قسمات الوجه من مهمة النحت ، وفي اتخاذ الجدران مجالا لريشة الرسام . وهكذا







نجد للمرأة في بمباي صوراً ساحرة جميلة ، ولكنها صورة عامة قد أقحمت في تزيين الجدران ليس إلا . .

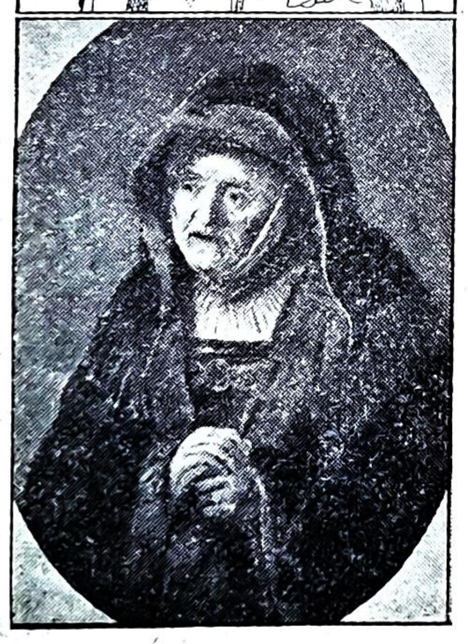
على أنه قبيل انحطاط الإمبراطورية الرومانية نجد على النواويس صوراً تشع فيها الحياة ، وقد تأثرت إلى حد بعيد بالفن الهليني المنبعث نوره من مدينة الإسكندرية ، وما إن يتطرق الانحلال إلى الامبراطورية الرومانية حتى تتبدل القيم والأوضاع ، ويطرأ على الفن التغير والتبدل ، ولكن في هوادة وبطء ، ويستطيع الروح الجديد أن يطبع الأشياء بطابعه ، وأن يفسح المجال للظواهر النفسية يستعيض بها الناس عن تقديس الجمال الجسماني ولذاذات الحواس ، وأن يعد العري مثلا أداة من أدوات الشر ، وبقيت هذه النظرية تطفو وترسب على مدار الزمن حتى عهد الانبعاث .

ولا يخفى أن العهد الروماني المسيحي كان عهد اضطراب وفتنة ، فنحا الفن فيه إلى الأصول البدائية ، وإلى التصوير على الجدران في طابع من الخشية والحذر ، فكان الفن يحل محلا وسطاً بين التأثر والابتداع .

وتفننت بيزنطة في تحلية الدياميس وتزيين جدرانها فكانت الفسيفساء ، صوروا بها السيدة العذراء ، كما صوروا بها المرأة الرومانية في تجاليدها القاسية الجافة . وفي مدينة أفنا الواقعة عند ملتقى الثقافة اللاتينية والوحشية الجرمانية تركت لنا الكنيسة والإمبراطورية البيزنطية تراثاً جميلا من الفن في صورة







الإمبراطورة تيودورا ، ويبدو أنها، في قوامها المشوق ينوء بتاجها الثقيل، مثال مجسم لبيزنطة التي كانت تروي ظمأها إلى الجمال بريّ الذهب الدامي .

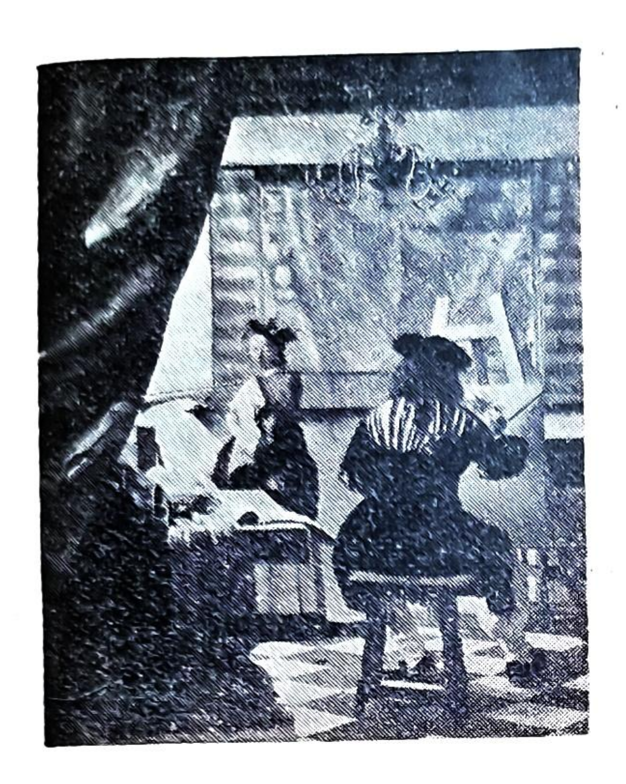
القرون الوسطى

ولا بد لنا إذا بحثنا عن المرأة في تصاوير القرون الوسطى من أن نلتمسها أيضاً مصورة على الجدران في الكنائس الرومانية ، ومن أن نراها بعد ذلك مرسومة على زجاج الكنائس القوطية، وفي المخطوطات والكتب الدينية ، ثم في الهياكل ، مما بعث استعمال المساند في التصوير.

كانت الحيـاة في القرون الوسطى يسودها القلق المادي والمعنوي ، فلا عجب أن كان الرجل كالطفل الغرير يطلب لدى أمه الملجأ والغياث، فتأثر الفن بذلك، وكان لتصوير الأمومة الشأن الأعلى، فلم تصور قاسية متقشفة ، بل صورت شابة تتحلى بجمال العذارى وتطرب للشعر الرقيق . وكان لكل بلد فنه الخاص في تصوير نمط ذلك الجمال ، فرأينا الفن يمثل الوداعة في العـذارى الإيطاليات تحيط بهن الملائكة والرياحين ، ورأينا العزة مجلوة في عذارى الفلندر الشقراوات والسكينة في العذارى الألمانيات والسحر في العذاري الفرنسيات .

عهد الانبعاث

ورث هذا العهد الروح الإتباعية كما ورث مجالي الكمال التي وصلت إليها صناعة التصوير



في القرون الوسطى ، فمضى يستوحي الجمال العاري ، ويستفيد من اختراع التصوير بالزيت ليقيم أكبر وزن لتصوير الوجوه ، وكان للمرأة المقام الأسنى فألهمت الفنانين إلهاماً مزدوجاً يعرب عن جمالها في طهر العذارى وفي آلهة الوثنية .

أوحت المرأة إلى الفن بكثير من الروائع ؛ فقد سجل صور نساء لهن ذكر في التاريخ ، بما كنّ عليه من مقام اجتماعي خطير ، أو جمال مشهور ، أو ذكاء ثاقب ، أو بما اشتهرن به من حوادث ومغامرات . على أن ريشة الفنان لم تخلع برد الخلود على أولئك فقط ، بل خلعته أيضاً على المغمورات من النساء ، إذ جلت عنهن أسرار الجمال . ولم يقتصر الفنان على تصوير مظاهر الجمال ، بل تعداه إلى تصوير خفايا النفس البشرية . فليونار دي فنسي كان من أوائل الذين جمعوا علم النفس إلى التصوير في فنهم ، فالمرأة في فنه رصينة كتومة ، تعرف مثله حكمة الصمت ، وتحت ابتسامتها مزيج من السخرية والصلاح ، ومن أشهر لوحاته صورة الجيوكندة ، وهي زوجة نكرة من النكرات يدعى المسيو زانوبي دي جيوكندة ، ويعد جمال هذه المرأة الخادع مثالا مجسما للأنوثة الدائمة ، ولا يعرف أكانت ابتسامتها التي تخفي تحتها الألغاز والأسرار من صنع ريشة المصور ، أم منعكس التماثيل الإغريقيـة القديمة ، أم ابتسامة الفنان نفسه ؟ ولكن المعروف المشهور أنهـا صورة من أجمل صور العالم قد تضافر على صنعها عبقرية رسام وابتسامة امرأة .

أما النساء اللواتي صورهن هلبين فهن بلا مراء بنات حواء . فلوحة دوقة ميلانو لا نعجب فيها بالدوقة نفسها مثل إعجابنا بما نلمحه من شباب غض وجمال ساحر يتجلى في وجه أرملة لم تتجاوز الربيع السادس عشر .

وحدث ولا حرج عما غمرتنا به البندقية عروس المياه من كنوز وذخائر ، فيها عدد لا يحصى من لوحات تسطع بجمال المرأة في صور رمزية أو صور رسمية ، يبرز فيها الغنى والترف والذهب والجواهر .



كذلك وصل إلينا من إسبانيا في القرن السادس عشر صورة امرأة جميلة مجهولة رسمتها ريشة الرسام الجريكو ، ويقال إنها كانت حبيبة الرسام .

ومن بدائع الفنان فيلسكيز لوحات لملكات وأميرات ، يتوهم الناظر إليهن أنهن غريقات في البهرج والزينة ، ولكن ريشة الرسام الماهر قد عرفت كيف توحي في سموهن ووجوههن الصفر بمأساة أولئك الحبيسات بين جدران القصور . ويحملنا القرن السابع عشر إلى أن نوجه أنظارنا نحو الشمال ، فقد نبغ فنانان من الفلندر ، واستوحيا المرأة البدائع والروائع ، أحدهما روبنس صاحب القريحة الوقادة . فاللوحات التي مثل فيها المرأة عارية تعد غصوناً تحمل أينع الثمر ، وثانيهما فان ديك ، الذي يعبر عن جمال المرأة بفن وذوق وكياسة النبلاء .



وعني الفن الهولندي بتصوير المرأة كربّة منزل وربة أسرة ، واشتهر الفنان رمبرندت بتصوير ثلاث لوحات : أولاهن اللوحة التي صور فيها أمه يحيط بها جلال المشيب ، والثانية صورة زوجته سسكيا التي وفرت له الهناءة والسعادة بضع سنوات قلائل ، ثم توفيت ، وبعد عشر سنوات من وفاتها ينفعل فن رمبرندت وتلد ريشته صورة ثالثة لقروية حسناء كانت تقوم على خدمته . إن السنوات الطويلة التي قضاها الفنان في



ألم وحزن على زوجته قد أنضجت عبقريته ، فنراه يعمد إلى تمثيل من أحبهن وتخليدهن جسداً وروحاً ، فكانت شرارة الحياة تنبعث من ألوانه وكأنما كان في ثناياها قلوب ثلاث نساء . ويلمع في القرن الثامن عشر طراز روكوكو، ويتميز هذا القرن بإيثار المرأة وإحاطتها بالرعاية والدلال . ولقد استطاع هذا الطراز أن يجمع الفن والأناقة في آثار مصوري القرن الثامن عشر الذين شغفوا بتصوير جمال المرأة ناطقاً حيًّا لجمالها نفسه ، فإن أحاطوها بالزينة فلكي يزيدوا تألق حسنها وبهاءها، فما كانوا يريدون من المرأة أن تعرب عن معنى من المعاني ، بقدر ما كانوا يريدونها أن تبتسم ابتسامة ساحرة .

وإلى جانب الرقة والنعومة اللتين اشتهر بهما طراز روكوكو ، نجد أن الفنان جويا قد خلد في فنه قصة امرأتين إسبانيتين ، إحداهما جميلة ، والأخرى دميمة قبيحة المنظر. أما الحسناء فهي دوقة إلفا ، التي جمعت في بردتها النبل والسمو ، وكانت حبيبة الفنان ومصدر وحيه ونموذج فنه ، فقد صورها الفنان في مختلف الملابس ، وفي كل صورها كان الحب يشع من عينيها والعظمة تتألق من قسماتها ، غير أن الموت اختطفها من بين ذراعي جويا وهي في ريعان الشباب . وأما الدميمة فكانت ماري لويز ملكة إسبانيا ، وكان تمثيلها في فن التصوير وحيداً في بابه ؛ فقد شن الفنان عليها غارة شعواء فمثل وجهها الدميم كأنما تحف به الشياطين ، وصور جسمها منتفخاً بورم الخنا والفساد وألبسها الملابس الزاهية الألوان ، وحملها بأثقال من الحلى والجواهر ، فكان — وهو أحد رعاياها — جلادها القاسي . على أن الشجاعة الأدبية التي حدت جويا إلى هذا الصنيع لم يكن الغرض منها الحط من شأن الملكة ومقامها ، بل كان الاقتصاص من الشر .

ثم كان عهد الفتن والقلاقل ، فحالت دون ازدهار المرأة في رياض التصوير ، فما شهدناه في مستهل القرن التاسع عشر من صور لنساء جميلات يعود الفضل فيه إلى جمال المرأة وسحرها ، من مثل جولييت ركاميه ، أو جوزفين بوهرنيه ، أكثر من

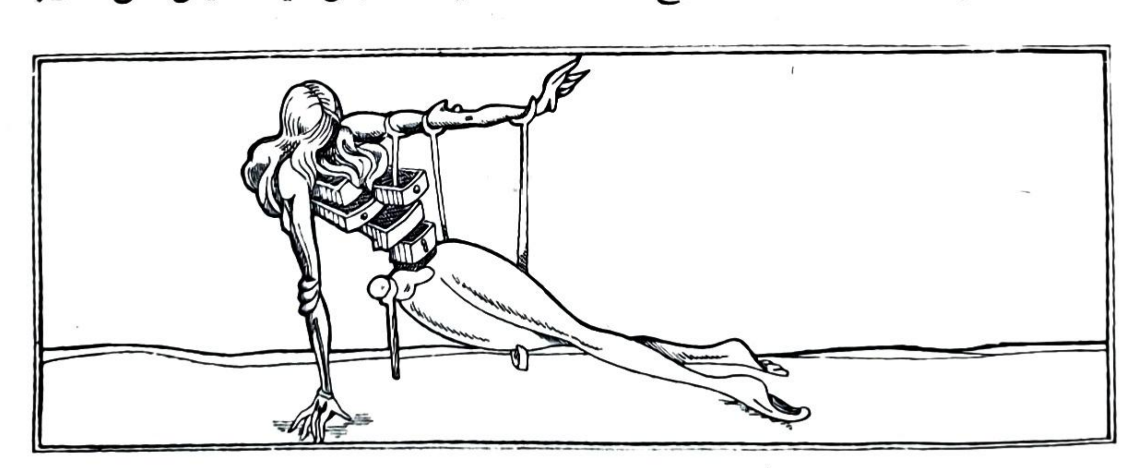
عودته إلى الفنانين دافيد أو جيرار أو إنجر ، فقد وصل هؤلاء الفنانون في صناعتهم إلى درجة الكمال ، ولكنه كمال بارد لا يحرك القلوب .

وتطور التصوير بعد ذلك إلى تمثيل المرأة في مجال جديدة مستمدة من التاريخ والرموز والقصص الرومنطيقية ، ومبنية على العاطفة والشعور ، فتناولت ريشة الفنان أميرات الأساطير ، أولئك اللائي ينحدرن من أعماق الغابة ، وتفتر أفواههن الدقيقة الرقيقة عن ابتسامة ساحرة للفارس الذي أنقذهن من التنين .

ونهض في إنجلترا جماعة من الفنانين ، اتحدوا في الرابطة الروفائيلية ، فكان لهم في عصرهم أثر محسوس ، شهدنا الرومنطيقية بعده تضمحل ويحل محلها الفن الواقعي ، فجال هذا الفن ، ومن بعده الفن التعبيري ، جولات صادقة ، وخلفا لنا عن المرأة صوراً ولوحات متعددة بتعدد مصادر الوحي عند كل فنان ، فكان منها المرأة وهي تعمل وتغزل وتقطف ثمرات الحقول ، وكان منها المرأة في الحانة تحيط بها زجاجات الشراب ، ثم الغواني الساكنات الفاترات عند شواطئ نهر السين .

ونشط الفن في نهاية القرن التاسع عشر إلى تزيين الأبهاء والصالونات بصور النساء ، ولكنها صور يتجلى فيها أدب الفنان ومجاملته لرغبة المرأة في أن تبدو جميلة حسناء بحيث يتجنب كلمة « سرجنت » القائل : « كل صورة تخلق للفنان عدواً جديداً » . .

وطغى الفن التعبيري في العصر الحديث على مظاهر الجمال ، فضحى الفنانون بالجسد في سبيل الروح ، كالطفل الذي يحطم ألعوبته ليعرف ما في داخلها من آلات ، فتوارت المرأة وراء تلك الفوضى من الألوان تجول بها ريشة الرسام ولا تكاد تفهم . وأئمة هذا الضرب من الفن ممن عنوا بتصوير المرأة ثلاثة ، هم : بيكاسو ودالي وماتيس ، رمزوا في فنهم إلى الكآبة في الحياة فبيكاسو صور الشقاء واليأس ، ودالي رسم المرأة فريسة الكابوس صاعداً إلى ينبوع الأمراض العقلية ، وليس غير ماتيس من تقرب

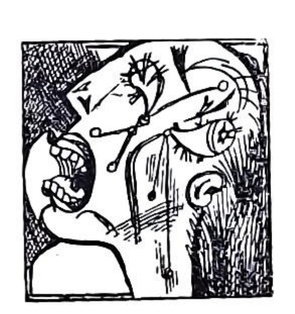


أعماله من نفحات الأمل . فإن بدا لنا بيكاسو غريق الحقد والبغضاء فماتيس يبدو متأثراً بسلطان الحب حب الضياء والألوان والريحان والمرأة .

لقد كان من أثر طغيان الصناعة أن فقد العالم صلته بالدين والروح ، فالفنانون في هذا العصر إذا خطر لهم أن يتطرقوا إلى ما وراء هذه الحياة تركوا الجانب الروحاني ، واستلهموا الأشباح ، كأنهم فقدوا إيمانهم بالجمال ، وما هكذا كان أسلافهم .

على أن الشطر النسوي من الإنسانية لا يتبع هذا التطور مطمئناً مرتاحاً ، فالمرأة لا تخضع للصناعة والآلية خضوع إحساسها لإدراك الأشياء موشحة بالعاطفة والطيبة ، فعليها أن تجمع ملكاتها لتعيد الحب والأمل إلى الفن وإلى الحياة اليومية .

شهرزاد



بيان الصور ومصادرها

في الصفحة ١١١ « الإمبراطورة تيودورا » مأخوذة عن رسم من الفسيفساء .

« « ١١٢ (من أعلى إلى أسفل) «دوقة ميلانو» للرسام هنس هلبين و «سيدة مجهولة» مأخوذة عن لوحة للرسام أل جريكو و « سوزانا فرمنت » للرسام روبنس .

في الصفحة ١١٣ (من أعلى إلى أسفل) « لكريسيا كريفلي » للرسام ليونردو و « مرغريت تيريز » مأخوذة عن لوحة للرسام فلاسكيز و « أم الرسام » رمبرندت من صنع هذا الأخير .

في الصفحة ١١٤ « في المرسم » للرسام فرمير فان دلفت .

في الصفحة ١١٥ (من أعلى إلى أسفل) « مدبرة المنزل » للرسام بيتر دي هوخ و « المفتاح » للرسام جان هونوري فراجونار .

في الصفحة ١١٦ « دوقة ألفا والملكة ماري لويز » مأخوذة عن لوحة للرسام جويا .

في الصفحة ١١٧ « المرأة » مأخوذة عن لوحة للرسام دالي .

في الصفحة ١١٨ « رأس امرأة » مأخوذة عن لوحة للرسام بيكاسو .

يسر بعد عسر

لأبي محجن*

لا تسألي النَّاسَ عن مالي وكثرتهِ ... وسائلي النَّاسَ ما فعلي وما خُلقِي

أعطي السِّنانَ غداةَ الرَّوعِ حِصَّتَهُ ... وعاملَ الرّمح أرويهِ من العلَقِ

وأطعن الطّعنةَ النجلاء عن عُرُضٍ ... وأحفظ السِّرَّ فيه ضَرْبَةُ العُنُق

عفُّ المطالبِ عمَّا لستُ نائلهُ ... فإن ظُلِمْتُ شديدُ الحقدِ والحَنَقِ

وقد أجودُ وما مالي بِذِي فَنَعٍ ... وقد أكرُّ وراءَ المحجرِ البَرِقِ

والقومُ أعلمُ أني من سراتِهِمِ ... إذا سما بَصَرُ الرّعديدةِ الشَّفَق

قد يعسر المرءُ حيناً وهو ذو كَرَمٍ ... وقد يثوبُ سوامُ العاجزِ الحَمِقِ

سيكثرُ المالُ يوماً بعد قلّتِهِ ... ويكتسي العودُ بَعْدَ اليَبْسِ بالوَرَقِ

---

* شاعر مخضرم فارس شجاع معدود في أولي البأس والنجدة وكان من المعاقرين للخمر المحدودين في شربها .

ترانيم روحية

للأستاذ عبد الرحمن الخميسي بيافا

أوْقِدِي لي الشموعَ يا أختَ روحي ... وامْسَحي بالطيوب وجهي ورأسي
وأنيلي يديَّ قيثارتي الظم ... أى تترجمْ ما يستبدُّ بحسي
هبط الليلُ .. فاستحال نعاسي ... وأفاقتْ أشواقُ روحي ونفسي
فاسمعي .. إنما الغناء رِواءٌ ... لحنيني ، وفرجةٌ للتأسِّي

* * *

امحُ يا ربِّ عن ضميريَ أدرا ... ني ، وأرهفْ بصيرتي بالنقاء
وَأنرْ لي الطريق فالليلُ مَرْهُوْ ... بٌ مديدٌ على ضفافِ السماء
واغتفرْ لي الإنشادَ إنْ كان ذنباً ... هَتْكُ حُبِّي فيما يُذيع غِنائي
واغمرِ القلبَ بالصفاءِ وبالوجـ ... ـد .. فَمِنْ خلفه أراك إزائي

* * *

يا إلهي طَهِّرْ فؤاديَ بالحُـ ... ـبِّ وخَلِّصْ به من الإثم عقلي
يا إلهي إنَّ الجهالةَ تُشْقِيـ ... ـني فَبَدِّدْ بنور حُبِّكَ جهلي
يا إلهي هبْ لي المحبةَ أُبْصِرْ ... في سناها حقيقةَ الكونِ حولي
يا إلهي وانفضْ غشاوةَ عيـ ... ـنيَّ ، وَقَرِّبْ من ظلِّك السمحِ ظِلِّي

* * *

أنا يا ربِّ كوكبٌ في مَدَارِكْ ... يحتسي الضوءَ من خبيءِ نهارِكْ
رشفةٌ لي من فيض نبعِكَ تحبو ... ني حياةً تشعُّ عن أنوارِكْ

أنا يا خالقي إليك ومن سـ ـــرّك ضاءت خواطري في جوارك
والذي يشهدُ انفصالك عني حجبته سدوده عن مدارك

* * *

ذلك النهرُ في الضفافِ سجينُ يتعالى له زئيرٌ حزينُ
تتلوّى أمواجهُ صارخات شوقها لانفلاتها مجنونُ
أنا مثل المياهِ يارب قد آ دت رجائي القيودُ .. وهي شجونُ
طال شوقي إلى التبخر من جسـ ـمي حُرًّا .. تضيء حولي الدجونُ

* * *

عذّبتني أشواقُ روحي إليكا وحنيني إلى انتهائي لديكا
ولو أني أراكَ في كلِّ شيءٍ وحياتي تدلُّ ذاتي عليكا
أنت يا صانعَ الجمالِ وموحي الـ ـخير والحقِّ والمحبةِ منكا
تحلُمُ النفسُ في السكينةِ بالعوْ دةِ يارب والرجوعِ إليكا

* * *

كلما رحتُ في الدجى والنهارِ أتملاكَ خلفَ كلِّ ستارِ
تثملُ الروحُ بالتصورِ والوهـ ـم وتحلو وتنتشي أفكاري
وأرى السرَّ حول عينيَّ جهراً ويفيضُ الظلامُ بالأنوارِ
فتغيمُ الدموعُ في مقلتي حرّ ى ويشتدُّ في ضلوعي أواري

* * *

أنا غنّيتُ للجمالِ وللفكـ ـر وللفنِّ والحقيقةِ حولي
وتوسّلتُ يا إلهي إلى عرْ شِكَ بالشدْوِ في صباحي وليلي
يا إلهي .. فاجذبْ إليك ترانيـ ـمي ، وباركْ بحمدِ ذاتك قولي
أنا يارب لا أغارُ ... ولكنْ كيف يلقى سوايَ وجهكَ قبلي

عبد الرحمن الخميسي

أحلام الربيع

للأستاذ محمد محمود زيتون

غنني يا بلبلَ الوادي وسبِّحْ بالأغاني
الرّبيعُ الطّلْقُ وافى بالأمانيِّ الحِسانِ
عاد كالفرحة ذابتْ في ظلال من حنان
وسَرَى كالبسمة العذراءِ في فجرِ الأماني

بعثتْ ذكراه قلبي .. فتراءى فجرُ حبي
في سنى الفجر الوديع .. بين أحلام الربيع

* * *

عد إليها يا ربيعَ الحب والثمْ راحتَيها
واقتبس ماشئتَ فالفتنةُ والفن لديها
ثمّ عدْ واحمِلْ إليها لهفة القلب إليها
يا ربيعَ الحبِّ أنت اليوم لحنٌ في يديْها

بعثتْ ذكراه قلبي .. فتراءى فجرُ حبي
في سنى الفجر الوديع .. بين أحلام الربيع

* * *

أنا لحنٌ حائمٌ حولكِ يا قيثارتي
ونسيمٌ هائمٌ بالعطر يا ريحانتي
أنا في غابة أيامي وحيدُ الغابة
أنا في صحراءِ أوهامي فكوني واحتي

واغمري بالنور قلبي .. وأعيدي فجر حبي
في سنى الفجر الوديع .. بين أحلام الربيع

* * *

شاطئ أنت وذا قلبي رفاف الشراع

يتهادى في عباب من لقاء ووداع

هات من عينك ما يطفىء شوقي والتياعي

واسكبي فى كأسي الظمآن من هذا الشعاع

واغمري بالنور قلبي .. واعيدي فجر حبي

في سنى الفجر الوديع .. بين أحلام الربيع

* * *

سقت دنياي ودنيا الناس قرباناً إليك

ياحياتي لك أنفاسي و إن هانت عليك

فامنحيني بسمة الخلد التي من شفتيك

أنت دنياي وأخراي وروحي في يديك

فابعثي أنفاس قلبي .. وأعيدي فجر حبي

في سنى الفجر الوديع .. بين أحلام الربيع

* * *

ياحياتي أنت في قلبي دنيا من جمالِ

وأنا العابدُ في محرابهِ بين الظلالِ

و إذا ما الحبُّ نادانا إلى وادي الخيالِ

وتساقينا هوانا ومنانا في الليالي

فابعثي أنفاس قلبي .. وأعيدي فجر حبي

في سنى الفجر الوديع .. بين أحلام الربيع

محمد محمود زيتون

الأمل الحائر

للأستاذ محمد قره علي ببيروت

أملٌ عليه من الشعاعِ تألّقُ ... ومؤمّلٌ فوق النجوم محلّقُ
يتلقفُ اللذّاتِ من دَفْقِ الضّحى ... ويكاد يعثرُ بالضياءِ ويَزْلقُ
ويمرّ من فوق السّحابِ كأنه ... قوسُ السَّحابِ على المجرّةِ مورقُ
يطوي الفضاء بزورقٍ مجذافه ... جفْنُ الضحى وعمودُهُ المتدفّقُ
الديمة الوطفاء خيطٌ شراعِهِ ... وعلى سواريهِ العطاش المشرقُ
ما زال يطوي كلّ داراتِ الفضا ... وعلى دروبِ اللانهاية يُمْنِقُ
حتى إذا سئم الضياء وربّما ... سئم الضياء الناظرُ المغرورقُ
عاف الفضاء وعاد وهو مُدَلَّهٌ ... حيرانَ لا يأسو ولا يترفقُ
ألِف الظلامَ وباتَ في أحشائِهِ ... سرٌّ بأهداب الزهور مُعلّقُ
وعلى الجداولِ أنّةٌ مشبوبةٌ ... هي من حنايا اليمّ قلبٌ يخفقُ

محمد قره علي

شاعر

هاتِ دُرّ البيانِ وانظم عقودَهْ ... واجْلُ للناسِ وحْيَه وفتونَهْ
وانزلِ الرّوضَ واجْنِ منه ورودَهْ ... بَثَّ في كمِّها الصباحُ عيونَهْ
ثم صُغْها حبائكاً منضودَهْ ... للذي أكبرَ الأنامُ فنونَهْ
شاعرٌ غنّى كلُّ صبٍّ نشيدَهْ ... وروى بثَّهُ وحنَّ حنينَهْ

* * *

شاعرٌ هامَ قلبُهُ بالجمالِ ... يقطعُ العمرَ في ارتيادِ ربوعِهْ
باحثاً عنه في الدُّنى والأعالي ... يقظاً كان أم أليفَ هجوعِهْ
فإذا شاقهُ لذيذُ الوصالِ ... لجَّ في شجْوِهِ وسَكْبِ دموعِهْ

وشكا للنجوم ظُلْمَ الليالي فرثتْ لِلْكسيرِ بين ضلوعِهْ

* * *

إن رأى البحرَ سادراً بعبابِهْ أو رأى البدرَ طالعاً في سمائِهْ
أو رأى الليلَ حفَّهُ بحجابِهْ أو رأى الصبحَ شقَّ سِتْرَ خِبائِهْ
أو رأى القفرَ في فسيحِ جنابِهْ أو رأى الوردَ مُشْرِقاً ببهائِهْ
هزّه شوقُهُ إلى أحبابِهْ فجرَى شِعْرُهُ يفيضُ بدائِهْ

* * *

شاعرٌ رجَّعَ الحَمامُ هواهُ ورواهُ بكلِّ جوٍّ وأفْقِ
فسبَى الرّوضَ بثُّهُ وشجاهُ فاستطابَ الكلامَ عنهُ برِفْقِ
وبكى الوردُ فاستحالَ نداهُ في ثنايا الضُّحَى لوامعَ بَرْقِ
يالقلبٍ معذّبٍ بجواهُ شاطرتْهُ الغصونُ خفقاً بخفْقِ

* * *

خطراتُ النسيمِ من نفثاتِهْ واحمرارُ الأصيلِ رَمْزُ جِراحِهْ
ودموعُ الصَّباحِ من عبَراتِهْ ونُواحُ الطّيورِ رَجْعُ نُواحِهْ
وخريرُ الغديرِ من خفقاتِهْ وحُميا العيونِ أفضلُ راحِهْ
هُوَ لولا الهوَى وصلْبُ قناتِهْ لم يَفُزْ خصْمُهُ بِرَمْي سِلاحِهْ

* * *

سارَ في الأرض طارقاً كلَّ مَطْرقْ بفؤادٍ كخفقةِ النّجمِ حائرْ
يُرْسِلُ الطرْفَ رائداً كلَّ مُغْلَقْ باحثاً عن غزالهِ في الجآذرْ
كلما خابَ في مُناهُ وأخفقْ شَدَّ قيثارَهُ فأبكى المحاجرْ
عمْرَكَ اللهَ يا زمانُ ترَفَّقْ إنَّ في راحتَيْكَ مهجةَ شاعِرْ

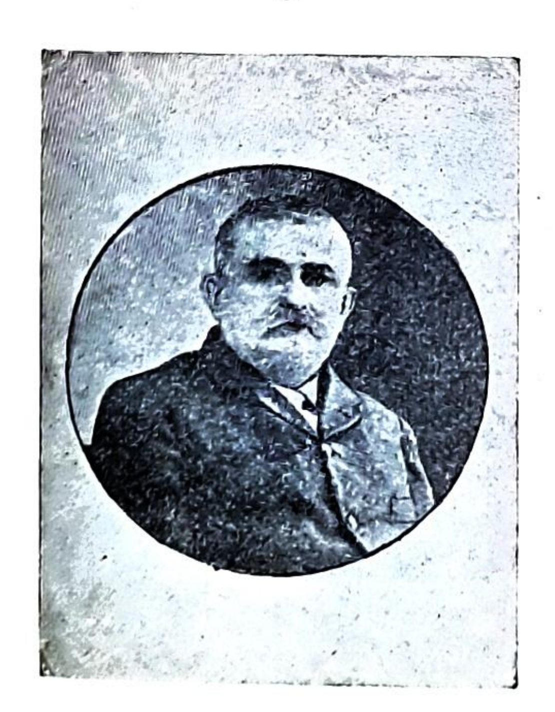
عادل الغضبان

شبلي شميل
وفكرة التطور في الشرق العربي
١٨٦٠ — ١٩١٧

« كن شديد التسامح مع من يخالفك في رأيك، فإن لم يكن رأيه كل الصواب فلا تكن أنت كل الخطأ بتشبثك . وأقل ما في إطلاق حرية الفكر والقول تربية الطبع على الشجاعة والصدق ، وبئس الناس إذا قسروا على الجبن والكذب » .

« شميل » .

فكرة التطور قديمة ، ردها بعض الباحثين إلى العصر الإغريقي ، وألف الأستاذ «أزبورن» في ذلك كتاباً عنوانه : « من الإغريق إلى درون » ، أظهر فيه تسلسل هذا المذهب العظيم من أوائل عصر الحضارة الغربية إلى القرن التاسع عشر بعد الميلاد . وللعرب أقوال فيه أثبتها في مقدمة الطبعة الثانية من ترجمة كتاب « أصل الأنواع » ، منها ما نقلته عن ابن مسكويه ، ومنها ما نقلته عن إخوان الصفا . وفي كتب العرب منثورات تدل على نزعات تطورية ، وعلى ما اتجه فيه فكر أفراد أفذاذ منهم نحو القول بفكرة النشوء الكوني ، ثم النشوء العضوي أو الأحيائي .



غير أن ما مضى فيه الأغارقة والعرب من القول بالتطور والنشوء قد اكتنفه كل ما يكتنف رواد الفكر من غموض وإبهام

وقلق . ثم نسيت هذه الفكرة على غموضها في فترة الركود التي انتابت الفكر في خلال عصور الظلام والعصور الوسطى ، ثم أخذ شعاعها يلمع وضاحاً في العصر الحديث .

أخذت الفكرة تنتعش ثانية في أواخر القرن الثامن عشر ، إذ أشار إليها بافون (١٧٠٧ — ١٧٨٨) ثم لامرك (١٨٠٩) وتعاقب بعدهما الباحثون ، فكان أمرهم لا يتعدى الإشارة أو الاستناد إلى هذه الفكرة في تعليل ظاهرة أو تفسير نظرية ، على الصورة التي تقع عليها في كتابات جفروي سنتيلير (١٨٢٨) والدكتور ولز (١٨١٨) ووليم هربرت (١٨٢٢) والأستاذ جرنت (١٨٢٦) وبتريك متيو (١٨٣١) وفون بوك (١٨٣٦) ورافينيك (١٨٣٦) وهلدمان (١٨٤٤) ودمليوس دلوي (١٨٤٦) والأستاذ أوين (١٨٤٩) وأزيدور جفروي سنتيلير (١٨٥٠) وهربرت سبنسر(١٨٥٨) والكونت كيزولنج وإسكفهوزن وبادن باول (١٨٥٥) وفون باير ، والأستاذين هكسلي وهوكر (١٨٥٩) . وفي هذه السنة نفسها ظهرت الطبعة الأولى من كتاب « أصل الأنواع » وعلى إثر ظهورها بدأت المعركة الحقيقية بين النشوئيين والخلقيين .

***

ظهر كتاب الدكتور شميل « شرح بخنر على مذهب درون » مطبوعاً باللغة العربية سنة ١٨٨٤ ، ولم يكن قد مضى على ظهور كتاب « أصل الأنواع » في أوربا غير خمس وعشرين سنة . وكانت معركة التطور على أشدها في دوائر أوربا العلمية ، فنقل شميل المعركة إلى الشرق ، يؤيده رجل المقتطف الأول الدكتور صروف .

ولم يظهر في اللغة العربية كتاب يعالج النشوء من منبعه الأصيل إلا بعد أربع وثلاثين سنة ، عند ما نشرت الطبعة الأولى من كتاب « أصل الأنواع » سنة ١٩١٨ . وإنه لمن أثقل الأشياء على نفسي أن أتكلم في هذا المقام عن نفسي . ولكن تاريخ تفكيري كله قد اتصل بهذه الناحية من الفكر ، فلا مندوحة لي عن الرجوع بعض الشيء إلى اتصالي العملي بها ، فأنقل عن مقدمة الطبعة الثانية من « أصل الأنواع » عبارات هي في صميم التاريخ الصحيح لفكرة التطور في الشرق :

« يرجع تاريخ "أصل الأنواع" في اللغة العربية إلى ليلة من ليالي الصيف سنة ١٩١١ ، على قدر ما أستطيع أن أذكر . قدر لي فيها حياة جديدة ، إذ استدبرت فيها عهداً واستقبلت عهداً . قرأت إذ ذاك إعلاناً عن كتاب للدكتور شميل أسماه «فلسفة النشوء والارتقاء » ، ولست أعلم من سبب حملني على الاهتمام بهذا الكتاب ، في حين أن عيني تقعان كل يوم على كثير من الإعلانات التي يعلن فيها عن الكتب والمترجمات

الجديدة ، وأنا بعد قريب العهد بكتاب أدبيات اللغة العربية ، ولم يمض على تركي دار التعليم الحكومي ما يكفي لمحو ذلك الأثر الذي غرسته فيّ تلك الكتب السقيمة التي لا تحدث في الذهن من أثر ، اللهم إلا أثر الجمود والضعف . فلعل غرابة الاسم الذي وضعه شميل لكتابه قد أثرت في نفسي تأثيرها في شخص لم يعرف بعد ما الفلسفة ولا ما هو النشوء والارتقاء ؛ لأن كل ما أحاط بي كان جامداً لا يتحرك ولا يرتقي ، وكذلك أنا . وكلما رجعت بذاكرتي إلى تلك الساعة التي أذهلني فيه عنوان ذلك الكتاب تخيلت نفسي تمثالا جامداً من الحجر الصلد لا يتحرك ولا يتحول ، في وسط كون ضارب في سبيل النشوء بقسط وافر .

« لم أنم تلك الليلة إلا غراراً ، مكرراً كلمات لا أفهمها : فلسفة ، نشوء ، ارتقاء ، وكأني أردد تعويذة من تعاويذ السحر ، أو أقرأ طلسمات أطرد بها أرواحاً شريرة اكتنفتني وحوطتني بشرورها . ولما أن تنفس الصبح كنت في الطريق أسير باحثاً وراء النشوء والارتقاء ؛ وكنت أول من دخل مكتبة « المعارف » مع أول عامل فتح بابها ، أسأله أن يعطيني نسخة من كتاب شميل . ولما أن وصلت النسخة إلى يدي بدأت أقرأ فيها وأنا خارج من باب المكتبة ، لا أدري كيف أسير ولا أين أذهب ، وإذا بعصا التسيار قد ألقت بي إلى الشارع العباسي* ، ولم أشعر بأني هنالك إلا بعد أن نبهتني إلى ذلك إحدى الأشجار القائمة على جانبيه بصدمة قوية ، ألقت بالكتاب من يدي إلى الأرض .

« وعدت أدراجي أحمل الكتاب لأعالج طلسماته شيئاً فشيئاً ، وكلما نالني الإعياء انصرفت عنه ساعة لأعود إليه ثانية ، حتى فتحت لي مغاليقه ، وبدأت أفهم ما هو النشوء والارتقاء ، وكيف تنقلب المبادئ العلمية إلى نظريات فلسفية ، إن أراد بها الفلاسفة أن تكون فلسفة تؤيد المادة وتنكر وجود الله . وكان الدكتور شميل ملحداً ، وأستاذه بخنر الذي ترجم عنه شميل ، أعرق منه في الإلحاد نسباً ، وأقرب إلى إنكار الله رحماً » .

نشرت الطبعة الأولى من كتاب « أصل الأنواع » في العربية سنة ١٩١٨ ، ثم مضيت أدرس المذهب من مختلف نواحيه ، فنشرت كتابي « ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء » سنة ١٩٢٦ ، وفيه رددت أقوال أولئك الدينيين الذين تصدوا لفكرة النشوء عندما نشرها شميل ، ومنذ ذلك الحين لم يقم جدل ولا ثار غبار حول فكرة التطور ، فأصبحت في الذهنية الشرقية من المسلّم بها .

---

* شارع الملكة نازلي الآن .

* * *

« الإصابة ليست دائماً في جانب الإجماع ، فالكثرة ليست حجة قاطعة ، أو هي وحدها برهان القوة الوحشية ، والحقيقة ما كانت أدنى من الواقع »

« شميل »

لو أن الدكتور شميل قد اقتصر في نقل مذهب التطور على المبادىء التي أثبتها درون في كتابه « أصل الأنواع » لما ثارت تلك اللجاجة حول المذهب ، ولكنه لم يكتف بذلك ، بل عمد إلى الكلام في أمرين كانا السبب في تلك الثورة وهما : إثبات العلاقة بين مذهب التطور الأحيائي والمذهب المادي ، وأصل الإنسان .

إن المعركة المادية معركة قديمة في الآداب العربية ، معركة انتقلت إلى العرب عن اليونان مع الآثار التي ترجمها المترجمون في العصر العباسي عن الأغارقة . ولكن الجلاد لم يتعدّ بين أصحاب المادة وأصحاب الألوهية حد الكلام في قدم المادة . أما الحياة والأحياء فظلوا بمنحًى عن المادية ، بل إن المذهب الروحاني قد سيطر على العقل ، كما أن قصة الخلق في الكتب المقدسة قد أخرجت الإنسان من دنيا الطبيعة وجعلته خلقاً وحده . فإذا جاء مذهب يدخل الحياة في عالم المادة ، ويدخل الإنسان في عالم الحيوان ، كان حريًّا بأن يخدش عقولاً ظلت على ذلك الجمود الأحقاب تتلوها الأحقاب ، ومضت موقنة بأن الإنسان سيد الكائنات ، وأنه موضع العناية التامة من الخالق ، وصاحب السيادة العليا على جميع المخلوقات .

لم يتعرض درون قطعاً إلى البحث في أصل الحياة وكيف نشأت ومن أين أتت ، لا في كتابه « أصل الأنواع » ولا في غيره من الكتب الكثيرة التي ألفها ، ولم يضع مذهباً في علاقة التطور بالفكرة المادية . وإنما جر المعقبين عليه إلى ذلك كتابه « نشوء الإنسان » الذي قال فيه إن الإنسان يرجع بأصله إلى صورة أحط من صورته الحاضرة ، تنقلت متغايرة في مدارج أزمان طويلة حتى بلغ الحالة التي هو عليها ، متخذاً من علوم الجيولوجيا والأجنة والتشريح سبيلا إلى إثبات ذلك . ولأنه قال بأن الأصل الذي انحدر عنه الإنسان يقارب القردة العليا ، ذهب أصحاب الأديان يقولون إنه يدعي أن الإنسان أُصله قرد .

لو أن الدكتور شميل لم يعرض فيما نقل من مذهب التطور إلى هذين الأمرين ، فغالب الظن أن كلامه كان قد مر بالأذهان مر الكرام . ولكن الواقع أن المعركة في أوربا

لم يشتد أوارها إلا بعد أن نشر دروِن كتابه «نشوء الإنسان»، فلم يتوان الدكتور شميل في أن ينقل المعركة من الغرب إلى الشرق بقضها وقضيضها ، بحلوها ومرها ، فكان مثله كمن ألقى بحجر كبير في بركة هادئة . وكفى بهذا وحده أن يضفي على هذا الرجل الحر الفكر القوي الأخلاق صفة أنه من الخالدين في آداب عصرنا هذا .

نقل شميل مع ما نقل من معركة التطور فكرة « التولد الذاتي » ، وهي فكرة تبحث في أصل الحياة وكيف نشأت في الأرض ، ولهذه الفكرة علاقة برأي قال به الفلكي المعروف «لابلاس» سمي عندنا "بالرأي السديمي" في تكوين النظام الشمسي . يهمنا من أمر هذا المذهب قول صاحبه : إن الأرض كانت كرة ملتهبة عالية الحرارة انفصلت عن الشمس ، وأنها أخذت تبرد تدرجيًّا مع الزمان . إذن كانت الأرض خالية من آثار الحياة ، فكيف نشأت الحياة فيها ؟ إذا لم تكن قد نشأت فيها نشوءاً ذاتيًّا فمن أين أتتها ؟ الله خلقها ؟ ذلك رأي . الحياة هبطت علينا من كوكب آخر مع النيازك والشهب ؟ ذلك رأي ثان . الحياة تولدت ذاتيًّا بالتفاعل الطبيعي ؟ ذلك رأي ثالث .

الرأي الأول لا يقبله العلم ، لأنه لا برهان عليه . والرأي الثاني لا يحل المعضلة ، لأن الحياة إذا كانت قد هبطت على الأرض من الكواكب المحطمة فكيف نشأت أصلا في هذه الكواكب ؟ لم يبق إذن من رأي إلا أنها تولدت ذاتيًّا من الأرض بالتفاعل الطبيعي ، ولكن هذا الرأي لا برهان عليه أيضاً ، لأن الحي لا يتولد إلا من حي مثله . ذلك ما أثبته العلم التجريبي في أنابيب « بستور »

نقل شميل ما شاء له علمه أن ينقل من مذاهب القائلين بالتولد الذاتي ، وراح ينقل المناقشات والمذاهب التي حامت حول هذا الموضوع ، موقناً بأن الحياة تولدت ذاتيًّا على الأرض ، وفي عصر من عصور تطورها كانت كل المهيئات قد أعدت لحصول هذا الفعل الطبيعي . ولم يتقدم العلم منذ ذلك العصر خطوة واحدة وراء ذلك ، فإن الحياة إذا كانت قد تولدت ذاتيًّا في عصر تهيأ فيه من العوامل ما يستحدث بُزْرة الحياة الأولى ، فكيف يصل الوهم إلى تقدير تلك الحالات تقديراً علميًّا ، وكيف كانت البيئة التي تولدت فيها الحياة أول ما نشأت ؟

ولكن إلى جانب هذا يسائلك العقل : لو لم تكن الحياة قد نشأت ذاتيًّا بالتفاعل الطبيعي في الأرض أو في غير الأرض من أجرام الكون الصالحة لحفظ الحياة ، فمن أين أتت وكيف نشأت ؟ معضلة كبرى . سر الأسرار ، بل أعمق الأسرار .

سر الحياة وسر الروح سيان . أما إذا عرفت الحياة ، فقد عرفت الروح . وما يدرينا لعل الحياة والروح اسمان لشيء واحد ! « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي » .

***

من المذاهب التي نقلها شميل في التطور مذهب « هربرت سبنسر » الفيلسوف الإنجليزي صاحب الفلسفة التركيبية المعروف . نقل مذهبه الكلي في التطور ، إذ قال بأن كل تطور إنما هو انتقال من حال التجانس إلى حال التنافر ، فالسديم الأول في رأي « لابلاس » الفلكي شيء متجانس ، والأجرام بموادها وصورها وأشكالها وتركيباتها شيء متنافر ، والخلية الحية الأولى شيء متجانس ، والحيوان الكامل شيء متنافر ، وحروف الهجاء شيء متجانس ، والكلمة والجملة والأسلوب شيء متنافر . فالانتقال من حال التجانس إلى حال التنافر عند «سبنسر» هو القاعدة الكلية للتطور ، وهي قاعدة سليمة ولا شك ، اتخذها «سبنسر» قاعدة طبقها على المجتمع الإنساني وعلى الجمعيات البشرية ، وتطرق من ذلك إلى القول بأن بين الفرد والمجموع تشابهاً كليًّا من حيث التركيب ومن حيث الوظائف ، ومضى يوازن بين أجزاء في المجتمع بأجزاء في الفرد ، وانتهى إلى القول بأن الاجتماع فرد مكبر . كل هذا ليثبت أن التطور يجري على سنته تلك حتى في عالم الاجتماع .

جاراه في ذلك شميل ، ونقل تفصيلا ذلك المذهب العجيب . ولكنهما لم يوفقا . لم يوفق سبنسر ولم يوفق شميل في اتباعه ، لأن خطأ هذا المذهب ظاهر ، وبطلانه جلي واضح . حقيقة إن التطور من الناحية الفلسفية التي تكلم فيها سبنسر يمتد إلى آفاق أبعد من الآفاق التي وقف عندها التطور الأحيائي وهي التي تكلم فيها درون .

وحقيقة إن المجتمع يتطور كما يتطور الفرد : ذاك في نظاماته ، وهذا في صفحاته الحيوية ، ولكن الفارق عظيم بين تطور يصيب نظامات إنسانية وتطور يصيب التوليف الفوزيقي الأحيائي . بالإضافة إلى ذلك نجد أن الفارق بين الفرد والمجتمع ، حتى من الناحية الأحيائية ، عظيم جداً ، فالفرد وحدة معقدة التركيب مكونة من خلايا هي غاية في البساطة ؛ أما المجتمع فوحدة بسيطة التركيب ، مكونة من كائنات غاية في التعقيد . وبهذا تسقط طريقة « سبنسر » في الموازنة بين الفرد والمجتمع ، وتسقط معها طريقة تطبيق مذهبه في التطور على الجماعات .

* * *

« إن اليوم الذي ينصرف الإنسان فيه من تنميق الـكلام إلى إتقان العمل ، هو اليوم الذى تنقوم فيـه طباعه ، فتقل سخافته ويكثر جده ، ويقل رياؤه ، وينشط من الذل ، ويرتقي ارتقاء حقيقياً ، ويحق له حينئذ أن يعد نفسه إنساناً »

« شميل »

الانتخاب الطبيعي ! عبارة جديدة ذات رنين خاص ، تغزو الأذن وتغزو العقل معاً . الطبيعة تنتخب للبقاء فيها ما يصلح للبقاء ، وتطرد من حظيرتها ما لا يصلح . إذا انتخبت الطبيعة ووازنت بين أفراد الأنواع من حيث المنفعة الصرفة فإلى أي شيء يؤدي انتخابها ؟ يؤدي حتماً إلى بقاء الأصلح من الأفراد . وإذا كانت الطبيعة تنتخب ، وهي تنتخب لتبقي على الأصلح ، إذن فللطبيعة عقل تنظر به ، ولها بصيرة تتصرف بها .

عقول برمت بكل شيء في الحياة ، اللهم إلا بحالة الجمود التي هي عليها ؛ وأذهان استغلقت وظلت مستغلقة دهوراً ، إذا أنت حاولت أن تقتطع من القدرة الأزلية العليا قدراً من العقل تنسبه إلى الطبيعة ، فذلك بالضرورة ثورة على الخالق وثورة على الإنسان الذي خلقه الله . إن العقل الكلي لم يشأ أن يكون لشيء في الوجود من عقل جزئي غير الإنسان . أما الطبيعة فكيف يكون لها عقل ، وكيف يكون لها بصيرة ، وكيف تنتخب ، وكيف تقضي من طريق ذلك الانتخاب ببقاء الأصلح من أفراد الأنواع ؟ ثورة حاطمة .

الحقيقة أن الطبيعة لاتنتخب بمعنى أنها تعقل ، ولا تبقي على الأصلح بمعنى أنها تبصر أو تتبصر . ولكن أصحاب الجمود راحوا يقولون إن درون أخذ يشرك الطبيعة مع الله ومع الإنسان . وثارت العجاجة واحتدم الجدل من حول هذه العبارة البسيطة . ليس في الانتخاب الطبيعي في الواقع ما أدرك منه الدينيون ، وكل ما فيه أن عجز اللغة عن التعبير عن حقيقة طبيعية ، قد أدى إلي الوهم بأن درون يشرك الطبيعة مع الله .

الانتخاب الطبيعي ليس علة ، وإنما هو سبب ناشيء عن سبب قبله . فالأحياء تتوالد بنسبة رياضية كبيرة ، بل هي تتوالد بإسراف فإذا لم يقض الهلاك على النسبة الكبرى من المواليد ضاقت الأرض بهم ، وعجزت مواردها عن إعاشتهم . فالطبيعة تسرف أولا في الإنتاج ، ثم تسرف ثانية في الإفناء ، وبين الأمرين يقع ما نسميه الانتخاب الطبيعي ، بمقتضى أن الذي يبقى من المواليد إنما هو الأشد والأقوى والأكثر احتمالا ، ولا يبقى من الأفراد عند تغير الظروف الطبيعية ، كالمجاعات مثلا ، إلا الأحيل

والأصبر والأقدر على المكاره والأسرع عدواً أو الأفرع طولا . وإذن فعبارة الانتخاب الطبيعي عبارة غامضة لغوياً ، ليس فيها شيء من التهجم على القدرة الأزلية ، أو الاعتداء على الإنسان من حيث ان الله خالقه ، هي عبارة إن دلت على شيء واضح فإنما تدل أول شيء على عجز اللغة عن التعبير ، لا أكثر ولا أقل .

والانتخاب الطبيعي كما قلنا ليس علة ، وإنما هو سبب ، سبب طبيعي صرف ، لا علاقة له بما بعد الطبيعة ، ولا بالدين ، ولا بالعقائد . وإذا أخذنا في بحثه من ناحية ما بعد الطبيعة رأينا أنه سبب بدأ تأثيره بعد أن تطورت الأحياء تطوراً هيأ له أن يكون ذا أثر فيها ، ولا شك في أنه على ما يقول الفلاسفة سوف يزول أثره وشيكاً ، ولكن فئة من الفلاسفة أرادوا إلا أن يكون لهذا السبب الطبيعي البسيط أثر في تأييد المادية الطبيعية، فراحوا يقولون ويعيدون، حتى استقر الأمر اليوم على ماصورنا من نتائجه في الأسطر السالفة .

يقول بلفور في كتابه « الألوهية والفكر » :

« في فترة مجهولة لدينا ، وبالحري في فترة غير معروفة ، وفي مدى ذلك التطور النشوئي برز سيار هيء بمجموعة من الخصائص والحالات التي يعرفها العلم في حالته الحاضرة ، وكان من طبيعتها أن تنطوي على الحاجات الضرورية اللازمة لتنشئة صورة من صور الحياة العضوية . في الطور الذي قطعه ذلك السيار مستكملا العدة لتنشئة الحياة ، لم يكن هنالك من محل للانتخاب[1] ولذلك لم يكن للانتخاب أثر في تهيئة المدرج العالي من مدارج التطور ، وأعني به المدرج الذي شهد بدء الحياة ، وهو أعظم المدارج الانقلابية جميعاً . قبل وقوع ذلك الحادث الانقلابي لم يكن لنا من معرفة بما يضاف إلى جملة الأشياء أو يستخلص منها . إن عوالم لاعداد لها ولدت ثم بادت ، ولكن أعظم ما وقع من نكبات وأحداث في عالم الأجرام[2] لم يتجاوز حد أنه توليف معاد لما كان موجوداً بالفعل . تتالت التغيرات ، واحدة في إثر الأخرى ، على مقياس من العظمة والفخامة قلما يتصور ، غير أن عامة هذه التغيرات الفوزيقية ، لم تأت بجديد فيه صفة الأصالة والجوهرية ، لم يكن في النتيجة من شيء يشكل بصورة أو بأخرى ، لم يسبق له وجود في العلة . والكون لم يأت بشيء جديد ، اللهم إلا إعادة تنسيق نفسه ، ولكن ببزوغ الحياة ، بدأت دورة جديدة . ومهما يكن من أمر ما أعتنق من فكرة فلست أدعي هنا أن الحياة ، حتى في أدنى مدارجها ، أكثر من توزع ضروب خاصة من المادة صبت

(١) أي مذ كان سديماً في رأي لابلاس حتى تهيأت ظروفه لنشوء الحياة .

(٢) أي في عالم تكييف المادة من التجانس إلى التنافر على رأي سبنسر .

في قوالب معينة ، وإن أعمالها وأركاسها* جميعاً قد تفسر بمقتضى سنن الكيمياء والفوزيقا تفسيراً كاملا . فعلى أي وجه نقلب هذا الرأي فلا شك يساورنا مطلقاً في حقيقة الشعور والفكر والإدارة . فإن هذه الأشياء كانت دائماً زوائد على مجرد توليف المادة في صور مـّا ، وهي فوق ذلك أشياء جديدة ، بقدر ما لأرضنا هذه من صفة الحدوث الزماني . نعم جديدة . وحقـًا إنها لباعثة على أشد العجب » ! ثم يقول :

« لم يكن للانتخاب الطبيعي من أثر في إبرازهذا المتجه الجديد ، كما أنه لم يكن له من يد في أن يحدث حدثاً يسير به قدماً عندما بدأت الحياة بالوجود . ولكن عندما أصبحت تلابس عضويات من طراز ملائم أى عندما وجدت بطريقة غير محسوسة (١) مركبات عضوية معقدة (٢) ليس لها صفة الحياة لاغير (٣) بل تكاثرت (٤) وفي تكاثرها استحدثت أعقاباً ، لها بها مشابهة ، ولو أن هـذه المشابهة (٥) صحبتها تغايرات (٦) متوارثة . قبل أن تقع هذه الأحداث الجسام وتأتلف ، لم يكن في مستطاع الانتخاب الطبيعي أن يعمل وأن يبرز تلك المستحدثات الأحيائية ، التي يحاول البحث العلمي اليوم ، بجهد بالغ ، أن يفصح عن أسرارها المعقدة » .

هذا قول حق ، فإن الانتخاب الطبيعي لم تظهر له آثار في الأحياء إلا بعد أن ضربت الحياة بقدم ثابتة في سبيل التطور ، وبلغت من الارتقاء والنشوء حدًّا توافرت فيه أسباب الانتخاب ، وإذن فليس الانتخاب علة ولا هو شرك بالله ، ولا بالعقل الأول ، ولا بالعقل الإنساني . ولهذا يقول بلفور :

« من هنا يتضح أن تدخل الانتخاب الطبيعي في السوق العِـلّي للأشياء ، تدخلا شأنه أن يزود العقل الإنساني ، حتى بما يشاكه أصلا عقليًّـا ، قد بدأ مؤخراً في تاريخ الكون . ولكن لديّ شيء آخر أقوله : فإن تدخله لابدأ بتحقيق هذا الغرض مؤخراً جدًّا لاغير ، بل إنه انتهى مبكراً جدًّا أيضاً ؛ فإن أفعاله التأثيرية تموت وتفنى سريعاً ، حتى ليعجز عن الإفصاح عما ينبغي الإفصاح عنه ، وأعني بذلك الإفصاح عن مثاليات الحب والحسن والمعرفة » .

هنا نفت الفلسفة ما تصورأهل الدين من أثرالانتخاب الطبيعي في الكون باعتباره علة . ولكن شميل لم يهتم بهذا ، وراح يوطن المذهب في نواحي المادية الطبيعية ، ويحاول أن يثبت أن للطبيعة عيناً تنظربها ! لاعين ولا أذن ! الطبيعة صماء ، والانتخاب الطبيعي سبب لا عليـّة فيه ولا غائية .

---

* Actions and Reactions

⁂

نختم هذا المقال بكلمات ننقلها عن الدكتور شميل ، فإنها أدل على اتجاهه الفكري من إطناب في شرح أو في بيان ، ونحن هنا إنما نصور لك ناحية من نواحيه ، ونترجم عن فكره واتجاهه ، لا عن حياته ومماته :

« كلما ارتقى الإنسان في العلوم الطبيعية ، قلّت الحاجة إلى إجهاد القوى العقلية والالتجاء إلى العلوم الجدلية والتعطش إلى قراءة الأقاصيص الخيالية الخرافية والتحليلية المزعوم أنها وصف حقيقي للعواطف ، وأصبح شأنها حقيراً ، وهو اليوم يحسبها من صناعات الآداب الراقية ، وما هي بالحقيقة إلا من مختلقات الوضع المناقضة للطبع ، والتي ضررها اليوم أشد جداً من ضرر الفلسفة القديمة ، ومن ضرر علم الكلام وعلم اللاهوت في العصور المظلمة ، لأنها طمّت على الاجتماع كالسيل الجارف حتى أغرقته فيها ، وما كان فضل فرنسا في ثورتها الاجتماعية السياسية ليعادل ضررها بعد ذلك في منهجها هذا النهج ، وهي عماد هذه الأقاصيص اليوم » .

« الإنسان لا يرى الحقيقة ، لأنه أغرق في جهلها ، وإذا رآها لا يريد أن يعرفها ، لأنها تروعه ، فيدور حولها ويروغ منها ، لأنه ألف التمويه في كل شيء ، وإنه ليفضل أن يكذب على نفسه ، إذا عرفها من أن يقولها » .

« كل شيء في الكون سلسلة : العالم المادي والعالم المعنوي على حد سواء . وكما نشأت الأحياء الراقية من أحياء أدنى ، وهي من مواد الطبيعية ، هكذا نشأت الأديان من الاعتقادات ، وهذه من الخرافات ، وهذه من قلة تعرف الإنسان لظواهر الأشياء التي حوله وتوهمه فيها » .

⁂

للدكتور شميل نواح أخرى لا يجمع بينها إلا دفتا كتاب . وما أردنا بهذا المقال إلا أن نظهر طرفاً من آثاره العديدة وناحية بعينها من جهده المتواصل في سبيل نقل فكرة التطور من الغرب إلى الشرق .

لقد أثار العاصفة وانتظر ، وهذا من توفيقه وحسن طالعه ، فإن كثيرين ممن يثيرون العواصف الفكرية قلما يخلصون منها إلا صرعى أو في التراب .

إسمعيل مظهر

احد اوائل العلمانيين العرب
أسس تحرير مجلة العصور في
عشرينيات ق. ٢٠ التي كانت تسلق الاديان

الوجوه الجديدة
بين القول والعمل وبين الشكل والموضوع

للأستاذ محمد صلاح الدين بك

« الوجوه الجديدة » عبارة تسمعها الآن على كل لسان في الوسط السينمائي ، ولكن العمل يدل على الكثير من التقصير أو القصور في فهم معانيها وتحقيق مراميها ، إذ يكاد الأمر يقتصر على إظهار ما تيسر منها في أدوار الفتيات الأوليات أو الفتيان الأوائل ؛ وليست كل الأدوار على الستار الفضي فتى أول أو فتاة أولى ، بل هي تختلف بالبداهة اختلافها على مسرح الحياة نفسها ، فهذا عجوز طيب ، أو عملاق جبار ، أو خب ماكر مخادع ، أو طفل خارق الذكاء ، أو حسناء شديدة الإغراء ، وهكذا إن شئت إلى غير انتهاء . وقد تكون بطولة القصة إلى أحد هؤلاء فلا معنى إذن لأن نحصر الاهتمام في اكتشاف الوجوه الجديدة الصالحة لأدوار الفتيات الأوليات أو الفتيان الأوائل ، بل يجب البحث عنها حيث نجدها لشتى الحالات ومختلف الشخصيات .

ومن جهة أخرى يظهر أن سياسة الوجوه الجديدة عندنا تلتزم حرفية النص على قدر الإمكان ، فالهمة تنصرف ، أو تكاد ، إلى اكتشاف وجه جميل ، وكان الله يحب المحسنين . ولكن الوجه الجميل وحده لا يغني شيئاً حتى تتوفر معه شروط كثيرة أخرى شكلية وموضوعية ، كما يقول رجال القانون .

فمن جهة الشكل يجب أن تتوفر مع الوجه المناسب — ولا أقول الوجه الجميل — جسم مناسب ، وشخصية قوية مناسبة ، وصوت وحركة مناسبان للدور المقصود . فإذا توفر كل هؤلاء أمكن أن ننتقل من الشكل إلى الموضوع .

والموضوع هنا مِران شاق طويل على الإلقاء والتمثيل .

مِران عام ومِران خاص . فالأول إعداد شامل لا يتقيّد بدور معين ، ولكن بنوع الأدوار التي يصلح لها الوجه الجديد . فإذا تمّ له هذا المران أمكن الانتقال إلى

المرحلة التالية ، أي مرحلة المران الخاص وتدريبه على دور بالذات يفهم دقائق شخصيته وأسرار مواقفه ، ويحفظ حواره عن ظهر قلب ، ثم يبدي ويعيد في تمثيل المواقف وإلقاء الحوار حتى يحسن ويجيد .

هكذا يفعلون في البلاد التي أحرزت قصب السبق في الإنتاج السينمائي ، وهكذا يتم لهم إظهار هذا العدد الكبير من النجوم اللامعة نساء ورجالا في مختلف أدوار التمثيل .

بل هكذا تتعدد عندهم جوانب النجم الواحد ، وتتباين مزاياه ، فهو لا يقتصر على إجادة التمثيل إيماء وإلقاء ، ولكن يجيد معه الرقص أو العزف أو الغناء أو الرياضة البدنية على اختلاف أنواعها . وكثيراً ما يجيد كل هؤلاء ، وقد يبلغ به توافر الاستعداد وطول المران أن يمثل الدور وضده ، فهو محسن كريم أو شرير لئيم ، وهو لص سفاح أو شرطي ذكي لماح . وهو في أول الرواية شاب جميل تملأه القوة والحياة ، وفي آخرها شيخ مهدم أقعده المرض وحطمته الآفات . ولكنه في جميع هذه الأحوال النجم اللامع الساطع والممثل المطبوع القدير .

أما في مصر فيبدو الوجه الجديد ضعيفاً شاحباً ، تمتاز عليه أكثر وجوه الفلم . لأنها نالت حظا أوفر من التعليم والتدريب على خشبة المسرح ، أو فيما سلف لها من الأفلام . وقد يكون دوره دور البطل ، فلا تشفع بطولة الدور في ضعف التمثيل ، ولكن يهوي ضعف التمثيل ببطولة الدور إلى الحضيض .

وليس هذا بالطبع ما يريده الداعون إلى إظهار الوجوه الجديدة لتدعيم الإنتاج السينمائي وتجديد قواه . فإذا لم نكن في دعوتنا هذه هازلين فعلى المخرجين والمنتجين أن يفهموا أن سياسة الوجوه الجديدة ليست بالأمر الهين اللين ، ولكنها مركب صعب ومطلب عسير يحتاج إلى الكثير من المقدرة والخبرة والصبر الطويل والإنفاق الجزيل .

ومن الحق هنا أن أشير إلى ما يستطيع معهد التمثيل العالي أن يقدمه من خدمات في هذا السبيل ، فقد أعد للطلاب منهجاً طويلا دقيقاً يؤهلهم لإتقان التمثيل المسرحي ؛ وهذا المنهج نفسه جدير بإنباتهم نباتاً حسناً للتمثيل السينمائي إذا روعي في تنفيذه لفت النظر إلى ما بين الفنين من صلات وفروق .

على أني بعد هذا كله أعود فأسأل : هل نحن حقيقة جادون في دعوتنا الطويلة العريضة إلى اكتشاف الوجوه الجديدة وإعدادها ؟ فقد شاهدت بنفسي في الوسط المسرحي ، وجاءني من أنباء الوسط السينمائي ، ما تعانيه هذه الوجوه على يد الوجوه القديمة من إعنات وإرهاق وحرب دائبة لا ترحم ولا تلين . وقد كان النصر حتى الآن

في جانب الوجوه القديمة ، لما تتمتع به من ميزة السبق والاستقرار ، وما لها من صلات وطيدة بأصحاب الطول والنفوذ في الأوساط الفنية . وهي روح خبيثة مبعثها الغيرة والحسد وتنازع البقاء ، ولا خير يرتجى من تكرار الحديث عن الوجوه الجديدة مع قيام هذه الروح ، فلا بد لنا من أن نعمل مخلصين حتى نقضي عليها ونحل محلها روح الحب والإخاء والتعاون الودي الوثيق .

ومن هذا القبيل أيضاً موقف بعض الفنانين المصريين من إخوانهم فناني الأمم العربية الشقيقة الذين يفدون إلى مصر للعمل بها ، فهم لا يبرحون يتبرمون بوفادتهم ، ويشكون من إقامتهم ، ويلتمسون لذلك شتى الأسباب ، وقد يكون بعضها وجيهاً معقولاً ، وقد يحتاج الأمر كله إلى نظام يحكمه، فذلك مالا أتعرض له الآن، ولكني أود لأهل الفن من أبناء هذا الوطن أن يعلموا أن الفن لا وطن له ، وأن بلاد العرب وطن العرب أجمعين ، وأنه لا معنى للتفكير في منع وفادة الفنانين من أبناء الأمم العربية الشقيقة بينما يجري البحث في فك قيود الانتقال بين الدول العربية على وجه عام . ولقد قامت جامعة الدول العربية لتحقيق التعاون بينها في مختلف نواحي العمل والنشاط ، فجدير بالفن أن يكون في طليعة الميادين التي يتوطد فيها هذا التعاون المنشود . وجدير بأهله في مختلف الأقطار العربية أن يجعلوا شعارهم : « أن في ميدان الإبداع والمجد الفني لمتسعاً للجميع » ؟

محمد صلاح الدين



في كفة الميزان

نشر في هذا الباب نقد النقاد على علاته نزولا عند حرية الرأي تاركين لأقلام غيرهم من الكتاب مناقشة ماقد يدعو إلى المناقشة .

علم النفس الفردي — أصوله وتطبيقه

[منشورات جماعة علم النفس التكاملي] تأليف الأستاذ إسحق رمزي

٢٨٤ صفحة من القطع الكبير . دار المعارف . القاهرة ١٩٤٦

نقد الدكتور أحمد فؤاد الأهواني

هذا ثاني كتاب تخرجه جماعة علم النفس التكاملي هذا العام . أما الأول فهو مشكلة السلوك السيكوباتي للدكتور صبري جرجس ، ولعلك قرأت عنه نقداً في العدد الماضي من هذه المجلة . وهذا دليل نشاط محمود للجماعة ، كما ينبئ عن التفات الناطقين بالضاد إلى البحوث الخاصة بعلم النفس ، وأن الناس يرغبون في معرفة أنفسهم معرفة صحيحة .

وإذا كنا نختلف مع المؤلف في بعض القضايا والمسائل ، فليس معنى ذلك أننا ننكر عليه اجتهاده في البحث ، وتوفيقه في كثير من أبوابه ، مع طرافة العرض ، وعظيم الإحاطة .

* * *

تقرأ في صدر الكتاب أنه « بحث نوقش في كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول عام ١٩٤٢ ، وأجيز بدرجة الماجستير في علم النفس بمرتبة الشرف الأولى » . ثم تقرأ في مقدمة المؤلف شكره للأستاذ إسمعيل بك القباني ، والدكتور يوسف مراد على ما قاما به من جهد في مراجعة فصول الكتاب . فنحن إذن بإزاء مجهود جمعي لا فردي ، مما يجعلنا نحفل بالموضوع ، فنوجه النقد إلي جماعة لهم خطرهم ومنزلتهم .

قدم المؤلف لبحثه بكلمة انتهى فيها إلى اختيار مذهب علم النفس الفردي — الذي قال به أدلر — لأن أصحابه عند تطبيقه يزدادون يقيناً بأنه علم خالص ، لايمت إلى البحث الجدلي بصلة ، ولا تربطه بالفلسفة أية علاقة . ثم قال : « وقد بدا لنا — بعد النظر — أن هذا المذهب نفسه لايمكن أن يوصف بأنه علم خالص ، لأنه لم يصبح بعد علماً صحيحاً ، كما أنه لم يعد فلسفة خالصة ... » .

بهذا الروح الذي يمسك العصا من وسطها ، فلا يؤكد أن علم النفس أصبح علماً ولا يفصله كل الفصل عن الفلسفة ، أقبل المؤلف على بحث النفس الإنسانية .

ومن الموافقات الغريبة أن يصدر الأستاذ بول جيوم ، أستاذ علم النفس في السربون — وهو الذي أجاز الدكتور يوسف مراد حين درس في باريس — كتابا عنوانه « مدخل إلى علم النفس » في عام ١٩٤٢ ، أي في نفس العام الذي نوقشت فيه رسالة الأستاذ إسحق رمزي . وأكبر الظن أن الجماعة لم تطلع عليه ، إذ كانت فرنسا واقعة تحت الاحتلال . ويدور هذا الكتاب على الموازنة بين علم الطبيعة وعلم النفس ، مع بيان الأدوار التاريخية التي قطعها علم الطبيعة حتى أصبح علماً . كذلك علم النفس لم يولد في تاريخ الفكر علماً كاملا ، ولكنه اجتاز المرحلة السابقة على الدور العلمي . قال في مقدمة الكتاب[1] بعد أن قرر وجود علم النفس العلمي (Psychologie scientifique) « إن الباحثين الموقنين بأهمية أعمالهم وقوتها ، تحفزهم الهمة إلى إكمال هذه البحوث والدفاع عنها أمام النقد » . وقال في خاتمة الكتاب[2] : « إن إحدى القلاع التي تصدر عنها مقاومة علم النفس هي بلا ريب تلك الفلسفة التي تعلم في الفصول النهائية من مدارس الليسيه ؛ ذلك أن علم النفس الذي يتعلمونه هناك ليس إلا جزءاً من مذهب ، ونوعاً من الجدل يقوم على خدمة الفلسفة . وذلك العلم بعيد كل البعد عما يدرس تحت هذا الاسم اليوم في جامعات العالم أجمع » .

[Elle est très loin de ce qu'on appelle aujourd'hui du même nom dans les universités du monde entier.]

فإذا عرفت أن الدكتور يوسف مراد درس على الأسلوب الفرنسي ، وأن الأستاذ إسحق رمزي تلميذه ، لم تعجب من اعتبارهما علم النفس ربيب الفلسفة . غير أن كبير علماء النفس في فرنسا أخذ يتبرم بهذا الروح ويتنكر له ، ويحاول أن يوجه علم النفس وجهة أخرى ، مبتدئاً بالمدارس الثانوية ، وذلك بإعداد المعلمين إعداداً علميًّا تجريبيًّا لا نظريًّا جدليًّا لأنه أصبح يؤمن بأن علم النفس انفصل الانفصال التام عن الفلسفة وأصبح علماً بمعنى الكلمة .

هذا الاتجاه الفلسفي هو الذي جعل المؤلف يعرج على مسائل تعد في صميم الفلسفة ولم تكن به حاجة إلى الكلام عنها ، إذ تعرض لآراء سقراط وأفلاطون وأفلوطين ، فضرب في مجاهل ترجع بنا ألفي عام إلى الوراء .

وليست بنا حاجة إلى إثبات أن علم النفس أصبح علماً ، وقد أثبت رأي

---

(١) Guillaume : Introduction à la psychologie, Paris, 1942, P. 17

(٢) المرجع السابق ص ٣٧٤ .

في كتابي « خلاصة علم النفس » ، فهذه حقيقة مقررة ما كان ينبغي أن تغيب عن معرفة المؤلف ، ولا تتفق مع النتيجة التي انتهى إليها في خاتمة بحثه عن العلاج في العيادات السيكولوجية ، إذ يقول إن نسبة النجاح في العلاج هي ٧٧ ٪ ، وهو علاج قائم على منهج علمي لا فلسفي ، وهي نتيجة تستند إلى حقائق علمية .

ونحب أن نذكر أن جيوم ليس آخر عالم فرنسي نادى بهذا الرأي ، فقد سجله من قبل ألفرد بينيه ، وكان رئيس معمل علم النفس بالسربون فقال في كتابه « النفس والجسم »[١] بعد مناقشة جملة التعريفات لعلم النفس : « هذا إذن هو التعريف الذي نضعه لعلم النفس ، إنه يدرس عدداً معيناً من القوانين (lois) نسميها عقلية لتكون في مقابل قوانين الطبيعة الخارجية .... » . والعلم هو الذي يحفل بكشف القوانين .

وكتب الأستاذ بيرون مقدمة لكتابه « علم النفس التجريبي » تقع في عشرين صفحة ، لخص فيها المراحل التاريخية التي اجتازها علم النفس ، وميز بين العلم والفلسفة وأثبت استقلاله عنها[٢] .

* * *

انفصل أدلر عن مدرسة فرويد عام ١٩١٢ ، وأخذ يبشر بعلم نفس جديد سماه علم النفس الفردي . يرى فرويد أن الغريزة الجنسية هي القوة الدافعة في سلوك البشر ، فاختلف أدلر معه ، وذهب إلى أن شعور الإنسان بالنقص هو الذي يدفعه إلى تعويضه، وذلك لوجود النزعة إلى القوة والسيطرة والتفوق في كل منا بالفطرة . يتخذ فرويد الغريزة الجنسية أساس السلوك ، ويجعل أدلر غريزة السيطرة الدافع إلى التصرف في الحياة.

اعتمد أدلر على فكرة بيولوجية مجربة ، وهي أن العضو إذا أصيب بضعف قام عنه عضو آخر بأداء وظيفته . مثال ذلك : إذا استؤصلت إحدى الكليتين ، تضخمت الأخرى حتى تقوم بوظيفة الاثنتين . وانتقل أدلر من هذه البداية البيولوجية إلى تعليل ظهور الأمراض العصبية والنفسية ، فإذا شعر المرء بنقص ما تشكل سلوكه بأحد أشكال ثلاثة : الانحلال ، أو المرض العصبي ، أو النبوغ . فإذا لم يتغلب على الشعور بالنقص انزلق إلى الفساد والانحلال ، أو هرب إلى الأوهام يحتضنها ويعيش في ظلها ، وهذا هو المرض العصبي ، فإذا استطاع تعويض نقصه أصبح نابغاً .

ضع هذه الألفاظ الثلاثة : الانحلال ، المرض العصبي ، النبوغ (dégénération

---

(١) Binet : L'âme et le corps, p. 181

(٢) Piéron : Psychologie expérimentale.

(nevrosis, genius ، بعضها إلى جانب بعض ، تنفذ إلى صميم نظرية أدلر في تعويض الشعور بالنقص[١] .

هذا فيما يختص بتفسير الأحوال العصبية التي عني بها أول كل شيء . أما الأشخاص العاديون فإن سلوكهم في الحياة يتوقف على الطريقة التي يحلون بها هذه المشكلات الأساسية في الحياة ، وهي : اختيار المهنة ، والصلة بالمجتمع ، والحب .

ومن الخطأ أن يضع الأستاذ رمزي هذه المشكلات الثلاث تحت باب الأخلاق ومعايير القيم ؛ فلم يكن أدلر كاتب أخلاق أو فيلسوفاً ، بل كان عالماً نفسانيًّا . ثم إنه لم ينظر فيما يجب أن تكون عليه حياة الإنسان ، وأنه « إذا كان على المرء أن يعيش بين بني جنسه ؛ بل إذا كان حب المجتمع فطرة فيه ، فإن على الفرد أن يلائم بين نفسه وبين مقتضيات بيئته . . . إلخ » ص ١٤٠ . ويبدو أن الروح الفلسفي الجدلي الذي أقبل به الأستاذ رمزي على تأليف هذا البحث هو الذي حداه إلى الوقوع في هذا اللبس المنافي لعلم النفس . والرأي عند أدلر أن أسلوب الحياة لايفرض على المرء فرضاً بالوراثة ، بل يحدده مركز الأسرة التي ينشأ فيها الطفل ، وأن « تكوين الأنماط البشرية يبدأ من هذه الفترة المبكرة »[٢] . ولا ريب أن الطفل قبل الخامسة لايعرف القيم والمعايير الخلقية ، بل يكتسب أسلوب الحياة بالقدوة والمثال ، ومن البيئة التي يعيش فيها .

ولقد ذهب المؤلف مع مكدوجل[٣] ونقل عنه جملة أثبت نصها بالإنجليزية مؤداها أن كتابات أدلر عسيرة الفهم ، كثيرة التناقض ، قليلة التماسك . فجرى الأستاذ رمزي وراء مكدوجل ونقد أدلر نقداً مرًّا شديداً فيه كثير من الغلو . أما تحامل مكدوجل على أدلر فأمر مفهوم ، لأن صاحب مذهب الغرائز المتعددة ومايتصل بها من انفعالات يجب أن يدافع عن مذهبه مع إنكار مذهب كل عالم سواه . أما تحامل الأستاذ رمزي فغير مفهوم . يقول مكدوجل : « إني لأجد آراء أدلر عسيرة كل العسر على الفهم ، بل هي أشد عسراً من آراء فرويد » . وانظر معي إلى ما يقوله الأستاذ وود ورث ، ومنزلته معروفة في هذا العلم : « نستطيع أن نقول إن آراء أدلر أسهل من آراء فرويد »[٤] . ويقول في موضع آخر : « إننا إذا نظرنا إلى مذهب أدلر نجد أن علم النفس الذي قال

---

(١) Van Teslaar : Outline of Psychoanalysis, NewYork, p. 272-298

(٢) Adler : Understanding human nature, p. 34

(٣) McDougall : Abnormal Psychology, p. 429

(٤) Woodworth : Contemporary schools of psychology, p. 178

به متماسك بكل تأكيد » . ولو اطلعنا على ختام الفصل الذي كتبه مكدوجل عن أدلر لبرح الخفاء وعرفنا السر في تلك الحملة ، وفيه يقول : « إني لأرى أن نظرية أدلر يمكن أن يعبر عنها بوضوح أكثر ، وأن تأخذ مكاناً لائقاً في جملة نظرية الأمراض العصبية ، لو أنه اعترف بالغريزتين الأساسيتين اللتين أسميتهما بالسيطرة والخضوع » .

✡✡✡

وصلت في قراءة الكتاب إلى الباب الثالث وتحته فصول : الأول في اللاشعور ، ووقع نظري على هذا الاستهلال : « ينقب المرء في مؤلفات أدلر ويذرعها هي ومؤلفات أتباعه جيئة ، ثم يذرعها ذهوباً ، كي يقع على فصل واحد يغنيه في الحديث عن اللاشعور ، أو عن جانب من فصل يستطيع أن يخرج منه برأي حاسم عما يقولون فيه — واللاشعور عماد المدرسة التحليلية كلها — فلا يخلص من هذا كله ، إلا بفقرة هنا ، وسطور عارضة هناك ، يأتي ذكر اللاشعور فيها ذكراً لا توفير فيه ولا غناء معه » . فأنكرت من المؤلف هذا الكلام ، لأني أعرف كما يقول منزلة اللاشعور عند أصحاب المدرسة التحليلية : فرويد وأدلر ويونج . وتناولت أحد كتب أدلر فوجدت فصلا من عشر صفحات عنوانه اللاشعور✡ جاء فيه : « إن بعض الملكات النفسية لا ينبغي البحث عنها في عالم الشعور ؛ ولو أننا نستطيع توجيه الانتباه إلى حد ما بواسطة الشعور ، إلا أن الباعث على هذا الانتباه لا يقع في الشعور ، بل في أهوائنا ، وهذه بدورها تقع في الأغلب في دائرة اللاشعور » .

يعترف إذن أدلر باللاشعور ، وعلى الخصوص في أحوال العلاج النفسي ، وقد أثبت الأستاذ رمزي هذا الرأي بعد ثلاث صفحات من ابتداء الفصل فقال : « كان أدلر يرى أن علاج النفس ينبغي أن يبدأ بإخراج أفكار العظمة والسيطرة إلى نطاق الشعور » . ومعنى ذلك إخراجها من اللاشعور إلى الشعور . ثم ذكر مثالا أورده أدلر عن علاج فتاة كانت تصيبها نوبات عصبية مع التفكير في الانتحار والرغبة في التشرد « وتبين أدلر أن هدف المريضة اللاشعوري الذي انسرب إليها منذ طفولتها هو أن تحول نفسها رجلا » (ص١١٦) .

ويبدو أن الخطأ الذي وقع فيه المؤلف هو اعتباره أن أدلر وأتباعه « رأوا أن الشعور ضرب من النشاط العقلي » ص(١١٦) . ولهذا عاد ينتقد أدلر وأصحابه بقوله : « إنهم يخلطون بين الشعور والانتباه » ص (١٢١) . ولم يخلط أدلر بين الشعور والانتباه ، بل ميز بينهما ، ووضح ذلك فيما نقلناه عنه في الفقرة السابقة .

✡✡✡

✡ Adler : Understanding human nature, p. 97-107

يذهب أدلر إلى أن ميلين عظيمين يوجهان جميع الظواهر النفسية ، هما : الشعور الاجتماعي والنزعة إلى السيطرة ، ويتوقف عليهما تحديد المشكلات الأساسية في الحياة : الصلة بالمجتمع واختيار المهنة ، والحب . فاذا أنكر الإنسان الحياة الاجتماعية ابتعد عن الناس ونفر منهم وأصبح غير اجتماعي ، وقد يزيد الشذوذ عند بعضهم فتصدر عنهم أفعال عجيبة أو يرتكبون الجرائم . ويتوقف اختيار المهنة على فهم طبيعة المجتمع وانقسامه إلى طبقات ، وانقسام كل طبقة إلى أصحاب مهن مختلفة ، ثم انتساب كل فرد إلى المهنة التي تلائمه .

ويسمي الأستاذ رمزي المشكلة الثالثة : ميول الفرد الجنسية (ص ١٤٠) وهذا يخالف رأي أدلر إذ يسميها الحب "love" ، وهو يعني ما يقول ؛ لأن الحب أصل والحياة الجنسية فرع ، ولأن الحب ينشأ منذ الطفولة ، ولا تظهر الحياة الجنسية — في مذهب أدلر — إلا عند البلوغ . ويعزو أدلر الاضطرابات التي تعتري حياة الأطفال النفسية إلى عدم شعورهم بالمحبة ، وهو يذهب إلى أن قسوة المستبدين وكراهيتهم وظلمهم للعباد يرجع إلى ذلك العامل الذي يثبت في أنفسهم منذ الطفولة . ويعترض الأستاذ فالنتين[١] أستاذ التربية في جامعة برمنجهام على هذه النظرية الأدلرية الأخيرة بأن الإحصاءات الدقيقة المؤيدة لها تنقصنا ، ولكنه من جهة أخرى يعترف بأن تقارير عيادات الطفولة أثبتت أن الأطفال الذين يفقدون حب آبائهم يصبحون مصدر مشكلات كثيرة ، لأن الطفل الذي يلتمس الحب فلا يجده ، يركبه الحسد والغيرة ، ويميل إلى سلوك يحاول به لفت الأنظار ، وإثبات سيطرته ، وقد يدعي المرض في بعض الأحيان التماساً للعطف .

ولقد ضرب أدلر[٢] مثالا طريفاً يوضح به كيف يؤدي شعور الطفل بفقدان المحبة إلى أفعال انتقامية ، وهو قصة طفلة صغيرة كانت سبباً في غرق ثلاثة أطفال : كانت تنعم بحب أبويها إلى سن السادسة ، ثم أنجبا طفلة حولا إليها عطفهما وحبهما ، فشعرت الكبرى بكراهية شديدة لأختها وأخذت تضطهدها ، فنهرها أبواها ، وحدث بعد ذلك أن سكان ذلك المكان عثروا على طفلة صغيرة غريقة في الترعة القريبة من القرية . وعثروا على طفلة ثانية غريقة ثم ضبطت الطفلة أخيراً وهي تدفع ثالثة إلى الماء فاعترفت وأرسلت إلى المصحة .

وسوف تجد في كتاب الأستاذ إسحق رمزي أمثلة لا تخلو من طرافة ، وفوائد عملية في آخر فصل كتبه عن العيادات السيكولوجية .

أحمد فؤاد الأهواني

---

(١) Valentine : The difficult child, p. 65.

(٢) Adler : Understanding human nature p. 221-222.

الفن ومذاهبه في النثر العربي

تأليف الدكتور شوقي ضيف

٢١١ صفحة من القطع الكبير . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة ١٩٤٦

نقد الأستاذ محمد عبد الغني حسن

قصة النثر العربي وتطوره هي قصة ميراث قديم أسلمه القدماء إلى المحدثين ، فتقلبت عليه في خلال العصور أمور مما يتقاب على كل ميراث أسلمه صاحبوه . ولم يكن جائزاً في العقل أن يبقى هذا الميراث على حاله ، وقد ألقي به في وسط تيارات من ثقافات جديدة وبيئات جديدة .

ولم يقصد مؤلف الكتاب أن يتناول النثر العربي من حيث موضوعاته التي يعالجها من خطب وأمثال ورسائل وتاريخ وفلسفة وقصص وتأليف ، ولكنه تناوله من حيث هو فن وصناعة ، وتتبعه منذ كان في البادية معبراً عن رغبات أهلها وحاجاتهم وضرورات حياتهم ، إلى أن خرج من الصحراء ليستقبل حياة جديدة ، بدأت تتحضر نوعاً من الحضارة ، ثم أخذت تتعرض لألوان من الترف ، ثم أخذت تتعقد شيئاً فشيئاً . فلم يقف النثر العربي جامداً إزاء هذه التغيرات والانتقالات ، ولكنه استجاب لها وطاوعها وتلون بألوانها التي لم يكن له مفر من أن يصطبغ بها .

ولقد قامت صناعة النثر العربي في خلال خمسة عشر قرناً من تاريخ هذه الأمة العربية على ثلاثة مذاهب من الفن لم يجد المؤلف لها رابعاً . . . وهي مذاهب وضع المؤلف لها أسماءها وحدد لها حدودها وساق الأمثال عليها ، حتى ليقنعك معه آخر الأمر بما ذهب إليه من هذه المذاهب ، ثم لا تجد نفسك مستطيعاً أن تخالف عن أصول مذاهبه ، لأن الطريقة التي انتهجها هي خير ما يسلكه الباحث حين يبحث ، ومؤرخ الأدب حين يؤرخ .

والمذاهب التي وضعها المؤلف للنثر العربي هي الصنعة ، والتصنيع ، والتصنع . وهي أسماء قد تبدو فيها الغرابة أول الأمر ، لأن فيها غرابة الجديد ، ولأن اتحادها في أصل الاشتقاق واختلاف كل منها في مسماه قد يضيف إلى هذه الغرابة شيئاً ، ولكنها تسمية على كل حال فيها كثير من التوفيق ومن التأنق الذي يبدو في أسلوب المؤلف ، وفيها فوق ذلك كثير من الجهد الذي بذله بين أسفار من الأدب والتاريخ واللغة والتراجم .

ومذاهب النثر التي فسر بها المؤلف صناعته هي مذاهب الشعر التي فسرها في كتابه الأول : "الفن ومذاهبه في الشعر العربي" . فقد قام النثر العربي أول الأمر على صورة فنية لا تأنق فيها ولا تعقيد ، حتى انتهت إلى عبد الحميد الكاتب في العصر الأموي وإلى ابن المقفع وسهل بن هرون والجاحظ وأضرابهم في العصر العباسي ، فظلت على صورتها الفنية الأولى بعيدة من التأنق ، وإن كانت شاركت في حضارة جديدة واتصلت بثقافات جديدة ؛ وهذه الصورة النثرية الفنية غير المتأنقة وغير المعقدة هي مذهب الصنعة الذي امتد من العصر الجاهلي إلى أواخر القرن الثالث .

وفي مطلع القرن الرابع الهجري مهدت الحضارة العباسية لمذهب التصنيع ، وهو مذهب يقوم على السجع والترصيع بطرائف البديع . ويرى المؤلف أن التصنيع في حياة العباسيين الاجتماعية قد تسرب إلى الحياة الأدبية ، لأن الأدب تعبير عن العصر الذي يعيش فيه .

ومن أنصار هذا المذهب ابن العميد والصاحب بن عباد وأبو إسحق الصابي والخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني . والأخيران مهدا بمغالاتهما لمذهب التصنع الذي بدا واضحاً عند قابوس بن وشمكير ، وتمت صورته عند أبي العلاء المعري ، وهي صورة تقوم على التعقيد الشديد الذي أدى إلى الإبهام والغموض في التعبير .

وذهب المؤلف يتعقب النثر العربي في الأندلس ومصر ، ويتتبع نشأته وتطوره ومناهجه وبعض أساتذته ، فوجد أن هذه الأوطان الجديدة لم تستحدث شيئاً جديداً ، وأن الفن النثري أو النثر الفني بها كان على صورته في أصول المذاهب الثلاثة ، وأن هذا التقليد لم يمنع من ظهور أدب قومي في هذين الإقليمين ، ولكنه كان أدباً محدوداً بإطار المذاهب الشرقية الموضوعة .

هذا عرض سريع لفكرة "الفن ومذاهبه في النثر العربي" . وهو عرض لا يغني عن قراءة الكتاب شيئاً ، لأن الفكرة المركزة لا تهمنا بقدر ما تهمنا طريقة عرضها وسبيل معالجتها . وهي سبيل مهدها المؤلف وذلل شعابها حتى استوت مسالكها ، فأصبح القارئ يمشي من كتابه في جَدَد يأمن معه العثار .

ومنهج التعليل شائع في الكتاب ، وهو تعليل لا يبنيه المؤلف دائماً على القطع واليقين ، حتى لا تكون أحكامه « عرفية » في الأدب ، وما أثقل الأحكام العرفية في كل ألوان الحياة .. ! ولكنه يبنيه على الاحتمال حين لا يكون الدليل بين يديه قاطعاً .

فتراه يعلل لشدة التعقيد عند أبي العلاء المعري باحتمالات ، أحدها فراغه الطويل

الذي قضاه بعيداً عن الناس ، وربما كان لضيقه بالحياة وتبرمه بها أثر في هذا التعقيد ، وربما كان فقد بصره جعله يطلب التفوق على معاصريه عن طريق تعقيد فنه تعقيداً لم يكن يستطيعه إلا صانع ماهر(١).

وهذا التحليل والتعليل عند المؤلف يسوقنا إلى الحديث عن قدرته على الموازنة الصحيحة بين عصر وعصر ، وكاتب وكاتب ، وبيئة وبيئة . وهي قدرة لا تتاح لكل ناقد ، لأنها تستلزم من الإحاطة بالتاريخ والتقاسيم الأرضية والظروف المحلية وإدراك الخصائص والفوارق قدراً كبيراً . وهو قدر هيأه للمؤلف اطلاع كثير على التاريخ الأدبي والسياسي للأمة العربية .

ومن هذه الموازنات الصحيحة موازنته بين عصر ملوك الطوائف في الأندلس والعصر العباسي في القرن الرابع الهجري حين انقسمت الدولة العباسية إلى دويلات صغيرة ، فتعددت مراكز النشاط الأدبي تبعاً لذلك ، وهوتعدد مكن لنهضة أدبية رائعة ، فقد كانت المنافسة بين الأمراء باعثاً على تشجيعهم للأدباء والكتاب (٢) .

أما قضية النثر الجاهلي فقد تلقاها المؤلف بشيء من الاحتراس « لأنها كتبت في عصر متأخر كثيراً عن العصر الجاهلي ، والمعقول أن يكون الرواة جمعوا بعض قطع من الخطب الجاهلية ، وخاصة تلك التي اعتمدت على السجع ، ثم زاد فيها العباسيون فيما بعد ، وخاصة (صاحب الأمالي) فإنه لا يصح الاستدلال بشيء مما رواه في كتابه عن العصر الجاهلي وما كان فيه من نثر وخطابة »(٣) . وهذا كلام شبيه بكلام الدكتور طه حسين بك : « وكل ما يمكننا أن نستخلصه من هذا النثر الذي يضاف إلى الجاهليين إنما هو شيء واحد ، وهو أن من الممكن أن يكون هذا النثر قد حاول قليلا أو كثيراً تقليد ما كان للعرب في جاهليتهم من نثر ، فحفظ لنا صورة ما من هذا النثر الجاهلي دون أن يحفظ لنا نصًّا من نصوصه » (٤) .

وفي الكتاب محاسن كثيرة فوق ما ذكرت ؛ وقد يطول بنا السبيل إلى بيان مواضعها في موطن يقتضي الحكم على الكتاب إما للمؤلف وإما عليه . على أن في الكتاب فوق ذلك بعض مآخذ تشفع لها حسنات غزار . وهي مآخذ سأقسمها إلى أقسام ، تنظيما لمنهج النقد . وهي (١) مآخذ ومراجعات عامة (٢) مآخذ في اللغة والضبط والرواية (٣) مآخذ من حيث أسلوب الكتاب .

---

(١) الكتاب المنقود ص ١٣٠ . (٢) الكتاب المنقود ص ١٦٦ .

(٣) الكتاب المنقود ص ١٢ . (٤) في الأدب الجاهلي لطه حسين ص ٣٧٢ .

١ — المآخذ العامة

في صفحات ٨١ ، ٨٢ ، ٨٨ ، ٨٩ — يذكر المؤلف أن الذوق المترف والتصنيع في الحياة الاجتماعية العباسية سرى إلى حياتهم الأدبية ؛ كأنه يريد أن يقول إن التصنيع في الكتابة الفنية هو أثر التصنيع في الحياة ، وساق أمثلة من ترف القصور من عهد الرشيد إلى عهد الواثق ؛ ولكنه لم يعلل لنا لماذا لم يكن سهل بن هرون والجاحظ من أنصار مذهب التصنيع في الكتابة مع أنهما عاشا في عصر من الترف زمن الرشيد والمأمون ، حتى لقد طال العمر بالجاحظ إلى ما بعد خلافة الواثق بربع قرن تقريباً ؟ !

ابن العميد

ص ٩٣ : — يذكر المؤلف « أن ابن العميد ، كان عارفاً بعلم الحيل « الميكانيكا » ولهذا كان يحتال على كتابته بحيل كثيرة، ولهذا كان يشفع فنه بكل ما يمكنه من حيل» وما دخل علم الحيل والميكانيكا بالاحتيال على التطريز في الكتابة ؟ ولو أن ابن العميد كان مهندساً أو من أصحاب الريازة والطرز في البناء والعمارة لجاز أن نقول إن كتابته تأثرت بهذا ؛ ولكنه لم يعد أن يكون مشغوفاً بالتصوير بارعاً فيه كما تحدث عنه مسكويه ، ولعل لهذه النزعة التصويرية أثراً في فنه التصويري في الكتابة كما ذكر المؤلف بحق في موطن آخر .

ص ٩٤ : — يقول المؤلف عن ابن العميد إنه « دائماً يتخذ لفظاً مرصعاً بالسجع » ولفظة « دائماً » هنا لا محل لها من الحق ولا وجه لها من الواقع ، فإن من يتتبع نثر ابن العميد لا يجده دائماً مرصعاً بالسجع . والحق أنه كان من أقل كتاب عصره التزاماً للمسجوع ، وأقربهم إلى المطبوع[1] .

وقد بلغ من قلة التزام ابن العميد للسجع أن قال ابن خفاجة : « من كتاب المحدثين من كان يستعمل السجع ولا يكاد يخل به ، وهو أبو إسحق إبرهيم بن هلال الصابي وأبو الفرج المعروف بالببغاء ، ومنهم من كان يتركه ويتجنبه وهو أبو الفضل محمد بن الحسين العميد ، وطريقة غير هؤلاء استعماله مرة ورفضه أخرى بحسب مايوجد من السهولة والتيسير والإكراه والتكلف »[2] . فقد عده ابن خفاجة فيمن تركوه وتجنبوه ، ولم يضعه مع طائفة المراوحين بين الإهمال والاستعمال .

---

(١) الوسيط للأستاذين الإسكندري وعناني ص ٢١٠ .

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع للأستاذ متز ج ١ ص ٣٩٨ نقلا عن ابن خفاجة في مقدمة كتاب الخطب لابن نباتة ص ١٦ — هكذا ذكره متز في كتابه ، وصحة الاسم : الخفاجي . واسمه الكامل أبو محمد عبد الله بن سنان الخفاجي والنص مأخوذ عن كتاب «سر الفصاحة» للخفاجي المطبوع بالرحمانية سنة ١٩٣٢ ، ص ١٦٧ . أما كتاب « خطب ابن نباتة » فقد طبع في مطبعة بيروت سنة ١٣١١ هـ .

ص ١٦٢ : — ذكر المؤلف سبباً لبطء ظهور الفلسفة في الأندلس « أن أهلها نفروا منها لما فيها من زندقة ، وأن ملوكهم كثيراً ما أمروا بإحراق كتب الفلسفة إذا وجدوها » . ولا يمكن أن يكون هذا وحده سبباً لبطء ظهور الفلسفة في الأندلس وتأخرها عندهم إلى أواخر القرن الخامس الهجري ، بل لا بد هناك من علل أخرى قد يكون منها بعد الأندلس عن جداول التفكير اليوناني والفارسي التي انصبت إلى المشرق ، وقد يكون منها بعد الأندلس عن المذاهب العلوية التي ساعدت على ظهور الفلسفة في وقت مناسب بالمشرق . فالأستاذ العقاد يقرر « أن انتشار المباحث الفلسفية لا يستغرب على الخصوص في عصر ابن سينا وفيما وراء النهر وخراسان ، لأن الدعوة العلوية كانت على أقواها في تلك الأطراف النائية »(١) . وقد يكون من العلل أن الأندلسيين أرادوا أن ينافسوا دولة العرب الفارسية في بغداد ، وكان في نفوسهم حفيظة من الأجانب الذين أحلوا الروح الفارسي محل الروح العربي في كل مظهر من مظاهر الحياة العقلية والاجتماعية ، لهذا أراد حكام الأندلس من العرب وخاصة بني أمية أن يكون ملكهم هناك عربيًّا خالصاً ، وأن تكون ثقافتهم عربية إسلامية(٢) ، فلا شأن لها بثقافة الفرس ولا تراث اليونان .

ص ١٨٧ : — ذكر المؤلف « أن ما بقي من نثر ابن الصيرفي الكاتب الفاطمي لا يصوره تصويراً واضحاً » ؛ وكان يستطيع الحكم على نثره مما روي له في صبح الأعشى جزء ٨ ص ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ومن رسالة طويلة له ، وهي نسخة السجل الذي كتبه لما توفي المستعلي بالله الفاطمي وتولى الخلافة ابنه الآمر بأحكام الله . وقد نشرت هذه الرسالة في كتاب « الإشارة إلى من نال الوزارة »(٣) نقلا عن « حسن المحاضرة » للسيوطي .

على أن قصر الرسائل لم يمنع المؤلف من الحكم على طريقة أصحابها الفنية ، فقد حكم على طريقة عبد الحميد الكاتب من رسالة قصيرة له ص ٤٢ ، كما حكم على طريقة ابن الشخباء من بقية من بقايا رسائله ص ١٨٩ .

ص ١٨٠ : — ذكر المؤلف « أننا لا نجد لمصر على عهد الإخشيديين كاتباً مشهوراً يمكن أن نقرنه إلى إسحق بن نصير » ؛ وكأنه بهذا أغفل من قائمة الكتاب المصريين إبرهيم بن عبد الله النجيرمي ، الذي كان رأس الكتاب في عهد الإخشيد ،

(١) ابن سينا للأستاذ عباس محمود العقاد ص ٧ ، ٨ ، ٩ (سلسلة اقرأ رقم ٤٦)
(٢) من محاضرات الأدب العربي في الأندلس للدكتور أحمد ضيف . مطبعة العلوم ص ٤٥ .
(٣) طبع المعهد العلمي الفرنسي بتحقيق الأستاذ عبد الله مخلص ص ١٣ .

وقد قيل فيه إنه كان عالماً بوجوه الكتابة[١] . وذكر السيوطي[٢] نقلا عن ياقوت أن أبا الحسين المهلبي وجنادة اللغوي وجماعة بمصر أخذوا عنه[٣] . وإذا كان النجيرمي بصريًّا بأصله فإنه لا يقل مصرية عن إسحق بن نصير الذي قدم إلى مصر من بغداد للعمل في ديوان الرسائل .

ص ٨٦ : — لاحظ المؤلف « أن أهم الكتاب الذين نموا السجع في القرنين الثاني والثالث كانوا من الأجانب — أي من غير العرب — وعلى رأسهم ... أسرة بنى ثوابة المسيحية » . وقد حاولت أن أرد أسرة بنى ثوابة إلى سنخها الأجنبي غير العربي فما هدتني مصادري التي تحت يدي . ولعل شبهة المؤلف أنها مسيحية ، وهنا يحق لنا أن نسأله : متى كانت المسيحية مانعة من العربية ؟

٢ — مآخذ اللغة والضبط والرواية

في صفحة ١٨٧ : — يقول المؤلف نقلا عن ياقوت : « إن لابن الصيرفي رسائل تقع في أربع مجلدات » . والذي ذكره ياقوت أن رسائله تزيد على أربع مجلدات[٤] .

في ص ١٨٤ : — ذكر المؤلف أن الوزير يعقوب بن كلس الفاطمي خلف بعد موته من المصوغات ما قيمته خمسمائة ألف دينار . والصحيح أن ذلك قيمة ما خلفه من البزّ وهو الثياب أو السلاح[٥] .

ص ١٦٨ : — حاول المؤلف أن يشرح رسالة ابن زيدون الجدية ، وأن يرد الأمثال فيها إلى أصولها من الأمثال العربية القديمة والشعر الجاري مجرى المثل ، ولكنه رد بعض الأمثال وترك بعضها ، ولو أكمل عمله لكان أتم للقصد وأوفى بالغرض .

وقد ذكر في قول ابن زيدون : « والحين قد يسبق جهد الحريص » أنه مثل قديم . ولم يرد هذا « في مجمع الأمثال للميداني » والذي ورد فيه : « الحرص قائد الحرمان »[٦] « والحريص محروم »[٧] . أما ما أورده ابن زيدون فهو نصف بيت للشاعر عدي بن زيد العبادي الجاهلي . والبيت هو :

قد يدرك المبطئ من حظه والحين قد يسبق جهد الحريص[٨]

---

(١) المغرب في حلى المغرب ج ٤ ص ١٨ (٢) بغية الوعاة ص ١٨١

(٣) معجم الأدباء طبعة الدكتور فريد رفاعي ج ١ ص ١٩٨

(٤) معجم الأدباء ج ١٥ ص ٨١ . (٥) الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٣٢ .

(٦) مجمع الأمثال ج ١ ص ٢٢٢ . (٧) مجمع الأمثال ج ١ ص ٢٤٠

(٨) المواهب الفتحية للشيخ حمزة فتح الله ج ٢ ص ١٨٤ .

ولم ينسب المؤلف الشعر الذي أورده ابن زيدون في الرسالة الجدية إلى أصحابه، مع حرصه على التعليق على الرسالة في هامش كتابه. وقد يكون من المفيد هنا أن نذكر ما فاته. فالبيت الآتي: —

كل المصائب قد تمر على الفتى وتهون غير شماتة الحساد

هو من أبيات قالها عبد الله بن محمد بن أبي عيينة يعاتب ذا اليمينين. والبيت الثاني وهو: —

فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً فليقس أحياناً على من يرحم

من قصيدة لأبي تمام يمدح بها مالك بن طوق(١).

ص ١٦٩: — روى المؤلف العبارة التالية من رسالة ابن زيدون هكذا: «وما أراني إلا أمرت بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت» وفي العبارة نقص. وصحتها «وما أراني إلا لو أمرت . . .» بوضع لو بعد إلا، لأن غرض ابن زيدون أن يعلق الجواب في آخر العبارات على شروط تعد من الكبائر.

ص ١٠١: — روى المؤلف عن الثعالبي طرفاً من رسالة أبي العباس الضبي هكذا: «قد أتاني كتاب شيخ الدولتين، فكان في الحسن روضة حزَن، بل جنة عدَن». والصواب حزْن وعدْن بالسكون. أما روضة الحزن فهي الروضة في الأرض المرتفعة وهي أحسن من رياض الخفوض وهي الأرض المطمئنة. وقد وردت روضة الحزْن في معلقة الأعشى في قوله: —

ما روضة من رياض الحزْن معشبة خضراء جاد عليها مُسبل هطِل
يضاحك الشمس منها كوكب شرق مؤزر بعميم النبت مكتهل
يوما بأطيب منها نشر رائحة ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل(٢)

وفي القرآن الكريم «جنات عدْن» لا جنات عدَن . . . .

ص ١٠٦: — نقل المؤلف عن اليتيمة في ترجمة بديع الزمان قوله. «وأدر له خلاف الرزق» والصواب أخلاف الرزق. وفي الأساس مادة «خلف» «ودرت لفلان أخلاف الدنيا»، وهي في الطبعة المصرية من اليتيمه «أخلاف» إلا أن الهمزة خفيفة المداد إلى درجة لا تبين.

ص ١٥٢: — من قول العماد الأصبهاني في الحصكفي الكاتب: «له المذهب

(١) ديوان أبي تمام — المطبعة الأدبية بيروت ص ٢٤٣.
(٢) شرح القصائد العشر للتبريزي — المطبعة السلفية ص ٢٧٦.

المُذهب ، والقول المهذب ، والفهم ، الشهم ، والفكر ، البكر » . وهاتان الفاصلتان بين لفظتي الفهم والشهم ، والفكر والبكر لا محل لهما . وصـواب الترقيم هكذا : « والفهم الشهم ، والفكر البكر » لأن الشهم نعت للفهم ، والبكر نعت للفكر ، ولا يفصل بين النعت والمنعوت بفاصلة ، إلا إذا أراد المؤلف أن يبين عن موطن السجعة .

ص ٦٨ : — يقول المؤلف « ايخيل إليه كأن » والصواب ليخيل إليه أن بغير كاف . وفي ص ٦٩ « يمكن للعقل أن يتصور » ، والصواب يمكن العقل بغير لام. وفي ص ٥٢ « في سبيل إفساح اللغة العربية » والصواب فسح لأن الفعل فسح ثلاثي متعد بنفسه ، فلا معنى لتعديته بالهمزة . قال تعالى . (يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لـكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لـكم)☆

وفي ص ٣٧ « فيختارونه من القاموس اللغوي » والصواب المعجم اللغوي ، لأن القاموس علم على كتاب بعينه في اللغة .

٣ — مآخذ الأسلوب

لقد ارتفع المؤلف بأسلوبه في الـكتاب إلى مرتبة تذكر القارىء بمذهب الصنعة السليمة الذي هو أنقى المذاهب الفنية الثلاثة التي كانت موضوع الـكتاب ، وليس غريباً من الدكتور شوقي ضيف ، وهو يدرس مذاهب الفن في النثر العربي ويتعمق في أصولها ، أن يتحرى لنفسه في الـكتابة أصفاها طريقة ، وأطبعها مذهباً ، وأبعدها من التكلف ، إلا أنه يتكلف الأسماء أحياناً كأنما يدل على قارئه بثروة لفظية . أسمعه وهو يستعمل لمعنى واحد هذه التعابير . الجمال الصوتي ، الترادف الصوتي ، التعادل الصوتي ، الموازنات الصوتية ، المعادلات الصوتية ، التوقيع الصوتي ، الإيقاع الصوتي ، التوازن الصوتي ، التقطيع الصوتي ، التلوين الصوتي ، التحاسين الصوتية ، وقد كثرت هذه هذه التعابير في عدد محدود من الصفحات .

أما التكرار فغالب على أسلوب الـكاتب إلى حد يسيء معه القارىء الظن في تقدير المؤلف لفهم قرائه . . . ! وقد عالل هو للتكرار عند الجاحظ بأنه كان يملي على شخص أو أشخاص لمرضه ، فكيف يعالل للتكرار عند نفسه وقد أضفى الله عليه العافية ؟ ؟ !

محمد عبد الغني حسن

☆ سورة المجادلة آية ١١ .

التعريف

نابليون ومحمد علي

تأليف الأستاذ عزيز خانكي بك

٥٣ صفحة من القطع الكبير . المطبعة العصرية . القاهرة ١٩٤٦

لقد كان عاهل مصر الكبير محمد علي معجباً أشد الإعجاب بنابليون عاهل فرنسا ومحور السياسة الأوربية في القرن التاسع عشر . وبلغ من إعجاب العاهل المصري بالعاهل الفرنسي أنه جاراه في كثير من فنون الإصلاح التي أدخلها إلى بلاده . وكان يتتبع سيرة حياته باهتمام عظيم، فأمر بترجمة كتاب « تاريخ نابليون بونابرت » وهو مذكراته التي أملاها بنفسه حينما كان منفيًّا في جزيرة القديسة هيلانة ، كما أمر بترجمة كتاب آخر عن حياة القائد الكبير ألفه دوق روفيجو "Duc de Rovigo" وقد ترجم الكتابان عن الفرنسية إلى التركية[١].

وكأن الأقدار التي جمعت بين العاهلين الكبيرين في عصر واحد وفي فترة من الزمن ملأى بالحوادث الجسام ، أرادت أن تربط بينهما بوجوه كثيرة من الشبه ، حتى في تاريخ ميلادهما . . فقد ولدا في عام ١٧٦٩ .

وعجيبة هذه الأقدار التي ربطت مصير محمد علي في مصر بحملة نابليون عليها ، فلولا مجيء نابليون إلى مصر لاحتلالها ما جاء محمد علي لإخراجه منها . . .

ووجوه الشبه بين البطلين كثيرة ، حتى كأن القضاء كاد يصبهما على غرار واحد . . . وهي وجوه أخذ المؤرخ الكبير عزيز بك خانكي يتعقبها في البطلين ، فأخرج منها ما يزيد على مائة وجه . وهي وجوه لم يتعسّفها المؤلف أو يتلمسها تلمساً حتى تتم له بذلك الموازنة التي يرمي إليها بين حاكم شرقي وآخر غربي . . . ولكنه ما يكاد يرى ظاهرة من الأمر في حياة نابليون حتى يرى نظيرها في حياة محمد علي . فقد شاكهت بينهما الأقدار في بناء الجسم وبناء الروح ، وشاكهت بينهما في النشأة المتواضعة ، وفي الآمال الكبيرة الطامعة . . . وشاكهت بينهما أكثر من ذلك في أمور من الحياة ؛ فكلاهما ضابط في جيش بلاده ، وكلاهما مات أبوه وكفله عمه ، وكلاهما بويع بالإجماع من شعبه ، وكلاهما من أصل أجنبي عن الدولة التي حكمها ، وكلاهما أنشأ إمبراطورية عظيمة ، وكلاهما فكر في حفر قناة السويس ، وكلاهما فكر

في إنشاء القناطر الخيرية ، واستقل محمد علي بتنفيذها . وكلاهما حاربته إنجلترة وأعلنت الحرب عليه تركية . وكلاهما كان يحب لعبة الشطرنج حبًّا جمًّا .

ولو أخذنا نعد أوجه الشبه بين البطلين لضاق بنا النطاق عما اتسع له كتاب المؤلف . ولقد ذكر المؤلف أن نابليون كان يكره المحامين وأن محمد علي كان يكرههم أيضاً ، والطريف أن خانكي بك محام ...! ولكننا لا نشك في أن محمد علي ونابليون كانا ينقلبان إلى حبه لأنه سجل نواحي هامة وطريفة من حياتيهما أبدع تسجيل ...

حرب البترول في الشرق الأوسط

تأليف الدكتور راشد البراوي

١٦٩ صفحة من القطع الكبير . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة ١٩٤٦

قضى الله أن يكون الشرق الأوسط مشهداً لصراع دولي لاعتبارات سياسية كثيرة ، وأول هذه الاعتبارات غنى هذه الأرضين بمنابع البترول التي وجهت أنظار الطامعين إلى بقع أبكار ومنابع أُنُف كالمرعى الذي لم تسرح فيه السوائم بعدُ ...

ولقد كان البترول عاملاً فعالا في كسب المعركة العالمية الثانية ؛ وهي حرب لم تكسبها صواهل الخيل ولا أعنة الفرسان كما كان الشأن في حروب الفروسية الأولى وفي عصور الإقطاع ، ولكن كسبتها القوات الميكانيكية المصفحة وكسبتها الطائرات التي تعتمد إلى حد كبير على الوقود وعلى منتجات البترول التي كان يملك الحلفاء منها قدراً كبيراً .

ولقد كان متوقعاً في أواخر القرن التاسع عشر أن يقضي إختراع المصباح الكهربي على صناعة البترول الناشئة بالانهيار ، وأن يُحكم على النفط بالموت في ميدان الإضاءة التي فتح « أديسون » بها مسالك أفق جديد . ولكن المحرك الذي يدار بالبنزين والذي اخترعه « جوتلب » أحيا الأمل أمام صناعة البترول في إدارة المحركات .

ومن هنا اتخذ البترول في الصناعة شأناً آخر ، وتنافست شركات الاحتكار في نيل الامتيازات في كل مكان . وصار البترول عنصراً جديداً هامًّا في السياسة الدولية .

ولقد صارت الدول الكبيرة تزدحم على الشرق العربي وتعترك في السر والعلن ، وتتقرب إلى الدول التي تملك آبار النفط وتخطب ودها بأساليب لم ير المؤلف بدًّا من عرضها وتبصير رجال الشرق العربي بها ، حتى لايكونوا على جهل بصراع هم الطرف

الأول فيه ، وحتى لايكونوا على حال كحال القبيلة العربية (تيم) التي يهجوها الشاعر بقوله:

ويقضى الأمر حين تغيب « تيم » ولا يستأذنون وهم شهـــود

ومن هنا كان هدف الدكتور راشد البراوي أن لايجعل من العرب اليوم « تيما » أخرى ، وأن يبصرهم بما يقع على عينهم حتى يعدوا للأمر عدته في عالم لا يعيش فيه إلا القوى المتوثب ، لا الضعيف المتهيب ...

خُطب

تأليف الدكتور شارل مالك

٦٨ صفحة من القطع الصغير . دار الكتاب . بيروت ١٩٤٦

الدكتور شارل مالك من رجال الفكر العربي الذين يمتازون بالهدوء والتفكير المستقيم والعمـــل في صمت ، لأنه اشتغل بالتدريس في الجامعة الأمريكية ببيروت ، في ميدان يسمح للعاملين أن يعملوا في غير ضجيج ؛ فكانت الألفة بينه وبين طلابه في الجامعة ، وبينه وبين قرائه في خارج الجامعة ألفة الروح الإنساني النبيل .

وأخيراً خرج الدكتور مالك — أو أخرج — من صومعته العلمية الهادئة ليصطرع في ميدان السياسة حيث اختير وزيراً مفوضاً للبنان في عاصمة الولايات المتحدة .

وظن بعض الناس أن العلماء لا يحسنون السباق في غير مضمار العلم ، وأن عزلتهم ونسكهم العلمي يبعدهم عن حسن التأتي لأمور هذا العالم المضطرب ، ولكن الدكتور مالك خيب ظن هؤلاء ، فإذا هو وزير ناجح في بلاد بعيدة ، بينها وبين الشرق العربي أميال وأشواط من الفهم للحياة والتقدير للقيم ، وإذا العالم الهادئ الحكيم يلتقي مع السياسي الفطن في شخص ممثل لبنان القديم وسفيره إلى العالم الجديد ...

ولم يكن الدكتور مالك منطوياً على نفسه أو مؤثراً الصمت في بلاد يحتاج فيها المرء إلى الكلام ؛ فتكلم في أمريكا بكل مجتمع ، وخطب على كل منبر ، وألقى أمام رئيس الولايات المتحدة خطبة عند تقديم أوراق اعتماده ، وتحدث في مؤتمر سان فرنسيسكو ونطق لبنان على لسانه في مؤتمر الأمم المتحدة ، وأسمع لبنان المغترب صوتاً من لبنان المقيم . ودعا طلاب العلم اللبنانيين في أمريكا إلى التعرف إلى الحياة الأمريكية تعرُّفاً عميقاً ، فليس هناك أخطر من المعارف السطحية .

وقد جمع الدكتور مالك في مواقفه الخطابية بين وعي الفيلسوف ونظر السياسي

هادفاً إلى الغرض النبيل والقصد الجليل من أقرب سبيل ، فلا تراه متثرثراً ولا متشدقاً ولا متفيهقاً ، ولكنه حكيم يزن الكلام ، وخاصة أنه في عمل سياسي خطير يحاسب فيه المرء على اللفظة ويؤخذ فيه بالظنة ...

ولكن شارل مالك كان وزيراً موفقاً وخطيباً موفقاً ، ولم يخرجه حرص السياسة عن أن يصرح بآمال قومه وأن يعبر عن آراء بلاده في غير التواء .

وحسبه أنه أدى ما عليه لبلاده ، وأنه كان صوتاً من الأصوات العربية التي نود أن ينصت الغرب لها في هذا المزدحم الجديد ...

يقظة العرب

تأليف المرحوم جورج أنطونيوس

ترجمة الأستاذ علي حيدر الركابي

٤٦٢ صفحة من القطع المتوسط . مطبعة الترقي . دمشق ١٩٤٦

يقول مؤلف هذا الكتاب المرحوم جورج أنطونيوس في مقدمته إنه « لا يرمي إلى تدوين التاريخ النهائي لليقظة العربية . . . بل إلى رسم الخطوط الكبرى لأصول تلك الحركة » ، هذه الحركة التي مهدت تربتها ، وبذرت بذورها ، ونبت نبتها ، ونضج حبها ، وتم حصدها في خلال نصف قرن ، لا بأفاعيل طافرة ، أو وثبات غير متزنات ، بل بعزيمة جبارة ومثابرة عنيدة ، مستمدتين من إرادة أمة موحدة ، لها في بطون التاريخ فصول كتبها أجداد عباقرة ، أسمعوا الدنيا نداءهم ، ولقنوا العالم تعاليمهم ، وما هؤلاء الأحفاد سوى جيل وبعض الجيل من أبناء الشآم ، أيقظتهم حركة الانقلاب العثماني عام ١٩٠٨ فاستنهضتهم ، فنهضوا إلى العمل .

ومؤلف الكتاب عالم بحاثة بفطرته ، لا يؤخذ بالظواهر فيعود إلى البواطن ، ولا تجذبه الفروع في الشجرة ولا الجذور المطمورة في التربة ، بل يرضيه أن يفتش عن مصادر غذاء تلك الجذور ، ليعلم الدواعي الباعثة على تغذية تلك الشجرة وما هي الغاية منها ، فقد عاد بالقراء إلى البذور الأولى ، إلى الفواصل بين الدعوة إلى العروبة والدعوة إلى الإسلام والصلة الروحية بينهما ، ثم إلى الفتح العثماني فذكر العوامل التي دفعت بجماعة « الاتحاد والترقي » الذين خلعوا السلطان عبد الحميد الطاغية ليقيموا

أنفسهم طغاة مثله ، فكانت هي نفسها عوامل فعالة دفعت الأمة العربية إلى عمل إيجابي وهو بناء دولة عربية لحماً ودماً .

وأشار إلى موقف الإنجليز من محمد علي وصدهم إياه عن تأليف المملكة العربية . وقد خلص من هذا البيان المقتضب إلى ذكر تأليف جمعية أدبية في بيروت قبل مستهل هذا القرن ، كان النصارى هم القائمين بها ، فما لبثت أن دخلها المسلمون والدروز ، ويقول إنها كانت البذرة الأولى لنهضة الفكر القومي .

ويمضي المؤلف البارع في سبيله ، يتتبع سير الحوادث ، حتى اتقدت نيران الحرب العالمية ١٩١٤ ، فيذكر مجيء الشريف عبد الله إلى مصر ، وتحدثه إلى كتشنر والعروض التي تقدمت للانتقاض على الحكم التركي ، ومخاوف الإنجليز من عواقب إعلان الترك للجهاد الديني ، وقيام هؤلاء فعلا بإعلانه ، ونشر الراية المحمدية ، ووقوف سورية على مفترق الطرق ، توازن بين الوقوف إلى جانب الأتراك وبين شد عضد الشريف حسين المتحفز للثورة ؟

ويعرج المؤلف على ذكر العهود التي قطعتها بريطانيا العظمى للشريف ورسائل مكماهون ، واتفاق سيكس بيكو ، ورسالة بلفور إلى الملك حسين ؟ ومفاوضات لويد جورج للصهيونيين ، ووعد بلفور إياهم ، ثم التصريح البريطاني الفرنسي ، واحتلال الفرنسيين دمشق ، ومؤتمر القاهرة ، وأعمال لورنس ، والانتدابات على العراق ولبنان وسورية . وقيام الثورات متعاقبة في سورية . ثم يأتي دور عقدة فلسطين ، وحق العرب وادعاء اليهود ، وهي العقدة الباقية تنتظر الحل العادل .

اضطلع بترجمة هذا السفر النفيس الأستاذ علي حيدر الركابي فحق له الشكر والثناء يسديه إليه كل عربي بعد إذ يسر لأبناء العربية مراجعة سجل حياتهم ، وقد سلكوا فيها مسالك بناة الملك .

٤٠ يوماً في لندن

تأليف الأستاذ عبد الرزاق الهلالي

١٣٦ صفحة من القطع المتوسط . مطبعة الرشيد . بغداد ١٩٤٦

ندب مؤلف هذا الكتاب في مهمة تتعلق بالتربية البدنية ، وكان عليه أن يشهد لأول مرة في حياته إنجلترة ، وأن يدرس في مدى قصير ما جد من أساليب الرياضة البدنية بعد الحرب العالمية الثانية .

ولقد أقام المؤلف في لندن وما حواليها أربعين يوماً ، وهي فترة قصيرة من الزمن لمن يريد أن يكتب عن مدينة كلندن ذات الطول والعرض . ولكن المؤلف لم يشأ أن يكون في كتابه هذا مؤرخاً للندن ولا جغرافيًّا لها . ولكنه كان زائراً طلعة دقيق الملاحظة ، متفتح الأحداق على ما في بيئة جديدة عليه ، وحضارة غريبة عن حضارة بلاده .

وكأن به عيناً موكلة بكل مشهد جليلا كان أم صغيراً ، فخرج من هذه المشاهد التي لم تفتها عينه بصور متعددة بعضها مبهج سار ، وبعضها قاتم بعض الشيء . إلا أنها في مجموعها صور حية ناطقة للحياة التي يحياها الإنجليز اليوم في بلادهم .

ولم يقصد المؤلف من كتابه أن يكون أدباً في الرحلات ، وإنما هو مشاهدات عابر ، ونظرات سائر ، سجلها صاحبها أول الأمر في إحدى صحف العراق ، ثم جمعها أخيراً بين دفتي كتاب .

صَدَى النَّقد

حضارة العرب

رد على رد

بقلم الأستاذ محمود اللبابيدي بحلب

جاءنا من الأستاذ محمود اللبابيدي رد على رد الأستاذ عادل زعيتر قال فيه بعد المقدمة :

لقد اختار السيد عادل زعيتر للاعتراف بالألفاظ والجمل التي حذفها أو عدلها أو زادها ، أدق التعابير ، بحيث لا يفجأ القارئ باعتراف بارز صارخ ، بل يديره حتى يصبح اعترافاً مؤولا ، وبذلك يخف وقعه في نفس القارئ ، وهو منتهى البراعة .

١ — قال عنا حفظه الله :

[يزعم جنابه أننا حذفنا قول لوبون : « ومع أن القرآن نزل وحياً من الله على محمد ، فإن هذا الكتاب المقدس ضعيف الارتباط بعضه ببعض » أفلم يقرأ في الصفحة ١٢٩ من الترجمة : « والقرآن قليل الترتيب ... وسبب قلة ترتيبه أنه أنزل بالتدريج تبعاً لمقتضيات الزمن ... » أفلم يعلم أن الإنزال هو بمعنى الإيحاء ، كما جاء في كتب اللغة ؟ فأين الحذف إذن ؟ »]

إن الأستاذ عادل زعيتر يريد أن يوهم القارئ أن الخلاف بين الناقد والمعرب هو في لفظ الإنزال بدلا من الإيحاء ، والحال أن خلافنا معه هو أن سعادته حذف الجملة الأولى برمتها من الطبعة العربية . وفي الواقع إن جملته « والقرآن قليل الترتيب ... الخ » لاعلاقة لها بالجملة التي قبلها ، لأن كلاً منهما في الأصل الفرنسي مستقلة عن الأخرى . ويظهر أن المعرب حذفها لأنه على حد اعترافه (في الفقرة ب من رده ص ٤٧٦) أن المؤلف كثير التكرار في غير موضع ، فلعله كان حذفه للتكرار . وهكذا لا يعترف المؤلف بالحذف إلا من طرف بعيد ، حتى لا يؤخذ الاعتراف الصريح حجة على تصرفه ، وحتى ينفسح المجال أمامه للتهرب إذا لزم الأمر . فهل كان المعرب محقًّا في تصرفه بالحذف على الصورة المذكورة ؟ إن المعرب أمين وليس له أن يتصرف في كلام المؤلف ولو كان فيه تكرار . والقارئ اللبيب يفهم روح المؤلف من عبارته المحذوفة التي تعمد المعرب حذفها ، لا للتكرار ، بل لأمر مفهوم في العبارة المحذوفة .

ب — قال هنا :

[إذا حذفنا كلمة : « لم يكن محمد فيلسوفاً » من كلمة « لم يكن فيلسوفاً أي من نمط مؤسسي دين البراهمة ، والديانة البوذية » فلاعتقادنا أن المؤلف قصد بقوله « لم يكن محمد فيلسوفاً » أنه « لم يكن من نمط مؤسسي دين البراهمة » اقتصرنا على التفسير الذي أراده المؤلف ، والمؤلف — كما نعلم — كثير التكرار في غير موضع . ولم يفتنا أن نترجم قول المؤلف بعد أن سرد ماجاء في كتب البراهمة « ولكن أقوالا مجردة مثل تلك ، لا تنفع غير الفلاسفة » فأوردنا بذلك ماقصده المؤلف من نفي صفة الفيلسوف عن الرسول . والمؤلف قد ترجمنا له قوله في الصفحة ٦٣٨ « وقد يكون فيما جاء به محمد ... من المبادئ اللاهوتية مايبتسم منه ... إلخ » فمن ذلك يرى الأستاذ اللبابيدي أن رأي المؤلف ظل كما هو في كتاب « حضارة العرب » .]

ومن يقرأ هذه الفقرة بإمعان يجد فيها عجائب وغرائب .

١ — لم يشأ المعَرب أن يعترف صراحة بالحذف التام الذي أوقعه قلمه قصداً تبعاً لخطة مرسومة في جملة طويلة خطيرة تتعلق برأي المؤلف الفرنسي في الموازنة بين محمد كمؤسس لديانة شرقية كبرى هي الإسلام ، وبين براهما وبوذا مؤسسي ديانتين شرقيتين كبيرتين هما البراهمية والبوذية . فقال في الأصل الفرنسي ما تعريبه من غير تصرف : « ولم يكن محمد قط ، من كبار الفلاسفة ذوي التفكير العميق ، من نمط مؤسسي دين البراهمة والديانة البوذية » . هذه هي الجملة الخطيرة التي محا أثرها المعرب محواً وعفى

عليها . وليس كما أراد أن يوهم ويغالط؛ فإنه فرق كبير بين أن تقول : « ولم يكن محمد قط من كبار الفلاسفة ذوي التفكير العميق من نمط براهمة وبوذا » وبين أن تقول : « ولم يكن محمد من نمط براهمة وبوذا » !

ويلاحظ القارىء كيف أن المعرب يشوه التلخيص فلا يأتي بالنص كاملا ، ليوهم أن تصرفه لاقيمة له ، ولا يستحق عناية الناقد ، كما يلاحظ القارىء كيف أنه يستعمل الغرض في الحذف فيقول : « إذا حذفنا كلمة » ليخفف من وقع الاعتراف الذي أكره عليه ، وهي براعة نشهدها له ولا نبخسه حقه فيها .

٢ — ثم إنه يعترف بأن تعريبه لهذه الجملة كان مقتصراً على التفسير الذي أراده المؤلف من غير أن يكلف نفسه تعريب عبارة المؤلف كما وردت ؛ لأن المؤلف — على حد تعبيره — كثير التكرار في غير موضع . وهذا الاعتراف الخطير يسلمنا إلى البحث في سلامة ترجمة الكتاب برمته ، ويدفعنا إلى المطالبة بإلحاح بتأليف اللجنة التي رجونا من أولي الشأن تأليفها كي تعيد النظر في ترجمة هذا الكتاب النفيس .

٣ — ثم لا أدري ما قيمة استشهاد المعرب في جملة ذكرها المؤلف ، حتى ينقلنا من الصفحة ١٢٩ إلى الصفحة ٦٣٨ دفعة واحدة ؟ أليس هذا موضع العجب والغرابة في الاستشهاد بالحرص على التعريب . ويكفي أن نسجل أننا أمام نص خطير محذوف ، وقد اعترف المعرب بحذفه مع اعترافات خطيرة أخرى لم يفتنا التعليق عليها .

ولا بد أن نشيرهنا إلى أن هذا الحذف وأمثاله يكاد يكون من نوع واحد ، وهو ما يخدش إحساس العرب والمسلمين . ومن هنا حكمنا أن المعرب يسير على خطة مرسومة لإخراج الكتاب خلواً من هذه المخدشات .

حـ — نأتي الآن إلى محاولة المعرب ، أن يوهم أن المؤلف قد قصد بكلمة « المنطق Logique » المحذوفة « الترتيب L'ordre » الواردة جنباً إلى جنب في جملة واحدة ، هي كما جاءت في الأصل الفرنسي وما ترجمته من غير تصرف هكذا :

« إن أسلوب القرآن ، وإن كان ممتازاً أحياناً ، إلا أن الترتيب والمنطق فيه معدومان غالباً » . ولكي لانترك مجالا للأخذ والرد والظن والتأويل ، نعيد نشر النص الفرنسي الأصلي نقلا عن الصفحة ٩٤ من الطبعة الفرنسية :

"Le style en est parfois remarquable, mais l'ordre et la logique y font fréquemment défaut".

فانظر كيف يدافع المترجم عن تصرفه المقصود في حذف كلمة « المنطق » من هذه الجملة . قال المعرب :

[إن المؤلف حين ذكر كلمة : « والقرآن قليل الترتيب والمنطق غالباً » قصد « الترتيب» بكلمة « المنطق » ؛ أي أنه سرد تينك الكلمتين على اعتبار أنهما مترادفتان كما عليه قوله بعد ذلك : « وسبب قلة ترتيبه أنه أنزل بالتدريج » . ومن معاني كلمة Logique تتابع الكلام وسياقه ، كما جاء في الجزء الأول من القاموس الفرنسي العربي للآباء اليسوعيين ، فإذا حذفت إحدى الكلمتين المترادفتين ، فإن ذلك لايعني حذف رأي للمؤلف ، بل يعني دفع الالتباس . والمؤلف لم يقصد هنا المعنى الفني من كلمة « المنطق » كما هو ظاهر .

« ومن أغرب مارأيته من تجني السيد اللبابيدي ، قوله إننا لم نلاحظ ماتهافت عليه المؤلف من أنواع المنطق في كتاب « الآراء والمعتقدات » الذي نقلناه إلى العربية أيضاً . وإن المؤلف لم يذكر في « حضارة العرب » نوع المنطق الذي أراده من تلك الأنواع المنطقية ، فليعلم جنابه أن العلامة لوبون وضع كتاب « الآراء والمعتقدات » بعد كتاب « حضارة العرب » بنحو ثلاثين سنة ، وأنه لم يهتد إلى وجود أنواع كثيرة للمنطق إلا في كتاب « الآراء والمعتقدات » وأنه لم يشر إلى هـذه الأنواع المنطقية في الكتب الاجتماعية الكثيرة التي ألفها في أثناء تلك السنوات الثلاثين ، فذكر المؤلف في كتاب « حضارة العرب » لكلمة « المنطق » مع عدم ذكره لنوع هـذا المنطق فيه ، يؤيد وجهة نظري القائلة، أنه أراد بـ « المنطق » « الترتيب » .]

هكذا يدافع المعرب عن تصرفه ، فيمعن في الإصرار على أن كلمتي « المنطق » و« الترتيب » في عبارة المؤلف ، كلمتان مترادفتان ، لا أكثر ولا أقل . وأما مستنده فهو أن من معاني كلمة Logique تتابع الكلام وسياقه ، وأن حذفه لإحدى هاتين الكلمتين المترادفتين كان لدفع الالتباس ، ولا يعد حذفاً لرأي من آراء المؤلف .

١ — لا أدري هل كان المعرب على بينة مما يقول . فقد قال ، ولكن لم يسعفه المنطق ولا ساندته الحجج : إن كلمتي Logique و Ordre كلمتان مترادفتان ، فحذفه إحداهما اكتفاء بالأخرى لايضير . ونحن مع إنكارنا سلفاً هذا الترادف في كلمتين متباينتين جد التباين، رجعنا إلى المصدر الذي توكأ عليه ، وهوقاموس الآباء اليسوعيين ، فإذا بنا نجد المغالطة هنا أكثر ظهوراً من أي مكان آخر . فالمعرب يقول إن قاموس الآباء يقول : إن من معاني Logique تتابع الكلام وسياقه ، مع أننا وجدناه يقول غير ذلك !

إن الفقرة التي استند إليها المعرب ، هي الفقرة الثالثة من معاني هذه الكلمة ، والفقرة الثالثة هي بالحرف الواحد Suite dans les idées ومعناها تسلسل الأفكار ،

تسلسلاً منطقيًا برهانيًا . وعبارة الآباء العربية التي وضعت بجانب الفقرة الفرنسية المذكورة هي « تتابع الكلام أو البراهين » أي ولا شك ، تتابع الكلام البرهاني ، أو البراهين نفسها ، وليس كما نقل المعرب تتابع الكلام وسياقه ، مغفلاً ذكر «أو البراهين» التي تفسر ما قبلها ، لأن من الكلام ما يكون برهانيًا وما لايكون ، فنقل لمعرب النص هنا أيضاً مشوهاً ناقصاً وأداره على هواه .

٢ — أما قول المعرب إنه بحذفه كلمة « المنطق » من عبارة المؤلف ، لايدل على حذف رأي للمؤلف ، فقد دل الدليل القاطع على أن هذا الحذف ، حذف لرأي خطير للمؤلف ، وهذا الحذف يكشف الستر عن سر الخطة المرسومة التي انتهجها المعرب .

٣ — وأما أن المؤلف لم يقصد في عبارته المعنى الفني لكلمة « المنطق » فإنه مما لاجدال فيه أن كلمة « المنطق » لاتحتمل معنيين ، أحدهما فني والثاني غير فني ، بل لها معنى واحد هو المعنى المألوف المعروف .

٤ — ومما يحير ، ويؤسف له في آن واحد ، أن تبلغ المغالطة وتشويه الحقائق عند المعرب حدًّا يتهمنا معه بأننا ذكرنا بأن مما تهافت عليه المؤلف أنواع المنطق التي ذكرها في كتابه « الآراء والمعتقدات » ، مع أننا من المعجبين باهتداء المؤلف إلى هذه الأنواع من المنطق إعجاباً لا محل لبيان مداه هنا . على أن الذي قلناه هو تهافت المؤلف فيما ذكره عن ضعف منطق القرآن في كتابه « حضارة العرب » لا فيما قرره من أنواع المنطق في كتابه السابق الذكر ، ولهذا لفتنا نظر المعرب إلى أنه لم يلاحظ هذا التناقض باعتباره معرب الكتابين ، وعبارتنا في ذلك صريحة لا تقبل التأويل .

٥ — أما قول المعرب : إن سبب عدم ذكر المؤلف لنوع المنطق الذي قاس به ضعف منطق القرآن ، فلأن أنواع المنطق التي اهتدى إليها المؤلف وضمنها كتابه « الآراء والمعتقدات » قد تأخر ثلاثين سنة ، بدليل أن هذا الكتاب لم يظهر إلا بعد انقضاء هذه المدة على ظهور كتاب « حضارة العرب » ، وبدليل أن هذه الأنواع من المنطق لم تظهر في الكتب الاجتماعية الكثيرة التي ألفها الدكتور لوبون ، وقد جعل ذلك حجة في تأييد رأيه السابق أن المؤلف لم يرد بكلمة « المنطق » إلا « الترتيب » .

إن قول المعرب هذا غير صحيح من وجوه كثيرة . ذلك أن رمي القرآن بضعف المنطق ، لايستلزم معه أن يكون الدكتور لوبون صاحب هـذا الرأي جاهلاً أنواع المنطق التي عددها في كتاب ألفه متأخراً . أما استدلال المعرب على جهل الدكتور لوبون لأنواع المنطق هـذه ، من عدم ذكر هذا المنطق وأنواعه في كتبه الاجتماعية ،

فلا يعتبر دليلاً يعتد به ؛ لأن من يقرأ تلك الكتب الاجتماعية يشعر شعوراً واضحاً بأن مؤلفها كان يصدر آراءه كمن يعرف تلك الأنواع من المنطق معرفة واضحة دقيقة ، ولو لم ينص عليها كما فعل في كتابه « الآراء والمعتقدات » .

ومما يسعفنا في دعم هذا الرأي ، هو أنك إذا رجعت إلى « المقدمة » من كتاب المؤلف « الحضارات الأولى Les premières civilisations » ، وهو مما ألفه في فترة تأليفه كتاب « حضارة العرب » ، وجدت فيه كل النظريات التي قال بها فيما بعد في سائر كتبه ؛ لأن الرجل كان يعتمد في كتابة تاريخ الأمم وحضاراتهم على قوانين علم النفس ومبدأ النشوء والارتقاء . ومن قوانين علم النفس استطاع أن يفهم عقلية الإنسان مجتمعاً ومنفرداً ، كما استطاع أن يقرر أنواع المنطق التي تؤثر في الفرد ولا تؤثر في المجموع وبالعكس ، واستطاع أن يقول هناك المنطق الديني والمنطق العلمي والمنطق السياسي و . . إلخ . وأنواع المنطق هذه وإن لم يذكرها في كتبه الاجتماعية ، إلا أن آراءه كانت تصدر على مقتضاها ، وهذه كتبه واضحة في هذا الشأن . أما عدم ذكرها هناك فلأن لها تأليفاً خاصًّا يدرجها فيه وقد فعل .

لهذا ، ولأن المؤلف ممن يقولون بضعف منطق القرآن ، وهو الرأي السائد في دوائر المستشرقين ، وهو رأي إجماعي أو يكاد يكون إجماعياً (انظر مادة قرآن في دائرة المعارف الإسلامية ج ٣٤ ص ١١٢٨ فقرة ٦ عمود ٢ الطبعة الفرنسية نقلاً عن نلدكه) فإني ما زلت على رأيي في أن الدكتور لوبون قرر في عبارته الآنفة الذكر ، أن منطق القرآن ضعيف غالباً كترتيبه ، وأن معربه السيد زعيتر حذف هـذا الرأي تبعاً لخطته المرسومة التي تكلمنا عنها في نقدنا السابق بما فيه الكفاية .

ولا سيما أن الدكتور لوبون على نجاحه في التجرد والتخلص من الانسياق في تيار الكره للعرب ولحضارتهم ، لم يسلم من الوقوع في بعض المزالق على حصافته ودقته في محاسبة نفسه عند وزنه الأمور المتعلقة بالحضارة العربية ، وهو نفسه قد اعترف بذلك في كتابه المذكور ، ولهذا فإن محاولة المعرب إبعاد هذا الرأي عنه بطيه لا يغير الواقع .

ى ـــ ينكر المعرب إنكاراً شديداً ويتبرأ من أن يكون سار على خطة مرسومة من قبل ، في ستر آراء المؤلف التي يمكن أن تخدش شعور المسلمين ، وتحدث النفرة عندهم . وقد دافع عن تلك الآراء التي حذفها وحورها بدفاع كشفنا عن مواطن الضعف فيه ، مع العلم أننا قد تسامحنا معه في كثير من الأمور ، فعرضنا لبعض وأشرنا لبعض آخر إشارة خفيفة وسكتنا عن بعض سكوتاً تامًّا . فمما سكتنا عنه تماماً مع أنه مهم

اكتفاء بالأهم ، ماجاء تتمة لعبارة المؤلف التي نحن بصددها في الفقرة السابقة . ففي الحقيقة لم يقف الأمر عند طيه رأي المؤلف في منطق القرآن ، بل طوى شيئاً آخر ، لم ير ظهوره في الطبعة العربية مستساغاً وهو قول المؤلف : « إنه بفضل اتصالات محمد بالملاك جبريل ، كان ينزل بالوحي من جديد لإنقاذ محمد من الارتباك ، في كل الأوقات التي كانت تبرز فيها إحدى الصعوبات ... » فجور العبارة على صورة لاتدع مجالا لذكر الملاك جبريل ولا لذكر حادث الإنقاذ من الارتباك والمصاعب Le tirer d'embarras (ط.ف.ص ٩٤ — ط . ع.ص ١٢٩) ولا أدري إن كان ينكر علينا طيه ذكر الملاك جبريل ونزوله لإنقاذ الرسول من المصاعب والمشاكل التي كان يصادفها . ولعله يستعمل الكليشه المعروفة فيقول « دفعاً للالتباس » قد طوى ذكره !

هـ — وهنا يقول المعرب : [« إن المؤلف لم يقصد بكلمة Exagération orientale سوى فرط المبالغة ، لا المبالغة الشرقية ، كما يتوهم السيد اللبابيدي ، وليسأل جنابه من يجيدون اللغة الفرنسية ممن اختلط بالفرنسيين إذا ما أراد . فإذا اتخذنا كلمة « الغلو » بدلا من الكلمتين ، فلدلالتها على المعنى الذي قصده المؤلف ... ومن يطلع على مقاصد المؤلف الحقيقية يعلم أنه أكبر من أن يهبط فى تفكيره إلى الزعم بأن تعظيم العرب للقرآن هو أثر مبالغة شرقية » .]

١ — قلنا قبلا : إن المعرب يعمد إلى التلخيص المشوه ليتخلص من قسوة الواقع ، الذي لا سبيل إلى إنكار حقائقه الواضحة . وهنا أيضاً قد فعل ذلك ، إذ عمد إلى مسخ العبارة فحذف منها كلمة tout التي تؤكد قصد المؤلف الذي ذهبنا إليه .

ولكي نكشف عن مغالطة المعرب بما لاسبيل إلى إنكاره ، نأتي بأصل عبارة المؤلف التي أشرنا إليها في نقدنا إشارة خاطفة ، اكتفاء بالتلميح عن التصريح ، فكان ذلك سبباً لإمعان المعرب في التجاهل .

قال المؤلف ماتعريبه من غير تصرف (ص ٩٤ — ٩٥) : « وهـذا الرأي (أي اعتبار العرب القرآن أفصح كتاب عرفه الإنسان) هو أثرجلي لمبالغة شرقية بحتة»

وعبارة الأصل هكذا : « Cette opinion, est évidemment emprunté d'une exagération tout orientale » .

وهذه العبارة بما فيها من التعليل والتأكيد تجعل المعرب في موقف خطر وتزيد القارىء اقتناعاً بأنه يسير في تعريبه على خطة مرسومة في إخفاء آراء المؤلف والتخفيف من صراحتها ، لكي لايؤذي — في زعمه — شعور المسلمين .

٢ — ثم لا أدري ماشأن المعرب في أن يذهب دوماً إلى تقدير مقاصد المؤلف التي يسميها المقاصد الحقيقية ، حتى يضطر لاستبدال كلمتين من كلمات المؤلف في مقابل كلمة واحدة على حد مايقول ! ألا يعد عمله هذا على أقل تقدير ، تحكما في أسلوب المؤلف وآرائه ؟ قد يكون المؤلف قد قصد الغلو والغلو وحده ، كما يقول المعرب ، ولكن هل يسمح هذا القصد ، على فرض تقديره ومعرفته ، أن يغيّب المعرب عن نظر القراء أسلوب المؤلف وطريقته التي يؤدي بها آراءه وأفكاره ؟ !

ليس من شأن المعرب أن يؤدي المعاني فقط ، بل عليه أن يحافظ على أسلوب المؤلف ما استطاع ، وهو لا شك يستطيع . على أن عبارة المؤلف التي نحن بصددها لا تحتمل ذلك . ولاسيما أن المبالغة الشرقية أصبحت مضرب المثل في أوربا .

٣ — ثم لم لا يكون المؤلف ممن يعتقد أن اعتبار العرب فصاحة القرآن مثلاً أعلى مبالغة شرقية بحتة ؟ هل كتبت له العصمة عن الانسياق مع تيار الآراء العامة في أوربا ، وهوالذي يعترف صراحة بأن آراءه في العرب وحضارتهم لم تتخلص من الأثر التقليدي الموروث ؟ فلينظر سعادته ما ترجمه قلمه ، يا عجبا هل نسيه أو تناساه (ص ٥٩٨) .

٤ — ثم لا أدري ما خطب المعرب في أن يدافع عن رأي المؤلف هـذا ، حتى يقول إنه أكبر من أن يهبط في تفكيره إلى هـذا الزعم ؟ ولكن هل نسي سعادته أن رأي المؤلف في القرآن سيّء جدًّا في أحد وجوهه ، كما نبه على ذلك المعرب نفسه في رده علينا (ص ٤٧٩) بقوله « وقد أثبت رأي المؤلف في أن القرآن بعد أن كان عامل تقدم للعرب ، أضحى عامل تأخر لهم » حتى إن للمؤلف رأياً لايقل فجاجة عن هـذا الرأي ، وهواعتقاده بأنه لم يكن للقرآن تأثير في مذاهب العرب العلمية والفلسفية على نحو خلوالكتاب المقدس من تأثيرعلى كتب العلم الحديثة ، بل صرح أكثر من ذلك فقال : « غير أن علماء العرب كانوا لايبالون بما في نتائج إكتشافاتهم ومبادئ القرآن من التفاوت (ص ٥٩١) » أي أن مبادئ القرآن كانت تعارض نتائج العلم !

وما دام رأي المؤلف صريحاً في هذا الباب ، فالتطوع للدفاع عنه في معرض مثل هذه الهفوات والأخطاء عقيم ، ولا يخلو من روح الخطة المرسومة .

ه — في هـذه الفقرة نرى المعرب ملتزماً خطة الانسحاب ، ولكن يريدها بنظام ، فيقول : [إنه لم يقصد من عبارة « والقرآن معمافيه من إعجاز بيان » أن يوهم القارئ بأن المؤلف يقول إن القرآن معجز ... بل كان قصده من كلمة « الإعجاز » هنا هو « القضاء بالعجب له » لا الإعجاز الذي يقصده علماء الكلام .]

وهذا من أغرب وجوه الدفاع ! إنه لا يريد أن يعترف بأنه أدخل على آراء المؤلف رأياً ليس له ، فقال إن القرآن معجز . مع أنه ليس مما عرف من آراء المؤلف باعترافه صراحة . وقد جعل للتخلص من تبعة هذه الزيادة التي زادها ، وهي عمل خطير، أن قال إنه لم يكن يقصد من كلمة « الإعجاز » الإعجاز الذي يقصده علماء الكلام . ولكن هل نسي سعادته أنه كان في كل دور من أدوار الاعتذار عن تصرفاته في آراء المؤلف محواً وتحويراً ، يتستر وراء حجة « دفع الالتباس » عن القارىء ! فهل كان تصرفه هنا من قبيل دفع الالتباس ! أو من قبيل « إيقاع الالتباس » ؟ !

إن كلمة « الإعجاز » في عرف المسلمين تكاد تكون ألصق صفة بالقرآن ، فإذا كان المعرب لا يقصد منها إلا « القضاء له بالعجب » فلِمَ لم يستغن عنها بسواها من الكلمات التى تعبر عن مقصد سعادته ! أما الحقيقة فهي التي قررناها في نقدنا ، وهي أن المعرب قد سار في تعريب كتاب « حضارة العرب » على خطة مرسومة من تحوير آراء المؤلف التي توهم أنها قد تصدم نفوس العرب والمسلمين فلا يحسن عنده الإبقاء عليها ، ما لم تمر يده الكريمة عليها محواً أو زيادة ، وتحويراً أو تعديلا ، ليخرج الكتاب في ثوب يرضى عنه العرب والمسلمون ، وهو رأي ضار كما بينا فى حينه .

ز — يعجب المعرب هنا ويتجاهل في آن واحد ، فيقول : [« من أين جاء السيد اللبابيدي ، أننا قصدنا أن ننفي عن المؤلف رأيه القائل أن القرآن أثر محمد ، بجعلنا كلمة « والله هو الذي يخاطب الناس في القرآن » بدلا من « ومحمد هوالذي يتكلم في القرآن باسم الله » الركيكة غيرالمنسجمة مع كلام المؤف لنفسه؟ ثم يدلل على أنه لو أراد إخفاء ذلك لحذف النعوت الخاطئة ، كنعت المؤلف الرسول بالمتهوس الشهير(ص ٣٣) أو من ذوي الهوس (ص ١٢٦) . ثم ختم هذه الفقرة بقوله : « لودرس الناقد ترجمة الكتاب دراسة الباحث المدقق ماتورط في هذا النقد الخاطف »] .

١ — والحقيقة أن نقدنا كان خاطفاً ، ومع ذلك فقد حمل حقائق ثابتة وعالج أموراً خطيرة ، ولو توفرنا لدراسة الطبعة العربية ومقابلتها على الأصل لوقعنا على قضايا أكثر وأخطر ، كما يوحي بذلك أسلوب المعرب في تعريبه وخطته المرسومة .

أما جوابنا على تساؤل المعرب من أين جئنا بأن قصده كان نفي رأي المؤلف القائل بأن القرآن أثر محمد ، فليس قلب صيغة العبارة المستشهد بها فحسب ، بل سلوكه — كما قلنا — تلك الخطة المرسومة في كثيرمن العبارات ، أخص بالذكرمنها العبارات التي كان يعرض فيها المؤلف أصول القرآن في المواضيع التي أشار إليها المؤلف في بحث

« خلاصة القرآن » . ففي هـذا الفصل كان المؤلف كلما عرض لذكر طائفة من الآيات كان يقدمها على أنها أفكار الرسول ، كتقديمه أول طائفة من الآيات بقوله ما تعريبه من غير تصرف هكذا : « وإليك ، أولا ، كيف كان محمد يقرر أصول القرآن ، وقرابة نسبه من الكتب المقدسة التي تقدمته . » (ص ٩٦ ط . ف)

"Voici d'abord comment Mahomet établit l'origine du Coran, et sa parenté avec les livres qui l'ont précédé,".

فما كان من المعرب إلا أن أثبت هـذه الجملة في الطبعة العربية (ص ١٣٠) هكذا : « وإني أبدأ بما جاء في القرآن عن مصدره وعن قرباه الوشيجة بالكتب المقدسة التي أتت قبله » . وهكذا كان المؤلف في كل مرة يعرض لمحتويات القرآن يقدمها على هذه الطريقة ، بما يفهم أنها أفكار الرسول ، وفي كل مرة كان يعمد المعرب إلى محو هذا الأثر .

من هنا يا سيدي ، أي من هذه الفقرة وما جاء بعدها فيهذا الفصل وفي غيره ، حكمنا بأنك سرت على خطة مرسومة في نفي رأي المؤلف بأن القرآن أثر الرسول . ولا شك أنك عارف ما فعلت ، لأنها خطة سلكتها وعكفت عليها وبقيت مخلصاً لها ، حتى نهاية تعريب الكتاب ؛ وتساؤلك ليس إلا من قبيل تجاهل العارف .

ح — وفي هذه الفقرة أيضاً يطلعلينا المعرب بالحجة التي ظن أنها تخدمه فكانت عليه فقد قال : [ومن تجني جنابه وتعسفه قوله إن المؤلف ينسبالضعف إلى محمد بسبب حبه للنساء . وأننا قلبنا هذه النسبة إلى ملامة في الحب .. فليرجع الناقد بصره إلى عبارة المؤلف ، ليرى أن المؤلف جعل كلمة « الحب » مفسرة لكلمة «الضعف» ، وإن شئت فقل مرادفة لها ، فاختيارنا لكلمة «الحب» فقط ، دفعاً للالتباس ، لا يخرج عن مقاصد المؤلف البتة ... وأما لوم المؤلف للنبي على حبه فسياق كلامه يدل عليه .]

وهكذا فإنك ترى المعرب يحذف لفظاً موجوداً وهو الضعف Faiblesse دفعاً للالتباس ، ليقيم محله لفظـاً من عندياته غير موجود وهو « اللوم » يزعم أن السياق يدل عليه . وهذا شيء غريب في بابه !

ما كان أحرى بالمعرب أن يترك للمؤلف ألفاظه ، ويبقي هو ألفاظه لنفسه ، كأن المعرب من خصائصه وواجباته أن يقوم من اعوجاج المؤلف بإدخال الوضوح على أسلوبه. وهكذا يعترف المعرب بأنه حذف لفظاً للمؤلف وأقام من عنده لفظاً آخر مبايناً للأول دفعاللالتباس! وهنا لاحاجة بنا لأن نعيد ما قررناه في نقدنا سابقاً، وفي ردنا هنا ، من أن

المعرب كان يصدر في تصرفاته هذه عن خطة مرسومة . لأن المعرب لا يريد لطبعته العربية أن تحمل كلمة الضعف للرسول ولو من النوع الذي ذكره المؤلف كضعف وحيد "La seule faiblesse de Mahomet" وبذلك لا يسمح للأذهان المستنيرة التهيؤ لبحث المسألة .

ط — في هذه الفقرة يريد المعرب أن يستعلي علينا فيزعم أن لا فرق بين اصطلاح « الدولة العربية » و « الإمبراطورية العربية » وأنهما كلمتان تعدلان بعضهما بعضاً ، خصوصاً وأن كلمة « إمبراطورية » ليست عربية ، ثم ينتهي به الأمر إلى أن هذه مسألة فقهية يحسن أن يتركها الناقد إلى أمثاله من رجال الشرع والقانون . ثم يتبع ذلك بعدد من إشارات التعجب لفضولنا في محاسبته .

١ — أما أن هذه مسألة فقهية و يجب تركها لأرباب الاختصاص ، فما لا شك فيه ، ولكن ليعلم المعرب أن ناقده ، ناقد قانوني قبل أن يكون ناقداً أدبيًّا ، ولهذا فليطمئن باله من هذه الجهة ، وكان عليه أن يحتاط لنفسه قبل أن يتورط في مثل هذا الإسراف وهذه العنجهية .

٢ — أما أنه لا فرق بين « دولة » و « إمبراطورية » فالفرق كبير ، وإذا كانت إحداهما في زعمه تعدل الأخرى ، فليس من شأنه أن يختار ، لأن المعرب لاخيار له . على أن تستر المعرب وراء حجة العجمة ، فليست العجمة مما يصح اعتباره عذراً في هذه اللفظة . لأن كلمة إمبراطورية أصبحت من الكلمات الدارجة على ألسنة كتاب العرب وأقلامهم وفي صلب مؤلفاتهم ؛ أي دخلت في جملة الألفاظ المعربة كغيرها . والظاهر أنه عدل عنها لا لأنها ليست عربية الأصل ، بل لأنها في زعمه تتضمن معنى من معاني القيصرية ، وهو لا يليق بحكومة الخلفاء . وهكذا يسير على خطة مرسومة في إرضاء ما توهمه أنه يرضي العرب والمسلمين ، لكي لايقال إن دولتهم كانت إمبراطورية قد يكون فيها منزع من منازع القيصرية . والحقيقة أن من مصلحتنا نحن العرب ، نحن المسلمين ، أن توضع تحت أعيننا أقوال المؤلفين الأغراب مجردة ، عارية ، كما هي غير محورة ولا مجملة أو مكتسية ، ولنابعد ذلك مع أصحابها شأن خاص .

ي — أما ما ذكر في هذه الفقرة فيبدو أنه وقع خطأ في تسميته عنوان الباب ، بين أن يكون الثاني أو الخامس ، ويظهر أنه الخامس لا الثاني كما ذكرنا .

أما أن المعرب كان يريد منا أن نتبين حقيقة الكتاب ومطابقة الترجمة لموضوعاته من المقدمة المطولة التي وضعها سعادته في ثلاثين صفحة ، ولا نشغل نفسنا فيما يخرجنا

عن الصدد ، فشيء طريف جداً . إذ متى كانت مثل هذه المقدمة — التي لم يكن لها لزوم قط إلا في خطة صاحبها — قابلة للعمل الفني الذي قام به الناقد ؟ ليت السيد زعيتر خصص مجهود هذه الثلاثين صفحة ونفقتها في إبراز خريطة واحدة من تلك الخرائط الخمس التي أغفل نشرها مفضلا الصمت على الاعتذار بشأنها .

نأتي الآن على إغفال المعرب لنشر ٣١٥ صورة ورسما من رسوم الطبعة الفرنسية ولإغفاله أيضاً خمس خرائط وعشر لوحات ملونة ، فنجد أن المعرب يسهب في الاعتذار عن هذا التصرف إسهاباً مطولا ليقول ما ملخصه : إن كثرة النفقات كانت عقبة كأداء في سبيل عمله ، وأنه لم يكن في الإمكان أبدع مما كان . ونحن حين كشفنا عن تصرفه هذا ، توقعنا منه أن يطلع علينا بما طلع . وتقبلنا عذره سلفاً على سبيل الافتراض ، خلافاً لقوله إننا ممن لا يقبل عذراً ، ولكن الذي لم نقبل فيه عذراً ، هو سكوته المطلق عن تصرفه هذا . وعبارتنا في ذلك صريحة حين قلنا . « قد يطلع علينا المعرب معتذراً عن تصرفه فيما فعل بعذر مّا ، وقد يكون عذره مقبولا أولا يكون، وقد يستطيع أن يبرر عمله أو لا يستطيع، ولكن من المحال أن يستطيع تبرير سكوته عما فعل » . وهذا الذي توقعناه حدث بالفعل ، فإن المعرب ظل ساكتاً سكوتاً مطلقاً ، فلم يبد عذراً حول سبب سكوته عن تصرفه ، ولا حاول أن يفعل ذلك . والسبب هو ندرة النسخة الفرنسية، ووهمه في أنها إذا وجدت لاتقل قيمتها عن أربعين جنيهاً، لذلك لم يكن متوقعاً حين قرر تجاهل تلك الصور والخرائط وتلك التصرفات في التعريب أن يفجأه أحد بنقد أولوم . هذا هو سبب السكوت .

وهبه برر تصرفه في إغفال الطبعة العربية مما حفلت به الطبعة الفرنسية من الصور والرسوم ، فما العذر في إغفال الخرائط الخمس ؟ ليته ، كما قلنا قبل قليل ، خصص مجهود ونفقة الثلاثين صفحة من مقدمته النفل ، في مقابل نشر خريطة من تلك الخرائط.

ومما قاله معتذراً « إن الأصل الفرنسي الحافل بالصور والرسوم ، قد وضع مع ذلك للأوربيين أكثر مما وضع للعرب . . . وما احتواه هذا الكتاب من الصور والرسوم مما هو مألوف عند العرب ، لا عند الأوربيين » فهل كانت الخرائط الخمس مما وضع للأوربيين دون العرب ؟ أو هي مما هو مألوف لدى العرب دون الأوربيين ؟ !

ويختم المعرب اعتذاره عن نشر الصور والرسوم بهذا القول السديد : « إن الكتاب لم يترجم ، ليتلهى بصوره الصبيان بل ليقرأه العرب من بني الإنسان » .

١ — والحقيقة هي أن الصور والرسوم المغفلة البالغ عددها (٣١٥) من أصل

(٣٦٢) هي كما جاء في نقدنا ، وثائق قيمة ، حتى لم تخل صورة من تدوين للمؤلف ، يقول عنها إنه صورها بنفسه أو اقتطعها أو جردها أو استعارها من أوثق ما عرف من الوثائق الصحيحة المتعلقة بالحضارة العربية . وإذا كان المؤلف قد أشاد كثيراً في مقدمته للكتاب بالعناية التي خص بها كتابه هذا ، فلأن الصورة الواحدة — على حد تعبيره — تغني عما لا تغنيه المجلدات في الوصف ، فطي المعرب القسم الأعظم من الصور واقتصاره على القسم الضئيل الشائع منها ، يعتبر تفويتاً لأعظم مزايا الكتاب ، وهضما موجعاً لحقوق الحضارة العربية التي حوربت ، وما تزال تحارب ، بسبب فقدان أهم آثارها ومقوماتها ، مما لا يصح معه التفريط بمثل هذه الوثائق .

٢ — أما قوله إن هذه الصور والرسوم قد وضعت في الأصل للأوربيين ، أكثر مما وضعت للعرب ، فهل يعني سعادة المعرب أن المثقفين من أبناء العرب أكثر معرفة بآثار حضارتهم من الأوربيين ؟ وإلا فهل نسي لماذا انحى باللائمة على بني قومه ، إلا لجهلهم بقيمة هذه الحضارة (مقدمة المعرب ص ٢٨) !

والواقع أن المثقفين من العرب ، إلا ما ندر منهم ، إن لم يكونوا أكثر جهالة من أمثالهم من الأوربيين بمقومات الحضارة العربية ، فهم على السواء من ذلك .

٣ — أما أن المعرب لم يترجم الكتاب ليتلهى بصوره الصبيان ، بل ليقرأه العرب من بني الإنسان ، فأرق وأسد ما قرأناه لحضرة المعرب من رأي ! وهل حسب سعادته أن صبيان العرب ، ليسوا أهلا لأن يتلهوا بآثار آبائهم وأجدادهم الذين أفرغوا على الدنيا البهجة والهناء ؟ حتى لا يرى وجهاً لإدخالهم في عداد بني الإنسان !؟

وفي الختام ، لا أقول كما قال المعرب في ختام رده : إنه كاد أن يخرج عن القصد ، ففي الحقيقة قد خرج ، أما نحن فنحمد الله على أننا حافظنا على القصد جهد الطاقة ، كما أننا في هذا الختام ، لا نطلب الهداية لغيرنا ، على اعتبار أنه وحده في حاجة إليها ، كما فعل المعرب ، بل نطلب هذه الهداية لأنفسنا أيضاً .

محمود اللبابيدي

إلى صاحب « الشيخ الرئيس ابن سينا » (١)
الأستاذ عباس محمود العقاد

الحل السعيد

لمشكل الشر القديم الجديد

[الشر إنما يصيب أشخاصاً ، وفي أوقات ، والأنواع محفوظة . . .
والشر إنما يوجـد تحت فلك القمر ، وجملة ما تحت القمر طفيف
بالقياس إلى سائر الوجود] ابن سينا

بُشْرى لـكم ثم بشرى ، أيها الناسُ لا ضيرَ في شرّ دنياكم ولا باسُ
ما الشرّ أن داسكم خَطبٌ بمَنْسِمِهِ وأنْ طوتكم على الأيام أرماس
فذاك أمرٌ إلى (الجزئيّ) نِسبَتُه والشرّ شرٌّ على (الـكليّ) طَمَّاس
والـكون ماضٍ على عِلَّاته قُدُماً إن تَخبُ شمسٌ فَمِلْءُ الفُلْك أقباس (٢)
وما شـقاء بني الدنيا إذا سلمت من الخليقـــــة أعراقٌ وآساس !

* * *

يا ذاهباً مذهبَ المعقول تُرسلـه تراكَ تَعقله إن جُنَّ إحساس ؟
ما لي أقيس على (الـكليّ) فاجعتي وما لهـا في طويل الدهر مقياس
ما أعظمَ الشرّ في الأكوان أجمعِها إذا احتواني الأسى واستحكم الياس

عبد الرحمن صدقي

---

(١) سلسلة اقرأ رقم ٤٦ (٢) الفلك جمع فلك : مدار النجوم. الأقباس جمع قبس : قطعة النار. والمراد بها الكواكب وهي في قول العلماء أقباس منفصلة في أصل الوجود عن كرة الشمس النارية .

حكايات البارون فون منشنهوزن

مثال من النفج الألماني*

ترجمة الأستاذ محمود إبرهيم الدسوقي

حدّث البارون قال :

غادرت بيتي مرتحلاً إلى روسيا إبّان الشتاء ، ذلك أني قدرت بحق أن الجليد والثلوج لا بد أن تصلح الطرق التي تخترق الأصقاع الشمالية في ألمانيا وبولندة وكرلندة ولفلندة . وهي الطرق التي يصفها المسافرون أجمعون بأنها تكاد تكون أردأ من الطرق المؤدية إلى هيكل الفضيلة ، وكان سفري على ظهر الجواد ، وهو أوفر أنواع السفر راحة وأقلها عناءً ، ولو من أجل الحصان وراكبه وحدهما . فالسفر على ظهر الجواد يعفيك من الاشتباك مع موظف بريد ألماني مهذب ، كما يكفيك مؤونة سائقه الظمآن الذي يجرك إلى كل حانة . وقد كنت في سفري هذا أرتدي ثياباً خفيفة ، كانت كلما تقدمتُ نحو الشمال الشرقي تشعرني خطل رأيي وسوء مغبته ، وقد تابعت الركوب حتى جن الليل ، وانسدل الظلام ؛ فلا قرية هناك تحس وجودها أو تراها عينك ، فالأرض بأسرها يغمرها الثلج ، والمخرج مما أنا فيه عزيز .

وأنهكني الركوب ، فترجلت آخر الأمر ، وربطت جوادي بشيء يشبه الوتد مدبب بارز من الثلج ، ووضعت غدّارتيّ تحت ذراعيّ لأطمئن ، ثم استلقيت فوق الثلج غير بعيد . واستغرقت في نوم بلغ من هناءته أنني لم أستيقظ منه إلا في وضح النهار ، لكنه ما كان أشد دهشتي عندما وجدتني وسط قرية فوق مقبرتها راقداً بين القبور ! وتلفتّ أبحث عن جوادي فلم أجد له لأول وهلة أثراً ، حتى سمعت صهيله فوق رأسي في مكان ما ، فرفعت بصري ، فتبينته مقيداً بدوّارة الريح فوق برج الكنيسة ، معلقاً في الهواء ، فأدركت ما هنالك ، وحزرت ما حدث : فقد لبث الثلج يتهاطل في أثناء الليل فوق القرية حتى احتواها ، ثم تبدل الجوّ دفعة واحدة فجعلتُ — والثلج يذوب — أهبط معه في نومي رويداً رويداً ، فما حسبته في الظلمة ساق شجيرة بارزاً من الثلج فربطت به جوادي قد كان الصليب أو الديك الذي يعين إتجاه الريح فوق برج الكنيسة .

---

* النفج هو (الفشر) عند العامة .

ولم أطل التفكير ، بل تناولت إحدى غدارتي وأطلقتها على زمام الجواد ، فاسترجعته على هذا النحو وتابعت المسير .

كان كل شيء إلى ذلك الحين يجري مجرى حسناً حتى بلغت روسيا ، ولم يكن مألوفاً فيها أن تجوب نواحيها في الشتاء على ظهور الجياد ، وإذ كان من مبدئي دائماً أن آخذ بعادات البلاد التي أجوبها ، فقد اتخذت هناك زحافة يجرها حصان واحد ، وانطلقت بها نحو سنت بطرسبرج .

ولست أعلم على التحقيق أكان في إيسلندة أم كان في إنجر منلندة ما وقع لي بعد ذلك . لكن الذي أذكره جيداً أني كنت وسط غابة مخيفة حين أبصرت ذئباً مرعباً يعدو ورائي بأقصى سرعة الذئب المسعور في الشتاء ، ولم يلبث الذئب أن أدركني فتعذر منه المهرب بأية حال ، بيد أني انطرحت بغريزتي فوق أرض الزحافة وتركت جوادي يتصرف وحده عنا نحن الاثنين . وقد حدث على الأثر ما لم أستبعد حدوثه ، وما لم أكن مع ذلك أرجوه أو أتوقعه ، فإن الذئب لم يعرني أي التفات ، ولم يعن بشخصي الضعيف أقل عناية ، بل تخطاني بقفزة واحدة وانقض على الجواد محنقاً . وهبر ألية الحيوان المسكين والتهمها دفعة واحدة ، والجواد في ذلك يتملكه مس من الرعب والألم ، فيضاعف سرعته . وإذ كنت قد خرجت بهذا سالماً لا يتلفت إلي أحد ، فقد شرعت أرفع رأسي خلسة ، وما كان أشد ذعري حين استبنت الذئب وقد أوغل في الحصان أكلا ونهشاً حتى كاد يأتي عليه . وبينما هو يمعن في جوف الحصان اغتنمت هذه الفرصة وانهلت على جلد الذئب بالسوط فذعر لهذه المفاجأة التي لم تكن في حسبانه وهو يتناول وجبته ، وفزع فزعاً شديداً ، فذهب يعدو بكل قواه ، وسقطت جثة الجواد في تلك الأثناء على الأرض . فرأيت الذئب مكانه في السرج ، وكان هذا داعياً إلى أن أمعن في ضربه ، وأن يمعن في ركضه ، حتى بلغنا سنت بطرسبرج سالمين صحيحين ، ولم يكن هذا في حساب أي منا ، ولا مما يصدقه النظارة الذين دهشوا لمشهدنا أيما دهشة ! !

وقد وقعت لنا هناك حوادث مسلية أضرب عنها الآن صفحاً ، لأني أرى أن أقص عليكم بعض وقائع صيدي المختلفة ، فلعلها أجدر من تلك بالالتفات وأوفر تسلية . ومن اليسير أن تتصوروا أيها السادة أني لم أن عن أن أسلك نفسي مع أولئك الرفاق الشجعان الذين يعرفون قيمة الغابة ، ويقدرون مناطقها الطلقة المترامية .

فإنني وأنا أطل ذات صباح من حجرة نومي رأيت في بركة كبيرة تقع غير بعيد سرباً عظيماً من البط البري ، فتناولت بندقيتي من موضعها في أسرع من لمح البصر ،

وهبطت السلم قفزاً لا أعرف لي رأساً من رجلين من فرط الاندفاع ، فارتطم وجهي بالباب لقلة انتباهي ، فورَيت عيني ، وتطاير منها الشرر ، لكن هذا لم يصرفني عما كنت بسبيله فلم أبطئ لحظة بل تهيأت لإطلاق النار . غير أني حين صوبت بندقيتي تبينت في حرج شديد أن الزند طار عن موضعه في أثناء الصدمة الشديدة التي تلقيتها ولما أكد ، فما العمل ؟ إن الوقت ثمين لا ينبغي إهداره بأية حال ! وفجأة خطر ببالي لحسن الحظ ما أصاب عيني في أثناء الاصطدام ، فجذبت الزناد وسددت البندقية نحو الطير البري ، وضربت إحدى عينيّ بجمع يدي ، فتطاير منها الشرر لهذه الضربة القاسية كما تطاير لتلك ، وخرج الطلق فأصاب من الطير عشراً !! وحضور الذهن هو روح البطولة والرجولة ، فإذا كان له فضل في نجاة الكثيرين من الجنود والبحارة فله كذلك فضل ما يصيب الصياد من حظ حسن .

فإنه في ذات مرة كانت بضع عشرات من البط البري تسبح في بحيرة من بحيرات الريف وقعت عليها في إحدى غدواتي للصيد ، وكان البط متفرقاً في البحيرة ، متباعداً بعضه عن بعض ، حتى لا أمل لي في أن أصيب منه أكثر من بطة واحدة بالطلق الواحد ، ولسوء حظي أنه لم يكن بالبندقية سوى طلقة أخيرة ، وغاية التمني أن أصيب البط جميعاً لأقري منه صحبة لي ومعارف كنت أنتظرهم بعد قليل .

وتذكرت قطعة من شحم الخنزير كانت ما تزال في جعبة صيدي متخلفة عن زادي ، فثبتها في مقود كلب طويل بعض الشيء ، ولففت المقود حولها ، وزدت فيه إلى أربعة أمثاله ، ثم تواريت في دغل البوص المنتشر على الضفة ، وطوحت بالحبل وفي طرفه قطعة الشحم ، ويالسروري حين رأيت أقرب بطة تهرع إليها سابحة ، وتبتلعها ، ثم تأتي بقية البط في أثرها فتجد الشحمة الملساء قد خرجت من دبرها لم تهضم ، فتلقفها البطة التالية بحبلها لتخرجها كما أخرجتها الأولى ، وهلم جرا !! وقصارى القول أن قطعة الشحم طافت ببطون البط جميعاً وخرجت بحبلها لم ينصرم ، وقد انتظمها الحبل كما ينتظم العقد حبات اللؤلؤ ، وجذبتها أنا إلى البر متهللاً ، ولففت الحبل مرات حول كتفي وجسمي ، ثم سرت في طريقي إلى بيتي ! !

وكانت الشقة ما تزال بعيدة إلى البيت ، وكان عبء هذا الجم من البط باهظاً مرهقاً فأسفت أو كدت آسف على أني اصطدت هذا البط الكثير ، وبغتة حدث حادث أوقعني في شيء غير قليل من الارتباك ، فإن البط بعد إذ أفاق من غشيته أخذ يصفق بأجنحته تصفيقاً قوياً ، ثم جعل يرتفع بي في الجو . والرأي السديد يكلف كثيراً في

بعض الحالات ، ولكني عرفت كيف أفيد من هذا الظرف ، فشرعت أحرك دفتي سترتي كما يرفرف الجناح ، وأوجههما صوب البيت ، فلما صرت فوق منزلي وأصبح لزاماً عليّ أن أهبط بسلام ، جعلت ألوي عنق البط واحدة بعد أخرى ، وأهبط بذلك رويداً رويداً ، مخترقاً مدخنة البيت حتى بلغت فرن المطبخ ، وهو لم يوقد لحسن الحظ بعد ، فكاد صواب الطاهي يطير من فرط الدهشة !! وهكذا يجب أن يعرف المرء كيف يكون في عون نفسه .

وظهر لي ذات مرة في غابة رائعة من غابات روسيا ثعلب أسود عجيب غاية العجب ، فلو ثقبت فروته الثمينة برصاص بندقيتي أو رشها لأسفت على هذا أشد الأسف ، وكان الثعلب يقف ملاصقاً لشجرة ، فأخرجت الرصاصة من أنبوبة البندقية في الحال ، ودسست في مكانها مشجباً ثم أطلقت البندقية ، فجاءت الإصابة فنية محكمة إلى حد أنها سمرت ذيل الثعلب في الشجرة ! ومشيت إليه رابط الجأش ، وتناولت السكين ، وضربت وجهه ضربتين متقاطعتين ، ثم تناولت سوطي وجعلت ألهبه به ، وكلما ألهبته بالسوط خرج عن فروته الجميلة ، حتى خلفها وراءه مشهداً عجباً يسر الناظرين ! !

وكثيراً ما تصلح المصادفة ويصلح الحظ أخطاء ما ، فإني أبصرت ذات مرة خِنّوصاً بريا وخنزيرة يسيران في قلب الغابة : الخنزيرة وراء الخنوص ، فأطلقت النار فأخطأتهما الرصاصة ، لكني رأيت الخنوص يمعن في الهرب ، على حين وقفت الخنزيرة مكانها لاتتحرك كأنما سمرت فيه ، فلما تفقدت الأمر عن كثب تبين لي أنها خنزيرة ضريرة تمسك في خرطومها بذيل الخنوص ليقودها منه شأن الابن البار ، وإذ كان الطلق قد نفذ بين الاثنين فقد بتّ الطلق المقود ، وترك طرفه للخنزيرة العجوز ، فلما كف دليلها عن قودها كفت هي عن المسير ، ووقفت تلوكه ، عندئذ تناولت الطرف المتخلف من ذيل الخنوص في فم الأم ، وقدت هذه الحيوانة العاجزة إلى بيتي دون عناء ! !

لاشك أيها السادة أنكم سمعتم بالقديس هوبرتوس راعي الصيادين وحراس الغابة، كما سمعتم بالأيّل الفخم الذي صادفه القديس في الغابة يحمل الصليب المقدس بين قرونه، ففي ذات مرة وقد نفد رصاصي كله ، ظهر لي على حين غفلة أيّل هو أفخم أيّل في العالم بأسره ، فتأملني ، وحدق في عيني كمن يتحداني ، أو يعلم بفراغ جعبتي. في هذه اللحظة حشوت بندقيتي باروداً وحفنة من نوى الكرز جردته عن ثمره ولحمه على عجل ، ثم أطلقت الحشوة كلها على جبين الأيّل بين القرون ، فترنح من الطلق وسقط على الأرض ؛ لكنه عاد فنهض ، وانطلق ، وبعد سنة أو سنتين وأنا في نفس الغابة أصيد ، رأيت —

ويا عجب ما رأيت — رأيت أيـّلا فخما يحمل بين قرونه شجرة كرز نامية كاملة يربو طولها على عشر أقدام !! فخطرت ببالي مغامرتي السابقة ، وتأملت الأيـّل كما أتأمل شيئاً أملكه عن استحقاق ، وأرديته قتيلاً بطلق واحد ، وفزت منه بالشواء والشراب ، فقد كانت شجرته ملأى ، وكان طعم كرزها مما لم أتذوق ألذ منه في حياتي قط ! !

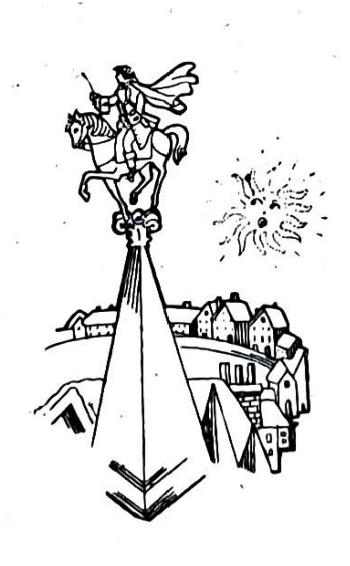
وجودة جيادي وكلابي وبنادقي أمر عرفت به دائماً ، واشتهرت بأني أعالجها جميعاً على نحو خاص ، فهنالك كلبان من كلابي امتازا في خدمتي بما يجعل من حقهما عليّ أن لا أنساهما ، وأن أذكرهما خصيصاً بهذه المناسبة ، فأما أحدهما فكان من صيادي الدجاج البري ، لا يكل ولا يمل ، ولا تغفل له عين ، ولا يؤخذ على غرة ، حتى حسدني عليه كل من رآه ، وقد كان في خدمتي دائماً أنتفع به بالليل وبالنهار ، فإذا أقبل الليل علقت بذنبه مصباحاً وانطلقت به على هذا النحو كما أنطلق به في وضح النهار أو أحسن .

وحدث بعد زواجي أن أبدت زوجتي رغبة في الخروج إلى الصيد ، فتقدمتها راكباً مستطلعاً ، فلم يلبث كلبي أن وقف حيال حلقة مؤلفة من بضع مئات من الدجاج فوقفت أنتظر امرأتي ، وكانت تتبعني بصحبة مرافقي وأحد الأتباع ، وطال بي الانتظار فلم يبدُ ولم أسمع ما يدل عليهم . وأخيراً ساورني القلق فارتددت ، حتى إذا كنت في منتصف الطريق تقريباً ألم بسمعي شكاة وأنين ، وبدا لي أن ما أسمعه قريب مني ، مع أنه لم يكن على مرمى البصر شيء حي .

فترجلت عن جوادي ووضعت أذني على الأرض أصيخ بسمعي ، فلم أتبين فقط أن هذا الأنين كان صادراً عن الأرض ينفذ إليّ من تحتها ، بل تبينت فيه كذلك صوت امرأتي ومرافقي وتابعي جلياً واضحاً ، وتلفت حولي فلم ألبث أن بصرت بحفرة منجم من مناجم الفحم غير بعيد مني فأيقنت أن زوجي المسكينة ومرافقيها قد تردوا في الحفرة جميعاً . فأرخيت العنان لجوادي ، وانطلقت به إلى أقرب قرية أستنجد بعمّالها الذين تمكنوا بعد جهد جهيد من إخراج المصابين إلى ضوء النهار ، وانتشالهم من وهدة عمقها تسعون ذراعاً . وقد أخرجوا التابع أولاً ثم حصانه ، وقفّوا بالمرافق ثم بجواده ، وجاءت زوجتي بعد ذلك يتبعها فرسها التركي . والعجيب في أمرهم أن الثلاثة وجيادهم لم يصابوا بأذى تقريباً ، اللهم إلا بعض رضوض . لكنهم لا ريب قد كابدوا جميعاً خوفاً لا يوصف . ولم يكن في هذه الظروف مجال للتفكير في الصيد كما لعلكم توافقونني ، وإذا كنتم في أكبر الظن قد نسيتم كلبي في أثناء روايتي لكم هذا الحادث ، فإنكم لن تلومونني على أني في تلك الأثناء أيضاً لم يخطر كلبي ببالي ..

وفي صباح اليوم التالي اضطرتني ظروف إلى السفر . فلم أعد إلا بعد أسبوعين ، وما كاد يستقر بي المقام في بيتي بضع ساعات حتى افتقدت كلبي ، ولم يلتفت إلى غيابه أحد في أثناء غيبتي ، بل لعلهم جميعاً ظنوا أنه لحق بي ، وهكذا كان كل بحث عنه على غير جدوى — بيد أنه خطر ببالي أخيراً أنه قد يكون بقي مع الدجاج ، ودفعني الأمل والخوف إلى التوجه من فوري إلى ذلك المكان ، وقد رأيت عجباً ! رأيت كلبي لفرط غبطتي ما يزال واقفاً حيث تركته منذ أربعة عشر يوماً ، وناديته فوثب على الدجاج ، وأصبت منها خمساً وعشرين دجاجة بطلق واحد ، لكن الحيوان المسكين عاد إليَّ يكاد يزحف على بطنه من فرط ما نال الجوع والتعب منه ، وقد حملته على جوادي لأعيده إلى البيت ، وبعد أيام من العناية به عاد إلى سابق زهوه ومراحه . ولم تنقضِ على ذلك أسابيع حتى كان يحل لي لغزاً ما كنت لولاه لأستطيع حله ، فقد لبثت يومين كاملين أطارد أرنباً ؛ وكان كلبي يديره إلي في كل مرة ، لكن مع ذلك لم أتمكن منه ، ولست في الحق ممن يؤمنون بالسحر ، ولم أصدق شيئاً من ذلك في حياتي قط ، فقد كانت أحفل بالكثير من المعجب والمغرب من أن تجيز ذلك ، لكن مع هذا الأرنب طلقت حواسي الخمس جميعاً ، لقد دنا الأرنب مني أخيراً بحيث أستطيع قنصه ببندقيتي ، وسقط الأرنب . فماذا تظنون أني وجدت ؟ وجدت لأرنبي أربع أرجل تحت جسمه وأربعاً أخرى فوق ظهره ؟ فكان كلما تعبت أرجله السفلى انقلب على ظهره كما يفعل السباح الماهر . وانطلق على الأربع الأخر بأسرع مما كان يفعل .

(عن الألمانية) محمود ابرهيم الدسوقي



أنبــاء

ننشر في هذا الباب أخبار النشاط الفكري والأدبي وأنباء الـكتب والـكتاب مما يوافينا به مندوبونا ومراسلونا بمصر والخارج .

مصر

رسالة الفـاروق

إلى المتفوقين من طلاب العلم

« يا شباب الوادي :

أحييكم يا مناط الأمل ومعقد الرجاء . وما كان للشباب هذه القيمة ، إلا لأنه الفصل من العمر، الذي تجيش فيه النفوس بأعذب الأماني ، وتتوثب العزائم إلى الجليل من الأعمال .

أنتم الآن في سن ، هي سن الأحلام والآمال ، فليكن لـكم نفع في جماعتكم ، وبكم حرص على ما تتطلبه الجماعة منكم ، فما استحق الحياة من عاش لنفسه فحسب .

إن العلم اليوم قد انفسح مداه ، ولا تظنوا أنكم ، وقد تخرجتم في دور العلم ، قد نهلتم منه ما يروي ظمأكم ، فتعلموا لتزداد ثقافتكم سعة وعمقاً ، وتزدادوا للحياة فهماً وإدراكاً لما فيها من جمال وجلال .

وإني حريص على أن أسمع عن رجال البعوث منكم ما ترتاح له نفسي ، وترضاه لـكم بلادكم ، وإنا لنريدكم رجالاً أقوياء ، لأن عصرنا هذا لا يعيش فيه إلا القوي ، واقرنوا القوة بالطموح ، إذ لا خير في أمة تفقد روح الطموح .

وليكن لـكم مثل أعلى في الحياة ، فإنه هو الذي ينير لـكم الطريق ويثبت أقدامكم عند الشدائد، ويغرس فيكم التضحية .

وإن مصر وهي تعلن حرباً شعواء على الفقر والجهل والمرض لتنتظر من شبابها المثقفين ، فتيات وفتيان ، أن يسهموا في خدمتها ، حتى يؤدوا الرسالة الـكبرى ، رسالة الوطن القوي العزيز وأن ينصرفوا إلى إعداد نفوسهم الإعداد الـكامل ، وينبذوا الآراء المعوجة ، التي هي وليدة تفكير غير سليم ، حتى يكونوا كما قلت لهم من قبل : ناراً تضيء لا ناراً تحرق .

أيها الشباب :

هذه رسالتكم ، وإنها لرسالة مصر لـكم ، التي هي آمالنا وأحلامنا ، فانهضوا بها ، وأدوها حق أدائها ، فالإنسان الجدير باسم الإنسانية هو من أدى واجبه ، ثم عرف حقه . »

هذه هي الرسالة الملكية السامية التي تفضل حضرة صاحب الجلالة فاروق الأول أعزه الله فأذاعها على ضيوفه من أعضاء البعثات إلى الخارج وعددهم ٢٣٠ مبعوثاً ومبعوثة وكان بينهم أعضاء « البعثة الفاروقية السودانية » ، ومن طلاب العلم المتفوقين وعددهم ٥٣٠ طالباً وطالبة وذلك في قصر رأس التين العامر بالإسكندرية يوم الأحد الموافق الثاني والعشرين من شهر سبتمبر الماضي .

وفي أثناء تناول الشاي ألقى حضرة صاحب المعالي محمد العشماوي باشا وزير المعارف خطبة ضافية أبان فيها فضل المليك والبيت العلوي الكريم على النهضة العلمية الحديثة .

وقد أهديت بأمر جلالته إلى كل طالب وطالبة صورته الكريمة مذيلة باسم المهداة إليه وتحته هذه العبارة : « لمناسبة تفوقه في الامتحان سنة ١٩٤٥ — ١٩٤٦ » .

وتتشرف مجلة « الكتاب » بأن تسجل بين صفحاتها للذكرى والتاريخ هذه اللفتة الملكية الكريمة للعلم وطلابه مشفوعة بالدعاء الصادق أن يحفظ الله المليك للعلم والأدب نصيراً وظهيراً .

✲✲✲

فرغ سعادة الأستاذ عبد الرحمن عزام باشا الأمين العام لجامعة الدول العربية من طبع كتابه «الرسالة الخالدة» ، وهو كتاب يعالج مشكلات العالم في الاجتماع والسياسة والسلم والحرب وأسباب الاضطراب العالمي وإقامة نظام عالمي جديد .

✲✲✲

أتمت دار الكتب المصرية طبع الجزء الخامس عشر من كتاب « الجامع لأحكام القرآن الكريم » لأبي عبدالله أحمد الأنصاري القرطبي كما قررت بيع الجزء الأول من كتاب « الخصائص » لابن جني .

✲✲✲

يعمل الأستاذ محمود سليمان غنام الوزير السابق في وضع كتاب بعنوان « مجلس الدولة » يتضمن دراسة دقيقة لتاريخ إنشاء مجالس الدولة وسلطاتها ومدى تطورها .

✲✲✲

يبلغ عدد المصطلحات والكلمات التي أقرها المجمع اللغوي منذ تأسيسه إلى اليوم تسعة آلاف مصطلح ، وقد فرغت لجانه الفنية من بحث نحو أربعة آلاف كلمة في انتظارعرضها على المؤتمر اللغوي القادم لإقرارها .

✲✲✲

يعد الأستاذ أمين فهيم الموظف بديوان جلالة الملك كتاباً عن «الملك فؤاد وعلاقته بإيطاليا » ، وقد سافر المؤلف إلى إيطاليا للرجوع إلى بعض الوثائق في محفوظات القصر الملكي الإيطالي .

✲✲✲

أصدرت لجنة التأليف والترجمة والنشر ترجمة لمسرحية « عربة التفاح » من تأليف برنرد شو قام بنقلها إلى العربية الأستاذ محمد عوض إبرهيم بك وكيل وزارة المعارف سابقاً فأضاف هذه الحلقة إلى سلسلة روايات ترجمها عن شكسبير نذكر منها : « الليلة الثانية عشرة » و « كما تهواه » و « كليوبطرة » . أما المسرحية الجديدة ففيها بحث سياسي متطرف .

✲✲✲

صدر عن دار الكاتب المصري « مدونة جستنيان » في الفقه الروماني نقلها إلى العربية معالي الأستاذ عبد العزيز فهمي باشا وهو كتاب له خطره وأثره عند المشتغلين في الفقه والقانون .

صدر عن دار المعارف في طبعة أنيقة فاخرة كتاب «كرم على درب» للأستاذ ميخائيل نعيمة ، وهو مجموعة من الأمثال والشذرات تضمنت خواطر المؤلف في الفلسفة والاجتماع والأدب .

✡ ✡ ✡

ترجم الأستاذ علي أحمد باكثير مسرحية روميو وجولييت لشكسبير فكانت سابع ترجمة لهذه الرواية ، أولها ترجمة المرحوم نجيب الحداد التي نشرت بعنوان «شهداء الغرام» ومثلتها فرقة الشيخ سلامة حجازي .

✡ ✡ ✡

توجه مجلس نقابة الصحفيين إلى حضرات أصحاب الصحف والمجلات ورؤساء تحريرها برجائه أن يعملوا على المحافظة على سمعة الصحافة المصرية وكرامتها وتقاليد البلاد وعاداتها وبث الفضيلة في أرجائها وذلك بعدم نشر الصور الخليعة أو الموضوعات التي تتضمن إثارة الغرائز .

السودان

وصل إلى الخرطوم المستر مافي من خبراء المطبوعات الملكية البريطانية قادماً من إنجلترا لدراسة حالة المطابع والنشر بالسودان ، وقد طاف بدور الطباعة وتحدث مع مديريها . وهذه خطوة لتنظيم أعمال الطباعة السودانية ، وينتظر أن تتبع هذه الخطوة بخطوات تتصل بالنشر بجميع أنواعه .

✡ ✡ ✡

تتجه الدوائر المسئولة في الحكومة السودانية إلى تشجيع الصحف الإقليمية ، وقد ظهرت صحيفة بالأبيض ، وستظهر ثانية بواد مدني ، وثالثة ببورسودان ، ورابعة بعطبرة .

✡ ✡ ✡

اعتمدت مصلحة المالية نصف مليون جنيه لمباني كلية غردون ، وقد استقدمت الحكومة مهندساً بريطانيا بالطائرة من إنجلترا للاشراف على أعمال البناء .

✡ ✡ ✡

تبرعت الحكومة بمبلغ ستة آلاف جنيه لبناء وتأثيث المباني الجديدة للمعهد العلمي بأم درمان . ومما يذكر أن تبرعات الجمهور بلغت ١٢,٠٠٠ جنيه ، وقد تم من هذه المباني الشيء الكثير .

✡ ✡ ✡

ابتهج السودانيون بتقرير إيفاد عشرة من السودانيين المتخرجين في الجامعة والمعاهد المصرية في بعثة تعليمية سميت «بعثة فاروق الأول للسودانيين» إلى جامعات أمريكا وإنجلترا وفرنسا . وهم حضرات الأطباء والأساتذة : الدكتور فضل بابكر والدكتور بخيت محمد عمر لدراسة الطب ، وبشير البكري لدراسة القانون الدولي الخاص ، وعقيل أحمد عقيل للقانون الدولي العام ، وأحمد الطيب عابدون للعلوم السياسية والاقتصادية ، ومحمد سعيد بيومي للانتاج الحيواني ، وعباس الحميدي للصناعات الزراعية ، ومحي الدين صابر للتربية والعلوم الاجتماعية ، وصلاح هاشم للتاريخ الإسلامي ، وأحمد السيد حمد للاقتصاد السياسي .

تم افتتاح مدرسة وسطى للبنات بالأبيض . وقد بلغ عدد المتقدمات إليها ثلاثين طالبة . ويلاقي تعليم البنات في هذه المنطقة إقبالا شديداً من الآباء بعد طول إحجامهم عن تعليمهن .

✲✲✲

وافقت الجهات المختصة على طلب الفريق الرياضي بأم درمان الذي يقترح فيه السماح له بإقامة مباريات مع بعض الفرق الأخرى وتخصيص الدخل لإعانة منكوبي الفيضان في أنحاء السودان . وينتظر أن تبدأ تلك المباريات الخيرية في أول الموسم الرياضي لهذا العام .

✲✲✲

يعنى معهد التربية السودانية في بخت الرضا بتأليف وترجمة ونشر سلسلة من الكتب الأخلاقية تحت إشراف عميد المعهد المستر فرنس ومساعده الأستاذ عبد الرحمن طه . وقد أصدر المعهد الكتاب الأول ، وهو « أهداف الأخلاق » ، ويبحث في آراء عن المستوى الخلقي الذي يجب لأمة ناشئة . وصدر في هذه الأيام الكتاب الثاني باللغتين العربية والإنجليزية ، وعنوانه « تدريب الأخلاق » ويبحث في شرح الأصول التي يقوم عليها التدريب الخلقي للآباء نحو أبنائهم .

فلسطين

أقيمت للعلامة الأب أنستاس ماري الكرملي ضيف بيت المقدس حفلة تكريم كبيرة ألقيت فيها كلمات الترحيب وعددت مؤلفاته المطبوعة والمخطوطة ، ورد الأب على المحتفلين شاكراً .

✲✲✲

عزم فريق من الشبان على إنشاء كلية عربية في مدينة الناصرة على الطراز الحديث .

✲✲✲

أقامت الفنانة السيدة آمنة شعت معرضاً للفنون الجميلة في غزة عرضت فيه لوحات وأواني ورسوماً على الأقمشة من صنعها . وهذا ثاني معرض للسيدة .

✲✲✲

أرسلت جمعية الاعتصام في حيفا بعثة إلى الأزهر ، وأقامت حفلة تكريمية للمبعوثين ألقيت فيها الخطب .

✲✲✲

قررت إدارة المعارف فتح مدارس جديدة في ثلاثين قرية عربية منها ثماني مدارس للاناث .

✲✲✲

ترجم الأستاذ عادل زعيتر كتاب « حضارة الهند » لغستاف لوبون إلى العربية .

✲✲✲

نقل الدكتور إسحق موسى الحسيني من الكلية العربية إلى إدارة المعارف ليتولى منصب مفتش عام للغة العربية .

✲✲✲

صدرت هذا الشهر طائفة كبيرة من الكتب المدرسية : منها جغرافية فلسطين والبلدان العربية . ومبادئ في الدين الإسلامي . وأصول الهندسة الحديثة للصفوف الابتدائية . ويوليسيز

التائه . والحلقة الثالثة من القراءات الجغرافية المصورة . وجزءان جديدان من الروضة في المحفوظات .

☆☆☆

صدر هذا الشهر كتاب «أخي إبرهيم» للشاعرة الأديبة فدوى طوقان ترجمة لأخيها المرحوم إبرهيم طوقان . و «صوت الضمير وقصص أخرى» للشاب تحسين الأمعري . وتمثيلية «تراث الآباء» للسيد نصري الجوزي . و «ابتسام الضحى» للشاعر السيد حسن بحيري . و « الدليل الفلسطيني الأردني » للتجارة والصناعة والزراعة والاقتصاديات العربية لشركة النشر المتحدة .

لبنان

من الكتب القيمة التي تصدر قريباً مبحث فرنسي بعنوان « الترجمات السريانية والعربية لكتاب المقولات لأرسطو » أعده الدكتور خليل الجر لنيل الدكتورية الحكومية في فرنسا ، ونال عليه ثناء العلماء الفرنسيين الذين يعنون بالاستغراق والاستشراق . ويحوي الكتاب مقابلة علمية دقيقة بين المخطوط السرياني للمقولات المنسوب إلى يعقوب الرهاوي والنص العربي الذي وضعه إسحق بن حنين . والكتاب يعد بحق من أفضل ما انتهى إليه المحققون في هذا الباب .

☆☆☆

يصدر قريباً الأستاذ قدري قلعجي رئيس تحرير مجلة « الطريق » سلسلة أدبية تاريخية لتراجم أعلام الحرية في الشرق والغرب . وذلك بأسلوب روائي . ويعنى الكتاب الأول من هذه السلسلة الطريفة بحياة سعد زغلول رائد الكفاح الوطني في الشرق العربي .

☆☆☆

نشطت « دار العلم للملايين » نشاطاً مرموقاً في الأشهر الثلاثة الأخيرة ، فأصدرت إلى جانب كتبها الشهرية نخبة من المؤلفات الرصينة منها كتاب « الإسلام على مفترق الطرق » تأليف ليوبولد فايس وترجمة الدكتور عمر فروخ . وقد صارح فيه صاحبه المسلمين بحقائق قل أن يجرؤ غيره على التصريح بها ، ودرس حال المسلمين اليوم درساً دقيقاً من الناحية الثقافية الروحية . وقد أهداه المترجم إلى الشباب المسلم .

☆☆☆

صدرت الحلقة الثانية عشرة من سلسلة الكشاف الأدبية بعنوان « بين النهرين دجلة والفرات » لمحمد علي الحوماني . عرض فيها المؤلف لحواضر العراق ولشخصياته البارزة تحليلا ودرساً ، وكتب فصولها رسائل موجهة إلى الأديب اللبناني المعروف الشيخ عبد الله العلايلي .

☆☆☆

نشرت دار المكشوف في سلسلتها « أشهر العشاق » حياة بدلير الغرامية لكميل موكلير معربة بقلم الشاعر إلياس أبي شبكة . وقد عرض المؤلف للشاعر الفرنسي الغريب الأطوار بإسهاب فبين اختلاف مؤرخي الأدب في الحكم عليه وأن غرامه بالنساء كان يتفاوت بين الحب العذري والحب الصاخب المتهتك . وفصل علاقته بجان دوفال التي أكثر من التغني بها في قصائده .

سُوريا

قدم للطبع كتاب « روض البشر في أعيان دمشق في القرن الثالث عشر » لفضيلة الأستاذ محمد جميل الشطي ، وهو تتمة للسلسلة التي وضع الجزء الأول منها نجم الدين الغزي صاحب «الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة » . والكتاب يقع في ٣٢٠ صفحة ويحتوي على ٢٦٢ ترجمة لأعيان دمشق من علماء وأدباء وأمراء ووجهاء .

✲✲✲

صدر الجزء الأول من كتاب « عشائر الشام » للمهندس الزراعي وصفي زكريا وهو يبحث في جغرافية بادية الشام وتاريخها وعمرانها والأخلاق والعادات والشرائع في المجتمع البدوي ، وأنساب العشائر المتبدية والمتحضرة وأوصافها وأخبارها في كل محافظة وقضاء في سوريا .

✲✲✲

نال السيد حكمة هاشم شهادة دكتوربة الدولة في الآداب من جامعة باريس ، وكان موضوع رسالتيه (١) أثر الأفلاطونية الحديثة في فلسفة الغزالي (٢) ترجمة كتاب « ميزان العمل » للامام الغزالي .

✲✲✲

وضع نائب دمشق السيد فخري البارودي موسوعة عن « الموسيقى العربية » وهي ثمرة جهود عشر سنين قضاها المؤلف في البحث والاختبارات العملية .

✲✲✲

وضع المؤرخ السيد عزة دروزة كتاباً عن «عصر النبي عليه السلام وبيئته قبل البعثة» . وينقسم هذا الكتاب إلى أربعة أبواب . (١) الإقليم الحجازي وسكانه (٢) الحياة الاجتماعية في الجزيرة العربية . (٣) الحياة العقلية في الجاهلية . (٤) الأديان والعقائد الجاهلية .

✲✲✲

صدر حديثاً كتاب « الدستور في قانون الاستملاك الجديد » ليوسف كحلا . وكتاب « مجموعة القرارات التمييزية » — القسم الجزائي — للأستاذ آق بيق .

✲✲✲

عزم المجمع العلمي العربي على طبع كتاب « تاريخ دمشق »لابن عساكر الدمشقي المتوفى سنة ٥٧١ ه . وهذا الكتاب الضخم مكون من ثمانين مجلدا ألفه صاحبه على غرار تاريخ بغداد للخطيب البغدادي . وقد أرسلت أمانة سر المجمع تستنسخ الأجزاء الموجودة في مكاتب أوربا لمقابلتها على نسخة الظاهرية الكاملة .

✲✲✲

أصدر المجمع العلمي العربي بدمشق ديوان الشاعر ابن عنين الأنصاري الذي عني بنشره وتحقيقه الأستاذ خليل مردم بك . وهو يقع في ٢٧٠ صفحة ومصدر بمقدمة مطولة بقلم محققه تناول فيها حياة الشاعر وعلمه وأدبه وأخلاقه وشعره وديوانه . والكتاب مذيل بفهرس للقوافي مرتبة على حروف المعجم وثان للأعلام وآخر للبلدان والأمكنة .

أصدرت نقابة المحامين في حلب مجموعة المحاضرات التي ألقاها فريق من حضرات القضاة والمحامين بدعوة من النقابة في السنة القضائية ١٩٤٥ — ١٩٤٦ ، وقد ضمت الكثير من الآراء القانونية في صراحة داعية إلى التجديد بإصلاح التشريع . وهي تقع في ٥٤٤ صفحة من القطع الكبير ومصدرة بكلمة طيبة للأستاذ أسعد الكوراني نقيب المحامين.

العِراق

نشر الأستاذ عبد الرزاق الحصان رسالة نفيسة في « الحسبة » تبحث في نظام الهيئة الاجتماعية عند العرب ، لا سيما في العصر العباسي .

✡ ✡ ✡

نقل الأستاذ تقي بن محمد المصعبي عن الفرنسية رسالة « خطط الكوفة » للمستشرق الفرنسي الشهير لويس ماسنيون . وقد علق المترجم عليها تعليقات تاريخية وبلدانية مفيدة .

✡ ✡ ✡

أهدى المتحف البريطاني إلى خزانة كتب المتحف العراقي ، مجموعة من مطبوعاته تبلغ نيفاً وأربعمائة مجلد ، تدور بحوثها كلها على علم الآثار بمختلف فروعه .

✡ ✡ ✡

فرغ الدكتور مصطفى جواد والأستاذ كوركيس عواد ، من تصنيف « فهرست مخطوطات المتحف العراقي » الذي يشتمل على وصف مفصل للمخطوطات العربية والشرقية المحفوظة في خزانة كتب المتحف العراقي .

✡ ✡ ✡

صدر في الآونة الأخيرة بالعراق كتاب « الامتناع المشروع عن الوفاء » للدكتور صلاح الدين الناهي ، وهو الرسالة التي تقدم بها إلى جامعة فؤاد الأول سنة ١٩٤٥ ونال بها الدكتوراه . وقد فرغ الآن من طبع الجزء الأول من « شرح القانون التجاري العراقي » .

ونشر الأستاذ شاكر ناصر حيدر « مذكرة في أحكام تصرف الأجنبي بالأموال غير المنقولة في العراق » . ونشر الأستاذ حسن محمد علي كتاب « قانون ضريبة الدخل وتطبيقاته في العراق ». وأصدرت وزارة العدلية العدد الأول من « المجموعة الرسمية لمقررات المحاكم » .

✡ ✡ ✡

يعنى البحاثة العراقي الشهير ، الأستاذ يعقوب نعوم سركيس ، بجمع مقالاته التاريخية المنشورة في الصحف والمجلات المختلفة ، لغرض طبعها في كتاب .

✡ ✡ ✡

وضع الشيخ عبد الله السبيتي كتاباً في ترجمة الصحابي الشهير « عمار بن ياسر » .

✡ ✡ ✡

صدر الجزء الأول من كتاب « تاريخ مشاهير الألوية العراقيــة » للأستاذ عبد المجيد فهمي حسن ، تناول فيه الكلام على «لواء السليمانية» . فوصف مدينة السليمانية ذاتها، وتشكيلات اللواء الإدارية ، وتعرض لترجمة أشهر رجال هذا اللواء .

نقل الأستاذ عبدالعزيز إبرهيم البسام عن الإنكليزية ، كتاب « التربية : حقائقها وأصولها الأولى » للسير برسي نن . وهذا الكتاب هو باكورة مطبوعات « لجنة الترجمة والتأليف والنشر ببغداد » التي أنشأتها وزارة المعارف العراقية .

الهند

قابل الإخصائيون البريطانيون في الطب بصادق التقدير مادة البوليبوابن التي اهتدى إليها العلامة بوس P. E. Bose الأستاذ بكلية الطب بكلكته ، قائلين إنها قد تكون أهم شأناً من مادة البنسيلين. ويقال إن تأثيرها فعال في القضاء على حمى التيفود والكوليرا والدوسنطاريا . ويؤخذ من بعض الأنباء أن التجارب أسفرت عن نتائج باهرة في مقاومة الخراجات وقرح المعدة والأمراض المعدية التي تصيب العين والأنف والحنجرة والأذن. وتؤخذ المادة المتعفنة فيها من قصب الغاب أو الخشب المتعفن.

✡✡✡

من نادر تراث العرب بالهند « النكت والعيون » وهو تفسير القرآن من مصنفات الماوردي المتوفى سنة ٤٥٠ هجرية ، مكتوباً في سنة ٥٧٧ هجرية . ونسخة من « التفسير في التفسير » للامام القشيري المتوفى سنة ٤٦٥ ﻫ يذكره السبكي في طبقات الشافعية (راجع ج ٣ ص ٢٤٥ — ٢٤٦) باسم التفسير الكبير ويقول فيه إنه من أجود التفاسير وأوضحها وأن الإمام القشيري صنفه قبل سنة ٤١٠ ﻫ . ونسخة من « الأشباه والنظائر » لابن نجيم المتوفى سنة ٩٦٩ ﻫ كتبها المصنف بيده . ونسخة من « نهاية السول في رواية الستة الأصول » للحلبي المعروف بسبط ابن العجمي المتوفى سنة ٨٤١ﻫ مكتوبة بيد المصنف رحمه الله .

وجميع هذه النوادر في مكتبة الإمارة الإسلامية « رامبور » .

✡✡✡

في مكتبة الجمعية الإسيوية البنغالية نسخة للكتاب الشهير « فتح الباري » وهو شرح صحيح البخاري تصنيف الإمام ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ﻫ . والكتاب قد طبع مراراً ، ولكن مما يزيد قيمة هذه النسخة أنها مكتوبة بيد المصنف رحمه الله . وفي مكتبة بوربتنه كتاب « مشكل الحديث » لابن فورك المتوفى سنة ٤٠٦ ﻫ . وهو من شيوخ الإمام البيهقي صاحب السنن الشهيرة. والكتاب في أصول الحديث وقد كتب في سنة ٦٠٧ ﻫ .

✡✡✡

قررت حكومة الهند الحاضرة تعليم أولاد جميع الهنود القاطنين في جنوبي أفريقيا والمضطهدين بالقوانين المحلية في جامعات الهند ومعاهدها مجاناً ومساعدة الفقراء منهم وكذلك المتفوقين .

انجلترا

نوه الملحق الأدبي لجريدة التيمس بنشر كتاب « فيصل بن الحسين ، في خطبه وأقواله » . ومما أتى في ذلك أن الفصاحة موهبة كانت لها قيمتها أبداً في تاريخ العرب ، وأن هذا الكتاب إلى جانب أهميته التاريخية يعتبر ذخراً جديداً يضاف إلى الأدب العربي . وقد ترجمت منه بعض العبارات منها : « لقد نمنا ستمائة سنة لكنا لم نمت . . وترقبنا حتى أتيحت لنا الظروف المواتية كي ننهض وتندفع إلى ميدان الجهاد . . »

✡✡✡

Nisi Dominus, by Nevill Barbour

وهذا كتاب آخر عن العرب واليهود يتحدث عن تاريخ فلسطين منذ أيام إبرهيم ويوجز تاريخ اليهود حتى نشأة الحركة الصهيونية ويتحدث عن التاريخ الجنسي لسكان فلسطين ، ثم يعرض لوعد بلفور والظروف التي لابسته . وهو كتاب يتميز بالاعتماد على المصادر والنصوص العربية والعبرية ، وهو يؤيد وجهة نظر العرب تأييدا رصيناً قويا .

✡✡✡

The Discovery of India, by Jawaharlal Nehru

ظهر أخيراً للزعيم الهندي جواهرلال نهرو كتاب جديد بعنوان « كشف الهند » ، وهو أحد الكتب التي كتبها خلال سنوات اعتقاله الطويلة . وقد نشر من قبل « ترجمة حياته » ، و « لمحات من تاريخ العالم » . والكتاب الجديد يستعرض تاريخ الهند منذ أقدم العصور من الناحية الثقافية والاجتماعية ، كما يستعرض تاريخ الهند الحديث وجهادها في سبيل الاستقلال والحرية والتخلص من الحكم البريطاني .

✡✡✡

من أنباء بروكسل أن بها شابا يستطيع أن يضرب مثلا ٧٤٤٧٢ في ٣٣٨٩ ، ويعطي الجواب الصحيح في دقائق ثلاث دون الاستعانة بقلم . وقد اختبره مجلس من علماء الرياضة والنفس. ومن عجيب أمره أنه بقي حتى سن السابعة عشرة يجهل القراءة والكتابة حتى عني بأمره أحد الجيران فبدأ يعلمه الحساب فسرعان ما تفوق عليه . وقد استخدم علماء المرصد الملكي الذين اختبروه آلة للحساب لتحقيق النتائج التي كان يقول بها فتبينوا صحتها . وقد استطاع أن يذكر لهم مكعب ١٢٥١ في ثلاثين ثانية . وهم في حيرة من أمر تلك الموهبة الخارقة .

✡✡✡

ذكر أحد العلماء في محاضرة ألقاها في الشهر الماضي على أعضاء الجمعية البريطانية لدراسة الكواكب أنه يحتمل أن ترسل أول قذيفة إلى القمر بعد خمس سنوات ، وأن هذا سوف يكون بداية لكشف الأجرام السماوية الأخرى . ومما أتى في حديثه أن الرحلة إلى المريخ بالطرق المعروفة حتى الآن تستغرق ٢٥٨ يوماً لكنهم إن استطاعوا استخدام الذرة أمكن الوصول إليه في حوالي ثلاثة أسابيع . وقال إن الربع الأخير من القرن العشرين سوف يكون فترة من فترات دراسة العوالم الأخرى لم ير الناس مثلها من قبل .

Mission of the University, by Jose Ortega & Gasset Kegan Paul

« رسالة الجامعة » كتاب بقلم أحد النابهين من مفكري الأسبان يبحث فيه سبيل النهوض بالتعليم العالي ويعرض فيه لما ينبغي أن تقوم به الجامعات في العصر الحديث ، وهذا الكتاب هو آخر ما أضيف إلى سلسلة المكتبة الدولية لعلوم الاجتماع .

✡ ✡ ✡

The Perennial Philosophy, Aldous Huxley

« الفلسفة الباقية » كتاب ظهر أخيراً للمفكر المعروف ألدوس هكسلي يقرر فيه أن الاهتداء إلى الحق خلال آلاف السنوات الماضية لم يظفر به سوى من خلصت قلوبهم ونفوسهم . وهو لهذا لم يرجع في انتقاء هذه المختارات التي تضمنها كتابه إلى الفلاسفة المعروفين بل إلى حكماء الشرق والغرب ومتصوفيهم .

✡ ✡ ✡

منحت جامعة أكسفرد في السابع عشر من شهر أكتوبر الأستاذ كرزويل أستاذ العمارة الإسلامية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول بمصر درجة الدكتوراه الفخرية تقديراً لفضله وجهوده العلمية في خدمة الآثار الإسلامية واعترافاً بعلمه الوافر في المؤلفات والأبحاث التي نشرها في هذا الميدان .

أمريكا

بعد اثني عشر عاما في عزلة وهدوء قضاها الكاتب المسرحي الشهير أجين أونيل Engene O'neill الحائز على جائزة نوبل والذي يعتبره الأمريكيون أعظم كاتب مسرحي ظهر في أمريكا حتى اليوم، يعود الآن إلى الظهور على ميدان المسرح بقصته الجديدة The Iceman Cometh التي تجرى الاستعدادات الآن لإخراجها في أحد المسارح الكبيرة بنيويورك .

✡ ✡ ✡

من الكتب التي ظهرت أخيراً كتاب «كما رأى» بقلم إليوت رزفلت As he saw it, by Elliot Roosevelt ويعد هذا الكتاب أول نشر للمعلومات الهامة المتعلقة بمؤتمرات أرجنتينا والدار البيضاء وطهران والقاهرة ، تلك المؤتمرات التي رسمت فيها سياسة العالم في الحرب والسلم . ولهذا الكتاب أهمية خاصة بالنسبة إلى أن كاتبه هو ابن الرئيس روزفلت وقد صحب والده في جميع هذه المؤتمرات فشاهد عن كثب جميع المناقشات التي دارت فيها ، واشتغل بنفسه في إعداد كثير من البيانات والوثائق لوالده .

✡ ✡ ✡

« الشاعر والمسرح » بقلم رونلد بيكوك The poet in the theatre, by Ronald Peacock يعالج المؤلف في هذا الكتاب العلاقة بين الشعر والمسرح ويحلل خصائص الشعر وخصائص الأسلوب المسرحي ، وفيه دراسة مفصلة لبعض الشعراء وكتاب المسرح مثل إليوت وهنري جيمس وأبسن وبرنرد شو وشيكوف .

بشكين: شاعر ومحب بقلم ليديالامبرت Pushkin : Poet and lover, by Lydia Lambert
وهو قصة ألكسندر بشكين شاعر روسيا الكبير الذي هز شعره القلوب وأسكب الدموع من عيون الناس . وقد عنيت المؤلفة بتاريخ صباه وشبابه وذكر حوادث حبه وغرامه .

✡ ✡ ✡

سوريا ولبنان بقلم حوراني Syria and Lebanon, by A. K. Hourani
يحاول المؤلف ، وهو سوري الأصل أمريكي الثقافة ، أن يحلل في هذا الكتاب العوامل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية المختلفة التي تشكل الحياة الآن في سوريا ولبنان ، ويبين ما فيها من ضعف ، ويشيد بما في هذين البلدين الآن من بوادر النهضة والرقي . . ويذكر المؤلف ما لموقع هذين البلدين من أهمية جغرافية استراتيجية ، وما كان لذلك من أثر في سياستهما الخارجية . . كما يشير إلي التيارات الثقافية المختلفة في هذين البلدين وخاصة ما كان لجامعة الآباء اليسوعيين الفرنسية في سوريا والجامعة الأمريكية في بيروت من أثر في الحياة الفكرية في أهل هذين البلدين . .

✡ ✡ ✡

تأسس بنيويورك معهد للشؤون العربية الأمريكية يبحث قضايا البلدان العربية بما فيها قضية فلسطين ، وينشر أبحاثه باللغة الإنجليزية تنويراً للشعوب « الأنجلو أمريكان » بنهضة العرب الحاضرة ومطالبهم .

روسيا

كانت مأساة طولون التي أغرق فيها الأسطول الفرنسي مثار وحي وإلهام لأقلام كثير من الكتاب والشعراء ، وقد اقتبس الأديب فاسيلي فاسيلوفتش شكفاركن مسرحية طريفة عن الرواية التي وضعها الكاتب الفرنسي جان ريشرد بلوك وصور فيها حادث إغراق الأسطول الفرنسي ، وهي تعد أول رواية مسرحية اقتبست حوادثها من وقائع هذه الحرب .

✡ ✡ ✡

أصدرت الحكومة السوفيتية في طبعات جديدة جميع مؤلفات الشاعر ألكسندر بلوك الملقب بشاعر الثورة وذلك لمناسبة مرور ربع قرن على وفاته .

✡ ✡ ✡

ظهر « فلم » للمخرج إيزنشتاين عن حياة إيفان الهائل ، وقد عرض أخيراً في مختلف عواصم أوربا وأحرز إعجاباً كبيراً لأنه يرسم الحد الفاصل بين الفن الروسي القديم والفن الحديث .

✡ ✡ ✡

أصدر فيدور جلادكوف قصة جديدة بعنوان « القوة » وهي تتناول في أسلوب طريف تصوير الجهود الجبارة التي قام بها عمال المصانع في جبال الأورال في أثناء زحف القوات الألمانية ، وقد دلل المؤلف على أن النصر الذي أحرزته الجيوش الروسية إنما يرجع إلى جهود هؤلاء العمال .

✡ ✡ ✡

يعد فلاديمير يوزنر في طليعة الأدباء الروس الذين يعيشون في الخارج ، وقد أصدر أخيراً كتاباً بعنوان : « هنا وهناك » حاول أن يثبت فيه أن جميع تيارات الأدب العالمي تأثرت عقب

الحرب بروح الأدب الكلاسيكي ولا سيما ما يتعلق برسم أخلاق الطبقة العاملة بحيث أصبح هذا اللون من الأدب ينم عما سيكون عليه أدب المستقبل .

✡ ✡ ✡

فاز كتاب لأديب فرنسي يدعى جيرار ميلهو بجائزة أصدقاء الثقافة الروسية . وهذا الكتاب عنوانه « ستالنجراد باب النصر » وفيه يجتهد الكاتب أن يبرهن على أن معركة ستالنجراد كانت المعركة الفاصلة في هذه الحرب كما كانت معركة فردان في الحرب الماضية .

فرنسا

أقيم في فينا معرض للفن الفرنسي وهو أول « صالون للخريف » يقيمه الفرنسيون في مدينة أجنبية . وقد انتهى بنجاح عظيم إذ تجاوز الدخل منه مليوناً ونصف مليون فرنك . وبلغ عدد الزوار ٥٣٤٠٠ زائر . واشترك فيه ٢٧٥ فناناً .

✡ ✡ ✡

يصل إلى باريس قريباً كبار موظفي سكرتيرية هيئة الأمم المتحدة لشؤون التربية والعلوم والثقافة التي ألفت بناء على قرار من المؤتمر الدولي الذي عقد في لندن خلال شهر نوفمبر الماضي لبحث مسألة التربية والتعليم في جميع البلاد المسالمة في العالم عن طريق تبادل الأفكار والمعلومات والعمل على تنمية العلاقات الثقافية بين الشعوب .

✡ ✡ ✡

أقام المسيو هنري مالو مدير متحف قصر سانتيلي معرضاً عرضت فيه مائة لوحة فرنسية قديمة نجت من دمار الحرب ، وهي تدل على أنه كان في القرن الخامس عشر أساتذة جديرون بأن يكونوا على قدم المساواة مع أعظم الرسامين . والقصر الذي أقيم فيه المعرض كان قد تبرع به الدوق دومال لمجمع فرنسا بكل ما فيه من التحف التي جمعها في رحلاته الكثيرة .

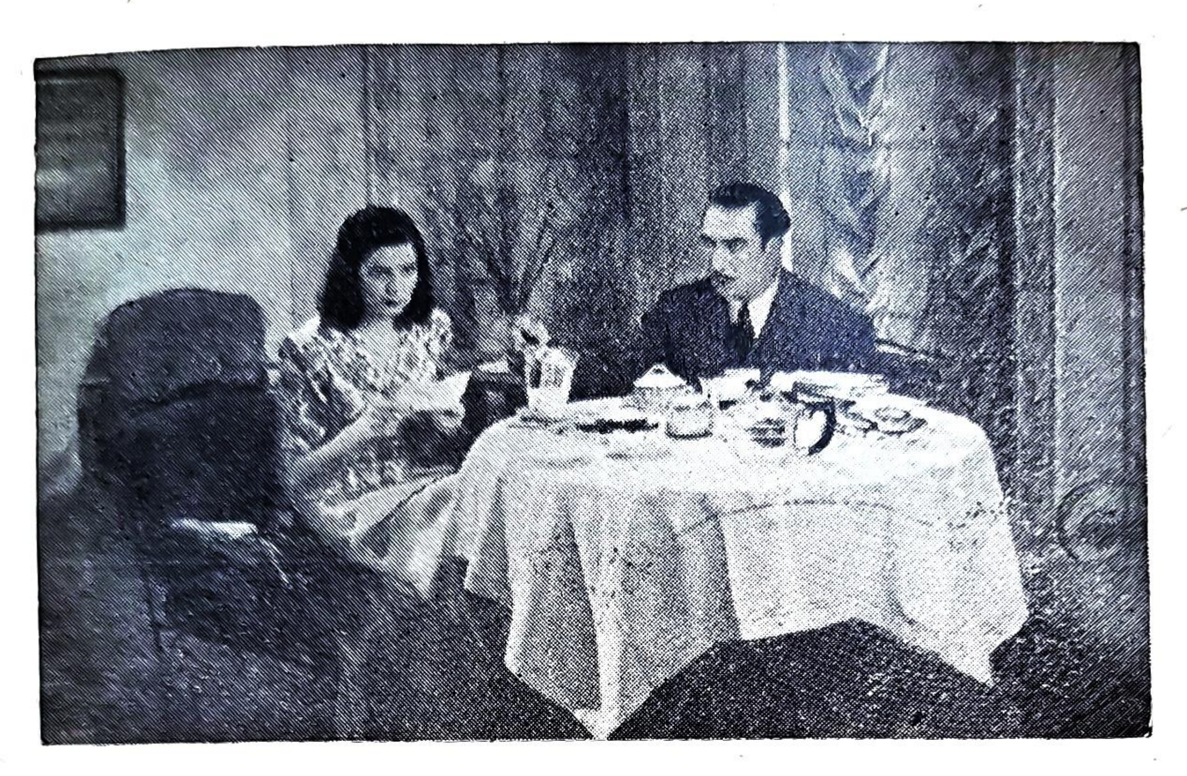
✡ ✡ ✡

عينت وزارة التربية الوطنية الفرنسية المستشرق المعروف الأستاذ لويس ماسنيون عضو المجمع الملكي المصري وصاحب الدراسات الصوفية الشهيرة ، مستشاراً فنيا لها في البلدان العربية والإسلامية .





بنك مصر
شركة مساهمة مصرية
س . ت ٢ — القاهرة
يؤدى جميع أعمال البنوك
المركز الرئيسى : ١٥١ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)
فرع الإسكندرية : ١٩ شارع طلعت حرب باشا
للبنك فروع ومكاتب ومندوبيات بأهم مدن القطر المصرى
وله مراسلون فى جميع أنحاء العالم
صندوق التوفير يشجع على الاقتصاد والادخار
تأجير الخزن الحديدية بشروط مناسبة
مؤسس الصناعات الكبرى وشركات "مصر"



الأستاذ يوسف وهبي بك والسيدة راقية إبرهيم
في مشهد من فيلم «ملاك الرحمة» الذى يعرض في سينما الكورسال ابتداء من الاثنين ٤ نوفمبر ١٩٤٦
(إنتاج وتوزيع نحاس فيلم)


نقاوة بشرتي
وجودة صحتي
من استعمالي صابون
الروضة
مصنوع من زيت الزيتون النقي
إنتاج
مصانع صابون نقولا كحلا بك
الجمالية وغمرة
س. ت ٢٤٨١



السنة الثانية — المجلد الثالث — المحرم ١٣٦٦
الجزء الثاني — ديسمبر ١٩٤٦

عروس القصائد

لو كان للقصائد كما للحسان مهرجانات يجتمع فيها أهل البصر بالشعر لاختيار ملكة للقصائد لعام من الأعوام مثلما يجتمع أهل البصر بالجمال الجسماني لاختيار ملكة للجمال لكانت قصيدة الأخطل الصغير الأستاذ بشارة الخوري في تهنئة رئيس الجمهورية السورية قصيدة هذا الموسم بلا منازع .

إن المحكمين في مباريات الجمال يقصرون البحث والدرس والمماثلة على ما تعرضه أعينهم من نماذج الجمال الإنساني وقد يكون بين جدران الخدور محصنات أبهى حسناً وأروع جمالاً وأدق قسمات وأكمل مثالاً لمقاييس الجمال ولكنهن بقين مصونات عن الأعين الفاحصة وتنزهن عن الانخراط في سلك عواري الدمى فلا سبيل إلى أن يُقْدر جمالهن قادر ولا إلى أن تشملهن المباراة ونعمّا يفعلن .

وكذلك كان انتخابنا فالمباراة لم تشمل بطبيعة الحال إلا القصائد التي وقفنا عليها وما هي بالقليل فكانت قصيدة الأخطل الصغير ملكتهن المتوجة وربما كان هناك قصيدة أجدر بهذا الإكليل الذي ضفرناه لها ولكنها بقيت محجبة في ضمير الغيب أو مطوية في خدور القراطيس أو متوارية في غلالة متواضعة من الصحف في حين أن عرائس الفكر لا يضيرهن العرض والسفور لأنهن نماذج من جمال الروح وأجنحة سماوية يرقين بالأنفس إلى عوالم النور والشعور فإذا انعقدت لهن المهرجانات لاختيار عروس العرائس من بينهن فلا إثم ولا حرج بل الإثم والحرج أن يتقاعس بعضهن عن دخول المهرجان فلولا عكاظ مثلاً ما توجت كثير من القصائد ملكات على عرش الشعر .

وملكة الجمال المنتخبة قد لا تكون آية في الكمال الإنساني وقد يعتورها في حساب مقاييس الجمال المتواضع عليها نقص أو زيادة يبعدانها عن حد الكمال فإذا ظفرت بعد ذلك باللقب الذي تتمناه كل فتاة دلّ فوزها على أنها أقرب المتباريات إلى الكمال وعلى أن

الهنوات فيها قد ضؤلت حتى لا تبين ودقت حتى توارت أمام قسمات الجمال الوضاحة اللماحة وقصيدة الأخطل الصغير إن لم تكن آية في الكمال فهي أقرب قصائد العام إلى الكمال أو كان فيها هنوات تعيبها ففيها من الجمال المشرق مايصرف الذهن عن تلمس مواقع الزلل .

وللأخطل الصغير اليوم مكانة مرموقة في بلاد العرب فقد احتل شعره قلوب أبنائها بالمقطوعات المطربة المرقصة أولاً ثم بتلك القصائد العامرة التي شاطرها فيها أفراحها وأشجانها فلا عجب إذا تلفتت إليه النفوس بعد ذلك في كل حدث من أحداث الحياة تنتظر أن تسمع من قيثارته العلوية ألحان الأفراح ونغمات التأساء ولا عجب إذا أقبلت الأذهان على ينابيع وحيه إقبال الصديان على الينبوع السلسال يرتوي من مائه وتنعم صفحات وجهه برشاشه ويكحل عينه بالأضواء المتناثرة خلل دفقات الماء .

ولئن كانت آثار كل شاعر كبير حقيقة بأن يحفل بها قرّاء الشعر إن قصيدة الأخطل الصغير في الرئيس القوتلي أحق بأن تكون موضع الحفل والرعاية لما يحف بها من جلال الغرض ومكانة المقولة فيه ومنزلة القائل وليس أدل على إكبارها الإكبار كله واجتماع الرأي على نفاستها وسموها من تواتر نشرها في غير صحيفة ومجلة وتردّد أبياتها على ألسنة الأدباء والمتأدبين كلما اجتمع نفر منهم وتذاكروا الشعر والشعراء ولعلنا نستطيع في هذه العجالة أن نجلو للقارىء أسرار الجمال فيها ونبين له دقائق كيانها فيما لها وما عليها ولا نخاله بعد هـذا البيان إلا مقتنعاً بأننا ما تجاوزنا حدود العدل والإنصاف وصواب الحكم إذ توجناها ملكة على عرائس الشعر في هذا العام .

***

لهـذه القصيدة دلالات عامة ودلالات خاصة فمن الدلالات العامة أن قارئها أوسامعها لايفرغ من تلاوتها أوسماع إنشادها حتى يحكم لها بأنها قصيدة من عيون الشعر فيها جمال وفيها ابتكار وفيها معان تهز القلب فيترجم اللسان تلك الهزة بكلمة استودعت كل معاني الدهش والسحر والإعجاب وهي الله . الله . إنها كلمة ترقى بها النفس إلى خالقها وهي قائلة : رب إن على الأرض جمالا من جمالك ونوراً من نورك وصوتاً من أصوات ملائكتك وصورة من صور فراديسك وإنها لآيات تحمل على الفتنة فاحمنا منها يا ألله . يا ألله .

ومن هذه الدلالات العامة أن أعذب الشعر ماتألقت معانيه وسما خياله فلم يجنح إلى الإغراب وتفاعلت فيه النفس فاسترسلت على سجيتها لا تتصنع ولا تتكلف ولا تحمّل

الفكر أثقال العنت والإرهاق ولا تقدم له الألغاز والأحاجي في كؤوس القوافي والأوزان فإن احتوى على إشارة فإلى حوادث أفرها العلم والتاريخ وإن تضمن رمزاً من الرموز ففي كنايات واستعارات معقولة مقبولة لا يتحير أمامها العقل ولا الذوق سواء أكانت قديمة مصبوبة في قوالب جديدة أم حديثة مبتكرة يألفها العرف وترضى عنها صحائح الأفهام. وأعذب الشعر أيضاً ما تآلف فيه اللفظ والنحو والعروض فكثيراً ما جنت على المعنى الطريف – بله الإغراق في الغموض والإبهام – ألفاظ مقلقلة نابية عن مواقعها وازدراء بالعلوم اللسانية لا سبب له وصياغة تنحدر بالمعنى من سوامق رباعه إلى دركات الحضيض. ولعل هذه القصيدة فيما حوته من حسنات وفيما اشتملت عليه من نفائس القديم وبدائع الجديد تكون للمشغوفين بالجديد هادياً إلى السبيل السوي وللمزدهين شعر «المناسبات» مثالاً قويا يريهم أن الشعر ينبثق عن انفعال الشاعر مهما كان سبب ذلك الانفعال.

يعيب بعض الناس على الشعر العربي في هـذا العصر أنه لا يزال يجرر الذيول في ركاب العظماء وأنه لا يزال صورة مشوهة ممسوخة من صور الشعر القديم في المدح والرثاء وأنه متخلف عن ركب الحياة وعن الانطباع بآثار العصر ومعالمه وفاتهم أن الجديد لا يكون في الموضوع أو الصياغة وإنما هو في المعنى والخيال وأن الشعر فيض من النفس تفيض به حيثما اهتزت جوانبها وتحرك شعورها ومن الأسباب التي تهتز لها النفس ما هو مشترك بين الأزمنة لا يتميز به زمن دون آخر فتصوير العواطف البشرية لا قدم فيه ولا جدة فالحب حب والبغضاء بغضاء من يوم خلق آدم إلى يوم يبعثون ولا تختلف صورة ذلك الحب وتلك البغضاء إلا باختلاف ما يستعمل في تصويرها من أدوات وألوان تكون وفق ذوق العصر ومبلغ حضارته ومأثور عاداته. وليس جمال الشعر بمقصور تألقه على الملاحم ولا على القصص ولا على الشعر الصوفي أو الرمزي ولا على الموضوعات التي تشغل أذهان العالم وإنما يكون الجمال حيثما شاء له الوحي أن يكون فقد نجده في أبهاء القصور كما نجده بين حوائط الأكواخ وقد نجد في قصيدة مدح أو رثاء من المعاني الإنسانية ما لا نقع على مثله في ملاحم برأسها فالشراب في قيمته لا في إنائه والفضل للشاعر لا للموضوع.

يصاب الشعر في إثر كل نهضة بفريقين متخاصمين ويحتدم أوار المعركة بين أنصار القديم وأنصار الجديد حتى تكتب الغلبة لأحد الفريقين وقلما كان الفوز لأنصار القديم لأن الجديد فيه الروح المتوثبة والشمس الطالعة وأفانين الحياة المتجددة وربما رضي أنصار القديم عن روائع الجديد ومنعتهم الخيـلاء عن فضيلة الرجوع إلى الحق فابن

الأعرابي مثلاً كان يعجب بشعر أبي تمام ويتمثل به وهو مع ذلك جم الكره له شديد التعصب عليه وما كان للجديد أن يفوز في كل نهضة لولا وافر عدته وعبقرية رجاله فلو دعا إلى الجديد في العصر العباسي رجل غير أبي نواس وغير أبي تمام أفكان يصيب النجاح الذي أصاباه ؟ لا نخال الجواب إلا سلباً على ما في الجديد من طوابع القوة والحياة وسيظل الشعر في هـذا العصر يتراوحه فريقا القديم والجديد ويعالجه في طريق وسط فريق ثالث ومنهم بشارة الخوري حتى يهيء الله لأنصار الجديد كتيبة قوية تنتزع رايته وتشكها في أعالي اليفاع .

عروس القصائد في هذا العام مثل للجديد في بعض معانيها وصورها ومثل للقديم في رصانة سبكها وفي خلوها من السياق المطرد الذي تقوم عليه وحدة القصيدة ولقد يصعب على من يتلمس ارتباط الأجزاء بالموضوع الواحد أن يجده في قصيدة الأخطل الصغير هذه ولن يجد إلا خمرية نفيسة من خمريات الأخطل الصغير ختمها بكلام عاجل عن البطولة والوطنية والعيد الثالث للجمهورية ومما لاشك فيه أن الزمن سيدرج في غياهب النسيان هـذه الخاتمة وسيبقي على القسم الأول منها تتناشده الركبان في الطويل الباقي من الأيام كما فعل بقصيدة شوقي التي مطلعها : « خدعوها بقولهم حسناء » فقد بقي الغزل منها أنشودة الليالي والأيام وعـفّى الدهر منها منازل المديح .

* * *

ومن الدلالات الخاصة في هذه القصيدة أنها تنبيك عن روح ناظمها وفنه وقد تغنيك عن ديوان برأسه لتتعرف هذه الأقانيم الثلاثة في شاعرية الأخطل الصغير .

أما روحه فقد جلاها لك في قوله :

روح كما انحطم الغدير على الصفا ... شعباً مشـعبة إلى أرواح
للحب أكثرها وبعض كثيرها ... لرقى الجمـال وبعضها للراح

وهذه الروح لا تفتأ تتهالك على الهوى والخمر لايثنيها عنهما شباب مودع وكهولة مقيمة أو شيخوخة مقبلة :

أنا لا أشيّع بالدموع صبابتي ... لكن ألف جناحهـا بجناحي
إلفان في صيف الهوى وخريفه ... عزا على غير الزمان المـاحي
ذرني وما زرع الزمان بمفرقي ... ما كنت أدفن في الثلوج صداحي
من كان من دنياه ينفض راحه ... فأنا على دنيـاي أقبض راحي
إني أفدي كل شمس أصـيلة ... حذر المغيب بألف شمس صباح

وهو نسيج وحده بين الشعراء الكهول في قبضه براحه على الدنيا واستسلامه مع ما زرعه الزمان في مفرقه من نذر الهرم والشيخوخة إلى لذاذات الهوى والراح في حين أن اللامة البيضاء خليقة بأن تنبه صاحبها إلى الاستعبار والاستغفار وإلى حقيقة لم يدركها الأخطل الصغير أو تجاهلها وهي :

إنما الشيخ هزأة للغواني ليس في حبهن بالمعذور

هذه الحقيقة أدركها الأخطل الكبير فقال هذا البيت وقال أيضاً :

يا قاتل الله وصل الغانيات إذا أيقنّ أنك ممن قد زها الكِبَرُ

أعرضن لما حنى قوسي موتّرها وابيضّ بعد سواد اللامة الشَّعَرُ

ما يرعوين إلى داع لحاجته ولا لهن إلى ذي شيبة وطرُ

إلى كثير من مثل هـذا الذي تتجسم فيه الحرقة والحسرة . ثم إن أبا نواس الذي يقول :

يا أحمد المرتجى في كل نائبة قم سيدي نعص جبّار السموات

لم يصم أذنه لوازع الشيب بل رأى فيه الواعظ الناصح الذي يدعوه إلى التوبة والاستغفار فيقول :

أية نار قدح القـادح وأي جـدّ بلغ المـازح

لله در الشيب من واعظ وناصح لو خطئ الناصح

كذلك لم يتعام ابن الرومي عن حقائق المشيب وما فيه للحسان من منصرف عن صاحبه فنراه يناجيه في كلمات تقطر أسى وأسفاً حيث يقول :

يا بياض المشيب سوّدت وجهي عند بيض الوجوه سود القرون

وما شذّ عن هذه القاعدة المثلى شعراء هذا العصر فبينا نسمع شوقي يتحسر قائلاً :

شيعت أحـلامي بقلب باك ولممت من طرق المـلاح شباكي

نسمع الجارم يتأوه ويندب إخفاقه في حلو الوصال ويتمنى لو يستبدل ببياض المشيب سواد الفاحم اللماح ولكن هيهات :

ألقيت للغيد الملاح سـلاحي ورجعت أغسل بالدموع جراحي

من لي وقد عبث المشيب بلمتي بضـياء ذاك الفـاحم اللماح

أيام أوتاري تغرد وحـدها وتكاد تسكر في الزجاجة راحي

عادت إليّ حبـائلي فلممتها ورضيت من ضحك الهوى بنواحي

لم يبق مني الوجد غير حشاشة لولا التعلل آذنت برواح

وهناك شاعر لبناني آخر هو شبلي الملاط نقر على مثل هذا الوتر فقال :

تآمرت العيون على فؤادي فلم يرفق به عيسى وموسى
كذاك المرء حين يشيب رأساً ترى وجه الزمان له عبوسا

وهب شعراء الأرض قاطبة ناحوا على الشباب وصبّوا جامات اللعنة على المشيب أترى ذلك يغير من روح الأخطل الصغير ؟ لا نظن فالرجل صادق في شعوره يصوّر روحه المرحة الصابية تصويراً لا تشك معه في أنه سيلفظ أنفاسه الأخيرة بعد عمر طويل إن شاء الله وأسراب الحسان تحف حواليه ويده المرتعشة تنقل كأس الشراب إلى شفتيه حتى إذا غاب وجههلاغاب عن هذه الحياة طوي البساط وجفت الأقداحفلاهوى ولاراح:

ولد الهوى والخمر ليلة مولدي وسيحملان معي على ألواحي

أرأيت إلى هذه الأثرة التي تذكرنا بأثرة الشاعر القائل :

معللتي بالوصل والموت دونه إذا مت ظمآناً فلا نزل القطر

والحق إن هذه الأثرة عند الأخطل الصغير مبعثها حياة قضاها في صهباء صارخة وليل ضاح فتوهم أن الهوى والخمر ظئران له ولن تجدا بعده رضيعاً لا ينفطم فعليهما العفاء والسلام وما كان ضرّ بشارة الخوري لو حمل الخمر فقط بعد يوم بعيد على ألواحه وترك الهوى لقلوب الناس على نحو ما فعل سميه بشارة غانم القائل :

ادفنوني وادفنوا الخمر معي وضعوا الأقداح حول المقبره

والهوى والخمر وقد عاش الأخطل الصغير بينهما على نغم الصبا يشتف روحهما ويعطي مثلها روحاً ويسلم لياليه فيهما لصباحه ما كانا على أنهما مضيعة الشجن ومجلبة السرور ليمنعا عن الشاعر أوصاب الحياة وهمومها فيشرب الماء غير قراح ويتحجب عن العيون شبحًا لا روحاً ويري الشامتين صفحة هادئة وفي أحشائه الرياح العاصفة حتى إذا جنّت رياح سفينته ذهب الجنون بحكمة الملاح . هذه الصيحة الأليمة لابدّ من أن يكون لها مايسوغها وأقصى ما نرجوه مع دعائنا للشاعر بالهدوء والاستقرار والعافية أن تسير سفينة شعره في رياح عاصفة لينزع عنه ثوب الحكمة وبرد الصمت ويقف هوج الرياح بمثل هذه الأهازيج المنبثقة عن مِزْهر في يديه شد الوحي أوتاره ونقرت ريشة الإلهام عليها أطرب النغمات .

وأما فنه فيتمثل في العاطفة والخيال وما يتبع هذين من ازدحام الصور ووفرة التشبيهات والاستعارات تجمع كل هذا ألفاظ صافية جزلة وأسلوب طبيعي يكشف لك عن شعور صادق ولكنه شعور ملتهب ينبعث شرره من صوّان القوافي وزناد الألفاظ .

وقد تكون بعض معانيه مطروقة وتشبيهاته مسبوقاً إليها غير أنه يلبسها من فنه وصياغته ويضفي عليها من خياله وإحساسه وحلو صناعته وجميل صقله ما يبرزها جميلة جديدة ويخلقها خلقاً جديداً سويا يسحب الذيل على كيانها السابق وقسماتها الأولى .

لا تكاد تخلو قصيدة حائية يتطرق ناظمها إلى وصف الرياض من ذكر التفاح وجماله وطيب عرفه ولكنها تكاد تخلو من هذا الخيال المبتكر الذي أسبغه الأخطل الصغير على التفاح إذ يقول :

والغصن في حضن الرياض وسادة نمت على عنقين من تفاح
متلازمين توجسا إثم الهوى فتخوفا طرف الضحى اللماح

ولا جدال أن الذي ساعد الشاعر على ابتداع هذا الخيال إغراقه في الهوى وإمعانه في لذاذات الحب وتنكره للعاذلين والرقباء حتى لينقل إلى النبات هذه الحياة الحبيبة الممتعة التي لا ينغصها غير طرف الرقيب .

ومن فنون الأخطل الصغير أنه يرسم الصورة كاملة تامة في مزيج عجيب من الألوان والأضواء والظلال بحيث تعجب الناظر إليها وتهز مشاعره ثم هو يترك وراءها للمتأمل آفاقاً وآفاقاً فالصورة الواضحة في هذين البيتين صورة تفاحتين متلازمتين توجستا إثم الهوى فتخوفتا من طرف الضحى الفضاح وللفكر أن يقدر ما وراء هذه الصورة الواضحة من حواش وذيول كتستر التفاحتين بالأوراق خشية الفضيحة وكتسرب شعاع الشمس من خلل الأوراق إلى جسمهما العاري وصبغه باللون الأحمر لون الخجل في حين أن ما استتر من جسمهما بقي لونه أصفر وهو لون الخوف والرهبة وقل مثل هذا في باقي الصور التي تزخر بها عروس القصائد .

ومن معانيه المطروقة مثلاً وصله الليل بالنهار واشتفافه روح الهوى والخمر فهما وهذه دعوى ادعاها كل شاعر عاش بين الهوى والخمر وسجلها صراحة في شعره ولكن الأخطل الصغير سجل هذه الدعوى في تعبير حلو ممتلئ بالروح والحياة والحركة فهو يقول :

أشتف روحهما وأعطي مثلها روحاً وأسلم ليلتي لصباحي

« أسلم ليلتي لصباحي » هذه تساوي قصيدة بعينها فأبو نواس على إغراقه في الشراب وقضائه الليالي الصارخة لم يستطع إلا أن يقول هذا البيت الجامد البارد وهو :

تعاتبني على شرب اصطباح ووصل الليل من فلق الصباح

ولن يظفر الباحث في شعر الأخطل الصغير بروحانية عمر الخيام ولكن يظفر فيه بما يذكره بالأخطل الكبير وأبي نواس من حيث أن الخمر عنده وعندهما غاية لا وسيلة

وقف ثلاثتهم العمر على شربها لا لكي يغرقوا همومهم في كؤوسها ولكن ليجتنوا منها اللذة والمتعة والمراح فكيف يكون المنخل اليشكري إذا شربها رب الخورنق والسدير :

ولقد شربت من المدا مة بالصغير وبالكبير
فإذا سكرت فإنني رب الخورنق والسدير
وإذا صحوت فإنني رب الشويهة والبعير

ولا يكون الأخطل الكبير إذا شربها خليفة المسلمين وأمير المؤمنين :

إذا ما نديمي علّني ثم علني ثلاث زجاجات لهن هديرُ
خرجت أجر الذيل زهواً كأنني عليك أميرَ المؤمنين أميرُ

ولقد بلغ من فجور الأخطل الكبير أنه دخل على عبدالملك بن مروان يوماً فاستنشده فقال قد يبس حلقي فمر من يسقيني فقال اسقوه ماء فقال شراب الحمار وهو عندنا كثير قال فاسقوه لبناً قال عن اللبن فطمت قال فاسقوه عسلاً قال شراب المريض قال فتريد ماذا قال خمراً يا أمير المؤمنين قال أوعهدتني أسقي الخمر لا أم لك لولا حرمتك بنا لفعلت بك وفعلت فخرج فلقي فراشاً لعبد الملك فقال ويلك إن أمير المؤمنين استنشدني وقد صحل صوتي فاسقني شربة خمر فسقاه فقال اعدله بآخر فسقاه آخر فقال تركتهما يعتركان في بطني اسقني ثالثاً فسقاه ثالثاً فقال تركتني أمشي على واحدة اعدل ميلي برابع فسقاه رابعاً فدخل على عبد الملك فأنشده : خَفَّ القطين فراحوا منك أو بكروا . . . فقال عبد الملك خذ بيده يا غلام فأخرجه ثم ألق عليه من الخلع مايغمره وأحسن جائزته وقال إن لكل قوم شاعراً وإن شاعر بني أمية الأخطل . ولئن لم يخلع رئيس الجمهورية السورية على بشارة الخوري لقب شاعر بني أمية لقد خلع عليه إكباره لفن الشاعر ووحيه ممثلا في وسام الاستحقاق* .

وللأخطل الصغير من الأخطل الكبير مشابه في شاعريته الوقادة وحياته في مشارف الشام ونصرانيته وحبه للخمر ونعتقد أن اللقب مستمد من كل هذا مجتمعاً ونحمد الله على أن الأخطل الصغير أرق من الأخطل الكبير حاشية وأرهف حسا وألطف ذوقاً فلم يطلب من المتربع على كرسي عبد الملك أن يسقيه قبل إنشاده وإنما اكتفى أن يشتنشق عبير الخمر وينشقه سامعيه في نحو ثلث القصيدة التي نظمها في عيد الجمهورية وأنشدها رئيس الجمهورية المسلم .

---

* جاءنا من النادي الأهلي بدمشق أن المهرجان الذي أنشد فيه الأخطل الصغير قصيدته قد أقيم في النادي الأهلي لا في نادي العائلات .

قد يقول المنصفون إن الأخطل الكبير وأبا نواس اللذين يتأثرهما بشارة الخوري قد فعلا مثل هذا أولم يجعل الأخطل الكبير مقطع قصيدته « خف القطين » وقفاً على وصف الخمر ودنها وشاربها أولم يمدح أبو نواس الرشيد بقوله :

وكأس كمصباح السماء شربتها على قبلة أو موعد بلقاء
ترى ضوءها من ظاهر الكأس ساطعاً عليك ولو غطيتها بغطاء
تبارك من ساس الأمور بعلمه وفضل هروناً على الخلفاء

ولم يجوز استهلال القصائد بالغزل ولا يجوز استهلالها بوصف الخمر ؟ إن هذا السؤال قمين بأن يكون الجواب عنه نعم أولا وداعية إلى أن يقسم المجيبين إلى فريقين ويخيل إلينا أن السلب أعلى لما للموضوع من قدر وجلالة .

ولقد يتأثر الشاعرُ الشاعرَ فيقصر عن إدراكه مرة ويسبقه مرة أخرى فالأخطل الصغير وأبو نواس فرسا رهان في ميدان معاقرة الخمر ولكل منهما آداب في الشراب وأخلاق في المنادمة فآداب أبي نواس وأخلاقه في الشرب والشراب يجملها قوله :

غرّد الديك الصدوح فاسقني طاب الصبوح
واسقني حتى تراني حسناً عندي القبيح

أو قوله :

اسقني يا ابن أذين من سلاف الزرجون
اسقني حتى ترى بي جنّة غير جنوني

او قوله :

اشرب فديتك واسقني حتى أنام مكانيه

فمنتهى التبذل أن يشرب العاقل الخمر فيصبح بعد شربها مجنونا مختلطاً عقله يستوي عنده القبيح والحسن مع أنه لم ينكب بمحنة تريه حسناً ما ليس بالحسن سوى نكبة تعاطي الخمر ثم نراه يلبس مسوح المتشرعين ويريد أن يسن قانوناً لحقوق الكأس والندمان يقوم على قواعد خمس أولها التزين بالوقار وثانيها مسامحة الندامى وثالثها ترك الفخار ورابعها اختصار الحديث وخامسها إقالة العثار . أما آداب الكأس والندمان كما يراها الأخطل الصغير فيجملها قوله :

أنا لست أرضى للندامى أن أرى كسل الهوى وتثاؤب الأقداح
أدب الشراب إذا المدامة عربدت في كأسها أن لا تكون الصاحي

وهذه مرة أخرى بزّ الأخطل الصغير فيها أبا نواس « فكسل الهوى وتثاؤب الأقداح »

أشعر من القواعد الخمس المتجلية فيها روح رجال الفقه والقانون و« عربدة المدامة في الكأس » و« أن لا تكون الصاحي » أسمى خيالا من طالب أبي نواس الواقعي : « اسقني حتى أنام مكانيه » على أن سكر الهوى أنبل وأرفع من سكر الخمر فالهوى روح طاهرة والخمر روح خبيثة فما أنبل خليل مطران عند ما يقول :

أحبّاي إني مذ أفقت من الهوى شقي فكونوا العمر فيه سكارى

وربما طال بنا المقام لو عرضنا لك جميع المعاني المبتكرة في هذه القصيدة من مثل صبغ أساطير الهوى بجراح الشاعر أو صبغ الليالي بالهوى والراح ولثم البدر وليل حريري النسيج والصهباء الصارخة وذابح العنقود وسقي المكارم فضلة الأقداح إلى ما تقدم ذكره من حسنات حملها الوحي على جناحيه في كأس دهاق فاحتستها شفاه الوصف ولم تترك لشفاه المديح الظمأى غير فضلة الأقداح .

ومن الإنصاف للشعر أن نقف وقفة عجلى عند بعض معاني الشاعر وألفاظه نستجلي ماغمض علينا فهمه أو ندّ عن المألوف فمن المعاني قوله : « كفراشة علقت ثدي أقاح » فلو قال : « كفراشة رشفت ثغور أقاح » لكان أطبق للتشبيه لأن الأقحوان نبات له زهر أبيض وأوراق زهره مفلجة صغيرة يشبهون بها الأسنان فوجه الشبه يقتضينا أن نجعل للأقحوان ثغراً بدلا من أن نخلق له ثدياً وقوله :

يا ذابح العنقود خضب كفه بدمائه بوركت من سفاح

المعنى جديد في صياغته وتلوينه يهز سامعه لأول وهلة إعجاباً وطرباً حتى إذا ثاب إليه رشده أنف من رائحة الدماء المتصاعدة من كف السفاح المخضبة بها وعاف الشراب لو قدم له ولقد نغفر لصفي الدين الحلي قوله :

وللدماء على أثوابنا علق بنشره عن عبير المسك يغنينا

ولكننا لن نغفر لبشارة الخوري تشبيهه ولا لأبي نواس قوله :

مازلت أستل روح الدن في لطف وأستقي دمه من جوف مجروح

ولا للمتنبي قوله :

كل شيء من الدماء حرام شربه ماخلا دم العنقود

كما أنهم لم يغفروا لذلك الشاعر الذي وصف روضة فقال :

كأن شقائق النعمان فيه ثياب قد روين من الدماء

وقول الأخطل الصغير يخاطب رئيس الجمهورية :

فارفق بنفسك لست تملك أمرها هي للمكارم من على وطماح

قيثـارة العمال عنـد غدوهم ورواحهم وقصيدة الفـلاح

يريد أن العمال والفلاحين يتغنون بمآثر الرئيس ولكنه معنى لايدرك إلا بتمحّل الأسباب له فإن كانت نفس الرئيس قصيدة الفلاح يقرأ معانيها الدالة على أعماله الجليلة فلن تكون قيثارة العامل بل أحرى أن تكون نفس العامل قيثارة يوقع عليها شعوره وإحساسه نغمات تنطق بمآثر الرئيس ومكرماته .

ومن الألفاظ قوله : « ذرني وما زرع الزمان بمفرقي » ليته استبدل بكلمة ذرني كلمة دعني تخفيفاً للزايات في هـذا الشطر . وقوله : « إني أفدّي كل شمس أصيلة » استعمل الأصيلة بمعنى الأصيل ولا بأس في ذلك وإن قيل في أصائل كأنها جمع أصيلة . وقوله في التفاحتين المتعانقتين :

متلازمين توجسا إثم الهوى فتخوفا طرف الضحى اللماح

وحبذا لو استعاض عن اللماح بالفضاح لأنها أدل على الفضيحة التي يخشاها العاشقان وقوله في الختام :

يتطلعون إليك نظرة وامق ويطوقون العيـد بالأرواح

وأتيته والليـل ملء جوارحي فأنرت من مصباحه مصباحي

لله ما أثقل هذه الواو المقحمة على فعل «أتيته » فهي لا تعطف الشيء على مثله وهي فضولية متطفلة والخير كل الخير في إقصائها فإذا اختل الوزن أقصينا أيضاً « أتيته » ودعونا كلمة « وافيته » لتحل محلها وتنقذ الموقف . ثم إن كلمة جوارحي قلقة في مكانها فجوارح الإنسان أعضاؤه وعوامل جسده كيديه ورجليه والأفضل أن يقال هنا جوانحي أي ضلوع الصدر كناية عن القلب في مجاز مرسل علاقته المحلية .

أما القوافي فهي تشكو من تكرار « الراح » و « الأقداح » لأنها تعودت من كبار شعراء العصر أن يجنبوها منافسة الأتراب مهما قيل في المسافة التي تفصل بينها .

☆
☆ ☆

وبعد فما كانت هذه الدقائق لتغض من نفاسة عروس القصائد وما أحراها أن تكون رقى تصون جمال القصيدة الروحاني ولئن كان المأثور أن تشتمل كل قصيدة عامرة على عدة أبيات تجري مجرى الأمثال وتعيها القلوب وتتغنى بها الأفواه إن في قصيدة الأخطل الصغير ما لايقل عن خمسة عشر بيتاً خالداً تفلق الصمّ وتنزل العصم وهذا حسبه .

عادل الغضبان

حديقة الأفكار

مهماز البقاء

للأستاذ ميخائيل نعيمة بسكنتا — لبنان

بين المهد واللحد فسحة من الزمان ندعوها العمر . وهي لو قيست بمدى الآزال والآباد لبدت لمحة لاغير . ولكن يا لها من لمحة حشرت فيها الحياة كلّ الزمان وكلّ المكان ، ولوّنتها بجميع ألوان المشاعر والأفكار : من الغبطة التي لا توصف إلى الألم الذي لايطاق . ومن المعرفة المطمئنة الصامتة إلى الجهل المذعور المهذار . وقد جعلتها الحياة حركة لا تعرف السكون ، فكأنها الدولاب ما ينفك يدور على محور واحد سرمديّ . أما المحور فالقدرة المبدعة أو الله . وأما المحرك فالجوع والعطش ، والاثنان توأمان لاينفصلان .

يولد الطفل وبه جوع صارخ إلى ثدي أمه ، ثم يشب ويشيب ويموت وبه جوع أخرس إلى ثدي البقاء . فالجوع هو الفاتحة ، والجوع هو الخاتمة . وبين الفاتحة والخاتمة جوع ينتهي إلى جوع ، وعطش يفضي إلى عطش ؛ إذ أن لنا في كل لحظة من وجودنا أموراً تجذبنا وأموراً تدفعنا ؛ أموراً نرغب فيها وأخرى نرغب عنها ؛ حتى كأن ثواني العمر مهاميز تهمزنا أبداً إلى حيث ندري ولا ندري . فلا نستريح إلا لنتعب ، ولا نشبع إلا لنجوع ، ولا نرتوي إلا لنعطش .

هكذا تتولد الأفكار من الأفكار بغير انقطاع ؛ وبغير انقطاع تتدافع تدافع قطرات الماء في الجدول الجاري . وهكذا تتناسل الشهوات من الشهوات وتتزاحم في القلب تزاحم النار . وهكذا تتسابق كريات الدم في العروق تسابق النحل في خليته إلى العمل . فالفكر في جوع دائم ، والقلب في عطش أبدي ، والدم في دأب مستمر لسد حاجات الفكر والقلب والجسد .

هو الجوع وتوأمه العطش يدفعان بنا أبداً إلى السعي والحركة . ولكنهما أصناف ومراتب . أدناها الجوع إلى الخبز والعطش إلى الماء ، وأسماها الجوع إلى المعرفة التي لاجوع بعدها ، والعطش إلى الحرية التي ينتهي عندها كل عطش . وبين هاتين المرتبتين ضروب من الجوع والعطش لا تقع تحت حصر ، كالجوع إلى اللذات الجسدية بأنواعها ، وكالعطش إلى الجاه والسؤدد والجمال والمعرفة والسعادة وسواها . وهذه الأنواع من الجوع الذي لايشبع ، والعطش الذي لايرتوي هي التي أوحت التشاؤم إلى المتشائمين ، إذ بدت لهم الحياة حلقة مفرغة من السعي الذي لاينتهي إلى هدف ثابت ، والتعب الذي لا تعقبه راحة دائمة . وهي التي حملت ضرير المعرّة على قول بيته المشهور :

« تعب كلها الحياة فما أعـــــجب إلا من راغب في ازدياد »

ذاك لأن المعري وزملاءه في التشاؤم جعلوا للحياة بداية ونهاية ، ثم رأوها تبتدئ بالجوع وتنتهي بالجوع فقالوا : « وأيّ خير في حياة أولها جوع وآخرها جوع ؟ » وهو قول لامرد عليه إلا إذا انعتق الخيال من ربقة البدايات والنهايات فأبصر في الولادة والموت مرحلتين من مراحل عمر طوله طول الزمان ؛ وإلا إذا أفلت الفكر من قيود اللحم والدم فأدرك قصد الحياة من جعلها الجوع مهمازاً يهمز الأحياء على الدأب والتفتيش والتعلق بالبقاء .

لو أن القدرة المبدعة أوجدت الجوع والعطش من غير أن توجد لهما الغذاء والري لحقّ لنا أن ننعتها بأشنع نعوت الظلم والقسوة والاستبداد . فهل أفظع من أن تخلق حيواناً وتجهزه بجهاز خاص لأكل العشب وشرب الماء من غير أن تخلق له عشباً وماء ؟ وإذ ذاك فالكفر بالحياة أولى من الإيمان بها .

ولكن الحكمة الأزلية أعدل من أن تظلم ، وأحن من أن تقسو ، وأنبل من أن تستبدّ . فهي ما جعلت حيا من الأحياء يجوع أو يعطش إلا خلقت له ما يسد به جوعه ويطفئ عطشه . فالأرض والسماء بما فيهما ومن فيهما موائد مثقلة بأصناف الغذاء والري لكل ما في السماء وعلى الأرض . والكائنات من منظورها ومستورها تعيش ويغتذي بعضها ببعض ؛ فكأنها خزانات يملأ بعضها بعضاً بغير انقطاع . فلا هي تفيض يوماً ولا هي تفرغ لحظة . إذ ليس في مستطاع أي مخلوق أن يأخذ من ماديات الكون أو معنوياته إلا على قدر مايعطي ، سواء في ذلك الجماد والنبات والحيوان والإنسان. ونحن لو كانت لنا مقاييس دقيقة إلى أقصى درجات الدقة لأدركنا أي عدل لا يوصف هو عدل السماء والأرض .

فما دام لكل جوع غذاء ولكل عطش ري أو-ليس في ذلك دليل على أن الجوع الذي ينتهي بنا إلى حافة القبر لابد له ، مهما يكن نوعه ، من غذاء عبر حافة القبر ؟

ومن ذا يستطيع الجزم بأن حافة القبر هي الحد الفاصل بين البقاء والفناء ، وأن الموت هو نهاية الحياة ؟ بل من ذا يستطيع القول بأن القدرة التي أوجدتنا قد سلطت علينا الجوع والعطش لتجعلنا عبيداً أذلاء لهما ولتاهو بآلامنا وأحزاننا لا لتسلطنا في النهاية عليهما ولتمحو آلامنا وأحزاننا ؟

من منا لم يقل يوماً في سره أو في علانيته : « ليتنا نغلب الموت وليتنا نحيا حياة كلها سلام ، وكلها عدل ، وكلها جمال وطمأنينة . وليتنا نعرف كل ما نجهل ! »

إن في قولنا ذلك لدليلا على جوعنا إلى البقاء وإلى السلام والعدل والجمال والطمأنينة وإلى المعرفة الكاملة . وإن في جوعنا ذاك لدليلا على أن الغذاء موفور لدينا . فما علينا إلا أن نفتش عنه بكل قوانا . أما أن الوصول إليه لايتم لنا في خلال عمر واحد ففي ذاك وحده كفيل بأن العمر ليس الحياة ، بل مرحلة من مراحل الحياة ، وأن التفتيش لن ينتهي إلا بالوصول إلى المعرفة — معرفة الله . ومعرفة الله هي الخبز والشراب اللذان يفنى فيهما كل جوع وعطش. وهي التربة التي لاتنبت فيها بذور الحزن ولا تتأصل جذور الألم .

تلك هي مشيئة الله منا — وما أحكمها مشيئة ! أن نبدأ الحياة بالجوع إلى الخبز وأن نختمها بالجوع إلى المعرفة — معرفة الحق الذي يحررنا من كل جوع . وتلك هي حكمة الحياة فينا — وما أعدلها حكمة ! أن تجعل من الجوع مهمازاً يدفع بنا أبداً إلى التفتيش عن الغذاء الذي لاجوع بعده ، وأن تجعل كل مافي الكون مائدة لنا وتجعلنا موائد لكل ما في الكون . ثم أن تجعلنا معلمين لكل ما في الكون وتجعل كل ما في الكون معلماً لنا . أما أننا ضيوف ومضيفون ، وتلاميذ ومعلمون في آن معاً فما ذاك من المجاز في شيء .

من منا إذا عنّ له يوماً أن يحلّل نفسه نظير مايحلّل الكيميائي مركباً كيميائيا تمكن من أن يرد أعصابه وعظامه ولحمه ودمه إلى مصادرها ؟ أليست أجسادنا تتكون من جسد الكون وتتغذى به لتعود فتساعد في تكوينه وتغذيته ؟ فمثلما نجوع إلى أشياء وأشياء كذلك تجوع إلينا أشياء وأشياء . فنحن أبداً جائعون ومجيعون ، وآكلون ومأكولون . فهنيئاً لمن كان طعاماً صالحاً للغير كما يكون الغير طعاماً صالحاً له . والويل لمن كان للغير سماً زعافاً ، فهو من حيث لايدري ، يسم طعامه بيده .

ثم من منا يستطيع أن يرد أخلاقه وأفكاره ونزعاته وشهواته إلى مصادرها ؟ أنعرف أي أثر في كياننا لأغاريد العصافير وصرير الجنادب وهدير العواصف ؟ أم نعرف ماذا قرأنا ونقرأ في صحيفة البحر والصحراء ، وفي جبهة الجلمود والعشبة الخضراء ؟ أم نذكر كل ما تذيعه لنا الشمس والقمر والنجوم وما تهمسه في آذاننا سكينة الليل ؟ أم ندرك ما رسب في أعماقنا من قراءة هذا الكتاب أو ذاك ؟ لكم نخاطب الأموات ويخاطبوننا ، ولكم نصادق ونعادي من الأحياء . أفبعد هذا يقول قائل إن معلميه فلان وفلان لا غير ، وإن مدرسته هي مدرسة كيت وكيت ؟

إنما الكون بكل ما فيه مدرسة الإنسان . وإنما كل ما في الكون معلم للإنسان. وإنما العمر من أوله إلى آخره دراسة متواصلة . والجوع هو الحافز الأبدي للدرس والاستطلاع . فماذا عسى الناس يبتغون من مدرستهم ومعلميهم ؟ أيبتغون شهادات تخولهم تبذير خيرات الأرض كما يشاؤون بينا جارهم ينام على الطوى ويفترش التراب ويلتحف الأسمال ؟ أم يبتغون أن تكون لهم القصور والخدم والرتب الرفيعة والألقاب الطنانة ، وأن يسجد لهم أذلاء النفوس ويمجدهم صغار القلوب ، ويستعطفهم سخفاء العقول ؛ وأن يبقوا ، مع ذلك ، نهباً لأخس أصناف الجوع والعطش ؟ إنهم لاشك خاسرون .

ولو أنهم أحسنوا الدراسة لفقهوا أنها وإن ابتدأت بالجوع إلى الخبز ، والعطش إلى الماء ، ثم تدرجت بهم إلى كل أصناف الجوع والعطش ، فغايتها الوصول بهم إلى الطعام الذي إن شبعوا منه مرة لبثوا شباعاً إلى الأبد ، وإلى الشراب الذي إن ارتووا منه مرة ما عطشوا من بعدها إلى الأبد .

أجل ! مدرسة هو الكون . وما الأعمار نطويها بين المهد واللحد غير صفوف فيها . أما الحافز الأكبر للدرس فالجوع . وأما الغاية من الدرس فأن نتعلم كيف نضيف ونضاف ، وكيف نعلم ونتعلم ، وكيف نخلص من الجوع الذي لايشبع إلى الشبع الذي لايجوع .

فنحن إذ نكون ضيوفاً على الكون علينا أن نتقيد بحشمة الضيف ، فلا نتناول مما على المائدة فوق حاجتنا ، ولا نتلف شيئاً منه ، ولا نسرق ، ولا نخبيء في جيوبنا ، ولا نسابق غيرنا من الضيوف إلى الطعام الأشهى والشراب الأمرأ ، ولا نتنازع على هذا الصنف أو ذاك . وإذ نكون مضيفين علينا أن نحسن الضيافة . فنبذل لضيوفنا بسخاء من أجود ما عندنا . ولا نتبجح ، ولا نمُنّ ، ولا ندس السم في الدسم ، ولا نقدم للواحد أفضل مما نقدم للآخر أو أقل منه .

ونحن إذ نكون تلاميذ لا يليق بنا أن نستخف بمعلمينا ؛ سواء أكان معلمنا رثيلاء أم كوكباً في الفضاء . وإذ نكون معلمين يجدر بنا أن نصرف من عنايتنا ومحبتنا للتلميذ الفقير والبليد نظير ما نصرفه للغني والنبيه . سواء أكان تلميذنا حمالا في السوق أم عظيما من عظماء الدولة .

ذاك هو العدل الذي نبتغيه من الغير ، والذي يبتغيه الغير منا . ثم ذاك هو الطريق المؤدي بنا من المجاعات التي لا نهاية لها إلى الجوع الأعظم والأخير — الجوع المقدس — إلى خبز المعرفة الكاملة : معرفة الله .

ميخائيل نعيمة

وقودنا الأول مهدّد بالنّفاد

للأستاذ حسن عبد السلام

يعد الفحم الحجري الوقود الأول الذي يستخدمه الإنسان ، وهو أعظم مصدر نحصل منه على طاقة قابلة للاستغلال في عالمنا الأرضي ، ويقدر مايستخرج منه من باطن الأرض في كل عام ببضعة ملايين الأطنان ، تستخدم في إدارة المصانع والآلات والأفران ، وتسيير قاطرات السكك الحديدية والسفن البخارية ، وفي عمليات التسخين والتدفئة والإنارة ، وفي كثير من الأغراض .

ومع أننا نستخدم البترول في تسيير السيارات والطائرات وبعض القاطرات ، إلا أن اعتماد العالم على هذا الوقود محدود . ويمكن القول بأن أربعة أخماس الطاقة التي يسخرها الإنسان في أغراضه المتنوعة مصدرها الفحم ، والجزء القليل الباقي مصدره زيت البترول والأخشاب وقوة انحدار الماء . وثمة مقادير عظيمة من الطاقة نستغلها في حياتنا اليومية ، مثل الطاقة الكهربائية والبخارية والضوئية ، ولكن هذه الطاقات مصدرها الفحم أيضاً ، فالفحم يستخدم في تسخين الماء وتوليد البخار ؛ وقوة البخار تولد الحركة ، ومن طاقة الحركة نستطيع الحصول على الطاقة الكهربائية ، وذلك بإدارة المولد الكهربائي (الدينامو) ، ومن الكهرباء يمكن الحصول على طاقة ضوئية للإنارة ، أو طاقة كيميائية تستخدم في الطلاء المعدني ، أو طاقة حرارية تستخدم في الطهي والتدفئة وعمليات التسخين ، أو طاقة حركة تستخدم في تسيير عربات الترام وإدارة بعض المحركات (الموتورات).

وجميع أنواع الطاقة التي مصدرها الفحم هي جزء من طاقة الشمس المدخرة في باطن الأرض . فإن الفحم الحجري أصله نباتات وأشجار نمت وكبرت بفعل عملية التمثيل الضوئي أو الكلوروفيلي في أجزائها الخضراء ، فانتقلت بذلك طاقة الشمس إلى جسم النبات ، ثم دفنت الأشجار في باطن الأرض بطريقة ما ، وتحولت بعد مضي السنين إلى الفحم الحجري ، فإذا ما أحرق هذا الفحم انطلقت الطاقة المدخرة فيه وانتفع بها في الأوجه المتقدمة .

ويقدر بعض العلماء أن مقدار الفحم الذي لايزال موجوداً في باطن الأرض يكفي الإنسان مدة ألفي سنة أخرى على الأقل ، بينما يعتقد البعض الآخر أن موارد الفحم في

العالم قد تنفد قبل انقضاء مائة عام . فلا مفر إذن لأن نعمد إلى التفكير في وسائل الاقتصاد في استهلاك الفحم ولو بصفة مؤقتة ، وذلك إلى أن يحين الوقت الذي نحصل فيه على معلومات مؤكدة بشأن كمية الفحم المدخرة في باطن الأرض والتي يمكن الحصول عليها بطرق عملية ناجحة .

وغني عن البيان أنه عندما نتحدث عن ضرورة الاقتصاد في استهلاك الفحم لا نريد أن تقلل الشعوب من تسيير القاطرات والسفن البخارية وإدارة المصانع والآلات ، لأن ذلك معناه شل حركة التقدم والإنتاج في العالم والرجوع بالحضارة إلى الوراء .

فالاقتصاد في استهلاك الفحم لا يجوز أن تكون وسيلته التوفير أو الادخار ، وإلا كان مثلنا مثل الغني الذي حبس ماله مخافة الوقوع في الفقر ، فعاش فقيراً طول حياته . والإنسان المتحضر لا يرغب أن يعيش ويداه مغلولتان إلى عنقه فيما يتعلق باستهلاك ما لديه من الفحم . لذا كان الاتجاه الواجب اتباعه عند التفكير في طرق اقتصاد هذا الوقود هو الأخذ بالوسائل التي تمكننا من الانتفاع بما يستخرج منه من باطن الأرض انتفاعاً كاملاً ، كالمحافظة عليه من الضياع والفقد في عمليات الحفر والشحن والنقل والاحتراق .

فجزء لا يستهان به من الفحم يفقد في عمليات الحفر عند استخراجه من مناجمه ، ويضيع جزء آخر عند نقله وشحنه إلى البلدان التي يستهلك فيها ، أما الجزء الأكبر مما يفقد منه فيضيع سدى أثناء الاحتراق . فهناك تبذير عظيم في استهلاك الفحم بسبب الطريقة المتبعة الآن في حرقه ، وكمية الطاقة التي نحصل عليها من حرق مقدار معين منه لا تتناسب مع هـذا المقدار ، ومئات آلاف الأطنان من الفحم تفقد في كل عام بسبب ما تقذفه مداخن الأفران والمصانع من الدخان في الهواء .

ومن المعلوم أن احتراق الفحم يتولد عنه كمية من الطاقة الحرارية . وتتحول مادة الفحم في هذه العملية إلى ناتجين غازيين هما ثاني أكسيد الكربون وبخار الماء . هذا إذا كان الاحتراق كاملاً والوقود نقيًّا ، غير أن الفحم يندر أن يكون تام النقاء ، بل توجد به عادة بعض الشوائب التي تتخلف في صورة رماد معدني بعد الاحتراق ، كما أن الاحتراق لا يكون تاما في معظم الحالات ، ولذا يتسرب جزء من الوقود في صورة ذرات أو دقائق صغيرة مع الكربون تخرج مع النواتج الغازية في الهواء .

وعلى ذلك فالدخان المتصاعد من مداخن المواقد والمصانع والأفران يتركب من ثاني أكسيد الكربون وبخار الماء وكمية كبيرة من الهباب أو دقائق الكربون وكمية يسيرة من الرماد . أما ثاني أكسيد الكربون وبخار الماء فلا يؤدي خروجهما في الهواء

إلى ضرر ما ، لأن الجو به نسبة معينة من هذين الغازين ، وهناك دورة كاملة تحفظ بها هذه النسبة ثابتة في الطبيعة . وأما دقائق الفحم فيتسبب عن خروجها خسارة في كمية الوقود المستعملة . ونحن إذا تأملنا مقادير الدخان التي تلفظها مداخن المصانع والمواقد والأفران وقاطرات السكك الحديدية والسفن البخارية أمكننا أن ندرك مدى الخسارة الفادحة التي تصيب العالم في هـذا الوقود من جراء استخدام أجهزة الاحتراق لا يحدث فيها تأكسد الفحم على وجه كامل صحيح . ويقدر العلماء كمية الكربون التي ترسب على مساحة قدرها ميل مربع واحد في المدن الصناعية الكبيرة بألف طن في كل عام ، فضلاً عن أن الهباب الذي يخرج من المداخن يتسرب إلى المنازل ويرسب على جميع الأجسام المعرضة للجو ، ويترتب على ذلك تلف في الأثاث والملابس ، واتساخ الجدران وزجاج النوافذ ، مما تقدر قيمته بمئات الآلاف من الجنيهات في كل عام .

لذلك يتعاون المهندسون والكيميائيون في الأمم الراقية على وضع تصميمات لأفران ومواقد جديدة تتم فيها عملية الاحتراق على وجه كامل ، ومن وسائل ذلك دفع تيار شديد من الهواء في الموقد لكي يساعد على حرق جميع أجزاء الفحم ، وتوجيه الدخان قبل خروجه من المداخن إلى أجهزة يكثف بها ما قد يتخلف من دقائق الكربون لكي تحرق مرة أخرى ، وبذلك يزيد مقدار الطاقة التي يحصل عليها من حرق كمية معينة من الفحم ، وفي الوقت نفسه نتلافى الأضرار التي تنجم عن خروج كميات كبيرة من الدخان في جو المدن الكبيرة .

بيد أن أعظم وسيلة اقتصادية لاستغلال الفحم هي بلا ريب إجراء عملية التقطير الإتلافي ــ أي تسخينه في أوعية مقفلة ــ ، فعند تقطير الفحم الحجري يحصل منه على عدد كبير من المشتقات الكيميائية التي تصلح لأن تكون أساساً لصناعة كثير من المنتجات المتداولة في التجارة والمستعملة في المنازل وفي شؤون الحياة اليومية . ومن هذه المنتجات مئات من الصبغات المتعددة الألوان والروائح العطرية الزكية والأسمدة والمفرقعات وأنواع الطلاء وبعض المركبات الهامة التي تستخدم في صناعة النسيج والمطاط الصناعي والعجائن الكيميائية (البلاستيك) . ونأمل أن يتوصل العلماء في القريب إلى الحصول على موارد جديدة للطاقة بكميات تكفي سد حاجة العالم ، وعند ذلك نستطيع استغلال جميع ما تخرجه المناجم من الفحم استغلالا اقتصادياً ناجحاً ، بإجراء عمليات التقطير الإتلافي عليه .

حسن عبد السلام

عراق الغد

للأستاذ رفائيل بطي

يقف العراق اليوم في مركز دقيق حساس من بلدان الشرق الأوسط ، تحدق به مطامع الأمم الظافرة ، وتتجاذبه أصابع نفوذ متضاربة ، وتتنازعه تيارات دولية متعارضة ، وتشرئب إليه أعناق قوى جبارة من جبابرة الاستيلاء والاستعمار .

فإذا نحن حاولنا أن ننظر إلى عراقنا في غده ، فلا مناص لنا من إدراك حقيقة وضعه الحاضر في هذا المعترك العالمي ، ولا سيما أنه قطر يصح أن يسمى بحق قلب الشرق الوسيط في موقعه الجغرافي ، يحوز قواعد جوية عسكرية ومدنية ، هي أعز ما يتطلبه عقبان الجو في عثير الحرب وسحابة السلم ، ويجري في عروقه (الذهب الأسود) من نفط غزير أشعل حربين عالميتين هائلتين في الأربعين سنة الأخيرة . وقد خص بتربة زكية تحدث التاريخ الاقتصادي عن فيضانها لبناً وعسلا ، كما نقل التقليد وأثبتت كشوف المنقبين الأثريين أن (جنة عدن) خلقها الله في هذه الأرض . والعراق قبل ذلك وبعد ذلك باب الهند الذي يحميه حراس الإمبراطورية البريطانية ساهرين ، وعند ثغره المائج حصن البحر ، وفوق جباله وروابيه قلاع الجدار الخالد الذي تحطمت عنده جحافل الإسكندر وأضرابه من الحالمين بسيادة الدنيا زاحفين من الغرب إلى الشرق .

هذا هو عراق العالم الذي يربض بين ذراعي دجلة والفرات ساخراً من عبر الدهور ، وهي أقوى من الموت ، وأمضى من أسلحة الغزاة . يقطنه شعب متحفز استطاع أن يجمع ماضيه الحافل بأحداث التاريخ وصنع المدنيات ، مفاخر طريفة في ثورة سنة ١٩٢٠ والمساهمة في النهضة العربية المعاصرة . وقد أخذ بعد كفاح دموي كياناً مستقلا في العالم الدولي ، تحد من استقلاله المعاهدة العراقية الإنكليزية لسنة ١٩٣٠ التي ينتفض الآن من وطأتها ويريد إلغاءها ، مكتفياً بأحكام ميثاق الأمم المتحدة في سان فرنسيسكو ، مفرغاً صلاته بحليفته بريطانيا العظمى في اتفاقات لا تمس سيادته ولا تحد من حريته ولا تشوه استقلاله . وقضية العراق نظير قضايا الشرق كله ، رهن مشيئة آلهة الأرض الثلاثة ، وتأرجح كفة الميزان بين هذه القوى البشرية الخارقة .

وقد تغير وجه الكرة الأرضية بألوان خرائطها ومخططاتها اليوم ، وأصبح الحدس في أحداث المستقبل لا يشرح النفس ولا يبعث على التفاؤل . فلنترك هذه الآفاق الدولية اللاجئة ، ولنقصر نظرنا على القطر العراقي بصفته يضم (أحدث دولة لأقدم شعب) كما سماه الوزير البريطاني يوم إعلان خلاصه من الانتداب وفوزه بالاستقلال الرسمي منضما إلى عصبة جنيف سنة ١٩٣٢ .

انحصر مدى النشاط العراقي قبل الحرب العالمية الأولى في القيام بنصيبه من يقظة الناطقين بالضاد ، ومشاركته في الجهاد والفداء في ساحة الثورة العربية التحريرية الكبرى ، بقيادة المنقذ الأعظم الملك حسين بن علي وأنجاله الشجعان ، وبخاصة الملك فيصل الأول ، الذي يجمع العراقيون على أنه باني مجدهم الحديث . وما فتئ الشعب في ربع القرن المنقضي يناضل دون هـذه الرسالة القومية ، ويعمل متكاتفاً مع أشقائه الشعوب العربية حتى يتم استقلالها جمعاء ، وقد توصلت هذه الأقطار إلى تحقيق جانب كبير من برنامج الإحيـاء والنهوض ، فاستقل بعضها ، ويمشي البعض الآخر في طريق الاستقلال التام .

ثم انضمت هذه الدول العربية الناشئة في جامعة عربية ، وضعت أسسها وشيد صرحها في أرض الكنانة ، فأصبح هذا البناء العربي كعبة المؤمنين بحق العرب في الحياة والاستقلال والسيادة ، فتدعيم هذه الجامعة وتنفيذ ميثاقها والحرص على مواصلة المسعى نحو الأهداف القومية العليا في عز العرب ووحدتهم واستقلالهم ، ليتموا في موكب الأمم الواعية شوطهم من خدمة الحضارة وإسعاد بني الإنسان كما فعل أجدادهم ، هي المرحلة الثانية التي يتطلع إليها أبناء الرافدين في غد العراق المرجو ، بعد أن أوقفت رحى الحرب العالمية الثانية . وها هي الخطوات تتابع في التعاون الثقافي بين العراق ومصر والبلاد العربية ، وفي توحيد القوانين وخطط التشريع ، وفي مقدمتها القانون المدني ، وفي الاتحادات الجمركية والتضامن الاقتصادي وإلغاء الحواجز بين أحياء العروبة .

أما في داخل المملكة فإن سني الحرب الأولى وما أعقبها قد تقضت في نضال متواصل ليحيا الشعب حياة دستورية قانونية سليمة ، وهي الدعائم التي بنى عليها الأهلون عرش فيصل الأول ، الذي اعتبروه فاتحة عهد يجدد فخر عرش الرشيد والمأمون ، ويعيد إلى صفحات المجد العربي بهاء (العصر الذهبي) كما اصطلح على تسميته مؤرخو الإفرنج. فأهل العراق دائبون الآن في هذا المنحى ، حريصون على أن تطبق أحكام الدستور ، وأن يحكم الشعب نفسه بنفسه في تعادل من سلطات الدولة الثلاث ، وإذا كانت السنوات

العجاف الماضية قد أخلت بهذا التكافؤ أو حالت حداثة العهد بالحكم الشوري الصحيح دون اعتدال هذا الميزان ، فإن الانتباه العميق المتغلغل الآن في طبقات الأمة ، وبوادر التضحية والثبات في الجدال السياسي ، كفيلة بأن تقيم حياة سياسية طليقة في البلاد ، تصونها الأحزاب العاملة ، وتهيمن عليها ، تنتخب انتخاباً حراً . ويمكننا أن نتوسم في تأليف نقابات العمال ومثابرتها وقيام الأحزاب السياسية ببرامج مفصلة ، مطلع تنظيم حزبي ونقابي ميمون العاقبة . وقادة الرأي والمفكرون الوطنيون مدركون أن طريقهم محفوفة بالعقبات ، مليئة بالأشواك ، ولكنهم ماضون في هذه الطريق ، وقد نعد هذا التصميم الشوط الأول من جهاد الحياة الحرة السعيدة .

كان كابوس الحكم العسكري البريطاني أولا ، والحكم المزدوج القاسي في ظل الانتداب الأجنبي ثانياً ، يشغل أذهان السياسيين والمشتغلين بالشؤون العامة في بلادنا بعد الحرب الأولى ، فعدت أمنية الاستقلال الذاتي عنوان النهج الوطني ، وقد تمكنا مع مراعاة أحكام الظروف العالمية أن نزيح كابوس الاحتلال وحكمه والانتداب الأجنبي ، ونحظى بكيان معترف به واستقلال نسبي . هكذا كان تفكيرنا أمس القريب ، أما عقليتنا بعد أن لفظت الحرب العالمية الثانية أنفاسها ، فقد نضجت في فهم الدولة العصرية ، وصار يهمنا أن تتطور حياة الشعب تطوراً يحفظ للفرد قيمته وحريته ورفاهته ، وأن يعيش في جو مثمر ، وأن لا تستبد فئة قليلة بأكثرية أبناء الأمة وتستنزف قواه في سبيل تحقيق أرباحها الجشعة ، وأن لا تبقى جماعات كبيرة محرومة من أجل نعماء الطبقة الصغيرة الحاكمة ولذاذاتها ، بل إن (العدل الاجتماعي) يجب أن يمد رواقه على السكان كافة ، فلا تمتاز طبقة دون أخرى ، بل يتساوى في نعمته الجميع ، كما أن العاملين الكادحين يستحقون منا كل بذل لإيجاد (الضمان الاجتماعي) الذي يصون صحة الشعب ، ويبقي على مورد معيشته وينور عقله ، ويقيه مثلث الدمار للشعوب والممالك : (الفقر والجهل والمرض) . بهذه النزعة يعالج المعنيون بقضيتنا الوطنية شؤون بلادهم الآن ، حتى يضمنوا (لعراقي الغد) حياة رافهة دائمة . ونحن إذ نتوفر للجد في مرفق من مرافق الدولة نترك أثراً مذكوراً ، فقد كافحنا بين الحربين الأمراض والأوبئة الوافدة ، فاستطعنا في سنين قلائل أن نظفر بتقدير (المجلس الصحي لعصبة الأمم) في جنيف ، فأشاد في تقريره بيد العراق في وقف عادية الهيضة (الكوليرا) على البلاد المجاورة .

انحدر تراث الأسلاف إلى العراقيين كما وصل إلى إخوانهم أبناء العروبة في هذه البقعة من الأرض في الحياة العقلية ، فوجد الأدب العراقي بعد يقظة العرب ذا طابع

وشخصية ، وكانت ملامحه عباسية في الأكثر عند المتفوقين من أدبائنا ، برغم تقادم العهد، وروحه بدوية ، وكان معظم رجال الأدب عندنا يستمدون ثقافتهم من الأدب العربي القديم ، ولم يكن حظ الثقافة الأوربية والأمريكية الحديثتين شيئاً يذكر فما يقتبسون ، إلا في رشح ضئيل من الأدب التركي المجدد بعد الانقلاب الدستوري ، والأدب المصري بعد الثورة ، وإن أتى كل من الزهاوي والرصافي والكاظمي وقرناء هؤلاء الأعلام بمأثور تميز بخصائص أكبرها النقاد ومؤرخو الآداب ، إلا أن الواقع يثبت أننا كنا نصدر في أدبنا عن معين السلف ، فكانت أعيننا ملتفتة على الدوام إلى خاف . أما اليوم فإن التقدم المدني الذي أصابنا منذ تكوين دولتنا الجديدة ، وزيادة التقارب والاتصال بيننا وبين أوربا بحكم تشابك المواصلات وتكاثر وسائل الإذاعة والنشر الحديثة ، وبتأثير حركة التعليم عندنا وبعوثنا العلمية والأدبية إلى أوربا وأمريكا ، تفتحت أعين شبابنا على عوالم جديدة . فنحن مقبلون على حياة عقلية تستمد روافدها من ينابيع الثقافة المستجدة في العالم الغربي .

وسيجد القارئ العربي في نتاج مطابعنا أدباً عراقيا مطعماً بأحدث الآراء ، ومجرى للتفكير ينسجم مع مبتكرات الفنون والتقدم العلمي المطرد . وقد ظهرت بواكير هذا التجدد في بعض ماينشئه أو يؤلفه العراقيون المحدثون ، من كتب ورسائل ، وإن كان الأدب العراقي الجديد نفسه لم يتبلور بعد بحيث تبدو شخصيته واضحة ، ولكن ثماره الأولى تبشر بمستقبل . والشعر العراقي في الأعوام الأخيرة قد هجر الأغراض العتيقة البالية ، وصار يتناول معيشة الشعب اليومية وإحساس الفرد بما حواليه وما يضطرم في نفسه من شعور وأحلام . والقصة العراقية بدت تباشير فجرها ، وهوي كتابتها الكثيرون من الشباب العالق بالفنون الأدبية . وليس الأدب وحده ، فإن توسع نطاق التعليم العالي وتكاثر البعثات العلمية إلى ديار العلم والفن ، سيخلق وثبة علمية تبعث أمجاداً عصرية في ديار المستنصرية والنظامية ودار الحكمة . والتطور الاجتماعي يسير بخطاً سريعة جداً . فبعد أن كان يعتقد رئيس الدولة المؤقت وسليل بيت الوجاهة والعلم والدين في حديثه مع أساتذة جامعة بيروت أن المرأة خلقت لتدبير المنزل فقط ولوظيفتها الزوجية ، ولا تحتاج إلى أن تتعلم تعلماً عصريا ، صارت حفيدته تطلب العلم في إنجلترة . وها قد امتلأت كلياتنا ومدارسنا العليا بالفتيات في تعلم مختلط ناجح ، بحيث سبقنا في هذا الميدان مصر وتركية خمسين سنة .

والفتاة العراقية تخرج إلى النور معتمدة على نفسها ، واثقة من قوتها ، معتصمة

بقوة خلقها وكريم سجيتها ، حتى أن طالبة عراقية في دار المعلمين حملت على (العباءة) في مجلة عراقية مقروءة ومزقتها شر ممزق . وبعد أن كانت أرتال علماء الدين تقصد إلى البلاط الملكي لتشكو طفلة أركبت جملا وألقت أبياتاً في (سوق عكاظ) الحديث ببغداد سنة ١٩٢٢ تشبهاً بالخنساء ، أصبحت بنات هؤلاء العلماء يملأن الأسماع خطباً وشعراً في الراديو والمحافل الأدبية ، ومستقبل العراق يبسم للأمل .

والعراق — شاعراً بوفرة خيراته المادية ، ومقدراً تاريخه التجاري ، ومدركا لقوام النظام الاقتصادي الحديث — يتوجه نحو إحياء صناعي ، مع توسيع زراعته وتنظيم ريّه ، وقد وضعت أسس معامل وشركات عديدة كانت تنتظر انقشاع سحب الحرب لتستغل حركتها وتنتج نتاجها الموفور . ويجب أن نحسب حساب النفط المتدفق في أراضينا ، وما خصت به بلادنا من نخيل وتمر ننفرد بإنتاجه . وهناك التبغ العراقي اللذيذ الذي لم تعرفه الأسواق بعد ، لإهمال أمس ، سيكون لنشاط الغد منه خير منتوج زراعي .

ولوقوع بغداد والبصرة في أهم مراكز الخطوط الجوية بين العالم العربي والأمريكتين ، فضلا عن أوربا والشرق الأقصى ، فالمأمول أن تقفز التجارة العراقية قفزات واسعة ، على نحو ماسجلت لبلادنا العصور الوسطى .

إن حياة العراق في غده ستختلف عنه في أمسه اختلافاً بارزاً ، والمعول في الوضع الجديد على خصائص العراق الطبيعية ، ومواهب بنيه وبناته ، فعلى هذين العمودين القويين يرتفع بناء عراق الغد عالياً مشمخرا .

رفائيل بطي

قواعد النقد الأدبي بين الفلسفة والعلم

للأستاذ سيد قطب

الأدب واحد من الفنون الجميلة : الموسيقى والتصوير والنحت والأدب . وكل هذه الفنون ينطبق عليها أنها « تعبير عن تجربة شعورية في صورة موحية » ، فغايتها الأولى والأخيرة هي التصوير والتأثير : تصوير المشاعر والأحاسيس والوجدانات التي تخالج نفس الفنان ؛ والتأثير فيمن يطالعون عمله الفني ، ليشاركوه في أحاسيسه ، وتعيد نفوسهم تمثيل التجربة الشعورية التي عاناها .

إلا أن أداة التعبير الفنية تختلف في كل فن عنها في الآخر . فهي في الموسيقى أصوات ومسافات ، وفي التصوير ألوان وخطوط ، وفي النحت مادة وأحجام ، وفي الأدب ألفاظ وعبارات .

وقد رأى بعضهم أنه ما دامت هذه الفنون جميعاً ترجع إلى أصل واحد هو الشعور ، ولجميعها غرض واحد هو التأثير ، فإنه يمكن الرجوع في الحكم عليها إلى قواعد عامة باسم « قواعد النقد الفني » .

وحينما كانت « الفلسفة » هي المسيطرة على التفكير البشري مال بعضهم إلى إقامة هذه القواعد على أساس الفلسفة ، كما صنع أفلاطون ومن بعده أرسطو — على ما بينهما من اختلاف في النظرة والحكم — ولكن اتجاههما معاً كان اتجاهاً فلسفيا ، وقد ظل هذا الاتجاه مسيطراً حتى عصر النهضة حينما بدأ « العلم » يشارك الفلسفة النظرية مكانتها ومركزها ، ثم تتوالى أطواره فيتجه أولاً اتجاهاً طبيعيا ، يعقبه اتجاه بيولوجي ، ثم اتجاه نفسي في العصر الحديث .

وفي كل مرحلة من هذه المراحل ، سواء مرحلة سيطرة الفلسفة على الفكر البشري ، أو مراحل سيطرة العلوم الطبيعية والبيولوجية والنفسية ؛ كانت قواعد النقد الفني تتأثر بهذه التيارات ، وتبرز فيها بعض المذاهب معتمدة على هذا التأثر الفكري العام.

أما في النقد العربي ، فقد حاول عبد القاهر أن يقيم قواعد النقد على أسس فلسفية ، وأن يدخل الدراسة النفسية في النقد بشكل منظم ، ولكن لم يتابعه أحد ،

فوقفت المحاولة في خطواتها الأولى التي كانت بالقياس إلى زمنه خطوة كبيرة . فلما بدأت النهضة الحديثة عندنا تأثرت قواعد النقد بالتيارات الغالبة في أوربا ، فظهر كتاب «الأدب الجاهلي» للدكتور طه حسين بك متأثراً في اتجاه البحث ، لا في طريقته ، بفلسفة ديكارت ؛ وظهر له كتاب «مع أبي العلاء في سجنه» ؛ كما ظهر للعقاد كتاب «ابن الرومي : حياته من شعره» ، متأثرين بالمباحث البيولوجية والسيكلوجية ؛ وظهر كتاب «فجر الإسلام» لأحمد أمين بك متأثراً بالطريقة التاريخية ؛ وبدت مثل هذه التأثرات في كثير من الكتابات النقدية العربية .

ولنعد إلى أول الحديث ، فنذكر أن بعضهم رأى وضع قواعد عامة للنقد الفني أولاً ، وبناء هذه القواعد على أسس فلسفية ، وبخاصة نظريات الجمال . ثم طغى العلم — وبخاصة علم النفس أخيراً — فرأى بعضهم أن تقام تلك القواعد على أسس العلم . وآخر اتجاه هو الاتجاه إلى العلم النفسي .

ولكل اتجاه من هذه الاتجاهات قيمته ، لولا الغلو في تطبيقه . وسنناقش هنا باختصار كلا من هذه الاتجاهات .

✡ ✡ ✡

إن إقامة قواعد النقد الفني على أساس من الفلسفة قد تجدي في توسيع آفاق النظر إلى الفن بوصفه تعبيراً عن الحياة ، متصلاً بغاياتها العليا ، وأهدافها العامة ، وله شأنه الخاص في تفسير دخائل الحياة الإنسانية والكونية — وهي مادة الفلسفة الأصيلة — ولكنها فيما عدا هذا غير مأمونة ولا مضمونة . وحسبنا أن نضرب المثل بما أدت إليه نظرة أفلاطون الفلسفية إلى الفن ونظرة أرسطو . فبناء على نظرية أفلاطون في «المثُل» ، القائلة بأن الأشياء الخارجية لاحقيقة لها ، وإنما تكتسب حقيقتها من «الأفكار» التي تمثلها . وهي «المثل» ؛ رأى أن «الشيء» تقليد للمثال ، وأن الصورة التي يرسمها المصور أو الشاعر للشيء هي تقليد للتقليد فلا حاجة إليه . لأن كل شيء لايمثل فكرة لا يستحق الوجود ، والشعر يمثل الشيء الذي يمثل الفكرة فهو عمل حقير لا ضرورة لوجوده في «المدينة الفاضلة» .

نعم إن تلميذه أرسطو قام ينافح عن الشعر على أساس من الفلسفة أيضاً ، ولكنه بسبب ذلك قد أخطأ ، فأغفل الشعر الغنائي ، ولم يعده شعراً — وهو أصل ألوان الشعر في الشاعرية — ولذلك قال : إن الشعر تمثيل لأعمال الرجال ، وإن الشاعر لا يجوز أن يحدثنا عن نفسه ! وهذا خطأ جسيم منشؤه أن فلسفة أرسطو كانت متأثرة

بنزعته العلمية البيولوجية ، فقسم الفنون أقساماً حاسمة كما يقسم عالم الحياة أنواع النبات والحيوان . وحين رأى الشعر الغنائي يعتمد اعتماداً ظاهراً على الموسيقى ، عدّه ضرباً من الموسيقى لا من الشعر ، لشدة إحكام الفواصل في ذهنه بين الأنواع !

وهذان المثلان كافيان لإظهار خطأ الغلو في إقامة قواعد النقد الفني على أسس فلسفية . أما ربط هذه القواعد إلى فلسفة الجمال خاصة ، فالواقع أنه لا يثمر شيئاً غير توسيع آفاق النظر إلى الفن والجمال . أما إذا أريد أن تكتسب هذه القواعد دقة ووضوحاً فالنتيجة عكسية ؛ فنظريات الجمال لا تزال غامضة ، يصعب فيها التحديد والإيضاح . وربط النقد الفني إليها لا يقربنا إطلاقاً من ضبط قواعده ، وتوضيح حدوده !

* * *

أما الاستعانة بطريقة البحث العلمي ، وبالنظريات العلمية، فلهما فائدتهما بلا شك . ولكن لا بد أن يلاحظ أن طبيعة الفن غير طبيعة العلم ، وأن هناك اختلافاً أصيلا بين الطبيعتين يحسب حسابه عند التطبيق .

ولعل علم النفس أن يكون أقرب العلوم بطبيعته للأعمال الفنية ، لأن مادته التي يعالجها تتصل بالمادة التي يعالجها الفن ، وهي الشعور والتعبير عن هذا الشعور . ولكن يجب ألا نغفل غلطة النفسيين التي دعاهم إليها اغترارهم بالفتوح العظيمة في عالم النفس . هذه الغلطة هي محاولة التعميم ، على طريقة العلوم الطبيعية وعلوم الحياة .

إن المادة التي يشتغل فيها العالم الطبيعي هي الأجسام الجامدة ، فمن المستطاع أن يصل فيها إلى قواعد حاسمة ، لأنه يملك أن يخضع المادة إخضاعاً تاماً لتجارب المعمل ؛ وحتى المادة الجامدة ظهر أنها لا تتصرف في جميع الأحوال تصرفاً واحداً داخل المعمل .

والمادة التي يشتغل فيها العالم البيولوجي هي الأجسام الحية . وهذه من المستطاع أن يصل فيها إلى قواعد شبه حاسمة ؛ لأن تصرفاتها في أثناء التجارب العملية محدودة فالحكم الحاسم عليها معقول .

أما المادة التي يشتغل فيها العالم النفسي فهي المشاعر والأحاسيس والمدركات ، هي الانفعالات والاستجابات . ويكاد يكون من المستحيل أن يلم المجرب بجميع الظروف والملابسات ، وأن يسيطر على مادة التجربة كما يسيطر العالم الطبيعي — ولا العالم البيولوجي — فالحكم الحاسم ، والتعميم الشامل عرضة للأخطاء الكثيرة . فمن الواجب ألا يندفع النفسيون في هذه الأحكام .

وإنه ليكون من الخطأ الفادح الاعتماد الكلي في قواعد النقد الفني على أساس

علم لا يستطاع الجزم فيه بشيء ، إلا وهناك احتمال أن تظهر وراء هذا الجزم حالات لا يشملها قد تغيره من الأساس .

وللطريقة التاريخية في النقد الفني قيمتها كذلك ، ولكن في حدود خاصة ؛ لأنها لا تملك وحدها ولا بإضافة الدراسة النفسية إليها ، أن تفسر لنا العمل الفني تفسيراً كاملاً ، وإن أوضحت بعض الملابسات التي أحاطت به ، ودفعت إليه ولونته .

ولعل المثال هنا يكون أكثر إيضاحاً .

تميل الدراسة التاريخية للفن إلى أن تعد ظهور الفنان وعمله حادثاً تاريخيا تدفع إليه الظروف التاريخية العامة ، وتبرزه البيئة كأنه ظاهرة من ظواهرها لابد من وجودها في اللحظة الواجب ظهوره فيها .

وتميل الدراسة النفسية إلى أن تعد الأثر الفني ظاهرة من ظواهر الحالة النفسية للفنان ، واستجابة معينة لانفعالات معينة ؛ وتوغل الدراسة التحليلية فيما تسميه العقد النفسية للكشف عن ظروف العمل الفني ودوافعه ، التي توجده وتلونه .

وقد سلك العقاد في كتابه عن « شاعر الغزل عمر بن أبي ربيعة » الطريقتين معاً . فأثبت أولاً أن الغزل كان حاجة طبيعية في البيئة الحجازية في هذا الأوان ، وأن عمر بن أبي ربيعة لبى هذه الحاجة تلبية طبيعية ؛ وبهذا يكون الشاعر ظاهرة تاريخية . ثم تحدث عن نفس عمر بن أبي ربيعة وظروفها فأثبت له « الطبيعة الأنثوية » ، وأنه متغزل لا عاشق ، وأنه ابن بيئته المترفة ، متأثر بها في ميوله واتجاهاته ؛ وبهذا يكون قد حلل نفسه وعلل سلوكه .

والأحكام إلى هنا صحيحة ومأمونة لأنها لم تتجاوز دائرتها ؛ وهي عرض البيئة التي نشأ فيها العمل الفني . ولم تتجاوزها إلى تعليل « الطبيعة الفنية » للشاعر ومقوماتها . ولو أريد استخدام الدراستين : التاريخية والنفسية للحكم على هذه الطبيعة لفشلتا .

فأولا لِمَ كان عمر هو الذي يلبي حاجة البيئة التاريخية ولا يلبيها سواه ممن أحاطت بهم نفس الظروف ؟ وثانياً لِمَ كانت طبيعته الفنية على النحو الذي كانت عليه ، وهو ليس مفرداً بين الذين تنطبق عليهم ظاهرة الطبيعة الأنثوية ؟

ذلك سر الموهبة الفنية الذي لا تصل إليه الدراسة التاريخية ولا الدراسة النفسية.

وقد نقول مثلاً : إن المتنبي كان يعاني من حب الاستعلاء ، وإن هذا هو منشأ فخره بنفسه في كل شعره ، وقد نعلل به ميله إلى كثرة التصغير في الهجاء مثلاً . ولكن هذا لا يعلل لنا عبقرية المتنبي ولا يفسرها . فلماذا كانت طبيعته الفنية من هذا الطراز وفي

هذا المستوى ؟ إن اتجاه الطبيعة الفنية هو الذي قد تعلله الدراسة النفسية ، ولكن نوعها ودرجتها يبقيان خارج الدائرة أبداً .

وقد حاول أمين الخولي مثلا أن يرد اتجاه المعري إلى عوامل بيولوجية في جسده ، وعوامل نفسية في شعوره مردها العوامل البيولوجية ؟ ولكن ماذا أجدانا هذا في دراسة طبيعة المعري الفنية ؟ لا شيء . فقد يفسر لنا بعض سلوكه في الحياة ، وبعض اتجاهه الفني — على ما في هذا التفسير من تعسف في كثير من المواضع — أما طبيعته الفنية ومستواها فهي خارج الدائرة كذلك .

ولعلنا ننتهي من هذه الأمثلة إلى شيء من القصد في الاعتماد على الدراسات العلمية في صدد النقد الفني ، فهي مأمونة ومجدية ما دامت تبحث في محيط العمل الفني ، ولكنها تفقد قيمتها حين تصل إلى العمل الفني ذاته . ولا بد حينئذ من استخدام الوسائل الفنية البحتة ، المعتمدة على الشعور والذوق ؛ وعلى القواعد الفنية المباشرة المتصلة بأدوات الفن وطرائقه في التعبير والأداء .

* * *

ثم نعود إلى اصطلاح « قواعد النقد الفني » فما هي هذه القواعد ؟ الواقع أن هناك شيئاً من التعميم ؛ فلكل فن من هذه الفنون قواعده الخاصة به ، طالما أن أدوات التعبير في كل فن مختلفة . واختلاف الأداة يقتضي حتما اختلافاً في طريقة تناول الموضوع ، بل في اختيار الموضوع ذاته . ولهذا كله أثره في اختلاف قواعد النقد الفني .

يعبر الأدب بالألفاظ والعبارات ، ويعبر التصوير بالألوان والخطوط ، وتعبر الموسيقى بالأصوات والمسافات ، ويعبر النحت بالمادة والأوضاع ، وتتحكم الأداة غالباً في اختيار الموضوع .

فالأدب بوجه عام يعبر عن الحركة المتتابعة ، سواء كانت حركة مادية تتم في الخارج ، أو حركة شعورية تتم في الخيال ؛ وهذا يتسق مع طبيعة التعبير اللفظي بالألفاظ المتتابعة في اللسان التي تملك وصف كل جزء من جزئيات الحركة المتتابعة في الزمان . ومن هنا كانت موضوعات الأدب : الشعر والقصة التمثيلية والمقالة والترجمة والبحث . . . كلها حركات في الطبيعة أو في الشعور .

وهذه الخاصية تظهر واضحة عند الموازنة بين الأدب، والتصوير أو النحت. فالمصور — لأن ألوانه وخطوطه ثابتة ومحدودة المكان — يختار الموضوعات الثابتة في المكان ، يختار المناظر والمشاهد . فإذا أراد التعبير عن الخواطر الشعورية ، والمعاني المجردة ، أحالها مناظر

ومشاهد ثابتة ؛ لأن الأدوات الميسرة له تحتم عليه هذا دون سواه . و المثال كذلك ، وفي حدود أضيق من حدود المصور وأدوات ومواد أقل مرونة من أدوات المصور ومواده . وتخيل مثلاً أن مصوراً أو مثالاً حاول أن ينشىء قصة أو ترجمة حياة أو تمثيلية . إنه تصور مستحيل لأن هذه الموضوعات حركات متتابعة ، وليست مناظر ثابتة .

أما الموسيقى فقد تكون أكثر حرية في اختيار الموضوع من التصوير والنحت . ولكنها مقيدة بقواعد الصوت وطبيعة الآلات ، فموضوعاتها غالباً هي الموضوعات التأثرية العامة الغامضة ، التي لا تتحدد فيها المعاني ولا تتوقف على الجزئيات المتتابعة كالموضوعات الأدبية . ولئن شاركت الشعر بعض موضوعاته ، فموضوعات الأدب الأخرى لا تحاولها الموسيقى .

وقد يلاحظ أن العنصر الإيقاعي موجود في جميع الفنون الجميلة . فالإيقاع الصوتي والإيقاع المعنوي مستقران في الأدب وهما جزء أساسي في التعبير ، لأن الدلالة اللغوية وحدها لاتكفي في العمل الأدبي . والإيقاع في التصوير كذلك كائن ؛ ولكنه إيقاع تتولى العين تمييزه بدل الأذن ، وتلحظه في تناسق الألوان والخطوط ؛ وكذلك في النحت ، فهو ملحوظ في الانحناءات والأوضاع والأبعاد . ولكن الإيقاع في هذه المواضع وتلك مجازي . وقد استخدم لفظه بدل لفظ « التناسق » ؛ وما تزال لكل فن خصائصه . والإيقاع بمعناه الحقيقي لايتحقق إلا في الموسيقى .

ومع أن اختلاف الأداة في الفنون ينشأ عنه اختلاف الموضوعات المتاحة لكل فن ، فإننا نفترض أنها قد تجد موضوعات تتحد فيها ، وتملك جميعها التعبير عنها . فذلك لايمحو الفوارق بينها ، ولا يسمح باتحاد قواعد النقد فيها . فالأداة كما أنها تحدد الموضوع تحدد كذلك طريقة تناول الموضوع والسير فيه .

ولنفرض أن العاصفة كانت هي الموضوع المشترك الذي تريد الفنون الأربعة أن تتناوله بالتعبير . ففي الأدب يتاح للأديب أن يبدأ موضوعه من أول منظر فيه . فقد يصف السكون الذي يسبق العاصفة ، ويتناول مظاهره في الريح والشجر وأنفاس الهواء والأحياء ؛ ثم يصف الهبوب ، والغبار الثائر ، والريح الغاضبة ، والشجر المجنون الحركة ، والأحياء المذعورة الهاربة ... إلى آخر مظاهر العاصفة المتناثرة . وقد يستمر فيصف استدارة الريح ، وعودة الهدوء ، واشتمال السكون ؛ وقد يربط بين مظاهر الطبيعة ومشاعر النفوس .. إلى نهاية الجزئيات والتفصيليات التي يتناولها العنوان .

ولا بد له بحسب الأداة المهيأة له أن يراعي دلالة الألفاظ اللغوية ، ودلالة الجمل

البيانية ، مع إيقاعها الموسيقي في الأذن ، والإشعاعات الخيالية التي ترسم الصور والظلال من وراء الألفاظ والعبارات ، ليستطيع أن يعبر تعبيراً كاملا ، عن المشهد في الطبيعة وعن التأثرات الشعورية المصاحبة له في النفس . وينقل إلى القراء هذا كله ، ويثير في نفوسهم انفعالا معيناً ناشئاً من إيجاد التعبير المؤثر .

فإذا شاء المصور أن يعبر عن « العاصفة » لم تكن الفرصة متاحة له ليتناول موضوعه بهذا الترتيب التسلسلي ، ولو سلك هذا الطريق لاحتاج إلى عشرات اللوحات المتتابعة ، ولفشل بعد ذلك فشلا ذريعاً ، لأنه أراد التعبير عن الحركات المتتابعة ، ومجاله هو مجال المشاهد الثابتة . فطبيعة الأداة الميسرة له لا تسمح له إلا باختيار منظر ثابت واحد يوحي بالعاصفة في لمحة . فقد يختار مثلا منظر الهبوب ، فيرسم إنساناً قد التفت ملابسه بحركة عصبية في اتجاه الريح ، ودلت ملامحه النفسية على العاصفة ، وفي طرف الصورة أشجار مجنونة الحركة أو طائر مهيض الجناح ينحني للعاصفة ؛ ثم يجد من الألوان ما يعبر به عن المنظر الحسي والأثر النفسي معاً ؛ ثم يستعين بانحناءات الخطوط على تكملة التعبير والتأثير .

وليس هذا إلا مثلا بطبيعة الحال ، فللتصوير — في هذا الموقف — اتجاهات شتى ، ولكنها جميعاً مقيدة بهذه القيود : قيد اختيار منظر ثابت واحد من مناظر العاصفة المتتابعة لا كل مناظرها ، وقيد التعبير الكلي في لحظة عن شتى التأثرات المصاحبة للعاصفة ، وقيد الاستعاضة بالألوان والخطوط عن المعاني والإيقاع .

وقد تكون الفرصة المتاحة للنحات أضيق ، ووسائل التعبير في يده أقل . فليس في يده إلا مادة جامدة، أبعادها محدودة ، كما هو محروم من تعدد المناظر الجزئية الدالة في اللوحة الواحدة. فهو مقيد بقيود المصور نفسها مضافاً إليها حرمانه من اللون وتعدد المناظر .

فأما الموسيقي فقد يكون أكثر طلاقة من المصور والنحات . ولكن الأداة الميسرة له وهي الأصوات والمسافات تعين طريقه . فهو لا يملك إلا تأليف لحن متناسق من أصوات مختلفة تحدث الأثر النفسي الإجمالي الغامض ، لأنه لا وجود للدلالات المعنوية الجزئية في الأنغام .

ولقد يستطيع اللحن ، كما تستطيع اللوحة ، كما يستطيع التمثال أن يحدث في النفس أثراً مساوياً للأثر الذي يحدثه العمل الأدبي ، أو فائقاً عنه ؛ ولكن طريقة كل فن من هذه الفنون في إحداث هذا الأثر مختلفة عن الأخرى ، لأن طريقة الأداء — أي طريقة تناول الموضوع والسير فيه — مختلفة .

ولما كان النقد لا بد أن يتناول طريقة استخدام الأداة الخاصة بكل فن ، وطريقة تناول الموضوع والسير فيه — وكلتاهما ذات قيمة أساسية في الحكم — فلا بد أن تختلف قواعد النقد في كل فن عنها في الفن الآخر ، بحيث لا تصلح القواعد الفنية العامة للتطبيق الجزئي على ذات العمل الفني . وإن صلحت بعض الشيء في الدراسة التاريخية والدراسة النفسية للفنون ، أي لدراسة الإطار وحده لا ذات الموضوع .

ولا بد إذن من إفراد الأدب بقواعد نقد خاصة به ، تتمشى مع أدواته وطبيعة موضوعاته وطريقة استخدام الأداة ، وطريقة تناول الموضوع والسير فيه .

على أننا نعود مرة أخرى فنجدنا في حاجة إلى تفصيل خاص في قواعد النقد الأدبي . فليس الأدب فنا واحداً ، إنما هو فنون كثيرة : شعر — متنوع الألوان — وأقصوصة ، ورواية ، وتمثيلية ، وترجمة ، ومقالة ، وبحث . ولكل فن من هذه الفنون طريقته وموضوعاته . وعلى هذين الأساسين تقوم قواعد نقده ، إن أردنا الدقة في التطبيق .

سيد قطب

مهرجان العروبة

للأستاذ جورج حداد بدمشق

تحتفل البلاد الإسلامية في كل عام برأس السنة الهجرية كعيد ديني ، غير أنها لا توفيه حقه كعيد قومي . ولو نظرت إليه من حيث أهميته التاريخية ، ولو اعتبرت الهجرة والتاريخ الهجري الذي بدأ عندها والحوادث الجسام التي رافقتها وتبعتها والتي كان أهمها بدء تأسيس أول دولة عربية كبرى يشمل حكمها جزيرة العرب بكاملها أولا ، ثم الأقطار المجاورة ـ أقول : لو اعتبرت ذلك ، لكان احتفالها بهذا العيد أكثر بكثير من مجرد تعطيل يوم في أعمال المؤسسات والدوائر الرسمية .

ولكن مهما يكن من أمر فإن هنالك ما يمكن أن نسميه احتفالا ، وهذا الاحتفال لا يقتصر على فكرة بدء عام جديد هو العام الهجري ، وإنما يعود بنا إلى التاريخ ، ويذكرنا بالهجرة نفسها ، وبنشوء الدولة العربية الكبرى في مدينة الرسول . غير أنني لا أود الكلام الآن عن الهجرة وشأنها العظيم ، ولم يسقني إلى ذكرها سوى أن هنالك حادثاً يشبهها ، بل يتفرع عنها ، وله شأنه الخطير في جميع البلاد العربية ، ولكن الناس لا يحتفلون به ، مع أنهم في كل يوم يشعرون بنتائجه ، وبالصبغة التي صبغ بها حياتهم . ويمكنهم أن يحتفلوا بذكرى هذا الحادث كما يحتفلون بذكرى سائر الحوادث الهامة ، ويمكنهم أن يقيموا له عيداً بل سلسلة من الأعياد في الدول والممالك العربية ، كما تقام سائر الأعياد : هذا الحادث إنما هو الفتوحات الإسلامية العربية ، أو قل : فتوح العرب للشام والعراق ومصر وشمالي إفريقيا . وهذا العيد الذي يمكن الاحتفال به في كل عام قد أسميته « مهرجان العروبة » .

أجل لم تكن الفتوحات الإسلامية العربية في القرن السابع الميلادي حادثاً تاريخيا عاديا ، ولم تقتصر نتائجها على انتقال بعض البلاد من حكم إلى حكم كما يحصل كثيراً في أدوار التاريخ ، أو مجرد سيطرة دولة على قطعة من الأرض بدلا من دولة أخرى . وإنما كان معناها تغيرات وانقلابات كبرى في كيان مجموعة من الشعوب من حيث العنصر واللغة والدين والعادات . ومع أننا لسنا من القائلين بأن الفتوحات تأتي دائماً بتغيير

مفاجيء في أحوال البلاد المفتوحة ، فإن الفتوحات الإسلامية قد أتت بانقلابات وتغيرات هامة — وإن تكن تدريجية — في أحوال البلاد التي عرفت منذ ذلك الحين بالبلاد العربية ، والتي تمتد من حدود بلاد فارس إلى نهاية المغرب على ساحل المحيط الأطلسي . وأهم ما في هذه الانقلابات التي رافقت الفتوحات وتبعتها ، انتشار العنصر العربي في هذه البلاد ، واندماج السكان الأصليين وامتزاجهم به ، بحيث تغلبت اللغة العربية على لغاتهم ، والعنصر العربي على عناصرهم ، والدين الإسلامي على أديانهم ، وذلك في مدة يمكن اعتبارها قصيرة بالنسبة لما تستغرقه عادة مثل هذه العملية فيما لو قارناها بالعمليات التي تشبهها في أدوار التاريخ .

كانت تسكن البلاد العربية — التي استعربت بفضل هذه الفتوحات — شعوب وعناصر مختلفة ، أهمها الآراميون والسريان في الشام والعراق ، والأقباط في مصر ، والبربر في سائر شمالي إفريقيا . وكان يرافقها أخلاط من اليهود والفرس واليونان والرومان والأرمن . ولم تكن تسكنها عناصر عربية إلا في بعض جهات الشام والعراق . وكانت تحكم القسم الشرقي منها — أي سورية والعراق ومصر — دولتان كبيرتان هما دولتا الفرس والروم البيزنطيين ، ومع ذلك ، وبالرغم من تعدد العناصر والمذاهب ، فإن العرب تمكنوا من أن يجعلوا من هذه البلاد المترامية الأطراف كتلة عنصرية واحدة ، بعد زمن الفتوحات بمدة وجيزة . والذي يستغربه المطلع على أوضاع هذه البلاد التاريخية في بادىء الأمر ، هو أن بلاد الشام مثلا بقيت محافظة على عنصرها الآرامي ، وعلى لغتها وتقاليدها الآرامية السامية في عهد الحكم اليوناني والروماني بالرغم من سيطرة هاتين الدولتين مدة عشرة قرون — أي منذ فتوحات الإسكندر المقدوني في القرن الرابع ق . م . حتى نهاية الحكم البيزنطي في القرن السابع الميلادي — ثم ما لبثت بعد الفتوحات الإسلامية العربية أن استعربت وتغيرت لغتها وتقاليدها في بضعة أجيال . وقل الأمر نفسه في العراق حيث استعربت البلاد بسهولة .

إننا لا ننكر أن وجود بعض القبائل العربية المقيمة في الشام والعراق قبل عهد الفتوحات ، ووجود بعض الدويلات العربية ، مع وجود العناصر الآرامية السامية التي لها صلة عنصرية قوية بالعرب ، قد ساعد على عملية التعريب . وإننا نعلم أن استعراب مصر والمغرب قد استغرق وقتاً أطول لوجود عناصر لا تمت إلى العرب بصلة قوية . غير أن هنالك أسباباً أخرى دعت إلى تغلب العنصر العربي الفاتح في البلاد المفتوحة ، أهمها عملية الهجرة الواسعة من الجزيرة العربية التي رافقت الفتوح ، بحيث لم يعتبر

العرب أنفسهم فاتحين بالنسبة إلى البلاد التي خضعت لحكمهم — كما كانت تعتبر نفسها سائر الأمم — وإنما عدوا أنفسهم مستوطنين ، فسكنوها بعد أن نزحوا إليها ، وامتزجوا بسكانها وتعاملوا مع أهلها .

وكانت حركة النزوح واسعة النطاق حتى إنه ليمكن تشبيهها بحركة نزوح القبائل الجرمانية في مطلع العصور الوسطى إلى بلاد غربي أوربا واستقرارهم فيها وسيادة عنصرهم على عناصرها ، كتغلب الإنجليز والسكسون مثلاً على البلاد التي عرفت فيما بعد بإنجلترة ؛ أو يمكن أن نشبهه بنزوح الإنجليز في القرنين الماضيين إلى بلاد أمريكا الشمالية وأستراليا ، بحيث أصبحت هذه البلاد أنجلوسكسونية . هذا ولا ننكر ما كان للإسلام من أثر في استعراب هذه البلاد بسبب دخول جانب كبير من سكانها في الدين الجديد ووجوب استعمال لغة القرآن وتعلم أصولها وآدابها .

ولا يتسع المجال لبحث جميع عوامل التغير العنصري الذي أسفرت عنه الفتوحات ، إنما الأمر الذي أردت أن أقرره هنا هو أن رسوخ العروبة في البلاد العربية ناتج عن الفتوحات الإسلامية التي بدأت في عهد أبي بكر ؛ وأن سكان سورية والعراق ومصر والمغرب الذين حافظوا على عروبتهم بالرغم من تقلب الدول والممالك الأعجمية في بلادهم يرجعون بعروبتهم إلى عهد الفتوحات . والذي أريد أن ألفت الأنظار إليه هو أن الفتوحات الإسلامية العربية يمكن أن تعتبر عيداً قومياً ، لكل من البلاد العربية ، كما تعتبر الحوادث الأخرى الهامة في تاريخ البلاد المعاصر والتي تقام لها الأعياد . ويمكن أن يقام في كل سنة مهرجان يدعى مهرجان العروبة في جميع البلاد العربية ، احتفالا بذكرى هذه الفتوحات التي كان من نتائجها الأساسية استعراب هذه البلاد . أما تاريخ إقامة هذه الذكرى والاحتفال بهذا الحادث فيمكن أن يكون تاريخ إحدى المعارك الحاسمة التي قررت فتح كل من البلاد العربية كمعركة اليرموك بالنسبة إلى الشام ، أو القادسية بالنسبة إلى العراق ، أو الفرما أو حصن بابليون بالنسبة إلى مصر . والأنسب أن يكون المهرجان في وقت واحد في جميع بلاد العرب ، وأن ينتقى له تاريخ عام وهو تاريخ ذلك اليوم المشهود الذي عقد فيه الصديق أبو بكر الألوية لأبي عبيدة ابن الجراح ، وعمرو بن العاص ، ويزيد بن أبي سفيان ، وشرحبيل بن حسنة ، وسيرهم من مدينة الرسول لفتح العالم .

جورج حداد

عظمة الفاطميّين

للدكتور علي إبرهيم حسن

صور التاريخ صوراً مثالية لدول عديدة ، إلا أنه لم يرسم صورة أجمل من صورة الدولة الفاطمية ، تلك الدولة الفتية التي نافست عاصمتها القاهرة بغدادَ عاصمة الدولة العباسية العتيدة . ونظر التاريخ إلى هذه الصورة الخالدة في رضى وإعجاب ، وحق له أن يعجب . فقد كانت الدولة الفاطمية أجمل حلية في زخرف الدنيا ، وأروع تحفة في معرض الزمن . كانت عظيمة في كل شيء : في خلفائها ، وفي صناعتها ، وفي علمها ، وفي مظاهر احتفالاتها بالأعياد والمواسم ، وفي ثروة وزرائها التي لا تحصى ولا تقدر .

عظمة الخليفة .

كان الخليفة الفاطمي يسكن في قصر فخم ، هائل البنيان ، رائع المنظر ، بديع الأثاث ، جدرانه وسقوفه حافلة بألوان الزخارف الفنية ، وعلى نوافذه وأبوابه ستور من الحرير أو الديباج منسوجة بالذهب ، وأرضه مصنوعة من الرخام ومغطاة بالبسط والسجاجيد القيمة النادرة المثال ، وله أسوار عالية ، يحرسها خمسمائة من الفرسان ومثلها من المشاة ، ويعمل فيه ألوف الخدم والجواري الحسان .

ويكفي للدلالة على عظمة الخليفة الفاطمي نظرة إليه وهو في ملابسه التي تبهر الأنظار ، وجلاله الذي تخشع له الأبصار ، وحوله حاشية من الأمراء وكبار رجال البلاط ، في ملابس مزركشة من الحرير والديباج موشاة بالذهب الخالص . ينتقل الخليفة في هذا الموكب الحافل إلى حيث ينعقد مجلس الملك في «قاعة الذهب» ، وهي من أروع ما رسم مهندس ، ومن أبدع ما نحت فنان ، مؤثثة أثاثاً فخماً ، ومزينة بالستور والطنافس الحريرية ، وكلها من رسم واحد ولون واحد ، وأرضها مفروشة بأنفس ما صنع الصانع من بسط . وكانت العظمة الملكية تتضح بأجلى مظاهرها إذا ما انفرج الستران الحريريان بفعل اثنين من الأساتذة ، بأمر من رئيس القصر المعروف باسم « زمام القصر » ، فيظهر شخص الخليفة ، محاطاً بهالة من نور ومجد ، وحوله جماعة من القراء يأخذون في ترتيل

آيات الذكر الحكيم في نغم عجيب ، ثم يأتي حامل الدواة فيضعها على طرف الحشية المخصص لها . وكان زمام القصر وصاحب بيت المال والحجاب والأمناء يأخذون أمكنتهم عند الأبواب في الوقت الذي يكون الحاضرون قد جلسوا في أمكنتهم المخصصة لهم . وعندئذ يقدم أحد الأمناء الأشخاص الذين يرى تقديمهم إلى الخليفة .

وقد بلغ عرش الخليفة الفاطمي من الأبهة والفخامة حداً يفوق الوصف ، حتى قيل إن مقدار الذهب الذي استعمل في عمله زاد على ١١٠,٠٠٠ مثقال ، ورصع الستر بآلاف القطع من الجواهر المختلفة الألوان ، وكان موضوعاً قبالة العرش ، وحلي بما زنته ٣٠٠,٠٠٠ مثقال من الذهب الخالص .

* * *

ثروة الخلفاء والأمراء والوزراء

وتمتع الخلفاء الفاطميون بثراء واسع . فقد كانوا يجلسون إلى موائد عليها الأطباق والأواني والصحاف والصواني والسكاكين ، وكلها مصنوعة من الذهب الخالص . ولا يمل المتأمل من النظر إلى تحفهم الكثيرة النادرة . وكان أهم ما يسترعي النظر في عصر الخليفة المستنصر الفاطمي تلك الثروة الطائلة التي كان يملكها الخليفة حتى سنة ٤٦٠ هـ ، والتي يضيق النطاق عن حصرها ، والتي تبين لنا مصادر ثروة مصر وما كانت عليه من يسر قبل ظهور الشدة العظمى . وأمدنا ابن مُيسَّر في كتابه « تاريخ مصر » ببيان عن كنوز المستنصر ، استمده من مجلد ضخم يقع في نحو العشرين كراسة ، اطلع عليه بنفسه . ويشتمل ذلك البيان على ذكر تلك الكنوز من طرف وأثاث وملابس وذهب وغير ذلك . ومن هذه النفائس ثلاثون ألف قطعة كبيرة من البلور ، وخمسة وسبعون ألف ثوب من الحرير الخسرواني * ، وعشرون ألف سيف محلى بالذهب ، وكلها مما بعث به البساسيري أحد قواد العباسيين حين عزم على إقامة الخطبة في بغداد للخليفة المستنصر سنة ٤٥٠ هـ ، ومن ثروة المستنصر وممتلكاته التي لا تقوم بمال سيفه الخاص ، وسيف الخليفة المعز لدين الله ، وسيف النبي عليه السلام ، وسيف الحسين بن عليّ ، وسيف جعفر الصادق ، وسبحته من الأحجار الكريمة قومت بثمانين ألف دينار ، وأعداد لا تحصى من السرج والأسلحة والرماح والخواتم والأكواب والمحابر . واشتملت ثروته أيضاً على حصيرة منسوجة بالذهب زنتها ثمانية عشر رطلاً ، وعلى ألف ستر مزركش بالذهب ، تمثل الممالك المختلفة بملوكها ، وأسمائهم وموجز لحياة كل منهم ، وعلى عدد من المصورات

* نسبة إلى خسرو شاه فارس .

الثمينة المتقنة الرسم . كل ذلك عدا ثلاثين مليون دينار من الذهب ، والفسطاط (المضرب) الذي خلفه له الظاهر الفاطمي ، وكان منسوجاً من خيوط الذهب ومقاماً على أعمدة من الفضة ، وبلغت قيمته ١٤,٠٠٠ دينار ✽ .

كذلك تمتعت الأميرات بغنى وافر ، فاستحوذن على جانب كبير من الثروة . يتبين ذلك مما تركته كل من الأميرتين رشيدة وعبدة ابنتي الخليفة المعز . فقد تركت الأولى من مخلفاتها ما قيمته ثلاثة أرباع مليون من الجنيهات ، وخلفت الثانية كثيراً من خزائن الحلي ، من بينها إردب من الزمرد وعدد كبير من الجواهر والأحجار الكريمة والأواني البلورية النفيسة . وأنفقت السيدة تغريد زوجة المعز الفاطمي أموالا جمة في سنة ٣٦٦ ﻫ على تشييد مسجدها بالقرافة ، وتولى زخرفته جماعة من الفنانين من أهل البصرة ، كما بنت هذه السيدة قصر القرافة ، وكان قصراً فخماً يسر الناظرين ، به قنطرة مقامة على قبو يستظل به المسافرون من الشمس . وتركت ست الملك بنت العزيز وأخت الحاكم ثروةً ضخمة ، من بينها ثمانمائة جارية وثمان جرات ملأى بالمسك والأحجار الكريمة ، من بينها قطعة من الياقوت تزن ثمانية مثاقيل ، وكانت مخصصاتها السنوية خمسين ألف دينار .

تمثال للعنقاء من الشبهان

ولم تكن عظمة وزراء الفاطميين تقل عن عظمة سادتهم الخلفاء أو أفراد البيت المالك . فقد كانوا يتمتعون بكل مظاهر الأبهة والفخامة . يحدثنا التاريخ أن الوزير اليازوري استصنع مضرباً حوى مجموعة رسوم فنية ، أنفق عليها ثلاثين ألف دينار ،

✽ مما يؤسف له جد الأسف أن هذه الثروة الضخمة نهبها الأتراك أثناء ثورتهم التي قاموا بها سنة ٤٦٠ ﻫ

وعمل على إعداده مائة وخمسون فناناً حتى أتموه في تسع سنوات ، ونقشت على أحد جوانبه صور جميع حيوانات العالم . كذلك فاقت ثروة الوزير الأفضل بن بدر الجمالي ثروة أسلافه من الوزراء ، فقد خلف ثروة طائلة ، نذكر من بينها أربعة آلاف قطعة من البسط والستور ، وسبعة آلاف سرج تقدر بملايين الدنانير ، وأنواعاً مختلفة من الحرير المذهب ، وأربع حجرات ملأى بالوسائد والمنسوجات ، وثلاثة عشر ألف ملعقة من الذهب والفضة ، وستة ملايين ونصف مليون من الدنانير ، وخمسة وسبعين ثوباً من الديباج ، وآلافاً من التحف النادرة ، منها خمسة آلاف نرجسة من الذهب . وكان في كل بيت من بيوته عشرة مسامير من الذهب ، اتخذت كمشاجب لتوضع عليها الثياب ، كل مسمار وزنه ١٠٠ مثقال ، عليها العمائم المختلفة الألوان .

النهضة الصناعية

على أن الفن البديع كان من أبرز الأمور التي أظهرت عظمة الفاطميين . فقد مهروا في صناعة التماثيل ، حتى وجد بدار الوزير الأفضل بن بدر الجمالي ثمانية تماثيل لثماني جوار متقابلات ، أربع منهن سود صنعن من العنبر ، والأربع الأخريات بيض صنعن من الكافور ، وكلهن متزينات بأثمن الحلي ، ومرتديات أفخر الملابس ، وبأيديهن الجواهر النفيسة . ومن أطرف ما يروى أن الأفضل كان إذا دخل من باب المجلس نكسن رؤسهن إجلالا له ، فإذا ما أخذ مكانه في صدر المجلس استوين قائمات ، ويظهر أن حركات هذه التماثيل كانت بوسائل هندسية مرتبطة بمكان دخول الأفضل إلى مجلسه ؛ ووجد في بيت المستنصر نخلة مصنوعة هي وثمرها من مختلف الجواهر والأحجار الكريمة يخيل للناظر إليها أنها طبيعية . وكان بداره طاووس من الذهب مرصع بالجواهر ، ومنضد قوائمه من العقيق

وأفاض الفن من جماله على الصناعة ، حتى قيل إن الأواني الخزفية التي صنعها الفاطميون ، كان الإنسان إذا وضع يده بداخل إحداها يرى يده من الخارج . وارتقت صناعة الأواني عند الفاطميين ، فكثرت أواني الذهب والصواني المحلاة بالذهب ، وأصص الزهر والأطباق المزينة بالذهب ، وكافة أنواع الأواني الخزفية . واشتملت أواني المستنصر على ستة آلاف آنية للنرجس ، وصنعت المرايا من الصلب محلاة بالذهب والفضة . وقد اكتشفت قطع كثيرة من الزجاج سنة ٨٧٧ ﻫ في قرية سمناي القريبة من تنيس ، مكتوب على بعضها اسم المعز ، وعلى بعضها الآخر اسم العزيز ، ومنها

مانقش عليه اسم الحاكم ، ومنها ما عليه اسم الظاهر ، على أن أكثر أسماء الخلفاء ظهوراً على تلك القطع الزجاجية هو اسم المستنصر ، مما يدل على تقدم هذه الصناعة في عهد ذلك الخليفة .

وضرب الفاطميون بسهم وافر في صناعة السروج ، التي كانت تهيأ لحفظها الخزائن الكثيرة . ويكفي أن نذكر أنه في عهد المستنصر كان في خزانته صناديق ملأى بالسروج المحلاة بالفضة ، وجد عليها رقم ٣٩٨ ، وزاد عددها على أربعة آلاف سرج ، يتراوح ثمن الواحد بين ١,٠٠٠ و٧,٠٠٠ دينار . أي أن قيمة السروج في عهده بلغت عشرات الملايين من الدنانير . وقد تخصص العمال المصريون في عمل تلك السروج ، وكان منهم في المكان المعروف باسم « الصاغة » عدد كبير لايفتر عن العمل . وكانت خزانة السروج عبارة عن قاعة كبيرة بها مصطبة ارتفاعها ذراعان ، عليها متّكآت ، على كل متّكأ ثلاثة سروج متراصة . وبلغت صناعة السروج الذروة في عهد الخليفة الآمر الفاطمي ؛ فقد صنع له المصريون عند ما أراد



حشوة من خشب تشبه محراباً صغيراً
يرتكن عقده على عمودين حلزونيين

الإغارة على بغداد وغيرها من بلاد الشرق سروجاً مجوفة مبطنة بصفائح القصدير ، لها أفواه تملأ بالماء لشرب الفرسان ، كل سرج منها يسع سبعة أرطال من الماء .

ونستطيع أن نستدل على قدرة المصريين في العصر الفاطمي على صناعة الذهب والفضة من هدية القائد جوهر للخليفة المعز حين قدم من بلاد المغرب إلى مصر

في ١٥ رمضان سنة ٣٦٢ هـ . فقد جلس المعز في قصره على السرير الذهبي الذي صنعه له جوهر في الإيوان الجديد ، ثم أذن بدخول الناس عليه ، فدخل وجوه أهل المدينة ، وجوهر قائم بين يديه ، يقدم الناس قوماً بعد قوم . ثم قدم جوهر هديته ، وكانت تشتمل على أربعة صناديق يرى ما بداخلها ، وجمل فيها أواني الذهب والفضة ، وكان بها مائة سيف محلى بالذهب والفضة أيضاً ، وصناديق مخرمة من فضة تحوي ثمين الجواهر . واشتملت أيضاً على سبعمائة من الآنية حوت الطرائف التي انتخبها هذا القائد من ذخائر مصر للخليفة المعز الفاطمي . وعقب ذلك خلع المعز على جوهر في عيد الفطر خلعة مذهبة وعمامة ، وقلده سيفاً ، كما قدم إليه عشرين فرساً مسرجة ملجمة ، ومنحه خمسين ألف دينار ومائتي ألف درهم . وقد منح المعز جوهراً هذه الهدية إعجاباً بما أصابه من النجاح وتقديراً لما قدمه إليه جوهر من تلك الهدية الثمينة .

ومن أبرز الصناعات الفاطمية التي ظهر فيها فنهم ، النقش على الخشب . وكان من بين تلك النقوش آيات قرآنية على أبواب المساجد ومنابرها أو صور تمثل بعض مناظر الحياة الطبيعية ، كصورة موسيقيين يعزفان على العود وحولهما جماعة من الراقصين ، أو صورة صراع بين أسد وحيوان ونحو ذلك . وكثيراً ما طعمت تلك النقوش بالعاج أو الزمرد ، وكانت دقيقة في رسمها ، روعي فيها إظهار الحقيقة لا الخيال .

* * *

وكان أروع ما برع الفاطميون في صنعه هو المنسوجات بمختلف أنواعها ، فقد كان في هذه الدولة كنز لا ينضب من الحرير والديباج والذهب ، وبنى المعز لذلك داراً عرفت باسم « دار الكسوة » ، ثم أنشئت بعدها دار أخرى أطلق عليها اسم « دار الديباج » . وكانت الحلل تقدم إلى الأمراء والوزراء والأشراف وكبار رجال الدولة في عيد الفطر ، الذي سمي نتيجة لذلك باسم « عيد الحلل » . وكذلك كانت الحلل المزركشة تقدم إلى رجال البلاط وكبار الموظفين في الاحتفال بأول رمضان ، وفي الاحتفال بالجمع الثلاث الأخيرة منه . على أن الأمراء كانوا يمتازون عن غيرهم بلبس الأطواق والأساور وحمل السيوف المحلاة .

واشتهرت مدن تونة[١] وتنيس[٢] ودمياط بصناعة المنسوجات على اختلاف أنواعها ، حتى كان لها شهرة عالمية في ذلك المضمار . فقد كان يضرب المثل بثياب تونة ،

(١) تونة : جزيرة قرب تنيس ودمياط .
(٢) تنيس : جزيرة بين الفرما ودمياط .



قطعة نسيج من كتان مزينة بحمامات على أرضية حمراء

وكانت تصنع بها كسوة الكعبة أحياناً . كما اشتهر أهل تنيس بعمل الثياب الملونة والفرش النادرة المثال ، وأهل دمياط بصناعة الأقمشة القلمونية التي أخذت صناعتها عن بلاد اليونان ، وهي نوع من القماش ذو ألوان براقة تتلألأ إذا انكسرت عليها أشعة الشمس. وقد ذكر ياقوت الحموي في كتابه « معجم البلدان » عند كلامه على دمياط وتنيس أن حاكة الثياب الرفيعة بهما كانوا من القبط ، وأن أهل دمياط كانوا يستأجرون غرفاً في قبوات على خليج دمياط لعمل الثياب المعروفة باسم « الشَّرْب » .

وكان لمصر مركز ممتاز في صناعة المنسوجات ، حتى كانت تصدر إلى بلاد العراق نوعاً من المنسوجات يقال له « الرفيع » ، اختصت تلك المدن بصناعته ، وبلغ ثمن الثوب الأبيض الخالى من الذهب ثلثمائة دينار على ماروى المؤرخ المصرى ابن زولاق المتوفى سنة ٣٨٧ هـ .

ويتبين لنا مقدار مهارة المصريين في عهد الفاطميين في صناعة المنسوجات من الكسوة التي أمر المعز لدين الله بعملها للكعبة الشريفة . فقد جهز لها الخليفة المعز شمسية من الديباج ، مرصعة بالياقوت الأحمر والأصفر والأزرق ، تحوي خمسمائة درة كبيرة كبيض الحمام ، نقشت عليها الآيات التي وردت عن الحج بالزمرد الأخضر ، وحشو الكتابة در لم ير مثله في كبره ، وحشو الشمسية مسحوق مسك . وما زالت مصر حتى الآن تهتم بكسوة الكعبة ، فترسل في كل عام المحمل الشريف إلى بيت الله

الحرام ، وتقيم لذلك الاحتفالات ، وتودعه في ذهابه بكل إجلال ، وتستقبله عند إيابه بالحفاوة والتكريم .

كذلك أمر المعز بعمل خريطة للعالم ، بدئ بعملها منذ سنة ٣٥٣ هـ من الحرير الأزرق الغريب الصنعة المنسوج بالذهب ، عليه صورة مكة والمدينة ، ومكتوب على كل بلد وجبل ونهر وبحر اسمه بالذهب أو الفضة أو الحرير ، وفي نهاية ذلك كله العبارة الآتية : « مما أمر بعمله المعز لدين الله ، شوقا إلى حرم الله ، وإشهاراً لمعالم رسول الله » . وكلف هذا المصور المعز ٢٢,٠٠٠ جنيه

وقد وصف الرحالة الفارسي ناصر خسرو ، الذي زار مصر مابين سنتي ٤٣٩ و ٤٤١ هـ ، في كتابه « سفر نامة » أو « زاد المسافر » ، ثروة البلاط الفاطمي وأبهته ، وما كانت عليه البلاد من يسر ورخاء ، فقال : « إن القاهرة إلى ذلك الوقت كانت تظهر بمظهر القوة ، حتى فاقت غيرها من مدن العالم الإسلامي في العظمة والعمران . فكانت دورها محكمة البناء ، مبنية بالحجر ، يفصل بعضها عن بعض حدائق غناء ، وأسواقها وحوانيتها ملأى بالطرف النفيسة ، والأهالي يرتعون في رغد من العيش ، والأمن مستتباً لا يخشى أحد سلباً أو تعديا ، حتى كان التجار لا يحفلون بإغلاق حوانيتهم في الليل . وكانت الفنادق والحوانيت والحمامات ملكا للخليفة ، ويوجد في القصر الفاطمي ٣٠,٠٠٠ جارية و١٢ بهواً و١٠ أبواب ، وموضع القصر وسط مدينة القاهرة » . وأطنب في وصف الصناعة المصرية في العصر

شاهد من الرخام عليه كتابة بالخط الكوفي من أوائل القرن السادس

الفاطمي ، وأوضح أنه لم يجد في أثناء زيارته للبلاد المصرية ما يحاكيها ولا يدانيها في جميع الأقطار التي شاهدها في أسفاره .

مظاهر الاحتفال بالأعياد والمواسم

على أن عظمة الفاطميين لم تكن مقصورة على ما كان يحيط بالخليفة من أبهة وفخامة ، وعلى الثروات الطائلة التي استحوذ عليها الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم ، وعلى نهضة مصر الصناعية في عهدهم ، بل إن عظمتهم تجلت في مظاهر احتفالاتهم بالأعياد والمواسم . فقد كان الشعب المصري يحتفل بأعياده ومواسمه في العصر الفاطمي بأعظم مظاهر الابتهاج : فتقام المآدب ، وتنظم الملاهي ، ويعم الناسَ الفرح والسرور . وفي هذه الأعياد والمواسم كانت تضاء الشوارع والحوانيت ، ويحمل الفقراء فوانيس مقابل إعطاء كل منهم درهما . كذلك كانت المساجد تضاء بالمشاعل ، وخاصة في ليالي الوقود الأربع * . وفي كل ليلة منها كان يعقد بالجامع الأزهر مجلس حافل بالقضاة والعلماء برياسة قاضي القضاة ، ويبعث الخليفة إليهم سائر ألوان الطعام والحلوى .

وفي تلك الأعياد والمواسم ، كان الفاطميون يعنون بتنظيم الولائم والأسمطة الرسمية ، وكان الخلفاء يقيمونها في قاعة الذهب . وظلت الأسمطة لا تنقطع من قاعة الذهب في شهر رمضان وفي عيدي الفطر والأضحى . وكانت مقادير الأطعمة التي تقدم في هذه الولائم من الوفرة بحيث كانت تعم سائر طبقات الشعب . وفي المواسم الدينية كانت توزع جامات الحلوى وطباق الزلابية وماء الورد على رجالات الدولة ، وكان يصنع في عيد مولد النبي عليه السلام عشرون قنطاراً من الحلوى ، توضع على ثلثمائة صينية وتوزع في الجامع الأزهر . أما في الاحتفال بوفاء النيل ، فكان يقام سماط عظيم في سرادق رحب على شاطىء النيل ، يجلس فيه كل من اشترك في الموكب .

وفي هذه الأعياد والمواسم ، كان الخلفاء الفاطميون يجودون على كبار موظفي الدولة بالخِلع ، فكانت تقدم الحلل المزركشة بالذهب للوزير وأخي الخليفة ، وذلك في مواسم أول رمضان والاحتفال بجبر الخليج والاحتفال بالجمع الثلاث الأخيرة من رمضان . كذلك كان يمنح الشعراء والكتاب والأعيان الذين يحضرون إلى القاهرة حللا

---

* ليالي الوقود الأربع : هي الليالي التي تسبق أول شهري رجب وشعبان ومنتصفهما . وكان الناس تبعاً لتعاليم الشيعة يصومون بعض هذين الشهرين كصومهم رمضان. ولذلك كانوا يحتفلون بهذه الأيام الأربعة كما يحتفلون برمضان . واستمر الاحتفال بهذه الأيام إلى وقتنا الحاضر .

من الحرير الخالص بعضها مزركش بالذهب ، وهي اليوم أشبه بكسوة التشريفات . وفي عيد الفطر كانت توزع النقود الذهبية والفضية والملابس والأطعمة على الضيوف والموظفين على اختلافهم . هذا إلى ما كان يمنحه كبار الموظفين في غرة المحرم من النقود الذهبية التي كانت تضرب خصيصاً لهذا اليوم ، وتسمى نقود الغرة ، وهؤلاء الموظفون كانوا يعتبرونها بركة من الخليفة ، وتشبه هذه المرتبات الإعانة التي تمنحها المصارف والشركات لموظفيها في عيد الميلاد .

وكان الخليفة إذا خرج في الموكب في تلك الأعياد والمواسم ، خرج معه أحد الموظفين ، يحمل كيساً من الحرير ، فيه خمسمائة دينار ، لتوزع في الطريق الذي يجتازه الخليفة ، على الرجال والنساء والقراء الذين يقرؤون القرآن على جانبي الطريق ، فكان كل من هؤلاء ينال نصيبه من هذه النقود في أكياس خاصة ، في كل منها درهمان أو ثلاثة.

ويمكن القول بأنه لم توجد دولة من الدول التي حكمت مصر ، أغدقت على رمضان ما أغدقته الدولة الفاطمية . ولا عجب في أن تبالغ الدولة الفاطمية في الكرم في ذلك الشهر فقد كان شهراً مباركا عليها كريماً بها ، إذ لم يستهل رمضان سنة ٣٥٨ ﻫ حتى كان الله قد فتح على الفاطميين مصر ذات الخير المستفيض ، بعد أن كانت جيوشهم قد تحطمت على حافة صحرائها مراراً ، في مدى خمسين سنة قبل ذلك التاريخ . وفي رمضان سنة ٣٦٢ ﻫ أصبحت مصر مركزاً للدولة الفاطمية المترامية الأطراف ، عند ما انتقل إليها في ذلك الشهر رابع خلفائهم في المغرب وأولهم في مصر ، المعز لدين الله الفاطمي ، واستقر في القاهرة في قصره الشرقي في السابع من ذلك الشهر . وفي منتصفه بدأ يباشر أمور خلافته من مركزها الجديد . لذلك كان لرمضان مركز خاص بين مواسمهم وأيامهم ، فكانوا يحيون كل ليلة من لياليه ، لا تفوتهم إحداها بدون إحياء ، ويأتون فيه من ضروب البر والخير الشيء الكثير .

وكانت هذه العطايا والهبات والأرزاق التي يمنحها الموظفون ورجال الدولة في الأعياد والمواسم ، وهذه الأسمطة التي تقام في مثل تلك المناسبات ، من عوامل اجتذاب كثير من المصريين نحو الفاطميين وتأييدهم لسياستهم . وكان لهذه الاحتفالات أثرها العظيم في النفوس ، ومن أهم عوامل ظهور الخلفاء الفاطميين بمظهر العظمة والأبهة والجلال .

العلوم والمعارف

أما عن العلم ، فقد كان ميدانه واسعاً رحيباً ، أشرق نوره الساطع من الدولة

الفاطمية بوجه خاص ، وغيرها من الدول الإسلامية بوجه عام ؛ وذلك حينما كانت ظلمة العصور الوسطى تخيم على دول أوربا . وليس أدل على انتشار العلوم والمعارف في العصر الفاطمي ، من تلك المكتبات الضخمة التي كانت تحوي الملايين من الكتب والمجلدات الخطية الفريدة التي جمعوها ، بقصد نشر عقائد المذهب الشيعي وتلقينها للناس . وكان ولع الخلفاء الفاطميين ووزرائهم باقتناء الكتب داعياً إلى نجاحهم في هذا السبيل . ومن أشهر المكتبات الفاطمية : مكتبة القصر ودار العلم .

وقد فاقت مكتبة القصر في القاهرة غيرها من مكتبات العالم الإسلامي ، وتقع في القصر الشرقي الكبير ، وتحوي ٢٠٠,٠٠٠ مجلد ، وقيل إن عدد كتبها بلغ ٦٠٠,٠٠٠ مجلد ، وقال آخرون : إن هذا العدد بلغ مليونين . ومهما يكن من أمر هذا العدد ، فإن المتفق عليه أنها كانت تحتوي على مصنفات في الفقه وفي اللغة العربية والحديث والتاريخ والسير والفلك والدين والكيمياء ، عدا المصاحف التي احتوتها ، ومجموعة القوائم المكتوبة بخط ابن مقلة وابن البواب وغيرهما من مشاهير الخطاطين في ذلك العصر ، وكان فيها أيضاً ١,٢٢٠ نسخة من تاريخ الطبري ، منها نسخة بخط الطبري نفسه . وكان من عادة الخليفة إذا زار المكتبة أن يترجل ، ثم يسير إلى دكة مرتفعة ، فيجلس عليها ، فيأتيه الخازن بنسخ من المصحف مختلفة الحجم ، وبغيرها من المجلدات مما يوصي بشرائه ، لمصادقة الخليفة على هذا الشراء .

وهناك مكتبة أخرى عرفت باسم «مكتبة دار العلم» ، وكانت ملحقة بدار الحكمة التي أنشأها الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي ، والتحق بها عدد من القراء والفقهاء والمنجمين والنحاة والأطباء . وحوت ما لم يجتمع في مكتبة من المكتبات . وأجرى الحاكم، ومن جاء بعده من خلفاء الفاطميين ، الرواتب على خدامها ومن بها من الفقهاء ، وجعل فيها ما يحتاج إليه المطالعون والنساخ من الحبر والأقلام والمحابر والورق .

☆☆☆

ولكن كل تلك العظمة ، لم تعد إلا ذكرى جميلة ، تعطينا فكرة مثالية عن ذلك العز الخالد والمجد التالد .

علي إبراهيم حسن

الصمامات الكهيربية

للأستاذ عوض جندي

تؤلف المواد الطبيعية جميعها من ذرات . وكل ذرة تشبه مجموعة شمسية دقيقة . نواتها شمسها . وهذه النواة بقعة مشحونة بكهرباء إيجابية . وسيارات تلك الشمس هي كهيرباتها . وهي ذات كهرباء سلبية . وتؤلف نواة الذرة من دقيقتين، وكل منهما تكاد تعدل الأخرى وزناً . وهاتان الدقيقتان هما البروتون ، وهو مشحون بكهرباء إيجابية ، والنيوترون وهو مجرد من الكهرباء .

وقد كشف عالم عجيب جديد ، ونعني به العالم الزجاجي العتيد ، الذي يمرح فيه الكهيرب مرحاً سريعاً ، حيث تتفاوت سرعته في الثانية بين ٢٥٠٠٠ ميل و١٨٦٠٠٠ ميل . وهذا من شأنه وجوب تقدير الزمن في ذلك العالم بأجزاء من المليون من الثانية . فيحق لنا إذن أن نعد الصمام الكهيربي أغرب اختراع وأعظمه في عصرنا الحالي . وحسبك — لتدرك قدره — أن تقبض على مغنطيس فتدنيه إلى صمام من الصمامات التي تنبعث منها أشعة رنتجن ، فلا تلبث الشعاعة المتأججة فيه أن تنجذب نحو ذلك المغنطيس كما لو كانت مؤلفة من حبيبات خفية من الحديد . ولكنك إذا قربت المغنطيس نفسه من لهب شمعة مثلا فلا يتأثر به . ولم ذلك ؟

إنه أمر بدهيّ لأن التأجج الذي يحدث في الأنبوب المشار إليه يختلف عن لهب الشمعة ، إذ أن الأول مؤلف من دقائق أصغر كثيراً من الذرات . وتسمى هذه الدقائق كهيربات . فإذا شئنا استخدام هذه الكهيربات في أعمالنا ، فلا مندوحة عن فصلها من مادتها ، ثم إطلاقها . ويتاح لنا ذلك بالحرارة . فأي جسم ساخن إذن يخرج كهيربات ، ولكن الهواء يعيق سيرها . ولما كانت الكهيربات دقيقة جداً كما ذكرنا ، عند موازنتها بالذرات والجزيئات الهوائية التي هي أضخم منها ، فخالما يطير كهيرب من قطعة حديد محماة إلى درجة الاحمرار ، يصطدم بذرة هواء فيقف عندها ، وهنك ينتهي مسيره . فكان هذا التعطل باعثاً على اختراع الصمامات الكهيربية ، وهي أنابيب زجاجية تكون محتوية إما على قليل من الغازات الجوية ، وإما مفرغة منها لكيلا تعوق مسير الكهيربات

في باطنها فيتاح توجيهها إلى أي صوب وفق إرادة الطالب . ومما لا شك فيه أن الصمامات الكهيربية مختلفة الأنواع ، وقد أربى عددها ، عند كتابة هذا البحث ، على الألف . وجميعها ما عدا البصاصة « العين » الكهربية أو البطارية الحساسة بالضوء ، تصنع على هذا النمط المجرد ، فتؤلف دائماً من فتيل ساخن يقذف كهيربات ، ومن لوحة معدنية وشبكة صغيرة معدنية تحول بين ذينك الفتيل واللوحة . وقد يحتوي الصمام الواحد على شبكات ولوحات عدة . وتقوم تلك الشبكة المعدنية مقام الصنبور « الحنفية » في أنبوب المياه . فتقذف الكهيربات من فوهتها أو تحتفظ بها كأنها مياه . فإن طلبت منها قطرة واحدة أعطتك إياها . وإذا احتجت إلى فيض ، أسبغته عليك أيضاً .

أما البصاصة الكهربية فهي صمام لاسلكي ذو شكل خاص ، فيه قطبان كهربيان ، موجب وسالب . وطرفاها بارزان من الصمام . وباطن ذلك الصمام مفرغ من الهواء . وقد يكون محتوياً على قليل من غاز الأرغون . وسر الصمام كامن في قطبه السالب . وهو مؤلف من طبقة مفضضة في باطن زجاجة الصمام ، يعلوها قليل من البوتسيوم أو السالينيوم أو نحوهما من المعادن . ومتى سقط الضوء على البصاصة الكهربية ، تفرقت دقائق البوتاسيوم فتطلق منها كهيربات « ذريرات كهربية » وذلك على شكل مجرى يسري من القطب السالب إلى القطب الموجب ، وهو حلقة إما من البلاتين وإما من النيكل ، فيتم الاتصال الكهربي بين ذينك القطبين ، فتغلق الدائرة الكهربية . وتؤدي البصاصة الكهربية عملها حالما يقع عليها الضوء ، فتضطلع بمهام شتى ، سنفصلها في ختام هذا المقال .

ويكفي القارئ لإدراك كنه اختراع الصمامات الكهيربية ، التأمل في جهاز الإذاعة اللاسلكية الذي عنده ، حيث يستطيع رؤية الصمامات التي نحدثه بشأنها . وهي شبيهة بزجاجات المصابيح الكهربية ، وتتأجج مثلها . وفي محطات الإذاعة اللاسلكية صمامات تماثلها ، وإن تكن ذوات أحجام تفوقها كثيراً .

وفي وسع الصمامات الكهيربية إطلاق الموجات الكهربية ، كما أن في مقدورها إظهارها ، رغم كون هاتيك الموجات من الأشياء التي لا تستطاع رؤيتها بالعيون البشرية المجردة ، على حين أنها تضارع موجات البحر ، وإنما تختلف عنها من وجهة كونها رهينة إشارة المهندس الكهربي ، فإن شاء كبرها وإن أراد صغرها .

والجهاز الذي يتلقى هاتيك الموجات التي توجه إليه ، إنما هو آلة حساسة تستجيب لما تستقبله من الموجات . وبعض صمامات الراديو يكشف عن الموجات ، وبعضها الآخر

يضخمها ، أما في الإذاعة المصورة « التلفزة » فترى الصمامات الكهيربية تعمل عملها أيضاً، حيث يقوم بعضها بتوليد الموجات التي تنقل الصور ويقوم سائرها بإظهار الأمواج لعيون طلابها . ولتلك الصمامات أسماء تجارية جميلة هي : بلايطرون plyotron وثيراطرون thyratron وكلايسطرون klystron وإيجنيطرون ignitron . وكثيراً ما يضم بعضها إلى بعض لتؤدي عملا معيناً . وقد تكون الصمامات المشار إليها صغيرة الأحجام كحبة الفول السوداني أوكبيرتها كحجم الإنسان . فإذا ما قرنت إحداها أو أكثر بمحرك ميكانيكي أو بباب أو بسير نقل متصل بآلة أو بأي شيء متحرك أو قاطع أو مسخن أوحارس أو قياس ، أصبح في وسعه أداء ما لا قبل لعيون الناس برؤيته ، أو لأيديهم طاقة على الاضطلاع به إطلاقاً . ومن ثمة يصح القول إن هذا الاختراع لم يفقه شيء من مستنبطات البشر ، وذلك لنبوغه في أداء أعمال جمة .

ويقوم أغلب تلك الصمامات بأعمال الإحصاء والقياس بسرعة البرق . ولما كان العمال العاديون لا يملكون الوقت الكافي والمعرفة الصحيحة اللذين يساعدانهم على حل المعضلات التي تطرأ على أفران صهر المعادن وأوعيتها الضخمة من لحظة إلى أخرى ، فإن الصمامات الكهيربية تستطيع قياسها وإحصاءها في طرفة عين . وهي إنما تؤدي هذا العمل بتحويل كل شيء إلى تيارات كهربية ، تتاح قراءتها في لمحة وذلك بمقياس أيا كان . فإن شئت مثلا تقدير قوة تربينة في أية لحظة في أثناء دورانها ، فعليك أن تتوسل إليه بالصمام الكهيربي ، فهو الجهاز الذي في وسعه تحويل الضغط والسرعة والحرارة وغيرها إلى ذبذبات كهربية ، فيقيسها توا العداد الكهربي أو ما شاكله من المقاييس ، وذلك بمراقبة هاتيك الذبذبات . وكذلك إذا احتجت إلى معرفة هل يقوم مصنع تنقية البنزين الفاخر باستخراجه من المواد الأخرى ، بالنسبة الصحيحة والدرجة المبتغاة من النقاوة ، أدى لك هذه الخدمة الصمام الكهيربي ، إذ يحصل على المعلومات ممثلة في عبارات كهربية فيحولها مقاييس تظهر لطالبها .

ولا يستطيع الكيمياوي تركيب المطاط الصناعي بلا معاونة الصمامات الكهيربية ، لأنها هي التي ترشده إلى موقفه من دقيقة إلى أخرى ، ولولاها لصار إنتاجه أبطأ مما يريد الصانع وخسارته أفدح . ومن الأمور المألوفة أن الغازات التي توجد في أفران صهر المعادن ، تحوي مقادير كبيرة من الرطوبة ، وهذه الرطوبة قد تولد الصدأ على الأجزاء الفولاذية من أجسام الطائرات والمدافع والدبابات . ولا سبيل إلى الخلاص من الصدأ وعواقبه الوخيمة إلا بالالتجاء إلى الصمامات الكهيربية ، إذ هي التي تدل

المهندس على اللحظة الصحيحة التي تصير فيها تلك الغازات مشبعة بالرطوبة المتلفة ، وذلك لأن بخار الماء يجعل الكهيربات تلتصق بذرات الأكسيجين التي في البخار ، وعند ذلك ينخفض التيار الكهربي السائر في دائرته ، ولو كان قليلا ، فيحرك مقياساً ينبه المهندس بوسيلة جلية ، إذ يظهر على شكل إصبع فيشير إلى رقم على مقياس فيضيء مصباحاً صغيراً فجأة . وعلى هذا المنوال يتاح لذاك المسجل الكهيربي قياس الرطوبة التي تلحق الغاز ولو كان أجف من هواء الصيف ألف مرة . ويلي ذلك معضلة السيطرة على درجة الحرارة ، لأن في كل طريقة من الطرق الصناعية لابد من استخدام الحرارة، وهذه يجب ضبط درجتها ضبطاً تاما ، وبخاصة في أحرج الأدوار أيًّا كانت . أجل إنه توجد أجهزة معروفة لقياس الحرارة ، هي : الترمومترات والبيرومترات ونحوها ، ولكنها جميعاً لا تفي بالحاجة حينما يكون المراد ضبط درجة الحرارة ضبطاً محكما لا يعدو جزءاً من مائة من الدرجة الحرارية ، لأن هذا الأمر يقتضي جهازاً فائق الإحساس ، وحينئذ نضطر إلى استعمال جهازين كهيربيين ممتازين ، هما الثيراطرون والبلايوطرون ، ليضخما لنا النبضات التي تنبعث من الأجهزة المنظمة للحرارة ، أو من الأجهزة التي تحول الطاقة الحرارية إلى تيار كهربي ، وبهذه الوسيلة تيسر إنقاص الوقت الذي يستغرقه لحام بعض أجزاء الآلات بالنحاس من أربع دقائق إلى أربعين ثانية .

وإنه لمن المدهش حقاً انتشار طريقة استعمال الصمامات الكهيربية في جهاز طبي للسيطرة على الحرارة ، إذ أن الأطباء ما فتئوا منذ أعوام كثيرة يستخدمون الموجات اللاسلكية لتدفئة النسج البدنية الباطنية .

وطريقتها أن يجلس المريض بين لوحتين معدنيتين ، وحينئذ يطلق عليه طبيبه التيار الكهربي ، فتتأجج على الفور صمامات كهيربية صغيرة ، فيدل ذلك التأجج على شروع الكهيربات في الانطلاق من فتائلها الساخنة ، فتتولد منها في الحال الموجات الكهربية ، وهي التي تتخلل جسم المصاب فتحدث اضطراباً في جزيئات جسمه ينشأ عنه تدفئة لحمه الغائر . وعلى ذلك المنهاج تولد الآلات الكهربية حمى صناعية تحسن الدورة الدموية في الجسم وتعجل وظائفه الفيزيولوجية في حالة إصابته بالتهاب المفاصل الحاد أو المزمن أو الأمراض الزهرية وما شاكلها. وتقام الآن في المصانع آلات كهيربية من هذا القبيل لتوليد الحميات الصناعية . ومن ثمة يجدر بنا الاعتراف بأن الطاقة اللاسلكية التي تستنفدها المصانع الأمريكية تفوق ما تستهلكه كل محطات الإذاعة اللاسلكية المنتشرة في بلاد الولايات المتحدة الأمريكية .

ونعني بالحميات الصناعية الموجات التي تطلقها الآلات المذكورة آنفاً على المعادن والعجائن الكيميائية لإحمائها في مصانعها ، حيث يكون المهندس في أمسّ حاجة إلى تكييفها وفق حاجته ، فيحمي بها المعدن إلى درجة الاحمرار ، أو يحميه إحماءً طفيفاً كما يريد ، أو يستعمل الحرارة في موضع صغير جداً لايزيد حجمه على رأس الدبوس العادي ، أو في مكان كبير تبلغ مساحته ياردة مربعة . وكان ضبط الرباط الذي تربط به ألواح الأبلكاش بعضها ببعض ، يستغرق زمناً يتفاوت بين بضع ساعات وأيام ، فغدا أداؤه ميسوراً في بضع دقائق .

ثم لا تنس طريقة اللحام الكهربي الموضعي ، إذتقوم الأجهزة الكهيربية الخاصة بالإحماء ، بعملها دون إحماء كتلة المعدن برمتها . وقد حلت هذه الطريقة محل مسامير التبجين « البرشمة » في تركيب الطائرات والبواخر والبوارج . وتقوم الآلات الكهيربية الخاصة بالإحماء ، بصقل المعادن أيضاً . وقد اخترع جهاز اسمه كينوطرون يجعل الكهرباء الإيجابية سلبية والسلبية إيجابية مائة مرة أو ألف مرة أو مليون مرة في الثانية الواحدة إذا مست حاجة المهندس إلى ذلك .

ولما كان نوعا الكهرباء ، وهما السلبي والإيجابي ، يجذب كل منهما الآخر ، وكانت الكهرباء السلبية تطرد السلبية ، والإيجابية تطرد الإيجابية ، فإذا شئنا مثلا أن ندهن خزانة من خزائن المطبخ بدهان « بوية » فما علينا إلا الاستعانة بجهاز الكينوطرون فنسلطه على الدهان فيشبعه بالكهرباء السلبية ، فنشاهد حينئذ الدهان يطير إلى السطوح المشحونة بالكهرباء الإيجابية ويلتصق بها .

وهكذا الحال إذا أردنا ترسيب الغبار ، فينبغي لنا شحنه بنوع واحد من الكهربا ثم نشحن سطحاً معدنيا أيا كان بهذا النوع نفسه من الكهرباء ، فينهال الغبار بعيداً عنه حيث يتاح جمعه في الدلاء . وفي بعض مصانع تمحيص المعادن يرى المرء أسطوانة عرضها قدم دائرة دوراناً وئيداً وتطلق عليها طاقة كهربية إيجابية أو سلبية ، وذلك بالصمامات الكهيربية ، وكذلك يطلق على التبر الذي يسقط على الأسطوانة عينها ، فينتج عن ذلك عشرة ملايين دقيقة ، تؤلف عشرة أرطال من التبر المكثف المتساقط تدريجاً بينما تنطلق البقية الباقية إلى مكان أبعد قليلا قبل تساقطها . ومن ثمة يحصل المرء على كومتين خالصتين ، إحداهما تبر والأخرى سؤر « ثفل » فيتسنى حينئذ استخلاص مقدار طفيف جداً ، هو نصف واحد في المائة من القصدير مثلا وذلك من تبره .

والأغذية أيضاً تمكن تنقيتها من الشوائب على اختلاف أنواعها ، لأن الماء الذي يحويه كل ضرب منها موصل جيد للكهرباء ، فيتيسر إذن فصل القذر والمواد الغريبة منها ، وكذلك السوق ، يتاح فرزها من الزبيب وغيره من الفواكه الصغيرة الأحجام .

ويسمي المهندسون الصمامات الكهيربية « المقومات أو مغيرات التيار من حال إلى حال » لأنها تجعل التيارات المتغيرة تيارات مستمرة أو ثابتة أو مباشرة ، ذلك لأن التيار المتغير أو المتناوب ، ينطلق من مقر توليد الكهرباء وتوزيعها ، إلى مصباح أو محرك مثلا ، ثم يعود إلى مصدره الأصلي . وتتكرر هذه الحركة عادة ١٢٠ مرة في الثانية الواحدة ، فينتج عن هذه الدورة تيار ذو ستين سيكل . والسيكل يؤلف من ذبذبتين . أما التيار الثابت فينطلق إلى جهة واحدة فحسب ، كالماء الذي يسير في أنبوبه . وتدور عدد الآلات بمحركات خاصة ذات تيار ثابت لتستطيع الدوران بأية سرعة يحتاج إليها .

ولما كان مقر توليد الكهرباء لا يطلق عادة إلا تياراً متغيراً ، وهذا لا يصلح للمحركات ذات التيار الثابت، صار لزاماً استخدام الأجهزة المحوّلة ، وهي معقدة التركيب . وكان الحصول عليها في سني الحرب من أصعب الأمور ، فاستغنى عنها المهندسون بالصمامات الكهيربية ، لأنها أسهل منها كثيراً ، فأصبحت هذه الصمامات ذات نفع كبير في أية دار من دور الصناعات ، حيث يوجد على أرض المصنع مئات من عدد الآلات ، يتناوب بعضها العمل مع بعض تناوباً ثابتاً ، بحيث إذا طرأ على عدة منها أي تعطل وقف الجهاز بأجمعه ، كما تصير الحال عندما يعطل محرك أوتوبيس في شارع غاص بالمارة . فتتوقف فيه حركة المرور جميعاً . فكل شيء إذن يتوقف على توازن الجهاز ، وهذا التوازن أيضاً يتوقف على توازن كل آلة مؤلفة له . ثم إن الصمامات الكهيربية التي تسمى ثيراطرونات ، تطلق التيار الصالح للعمل المقصود . وليس هذا فحسب ، بل إنها تراقبه حيث تقوم بتنشيط المحرك البطيء ، كما تهدئ العظيم السرعة ، وبذلك تحافظ على جعل سرعته ثابتة . وقد غدت هذه الصمامات مما لايمكن الاستغناء عنه في الصناعات الثقيلة ، ولا سيما في تحويل تبر الألومنيوم معدناً نقيا ، ولذلك تتخذ وسيلة لتوفير المعادن وإقلال خسائر الطاقة المحركة ، كما تقوم بخفت الأصوات وإقلال احتكاك الآلات بعضها ببعض ، ثم إن مراقبتها للأجهزة مضبوطة جدا ، ولا يطرأ عليها أي تقصير . ومن هذه الصمامات نوع شائع الاستعمال ، يعد نسيج وحده لأنه لايحتوي على شبكات معدنية ، ونعني به البصاصات الكهربية وهي التي مابرحت منذ بضعة أعوام تقوم في مصانع الفولاذ بكشف المواضع

الضعيفة في ألواح الصلب . وتعمل العيون الكهربية أيضاً أعمالا نافعة جداً لمنتجي الفواكه في أمريكا وغيرها حيث تقيهم خسارة ألوف من الدولارات سنويا إذ تقوم مقام المفتشين فتنبذ البرتقال والكمثرى الرديئة الألوان والمعطبة ، وذلك في لمح البصر كما تدل الزارع والبائع على نضج البطيخ والشمام والقاوون أو عدم نضجه .

ويتوقع الخبراء أن البدالين عما قريب سيكون لدى كل منهم جهاز من هذا النوع لفحص الفواكه والتحقق من تمام نضجها . وتستخدم البصاصات الكهربية في المصانع لتقوم بالإحصاء ولف السلع وفرزها وحزمها . ومن أعمالها أيضاً فتح الأبواب وغلقها في محطات السكك الحديدية الأمريكية والمتاحف البريطانية وغيرها ، وذلك عند دنو الركاب والزائرين منها ومغادرتهم إياها . وإذا أردت أن تعرف مصدر حركتها فيجب أن تعلم أنها تحول الضياء طاقة كهربية ، والطاقة الكهربية ضياء . وهذه هي القاعدة التي تقوم عليها الإذاعة اللاسلكية المصورة ، والتي هي أساس جميع المخترعات التي بها ترسل الصور الفوتغرافية على الأسلاك . وإن شئت إدراك بعض عجائبها فاقصد مثلا إلى معمل كيميائي للصيدلة ، فتجد هناك بصاصة كهربية تتفرس في محلول ما ، فلا تلبث أن ترشد الكيميائي إلى مبلغ ما يحويه من الفيتامين . وإذا أم امرؤ مصنعاً للتبغ ، شاهد فيه الصمامات الكهيربية تفرز السجائر الثمينة التي ثمن كل منها ٢٥ مليما من السجائر الرخيصة التي ثمن الواحدة منها ستة مليمات . وإذا قصدت إلى أي مصنع للشرط « جمع شريط » الفولاذية ترى هنالك بصاصة كهربية تكشف عن الثقوب التي في حجم رؤوس الدبابيس التي قد تكون خفية في الفولاذ . ثم تراقب ثخانة الشرط لتكون على نسق واحد . ومن الصمامات الكهيربية ما يسمى سبكتروفوتومتر ، وهو مقياس يميز مليوني لون « لون خفيف » بعضها من بعض . وهذا على حين أن أبرع الخبراء لا يستطيع فرز أكثر من عشرة آلاف لون . ومن الميسور للمرء أن يدرك مبلغ منافع التفريق بين لون وآخر لمصالح صناع المنسوجات والأمداد وما شاكلها من الأشياء التي يجب أن توافق الشروط والمواصفات المطلوبة للعملاء كل الموافقة . وبهذه الذريعة ينتفي كل حدس في توفيق الألوان بعضها مع بعض . وتتفاوت الأعمال الأتوماتيكية للعيون الكهربية ، بين انتقاء أبرع لاعب للبوكر « لعبة أمريكية من ألعاب الكوتشينة » وبين فضح اللص وهو متلبس بجرم تحطيم خزانة حديدية من خزائن المال والجواهر بغية سرقتها ، وبين جمع الأدلة الحاسمة التي تثبت إدانة سائق سيارة جاوز السرعة المقررة . ومن غرائب وظائفها أيضاً تنبيه المهندسين المشرفين على استهلاك الوقود في المصانع ، وذلك بمراقبة

كثافة الدخان الذي تقذفه أية مدخنة من المداخن التي تراقبها في المصنع مراقبة ثابتة ، لأن تلك الكثافة دليل على استنفاد الوقود بلا موجب ، وحينئذ تقوم هذه الكثافة غير المقصودة بقطع الشعاعة الكهربية المصوبة نحو العين الكهربية فيقرع جرس على الفور ، فيبادر المهندسون إلى تقليل الوقود . وفي وسع البصاصة الكهربية أيضاً إحصاء السيارات التي تجتاز الأنفاق إحصاءً مضبوطاً ، وكذلك التي تمر بنقطة معينة في طريق ما ، ثم إحصاء القناني والسبائك التي تمر تجاهها في المصانع محمولة على السيور الدوارة ، وأيضاً أفرخ الورق التي تطبعها المطابع حين طبعها . وكذا مراقبة ثخانته عند تكوينه من عجينته على دولابه ، فتقيسها وتجعلها على معدل ثابت فتستطيع حينئذ نبذ الفروخ الرفيعة المحتوية على الشقوق والثقوب . وقصارى القول إنها تضطلع بمئات الأعمال الدقيقة .

ملاحظة : ويتاح إجمال اللبنات التي تؤلف منها الأجسام جميعها ، كما قرر حديثاً علماء الطبيعة فيما يلي :

(١) الكهيربات أو دقائق بيتا (٢) البوزيترون (٣) الميزوترون
(٤) البروتون « نواة الهيدروجين » (٥) النيوترون (٦) الديوتون أو الديوتيرون « ديبلون » (٧) دقائق ألفا « نواة الهليوم » .

وأهم هذه جميعها هي الكهيربات والبروتونات والنيوترونات . ثم الفوتونات وهي وحدة من وحدات الطاقة على شكل إشعاعات . فإذا اتحد كهيرب مع بوزيترون ، فأباد كل منهما الآخر ، حل محلهما فوتونان ذوا طاقة مغنطيسية كهربية ، فينطلق كل منهما إلى جهة مضادة للأخرى .

عوض جندي

مستوى المعيشة في بلاد الجامعة العربية

للدكتور راشد البراوي

مدى انخفاض مستوى المعيشة وآثاره

لا يسع الباحث الاقتصادي والاجتماعي في شؤون الدول العربية إلا إن يلاحظ مع الأسى ما عليه مستوى معيشة الأهلين من انحطاط شديد إذا قيس بمثله في البلدان الغربية . ويعظم الألم وتشتد الدهشة حين يلمس المرء مدى التقدم الذي حققته في هذه الناحية بلاد كتركيا الحديثة وروسيا السفياتية خلال السنوات التي أعقبت الحرب الاستعمارية الأولى . وتتجلى ظاهرة هبوط المستوى في نواح عدة يحدثنا عنها الكتاب والرحالة ، وتفصح عنها الإحصائيات والبيانات الرسمية . وأول ما يسترعي النظر ذلك الفقر الشديد الناجم عن ضآلة الدخل ، وخاصة في المناطق الزراعية والرعوية ، الأمر الذي تبرز أهميته إذا ذكرنا أنه برغم قيام نهضة صناعية متواضعة الشأن وبدرجات متفاوتة ، لا يزال الطابع الزراعي غالباً على المجتمع في البلدان العربية . والأمثلة على هذا متوافرة . فيحدثنا الأستاذ سعيد حمادة في كتابه (النظام النقدي والصرافي في سوريا ص ١٥) : أن « المزارع العادي فقير جداً وإنتاجه تافه للغاية ، ولا يبقى له في السنين العادية إلا فضلة قليلة بعد ما يؤدي نفقاته والضريبة والفائدة عما تسلفه من الدين » . ويبلغ عدد ملاك الأراضي الزراعية من المصريين ٢,٤٩١,٢٨٥ يعتبر أكثر من نصفهم في حكم الطبقة التي لا تملك شيئاً ، لأن متوسط ما يملك الفرد منهم أقل من نصف فدان . وكلنا يعلم ضآلة ما كان يدره الفدان في عام ١٩٣٨ مثلا (راجع كتابنا : التطور الاقتصادي في مصر في العصر الحديث ص ٢٩٠ وما بعدها) ؛ وكان متوسط أجر العامل الزراعي ثلاثة قروش أو مادون هذا في اليوم الواحد . ولا يفترق الحال عن هذا في العراق . وبرغم ما ينسبه الساسة إلى الروس من أثر في قيام الحركة الديمقراطية الشعبية في أذربيجان ، فإن المراقبين يحدثوننا عن العامل الاقتصادي والاجتماعي في نشوب هذه الثورة ، وهو ما تعانيه الجماهير الغفيرة الكادحة أو الأغلبية الساحقة من السكان من فقر وبؤس وحرمان . وظاهرة انخفاض الدخل ملحوظة كذلك بين طوائف المشتغلين في المهن الثانية والثالثة من صناعة وتجارة وخدمات

أخرى . والبيان التالي يلقي ضوءاً واضحاً ، فهو عبارة عن دخل الفرد من المتكسبين في مختلف نواحي الحرف[١] :

البلد	السنة	الحرف الأولية	والثانية	والثالثة	
فلسطين	١٩٣٦				
عرب		٢٧ ج . ف .	٨٣	٩٥	
يهود		٦٠ ج . ف .	١٢٧	١٣٤	
تركيا	٣٦/١٩٣٥	١٣١ ج . ت .	٤٠٧	٨٥٢	
مصر	١٩٢٢	٥٥ ج . م .	١٢٠	٨٠	(النسب مرتفعة بسبب
سوريا	١٩٣٦	١٩ ج . ك .	٥٢	١٣١	ارتفاع مستوى الأثمان)

ومن مظاهر الفاقة حقارة المسكن وعدم صحية الغذاء وكفايته ، وانتشار الأمية[٢] وكثرة الأمراض ومرجعها الفقر والجهل ، وأخيراً ارتفاع معدل الوفيات إذ نسبتها في الألف ٢٦,٤ (مصر) ، ١٥ (فلسطين)[٣] وذلك حسب إحصائيات عام ١٩٣٨ كما نشرتها عصبة الأمم . وإذا كانت الإحصائيات عن البلدان العربية الأخرى غير ميسورة أو معروفة بالدقة فلا نزاع أن نسبة الوفيات عالية جداً .

ولا شك أن الحالة كانت غاية في السوء في ظل الحكم العثماني ، لما امتاز به من ركود في نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، وإهمال في استثمار مرافق البلاد . وفي أوائل حرب (١٩١٤ — ١٩١٨) وعد الإنجليز العرب بالعمل على تحريرهم ، ولكن تبخرت هذه الوعود الخلابة حين تحقق للأولين النصر ، واخترعت أسطورة الانتداب أو الاستعمار المقنع بمعنى أصح . هنا أدرك العرب أنهم كانوا موضع الخديعة ، فهبوا يطالبون بحريتهم واستقلالهم ، وهذه الحركة القومية ذات الطابع الشعبي صحبتها نزعة رامية إلى الإصلاح على أساس أن رفع مستوى معيشة الطبقات الفقيرة من أقوى دعائم الاستقلال والاستقرار . وتميزت السنوات التالية لتلك الحرب بازدياد الاتصال الاقتصادي

---

(١) A. Bonné : The Economic Development of the Middle East, p. 18.

(٢) لعل نسبة المتعلمين أعلى في لبنان منها في بقية البلدان الداخلة في الجامعة العربية ، فكانت سنة ١٩٣٠ على النحو الآتي ٦٥ ٪ (لبنان) ، ٢٨ ٪ (دولة سوريا) ، ١٢ ٪ (دولة العلويين) ، ٦ ٪ (جبل الدروز) .

(٣) بينما المعدل ١١,٦ (إنجلترا) ، ١١,٧ (ألمانيا) ، ١٣,٩ (إيطاليا) ، ٢٤,٣ (الهند) .

والثقافي مع الأمم الغربية وأخذت النظريات والآراء الجديدة تصل إلى أسماع الشرقيين وتحفزهم إلى اليقظة والنهوض ، وتزايد عدد السكان وبخاصة في بلد كمصر وكانت الزيادة أسرع منها في تنمية موارد البلاد مما أبرز مشكلة هبوط مستوى المعيشة . وأخيراً شبت نار الحرب الاستعمارية الثانية فكانت قوة جديدة حافزة على الإصلاح فتسامع الناس بما حققته روسيا لأفراد الشعب ، وأعلن ميثاق الإطلنطي أن من أهدافه الحرية من العوز ، وقدمت حكومة الائتلاف مشروع بيفردج ، وقامت بإنجلترة وغيرها من بلدان أوربا حكومات ذات طابع شعبي ، حتى تكفل للجماهير معياراً أصدق للمعيشة المتزنة اللائقة .

هذه الأحداث جميعها لم يغب مغزاها عن أذهان الجماهير في الشرق ، وأخذ الكل يتحدث عما ينبغي عمله وتحقيقه ، وارتفعت الصيحات من كافة الجوانب مشفقة ناصحة منذرة . حقيقة ارتفعت الدخول والأجور لكثير من الطوائف بنسب متفاوتة خلال سني الحرب ، غير أنه يجدر بنا أن لا نخدع بهذه الظاهرة ، إذ هناك فارق كبير بين الأجور الحقيقية والأجور الاسمية * ، والزيادة التي لمسناها في الأجور وبعض أنواع الدخول لم تكن متمشية مع مثيلتها في الأثمان وتكاليف المعيشة ، وبخاصة لأن الحكومات الشرقية لم تعمل للأسف عملا جديا للحد من ارتفاع نفقات المعيشة إلى حد الإرهاق الشديد الذي قاست منه الطبقات الفقيرة والوسطى الأمرين .

الخطر من إهمال العلاج

هذه الحالة السيئة التي أوضحناها مع الإيجاز تتضمن أشد عناصر الخطر على استقرار المجتمع ، وهي وصمة عار في عصر يبدو واضحاً اتجاهه نحو التقريب الشديد

---

* إن العامل مثلاً لا يحتاج إلى النقود لذاتها ، بل على أنها وسيلة لشراء الأشياء التي يتطلبها . فهو حين يتسلم أجره يشتري ما هو في حاجة إليه بالسعر السائد في السوق . . . غير أننا نعلم أن مستوى أسعار السلع لا يظل ثابتاً ، إذ تتغير قوة النقود الشرائية بتأثير أسباب متنوعة . . فحين تصدر الحكومات العملة الورقية بمقادير كبيرة تتعرض أثمان السلع لتغييرات عظيمة وسريعة تبعاً لنقص قوة النقود الشرائية . . . وعلى ذلك إذا شئنا أن نوازن بين أجور العمال في حالات عدة فلا ينبغي لنا الاقتصار على مقارنة المعدلات الاسمية للأجور (أي مبلغ النقود الذي يحصل عليه العامل) ، بل يجب كذلك أن نضع القوة الشرائية للنقود موضع الاعتبار . وحينئذ فقط يصير في مستطاعنا أن نقرر الأجور الحقيقية بطريقة مضبوطة . (الاقتصاد السياسي تأليف ا . ليونتيف وترجمة راشد البراوي ص ٨٤ — ٨٥) .

بين الطبقات أو إلغاء الفوارق بينها مما لا يستند إلى قواعد العدالة الاقتصادية والاجتماعية. ونعتقد اعتقاداً جازماً أنه لو انتشر التعليم تماماً بين صفوف الجماهير من فلاحين وعمال لأصبح هذا الوضع الشاذ من انخفاض مستوى الحياة أمراً غير مقبول وخطأً من أخطاء التاريخ . وفضلا عن هـذا فالفقر السائد في هذه البلدان العربية التي تجاهد في سبيل الأخذ بأسباب النهوض والارتقاء ، عقبة كؤود في سبيل التقدم الاقتصادي ، بل إنه السبب في ذلك ، ويؤدي إلى إضعاف الرغبة في التحسين الاجتماعي والفني . وهذا الفقر يُبقي الطلب على البضائع في مستوى منخفض ، ويجعل الادخار غير واف أو كاف للاستثمار الذي يتطلبه اقتصاد سائر في طريق التقدم* إذ الملاحظ أنه كلما زاد الدخل ارتفعت النسبة والقيمة في المدخرات التي يمكن استغلالها في تنمية الزراعة والصناعة ، وفي القيام بالأعمال الإنشائية الأخرى .

بعض الوسائل الاقتصادية لحل المشكلة

ولمشكلة تحسين مستوى المعيشة جوانب اقتصادية وأخرى اجتماعية وثقافية ، وهذه جميعها ينبغي وضع سياسة جدية فعالة لتنفيذها ؛ فقد كثرت الأقوال والأحاديث الرسمية ولمَّا يتخذ إجراء حاسم . والشعوب لا تعيش على الأقوال وبخاصة في هذا .

وسنتناول الناحية الاقتصادية من الموضوع أولا . ولعل في مقدمة الوسائل التي تحقق هـذه الغاية تنمية الموارد الإنتاجية إلى طاقتها مع مراعاة حدود الجهد والوقت ، واستغلال القوى الكامنة التي ما زالت في بطن الطبيعة أو كان استغلالها حتى اليوم مقصوراً وعلى نطاق ضيق . وفي كلتا الحالتين لا بد من الاستفادة من أحدث ما حققه التقدم العلمي والفني .

ولما كانت البلاد العربية زراعية الطابع في غالبيتها ، وجب توجيه أقصى العناية إلى الزراعة ، فنبدأ بزيادة المساحة المنزرعة بقدر ما يسمح الإسراع في تنفيذ برامج الري ، والمجال في هذه الناحية فسيح جداً ، ففي مصر مثلا يمكن استغلال مئات الألوف من الأفدنة من الأراضي البور ، وفي بعض جهات الصحراء إذا توافر الماء الباطني ؛ وإذا تمت التعلية الثالثة لسد أسوان ، كما هو مرتقب بعد الفراغ من الأبحاث الفنية ، أمكن توفير ٤ مليارات طن مكعب من الماء ، وهي كمية وفيرة يمكن استخدامها في ري مليون آخر من الأفدنة في الوجه البحري ، كما يتسنى تحويل مليون فدان بالوجه

* Industrialisation and Foreign Trade (مطبوعات عصبة الأمم لعام ١٩٤٥ ص ٣٦) .

القبلي من نظام الحياض إلى نظام الري المستديم[1] . والمساحة المنزرعة ببلاد سوريا لا تزيد عن ١٠٪ من المساحة الكلية ويمكن توسيعها إلى حد بعيد . وتقدر المساحة الصالحة للزراعة بفلسطين بما يتروح بين ٨,٠٤٤,٠٠٠ و ١٣,٣٩٥,١٨١ [2] دونم لم يستغل منها إلا القليل . ونسبة الأراضي المزروعة فعلا بالعراق ضئيلة إذا قيست بما يمكن عمله في المستقبل ، وهي بلاد اشتهرت على مر العصور بالخصب والنماء . وأثبتت الأعمال الفنية في السنوات الأخيرة في شرق الأردن والمملكة السعودية إمكان تحويل عشرات ألوف الأفدنة بالمناطق الصحراوية إلى أراض تغل محصولات وفيرة إذا أمكن الحصول على الماء اللازم من الآبار أو خزن المقادير الكافية أو بمد الأنابيب[3] . وهكذا نرى أن زيادة الإنتاج الزراعي ميسورة عن طريق زيادة المساحة الكلية للأراضي الزراعية بصفة مطلقة ، الأمر الذي يؤدي إلى ارتفاع مقدار الدخل الأهلي عموماً ودخل الفريق الزراعي من السكان بصفة خاصة . ولكن يجب أن لا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل لا بد من العمل على زيادة إنتاجية الأرض إلى حدود طاقتها. وهنا نعرض للوسائل التالية :

(١) العمل على اتباع الزراعة الآلية الحديثة ، بدلا من الأساليب العتيقة المتبعة ، التي تؤدي إلى إسراف في الوقت والجهد مع ضآلة الإنتاج . وقد ضربت لنا المستعمرات اليهودية بفلسطين المثل على ما يستطيع العلم أن يحققه .

(٢) أن نزيد الملكيات الصغيرة بحيث نجعل منها « وحدات اقتصادية » ، وهذا يقتضي إعادة النظر في موضوع الملكية الزراعية في الشرق الأوسط . وهنا نود أن نعرض لأمر له خطورته . ذلك أن نظام الميراث بالشرق ينتهي بتقسيم الملكيات الصغيرة ، بحيث تعود « وحدات غير اقتصادية » فضلا عن أن المساحات الصغيرة لا تناسبها الزراعة الآلية . فهل لنا أن نقترح نظام المزارع الجماعية "Collective farms" ، على أن يكون انضمام صغار الملاك إليها إجبارياً ، وبذا يستفيدون من مزايا الإنتاج الكبير والتعاون . أليس هذا نوعاً من التعاون ؟ وإذا كان التعاون الاختياري قد أخفق في مصر وغيرها برغم ما يحوطه من ضروب الدعاية الجوفاء ، فلنجعله إجبارياً . قد يقول البعض: « هذا نوع

---

(١) من حديث لكامل نبيه باشا مع صحيفة الإجبشيان جازيت (١٨ مارس ١٩٤٥)

(٢) راجع مقال J. M. Bee في مجلة Great Britain and the East عدد ١٠ يوليه ١٩٤٣

(٣) راجع مقال « تقدم شرق الأردن الاقتصادي » في مجلة Revue Economique Internationale سنة ١٩٣٧ مجلد ٣ ص ٣٦٦ — ٣٨٢

من الاشتراكية » ، ونعتقد أن كثرة التلويح بهذه الحجة دليل على عدم الرغبة في التقدم . ومع هذا فالصالح العام أقوى من الآراء والنظريات . وما أصدق ما يقوله الاشتراكيون الإنجليز : إن تنفيذ مشروعات التأهيل nationalisation أساسها ومعيارها مصلحة الشعب .

(٣) الحد من الملكيات الخاصة الكبيرة التي يتغيب أغلب أصحابها بالمدن لإنفاق دخولهم ، ومن الواضح أن نظام المزارع الجماعية يقضي على حجة القائلين بفائدة الملكيات الكبيرة من حيث تنمية الإنتاج .

(٤) تنظيم العلاقة بين المالك والمستأجر وبينهما وبين العامل الزراعي، مما يؤدي إلى توزيع متناسب للدخل بين أفراد هذه الطوائف جميعاً . إن أغلب صغار الفلاحين مدينون وفي حالة عجز ، بخلاف أغلبية كبارهم . والسبب في هذا هو التفاوت في توزيع الدخل تفاوتاً غير عادل . ولا عبرة بتحديد حد أدنى لأجر العامل الزراعي ، بل يجب أن يكون له نصيب من الدخل يعد مكافأة حقيقية عما يملك من قوة العمل إلى الحد الممكن في ظل النظم القائمة .

والخلاصة أن زيادة دخل أهل الريف من كافة الطوائف الفقيرة تقتضي تغييرات ذات شأن في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والقانونية . ونسارع إلى التأكيد بأن المجتمع لا يرتكز على القانون ، بل إن القانون يرتكز على تطور المجتمع ويكون وليد إرادة هذا المجتمع .

وثمة مسألة أخرى لها أهميتها ، ذلك أنه لا يكفي رفع متوسط الدخل حتى يتحسن مستوى الأهلين ، بل ينبغي أن تكون زيادة الدخل موزعة على عناصر العمل والمهن المختلفة ، فلا يقف الأمر عند حد الاهتمام بالزراعة ، بل تجب العناية كذلك بالصناعة ، ويلاحظ الكثيرون أن مستوى المعيشة في البلاد الصناعية أعلى منه عادة في البلاد الزراعية* . ومن الحقائق الهامة الجديرة بالنظر أنه كلما زادت نسبة السكان المشتغلين بالصناعة ، زادت كذلك نسبة الذين يحترفون المهن الأخرى غير الزراعة ، ويقصد بهذا التجارة والنقل والخدمات العامة وما في حكمها . إن عملية إقامة الصناعة تنطوي على تغيير في البناء الاقتصادي كله ، وهو تغيير يتميز بامتداد لتقسيم العمل ، وبنظام من توزيع السلع وتبادلها . وعلى هذا فإن أية محاولة لرفع مستوى الحياة في البلدان العربية من الوجهة الاقتصادية يقتضي تعديلا في التوزيع المهني أو الحرفي لمجموع السكان.

بهذه الأساليب يزداد الدخل ، ويعظم نصيب الفرد ، ويتوازن توزيع الدخول

* راجع مقالنا المنشور في مجلة الكتاب عن « مستقبل الصناعة في الشرق العربي » .

والأجور بما يكون أدعى إلى الاستقرار ، وأوفى إلى العدالة الاجتماعية ، وهي العبارة التي لاكتها الألسن كثيراً دون أن يعمل لتحقيقها في الشرق شيء يستحق الذكر .

الوسائل الاجتماعية والثقافية وغيرها

ومن العبث أن نكتفي بالناحية الاقتصادية بل من الضروري جداً أن يسير إلى جانبها تقدم مماثل في جهات أخرى . وعلى رأس هذه الأخيرة نشر التعليم . إن الإبقاء على الجهل محاولة لدعم الفقر والاستبداد ، ويجب أن يكلف أصحاب المزارع الكبيرة إنشاء المدارس الريفية على حسابهم وفي وقت محدود وتحت إشراف الدولة . لنفرض منطقة تعدادها ٥٠,٠٠٠ وتنحصر نصف ثروتها في أيدي عدد قليل ، فيجب عدلا أن يتولى هذا العدد القليل تعليم أهل المنطقة إلى جانب ما تبذله الهيئات الرسمية من جهود ، وإلا وجب أن تفرض ضريبة سنوية على من يعدو دخلهم حدا معيناً تسمى « ضريبة العلم » بحيث يتوافر المال اللازم لنشر التعليم في مدة أقصاها عشر سنوات . ومشكلة توفير المتعلمين تقتضي الإكثار من فتح مدارس المعلمين الأولية ، ولكن لنكن على جانب من الجرأة والإقدام فنعمل على تجنيد كافة طوائف المتعلمين ، ونرغمهم على المساهمة في هذا المشروع في أوقات محدودة ، وعلى الأقل في المدن والمراكز ، بحيث نوفر المعلمين للريف . إن العزم والإخلاص أمران لا غنى لنا عنهما . وأعتقد أن ازدياد دخل الأفراد وانتشار التعليم في صفوفهم كفيلان يحملهم على تحسين نوع المسكن . ويجب تنفيذ برنامج إنشاء مساكن رخيصة لسكنى العمال والفلاحين بثمن قليل أو إيجار منخفض ، والوسائل لذلك مختلفة :

(١) أن تقوم الحكومة المركزية والمحلية بنصيب من المجهود .

(٢) أن تؤسس شركات بناء تتولى جزءاً من العمل كما في البلاد الأوربية .

(٣) أن يتضمن تشريع المصانع الكبيرة إنشاء المساكن للعمال ، وهي لن تخسر من هذا إذ ستحصل ثمنها من الإيجار .

(٤) أن يسن تشريع بمقتضاه يقيم كبار الملاك المساكن الصحية وفق خطة مرسومة وطراز معين وفي وقت محدود ، وإلا تولت السلطات العمل على تحصيل النفقات منهم .

(٥) إمداد صغار الملاك والفلاحين بمواد البناء بأسعار منخفضة .

هذا قليل من كثير يمكن عمله في هذا السبيل .

أما الناحية الصحية فهي من واجب الحكومات المركزية والإقليمية وعليها العبء الأعظم ، وإن كانت الوسائل المتقدمة ستؤدي إلى تيسير مهمتها .

تأهيل بعض المرافق

وأخيراً نرى من الضروري أن يحصل الجمهور على الخدمات الوثيقة الصلة بحياته اليومية بأقل ثمن ممكن ، كالماء والكهرباء والبترول ، وهنا نعتقد أننا نحسن صنعاً ونرفع مستوى المعيشة لو جعلنا هذه المرافق الأساسية ملكا للدولة لا للشركات ، وأن نحاول التخلص من شركات الامتياز القائمة . ومن المتعين في سياسة الإنشاء التي نقترحها توجيه أقصى الجهد إلى هذه العناصر من الخدمات العامة فنوفرها للشعب .

هذا بعض ما يعن لنا في هذا الموضوع الخطير ، مع التأكيد بأن التنفيذ ينبغي أن يشمل كافة النواحي في وقت واحد ووفق سياسة ثابتة الأسس .

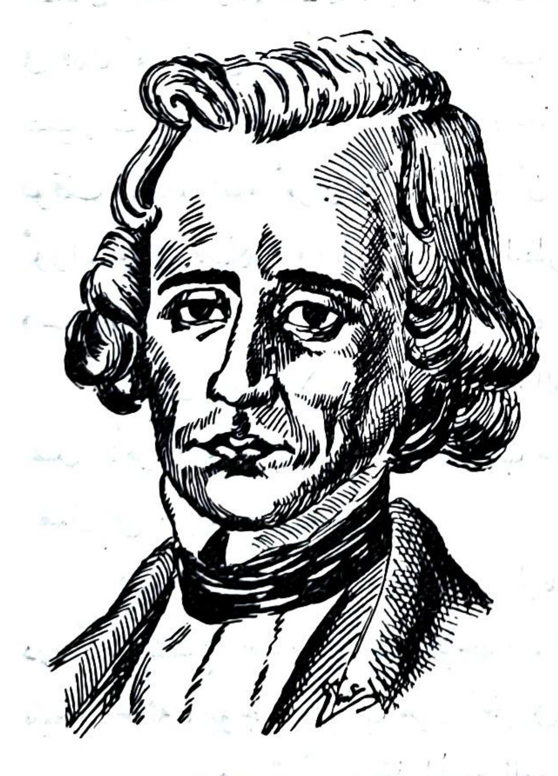
راشد البراوى

الذكرى المئوية للكشف عن نبتون

للأستاذ أحمد جدايل ببيروت

احتفلت اللجنة الفلكية الفرنسية في النصف الثاني من أكتوبر بذكرى مرور مئة سنة على كشف الفلكي لفريه « Leverrier » للكوكب السيار « نبتون » وبهذه المناسبة أقامت اللجنة معرضاً في غرفة المرصد عرضت فيه كل الوثائق التي حبرها لفريه بهذا الشأن .

والحقيقة أن لفريه لم يكن بالفلكي المنصرف بجمعه إلى علم الفلك ، إذ أنه ولد في مدينة « سان لو » على شاطىء بحر المنش في الحادي عشر من مارس سنة ١٨١١ . والتحق بمدرسة العلوم الهندسية سنة ١٨٣١ وتخرج فيها . وشغل بعدها بأعمال المختبر ، ونشر أبحاثاً لا بأس بها في الطبيعة والكيمياء . ولما توفي الأستاذ سفريه « Savarey » شغل منصبه في مدرسة الهندسة مدة من الزمن ، وألقى ضوءاً على النظام الشمسي وسير الكواكب السيارة فلفت الأنظار إليه ، واسترعى انتباه العلماء في ذلك الوقت . وكان أكثر المتحمسين له العالم أراغو « Arago » ، الذي شجعه على المضي في أبحاثه ، مقدماً إليه نصحه وإرشاده .



فاندفع لفريه اندفاعاً كليا في عمله ، معتمداً على النظريات المسلم بها إذ ذاك ، وعلى قوانين العلماء من قبله ، كقوانين كوبرنيكوس وكبلر ولبلاس ونيوتن . فقام بدراسات عن الكواكب السيارة ، وأصلح فلك عطارد والزهرة . فقاده ذلك إلى البحث في فلك السيار أورانوس ، أبعد السيارات في زمنه ، ولم يدر أنه شق بذلك طريق الشهرة والخلود .

كان العلماء قد توصلوا من قبل إلى إيجاد قوانين تتعلق بدوران السيارات حول الشمس . فوضعها كبلر على الصورة الآتية :

١ — يدور السيار حول الشمس . في فلك إهليلجي الشكل تقع الشمس في إحدى بؤرتيه .

٢ — يتحرك كل سيار حول الشمس في مداره ، بحيث إن الخط الواصل بينه وبين الشمس يقطع مساحات تتناسب وزمن الانتقال .

٣ — يتناسب زمن دوران السيار حول الشمس مع البعد عنها . وبصورة رياضية أوضح : إن مربع زمن دوران السيار ، يتناسب مع مكعب بعده عن الشمس .

مما تقدم نعلم أن السيار يدور حول الشمس في فلك إهليلجي الشكل . . . إلخ .

هذا يصح ، لو أن السيارات كانت تابعة لجذب الشمس لها ، وللشمس وحدها فقط . ولكن ماذا تقول في جذب السيارات بعضها لبعض ؟ . . . وماذا تفعل بقانون الجاذبية لنيوتن ؟ . .

لذلك وجب أن تبتعد السيارات قليلا في سيرها عن الفلك الإهليلجي النظري الذي رسمه لها قانون كبلر . ومنذ أمد بعيد قام نفر من الفلكيين برسم الفلك الحقيقي لكل من السـيارات المعروفة ، مدخلين في حساباتهم عوامل جذب السيارات بعضها لبعض .

ولما كشف « هرشل » الفلكي سنة ١٧٨١ ، عن الكوكب السيار أورانوس ، شُغِل العلماء برسم فلكه . وكم كانت دهشتهم عندما تبـيّن لبعضهم ، أن هناك اضطراباً في فلك أورانوس ، وأن هناك قوة تقصيه عن فلكه ! . . أيكون ذلك نتيجة جذب السيارات المعروفة له ؟ . . ولكن قوة جذبها أبعد من أن تؤثر فيه هذا التأثير . . فوقف العلماء أمام أمرين اثنين : إما أن يكون هناك كوكب آخر يسبب اضطراب أورانوس في فلكه ، وإما أن تكون النظريات الطبيعية والرياضية المبني عليها علم الفلك فاسدة من أساسها . . وهذا ما كان يخشاه العلماء .

إلا أن رياضيا لامعاً مؤمناً بصحة العلوم الطبيعية كلفريه ، كان عسيراً عليه أن يقبل الأمر الثاني . فجزم بوجود كوكب سيار آخر ، واستجمع قوى عقله . وأخذ في العمل على تحري ذلك المجهول .

قبع لفريه في مكتبه متخذاً من الرياضيات سلاحاً ، ومن قوانين كبلر ونيوتن درعاً واستطاع بعد سنتين من الإجهاد ، أن يقف في المجمع العلمي الفرنسي ، معلناً نتيجة أبحاثه ، بوجود كوكب سيار آخر في القبة الفلكية .

. . . وهيهات أن يأخذ المجمع العلمي برأي رجل ليس له ماضٍ عظيم في العلم ،

زد على ذلك أن لفريه كان لا يتجاوز السادسة والثلاثين من عمره . . .

ولما يئس لفريه من علماء قومه ، كتب في ١٨ سبتمبر سنة ١٨٤٦ إلى زميله الألماني غال (Galle) طالباً منه أن يرصد الكوكب المجهول معيناً له اتجاه الكوكب السيار في ساعة من ساعات الليل .

وصلت رسالة لفريه إلى العالم الألماني غال في ٢٣ سبتمبر ، فلم يأبه لها في بدء الأمر ، بل شغل نفسه بالاطلاع على حسابات لفريه المرفقة بالرسالة . فوجدها ذات أهمية كبيرة ، وأنها من الدقة بمكان . . .

وفي ليل اليوم نفسه ، قام غال إلى مرصد برلين ، ووجه المرقب في الاتجاه الذي عينه لفريه ، فوجد السيار في المكان المعين تقريباً ؛ أي أنه وجد السيار بمرقبه في اتجاه ينحرف أقل من درجة واحدة عن الاتجاه الذي عينه لفريه بريشته . .

وسمي السيار الجديد : نبتون .

لم يسع علماء ذلك العصر إلا الثناء على الفلكي الشاب ، وأخذت الصحف تكتب المقالات الطويلة عن هذا الحدث العلمي . فمنحه الملك لويس فيليب وسام جوقة الشرف ، وأنشأت كلية العلوم صفا لعلم الفلك عهدت فيه إلى لفريه . وفي سنة ١٨٤٩ ، انتخبته مقاطعة المنش عضواً في البرلمان ، ثم أخذ طريقه إلى مجلس الشيوخ ولكن نابليون الثالث أراد أن يستفيد من مواهب الفلكي الناشىء ، فعينه مديراً لمرصد باريس ومنظما لصفوف العلوم في مدارس فرنسا الثانوية . وأخيراً أسند إليه منصب مفتش العلوم العليا .

ويجب أن نذكر ، أنه في الوقت الذي كان فيه لفريه منهمكاً في عمله ، كان هناك طالب في جامعة كمبردج هو أدمس (Adams) الإنكليزي ، يبحث في العقدة نفسها ، ولم يكن أحدهما يعرف عن عمل الآخر شيئاً ، مع أن كليهما توصل إلى النتيجة نفسها تقريباً ، إلا أن لفريه كان أسرع الاثنين لإعلان ما وصل إليه .

كان حدث الكشف عن السيار الجديد عظيما جداً ، إذ ظهر أن النظام الشمسي أوسع مما كنا نظن . زد على ذلك أن هذا الحادث من أجل الحوادث وأعظمها ، التي أقامت الدليل على صحة النظريات والقوانين الطبيعية والرياضية . فلم يعد العلماء في شك من طريقتهم العلمية ، ولا سيما أن نبتون — السيار الجديد — كشف بالنظريات التي كانوا يشكون في صحتها ، بل إنه كشف بالقلم والحساب قبل أن يكشف بالمرصد والمرقب فزادت ثقة العلماء بمقدرتهم على اكتناه أسرار الكون ، وروائع الوجود .

والسيار نبتون أكبر من الأرض ، ويبعد عن الشمس أضعاف بعد الأرض

بمقدار ٣٠,١١ مرة ولذلك فإن الحرارة التي تصل إليه تقدر بجزء واحد من ٩٠٠ جزء مما يصل إلى الأرض . ويدور حول الشمس في ١٦٥ سنة .

أما أثر استكشاف نبتون فعظيم جداً . إذ لاحظ بعض الفلكيين أن السيار أورانوس لا يزال ينحرف عن فلكه الذي حسب له ، رغم أنه اعتبر في ذلك جذب نبتون له ، فتساءل بعضهم : أيكون ذلك نتيجة جذب سيار مجهول آخر ؟ ... فانهمك الكثيرون في البحث عن السيار الجديد ، أسبقهم الأستاذ لوول (Lowel) الذي قضى سنين كثيرة في الحسابات المعقدة ، تنبأ في آخرها عن موقع السيار الجديد ، إلا أنه مات قبل أن يرى صحة نظريته ؛ إذ وجه الأستاذ كليد تومبو (Clyde Tombaugh) في مرصد « لوول » مرقبه إلى الجهة التي عينها الأستاذ لوول من قبل ، فوجد الكوكب الجديد « بلوتو »

وكان ذلك في مارس ١٩٣٠ .

وإذا كان الكشف عن نبتون وبلوتو نتيجة أبحاث علمية ، مبنية على النظريات الطبيعية والمعادلات الرياضية المحضة ، فإن هذا خليق بأن يكون أقوى دليل على قيمة الطريقة العلمية ، كما أنه دليل على صحة التنبؤات المبنية على الرياضيات ... ومن يدري؟... لعل استكشاف بلوتو — كما يقول الفلكي شابلي — يلقي ضوءاً جديداً على استكشاف أصل النظام الشمسي ، وحل معضلة أصل نشوء الأرض .

أحمد جبرايل

مجرمو الحرب

للأستاذ سامي عازر جبران

أثير البحث في جرائم الحرب ، أول ما أثير ، في نهاية الحرب الأهلية الأمريكية . وبعد أن وضعت أوزارها ، حوكم اثنان ممن نسبت إليهم أعمال إجرامية مختلفة ، وحكم عليهما بالأشغال الشاقة . ثم تجدد البحث نفسه ، بعنف ، خلال الحرب العالمية الأولى ، وأصدر كل من أسكويث ولويد جورج تصريحات حاصلها أن الإمبراطور الألماني وسائر من ارتكبوا جرائم حرب ، سينزل بهم العقاب مهما علت مراكزهم .

ولما أن جلس صانعو السلام سنة ١٩١٨ يضعون نصوص معاهدة فرساي ، ضمّنوا تلك المعاهدة نصوصاً تعالج مسألة مجرمي الحرب ، وتقضي بتقديمهم للمحاكمة . ولقد سبق تلك النصوص تأليف لجنة دولية ، من خمسة عشر عضواً ، مثّل اثنان منهم الولايات المتحدة الأمريكية — التي رفضت إقرار المعاهدة — مهمتها أن تبحث مسألة مثيري الحرب ، وتحقق الوقائع التي ارتكبها المحاربون الأعداء ، مخالفين فيها قوانين الحرب وعاداتها ، ودرجات المسئولية المترتبة في عنق أفراد بعينهم في قوات الأعداء ، وتبحث القوانين التي تطبق والإجراءات التي تتبع في محاكمة أمثال مرتكبي هاتيك الجرائم ، إلى غير ذلك من المسائل التي ترى اللجنة ضرورة بحثها مما له اتصال بمهمتها .

قدمت اللجنة تقريرها في ٢٩ مارس سنة ١٩١٨ ، وانتهت منه إلى أن دول أوربا الوسطى وحلفاءها ، قد ارتكبوا عمداً أعمالا لإثارة الحرب ولخرق حياد البلجيك ولكسمبرج . ولكن اللجنة لم تشر برأي معين فيما يتعلق بمحاكمة الأشخاص المسؤولين . ثم قالت في تقريرها : « إن أبحاثها هدتها إلى أنه قد ارتكبت اعتداءات لا حصر لها على قوانين الحرب وعاداتها ، من جانب دول الوسط » ثم قدمت قائمة الاعتداءات ، وكانت مكونة من اثنتين وثلاثين مسألة . وانتهت إلى القول بأن كل من تثبت عليه جريمة من تلك الجرائم لا بد من محاكمته جنائيا مهما سما مركزه أو علا منصبه .

جاءت بعد ذلك معاهدة السلام ، فاتبعت على العموم توصيات اللجنة ، فنصت في المادة ٢٢٧ على أن إمبراطور ألمانيا يجب أن يحاكم أمام محكمة خاصة مؤلفة من

خمسة قضاة يمثلون الدول المتحالفة إذ ذاك ، وهي الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا العظمى وفرنسا وإيطاليا واليابان .

ثم نصت المعاهدة أيضاً على تسليم ٨٩٦ شخصاً ثبت أنهم قد ارتكبوا مخالفات ضد قوانين الحرب وعاداتها ، وكان من بينهم القواد هندنبرج ولودندرف وماكنزن والمستشار الألماني الأسبق بيتمان هلويج ، وعديد من أمراء البحر ، في قائمة طويلة .

أما الإمبراطور فقد فر كما هو معروف إلى هولندة — وهي دولة محايدة إذ ذاك — وعند ما طالبها الحلفاء بتسليمه رفضت ، تمسكا منها بحق إيواء اللاجئين السياسيين ، ووقف الأمر عند هذا الحد . بل لقد قيل إن اغتباط الحلفاء بذلك الرفض لم يعدله سوى خوفهم من أن تجيب هولندة الطلب .

ولقد أثارت القائمة يوم إعلانها معارضة شديدة في ألمانيا ، وتقدم اقتراح يقول : بدلا من تسليم مجرمي الحرب ليحاكمهم الحلفاء ، فلتحاكمهم ألمانيا في ليبزيج أمام محكمة الريخ العليا ، وليتدخل الحلفاء كيف شاءوا في تجميع الأدلة وإقامة الاتهام . ووافق الحلفاء على ذلك الاقتراح . ولكن الأيام مضت ، فإذا بنا لا نجد متهماً أساسيا واحداً يقدم للمحاكمة ، وإذا بالضباط الثانويين الذين قدموا تصدر ضدهم أحكام خفيفة ، أو تبرأ ساحتهم .

على أن استهتار ألمانيا بقرار الحلفاء ، وبمعاهدة فرساي وبوعدها الذي قطعته لم يقف عند هذا الحد ، بل لقد تحدت ذلك جميعه ، واختارت هندنبرج رأس قائمة مجرمي الحرب ثاني رئيس لجمهورية فايمر .

واليوم قد تجدد الوضع القديم ، ولكن بصورة رسمية ، وبصورة أشد من وضع سنة ١٩١٨ . فكانت لا تمر سنة من سنوات الحرب العالمية الثانية إلا ونسمع تصريحاً لقطب من أقطاب الأمم المتحدة ، يعلن فيه عزم الحلفاء على محاكمة الأشخاص المتهمين بجرائم الحرب ، بعد أن تنتهي الحرب ، ثم ظهر الإصرار على المحاكمة في تصريح موسكو الصادر في ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٤٣ ثم في صورة قرارات اتخذتها الدول المتحالفة الكبرى : أولا قبيل هزيمة ألمانيا — في مؤتمر القرم في فبراير سنة ١٩٤٥ — حيث تضمنت قراراته النص على وجوب معاقبة مجرمي الحرب من الألمان عما قارفوا من جرائم . وثانياً في وثيقة النصر الأولى التي تضمنت شروط التسليم التي فرضت على ألمانيا — في يونيه سنة ١٩٤٥ — ونصت على وجوب تسليم جميع زعماء الحزب النازي ، وغيرهم ممن تعلق به تهمة الإجرام النازي . وثالثاً في مؤتمر بوتسدام — وقد صدرت

قراراته في أغسطس سنة ١٩٤٥ — متضمنة نصوصاً مطولة تتناول محاكمة مجرمي الحرب .

وكانت النظرية الروسية ، وهي التي أعلنها الرفيق مولوتوف ، تقول بالمحاكمة الفورية ، في أثناء الحرب وبغير ما حاجة للتربص إلى انتهائها . وأشار الرفيق على بريطانيا منذ اليوم الذي وقع فيه رودلف هيس الزعيم النازي بين يديها ، هارباً أو مندوباً ، لا ندري ، أن تحاكمه . ولقد أصرت روسيا على نظريتها ونفذتها ، فقدمت ثلاثة من ضباط الجيش الألمـــاني ، وواحداً من الرعايا الروس ، يوم ١٥ ديسمبر سنة ١٩٤٣ للمحاكمة أمام أول محكمة عسكرية عقدت لمحاكمة مجرمي الحرب في مدينة خركوف ، بحضور مئات من العمال وجنود الجيش الأحمر الذين كان يحمل أغلبهم علامات ما أصابهم من ضروب التعذيب .

وكان المتهمون الأربعة : الأنباشي رينهارت واتزلو من أعضاء البوليس السري الحربي . وهانز ريتز نائب قائد فصيلة من جنود الهجوم . والكابتن ولهلم لانجفيلد من ضباط فرقة مقاومة التجسس الحربي ، ثم ميشيل بولا فوف الروسي وكان يعمل سائق سيارة ، وقد تولى قيادة « سيارات الموت » التي كان الروس يوضعون بداخلها فيموتون اختناقاً في أثناء الحملة الإرهابية في خركوف .

وجاء في وثيقة الاتهام أن المتهمين اشتركوا اشتراكا فعلياً في المدة الواقعة بين عامي ١٩٤١ و ١٩٤٣ في أعمال الإفناء والإبادة الوحشية التي ارتكبت ضد الأهلين المسالمين بوساطة سيارات « لوري » جهزت تجهيزاً خاصاً وأطلقوا عليها اسم « قاتلة الروح » ، واشتركوا في جرائم الشنق والحرق وإطلاق النار والنهب ضد جموع الشعب ، واشتركوا أيضاً في السخرية بهم .

ودامت المحاكمة أربعة أيام في دار الأوبرا بخركوف ، اعترف فيها المتهمون بفظائع تشيب لهولها الولدان ، وثبت من التحقيقات ، ومن أقوال المتهمين أنفسهم ، أن « سيارات الموت » التي تقضي على من فيها خلال اثنتي عشرة ثانية ، قد ظفرت بموافقة هتلر وهملر ، وأنها كانت تستخدم بكثرة في المدن الروسية لإبادة الروس من سكان المدن المحتلة ممن لم تكن منهم فائدة للألمان !

وفي يوم ١٨ ديسمبر سنة ١٩٤٣ انتهت المحاكمة ، وخلت المحكمة للمداولة ، ثم أصدرت حكمها بإعدام المتهمين الأربعة شنقاً ، ونفذ فيهم الحكم في الساعة الثانية عشرة والدقيقة الرابعة من صبيحة يوم الأحد ١٩ ديسمبر سنة ١٩٤٣ .

وقد لقيت نظرية محاكمة مجرمي الحرب — في الحرب الماضية وفي الحرب الأخيرة — اعتراضات قانونية كثيرة . فلم تلق نصوص فرساي تنفيذاً جديا . أما في هذه المرة فقد انتصرت الفكرة ووضعت موضع التنفيذ فعلا في محاكمات نورمبرج ومن قبلها — وإن كانت على نطاق ضيق — في محاكمات خركوف .

أما الاعتراضات القانونية التي أثيرت عقب الحرب الماضية فقد أثارها المندوبان الأمريكيان اللذان مثلا الولايات المتحدة في اللجنة الدولية التي تألفت لبحث مسألة مثيري الحرب . وما يتبع في شأن محاكمتهم . وكانت نظريتهما أن تعبير « خرق قوانين الإنسانية » تعبير غامض لا يبرر اتهاماً جنائيا . وأنه من المخالف للقانون أن يحاكم رئيس دولة — قائم أو سابق — عن أعمال ارتكبت في عهده ، فليس ثمة قانون ينظم نظر مثل هذه القضية . أما اختصاص المحكمة التي اقترحت اللجنة الدولية إنشاءها فقد أعرب المندوبان الأمريكيان عن شكهما في اختصاصها .

وفي الحرب العالمية الثانية تردد المهيمنون على الشؤون الدولية في تقريرها ، حتى إن تشرشل قرر في ٤ أكتوبر سنة ١٩٤٤ أن المحاكمة القضائية ليست أمراً مسلماً به بالنسبة لمجرمي الحرب . ونادى فريق من فقهاء القانون الدولي العام بعدم الالتجاء إلى المحاكمة ، والاكتفاء بإصدار قرار يقضي بأن مجرمي الحرب خارجون عن القانون (outlaws) ، ووضعهم بذلك في صف الخارجين عن العدالة . وفي هذا ما يشبه ما اتبع مع نابليون ، حيث قرر مؤتمر فينا في ١٣ مارس سنة ١٨١٥ أنه خارج عن حماية القانون ، وخارج عن العلاقات المدنية والاجتماعية ، وأنه عدو العالم ومعكر لسلامه . وأشار فريق آخر من الفقهاء بنفي زعماء النازي وأعضاء الحرب البارزين ، كما نفي الإمبراطور الفرنسي من قبل في جزيرة القديسة هيلانة .

على أن نظرية المحاكمة هي التي تغلبت في النهاية . وهي نظرية سليمة في ذاتها ، ولا تنتقص من سلامتها تلك الاعتراضات القانونية التي وجهت إليها ، عقب الحرب الماضية وخلال الحرب الثانية ، فوقفت المحاكمة في الأولى ، ولم تفلح في وقفها في الثانية .

ذلك أنه منذ القدم والناس متعارفون على أعمال بعينها — في الحرب — تعد قانونية ، وعلى أن أعمالا غيرها تعد غير قانونية ، وذلك بالتطبيق لقواعد القانون الدولي العام ، أو لأحكام العرف الدولي ، والعرف مصدر معترف به من مصادر القانون . بل لقد كانت للإغريق والرومانيين قواعد وقوانين تنظم خدمات جيوشهم وتنظم أساليب قتالها ، وكانت كلها ترمي إلى تلطيف حدة فظائع القتال غير المقيد . وفي سنة ١٦٢٦

كتب جرو شيوس ، أبو القانون الدولي العام ، قواعد الحرب ، وكان من بينها التمييز بين الحرب المشروعة والحرب غير المشروعة . وفي ٢٤ أبريل سنة ١٨٦٣ أصدر الرئيس لنكولن — وكان محامياً قبل رياسته للولايات المتحدة الأمريكية — ما قيل إنه خير ما أخرج للناس إلى ذلك التاريخ من قواعد . ومن طريف ما نذكره في هذا الصدد أن تلك القواعد قد أعدها الضابط البروسي المولد فرنسيس ليبر ، يعاونه لفيف من الضباط الأمريكيين .

ولقد دونت قواعد الحرب البرية في قانون أقره مجمع القانون الدولي العام في اجتماع سنة ١٨٨٠ ، وقانون الحرب البحرية الذي أقره المجمع سنة ١٩١٣ . ونص على تلك القواعد صراحة في المعاهدات الدولية كمعاهدة جنيف سنة ١٨٦٤ المعدلة بمعاهدة سنة ١٩٠٦ . وكاتفاقيتي لاهاي سنتي ١٨٩٩ و ١٩٠٧ . وهناك ميثاق بريان — كيلوج الدولي الذي وقعه في باريس — في ٢٧ أغسطس سنة ١٩٢٨ — ممثلو ستين دولة ومنها ألمانيا ، التي لم تلغ توقيعها عليه ، مما يجعلها مقيدة إلى اليوم بما تضمنه الميثاق من أن الدول الموقعة عليه « تصرح باسم شعوبها أنها تحرم اتخاذ الحرب وسيلة لفض المنازعات الدولية ، وتحرم اتخاذها من أدوات السياسة القومية في علاقات الدول » . وأخيراً فقد كان هذا الرأي لباب بروتوكول جنيف الذي صدق عليه في ٢ أكتوبر سنة ١٩٢٤ ممثلو ٤٨ دولة في دور الانعقاد الخامس للجمعية العمومية لعصبة الأمم . وقد انضمت ألمانيا إلى العصبة في عام ١٩٢٧ ، وكانت واحدة من الدول التي عاد ممثلوها يؤكدون — بالإجماع — مرة أخرى في دور الانعقاد الثامن : أن حرب العدوان جريمة دولية .

أما قولهم إنه من المخالف للقانون أن يحاكم رئيس دولة أو قائد جيش أو ضباطه العظام عن أعمال عدوان أو فظائع وحشية ارتكبت في عهده أو بأمر منه أو برضائه الضمني ، لأنه في رأيهم لا يوجد القانون الذي ينظم نظر تلك القضية ، ولا القانون الذي ينظم المحكمة التي تنظرها ، فقول مردود ولا شك .

القانون قائم : هو القانون المكتوب المدون في المعاهدات الدولية والقرارات التي اتخذتها عصبة الأمم بحضور ممثل ألمانيا سنة ١٩٢٧ ، وهو القانون الطبيعي الذي يمليه المثال الأعلى والعقل السليم ، والذي يعتبر أساس كل قانون وضعي ، والهدف المثالي الذي يسعى إلى بلوغه ، أو يحاول محاكاته ، الساسة والمشرعون .

والمحكمة قائمة — حتى قبل تأليف المحكمة العسكرية الدولية — فقد نصت المادة ١٤

من ميثاق العصبة ـــ ولم يلغه ميثاق الأمم المتحدة ـــ على تأليف محكمة دولية ، وأقرت تأليفها الجمعية العمومية للعصبة في ١٣ ديسمبر سنة ١٩٢٠ .

ولقد اعترض بعضهم على محاكمات نورمبرج بأنها تجري بناء على نصوص وضعت بعد وقوع الجرائم التي يحاكم عنها المتهمون . وأنها ـــ أي تلك النصوص ـــ تغدو بذلك ذات أثر رجعي ، مما ينافي أصول التشريع الجنائي . وهذا الاعتراض خاطئ ، لأن قوانين الحرب مدونة منذ القدم كما رأينا ، فالحرب البرية لها قواعدها التي أقرها مجمع القانون الدولي العام سنة ١٨٨٠ ، والحرب البحرية لها قواعدها التي أقرها المجمع سنة ١٩١٣ ، إلى آخر التفصيلات التي مرت بك .

وبهذا تندفع الرجعية ، ولا ندفعها كما حاول بعضهم بأن تلك الجرائم المنسوبة للنازيين كانت من الروعة والشناعة بحيث يستحيل تسويغها ، وبحيث يؤدي التمسك بأصول التشريع إلى إهدار العدالة ، مع أن التشريع يرمي في الأصل إلى إحقاقها ، لا ندفعها بهذا لأنه تفسير يرضي العاطفة ، ولا يتفق مع قاعدة عدم رجعية القوانين الجنائية التي لا يوجد ما يسوغ إهدارها ، لأنه من الخطورة الفائقة أن تحاكم اليوم إنساناً عن فعلة ارتكبها بالأمس يوم كانت مشروعة ، أو غير معاقب عليها .

* * *

وأول وثيقة دولية تناولت مبدأ المحاكمة ـــ عن جرائم الحرب العالمية الثانية ـــ هي تصريح موسكو الصادر في ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٤٣ ، والذي أشار في خاتمته إلى أن أحكامه لا تخل بما يجب أن يلقاه المجرمون الألمان الذين لم تقف جرائمهم عند حدود جغرافية معينة فإنهم سيعاقبون ـــ ولم تقل الوثيقة سيحاكمون ـــ وفق قرار مشترك تصدره حكومات الحلفاء .

وفي ٨ أغسطس ١٩٤٥ أعلن القرار المذكور موقعاً عليه من ممثلي المملكة المتحدة البريطانية والولايات المتحدة الأمريكية وروسيا وفرنسا ، في لندن .

وقد بدأ الاتفاق الرباعي المذكور بتقرير تأليف محكمة عسكرية دولية لمحاكمة مجرمي الحرب الذين لا ترتبط جرائمهم ببلد أو بمكان جغرافي معين ، سواء اتهموا بارتكاب هذه الجرائم بصفتهم الشخصية أو بصفتهم أعضاء في هيئات أو جماعات أو بكلتا الصفتين ، وذلك كله بعد مشاورة مجلس الرقابة في ألمانيا .

وقد وضعت لائحة لبيان كيفية تأليف المحكمة واختصاصها والنظام الذي ستتبعه في المحاكمة . وأردفت اللائحة بالاتفاق الرباعي ونص على اعتبارها جزءاً منه . ويلاحظ

أن الاتفاق لا يمس في شيء أحكام الوثيقة الأولى — تصريح موسكو — بشأن إعادة مجرمي الحرب إلى البلاد التي ارتكبوا فيها جرائمهم ليحاكموا هناك .

وتقرير تأليف محكمة عسكرية دولية عليا قد وضع حدا لجدل قام بشأن نوع المحكمة التي يحاكم أمامها كبار مجرمي الحرب ، الذين شملتهم الوثيقة الأولى ، كما وضع حدا لجدل آخر قام حول فكرة المحاكمة نفسها .

وقد قضت المادة السادسة من اللائحة المردفة بالاتفاق الرباعي — وهي ميثاق المحكمة العسكرية — بأن هذه المحكمة تختص بنظر أنواع الجرائم الثلاث التي أشارت إليها وهي : جرائم ضد السلام ، وجرائم الحرب ، وجرائم ضد الإنسانية .

أما الأولى فمنها — نقلا عن المادة السادسة — إعداد الخطط وإثارة حرب عدوان ، أو بقصد انتهاك المعاهدات الدولية . وتشمل الثانية مخالفة قوانين الحرب ، وذكرت صوراً متعددة لها ، قالت إنها تذكرها على سبيل المثال لا الحصر ، كقتل الرهائن وتسخير أسرى الحرب وقتلهم وإساءة معاملتهم . وتشمل الثالثة جرائم القتل والاستعباد والنفي وكل الأعمال المنافية للإنسانية التي ترتكب ضد الأهالي المدنيين ، قبل الحرب أو في أثنائها .

✡ ✡ ✡

وتنطوي اللائحة المردفة بالاتفاق الرباعي — وكلاهما صدر في ٨ أغسطس سنة ١٩٤٥ — على توسع لافت للنظر في الأسس المتعارف عليها للمسئولية . فتقوم فيها تلك المسؤولية على ما يشبه المسؤولية عن الاتفاقات الجنائية . وما تتمخض عنه تلك الاتفاقات من جرائم ، مع التوسع فيها ، بالرغم من أنها بذاتها لا تحتمل توسعا جديداً . فتنص اللائحة على أن القادة والمنظمين والمحرضين والمشتركين في إعداد وتنفيذ خطة مشتركة أو مؤامرة لارتكاب أية جريمة من الجرائم المشار إليها فيما سبق ، يعتبرون مسؤولين عن جميع الأعمال التي يقوم بها أي شخص تنفيذاً لتلك الخطة .

وتقرأ في المادة التاسعة من اللائحة نظرية فريدة في المحاكمات الجنائية ، حيث أعطت لتلك المحكمة الدولية — عند محاكمة أحد أعضاء هيئة أو جماعة — سلطة الحكم بإدانة تلك الهيئة أو الجماعة ، واعتبارها هيئة مجرمة . ونصت المادة العاشرة على أنه في هذه الحالة تملك السلطة الوطنية لأية دولة من الدول الموقعة على هذا الاتفاق أن تحاكم الأفراد لمجرد عضويتهم في تلك الهيئة ، دون أن يملك الفرد مناقشة قرار المحكمة الدولية الصادر بشأن الصفة الإجرامية لتلك الهيئة التي ينتمي إليها .

وتقرأ في اللائحة — فوق ذلك — أنه لا يجوز للمتهم أن يلتمس الإعفاء من العقاب بدعوى أن العمل المنسوب إليه صدر به أمر من الدولة أو رئيسها ، مع أنهم يحاكمون ألماناً انتموا إلى ديكتاتورية صماء ، لم تعرف أقل من الإعدام عقاباً لمن يعصي لها أمراً . وكان الواجب أن يباح للمتهم التمسك بذلك الدفاع ، على أن يثبت صحته ، فإن دلّ على رؤسائه وكانوا أحياء واجههما المحقق ، وتركهما يتقاذفان عبء الجريمة حتى تستقر المسؤولية على أحدهما أو على كليهما . وإن كانوا أمواتاً تعين صرف النظر عن ذلك الدفاع واطراحه ظهريا ، على أساس أن الأصل هو الأمر باتباع قواعد القانون الدولي العام ، وعلى من يدعي خلاف الأصل أن يتقدم بدليله .

ولا شك في أن هـذا الشذوذ في طبيعة الدليل المقبول ، عقلا وقانوناً ، أثر من آثار الفكرة التي سيطرت على الأفكار ، والتي تدعي أن الشعب الألماني هو شعب معتد بطبعه ، وأنه إذن تجب مساءلته — كمجموع — عن الحرب العالمية الثانية ، وعما اقترف خلالها من جرائم لا تقرها قوانين القتال ! على أن هذه الفكرة لم تلق قبولا في الدوائر الرسمية ، سواء من خطاب تشمبرلين غداة إعلان الحرب ، أو من قرارات القرم وپوتسدام ، حيث ورد في كل تلك الأقوال والوثائق ما يقطع بوجود « ألمانيا الأخرى » التي لم تفسدها تعاليم النازي ولم تسممها دعاوتهم .

***

ولقد جاء في قرارات پوتسدام ، في الفصل السابع الخاص بمجرمي الحرب ، أن وثيقة الاتهام الأولى ستعلن قبل أول سبتمبر سنة ١٩٤٥ . وقد أعلنت فعلا .

وتلك الوثيقة الأولى خاصة باتهام كبار مجرمي الحرب ، ووضعت على أساس المادة السادسة من لائحة ٨ أغسطس . وهي تقوم على أن ثمة وقائع ثابتة لا سبيل إلى دحضها ، وهذه الوقائع تنقسم إلى أربعة أقسام ، أو كما ورد في وثيقة الاتهام : أربع مجموعات :

المجموعة الأولى وعنوانها « الخطة العامة أو المؤامرة » ، وتكلم فيها قرار الاتهام : عن نوعين من الجرائم ، جرائم ضد السلام ، وجرائم ضد الإنسانية . ثم تكلم عن طبيعة المؤامرة وتطورها في نقط سبع : (١) الحزب النازي مركز المؤامرات . (٢) أغراض المؤامرة ووسائلها . (٣) التبرير الفقهي للمؤامرة . (٤) حصول ألمانيا على السلطة التامة من الناحية السياسية . (٥) الحصول على السلطة التامة في ألمانيا من الناحية

الاقتصادية . (٦) استعمال قوة النازي للاعتداءات الخارجية . (٧) جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية التي اقترفها المتآمرون لتنفيذ خطتهم .

المجموعة الثانية وعنوانها « جرائم ضد السلام » وتكلم فيها قرار الاتهام عن حروب الاعتداء ، التي نقضت بها ألمانيا المعاهدات والاتفاقيات والضمانات الدولية . وأشار القرار في فقرة منه إلى بيان تلك الحروب ، وأشار في فقرة أخرى إلى الأفراد والجماعات والهيئات التي تتحمل مسئولية الجرائم التي ارتكبت .

المجموعة الثالثة وعنوانها « جرائم الحرب » ، ولقد فصل قرار الاتهام في بيان المخالفات التي ارتكبها الألمان ضد قوانين الحرب وقواعدها في الفترة الواقعة بين أول سبتمبر سنة ١٩٣٩ (احتلال دانتزج وغزو بولندة) وبين ٨ مايو سنة ١٩٤٥ (لأن ألمانيا استسلمت في فجر يوم ٩ مايو) ، وذلك في ألمانيا ثم في البلاد المحتلة . ثم النمسا وتشيكوسلوفاكيا وإيطاليا وأعالي البحار . وجاء في قرار الاتهام أن تلك المخالفات تنطوي على انتهاك للاتفاقات الدولية وللقانون الداخلي ولمبادئ قانون العقوبات المقررة في كل الأمم المتحضرة .

وأورد القرار بعد ذلك إحصاء مفصلا لتلك المخالفات في ثماني نقط .

المجموعة الرابعة وعنوانها « جرائم ضد الإنسانية » ، أشار فيها قرار الاتهام إلى حوادث القتل والتعذيب ، وغيرها من الأعمال غير الإنسانية التي ارتكبها المتهمون ضد السكان المدنيين ، قبل الحرب أو في أثنائها ، كما أشار إلى حوادث الاضطهاد المبني على المبادئ السياسية والعنصرية والدينية ، والذي أصاب اليهود وغيرهم ممن تخالف معتقداتهم — السياسية والدينية — أغراض النازيين . وأورد قرار الاتهام قائمة وإحصاءات بذلك .

هذا وقد حرر قرار الاتهام باللغات الإنجليزية والفرنسية والروسية ، وهي اللغات المأخوذ بها فيه . كما أردف بالقرار ملاحق ثلاثة : الملحق (ا) يصف ويبين المسؤولية الفردية لكل من المتهمين . والملحق (ب) ويوضح مسؤولية الجمعيات والهيئات . والملحق (ح) ويبين الاتفاقات الدولية والمعاهدات والتعهدات التي انتهك المتهمون حرمتها .

وتعتبر البيانات العامة التي أوردها قرار الاتهام مسلماً بها ، بصرف النظر عن الإحصاء العددي للفظائع أو الجرائم الفردية التي ارتكبت تحت كل مجموعة من المجموعات الأربع التي أشرنا إليها .

وجرت محاكمة الفريق الأول من المتهمين — وقد ورد بيان أسمائهم في صدر قرار الاتهام — في مدينة نورمبرج الألمانيـة القديمة . وقيل إن اختيارها يستند إلى

أسباب أدبية ، منها أنها كانت معقلا من أهم معاقل النازية ، وفيها عقد المؤتمر النازي الكبير سنة ١٩٣٥ ، وصدرت فيه قوانين نورمبرج الشهيرة لحماية الجنس الآري . ولإقصاء الجنس اليهودي ، إقصاء نهائياً ، من حظيرة الأمة الألمانية .

٭٭٭

وبعد ، فلتلك المحاكمات نواحيها الأدبية والنفسية والسياسية التي لا يمكن الغض من قيمتها . لأن محاكمة زعماء النازي ، أمام أعين الشعب الألماني ، ووقفهم موقف الاتهام في القفص ، وهم الذين كانوا يملكون منه إلى الأمس القريب حق الحياة والموت ، من شأنه أن ينبه ذلك الشعب إلى الحذر من اتباع أمثال هؤلاء القادة في المستقبل .

كذلك تنطوي المحاكمات على تنبيه عنيف للمغـامرين من الزعماء والساسة حتى يتدبروا أمرهم قبل الإقدام على إثارة حرب اعتدائية ، لأن الهزيمة لن تجر وراءها فقد المنصب والنفوذ فحسب ؛ بل سوف تصب على رؤوسهم العقاب ، وما يسبقه من ذل الاتهام والمحاكمة .

ويُعد ما وقع في نورمبرج انقلاباً ، ولكنه ليس انقلاباً في القانون ، بل هو مجرد انقلاب في وسائل تنفيذ القانون . ولهذا قال القاضي الأمريكي جكسون — النائب العام الممثل للولايات المتحدة الأمريكية في تلك المحاكمات — لا يزعجني ولا يضيرني أن لا أجد سوابق قضائية لهذا التحقيق الذي سنشرع فيه .

٭٭٭

ولقد تم التحقيق وانتهت المحاكمات وصدر الحكم يوم أول أكتوبر سنة ١٩٤٦ على نحو ما عرف القراء ونفذ الحكم في عشرة من الزعماء المحكوم عليهم (لأن بعضهم مثل بورمان حوكم غيابياً) وذلك في يوم ٦ أكتوبر ، أما جورنج فقد آثر أن يموت بيده قبل أن تمتد إليه يد عمرو ، وأحرقت جثث الأحد عشر زعيما وذر رمادها في الهواء .

أما الرأي العام العالمي فقد استنكر الإعدام ، وكتب برنرد شو يقول إنه كان يكفي أن يحرموا الحقوق المدنية أو أن يقصوا عن المجتمع ، ومن رأيه أن إعدامهم قد صيرهم شهداء ، بعد أن كانوا — لو ظلوا أحياء — سيصبحون نفراً من النكرات المهملين الذين لا حذر منهم ، كما وقع لنابليون ثم لولهلم الثاني .

واعتقادي أن الفيلسوف الإنجليزي الساخر على حق فيما كتب .

سامي عازر جبر الله

مخطوطات من الفن النسوي

للسيدة بنت الشاطىء

نشر « الكتاب الأغر » في جزئه السادس من سنته الأولى ، حديثاً عن مخطوطات فنية وقعت إلي ، وفيها تتحدث صاحبةٌ لي عن حبها العبقري حديثاً رائعاً مؤثراً ، لا أعرف أن أدبنا العربي ظفر بمثله ، فقد عرف على الدوام روائعَ مُثُله في الرجل وحبه ، فرتل أغاني أبطال المحبين ، وأخلد أناشيد هواهم على الزمان ، وكأنما عقم وجدان المرأة فما تمثل عاطفةً هي مصدرها ، أو عيّت فما تستطيع أن تغني حباً فذا وتترجم عن مثالٍ من حياة القلب* .

قلت يومئذ : إن لتلك المخطوطات أهميتها وخطرها ، إذ هي تعطي الفن صورة من « حب المرأة » الذي أغفله أدبنا ، وتلقي على مسمع الدنيا حديث عواطفها ومشاعرها الذي غاب من تاريخ الفنون .

ولقد دفعت إلى « الكتاب » في ذلك الحين ، قطعة من هذه المخطوطات عنوانها « نشيد » ، واليوم أنقل أغنية أخرى عنوانها :

ثورة

إذا رأيتني أرسل هذا الصوت وأنا أجهل أي أذن تتلقاه ، فما ذلك لأني انحدرت إلى أدنى الإعياء ، أو ضعفت عن التماسك ، وإنما ذاك لأني سموت إلى أعلى القوة ، وامتنعت على ضعف البشر ، وشرُفت أن أكثرث فيك بسواك .

---

* « الكتاب » لم يغفل الأدب العربي ولا سيما الشعر أن يسجل في تضاعيفه شيئاً من غزل النساء ، وآخر ما وقفنا عليه في هذا الباب قصيدة لامرأة بدوية ذكرت في كتاب « مجالس ثعلب » وهو مخطوط قيد الطبع تقول فيها :

فلو أن ما ألقى وما بي من الهوى ... بأرعن ركناه صفاً وحديدُ
تقطر من وجد وذاب حديده ... وأمسى تراه العين وهو عميد
ثلاثون يوماً كل يوم وليلة ... أموت وأحيا إن ذا لشديد

٭٭٭

كنت بالأمس أرفض أن أطلق هذا الصوت خوفاً عليه أن يصل إلى غير محرابك، وضناً به على غير أذنك ، وإشفاقاً على أنفاسي الذائبة فيه أن تنطلق في غير جوك . . .

لكن كبرياء حبي تعصمني اليوم من الخوف ، وتسمو بي عن القلق ، وتأبى لي أن أخشى على أنفاسي لوثة من فم مريض ، أو جو أرضي حقير . . .

٭٭٭

وليغفر لي الحب أني صمتُ من قبل ، وحذرت ، وأشفقت ، حين يحق لي أن أتعالى بحبي إلى السموات ، وأهز به الصخر والجماد . . .

٭٭٭

من استطاع أن يمسك لساني عن الهتاف بك فليفعل . . . ومن أراد أن ينزع حبك من دمي ، أو حبي من دمك فليجرب . . . ومن شاء أن يبعدني عنك أو يبعدك عني فليحاول . . . هيهات . . . هيهات ! ! تعجز عن ذلك الإنس والجان . . . وتعيا به الأرض ، وتقف دونه السماء . . . لقد سبقت لي الكلمة منك : أن لا يحول بيننا سواي ، وألا يفصلنا شيء إلا أن أشاء . . . وقد شئت أن أحيا بك ولك . . ولو هلكت دون ذاك . .

٭٭٭

بقوة هذا الحب العبقري أتحدث الآن قوية متعالية ، مترفعة متكبرة ، عاتية متمردة. قد بطل الخوف وألغي الحذر . . فلو مزقوني قطعاً لغدت كل قطعة مني تهتف بك وتغني لك . . ولو مزقوك — وهيهات ! — لأقمت لكل فلذة منك محراباً ، وعكفت عليها الأيام والليالي فانية مستغرقة . .

فليفعلوا بي ما أطاقوا ، فما يطيقون أي شيء ! وليحجزوك عني إن استطاعوا فما هم بمانعيّ أن أنفذ إليك حيثما كنت ، وكيفما كنت ، ولو أحاطوا بك حلقة مفرغة من الضباع القذرة والذئاب العاوية ، وملؤوا طريقي إليك بالصخور والأشواك . .

٭٭٭

وماذا يملكون فيّ ، وأنا أنفذ إليك هواءً تتنفسه ، وحباً تتشربه ، ونجوى تعيها ، ووحياً تتلقاه ؟ !

بل ماذا ينالون مني ، وقد طويت عليّ جوانحك ، وغدت صورتي تتراءى لك كل حين ، وتلمحها في كل شيء . . وتطالعها حيثما رنوت . . .

تتراءى في البر والبحر ، في الأرض والسماء ، في الأودية والتـلاع ، في السهول والبطاح . . .

وتطيف بك في رقة السحر ،وتنفس الصبح ، وإشراق الضحى، ووقدة الظهيرة ، ودعة الأصيل ، وشجو الغروب ، وسحر المساء ، ووحشة الليل .

وتتجلى لك في رحابة الأفق ، وانبساط السهل ، وأضواء الشفق ، وتجهم السحب، ودجنة الغسق . .

وتتمثلها في الريف الساذج الوديع ، والغدران المنسابة الحالمة ، والنخيل الفارعة الباسقة ، والروابي الناهدة المترفعة ... كما تتمثلها في الأمواج الراقصة المتواثبة ، والأسماك المتمردة في الشراك ، والأشرعة المتهادية على ثبج الموج . . .

بل تحسها في فتور النعاس ، واستغراق النوم ، وشرود الحلم ، ووعي اليقظة . . وتشعر بها في عزوقك دماً ، وفي صدرك هواءً، وفي أذنيك نغماً ، وفي كيانك روحاً، وفي يديك حرارة ، وفي دنياك حياة ، وفي أمسك حلماً ، وفي يومك شغلاً، وفي غدك أملاً.

٭٭٭

أما هي . . . فما تتمثلك في بعض هذا لأنك كل هذا . .

وما تراك في شيء منه لأنك كل شيء . .

وما تلمحك في نواحي الكون ، لأنك وحدك كون مكتمل ، وعالم واسع المدى ، رحب الآفاق !

وما تميز شيئاً منك في شيء منها ، لأنك شائع فيها ، مسوط بدمها . . ،

بل أنت هي . . وإن وهم الواهمون أنها شيء سواك . .

فإن مثلها الحب لك صورة تتراءى في كل شيء ، وتُتمثل في كل حين . . . وتطيف بك في كل آن . . . فقد سموتَ عندها أن تُتَصور في أي شيء ... وعظمتَ حتى ما تُتمثل ... وكبرتَ حتى ما تعرف إلا أنها بك عائشة . . .

طبق الأصل

بنت الشاطىء
(من الأمناء)

حسن الإسكندراني

١٧٩٠ — ١٨٥٤

للأستاذ جميل خانكي

في غضون سنة ١٧٩٠ ولد للإمام حسن رئيس قبيلة الشرويشيين، بجهة أبخاسيا من أعمال بلاد الشراكسة الشمالية ، ولد أسماه « زكريا » كان ثالث أنجاله وآخرهم . شب الطفل وترعرع على ساحل البحر الأسود ، ثم صح عزم أبيه على تأدية فريضة الحج ، وعقدت نيته على إرسال نجله إلى مصر ليتلقى علومه بالأزهر فينشأ إماماً مثله . فغادر الأب بلاده مع ابنه الأصغر حوالي سنة ١٨٠٠ ، ولما يتجاوز زكريا العاشرة من عمره فركبا البحر ليلا وأقلع بهما أحد المراكب الشراعية إلى الآستانة في طريقهما إلى مصر حيث انتوى الإمام ترك ابنه — في أثناء غيابه بالحجاز — عند أحد أصدقائه ومواطنيه المماليك الذين كانت تربطه بهم صلات وثيقة ومودة قديمة .



وبالفعل ارتحل الإمام حسن قاصداً بيت الله الحرام ، وسلم طفله في القاهرة إلى أحد السلحدارية الشراكسة من ذوي قرباه إلى حين عودته ، غير أن المنية عاجلته وهو في طريقه من مكة إلى المدينـة ، فأصبح زكريا يتيما في قطر غريب ، وعند غير أهله وعشيرته .

إلا أن السلحدار أنزله في بيته منزلة أبنائه . فعاش زكريا في رعايته ،

وتعلم عليه صناعة الأسلحة. وقد حدث بعد ردح من الزمان أن وجه محمد علي باشا والي مصر عنايته إلى تجهيز حملة عسكرية لإخماد ثورة الوهابيين في جزيرة العرب فوصى السلحدار في منتصف عام ١٨١١ بصنع كمية من الأسلحة ، ولما تم إعدادها حملها السلحدار بصحبة زكريا إلى قصر الأزبكية حيث قابلهما محمد علي باشا . وما كاد نظر الوالي يقع على هذا الشاب اليافع ، وسمعه يصغي إلى قصته ، حتى أعجبته فيه جرأة أعماله وصدق طويته ، فشمله بعطفه واستخدمه في ديوانه . فنبذ زكريا اسمه القديم وآثر أن يخلع على نفسه اسم أبيه حسن .

كانت مصر في ذلك العهد قد هبت على بكرة أبيها تلبي نداء الوالي للانتظام في الجيش ، فبادر حسن إلى الانخراط في صفوفه ، غير أنه لما سافر في أوائل شهر سبتمبر سنة ١٨١١ في معية محمد علي باشا إلى السويس ، وشاهد فيها نواة الأسطول المصري مبحراً من ثغره لنقل الرجال والعتاد إلى جزيرة العرب ، أدرك حسن — وهو من أبناء السواحل — أن أمواج البحر تناديه فوطد نفسه على الدخول في البحرية .

ولكن آماله لم يبد له تحققها إلا بعد ست سنوات !

ففي خلال سنة ١٨١٧[١] أوفد محمد علي باشا في بعثة علمية إلى فرنسا حسناً (الذي لقب بالإسكندراني) ومحمد شنان ومحمود نامي بمعية المسيو دروفيتي (Drovetti) قنصل فرنسا بمصر وتحت إشرافه[٢] . وما إن قضى الطلبة المصريون عامين كاملين

---

(١) نقل الأمير عمر طوسون في مؤلفه « البعثات العلمية في عهد محمد علي » ص ٣٧ ، وكذلك الأستاذ عبد الرحمن الرافعي بك في الجزء الثالث من كتابه « تاريخ الحركة القومية — عصر محمد علي » ص ٤٥٧ عن المسيو جومار (Jomard) في الرسالة التي نشرها بالمجلة الأسيوية (La revue asiatique) عدد أغسطس سنة ١٨٢٨ ص١٠٩ أسماء أعضاء البعثة التي أرسلها محمد علي إلى فرنسا في شهر يوليـة سنة ١٨٢٦ ، فذكرا ضمن الطلبة الذين تخصصوا في الملاحة والفنون البحرية : حسن الإسكندراني ومحمد شنان ومحمود نامي . غير أن الصواب أن حسن الإسكندراني وزميليه سافروا إلى طولون في سنة ١٨١٧ (لا في سنة ١٨٢٦) ، وعادوا من فرنسا في أوائل سنة ١٨٢٥ (لا في سنة ١٨٣١) ، بدليل أن حسن الإسكندراني اشترك في موقعة نافارين في يوم ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧ ، وكان يقود الفرقاطة «إحسانية» التي غرقت هناك ، كما اشتبك في خلال هذه المدة مع القائد اليوناني مياوليس (Miaulis) ، وأسر غوات واقتادها إلى الإسكندرية . وخلع عليه محمد علي باشا في سنتي ١٨٢٦و١٨٣٠ خلعتين عظيمتين تقديراً لما أداه للأسطول المصري من جليل الخدمات . وما كان شيء من ذلك ممكناً لو كان الإسكندراني في هذا الوقت يتلقى الدروس في معاهد فرنسا !

(٢) لا تحت إشراف المسيو جومار (Jomard) الذي عهدت إليه بعثة سنة ١٨٢٦ .

في الدرس والتحصيل لإتقان اللغة الفرنسية حتى آثر ثلاثتهم التخصص في العلوم البحرية فانخرطوا في الـكلية البحرية الفرنسية بطولون[١] ، وقد كان طلبة البحرية المصريون — وعلى الأخص حسن الإسكندراني — طوال مدة إقامتهم في طولون موضع عناية خاصة من المسيو دوبيريه[٢] (Dupperré) ، مما كان له أحسن الوقع عند محمد علي باشا ، فحفظ له الجميل ولم ينسه على مر الأيام . تذكر هـذه اللفتة الـكريمة في سنة ١٨٤١ — أي بعد أربع وعشرين سنة — فأقام يوم ٢٨ مارس سنة ١٨٤١ في قصره مأدبة عشاء بمناسبة سفر المسيو كوشليه (Cochelet) قنصل فرنسا دعي إليها معه خلفه المسيو دي روهان شابو (De Rohan Chabot) ، وقائدا السفينتين الفرنسيتين الراسيتين وقتئذ في ميناء الإسكندرية « أشيرون » (L'Acheron) و « إنبوسكاد » (L'Embuscade) . وقد تبسط محمد علي باشا في الحديث مع مدعويه في أثناء وجبة العشاء ، وأثنى الثناء المستطاب على الأميرال دوبيريه الذي كان وقتئذ وزير بحرية فرنسا ، والذي شمل بعنايته طلبة البحرية المصريين لأربع وعشرين سنة خلت .

ويقول في هذا الصدد الفيس أميرال دوران فييل (Vice-Amiral Durand-Viel) في الجزء الثاني من المؤلف النفيس الذي وضعه عن « حملات الأسطول المصري في عهدي محمد علي وإبرهيم » ص ٢٥٦ ما يأتي حرفياً :

"Pendant le dîner, le Vice-Roi avait longuement parlé de l'amiral Duperré, le ministre de la marine française, dans les termes les plus flatteurs, rappelant toutes les attentions qu'il avait eues autrefois pour les élèves égyptiens embarqués sur **l'Orion,** et en particulier, pour Hassan Bey, son ministre de la marine."

---

(١) لا في ميناء برست (Brest)

(٢) كان المسيو فيكتورجي دوبيريه حاكما بحريا لميناء طولون من سنة ١٨١٥ إلى سنة ١٨١٨ (أي عند قدوم البعثة المصرية) ثم عين أميرالا وتولى مقاليد وزارة البحرية الفرنسية في عهد الملك لويس فيليب خمس مرات : الأولى في وزارة الماريشال مورتييه (Mortier) من ٢٢ نوفمبر سنة ١٨٣٤ إلى ١٢ مارس سنة ١٨٣٥ . والثانية في وزارة خلفه الدوق دي بروي (Broglie) من ١٢ مارس سنة ١٨٣٥ إلى ٥ فبراير سنة ١٨٣٦ . والثالثة في الوزارة التالية برياسة المسيو تيير (Thiers) من ٢٢ فبراير سنة ١٨٣٦ إلى ٦ سبتمبر سنة ١٨٣٦ . والرابعة في وزارة المسيو سولت (Soult) الثانية من ١٢ مارس سنة ١٨٣٩ إلى أول مارس سنة ١٨٤٠ . والخامسة في وزارة المسيو سولت الثالثة من ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٤٠ إلى ٧ فبراير سنة ١٨٤٣ . وتوفي الأميرال دوبيريه فقيراً في يوم ٢ نوفمبر سنة ١٨٤٦ ودفن في الأنفاليد .

وتعريبه :

« تحدث الوالي في أثناء العشاء عن الأميرال دوبيريه وزير البحرية الفرنسية حديثاً طويلا أجزل فيه الإطراء به ذاكراً ما أبداه من مظاهر الرعاية فيما مضى من الزمان نحو الطلبة المصريين المبحرين على السفينة « أوريون » وعلى الأخص بالنسبة إلى حسن بك ناظر بحريته » .

وعلى إثر تخرج الطلبة المصريين من الكلية البحرية الفرنسية قاموا بثلاث رحلات علمية على سفن فرنسية ، فتدربوا على قيادتها ، وزاروا أقطاراً وأمصاراً نائية ، دوّن حسن الإسكندراني عنها « يوميات » ، وصف فيها بلاد البرازيل ورأس هورن بأمريكا الجنوبية وبلاد النرويج والسويد في شمالي أوربا ، في حين تناولت ريشة محمود نامي بالرسم المناظر الرائعة التي استوقفت أنظارهم .

وقد استغرقت الرحلة الأولى ثلاثة أشهر إذ أبحر المصريون على ظهر الفرقاطة الفرنسية « تيميرير » (Téméraire) ، واجتازوا بحر الشمال وزاروا بلاد النرويج والسويد

أما الرحلة الثانية فبدأت من ثغر طولون وشملت غربي البحر الأبيض المتوسط ، وسواحل إسبانيا وميناء قادش وجبل طارق وجزر آصور (Açores) .

وأما الرحلة الثالثة فقد استغرقت ثمانية عشر شهراً إذ أقلعت الفرقاطة «أوريون» (Orion) من ميناء لاروشيل (La Rochelle) ، وسارت بجانب شواطىء إسبانيا والبرتغال حتى لشبونة ، ثم مضت في محاذاة سواحل القارة الإفريقية حتى جزر الرأس الأخضر ثم عرجت على أمريكا الجنوبية فألقت مرساها في باهية وريودي جينيرو وسان باولو وبورتو الليجرو من موانىء البرازيل . وزارت مونتيفيديو ، وتابعت سيرها إلى رأس هورن ثم عادت أدراجها إلى فرنسا .

وفي أوائل سنة ١٨٢٥ عاد حسن الإسكندراني — وزميلاه — من فرنسا ، وكان عمره وقتئذ خمساً وثلاثين سنة تقريباً ، فعين برتبة ملازم بحري وأسندت إليه قيادة إحدى الأباريق (Brick) التابعة للأسطول المصري الثالث الذي اشترك في خلال شهر أبريل سنة ١٨٢٥ في معركة سبادا (Spada) البحرية . وقد تولى بعد ذلك قيادة السفن الحربية التي عهدت إليها حراسة النقالات التي كانت تحمل الجند والذخائر من القطر المصري إلى شبه جزيرة المورة لإمداد الجيش المصري بها . وقد اشتبك حسن الإسكندراني في أثناء تأدية هذه المهمة مع مراكب اليونانيين التي كان يقودها ميوليس (Miaulis) ، فأغرق منها حراقتين وأسرغولت (Goélette) على مقربة من شواطىء جزيرة كريت

واقتادها إلى الإسكندرية . وقد أهدى إليه محمد علي باشا بهذه المناسبة داراً في حي رأس التين بجهة أبو وردة ، بالقرب من زاوية سيدي تمراز (المعروف قديماً بمسجد البحارة) كما أهدى إليه ساعة من الذهب وشالا من الكشمير .

وفي أوائل عام ١٨٢٦ رقي حسن الإسكندراني من ملازم إلى يوزباشي ، وعهدت إليه قيادة إحدى القراويت (Corvette) السريعة من مصر إلى اليونان لإيصال المراسلات السرية العاجلة التي كان يبعث بها محمد علي باشا إلى ابنه إبرهيم باشا في المورة . وفي خلال صيف تلك السنة عاد حسن إلى الإسكندرية مع الأسطول المصري بقيادة قائده العام محرم بك (صهر محمد علي) لترميم بعض السفن وإصلاحها قبل الإبحار بها ثانية في حملات أخرى مع الوحدات الجديدة التي كان قد وصى بها الوالي في المصانع الأوربية ووصلت حديثاً من مرسيليا وجنوا وليفورن .

وقد عكف حسن الإسكندراني — مع زملائه عثمان نور الدين ومحمود نامي ومحمد شنان — على ترجمة المؤلفات الفرنسية عن أصول البحرية وفنونها .

وقد اشترك حسن الإسكندراني في الموقعة التي دارت رحاها في مياه نافارين (Navarin) يوم ٢٠ أكتوبرسنة ١٨٢٧ ، بين الأسطولين المصري والعثماني من ناحية وأساطيل إنجلترا وفرنسا وروسيا المتحالفة من ناحية أخرى ، وكان يتولى حسن قيادة الفرقاطة « إحسانية » ، في حين كان محرم بك قائد الأسطول المصري قد عقد لواءه على الفرقاطة « جهادية » . وقد اندلعت النار في سفينة حسن الإسكندراني في أثناء المعركة ، وما لبثت أن التهبت صواريها وقلاعها وسائر أجزائها حتى انفجرت واهتزت الأرجاء لدويها . وقد أبى قائدها إلا أن يشهد بنفسه ترحيل رجاله عنها مستهدفاً لأشد الأخطار ، حتى وقعت قنبلة بجانبه ، وأصابته شظاياها في وجهه ، ثم تبعتها أخرى فألقته في البحر مغمى عليه ، ولو لا يقظة خادمه النوبي الأمين « فرج » الذي غاص في اليم وراءه وأسعفه على الفور لما قدر لحسن الإسكندراني النجاة من هذا الحادث .

ولم تفل كارثة نافارين جهد محمد علي ولم تثبط من عزيمته ، فأخذ يبني السفن ويصقل همم الرجال ، حتى تبوأ الأسطول المصري — بعد هزيمة نافارين — المرتبة الثالثة بين أساطيل الدول .

ولما كانت مهمة إنشاء السفن من أعز أماني محمد علي ، فقد وقع اختياره على حسن الإسكندراني لتولي إدارة دار صناعة السفن (ترسانة) في الإسكندرية ، وقد كان حسن عند حُسْن ظن الوالي به ، فتولى الإشراف المباشر على تجهيز الأسطول الجديد

الذي أنزل إلى البحر سريعاً وتكاثرت وحداته فيه حتى حسبت له الدول ألف حساب.

غير أنه ما لبث أن عاد الإسكندراني إلى ركوب البحر، فاشترك في ٨ ديسمبر سنة ١٨٣١، على ظهر الفرقاطة «شير جهاد»، مع الأسطول المصري بقيادة قائده العام عثمان نور الدين باشا في دك حصن عكا من البحر، وأسهم في خلال سنة ١٨٣٢ مع العمارة المصرية في حملاتها في جزر الأرخبيل اليوناني، إلى أن استدعاه محمد علي باشا، في أوائل شهر أكتوبر، وعهد إليه قيادة الفرقاطة رقم ٤، ولعلها المسماة «أبو قير»

وقد اقترن شهر سبتمبر سنة ١٨٣٣ بانقلاب جوهري في حياة حسن الإسكندراني، إذ استقر رأي محمد علي باشا على تزويجه من إحدى فتيات قصره عرفت «ببنت الغز»، وقد كان أبوها عبد الرازق عبد المحسن الغز يرجع نسبه إلى قانصوه الغوري، وكان من أسرة المماليك الذين لقوا حتفهم في مذبحة قلعة الجبل في أول مارس سنة ١٨١١.

وبعد تسعة أشهر من زواجه أقلع حسن الإسكندراني في ٢٨ يونية سنة ١٨٣٤، على رأس قوة بحرية إلى يافا، حيث عهد إليه في حراسة الغولت «التمساح»، الذي كان يقل محمدعلي باشا في رحلته. وبعد بضعة أشهر أخرى أبحر حسن بوحدات أسطوله لتفقد شواطئ سوريا، وكان بمعيته الأمير محمد سعيد باشا ابن محمد علي.

وفي غضون سنة ١٨٣٥ تولى حسن الإسكندراني قيادة الفرقاطة رقم ٣، ولعلها المسماة «الإسكندرية»، والفرقاطتين «مفتاح جهاد» و «البحيرة» والقرويتين «طنطا» و «جناح بحري» والغولت «التمساح» والإبريق «بادئ جهاد» التي عهد إليها بمهمة نقل الذخائر والمؤن من الإسكندرية إلى طرسوس.

وقد استطاع حسن الإسكندراني بما أتاه الله من مقدرة، وما عمر به قلبه من إيمان صادق أن يتقرب إلى محمد علي باشا، وينال ثقته وتقديره، حتى عينه الوالي في ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٣٥ نائباً لقائد الأسطول، وولاه في أواخر شهر مايو سنة ١٨٣٧ نظارة البحرية المصرية، وأنعم عليه برتبة الباشوية.

ولما توفي السلطان محمود الثاني، وخلفه على عرش آل عثمان ابنه السلطان عبد المجيد، في سنة ١٨٣٩، وعين خسرو باشا صدراً أعظم، أقلع الأسطول العثماني إلى الشواطئ المصرية وانضم إلى الأسطول المصري، فوقف حسن الإسكندراني في ١٤ يولية سنة ١٨٣٩ على ظهر الغليون رقم ٥، ولعله المسمى «مصر»، على رأس قوة بحرية أمام ثغر الإسكندرية وتلقى من القائد العثماني أحمد باشا فوزي استسلام وحداته التي كانت تتألف من تسعة غلايين وإحدى عشرة فرقاطة وخمسة قراويت تحمل ١٦,١٠٧

من اللاحين ، وآلايين من الجند يبلغ عددهم خمسة آلاف .

وفي شهر أبريل سنة ١٨٤٨ تولى ولاية مصر إبرهيم باشا بن محمد علي — في حياة أبيه — ولكن المنية عاجلته في العاشر من نوفمبر سنة ١٨٤٨ فتولى الحكم عباس الأول ابن طوسون بن محمد علي وكان محمد علي لا يزال على قيد الحياة ، وإنما كان يعاني مرضاً عضالا قضي عليه في الثاني من شهر أغسطس سنة ١٨٤٩ .

وفي عهد عباس ساءت حالة البحرية المصرية ، وأخذت في الاضمحلال بعد أن كانت قوية زاهرة ، ويرجع ذلك إلى سببين : أولهما عام وهو إهمال الوالي شتى أعمال العمران وثانيهما خاص وهو كراهيته لعمه سعيد باشا الذي نشأ في البحرية وكان قائداً عاماً للأسطول المصري في عهد محمد علي . فحقد عباس على البحرية لحقده على سعيد فأهمل شأنها ، وتعطلت أعمال دار صناعة السفن ، ووقف إصلاح الوحدات البحرية ، فسرى إليها العطب وتناولها التلف .

غير أنه لما نشبت — في ٣ يولية سنة ١٨٥٣ — الحرب بين تركيا وروسيا بحجة حماية هذه الأخيرة الكنيسة والإكليروس اليوناني في الأراضي المقدسة — طلب السلطان عبد المجيد إلى عباس الأول أن يمده بالجند والأساطيل وفاقاً للفرمانات ، فلبى عباس نداءه ، وفتح أبواب دار الصناعة البحرية المعطلة ، وجهز على وجه السرعة أسطولا عهد بقيادته إلى حسن الإسكندراني باشا .

وقد تألف هذا الأسطول من اثنتي عشرة قطعة — عدا النقالات — بها ٦٧٢ مدفعاً و ٦١٢٦ جندياً موزعة على الوجه الآتي :

الغليون (Galion) «مفتاح جهاد» وبه مائة مدفع و١٠٣٤ جندياً بقيادة القائمقام طاهر بك
الغليون «جهاد آباد» وبه مائة مدفع و١٠٣٤ جندياً بقيادة القائمقام خليل بك
« «الفيـوم» « « « « « « « محمود بك
الفرقاطة (Frégate) «رشيـد» وبها ستون مدفعاً و٥١٠ جنود بقيادة مرجان قبودان
« «شيرجهاد» « « « « « « خورشيد قبودان .
« «دمياط» « « « « « « أحمد شاهين قبودان
« «البحيرة» « « « « « « حجازي أحمد قبودان
« «النيـل» « « « « « « عبد الحميد قبودان
القرويت (Corvette) «جناح بحري» وبه ٢٤ مدفعاً و١٨٥ جندياً بقيادة زينال قبودان
« «جهاد بيكر» « « « بقيادة حسن ارناؤود قبودان

الجوليت (Goélette) « الصاعقة » وبه ١٢ مدفعاً و٥٢ جندياً بقيادة طاهر قبودان .
الوابور (Vapeur) «بروانه بحري» « « « « « « صالح قبودان .

أما الجيش فقد بلغ مجموع رجاله ١٨,٠٠٠ عهد بقيادتهم إلى سليم باشا فتحي ، أحد القواد الذين حاربوا تحت لواء إبرهيم باشا في حروب سوريا والأناضول .

وفي أواخر شهر يولية سنة ١٨٥٣ قدم عباس باشا خصيصاً للإسكندرية لعرض قطع الأسطول ووحدات الجيش قبل إبحارها ، وخطب في رجالها مشجعاً ومودعاً . وأقلعت الحملة على ظهر السفن الحربية ونقالات أخرى ، وألقت مرساها في مياه الآستانة حوالي يوم ٢٠ أغسطس سنة ١٨٥٤ — أي بعد رحلة استغرقت ٢٨ يوماً — لاضطرار المراكب إلى الرسو في عدة مرافئ في طريقها للامترار ماء والتزود زاداً .

وقد عسكر الجنود المصريون ردحاً من الزمان على ضفاف البسفور ، وزارهم في مضاربهم السلطان عبد المجيد ، وأنعم على كل قائد من القواد بعلبة للتبغ مرصعة بالماس وأمر لكل ضابط براتب شهر .

وبعد أيام أبحر الجيش المصري إلى «وارنة» (Varna) ، ثم مضى إلى ميدان القتال على نهر الدنواب . ورابط معظم الجيش المصري في مقاطعتي سلستريا (Silistrie) وأولتنتزا (Oltenitza) اللتين استهدفتا لإغارات عنيفة شنها الروس ، فأبلى المصريون بلاء حسناً في الدفاع عنهما ، وأقاموا حصناً منيعاً عرف « بطابية العرب » ، واستطاعوا في خلال سنة ١٨٥٤ أن يقفوا الروس عند حدهم .

أما الأسطول المصري فقد وزع بين مختلف الوحدات البحرية العثمانية . فانضمت الفرقاطة « دمياط » والوابور « براونة بحري » إلى قطع القائد التركي عثمان باشا ، الذي عقد لواءه على الفرقاطة المصرية ، وأبحر على رأس قوة تتألف من ٤١٠ مدافع إلى سينوب (Sinope) الواقعة على البحر الأسود حيث اشتبك يوم ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٣ مع الأسطول الروسي — المكون من ٧٦٠ مدفعاً — بقيادة الأميرال ناخيموف (Nakhimoff) ، وقد أسفرت المعركة البحرية عن انتصار أسطول الروس الذي كان يفوق خصمه عدداً وعُدداً .

وأما باقي الوحدات المصرية فقد انفصلت في بدء الأمر ، للقيام بحراسة جزر الأرخبيل ، بالاشتراك مع العمارة التركية ؛ غير أنها أرسلت بعد ذلك إلى البحر الأسود ، حيث تولى بعضها نقل الجيوش من وارنة إلى شبه جزيرة القرم ، في حين نازلت الأخرى بقيادة الأميرال التركي أحمد بيصرلي باشا السفن الروسية في المعارك التي دارت رحاها هناك .

وفي ليلة ١٤ يونية سنة ١٨٥٤ اغتيل عباس الأول في قصره ببنها ، وخلفه محمد سعيد باشا — ابن محمد علي باشا — فواصل حرب القرم ، وأرسل النجدات إلى الجيش المصري المرابط فيها حتى بلغ عدده ٣٠,٠٠٠ مقاتل .

وقد عانى المصريون هنالك في خلال شتاء عامي ١٨٥٤و١٨٥٥ الشدائد والأهوال من شدة البرد القارس ، ولقي الكثيرون منهم حتفهم في ميادين القتال ، أو من فتك الأوبئة والأمراض التي تفشت بينهم . وقد دافعوا دفاعاً مجيداً عن إباتوريا (Eupatoria) ، وهي ثغر من ثغور شبه جزيرة القرم ، احتلها الحلفاء لمهاجمة مواقع الروس الحصينة ، وقد استشهد فيها سليم باشا فتحي ، القائد العام للجيش المصري .

أما حسن باشا الإسكندراني فقد أبحر في سنة ١٨٥٤ عائداً على رأس أسطوله إلى الآستانة لإصلاح بعض السفن ، فهبت على سفنه في عرض البحر الأسود رياح عاصفة ، وتكاثر عليها الضباب ، فحال دون اجتيازها بوغاز البوسفور بسلام . وقد إشتدت العاصفة عند مدخل البوغاز على مقربة من شاطىء « الروم إيلي » في يوم ٣١ أكتوبر سنة ١٨٥٤ مما أدى إلى اصطدام الغليون «مفتاح جهاد» الذي كان يتولى الإسكندراني قيادته بالفرقاطة « البحيرة » التي كان يقودها محمد شنان بك — زميله القديم — فغرق في أقل من ساعة ١٩٢٠ مقاتلا كانوا على ظهريهما ، ولم ينج سوى ١٣٠ جندياً ، وكان في عداد الغرقى حسن الإسكندراني ومحمد شنان قائدا الأسطول المصري .

وقد ورد نبأ هذه الفاجعة الأليمة في جريدة «ذي اللستريتد لندن نيوز» الإنجليزية (The illustrated London News) إذ نشرت بعددها الصادر في ٢ ديسمبر سنة ١٨٥٤ ما ترجمته :

« فجع السكان القاطنون بالقرب من البحر الأسود بفاجعة تروع القلوب ، وهي غرق بارجتين على مسافة غير بعيدة من الآستانة . ففي ليلة ٣٠ أكتوبر سنة ١٨٥٤ عصفت بشواطىء هذا البحر عاصفة من أروع مايذكره الناس . ولا بد أن تكون قد وقعت حوادث أخرى مروعة غرق فيها كثير من السفن ، ولكن ليس بينها ما هو أفظع من حادثة البارجتين المصريتين العائدتين من القرم . في الساعة الثامنة مساء حمل الإعصار الفرقاطة «البحيرة» على بعد ميلين فقط من مصب البسفور إلى منطقة الأمواج الخطرة التي ترتطم بصخور « قره برنو » ، وما هي إلا ساعة من الزمان حتى تحطمت السفينة ولم ينج من بحارتها البالغ عددهم أربعمائة سوى ١٣٠ كان التوفيق حليفهم فأمكنهم أن يبلغوا الشاطىء أحياء .

« أما البارجة الأخرى ، وهي ذات ثلاث طبقات واسمها « مفتاح جهاد » ، وكان على ظهرها الأميرال المصري ، وهو على ما يقال أمهر قائد بحري عند المصريين ، فقد شاركت زميلتها في نهايتها المحزنة إذ دفعتها العاصفة إلى حيث المياه قليلة خطرة ، وذلك في منتصف المسافة بين الآستانة ووارنة . ومن المؤلم أن نذكر أنه غرق ٧٩٥ بحاراً — من بينهم الأميرال — من بحارتها البالغ عددهم تسعمائة . ولم يبق أي أثر من هذه البارجة المنحوسة يبين المكان الذي غرقت فيه . وقد أنزل الذين نجوا من بحارة البارجتين في الآستانة حيث كانوا موضع كثير من الالتفات والعناية » .

وقد تمكن حسن الإسكندراني[1] قبل غرقه أن يسلم خاتمه — الذي لم يفارقه قط — إلى أحد عبيده الذين نجوا من تلك الكارثة الفادحة ، وتشاء الأقدار أن يعود هذا العبد سالماً إلى مصر ، ويحمل الخاتم الذي اؤتمن عليه إلى زوجة سيده .

وقد انتهت حرب القرم بفوز تركيا وحلفائها — فرنسا وإنجلترا ومملكة بيمونت ومصر — على الروس ، وأبرم الصلح في مؤتمر باريس في ٣٠ مارس سنة ١٨٥٦ ، وقد سلمت فيه روسيا بمطالب الفائزين .

وبذا أسدل التاريخ ستاره ، وأرخى الزمان سدوله ، على آخر حملة قامت بها وحدات الأسطول الضخم الذي أنشأه محمد علي باشا الكبير[2] .

جميل خانكي

---

(١) لحسن باشا الإسكندراني صورتان في باريس : إحداهما — وهي المنشورة مع هذا المقال — من ريشة الرسام لاسال (E. Lassalle) وموجودة في دار الكتب الوطنية . والأخرى معروضة في المتحف الحربي بفرساي .

(٢) المصادر العربية :

الجيش المصري البري والبحري في حرب القرم تأليف الأمير عمر طوسون ، وصفحة من تاريخ مصر في عهد محمد علي تأليف الأمير عمر طوسون ، وتاريخ الحركة القومية تأليف الأستاذ عبد الرحمن الرافعي بك .

المراجع الأجنبية :

Vice-Amiral Durand-Viel : Les Campagnes navales de Mohamed-Aly et d'Ibrahim. Aimé Vingtrinier : Soliman Pacha. Georges Douin : Les premières frégates de Mohamed-Aly. Georges Douin : Navarin. L. Thouvenel : Trois années de la Question d'Orient, la Guerre de Crimée . Jules Ladmir : La guerre en Orient et dans la Baltique (1853-1856). Nasmith: History of the war in Russia and Turkey. Slade: Turkey and the Crimean War.

شمم

لعوف بن عطية التيمي ☆

لَعمْرُكَ إنَّني لَأخُو حِفَاظٍ ... وفي يَوْمِ الكَرِيهَةِ غيْرُ غُمْرِ (١)

أَجُودُ عَلَى الأَباعِدِ باجْتِدَاءٍ ... ولمْ أَحْرِمْ ذَوِي قُرْبَى وَإصْرِ (٢)

ومَا بِي ، فاعْلمُوهُ ، مِنْ خُشُوعٍ ... إلى أحَدٍ ، وما أُزْهَى بِكِبْرِ

أَلَمْ تَرَ أَننّا مِرْدَى حُرُوبٍ ... نَسِيلُ كأنَّنا دُفَّاعُ بَحْرِ (٣)

وَنلبَسُ لِلعَدُوِّ جلودَ أُسْدٍ ... إذا نَلْقَاهُمُ وَجلُودَ نُمْرِ

ونَرْعَى ما رَعَيْنَا بَيْنَ عَبْسٍ ... وَطَيِّئِهَا وَبينَ الحْيِّ بَكْرِ

وكُلُّهُمُ عدُوٌّ غيْرُ مُبْقٍ ... حَدِيثٌ قرْحُهُ يسْعَى بِوِتْرِ

☆ شاعر جاهلي مفلق ومن فرسان العرب .

(١) الغمر : الذي لم يجرب الأمور . (٢) الإصر : العهد .

(٣) مردى حروب : أي نقوم بها ، وأصل المردى الحجر يرمى به .

فتنة السيقان

للأستاذ علي الجندي

كانت تتأطر في مشيتها كالغصن الناعم تحت نفحات النسيم ، وقد انخفض جيبها فكشف عن ترائبها العاجية المصقولة ، وما تحمل من ثمر غريض ، وارتفع ثوبها فجلا على لحظ العيون ساقيها الخدلتين(١) المجدولتين ؟ فقال الشاعر الأول :

لو لم تكن من بردٍ ساقها ... لاحترقت من نار خلخالها(٢)

وقال الثاني :

شمر عن ساقه غلائله ... فقلت مهلا ، واكفف عن الباقي(٣)

وقال الثالث :

هذه السيقانُ جُمّا ... رٌ ذكا في القلب جَمْرا(٤)

غضَّة ، لوأنّ صخْرًا ... مسَّها ، لارتدَّ نضْرا

سفرتْ ، فهي جمالٌ ... فيه ما ساء ، وسرّا

تترك الأعينَ بَرْدًا ... نافِحًا ، والصَّدرَ حَرّا(٥)

هِيَ والوجهُ سواء ... فتنةٌ تردف أُخرى

ربّ صبٍّ بات منها ... يسكُب الأدمعَ حُمْرا

ومُعنًّى عَبَّدتْه ... للهوى قد كان حُرّا

وخليٍّ لم يكن مُغْرًى ... بها قد بات مُغرى

قال قومٌ ليَ : صفها ... قلتُ : نثراً ؟ قيل : شعرا

---

(١) ساق خدلة : ممتلئة لحما مع دقة العظم (٢) البيت للأمير سيف الدين المشد
(٣) البيت للشاعر كشاجم (٤) الجمار : شحمة النخلة وتشبه به السيقان والبيت نظم للقول المأثور : « الجمر في كبدي والجمار في خلاخلهن »
(٥) البرد النافح : كناية عن قرة العين ومسرتها .

قلت : أكوابٌ من البلّـور قد أُترعْن خَمْرا

قال لحسناءَ زهاها الحسنُ أن تلزمَ خِدْرا

تتثنَّى من دلالٍ بانةً تحمل بدْرا

زهرة تعبَق طِيباً — أينما سارتْ — وعِطرا

لا تبالي الحرَّ إن كان، ولا تحفِل قُرّا

جسمُها أمسى نِهاباً لعيون الناس طُرّا

شَفَّ عنه ما عليه فبدا بطناً وظهراً

حجَّبي الحسنَ، وصُونيه يَزِدْه الصَّوْنُ قدرا

فإذا رابك قولي وحسبتِ الخيرَ شرّا

فاستُري ساقَكِ عنَّا حَسْبُنا الصَّدرُ المعرَّى

علي الجندي

حنين

من مخطوطات المرحوم فوزي المعلوف قالها وهو في البرازيل

لهفي للرُّبوع تُضْحي وتُمسي وهْي خلوٌ إلاَّ منَ التَّنكيدِ

يَنْزحُ السَّاكنون عنها وَوَجه الأرْضِ رحْبٌ إلى المزارِ البعيدِ

مثلما تَنزِحُ الطيورُ عن الرّوْضِ وقد رَاعَها ذبول الورُودِ

أوْ كما تنفر الظبا عن غديرٍ أمَّهُ الذّئب طالباً للورودِ

هجرُوها وماءَها وهواها لم يُطيقوا فيها هوَانَ القعُودِ

وهَلِ الطَّيْرُ تَستَطِيبُ نَقِيَّ الماءِ والريحِ وهْيَ رَهْنُ القيُودِ ؟

ودّعُوها والدَّمْعُ مِلْءُ المآقي لِنَوَاها والنَّارُ مِلْءُ الكبُودِ

فلوَ انَّ الأصَمَّ يسمعُ صَوْتاً صرخُوا بالبوَاخرِ الصُّمِّ: «عُودِي»

الرسل

للأستاذ عمر أبو قوس بحلب

قلتُ للقلب ليلةً وهْوَ وسنانُ حالمُ
والزوايا عوابسٌ حولَهُ وهو باسمُ

أين يا قلبُ ما بنيتَ وتبني كلَّ يومٍ في عالم الأحلامِ
من صروحٍ مثقّبَاتٍ حسانٍ وقصورٍ مذهّباتٍ جسامِ
مالها اليومَ قد هوتْ وتداعتْ بين أنقاضِ أمسها والرمامِ
ما لعينيكَ تنظرانِ بعيداً أيّ شيء يكون خلف الظلامِ
أ رجاءٌ أم خيبة أم شموعٌ باكياتٌ أم رايةٌ للسّلامِ
أترى في السوادِ منك بقايا لغرامٍ ولاتَ حينَ غرامِ
كيف تشكو من الأنامِ طويلاً ثم تبكي على شقاء الأنامِ
أترى هدْيهم عليكَ لزامًا أم تشقّ السّبيلَ للأيامِ
كيف ترجو هداهُمُ باجتهادٍ وَهُمُ أصلُ دائكَ الهدّامِ
كلٌّ شيء على الزمانِ يسيرٌ غير إحياء هذه الأصنامِ
كم فؤادٍ على الزمان تمنّى خدعتْهُ بوارقُ الأوهام
فانثنى خائبًا يذوبُ دموعًا ثم أغفى بين الضلوعِ الدّوامي

ضحك القلبُ ساخراً من كلامي المنمقِ
ثم ألقى بمسمعي قولَ فذٍّ محقّقِ

قال : يا صاحبي أتعجبُ مني أنْ رأيت الجهاد فرضًا عليًا
قد براني الإلهُ لما براني مضغةً حيَّةً ولحمًا طريًّا
بثَّ في حبتي الإباء وألقى كلَّ آمالهِ على ساعديًا
كيف ترجو بأن أكون جماداً كيف ترضى بأن أكون خليًا
أنا لم أهجر الغرامَ ولكنْ بدَّلتــه مشاعري عالميًا
فعشقتُ الورى وإنْ كان فيهمْ ظالمٌ لم يزلْ يسيء إليًا
ورأيت الكمالَ غايةَ دنيا أبدع اللهُ حسنها العلويًا
فأنا مثلها أسير إليــه جاعلاً همتي الصباح البهيًا
كل شيء قد كان حلماً بعيداً حققته الأيام شيئًا فشيًا
كيف يبقى هذا الظلام طويلاً وعروق الحياة ينبضنَ فيًّا
ونجوم الخلود تأتي علينا من سماء الهدى شعاعًا سنيًا
كلما اسودت البسيطة ألقتْ عبقريًا أو شاعراً أو نبيًّا

فهو يأتي إلى الورى برسالاتِ ربهِ
ثم يمضي إلى الثرى بين أعراسِ قلبهِ

مثل موسى الكليم لما أتاه نبأ شاردٌ من الأنباء
قال : إني آنست ناراً ولكنْ تلك نارُ الخلودِ والعلياء
فمشى نحوها وفرَّ سريعاً خائفاً من تحمُّل الأعباء
غير أن الإله ردَّ إليــه بأسَهُ بعد خشيةٍ وتنائي
إيهِ موسى أدركْ بنيكَ برأي ففلسطينُ منهمُ في عناء
لا يرون اليقين إلا إذا ما أبصروه مخضَّباً بالدماء
والمسيح الذي أقام بناءً خالداً من محبّةٍ وولاء

ما تزال النفوس تأوي إليه عنـد عصفِ الهموم والأرزاء
وأبو القاسم الأمين أَلَمَّا يأتِ بالحق والهدى والرجاء
كحَّل النور مقلتيه صغيراً واصطفته عرائس الصحراء
إنَّ في الغار من رؤاه بقايا ما ثلاثٍ وشعلة من ذكاء
خشعت عندها العقول وألقتْ كبرياء العلوم والآراء

وأرى الشاعر الذي ضاع في الناس قدرُهُ
مرسلاً جاوز المدى وحوى الدهر عمرُهُ

فهو يمشي إلى الأمام ولكنْ ربما أخطأ السبيلَ فضَلاَّ
رائد يكشف الحياةَ ويرعى كلَّ نجم ويحسب الصعبَ سهلا
ولقد يحسب الأباعد صحباً ولقد يحسب الأقارب أهلا
فإذا ساءه الزمانُ تولّى باكياً يوسع البريَّة عذلا
شاكياً للنجوم حبًا عظيماً لم يطقه الأنام غدراً وختلا
لو أراد النجوم ثم أتاها ملَّ منها وراح يطلب أعلى
ضاحكاً تارة وطورًا حزينًا يسأم الحالتين هجراً ووصلا
سائر والنجوم ترمي عليه من سماء الخلود ورداً وفلاّ
هو طفلُ الحياة لكنْ عليه أن يجوزَ الحياة طفلاً وكهلا
عابد : ربُّه الجمالُ تقيٌّ صام في معبد الجمال وصلى
قائد . جندُهُ الأنامُ ولكنْ أوسعته الأنام في الحرب خذلا
مرسل صادق النبوّة فذٌّ لو أراد السبّاق في العيش جلّى

عمر أبو قوس

في كفة الميزان

ننشر في هـذا الباب نقد النقاد على علاته نزولا عند حرية الرأي تاركين لأقلام غيرهم من الـكتاب مناقشة ما قد يدعو إلى المناقشة .

النَّقـْدُ

كرم على درب

تأليف الأستاذ ميخائيل نعيمة

١٠٤ صفحات من القطع المتوسط . دار المعارف . القاهرة ١٩٤٦

نقد الأستاذ عباس محمود العقاد

(١) الموضوع

الكلمات الموجزة — التي يعنى بها تاريخ الآداب — أنواع كثيرة ، لأنها لا تدخل تحت عنوان واحد وإن تماثلت في الإيجاز ؛ وقد تختلف في الأسلوب كما تختلف في الموضوع .

فمنها المثل السائر ، وهو خلاصة التجربة الاجتماعية ، وربما كان خلاصة التجربة الإنسانية في أمم كثيرة .

ومنها الحكمة ، وقد تشبه المثل السائر في موضوعها وصيغتها ، ولكنها قد تصدر عن الآحاد كما تصدر عن الجماعات .

ومنها جوامع الكلم ، وهي أمثال أو حكم لا تخلو من نكت البلاغة ومحسنات التعبير .

ومنها الأجوبة المسكتة ، وهي كلام وجيز مفحم في جواب سؤال مسيء أو محيّر أو مشتمل على مناجزة وإحراج .

ومنها الوصية وبينها وبين المثل فرق الأمر والتكليف .

ومنها الشعار ، وهو عبارة يتخذها صاحبها دليلا على خطته في الحيـاة العامة أو الخاصة ، وتكثر في السياسة والمعاملات .

ومنها الخاطرة ، وهي كالمفكرة لكاتبها أو لقارئها ، وقد تتسع للإضافة والتفصيل .

ومنها هذه الأوابد والشوارد التي هي موضوع هذا الكتاب ، وتعرف في اللغات الإفرنجية باسم الإبجرام «Epigram» ، ولا يطلق عليها لفظ واحد في اللغة العربية . لأنها تتوزع بين أغراض الكلمات السابقة على اختلافها ، ولا نعرف لها لفظاً أقرب إلى الدلالة عليها في لغتنا من كلمة « الآبدة » لأنها تجمع المعاني التي ذكرناها من أطرافها ،

وتزيد عليها بألوان من الجموح والتمرد والغرابة ، وهي من لوازم الإجرام كما يفهمه الغربيون بعد أن تطور في أطواره المختلفة منذ عهد الإغريق .

فالآبدة تشتمل على شيء من المفاجأة يصدم السامع للوهلة الأولى كأنه مناقضة لكل رأي أو حكمة معهودة ، ثم يسكن إليها فإذا هي حق لا غرابة فيه .

وفي الآبدة شيء من التورية والملاغزة كأنها تعرض على السامع أحجية للحل أو سؤالا للامتحان .

وفيها لذع خفي أو ظاهر ، فلا تخلو في أكثر صيغها من وخزة سخر أو غمزة تبكيت ، وتتأخر فيها اللذعة إلى ختامها فتمر مأمونة سليمة إلى كلمتها الأخيرة ، ثم يلتفت السامع إلى اللذعة بعد انتهائها . ومن هنا سماها بعض أدباء اللاتين بالعقرب لأن لدعتها مخبوءة في زباناها .

والرشاقة في تناول المعنى شرط من شروط الآبدة ، لأنها لا تقال بلغة التعليم والتعريف بل بلغة الصوامع والمحاريب وأساليب التنجيم والتأويل . فلا بد فيها من بعض الخفاء وبعض الرمز وبعض الإيحاء .

وهي غير الخاطرة والوصية في قبول الزيادة والإسهاب . فإن الخاطرة قد تزداد وتستطيل ، والوصية الواحدة تكتب في سطر وتكتب في صفحات . أما الآبدة فهي في صيغتها كالبنية العضوية التي تكمل بانتهائها ، فلا تقبل المد والإطالة كما لا تقبل البنية الحية زيادة عضو أو إطالة تركيب .

ولم يكن هذا كله ملحوظاً في الآبدة عند نشأتها الأولى في بلاد الإغريق . فقد كانت لا تعدو أن تكون نقشة على باب معبد أو باب دار . ثم تفنن فيها الأدباء والشعراء حتى أصبحت فنًّا قائماً بذاته بين الكلمات الموجزة . وظهرت خصائص الأمم في أوابدها فاتسعت لاختلاف الملكات والطبائع بين الإغريق واللاتين ، وبين الجرمان والصقالبة والإنجليز ، وزخرت بها ثروة الفرائد المرسلة في لغات الحضارة فكانت من أوفر الموضوعات الأدبية نصيباً من قبول القراء .

(٢) الكاتب

وصاحب هذه الأوابد التي سمّيت « كرماً على درب » كاتب معروف بين قراء العربية في بلادها وبلاد الهجرة الغربية . قدمت له كتابه الغربال قبل ربع قرن على التقريب فلخصت مزاياه في « صفاء الذهن واستقامة النقد وغيرة على الإصلاح مع

قبس من الفلسفة ولذعة من التهكم »، وقرأت له بعد ذلك كتباً وفصولا فوجدت فيها هذه المزايا جميعاً تتأصل وتتفرع وتزداد . فهو من الكتاب الذين يأخذون من السنين ولا تأخذ منهم السنون .

ذلك هو الأديب الكبير الأستاذ « ميخائيل نعيمة » ركن الثالوث الذي اشتهر معاً في البلاد الأمريكية ، وركناه الآخران هما الأديبان النابغان أمين الريحاني وخليل جبران .

ولا أخال أن المصادفة وحدها هي التي جمعت بين هؤلاء الأركان في هذا الثالوث ؛ لأنه اجتماع تناسب وموازنة أفضل من اجتماع التماثل والمطابقة . ففي اجتماعهم زيادة وتعديل وليس فيه تكرار وفضول .

ليس في واحد من هذا الثالوث ملكة يخلو منها الآخران كل الخلو أو يمتاز بها كل الامتياز . ففيهم جميعاً نفحات روحانية ، وفيهم جميعاً نزعة إلى التهكم والسخرية ، وفيهم جميعاً تمرد وهجوم ، وفيهم جميعاً غريزة العبث التي نعدها نوعاً من الألعاب الرياضية في ميادين الثقافة .

إلا أنهم مع هذا يتناسبون ولا يتماثلون ، ويختلفون في المقادير الممزوجة من هذه الملكات ، فيخلص من كل منهم شراب مختلف المذاق ، مختلف اللون ، مختلف التركيب ، وجملة عناصره في اتفاق .

وأكثر الثلاثة اكتفاء بالقدر اللازم من ملكاته هو صاحب هذا الكتاب .

فنحن لا نعرف في كلام جبران عبارات أقوى وأمتن في أسلوب النبوءات والعظات من هذه الكلمة في كتاب البيادر إذ يقول الأستاذ نعيمة بلسان شمشون :

« أيها السارقون نوم الحزانى كيف تهجعون ؟

أيها اللابسون عري اليتامى كيف تدفأون ؟

أيها الكارعون ري العطاشى كيف تنقعون ؟

أيها الآكلون خبز الجياع كيف تسمنون ؟

أيها السائقون ظعن المنايا كيف تهزجون ؟

أيها المستحمون بالدم الحي كيف تطهرون » ؟

ولا نعرف في كلام الريحاني عبارات أقوى في اللياقة الفنية والمقابلات الخيالية من قول نعيمة في الأهرام المصرية إذ يقول من الكتاب نفسه :

« إذا أردتم مثلا للفن الذي يذهب بالإنسان إلى أبعد من الإنسان فلكم في أي هرم من أهرام مصر ذلك المثال . خذوا هرم الجيزة . جدران أربعة محدودة ترتكز

على قطعة محدودة من الأرض ، وهذه الجدران يتماسك بعضها ببعض وبالأرض تماسكا يجعل منها كتلة واحدة تبدو عند قاعدتها أبدية بثباتها ، مروعة بضخامتها ، ساحقة بثقلها ، ثم تأخذ في الارتفاع قيراطاً فقيراطاً وفتراً ففتراً ، وإذ ترتفع ينحني بعضها إلى بعض وتبقى متشابكة متماسكة ، لكنها كلما ازدادت ارتفاعاً ضاقت مساحة ، ونقصت ضخامة وخفت وزناً ، وعندما تبلغ أقصى مداها في الارتفاع تتلاشى في نقطة في الفضاء هي نقطة الانفكاك — نقطة الانعتاق — نقطة تلاشي النهايات في اللانهاية . فكأن جهات الهرم الخمس : جدرانه الأربعة والأرض تحتها — ما تضخمت في البداية إلا لتتقلص في النهاية ، ولا ثقلت وزناً إلا لتصبح بغير وزن ، ولا ارتبط بعضها ببعض إلا لتنفك من كل رباط ولا كانت شيئاً إلا لتغدو لا شيء .

« وهذه بالتمام حال الإنسان مع حواسه الخمس ؛ فهي لانفع منها إلا كدرجات يرقى بها الإنسان إلى ما وراء الحس ، ولا خير في قيودها إلا لننعتق بها من كل قيد ، ولا معنى لوجودها المحدود إلا لنبلغ بها الوجود الذي لاحد له . . »

ولكن الملكة الروحانية لم تكن لتغري نعيمة بالتمادي فيها حتى تصبح ديدنا له في كل معرض وكل سياق كما تمادى بها جبران في كثير من الأحيان ، ولم تفرط في نعيمة حتى تصبح العبارات « النبوية » كأنها « شغلة يومية » تطلب مقدماً بمقدار الصفحات والكلمات .

كذلك لم تكن اللباقة في التشبيه لتسلمه أحياناً إلى قلة المبالاة التي تنسيه تبعة حامل القلم كما اتفق للريحاني في بعض الفصول .

فهو أقل الثلاثة تكلفاً ونفخاً في ملكاته لتكبيرها عن قدرها المحمود ، وهو أكثرهم اكتفاء بما يلزم وجنوحاً إلى الاعتدال والاتزان .

✡ ✡ ✡

هل معنى هذه الموازنة أنها توجب حتما أن يكون صاحب الكرم والبيادر أفضل الثلاثة وأوفرهم حظاً من المكانة الأدبية ؟

إن إضاعة الوقت في تقدير الدرجات عمل من أعمال البطالة ما لم نفد منه تحقيقاً لرأي أو تقريراً لحقيقة ، وهنا مجال لتقرير الحقيقة في مزايا الاعتدال والشطط . فربما كان للشطط أثر محمود في تواريخ الآداب وثمار العبقريات .

ربما كان للشطط أثر محمود إذا ارتفع بجانب حين يهبط بجانب ، وإذا أعطانا بديلا من التوازن في كفتي الميزان اللتين لا تهدآن ولا تستقران . ولكن الشطط الذي

يفعل ذلك هو الشطط المطبوع الذي لاحيلة فيه لصاحبه ، أو هو الباعث الحيوي الذي يتخذ صاحبه أداة للصعود حيث لاصعود له وهو مستقر الطرفين .

أما الشطط المختار فلا يأتي بجديد في عالم الملكات والعبقريات ، لأن الفعل فيه لغير الملكات والعبقريات ، وعلى نقيض ذلك يكون الاتزان المختار بين الملكات المطبوعة. فإن الذي يملك أسباب المغالاة ثم لايغلو إنما يستطيع ذلك بقدرة صحيحة في وجدانه ولا يضطر إليه لفاقة في نفسه وعجز عن الصعود والهبوط .

واتزان الأستاذ نعيمة من هذا القبيل ، لأنه مطمئن إلى القدر الذي يملكه من الروحانية واللباقة الفنية ، فلا ينفخه ولا يتكلف المزيد فيه ، ولا يبدو مع ذلك مفتقراً إلى مزيد من الملكتين .

***

(٣) الكتاب

ولعل الأوابد في « كرم على درب » هي المجال الأوفى لإبراز هذه الحقيقة والميدان الفسيح لجميع الأشواط التي يجلي فيها غارس الكرم وجامع البيادر وناسج الغربال .

فالآبدة تتسع للمعاني الروحية ولواذع الوعظ والتبكيت ، وتتم باللباقة الفنية ورشاقة العبارة وسهولة الأداء .

وهذه كلها موفورة في أوابد الكرم الخصيب ، ولعلها جاوزت ما يترقبه عند باب الكرم كل وافد إليه .

لأن أصحاب الأوابد يحسبون عند النقاد من السعداء إذا عرضوا على القارىء ألف آبدة ينتقي منها مائة أو دون المائة ، ويمر بالبقية في اكتراث قليل أو في غير اكتراث !

أما أوابد نعيمة فليس فيها ما ينبذه القارىء أو يلتفت إليه بعض الالتفات ، والخوف عندها من الكظة لا من الجوع .

وهي تبدو أغرب ما تكون حين تراها أصدق ما تكون ، ولا يزيد فيها معنى قط على حساب معنى آخر ، بل تتسابق فيها الروحانية واللباقة الفنية أحياناً سباقاً لا تدري فيه من منهما السابقة ومن منهما المسبوقة .

خذ مثلا منها قوله : « الخطيب المصقع من سمع سامعيه قبل أن يسمعوه » . أو قوله : « هنيئاً لمن يسمع كل ما يقول ولا ينفجر . . » .

فأي خاصة من خواص الآبدة لاتجدها في قوله عن الخطيب أو قوله عن المتكلم ؟

الإغراب في أن يكون الخطيب هو السامع ، والصدق في أن يكون التأثير في السامعين وليد المعرفة بهم والاستماع إلى أصوات ضمائرهم ، والإيجاز الذي يسرع بك إلى المفاجأة في بضع كلمات .

وكذلك تبدو لنا غرابة الحقيقة فيما يقوله جميع الناس ويسمعونه من كلام أنفسهم . فلو أن إنساناً سمع كل ما يقوله إنسان آخر لبخع نفسه أو كاد . . . ولكن هذا الإنسان يسمع ما يقوله هو طول حياته ولا يفكر في بخع نفسه . . . فطوباه طوباه !

وإليك أمثلة أخر — بغير اختيار — قوله في العبادة : « أنفقت عمرك في خدمة بيت الرب ، فمتى تخدم رب البيت ؟ » ، وقوله في ثمرات التأليف : « ليس من العدل في شيء ألا ترضوا من الكتاب بأقل من الآيات البينات ، وأن ترضوا من الوالدين ببنين وبنات أقل جمالا من أدونيس وعشتروت » . . . وقوله في حكم القوة : « من أطاع عصاك فقد عصاك . . . » وأقواله في أغراض شتى :

« كل قتيل قتيلان .

« أثقل غطاء للرأس التاج .

« لا بركة في أرض تبرها أغلى من ترابها .

« هل أبخل من سلة ملآنة وأكرم من سلة فارغة .

« ما ظلمك مثل الذي أحبك دون كل الناس .

« جذور اللذة في الألم وجذور الألم في اللذة . أما السعادة فلا جذور لها البتة .

« أنت مجهول وأنا مجهول فتعال نتعارف » .

فالصفحات التي في الكتاب جميعاً تفيض بأمثال هذه الأوابد التي تفاجئك وتصدقك وتعجبك ، وتقول لك في كلمات ما لا يقال في صفحات .

ومن محاسن هـذه الأوابد أنها تكافىء قارئها على زيادة المشقة بزيادة الحقيقة وزيادة المتعة بالاهتداء إليها . فإذا لاحت نكتة الآبدة خفية بعض الخفاء ، ولم تسفر عن وجهها لأول نظرة كما يقولون — فذلك دليل على متعة أبقى وجمال أسمى ، على مثال قوله : « من قال إنه يعطي ولا يأخذ فقد أخذ فوق مايستحق » . . . فليس أغرب منها في الظاهر ولا أصدق منها في الواقع ، فإن الذي يعطي جميع الناس ولا يأخذ منهم شيئاً قد ظفر ولا ريب بما يربي على نصيب فرد واحد ، كائناً من كان معطيه . ولم يجتمع لباب الأخلاق ولباب « الاقتصاد » ولباب الاجتماع في كلمة واحدة كما اجتمعت معاً في هذه الآبدة .

ومن أغرب الحقائق ما هو أقربها إلى الشرقيين خاصة لو التفتوا إليه . فحيثما نظرنا في هذا الشرق لن نجد إلا الدعاة والمستمعين الذين تصدق عليهم آبدة الشاة والقصاب : « رأت الشاة قصابها يشحذ سكينه فقالت له : احترس ياسيدي أن تجرح أصبعك ! » وأكثر من ذاك أن هذه الشاة بعينها هي التي تنطح الناصح الذي يهتف بها : احترسي من السكين !

* * *

وخلاصة هذه الخلاصة أن كل ورقة من أوراق الكرم تسجل للمؤلف أنه أستاذ في فن الآبدة حيث كتبت من بلاد المشرق أو المغرب ، وخير ما يسمعه من القراء كلمة واحدة تجزيه عن جميع هذه الكلمات ، وهي : هات !

عباس محمود العقاد

فقه القرآن والسنة

القِصَاص

تأليف الأستاذ الشيخ محمود شلتوت
٢٠٠ صفحة من القطع الكبير . مطبعة العلوم . القاهرة ١٩٤٦
نقد الأستاذ أحمد محمد شاكر

أما هذا فكتاب نفيس حقاً ، وكان جديراً أن يكون أشد نفاسة مما كان لو أن الأستاذ المؤلف العلامة توسع في بعض أبحاثه . وإنما ألجأه إلى بعض الإيجاز أنه كتاب شبه مدرسي ، إذ هو جملة محاضرات ألقاها على طلبة دبلوم الشريعة من خريجي كلية الحقوق في جامعة فؤاد الأول ، في العام الماضي سنة ١٩٤٥ . فلم يكن ليتجاوز بهم مقدرتهم على التفهم والاستيعاب .

و « فقه القرآن والسنة » اسم طريف جميل لدراسة تفسير آيات الأحكام وأحاديث الأحكام .

والكتاب في الحقيقة مقدمة ثم مسألة واحدة من مسائل الأحكام . المقدمة في معنى « الفقه » في اللغة ثم في استعمال القرآن الكريم ، ثم في اصطلاح الفقهاء والأصوليين . وفي معنى « القرآن » في اللغة أيضاً ، ثم في إطلاق هذا اللفظ على هذا الكتاب المعروف الذي أنزله الله على رسوله ، وفيما يتصل بذلك . وفي معنى « السنة »

على ذلك النحو . وفي أسباب الاختلاف بين الأئمة في فقه القرآن والسنة . فهذه أربعة أبواب ، هي مقدمة الكتاب ، وهي مقدمة عامة لهذه الدراسة ، لا لمسألة « القصاص » وحدها . وإنما اختار الأستاذ — حفظه الله — أن يدرس لطلابه من آيات الأحكام موضوع « القصاص » . فهي مسألة واحدة من هذا العلم الواسع ، جعلها في أربعة أبواب :

١ — العقوبات في الشريعة ٢ — جريمة القتل في الإسلام والشرائع الأخرى ٣ — حكم القرآن والسنة في القتل والقصاص في النفس ٤ — نصوص القصاص فيما دون النفس .

والكتاب جم الفوائد ، لا لطلاب كلية الحقوق وخريجيها وحدهم ، بل لسائر طلاب العلم ، من المثقفين تثقيفاً دينيا ، ومن غيرهم . يظهر كل طائفة من الطائفتين اللتين تدرسان التشريع على وجهة نظر الشريعة مقارنة بالتشريعات الوضعية ، ولعله يكون كبير الأثر في تقريب وجهتي النظر اللتين كادتا أن تكونا متباينتين ، بما ضرب على الأمة المصرية ، وعلى أكثر الأمم الإسلامية ، من قوانين إفرنجية مترجمة « نقلت نقلاً حرفيًّا عن أمم لا صلة لنا بها ، من دين أو عادة أو عرف ، فدخلت لتشوه عقائدنا ، وتمسخ من عاداتنا ، وتلبسنا قشوراً زائفة تسمى المدنية »[1] و « هذه القوانين كادت تصبغ النفوس كلها بصبغة غير إسلامية ، وقد دخلت قواعدها على النفوس فأشربتها ، حتى كادت تفتنها عن دينها ، وصارت القواعد الإسلامية في كثير من الأمور منكرة مستنكرة ، وحتى صار الداعي إلى وضع التشريع على الأساس الإسلامي يجبن ويضعف ، أو يخجل فينكمش ، مما يلاقي من هزء وسخرية ! ! ذلك أنه يدعوهم — في نظرهم — إلى الرجوع القهقرى ثلاثة عشر قرناً ، إلى تشريع يزعمون أنه وضع لأمة بادية جاهلة ! ! ».[2]

فيقول الأستاذ العلامة الشيخ شلتوت في هذا الكتاب (ص ٩) : « ونرجو أن لايطول عهد هذه الجفوة التي وقعت بين المسلمين وبين فقههم الزاخر بالأصول التشريعية العامة والخاصة ، وقد بدا لنا الرجاء قويا في قرب هذا الرجاء بتوجه أبناء الحقوق المصرية إلى البحث في الشريعة الإسلامية والتخصص في فروعها ، وبتضافر رجال القانون والشريعة على إنهاض هذا الفقه — الذي يعتبر بحق فقهاً قوميًّا للبلاد ويمثل

---

(١) كتاب « الشرع واللغة » لأحمد محمد شاكر طبع دار المعارف ص ٦٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٩ .

حياتها تمثيلاً صحيحاً ويحدد عاداتها وتقاليدها التي درجت فيها وعاشت عليها — نصل إن شاء الله إلى ما نحب ونرجو » .

وهو يقول أيضاً قولا صريحاً قويًّا (ص ١٨) : « وقد انعقد إجماع المسلمين على أن القرآن الكريم هو أساس الدين والشريعة ، حتى صار ذلك عندهم مما علم من الدين بالضرورة ، لا فرق في ذلك عندهم بين عصر وعصر ، وإقليم وإقليم . فهو حجة الله العامة على الناس أجمعين ، في كل زمان ومكان ، وفي عقائده وأحكامه وأخلاقه . فمن زعم أنه حجة خاصة بقوم دون قوم ، أو بعصر دون عصر ، فهو خارج عن ربقة الإسلام » .

ومن الأبحاث النفيسة العالية في هذا الكتاب ، بحثه في « حق العفو لولي الدم » وبيانه عن حكمة الشريعة الإسلامية في وضع هذا الحق في يد أولياء دم المقتول ، وبيان الأضرار التي تنشأ عن الوضع المعكوس في القوانين الوضعية ، بجعل الحكومة أو الدولة صاحبة الحق في القصاص أو العفو دون نظر إلى أولياء الدم (ص ١٢٢ — ١٢٤) .

ولم يخل هذا السفر الجليل ، على نفاسته من مآخذ لا تغض من قيمته ، ولعل كثيراً منها يرجع إلى اختلاف وجهتي النظر بين المؤلف والناقد .

١ — في (ص ٢٨) آيتان كتبتا كأنهما آية واحدة بين قوسين ، وهما : « ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » وهي الآية ٨٣ من سورة النساء . والثانية : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » وهي الآية ٤٣ من سورة النحل . وهذا إنما هو خطأ من الطبع والتصحيح ، ولكن الإشارة إليه واجبة ، فإن أكثر قارئي الكتاب ودارسيه لا يحفظون القرآن ، بل لعلهم لا يقرؤونه إلا قليلاً .

٢ — (ص ٢٩ — ٣٠) فسر المؤلف معنى كلمة « السنة » في اللغة ، واستشهد لها بآيات وأحاديث ، ثم فسرها في صدر الإسلام ولسان الشرع فقال : « وقد اقتبسها علماء الإسلام من القرآن واللغة واستعملوها في معنى أخص من المعنى اللغوي » إلخ . ثم قال بعد : « وبهذا المعنى عرفت كلمة السنة في صدر الإسلام ، وقد وردت مقترنة بالكتاب في وصايا الرسول ، في قوله صلى الله عليه وسلم : " تركت فيكم أمرين لن تضلوا بعدي ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنة رسوله" » . وأنا أظن أن في قوله : «وقد اقتبسها علماء الإسلام » شيئاً من الإبهام ، إن لم يكن من الغلط ، فإن اللفظ إذا نقل عن معناه اللغوي إلى معنى أخص منه أو أعم أو لازم له ، وكان نقله للمعنى الجديد في استعمال القرآن ،

أو على لسان رسول الله ، لم يصح أن يطلق عليه أنه اقتباس علماء الإسلام ، بل يكون المعنى الجديد « حقيقة شرعية » لا اصطلاحاً فقهيًّا أو أصوليًّا مثلا ، لأن العلماء إنما استعملوه في المعنى الذي ورد به في لسان الشرع ، ومثل كلمة « السنة » في ذلك مثل كلمات « الصلاة » و « الصوم » و « الزكاة » إلى آخر هذه الحقائق الشرعية المعروفة .

٣ — تكلم المؤلف (ص٤٤ — ٤٦) عن أشهر الكتب المؤلفة في فقه القرآن (تفسير آيات الأحكام) التي « أفرد طائفة من المفسرين آيات الأحكام بالتفسير والبيان » . وظاهر من تعبيره هذا أنه يريد الكتب التي ألفت خاصة بهذا النوع ، ولكني أجده ذكر فيها تفسير القرطبي « الجامع لأحكام القرآن » الذي تقوم بطبعه دار الكتب المصرية . وهذا التفسير تفسير عام للقرآن كله ، لم يفرد مؤلفه آيات الأحكام بالتفسير والبيان . بل هو تفسير كسائر التفاسير ، يشرح كغيره آيات الأحكام فيما يفسر من جميع آيات القرآن ، فإدخاله فى هذا النوع الخاص فيه كثير من التساهل .

ثم إن المؤلف الفاضل نسي من تفسير آيات الأحكام كتاباً معروفاً مشهوراً ، هو : « التفسيرات الأحمدية في بيان الآيات الشرعية مع تعريفات المسائل الفقهية » تأليف الشيخ أحمد ملاجيون بن أبي سعيد الحنفي المكي الهندي ، المولود سنة ١٠٤٧ والمتوفى سنة ١١٣٠ هجرية ، والكتاب طبع في الهند مراراً ، ذكر سركيس في معجم المطبوعات ١١٦٤ أنه طبع في كلكتة سنة ١٨٤٧م وسنة ١٣٠٠هـ و سنة ١٣٢٧ هـ . وهذه الطبعة الأخيرة مذكورة أيضاً في فهرس دار الكتب المصرية ، وعندي منه نسخة من الطبعة الأخيرة اقتنيتها في سنة ١٣٢٩هـ (١٩١١م) ، وأذكر أني رأيت طبعة أخرى منه حديثة ، فهي طبعة رابعة .

ويقول الأستاذ المؤلف في هذا الموضع إن المفسرين سلكوا في تفسير آيات الأحكام « فى الوضع والترتيب مسلك وضعها القرآني ، فأبقوها في سورها ، ولم يتجه واحد منهم إلى جمع الآيات المتعلقة بموضوع واحد ، ودراستها دراسة خاصة ، ولو أنهم فعلوا هذا لكان نوعاً من التسهيل في دراستها ، لا يكلف من يريدها البحث عن آيات الموضوع الواحد في مواضعها المختلفة من السور المتعددة ، ولكان فيه أيضاً نوع من الدقة في الاستنباط ، التي كثيراً ما تفوت المفسر في تفسير الآية الواحدة المرتبطة بغيرها في موضوعها » . وهذا الذي قاله جيد في بيان فوائد التفسير ، إذا جمعت آيات الأحكام بحسب مسائلها على الأبواب . فما في فائدة هذا شك . ولكن فاته أن هذا الذي ينبغي وقوعه قد وقع فعلا ، ولكن في تفاسير علماء الشيعة الإمامية ، ولم أره لغيرهم . وعندي في ذلك كتابان من كتبهم :

الأول : « درة البيان في أحكام القرآن » للأردبيلي ، واسمه : « أحمد ابن محمد الأفشار » المتوفى سنة ٩٩٣ هـ وهو في ٤٠٠ صفحة وطبع في بلاد العجم سنة ١٣٠٥ هـ . والثاني : « قلائد الدرر في بيان أحكام الآيات بالأثر » تأليف أحمد ابن إسمعيل بن عبد النبي الجزائري النجفي المتوفى سنة ١١٥٠ وهو في ٣٨٤ صفحة من القطع الكبير جدًّا ، وطبع في طهران سنة ١٣٢٧هـ .

فهذان كتابان نافعان جداً . وقد كنت فكرت منذ بضع سنين في أن أحذو حذوهما ، فأفسر آيات الأحكام على هذا النحو ، وشرعت في ذلك فعلاً ، فنقلت الآيات من ثانيهما مرتبة على الأبواب التي رتبها عليها ، على أن أستوعب بعد ذلك كل ما في الكتاب الأول ، وكل ما في سائر تفاسير آيات الأحكام ، ثم أنقح ترتيب الأبواب وترتيب الآيات فيها ، ثم أشرحها شرحاً وافياً ، مؤيداً بالأدلة القوية من الكتاب والسنة . ولكن شغلتني أعمال ، فلم أوفق إلى إتمام ما كنت أريد . وأرجو أن يوفقني الله إليه ، بمنه وكرمه .

٤ — (ص ٤٥) في التعريف بالجصاص ينقل المؤلف العلامة أنه هو الذي يذكره بعض الحنفية بلقب الرازي « كما صرح بذلك صاحب القاموس في طبقاته للحنفية » ! ولست أدري ألصاحب القاموس كتاب في طبقات الحنفية ؟ وأين هو ؟ وأنا أظن أني أعرف في الكتب ، فما سمعت بهذا الكتاب قط ، وأخشى أن يكون هذا خطأ لا أصل له.

٥ — (ص ٥١) في الكلام على اختلاف الفقهاء في معنى « القروء » التي أمر الله بها عدة للمطلقة ، وأن جماعة من الفقهاء ذهبوا إلى أنها الحيض ، وذهب يسوق أدلتهم ، فقال فيما قال : « ثم قالوا بعد هذا : قد صح عن ثلاثة عشر صحابيًّا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الرجل أحق بامرأته مالم تغتسل من الحيضة الثالثة » !!

ولست أدري ماذا أقول ، ولا كيف كان هذا ؟ إنما الذي لا أشك فيه ، بقدر ما أعرف من السنة ومن دراسة الحديث النبوي ، ثم بعد طول البحث والتتبع : أن هذا الشيء لم يقله رسول الله ، ولم يرو عنه بسند صحيح ولا ضعيف ، وما هو بكلام من جنس الحديث . ومعاذ الله أن يكون في هذا مني ما يمس الأستاذ المؤلف في قريب ولا بعيد ، إلا التساهل في النقل ، ثم الخطأ فيه . وذلك أن هذه الكلمة نقلها الجصاص في « أحكام القرآن ج ١ ص ٣٦٤ من طبعة الإستانة سنة ١٣٢٥ هـ » ونص كلامه : « وروى وكيع عن عيسى الحافظ ، عن الشعبي عن ثلاثة عشر رجلاً من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم الخبر فالخبر ، منهم أبو بكر وعمر وابن مسعود وابن عباس ، قالوا:

الرجل أحق بامرأته ما لم تغتسل من الحيضة الثالثة ». وفي هذا الخبر غلطتان ، يظهر أنهما من خطأ التصحيح المطبعي : أولاهما « عيسى الحافظ » صوابه « عيسى الحناط » ، وثانيتهما « الخبر فالخبر » صوابه « الخير فالخير » يريد أن هؤلاء الثلاثة عشر من خيار الصحابة ، بعضهم أعلى من بعض ، منهم أبو بكر وعمر إلخ . وقد نقله ابن حزم في المحلى (ج ١٠ ص ٢٥٩) مختصراً على الصواب . فهذا خبر عن الصحابة ، لا حديث من كلام رسول الله . وأنا أستطيع أن أكرر ما جزمت به : أنه لم يقله رسول الله ، وما هو بحديث أصلاً .

نعم ، قد برئ الأستاذ المؤلف من عهدته ، إذ أحال على غيره ، فقال : «قالوا» ولكن الذي لا أرضاه له أن لا يذكر هؤلاء القائلين ؟ ثم أن لا يتوثق مما قالوا ، وهو الرجل المحقق المتثبت الذي ما أظنه يحدس الكلام على عواهنه . ولو أنه بحث وتوثق لعلم أن هذا الخبر ، الذي نقله الجصاص وابن حزم ، خبر ضعيف . وأن راويه « عيسى بن أبي عيسى الحناط » وهو « عيسى بن ميسرة الغفاري » ضعيف جداً ، قال عمرو بن علي : « متروك الحديث ضعيف الحديث جداً » . وقال النسائي : « متروك الحديث » . وقال البخاري : « ضعفه يحيى القطان »*.

ثم الذي لا أزال أطلب إلى الأستاذ المؤلف العلامة في إلحاح ، أن يرشدني إلى من مِن الفقهاء المتأخرين هذا الذي صنع ما صنع ، فجاء إلى خبر ضعيف لا يثبت له إسناد قائم ، فجرؤ على أن يرويه بصيغة الجزم ، كأنه خبر ثابت ، ثم ازداد جرأة فنسبه إلى رسول الله ، جعله حديثاً من قوله ؟ ! لأن الذي لا أكاد أشك فيه أن الأستاذ إنما نقل هذا عن غيره من العلماء قبله ، وإن لم يكن معذوراً في نقله .

٦ — (ص ٨٧ – ٨٨) تحدث المؤلف عن «عقوبة الاعتداء على الدين بالردة» حديثاً غريباً ، لا ندري ما وجهه ! فكان مما قال : « أما العقاب الدنيوي لهذه الجناية ، وهو القتل ، فيثبته الفقهاء بحديث يروى عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من بدل دينه فاقتلوه . وقد تناول العلماء هذا الحديث بالبحث من جهات : هل المراد من بدل دينه من المسلمين فقط ، أو هو يشمل من تنصر بعد أن كان يهودياً مثلاً ؟» إلى أن قال .. «وقد يتغير وجه النظر في هذه المسألة ، إذا لوحظ أن كثيراً من العلماء يرى أن الحدود لا تثبت بحديث الآحاد ، وأن الكفر بنفسه ليس

---

* انظر ترجمة الحناط هذا في التاريخ الصغير للبخاري ١٧٥ والضعفاء له أيضاً ٢٦ والضعفاء والمتروكين للنسائي ٢٢ والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٣ /١/ ٢٨٩ والتهذيب لابن حجر ٨ : ٢٢٤ وغيرها .

مبيحاً للدم ، وإنما المبيح للدم هو محاربة المسلمين » إلى آخر ما قال !

أما أولاً : فإن حديث « من بدل دينه فاقتلوه » حديث صحيح لا شك في صحته ، والراجح عند العلماء أنه فيمن ارتد عن الإسلام فقط . فاختلاف العلماء في فهمه وذهاب بعضهم إلى أنه عام يشمل غير المرتد ، ممن خرج من دين غير الإسلام إلى دين آخر غير الإسلام ، لا يكون علة للحديث حتى يبطل كل معناه ، كما يريد المؤلف أن يذهب . فإن هذا مذهب عجيب في إبطال السنة ونقض دلالتها على الأحكام ، فما من حديث إلا اختلف الناس في تأويله وفهمه ، فمصيب ومخطىء .

وأما ثانياً : فما أعرف « أن كثيراً من العلماء يرى أن الحدود لا تثبت بأحاديث الآحاد » وما أرى لهذا دليلاً ولا شبه دليل . وإنما يتلاعب بعض المتقدمين ممن يرون نفي السنة كلها ، منهم من يصرح ، ومنهم من يتحايل بمثل هذه الألفاظ الموهمة . وقد تكفل العلماء بالرد على نفاة الأحاديث ، وعلى متأوليها المتلاعبين بها ، وعلى من زعم تحكيم اصطلاحات المتكلمين في الشريعة وأدلتها ، فيفرقون بين « القطعي » و « الظني » ويزعمون أن الأحاديث كلها من « الظني » وأن « الظن » الذي هو الشك أو نحوه لايصلح دليلاً . وأنا أعتقد أن الأستاذ المؤلف العلامة يعرف من هذا الشيء الكثير ، ويعرف أن دلالة الأحاديث الصحيحة دلالة قطعية في مجموعها ، وأن اختلاف العلماء على اختلاف الروايات في بعض الشيء منها ، لا ينفي حجتها القطعية فيما دل عليه مجموعها ، ولا يبطل الاحتجاج بتفاصيلها المختلف فيها في الرواية بعد الاجتهاد في الترجيح . وقد قلت في نحو هذا المعنى في شرحي على « اختصار علوم الحديث » تأليف الحافظ ابن كثير (ص ٢٥) « والحق الذي ترجحه الأدلة الصحيحة ما ذهب إليه ابن حزم ومن قال بقوله : من أن الحديث الصحيح يفيد العلم القطعي ، سواء أكان في أحد الصحيحين أم في غيرها . وهذا العلم اليقيني علم نظري برهاني ، لا يحصل إلا للعالم المتبحر في الحديث ، العارف بأحوال الرواة والعلل » .

وأما ثالثاً : فإن الأمر بقتل المرتد عن الإسلام لم يثبت بما يسميه المؤلف العلامة « حديث الآحاد » ، وإنما هو شيء ثابت بالسنة المتواترة ، معلوم من الدين بالضرورة ، لم يختلف فيه العلماء ، أعني لم يختلفوا في أن « المرتد يقتل » ، أعني أنهم لم يختلفوا فيما يسميه الناس في اصطلاحهم اليوم « المبدأ » وإن اختلفوا في بعض التفصيل ، تبعاً لاختلاف النظر في التطبيق ، تطبيق « المبدأ » على الفروع ، وتطبيقه على الحوادث .

نعم ، إن الدستور المصري نص على « حرية الأديان » ففهم الناس أن قصد

واضعيه إباحة الردة عن الإسلام لمن شاء وحماية المرتدين ، ثم صار هذا كالعقيدة البديهية عندهم ، حتى صاروا يرون غيرها منكراً ، يعرفون المنكر ، وينكرون المعروف ، فأظن أن الأستاذ المؤلف ، وهو يلقي هذا الكتاب دروساً على خريجي كلية الحقوق (طلبة الليسانس) أراد أن يتألفهم ويقرب إليهم أحكام الشريعة حتى لاينفروا منها ، فغلبه ما أراد من ذلك ، ليجمع بين ما ورد من الأحاديث في قتل المرتد ، وبين ما قرره الدستور طبقاً لمبادئ «التشريع الحديث» ! التي تأكد ضربها على بلادنا بما جاء في معاهدة «منترو».

وإن الأستاذ المؤلف العلامة لأجل في نفسي وأعلم ، من أن أظن به أنه لم ير الأحاديث الصحيحة التي وردت في ذلك ، ولم يقرأها في مصادرها من دواوين الحديث ، فيما تلقى من شيوخه وأساتذته كما تلقينا ، وفيما قرأ لطلابه ومريديه كما يقرأ شيوخ العلم وأساطينه . ولكنه حين أراد أن يكتب هذا البحث ، وجهه حرصه على تألف طلابه ورغبته في إقناعهم بفضل التشريع الإسلامي وجهة أخرى ، أنسته شيئاً كثيراً ، وهو العالم الباحث الواسع الاطلاع .

ولقد جاء هو في كتابه (ص ١٢٨) في نصوص النهي عن القتل بحديث من الأحاديث الواردة في قتل المرتد ، قال : «ومن الأحاديث قوله صلى الله عليه وسلم : لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة» وهذا حديث عبد الله بن مسعود في البخاري وغيره .

وقد جاء في معناه أيضاً حديث عثمان بن عفان ، حين ثار به الثائرون وحصروه وأرادوا أن يقتلوه ، فقال : «وبم يقتلونني ؟ إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لايحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : رجل كفر بعد إسلامه ، أو زنى بعد إحصانه ، أو قتل نفساً فيقتل بها . فوالله ما أحببت أن لي بديني بدلاً منذ هداني الله ، ولا زنيت في جاهلية ولا في إسلام قط ، ولا قتلت نفساً ، فبم يقتلونني ؟» . وأظن أن هـذا صريح وواضح في أن عثمان ومن سمعه من الصحابة ، وهم عرب يفهمون كلام العرب على وجهه ، وهم الذين حضروا التشريع وفهموا مقاصد رسول الله وأسرار الشريعة : فهموا أن الردة عن الإسلام وحدها موجبة لقتل المرتد ، فما يظن واحد منهم أن عثمان كان خارجاً على الدولة محارباً للمسلمين ! وهو رئيس الدولة والذين حرصوا على قتله هم الخارجون المحاربون .

ومن ذلك أيضاً حديث أبي موسى الأشعري إذ بعثه رسول الله والياً على اليمن ، ثم

أتبعه معاذ بن جبل « فلما قدم عليه قال : انزل ، وألقى إليه وسادة ، وإذا رجل عنده موثق ، قال : ما هذا ؟ قال : هذا كان يهودياً فأسلم ، ثم راجع دينه فتهوّد ، قال : لا أجلس حتى يقتل ، قضاء الله ورسوله ، فقال : اجلس ، نعم ، قال : لا أجلس حتى يقتل ، قضاء الله ورسوله ، ثلاث مرات ، فأمر به فقتل » . وهذا حكم بين كان في حياة رسول الله .

٧ ــ تحدث المؤلف الفاضل في أحكام القصاص فيما دون النفس (ص ١٨٣ ــ ١٩١) في بحث نفيس ، انتهى منه إلى أن الأمة اتفقت « من لدن النبي صلى الله عليه وسلم على مشروعية القصاص في الجروح ، ثم تلاحقت أجيال الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين على مشروعيته ، من غير أن يعلم مخالف فيه أو منكر له » وهو كلام حق لا شك فيه . ولكنه في ثنايا استدلاله كاد يناقض ما قاله في آخره ، وعلل حديثاً صحيحاً تعليلاً غير صحيح . فإنه ذكر قوله تعالى : « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين » إلى آخر الآية ٤٥ من سورة المائدة ، ثم استعرض الآيات التي جاءت فيها هذه الآية قبلها وبعدها ، ثم قال : « من هذا العرض يتبين أن ماجاء عن القصاص فيما دون النفس إنما هو تشريع لأهل التوراة ، وقد اتفق العلماء على أنه لم يلحقه في القرآن تقرير ولا نسخ ، وبذلك كانت من جزئيات المسألة الأصولية التي إختلفت فيها العلماء ، وهي : « شرع من قبلنا شرع لنا » إلى آخر ما قال .

فهذا كلام موهم ، أعني قوله : « وقد اتفق العلماء على أنه لم يلحقه في القرآن تقرير ولا نسخ » . فإن القول الصحيح عند العلماء : أن شرع من قبلنا إذا حكاه الله لنا عنهم ، كهذه الآية في القصاص ، لا يكون شرعاً لنا إلا إذا لحقه تقرير في شرعنا ، أي إقرار العمل به من الشارع ، وليس من الصحيح اشتراط أن يكون هذا التقرير في القرآن ، ولكن المؤلف العلامة ذكر كلمة « في القرآن » في ثنايا كلامه طرداً لرأيه في هذه المسائل على وتيرة واحدة ، بما ذهب إليه أو لمح له مراراً من عدم الاحتجاج بالأحاديث إلا فيما يرى هو أنها فيه موضع حجة . وقد ذكر المؤلف نفسه في هذا البحث من السنة حديث أنس بن مالك الذي فيه « كتاب الله القصاص » ثم عقب عليه ص ١٩٠ بأشياء يظن أنها إضعاف للحديث ، وما هي بتضعيف ، والحديث صحيح لا شك في صحته ولا يعيبه ما يذهب إليه المؤلف الجليل من أنه « حديث آحاد » فإنه حتى الذين يحاولون الطعن في « أحاديث الآحاد » لم يخالفوا في أن الحديث الذي يوافق القرآن حجة مبين للقرآن . وهذا حديث موافق للقرآن ، يأمر بالقصاص في السن التي كسرت ، ويقول

« كتاب الله القصاص » ، فهو لم ينشئ حدا جديداً ، وإنما هو إقرار لعقوبة ثبتت بالقرآن حكاية عن شرع من قبلنا ، فلا يدخل في إنكار « كثير من الأصوليين صحة الاستدلال به على مشروعية العقوبات كالحدود والقصاص » !! كما يقول المؤلف ص ١٩١ .

ثم جاء إجماع الأمة ، أو « اتفاقها » كتعبير المؤلف مؤيداً للحديث مصححاً له في إقراره هذا الحكم من شرع من قبلنا . فهو تواتر عملي قطعي الثبوت والدلالة على صحة هذا الحكم بالنص ، لا باجتهاد المجتهدين ، ولا باستنباط المستنبطين .

وبعد : فهل لي أن أطلب إلى الأستاذ المؤلف ، إذا ما أعاد طبع كتابه ، أن يعنى عناية كثيرة بتصحيحه ، فإني أظن أن هذه الطبعة جاءت على عجل ، لحاجة الطلاب للاستذكار .

وأهم من هذا : التوسع في ذكر المراجع والمصادر ، والإشارة إلى مواضع الاستدلال أو الاقتباس منها ، فائدة للطلاب أولاً ، فإنهم سيلجؤون ، إذا ما وجدوا وقتاً للبحث ، إلى كتب لم يكن لهم بها عهد ، فمما يحبب البحث إليهم ويرغبهم فيه ، ويشوقهم إلى هذه العلوم العالية ، أن ييسر لهم سبيل الرجوع إليها في مصادرها الصافية ، كتب الأئمة والعلماء . ثم هذا الزمن ، الذي يعيش فيه الناس على أعصابهم ، وقد جنوا بجنون السرعة ، لا يكاد الباحث يجد فيه متسعاً للتنقيب بدقة عن كل ما يريد . فمن الخير أن يكون الكتاب الحديث مرشداً لقارئه وهادياً .

أحمد محمد شاكر

التعريف

تاريخ المساجد الأثرية التي صلى فيها فريضة الجمعة

حضرة صاحب الجلالة الملك الصالح فاروق الأول

تأليف الأستاذ حسن عبد الوهاب

جزآن : الأول ٤٣٢ صفحة . والثاني لوحات أثرية من صور المساجد وأجزائها ١٨٢ صفحة فيه ٢٧٥ لوحة . دار الكتب المصرية . القاهرة ١٩٤٦

بارك الله في « الفاروق » الملك ، عامراً مساجد الله ، راعياً للعلم والعلماء . فهذا الكتاب نفحة من نفحاته .

استن — أطال الله بقاءه — سنة صالحة : يتخير المساجد الأثرية ، التي فيها بدائع الهندسة ، وروائع الفن — وهي في بلادنا كثر — ليؤدي فيها صلاة الجمعة ، ويصدر أمره الكريم ، بإصلاح ما يحتاج منها إلى إصلاح ، إبرازاً لمحاسنها ، وحفظاً لدلائلها التاريخية ، ثم يصلي فيها محفوفاً برعيته المحبة المخلصة المكرمة .

وقد سجل الأستاذ حسن عبد الوهاب هذه الزيارات المباركات في كتاب ، هو هذا الكتاب . والأستاذ المؤلف من ثقات علمائنا في الآثار العربية والإسلامية وفي تاريخ مصر وآثارها .

فكان تكريماً ملكيًّا سامياً أن صدر أمر صاحب الجلالة بنشر هذا الكتاب متوجاً باسمه الكريم ، مشمولا برعايته وعنايته . وكان ذلك عطفاً شاملا للعلم والعلماء ، كعهد الناس بالملك « الفاروق » أيده الله .

وحوى الكتاب تاريخ ٦٧ مسجداً من المساجد الأثرية ، هي « أهمها وأكبرها، وجمعت بين المسجد الجامع ، والمدرسة ، والخانقاه . وتنوعت فيها العمارة الإسلامية في عصورها المختلفة بمصر ، تنوعاً يساعد الباحث على الوقوف على تطور تصميماتها ، وزخارفها ، وتفاصيلها العمارية » كما يقول الأستاذ المؤلف .

وفي الكتاب تمهيد في نشأة المساجد ، وفي الفرق بين المسجد والجامع ، وأن « الجامع » إنما هو وصف للمسجد الكبير الذي تصلى فيه الجمعة ، يقال له « المسجد

الجامع » ثم استعمل الناس الصفة دون الموصوف لفظاً . وتحدث فيه عن نشأة المدارس بمصر ، وهي في أصلها أماكن للدراسة والعبادة ، تكون مدارس ، وتكون مساجد .

وقد حلى الكتاب برسوم وصور لبعض ما في المساجد التي يؤرخ لها ، وضعت في أثناء تاريخها إيضاحاً وبياناً ، وهي غير الصور المفردة التي خصص لها الجزء الثاني منه . وبهذه وتلك صار الكتاب تحفة فنية جليلة ، تنبئ عن أناقة ودقة في الطبع والإخراج .

والمؤلف يسهب إسهاباً محبوباً في مواضع الحاجة إلى الإسهاب ، حتى لا يدع القارئ في حاجة إلى مزيد إلا ما أثر عن طالب العلم من النهم فيه .

ومن تحقيقاته المستفيضة في الكتاب نفيه أن النبي دانيال مدفون بالإسكندرية في المسجد المعروف بها المسمى باسمه ! ثم نفيه أن يكون الإسكندر المقدوني مدفونا في موضع هذا المسجد ، كما يزعم كثير من علماء الأثريات .

والفكرة التي بني عليها الكتاب « تاريخ المساجد » أمنية حبيبة إلى قلب كل عربي ، وقد حقق الأستاذ المؤلف بعضها ، أو حقق أهم ما فيها تقريباً . وحبذا لو سار على هذا النمط البديع فأرخ لسائر المساجد بالقاهرة وغيرها ، إذن لأفاد العلم والتاريخ فائدة كبيرة .

أحمد محمد شاكر

صفحات مطوية

تأليف معالي الأستاذ أحمد لطفي السيد باشا

٢٨٠ صفحة من القطع الكبير . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة ١٩٤٦

ومن أقدر من معالي أحمد لطفي السيد باشا — أستاذ الجيل — على نشر هذه « الصفحات المطوية » من تاريخ الحركة الاستقلالية في مصر ؟ . . . ومن أجدر منه بالحديث عن الانقلاب الفكري في السياسة الوطنية ، وهو الذي لزمه منذ مولده ، وشارك فيه بالنصيب الأوفى ؟ فلقد اشتغل معاليه بسياسة البلاد منذ أن كان طالباً . وهذه الصفحات المطوية ، التي طالعنا بها أخيراً هي خلاصة آرائه في السياسة المصرية من أوائل سنة ١٩٠٧ — وهي السنة التي تألف فيها حزب الأمة ، وظهرت فيها صحيفة « الجريدة » — إلى سنة ١٩٠٩ . وهذه المدة — على قصرها — هي عهد الانقلاب الفكري الذي تميز فيه الاتجاه الاستقلالي في سياسة مصر الوطنية .

ولنشر هذه الصفحات المطوية أثر بالغ وشأن عظيم في السياسة وفي التاريخ وفي هداية الأجيال المقبلة إلى ما مرت به المسألة المصرية منذ الاحتلال البريطاني لهذه البلاد ،

فنحن قلما نقف على شيء من أسرار هذا الاحتلال ، وما تبعه من حوادث وأحداث إلا في الكتب الأجنبية ، وهي تواليف قد يجانبها الصواب في أكثر ما تذكر ، لأن المطامع الاستعمارية هي التي أملتها ، فكان مؤلفوها يهدفون إلى غرض واحد ، هو تقوية المصالح الأوربية في مصر ، مع أن الحياة السياسية في ذياك العهد قد ازداد تنافرها ، وتشعبت نواحيها ، مما يوسع أمام المؤرخ ، أو كاتب المذكرات ، مجال الكتابة والتفكير والتعليق .

لقد قيل إن مصطفى كامل ترك رسائل ، وإن محمد فريد خلف مذكرات ، وإن سعد زغلول كتب حوادث الثورة ؛ ولكن عامة المصريين لم يعلموا شيئاً عن هذا كله ولم يستفد منه الشباب الناشئ فائدة ما ؛ لأن الذين وقعت في أيديهم هذه الرسائل والمذكرات ضنّوا بها ولم يحاولوا نشرها . فإذا كان معالي أحمد لطفي السيد باشا قد جلا بصفحاته المطوية غامض فترة من فترات هذه النهضة ، وكشف الستار عن بعض أحداثها فلا شك أنه سينال تقدير الأجيال المقبلة ، مثلما نال تقدير تلاميذه أبناء هذا الجيل .

على أننا لا نزال ننتظر من معاليه أن يوالي نشر مذكراته السياسية ، فحياة السياسيين والمشتغلين بالمسائل العامة وبالإصلاح الاجتماعي ليست لهم وحدهم ، بل إن للأمة فيها نصيباً أي نصيب .

الرسالة الخالدة

تأليف سعادة الأستاذ عبد الرحمن عزام باشا

٢٢٨ صفحة من القطع الكبير . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٤٦

مشكلة السلم مشكلة مزمنة ؛ حار الساسة في حلها ، والكشف عن عللها ، وإيجاد علاج لها ؛ وحاولوا جهدهم القضاء على هذا الشذوذ والاضطراب العالمي ، والوصول بالعالم إلى حياة يشملها السلام ، ويعمها الإخاء والهدوء . ولقد كانت عصبة الأمم أحد مظاهر هذه المحاولات ، التي تطلع إليها الناس ظانين أنها علاج حاسم لمشكلة الحرب والسلم ، فقابلوا تأسيسها بما قابلوا به كشف «البنسلين» من أمل قوي ورجاء خلاب ، غير أنها خيبت ظن المتفائلين ، ولم تنفع إلا في إطالة ألم المريض ، واستمرار حالة التوتر والقلق وعدم الاستقرار .

وها نحن أولاء نشاهد — في أعقاب هذه الحرب الأخيرة — محاولات عدة تبذل لإيجاد السلام ؛ فهذه مواثيق براقة تعلن ، وهذه مؤتمرات دولية متوالية يُدعى

إليها ، وهذه هيئات عالمية تجتمع ثم تنفض ، والعالم لمّا ينل شيئاً مما يطمع فيه من سلام وأمن .

فلا بد إذاً من النظر بجد لالتماس الهدى في غير هذه المؤتمرات والمواثيق والجمعيات . فهل نجد هذا السلام المنشود في « الرسالة الخالدة التي تعاقب رسل الله على الدعوة إليها ، وجاء بها إبرهيم وموسى وعيسى ومحمد ؟ » ذلك ما أراد سعادة عبد الرحمن عزام باشا ، الأمين العام لجامعة الدول العربية ، الكشف عنه في كتابه الأخير « الرسالة الخالدة » ، فهي « بحث في رسالة الله الواحدة الخالدة على مدى الأزمان واقتباس من هداها في الاجتماع والسياسة والحرب والسلم والعلاقات الدولية لإزالة أسباب الاضطراب العالمي ، وإمداد الحضارة بسند روحي ، وإقامة نظام عالمي جديد » . وما أشد حاجة هذه الحضارة إلى ذلك السند من القوى الروحية والمعنوية يمسكها ويوجهها للخير العام ، ويحدّ من حوافز السيطرة والأثرة والظهور .

وإن من حسن التوفيق أن يصدر عزام باشا بحثه هذا في وقت أحوج ما يكون الناس فيه إلى هدى ينير لهم طرق العيش بسلام بعد أن دمرتهم الحروب والآلام . وحبذا لو أتيح لإحدى الهيئات الداعية للسلام ترجمة هذا الكتاب النفيس ليصل إلى أيدي الجيل الناشئ ، من مختلف الأجناس ؛ فيتعاون أبناؤه على إقامة عالم جديد مستظل بلواء الحق والعدل ، متجه نحو عالمية واحدة تباركها يد الله ويرعاها رضاه .

عربة التفاح — مسرحية

تأليف برنردشو — ترجمة الأستاذ محمد عوض إبرهيم بك

١٧٦ صفحة من القطع المتوسط . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٤٦

صراع سياسي حي يدور حول السلطات المختلفة المحركة للدولة : الملك والوزراء والبرلمان والشعب ورجال المال ، وما يتصل بذلك من مذاهب متعارضة نشهدها هذه الأيام ، كالديمقراطية والاشتراكية والشيوعية .

ولقد كان من نتيجة هذا الصراع قبل الحرب الأخيرة أن تنازل ملك إنجلترا عن الحكم وأصبح دوق وندسور لأسباب منها أنه تزوج أمريكية . وهذه المسرحية تشير إلى تلك الحادثة وتعارض النتيجة التي انتهت إليها معارضة صريحة .

يقول مجنَس ، وهو الملك : إني أعتزم ترشيح نفسي عن دائرة وندسور في الانتخابات العامة المقبلة .

ويدور الحوار الأساسي حول هذا الموضوع : رغبة الوزراء في أن يبتعد الملك عن الاشتراك في الأعمال السياسية . فلما ضيق الوزراء على مجنس الخناق ، باسم الدستور والديمقراطية ، أجابهم :

مجنس : الأمر يسير لأن الرجل الأمين عند ما يجد من نفسه عدم القدرة على القيام بأعباء وظيفة عامة يستقيل منها .

كراسس (وزير المستعمرات) : إن الملك لا يمكنه أن يستقيل .

مجنس : إن الملك لا يمكنه أن يستقيل ، ولكنه يستطيع التنازل عن العرش .

سائر الوزراء : تتنازل !

بليني (وزير المالية) : إنك تعلم أنك لا تتكلم كلاماً جديا .

نكوبار (وزير الخارجية) : إنك لا تريد أن تقلب « عربة التفاح » فيختلط الغث بالسمين .

والمعنى الذي يرمي إليه برنرد شو من انقلاب عربة التفاح ، واختلاط الغث بالسمين هو نزول الملك إلى مصاف الشعب ، وهو أمر لا يريده ولا يقره ، لأن الديمقراطية وهي حكم الشعب للشعب بالشعب ، شيء مثالي يستحيل تحقيقه . هناك حكام ومحكومون . ولا يمكن أن يكون كل فرد من أفراد الشعب حاكما . ولو ارتفع أحدهم إلى منصب الحكم — مثل (بونرجس) وزير التجارة — ما أحسن القيام به ، لأنه لم يتدرب على ذلك . ثم إن الحكم فن لا يتقنه إلا القليلون . فتأليف المسرحيات مباح لجميع الناس إلا أن القليلين جدا هم الذين يقدرون عليه ، وكذلك صناعة الحكم لا يحسنها إلا طبقة خاصة .

وبرنردشو يتشيع للملكية ، ويبين كيف تغلب الملك المعين بالوراثة ، على رئيس الوزراء المنتخب من الشعب ، حين حاول رئيس الوزراء منع الملك من التأثير في الرأي العام بنشر مقالات في الصحف ، أو الإدلاء بأحاديث عامة ، حتى يسلب منه السلطان . فكان جواب الملك الأخير إنه يؤثر التنازل عن العرش على الحكم بغير سلطة . فتمسك الوزراء به .

هذه هي المسرحية التي جلاها لقراء العربية الأستاذ محمد عوض إبرهيم بك وكيل وزارة المعارف سابقاً فكان حلقة جديدة أضافها إلى سلسلة من الترجمات الرفيعة التي توفر على اتحاف المكتبة العربية بها في الآونة الأخيرة .

ديكارت

(طبعة ثانية) تأليف الدكتور عثمان أمين

٣١٢ صفحة من القطع المتوسط . دار إحياء الكتب العربية . القاهرة ١٩٤٦

تقرأ في مقدمة المؤلف لهذه الطبعة أنه أجرى تعديلات وزيادات ، فوسع الفصل عن شخصية ديكرت ، وأرجأ باب تأويلات الفلسفة الديكرتية ، وأضاف فصلا جديداً عن ديكرت والمجتمع ، ووسع باب أثر الفلسفة الديكرتية كما أضاف كثيراً من الهوامش والمراجع والتعليقات . .

وهذا كله دليل على أن الدكتور عثمان أمين مدرس الفلسفة بجامعة فؤاد ، يتصف حقيقة بخصال العلماء المتثبتين : التواضع والدأب والترقي . وهو دؤوب لأن الآثار العلمية لا تكتب في يوم وليلة كما تكتب مقالات الصحف ، ولكنها تحتاج إلى سعة المراجعة وطول التأمل وكثرة البحث ، إلى جانب ما يفعله الزمن من صهر المعاني ، وتمثيلها في الذهن ، فتخرج الفكرة ناضجة حية ، لأنها تعيش ما عاش صاحبها وتنمو معه ، ولكنها لا تموت . وأكبر الظن أن المؤلف حين يطبع ديكرت مرة ثالثة فسوف يضيف أشياء جديدة رآها في ذهنه ، أو اطلع عليها في بحثه . ذلك أن ديكرت ، وهو بحق « أبو الفلسفة الحديثة » لا يخلص الغربيون من دراسته ، فيطالعك في كل عام كتاب جديد يتناول ناحية لم يطرقها أحد من قبل . وهذا دليل على منزلة الفيلسوف وبالغ أثره في الفكر الإنساني .

ومن الفصول الجديدة في الكتاب فصل عن الاجتماع ، لمّ المؤلف عناصره من تضاعيف كتابات ديكرت ورسائله الخاصة ، فأثبت رأيه عن كتاب ديكرت إلى الأميرة إليزابث عام ١٦٤٥ ، وفيه : «أنه ينبغي أن يعلم كل واحد منا أنه وإن كان شخصاً منفصلا عن الآخرين لا يستطيع أن يعيش وحده ، وأنه في الواقع جزء من أجزاء الكون وهو على الخصوص جزء من أجزاء أرض بعينها ، ودولة بعينها ، وجماعة بعينها ، وأسرة بعينها ... » وهذه نظرة جدير بالمشتغلين بعلم الاجتماع أن يرجعوا إليها ويتأملوها بل يأخذوا بها .

ومن الصفات التي يلمسها قارئ كتب الدكتور عثمان أنه يحب من يكتب عنهم ، فيقف منهم موقف المدافع ، وهي صفة تجدها كذلك في كتب الأستاذ عباس محمود العقاد . وهذا سر من أسرار الحياة في التأليف . جرى عثمان أمين على هـذا

النحو حين عالج فلسفة محمد عبده وآراءه . وتراه هنا يرفع ديكرت على رأس الفلاسفة المحدثين جميعاً ، وأن فلسفته « جاءت حقا فاتحة لعصر جديد له طابعه الخاص » . ولم ينتظر المؤلف أن ينهض له أحد المعترضين فيقول له : إن عصر النهضة كان حافلا بالفلاسفة ، وأن بيكون كان معاصراً لديكرت ، وبيكون علم من أعلام الفلسفة الحديثة . ذلك أنه وازن بين ديكرت وبيكون (ص ٢٥٤) فرأى أن بيكون « لم يتحرر كل التحرر من تصورات أهل القرون الوسطى وظنونهم وأوهامهم . . . ولم يعالج المسائل التي تتصل بأسس العلم ، ولا بالشروط الواجب توافرها فيه ، ولا علاقة العلم بالحقيقة ، ولا علاقته بالذهن البشري . . . »

والطريف في ديكرت أنه على عمقه غاية في الوضوح ، فقد جعل الوضوح شرطاً من شروط الفكر السليم . ولهذا السبب لا يجد القارىء المتوسط عسراً في فهم فلسفته ، وبخاصة لأن ديكرت لا يفتأ يضرب أمثلة شخصية تزيد الوضوح وضوحاً وتكسب آراءه مسحة أدبية ، ولقد كان عثمان أمين ديكرتي النزعة لأن كتابه جمع بين المنهج الواضح والفكر المستقيم .

صَدَى النّقد

حضارة العرب

ردٌّ على رد

بقلم الأستاذ عادل زعيتر

يدور ردُّ الأستاذ اللبابيدي حول زعمه أننا سرنا على خطة مرسومة في ترجمة الكتاب على وجه يرضى به العرب والمسلمون ، وقد كرر هذا الزعم غير مرة على وجه غير محبب لذوي الأمزجة السليمة وذلك :

١ — أن السيد اللبابيدي لا يزال يرى أننا حذفنا قول لوبون : إن القرآن نزل من الله على محمد ، وإن القرآن ضعيف الارتباط بعضه ببعض . لأن حضرته يرى ترجمة كلمة (révéler) بالإيحاء وترجمة كلمة (incohérent) بضعف الارتباط ، وقد ترجمنا الكلمة الأولى بالتنزيل ، والثانية بقلة الترتيب ، فرأى الخلاف بين رأينا في ترجمة تينك الكلمتين وبين رأيه في ترجمتهما مساوياً للحذف ، فزعم وجود الحذف فعلا ، مع أن شيئاً مثل هذا لم يقع ، فأما ترجمة كلمة (révéler) بالتنزيل بدلا من الإيحاء فنراه موافقاً عليها في

رده ، وأما ترجمة كلمة (incohérent) بعدم الترتيب فلم يتعرض لها ، وإن دل كلامه على عدم موافقته عليها ، بدليل إصراره على زعمه بعدم وجود ترجمة لتلك الكلمة في النسخة العربية .

فهل يجد حضرته في الأصل الفرنسي كلمة ترجمناها بقلة الترتيب غير كلمة (incohérent) ؟ وهل من ضير في ترجمة هذه الكلمة بقلة الترتيب ، وسياق كلام المؤلف يدل عليه ؟ ألم يقل المؤلف : « وسبب قلة ترتيبه أنه أنزل بالتدريج تبعاً لمقتضيات الزمن ... » ؟ أليست هذه الترجمة أكثر ملاءمة لسياق كلام المؤلف ؟ أم يظن أن المترجم آلة جوفاء وأداة صماء ، ينحصر عمله في النقل كالببغاء ، فلا يحق له أن يترجم عن فهم وهضم الموضوعات ، ولا أن يقدم كلمة ويؤخر أخرى ، ولا أن يحذف كلمة مكررة بحسب أسلوب لغته وسياق لسان أمته ؟

لقد خيل للسيد اللبابيدي أن ما كان من تقديم وتأخير في كمات تلك الجملة مساو لحذفها ، فكان ما زعم . والآن نراه يدعي أن تلك جملة مكررة حذفناها ، مع أن كلمة التنزيل قد جاءت مكررة في الترجمة العربية تكراراً متتابعاً .

على أن تمسك الأستاذ اللبابيدي بأننا حذفنا « ومع أن القرآن قد نزل وحياً من الله على محمد » ينقض نظريته بأننا سرنا في ترجمة كتاب « حضارة العرب » على خطة مرسومة لإرضاء العرب والمسلمين ويدكها من أساسها ، فأي شيء يرضي المسلمين أكثر من أن يترجم لهم قول فيلسوف كالعلامة لوبون : « إن القرآن قد نزل وحياً من الله على محمد » ؟ فإذا كنا قد حذفنا هذه الجملة ، كما يزعم السيد اللبابيدي ، فهل فعلنا ذلك إرضاء للعرب والمسلمين ؟ ! !

فالحقيقة هي أنه لا حذف ولا تنقيص ، والأستاذ الناقد لم يذكر لنا كيف يمكن « القارئ اللبيب أن يفهم روح المؤلف من عبارته المحذوفة التي تعمد المعرب حذفها » ، فهل يفهم من هذه العبارة المزعوم حذفها أن المؤلف يعتقد أن القرآن قد نزل وحياً من الله على محمد بالحقيقة ؟ أم يفهم منها أن المؤلف قصد بها التعبير عما يدور في قلوب المسلمين ، لا عما يعتقده هو ، كما ذكرت ذلك في ردي الأول ؟

ب — يقول الأستاذ اللبابيدي في نقده الأصلي: «إن النبي محمداً ليس فيلسوفاً ولا من نمط الفلاسفة ، وشخصيته لا يمكن أن تقارن بشخصية الفيلسوف » ، وسأل عن سبب حذفنا في الصفحة ١٣٠ عبارة المؤلف في نفي صفة الفيلسوف عن النبي ، فذكرنا له في ردنا أننا أوردنا التفسير الذي أراده المؤلف ، فبقي رأي المؤلف كما هو في الكتاب.

والآن يزعم السيد اللبابيدي أننا حذفنا جملة تتعلق برأي المؤلف في الموازنة بين محمد من جهة وبراهما وبوذا المؤسسين لديانتين شرقيتين من جهة أخرى .

وإني قبل أن أرد على الأستاذ اللبابيدي في ذلك أصحح له رأيه بوجود مؤسس لديانة يقال له براهما ، فبراهما إله ينسب إليه دين البراهمة ، لا مؤسس ديانة ، وتجد تفصيلا للبراهمية في شريعة مانو .

فلوبون لم يقصد في كتاب « حضارة العرب » أن يقابل بين مؤسسي دين البراهمة أو البوذية من جميع الوجوه ، وإنما قصد أن يبين أن الرسول ليس من نمط مؤسسي دين البراهمة والديانة البوذية في النظر إلى الكون فقط ، فيرى لوبون أن الرسول لم ينكر سبب الأسباب كما أنكره البوذيون فقال : «لم يكن محمد من نمط مؤسسي دين البراهمة أو الديانة البوذية في النظر إلي الكون ، فهو لم ينكر سبب الأسباب كما أنكره البوذيون ، ولم يقل مثلهم بأن الكون موجود بالضرورة ذو انحلال وتركيب دائمين ؛ ونصوص القرآن قاطعة بعيدة من الشك ، خلافاً لكتب البراهمة المقدسة التي جاء فيها : " من أين أتى هذا الكون ؟ وهل هو من صنع خالق أو لا ؟ يعلم ذلك من ينظر من فوق الفلك ، وقد لا يعلم"... ولكن أقوالا مجردة مثل تلك لا تنفع غير الفلاسفة . . »

ومن ثم ترى أن رأي العلامة لوبون قد ترجم كما هو ، ولا يضير في ذلك أن تقتصر الترجمة على التفسير الذي قصده المؤلف ؛ وأما أن يجسم الناقد المسألة ويستنبط منها أبعد النتائج التي لا تمت إلى موضوع الكتاب بصلة ، فيرفع عقيرته بغير حق ، فما يؤاخذ عليه .

ولذلك كان من تجني الأستاذ اللبابيدي قوله عند البحث في الاقتصار على ذلك التفسير : « إن المعرب يسير على خطة مرسومة لإخراج الكتاب خالياً من هذه المخدشات » . أفلا ترى في ترجمتنا لتلك الأقوال التي قصد المؤلف أن يبين فيها تعمق مؤسسي تينك الديانتين في تلك المسألة على خلاف صاحب الشريعة الإسلامية ما يخدش إحساس العرب المسلمين ؟ إذن أين الخطة المرسومة التي سرنا عليها في ترجمة الكتاب علي وجه يرضى به العرب والمسلمون ؟

ح — أجل إن العلامة لوبون قد أورد الكلمتين : « المنطق » و « الترتيب » على أنهما مترادفتان . ودليلنا على ذلك كون المؤلف فسر « عدم الترتيب » وحده في الجملة التي وردت بعد ذكره لهما ، ولم يفسر «المنطق» فقال : «وسبب قلة ترتيبه أنه أنزل بالتدريج تبعاً لمقتضيات الزمن » ، فلو كانت الترجمة « وسبب قلة ترتيبه وقلة منطقه أنه

أنزل بالتدريج تبعاً لمقتضيات الزمن » بدلا من تلك لاختلت العبارة وفسد المعنى . فعدم تفسير المؤلف لما يقصده من كلة « قلة المنطق » برهان ساطع على إيراده لتينك الكلمتين على أنها مترادفتان . وهذا إلى أن المؤلف لم يبحث في ذلك الموضع في غير أسلوب القرآن وترتيبه ، فكيف نحمله كلة لم يقصد معناها الذي قصده الأستاذ اللبابيدي ؟ أليس من الأمانة لمناحي المؤلف أن نقتصر على ترجمة الكلمة الدالة على المعنى الذي أراده ؟

وإننا لم نعتمد ، مع ذلك على اجتهادنا الشخصي في تلك الترجمة ، بل اعتمدنا في تفسير كلة (Logique) على ما جاء في قاموس الآباء اليسوعيين ، فقد جاء في هذا المعجم أن من معاني كلة (Logique) : «تتابع وسياق الكلام أو البراهين» ، فأما « أو » فهو حرف عطف يجيء بمعنى التخيير ، ولوبون إذ لم يرد معنى البراهين في ذلك الموضع كان الذي أراده هو « تتابع الكلام وسياقه » أي عدم الترتيب . وهذا هو الذي سرنا عليه في ترجمتنا .

ومن أغرب ما يزعمه الأستاذ اللبابيدي أن يقول إن كلة « المنطق » لا تحتمل معنيين أحدهما فني والآخر غير فني ؛ فأما المعاني غير الفنية فجميع المعاجم وكتب اللغة مملوءة بها ، وليس قاموس الآباء اليسوعيين منا ببعيد ، وأما المعاني الفنية فهي لا تزال موضوع بحث وجدل منذ زمن أرسطو ومنذ زمن بيكن إلى يومنا هذا ، وما اصطلح عليه الدكتور لوبون من أنواع المنطق في كتاب « الآراء والمعتقدات » دليل واضح على ذلك . فالحق أن العلامة لوبون لم يقصد بكلمة (Logique) في « حضارة العرب » غير عدم الترتيب كما ذكرت آنفاً ، ولا شيء في مقدمة كتاب « الحضارات الأولى » (Les Premières Civilisations) الذي هو أمامي الآن ما يؤيد قول الأستاذ اللبابيدي ، فلا يكاد الدكتور لوبون يلمس في تلك المقدمة مسألة المنطق إلا لمساً خفيفاً ، وهو غير مؤيد لما ذهب إليه السيد اللبابيدى لا في قليل ولا في كثير ، كما أن إشارة السيد اللبابيدي إلى ما جاء في مادة « قرآن » من دائرة المعارف الإسلامية تخرجه عن الصدد كما خرج عنه في المسائل الأخرى .

وهنا يتحمس السيد اللبابيدي فيزعم أننا طوينا ، تبعاً لخطة مرسومة ، قول المؤلف الذي ترجمه بعبارته البادية العُجمة : « إنه بفضل اتصالات محمد بالملاك جبريل ، كان ينزل الوحي من جديد لإنقاذ محمد من الارتباك ، في كل الأوقات التي كانت تبرز فيها إحدى الصعوبات» . أفلم يقرأ في الصفحة ١٢٩ من الترجمة « أن القرآن أنزل بالتدريج

تبعاً لمقتضيات الزمن وحلا لما كان يعترض محمداً من المصاعب والمشكلات » ؟ أفلم يعلم كل مسلم، أن جبريل هو واسطة الوحي والتنزيل ؟ ألم يقرأ قول الله : « وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين » . ألا يعرف أن « الروح الأمين » هو « جبريل » ؟ ألا يرى في عبارتنا المترجمة المنسجمة مايفيد المعنى الذي قصده المؤلف ؟ فماذا طوينا من عبارة المؤلف المذكورة مما يخدش إحساس المسلمين ؟ أيود أن نترجم كلمة (embarras) بكلمة « الارتباك والمصاعب » بدلا من كلمة « المصاعب والمشكلات » التي جئنا بها ؟

د — أوافق السيد اللبابيدي على قوله : « ليس من شأن المعرب أن يؤدي المعاني فقط ، بل عليه أن يحافظ على أسلوب المؤلف ما استطاع » ، لأن هذا ما صنعناه، فإذا ما تعارض المعنى الذي قصده المؤلف وترجمة أسلوبه الحرفية ، كان العدول إلى تأدية المعنى أولى . ويظهر أن الأستاذ اللبابيدي يوافقنا ، ولو من طرف خفي ، على أن المؤلف قصد بالمبالغة الشرقية « الغلو » ، فقد قال : « قد يكون المؤلف قد قصد الغلو ، والغلو وحده . . . ولكن هل يسمح هذا القصد ، على فرض تقديره ومعرفته ، أن يغيِّب المعربُ عن نظر القراء أسلوب المؤلف ... ؟ » فالدكتور لوبون لم يردّ بالحقيقة عدّ العرب للقرآن بأنه أفصح كتاب عرفه الإنسان إلى « مزاج الشرقيين المعروف بالغلو والمبالغة » كما ذكر السيد اللبابيدي في نقده الأصلي فسكت عنه في رده الراهن علينا ، فاقتصارنا على كلمة « الغلو » التي تعني « التشدد والتصلب حتى مجاوزة الحد » كما جاء في كتب اللغة هو لكي يقف القارئ على حقيقة ما ذهب إليه المؤلف فلا يتوهم أحد ، كالأستاذ اللبابيدي ، أن المؤلف يردّ تعظيم العرب للقرآن إلى « مزاج الشرقيين المعروف بالغلو والمبالغة ! » ، فالحق أن المؤلف أكبر من أن يهبط في تفكيره إلى الزعم بأن تعظيم العرب للقرآن هو أثر مبالغة شرقية ، وليس مما يفيد الأستاذ اللبابيدي في تأييد وجهة نظره اقتطاعه لبعض عبارة المؤلف وتركه بعضها الآخر الذي معناه « نعترف بأن في القرآن آيات بلغت الغاية من الفصاحة مما لم يسبقه إليه كتاب ديني آخر » . فلو قرأ هذه العبارة مع تلك لما خرج بغير المعنى الذي انتهينا إليه ، ولرأى أن المؤلف يرجع تعظيم العرب للقرآن وفصاحته إلى بلاغة أسلوبه وسهولة الدين الذي يدعو إليه ، وقوله بالتوحيد المحض الخالص وبالمساواة وأمره بالعدل والإحسان ومكارم الأخلاق وتأليفه بين القلوب وتسامحه، وما إلى ذلك من الأمور التي فصلها العلامة لوبون في الفصل الثاني : « القرآن » .

ولا ندري كيف يكون وقع ترجمتنا على القارئ المسلم أخف إذا قلنا أن المؤلف

يعزو عدّ العرب القرآن أفصح كتاب عرفه الإنسان إلى « التشدد والتصلب حتى مجاوزة الحد » من قولنا إنه يعزو ذلك إلى مبالغة شرقية ؟ فإذا كان الأمر كما ذكرنا فكيف يذهب الناقد إلى أننا سرنا في ترجمة الكتاب على خطة مرسومة إرضاء للعرب والمسلمين ؟

ولا أرغب في البحث هنا في سوء رأي المؤلف في القرآن من بعض الوجوه التي ترجمناها له في غير موضع في الكتاب ، فدحضنا أهمها في مقدمتنا للكتاب ، وأشار الأستاذ اللبابيدي إلى بعض آخر منها في رده علينا ، فذكر أننا ترجمناها للمؤلف ، لأن ذلك يخرجنا عن الصدد كما خرج الأستاذ اللبابيـــدي في غير موضع ، فكيف يوفق السيد اللبابيدي بين قوله هذا وبين زعمه أننا سرنا في ترجمة الكتاب على خطة يرضى عنها العرب والمسلمون ؟

هـ — ظن الأستاذ اللبابيدي في نقده الأصلي أننا ترجمنا للمؤلف قولا بأن القرآن معجز ، مع أن المؤلف لم يقل إن بيان القرآن معجز ، فالعبارة المترجمة ، وهي « والقرآن قليل الترتيب ، مع ما فيه من بلاغة أسلوب وإعجاز بيان » لا تفيد أن المؤلف يقول إن القرآن معجز ، لحرف الجر « من » هو للتبعيض ، لا للشمول ، فجاء السيداللبابيدي فجعل العبارة شاملة تأييداً لما وقر في نفسه من المزاعم ، فلما قلنا له في ردنا السابق : [لم نقصد بكلمة « والقرآن مع ما فيه من إعجاز بيان » أن نوهم القارىء بأن المؤلف يقول : إن القرآن معجز ، وكيف نقصد ذلك وقد ترجمنا للمؤلف بعد بضعة أسطر قوله : « ويعد العرب القرآن أفصح كتاب عرفه الإنسان ، ومع ما ذلك من غلو نعترف بأن في القرآن آيات بلغت الغاية من الفصاحة .. » فلو دقق الأستاذ اللبابيدي في هذا ما وهم في الأمر ، ولكان قد رأى أن المقصود من كلة الإعجاز هنا هو « القضاء بالعجب » ، لا الإعجاز الذي يقصده علماء الكلام . »] أخذ يرد علينا بقوله مفارقاً : إن ذلك قد كان بقصد إخراج الكتاب بثوب يرضى عنه العرب والمسلمون !! فهل مما لا يرضى عنه العرب والمسلمون وضعنا كلة « والقرآن مع ما فيه من بيان يقضي بالعجب أو مع ما فيه من أسلوب ممتاز » بدلا من كلة « والقرآن مع ما فيه من إعجاز بيان » ؟ وما هو الوجه الذي يسوغ له أن يستنبط منه أننا سرنا في ترجمة الكتاب على خطة يرضى عنها العرب والمسلمون ؟

ولا يزال السيد اللبابيدي يصر على أننا أردنا أن ننفي عن المؤلف رأيه الشائع في أن القرآن أثر محمد ، فترجم جملة لا تكاد تفهم ليعارض بها ترجمتنا لها بما يلائم

كلام المؤلف الذي جاء قبلها ويتساوق مع ما بعدها ، وترجمتنا هي : « وإنني أبدأ بما جاء في القرآن عن مصدره وعن قرباه الوشيجة بالكتب المقدسة التي أتت قبله » ؟ . فهل في هذه الترجمة ما ينفي ذهاب المؤلف إلى أن القرآن أثر محمد ، والمؤلف لم يذكر في هذا الصدد غير ما يدور في خلد المسلمين ؟ أفيذهب السيد اللبابيدي إلى أننا أردنا أن نوهم القارئ بأن المؤلف مسلم مؤمن برسالة محمد ؟ .

ز — أعود فأقول ، كما في ردي السابق : إن المؤلف جعل كلمة « الحب » مفسرة لكلمة «الضعف» وإن شئت فقل مرادفة لها ، فاختيارنا لكلمة «الحب» فقط ، دفعاً للالتباس ، لا يخرج عن مقاصد المؤلف البتة ، ودليلنا على أن المؤلف قصد بكلمة «الضعف» معنى «الحب» قوله في السطر نفسه : « ولم يخف محمد حبه للنساء ، فقد قال : حبب إلي من دنياكم ثلاث : الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة» ، ودليلنا الأعظم من ذلك قول المؤلف في الصفحة التالية : « وقد كان محمد قليل المسامحة نحو النساء . . .» ، فكيف تكون قلة المسامحة مع الضعف ؟ فإزاء هذه الحجة الدامغة يقول السيد اللبابيدي في رده علينا : «ما كان أحرى بالمعرب أن يترك للمؤلف ألفاظه» فكأنه لا يريد أن يكون المترجم سائراً مع أفكار المؤلف فاهماً لمقاصده موفقاً بينها وبين أسلوب اللغة المترجمة إليها ؛ وإذا كنا قد سرنا في هذا الموقف مع رأي المؤلف ومقصده ، كما رأيت ، فأين ما يسوغ لك أن تزعم أننا سرنا في ترجمة الكتاب على خطة يرضى عنها العرب والمسلمون ؟ .

ح — والأستاذ اللبابيدي ناقد قانوني قبل أن يكون ناقداً أدبياً ! فلعله عالج الفرق بين معنى « الدولة » ومعنى « الإمبراطورية » ونحن نقول ، من غير عنجهية : إننا لا نرى حتى الآن ضرراً في ترجمة كلمة (Empire) بالدولة ، وربما يسبق إلى الذهن أن كلمة « الإمبراطورية » أضخم من كلمة « الدولة » لما تنطوي عليه من غامض المعاني على زعم بعضهم ، ولكن مثل هذا الزعم لا يمنعنا من استعمال كلمة « الدوله العربية » بدلا من « الإمبراطورية العربية » على كل حال ، كما أنه لا يمنعنا من استعمال كلمة « الدولة الرومانية » بدلا من كلمة « الإمبراطورية الرومانية » ، ومن استعمال كلمة « الدولة العثمانية » بدلا من كلمة « الإمبراطورية العثمانية » ؛ وفي هذا الموضع يبلغ السيد اللبابيدي من التعسف الغاية فيقول : « إن المترجم يسير على خطة مرسومة في إرضاء ما توهمه أنه يرضي العرب والمسلمين ، لكيلا يقال إن دولتهم كانت إمبراطورية فيكون فيها منزع من منازع القيصرية » .

ط — وما بال الأستاذ اللبابيدي لا يعترف بخطئه صراحة تجاه ما ذكرناه في الفقرة (ط) من ردنا الأصلي ، فيعتذر عما صدر عنه من تغييره لألفاظ المؤلف وتعابيره ، فاكتفى في رده الحاضر بكلمته المبهمة الخاطفة :

« أما ما ذكر في هذه الفقرة فيبدو أنه وقع خطأ في تسميته عنوان الباب ، بين أن يكون الثاني أو الخامس ، ويظهر أنه الخامس لا الثاني كما ذكرنا » .

فاسمع ما قاله في نقده الأصلي : « إن المترجم تصرف بعنوان الباب الثاني الذي وضعه المؤلف هكذا (Les origines de la Civilisation des Arabes) وما تعريبه « أصول الحضارة العربية » فجعله كما شاء هواه في الطبعة العربية هكذا « مصادر قوة العرب... »

واسمع جوابنا عن نقده ذلك في ردنا الأول : « . . . فتحنا الصفحة ٧٥ من النسخة الفرنسية فوجدنا عنوان الباب الثاني هكذا : (Les Origines de la puissance des Arabes) أي ما ترجمته : « مصادر قوة العرب » ، فليقل لنا حضرته ما وجه العلة في هذا التصرف في النقد حتى حملنا وزر عمل نبرأ إلى الله منه ؟ ولكن قل هو التصرف في النقد حسب الهوى ، التصرف الكيفي في النقد أو الوهم الباطل ، أو كل ذلك معاً » .

والآن يستتر السيد اللبابيدي خلف الباب الخامس وعنوان هذا الباب الخامس هو (La Civilisation des Arabes) وقد ترجمناه في الصفحة ٤٥٧ بكلمة « حضارة العرب » فأين التصرف في الترجمة كما شاء هوانا ؟

قال الأستاذ اللبابيدي في نقده الأصلي : « لو قال المعرب إن طبع اللوحات الملونة متعذر في مصر ، لما قبل منه ، ولو احتج بكثرة النفقات التي تستتبع غلاء النسخة العربية لما قبل منه أيضاً ، ولو قبل جدلاً لما كان له عذر في أن يجعل صور الطبعة العربية كلها خاصة بفن العمارة — عدا خريطة الإدريسي ووجهي إسطرلاب ووجه إسكملة نحاسية — كأن الحضارة العربية ليست إلا فن البناء » .

والآن يقول السيد اللبابيدي : « وتقبلنا عذره سلفاً . . خلافاً لقوله : إننا ممن لا يقبل عذراً . . » فكيف نوفق بين القولين ؟

ومهما يكن الأمر فقد بينا الأسباب الجوهرية التي حفزتنا إلى الاختصار في الصور والرسوم والخرائط في ردنا الأصلي فلا لزوم لتكرار ذلك ثانية كما فعل السيد اللبابيدي ، وإنما نقول إن ما نشر من الصور والرسوم والخرائط فى « حضارة العرب » هو ما بحث فيه المؤلف رأساً في كتابه ، وما عدا ذلك فقد نشره العلامة لوبون في الغالب لتزيين الكتاب وإطلاع الأوربيين على أحوال العرب الاجتماعية

والمعاشية ، كصور البدويين والسقائين والفلاحين والمواكب وما إلى ذلك من الأمور المألوفة لدينا دون الأوربيين ، فإذا اقتضت الضرورة حذفها من الطبعة العربية لأسباب مالية واقتصادية خاصة بظروف الحرب ، فإنه لا يجوز تأخير طبع الترجمة إلى الزمن الذي يصبح إدماجها فيه أمراً ميسوراً ، بعد أن مضى على تأليف الكتاب أكثر من ستين سنة ، ولو فعلنا ما يتطلبه السيد اللبابيدي لزاد ثمن النسخة عن عشرة جنيهات ، أي لبلغ المقدار الذي نشك في أن السيد اللبابيدي نفسه يشتريها به ، والكتاب يباع اليوم بجنيه واحد فتأمل ! وقد قلنا في ردنا السابق مع ذلك : « ولا يستدل القارئ من ذلك أنني راغب عن إصدار الكتاب كالأصل الفرنسي ، وإنما أقول : ليس في الإمكان أبدع مما كان ، وما لا يدرك كله لا يترك كله » .

وليس في تجاهل السيد اللبابيدي لقيمة مقدمة المترجم المطولة ما يحط من قدرها؛ وقد وضعناها ليعرف القارئ مناحي الكتاب وخطوطه الأساسية وآراء المؤلف الجوهرية ، فلا يتورط بمثل ما تورط به السيد اللبابيدي من تصيد الهنات والتلهي بالقشور عن اللباب ، فلا يعدو نقده مزاعمه بأن هذه الكلمة خير من تلك ، وأن هذه الكلمة زائدة ، وأن هنالك كلمة تركها المترجم أو عدلها ، وما إلى ذلك من الأمور التي لا تمت إلى جوهر المسائل ولا إلى آراء المؤلف بصلة .

فالحقيقة هي أنه لم يدر في خلدنا حين ترجمنا كتاب «حضارة العرب» أن نخرجه في قالب يرضى عنه العرب والمسلمون ، كما يتوهم الأستاذ اللبابيدي ، ولا أن نثير غضبهم ، كما أشار إليه السيد اللبابيدي من حيث لايدري ؛ وإنما المسألة هي أننا من أكثر الناس مطالعة ودراسة لكتب العلامة لوبون وتفهماً لمقاصده ، وتقديراً لكون مهمة المترجمين لمثل كتبه ليس كمهمة مترجمي المحاكم وبقية الدوائر الرسمية ، فلوبون فيلسوف أديب وكاتب اجتماعي كبير ، فعلى من يتصدى لترجمة كتبه أن يكون هاضماً لمقاصده ، عاملا على إلباس ما ينقله منها إلى العربية مثل ما تحلى به أصلها الفرنسي من الروعة الأدبية .

وقد ذكرت في ردي السابق أن طريقتي في ترجمة الكتاب هي « أنها تقوم على الترجمة الحرفيه ما أمكن ، بشرط أن لا تؤثر في جمال الأسلوب ، وإلا فالعدول إلى المعنى ومقاصد المؤلف مع تهذيب في العبارة تهذيباً يقرب من الترجمة الحرفية » .

ولن تجد كتاباً ترجم إلى العربية أو غير العربية من غير أن ترى فيه حذف كلمة أو زيادة كلمة مفسرة أو تقديم أو تأخير أو دفع التباس أو ما إلى ذلك من الأمور التي يقتضيها انسجام اللغة المترجم إليها ، وهذا مع عدم ادعائي خلوّ ترجمة كتاب ضخم وسفر

جليل ككتاب « حضارة العرب » من أي خطأ ، وإنْ ترجمتُ فيه جميعَ أقوال المؤلف وآرائه ، فالأغاليط قد تكون موجودة فيها ، ولكن من غير قصد ، فمن منا لا يخطىء ؟ فتراني لذلك أردُّ بشدة ما زعمه الأستاذ اللبابيدي من أنني سرت في ترجمة الكتاب على خطة مرسومة إرضاء للعرب والمسلمين .

ولا أرى أن أقول مسهباً إنني بذلت في ترجمة كتاب « حضارة العرب » ما يزيد عن ٢٥٠٠ ساعة ، وأنني قضيت أوقاتاً شديدة وساءت صحتي في تذليل موضوعاته الطريفة الكثيرة الأصول ، ومباحثه القاسية الكثيرة الفروع ، ووضعها في قالب عربي خالص ، وأنني زهدت في كثير من أعمالي ، فحرمت بذلك أرباحاً تبلغ الألوف ، ولولا ذلك ما قال السيد اللبابيدي نفسه :

« على أن ما آخذت به المعرب ، لا يمنعني من أن أوجه إلى حضرته تقديري العظيم لشجاعته في تحمل مسؤولية إخراج هذا الكتاب الضخم ، وأن أنوه بالتوفيق الكبير الذي أصابه في تعريبه ، وباللباقة التي تناول بها نقل الكتاب ، حتى جاء وكأنه وضع بالعربية وضعاً بقلم سائغ » .

وهذا إلى أقوال أخرى لم تبخل بها علينا مجلات الأقطار العربية وجرائدها ثناء وإطراء

وختاماً أرجو من القارىء الكريم أن يقرأ ردي هذا مع ردي الأصلي فيتجلى له وجه الحق أزهر نيراً والسلام .

عادل زعيتر

مشكلة السلوك السيكوباتي

رد على نقد

بقلم الدكتور صبري جرجس

قرأت في الجزء الثاني عشر من « الكتاب » النقد الذي رأى الدكتور فؤاد الأهواني أن يوجهه إلى كتابي « مشكلة السلوك السيكوباتي » . ولي على هذا النقد بعض ملاحظات أرجو أن ألخصها فيما يلي :—

أولا : أشار الدكتور الأهواني إلى أن اللفظة التي اختارها المؤلف لموضوع الكتاب وهي « السيكوباتية » اصطلاح أعجمي في خاص . وهذا صحيح ، ولكننا آثرنا أن ننقل اللفظة الأجنبية كما هي حتى نوفق ، أو يوفق غيرنا ، إلى اللفظة العربية المناسبة لها . ولا نعتقد أننا نأتي بذلك بدعاً ، فإننا لا نرى حرجاً في استعمال بعض

المصطلحات العلمية الأعجمية حتى نوفق إلى ما يقابلها بالعربية ، ولغتنا العربية تحفل بعشرات من مثل هذه المصطلحات في مختلف العلوم والفنون .

أما اقتراح الدكتور الأهواني لفظة « المستهتر » لترادف « السيكوباتية » فإننا لا نقره عليه ، أولاً لأن هذه اللفظة من الكلمات الذائعه العامة ، وليس من الميسور أن نجعل لها معنى خاصاً كالشذوذ أو الانحراف كما يقترح الدكتور ، وثانياً ، وهو الأهم ، لأن لفظة الاستهتار لا ترداف السيكوباتية من حيث المعنى . وصحيح أن السلوك السيكوباتي قد يبدو مستهتراً في بعض مظاهره ، ولكن الاستهتار ليس لباب السيكوباتية . وكثير من الانحرافات السلوكية والخلقية يبدو فيها الاستهتار دون أن يكون أصحابها بالضرورة من السيكوباتيين . وإذا كان حقـاً أن كل سيكوباتي مستهتر إلى حد ما ، فليس العكس صحيحاً ، وهو ما ينبغي أن يكون لكي تترادف لفظتا الاستهتار والسيكوباتية .

ثانياً : يقول الدكتور الأهواني في (ص ٩٤١) : إن المؤلف « يعرض نظريات العلماء المختلفة . . . ولكن أين نظريته ومذهبه ؟ قد يقول إنه لخصه في التعريف الذي سقناه عنه في صدر هذه الكلمة . غير أن هذا التعريف متعارض في أطرافه ، يحاول صاحبه التوفيق بين شتى المذاهب حتى لا يفوته ما في كل منها من محاسن ، فهو يبدأ بقوله : إن الحالة السيكوباتية اضطراب في الشخصية يمنعها من التكامل ، وهذه نظرة في علم النفس فردية لا اجتماعية ، ثم يحاول أن يفسر الحالة تفسيراً اجتماعيا ، بل لقد جعل نظرته الاجتماعية جزءاً من عنوان الكتاب فقال : بحث في علم النفس الطبي الاجتماعي . وكذلك يأخذ بطرف من مذهب فرويد وغيره » .

ويبدو من هذا الكلام ، ومن نقد الدكتور الأهواني لكتاب الدكتور القوصي « أسس الصحة النفسية » — الجزء السادس من « الكتاب » — أنه ، أي الدكتور الأهواني ، يطلب من المؤلف أن يحدد بوضوح المدرسة التي يتبعها ، وينتظر منه أن يقف موقفاً صريحاً محدوداً : أهو من أتباع مكدوجل ، أم من أنصار فرويد ، أو أن له مذهباً خاصا يختلف عنهما . فإذا كان الأمر كذلك فليس له أن يأخذ على المؤلف أنه لا يتبع مذهباً بعينه من المذاهب المعروفة عند العرض لمشكلةٍ كالسيكوباتية ، وليس له أن يزعم تجرده من الرأي أو المذهب لمجرد أنه يعالج المشكلة من أكثر من جانب .

ولعل الدكتور الأهواني لا يجهل أن فرانز ألكسندر ، وهو من أعلام المدرسة الفرويدية في التحليل النفسي ، هو في الوقت نفسه من الرواد في حركة الطب السيكوسوماتي (النفسي الجسمي) ، ولو طبقنا عليـه مقاييس الدكتور الأهواني

— حاشانا أن نفعل — لزعمنا له أيضاً التجرد من الرأي والمذهب . وهذا مثل من أمثلة كثيرة لا يتسع المقام لها هنا . على أن القارئ لن يتعذر عليه أن يلمس رأي المؤلف في كل المشكلات التي عرضت له ، ولن يعسر عليه أن يرى مذهبه وهو يوحد بين أطراف الموضوع جميعاً من حيث منهج البحث وقواعد التشخيص وأسس التعليل وأهداف العلاج . ولكننا سنحاول برغم ذلك أن ندل على ما يشير إلى مذهبنا في مشكلات الشخصية بوجه عام ، والحالة السيكوباتية بوجه خاص .

١ — ذكرنا في مقدمة الكتاب (ص « و ») : « أن المنهج الذي اتبعناه في دراسة مشكلة السيكوباتية هو المنهج التكاملي الذي يعالج الإنسان كوحدة من جسم وعقل ومجتمع ... وهذا المنهج يأخذ من العلوم جميعاً ، ومن المذاهب جميعاً ، ما يجعلنا أعمق فهماً له وأوفى تزوداً لمعالجة مشكلاته » . ثم ذكرنا أهمية تطبيق هذا المنهج في التشخيص (ص ١٤٦ — ١٤٧) ، وفي التعليل (ص ٢٤٤ — ٢٤٨) ، وفي العلاج (ص ٢٧٩ — ٢٨٣) ، وجلي أن هذا المنهج لا يفصل بين النظرة الفردية والنظرة الاجتماعية في اضطرابات الشخصية ، بل إنه يجعل إحدى النظرتين متممة للأخرى ، ويحتم على الباحث أن يأخذ بهما معاً في دراسته مشكلات الشخصية الإنسانية .

٢ — حاولنا في الحالات التي عرضنا لها أن لا نأخذ بمظاهر السلوك ، وأن نتعمق بواعثها الدفينة . وقد تشابهت هذه المظاهر في الحالات جميعاً ، ولكننا استطعنا على الرغم من هذا التشابه أن نردها إلى فئات أربع ، لكل منها عملياتها النفسية المرضية الخاصة . وقد نبهنا مشددين وفي أكثر من موضع (ص ١٣٩ ، ١٥٦ إلخ) إلى ضرورة التمييز بين « السلوك » السيكوباتي ، وهو مجرد سلوك ، لا اجتماعي أو مضاد للمجتمع ، قد يصدر عن أكثر من عامل من العوامل التي تؤدي إلى اعتلال الشخصية ، وبين « الحالة » السيكوباتية ، وهي اضطراب معين اختلف الباحثون في تقدير دلالته ومداه . وكان لنا في ذلك رأي خاص أعلناه بوضوح كما سنشير إلى ذلك فيما بعد . ويخيل إلينا أن الدكتور الأهواني لم يفطن إلى هذا التمييز ، وإلى ضرورته لفهم الحالة السيكوباتية . فقد لخص الحالتين الثانية والخامسة بما يشير إلى أنهما تمثلان لوناً متشابهاً من ألوان السلوك ، في حين أن السلوك المنحرف في إحداهما (الحالة الثانية) كان الإفصاح عن صراع عصابي نفسي ، بينما كان السلوك المنحرف في الأخرى (الحالة الخامسة) الإفصاح عن حالة سيكوباتية أصيلة . والفرق بين الحالتين كبير ، بل جوهري ، كما يتضح لكل من يقرأ الكتاب

— وخاصة الفصل الثاني، والفقرة « هـ » من الفصل الثالث — بشيء من التعمق والروية.

٣ — أعلنا رأينا بوضوح في الجوانب المتعددة لمشكلة السيكوباتية. ولا يكاد موضع من الكتاب يخلو من عرض نقدي لجانب من هذه المشكلة ثم رأينا فيه. ولم نتردد في الإشارة إلي المواضع الغامضة من المشكلة أو إلى الاتجاهات الخليقة بأن يثمر البحث فيها. وقد كان عرضنا لهذه المشكلات جميعاً من الوضوح بحيث يستطيع القارئ أن يلمس رأينا فيها بسهولة. ولكنا نرى أنفسنا مضطرين إلى الإشارة إلى بعضها فيما يلي:

أ — عند العرض لمشكلة السلوك المنحرف نبهنا مشددين إلى ضرورة التمييز بين « الحالة » السيكوباتية وغيرها من الحالات القريبة الشبه بها في مظاهر السلوك (ص ١٣٩ — ١٥٩)، وبيّنا أهمية ذلك من وجهتي الإنذار والعلاج. وهذا التمييز أساسي في دراسة مشكلة السيكوباتية على وجهها الصحيح، ومع ذلك نرى الدكتور الأهواني يجنح إلى التعميم في قوله: إن مرد السيكوباتية إلى « سوء التربية ». وما نحسب أننا مستطيعون، بأي قدر من التجاوز ومرونة التأويل، أن نجد لهذا الرأي مكاناً بين العمليات النفسية المرضية، وإن كنا نراه مخرجاً سهلاً يجنب صاحبه عناء البحث والتقصي. كما لا نظن أن أحداً من العلماء الذين يحترمون الدقة العلمية ويقدرونها يقره عليه. وقد شاء الدكتور الأهواني أن يخلط بين الانحرافات السلوكية، على تعدد نماذجها، وبين المشكلة السيكوباتية؛ ثم شاء بعد ذلك أن يرجع هذه المشكلات على إطلاقها إلى فساد التربية. ولو قد تعمق قراءة الكتاب الذي عرض له بالنقد لجنب نفسه هذا الشطط الذي قد يغتفر في المواعظ الخلقية، ولكنه لا يجد له مكاناً في البحث العلمي.

ب — أعلنا رأينا بوضوح أيضاً عند تعليل السيكوباتية، فبعد أن عرضنا لمختلف الآراء التي قدمت في تعليلها، ذكرنا رأينا في أثر العامل الزمني في تفكك الشخصية، وأبنّا كيف يضيع التكامل في السيكوباتية على المستويات البيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية، محاولين أن نربط بين فقد التكامل على هذه المستويات وبعض السمات السيكوباتية المميزة (ص ٢٤٥ — ٢٤٨، ص ٢٢٢ — ٢٣٥).

حـ — وأعلنا رأينا عند تقرير مكان السيكوباتية من علل النفس والعقل، فقلنا بوضوح لا يحتمل اللابس إن السيكوباتية ذهان — أي مرض عقلي — (ص ٢٣٦، ٢٨٩)، وقلنا في موضع آخر: « والإجابة عن هذا السؤال تحدد مكان السيكوباتية بين النماذج الذهانية المحققة، دون تردد وبكل وضوح وجلاء » (ص ٢٣٧). وما أحسب أني مستطيع أن أكون أكثر تحديداً ووضوحاً مما فعلت، ولكن الدكتور الأهواني

يقول برغم ذلك إني أرى أن السيكوباتية وسط بين الأمراض العصبية والنفسية ٭ . فليته يدلني على كلمة واحدة يشتبه منها أني أرى هذا الرأي

د — كما ذكرنا التعريف الذي نراه مناسباً للحالة السيكوباتية على ضوء ما اهتدينا إليه في دراستنا (ص ٢٥٩) ، وهو التعريف الذي قال الدكتور الأهواني إنه متعارض في أطرافه دون أن يدلنا على هذا التعارض ، إلا أن يكون ذلك في جمعه بين الحقائق المعروفة عن السيكوباتية ، وهي حقائق تتناول أكثر من جانب من هذه المشكلة .

هـ — وذكرنا رأينا في التصنيف ، مخالفين فيه الغالبية ممن كتبوا عن السيكوباتية (ص ٢٧٣ ، ٢٧٤) ، وأبنا بوضوح أننا لا نميل إلى تعدد النماذج لأننا لم نهتد بعد إلى القواعد التي يصح أن تكون أساساً مستقرا سليماً للتصنيف ، كما أنه ليس من الميسور ولا من الصواب أن نكثر من النماذج المرضية من غير أن نحدّ ما بينها بفواصل قاطعة .

و — وفي الفصل الخاص بالتوجيه والعلاج عرضنا للاتجاهات الحديثة في العلاج بوجه عام ، ثم أعلنا الأهداف العلاجية للمنهج التكاملي فقلنا إنه يهدف إلى « أن يجعل من المهنة الطبية أداة وقائية اجتماعية لا أداة علاجية فردية ، لأنه يجعل مثله الأعلى تدبير الصحة لا علاج المرض » (ص ٢٧٩) ، وذكرنا الأسس التي سيستند إليها المنهج التكاملي حتى يتيسر له التنسيق المثمر بين صحة الجسم وصحة العقل (ص ٢٨٠) ، ثم ذكرنا بعد ذلك ما يعرف في الدوائر العلمية الموثوق بها عن علاج الحالة السيكوباتية في الفرد ، وهو ما سنناقش فيه الدكتور الأهواني في الفقرة التالية .

ثالثاً : عرض الدكتور الأهواني بالنقد لقول المؤلف إن السيكوباتيين لا تجدي معهم « وسائط العلاج أو وسائل الردع فيما نعرف حتى الآن » . ويظهر أن النزعة إلى إصدار الأحكام المبتسرة غلبت الدكتور هنا أيضاً ، فأردف بغير حذر وبصيغة حاسمة أن هذا ليس عيب المريض بل عيب الطبيب ، ثم مضى يقحم علينا فصلاً لا مناسبة له عن أسس العلاج النفساني وشروط نجاحه ، واستشهد بحالة من الكتاب (الحالة الثالثة) لازمه خطأ التوفيق أيضاً في اختيارها ، لأنها مع الأسف ليست من حالات السيكوباتية

٭ يظهر أن الدكتور الأهواني يستعمل عبارة الأمراض العصبية بمعنى العصاب أو المرض النفسي (neurosis) ؛ والأمراض النفسية بمعنى الذهان أو المرض العقلي (psychosis) . ونود أن ننبه هنا إلى أن الأمراض العصبية (nervous diseases) هي الأمراض التي تنتج من خلل عضوي بالجهاز العصبي ، ولا شأن لنا بها هنا . أما العصاب أو المرض النفسي فإنه خلل وظيفي لا صلة له بالخلل العضوي ، والذهان هو المرض العقلي أو الجنون . ولعل الدكتور الأهواني يعني الأمراض النفسية والعقلية إذ يقول الأمراض العصبية والنفسية .

الأصيلة ، بل من حالات المرض العقلي المعروف بالفصام (جنون المراهقة أو الشيزوفرينيا) ، وهي مع غيرها من الحالات (٢ ، ٣ ، ٤ ، ٦ ، ٨ ، ١٢ ، ١٤) تؤلف المجموعة التي تشبه السيكوباتية في مظاهر السلوك ، ولكنها تختلف عنها في بواعثه وأصوله كما تختلف في سير العمليات المرضية والاستجابة للوسائط العلاجية ، مما لم يقتصد المؤلف جهداً في التنبيه إليه في أكثر من موضع من الكتاب .

ولا نود أن نقول للدكتور الأهواني إننا نعرف جيداً أن العلاج النفسي فن ، بل فن وعلم معاً ، وأن النجاح فيه يحتاج إلى استعداد خاص ومواهب لا تتوافر لكل إنسان ، ولكننا نود أن نقول له إن الذي لديه أقل إلمام بمبادئ العلاج النفسي ينبغي أن يعرف أن فشل هذا العلاج ليس عيب الطبيب دائماً ، وهو في الحالة السيكوباتية ليس عيب الطبيب إطلاقاً . وقد تفضل الدكتور الأهواني بشرح أصول العلاج النفسي لنا ، مستنداً في ذلك إلى ما يقول إنه اكتسبه من خبرة في أثناء ممارسته هذا الفن . فلا شك أن هذه الخبرة أهلته لأن يعرف أن نجاح العلاج النفسي مرهون بتوافر كثير من الشروط التي يجيء في مقدمتها :

١ — استبصار المريض بحالته ، أي إدراكه أنه مريض ، ثم رغبته في الشفاء . والذين اتصلوا بالسيكوباتيين ، على اختلاف المدارس التي ينتسبون إليها يعرفون بالتجربة المتكررة أن هذا الفريق من المرضى ينقصهم الاستبصار بحالتهم ، بل تنقصهم القدرة على هذا الاستبصار ، كما تعوزهم الرغبة في الشفاء ، فهل يجدي العلاج النفسي مع مثل هؤلاء ؟

٢ — القدرة على « التحويل » ، وهي التي نرجح أن الدكتور الأهواني يعنيها إذ يتحدث عن حسن الصلة بين الطبيب المعالج والمريض ، ويعدها مقياساً لمهارة الطبيب في فن العلاج النفساني يظهر في توفيقه إلى اجتذاب المريض واكتساب ثقته التامة . وقد عرضنا لهذه المسائل جميعاً في أكثر من موضع من الكتاب ، ولسنا نشك في أنها لن تفوت القارئ الذي اعتاد الروية فيما يقرأ ، ولكن بماذا تفيد مهارة الطبيب إذا كان من خصائص السيكوباتية أن تعجز صاحبها عن أن ينشئ صلة « الوئام » بينه وبين الطبيب؟ وقد ظهر هذا العجز على الدوام وبصورة عامة شاملة مع جميع من حاولوا علاج السيكوباتية ، ومن بينهم أطباء من ذوي الشهرة العالمية والمكانة العلمية المستقرة ممن نجحوا في علاج العلة النفسية على اختلاف صورها ونماذجها إلا مع هذا الفريق . أترى يصر الدكتور الأهواني برغم ذلك على أن فشل العلاج مع السيكوباتيين عيب الطبيب

وليس عيب المريض ؟ على أن المقام فيما نرى ليس مقام إلصاق العيب بهذا الفريق أوذاك . فغايتنا هي عرض الحقائق عرضاً موضوعيا نرجو أن يمهد لنا سبيل الوصول إلى حل موفق للمشكلة .

وثمة ملاحظة أخيرة يود كاتب هذه السطور أن يلفت نظر الدكتور الأهواني إليها ، تلك هي أن المؤلف لم يقرر عدم جدوى العلاج في الحالة السيكوباتية جزافاً ، أو استناداً إلى خبرته الشخصية — وهي غير قليلة — وحسب ، بل إنه رجع في ذلك أيضاً إلى كل ما استطاع الرجوع إليه مما نشر عن هذه المشكلة في العهد الأخير . وقد أجمع على هذا الرأى علماء لهم خبرتهم المباشرة الطويلة ولهم مكانتهم العلمية الوطيدة ، فإذا جاء الدكتور الأهواني بعد ذلك وقال إنه عالج بعض حالات السيكوباتية بنجاح دون أن يكون له في هذا القول من سند إلا أن يذكر بعض المبادئ الأولية التي يعرفها كل مبتدئ في العلاج النفسي ، فليعذرنا إذا ترددنا طويلا في قبول هذا القول منه ، أو إذا شككنا على الأقل في أن الحالات التي يعنيها لا تعدو أن تكون بعض المشكلات السلوكية الصغيرة التي ترجع إلى « فساد التربية » ولا تحتاج إلا لجهد قليل في ردها إلى السواء ، لا الحالة السيكوباتية التي نعنيها ويعنيها معنا علماء الطب النفسي على اختلاف المدارس التي ينتسبون إليها والمذاهب التي يأتمون بها . وقد أنشأتنا صرامة التعليم الطبي على ألا نأخذ برأي جديد إلا إذا قامت الأدلة عليه وتأيد بالتجربة المتكررة والاختبار الطويل .

وبعد ، فهناك بعض ملاحظات صغيرة أخرى نتجاوز عنها شاكرين للدكتور الأهواني ما بذله من جهد في التعريف بالكتاب .

صبرى جرجس

علم النفس الفردي

رد على نقد

بقلم الدكتور يوسف مراد

يبدي حضرة الدكتور أحمد فؤاد الأهواني ، مدرس تاريخ الفلسفة بكلية الآداب ، اهتماماً كبيراً بمنشورات جماعة علم النفس التكاملي التي كان لي شرف تأسيسها في مصر . ولا يسعني أمام هذا الاهتمام إلا أن أقدم إليه جزيل الشكر . وإني شديد الميل إلى الاعتقاد بأن هذا الاهتمام صادر عن إخلاص عظيم في خدمة علم النفس وخدمة قراء مجلة "الكتاب" الغراء .

نقد الدكتور الأهواني في العدد السابق كتاب الأستاذ إسحق رمزي في « علم النفس الفردي » . ويمكن تقسيم نقده إلى قسمين : يشتمل القسم الأول على ما يوجهه حضرته من نقد إلى الأستاذ وإلى التلميذ معاً ، أو بعبارة أصح إلى المشرف على الرسالة وإلى صاحب الرسالة . أما القسم الثاني فهو مقصور على بيان الأخطاء الكثيرة التي وقع فيها المؤلف ، والتي يريد الناقد أن ينسبها إلى جماعة لا إلى فرد . فقد قرر في أول مقاله ما يأتي : « فنحن إذن بإزاء مجهود جمعي لا فردي ، مما يجعلنا نحفل بالموضوع ، فنوجه النقد إلى جماعة لهم خطرهم ومنزلتهم » .

وأول ما يتبادر إلى الذهن من نقد الدكتور الأهواني أنه يسبغ على الرسالة الجامعية لوناً غريباً إذ يعتبر المشرفين على إعدادها والمناقشين لها مسؤولين عما فيها من آراء . وهذا ما لم يقل أحد به لأنه أولا طعن في جهد الطالب الشخصي ، كما أنه ثانياً طعن في قيمة الشهادات العليا التي تمنحها الجامعات . ولا نخال الدكتور الأهواني إلا قرأ مقدمات بعض الكتب الأجنبية ليعرف أن رأيه هذا رأي تفرد فيه واستقل به دون جلة العلماء .

على أنني مع ذلك أراني مضطراً إلى الرد على بعض ما جاء في القسم الأول من النقد ، تاركا لصاحب الكتاب المنقود أن يدلي برأيه الخاص فيما وجه إليه من نقد .

فقد أراد الناقد أن يستند إلى أقوال الأستاذ بول جيوم أستاذ علم النفس بجامعة باريس ويعرضها محرفة ، وعمد إلى صورة دقيقة من صور القياس المنطقي ليدخل في روع القارىء تلميحاً ما لم يذكره تصريحاً أن لا قيمة علمية لمن يعتبر علم النفس ربيب الفلسفة ؛ وعلى هذا القياس عصف بيوسف مراد وبالأستاذ إسحق رمزي من حيث يدري أو لا يدري .

وبما أني لم أكتب فيما كتبت أن علم النفس ربيب الفلسفة فلا أرى الآن ما يدعو إلى مناقشة حضرة الناقد ، غير أني سأقول رأيي في هذا الموضوع على صفحات مجلة علم النفس .

ولكن أرى من واجبي أن أدافع عن أستاذي بول جيوم وأدفع عن أقواله ما أصابها من التحريف .

فقد أورد الناقد في مقاله ص ١٤٠ السطر التاسع ، ترجمة لنص جاء في مقدمة كتاب جيوم ص ١٧ سطر ٢٤ . وإليك نص الترجمة : « إن الباحثين الموقنين بأهمية أعمالهم وقوتها تحفزهم الهمة إلى إكمال هذه البحوث والدفاع عنها أمام النقد » .

هذا هو ، في ترجمة الدكتور الأهواني ، رأي الأستاذ جيوم . وبدون شك ليس في هذا النص أي إشارة إلى عمل فلسفي . فالترجمة العربية صريحة : مهمة علماء النفس الجديرين بهذا الاسم مقصورة على « إكمال بحوثهم والدفاع عنها أمام النقد » .

ولكن ، لمزيد الأسف ، هناك فرق جوهري بين الترجمة كما قدمها الدكتور الأهواني ، وبين النص الأصلي الفرنسي . وهذا النص هو كالآتي :

"Les chercheurs, qui ont le sentiment de l'intérêt et de la solidité de leurs travaux, sont plus soucieux de les continuer que d'en justifier le principe et de les défendre contre les critiques." *

فقد أغفل الناقد العبارة "plus ... que" (أكثر...من) كما حذف "en justifier le principe" دون أن يضع نقطاً محل الكلام المحذوف في ترجمته . وفي إثبات هذه الكلمات الأربع تقويض تام لما ذهب إليه الدكتور الأهواني كما سنرى :

أما الترجمة الصحيحة للنص الفرنسي فهي كالآتي : « إن الباحثين الموقنين بأهمية أعمالهم وقوتها أكثر اهتماماً بمواصلة هذه البحوث منهم بتسويغ مبدئها والدفاع عنها أمام النقد » . والفرق كبير جداً بين النص الأصلي وما قدمه الدكتور الأهواني إلى قراء مجلة « الكتاب » الغراء . ولكن لماذا أغفل الناقد العبارة en justifier le principe ، أي تسويغ أو تبرير مبدأ بحوث الباحثين في علم النفس ؟ ذلك لأن تسويغ مبدأ البحث أو تبريره هو عمل فلسفي داخل في نطاق فلسفة العلوم . والدكتور الأهواني يريد أن يوهم القارئ أن علم النفس قطع كل صلة بالفلسفة وأن كل مهمة عالم النفس ، كما تقول الترجمة الناقصة : « إكمال هذه البحوث والدفاع عنها أمام النقد » في حين أن الأستاذ جيوم يقول : إن عالم النفس أكثر اهتماماً بالجانب العلمي من بحوثه منه بالجانب الفلسفي .

وإنه لتملكني الحيرة إذا أنا أردت أن أستشف نية الدكتور الأهواني في هذا التصرف ، ولا يسعني إلا أن أحسن فيه الظن لأن نية السوء لا ترقى إلى أخلاق العلماء .

يوسف مراد

---

* Paul GUILLAUME : Introduction à la Psychologie. Paris 1942. Pp. 380. (Publié à La Librairie Philosophique J. Vrin, dans la Collection des Etudes de Psychologie et de Philosophie.)

ورد هذا النص في ص ١٧ سطر ٢٤ من كتاب جيوم السالف الذكر . وقد وضعنا خطا تحت plus...و que لإبراز أهمية هذا التركيب الذي أغفله الدكتور الأهواني في ترجمته .

دنيا القصص

فتاة الغورية

للأستاذ محمد طلبة رزق

رغبت إليه نفسه كثيراً وتمنت آن لو يتاح لها هذا الذي تبغيه من غرام .. ومع أنه كان مستقيماً مسرفاً في الاستقامة ، رفيعاً غالياً في الترفع ، أنيقاً وجيهاً في غير تكلف ولا تصنع ، فقد كان غرامه بهذه الرغبة العارمة لا يفتر أو يقل .. كان يتمنى أن تنشأ صداقة قوية أو حب جارف بينه وبين فتاة .. أي فتاة .. من هذه الفتيات الكثيرات الأنيقات الساحرات الملفوفات المدثرات بهذه الدثر الحريرية السود من قمة الرأس إلى إخمص القدم ، لفاً مغرياً فاتناً ، وعلى وجوههن هذه البراقع المخرمة ذات القصبات الذهبية الرقيقة .. هاتيك الفتيات ذوات اللحظ الفاتك واللفظ الساحر .. آه .. لطالما امتلأ رأسه بهذه الرغبة القوية الملحة ، ولطالما امتلأ رأسه بصور كثيرة حلوة عذبة لهاتيك الفتيات اللائي يراهن كثيراً في الغورية ، يكدن يأخذن الطريق أخذاً على مَنْ دونهن من مرتادي هذه الأحياء التجارية المزدحمة بصنوف التجارات من أقمشة وأحذية ، ومن ذهب وفضة ونحاس ، ومن عطور وتحف وأدوات زينة .. فما يدري السائر كيف يسير ، ولا كيف ينتقي حاجته من زحمتهن وسحرهن وعطرهن ، وما يشعر بنفسه حين ينتقي ، ولا حين يشتري ما لا حاجة له به ، وينسى بذلك ما هو في حاجة إليه وما أتى الغورية من أجله ! ..

لقد تمنى ذلك كثيراً ، والتمس إليه الوسيلة . وكان خجله واستقامته وترفعه تحول بينه وبين هذه الأمنية العزيزة الحبيبة .. وذات عصر .. وعلى حين غفلة من نفسه وقلبه ونسيان لأمنيته هذه الحبيبة ، وجد نفسه جالساً في الترام .. وفي الترام .. سمع نقاشاً وجدالا بين صراف التذاكر وبين فتاة أو سيدة .. كان الصراف غليظاً قاسياً ، وكانت هي رقيقة وديعة لطيفة حييّة خجولا ، تتدثر بالسواد اللامع الأنيق ، وتتحجب بالبرقع الخفيف المخرم ذي القصبة الذهبية الرقيقة والسلسلة الذهبية الرفيعة .. إنها ..

إنها إحدى اللواتي يكلف بهن . . إنها واحدة من فتيات الغورية . . وسمع وفهم قصة النقاش الغاضب بين الصراف وبينها . عرف أنه يأمرها بمغادرة المقصورة التي تجلس فيها — مقصورة الدرجة الأولى — إلى الدرجة الثانية أو إلى مقصورة السيدات . وعز عليه ذلك الطرد من عامل الترام القاسي لهذه الفتاة الجميلة الوديعة . فتدخل سريعاً وبغير تروّ على خلاف عادته من الترفع والانزواء عن أحداث الناس وأحداث الطريق . . وقال للعامل : دعها جالسة ! كيف تدعوها للنزول من الترام في هذا الازدحام لتركب ثانياً في المكان الآخر . قال له العامل : إنها تعطيني أجر الدرجة الثانية فقط . فقال له : لا بأس دعها وخذ الفرق . . وتناول العامل منه الثمن وانصرف لعمله . أما هي فلم تتكلم ولم تعترض . وأما هو فقد سكت ، ولكن عينيه ظلتا على الفتاة بعض الوقت في استحياء . . إنها . . يا للروعة . . إنها فتاة أحلامه . . الفتاة المصرية الصميمة بنت البلد الأصيلة ، التي لم يفسد جمالها ولم يقلل من روعتها ولم يبدد من سحرها هذا السفور الأنيق الذي فشا في الشرق كله ، فجعل جماله فاتراً ، وقلل من روعته ، وبدد من سحره كثيراً . .

وحين وقف الترام أمام الغورية بارحه .. وبارحته هي الأخرى .. يا للمصادفة !.. وسار إلى أمام وباله منصرف إليها ، وما راعه إلا إقبالها نحوه .. تحدثه بنفسها .. لقد لحقت به لتعرض عليه ما دفعه عنها من أجر الترام . وامتنع هو بالطبع ، وألحت هي . . وتكرر هذا العرض الملح وذلك التمنع الأبي . . وبين هذا العرض وذلك التمنع كان حديث .. وكان ابتسام خفيف و . . وكانت فرصة .. وكان تعارف .. ثم .. ثم كان له آخر الأمر ما أراد ، وتحققت رغبته العارمة وأمنيته الحبيبة . . وصار صديقاً للفتاة التي طالما تمناها .. وكثر ارتياده معها الغورية ، هي بملاءتها الحريرية السوداء اللامعة الملفوفة المحبوكة حول جسدها اللدن حبكاً لطيفاً ساحراً مغرياً فاتناً ، وهو بثيابه الإفرنجية الحديثة الأنيقة الرفيعة .. إنه لا يجد أي غضاضة في نفسه من صحبتها هكذا علانية في حي ضخم مزدحم بالناس زحمة فريدة لا تكاد تكون في غيره من الأحياء ، وهو الحيي الخجول الذي يخجله مجرد التحية أو الحديث العابر العادي مع امرأة — أي امرأة — في الطريق ، فضلاً عن مصاحبتها والسير معها علانية . . كانا يلتقيان هناك .. في الغورية ، والغورية بالذات ، تواعده على اللقاء وتحدد له مكان الانتظار ، ويحدث أن تتأخر عن موعدها ، فما يضيق ولا يسخط ولا يتبرم ، وإنما يلتمس لها — في نفسه — الأعذار ، ويظل ينتظر وينتظر حتى تواتيه وتهل عليه ، فما إن يراها مقبلة تتهادى في حياء وخفر ، حتى

يخف للقائها فرحاً مشرق النفس والقلب جميعاً ، غير ملق بالاً إلى اعتذارها المهذب عن هذا التأخير المرغم ، ويلقاها حفيًّا بها مشتاقاً أشد الشوق .. ويظل معها يسيران معاً في طرقات الغورية المزدحمة الضيقة ، لا يملك من أمر نفسه شيئاً . تهمس إليه بصوتها الساحر اللذيذ ، برغبتها في ارتياد هذا المحل أو ذاك ، فما يمتنع أو يعترض . . تدخل عند بائع السلع .. تاجر بعينه تعرفه ، وتحدد هي اسمه ، فيصحبها إليه ، ويلقاها الفتى البائع لقاء العارف الصديق ويحتفي بها احتفاء الصاحب القديم ، وتقضي حاجتها : تتحدث إليه طويلاً وتنتقي جورباً أو منديلاً . . ثم تبرح . . وتدخل متجراً للأقمشة فيصحبها غير ممتعض ولا متألم . وتقصد في المتجر بائعاً أنيقاً بعينه ، ويحتفي البائع بها ويقبل عليها مرحباً ، وتجلس لديه ما تجلس ، وتسر إليه ما تسر ، وتنتقي ما تنتقي ، وتتفرج وتسأل عن الأسعار ، وهو معها راض كل الرضى ، حتى إذا آن لها أن تخرج خرج معها .. ثم تعرج على الصائغ ، والصائغ صديق لها أيضا ، تصلح قصبة البرقع وسلسلته ، وترى آخر ما وصلت إليه أزياء الحلي جميعاً ، وتعرف سعر اليوم للذهب والفضة ولغيرهما من الأحجار الكريمة .. وتدع الصائغ إلى العطار الصديق الحميم ، تفضي إليه برغباتها في الحصول على « اللادن » وعلى غير « اللادن » من حناء وبخور وعقاقير للسمنة .. ولا تنسى زيارة محل العطور ، والبائع — بائع العطر — صديق رقيق حلو الحديث ، يعرض عليها أصناف العطور والروائح المختلفة في صبر وتجمل وتظرف ، ويعطر لها مناديلها وثيابها جميعاً ، كل جزء منها بعطر خاص ..

أوه . . . كل هؤلاء الأصدقاء لا بد من زيارتهم والتردد على محالهم كلما زارت هذه الغورية ، وهو معها راض كل الرضى ، ما تكاد تهم نفسه بالثورة والغيرة من هذا التردد والتودد إلى أولئك الباعة ، واحتفائهم بها واستقبالهم لها بما لا يكون شيئاً غير الغزل الظاهر الواضح . . . ما تكاد نفسه تهم بهذه الثورة وتلك الغيرة ، حتى ترد إلى أشياء من الأمن والدعة والرضى والاستسلام . . . ألم يطل تمنيه لهذه الصداقة ؟ ألم يحلم بها آماداً طويلة ؟ أجل . . أجل ، إن ذلك حق . وإذن فليقبل هذه الصداقة والمودة والمحبة على علاتها تلك . . . ولن يعتب عليها أو يؤاخذها على تلك الصداقات الكثيرة ، لأنه إن فعل فمن يدري ؟ لعلها تغضب منه فتهجره وتتركه ، وتسلمه إلى تمنيه وضلاله القديم ، وإلى أحلامه وتيهه الغابر . . ! ثم ما الذي يحمله على هذا العتب وتلك المؤاخذة ، وصديقته كريمة معه حفية به مخلصة له ، تحترمه ، وتجله ، وتعتز بمودته ، وتفخر بصداقته . . . ألا تكفيه طاعتها له وتعلقها به ؟ ؟ . . يا للإنسان من جحود !

أجل ! يكفيه منها كل هذا وأقل منه ، وإنه بها لفرح ، وإنه عليها لحريص أشد الحرص كأنها عينه أو أكثر . . وهو من أجل ذلك سيظل حفيا بها ، حريصاً عليها وعلى مودتها ، وسيعمل أبداً على أن تكون أجمل أوقاته في حياته هي الأوقات التي يمضيها معها ، والتي يود أن تكون كثيرة غزيرة . .

وكانا ذات مساء في الغورية في زحمة الناس . . وكالعادة زارت كل أصدقائها هؤلاء في حوانيتهم ، وحين خرجا من دكان الصائغ ، اقترح عليها أن يتناولا عشاءهما في أحد مطاعم الحي . والمطعم قريب جدا من دكان الصائغ . . ودخلا وصعدا . . ولقيهما خدم المحل بحفاوتهم المألوفة . . ودلف بها إلى حجرة خاصة . . وجلسا ينتظران الشواء ، والشواء لا يؤتى به سريعاً ، وإنما هناك انتظار طويل يعرفه ويألفه رواد مطاعم الشواء . . . وخلال هذا الانتظار كانت جلسة هادئة لطيفة وخلوة خالصة أنيقة . . وكانت موسيقى شرقية شجية تنساب من المذياع يخالطها غناء . . إنه غناء عامي مثير . . اللحن شرقي وطني صميم ، والمعنى مثله تماماً . . وصوت المغني عريض فيه طراوة وإغراء جنسي ، يؤثر في الأعصاب جميعها ، سواء القوية منها والرقيقة ، وتأثرا باللحن وبالصوت ، وسرت الموسيقى فيهما . . في النفس والقلب . في الروح والجسد . . وجعلها هذا الأثر تسأله حين سمعت المغني يقول ويردد كثيراً وطويلا متأوهاً متأوداً مدلهاً : « ياحبيبي أنا وياك . . ياحبيبي أنا وياك . . أنا وياك . . وياك . . روحي تتمنى لقاك وحياتي ملك هواك . . ياحبيبي أنا وياك . . » جعلها هذا الأثر تسأله في ذهول : صحيح . . ؟ فيقول لها : ماذا ؟ وتقول : صحيح أنا وياك ؟؟ فيعجب لتساؤلها هذا ، ويقول لها : أفي شك أنت من لقائنا ؟ فتزداد التصاقاً به وقرباً منه وتقول : صحيح . . ؟ صحيح أنا وياك ؟ فيقول لها بتحمس : نعم . . نعم أنا معك . . معك بجسمي وقلبي وروحي ! فتقول : أنا . . أنا لا أصدق . . أنا خائفة . فيضمها إليه في حنان غامر حار ، ويقول لها : أنت معي ، وأنا معك ، هذه حقيقة لا تحتمل الشك ، انظري أليست هذه يدي ؟ أو ليس هذا جسدك كله . . . يجمعه تحت يدي ؟ ألا تحسين ضغط يدي على كتفك ؟ ؟ إنك لغريبة منذ الآن ! . فتقول له في تدله خجول : أنا . . أنا خائفة . . أنا خائفة . . لا أصدق . . لا أرى . . لا أحس . . أنا عمياء . . لا . . لا بل أنا مبصرة أرى وأحس . . وإنما أود أن نكون معاً دائماً ، هكذا ، مثلما نحن الآن تماماً . فيبتسم ويتأثر لشعورها هذا وإحساسها ذلك . ويشكرها في أعماق قلبه . ويشكرها علانية في قبلة حارة طويلة عميقة ، غير ملق بالاً لأي شيء في الوجود . . وجوده الذي يحيا فيه . . ويحضر الطعام ، ولكن أي طعام ؟

أهما في حاجة إلى طعام ؟ هذه الارواح والمهج الخفيفة اللطيفة ، الذائبة في أتون العاطفة ، الهائمة في سماء الصفاء ، السابحة في عالم السعادة الروحية .. هذه الأرواح ، وتلك المهج ، ليست في حاجة إلى الطعام . . يكفيها . . يكفيها جدا هذا الغذاء اللطيف ، غذاء الروح والنفس والقلب . . ومع ذلك فقد أقبلا على الطعام الدسم الشهي ، فالتهماه وأتيا عليه . يا لله . . ! ما أجمل أوقات السعادة والإشراق ؟ ! ينسى فيها المرء دنياه الحقيرة بما فيها من تبعات وأحمال وواجبات ، لينعم مع نفسه وروحه وقلبه وقتاً . . وقتاً مهما قصر ، فهو عزيز وحبيب ، يحيا المرء على مجرد ذكراه وتخيل لحظاته السعيدة المشرقة ، باقي أيام حياته ؟ . .

وخرجا بعد العشاء ، وسارا في الغورية ، وقد خفت زحمتها وخبا نورها ، صامتين ساكنين ، وحين يخيم الصمت على النفوس ، تبدأ الأفكار تغزو الرؤوس . . أما هو فكان ينظر إليها سعيداً بها ، يتأمل جسدها اللدن المكسال الملفوف المدثر في الملاءة الحريرية السوداء اللامعة ، التي تشع سحراً وفتنة وإغراء ، فيشعر بالغبطة تملأ نفسه ، ويتمنى لو تبقى له هذه الغبطة بدوام هذه المودة ، ويؤكد لنفسه وتؤكد له نفسه أنه لن يتوانى عن النزول عن أعز ما لديه — لو طلب إليه ذلك — في سبيل الاحتفاظ بهذه المودة الزكية العطرة التي ترضي روحه وحسه وقلبه ونفسه جميعاً . . وأما هي . . فكانت تنظر إليه بحنو وتدله ، تتأمل جسده الوافي ، ورجولته الكريمة ، وثيابه الإفرنجية الأنيقة ، وتتمنى جاهدة مخلصة أن لو يدوم لها وده وصداقته ومحبته . . إنها تتمنى ذلك وترجوه ، وتلتمس له الأسباب والوسائل ، إنها تريد أن تحتفظ به لنفسها .. إنه أقصى ما تأمل وغاية ما ترجو . . إنه . . إنه رجلها الحبيب الكامل الرجولة الموفور الكرامة . . أية ظروف سعيدة أسعدتها بمعرفته ؟ ؟ وأية ظروف سعيدة كريمة تسعدها بدوام مودته وبقاء حبه لها ؟ ! إنها . . إنها . . يا إلهي . . إنها تفكر جادة صادقة .. وإن فكرها ليهديها .. وإن الطريق التي هداها إليها فكرها لتقنعها تماماً .

وحطمت الصمت وتكلمت . واستمع هو إليها بشغف ، وراعته حماستها ، فأصغى إليها باهتمام زائد .. قالت له : أريد أن أفاجئك بأمر يرضيك عني .. يرضيك عني تمام الرضى ويحفظك لي . قال : فهذا بديع .. بديع جدا . قالت : إن ذلك لن يتم قريباً .. إنه يحتاج .. يحتاج إلى استعداد . ويحتاج إلى مال ، وحصولي على المال يستلزم صبراً وانتظاراً . قال على الفور : فأنا في خدمتك ماذا تريدين . إلى كم تحتاجين ؟ أنا على استعداد لمنحك المبلغ الذي تطلبين مهما ارتفعت قيمته . . . ثم ما لبث أن

أخرج حافظة نقوده وفتحها أمامها ، بين يديها ، وهو يردد في حماسة صادقة : خذي . . . خذي ما تشائين . قالت في تراجع وتهامس وخوف : أتعدني بشرفك أن تجعل ما آخذه منك قرضاً تسترده ، لا منحة . قال : أعدك . فاطمأنت وحصلت على المبلغ الذي أرادته .. وكانت سعيدة بذلك . ثم . . ثم افترقا على موعد قريب للقاء ، حيث تهيئ نفسها لهذه المفاجأة في هذا اللقاء القريب !

وفي موعدهما المحدد ، أقبل هو أشد ما يكون شوقاً إليها وكلفاً بها .. كان يراها بعين خياله مقبلة تتخطر في ملاءتها الحريرية السوداء اللامعة الملفوفة حول جسدها ، لفا مغرياً فاتناً ساحراً ، وعلى وجهها البرقع المخرق ذو القصبة الذهبية الأنيقة والسلسلة الذهبية الدقيقة . كانت عين خياله تنقل إليه صورتها كاملة لامعة براقة . . نفس الصورة الحلوة التي تمناها قديماً والتي حققتها له الأيام . . وأقبلت هي تسعى في دلال . . واقتربت منه ، فما اهتم لمقدمها . . يا للعجب ؟ ! وحيته . وهزته بيديها . فما راعها إلا تبلده وإلا إهماله ، بل إنكاره لها ! يا عجباً ! ماذا أصابه ؟ وحدثته : إلى أين تنظر ؟ أتترقب مجيئي ؟ هأنا ذي أمامك . ونظر إليها دهشاً . ثم مالبث أن حوّل وجهه بسرعة عنها . فقالت متعثرة : أوه إنك لم تعرفني . . لقد أفلحت تماماً في تغيير شكلي ، فالشعر الأسود الفاحم قد صار كالذهب ، والملاءة السوداء ذهبت إلى الجحيم ، والبرقع تخلصت منه نهائياً ، وأتيت إليك فتاة جديدة .فتاة عصرية قد طرحت عنها ثيابها البلدية العتيقة وأتتك في زينة فتيات العصر .. لترضيك .. لتستهويك . . لتستأثر بك . وأشاح عنها بوجهه . لم يرد عليها ولم يحدثها كلمة واحدة ، ثم استدار وولى في الطريق المزدحم وحده ، لا يرى شيئاً ولا يسمع شيئاً ولا يحس شيئاً ، وعلى وجهه خطان من الدمع الحار

لقد فقد الفتاة التي طالما حلم بها ، بعد أن أعياه الانتظار والعثور عليها ! لقد اختطفها منه غرور العصر . . وسفور العصر .. « وموضات » العصر .. لقد أتته فتاة عادية في صورة مغايرة للصورة التي أحبها وهام بها : شعر أصفر معقوص كالتاج وساقان عاريتان كالعاج ، وذراعان مكشوفتان بضتان ، وثوب يبرز تفاصيل الجسد .. أتته في جمال واضح فاتر ، فاتر جدا .. يراه كثيراً جدا ، يراه في الطريق وفي البيوت وفي المراقص .. أما الصورة الحلوة الفاتنة الساحرة المغرية ، فقد مسخت وشاهت .. تماماً كما شاهت صورة دريان جراي .

محمد طلبة رزق

أنباء

نتشر في هذا الباب أخبار النشاط الفكري والأدبي وأنباء الكتب والكتاب مما يوافينا به مندوبونا ومراسلونا بمصر والخارج .

مصر

تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك في العشرين من نوفمبر الماضي بافتتاح مكتبة الأميرة فريال بمصر الجديدة فكان هذا يوماً من الأيام المشهودة التي يوطد فيها جلالته دعائم العلم والعرفان . وقد تفقد جلالته أقسام المكتبة وصعد إلى الطبقة الثانية فزار قاعة السينما والمحاضرات ، وسلم بيده الكريمة رئيس جمعية المكتبة الأستاذ عبد العزيز طلعت حرب بك مصحفاً شريفاً قائلا : « هذه هي هدية فريال » .

وقد ألقى معالي محمد العشماوي باشا وزير المعارف بين يدي جلالته خطاباً قال فيه : « إنها لسنة مباركة وتقليد كريم أن يتفضل جلالته فيشير بأن تكون المناسبات الملكية مواسم للعلم والثقافة وأعياداً للخير والبر ومظهراً من مظاهر التعاطف الاجتماعي بين طبقات الشعب » .

✲✲✲

أعادت وزارة المعارف العمومية تأليف اللجنة الاستشارية للكتب والمجلات فأصبحت مؤلفة من وزير المعارف رئيساً ومن وكيلي الوزارة والمديرين العامين للتعليم والمراقب العام للثقافة العامة ومدير الجامعة الشعبية والدكتور عبد الوهاب عزام بك والشيخ أحمد محمد شاكر والأستاذ إبرهيم عبد القادر المازني أعضاء . ويتولى السكرتارية الفنية الأستاذ محمد بدران ويعاونه الأستاذ سيد قطب

✲✲✲

أخرج الأستاذ الشيخ محمد زاهد الكوثري من علماء الأستانة ونزيل مصر كتاباً عنوانه : « النكت اللطيفة في التحدث عن ردود ابن أبي شيبة على أبي حنيفة » يناقش فيه الحافظ الكبير أبا بكر بن أبي شيبة فيما ادعاه من مخالفة الإمام أبي حنيفة لأحاديث صحيحة في ١٢٥ مسألة من أمهات المسائل الفقهية .

✲✲✲

« رسالة الفكر الحر » هي سلسلة من الكتب في الأدب والعلم والفن يحررها ويصدرها الأستاذ إسمعيل مظهر . وقد أصدر أولى هذه الرسائل في الشهر الماضي بعنوان « عصر الاشتراكية » .

✲✲✲

افتتحت الفرقة المصرية موسمها التمثيلي هذا العام برواية « حواء الخالدة » أو عبلة وعنترة من تأليف الأستاذ محمود تيمور بك وإخراج الأستاذ زكي طليمات . ولقد كان الإخراج وفيا صادقاً تألقت فيه فكرة المؤلف وهي العزوف عن تصوير عبلة وعنترة بما هو مأثور عنهما من إغراق في البطولة وعنف في الحب المضني إلى تصويرهما إنسانين يشعران بما يشعر به الناس من متباين العواطف البشرية. فهل نجح المؤلف والمخرج في هذه المحاولة الجديدة التي يتصارع فيها التاريخ والأساطير والحياة ؟ أكبر الظن أنهما نجحا .

✲ ✲ ✲

فرغ الأستاذ السيد أحمد صقر من تحقيق كتاب «طيف الخيال» للشريف المرتضى على صورة من النسخة الوحيدة المحفوظة في مكتبة الإسكوريال .

✲ ✲ ✲

أتمت لجنة إحياء آثار أبي العلاء المؤلفة من الأساتذة عبد السلام هرون وإبرهيم الأبياري وعبد الرحيم محمود وحامد عبد المجيد تحقيق وطبع القسم الثاني من السفر الثاني من آثار أبي العلاء، وهو يتضمن شروح التبريزي والبطليوسي والخوارزمي لسقط الزند . وقد بقي من هذه الشروح نحو مجلدين تعمل اللجنة في تحقيقهما ووضع فهارس فنية متنوعة لهذه الشروح .

✲ ✲ ✲

يعمل الأستاذ محمود تيمور بك في وضع كتاب بعنوان « أبو الهول يطير » ضمنه مشاهداته في رحلته إلى أمريكا .

✲ ✲ ✲

دعيت جامعة فؤاد الأول للاشتراك في مؤتمر الفلاسفة الذي يعقد في روما بإشراف المعهد الإيطالي للدراسات الفلسفية ، وهو أول مؤتمر من نوعه يعقد في أعقاب الحرب .

✲ ✲ ✲

طلبت جامعة فاروق الأول أن يكون لها نصيب في جزء من مكتبة جلالة ملك إيطاليا الأسبق فيكتور عمانويل ، وهذه المكتبة النفيسة مكونة من نحومائة وخمسين ألف مجلد معظمها من المؤلفات التي تتعلق بحوض البحر الأبيض المتوسط ؛ وقد عرضت هذه المكتبة على وزارة المعارف لاقتنائها وسافر أحد موظفيها إلى روما لمعاينتها وتقدير قيمتها .

✲ ✲ ✲

يفتتح اتحاد المكتبات البريطانية مدرسة للتدريب على أعمال المكتبات في القاهرة بإشراف المعهد البريطاني .

✲ ✲ ✲

في نية معالي محمود فخري باشا أن يطبع في القاهرة كتاب «تاريخ مصر السياسي والدبلوماسي» منذ عصر محمد علي إلى اليوم ، وكان معاليه قد صرف الجهد إلى وضعه في السنوات الأخيرة .

✲ ✲ ✲

أنشأت وزارة المعارف مكتباً في باريس للدعاية ونشر الثقافة العربية وإلقاء المحاضرات وزودته بمكتبة نفيسة ؛ وقد ندب للعمل فيه كل من الأساتذة : ليون محرز وإسكندر شحاتة وسليمان عزت وهذا المكتب على نسق المعهد الثقافي المصري الذي أسس بلندن في غضون الحرب .

✲ ✲ ✲

يظهر قريباً الجزء الثاني من كتاب « الضاحك الباكي » للأستاذ فكري أباظة بك نقيب الصحفيين ، ويمتاز عن الجزء الأول الذي طبع منذ سنوات عشر بفصول ضافية عن الصحافة وأسرارها وزعمائها وأقطابها ودخائلها .

السودان

يعقد في الثاني من ديسمبر في ديوان مصلحة المعارف السودانية بالخرطوم امتحان طلبة شهادة كمبردج التي يتقدم إليها كثير من السودانيين كل عام ، وقد ظهرت الكشوف التي تتضمن أسماء المتقدمين إلى هذا الامتحان .

✲✲✲

تأجل افتتاح قبة الإمام المهدي الذي كان منتظراً في عيد الأضحى إلى شهر فبراير سنة ١٩٤٧ ، وذلك رغبة في افتتاحها في اليوم الموافق لمرور ستين عاماً على إتمام بنائها القديم .

✲✲✲

أوفد المجلس الاستشاري لحكومة السودان بعثة من أعضائه لدراسة نظم التعليم في بخت الرضا تمهيداً لمناقشة برنامج التعليم في مشروع العشر السنوات في الدورة التالية . وكانت البعثة مؤلفة من الأساتذة : الدكتور علي بدري ، وعبد الكريم محمد ، والشيخ أحمد عثمان القاضي ، ومكي عباس

✲✲✲

عقدت الجمعية الفلسفية بالسودان اجتماعها السنوي العام في الشهر الماضي بكلية غردون التذكارية. وتلي في هذا الاجتماع تقرير الرئيس وأمين الصندوق ، وتمت انتخابات أعضاء اللجان واللجنة الجديدة لعام ١٩٤٦ — ١٩٤٧ .

فلسطين

تدور مباحثة بين لجنة الثقافة العربية في فلسطين وحكومة المملكة الأردنية الهاشمية لإقامة معرض الكتاب العربي في عاصمة شرقي الأردن .

✲✲✲

عقدت لجنة الثقافة العربية اجتماعاً عاماً لجميع أعضائها وقررت فيه الاستمرار في إلقاء المحاضرات في مختلف المدن الفلسطينية ، ودرس مشروع إقامة دار للكتب في القدس ، وإعطاء جائزة لأحسن مؤلف عربي سنة ١٩٤٧ ، والاهتمام باصدار مجلة تعبر عن النشاط العقلي والأدبي في البلاد .

✲✲✲

تتلقى الطب في بريطانيا أول طالبة عربية فلسطينية هي الآنسة شارلوت سابا .

✲✲✲

ورد في إحصاء نشرته بعض المصادر الأجنبية أن عدد الكتب العربية التي صدرت في فلسطين ما بين سنة ١٩٢٤ — ١٩٣٥ زهاء ٣٠٩ كتب .

✲✲✲

شرع منظمو المحاضرات التوجيهية لموظفي الحكومة في إلقاء المحاضرات في جمعية الشبان المسيحية . ومن بينهم ثلاثة من كبار الموظفين العرب .

✿✿✿

سافر الدكتور حسام وفا الدجاني إلى الولايات المتحدة للاشتراك في جلسات المؤتمر العالمي لأمراض الأذن والأنف والحنجرة .

✿✿✿

ألقى الدكتور جفري ، أحد أساتذة الجامعة الأمريكية سابقاً ، ورئيس معهد الآثار الأمريكي في القدس الآن ، محاضرة عن قراءات القرآن الكريم .

✿✿✿

أعلنت الندوة الأدبية في القدس عن رغبتها في إصدار كتب اجتماعية شهرية ، وسيكون الكتاب الأول للسيد جبل أبو مبزر وموضوعه « كيف نكسب الأصدقاء » ، والثاني للسيد جمال الدين حجازي وعنوانه « العقد الذهبي » .

✿✿✿

غادر فلسطين العلامة الأب أنسطاس الكرملي بعد قضاء الصيف فيها .

✿✿✿

أرسلت جماعة الإخوان المسلمين في حيفا بعثة من الطلاب إلى الأزهر الشريف .

✿✿✿

أصدر اتحاد الطلبة العرب في فلسطين نداء من نابلس دعا فيه إلى تأسيس « جامعة عربية » في فلسطين .

✿✿✿

بلغ عدد الطلاب الذين التحقوا بمدرسة الحقوق في الدورة الحالية ٤٨٥ طالباً .

✿✿✿

وافقت الحكومة العراقية على قبول ٢٢ طالباً من شرقي الأردن لتلقي العلوم في معاهدها العليا مجاناً .

✿✿✿

صدر العدد الأول من مجلة الذخيرة في القدس وهي « للعلوم والآداب والفنون » .

✿✿✿

صدر في هذا الشهر الكتب الآتية (١) «من هو ؟» لرجال فلسطين ، نشره مكتب الصحافة والنشر (٢) دليل الكتاب العربي الفلسطيني ويحتوي على أسماء الكتب العربية وغير العربية التي ألفها عرب فلسطين (٣) ديوان الفلسطينيات للسيد وديع البستاني (٤) الجزء الأول من سلسلة الطرائف في القراءة للأساتذة إسحق موسى الحسيني ومحمد العدناني وأحمد سعيدان وفائز الغول . وهناك كتب كثيرة تنتظر دورها في المطابع .

لبنان

عاد إلى لبنان المجاهد العربي الكبير الأمير شكيب أرسلان بعد غياب طويل قضاه في أوربة مدافعاً عن قضايا العرب وقد استقبل على المرفأ استقبالا رسمياً ، وأوفد صاحب الفخامة رئيس الجمهورية الشيخ بشارة الخوري رئيس غرفته لاستقباله باسم فخامته .

✡✡✡

كان الأستاذ رشيد سليم الخوري المشهور بالشاعر القروي قد طبع ديواناً من قصائده بعنوان « الأعاصير » حالت السياسة في الماضي دون وصوله إلى لبنان . ورأى بعد إعلان الاستقلال أن يطبعه ويرصد ريعه لمشروع صندوق الأمة العربية لإغاثة فلسطين . وقد تألفت في بيروت لجنة من الأدباء لتنفيذ اقتراح المؤلف الشاعر ومباشرة طبع « الأعاصير » .

✡✡✡

من منشورات دار العلم للملايين « كتاب العرائس » وهو ديوان لشاعر البحرين إبرهيم العريض . وقدم الشاعر محمد علي الحوماني للديوان بكلمة عرف فيها الشاعر البحراني إلى قراء العربية .

✡✡✡

أصدرت نقابة محرري الصحف اللبنانية مجموعة من المقالات المفيدة بعنوان «المحرر» ، عقدها أعضاء النقابة حول مواضيع مختلفة ، تشيع فيها الروح الاستقلالية والفن الصحافي الرفيع . وأهدته إلى صاحب الفخامة الشيخ بشارة الخوري رئيس الجمهورية . وقد مهد النقيب الأستاذ سليم أبو جمرة للمجموعة بمقالة عن ثورة تشرين التي « علمت اللبنانيين حب الحرية والانعتاق ، وعلمت المستعمرين الاعتراف بالحق » .

✡✡✡

تصدر دار المكشوف سلسلة جديدة في منشوراتها بعنوان « الثقافة السياسية » تتناول البحث في المشاكل العالمية المطروحة على بساط البحث . وتظهر الحلقة الأولى منها قريباً بعنوان « مصير النصارى في الشرق » . أما الحلقة الثانية فعنوانها « الوحدة العربية ومراحلها » وكيف انتهت في مرحلتها الأخيرة إلى الجامعة العربية ، وما ينتظر أن تسفر عنه هذه الجامعة من روابط وتعاون بين البلدان العربية .

✡✡✡

من أنباء المهجر أن دار الطباعة في العاصمة الأرجنتينية أصدرت أخيراً القرآن الكريم منقولا إلى اللغة الأسبانية . وقد قام بهذه الترجمة الشاقة الأستاذ سيف الدين رحال مدير الدار المذكورة بمعاونة الدكتور سنتياغو بيرالتا . وتشتمل الترجمة على مقدمات وافية وشروح هامة استنفد إعدادها وقتاً طويلا وجهوداً عظيمة . والترجمة مطبوعة طبعاً فنيا متقناً .

✡✡✡

من منشورات مكتبة الكشاف ومطبعتها في بيروت كتاب « تركيا الحديثة » للأستاذ محمد علي دروزة . يعرض فيه المؤلف لأهم مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في تركيا الحديثة ، ولا سيما العمل الانقلابي لذي قام به باعث النهضة الزعيم كمال أتاتورك .

☼☼☼

تألفت في بيروت ندوة أدبية عرفت باسم « الندوة اللبنانية » غايتها تنظيم سلاسل من المحاضرات الثقافية والاجتماعية والتاريخية والأدبية والفنية يلقيها جماعة من أصحاب الاختصاص في كل علم وفن . و « الندوة اللبنانية » جامعة شعبية تساعد طلاب المعرفة في مواصلة ثقافتهم العامة .

سوريا

وضعت اللجنة الثقافية السورية التابعة للجامعة العربية نظاماً لتشجيع الإنتاج الفكري ، وأقرت وسائل توجيهه وتنسيق الجهود التي تبذلها الدول العربية في سبيله ، ثم وضعت نظاماً آخر للتعاون في شؤون التربية والتعليم مع دول الجامعة العربية ؛ كما أنها أوصت بإصدار تقويم للثقافة العربية يصدر مرة كل سنة يعرف بالمؤسسات والهيئات العلمية وأنظمتها ورجال العلم والفن والأدب .

☼☼☼

صدر في حلب كتاب « الجهاد السياسي » لمعالي عبد الرحمن الكيالي ، وهو يبحث في تطور الجهاد في سوريا ضد الانتداب منذ عام ١٩٢٠ حتى يوم الجلاء . والكتاب مذكرات كتبت في معتقل جزيرة أرواد . وصدر أيضاً ديوان الشاعر عمر أبي قوس « حروف من نار » جمعت فيه القصائد التي نظمها الشاعر في مناسبات وطنية .

☼☼☼

صدر في حمص كتاب « أنا وأنت » للسيد خليل السباعي ، وهو مجموعة رسائل من الأدب الوجداني على الطريقة الرومنطيقية .

☼☼☼

أصدر السيدان عز الدين السمان وشوقي البعاج كتيباً عن « الجزيرة السورية في عهد الاستقلال والحرية » ضمناه أبحاثاً قصيرة عن حالة الجزيرة زمن الانتداب ، وعن مدنها وحالتها الصحية وعشائرها وثروتها الزراعية ونهضتها الصناعية والثقافية .

☼☼☼

صدر في دمشق قصة « نبحاح » للمحامي روحي الأتاسي وهي قصة فتاة يائسة تنتهي بانتحار مؤثر . وصدر كتاب « التشريع الجمركي في سوريا ولبنان منذ أيام السلطنة العثمانية حتى يومنا هذا » للمحامي رزق الله الأنطاكي .

☼☼☼

نال السادة فؤاد شباط وأسعد محاسن ورشيد الدقر شهادة الدكتورية في الحقوق من الجامعة اليسوعية في بيروت ، وكان موضوع رسالة الأول « الأجانب أمام القضاء في سوريا ولبنان » والثاني « البيع العقاري في سوريا » والثالث « النظريات الاشتراكية في الإسلام » .

☼☼☼

ألف الدكتور الكيالي كتاباً عن « أصول الاستعمار بين الأمم » ؛ وألف الأستاذ صلاح المحايري بحثاً عن هنري برغسون وبرتراند رسل والمقارنة بين فلسفتيهما . وألف الأستاذ رزق الله الأنطاكي رسالة في الحقوق العربية الخاصة زمن الجاهلية . وستظهر هذه الأبحاث قريباً .

العراق

في الثلاثين من أكتوبر سنة ١٩٤٦ ، افتتح صاحب السمو الملكي الوصي وولي العهد الأمير عبد الإله ، معرض الآثار الفصلي لسنة ١٩٤٦ ، الذي أعدته مديرية الآثار العراقية . ويحتوي على قاعة جديدة ملحقة بالمتحف العراقي ، عرضت فيها الآثار التي عثرت عليها هذه المديرية في عام ١٩٤٥ — ١٩٤٦ في « تل حرمل » الواقع على نحو ستة أميال شرقي بغداد ، والآثار التي وجدت قرب « عقر قوف » ونماذج من الجبس لـ « قصر الخليفة » بسامراء ، و « المعبد » الذي وجد في تل حرمل ، ويحتوي كذلك على قاعتين من آثار سبق عرضها ، ولكن أعيد تنظيم عرضها حديثاً فصارت جزءاً من هذا المعرض .

✡✡✡

نشرت مديرية الآثار القديمة العامة في العراق ، رسالتين بالإنكليزية للأستاذ طه باقر ، أمين المتحف العراقي ، وصف فيهما نتائج أعمال التنقيب في أطلال « عقر قوف » التي كانت عاصمة دولة الكشيين في العراق (١٧٥٠ — ١١٧٠ ق . م) . وتقوم هذه الأطلال على نحو ٣٠ كيلومتراً من غربي بغداد .

✡✡✡

فرغ القس بولس شيخو الكلداني بالموصل ، من نقل رحلة السائح الإيطالي ، غسبارو بلبي (Gasparo Balbi) إلى اللغة العربية . وهي من أقدم الرحلات الأوربية إلى بلاد العراق . فيها وصف بلبي رحلاته في السنوات ١٥٧٩ — ١٥٨٨ م من حلب إلى العراق وهرمز ، مارا بالفلوجة وبغداد والبصرة. وقد تم نقلها عن الأصل الإيطالي المنشور في رومة سنة ١٩٣٢ بتحقيق المستشرقة الإيطالية ألغا بنتو (Olga Pinto) .

✡✡✡

أصدر الشاعر البغدادي إبرهيم يعقوب عوبديا في السنة الماضية ، ديوانه الأول « خفقات قلب » ، وها هوذا الآن يصدر ديوانه الثاني الموسوم « وابل وطل » . وقد أهداه إلى صاحب الجلالة فيصل الثاني ملك العراق . وأفرغ الشاعر مقطوعاته في ثلاثة أبواب : ألحان الوطن ، أصداء المجتمع ، آهات النفس .

✡✡✡

وضع الأستاذ هاشم جواد كتاباً بعنوان « مقدمة في كيان العراق الاجتماعي » ، وهو من منشورات « جمعية الرابطة الثقافية ببغداد » .

✡✡✡

نشر الدكتور فائق شاكر ، صاحب المؤلفات المختلفة في الطب ، رسالة جديدة بعنوان « الشيخوخة الخضراء » تبحث في أمراض الشيوخ وطرق الوقاية منها وعلاجها .

✡✡✡

نشرت وزارة العدلية العراقية « مصطلحات القانون المدني » التي وضعها مجمع فؤاد الأول للغة العربية في دورته التاسعة سنة ١٩٤٢ — ١٩٤٣ .

✿✿✿

نشر الأستاذ السيد مسلم الحلي ، في النجف ، كتاب « الميزان الصحيح » بحث فيه ما تحسن معرفته من الحقائق المتعلقة بمذهب الإمامية الاثنا عشرية .

✿✿✿

أصدرت « جمعية حماية الأطفال في العراق » مجلة شهرية إرشادية سمتها « مجلة الأم والطفل » وهي الأولى من نوعها في العراق .

✿✿✿

يعنى الأستاذ عزرا حداد ، ناقل رحلة بنيامين التطيلي إلى العربية ، وصاحب البحوث الأدبية المختلفة ، بوضع تأليف شامل يتناول « تاريخ اليهود في العراق منذ أقدم العصور حتى الفتح الإسلامي » .

✿✿✿

في الحادي والعشرين من أكتوبر الماضي توفي في بغداد بالسكتة القلبية الأستاذ طه الراوي أحد كبار أدباء العراق وعلماء اللغة فيه . وقد كان أستاذاً لجيل من الشباب المتأدب في بلاد الرافدين ، وله في الأدب والتاريخ مؤلفات نفيسة منها كتاب « بغداد مدينة السلام » الذي نشر في سلسلة « اقرأ » . ولقد مثل بلده في المؤتمرات الثقافية والأدبية بين مصر والعراق وفي مهرجان المعري ؛ وقد كان في أواخر عمره أستاذاً للأدب العربي في دار المعلمين العالية ورئيساً للجنة التأليف والترجمة والنشر ببغداد ورئيساً للجنة وضع تاريخ العراق .

الهند

وصل وفد من أستراليا إلى الهند لإيجاد العلائق التجارية مع الهند ، وصرح رئيسه بقوله : إننا لا نريد شيئاً غير التعاون التجاري فيما يحتاج إليه القطران .

✿✿✿

ستؤسس بالهند الأكاديمية الحربية الوطنية (The National War Academy) في خدكواسلا بقرب مدينة پونا على طراز الأكاديمية الأمريكية في وست پونت وأناپولس ، وقد رفعت اللجنة الأكاديمية الحربية الهندية مشروعاً لذلك إلى الحكومة الهندية الحاضرة فوافقت عليه .

✿✿✿

من نوادر تراث العرب بالهند في أسماء الرجال « الكاشف » للذهبي وهو في رجال الصحاح الستة . والنسخة مكتوبة بيد أبي الفتح السبكي المتوفى سنة ٧٤٤ هجرية وهي في مكتبة پتنة .

✿✿✿

وفي المكتبة العلوية في إمارة سليم بور « كتاب العبر في أخبار ما غبر » للذهبي في أحوال رجال القرن السابع ؛ وهو مكتوب في سنة ٨٦٩ هجرية ، وله نسخ أخرى في مكاتب العالم .

✿✿✿

من كتب التوحيد بالهند شرح التأويلات للماتريدي المتوفى سنة ٣٣٣ هجرية والشرح لأبي بكر محمد بن أحمد السمرقندي ، والكتاب من أحسن التصانيف في أصول التوحيد عند أهل السنة . ونسخته الخطية في مكتبة بانكي بور .

شمال أفريقية

ظهر أخيراً للأستاذ أحمد توفيق المدني كتاب «المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا» تناول فيه جغرافية الجزيرة وتاريخها العام وما بلغته في عهد المسلمين من تمدن وعمران وتاريخ العلوم والآداب بها ، ثم زوال حكم المسلمين عنها .

✲ ✲ ✲

صدر كتاب « الصحة والجمال بالتربية البدنية الفنية » للأستاذ السيد أحمد بن شعبان ، وهو كتيب يشتمل على إرشادات مفيدة لرياضة الجسم . وهو أول دليل عملي ينشر باللغة العربية بتونس لتعليم الرياضة في المنزل .

✲ ✲ ✲

« الإنتاج التأليفي بتونس » كتاب جليل يعتبر فتحاً جديداً في بابه ، ألفه وقدمه للطبع الأستاذ محمد عطية مدير المدرسة الصادقية بتونس .

✲ ✲ ✲

يصدر قريباً للأستاذ على البلهوان أحد محرري مجلة المباحث الغراء بتونس كتاب بعنوان « ثورة الفكر أو مشكلة المعرفة عند الغزالي » .

✲ ✲ ✲

أوفدت إدارة المعارف العمومية في برقة بعثة علمية من الطلاب البرقاويين للدراسة بمدارس مصر الثانوية ، وبعثة أخرى إلى المعهد البريطاني بالقاهرة .

✲ ✲ ✲

أنشئت في مدينة الأبيار ببرقة مدرسة كبرى تشتمل على أقسام للدراسة الداخلية والنهارية ، وقسم خاص للزراعة يتدرب فيه طلاب البادية علميا وعمليا على مختلف الأساليب الزراعية الحديثة ، وتضم الآن هذه المدرسة الكبرى عدداً كبيراً من الطلبة ينتظر أن يتضاعف في العام الدراسي القادم .

✲ ✲ ✲

وصل إلى برقة الدكتور « ممدوح حتي » خريج كلية الحقوق السورية والمتخصص في علم النفس ، وتقلد منصب مدرس التربية وعلم النفس في مدارس مدينة درنة .

✲ ✲ ✲

انتهى الأستاذ يوسف العسلي الطرابلسي من ترجمة كتاب « ليبيا في العصر العثماني » وقد ألفه الميجر كاكيا متصرف طرابلس الغرب السابق ، ويشتمل على تاريخ دخول الأتراك طرابلس وانتزاعها من فرسان مالطة وإدارة العثمانيين لهذه البلاد حتى الاحتلال الإيطالي عام ١٩١١ .

✲ ✲ ✲

احتفل في أواخر شهر أكتوبر بافتتاح المدرسة الثانوية الجديدة بمدينة طرابلس الغرب . وقد عين اثنان من الأساتذة الطرابلسيين لتدريس اللغة العربية وآدابها بالمدارس الإيطالية في طرابلس الغرب .

✡✡✡

عرضت بمعرض مكتب الاستعلامات البريطاني في مدينة طرابلس الغرب لوحات فنية رائعة من رسم الرسام الإنجليزي وليم بليك ، وافتتح المعرض المذكور البريجادير بلاكلي رئيس الإدارة العسكرية بطرابلس .

انجلترا

يصدر قريباً للكاتب أريك ماريا ريمارك ، مؤلف القصة المعروفة « كل شيء هادىء في الميدان الغربي » التي ترجمت إلى العربية منذ سنوات والتي بيع منها باللغة الإنجليزية ما ينيف على الخمسة ملايين نسخة ، قصة جديدة بعنوان « قوس النصر » .

✡✡✡

من القصص الرائعة التي ظهرت في أعقاب الحرب قصة بقلم الكاتب نيومان بعنوان « أطفال ڤينا » ، يروي فيها قصة فئة من الأطفال الذين فقدوا الأهل والمأوى وخبروا الجوع وافتقدوا الأمن والعطف لكنهم برموا به ولم يأمنوا إليه حين وجدوه ... والمؤلف بارع القلم ، يمس شغاف النفس ويحلل أعمق مشاعرها . ورغم مآسي القصة فإنها تمسك بانتباه القارىء وتبعث فيه المتعة الفنية من أولها إلى آخرها .

✡✡✡

من الكتب النفيسة التي ظهرت في سلسلة المكتبة الدولية لعلوم الاجتماع كتاب للدكتور هرمان مانهايم بعنوان « قانون العقوبات وإصلاح المجتمع » يدعو فيه إلى أنه لا بد في هذا العصر ، الذي يتميز بالتحول السريع في ميادين السياسة والاقتصاد والاجتماع ، من إصلاح القانون الجنائي حتى يؤدي الوظيفة التي وجد من أجلها . والمؤلف من الثقات في هذه الناحية ، ويعرض مقترحات أصيلة جريئة عن إصلاح القانون وتنظيم المحاكم ، وكفاح الإجرام قبل وقوعه كما يبحث في العقاب وطرق تعديله.

✡✡✡

من الكتب التي تهم المشتغلين بالمسائل الاجتماعية في الشرق الأدنى كتاب ظهر أخيراً عن الخدمات الاجتماعية في بلاد الدنمرك . ذلك لأن هذه البلاد رغم أنها تعتمد على الزراعة ورغم تكدسها بالسكان قد استطاعت أن تصل بفضل تنظيمها الاجتماعي إلى مستوى من الحياة قد يفوق مثله في كثير من البلاد الصناعية نفسها . ويعرض هذا الكتاب لمختلف التجارب الاجتماعية التي وصلت بتلك البلاد إلى هذا المستوى . وقد أصدر الكتاب مؤلف دنمركي مستعيناً بغيره من الخبراء في النواحي الاجتماعية والصحية والاقتصادية من أبناء بلاده .

✡✡✡

« محاكم الأحداث » كتاب بقلم مؤلف اشتغل سنوات طويلة في محاكم الأحداث في لندن واشترك في دراسة آلاف من قضاياهم وهو يعرض في كتابه هذا خلاصة خبرته في إجرام الأحداث والأسباب التي تدفع إليه ، ويعرض فيه عمل محاكم الأحداث ونظامها هنا .

✡✡✡

ظهر كتاب بعنوان « أنفاس الفساد » وهو دراسة أدبية ممتازة عن الكاتب الروسي المعروف دستوئيفسكي فازت في مسابقة دولية للكتب ، وهو بحث يلقي ضوءاً جديداً على عبقرية دستوئيفسكي ويحلل مؤلفاته تحليلا مفصلا .

✡✡✡

من طريف ما ظهر من الكتب مجلد يتضمن المنتقى من الشعر الإنجليزي عن القطط ، حتى لقد تشكك أحد النقاد في المأثور عن الإنجليز من حب الكلاب وإيثارها .

✡✡✡

كان البناء القديم لمكتبة جامعة أكسفورد يرجع إلى سنة ١٤٤٤ مع الإضافات التي ضمت إليه سنة ١٦١٠. ثم غص ذلك البناء بالكتب حتى ضاق بها تماماً منذ النصف الأخير من القرن التاسع عشر حيث بدأوا يفكرون في حل لهـذه المشكلة . فتكونت لجنة آخر الأمر لهذا الغرض وأصدرت تقريراً كثر الجدل حوله ، حتى شرعوا في البناء الجديد سنة ١٩٣٨ وانتهى في مطالع الحرب ، ثم استخدم في أغراض شتى ، حتى احتفل بافتتاح المكتبة الجديدة خلال شهر أكتوبر الماضي بحضور الملك والملكة . وألقيت كلمات الاحتفال باللغة اللاتينية ورد عليها الملك بالإنجليزية .

والبناء الجديد يشمل ثلاثة طوابق تحت الأرض وثمانية فوقها ، ويمكن أن يسع خمسة ملايين مجلد ، وينتظر أن يكفي للغرض منه مائتي سنة .

✡✡✡

أعلن قسم الأبحاث العلمية والصناعية أنهم سوف يصنعون في إنجلترا « دماغاً كهربائيا » يفوق الآلة التي صنعت في أمريكا . وسوف تبلغ نفقات صناعته ما بين المائة والمائة وخمسة وعشرين ألفاً من الجنيهات ، وأن هذه الآلة سوف تستطيع ضرب عددين كل منهما من عشرة أرقام في جزء من ألفي جزء من الثانية . وسوف تستغرق صناعتها حوالي ثلاث سنوات .

أمريكا

نجح الدكتور برترام لوبير بجامعة كاليفورنيا في علاج مرض السرطان الجلدي باستخدام محلول الفسفور ٣٢ ذي الإشعاع الكيميائي الذي دلت التجارب على أنه أنجع كثيراً في شفاء هذا المرض الخبيث من الراديوم وأشعة إكس .

✡✡✡

توصل أخيراً بعض العلماء في تحقيق حلم شركات السينما وشركات التليفزيون الخاص بنشر روائح الأشياء التي تظهر على الشاشة . فسوف يرى الناس قريباً صور الحدائق على الشاشة مصحوبة بأريج الورود والأزهار المختلفة ، وصور المطاعم مصحوبة برائحة الطعام وهكذا . . .

✡✡✡

من الكتب التي صدرت أخيراً بأمريكا « إلى أين نحن سائرون » بقلم سمنر ولز (Where are we heading by Summer Wels) والمؤلف هو وكيل وزارة الداخلية الأمريكية السابق . وهو

يلقي كثيراً من الضوء على المشاكل العالمية المعقدة الخاصة بتدعيم السلم العالمي وإعادة تنظيم الحياة في العالم وخاصة في أوربا على أسس سليمة تمنع من نشوب حرب عالمية ثالثة .

✡ ✡ ✡

« أيمون دي فاليرا » بقلم م . ج . ماكمانوس (Eamon de Valera by M. j. Mac Manus) يسرد هذا الكتاب تاريخ الحركة الاستقلالية في إرلندا على يد البطل الإرلندي الشهير إيمون دي فاليرا ، مع بيان نواحي بطولته المختلفة وتأثير روحه الفذة في النهوض بالروح المعنوية في أمته

✡ ✡ ✡

« الفن في روسيا » لهيلين روبيسو (Art of Russia by Helen Rubissow) لعل هذا أول كتاب من نوعه يجمع نماذج من فن الرسم الروسي منذ القرن الرابع عشر حتى اليوم مع مقدمة مطولة في تاريخ هذا الفن في روسيا .

✡ ✡ ✡

« الأمريكيون المفقودون » بقلم فرانك هيبن (The Lost Americans by Frank Hibben) يحاول مؤلف هذا الكتاب أن يكشف الستار عن تاريخ هؤلاء الناس المجهولين الذين كانوا يعيشون في القارة الأمريكية منذ خمسة عشر ألف عام خلت ، معتمداً في ذلك على ما كشفه علماء الآثار والجيولوجيا من مختلف الحفريات والأدوات والآثار في أنحاء القارة الأمريكية .

✡ ✡ ✡

قام أخيراً متحف الفن الحديث بنيويورك بنشر سلسلة من الكتب الفنية المختلفة صدر منها عشرة كتب من بينها كتاب « تاريخ الفن التأثيري » بقلم چون ريولد (History of Impressionism by John Rewald) وهو أول تاريخ مفصل لهذه الحركة الفنية ولرجالها المختلفين مع عرض ٤٧٥ لوحة و ٢٢ لوحة ملونة . وكتاب « بيكاسو : خمسون عاماً من فنه » بقلم الفرد بار (Picasso. Fifty years of his art by Alfred H. Bara.) وهو عرض لتاريخ حياة هذا الفنان وشرح لنواحي فنه المختلفة مع عرض ٣٠٠ لوحة له و ٧ لوحات ملونة .

✡ ✡ ✡

تحتوي مكتبة جامعة كلفرنيا على نصف مليون كتاب ومن بينها كتاب مجلد بجلد إنسان واسم هذا الكتاب « علاقات الهيئات في مدينة مسينا » كتبه سنة ١٧٦٧ كاتب فرنسي مجهول ونقشت على الغلاف عبارة « مجلد بجلد إنسان » .

روسيا

عمدت أكاديمية العلوم السوفيتية إلى نشر الثقافة العلمية بين مختلف الطبقات بإصدار طبعات شعبية من الكتب العلمية بأسلوب سهل مبسط يفهمه الصانع والزارع ورجل الشارع . وأهم ما صدر من هذا المشروع سلسلة « المشاكل الحديثة في العلوم والفنون » تتناول أحدث ما وصل إليه النشاط البشري في ميادين الكيمياء والجغرافية والهندسة والرياضيات والطبيعة وعلم الأحياء .

✡ ✡ ✡

قدم الأستاذ لوتسكي رسالة لنيل الدكتورية في العلوم التاريخية من جامعة موسكو عن « قضية فلسطين » أثبت فيها أن فلسطين فقيرة في مواردها الاقتصادية ولكنها في مركز ستراتيجي من الدرجة الأولى لأنها موقع مفتاح الشرق الأدنى ، ثم فصل المراحل التاريخية التي مرت بها قضية فلسطين إلى أن تحولت إلى ساحة مصادمات مستمرة بين العرب والصهيونيين .

✡ ✡ ✡

توفى العالم إسكندر باخ صاحب المؤلفات الهامة في الأبحاث الكيميائية ومجرى التنفس وعناصر الاختمار والتحول الكيميائي في تكوين النبات والحيوان .

✡ ✡ ✡

نشر كالاتوزوف الملحق السينمائي بوزارة الخارجية ورئيس الوفد السوفيتي في المهرجان الدولي للفلم الذي عقد في مدينة «كان» بفرنسا دراسة عن مستقبل السينما وعن النجاح الذي أحرزه رجالها في روسيا باختراعهم للسينما ذات الاتجاهات الثلاثة أي الطول والعرض والعمق وذكر أن هذا الاختراع سيؤدي إلى انقلاب واسع المدى في عالم السينما وفي هندسة صالات العرض .

✡ ✡ ✡

وضع موريس هندرسن رواية جديدة بعنوان « كابتن فيرا كريلوفا » وصف في خلالها حياه المرأة الروسية في إبان الحرب الأخيرة ، والمؤلف صحفي عالمي جاب أنحاء روسيا وأخرج عدة كتب عنها

✡ ✡ ✡

أقام محمد كامل البنداري باشا وزير مصر المفوض في موسكو حفلة استقبال بالمفوضية المصرية حضرها عدد كبير من أدباء الروس البارزين . وقد ألقى البنداري باشا كلمة ترحيب تحدث فيها عن ضيوفه الروس ومن بينهم الكاتب الروائي المعروف إيليا إهرنبرج والشعراء صموئيل مرشاك وسرج بشاروف وألكسندر ميخالوف .

وكان ممن حضر الحفلة الرفيق كاراجانوف نائب رئيس جمعية الاتحاد السوفيتي للعلاقات الأجنبية والأستاذ خليل تقي الدين وزير لبنان المفوض وعبد الرحمن سلطانوف من رجال المفوضية الروسية في القاهرة وممثلو المسرح الروسي ورجال المفوضيتين المصرية واللبنانية .

فرنسا

عقدت الهيئة الثقافية الدولية مؤتمرها في السربون في اليوم التاسع عشر من نوفمبر وسيظل المؤتمر منعقداً حتى العاشر من ديسمبر وقد اشتركت فيه ٤٤ دولة ومثل مصر فيه الأساتذة شفيق غربال بك وعبد الواحد خلاف بك ونمير سيف الدين والفنان ناجي والدكتور حسن فؤاد الديواني والأستاذ محمد أبو درة .

✡ ✡ ✡

ألقى الأستاذ ماسنيون في قاعة محاضرات السربون محاضرة عن « أثر الحضارة العربية في الثقافة الفرنسية » كان لها صدى بعيد في نفوس الأدباء والهيئات الأدبية .

ألقى أخيراً المسيو جان ببرار الأستاذ بجامعة نانسي محاضرة في أكاديمية الفنون الجميلة سيكون لها أثر كبير في العلوم التاريخية ، فقد قرر هذا الأستاذ — استناداً إلى الدراسات التي قام بها — أن سقوط «طروادة» كان في الربع الأول من القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وكان المعروف أنها سقطت سنة ١١٨٣ قبل الميلاد ، كما ذكر أراتوستين . فإذا صح هذا الرأي الجديد وجب تأخير جميع تواريخ الحوادث التي تلت هذا الحادث .

✡ ✡ ✡

يقام الآن في قاعة شاربنتييه معرض كبير للرسم والحفر السويسريين يشترك فيه أساتذة الفن في سويسرا . كما يقيم الفنانون الصينيون في باريس معرضاً يضم ١٦٠ لوحة و ٥٠ تحفة من تحف الحفر .

✡ ✡ ✡

احتفل مجمع فرنسا بذكرى تأسيسه فعقد اجتماعاً رسمياً افتتحه رئيسه بكلمة أبن فيها الأعضاء الذين قتلوا في الحرب ؛ ثم ألقى مندوب مجمع الخطوط والفنون الجميلة محاضرة عن «الشعر الفينيقي» .

✡ ✡ ✡

وافق أعضاء المؤتمر الدولي لأسرة القضاء بالإجماع على اقتراح بإنشاء « الجمعية الدولية للمتشرعين » تكون مهمتها تسهيل الاتصال بين المتشرعين في جميع أنحاء العالم .

✡ ✡ ✡

من المظاهر البارزة التي تجلت في الجلسة التي عقدها مجمع العلوم بباريس وجود كثير من العلماء الأجانب من بينهم مدير معمل الطبيعة الوطني في بريطانيا ، ومدير مرصد كمبردج ، وأستاذ الهندسة في جامعة زرويخ ، وعميد كلية العلوم بجامعة كويبك .

✡ ✡ ✡

من أهم الأنباء الأدبية عن فرنسا القرار الذي اتخذته الجمعية العمومية المتعلق بحق الاعتراض على التشريع القاضي بمصادرة المؤلفات المسيئة إلى الأخلاق العامة . وقد وافقت الجمعية على القرار بالإجماع . ومما يذكر في هذه المناسبة أن المحكمة قضت عام ١٨٥٧ بسحب ديوان «زهور الشر» للشاعر بودلير وفرضت عليه وعلى الناشر دفع غرامة مالية دون أن يجيز لهما القانون الاعتراض على حكمها .

✡ ✡ ✡

وضع اسم المسيو هريو في قائمة المرشحين لعضوية المجمع اللغوي الفرنسي خلفاً للمسيو أكتاف أوبري .



رسائل القراء

البلهبذ

لقد ورد في ص ٦٣٩ من الجزء العاشر من «كتابكم» سنة ١٩٤٦ في أثناء نقد الأستاذ محمد عبد الغني حسن قوله : « فقد أطال الوقوف – يعني مؤلف الشوامخ – بباب الأبواب وأبيض المدائن والإيوان حتى الجرماز ، ولكنه لم يقرئ البلهبذ السلام ولم يعره أي اهتمام ولم يقل لنا ما هذا اللفظ الذي ما كان يستحق الإغفال والإهمال » وقال – حفظه الله – في الحاشية « وردت كلمة البلهبذ في بيت البحتري :

وتوهمت أن كسرى أبرويـ ز معاطي والبلهبذ أنسي

ولم يفتح الله عليّ بفهمها وكأن الدكتور صبري يضن علينا بتفسيرها » اهـ .

قلت : إن البلهبذ الذي ذكره البحتري كان مغنياً فارسياً مروزياً ، وكان ذا ظرف وأدب وشعر ، حتى لقد قال الوزير أبو القاسم المغربي: [وأنا أعجب من موافقة النابغة في قوله : « كأنك شمس والملوك كواكب . . . » للبلهبذ مغني كسرى أبرويز لما قال شعراً أنا أكتبه أعجميا وأذكر تفسيره عربياً لتتأمله فإنه طريف ، وكان قد زار قيصر وخاقان كسرى فقال البلهبذ عند اجتماع الثلاثة – وذكر شطراً بالفارسية – : قيصر يشبه القمر وخاقان الشمس . – وذكر شطراً ثانياً بالفارسية – : والذي هو مولاي يشبه الغيم المتمكن – وذكر شطراً ثالثاً بالفارسية – : إذا شاء غطى القمر وإذا شاء غطى الشمس* .

تأمل قوله « يشبه الغيم المتمكن » فإن لفظة المتمكن جليلة القدر في هذا الموضع] . قالوا : [دعا كسرى أبرويز ليلة من الليالي « البلهبذ » وكان عند كسرى صاحبته « شيرين » وكان البرد شديداً فقال له : اشتقت إليك وأحببت أن أقطع ليلتي بغنائك ، فغناه حتى سكر البلهبذ وخرج ليبول فسقط عند أصل سدرة ، فقال أبرويز

---

* قال مصطفى جواد : الفرق بين الشعور العربي والشعور الفارسي كبير فالعربي أوسع ممدوحه نوراً وبهاء وضياء وجمالا ، والفارسي أوسع صاحبه سلطة وسيطرة وإن كانتا مظلمتين بغيضتين فأية موافقة بين المعنيين ؟

لشيرين : ليت شعري أين ضيفنا ؟ وخرج فرآه نائماً ، فطرح عليه ثوب سمّور كان عليه ، ولما كان وجه الصبح قال أبرويز لشيرين : ما ترين أمر ضيفنا ؟ قالت : الملك أعلم . قال : أراه هب من نومه فلما رأى ثوبي عليه عرفه وأجله فنزعه ونزع قباءه فبسطه ووضع ثوبي عليه وكفّر قائماً عنده . فقالت شيرين : إن كان هكذا فالملك ينظر بالنور [1] قال : قومي . فقاما ، فوجداه كذلك ، فأمر له بمال وأقطعه براز الروز وباكسرى «باجسري» وغيرها . إلى أن قالوا : ويقال إن بلهبذ بقي بعد كسرى دهراً وإياه عنى البحتري بقوله في القصيدة العجيبة التي هي من بدائعه . إلا أنه بلغني [2] عن أبي الفضل ابن العميد — وكان من العلم بالمقام الأمين — أنه قال : ما زلت أعد البحتري في المطبوعين حتى سمعت له هذه القصيدة فاستدللت بها على تكلفه . وما أدري من أين قال ذلك إلا أن يكون أخذ عليه البيت الأول منها فإنه خسيس الكلام . قالوا : وكان السبب في بناء قصر شيرين [3] أن الملك أمر أن يبنى له باغ [4] يكون فرسخين في فرسخين وأن يصير فيه من كل صيد حتى يتناسل ، ووكل به ألف رجل وأجرى على كل رجل خمسة أرغفة ورطلين لحماً ودورق خمر ، فأقاموا فيه سبع سنين حتى فرغوا منه ؛ فلما تم البناء التجؤوا إلى البلهبذ [5] مغني الملك وسألوه أن يخبر الملك بفراغهم من الباغ فعمل صوتاً وغناه بين يدي الملك وسماه « باغ نخجيران » أي باغ الصيد ، فطرب الملك وأعطى كل واحد منهم ألف درهم فجعلوها للبلهبذ] .

هذا ما وجدته في مجموعي الخطي الموسوم بأصول التاريخ والأدب [6] في المجلد الأول والمجلد السادس والعشرين نقلا من كتاب المجموع اللفيف للقاضي أمين الدولة محمد بن محمد بن هبة الله العلوي الحسيني المصري من أهل القرن السادس للهجرة ومن غيره من الكتب .

وذكر الأستاذ المحقق أيضاً في الصفحة نفسها « عبد السلام المصري » نقلا عن صاحب الشوامخ ، والصواب « البصري » وهو عبد السلام البصري المشهور خازن دار العلم السابورية ببغداد وأستاذ أبي العلاء المعري وصديقه . والله ولي التوفيق .

بغداد　　　　　　　　مصطفى جواد

---

(١) إشارة إلى عبادة المجوس للنار والنور . (٢) هذا قول الوزير أبي القاسم المغربي .
(٣) موضع قرب كرمانشاه بين همذان وخانقين فيه أبنية عظيمة شاهقة وقصور وميادين وعمارات لم يبق إلا آثارها وكان من عجائب الدنيا ولا يزال الموضع معروفاً . (٤) الباغ : البستان
(٥) وجاء على عدة صور «فهربذ وباربذ وفهلبذ» وغيرها وباربذ هو الأصل وتعريبه بلهبذ
(٦) هو في ٣٥ مجلداً صغاراً وكباراً .

اليـازجي

نشرتم في عدد سبتمبر الماضي نقداً لـكتاب مرحلة وأجواء للأستاذ توفيق اليازجي ؛ ولا شأن لي في الاعتراض على نقد الناقد ، وإنما وددت لو حاول دفع الالتباس بين توفيق اليازجي المقيم في لبنان وتوفيق اليازجي المقيم في القاهرة وهو مستشار المفوضية السورية ✿ . . .

قارىء

ألرؤبة أم لحسان بن ثابت ؟

في عدد سبتمبر سنة ١٩٤٦ من مجلة « الـكتاب » مقال للأستاذ كامل محمد عجلان عنوانه « في مسارح الجن » . وقد نسب الـكاتب الفاضل الأبيات التالية إلى رؤبة :

إذا ما ترعرع فينـــا الغلام فليس يقال له من هـــوه
إذا لم يسد قبل شد الإزار فذلك فينـــا الذي لا هــوه
ولي صاحب من بني الشيصبان فطوراً أقول وطوراً هــــوه

والمعروف المحفوظ أن هذه الأبيات لحسان بن ثابت شاعر الدعوة الإسلامية ؛ وهي مدونة في طبعات ديوانه . وأقربها طبعة مطبعة السعادة بشرح الأديب الضابط محمد العناني صفحة ٣٥٠ . وهذه رواية ابن الكلبي ، وقد رواها الأثرم لحسان أيضاً ولـكن في مناسبة أخرى .

فلعل الأستاذ كامل عجلان يتفضل علينا بالمصدر الذي نسبت فيــه هذه الأبيات إلى رؤبة الرجاز .

بعضهم

✿ «الـكتاب» : مؤلف مرحلة وأجواء هو الأستاذ توفيق اليازجي المقيم بلبنان



السنة الثانية — صفر ١٣٦٦
الجزء الثالث — يناير ١٩٤٧
المجلد الثالث

أصوات وأصداء

التمثيل وقواعد الوقف

افتتحت الفرقة المصرية موسمها التمثيلي برواية « حواء الخالدة » ، ويخيل إلينا أن باكورة هذا الموسم — فيما اشتملت عليه من جدّة في التأليف وبراعة في الإخراج وحذق في الأداء — لم تقصد به الفرقة إلا أن يشعر الجمهور بما وراء أروقة المسرح من روح جديدة متوثبة ، تريد أن تخلص للفن ، وأن توفر له أسباب الحياة . وسنرى في نهاية الموسم إلى أي مدى استطاعت تلك الروح أن ترفرف بأجنحتها في أجواء الفن والعلم والابتكار .

ولقد سرّنا أن نلمس أثر المخرج في عناية الممثلين بأداء اللغة أداءً صحيحاً ، واهتمامهم بمجانبة اللحن ، واتباعهم قواعد الوقف العامة ، كإسكان الحرف الأخير من الكلمة الموقوف عندها ، وإلى هنا لا جناح ولا غبار . . .

وتتقاضانا الأذن أن نسهم لها بنصيبها في متعة التمثيل ، كما نسهم به للعين والذهن والقلب ؛ ولا نخالها ترضى وتغتبط في خطاب المؤنث بإسكان الضمير عند الوقف ، ففيه نغمة ناشزة ، توقع اللبس بين خطاب المذكر والمؤنث ، ولا ترتاح الأذن لسماعها من مثل : « يا سيدتي أريد أن أسمعَكْ » أو « يا سيدتي سارعتُ إليْكْ » ، فالوقف على السكون ينتهي بنا إلى مثل هذا النطق ، فهو إن رضيت به المرأة لرغبتها في المساواة بالرجل فلن يرضى عنه الرجل النافر عن تلك المساواة ، ولا الأذن التي تقول لها العين إن الخطاب موجه إلى أنثى . والسبيل في رأينا إلى تفادي هذا اللبس وهذا الشذوذ يقوم على اتباع قاعدتين من قواعد الوقف ، أولاهما :

أن نستعمل قاعدة « النقل للمجاورة » بأن ننقل عند الوقف كسرة الضمير إلى الحرف الذي قبله فننطق بالجملة الأولى هكذا : « يا سيدتي أريد أن أسمعِكْ » ، وفي هذا النقل إشعار للأذن بخطاب المؤنث ، فتقر وتستريح . وليس في هذا بدع فقد استعمله العرب ولكن اشترطوا أن يكون الحرف السابق ساكناً يقبل الحركة كقول الراجز :

علّمها إخواننا بنو عِجِلْ شرب النبيذ واصطفاقاً بالرِجِلْ

أو كقول الآخر :

يا أيها الساري المضل مذهبُهْ دونك هذا البكرَ منا فاركَبُهْ

غير أنه يحسن بنا أن نتجاوز عن هذا الشرط كما تجاوز عنه بنو لخم كقول بعضهم :

من يأتمر للخير في ما قَصَدُهْ تحمدْ مساعيه ويُعلَمْ رَشَدُهْ

وثانيتهما : أن نستعمل قاعدة « الرَّوْم » إذا كان الحرف السابق ساكناً لا يقبل الحركة كما في لفظة « إليك » في المثل الثاني الذي ضربناه ؛ وهذا الروم هو الإشارة بصوت خفي إلى حركة الحرف الموقوف عليه ، واختلاسها اختلاساً لطيفاً ، فتكون كأنها جزء من الحركة ، ويكون ذلك كالعوض من التصريح بها ، والمراد به التنبيه على نوع الحركة ، فكأن المتكلم يروم أن يدل عليها ولا يظهرها بتمامها .

ونرجو — إن لم نكن مخطئين في هذا الرأي الذي بسطناه — أن نرى له صداه القريب في نفوس المهيمنين على شؤون الفرقة المصرية ومصايرها . فلقد عرفناهم قوماً ينشدون الكمال في أعمالهم ويقودهم إلى النجاح فيها غرامهم بالمثال الأعلى .

تدريس الطب باللغة العربية

لعل كلية الطب في الجامعة السورية بدمشق هي الكلية الوحيدة التي تدرس الطب باللغة العربية فقط ، وإنها لنزعة قومية جديرة بالحمد والثناء ، ولقد اقتُرِح على الكلية في الأيام الأخيرة أن لا يقتصر التدريس فيها على اللغة العربية ، وأن تستخدم فيه اللغات الأجنبية أيضاً ؛ وإننا — مع ما في هذا الرأي من وجاهة ووزن — لا نوافق المقترح على اقتراحه ، بل نرجو أن تحذو باقي الكليات بجامعات العلم في البلاد العربية حذو كلية الطب بدمشق .

ولسنا نجهل ما يتعرض له التدريس على هذا الغرار من نقص ومشقة ، فأما النقص فيسده اطلاع الأساتذة والطلبة ، وأما المشقة فتحفز المدرسين ورجال العلم فينا

إلى النقل فالتأليف . وآخر ما وقفنا عليه في هذا الباب كتاب نفيس للدكتور حسني سبح عميد الجامعة السورية وبشير العظمة بالمعهد الطبي العربي بسوريا وعنوانه : « موجز علم الأمراض الباطنة » .

وسيزداد التأليف اتساعاً على مرور الأيام، وسيزداد العلم انتشاراً في البلاد العربية، وسيكون لعلمائنا آراء وكلمات فاصلة ، وسيكون بين أيدي طلابنا من مؤلفات علمائنا ما يروي ظمأهم إلى العلم ، وكلما زاد اعتمادنا على اللغة العربية في استيعاب نتاج العلم زدنا قرباً من ذلك العهد السعيد ، فليس من أصالة الرأي أن نبتعد من عهد عزة وسؤدد تلوح في الأفق بشائره .

الفردوس الغابر

ليس هذا الفردوس الغابر عنوان ملحمة ملتون التي يصور فيها سقوط الإنسان الأول وتتراءى له فيها شرور العصور المقبلة ، ولا هو جنات الأندلس التي فقدها العرب بعد أن رتعوا في بحبوحتها زهاء ثمانية قرون ، وإنما هو فردوس العرب في البلاد الأمريكية ، وقد كادوا يفقدونه بفقدان لغتهم فيه وفقدان أهليهم وأبنائهم من بعد ذلك .

كان الرعيل الأول من العرب الذين هاجروا إلى البلاد الأمريكية حريصاً على لغته : يتكلمها في منزله ، ويلقنها أبناءه ، وينشىء لها الصحف والمجلات ، ويعبر بها عن أدبه وفنه وعلمه ، حتى نبت في دوحة الآداب العربية فرع أدب المهجر ، وتعاقب على هذا النهج الحميد جيل أو جيلان ، ثم بدأ عهد التقلص والتضاؤل والاضمحلال بجنوح الأبناء والأحفاد إلى « التأمرك » جنساً ولغة وآداباً وعادات ، بحيث لا ينقضي جيلان أو ثلاثة أجيال أُخر حتى تكون اللغة العربية في بلاد العم سام أثراً بعد عين . فهل فكر العرب بهذا الخطر الداهم فينشطوا إلى تلافيه ، وهلاّ تأثروا ملتون إذ رجع بالإنسان في ملحمته إلى عظمته الأولى ، فيهتموا بالمحافظة على لغة هي وشيجة الوصل بيننا وبين إخواننا في المهجر بعد إذ تدرج النوى على وشائج القربى بين أبناء العمومة والأخوال ؟ !

أحلام

ضُرّج قلب الشمس بعد الأصيل بسهام النوى وتكاءدت محيّاها صفرة الموت فكفنتها السحب ونقلتها الرياح الذاريات وراء الأفق لتلحد في أرماس الزمن ويلحد معها عام كامل شيعه أناس في حسرة وودعه آخرون في فرحة .

وما هي أن تنتشر العتمة في فضاء السكون حتى تمزقها أشعة الشموس الكهربية فينقلب الليل نهاراً ويسارع الناس السعداء وأشباه السعداء إلى منازلهم في مساء اليوم الأخير من السنة ينقلون في سياراتهم الخاصة أو سيارات الأجرة أفانين الحلوى ومنوّع أصناف اللُّعب وتنوء جيوبهم بباهر الحليّ حملوها إلى أزواجهم وأهليهم وأطفالهم هدايا العيد وقرابين الأفراح .

ولا يكاد ينقضي الهزيع الأول من الليل حتى تكون المقاصف والمراقص وأبهاء المنازل غاصّةً باللاهين المنعّمين يشيّعون على نغمات الموسيقى سنة مدبرة ويثقّلون عليها الترب والصفّاح في حركات الأقدام المتلازمة المتنافرة ويغرقون ذكراها في كؤوس من الشراب لا تفرغ حتى تمتلئ فتمتلئ معها البطون والرؤوس. وكثيراً ما يحتال الشاربون على الدهر وشحّه ويغرونه بالسماحة والإقبال فيضعون قطعة من الذهب في قرارة كل كأس ويشربون سلافة الخمر بعد إذ تتمسّح بتلك القطعة الوهاجة فيتفاءلون ويترقبون عاماً خصيباً فياضاً بالخير ظنًّا منهم أن الحياة لاتقوم إلا على الذهب ولا تتلألأ إلا في وهج الذهب . أما الفقراء الأشقياء فحسبهم من ذلك المعدن الكريم السماع بوجوده ومن سلع العيد ولعبه نظرة إلى واجهات الحوانيت وكلام معسول يلقونه إلى أطفالهم ويعوّدونهم به الصبر والعفاف وحسبهم كذلك من ضجة المرقص ولذة الطعام والشراب سكون الليل والمبيت على الطوى أو التبلغ بما دون الكفاف .

* * *

ضم صاحبنا في ليلة العيد محفل من هذه المحافل الصاخبة فلم يكن مقامه فيه وفي أمثاله من قبل إلا كما قال المتنبي :

أنا في أمة تداركها اللـ ـــه غريب كصالح في ثمود

فقد كان يشهد مفاتن الحياة في هـذه المحافل فيصرفه عنها قلبه المتبول ويسمع

ضحك الشراب فلا يجاوبه بغير ابتسامة وتصل إلى أذنه موسيقى الزنوج وكأنها قهقهة الرعد فتزيد الحجب بينه وبين الناس كثافة وظلاماً وكان جلّ ما يغنمه من هذه الليالي الصاخبة خلوة ينقطع فيها إلى التفكير .

انتحى صاحبنا ناحية قصيّة وأرسل فكره يرود أنحاء العالم ويستقصي أفراح الناس في هذه الليلة المودّعة فلمح في بعضها لهواً مغرقاً وفي بعضها لهواً مصطنعاً يخفي وراءه الحزن والقلق ثم ذكر اجتماع وفود الأمم المتحدة فقال في نفسه : تُرى لو جمعتهم كلهم ليلة مثل هذه يستعيضون فيها باللهو والمرح عن حيل الأخذ والعطاء ودهاء المفاوضة والمناقشة فماذا يكون شأنهم وأين يكون اجتماعهم وعلى رأسهم أقطاب الدول الكبيرة فقال له الخيال نِعِمّا أيها المتمني ها هي ذي أجنحتي فليركبها فكرك يشهد ما تريد وفي إغماضة عين حقق له الخيال ما تمنى فرأى تلك الوفود قد اجتمعت في قصر منيف يسمق بطبقاته الخمسين وتتلألأ فيه الأنوار تشع من الجدران والسقوف وتنبثق من جوانبه وزواياه ولا مصابيح هناك ولا قناديل حتى ليبدو القصر لعين الرائي البعيد شمساً ساطعة فلكها الأرض وأشعتها في جوانب السماء . أما أبهاء القصر فقد اتصل في كل طبقة بعضها إلى بعض وتداخلت حواجزها وفواصلها في الجدران فبدت بهواً واحداً حيطانه من البلور والناس فيه لآلىء أطبقت عليها أصداف من المراء . وعني القائمون بالأمر أن يزينوا كل طبقة بفن دولة من الدول فبرزت فيها مجالي عاداتها وتقاليدها واتشحت بأزهارها ورياحينها واصطفت في علّية منها يرقى إليها بسلم من الرخام الوردي الشفاف جوقة من الضاربين والعازفين يوقعون على آلاتهم ألحان تلك الدولة وكان الشراب في الجانب الآخر من البهو يسيل من أفواه الزجاجات إلى بطون الأقداح فإلى حلوق الشاربين وعلى يمين البهو وشماله مصعد من البلور الأزرق طوله طول البهو وعرضه نصف طوله صفت في جوانبه المقاعد الوثيرة وموائد الشراب وقامت في وسطه حلقة للراقصين إمعاناً في انتهاب المسرات .

ولقد تجلت النساء في هذه الليلة الساهرة أبهى ما يكن زينةً وتبرجاً فكنّ يتهادين ويجررن الذيول : ذيول ثيابهن الطويلة وذيول الحسن والدلال وقد عقصن شعورهن طبقة فوق طبقة ولفافة تحت لفافة في أشكال عجيبة غريبة يتخللها أسلاك من اللآلىء وتزهى جباههن بعصابات من الألماس كذلك تختّمن بالجواهر وبرزن عاريات المعاصم والنحور والظهور إلا من سوار ثمين وعقد يخطف الأبصار وتغار منه أشعة الشمس .

وجنت الموسيقى جنونها وكأنها سياط تلهب الأقدام فدارت الخاصرة وازدحمت

حلقات الرقص بالراقصين وكأنهم أفراس رهان اجتمعت في كف الموسيقى أعنتها إذا شاءت أرخت لها العنان وإن شاءت شدت منها الشكائم .

ولو سُلطت الأنوار على قلوب الساسة وكان لها قدرة على كشف الخوالج والهواجس لبدت لنا أماني زعماء الدول الصغيرة في أن يهيء الله لها في العام الجديد الحرية والأمن والسلام ولتجلت لنا أماني أقطاب الدول الكبرى في بسطة السلطان وتوطيد النفوذ وضم رقاع من الأرض إلى رقعة بلادهم والسيطرة على البر والجو والبحر وبث مبادئهم في العالمين وكسب المريدين والأنصار ومد خطوط الدفاع واستغلال كنوز الأرض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وليس أدل على تردد هذه الخواطر في أذهان الأقطاب الأربعة من انفلات كل واحد منهم من حلقات الصخب والضجيج والمرح إلى ذرع الأبهاء في مختلف طبقات القصر جيئة وذهوباً وعلامات الجد والاهتمام تبرز من جبينه جلية واضحة أو إلى الانتحاء ناحية منعزلة يفكر ويحسب ويستنتج ويقرر وأمامه كأس الشراب المشعشع لايذوقه ولا يقربه وإنما يمسكه بيده ويحدق في صفحته وفي زبده وحبابه فيود لو استطاع بلده أن يعتمد العالم أجمع في قبضته كما يعتمد هو نفسه الكأس في قبضته الحازمة وأن تذوب دون تحقيق أمانيه الصعاب والعقبات كما يذوب الحبب بعد إذ يطفو على وجه الكأس .

وشاء القدر أن يجمعهم بعد الجولان والتطواف حول مائدة واحدة فيتبادلوا التحية والترحاب فيقول القطب الفرنسي : خيل إلي وأنا أطوف بأروقة هذا القصر وحجراته وأسمع الألسنة المختلفة يتحدث بها كل جمع على حدة أني في برج بابل ولولا تفاهمنا بهذه اللغات لقلت إن الله بلبل ألسنتنا عقاباً وانتقاماً ولقد ظللت في ربقة هذا الخيال حتى تراءى لي منذ هنيهة وأنا جالس وحدي أن ليلتنا هذه وليمة بَلشصر وأني أشاهد طرف يد إنسان تكتب على أحد الجدران ما كانت كتبته أصابع تلك اليد الخفية على الحائط في وليمة بلشصر وهو : « مَنَا تَقِـل فرسِين » وكلكم يعرف معناها وهو إشارة إلى زوال سلطان بلشصر وانتهاء ملكه في حين أننا لم نشرب الخمر هذه الليلة بآنية الذهب والفضة التي في الهياكل ولا سبحنا آلهة الذهب والفضة والنحاس والحديد والخشب والحجر ولم نرتكب من المعاصي ما ارتكبه ذلك الملك فاصطكت ركبتاي رعباً وهممت أن أصرخ فصحوت من غفوتي مذعوراً وحمدت الله على أنه حلم ليس إلا ... فصاح كل من المستمعين الثلاثة وقال : عجباً أنا أيضاً طار بي الخيال إلى بابل وذكرني ببعض الرؤى والأحلام . ثم أخذ الواحد تلو الآخر يقص على أصحابه رؤياه فقال القطب الأمريكي :

نقلني الخيال إلى بابل وجلا لي حلم نبوكدنصّر وحسبتني أرى ما رأى : « شجرة في وسط الأرض مرتفعة جداً وقد نمت الشجرة وقويت وبلغ ارتفاعها إلى السماء ومنظرها إلى أقصى الأرض كلها وأوراقها بهية وثمرها كثير وفيها غذاء للجميع وتحتها تستظل وحوش الصحراء وفي أغصانها تسكن طيور السماء ومنها يغتذي كل ذي جسد . . . وإذا بساهر قديس نزل من السماء وهتف بصوت شديد وقال اقطعوا الشجرة واقبضوا أغصانها انفضو أوراقها وانثروا ثمارها لتشرد الوحوش من تحتها والطيور من أغصانها ولكن اتركوا أصل عروقها في الأرض ... وليتحولْ قلبه عن البشرية . . . ولتمر عليه سبعة أزمنة . . . » إلى آخر ما تعلمونه من تفسير هذا الحلم المخيف ففيه إقصائي عن السلطان سبع سنوات لا أربع . . .

وقال القطب الإنجليزي : أما أنا فقد كدت أصعق خوفاً على وطني من هول الرؤيا التي رأيتها فقد تمثلت وطني «صور» القديمة وخلت نفسي حزقيال النبي يتلقى الوحي من الرب رثاءً على صور فوقرت أذني بسماع الكلمات الآتية : « قل لصور الساكنة عند مداخل البحر تاجرة الشعوب في جزائر كثيرة . . . ياصور إنك قلت أنا كاملة الجمال تخومي في قلب البحار وبناتي أكملوا جمالي ... من أرز لبنان صنعوا لي السواري ومن البز الموشى من مصر نشروا لى الشراع . . . وجميع سفن البحار وملاحيها كانوا لترويج موسمي ... العرب وجميع رؤساء قيدار هم تجار يدي .. سفن ترشيش سيارة لي لموسمي وقدامتلأت وصرت ذات مجد عظيم في قلب البحار ... » وسمعت الوحي يقول أيضاً : « القذافون أتوا بك إلى مياه غزيرة فحطمتك الريح الشرقية في قلب البحار . إن غناك وأسواقك وموسمك وملاحيك ومدبريك وباعة تجارتك وجميع رجال حربك الذين فيك وكل الجمع الذي في وسطك يسقطون في قلب البحار يوم سقوطك . من صوت صراخ مدبريك ترتعش محاجرك . . . بخروج سلعك من البحار أشبعت شعوباً كثيرين وبكثرة أموالك وبضائعك أغنيت ملوك الأرض . يوم انكسارك من البحار في أعماق المياه سقطت بضائعك وكل جمعك في وسطك . . . وقد صرت إلى العدم فلا تكونين إلى الأبد . » فانتفضت انتفاض العصفور بلله القطر وهرعت أسري عن نفسي هذا الكابوس حتى التقيت بكم .

فقال القطب الروسي : سبحت على أجنحة « الفودكا » في عالم الخيال وعدت أدراجي القهقرى إلى بابل جارتنا وتخيلت النبي دانيال يروي حلماً له ويقول : « رأيت في رؤياي ليلاً فإذا بأربع رياح السماء قد هجمت على البحر الكبير فطلع من البحر

أربعة حيوانات عظيمة يخالف بعضها بعضاً الأول مثل الأسد وله جناحا نسر . . . وإذا بحيوان آخر شبيه بالدب وفي فمه ثلاث أضلع بين أسنانه فقيل له قم فكل لحماً كثيراً . وبعد ذلك رأيت فإذا بآخر مثل النمر وله أربعة أجنحة طائر على ظهره . وبعد ذلك رأيت في رؤيا الليل فإذا بحيوان رابع هائل شديد قوي جداً وله أسنان كبيرة من حديد فكان يأكل ويسحق ويدوس الباقي برجليه وهو يخالف سائر الحيوانات التي قبله وله عشرة قرون... وبينا كنت أرى إذ قُتل الحيوان وتلف جسمه وجعل وقوداً للنار . . . » ففزعت وانقلبت رؤياي من فرح إلى ترح لأني ما شككت في أن هذا الحيوان الهائل إنما هو بلادي العظيمة التي ستحكم العالم ولكنني صدمت بخيبة مرة لما رأيته صار وقوداً للنار . . .

وبينما كان الأقطاب الأربعة يتذاكرون الرؤى ويتشاورون في أمر تفسيرها وهم يوجسون ريبة وخوفاً من تحققها إذ أقبل عليهم قطب من أقطاب سورية يفيض البشر من محياه ويترنم بكلمات تكاد تكون همساً فقالوا في أنفسهم هذا زميل لنا جديد في مجلس الأمن وهو أوثق صلة منا ببابل وأشور فمن حقنا عليه أن يفسر لنا هذه الأحلام فلما اقترب منهم حياهم ونطق بما كان يترنم به وقال :

السحر من سود العيون لقيته والبابلي بلحظهن سقيته

ولم يكد أقطابنا الأربعة يقفون على ترجمة البيت ويعرفون أن لبابل ذكراً فيه حتى ملكتهم الدهشة وأوشكوا يؤمنون بالسحر ورقاه فقصوا على زميلهم رؤاهم وطلبوا منه بالصوت الحي وفي شيء من الوجل أن يفسر لهم هذه الرؤى فالشرق في عرفهم بلاد السحر والروحانية فقال : لم يهبني الله القدرة على تفسير الرؤى والأحلام وإنما أقص عليكم رؤيا رأيتها أنا أيضاً وأعتقد أن في طياتها تفسيراً لأحلامكم .

حننت منذ هنيهة إلى وطني وجنح بي الحنين إلى مجد الشرق وعظمته في الغابر من الآباد وعرج بي الخيال إلى أورشليم وبابل فتوهمتني أسمع الرب يحدث النبي حزقيال ويقول : « يا ابن البشر تنبأ على الرعاة وقل لهم ويل للرعاة الذين يرعون أنفسهم . أليس الرعاة إنما يرعون الغنم . إنكم تأكلون اللبن وتلبسون الصوف وتذبحون السمين والغنم لا ترعونها . الضعاف لم تقوّوها والمريضة لم تداووها والمكسورة لم تجبروها والشاردة لم تردوها والمفقودة لم تتطلبوها وإنما تسلطتم عليها بقسوة وقهر ... ها أنا ذا إلى الرعاة فأطلب غنمي من أيديهم وأكفهم عن رعي الغنم فلا يرعى الرعاة أنفسهم من بعد وأنقذ غنمي من أفواههم فلا تكون لهم مأكلا . . . . وأبثُّ لها عهد سلام

وأكفّ الوحش الضاري عن الأرض وأنزل الغيث في أوانه فيكون غيث بركة ويعطي شجر الصحراء ثمره والأرض تعطي غلتها ويكون عبادي على أرضهم آمنين فيعلمون أني أنا الرب حين أكسِّر أغلال نيرهم وأنقذهم من أيدي الذين استعبدوهم . . . . » هذه رؤياي فهل لديكم تفسير لها .

سرت كلمات هذه الرؤيا في نفوس الأقطاب الأربعة سريان الكهربا ورأوا فيها وحياً من الله يهيب بهم إلى الجنوح عن الأثرة وإلى توطيد أركان العدل في الأرض وتأليف القلوب على الصفاء والمحبة وتوفير الأمن والسلام للناس ليعيشوا في بحبوحة الهناءة والسعادة بعد ما مزقتهم الأطماع وكوتهم الحروب بنيرانها وما هي إلا ثوان من الصمت العميق حتى هبّ كل واحد منهم من سكونه طلق المحيا بسام العينين كأنما قد عاهد ربه على أن يكون في غد رسول السلام وأن يكون لأنداده من زعماء الشعوب مثالاً يؤثر التضحية والتجرد ونكران الذات ورجا أن يكون من صانعي السلام في مطلع العام الجديد .

ويشاء القدر الحكيم أن ينتصف الليل في هذه اللحظة فتطفأ الأنوار ويقبّل كل جار جاره أو جارته مهنئاً بانبثاق العام الجديد كما هي العادة في حفلات رأس السنة الغربية ثم توقد الأنوار فإذا أقطابنا الخمسة متعانقون يتبادلون القبل الخالصة الصادقة ..

ويحلو للزنجي ضارب الطبل أن يعلن بزوغ العام بضربة شديدة مدوية فيصحو صاحبنا من غفوته ولم تمكنه وحدته من أن يطبع قبلة التهنئة على خد من الخدود ثم يذكر رؤياه الجميلة والمكان القصي الذي زاره في الخيال وعاد منه في طرفة عين فيتمتم قائلا : تُرى هل تتحقق الأحلام . . .

عادل الغضبان

حديقة الأفكار

المدرسة الرمزية

للأستاذ عباس محمود العقاد

(١) حب الأزياء

كانت باريس فيما بعد القرون الوسطى عاصمة الحضارة الأوربية ؛ وكان بلاطها الفخم مصدر المراسم والتقاليد في أرجاء الغرب كله ، تصدر عنه الأزياء والآداب والعرف المتبع في مجالس الطبقات العليا ؛ وكان لها الشأن — كل الشأن — يومئذ في جميع البلدان . فلا تنقضي فترة يسيرة من الزمن دون أن يسفر التنافس بين فرسان البلاط وحسانه عن شارة جديدة وزي جديد ، ولم يكن لهم بد من طرافة يتحدثون بها في عالم الأدب والفن كما يتنافسون بالطرائف في عالم الشارات والأزياء . فلما بدأت نهضة الإحياء الحديثة باستحياء الأساليب اللاتينية واليونانية رحّب بها طلاب الجديد ريثما طال عليها العهد فبرموا بها وتطلعوا إلى نمط جديد . فتوالت الأنماط بين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن العشرين من المدرسة المجازية إلى المدرسة الواقعية إلى المدرسة البرناسية إلى المدرسة الرمزية ، إلى هذه المدارس التي تسمى بالمستقبلية تارة وبما وراء الواقعية تارة أخرى ، ولا تستقر طويلا على حال .

ولم يكن التفات الناس إلى عاصمة الأزياء وانتظارهم منها الجديد بعد الجديد هو الباعث الوحيد إلى تعاقب هذه المدارس بمختلف الأسماء والآراء ، وإنما صادفت هذه الحالة معيناً لها من حب الاندفاع في السليقة الفرنسية ، فأصبح حب التغيير نتيجة لازمة لكل اندفاع بلغ مداه واستنفد قواه .

فلا تجد في غير فرنسا ولعاً كهذا الولع بالمدارس الأدبية المتلاحقة ، ولا سأماً كهذا السأم من أسلوب بعد أسلوب ، وصبغة بعد صبغة .

وفي فرنسا نفسها لا تجد هذه المدارس في القمم العالية أو الأعلام البارزة من أفذاذ الأدب المعدودين ، وإنما تجدها في بيئات الأوساط وأشباه الأوساط الذين يخضعون لموجات التقلب وحركات التكلف والاصطناع .

أما أعلام الأدب الفرنسي من أمثال موليير وراسين وفولتير وشاتوبريان ولامرتين وهوجو وموسيه وأناتول فرانس وپروست فأنت لا تجدهم تحت راية من هذه الرايات ، ولا على شارة من هذه الشارات ، وإذا بدت على أحدهم مسحة من هذه الصبغة أو تلك فهي مسحة لا تنحرف به قط عن اللونين الخالدين اللذين يرجع الانقسام بينهما إلى طبيعة الإنسان لا إلى تقلب الأزياء بين جيل وجيل ، وهما لون الواقعية ولون المجازية ، أو لون البساطة ولون التنميق ، وسمّـهما بعد ذلك بما تشاء من الأسماء .

(٢) ظهور الرمزية

وكان الصف الأول من صفوف الطليعة في هذه المدارس هو صف الإحياء ، أو صف الأساليب اللاتينية واليونانية القديمة ، ولا يخلو من دعوة إلى بساطة « الطبيعة » على ألسنة الفلاسفة والشعراء .

ثم تفنن الأدباء في المجاز على أنماط شتى من الأساليب المجازية التي يوشك أن تتعدد بتعدد الآحاد. فأسلوب هوجو مجازي، ولـكنه مجاز يريك الدنيا كأنها في موكب دائم من الطبول والأبواق ومن الغنائم والأسلاب ؛ وأسلوب لا مرتين مجازي ولـكنه مجاز يريك الدنيا كأنك تعيش منها أبداً في عالم مسحور تتهامس فيه الأرواح وتتخافت فيه الأصداء .

واتفق في الأيام الأخيرة من هذه المدرسة المجازية أن شاعت مباحث العلم ومقررات العلماء المحدثين ، فظهرت المدرسة الواقعية والمدرسة البرناسية ونزعت كلتاهما إلى الأسلوب المدرسي البسيط — أسلوب اللاتين واليونان — ممزوجاً بلون الدراسات العلمية التي اشتغل بها كل عقل مثقف في عهد المدرسة البرناسية على التخصيص .

ويدل اسم المدرسة البرناسية على مذهبها بعض الدلالة لأن أصحابها يسمون أنفسهم بالبرناسيين المعاصرين منتسبين إلى البرناس وهو جبل أبولون وعرائس الفن في اليونان القديمة . فالبرناسيون المعاصرون مدرسيون من ناحية الاقتداء بأعلام الأدب اليوناني القديم، ومحدثون علميون من ناحية التجديد العصري على نمط لم يعرفه قدماء اليونان . وكان شعارهم « الكلمة المحكمة » أي الكلمة في موضعها الذي لا تتجاوزه

للتنميق أو للتهويل ، وعقيدتهم « أن الفن للفن » بغير قصد آخر غير إحكام التعبير وحسن الأداء .

وأفرط البرناسيون كما يفرط الدعاة إلى المدارس الخاصة فيندفعون فيها إلى الطرف الأخير ، أو إلى حيث يحسن الارتداد والرجوع ، وكان إفراطهم هذا مسوّغاً بعض التسويغ لظهور الرمزيين .

(٣) مسوغات الرمزية

والتعبير بالرموز عادة قديمة في تعبير الإنسان ، بل عادة قديمة في بديهة الإنسان .

فالحالم مثلا يعبر في منامه عن شعور الضيق أو الخوف بقصة رمزية يتمثل فيها شيئاً مخيفاً في صورة وحش أو مارد مرهوب .

والكاتب الذي لم يعرف الحروف الأبجدية يرمز إلى المعاني بالشخوص والرسوم ويعبر لك عن الكتابة بصورة الكاتب أو صورة القلم أو صورة المكتوب ، وقد يلجأ إلى الاستعارة بعد عرفان الحروف لأنها نوع من التصوير الذي يساعد على اختصار التعبير .

وكهان الديانات يرمزون ويعمدون كثيراً إلى الكنايات والألغاز ، لأنهم يجعلون لغة الدين لغة سرية ينفردون بها ولا يطلعون سواد الناس على دخائلها ، فيختارون الرمز في التعبير وإن قدروا على الإفصاح والتصريح .

والنساك المتصوفون يرمزون لأنهم لا يستوضحون المعاني الغامضة التي تجيش بها نفوسهم في حالة كحالة الغيبوبة أو نشوة من نشوات الذهول . فيؤثرون التشبيه لأنهم عاجزون عن التوضيح ويخاطبون من يعرف حالهم برمز من هنا وتورية من هناك فلا يحتاج منهم إلى زيادة إيضاح .

وكان بعض الدول يقهر الرعية على عقيدة لا يدينون بها وقد يدينون بغيرها ، فيشيرون إلى عقائدهم برموز يفهمونها ويجعلون للألفاظ الشائعة معاني غير معانيها المتفق عليها في اللغة المتداولة ، ثم ينبذون تلك الرموز إذا ارتفع عنهم الضغط والإكراه .

وقد يكون الرمز اختصاراً لعبارة مفهومة أو صورة ظاهرة ، كرمز الرياضيين والكيميين بالخطوط والنقط إلى الأفلاك أو العناصر أو المقادير .

فالرمز شيء مألوف في تعبير الإنسان وفي طبيعة الإنسان ، ولكنه مألوف على حالة واحدة لا يخلو منها معرض الرمز والكناية ، وهي حالة الاضطرار والعجز عن

الإفصاح ، فلم يرمز الإنسان قط وهو قادر على التصريح والتوضيح ، ولم يجد كلمة واضحة لمعنى واضح ثم آثر عليها الالتواء شغفاً بالالتواء .

فإذا لوحظت هذه الحالة فالرمز أسلوب متفق عليه لا يحتاج إلى مدرسة تنبه الأذهان إليه . فالخيال لا يستشير مدرسة من المدارس لتشير عليه أن يحلم بالصور والتشبيهات أو يحلم بقواعد التحليل والتركيب في معامل الكيمياء ، والشاعر لا يعاب إذا مثل لنا الكواكب والأزهار فألبسها ثياب الأحياء ، ومن ضاق به اللفظ فعمد إلى التخيل والتشبيه فالناس لا يحسبونه من هذه المدرسة أو تلك ؛ لأن المدرسة التي يصدر عنها في هذه الحالة هي مدرسة البديهة الإنسانية حيث كان الإنسان وبأي لغة من اللغات ألغز أو أبان .

وفحوى ذلك أنه لا حاجة إلى مدرسة لتعلم الناس كيف يرمزون ويكنون حين ينبغي الرمز وتنبغي الكناية ، ولكنهم قد يحتاجون إلى مدرسة لتذكيرهم بحقيقة واحدة قد ينسونها في دفعة الإفراط والمغالاة ، وهي أن الحياة تنطوي على كثير من الأسرار ، وأن العالم نور وظلام وجهر وخفاء ، وأنه يفاجئنا أحياناً بمعاني لا تترجم عنها الألفاظ ولا غنى فيها عن الإشارة والاستعارة ، أو عن تمثيل الظل بالظل ، والحجاب بالحجاب .

وقد كانت الآداب الفرنسية بحاجة إلى هذا التذكير في النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، ولم تكن هذه الحاجة مقصورة على الآداب الفرنسية في الواقع لأنها كانت حاجة من حاجات التطور العقلي في العالم بأسره ، ولكنها أظهر ما تكون حين يكون الاندفاع من الأطراف إلى الأطراف .

فالعالم الأوربي قد تنقل في ثلاثة أطوار عقلية منذ عصر الإصلاح :

طور لم يكن فيه سلطان للعقل في تفسير الوجود ، وطور ثار فيه العقل لحقوقه المشروعة ثم بالغ في الثورة حتى أوشك أن يستبد بكل سلطان ، وطور ثارت فيه البديهة الإنسانية لتذكر العقل بالحقيقة التي نسيها في شططه وغلوائه ، وهي أن البديهة الإنسانية تشاطر العقل حقوقه في تفسير العالم والاتصال بخفايا الوجود .

ففي الطور الأول كان السلطان للكهنة ورجال الدين ، وكانت النصوص التي يساء فهمها ويساء العمل بها هي مرجع المراجع كلها في العلم والحكمة والفنون والآداب .

وفي الطور الثاني تفرد العقل بتفسير كل شيء وزعم أن العلوم التجريبية وحدها كفيلة بالكشف عن جميع الحقوق وجميع الأسرار .

وفي الطور الثالث صنع « رد الفعل » صنيعه المعهود في أمثال هذه الأطوار ،

فثار المفكرون أنفسهم على العقلية "Rationalism" كما ثار الفنانون على الواقعية "Realism"، وسمعنا بضروب شتى من دعوات المثاليين والنفسانيين والروحانيين وفلاسفة المنطق الحديث الذي يدين بالبصيرة كما يدين بالقياس والتحليل .

في هذه الفترة ظهر الرمزيون في الآداب الفرنسية وكان لهم حق في الظهور . بل ظهروا « متأخرين » عن رواد هذا المذهب في الآداب الأوربية الأخرى ، وفي عالم الفنون التي لها تأثير بيّن على الآداب .

فكانت موسيقى « فاجنر » تدوّي في أرجاء القارة الأوربية قبل أن تتحول الموسيقى الفرنسية من لغة الطرب والمشاهد الواقعية إلى لغة الأغوار والكنايات ، وكان كولردج وبروننج وسونبيرن وتنسيون من أعلام الشعر الإنجليزي يتناولون المعاني الغامضة تارة بالرمز والكناية وتارة بالكلمات التي تماثلها في الغموض . ويكفي أن يذكر القراء تأثير دافيد هيوم في روسو وفولتير ، وتأثير بيرون في لامرتين ، ليذكر أن المدرسة الرمزية في الآداب الفرنسية لم تكن فريدة في الآداب الأوربية حين ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر وراجت إلى أوائل القرن العشرين .

لكنها ظهرت سائغة مدعوّة إلى الظهور بدعوة التطور في التفكير والشعور ، ثم استحقت الاحتجاب قبل أن تتمكن من الثبات على الأساس الصحيح . وصدقت عليها الفكاهة التي تحدث بها ظرفاء بغداد عن بهلول المجنون ، حين قالوا إنه كان يغني بدرهم ويسكت بدرهمين .

فإن المدرسة الرمزية التي وجب ظهورها مرة وجب سكوتها بعد ذلك مرتين ، ولم يلبث الفرنسيون أن أطلقوا عليها اسم مدرسة الهبوط والانحدار "Decadents" ولم يظلموها بهذه التسمية الصادقة ، لأن شعراءها وكتابها قد جعلوا ديدنهم من الرمز أن يرمزوا إلى كل وضيع خليع ، وأن يعتبروا التسمية مطلوبة لذاتها لا لمزية من مزايا التعبير والتقرير . فلو تهيأت لهم للمعنى الواحد عبارتان تؤديانه على السواء لفضلوا الأغمض منهما على الأوضح في غير سبب معقول لهذا التفضيل، بل يفضلون الغموض على الوضوح ولو كان الوضوح أجمل في اللفظ وأقرب إلى البديهة وأثبت في الإفهام .

وما هو إلا أن تلقفوا من الأفواه كلمة عن مذهب فرويد وأقوال العلماء النفسانيين عن « الوعي الباطن » و « اللاوعي » المكنون في أطواء النفس حتى اندفعوا من الرمزية المتطرفة الجامحة إلى رمزية أبعد منها في التطرف والجموح . فنشأت بينهم مدرسة يسمونها بمدرسة ماوراء الواقع ، تترجم الرموز بالرموز ، والألغاز بالألغاز

وراجت هذه البدعة الجديدة في عالم التصوير ، لأن رواجها في عالم الكتابة والشعر يستلزم جمهوراً كاملاً من المخبولين والأدعياء ، وقلما يجتمع جمهور كامل من هؤلاء ، كما يتفق اجتماع الآحاد من طلاب الصور الملفقة بين الأغنياء .

وخلاصة ما وعاه هؤلاء الرمزيون الغلاة من الوعي الباطن أنهم لا يفقهون ما هو الوعي الباطن وما هو الوعي الظاهر على السواء ، فإن الوعي الباطن قديم لم تخلقه التسمية الحديثة في كتب العلماء النفسانيين ، وقد كان الناس بوعيهم الباطن حين وصفوا ما وصفوه وصوروا ما صوروه من المناظر والضمائر والوجوه ، ومن شأن العقل الباطن أن يظل عقلا باطناً حيث خلقه الله، فإن برزت لنا بعض خباياه فليس معنى بروزها أنها تلغي العقل الظاهر وتبطل عمل الحواس وتقلب معالم الأجسام والأشياء ، ولا موجب لتميز المصورين بالقلم أو الريشة بالتخمين والتنجيم عن الوعي الباطن أو العقل الباطن لأنهم يستعدون لصناعتهم بمزج الألوان ونقل الأشباه لا بالتدرب على الكهانة ونقش الطلاسم ووضع الألغاز .

فالرمزية في حدودها المعقولة — مالم تجعل الدنيا كلها رموزاً وكنايات وأطيافاً — تعيش في الظلام ولا تعيش في الضياء ، وهي ضرورية ما شعر الإنسان بضرورتها في تمثيل الدقائق والأسرار ، ولكنها تخرج من الضرورة إلى الضرر إذا أصبحت مطلوبة لغير سبب وأصبح شعارها « الرمز للرمز » والغموض للغموض والتلفيق للتلفيق .

وهي على الجملة «خطر» حين تصبح مدرسة قائمة بذاتها لأن الإنسان لا يحتاج إلى مدرسة ليكون إنساناً يعبر باللفظ الصريح حين يتأتى له التعبير باللفظ الصريح ويعبر بالكناية حين لا تسعفه وسيلة غير وسيلة الكناية . وقد عرف الناس « الاستعارة » في جميع اللغات فلم تكن استعارتهم إلا ضرباً من الرمز والتصوير بالكلام ، ولم تفسد هذه الاستعارات إلا حين أصبحت فنًّا مصطنعاً وانقطع ما بينها وبين البداهة الصادقة والتخيل السليم .

وكذلك أفاد الرمزيون الفرنسيون حين التزموا هذه الحدود المعقولة ومثلوا ثورة البديهة على غرور العلميين والعقليين ، وأطلقوا الشعر الفرنسي والشعر الأوربي عامة من أوزانه المتحجرة وقيوده العتيقة ، ولكنهم لم يقفوا عند ذلك فاستحقوا أن يقال فيهم إنهم : غنوا بدرهم وسكتوا بدرهمين .

عباس محمود العقاد

الشيخوخة

لمعالي الدكتور سليمان عزمي باشا وزير الصحة السابق

الشيخوخة شيخوختان : أولاهما ، الشيخوخة المبكرة ، وهي مرض بكل معنى الكلمة ، ونتيجة لكثير من الأمراض . والثانية الشيخوخة الطبيعية المحترمة .

وهناك فترة من الشيخوخة اصطلح على تسميتها « أرذل العمر » ، ولكني شخصيا لا أقصر هذه التسمية على هذه الفئة من المتقدمين في السن ، بل أعممها لتشمل أي فترة من العمر يكون فيها الإنسان في حالة وهن وضعف عامّ زائد ، بحيث يحتاج لمن يساعده أو يعاونه على أداء أتفه ضرورياته ، فلا يستطيع أن يأكل أو يشرب أو يتحرك إلا بمساعدة غيره ، وقد يضعف بصره وسمعه وحسه ، أو يفقدها جميعاً ، فتضحي حياته كحياة النبات الذي تسرب إليه التلف والعطب وأخذ في التلاشي من الوجود . هذه حياة أشبه بالموت ، بل الموت أفضل منها .

والمرضى الذين هذه حالهم إما أن يكونوا من المتقدمين في السن ، وإما أن يكونوا مرضى ببعض الأمراض العضلية أو العصبية المزمنة ، أو مرضى ببعض أمراض الغدد ذات الإفراز الداخلي ، أو غير ذلك من الأمراض المزمنة ، بلا دخل أو ارتباط بالسن ، إذ قد يصاب الإنسان بها جميعاً في شبابه . وهذه حال محزنة تدعو إلى الشفقة والرحمة ، حيث إن مثل هذه الأمراض تهدّ القوى وتذلّ المخلوقات ، ويقف الطب الآن حائراً أمام كثير منها ، لعجزه عن علاج أغلبها .

لا يعرف الإنسان كم يعيش من السنين ، وليس هناك قاعدة تعينه على معرفة ذلك ؛ والغالب أن للوراثة أثراً في طول العمر لا ينكر . ومن التوفيق أن الأمل في الحياة وحبها متأصل في النفوس . وواقع الأمر أن الحياة تبدو عابسة بائسة ضيقة إذا خبا الأمل . والأمل هو سر حبنا للحياة والرغبة في الازدياد منها ، وهو من أهم العوامل في رقي الجنس البشري منذ القدم ، لما يخلقه في الإنسان من الرغبة والميل إلى العمل ، ويدفعه إلى تحسين حاله والتطلع إلى مستقبل أحسن وأفضل مما هو فيه . ويزيد هذا الأمل بعض العوامل الشخصية ، كأن يكون للإنسان أولاد أو مصالح لا يسعه إلا رعايتها والعناية بها .

ولا توجد شواهد تدلنا على مدى الحياة : أتطول أم تقصر ؟ ولا تكون الحياة

باسمة سعيدة إلا إذا تجنبنا التفكير في نهايتها ، وبسطنا للأمل أبعد الحدود . وعلى الإنسان أن يسعى جهده ، وأن يتمتع بما حصل عليه ، وأن يعمل ما استطاع على تحسين حاله ، مهما بلغ من الكبر . ولا سعادة بغير ثمن ، وعلى من طلبها أن يدفع ثمنها غالياً من جهوده وصبره ومثابرته واحتماله .

وقد تكون السعادة حقيقة واقعة لبعض الناس ، وذلك نادر الوقوع ، فهي غالباً فكرة وخاطر يقوم في ذهن الإنسان ، لأن لكلٍّ رأيه في السعادة ؛ فمنا من يراها في الفن ، ومنا من يجدها في المال أو الشهرة أو المجد أو الجاه أو العلم أو القناعة ، أو الإيقاع بالأعداء ، أو إشباع شهوة غريزية تكون قد نمت عنده وتأصلت في نفسه تبعاً لتربيته وبيئته وظروف حياته ، إلى غير ذلك من الاحتمالات . فيسعد الإنسان في حدود قدرته على تنفيذ رغباته وتفكيره وفلسفته في الحياة . وقد لا يكون الشخص سعيداً كما يبدو لغيره ممن يرونه حاصلاً من السعادة على غايتها حسب نظرهم الشخصي إلى السعادة .

وحظ المرء من السعادة يتبع البيئة والهيئة الاجتماعية التي يعيش بين ظهرانيها . فمن البيئات ما يهيىء له ظهور مواهبه ، ويحقق نجاحه في حياته ، فيَسعد ويُسعد الآخرين . ومن البيئات ما يثبط الهمم ، ويحول بين المرء وأغراضه ومقاصده ويخمد مواهبه .

وربما كانت سعادة المرء في أن يكون هو وذووه في صحة جيدة ، وفي حالة مالية حسنة ، دون شائبة من منغصات أو متاعب أو مشاغل الحياة .

الحياة حلوة لا يملها إنسان بالغاً من العمر ما بلغ . بل يودّ المعمّر أن تطول متعته بها ، أو أن تقف عجلة الزمن فلا تدنيه من نهايتها التي يشعر بقربها كلما تقدم به العمر ، فيرى الموت يزداد منه قرباً ، ويجهد نفسه في إبعاد شبحه عنه ، مفكراً فيما يسره ، متجنباً ما ينغص عليه فكره . ولو أن الحياة قد خلت من المتاعب والمصاعب لكانت جنة ، ولكن تلك ليست من حظ الأحياء .

علينا بالتخلص من شبح الموت ، فلا نتمثله قائماً أمامنا في كل لحظة من لحظات حياتنا ؛ لأننا إذا قدّرنا أننا للفناء ، وأن كل مجهوداتنا هباء لا جدوى منها ، فسد الكون ، وفسد المجتمع ، وفسدت الأخلاق ، وتفككت الأسر . وأما إذا رأينا حياتنا حلقة في سلسلة الحياة الإنسانية نؤدي فيها رسالة اجتماعية عامة فرضت علينا ، سواء أكانت تافهة أم قيمة ، صارت حياتنا هنيئة نافعة للانسانية والمجتمع ، ومن أهم العوامل في عمار الكون واستثمار خيراته وتقدم بني البشر ، وتطور حالتهم من حسن إلى أحسن . ولهذا السبب نجد أن غرائز حب البقاء ، والدفاع عن النفس ، والمحافظة على النوع

والتناسل ، وما يتبع ذلك من غرائز أخرى متأصلة في نفوسنا لا تفارقنا حتى الممات ؛ وأما نظرية « أنا وبعدي الطوفان » فنظرية ترجع بالإنسانية إلى الوراء .

والضعف من مستلزمات الشيخوخة ، وهذا ما يتعين على الشيوخ معرفته ، بدلاً من الاغترار بالاستثناءات والشواذّ النادرة ، التي يحتفظ فيها بعضهم بكامل قوته رغم تقدم العمر به . كما يجب الإيمان بأن كل محاولات التصابي تضر أكثر مما تنفع ، وأن لكل سنّ خصائصها ، وما يجوز في عنفوان الشباب لا تتحمله البنية عند تقدم السنّ ، فقد يجتاز الشباب مرضاً ما ، ولكن الشيخ — إذا لم يوله العناية الكاملة والاحتياط التام — ربما قضى عليه . والمتصابون من الشيوخ الذين يسرفون في السهر واللذات يغفلون أو يتجاهلون هذه الحقيقة ، وقد لا تترك ليلة من ليالي السرور في شابّ سوى تلبك في المعدة أو ما شابه ذلك ، بينما يكون أثرها في الشيوخ زكاماً يتبعه احتقان في الرئة ، أو يتبع تلبك المعدة ارتباكات أخرى تؤذي صحتهم ، فتخور قواهم وتتابع المضاعفات .

قد نرى شخصاً مسنّاً متمتعاً بكامل قواه البدنية والعقلية والنفسية، حافظاً لصحته ونشاطه وحيويته ، ثم نعجب أشد العجب إذ ينتهي إلينا خبر وفاته يوماً عقب آخر مقابلة لنا به . وسبب ذلك راجع إلى اغتراره بصحته وعافيته واستباحته لنفسه ما لا يجوز لسنّه .

ولست أرمي بكلامي هذا إلى أن يركن الشيخ إلى الكسل والخمول فلا يؤدي عملاً ما ، فذلك ضار بصحته أيما ضرر ، مؤد به إلى الاستسلام والتمادي في التفكير السيئ وإلى اليأس . إنما أبغي النصح بالاقتصاد ما أمكن فيما يبذله الشيخ من جهود بكل أنواعها : فكرية أو هضمية أو جسمية أو ما عداها ، وأرمي أيضاً إلى الاقتصاد في الراحة ، فلا يكون كل وقتهم راحة وسكوناً ، فقد ينتهي الميل إلى الراحة من القيام بأي عمل إلى عدم الخروج من المنزل ، ثم في النهاية إلى ملازمة الفراش . وهذه الخطوات التي لا موجب لها تفقد الإنسان لذة الحياة .

ولعلّ من المشاهدات المؤكدة القيمة أن من بلغوا السن القانونية للإحالة على المعاش — وكانت طبيعة عملهم الحركة والنشاط — تستمر حالتهم الصحية في تحسن مستمر إذا ما تعاطوا عملاً مناسباً لصحتهم عند تركهم الخدمة ، في حين أن من اعتزلوا العمل تماماً واستكانوا إلى الراحة والخمول سريعاً ما تسوء صحتهم وتنهك قواهم الجسميه والنفسية والتفكيرية . وهذه الفئة الأخيرة يقرب أجلها وتحل وفاتها قبل الفئة الأولى ، وتكون حياتهم حياة يأس وقنوط .

ولقد أصبح الآن الاهتمام بشؤون من تجاوزوا سن الستين وصحتهم ذا أهمية من الوجهتين الطبية والاجتماعية ، لأن تقدم العلوم والطب الوقائي والعلاجي ، وما يتبع ذلك من تحسن المسكن والملبس والغذاء ووسائل الحياة الأخرى بصفة عامة ، وابتعاد بني البشر عن كثير من الأخطار ، قد هيأ للإنسان حياة أفضل من حياته السابقة ، فازداد عدد السكان زيادة محسوسة ، بفضل ما أشرنا إليه من الظروف والوسائل في مجموعها وفي مفرداتها ، كما زاد نسبيًّا لدرجة محسوسة متوسط عمر الفرد . فإذا قارنا بين المعلومات المستقاة من أوثق المصادر وأصحها رأينا بالبداهة ، التي هي في غير حاجة إلى بيان ، ما طرأ من الزيادة المضطردة على عدد سكان الشعوب الراقية التي اتبعت فيها هذه الوسائل .

فقد قدِّر عدد سكان القطر المصري من مائة عام بنحو الثلاثة أو الأربعة ملايين من السكان ؛ وكان الطاعون والكوليرا وغيرهما من الأمراض الوبائية تفتك بالسكان بلا رحمة ولا شفقة ، ولا تجد في سبيل فتكها أية مقاومة علمية منظمة . فإذا تتبعنا الإحصائيات بعد ذلك وجدنا ازدياداً مطرداً في عدد السكان ، في كل إحصائية عما قبلها . فقد زاد عدد السكان إلى سبعة ملايين ، ثم إلى ١٢ مليوناً ، ثم إلى ١٤ مليوناً ، ثم ارتفع الرقم أخيراً إلى حوالي ١٧ مليوناً ، والمتوقع أن يبلغ ١٨ مليوناً في الإحصاء القادم .

ولقد سبقتنا إنجلترا بمراحل عديدة في الأخذ بالنظم الصحية والعلاجية ، ورفع مستوى المعيشة وتحسين وسائلها . ونلاحظ الزيادة بوضوح وجلاء في عدد سكانها ، فقد كان عدد سكان إنجلترا وبلاد الغال في سنة ١٨٠١ نحو ٩ ملايين ، وتدرج في الزيادة حسب البيان التالي :

السنة	عدد السكان بالمليون
١٨٠١	٩
١٨٢١	١٢
١٨٤١	١٦
١٨٦١	٢٠
١٨٨١	٢٦
١٩٠١	٣٣
١٩٢١	٣٨
١٩٣١	٤٠

ولقد ساعد على زيادة عدد السكان — كما قلنا — محاربة الأوبئة ومقاومة الأمراض المعدية ، وانتشار العلاج .

ففي القرن التاسع عشر مثلاً فتك وباء الكوليرا في إنجلترا بالأهلين ، وانتشر فيها على أربعة أوبئة : أولها سنة ١٨٣٢ ، ومات بسببه ٥٣٠٠٠ شخص ، والثاني في سنة ١٨٤٢ ، والثالث كان في سنة ١٨٤٩ ، والرابع في سنة ١٨٨٤ . وظهر جليا في أثناء أحد هذه الأوبئة علاقة الكوليرا بالماء ، لأنهم كانوا يشربون حتى هذا الوقت في لندرة من مياه الآبار . وكان الجدري متوطناً في إنجلترا ، وقدرت ضحاياه في العشر السنوات من ١٨٧١ إلى ١٨٨٠ بنحو ستة آلاف شخص .

وفي سنة ١٦٦٥ فتك الطاعون بمدينة لندرة فتكاً ذريعاً ، ثم تردد عليها بعد ذلك في دفعات ، كل منها أخف من الأخرى ، إلى أن زال تماماً .

ومثل ذلك يصدق على الأمراض المعدية الأخرى ، فإن بعضها زال ، وبعضها قلت نسبة الإصابة به . والفضل في ذلك راجع إلى مجهودات الطب الوقائي والعلاجي ، وتضامن قوى الحكومة بكافة فروعها ، وتعاون الدول جمعاء في كفاح الأمراض الوبائية .

ورغماً عما طرأ على إنجلترا من عديد الحروب في هذه الفترة ، ورغماً من كثرة المهاجرين إلى أمريكا وإلى المستعمرات الإنجليزية وغيرها ، فقد ازداد عدد السكان في إنجلترا وطال متوسط عمر الأفراد ، وطرأ أخيراً في إنجلترا عامل هام ، ربما أثر في اطراد هذه الزيادة ، أقصد عامل الإقبال على الزواج ، وتحديد النسل ، للشعور بصعوبة أعباء الحياة ، ورغماً من هذه العوامل فإن الزيادة في استمرار .

هذا خاص بزيادة عدد السكان . وأما الزيادة فيمن تجاوزوا سن الستين إلى أن بلغوا سن السبعين أو الثمانين فهو ثابت أيضاً ، حيث إنه يتمشى مع ارتقاء الأمم وتقدمها في الحضارة والعمران ، ومع انتشار العلوم ، وتقدم الطب الوقائي والعلاجي ، ووفرة المنشآت والمعاهد الصحية والعلاجية من مستشفيات ومصحات ومجموعات صحية ، وغير ذلك من أسباب الحضارة والعمران .

ويعطينا الجدول الآتي فكرة عامة ، وهو من وضع الأستاذ فالوا عن النمسا ، أقتبس الجزء الأخير منه ، وهو يبين النسبة المئوية لمن يتوفون في مختلف سني أعمارهم ، حسب عصور التاريخ ، وسأبدأ من العصر البرنزي .

العصور التاريخية	فترات العمر بالسنين : النسبة المثوية للوفيات في كل منها من الولادة — ١٤ سنة	من ١٤ — ٢٠ سنة	من ٢١ — ٤٠ سنة	من ٤١ — ٦٠ سنة	فوق الستين
البرنزي	٧ر٩ ٪	١٧ر٢ ٪	٣٩ر٩ ٪	٢٨ر٦ ٪	٧ر٣ ٪
القرن الـ ١٩	٥٠ر٧ ٪	٣ر٣ ٪	١٢ر١ ٪	١٢ر٨ ٪	٢١ر٠ ٪
القرن الـ ٢٠	١٥ر٤ ٪	٢ر٧ ٪	١١ر٩ ٪	٢٢ر٦ ٪	٤٧ر٧ ٪

أو بعبارة أخرى :

نسبة من ماتو بعد سن الستين	ومن ماتوا قبل سن الستين	فترة التاريخ
٧ر٣	٩٢ر٧	في العصر البرنزي
٢١ر٠	٧٩ر٠	في القرن التاسع عشر
٤٧ر٧	٥٢ر٣	في القرن العشرين

أي بزيادة محسوسة فيمن زادت سنهم على الستين سنة .

ولقد قام الدكتور شارل بعمل إحصائية عن النسبة المئوية لسن السكان في إنجلترا وبلاد الغال ، حسب الفترات المختلفة من السن ، ووضع الجدول الآتي ، وهو يحتوي على نسبة الأحياء في كل فترة من فترات العمر عن سنة ١٩٣٥ .

من الولادة إلى ١٤ سنة	من سن ١٥ إلى ٥٥ سنة	من سنهم فوق الستين
٢٣ ٪	٦٤ ٪	١٣ ٪

واستنتج بمقارنات إحصائية أن من سيزيد عمرهم على سن الستين سيزيد عددهم تدريجاً في المستقبل ، فيصل إلى نحو الأربعة والعشرين في المائة أو أكثر ، إذا استمرت ظروف الحياة على ما هي عليه ، أو إذا ما تقدمت وسائل الطب العلاجي والوقائي إلى أحسن مما هي عليه الآن .

وتظهر الإحصائيات الآتية فائدة العلاج وشفاء الأمراض ، فقد ظهر في إنجلترا أن نسبة الموتى بمرض السل الرئوي أخذت في الهبوط ، ويرجع ذلك إلى طرق العناية بهم وطرق العلاج الحديثة التي اتبعت في علاجهم ؛ فكانت نسبة الوفيات في كل مليون من السكان أكثر من ثلاثة آلاف متوفى في سنة ١٨٥٦ ، وأصبحت هذه النسبة ١٠٠٠ في سنة ١٩٣٦ .

وتدل الإحصائيات الكثيرة عن الأمراض الأخرى على أن هناك نقصاً واضحاً في نسبتها ، وليس ثمة داع للإطالة ، حيث إن الغرض مقصور على إثبات ما لاتباع علم

قانون الصحة والطب الوقائي وطرق العلاج الحديثة من قيمة مؤكدة في شفاء كثير من الأمراض ومنع مضاعفاتها وأخطارها ، كما أنها أدت إلى نقص واضح في الإصابة بها ، وأن بعضها قد منع منعاً يكاد يكون تاما .

ولقد ظهر في إحصائية أخرى أن متوسط العمر الذي يحياه الفرد كان ٤٦ر٣ سنة في سنة ١٩١٠ . وأما في سنة ١٩٣٥ فقد ارتفع متوسط العمر إلى ٦٠ر٢ سنة . وصار من الأمور العادية أن نرى كثيراً من المسنين الذين جاوزوا الستين وبلغوا السبعين أو الثمانين .

ويصل غالباً إلى سن الشيخوخة من سبق أن تمتع ببنية طيبة وصحة وعافية ، وخلا من المرض خصوصاً ما يضعف القوى ، وهذه بدورها تتبع الابتعاد عن الأمراض ، والتمسك بقواعد الصحة العامة ، والعناية باشتراطاتها من مسكن وغذاء ووسط صالح جيد ، وعدم إنهاك الجسم بكثرة التفكير والعمل والمشاغل والجهود الشاقة . وقد نجحت الوسائل الصحية في إطالة العمر ، بينما أخفقت وسائل السحر والشعوذة ، وعقاقير إطالة العمر الأخرى .

ولقد احتلت مسألة الشيخوخة أهمية اجتماعية واقتصادية في بعض البلاد . ولكني كغيري من الأطباء ننظر إليها نظر الطب ، فنشير وننصح هذه الفئة بما يجب عليهم اجتنابه ، ليتمتعوا بحياة طيبة وبشيخوخة هادئة راضية مطمئنة ، بعيدين قدر الاستطاعة عما ينتقص من صحتهم أو ينغص عليهم حياتهم .

فالشيخوخة شبه مرض ، يزيدها الإجهاد بكل أنواعه ومعانيه ، الجسمي والعقلي ، والانفعالات النفسية بأنواعها ، والإجهاد الهضمي والتناسلي ، وغير ذلك من أنواع الإجهاد ، كما يزيدها الاستسلام والكسل واليأس والقنوط ، ولكن يفيدها العمل الهادئ المريح ، المناسب للقوى الجسمية والعقلية في حدود مقدرة الشخص ذاته ، كما تفيدها فترات الراحة والاستجمام لاسترداد النشاط والقوة الحيوية . ويجب أن يتوفر الاتزان بين حالتي العمل والراحة ، لأن الإخلال بهذا الاتزان يتبعه حتماً الاضطراب في الصحة العامة ، وينشأ عنه تتابع الأمراض . هذا صحيح ثابت في كل أدوار الحياة ، ولكن له أهميته الخاصة بالنسبة للشيوخ والضعفاء من الشبان .

فإذا بلغ المرء سناً متقدمة ، وكان جسمه خالياً من الأمراض والعاهات ، وتفكيره سليما صحيحاً ، وكان محافظاً على صحته وعافيته وسلامته باتباعه قواعد الصحة العامة الشخصية ، فإنه قد يبلغ عمراً مديداً طويلاً حسب ما قدر له أن يعيش .

ويعمل الطب بكل فروعه على مقاومة الأمراض وشفائها ، مسخراً في ذلك آخر ما وصل إليه من معرفة ومقدرة ، ليتسنى للمرء أن يعيش سليماً ما قدر له أن يعيش . وعند ما يتغلب الطب ويهتدي إلى علاج بعض الأمراض الخبيثة غير القابلة للعلاج ، مثل بعض أنواع السرطان ، وعندما يتغلب الإنسان والطب على الأحوال النفسية والعصبية ، فيخف أثرها على الصحة والتفكير ، سيطول متوسط العمر ويزداد عدد المعمّرين .

ولا يمكن بحال ما تجنب الموت ، مهما طال الأجل . فقد عمل الأطباء وعمل غيرهم من فجر التاريخ على إطالة العمر ، وبحثوا في مختلف الوسائل التي قد توصل إلى هذه الغاية ، وفكروا في أمور تعد في حكم الخرافات . كما بحثوا مسائل ذات قيمة علمية هامة ، ومنها طرق التصابي ، أو إعادة الشباب بخلاصة الغدد ، وبالتطعيم بها على طريقة الأستاذ « فورونوف » وطرق أخرى، وحصلوا على بعض النتائج المشجعة .

الشباب الدائم هو أحب شيء إلى الإنسان والإنسان لاحد لمطامعه ، ولا لحبه الحياة . ولو نظرنا إلى ظروفنا الحالية لرأينا الإنسان، قد تزود بكثير من وسائل المدنية الحديثة من تلفون وطائرات وأتمبيلات وراديو وغيرها . وقد استغل الإنسان وقته باستعمالها إلى أقصى حد ، واستفاد منها أكثر من أسلافه ، وقلل مما كان يضيعه من الوقت في السفر والانتقال ، وأمكنه الاتصال بمن يشاء في المعمورة دون أن يبارح مجلسه ، متمماً عملا كان يستغرق الوقت الطويل فيما مضى . فالمدنية فضلا عما أفادتنا صحيا بالوسائل العلمية وفرت علينا كثيراً من الوقت بالوسائل العلمية أيضاً . فإذا نحن نحينا الهموم جانباً ، وتركنا المشاغل خلف ظهورنا ، تمتعنا بأيام حياتنا أفضل متعة ، مما لم يتهيأ لأحد من آبائنا وأجدادنا .

ورغماً عن تمتع الإنسان بهـذه الميزات دون سلفه ، فإن حبه للحياة لايزال على شدته .

والشيخوخة من فترات الحياة التي تجب العناية بها . وقد اهتم الطب الوقائي بصحة الحوامل والأطفال ، وعاد ذلك بأفضل النتائج . فقلت نسبة الوفيات والأمراض ؛ وعني الطب بصحة الشبان ، ووضعت النظم والإرشادات للعمل والتغذية والتحوط من الأمراض والوقاية من الإصابات ، فأتى كل ذلك بنتائج لايستهان بها .

وسيكون لعناية الطب بالشيوخ نتائجه الحسنة أيضاً . ولا يجب أن نغفل أن على الشيوخ أنفسهم تقع مسؤولية المحافظة على صحتهم ، واتباع ما يشير به الأطباء ، حتى يصبحوا

بذلك فئة صالحة نافعة للهيئة الاجتماعية عامة ولأنفسهم وذويهم خاصة ، بدلا من أن يراهم المجتمع عالة عليه ، أو في حكم العاطلين أو غير القادرين على الكسب ، مع أن غالبيتهم قد أدوا واجبهم في الحياة كاملا ، وأسدوا للإنسانية ولوطنهم خدمات جلى ، ويتعين على الهيئة الاجتماعية رعايتهم . وعلى الشيخ أن يعتبر نفسه سنداً وعضداً ومرشداً للشبان لا منافساً لهم ، كما يجب على ذويهم العناية بهم والسعي فيما يهيئ لهم الراحة . كما أن على الشبان التفكير في شيخوختهم ، وأن يأخذوا الحيطة لكل طوارئها إبان شبابهم وعنفوانه لكيلا يجهدوا أنفسهم في سن الشيخوخة للحصول على ضرورياتهم . ونظام النقابات والمعاشات وشركات التأمين ووسائل الادخار والاتجاهات الحديثة في نظم العمل ، مما يسهل عليهم الوصول إلى هذه الغاية .

ويجب على الشبان العناية بصحتهم ، ليتمكنوا من الوصول إلى شيخوختهم وبنيتهم خالية من المرض ، علماً بأن السليم ليس هو الخالي من الأمراض فحسب ، بل هو القادر على التمتع بالحياة ، وعلى القيام بعمل ّما ولو هيناً بسيطاً ، فيشعر من ذلك بأنه كائن حي نافع لنفسه ولغيره .

ويحسن بنا قبل ترك هذا الموضوع أن ندون كلمة عن تأثير نقل الغدد في علاج الشيخوخة .

فمن الملاحظات القديمة الثابتة أن ذكور الحيوان التي تخصى تفقد صفاتها وتكتسب صفات أخرى ، وقد اتبع مربو الأغنام والفراخ والعجول ذلك لتسمينها ، كما قام به المزارعون في المواشي تهدئة لطباعها ورغبة في سهولة قيادتها ، ولكي تكون أكثر تحملا للعمل .

ويجري المزارعون الآن عملية الخصاء هذه على عجول التربية لبيعها لحماً في أوائل السنة الثانية من عمرها ، وأما في مواشي العمل فتجري هذه العملية بعد السنة الثانية ، حتى يتم تكوين عضلاتها وتصبح أقدر على القيام بالأعمال الزراعية .

ولقد لوحظ أن المواشي التي تخصى للاستفادة من لحومها يزداد وَزنها ويكثر الدهن في لحومها .

كما لوحظ فقدانها تماما لوظيفتها التناسلية ، وأنها تصبح هادئة ليس لها شيء من صفات الذكور .

وتجري عملية الخصاء من قديم الزمان على الرجال أيضاً ، وهم المعروفون باسم « الخصيان » ، والمعدون للخدمة في المنازل ، لا سيما في أماكن السيدات ؛ وهذه العادة

كانت قائمة إلى عهد قريب ، وربما لايزال من هؤلاء الخصيان من هو على قيد الحياة .

ولقد تنبّـه كلود برنرد « Claude Bernard » وتبعه آخرون إلى وظائف الغدد ذات الإفراز الداخلي ، وعملت جملة من التجارب على الحيوانات ، ووجد أن الغدة الدرقية لها تأثير على نشاط الجسم وتكوينه ، وأن الحيوان الذي تنزع منه هذه الغدة يصير خاملا بطيئا كسلان ، كما وجد أن إفرازها يسبب أمراضا خاصة في الأطفال، وأخرى خاصة في الكبار ، ولوحظ أن زيادة إفرازها يسبب تنبها زائداً في الجهاز العصبي واضطرابات أخرى لا محل لذكرها .

ثم تناول البحث غدداً أخرى من الجسم ، فوجد أن لـكل منها خاصية ووظيفة تؤديها، بحيث إذا زاد إفرازها أو قل أوانعدم أصيب الشخص بأمراض خاصة تبعاً لزيادته أو قلته أو انعدامه . فاتجه التفكير إلى دراسة هذا الموضوع دراسة عميقة ، وإجراء التجارب العديدة الكافية ، ووصل إلى الإحاطة بأهمية هذه الغدد ، وإن كان لم يهتد إلى كل ما يجب أن يعرفه عنها . غير أن هذه الأبحاث قد زودت الطب العلاجي بثروة دوائية عظيمة جداً ، أتت بأحسن الفوائد في علاج كثير من الأمراض .

وأول من استعمل خلاصة الغدد حقنا تحت الجلد أحد علماء الفزيولجيا ، واسمه بروان سكرد "Brown Sequard" وقد عاش في القرن التاسع عشر ، إذ حقن نفسه وهو في سن السبعين بخلاصة الخصية ، حضرها من الحيوانات ، فشعر بفائدة عظيمة في صحته وحيويته ومقدرته الفكرية .

ثم كان ذلك إيذاناً ببدء استعمال خلاصة الغدد في إعادة الشباب .

وكان الاعتقاد في السابق أن لـكل من هـذه الغدد إفرازاً داخليا واحداً ، ثم ظهر بعد ذلك أن الغدة الواحدة قد تتكون من فصين أو جزئين ، لـكل منهما إفرازه الداخلي ، ولـكل من هذين الإفرازين مفعول خاص به ، ويسمى الإفراز الداخلي باسم الهرمون "Hormone" ويعطى الآن هذا الهرمون بكثرة في علاج الأمراض المسببة عن نقصه ، وظهرت فائدته في سن الشيخوخة ، إذ يستعمل هرمون الخصية فيها ويؤدي إلى نتائج حسنة .

وكان ممن بحثوا في مسألة إطالة القوى وإعادتها إلى المسنين الأستاذ فورونوف ، وسبقه آخرون وتبعوه ، ولـكل طريقته الخاصة . ولقد انتهز الأستاذ فورونوف فرصة وجوده بمصر فبدأ أبحاثه في هذا الموضوع بدراسة الخصيّ ، فدرس التغيرات الحيوية

والفزيولوجية التي طرأت على بنية الخصيان من تأثير هـذه العملية ، ولاحظ عليهم الضعف العصبيّ والفكريّ والعضليّ والشيخوخة المبكرة . وبمتابعة أفكاره وأبحاثه فكر في عملية نقل جزء من الخصية إلى الحيوانات المسنة . وابتدأ عمله في الخراف التي أصابتها الشيخوخة ، بأن غرس بطريقة خاصة قطعة من خصية خروف صغير بالغ تحت جلد خروف مسن ، فلاحظ تحسناً في صحته وفي صوفه وفي مقدرته على التناسل ، كما طال عمره ، ثم كرر هذه التجربة ، وأعادها على القردة ، ثم تدرج من ذلك إلى نقل قطعة من خصية القرد إلى الإنسان ، ووفق إلى نتائج شجعته على متابعة أبحاثه .

وأصبح معروفاً الآن أن الغدد التناسلية عند النساء والرجال تفرز — عدا إفرازها الخارجي — إفرازات داخلية ، لها خاصية تنشيط أعضاء الجسم المختلفة وخلاياه وتنبيهها ، وأن نقص هذه الإفرازات يؤدي إلى هبوط في البنية وأمراض أخرى ليس هنا محل شرحها . ولهذا أصبح استعمال هرمونات هذه الغدد عند الرجال والسيدات من الأصول المتبعة في علاج كثير من الأمراض .

وهكذا أثبتت الأبحاث العلمية بأوضح العبارة أن قوة البنية ونشاطها وحيويتها مرتبطة تمام الارتباط بسلامة وظائف الغدد ذات الإفراز الداخلي وانسجامها ، وبدون أن يقلل من أهمية العوامل الوراثية ، فإن طول العمر مرتبط بهـذه الإفرازات ، خصوصاً الإفرازات الداخلية للغدد التناسلية ، وأن إفرازات هذه الغدد التناسلية ذات أثر لا ينكر في تكوين صفات الإقدام والشجاعة والنشاط والذكاء والثقة بالنفس عند الإنسان ، وأن نقصها يؤدي إلى ضعف في الذاكرة والحيوية ، وغير ذلك .

قيل إن عمر الإنسان لايقاس بعدد السنين ، بل بحالة شرايينه ، بمعنى أن الشيخ الذي تكون له شرايين مرنة يعد شاباً . ومما يقال أيضاً إن حالة الإنسان لا تحسب بعدد السنين والأيام ، بل بالصحة التي يتمتع بها . ويقال الآن إن عمر الإنسان يقدر بنشاط وحيوية غدده .

كل ذلك صحيح . وإذا ما اجتمعت جميعها لإنسان ظل في عداد الشبان والفتيان مهما بلغ من العمر .

هذه كلمة قصدت بها فائدة المسنين ، ليقفوا تماماً على حالتهم ، وليعنوا بالمحافظة على صحتهم وسلامتهم . ولكي تكون شيخوختهم سهلة هينة عليهم وعلى ذويهم ، وآمل أن يتبع المسنون ما جاء فيها .

سليمان عزمي

الإسكندرية في العصر الإسلامي

للأستاذ حسن عبد الوهاب مفتش الآثار العربية

يعترض الباحث في تاريخ مصر الإسلامية نقص كبير في تاريخ الإسكندرية وطبوغرافيتها في العصر الإسلامي . فلا يعثر بعد جهد إلا على فقرات مبعثرة بين سطور الكتب .

لعبت الإسكندرية في الفتح الإسلامي دوراً خطيراً ، مما دعا عمرو بن العاص إلى فتحها مرتين الأولى سنة ٢١ هـ (٦٤١ م) والثانية سنة ٢٥ هـ (٦٤٥ م) . ثم عكف المؤرخون على الإشادة بفضل المرابطة فيها والإشارة إلى عمود السواري والمنار وغير ذلك من الآثار السابقة للعصر الإسلامي .

والمتتبع للمراجع التاريخية الخاصة بمصر يرى الإسكندرية فقيرة فيها فلم تنفرد بمؤلفات لتاريخها وطبوغرافيتها مثل القاهرة ، بل ولا بشطر مما انفردت به . وزاد الأمر غموضاً أن أكثر معالمها الإسلامية فقدت أو تجددت ففقدت مميزاتها الفنية ونصوصها التاريخيـــة .

وكان من نتيجة البحث ، عن مراجع خصصت لها ، أن وقفت على المراجع الآتية :

رسالة في فضائل الإسكندرية : مخطوطة في مكتبة المغفور له أحمد تيمور باشا ، مجهولة المؤلف ، اشتملت على فتح الإسكندرية وفضل المرابطة فيها ، ثم عقد فصلاً إجمالياً عن أسوارها وتعداد مساجدها عداً لا حصراً .

الدرة السنية في تاريخ الإسكندرية : تأليف منصور بن سليم السكندري المتوفى سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٥ م) . ذكره السخاوي في كتابه « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » ، كما أشار إليه المغفور له أحمـد تيمور باشا في بحث ورسالة له عن نوادر المخطوطات ، وأشار إلى أن النسخة الوحيدة في مكتبة أيا صوفيا في جزءين .

وقد دلت التحريات على أن الكتاب فقد وحل في إحدى دفتيه مجموع قصص عن الإسكندر .

فضائل الإسكندرية : لأبي الفضائل ؟

« « : لأبي علي الحسن بن عمر بن الحسن الصباغ

منصور بن سليم

ذكرهما السخاوي ولم نقف لهما على أثر .

الإلمام بما جرت به الأحكام المقضية في واقعة الإسكندرية : تأليف محمد بن قاسم ابن محمد النويري السكندري المالكي . صنفه في كارثة الإسكندرية سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) . ومنه نسخة في مكتبة البلدية وأخرى في دار الكتب المصرية ، وهو لا يفيد كثيراً في تاريخ الإسكندرية .

مؤلف عن الإسكندرية وآثارها : لابن الصائغ :

ذكرت مجلة الهلال في عددها الصادر في أبريل سنة ١٩٣٤ نبأ العثور على هذا المؤلف دون ذكر من عثر عليه أو محل وجوده . ونشرت ما كتبه المؤلف عن وصفه لمنار الإسكندرية حينما زاره سنة ١١٦٥ م ، وأن المؤلف أندلسي أقام بالإسكندرية سنتين وقف نفسه في خلالهما على التحصيل ودرس العلوم والآداب وفن الهندسة ، وزار جميع الآثار الهندسية التي كانت في الإسكندرية حينئذ .

أصحاب مالك من الإسكندرانيين : لابن شعبان ؟

» » » » : لابن يونس ؟

نقل عن هذين المؤلفين ابن فرحون في كتابه الديباج المذهب في أعيان المذهب ، ولم نقف لهما على أثر أيضاً .

أما من كتبوا عن الإسكندرية حديثاً مثل المرحوم محمد بك مسعود والأستاذ فؤاد فرج وغيرهما فإنهم لم يتعرضوا لتاريخها أو حوادثها في العصر الإسلامي .

الحركة العلمية في الإسكندرية . عند ما استعرض السخاوي الحركات العلمية في الأقطار الإسلامية ، وصف مصر والإسكندرية بقوله :

«ومصر بلد عظيم وقطر متسع شرقي وغربي وصعيد أعلى وأدنى . افتتحها عمرو في زمن عمر رضي الله عنه وسكنها خلق من الصحابة . وكثر العلم بها من التابعين ، ثم زاد في زمن عمر بن الحارث والليث بن سعد وابن لهيعة ، وإلى زمن ابن وهب والشافعي وأبي القاسم وأصحابهم. وما زال بها علم جم إلى أن ضعف ذلك باستيلاء العبيديين الرافضة عليها سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٨ م) فشاع التشيع وقل بها الحديث والسنة ، إلى أن وليها أمراء السنة بعد مائتي سنة ، وأنقذها الله من أيديهم على يد الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله ، فتراجع العلم إليها ، وضعفت الروافض ولله الحمد . وهي الآن أكثر البلاد عمارة بالفضلاء من سائر المذاهب والفنون وفقهم الله .

والإسكندرية تبع لمصر ما زال بها الحديث قليلا حتى سكن السلفي فصارت مرحولاً

إليها في الحديث والقراءات ثم نقص بعد ذلك . »

ويصفها في عصره — النصف الثاني من القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) — بأنها عدم إلا من بعض الغرباء وغالبهم مالكيون على أنه قد ولي قضاءها عدة من الشافعية .

هذا رأي السخاوي وفيه شيء من التحامل على الفاطميين ، شأن الكثير من المؤرخين ؛ لأن الفاطميين في الوقت الذي خصصوا فيه حلقة لدرس فقه الشيعة في الجامع الأزهر بدأت بخمسة وثلاثين طالباً سنة ٣٧٨ هـ (٩٨٨م) كان جامع عمرو بن العاص معقلاً للحديث والمذاهب السنية فقد بلغت حلقات التدريس فيه في نهاية القرن الرابع مائة حلقة وعشر حلقات يتزعمها أئمة الفقهاء والقراء وأهل الأدب والحكمة .

أما الإسكندرية فإنها حقيقة تابعت مصر في نهوضها العلمي ، وإنها منذ سكنها الحافظ السلفي سنة ٥١١ هـ (١١١٧ م) صارت مرحولا إليها في الحديث والقراءات .

وثمة ميزة أخرى لها فإنها سبقت مصر في إنشاء المدارس للمذاهب السنّية ، فقد أنشأ الوزير رضوان بن الولخشي سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) مدرسة للفقيه أبي الطاهر ابن عوف . وكذلك أنشأ بها العادل بن السلار وزير الخليفة الفاطمي الظافر مدرسة الحافظ السلفي سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م).

وكان بها في العصر الفاطمي علماء أعلام محدثون ناصروا السنة وكانت الرحلة إليهم . كما أن الحافظ السلفي دخل الإسكندرية وبها علماء أجلاء نشؤوا فيها وآخرون رحلوا إليها واستوطنوها ، وكان لهم أثر كبير في نهضتها العلمية فأخذ عنهم وأخذوا عنه. أذكر منهم العلامة ابن أبي مطر وابنه ، فقد كانا من أجلة علماء الإسكندرية في القرن الرابع الهجري وسمع عليهما خلف بن محمد الخولاني المتوفي سنة ٣٧٤ هـ (٩٨٤ م) . ومحمد بن ميسر فقيه الإسكندرية في النصف الأول من القرن الرابع الهجري ، وعبد الرحمن بن عوف بن عمرو العلاف ، سمع عليه عبيد بن محمد القرطبي المتوفى سنة ٣٩٢ هـ (١٠٠١م) وابن عباد الاسكندراني وكان من شعراء القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ، ومن شعره :

كأنه شمسة من فضة حرست ... خوف الوقوع بمسمار من الذهب

ومحمد بن الحنشي الإسكندري المتوفى في حدود الخمسمائة ، ومن شعره في إنسان ينعت بعين الملك :

ألا إن ملكا أنت تدعى بعينه ... جدير بأن يمسي ويصبح أعورا

فإن كنت عين الملك حقاً كما ادعوا فإن له العين التي دمعها جرى

ومن شعره أيضاً :

قال لي العاذل في حبه وقوله زور وبهتان

ما وجه من أحببته قِبلةٌ قلت ولا قولك قرآن

وابن مكنسة الإسكندراني إسماعيل بن محمد المتوفى في حدود الخمسمائة ، وكان شاعراً رقيقاً وله أشعار كثيرة منها :

يارب عربيد إذا ما انتشى أربى على المجنون في مسه

قالوا لقد تاب ووالله ما يتوب أو يجعل في رمسه

وإنما توبته هـذه عربدة أيضاً على نفسه

وأبو المنصور ظافر بن القاسم الإسكندري الشاعر المعروف بالحداد المتوفى سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٤ م) ، ومن شعره :

وكأنما الدولاب يزمر كلما غنت وأصوات الضفادع شيز

وكأنما القمري ينشد مصرعاً من كل بيت واليمام يجيز

وابن الفحام عبد الرحمن بن أبي بكر بن عتيق بن خلف الصقلي المقرئ المجود وله مصنفات في التجويد والقراءات السبع وكان من شيوخ القراء ؛ سكن الإسكندرية وقصده الطلاب من شتى البلاد لعلو إسناده ، توفي سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) .

وسند الإسكندرية ابن الحطاب محمد بن إبرهيم الرازي ثم المصري المعدّل الشاهد مسند الديار المصرية وشيخ الإسكندرية المتوفى سنة ٥٢٥ هـ (١١٣٠ م) . والإمام الطرطوشي محمد بن الوليد بن محمد بن خلف الفقيه الصوفي المالكي ، كان عالماً زاهداً . حوّل قسماً من داره إلى مدرسة فوفد عليه العلماء والطلاب مدة حياته إلى أن توفي سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦م). وأبو القاسم بن مخلوف المغربي ثم الإسكندري ، أحد علماء المالكية تفقه به أهل الإسكندرية إلى أن مات سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م) . والحافظ المقدسي : أبو الحسن علي بن أبي المكارم الإسكندراني المالكي . كان فقيهاً فاضلاً من أكابر الحفاظ المشاهير في الحديث وعلومه . أدرك الحافظ السلفي وصحبه ، وتوفي سنة ٥٤٥ هـ (١١٥٠ م) .

وصدر الإسلام أبو الطاهر إسمعيل * بن بكر بن عيسى بن عوف السكندري تفقه على الإمام الطرطوشي وسمع منه ومن أبي عبد الله الرازي ، وكان إمام عصره في مذهب الإمام مالك ، وعليه المعول في الفتوى . وقد سمع عليه صلاح الدين يوسف بن

---

* في حسن المحاضرة إسمعيل بن مكي وفي مرآة الجنان ابن بكر

أيوب ملك مصر موطأ الإمام مالك ؛ توفي سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) عن ٩٦ سنة .

وفي هذا القدر كفاية . وقد ذكرته للتدليل على انتعاش الحركة العلمية والحديث وعلوم القرآن قبل قدوم السلفي إليها . وهذا ما سيعززه السلفي أيضاً بذكره من لقيه بها في أثناء دخوله الإسكندرية ومقامه بها .

الحافظ السلفي : أحمد بن محمد بن سلفة ، الحافظ الكبير أبو طاهر بن أحمد السلفي الأصبهاني . كان إماماً حافظاً جليلا واسع الرحلة ديِّناً ورعاً ثبتاً فقيهاً لغوياً انتهى إليه علو الإسناد مع الحفظ والإتقان . قدم مصر واستوطن الإسكندرية سنة ٥١١ هـ (١١١٧ م) ، فأفاد واستفاد وهرع إليه الطلاب للاستفادة من علمه ، وأصبحت الإسكندرية كعبة المستفيدين يحج إليها العلماء من أقطار الأرض للأخذ عنه . وفي سنه ٥٤٦ هـ أنشأ له مدرسة العادل بن السلار أقام بها . وقد بلغ من تقدير ملك مصر صلاح الدين يوسف بن أيوب أن سمع عليه هو وأولاده موطأ الإمام مالك .



اللوحة التذكارية لإنشاء دار الحديث التكريتية

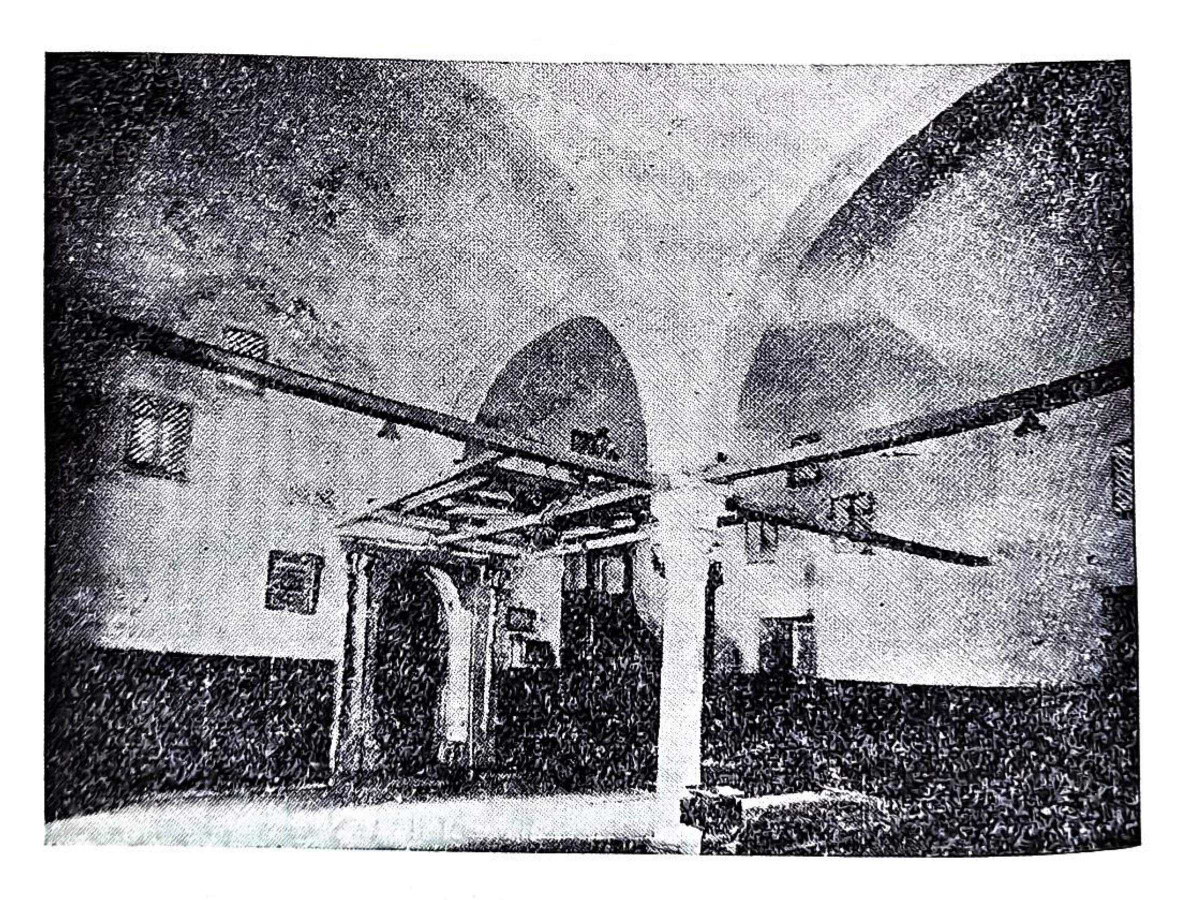
وفي سنة ٥٧٦ هـ (١١٨٠ م) انتقل إلى رحمة الله وعمره ١٠٦ سنوات وقيل ٩٨ سنة وقد وضع معجما سماه معجم السفر رتبه على حروف المعجم. جمع فيه تراجم من لقيهم من العلماء بالإسكندرية أو من مر بها وقصده للسماع منه والأخذ عنه . ونسخة الأصل كانت في مكتبة شيخ الإسلام بالمدينة واستنسخ منها نسخة حضرة العالم الجليل الشيخ عبدالحي الكتاني لمكتبته القيمة بفاس ، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية تنقص الأول والآخر مأخوذة بالتصوير الشمسي .

ومن هذا المعجم وقفنا على تراجم علماء أجلاء وشعراء إسكندرانيين في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) زاملوا السلفي وتتلمذوا عليه ، أذكر بعض الإسكندرانيين ومنهم من توطنوها : أبوالفتح بدر بن نمير بن يونان الأنطاكي المعروف بنصر . تفقه على مذهب الشافعي ، وكان أديباً بارعاً وشاعراً مجيداً له ما يزيد على خمسين قصيدة ، توفي سنة ٥٤٧ هـ (١١٥٢ م) . وأبو المعالي رافع بن يوسف بن زيدون القيسي ؛ لازم الإمام السلفي عند بناء المدرسة العادلية وبعدها ، وكان يعيد

الدروس على أربعين من الصبيان ، توفي سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦ م) . وأبو الرضا زيد ابن محمد بن عبد الحميد بن الطرابلسي المجلد بالثغر . كان يشتغل بتجارة الكتب وتجليدها ، وكان يحفظ كثيراً من الشعر وعنه أخذ السلفي . وأبو الحسن علي بن يوسف بن عبيد الكندي المطرز . كان شاعراً مجيداً ولازم السلفي إلى أن مات . وأبو محمد بن الحسن ابن عشير العبدري النحوي . كان متصدراً في جامع الإسكندرية لإقراء القرآن وتدريس النحو . سمع السلفي كثيراً من شعره . والقاضي أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن حديد قاضي الإسكندرية . كان سنيًّا مالكي المذهب من أعرق أسر الإسكندرية وبيتهم بيت علم ، توفي سنة ٥٢٩هـ . وأبو محمد عبدالله بن سعيد بن خلف الخولاني الكتبي ، كان حسن الخط وله ميل إلى الأدب وإلى الشعر ورسائل الكتاب . ويقول السلفي : كان لي به أنس تام واستفدت منه كثيراً ، وجلد لي مجلدات ونسخ لي جزئيات . وأبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله ابن صدقة الكاتب المصري : هو مصري المولد إسكندراني الموطن سمع على أبي العباس الرازي كثيراً ، وكان محبا للحديث وأهله . لازم السلفي وسمع عليه . وأبو الحسن علي ابن عبد الله بن أبي الأشيم ، عالم جليل أمه من أسرة بني حديد قضاة الإسكندرية . صحب الأدباء وأنشد الشعر وكتب كثيراً من الكتب الأدبية ودواوين الشعر . اقتنى الكثير منها الحافظ السلفي واستفاد منه ، توفي سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) . وكان مالكي المذهب ومن أهل السنة . وأبو الحسن علي بن محمد بن علي الكتبي المعروف بابن الجيزي . يقول السلفي : سمعت أبا الحسن علي يقول : « فهرست أنا كتب أبي علي الحسن بن علي الحضرمي فبلغت ٣٧٤٢ مجلداً . وأبو محمد عبد العزيز إسمعيل بن بربك بن توهيب ، وكان سنيًّا مالكي المذهب وكان أديباً شاعراً . يقول السلفي أخذت عنه من شعر متأخري شعراء أبناء مصر كابن جيش وابن الدر وابن القلفاط وآخرين ؛ توفي سنة ٥٢٢ هـ (١١٢٨ م) . وهو أخو عبد الوهاب بن توهيب الشاعر . وأبو الحسين المعروف بابن المفرّض . كان مقدم الشهود بالإسكندرية وقد نيف على التسعين حتى توفي في شعبان سنة ٥٢٤هـ . يقول السلفي : إنه لازمني واستفدت منه . وهو ووالده من أسرة الصفراوي من أعيان الإسكندرية وعلمائها وكلهم مالكية من أهل السنة . وأبو محمد عبد الوهاب ابن إسمعيل بن بربك بن توهيب الوراق ، ولم يكن بين وراقي الإسكندرية وشعرائها أكبر منه سناً في وقته ، وله أكثر من خمسين قصيدة ، وتوفي سنة ٥٤٧ هـ . وابن العريف ، شيخ من أهل البيوتات المشهورة بالإسكندرية . كان يجيد الرماية ، وسمع على السلفي وعلى غيره من علماء الإسكندرية . ويذكر ابن العريف أنه قرأ القرآن

بروايات في صغره على أبي الحسن بن اللبن البغدادي ، وعلى أبي الربيع الأندلسي وابن مسلم الصقلي . وخلف السالمي ، وتوفي في المحرم سنة ٥٣٧ هـ . وأبو الحسن علي بن يحيي الكتامي الجلالي المعروف بالناهض ، وكان كبيراً ، وكان يحفظ من أشعار متأخري الشاميين كثيراً ، ورأى منهم شعراء بطرابلس . ولد بالإسكندرية وبها مات في آخر المحرم سنة ٥٣٣ هـ .

وأبو الحسن علي بن محمد بن علي بن الحسين بن يحيي الجيزي الكتبي . كان من أعرف الناس بالخطوط وأثمان الكتب . يقول السلفي اشتريت منه كثيراً واستفدت منه فوائد أدبية . وسمعته يقول : سمعت أبا القاسم مكي بن محمد بن مروان النحوي يقول : سمعت القاضي أبا الحسين السيرافي بمصر يقول : بلغت كتبي المجلدة أحد عشر ألف مجلد وسبعمائة وعشرات ، ومن المنشور ما إذا عولت على تجليده أردت ثلثمائة دينار .



دار الحديث التكريتية

وأبو الحسن علي بن عبد الرحمن الصقلي العروضي ، وكان من كتاب الإسكندرية وشعرائها ومن أعرف الناس بالخطوط وأثمان الكتب . اشترى منه السلفي كتباً كثيرة واستفاد منه فوائد أدبية .

وأبو المكارم هدية بن عامر بن فتوح الحضرمي المهندس . كان نابغاً في الهندسة وفنونها تلقى الحديث أيضاً على الحافظ السلفي .

من هذه التراجم ترى أن الحافظ السلفي قدم الإسكندرية وبها علماء أعلام أخذ عنهم وأخذوا عنه . ومنهم أسماء لامعة لسيدات نبغن في مختلف العلوم وفي فنون الأدب أذكر منهن :

تقية بنت غيث بن علي الأرمنازي الصوري المدعوة ست النعم . ولدت في المحرم سنة ٥٠٥ هـ بدمشق . يقول السلفي: لم تر عيني شاعرة قط سواها . لها شعر جيد ومعان حسنة وقد مدحتني بقصائد كثيرة .

وترفة بنت أحمد بن إبرهيم الرازي ، من بيت علم ، وهي عالمة ديّنة وتسمى أيضاً عائشة . قرأ عليها السلفي سنة ٥٣٤ هـ . وتوفيت بعدها بمدة قريبة .

والخفرة بنت المبشر ، وتدعى جديدة ، سمعت بإفادة أبيها جماعة من شيوخ مصر وقرأ السلفي عليها . توفيت سنة ٥٢٨ هـ .

وخديجة بنت أحمد بن إبرهيم الرازي المدعوة مليحة . أبوها محدث وأخوها محدث وقد حدثت أختها كما حدثت هي . لها من أبي الوليد أبي محمد إجازة . قرأ عليها السلفي بالإسكندرية . أما أختها ترفة فليس لها سماع إلا من أبيها فقط . وقد توفيت سنة ٥٢٦ هـ .

جامعة صلاح الدين

في سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) أمر صلاح الدين يوسف بن أيوب ملك مصر بإنشاء مدرسة وبيمارستان ودار للمغاربة بالإسكندرية . وهذه هي الجامعة التي عاينها ابن جبير الرحالة ووصفها بقوله :

« ومن مناقب هـذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد يفدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوي إليه ومدرساً يعلمه الفن الذي يريد تعليمه وإجراء يقوم به جميع أحواله ، واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك ، ونصب لهم مارستاناً لعلاج من مرض منهم ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم ، وتحت أيديهم خدم لمعاونتهم . كما عين أطباء ينتقلون لعيادة من لم يستطع الذهاب إلى البيمارستان . هذا عدا المخصصات المقررة للمغاربة » .

والمرجح أن هذا البيمارستان كان يدرس فيه الطب كما هو المتبع في ذاك الوقت. أسست هذه الجامعة عقب وفاة السلفي وخصصت لدراسة مختلف العلوم، وفتحت أبوابها لأجلة العلماء من شمالي أفريقيا والأندلس، فانتعشت الحركة العلمية وأينعت. وكان قوامها بقايا معاصري السلفي وتلاميذه من علماء وأدباء الإسكندرية، فنهضوا بها، وتعددت مراكز التحصيل فيها من مساجد ومدارس.

ولذلك نرى العلامة محمد بن عبد الوهاب المعروف بابن خزيمة — وقد قدم الإسكندرية سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٤ م) وأقام بها أربعين سنة — يصفها بقوله:

« بها حدائق وماء رائق وأهلها للخير فاعلون لاتبطل القراءة منها ولا طلب العلم ليلاً ولا نهاراً وبها ٨٠٠ مسجد منها ١٩٠ للخطبة وبها ١٨٠ مدرسة لطلب العلم، حتى كان بالمدينة خطاطون يكتبون على الفتاوي.

وهذا الإحصاء لمدارسها ومساجدها معقول، ولكن نكبات الإسكندرية وضياع معالمها الأثرية وتجديد ما تبقى أفقدنا ثروتها الأثرية، ولكنا وقفنا على بعض أسماء لهذه المساجد والمدارس تدخل في هذه الحقبة من تاريخ الإسكندرية أذكر منها:

مسجد عمرو بن العاص — مسجدموسى — جامع عبدالله بن عمرو بن العاص. مسجد سليمان. مسجد الخضر. مسجد القيسارية. مسجد النحاة. جامع العسلية. مسجد قيلولا. مسجد خطاب. مسجد ابن عوف. المسجد العمري. مسجد الفخر. الجامع الغربي وكان به ستون طالباً. الجامع الكبير ويعرف بجامع الغرباء وكان به ثلثمائة طالب. مسجد السارية. مسجد النخلة. مسجد الجيوشي (العطارين) مدرسة ابن حباسة. مدرسة بني حديد. المدرسة المكينية. المدرسة التكريتية، مدرسة الطرطوشي. مدرسة الوحشي. المدرسة العادلية. مدرسة صلاح الدين.

ولا شك أنها كلها كانت مراكز تحصيل كان من أثرها تقدم الحركة العلمية وظهور علماء إسكندرانيين في القرنين ونصف القرن التالية لوفاة السلفي ولإنشاء جامعة صلاح الدين.

ولما زار الإسكندرية سنة ٦٤١ هـ (١٢٤٣ م) العلامة محمد بن يوسف سبط ابن الجوزي وصفها بقوله:

« قدمت الإسكندرية فوجدتها كما قال تعالى: "ذات قرار معين" معمورة بالعلماء معمورة بالأولياء. كالشيخ محمد الساري والشاطبي وأبي شامة. ووجدتها أولى بقول القيسراني في وصف دمشق:

أرض تحل الأماني في أماكنها   بحيث تجتمع الدنيا وتفترق

إذا شدا الطير في أغصانها وقفت   على حدائقها الأسماع والحدق »

وكذلك حدثنا علي بن ظافر عن مجالس الأدب وأدباء الإسكندرية وشعرائها في أواخر القرن السادس وأول السابع الهجري أحاديث ممتعة في كتابه "بدائع البدائه" . ومنه وقفنا على نكت أدبية وأشعار طريفة أعطتنا فكرة ناضجة عن الأدب في الإسكندرية لا تسعني هذه العجالة لاستيفائها فليرجع إليها من أراد في كتابه المذكور .

ومنه عرفنا أسماء أدباء وشعراء عاصروه أذكر منهم :

أبو الحجاج يوسف المعروف بالنعجة . وشهاب الدين يعقوب . وأبو الحسن ابن النبيه . وأبو القاسم بن نفطويه . والفقيه أبو ثابت بن حسن الكريوني . والأديب عبد المنعم بن صالح الحريري . والقاضي الأعز بن المؤيد . والقاضي المخلص أبو العباس أحمد بن يحيى بن عوف . والفقيه أبو الحسن علي بن الطوسي المعروف بابن السيوري وأبو الحسن بن علي الحصري . والعباس بن طريف الخراط الإسكندري .

قال ابن ظافر : « أخبرني ابن المؤيد رحمه الله قال : اجتمعت مع جماعة من أدباء أهل الإسكندرية في بستان لبعض أهلها ، فحللنا روضاً تثنت قامات أشجاره ، وتغنت قينات أطياره ، وبين أيدينا بركة ماء كجو سماء ، أو مرقعة مراء ، فنثر عليها بعض الحاضرين ياسميناً زان سماءها بزواهر منيرة ، وأهدى إلى لجتها جواهر نثيرة ، فتعاطينا القول في تشبيهه ، وأطرق كل منا لتحريك خاطره وتنبيهه ، ثم أظهرنا ما حرّرنا ، ونشرنا ما حبرنا فأنشد العباس بن طريف الخراط الإسكندري :

نثروا الياسمين لما جنوه   عبثاً فاستقر فوق الماء

فحسبنا زهر الكواكب تحكي   زهر الأرض في أديم السماء

وأنشد الأديب أبو الحسن علي بن سيف الدين الحصري :

نثروا الياسمين لما جنوه   فوق ماء أحبب به من ماء

فحكى زهره لنا إذ تبدى   زهر الشهب في أديم السماء

قال ، وكان الذي صغته :

نثروا الياسمين في لجة الما   ء فخلنا النجوم وسط السماء

فكأن السماء في باطن الأر   ض أو الدرّ طف فوق الماء

قال : وسمع أبو عبد الله بن الزين النحوي القصة ولم يكن حاضراً معنا فقال :

نثر الغلام الياسمين ببركة   مملوءة من مائها المتدفق

فكأنما نثر النجوم بأسرها في يوم صحو في سماء أزرق

قال علي بن ظافر وسألني الأعز رحمه الله تعالى أن أصنع في مثله فصنعت :

زهر الياسمين ينثر في المـا ء أم الزهر في أديم السماء
أم هما مبسم شنيب شتيت في رضاب الخريدة الحسناء
ظل يحكي عقود در على صد ر فتـاة في حلة زرقاء
وإذا خلته حباباً حسبت المـــــاء طيباً كالقهوة الصهباء

ابن قلاقس :

ومن أعلام الإسكندرية ومن خيرة شعرائها ابن قلاقس نصر الله بن عبد الله بن مخلوف بن علي بن عبد القوي بن قلاقس الإسكندري . كان أديباً فاضلا وشاعراً مجيداً. ولد بالإسكندرية سنة٥٣٢ هـ ونشأ بها وقرأ على السلفي وسمع منه ومن غيره . توفي بعيذاب سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) ومن شعره :

اشرب معتقة الطلا صرفاً على رقص الغصون بروضة غناء
من كف وطفاء الجفون كأنما تسعى بنار أضرمت في ماء
في سحر مقلتها وخمرة ريقها شرك العقول وآفة الأعضاء

وقال من قصيدة :

عقدوا الشعور معـاقد التيجان وتقلدوا بصوارم الأجفـان
ومشوا وقد هزّوا رماح قدودهم هز الكماة عوالي المران
وتدرعوا زرداً فخلت أراقماً خلعت ملابسها على الغزلان

وقد أحصيت إلى الآن تراجم لعلماء وأدباء إسكندرانيين أو توطنوا الإسكندرية ابتداء من النصف الثاني من القرن السادس إلى نهاية القرن الثامن الهجري بلغت نحو مائتين وخمسين ترجمة وما زلت أطلب المزيد منها . أذكر بعضاً منهم محمـد بن الحسن بن زرارة أبو عبد الله الطائي . كان أديباً شاعراً نحويا لغويا . وكان مشرفاً على البيمارستان بالثغر وأميناً لمكتبة الجامع وله فيه حلقة لتدريس الأدب وتوفي في النصف الثاني من القرن السادس الهجري .

وأبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن محمد المالـكي الحضرمي قاضي الإسكندرية المتوفي سنة ٥٨٩ هـ . وأبو العباس القرطبي صاحب المفهم في شرح صحيح مسلم ، الفقيه المحدث المدرس الشاهد بالإسكندرية توفي سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) .

وشكر بن صبرة بن سلامة أبو الثناء العوفي السلمي الإسكندري ، إمام مجود

مصدر توفي بالإسكندرية سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) .

وأبو الحسن الأبياري علي بن إسمعيل ، أحد العلماء الأعلام وأئمة الإسلام. نبغ في علوم شتى ، وفي الفقه والأصول والكلام ، تفقه بأبي الطاهر بن عوف ، ودرس بالإسكندرية وانتفع به الناس وتتلمذ عليه ابن الحاجب النحوي وتوفي سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) .

وأسعد الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن مقرب الحافظ النجيبي الإسكندراني المعروف بالجلال العدل تلميذ ابن المفضل . روى عن البوصيري وابن موقا وعني بالحديث وكتب وخرج ، وتوفي في صفر سنة ٦٤٣ هـ .

وابن عوف الفقيه رشيد الدين أبو الفضل عبد العزيز بن عبد الوهاب بن العلامة أبي الطاهر إسمعيل بن مكي الزهري العوفي الإسكندراني المالكي سمع من جده الموطأ وتوفي سنة ٦٤٧ هـ .

وابن رواح المحدث ، رشيد الدين أبو محمد عبد الوهاب بن ظافر الإسكندراني المالكي سمع من السلفي وطائفة من العلماء ونسخ الكثير وخرّج الأربعين وكان فقيهاً . توفي سنة ٦٤٨ هـ .

وتاج الدين بن غنوم الإسكندراني . من شعراء المائة السابعة ، ومن شعره .

لاغرو للأعين إن رقرقت دموعها حين وداع السفر
فالنور قد أصبح مستعبراً وليس إلا لوداع السحر

وجمال الدين أبو القاسم عبدالرحمن بن عبد المجيد بن إسمعيل بن عثمان الصفراوي الإسكندراني المالكي مفتي الإسكندرية ومقرئها ، وتوفي سنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٨ م) .

وعبدالكريم بن عطاء الله أبو محمد السكندري . كان إماماً في الفقه والأصول والعربية تفقه على أبي الحسن الإبياري رفيقاً لابن الحاجب ، وله تصانيف كثيرة منها شرح التهذيب ومختصر التهذيب ومختصر المفصل توفي سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ م)

والإمام أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافري الشاطبي المقرئ الزاهد نزيل الإسكندرية ، قرأ بالسبع ، ونبغ في القراءات والتفسير. توفي بالإسكندرية سنة ٦٧٢ هـ (١٢٧٣ م) .

ووجيه الدين منصور بن سليم المحدث الحافظ بن العماد الإسكندري الشافعي محتسب الإسكندرية ومؤلف تاريخها ، وتوفي سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٥ م) .

ابن العماد

وقاضي القضاة ناصر الدين أبو العباس أحمد محمد بن منصور المعروف بابن المنير

قاضي الإسكندرية . كان إماماً فاضلا متبحراً في العلوم والأدب . تولى الخطابة أيضاً في الإسكندرية والتدريس في جامع الجيوشي وغيره توفي سنة ٦٨٣ ﻫ (١٢٨٤ م)

وعبدالله بن محمد النكزاوي السكندري . كان مقرئاً كاملا . ألف كتاب الشامل في القراءات السبع توفي سنة ٦٨٣ ﻫ (١٢٨٤ م) .

والمكين الأسمر عبد الله بن منصور الشيخ الإمام الإسكندري شيخ القراء بالإسكندرية . كان إماماً عالماً قدوة ، أخذ القراءات عن أبي القاسم الصفراوي وتوفي سنة ٦٩٢ ﻫ .

وشيخ الإسكندرية ومحدثها تاج الدين علي بن أحمد بن عبد المحسن الإمام المحدث المتوفى سنة ٧٠٤ ﻫ (١٣٠٤ م) .

ويحي بن الصواف الإسكندري المالكي . قال الذهبي : رحلت إليه بالإسكندرية وقرأت عليه، توفي سنة ٧٠٥ ﻫ (١٣٠٥ م) .

وتاج الدين الفاكهاني الإسكندري ، كان فقيهاً عالماً صنف شرح العمدة وشرح الأربعين النووية توفي سنة ٧٣٤ ﻫ (١٣٣٣ م) .

وجيهة بنت علي بن يحي الأنصارية الصعيدية ثم الإسكندرانية ، زين الدار ، خرّج لها ابن رافع مشيخة ، توفيت سنة ٧٣٢ ﻫ (١٣٣١ م) .

وأحمد بن صالح بن حسن اللخمي أبو العباس الإسكندري شيخ الإسكندرية ومقرئها ، كان موجوداً إلى سنة ٧٨٥ ﻫ (١٣٨٣ م) .

ومحمد بن قاسم النويري المالكي الإسكندراني مؤلف كتاب الإلمام بما جرت به الأحكام المقضية في واقعة الإسكندرية .

ونرى الرحالة خالد بن عيسى البلوي ، وقد زارها سنة ٧٣٧ ﻫ (١٣٣٦ م) وصفها وصفاً خلاباً ثم ذكر من لقيه وأخذ عنه من علمائها فقال :

« فأول من لقيته بها من الأئمة وحاملي الآثار والسنة الشيخ الفقيه الإمام قاضي المالكية وجيه الدين أبو زكريا يحي بن عبد الله بن اللبان ، سمعت عليه في منزله تآليف كثيرة وأجازني الإجازة التامة المطلقة العامة . والشيخ الفقيه العدل شرف الدين أبو البركات عمر بن الشيخ الإمام العدل المرحوم فخر الدين شهاب الدين أبي محمد عبد الكريم بن عطاء الله السكندري لقيته وأجازني . وشرف الدين أبو العباس أحمد ابن أبي الحسن الشهير بابن المصفى ، لقيته بمنزله بالإسكندرية فسمعت وقرأت عليه وأجازني . والشيخ سديد الدين أبو عبدالله محمد بن الشيخ عز الدين اللخمي الإسكندري

المشهور بابن عطية ، لقيته بمنزله وسمعت عنه الحديث الشريف ، وأجازني إجازة تامة . والشيخ العالم المصنف نور الدين أبا الحسن علي بن يونس الهواري التونسي لقيته بالإسكندرية وسمعت عليه . والشيخ الفقيه شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مفتي المسلمين كمال الدين بن عبد الله محمد بن محمد القرشي الإسكندري حامل لواء العدل ، لقيته بالإسكندرية فسمعت عليه وأجازني إجازة تامة مطلقة . والفقيه المحدث تقي الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن عرام الربعي الشافعي سبط أبي الحسن الشاذلي» .

ومن وصف البلوي علمنا أن تحصيل العلم تعدى المدارس والمساجد إلى دور العلماء ، ورغم ضياع المعالم الأثرية بالإسكندرية فقد وقفنا على أسماء مدارس ومساجد أخرى كانت مراكز تحصيل أنشئت في القرنين السابع والثامن الهجري أذكر منها :

دار الحديث التكريتية « مسجد أبو علي » بشارع البلقطرية قسم الجمرك . أنشأ هذه المدرسة عبد اللطيف بن رشيد بن محمد بن رشيد الربعي التكريتي ، نزيل الإسكندرية ، سمع من النجيب جزء ابن عرفة وحدث . وله نظم رقيق وكتابة جيدة ، توفي سنة ٧١٤ هـ (١٣١٤ م) . وقد خصصها لدراسة الحديث الشريف والفقه على مذهب الشافعي .

وقد تجددت المدرسة وحولت إلى زاوية بسيطة في القرن الثاني عشر الهجري واحتفظت باللوحة التذكارية لتأسيسها ونصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وإن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ، أوقف هذا المسجد المبارك ودار الحديث العبد الراجي رحمة ربه عبد اللطيف بن رشيد التكريتي لتلاوة الكتاب العزيز وقراءة الأحاديث النبوية وطلب العلم الشريف على مذهب الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رحمة الله عليه في شهر المحرم سنة ثمان وسبعين وستمائة ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه» .

دار الحديث النبيهية : وكان بالإسكندرية دار حديث ثانية عرفت بدار الحديث النبيهية تولى مشيختها بعد أخيه العلامة إبرهيم بن أحمد بن عبد المحسن الغرافي الإسكندري المتوفى سنة ٧٠٤ هـ (١٣٠٤ م) .

وعلى هذا تكون الإسكندرية قد امتازت بوجود داري حديث بها في القرن السادس الهجري في الوقت الذي كان في القاهرة دار حديث واحدة هي التي أنشأها الملك الكامل محمد بن الملك العادل سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٣م) .

رباط الواسطي: هذا الرباط شرقي مسجد أبي العباس المرسي ، وقد تجدد ، وهو

الآن عبارة عن زاوية صغيرة ملحقة بها من الجهة القبلية قبة بسيطة يتوسطها قبران ، أمام الشرقي منهما لوح رخامي مكتوب فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على النبي ، كل نفس ذائقة الموت ، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة — الآية — توفي الشيخ السعيد الأمين المفضل المرتضي أطكين شهاب الدين أبو علي منصور بن الشيخ السعيد الأمين أبو الفتوح نصر بن الشيخ أبي الفضل جعفر الواسطي القاضي العدل . ليلة الجمعة رابع شهر شعبان الشريف سنة اثنتين وسبعين وستمائة ، رحمه الله تعالى ونور ضريحه » .

رباط سوار — أقام به أبو عبد الله محمد بن سليمان الشاطبي المتوفى سنة ٦٧٢ ﻫ (١٢٧٣ م) .

رباط الهكاري — أنشأه محمد بن الأمير زين الدين أبي المفاخر باخل بن عبد الله الهكاري الإسكندري متولي ثغر الإسكندرية . وكان أديباً عالماً توفي سنة ٦٨٣ ﻫ (١٢٨٤ م) ودفن عند رباطه خارج باب رشيد .

خانقاه بيليك المحسني :

أنشئت هذه الخانقاه في نهاية القرن السابع الهجري وتولى مشيختها العلامة موسى ابن أحمد بن محمود الأقصري المتوفى سنة ٧٤٠ ﻫ (١٣٤٠ م)

* * *

هذه إلمامة موجزة عن النهضة العلمية في الإسكندرية ، وهي نهضة مغمورة ، على أنه لم يكد ينتهي القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) حتى ركدت الحركة العلمية وزايلها نشاطها ، فلم نعد نسمع ذكر الإسكندرية إلا عند نفي أمير أو مملوك إليها . ثم توالت عليها الحادثات ما بين إهمال واضطراب وتخريب ، إلى أن قيض الله لها منشئ مصر الحديثة ومجددها المغفور له محمد علي باشا فنهض بها وأصلحها وأعاد إليها مجدها التجاري والصناعي ، وظل أبناؤه وحفدته يوالون العناية بها حتى أصبحت عروس البحر الأبيض المتوسط .

وإذا كان محمد علي ، ومن جاؤوا من بعده ، قد أعادوا إليها عمران الإسكندر ، فإن الفاروق — حفظه الله — أحياها وأعاد إليها مجدها العلمي بإنشاء جامعتها الجديدة .

أعز الله به دولة العلم وأسعد به شعبه ودولته ؟ .

حسن عبد الوهاب

الحب عند ابن عربي

للأستاذ خليل هنداوي بحلب

هو الحب ، واسطة الأسباب ، وعلة العلل . لا تكاد تجد شيئاً قام إلا على الحب . وإذا رأيت الشاعر الذي يستمد من عصارة قلبه إلهامه وعواطفه ينسجها شعراً ، لا غنى له عن أن يجثو خاشعاً أمام هيكل الحب ؛ وإذا رأيت الفيلسوف ، لا يخلو قلبه من تلك الجذوة التي يضرمها في حناياه الحب — فإنك واجد ذلك الصوفي الذي هجر لذائذ الدنيا ، لم يستطع أن يتحرر من قيود الحب ، بل اتخذه معبوده الأول : إياه يناجي ، وله يدعو . وما كانت الآيات الصوفية — لو تبينتها — ودعواتهم الخاصة في مقاماتهم ، إلا نشيداً فجّر معانيه الحب ، ونضّد آياته الشوق والوجد . فإذا حديثهم كله هوى ، وإذا العالم — في نظرهم — محب ومحبوب .

ولابن عربي فصل واسع في « فتوحاته المكية » عالج به مذهب الحب . ولعله كان الأوحد بين علماء التصوف ، ممن بدا لهم شرح هذا الموضوع . وأرى أن لا بأس إذا شغل الحب أهل التصوف ؛ لأن الحب ، إذا صح البحث فيه بالطريقة المادية ، فللتصوف حق البحث فيه ؛ لأن الحب طالما انبعثت عوامله وأسبابه من القلب ، وظلت هذه العوامل عسيرة الحل على الأسباب نفسها . وهذا ما أثر في نفس ابن عربي ، وجعل حبه حبا وهميا قائماً على الحدس والظن . وخير الحب عنده ما وجده « عشقاً مفرطاً ، وهوى مقلقاً ، وغراماً ونحولا ، وامتناع نوم ، ولذة بطعام . ولا تدري : فيمن ، ولا بمن ؟ ولا يتعين لك محبوبك » . وكأن ابن عربي همّ بأن يجعل للإنسان حياة مثقلة بأوزان الحب ، لا دأب لها إلا القلق والهيام . وهذا جميل من نفس كنفس ابن عربي . ولكن ما حال نفس في الكون اعتمدت هذا المذهب ، وهامت بما لم تعلم ، ولم تدر له وجوداً ؟ إنه لعالم جميل رصفت حجارته أيدي الحب ، ولكن داخله غشى عليه الظلام السرمدي ؛ لا يصل إليه النور ، وما فيه إلا التخبط ، وما بعد التخبط إلا الهلاك . وكم في الكون من أنفس — كما يريد ابن عربي — تستشرف الأشياء ، فتجهل حالها ، ولا تدري بمن هامت ، ولا فيمن هامت ، ولا ما تهيمها ، فتحزن مثلاً مما كان ينبغي

أن يسرها ، ويسرها ما كنت تخال أنها تقف حياله محزونة واجمة .

على أن ابن عربي يرى أن العالم كله حب ، يقدم حبه لخالقه : « وما في الوجودات إلا محب . فالعالم كله محب ومحبوب . وما أحب أحد غير خالقه . ولكن احتجب عنه بحجب زينب وسعاد وهند وليلى والدينار والدرهم والجاه ، وكل محبوب في العالم . فإن الحب سببه الجمال ، وهو له ، لأن الجمال محبوب لذاته ، والله جميل يحب الجمال ، فيحب نفسه . وسببه الآخر الإحسان . وما ثَمَّ إحسان إلا من الله . فإن أحببت للإحسان فما أحببت إلا الله ، فإنه المحسن . وإن أحببت للجمال فما أحببت إلا الله ، فإنه الجميل . وإنما أخرج الله العالم ليكون مرآته ، يرى نفسه فيه . فما أحب إلا نفسه » .

حالة المحب

وأما حالة المحب التي يرويها ابن عربي فهي حالة الفناء الكلي . وهو الشغل بالحب عن متعلقه . ويضرب لذلك مثلا : « جاءت ليلى إلى قيس وهو يصيح : ليلى ! ليلى ! ويأخذ الجليد ، ويلقيه على فؤاده ، فتذيبه حرارة الفؤاد . فسلمت عليه ، وقالت له : " أنا مطلوبك ، أنا بغيتك ، أنا محبوبتك . أنا ليلى ! " فالتفت إليها قائلاً : " إليك عني ! فإن حبي شغلني عنك " » . وقد لا تهمنا صحة الرواية أو كذبها . وإنما هي مثل مختلق شاؤوا من وضعه أن يعبروا عن مدى تأثير الحب في الإنسان . وهو — بهذا الشكل — خطب جسيم . وما عسى يكون معنى هذا الحب الذي لا ترى له هدفاً يضرب نحوه ، ويقصد إليه ؟ وما كان ذلك من مجنون ليلى ، وما يكون من غيره ، إلا ضرباً من الهوس والوسواس ؛ لأن الحب ينمو في الإنسان ، فلا يلبث أن يحول هياماً وولعاً وجنوناً . وليس كبير فرق بين مرضى الحب ومرضى الجنون .

ويطلب ابن عربي إلى المحب أن يصم سمعه إلا عن كلام محبوبه ، ويعمي عينيه عن كل منظور سوى وجه محبوبه ، ويخرس لسانه عن كل كلام إلا عن ذكر محبوبه ، وذكر من يحب محبوبه ، ويختم على قلبه ، فلا يدخل فيه سوى حب محبوبه ، ويرمي على خزانة خياله ، فلا يتخيل سوى صورة محبوبه . فبه يسمع ، وله يسمع ، وبه يبصر ، وله يبصر وبه يتكلم ، وله يتكلم .

ومن الواضح أن ابن عربي لا يخلو بحثه هذا من حكمة له . فهو لا يأتيك بحديث الحب دون تحليل له أو سابق تذوق ؛ بل تذوق ابن عربي الحب ، وعرف أحواله — كما يقص هو في هذا الحديث عن نفسه : « ولقد تركني أياماً لا أسيغ طعاماً . وكان

أصحابي وأهل بيتي يتعجبون من سمني مع عدم الغذاء، لأني كنت أبقى الأيام الكثيرة، ولا أذوق ذواقاً، ولا أجد جوعاً ولا عطشاً . . . واعلم أنه لا يستغرق الحب المحب كله إلا إذا كان محبوبه الحق، أو أحداً من جنسه. لأن الإنسان لا يقابل بذاته كلها إلا من هو على صورته إذا أحبه. فما فيه جزء إلا وفيه ما يماثله. فيهيم ظاهره في ظاهره، وباطنه في باطنه. وكلما ازداد مشاهدة زاد حبا. ولهذا فالشوق يسكن باللقاء، والاشتياق يهيج باللقاء. وهو الذي يجده العشاق عند الاجتماع بالمحبوب، لا يشبع من مشاهدته، ولا يأخذ نهمته منه، لأنه كلما نظر إليه زاد وجداً به وشوقاً إليه، مع حضوره معه.»

ومن نعت المحب — عنده — أنه يستقل الكثير من نفسه، ويستكثر القليل من حبه؛ لأن المحبوب غني، فقليله كثير. والمحب فقير، فكثيره قليل. ومن نعته أيضاً أنه يعانق طاعة محبوبه، ويجانب مخالفته. ومن نعته أنه خارج عن نفسه بالكلية، وموافق لمحاب محبوبه؛ وأنه يستريح إلى كلام محبوبه، هائم القلب، يؤثر محبوبه على كل مصحوب، ناسٍ حظه وحظ محبوبه، قد استفرغه الحب فأنساه المحبوب وأنساه نفسه (وهذا هو حبّ الحب). إنه كأنه سالٍ، وليس بسال، (وهذا هو البهت والهيمان)، لا يفرق بين الوصل والهجر، لشغله بما عنده من محبوبه:

فالليل إن وصلت كالليل إن هجرت ... أشكو من الطول ما أشكو من القصر

وإنه لذو تشويق في نفسه. لا يقول لمحبوبه: لِمَ فعلت كذا؟ ولِمَ قلت كذا؟ لأنه مُصطَلمٌ مجهود. إنه لا يعلم أنه محب كثير الشوق. لا يدري لمن عظيم الوجد؟

ومن عجب أني أحن إليهم ... وأسأل شوقاً عنهم، وهمُ معي
وتبكيهم عيني، وهم في سوادها ... وتشتاقهم نفسي، وهم بين أضلعي

مقامات الحب

الحب الإلهي

نظر ابن عربي إلى الحب فألفى سلطانه نافذاً في العوالم. وتكلم حين تكلم عنه عن تذوق وتجريب. نظر إلى أنواع الحب نظره إلى غاياته، فقال: «ومن الحب ثلاثة: الحب الإلهي، والحب الروحاني، والحب الطبيعي».

فالحب الإلهي هو أن يحبنا الله لنا ولنفسه. وأما حبه إيانا لنفسه فهو قوله: «أحببت أن أعرف، فخلقت الخلق، فتعرفت إليهم فعرفوني» فما خلقنا إلا لنفسه حتى نعرفه. وأما حبه إيانا لنا فلما عرفنا به من الأعمال التي تؤدينا إلى سعادتنا ونجاتنا

من الأمور التي توافق أغراضنا ، ولا تلائم طباعنا . ومن إحسانه بعث الرسل إلينا ، فعلمنا أنه لولا ما أحبنا ما كان شيء من هذا كله . ثم أخبرنا أن رحمته سبقت غضبه . وإن شقي من شقي فلا بد من شمول الرحمة والعناية ، والمحبة الأصلية هي التي تؤثر في العواقب . وهذا مذهب جعل الحب العلاقة بين العبد وربه ، والصفاء الرابطة بينهما . فما هنالك فريق يختص بالنعيم ، ولا فريق شقي يخلد في الجحيم .

الحب الروحاني

وهو الحب الجامع في المحب أن يحب محبوبه لمحبوبه ولنفسه . إذ كان الحب الطبيعي لا يحب المحبوب إلا لأجل نفسه . والحب الروحاني إذا كان الحب موصوفاً بالعقل والعلم كان بعقله حكيماً ، وبحكمته عليما . وغاية الحب الروحاني في الصور الطبيعية هو الاتحاد . ومعنى الاتحاد في الصوفية « أن تصير ذات المحبوب عين ذات المحب ، وذات المحب عين ذات المحبوب . وهو الذي تشير إليه الحلولية . . » وإلى هذا يعزي إفراط الحلوليين القائلين باتحاد نفوسهم بنفس الله ، لأن المذهب الروحاني يخول لهم ذلك .

فإذا تعانق الحبيبان ، وامتص كل واحد منهما ريق صاحبه ، وتحلل ذلك الريق في ذات كل واحد من الحبيبين ، وتنفس كل واحد من الصورتين عند التقبيل والعناق صار ما كان روحاً لهذا هو بعينه يكون روحاً لذلك . ولما صار روحاً في الاثنين عبر عن ذلك الاتحاد في كل واحد من الشخصين ، وصح له أن يقول : « أنا من أهوى ، ومن أهوى أنا » وهذا الاتحاد غاية الحب الروحاني في الصدر الطيب .

الحب الطبيعي

ينتقل ابن عربي إلى هذا الحب السائد على الطبيعة ، والمسيطر بأهوائه على مخاليقها وأشيائها . وهو الشغل الشاغل ، والحكاية المقصودة في الوجود . فيصف هذا النوع بأنه الحب العام الشامل . ويفرق بينه وبين غيره من أنواع الحب أن كل من تقدم من الحب قد قبلوا الصور الطبيعية على ما تعطيهم حقائقه . فاتصفوا في حبهم بما تتصف به الصور الطبيعية من الوجد والشوق والاشتياق وحب اللقاء بالمحبوب ورؤيته والاتصال به . وأن الحب الطبيعي إذا قام بالمحب تركه لا يحب محبوبه إلا لما له فيه من النعيم واللذة . فهو يحبه لنفسه ، لا لعين المحبوب . ويحب الأشياء — لذاته خاصة — فيريد الاتصال بها ، والدنو منها . وهو سار في كل حيوان ، وهو في الإنسان بما هو حيوان . وإنما يحبه الحيوان لأن قوام وجوده به لا لأمر آخر . ولكن لا يعرف معنى قوام وجوده ،

وإنما يجد داعية من نفسه للاتصال بموجود معين . وذلك الاتصال هو محبوبه بالأصالة وذلك لا يكون إلا في موجود معين . فيحب ذلك الموجود بحكم التبعية ؛ فاتصاله اتصال محسوس ، وقرب محسوس . وهذا هو غرض الحب الطبيعي ، وهو في الإنسان أتم منه في غيره لأنه جامع حقائق العالم.

الحب العنصرى

لقد قص علينا تاريخ الأدب العربي في صدر العصر الأموي عن شعراء أطلقوا عليهم اسم « الشعراء العذريين » . ومنهم قيس ليلى ، وقيس لبنى ، وجميل بثينة ، وكثير عزة ، وكل من هؤلاء شاعر بلغ منزلة عالية ، أعطونا من شعرهم صوراً بارزة نطقت عن هوائج أنفسهم ، وموائج أفئدتهم. فكان شعرهم الموسيقى السيالة التي تملأ رناتها النفس جلالا . وتبعث في نفس السامع سحراً حلالاً . فكم أرقصتك من شعرهم قافية ! وأخرى أذهبت نفسك حسرات ! وثالثة أخذت من عاطفتك ما تأخذ النار من قلب الشمعة المشتعلة ! وكان السر في هذا كله للمرأة وحدها .

هؤلاء الشعراء أحبوا ، ولأمر ما انتشروا في ذلك العصر الذي لان منه جانب ، وعنف منه جانب . وكانوا أهل هذا الحب العذري الذي نعته ابن عربي « بالحب العنصري » وجعله هو والحب الطبيعي فصلاً واحداً . وهذا التقريب منه بين الحبين هو تقريب فاهم للحب ، ومدرك لأسراره . فالحب العنصري قد ينجم في النفس ، ويظل مقيداً حتى إذا أثر فيه الرخاء ، وانتحر على فراش الأغراض أفلت إلى الحب الطبيعي الذي لا يقف عند كائن واحد يعبده ، بل شأنه الانتقال ، تبعاً لما تسوقه إليه مغريات الجمال . بينما الحب العنصري حابس نفسه على كائن واحد يعبده من المهدين إلى اللحدين . تخطب المجنون العامري في حبه ليلى ، حتى ذهل عن عقله ووجوده ، فعاشا متصلين بهذا الحب ، وماتا . وما استطاع الموت أن يفصل ما بينهما . وفي ذلك يقول الشيخ : « إن الحب الطبيعي لا يتقيد بصورة طبيعية ، وهو مع كل صورة كما هو مع الأخرى في الحب » مثل الكهربا مع ما يتعلق بها وتمسكه بالخاصية . وأما الحب العنصري فهو الذي يتقيد بصورة طبيعية وحدها كقيس ليلى وجميل بثينة . والسر في ذلك الحب أن صاحبه يتخيل في كل شخص أن محبوبه حسن عنده . وأنه يرى منه مثل ما يراه هذا المحب منه . كأن هذا المحب يتخيل أن كل من يرى محبوبه يحسن عنده كما يحسن لديه . ومن ضلالة المحب أنه يتحير في الوجوه والوسائل التي يرى أنه يحصل على محبوبه منها .

فيقول : أفعل كذا لأصل بهذا الفعل إلى محبوبي ، أو كذا وكذا . فلا يزال يحتار في أي الوجوه يشرح ، لأنه يتخيل أن وجود اللذة بمحبوبه في الحس أعظم منها في الخيال . وذلك فعلية الكثافة على المحب . ويغفل عن لذة التخيل في حال النوم . وإنما كان التذاذه بالمحسوس أشد من التذاذه بالخيال ، لأنه أشد اتصالا به في الحس من الخيال . والاتصال بالخيال أشد في المعنى من الاتصال بالمحسوس .

الحب السامي

وأما الحب السامي فهو أعلى مراتب الحب فيما يصعد إليه من عواطف ونوازع . وقد ضرب ابن عربي مثلاً أعلى في تمثيل هذا الحب . وذكر حكاية جرت له في إشبيلية : « وخدمت أنا بنفسي امرأة من المخبآت العارفات يقال لها " فاطمة بنت ابن المثني القرطبي " خدمتها سنين . وهي تزيد في وقت خدمتي إياها على خمس وتسعين سنة . وكنت أستحي أن أنظر إلى وجهها وهي في هذه السن من حمرة خديها ، وحسن نعمتها وجلالها . وكانت تؤثرني على من كان يخدمها وتقول : " ما رأيت مثل فلان ، إذا دخل عليّ دخل بكله ؛ لا يترك منه خارجاً عني شيئاً ، وإذا خرج من عندي خرج بكله ، لا يترك عندي منه شيئاً " وما زلت أخدمها بنفسي ، وبنيت لها بيتاً من قصب بيدي على قدر قامتها . فما زالت فيه حتي درجت ، وكانت تقول لي : أنا أمك الإلهية »

وهذا المثل على بساطته يصور أحسن تصوير مدى ما يذهب إليه الحب السامي الذي يترفع عن الغايات والمآرب التي تثقله ، ويبرأ من عوامل الشهوة والرغبة التي تكثفه . لأنه عاطفة شفافة صريحة ليس قبلها شيء ، وليس بعدها شيء . . ومن ذا يستطيع أن يضرب حواجز على نفسه حتى لا يتسرب منها شيء إلى العالم الخارجي ؟ أو تنطلق حتى لا يبقى جزء من العالم لم تمر عليه يدها ؟ هنا إرادة لم تعد إرادة يابسة ، بل استحالت عاطفة سيالة ، تعيش في ألفة تامة مع الحياة ، لا تميل إلى شيء ، لأن لها كل شيء .

خليل هنداوي

مجاعة الغذاء في العالم

للأستاذ إبرهيم إبرهيم يوسف

منذ نحو سنة ومعاهد الأبحاث العلمية ، التي تعنى بشؤون الزراعة في العالم ، تنذر بقرب وقوع فاجعة مروّعة بسبب نقص الأغذية في عدد من الأمم في أوربا وآسيا وإفريقية. ومنذ نحو سنة وبعض المشتغلين بالمسائل الاقتصادية الزراعية يشد أزر هذه المعاهد ، باذلين الجهد في الإبانة عن موضع الخطر في السياسة الزراعية التي اتبعها أغلب الدول في سني ما بعد الحرب ، حتى أصبح الإنتاج الزراعي للمواد الغذائية أقل من أن يفي بحاجة المستهلكين .

ولكن المسؤولين في الحكومات المعنية بهذه المسائل لم يأبهوا وقتئذ — وهم رجال سياسة — لأقوال العلماء . فهم ما زالوا واقفين ، فيما بينهم وبين أنفسهم ، عند قول من قال : « متى كان للعلماء أن يفرضوا آراءهم على الساسة ؟ » . واطمأنوا إلى ذلك الاطمئنان كله حتى إذا جاءتهم أنباء الاضطرابات التي قامت بها جحافل الجياع في الصين والهند ، وحاولها الزنوج في جنوبي إفريقية ، والأوربيون في وسط قارتهم ، اهتزت مشاعر هؤلاء الساسة وبدؤوا يفكرون فيما أنذر به أولئك العلماء منذ نصف سنة أو يزيد .

فلما أدرك الساسة هول الكارثة التي تهدد العالم في غذائه ، وكانوا في صراعهم السياسي عنها غافلين ، اندفع كل منهم ينذر أو يستغيث أو يمني الجائعين . وكان السير بن سميث ، وزير التموين البريطاني ، أسبق هؤلاء الساسة . فقد فاجأ العالم بإنذار بعث به في أحد الأيام الأولى من شهر فبراير إلى سكان الجزر البريطانية ، يبصرهم فيه بعواقب ما أصاب إنجلترا من نقص مروّع فيما لديها من أغذية ، وناشد الشعب البريطاني أن يحسن الاقتصاد في كل مادة من المواد الغذائية ، وإلا أصبح عرضة لمجاعة تأكل الأخضر واليابس . وما انقضى على ذلك الإنذار يوم أو بعض يوم حتى جاء المستر ترومان ، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، يطالع العالم من البيت الأبيض بأن ملايين غفيرة من سكان الأرض سوف تصبح فريسة لمجاعة لاتبقي ولا تذر ، وأن خطرها لن يقتصر على صقع

دون صقع أو قارة دون قارة ، وناشد الجميع تنظيم المعونة تقدم للجياع أينما كانوا .

ومذ ذاك الحين لايكاد الساسة في كل أمة يعرضون لمسألة إلا كانت المجاعة المسألة التالية من أحاديثهم ، والمحور الذي يدور حوله نقاشهم . وكان آخر ما عرف من عناية مشتركة قامت بها الدول المهيمنة على تصريف شؤون العالم ، تلك التي تجلت في مجلس الأمن لهيئة الأمم المتحدة ، حين أمن الأعضاء على الرغبة في مدّ يد المعونة إلى المناطق التي اجتاحتها المجاعة . وهكذا كان نقصان الأطعمة في بعض بلدان أوربا والشرق أول مسألة تواجه الأمم المتحدة بعد الحرب تتفق فيها الآراء على انتهاج سبيل واحدة لعلاج الحال ، وذلك بحشد كل دولة جميع مواردها الغذائية واقتطاع أكبر جزء منه يمكن تقديمه للجائعين .

ومُنِّيَ الذين تنشب المجاعة أظفارها وأنيابها في أجسامهم بالفرج ، بعد أن أجمع هؤلاء الساسة على أن « المجاعة وباء لاينثني عن اقتحام ما اصطنعته الدول من حدود »، ولهذا كان الأجدر بالعالم والأولى له « أن يواجه تخفيضاً في كمية الغذاء ، بدلاً من أن لايجد مطلقاً أية كمية يرى وجوب تخفيضها » . وذهبت إنجلترا إلى أن « الإسراف في الخبز جريمة اجتماعية » ، وفرضت أمريكا رقابة شديدة على توزيع أنصبة المواد الغذائية على الناس بعد تخفيضها ، وانتحى غيرهما من الدول السبيل نفسها . وسواء أكان رائد الدول فيما تبغيه من إسداء المعونة هو إرضاء لنزعتها الإنسانية ، أم هو إشباع لمطامعها السياسية ، بعد إذ تبين أنه « ليس من السهل تحقيق الحرية والسلام بين أناس تفشى بينهم الجوع » ، وأن « المجاعة تورث الهياج بل تورث الثورة ، وأن أثر الثورة يبقى زمناً طويلا بعد أن تزول أسبابها » — سواء أكان هذا أم ذاك ، فإن الجائع ، المهدد في حياته بالموت جوعاً ، لا يتردد في الوصول إلى ما يتبلغ به ، مهما غلا الثمن الذي يدفعه ؛ ولا يعنيه توافر نية المساعدة بقدر ما يعنيه تلقي المساعدة ذاتها . وليس في وسع أشد الناس إنكاراً لمواهب الساسة أن يرميهم بأنهم « أرفع من أن يدركوا أن الجياع لا يعرفون للصبر معنى » . ولكن كيف يفسر تباطؤ الدول في تقديم المعونة ، ذلك التباطؤ الذي تجلى في مقال أمريكا : « إن المواد الغذائية لدينا وافرة ونحن على استعداد لأن نبعث بالفائض منها ، وهو كثير ، إلى هؤلاء الجياع . ولكن لاتوجد لدينا الآن سفن شحن معدة » ، كما تجلى في قولة فرنسا : « إن الأرزاق عندنا كان قد بولغ بادئ ذي بدء في تقديرها ، وقد اتضح كفافها ، بل هي أقل من الكفاف ، ونحن في حاجة إلى المساعدة » ، وقالت إنجلترا : « إننا مهددون بالجوع ، وعلينا أن نوفر لشعبنا أولاً

ما هو في حاجة إليه ، وقد لا يقل نقص الأغذية عندنا عما هو واقع في ألمانيا ذاتها » .

وهكذا لم يبق من الدول إلا العدد القليل الذي اعتزم المساهمة في المعاونة ، أو الذي ساهم فيها فعلا . فقد شحنت أستراليا إلى الهند مواد غذائية مختلفة ، على أنها دفعة أولى تعقبها دفعات . وستحذو نيوزيلندة حذو أستراليا فترسل الفائض عنها إلى الصين . وقد تعهدت روسيا بأن تقدم إلى فرنسا — كما أكد أحد الوزراء الفرنسيين — الكثير مما تحتاجه البلاد من أغذية ، كما تعهدت بمثل ذلك ليوغسلافيا واليونان والمجر . وكانت قد عملت من قبل على توفير المواد الغذائية في النمسا وألمانيا في المنطقة التي تحتلها . وقد تصل هذه المجلة إلى أيدي القراء في الوقت الذي تكون فيه المواد الغذائية الوفيرة الفائضة عن القارتين الأمريكيتين في طريقها إلى الأصقاع التي أشرف أهلها على الموت جوعاً . وإذا كانت هـذه بعض المساعدات التي ستقدمها الدول فأكبر الظن ، بل أكبر الأمل ، أن تصل المواد الغذائية قبل فوات الأوان ، وقبل أن يصرع الجوع الملايين من البشر المنبثة في القارات الثلاث : أوربا وآسـيا وإفريقية . وأخشى مايخشاه الساسة وعلماء الاجتماع « أن الهوة التي نشأت عن قلة الطعام في العالم والتي تتسع اتساعاً مطرداً » تبتلع في جوفها الملايين من البشر . نعم إنه ليس من السهل ، حتى على المعاهد العلمية ، تقدير عدد الواقعين تحت طائلة المجاعة الآن ، إلا أنهم على أية حال لا يقلون عن مائة مليون إن لم يكونوا أزيد من ذلك بكثير . ومن المحزن أن نسمع ما يؤكده الاختصاصيون من أن شعوباً بأكملها ، لا شعباً بمفرده ، ستجوع خلال هذا العام ، وقد تجوع إلى الحد الذي يخشى منه على قوة إنتاجها في كل ميدان من ميادين العمل .

نعم إن المجاعة كانت تنتاب في كثير من السنين أصقاعاً مختلفة في آسيا وغيرها ، فكانت مجاعة محلية ، ولـكن المجاعة الحالية هي مجاعة عالمية ، لايخشى العلماء أن تعم عدة بلدان في مختلف أنحاء المعمورة فحسب ، بل هم يخشون كذلك أن تجتاح في السنة المقبلة عدة أصقاع . وإذن فهم لاشك جادون في دراسة هـذه الظاهرة الخطيرة دراسة مستفيضة ، وقد يبدو للاقتصاديين الزراعيين أن نشأة المجاعة راجعة إلى عدة أسباب ، بعضها متداخل في بعض ، ويمكن وصفها بأنهـا عدم الاكتراث باتباع سياسة زراعية مدروسة ، فقد جرت أغلب المسائل المتعلقة بالزراعة في الغالبية المطلقة من الدول على غير أساس ، وساروا فيها خبط عشواء ، وبقيت مناطق كثيرة إلى ما قبل اليوم بقليل تزرع ما يقتات به الناس ، فإذا فاض عن استهلاك الزارعين ولم يجدوا له ثمناً مغرياً في الأسواق المحلية أو الخارجية أعدموه غرقاً في البحار والأنهار ، أو حرقاً بالنار ، أو دفناً في التراب .

ومعنى ذلك سوء تنظيم الزراعة ، وسوء توزيع الإنتاج ، وسوء تقدير مطالب الأسواق المحلية والخارجية . وهذا وذاك هو الإنتاج بغير ضابط وغير حساب . ويبدو للاجتماعيين أن علة المجاعة استئثار فريق من الناس ، سواء أكانوا أفراداً أم جماعات أم شعوباً ، تفضل نفسها على غيرها ، استئثار هؤلاء بالخيرات والتغاضي عن الفقراء .

وإذا كانت المجاعة التي تنتاب العالم اليوم سوف تتمخض عن مثل عليا جديدة تطهر النفس وتأتي بعقلية جديدة تقدر الخير العام وتنظمه وتنصف توزيعه ، وتسعى إلى القضاء على الجوع والفقر في كافة مظاهرهما ، فقد يكون ذلك أكبر تعزية لنا فيمن فقدناهم بسبب هذه المجاعة ، وتكون المجاعة شرا أراد الله به خيراً للعالمين .

إبراهيم إبراهيم يوسف

المعارضات في الشعر العربي

٥ - عصر التراجع العباسي

للأستاذ علي الجارم بك

يزعم بعض مؤرخي الأدب أن اللغة والفنون تجري في ذيل الدولة ، وتتابعها في ميزان القدر ، وتشاركها فيما قسم لها من رفعة وضعة ، ومن قوة وضعف ، فإذا قويت الدولة وعظمت شوكتها واشتد ساعد سلطانها ، ازدهرت اللغة في مادتها وأسلوبها وطرائق دلالتها ، وكثرة الناطقين بها ، والواردين على شريعتها ، والمعتزين بشرف الانتماء إليها من قومها كانوا أو من غير قومها . وربما كان من لم يصله بها نسبه أشد غيرة عليها وأكثر بحثاً عن روائعها وإذاعة لمفاخرها . وقد يكون من أسباب ذلك أن اللصيق حين ضعف باللغة سببه ، أراد أن يقوي الصلة بأدبه . فإن الإحساس بالنقص كثيراً ما يحفز إلى الكمال . وقد يكون من الأسباب تلك النزعة التي تدعى اليوم بمركب النقص .

ونظرة في تاريخ لغتنا الشريفة توحي بأن الغلبة الكاثرة من الباحثين فيها ، المحققين لنصوصها ، المشيدين بفرائدها ، كانوا من الموالي والدخلاء على أمة العرب. وحسبك أن إمام اللغة في عصره كان أبا عبيدة معمر بن المثنى ، وأصله من يهود فارس ، وأن ابن المقفع كان زعيم البيان ، وأن بشار بن برد كان حامل لواء الشعراء ، وغير هؤلاء كثيرون وكثيرون .

ومن أظرف ما يحضرني ونحن نتكلم في مركب النقص ما كان من أمر شهاب الدين بن الصيفي الشاعر ، وكان فارسي النبعة ينتمي إلى تميم ، فإنه كان يغرق في التشبه بالعرب ، ويتخير في حديثه أغرب الغريب الذي لا يكاد يفهم ، ويتزيا بزيّ العرب القحاح ، فلا يرى إلا متقلداً سيفاً أو متنكباً رمحاً ، كل ذلك لأنه يحس أنه ليس منهم ويريد أن يراه الناس منهم . ولكن أبا القاسم بن القطان الشاعر البغدادي كشف عن حيلته وفضح خبيئته حين قال :

كم تُبارِي وكم تطوِّل طُرطو ... رَكَ ! ما فيك شَعْرَةٌ من تميم

فكُلِ الضبَّ واقرِض الحنظلَ اليا بسَ واشرب إن شئت بولَ الظليم

ليسَ ذا وجهَ من يُضيف ولا يُقْـــري ولا يدفع الأذى عن حريم

ويقول ابن خلدون : إن الأمم المغلوبة مولعة دائماً بمحاكاة الغالب ؛ ولأمر ما تنتشر بعض اللغات الأجنبية الآن في أنحاء الأرض لأن اللغة تتبع الراية وتساير الأساطيل .

ومن العجيب أن العربية قويت واشتد ساعدها في مدى العصر العباسي كله ، وأن اللغة لم تبال ، والأدب لم يأبه لما أصاب الدولة من تدهور سياسي مفجع في القرن الرابع الهجري ، حينما انحلت أواصر ذلك الملك البعيد السلطان ، وانقسم إلى دويلات في الشرق والغرب ، وتمزق ميراث المسلمين بين فرس وترك وديلم .

وتفرّقوا شيَعاً فكلُّ قبيلة فيها أميرُ المؤمنين ومِنْبَرَ

أجل ! لم تسقط اللغة ، ولم يسقط الأدب عند سقوط الدولة ، على الرغم من نظرية مؤرخي الأدب التي أشرنا إليها في صدر هذا المقال ؛ والسبب في أنها لم تسقط أن الأعاجم الذين قذفت بهم أمواج الفتوح إلى شاطىء العربية ، والذين توثبوا بعد ذلك إلى الملك ، لم تكن لهم لغة جديرة بالإحياء والإنعاش ، ولأنهم كانوا يعدون الشعر والأدب أكبر وسيلة للدعاية لدولهم الناشئة ، ولأنهم كان لهم تمكن في الأدب ومشاركة في فنونه . فقد كان بين ملوك آل بويه وغيرهم من ملوك الأوطان الطارئة أدباء وشعراء . وقد نترقى في الحكم فندعي أن الشعر والأدب كانا في القرن الرابع أقوى منهما في صدر الدولة العباسية ، ونزعم أن الشعر تم نضجه وبلغ أشده واستوى على سوقه في هذا القرن ، بعد أن هضم الثقافات الأجنبية ، وبعد أن نشأت في المدنية الجديدة من رجاله أجيال . وإن عصراً يزهى بابن الرومي وأبي تمام والبحتري والمتنبي والشريف والمعري لعصر جدير بالزهو والاختيال .

أحسَّ الشعراء في هذه الملاوة بقوتهم ، واعتزوا بفنهم ، فلم يتطلعوا إلى معارضة من سبقهم من المجيدين ، إلا ما نلتمح من ومضات هنا وهناك بين الحين والحين . فأغلب الظن أن بائية أبي تمام التي أولها :

لهن عوادي يوسف وصواحبه فهلاً فقدماً أدرك النجح طالبه

إنما هي معارضة لبائية بشار التي يصف فيها الجيش بقوله :

وجيش كجنح الليل يزحَف بالحَصى وبالشوك والخطيِّ حُمْرٌ ثعالبُه

مشينا له والشمس في خِدْرِ أمّها تطالعنا والطلُّ لم يَجْرِ ذائبه

كما أنه مما لا يقبل الشك أن القسطليَّ كان في رائيته يعارض رائيه أبي نواس التي أولها :

أجارةَ بيتَيْنا أبوكِ غيورُ وميسورُ ما يرجَى لديك عسير

ولا يتسع فراغنا الآن لتشمم قصائد هذا العصر واستخراج ما ينظر منها إلى معارضة ما سبقها من قصائد ، فلنترك من ذلك باباً مفتوحاً لبحث الباحثين .

وقد جدّ في هذا العصر نوع من المعارضة جديد هو معارضة التلميذ أستاذه ، ليبلو نفسه في السير على جادته ، ومقاربة خطوه ، كما كانت الحال بين مهيار وأستاذه الشريف ، فإن نفس مهيار كانت تدفع به أحياناً إلى الجري مع الشريف في طَلَق ، وإلى ترسم مذهبه القرشي الصميم . ويمكن أن تسمى هذه المعارضة بالمعارضة الترسمية .

وإني لأجد ريح المعارضة في بائية أبي فراس لقصيدة المتنبي التي قالها سنة تسع وأربعين وثلثمائة والتي أولها :

منًى كنّ لي أن الشبابَ خِضاب فيخفى بتبييض القرونِ شبابُ

وقد بعث أبو فراس ببائيته من الأسر إلى سيف الدولة بعد سنة إحدى وخمسين وثلثمائة وأولها :

أما لجميل عندكنّ ثواب ولا لمسيء عندكنّ متاب ؟

وبهذه القصيدة أبيات يقرب لفظها وبعض معانيها قليلا أو كثيراً من قصيدة المتنبي مثل قوله :

وقد صار هذا الناسُ إلا أقلَّهم ذئاباً على أجسادهنَّ ثياب

وقوله :

إلى الله أشكو أننا بمنازلٍ تحَكَّمُ في آسادهنَّ كلاب

وقوله :

وما زلتُ أرضَى بالقليل محبةً لديه ، وما دون الكثير حجاب

كذاك الودادُ المحضُ لا يُرْتجَى له ثوابٌ ولا يُخشَى عليه عقاب

وقوله :

فكيف وفيما بيننا مُلْكُ قيصرٍ وللبحر حولي زَخْرَةٌ وعُباب

أما قوله :

إذا صحَّ منك الوُدُّ فالكلُّ هينٌ　　وكل الذي فوق التراب تراب

فهو بعينه بيت المتنبي :

إذا نلت منك الودَّ فالمـال هين　　وكل الذي فوق التراب تراب

ويبرز في هذا العصر ضرب من المعارضة عنيف يصح أن ندعوه بمعارضة التحدي . وأظهر ما يطالعنا من هذا النوع ما حدث بين بديع الزمان الهمذاني وأبي بكر الخوارزمي . وكان البديع شاباً أشراً أطغته العبقرية ، وأبطره النبوغ ، فما ترك لأديب أديماً صحيحاً ، وما علم بكاتب نال منزلة من الشهرة إلا تعرض له والسوط في يده يضرب به دراكاً . وكان فتى دانت له اللغة ، وذل شموسها ، فتصرف فيها كما يتصرف الطفل العابث المدلل بلعبه وألهواته .

وقصته مع الخوارزمي مشهورة طويلة الذيول ، فقد ورد نيسابور وأبو بكر بها في ذلك الحين العلم المفرد ، والفارس المجلي ، فكتب إليه البديع يتطلب زيارته فلم يحسن أبو بكر لقاءه ، فرماه البديع بوابل من العتاب المر والكلم الممض ، ثم دعاه متحدياً للمساجلة في الشعر وسرعة البديهة في مجلس يجمع كبار رجال الأدب ، فحضر أبو بكر مرغماً ، ثم انطلقا في المصاولة في أبواب من الشعر والنثر واللغة ، كان فيها الغلب للبديع . ويكفينا أن ننقل من هذه المبادهة طرفاً قصيراً يتبين منه القارىء ما كان يتسلط عليها من روح خبيث ، وحقد متأجج ، قال البديع :

« واقترح علينا أن نقول على وزن قول أبي الطيب المتنبي :

أرق على أرق ومثليَ يأرق　　وجوًى يزيدُ وعَبْرة تترقرق

وابتدر أبو بكر إلى الإجازة فقال :

وإذا ابتدهتُ بديهةً ياسيِّدي　　فأراك عنـد بديهتي تتقلَّق

وإذا قرضتُ الشعر في مَيْدانه　　لا شك أنك يا أخي تتشقَّق

إني إذا قلت البديهة قلتُها　　عَجِلاً وطبعُك عند طبعي يرفُق

مالي أراك ولست مثلي عندها　　متموِّهاً بالتُّرهات تمخرق ؟

ثم وقف يعتذر ويقول : إن هذا كما يجيء لا كما يجب . فقلت قبل الله عذرك ، لكني أراك بين قواف مكروهة ، وقافات خشنة ، كل قاف كجبل قاف ، منها تتقلق

وتتشقق وتمخرق . نخذ الآن جزاءً عن قرضك ، وأداءً لفرضك ، وقلت :

مهلاً أبا بكر فزندُك أضيق فاخرَس ، فإن أخاك حيٌّ يرزق
وانظر لأشنعِ ما أقول وأدّعي ألهُ إلى أعراضكم متسلّق ؟
يا أحمقاً ! وكفاك ذلك خِزْيةً جرّبتَ نارمُعرِّق هل تُحْرِق ؟

فلما أصابه حر الكلام ، قطع علينا فقال : « يا أحمقا » لا يجوز فإن « أحمق » لا ينصرف . فقلنا : يا هذا لا تقطع ، فإن شعرك إن لم يكن عيبة عيب ، فليس بظرف ظرف . ولو شئنا لقطعنا عليك ، ولوجد الطعن سبيلاً إليك . وأما « أحمق » فلا يزال يصفعك لتصفعه حتى ينصرف وتنصرف معه ! » .

وهكذا ينطلقان في سباب وإقذاع بشعر رديء وأدب وبيء . ولم يدعنا إلى ذكر نبذ من هذه القصة إلا شهرتها ، ولما لها من صلة بهذا الحديث .

ومن المعارضة أن يُعرض على الشاعر بيت أو أبيات ليقول من بحرها ورويّها . وقد كثر هذا النوع في هذا العصر واتخذه الأمراء ذريعة لاستجداء المديح حينما يبطىء عليهم الشعراء .

رووا أن الصاحب بن عبّاد لما حصل في وقعة جرجان على الفيل الذي كان بعسكر خراسان أمر من بحضرته من الشعراء أن يصفوه على وزن قصيدة عمرو بن معديكرب التي أولها :

أعددتُ للحَدَثان سا بغةً وعـــــداءً عَلَنْدَى

فقال عبد الصمد بن بابك :

قسماً لقـــــد نشر الحيا بمناكب العلَمين بُرْدا

وقال أبو الحسن الجوهري :

قل للوزير وقد تبدّى يستعرض الكرمَ المُعَدّا

وقال أبو محمد الخازن :

حازوا سعودَ ديار سُعْدَى ورعَوْا جنابَ العيش رغدا

وكان سيف الدولة كلما ماطله المتنبي وتلكأ في مديحه أرسل إليه أبياتاً ليجيزها تصيداً للمديح . بعث إليه مرة بأبيات لسهل بن محمد الكاتب منها :

يا لائمي كفّ الملام عن الذي أضناه طولُ سَقامه وشقائه

إن كنتَ ناصحَه فداوِ سَقامه وأعنه ملتمساً لأمر شفائه

فأجاب المتنبي بقصيدة أولها :

القلبُ أعلمُ يا عذولُ بدائه وأحقُّ منك بجفنه وبمائه

ولكن المتنبي اللئيم أضاع اثني عشر بيتاً في الغزل ، وتصدق على ممدوحه بستة أبيات ليس غير ، لذلك استزاده سيف الدولة ، فكان من أروع ما قال في المديح :

إن كان قد ملك القلوبَ فإنه ملك الزمان بأرضه وسمائه

الشمسُ من حسّاده،والنصرمن قرنائه ، والسيف من أسمائه

وأرسل له مرة ببيتين للعباس بن الأحنف ، وطلب إليه أن يجيزهما وهما :

أمنّي تخافُ انتشار الحديث وحظيَ في ستره أوفر ؟

ولو لم أصُنْه لِبُقْيا عليك نظرتُ لنفسي كما تنظر

فقال أبو الطيب :

رضاك رضاي الذي أوثر وسرُّك سري فما أظهر ؟

كفتك المروءة ما تتقي وآمنك الوُدُّ ما تحذَر

وسركُمُ في الحشا ميّت إذا نُشر السرُّ لا يُنْشر

كأني عصت مقلتي فيكمُ وكاتمت القلبَ ما تُبصَر

وإفشاء ما أنا مستودَعٌ من الغدر ، والحر لا يغدِر

دواليك يا سيفَها دولةً وأمرَك يا خيرَ من يأمر

أتاني رسولك مستعجلاً فلبّاه شعري الذي أذخَر

ولو كان يومَ وغًى قاتماً للبّاه سيفيّ والأشقر

فلا غفل الدهر عن أهله فإنك عينٌ بها ينظر

وكأني بسيف الدولة يتحرق غيظاً لأنه لم ينل من شاعره الضنين كل ما كان يريد من المديح .

ومن ضروب المعارضة في هذا العصر أن يدعو الأمير الشعراء إلى القول في موضوع بذاته وتسمى هذه بالمعارضة الموضوعية ، ولا يشترط فيها اتحاد البحر والقافية .

مات بِرْذَوْن كان أهداه الصاحب بن عباد إلى أبي عيسى المنجم ، فأوعز إلى ندمائه وشعراء حضرته أن يرثوه ويعزوا أبا عيسى فيه . فقال أبو القاسم الزعفراني قصيدة طويلة أولها :

كن مدى الدهر في حِمَى النعماء مستهيناً بحادث الارزاء

وبدأ عبد العزيز الجرجاني قصيدته بقوله :

جلَّ واللهِ ما دهاك وعزّا فعزاءً إنَّ الكريم مُعزَّى

وقال أبو القاسم بن أبي العلاء قصيدة أولها :

عزاءً وإن كان المصاب جَليلا وصبراً وإن لم يُغْنِ عنك فتيلا

وزاد ما قيل في هذا البرذون العزيز على عشر قصائد ، كلها من جيد الشعر ورائعه .

ومن المعارضات التي نبتت ثم كثرت في هذا العهد التراسل بالشعر بأن يبعث الشاعر إلى صديق له أبياتاً فيجيبه عنها بأبيات من بحرها وقافيتها .

كتب أبو إسحق الصابئ إلى أبي الحسن النقيب الموسوي يشكو زمانته ، وأنه أصبح يحمل في محفة في قصيدة طويلة منها :

إذا ما تعدَّت بي وسارت مِحَفَّةٌ لها أرجل يسعَى بها رَجُلان

وما كنت من فُرسانها غير أنها وفت لي ما خانت القدمان

فأجابه أبو الحسن بقصيدة أولها :

ظمأي إلى من لو أراد سقاني ودَيْني على من لو يشاء قضاني

ومنها :

إذا أقعدتك النائباتُ فطالما سرَى مُوقَراً من فضلك المَلَوان

وإن هدمت منك الخطوبُ بمرّها فثَمّ لسانٌ للمناقب بان

مآثر تبقى ما رأى الشمسَ ناظر وما سمعت من سامع أذنان

ويجدر بنا بعد أن ألممنا بصنوف المعارضة في هذا العصر ألا نغفل ضرباً خفيا قد يسمى بالمعارضة التشبيهية ، وهو أن يتبع الشاعر سبيل من سبقه في معالجة غرض من أغراض الشعر ليفوقه فيه ، ويفلج عليه ، ولا يشترط في هذا النوع أيضاً اتحاد

البحر والقافية . ومن ذلك ما ساقه الموصلي في « المثل السائر » من توارد البحتري وأبي الطيب المتنبي على وصف الأسد في قصيدة البحتري التي أولها :

أَجِـدَّكَ ما ينفكُ يسري لزينبا خيالٌ إذا آبَ الظلام تأوّبا

وقصيدة المتنبي التي أولها :

في الخدّ إن عزم الخليطُ رحيلا مطرٌ تزيد به الخدودُ مُحولا

ومن أعجب العجب ما زعمه هذا الموصلي من أن البحتري جرى في وصف الأسد على سنن بشر بن عوانة ، وأنه استرق كثيراً من معانيه في قصيدته التي أولها :

أفاطمُ لو شهدتِ ببطن خَبْتٍ وقد لاقى الهزبرُ أخاك بشراً

وهذه قاصمة الظهر ، وعوراء الأبد ، فقد ظن الموصلي أن بشر بن عوانة شاعر جاهلي ، ولم يكن في الواقع إلا شاعراً خياليا خلقه بديع الزمان في مقامته البشرية . والقصيدة كلها من كلام البديع ، وبديع الزمان نفسه هذا الذي استرق معاني البحتري وبعض ألفاظه .

ولنا إن شاء الله عودة نتناول فيها المعارضات فيما تلا من عصور .

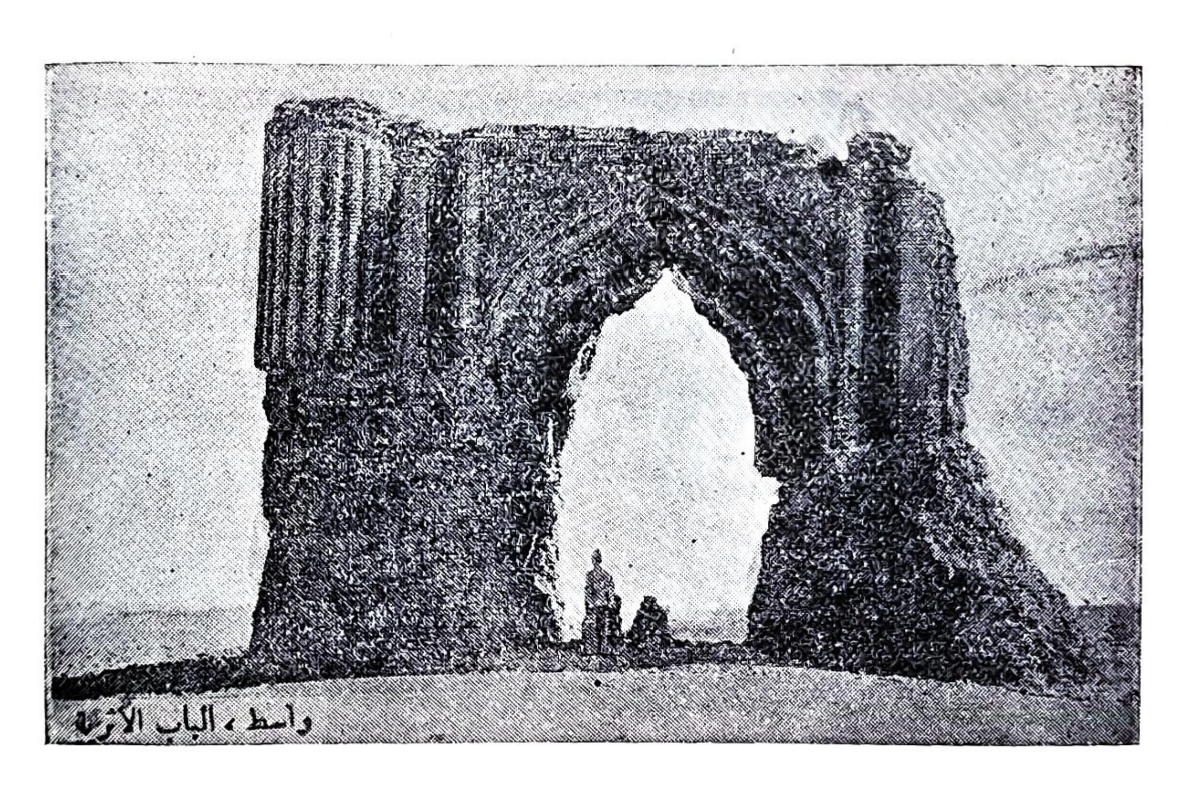
على الجارم

مدارس واسط مدينة الحجاج

للأستاذ يوسف يعقوب مسكوني ببغداد

تمهيد

لقد ترك لنا الأقدمون آثاراً قويت على الزمن ، وقاومت الريح والأعاصير ، فوقفت شامخة أبية الإذلال والخضوع، لتحدث الأبناء عن الآباء ، والآباء عن الأجداد . وهكذا نرى في كل منعطف من منعطفات دنيانا أثراً مجهولا أمام ناظره ، معروفاً عند



باب واسط الأثري

الباحث عنه ، ينبئك بعزته وعظمته أنه من صنع الجبابرة العظام الذين دوت أصواتهم في البقاع والآجام ، ففعلوا ما فعلوا ، وكان عملهم كبيراً .

إن في جنوبيّ العراق عند شط الحي ومدينة الحي الواقعة عليه ، وعلى بعد خمسة وعشرين كيلومتراً من شرقي مدينة الحي ، بقايا ماثلة ، قامت بالكشف عنها وترميمها مديرية الآثار القديمة العراقية . إن هي إلا أنقاض مدينة كانت بالأمس

عامرة آهلة بسكانها ، يشقها دجلة العذب فيشطرها إلى شطرين ، كما هي مدينة بغداد اليوم . تلك هي مدينة واسط التي ابتناها الحجاج بن يوسف الثقفي . وعلى رأي أكثر المؤرخين أنها بنيت سنة ٨٣ هـ أي (٧٠٢ م) . وكما هو معلوم أن الحجاج عين والياً أي عاملاً على العراق في خلافة عبد الملك بن مروان أشهر ملوك بني أمية في الشأم . وقد عاشت هذه المدينة بعده ما يقارب الألف سنة . ثم اندثرت وعفى أثرها تقريباً .

سبب تشييدها

أما سبب تشييد هذه المدينة فلأنه آنس من أهل الكوفة الملال ، ولأنه وجد عسكره الأموي يختلط بأهل الكوفة ، مما يضر بالسكان ويدعو إلى التبلبل في الأعمال، فيجب أن يحصر في محل معين مستقل . لذلك فكر في إيجاد مكان يتوسط بين الكوفة والبصرة ، وهما المدينتان المهمتان آنذاك ، فاختار مكاناً وسطاً بينهما ، فصار يبعد عنهما بمسافة واحدة، وكذلك عن الأهواز ، أي بمسافة أربعين أو خمسين فرسخاً عن كل منها.

وكانت هذه البقعة في السابق محوطة بالأهوار والمستنقعات ، تنمو فيها الأعشاب والأقصاب ، حتى كان يطلق عليها قبل بنائها « واسط القصب » ، وكانت على كرش من الأرض، أي ترتفع قليلا ، لذلك كان البصريون إذا نادوا واسطياً ينادون : « يا كرشي! » فيتغافل عن الجواب ، لأنه يدعي ذلك منقصة من مناديه . فضرب المثل في تغافل واسطي فقيل : « تغافل عنا كتغافل واسطي » ومن ذلك ما أنشد التنوخي للفضل الرقاشي حيث يقول :

تركت عيادتي ونسيت بري وقدماً كنت بي برا حفيا
فما هذا التغافل يابن عيسى أظنك صرت بعدي واسطيا*

إلا أننا لا ننسى أن مدينة واسط لم تشيد على أرض خالية كلها ، وإنما كانت بجوارها مدينة كسكر أو كشكر ، وهي معروفة في التاريخ ، وعلى الأخص التاريخ الفارسي قبل الفتح الإسلامي .

وقد سئل الحجاج عن اختياره هذا المكان فقال : إني اتخذت لي مدينة في كرش من الأرض أكون فيه متوسطاً بين الكوفة والبصرة . ولا شك أنه كان يرسل منها فرق عساكره في الحروب التي جرت في العراق مع الخوارج الذين ناوؤا حكم بني أمية في العراق . وفي أول تشييدها جعلها حصناً له ولجنوده ، ثم جلب إليها بعض أكابر أهل

* راجع معجم البلدان لياقوت الحموي مادة واسط ج ٨ ص ٣٧٩ — ٣٨٤ مصر .

الكوفة والبصرة فأقامهم فيها ، وجعل فيها أسواقاً لسد حاجيات ساكنيها ، كما أنه أقام فيها مسجداً في الجهة الغربية ، وكذلك شيد فيها قصره ذا القبة الخضراء المعروف بخضراء واسط . وهنالك قصص وروايات في تشييد هذا القصر ، أدرجتها في الكتاب الذي عزمت على تأليفه حول هذه المدينة وما وصل إلينا من أخبارها ، وهو ما لا يستهان به ، برغم المتاعب الجمة في الحصول على أخبارها من مراجعة الكتب التاريخية ، لاستقصاء أحوال هذه المدينة التي عمرت مدة من الزمن ، ثم انقرضت فأصبحت في عالم الغيب لا يعرف عنها شيء ، وكثيرون الذين لم يعرفوا عنها إلا اسمها واسم بانيها فقط .

عمرانها وتكليف بنائها

ولقد أحاطها الحجاج بسور عظيم ، وجعل لها أبواباً ، كما أنه نقل أبواباً لقصره وللمسجد الجامع من مدن قديمة كانت عامرة في ذلك الزمان ، مثل « الزندورد » و « سرابيط » و« الدوقرة » و« داروساط » و « دير ما سرجيس أو ماسرجسان »، فضج أهل هذه المدن وقالوا : قد غصبتنا على مدائننا ، فلم يلتفت إلى قولهم . وأنفق الحجاج على بناء قصره والمسجد الجامع والخندقين والسور ثلاثة وأربعين ألف ألف درهم ، فقال له كاتبه صالح بن عبد الرحمن : هذه نفقة كثيرة ، وإن احتسبها لك أمير المؤمنين وجد في نفسه . قال : فما نصنع ؟ قال : الحروب لها أجمل . فاحتسب منها في الحروب بأربعة وثلاثين ألف ألف درهم . واحتسب في البناء تسعة آلاف ألف درهم*

وذكرت المصادر التاريخية العديدة بعض البيوتات المشهورة فيها ، وعدداً من المساجد والمشاهد والمقابر والمدارس والربط ، مما يدل على عظم أهميتها في التاريخ .

أما سكانها فقد كانوا مزيجاً من قبائل عربية جاءتها من جنوبي العراق وأواسطه ولم يختلط بهذه الكتلة العربية أجناس من النبط والخوز الذين كانوا يطلق عليهم أهل السواد ، حيث شدد عليهم الحجاج في دخول المدينة ، فكان يُدخلهم نهاراً للعمل فيها ويخرجهم ليلاً . إلا أن البعض منهم دلس إليها بعد موته فاختلط بسكانها .

أسباب انقراضها وتاريخه

أما أسباب انقراضها فمعروفة ، لأن دجلة قد غير مجراه بعد أن كان يمر في وسطها كما أسلفنا ، وسبب ذلك إهمال السدود وكثرة البشوق التي تتسرب منها المياه ،

---

* معجم البلدان لياقوت الحموي مادة واسط ج ٨ ص ٣٧٩ — ٣٨٤ وراجع فتوح البلدان للبلاذري في بحث « أمر واسط العراق » ص ٢٩٠ طبعة أوربة .

فالتحق دجلة بفرعه الذي كان يسمى « دجلة العوراء » وهو المجرى الحالي الذي يمر بمدينة العمارة الحديثة الحالية ، تاركا مدينة واسط في صحراء رملية قاحلة جرداء ، فهجرها سكانها وتفرقوا في القرى والأرياف والمدن إلى حيث العيش والرزق ، فبقيت خربة ، وبتمادي الزمان طمرتها الرياح والعواصف الرملية فغطتها عن العين ، وهكذا خفي أثرها وغابت عن عالم الوجود .

وأكد لي الأستاذ يعقوب سركيس المحقق المدقق أن آخر خراب لمدينة واسط على ما جاء للششتري كان قبيل سنة ١١٠٧ ﻫ أي سنة ١٦٩٥ م .

ولما كان مقالنا هذا يتعلق بالبحث عن مدارسها فإننا نكتفي بهذه الإلمامة عنها ، بعد أن أعطينا صورة موجزة من تاريخها .

مدارسها

إن لمدارس هذه المدينة المندثرة أهمية كبرى في تاريخها ، بالرغم من قلتها فيما توصلنا إليه . وليس من الإنصاف أن نقول إن مدارس واسط اقتصرت على عدد معلوم ، لقلة ما تمكنا من معرفته عنها ، بل هنالك مدارس لم نعرف عنها شيئا ، بالنظر لقلة من ألفوا في تاريخ هذه المدينة ، سواء أكان ذلك في أوائل أدوارها أم في أواخرها ، إذا قارناهم بمؤلفي المدن الأخرى التي لا تقل عنها شأناً كبغداد والبصرة والموصل وغيرها . ونضيف إلى ما نعرفه من مدارسها الربط التي كانت بمثابة مدارس تدرس فيها القراءة والكتابة وعلوم الدين والفقه ، وخاصة دراسة القرآن الكريم وما يتعلق به من الشرح الوافر والتفاسير القيّمة . زد على ذلك ما يتعلق بقواعد الصرف والنحو والفصاحة والبلاغة وعلوم البيان والبديع والمعاني والنثر المسجوع والشعر المنظوم . وكذلك الفقه والعلوم الشرعية وفلسفة الكون والتوحيد وغيرها من العلوم التي لا تحصى . كما أننا لا ننسى أنه كان يتخذ في كل مسجد من المساجد مدرسة لتعليم القراءة والكتابة أيضاً وحفظ القرآن الكريم ودرس العلوم الدينية ، فكان يعتبر كل مسجد مدرسة من المدارس . وهنالك عدة كتاتيب لتعليم الصغار وتهيئتهم لقبول هذه العلوم . والذي يثبت لنا ما قلناه في هذا الصدد الأساتذة الواسطيون والعلماء والفحول الذين تخرجوا من هذه المعاهد ، فدرسوا وأفتوا ، وحدثوا وكتبوا ، ودونوا في مختلف المدن الإسلامية الشهيرة ، مما وراء النهر وأفغانستان ، حتى مصر وبلاد المغرب والأندلس . وهذه تواريخ تلك المدن مشحونة بأسماء الواسطيين الذين نزحوا إليها فأفادوا وخرّجوا رجالاً

علماء على أيديهم استدلالاً مما أحصيناه من هذه الجماعات ، ويكفيها فخراً أن يدخلها الفيروزآبادي صاحب القاموس المحيط ، الذي درس فيها عند انتقاله إلى العراق من بلاد فارس[١] ومنها سار إلى بغداد والبلدان الأخرى .

واشتهرت واسط بالمدارس الآتي ذكرها على ما دونه الرحالون والمؤرخون عنها ، ولم يذكروا غيرها ، ولعلهم لم يجدوا أشهر منها في زمانهم .

مدرسة خطلبرس

إن أول مدرسة عثرنا على أخبارها وأقدمها تاريخاً بالنسبة لما عرفناه هي مدرسة خطلبرس ، وتقع هذه المدرسة بالقرب من دجلة في الجهة الشمالية الغربية من الجانب الشرقي ، كما يغلب على الظن — لأن مدينة واسط كانت راكبة دجلة من الجانبين كبغداد — وقد نص على تعيين موقعها ابن الدبيثي في مخطوطه المحفوظ الآن في المكتبة الأهلية بباريس ، حيث قال فيه : « جعفر بن مظفر بن يحي بن محمد بن هبيرة . توفي بواسط سنة ٦١٠ هـ (١٢١٣ م) فدفن بها بمدرسة (خطلبرس) أعلى البلد» اهـ[٢] أما ما جاء في أوصاف هذه المدرسة فغير معروف لدينا . وغاية ما نعرفه أن الاسم المطلق عليها هو اسم أحد مقطعي[٣] واسط ، وكان يدعى خطلوبرس ، وقد ذكره ابن الأثير في كتابه الكامل فقال : « في سنة ٥٦١ هـ (١١٦٥ م) قتل خطلوبرس مقطع واسط ، قتله ابن أخي شملة صاحب خوزستان ويدعى ابن شنكا ، أصعد إلى واسط ونهب سوادها وقتل المقْطَع المذكور »[٤] .

أما بن خلدون فقد ذكره عدة مرات في تاريخه . ذكره في حصار السلطان محمد بغداد فقال : « كان السلطان محمد قد بعث إلى المقتفي لأمر الله في الخطبة له ببغداد فامتنع من إجابته . . وأرسل المقتفي عن (خطلوبراس) صاحب واسط فجاء في عسكره

---

(١) راجع معجم المطبوعات ليوسف إليان سركيس ص ١٤٦٩ مع ذكر المصادر التي استقى المؤلف منها أخبار مجد الدين الفيروزآبادي .

(٢) هذا ما ذكره لنا الدكتور مصطفى جواد الملاحظ الفني في مديرية الآثار القديمة العامة نقلا عن مخطوط لابن الدبيثي .

(٣) المقطع : هو الذي يقطعه السلطان أو الخليفة الإمام أرضاً ببلدانها وقراها ليستثمرها بنفسه لقاء مبالغ معينة يقدمها سنويا لصندوق بيت المال ، ومن يعجز عن ذلك يعزل أو يحبس .

(٤) الكامل لابن الأثير ج ١١ ص ٢١٢ طبع مصر وفيطبعة أوربة ج ١١ ص ١٤٠ ، ١٥١ ، ٣١٢ ، ٢١٣ حيث تذكر أخبار خطاوبرس المذكور .

وملك مهلهل الحلة . . إلخ »(١) وكان ذلك سنة إحدى وخمسين وخمسمائة على وجه التقريب ، أي سنة (١١٥٦ م) . وذكره في حروب المقتفي مع أهل النواحي فقال : « كان سنقر الهمذاني صاحب اللحف ، وكان في هذه الفتنة قد نهب سواد بغداد وطريق خراسان ، فسار المقتفي لحربه في جمادى سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، وضمن له الأمير (خطلوبراس) إصلاحه فسار إليه خاله على أن يشرك المقتفي معه في بلد اللحف الأمير أزغش المسترشدي ، فأقطعها لهما جميعاً ، ورجع، ثم عاد سنقر على أزغش وأخرجه وانفرد ببلده ، وخطب للسلطان محمد ، فسار إليه (خطلوبراس) من بغداد في العساكر وهزمه وملك اللحف . . إلخ »(٢) .وذكر أيضاً أن مقطع البصرة منكبرس من موالي المستنجد . وقتله سنة تسع وخمسين وخمسمائة (١١٦٣ م) . وولي مكانه كمشتكين . وكان ابن سنكاه — أو شنكا — ابن أخي شملة صاحب خوزستان ، فانتهز الفرصة في البصرة ونهب قراها ، وأمر كمشتكين بقتاله ، فعجز عن إقامة العسكر ، وأصعد ابن سنكاه إلى واسط ونهب سوادها وكان مقتطعها (خطلوبراس) فجمع وخرج لقتاله ، واستمال ابن سنكاه الأمراء الذين معه ، فخذلوه وانهزم ، وقتله ابن سنكاه سنة إحدى وستين وخمسمائة (١١٦٥ م) ثم قصد البصرة سنة اثنتين وستين وخمسمائة (١١٦٦ م) . ونهب جهتها الشرقية وخرج إليه كمشتكين وواقعه ، وسار ابن سنكاه إلى واسط ، وخافه الناس ولم يصل إليها »(٣)

وذكر في الجامع المختصر لابن الساعي في حوادث سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠٠ م) أيضاً : « أن قراسنقر الحاجي ، أحد المماليك المستنجدية ، كان أولا لخطلبرس شحنة(٤) واسط قديماً . . »(٥) فيظهر من هنا أن ما أورده ابن الأثير نقله ابن خلدون مع اتفاق السنين أيضاً فيكون تاريخ بناء هذه المدرسة المسماة باسم مقطع واسط (خطلوبراس) إلى ما قبل سنة إحدى وخمسين وخمسمائة للهجرة بقليل ، كما أنها بقيت

---

(١) العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون ج ٣ ص ٥١٩ طبع بولاق .

(٢) « « « « « « « ٥٢٠ « « «

(٣) « « « « « « « ٥٢٤ « « «

(٤) الشحنة ، أي شحنة البلد : من فيه الكفاية لضبطها من جهة السلطان على قول الفيروز آبادي صاحب القاموس المحيط ، وهو بمثابة مدير الشرطة في يومنا هذا ، وكثيراً ما كان المقطع هو الشحنة بنفسه ، كما كان خطلبرس هذا ، حيث ورد ذكره مقطعاً وورد ذكره شحنة في واسط في نفس المدة .

(٥) الجامع المختصر لابن الساعي الخازن ج ٩ ص ٧٤ طبع على نفقة الأب أنستاس ماري الكرملي وعناية الدكتور مصطفى جواد .

بعده إلى ما بعد سنة ٦١٠ هـ ، كما روينا في أول الخبر عنها ما ذكره ابن الدبيثي من أن جعفر بن مظفر بن يحيى بن محمد بن هبيرة مات في السنة المذكورة بواسط ودفن في المدرسة المذكورة . ويدلنا هذا على أن المدرسة كبيرة حتى كانت فيها مقبرة لدفن مشاهير الرجال العلماء فيها . وأما الاسم فالغالب أنه تركماني .

هل كان يطلق عليها المدرسة البرانية ؟

وذكر الأستاذ عباس الفراوي المحامي في الجزء الثاني من كتابه « تاريخ العراق بين احتلالين » (ص٢٩) نقلاً عن « الدرر الكامنة » (ج ٤ ص ٤١٩) و « طبقات الشافعية الكبرى » للسبكي (ج ٦ص ٢٥٠) : « أن يحيى بن عبد الله بن عبد الملك الواسطي ويكنى أبا زكريا الواسطي الذي كان فقيه العراق في زمانه ، وقد ولد سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٣ م) وتفقه على والده وسمع من الفاروثي وأجازله ابن أبي الدنية وعبد الصمد بن أبي الجيش وغيرهم ، قد حدث ببغداد ودرس في المدرسة البرانية بواسط . له مصنف في الناسخ والمنسوخ ، وكتاب « مطالع الأنوار النبوية في صفات خير البرية » ، الذي قال عنه الذهبي : هو فرع في الفقه ، وكان يقال في حقه : إنه فقيه العراق في زمانه ، مات بواسط في ربيع الآخر سنة ٧٣٨ هـ (١٣٣٧م) » اهـ . فقد تكون المدرسة البرانية هذه هي مدرسة خطلبرس عينها ، لاتفاق التاريخ والموقع ، ولوقوعها في أعلى البلد كما ذكر ابن الدبيثي وتقارب مدة تدريس يحيى بن عبد الله بن عبد الملك الواسطي فيها وتاريخ وجودها . فإذا صح ذلك فتكون قد بقيت إلى ما بعد سنة ٧٣٨ هـ التي توفي فيها يحيى المذكور . أما إذا لم يصح هذا فتضاف بذلك مدرسة أخرى إلى مدارس واسط .

مدرسة الغزنوي

ورد ذكرها في « الجواهر المضية في طبقات الحنفية » لمحيي الدين عبد القادر القرشي المصري كما يأتي : « محمود بن أحمد بن عبد الرحمن أبو الفضل الغزنوي ، حدّث بكتاب « تفسير الفقهاء وتكذيب السفهاء » لأبي الفتح عبد الصمد بن محمود بن يونس النجار ، وقال : صحب أبا الفتوح أحمد بن محمد الغزالي وأخذ عنه علم الوعظ ، وقدم بغداد سنة سبع وخمسين وخمسمائة ، وعقد مجلس الوعظ بجامع القصر ، ثم انتقل إلى واسط فسكنها إلى حين وفاته . وقرأت في كتاب القاضي أبي الحسين علي الواسطي بخطه قال : توفي محمود الغزنوي يوم الجمعة ودفن يوم السبت ثامن شعبان سنة ثلاث وستين وخمسمائة في

مدرسته بمحلة الوراقين، وكان يوماً مشهوداً » اهـ.[1] فتكون هذه المدرسة معاصرة للمدرسة المذكورة آنفاً ، أي من مدارس القرن السادس للهجرة . وكل هذه المدارس تسمى بأسماء أصحابها ومنشئيها .

مدرسة ابن الكيال الواسطي للحنفية

ذكرها ابن الساعي الخازن في كتابه « الجامع المختصر » في ترجمة أبي المحاسن عبد اللطيف المعروف بابن الكيال الواسطي ، في حوادث سنة ٦٠٥ هـ (١٢٠٨ م) قال : « أبو المحاسن عبد اللطيف بن نصر الله بن علي بن منصور بن الحسن الواسطي المعروف بابن الكيال ، قاضي واسط ومشرف ديوانها ، تولى القضاء بواسط مدة بعد أبيه ، وكان فيه فضل ، وعنده معرفة بمذهب أبي حنيفة رحمه الله ، درس الفقة بواسط بعد والده في مدرسة بها للحنفية ، وتولى أيضاً التدريس بمشهد أبي حنيفة رحمه الله وخلع عليه من الديوان العزيز ، فذكر به الدرس في يوم السبت تاسع شوال سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، وفوض إليه النظر في الوقوف عليه وعلى غيره من المدارس الحنفية وعاد إلى واسط قاضياً، واستناب في التدريس عنه أبا الفرج عبدالرحمن بن شجاع الحنفي ثم عزل عن التدريس والنظر — أعني ابن الكيال — في جمادى الآخرة من سنة ست وتسعين وخمسمائة ، وفي المحرم سنة ثمان وتسعين أذن له من الديوان العزيز بالإسجال عن الخدمة الشريفة بواسط ، وقبول الشهود ، فكان على ذلك إلى أن عزله قاضي القضاة أبو القاسم عبد الله بن الحسين الدامغاني عن القضاء ، في سلخ شوال من سنة ثلاث وستمائة ، وبقي مشرفاً بالديوان إلى أن صرف قبل وفاته بقليل . وكانت وفاته في النصف من شعبان سنة خمس وستمائة المذكورة » اهـ.[2]

ولم تقتصر أخباره على ابن الساعي فقط ، بل ذكره القرشي صاحب « الجواهر المضية » بقوله: « نصر الله بن علي بن منصور بن علي بن الحسين الواسطي أبو الفتح القاضي المعروف بابن الكيال ، قرأ القرآن الكريم بالروايات العشر على أبي القاسم علي بن محمد بن جعفر ، وسمع منه الحديث ومن غيره . قدم بغداد في سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة وهو شاب يطلب العلم ، وعلمه مسائل الخلاف عن الحسن بن سلامة المنبجي وعن القاضي

---

(١) الجواهر المضية لمحيي الدين القرشي المصري المولود سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) والمتوفى سنة ٧٧٥ هـ (١٣٧٣م) ج ٢ ص ١٥٤ طبع حيدر آباد .

(٢) الجامع المختصر لابن الساعي الخازن ج ٩ ص ٢٨٠ ، ٢٨١

إبرهيم الهيتي ، حتى برع وتكلم في مجالس المناظرة وقرأ الأدب على أبي منصور الجواليقي ، ثم عاد إلى واسط ، ودرس بمدرسة تعرف به ، وتولى القضاء بالبصرة سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، وعزل في سنة ست وسبعين ، وقدم بغداد في ذي القعدة سنة تسع وسبعين ، وأقام بها مدة حدث بها وأقرأ القرآن ، وعلم بجامع القصر[1] مسائل الخلاف . قال ابن النجار : كان غزير الفضل حسن المناظرة له معرفة حسنة بالأدب ويقول الشعر الجيد . سمع منه ببغداد أبو الحسن القطيعي ، ثم إنه عاد إلى واسط وتولى القضاء بها في رجب سنه ست وثمانين وخمسمائة ، ولم يزل على ولايته إلى حين وفاته ليلة الأحد ١١ جمادى الأولى سنة ٥٨٦ هـ (١١٩٠م) . سئل عن مولده فقال : سنة اثنتين وخمسمائة[2] (١١٠٨ م) . قال ابن النجار : « سمعت منه الكثير ، ونعم الشيخ كان فضلا وعلماً ومعرفة وثقة . وابناه عبد الرحيم وعبد اللطيف تقدم ذكرهما »[3] اهـ .

نستدل من هذه المعلومات أنه أقام هذه المدرسة في حياته العلمية بعد الدراسة والتحصيل فيكون إنشاء هذه المدرسة حوالي سنة ٥٤٥ هـ . أو سنة ٥٥٠ هـ . أي أواسط القرن السادس الهجري ، وبذلك تكون هذه المدرسة معاصرة لمدرسة خطلبرس الآنفة الذكر .

مدرسة شرف الدولة محمد بن ورام

ومن المدارس التي عاصرت مدرسة ابن الكيال الواسطي الحنفية أيضاً مدرسة شرف الدولة محمد بن ورام . وقد ورد ذكرها في مخطوطة تاريخ واسط لأسلم بن سهل ابن حبيب الرزاز الواسطي المعروف ببحشل ، حيث ذيلت في آخر المخطوطة الفقرة التالية : « سمع جميع هذا الكتاب وهو تاريخ واسط لبحشل . . . وذلك بواسط في مدرسة شرف الدولة محمد بن ورام نور الله ضريحه في مجالس ، آخرها الاثنين رابع عشرين

(١) جامع القصر ، ويعرف أيضاً بجامع الخلفاء ، لم يبق من آثاره سوى منارة شاهقة كبيرة تعرف بمنارة سوق الغزل قائمة وسط هذا السوق ومسجد صغير عليه آثار القدم يشتمل على جزء صغير من بقعة جامع القصر وسعته .

(٢) ج ٢ ص ١٩٨ من الجواهر المضية .

(٣) قال الدكتور مصطفى جواد : « لا نشك في أن أبا الحسن القطيعي المذكور وأبا عبد الله ابن الدبيثي مؤرخ واسط وبغداد سألاه عن ولادته ، ولكن ابن النجار لم يود ذكرهما لحاجة في نفسه رحمهم الله جميعا » .

ذي العقدة من سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة (١١٧٧ م)[1] » اه . فإذا كان آخر قراءة المخطوطة سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة فلا شك أن تشييد المدرسة المذكورة يسبق التاريخ المذكور بكثير .

المدرسة الشرابية الشرقية بواسط

ذكرها ابن الفوطي البغدادي في كتابه « الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة » في حوادث سنة ٦٣٢ ﻫ (١٢٣٤ م) قال ما نصه : « وفي هذه السنة في سابع شعبان فتحت المدرسة التي أمر بإنشائها شرف الدين أبو الفضائل الشرابي للشافعية بالجانب الشرقي من واسط على دجلة ، مجاورة لجامع كان داثراً . فأمر بتجديد عمارته ، ورتب به مدرساً العدل أحمد بن نجا الواسطي ، ورتب بها معيدان واثنان وعشرون

---

(١) هو أسلم بن سهل بن أسلم بن زياد بن حبيب الرزاز أبو الحسن المعروف ببحشل الواسطي ، منسوب إلى محلة الرزازين المحلة السفلى بواسط ، ومسجده هناك وداره ، وهو ثقة إمام يصلح للصحيح ، وجده لأمه أبو محمد وهب بن بقية . ويقال وهبان . جمع بحشل تاريخ واسط ، وضبط أسماء أهلها ورتب طبقاتهم ، وكان لا مزيد عليه في الحفظ والإتقان مات في سنة ٢٨٨ﻫ (٩٠٠ م) قبلها أو بعدها بقليل ، حدث عنه بتاريخه أبو بكر محمد بن عثمان بن سمعان المعدل ، وكان يضاهيه في الحفظ والإتقان ، وشركه في أكثر شيوخه ، ومات قبل الـ (٣٣٠ ﻫ) أي (٩٤١ م) ذكر ذلك كله السلفي الحافظ في السؤالات التي سألها خميسا الحوزي . نقلا عن معجم الأدباء لياقوت الحموي طبع مرغليوث ج ٢ ص ٢٥٦ مع العلم بأن ياقوت ذكره باسم نحشل والصحيح بحشل كما جاء في مخطوطة تاريخ واسط بدار الكتب المصرية بالقاهرة والنسخة التي نقلتها عنها مديرية الآثار القديمة العراقية . وراجع عدد جريدة الأخبار الخاص رقم (٧ ، ٨ ، ٩) حيث نشر الأستاذ كوركيس عواد بحثاً مطولاً عن هذه المخطوطة . واللقب بحشل على ما قاله الأب العلامة أنستاس ماري الكرملي أنه من اللفظتين الإرميتين « بر » ومعناها الابن و « حشالا » ومعناها الصائغ فيكون مجموعها : (ابن الصائغ) إذ كان قد توصل إلى تحقيق هذه اللفظة منذ ٥ شباط ١٩٠٥ م كما يلاحظ من حاشية نسخته من تاج العروس في المستدرك على بحشل .

وقال الحاج خليفة المعروف بكاتب جلبي في كتابه كشف الظنون في المجلد الأول ص ٣٠٩ من طبع الأستانة الأخيرة ما يلي : « تواريخ واسط : منها تاريخ أبي عبد الله محمد بن سعيد بن الدبيثي الواسطي المتوفى سنة سبع وثلاثين وستمائة ، والذيل عليه لابن الجلابي ، هو أبو الحسن علي بن محمد بن الطيب الجلابي المؤرخ المتوفى سنة ٥٣٤ﻫ (١١٣٩م) . وتاريخ السيد جعفر بن محمد بن الحسن المعروف بالجعفري . وتاريخ بحشل وتاريخ واسط أسلم [لأسلم] بن سهل (ابن أسلم بن زياد الواسطي المحدث المتوفى سنة ٢٩٢ﻫ — ٩٠٤ م) » اﻫ . وقد أخطأ صاحب كشف الظنون إذ توهم أن تاريخ بحشل هو غير تاريخ واسط لأسلم بن سهل الرزاز وقد أثبت المؤرخون والأدلة التاريخية أن « بحشل » لقب لأسلم بن سهل المذكور ، وتاريخ بحشل وتاريخ واسط هما كتاب واحد

فقهياً . وخلع على الجميع وعلى من تولى عمارتها من النواب والصناع والحاشية الذين رتبوا لخدمتها ، وعمل فيها دعوة حسنة ، حضرها صاحب الديوان ابن الدباهي، والناظر بواسط ، والقاضي ، والنقيبان ، والقراء والشعراء ، وكان المتولي عمارتها والذي جعل النظر إليه وإلى عقبه في وقفها أبو حفص عمر بن أبي إسحق الدورقي »[1] اهـ .

أما أخبار شرف الدين إقبال الشرابي هذا فقد جاء في الحوادث الجامعة ما عثرنا عليه قال :

« في سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) رتب شرف الدين إقبال الشرابي عماد الدين ابن ذي الفقار العلوي مدرساً في المدرسة التي أنشأها بواسط . حكي أنه لما حودث الشرابي في ترتيبه دخل بعض الخدم وقال له : قد رأيت الليلة مناماً ، فسأله عنه، فقال : رأيت عليا عليه السلام ومعه سيف في غمد أخضر وقد ناولك إياه وقال لك : هذا ذو الفقار ، فأذن في ترتيبه »[2] اهـ .

أما وفاة شرف الدين إقبال الشرابي فكانت في سنة ٦٥٣ هـ (١٢٥٥ م) على ما ذكره ابن الفوطي أيضاً في الحوادث الجامعة حيث قال : « توفي شرف الدين إقبال الشرابي ، كان شيخاً شجاعاً كريماً شريف النفس عالي الهمة ، بنى بواسط مدرسة على شاطئ دجلة بالجانب الشرقي ، وعمر إلى جانبها جامعاً ، وبنى ببغداد مدرسة في سوق السلطان ، وجدد بمكة — شرفها الله تعالى — الرباط الذي اشتهر ذكره في الدنيا » .

ومما جاء في الحاشية ما قاله قطب الدين أنه بنى بمكة مدرسة على يمين الداخل إلى المسجد الحرام من باب السلام ووقف بها كتباً كثيرة في سنة ٦٤١ هـ (١٢٤٣ م) . وعين غرفه التي في الموقف ، وأجرى ماءها لانتفاع الحاج به ، وأوقف على ذلك كله الوقوف السنية . وكان كثير الصدقات والمواصلات ، كان في خدمة الخليفة بالحلة فمرض بها وحمل إلى بغداد في شبارة وهو مثقل ، فوصل في سابع عشر شوال وتوفي في ثامن عشر ، وصلى عليه في جامع القصر ، ودفن في تربة الخليفة المستعصم بباب القبة على يمين الداخل . وزاد في الحاشية أيضاً ما تقدم في حوادث سنة ٦٤٥ هـ (١٢٤٧م) أنها في رباطها المستجد بشارع ابن رزق الله من غربي بغداد — وجلس الوزير وأرباب المناصب في العزاء بالمدرسة المستنصرية ، وكان أولا لعز الدين نجاح الشرابي وانتقل إلى

---

(١) الحوادث الجامعة لابن الفوطي ص ٧٦ ، ٧٧

(٢) « « « « ٢٠٣

زوجته بعد وفاته ، فلما أفضت الخلافة إلى الظاهر حملته إليه فقبله ، فأبعده عنه رشيق وأنفذه إلى ولده المستنصر ، فلما دخل عليه قال : ما اسمك ؟ فقال : إقبال . فسر بذلك واستبشر وتفاءل به ، فلما أفضت إليه قربه وقبض على رشيق وحبسه ، وجعل إقبالا شرابيا ، ثم جعله سرخيل العسكر . فلما توفي زعيم إربل سار بالعسكر إليها وأخذها وعاد مظفراً . فلما أفضت الخلافة إلى المستعصم زادت منزلته عنده وقرب من قلبه . فلما وصلت عساكر المغول سنة خمس وثلاثين وستمائة خرج إلى لقائهم وظهر من حسن الأحوال بعده — ملاحظة : واسم المدرسة التي بناها الشرابي ببغداد الشرقية (١)

وأشهر من درسوا فيها عماد الدين زكريا القزويني ، ففي الحوادث الجامعة من حوادث سنة ٦٨٢ هـ (١٢٨٣ م) أن عماد الدين زكريا بن محمود القزويني قاضي واسط وصاحب كتاب « عجائب المخلوقات » وكتاب « آثار البلاد وأخبار العباد » نقل إلى القضاء سنة اثنتين وخمسين وستمائة وأضيف إليه التدريس بمدرسة الشرابي ، فلم يزل على ذلك إلى أن مات ، وكان حسن السيرة عفيفاً (٢) .

مدرسة الشيخ تقي الدين عبد المحسن الواسطي

ومن مدارس واسط المدرسة التي وصفها ابن بطوطة في رحلته ولم يذكر اسماً علماً لها ، وإنما يذكر اسم بانيها ، وهو الشيخ تقي الدين عبد المحسن الواسطي الذي قال عنه : إنه من كبار أهل واسط وفقهائها ، وقال عنه أيضاً : إنه يعطي كل معلم بها كسوة في السنة ويجري له نفقته في كل يوم ويقعد هو وإخوانه وأصحابه لتعليم القرآن الكريم بها ، ثم يضيف قائلا :

ولقد لقيته وأضافني وزودني تمراً ودراهم . فتكون رحلة ابن بطوطة إلى واسط في إبان تشييد هذه المدرسة التي قال عنها إنها مدرسة حافلة فيها نحو ثلاثمائة خلوة ينزلها الغرباء القادمون لتعلم القرآن . ونحن نعرف أن ابن بطوطة ولد سنة ٧٠٣هـ (١٣٠٣م) وابتدأ رحلته من طنجة مسقط رأسه في يوم الخميس الثاني من رجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة معتمداً حج بيت الله الحرام وسنه يومئذ اثنتان وعشرون سنة . وكان الفراغ من تقييد رحلته هذه في ثالث ذي الحجة عام ستة وخمسين وسبعمائة هـ . فعلى هذا

---

(١) الجامعة لابن الفوطي ص ٣٠٨ ، ٣٠٩

(٢) » » » » » ٢٥٣

يكون مروره بواسط حوالي سنة ٧٢٨ هـ (١٣٢٧م) أو ٧٣٠هـ (١٣٢٩ م) فالمدرسة إذن من منشآت القرن الثامن الهجري ✡ .

الربط

لم نعثر فيما دون من آثار واسط إلا على عدد قليل معين من الربط . والرباط معناه هنا المعهد المبني والموقوف للفقراء ، ويكون عادة مأوى الرابط ، أي الزاهد الذي يقوم بتعليم الفقراء وإطعامهم والإشفاق عليهم وإيوائهم .

رباط قراجة

ومن هذه الربط رباط قراجة ، ويقع على نهر دجلة في الجانب الشرقي ، كما يدل النص التالي وقد قاله العماد في الخريدة : « وكان أبو الفرج العلاء بن السوادي عند رباط قراجة بواسط ، يأوي إلى غرفة على شاطئ دجلة ، فجرت بينه وبين الصوفية منافرة . ثم أرادها لألفته بها ولقربها من قلبه ، فكتب إليَّ بأن آخذها ، وعاتبني في رقعته فأجبته نظماً . . .

في غرفة أنهارها من تحتها   تجري ففز منها هديت بغرفة »

والعماد الأصفهاني تولى الأمر بواسط في خلافة المستنجد بالله العباسي ، الذي تولى الخلافة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) وتوفى ٥٦٦ هـ (١١٧٠م) .

رباط القربتي

وقد ورد ذكره في مخطوط لابن الدبيثي ، وهو ذيل علي كتاب تاريخ السمعاني ، جاء فيه ما نصه : « أحمد بن علي بن سعيد الحوزي ، أبو العباس الصوفي ، سكن واسط وأقام بها برباط القربتي ، ولد سنة ٤٩٩ هـ (١١٠٥م) وتوفي سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) قال ابن الدبيثي: وحضرت الصلاة عليه يوم الخميس بجامعها ، ودفن بمقبرة مسجد زنبور »

رباط جامع ابن رقاقا ورباط المدرسة الشرابية

ذكرهما ابن الفوطي صاحب الحوادث الجامعة في حوادث سنة ٦٤٨هـ (١٢٥٠م) بقوله : وفيها توفي فخر الدين عمر بن إسحق الدوراقي . كان يتولى أشغال زعماء البيات

✡ رحلة ابن بطوطة المعروفة بـ « تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » ج ١ ص ١١٤ ، ٤ ، ٥ ثم ج ٢ ص ٢٠٦ طبع مصر .

وينوب عنهم ، وكان ذا مال كثير فائض ، وجاه عريض ، بنى بشرقي مدينة واسط جامعاً كان قد دثر يعرف بجامع ابن رقاقا ، وعمر إلى جانبه رباطاً وأسكنه جماعة من الفقراء ، ورتب فيه من يلقن القرآن المجيد ويسمع الحديث ، وأجرى عليهم الجرايات اليومية والشهرية ، ثم أنشأ قريباً من مدرسة الشرابي التي بشرقي واسط رباطاً آخر على شاطيء دجلة ، وتربة يدفن فيها ، ووقف عليها وقوفاً سنية ، وكان قد تجاوز السبعين من عمره » اه (ص ٢٥٤) .

ويجد الباحث في تاريخ واسط مدارس بأسماء المحدثين والرواة والفقهاء ، كانوا يتخذونها بأسمائهم، أو يجعلون قسما من بيوتهم مدرسة يجتمع فيها طلاب العلم من المدينة أو من أنحاء أخرى .

هذا مجمل ماتمكنت من الحصول عليه من مدارس واسط . ويقيني أن وجود هذه المدارس في مدد متقاربة هو الرجعة العلمية التي حدثت في أواخر أيام الدولة العباسية ، لاسيما عهد الوزير نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقي ، الذي أنعش الروح العلمي في زمانه ، بفتحه المدارس النظامية العديدة فى أنحاء الشرق العربي والعجمي ، فتأثرت واسط بهذا التيار ، وعاد لها نشاطها العلمي والثقافي ، وهي أم المقرئين والفقهاء والمحدثين الذين درسوا وأفتوا في مختلف البلدان العربية وأخصها بغداد مركز الخلافة العباسية ، حيث غصت معاهدها العلمية بالأساتذة الواسطيين .

يوسف يعقوب مسكوني

فلسفة "يوج" الهندية

للأستاذ السيد أبي النصر أحمد الحسيني الهندي

« إن أكبر مساهمة قدمتها الهند إلى العالم هي الديانة والفلسفة »
الأستاذ السر وليم هنتر

« يوج » معناه بالسنسكريتية الاتصال والانضمام . وهو اسم يطلق في الفلسفة الهندية وديانتها على مذهب خاص . وخلاصة ذلك المذهب وتعليمه ، كما هو عند جميع المذاهب الصوفية ، الإصرار والتأكيد على أن هناك إمكاناً للاتصال المباشر مع الله ، وذلك برفع مستوى الإنسان عن مستواه الطبيعي . ومتى ارتفع الإنسان إلى ذلك المستوى نال — عند أصحاب هذا المذهب — النجاة النهائية من جميع أدوار التناسخ . وعليه فيشمل المذهب أساليب وقواعد ونظماً وأصولا يرفع التمرين عليهامستوى المتمرن .

يتأسس هذا المذهب على الاعتقاد في أن فهم الإنسان عاجز ، لا يقدر على أن يدرك الحقيقة إدركا تامـًا . لذلك يشبـّه أصحابه العقل الإنساني بمرآة تنعكس فيها الحقيقة . فوضوح العكس أو غموضه يتوقف في الحقيقة على قسط جودة المرآة وصفائها . كذلك القدر الذي نعرفه نحن من الحقيقة يتوقف على حالة عقلنا ووسائله أكثر من أن يتوقف على شيء آخر . لأن وضوح ذلك القدر من المعرفة أو غموضه أو كماله أو نقصه يرجع في الحقيقة إلى تلك الحالة . فالألوان مثلا لا تظهر للأعمى ، ولا يسمع الأصم الموسيقى ، كما لا يفهم ضعيف العقل الحقائق الفلسفية . مع أن الحقيقة في كل من تلك الأمثلة هي هي ، لم تنقص من عدم ظهورها للأعمى ، ولا من عدم سمع الأصم إياها ، ولا من قصور ضعيف العقل عن إدراكها . وعليه فأسلوب المعرفة لدى أصحاب هذا المذهب ليس بخلق كما هو اكتشافي ، ولا إنتاجي كما هو إلهامي . لذلك يكون الاكتشاف أو الإلهام عندهم ناقصاً إذا وجد الفساد في الآلة أو عرض لها النقص .

إن الأغراض الذاتية والعواطف الخاصة تحول دائماً بين آلة العقل وبين الحقيقة الملهمة ، فإذا أثرت شخصية الموضوع على طبيعة الآلة أصبح العكس ناقصاً . كذلك جهل المشاهد للمشهود يجمع دائماً أوهامه حوله ، لأن ميول المشاهد السائدة تتسلط في تلك الحالة على حقيقة المشهود ، فتصوره له تصوراً خاطئاً . لذلك الخطأ لديهم في الحقيقة هو هجوم نقائص الآلة على الحقيقة . وبناء عليه يحتاج الأمر إلى موقف معتدل مجرد

عن الشخصية لا كتشاف الحقيقة . فإن ما يرجع إلى الشخصية البحتة يعارض الموقف الكاشف للحقيقة بطبعه طابعاً غير معتدل . والخروج عن الاعتدال فيه فوت الغاية ومرتع الضلال . فكيف يمكن إذن اتقاء هذا الضلال وصيانة عقولنا من الخيبة ؟

يقدم مذهب « يوج » طريقاً لذلك ، ويرشد به إلى تصفية العقل وتحسين المرآة . والطريق هو الاجتناب عما هو مختص بمكونات الشخصية ، فيزف إلى الطالب مناهج يمكن له أن يرتفع بالعمل عليها إلى علو مستحكم الأسباب ، تنعدم فيه شخصيته المكونة من عواطفه وهواه . وهو علو تقدر منه ذوات المواهب الخاصة على أن ترى رؤياهم البعيدة الغور رأي العين .

إن شعورنا الطبيعي يولي ظهره للعالم الأبدي غير المرئي ، ويضيع في العالم المادي الفاني منبوذاً بالعقل لأجل آثار الحواس ، فحينما نرتفع عن ذاتنا الاختبارية ، لا نصل إلى سلبها بل إلى قوتها ، لأن الذات إلى أن تكون مقيدة بحوادثها الاختبارية ، لا تشغل عزيمتها كلها ، فإن حدود تلك الحوادث المحصورة الضيقة تحول دون ذلك . ومتى علت الذات حدود الوجود الاختباري ، تقوت الحياة بأسرها ، فأحرزنا به غناء الذات أو تضخم الشخصية ، وجذب هذا الغناء أو التضخم إلى نفسه عالم التجارب بأجمعه . لأنه حين تحقق الذات شخصيتها في الأدوار الأولى ، بمركز معين ناشىء عن الحوادث الزمنية والمكانية ، لا يصبح عالم التجربة بأسره خاصا بها . لذلك يجب أن يغلب تماسكنا بدائرة ضيقة من التجارب ، قبل أن نجمع في أنفسنا عالم التجربة بتمامه الذي مركزه ودائرته الله والإنسان . وحينئذ نصل نحن إلى الحالة التي لافرق فيها بين الباطن والظاهر . فمذهب « يوج » يصر على أنه يجب أن يكبح المنظر الخارجي الباطل قبل أن تسنح فرصة الحياة والظهور للأمثل الباطني . ويجب أن نكف عن أن نعيش في عالم الظلال عيشة مخدوعة ضائعة قبل أن نقدر على أن ننال الحياة الأبدية .

فلأجل أن نتمتع بحريتنا الحقيقية يجب علينا أن ننصو عقلنا ونقرنه بالأصفاد ، فإنه هو الذي يربطنا بالأشياء الخارجية فيجعلنا عبيداً لها ، ولن نبلغ عيشة مقتنعة مرضية ما دمنا ضحية للأشياء الخارجية والظروف المختلفة . ففي كاتها أوبانيشاد* :

---

* « أوبنيشاد » اسم آخر يطلق على « ويدانتا » ومعنى الأخير بالسنسكريتية خاتمة ويدا . ومعنى الأول الجلوس بقرب (الأستاذ لتلقي أسرار العقيدة) وهي عبارة عن الأبواب الأخيرة في كل ويد من الويدات الأربعة تشبه كتب المتون في العقيدة وتحتوي على أكثر العناصر من المذاهب الفلسفية الهندية المختلفة . وكاتها أوبانيشاد من ضمن الأبواب الأخيرة في أثاروا ويدا .

« كما أن ماء المطر النازل على رأس الجبل يسيل إلى جميع نواحيه كذلك الذي يري الفرق بين الأوصاف يجري وراءها في جميع النواحي . إن الماء الصافي المصب في الماء الصافي يبقى كما هو . هكذا ياجوتم ! يكون ذات المفكر الذي عرف نفسه »✡ .

يشير به إلى أن عقل الإنسان الذي لم يعرف نفسه يتيه هنا وهناك كالماء المصب على قمة الجبل . ولكن متى عرف ذاته بصيانة عقله عن التأثير من محيطه المادي اتحد بعالم الحياة الراقي الذي وراء المظاهر المادية الفانية . فإن العقل إذا ألقى حبله على غاربه تشتت وضاع في أخاديد الرمال من بيداء العالم المادي . فالواجب على الطالب أن يكبله ويسوقه إلى الباطن لينال به كنزاً مخفيا فيه .

ينشد المذهب « يوج » أنه يجب علينا أن نقهر نطقنا ونحوله إلى الإحساس ، والإحساس إلى الفكر ، والفكر إلى الشعور العام . حينئذ فقط نقدر به على أن ندرك عمق الطمأنينة الموجودة في السرمدي . إننا لا يمكننا أن نبلغ العلو المنشود إلا إذا هدأت المصادر الخمسة للعلم وهي الحواس ، وسكن العقل والفهم . والطريق لارتياد ذلك الهدوء والسكون هو تركيز أفكارنا وحواسنا في هدف واحد ، ومحو الأهداف الأخرى ، وتوجيه النفس بذلك إلى اتجاه جديد حر لا يلين للدواعي المختلفة العارضة لإخضاعها . فإنه ما يضيع من قوى الفكر والفهم لدى الإنسان ، ويبيد استعداد نفسه ، هو توجهه إلى الأهداف الكثيرة وتصادمها المنتج له الفرح والترح بأهداف أخرى في المجتمع البشري .

هكذا يبين لنا مذهب « يوج » طريقاً للسيطرة على النفس والحواس والعقل والفهم ، وبذلك للسلوك نحو الكمال . ودرجات المسلك ومنازله ومخاطره مذكورة مشروحة في كتبهم ، لا يسمح لنا المجال بالاسترسال في بيانها هنا . وعليه فالفلسفة « يوج » في الحقيقة سعي الهنود المنظم لبلوغ الكمال بالاستيلاء على العناصر المختلفة في طبع الإنسان سواء أكانت نفسية أم جسدية .

السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي

✡ راجع كاتها أو بانيشاد الفصل الثاني فقرة ١٥

حقوق المرأة وواجباتها *

لمعالي الأستاذ محمد علي علوبة باشا



الحياة من يوم أن وجد الإنسان ما زالت صراعاً بين الحق والباطل . والحق جميل ، ولا أحد في الدنيا ينكر جماله . والحق جليل ، ومن آيات جلاله ألا يتعشقه إلا الشرفاء . والحق قوي ، ومن علامات قوته أن يحتمي به الضعفاء والمظلومون ، وأن يحالفه الأحرار الغالبون . أولئك هم الذين يستمرئون المرّ في الذود عن حياضه ، ويستعذبون العذاب في سبيل نصرته ، فيكتب له الظفر ، ولو بعد حين .

أذكر وتذكرون حضراتكم ما كان — وما يكون — من صراع بين الحق والباطل في أعمال كثيرة ، سمعنا عن بعضها في التاريخ ، ورأينا بعضها في السنوات الأخيرة . رأيتم صراعاً بين الحق والباطل منذ قام فريق من الناس يدعو إلى وحدة عربية واتحاد شعوب العربية ، فقام في وجههم باطل . وما زال الحق يصارع الباطل حتى انتهى الأمر

* محاضرة ألقاها معاليه في نادي الشبيبة .

باقتناع الجميع بأن لا فرعونية في مصر ولا فينيقية في لبنان ولا أشورية في العراق؛ واعتقدوا جميعاً أن الوحدة ضرورية ، فسعى الناس إليها من كل فج ؛ فهناك اتفاق في العناصر والمنفعة بين من يتكلمون بلغة واحدة ، ولهم تقاليد واحدة ، وعوائد واحدة ، وآمال واحدة ، وآلام واحدة . والحمد لله قد انتصر الحق وتكونت جامعة الدول العربية .

وهناك فريق من الأحرار رأى ضرورة الدفاع عن فلسطين ، فتنحى بعض العلماء والفضلاء والأدباء في مصر وفي غيرها من البلاد الشرقية ، وحاربوا الفكرة وسخروا منها . وما زال الحق يصارع الباطل حتى اقتنع الجميع بأن ضياع فلسطين إنما هو ضياع للأقطار العربية كلها المتاخمة والمجاورة على حد التعبير الحديث !

وهناك صراع بين الحق والباطل في الأحوال المحلية قام به بعضهم ممن أرادوا أن يمنعوا أذى الأوقاف فحوربوا ، واستمروا في صراعهم عشرين سنة إلى أن قيض الله لمصر شاباً ناهضاً، فاقتنعت الأمة والدولة بهذا الحق ، فصدر القانون بمنع هذا الباطل .

والآن ، سيداتي وسادتي : هل للمرأة حق يصح الدفاع عنه ؟ وإذا كان لها حقوق فهل عليها واجبات يصح تنبيهها إليها ؟

هذا ما أحدث عنه حضراتكم الآن :

أرجع إلى مائة وخمسين سنة خلت . يقول لنا التاريخ إن القائد بونابرت — قبل أن يصير أمبراطور فرنسا باسم نابليون — كلف من حكومته أن يفتتح إيطاليا ، فقاد هذا الشاب العبقري حملة قوية وهزم النمساويين الذين كانوا يستعمرون إيطاليا في تلك العصور في وقائع متعددة . ولما انتصر وفتح إيطاليا ، ورضخت لحكمه ، رجع إلى فرنسا ، فقابله بعض الأصدقاء وأرادوا أن يكرموه ، فأقاموا له حفلا كبيراً في قصر كبير ، جمعوا فيه قواد فرنسا وعظماءها ووزراءها وأهل الفضل فيها من أدباء وعلماء . وكان القائد الشاب بونابرت زينة الحفلة ، فتقدمت إليه سيدة يظهر أنها لم تكن تعرفه إلا بالاسم ، ويظهر أنها اعتقدت في نفسها أن هذا الشاب إذا كان رب السيف فهي ربة القلم وابنة رجل عظيم من مشاهير العالم ، وأنها لا تقل عظمة عن نابليون ؛ فإذا كان له عظمة الميدان والفتح فلها عظمة الأدب والفنون الاجتماعية ، تلك هي مدام دي ستايل ... اقتربت منه وأرادت أن تمتحنه ، على ما يظهر ، لتعرف مبلغ ثقافته وذكائه ونبله فطرحت عليه أسئلة ثلاثة :

السؤال الأول : يا جناب القائد أي النساء أحب إلى قلبك ؟

سؤال لا أدري بم يجيب عليه هذا الشاب ؟ هل ينظر إلى المحسوسات فيقول

إن التي أحبها هي الشقراء ذات الأعين الزرق والقامة الهيفاء ؟

هل ينظر إلى المعنويات فيقول إن التي أحبها هي المثقفة المتكلمة الذكية ؟ لا أدري بماذا يجيب القائد بونابرت . وربما كان يقول شيئاً مما يرد بالخاطر ، وربما كان يصل به الملق المعروف ، والعياذ بالله ، فيقول : أحب من كانت صفاتها بعض صفاتك ، فتجيبه : العفو ، أستغفر الله . . .

كل هذا جائز . ولنبحث الآن في الجواب الذي قاله بونابرت . إنه لم ينتظر كل هذا الوقت الذي شرحت فيه هذه الاحتمالات ، لأنه ينقض في إجاباته انقضاضه في حروبه فقد أجاب توا : زوجتي أيتها السيدة ؟

أما السؤال الثاني فهو : وأيهن أجدر بالاحترام ؟

— المرأة التي تحسن إدارة بيتها أيتها السيدة .

والسؤال الثالث : وأيهن أولى بالرحمة والشفقة والعناية ؟

— الزوجة الكثيرة الولد أيتها السيدة .

إنها لمعان سامية — سيداتي وسادتي — تحتاج إلى قلم فياض يستطيع أن يكتب عنها كتاباً . وهذه المعاني السامية التي قالها بونابرت سنة ١٧٩٦ — وقد مضى على ذلك ١٥٠ سنة — يجب أن تكون نبراساً لوضعنا الحالي ولعصرنا الحاضر .

لقد خلق من هذه الأجوبة حقوقاً للزوجة على الرجل ، وحقوقاً للرجل على الزوجة ؛ والحق يجاوره واجب ؛ فما هو واجب المرأة ؟ وما هو واجب الرجل ؟

يجب على الرجل في جواب السؤال الأول أن يكون مخلصاً لزوجته محبا لها وأن يكون قلبه لها دون غيرها . وخلق هذا واجباً على المرأة هو أن تسعى في استبقاء هذا الحب ، وأن لا تنفر زوجها ، وأن تكون بشوشة تسعى لخيره لأنه خيرها . وهي إن حادت عن هذا الطريق سقط حقها .

الجواب الثاني لبونابرت : احترامي للمرأة التي تحسن إدارة بيتها فيه معان كثيرة . المرأة التي تحسن إدارة بيتها ! ما هو البيت ؟ هو العش ، هو المأكل ، هو الملبس ، هو الأولاد . فالمرأة إذاً من حقها أن تتعلم ، ومن حقها أن تهذَّب حتى تكون مدبرة حقيقية لهذا الملك الذي تملكه وحدها ؛ ولتكون مرشدة لأولادها ، ولتعرف ما هو الزار والعفاريت ، وما هو الحسد إلى غير ذلك من خرافات ، فلا يمكن أن يستقيم ولد يذهب إلى المدرسة والتخريف في البيت .

إني مع القدر الرفيع الذي أكنه لفيلسوف العالم أرسطاطاليس ، الذي

يسمونه المعلم الأول أقول : حاشا ، المعلم الأول هو الأم لا أرسطاطاليس .

فإذا كان الأمر كذلك وجب أن يعنى بتربية البنت حتى تكون أمًّا صالحة وحتى يمكنها أن تربي أولادنا ، وأن يكونوا صالحين في هذا العالم ؛ فالبيت هو مدرسة الحضانة الحقيقية ، ولا يمكن أن يستقيم الظل والعود أعوج ! !

أترك هذه المسائل وأقول إن في بلادنا شيئاً آخر لم تفكر فيه دي ستايل ، لأن لكل بلد طابعاً خاصا ، وعوائد خاصة ، وتقاليد خاصة . في بلادنا أيها السيدات والسادة شيء اسمه تعدد الزوجات ، وشيء آخر اسمه الطلاق .

وقد قدمت — وكان لي الشرف في أن أقدم — لمجلس الشيوخ مشروع قانون ، وهذا المشروع يرمي إلى صيانة البلد ، دون أن يصادر القواعد الدينية ، فقد رأت الحكومة منذ سنوات مضت أنه كان في الاستطاعة أن يكون الزواج بشهادة الشهود ، ورأت ذلك فتنة ، والفتنة شرعاً يجب القضاء عليها ، فجاءت الحكومة بقانون قالت فيه إنه لا يمكن إثبات الزواج إلا بوثيقة رسمية يضعها موثق . وبناء على ذلك ، وعلى أن نابليون في الحقيقة لم يقل شيئاً جديداً ، وإنما قال ما كانت تقول به الأديان من قبل ؛ وهذا ديننا يعلمنا في كتاب الله الكريم فيقول : "ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة" — بناءً على هذا كله وجب اتقاء الفتنة بأي شكل .

أما تعدد الزوجات فقد ثبت بالإحصاء الرسمي أن بلادنا مكتظة بالسكان ، ونسبتها في المواليد أكبر نسبة في العالم ، وبلادنا ضيقة ، وقد كنا مليونين ونصف مليون أيام محمد علي فوصلنا إلى ما يقرب من عشرين مليوناً ، والأرض لم تزدد إلا قليلا . وواجبٌ تغذية هذا السيل ، وكيف السبيل ، والنسل كثير ؟ ومن ناحية أخرى يجب أن نراعي الحياء والآداب وتضامن الأسرة ، فإذا تزوج إنسان بأكثر من واحدة وجدت الضغينة بين الأخوة غير الأشقاء ، وفسدت العائلة ، وضاع الحب المتبادل بين الزوج وزوجته . ولكن المشروع متواضع فقد طلبت فيه أن الزوج — لو أراد أن يتزوج مرة ثانية — فالموثق لا يكتب له عقد الزواج إلا بإذن من القاضي، والقاضي يبحث مع الرجل حاله مع زوجه الأولى ويبحث عن خلقه وسيرته ومقدرته على الإنفاق على الأولى والثانية ، ومن يجب عليه الإنفاق عليهم ، فإن وجد قادراً ، وكان محقا ، أذن له ، وإلا رفض عقد زواجه الجديد .

هنا قد يجوز أن يقال لم تمنعون هذه الحرية ؟ نعم إننا نمنعها لمصلحة الوطن والخلق لأن الزواج بأكثر من واحدة جلب علينا المتشردين في الطرق والشوارع ، وهم الذين

يحكم عليهم ، وهم مجرمو الأحداث ؛ أولئك هم الذين يخشى منهم . إننا نريد أن نطهر البلد من مجرمي الأحداث ومن المتشردين .

وقد يقال : إذا منع القاضي الزواج بأخرى فقد يجوز أن يطلق الرجل امرأته ، حتى لا يكون بزوجة أولى . وهنا وضع المشروع احتياطاً فنص على أن الطلاق يجب أن يكون بإشهاد يقره القاضي ؛ والقاضي يبحث الحال مع الزوج والزوجة ، ويعين حكماً من أهله وحكما من أهلها ، إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما ، فإذا وصل القاضي إلى الصلح كان له ثواب ، وإن لم يصل أمكن التفرقة بين الزوجين . وفي هذه الحالة أجاز القانون أن تطالب الزوجة مطلقها بتعويض ، بمرتب سنوي . الآن يا حضرات السادة نرى المحاكم لا تحكم بتعويض للمطلقة لأنها تقول إن الزوج استعمل حقه. وإن هذا لمخالف لأصل ديننا ، لأن الدين الحنيف فيه عدم سوء استعمال الحق ، فإذا أسيء استعمال الحق وجب أن يحكم على المذنب بتعويض .

وفي المشروع أيضاً أنه إذا تزوج الرجل ، ولم ير القاضي مانعاً من زواجه بأخرى ، كأن كانت الزوجة عقيما ، أو مريضة ، وضع المشروع نصا يقضي بإعطاء الحق للزوجة الأولى بأن تطلب الطلاق ، وعلى القاضي أن يطلق ، لأنه لا يمكن أن تهان الزوجة بأن يتزوج رجلها غيرها ، بخادم مثلا . فهنا على القاضي أن يحكم بالطلاق ، لأن القانون قضى بجواز الفرقة بين الزوجين إذا آذى الزوج زوجته ، وفي هذه الحالة للزوجة أن تطلب الفرقة عن زوجها الذي آذاها في جسمها ، فبالأحرى يكون لها الحق في طلب الفرقة إذا آذاها في كرامتها وفي الحب المتبادل الذي كانت تكنه لزوجها ، وفي شرفها الذي يأبى عليها أن تقيم مع خادمة ، فلها الحق في طلب الطلاق ويجب على القاضي أن يطلق .

ووضع المشروع نصا يقضي بأن المأذون لو أثبت زواجاً أو أثبت طلاقاً بدون أمر القاضي بكتاب رسمي يعاقب بالحبس وبالغرامة أو بإحدى العقوبتين .

هذا هو ملخص المشروع الذي تشرفت بعرضه على مجلس الشيوخ لصيانة الأسرة . وهناك مشروع آخر ، كنت أود أن أختصر فيه الآن ، ولكنه يهمّ السيدات ويجب علي أن أصفي الحساب .

في القضاء الآن — مع الأسف الشديد — إذا كان الزوج يعامل زوجته بما لا يلائم الآداب ، أو كان فاسد الخلق ، جاز للزوجة أن تكره زوجها ، وألا تحب الإقامة معه ، فتطلب إليه طلاقها ، فلا يجيبها لأن الطلاق في يده وحده . وحدث أن رجلاً لم يرد أن

يطلق زوجته إلا بعد أن كتب عليها كتابات قيمتها ٤٥ ألف جنيه . وإنه لمن الظلم أن يحكم على سيدة بمثل هذا لأنها ليست متاعاً . إنها إنسان شريكة لزوجها في حياته وفي سرائه وضرائه . والمعمول به في المحاكم يسمح للزوج أن يطالب بهذه المبالغ ولو قضت على كل ثروة السيدة .

بحثت فرأيت أن ديننا غير ذلك ، وأن محاكمنا تحكم بغير ما قرره الدين . والدليل على ذلك أن الله تعالى قال في كتابه الكريم : " وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ، أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً . وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ؟ " .

هذا هو القرآن — الذي نفاخر به — يأمرنا أنه إذا كان الزوج سيء الخلق وأرادت الزوجة أن يطلقها ، وكتب عليها مهما كتب ، وكان قد أعطاها قنطاراً من الذهب ، فلا يأخذ منها شيئاً . ولكن يا حضرات السادة يجب أن يقال الحق ، فإن الفقهاء قد اختلفوا في هذا ، وقالوا إن الدين يمنع ، ولكن القضاء يحكم احتراماً للمعاملات ، وأمر الزوج في الآخرة بينه وبين الله .

ما هذا ؟ قال بعضهم إنه حرام ، وقالوا بنص يجب أن يأخذ به القانون الحديث ، قالوا إن السبب خبيث . ثم أتى بعضهم وقال هو مكروه وهو مخالفة الأولى . وانتهى الأمر بأن المحاكم تحكم الآن ضد كتاب الله .

أمام هذا الإشكال يجب على ولي الأمر أن يحدد هذه الحالات ، فينص في القانون على أنه لا يحق للزوج أن يطالب زوجته بتعويض لطلاقها . أما إذا كانت هي خبيثة ، وأرادت أن تطلق على غير هوى الزوج ، وحملت الزوج مصاريف فما العمل ؟ أتى ديننا أيضاً بنص سام هو أن الزوجة إذا كرهت زوجها ، وأبت عليه مروءته أن يبقيها بعد ذلك ، وجب عليها أن تدفع له ماصرف من صداق وغيره حتى يمكنه أن يتزوج. « الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان . . . إلخ » .

فإذا كانت الزوجة ناشزاً وجب عليها أن تدفع المصاريف لا أكثر ، وإنما القضاء يقضي عليها بكل ما لا يتصوره العقل من طلبات الزوج الذي يتاجر بزوجته ، ولهذا وضع في المشروع نص يقضي بأن التعويض يجب أن يترك لتقدير المحكمة ، وبالقيمة التي تراها ، فإن رأت أنه يستحق شيئاً قدرت القيمة وإلا رفضت الدعوى .

هذا أيها السيدات والسادة هو دين المسلمين ، وإن رأيتم أن ما يجري الآن عكس ذلك فاعلموا أن الله بريء منه ، وأنه تشريع اصطنعه الرجال لمصلحة الرجال .

هذا ، سيداتي وسادتي ، ملخص المشروع الذي قدمته إلى مجلس الشيوخ ؛ وإنما يظهر أن حضرات السيدات يردن المساس بموضوع آخر هو المرأة والسياسة ، أو بعبارة أصح المرأة والبرلمان !

أرجو الله أن يقينا في نصفنا الثاني ، وهو السيدات ، شر مخازي الأحزاب ، وأحقاد الأحزاب ، والتواثب على الوظائف والمحسوبيات . ولكن ألمرأة حق أم لا ؟

حقيقة إن أوربا ، ومنها فرنسا وسويسرا إلى الحرب الأخيرة ، ما كانت تعطي المرأة حق الانتخاب ، ولكن يجب أن نفكر بأنفسنا لأنفسنا .

ماهو حق السيدة في البرلمان ؟ برلمان لبنان رفض الاعتراف بهذا الحق، والسيدات يطلبن هذا الحق كاملاً .

وماذا يكون الموقف ؟ بحثت هذا الموضوع بهدوء واطمئنان ففهمت واعتقدت اعتقاداً يرضي ربي وضميري أن البرلمان مرحلتان : ناخب ونائب . لأشخاص حق الانتخاب ولأشخاص آخرين الحق في أن يكونوا نواباً أو شيوخاً . فهل للمرأة الحق في أن تنتخب أم لا ؟ وهل لها الحق في أن تنتخب لمجلس الشيوخ أو النواب أم لا ؟

كيف نعالج أيها السيدات والسادة حق الانتخاب ، وكيف نصل إليه بهدوء وثبات ، ومصر — كالبلاد الشرقية — تختلف في نظامها الاجتماعي عن أوربا ؟ فللزوجة في مصر مثلا أن تملك وأن تدير أملاكها بنفسها بلا تدخل من زوجها ، ولها أن تشتري وأن تبيع بلا إذن زوجها ، وأن توصي ، وأن تهب بدون إذنه ، بخلاف ما عليه الحال في أوربا . لها أن توكل محامياً يدافع عن أملاكها ، فكيف لا توكل من ينوب عنها ، إذا كان الوضع الاجتماعي في بلادنا يقضي باستقلالها عن زوجها استقلالا ؟ وكيف يعقل أن نمنع سيدة — تملك مئات الفدادين والعمارات ، وتملك ثروة طائلة — من أن تنتخب من ينوب عنها ؟ كيف نمنع الزوجة المتعلمة المثقفة الغنية من أن تنتخب ؟ وكيف نعطي هذا الحق للأمي الحراث في الغيط والخادم « المرمطون » في البيت الذي لا يفقه من أحوال الدنيا شيئاً ، ونمنع صاحبات المصالح الحقيقية ، وليس لهذا الأمي حقوق ؟؟

وكيف يمكن أن أقول إن سيدة نالت شهادة من المدارس العليا ، هذه السيدة التي تباهي مصر بأمثالها ، تحرم أن يكون لها رأي في انتخاب من يمثل بلادها في البرلمان ، ونأتي بالأمي فنعطيه هذا الحق ؟ كيف يمكننا أن نفهم ذلك ؟..

وإن لي رأياً أرجو قبوله والدعاية له ، وهو أني لا أحب أن يكون للمرأة الجاهلة

الأمية صوت في الانتخاب . إن القانون عامّ للرجال : المتعلم منهم والأمي ، ولكنا يجب أن لا نعطي هذا الحق إلا كل سيدة أو شابة تقرأ وتكتب حتى يمكنها أن تعطي بنفسها صوتها ، غير متأثرة بزوجها ، لأنها في بيتها تقرأ وتطلع على شؤون الدنيا وأحوالها .

هذا هو رأيي لأني ممن يعتقدون أن لا رأي للأمي ولا للجاهل، إنما الرأي للمتعلم المثقف الذي قرأ وفهم ، وهذا يكون حافزاً للسيدات لأن يتعلمن إذا أردن هذا الحق ، وحينئذ تصير لنا أصوات محترمة تدلي بآرائها في الانتخابات . ثم إننا بهذا العمل لا نعطل إدارة المرأة لبيتها ، لأن انتخاب مجلس النواب في كل ٥ سنوات ، ولمجلس الشيوخ كل عشر سنوات ، تذهب إلى القاعة وتدلي برأيها ، وأظن أن الذهاب إلى القاعة أقل كلفة من ذهابها إلى مخازن السلع . فإذا أبحنا للسيدات القارئات الحق في الانتخاب فإنما أبحنا انتصار الحق ، وإن الرجل ليشرفه أن زوجته تشاركه في هذا الأمر الجلل .

أنتقل بعد ذلك إلى حق النيابة .

هل للسيدة المتعلمة أن تكون نائبة أو شيخة ؟

أرجو أن نتفق جميعاً على أن هذا الأمر سابق لأوانه . ولِمَ ؟ لأن عدد المتعلمات قليل جداً، ويجب أن يكون كثيراً . فاتركوا هذا الأمر لأولادنا وأحفادنا من بعدنا .

وختاماً أشكر حضراتكم على حسن استماعكم شكراً جزيلاً ؟

محمد علي علوبة



أعلام النهضة الحديثة

١٥

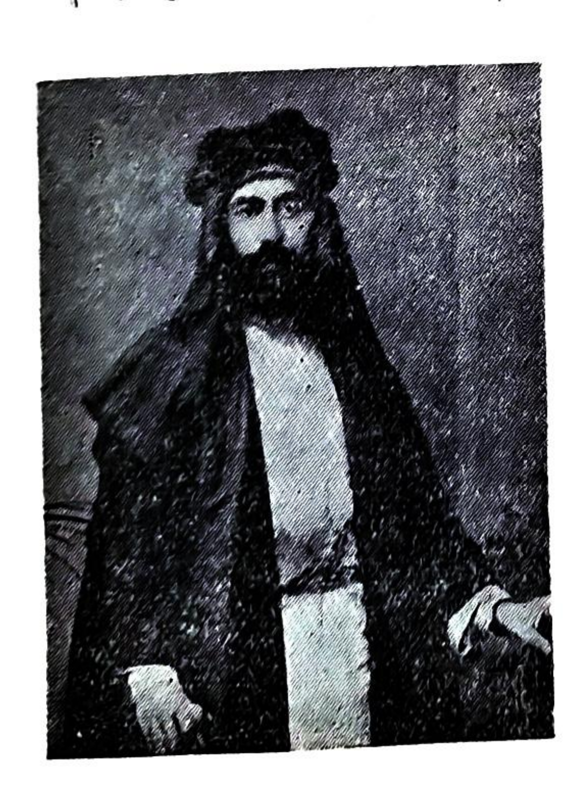
عبد الرحمن الكواكبي

١٨٤٩ — ١٩٠٢

للأستاذ سامي الكيالي بحلب

« الحرية هي شجرة الخلد وسقياها قطرات من الدم المسفوح »
الـكواكبي

عرف الشرق ، في منتصف القرن التاسع عشر ، صفوة من أحرار الفكر . أخذوا على عاتقهم أن ينهضوا بأوطانهم إلى ذروة المجد ، وأن يفكوا عنها الأغلال والأصفاد ، وأن يحرروها من العبودية والأسر ؛ فكان جهادهم مقروناً بالمصاعب والأهوال ، وبالمنافي والسجون ، وظلوا في جهادهم يناضلون إلى آخر رمق من حياتهم ، بالرغم من جميع الكوارث التي انصبت عليهم . وفي طليعة هؤلاء المفكرين الأحرار السيد عبد الرحمن الـكواكبي الذي سار على نفس النهج الذي سار عليه جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومصطفى كامل ومن إليهم من القادة والهداة .



نشأ الكواكبي في بيئة ضيقة لا يتسع نطاقها للعمل الحر . وكان منذ نشأته الأولى ثورة مشتعلة . فحاول الإصلاح في موطنه عن طريق الكتابة في الصحافة ... ولـكن قيود العهد الحميدي كانت ثقيلة . وكان

أعوان عبد الحميد ورجاله يحاسبون المرء على الهمس ؛ فما كان منه ، بعد أن استنفد كل مايملك لمقاومتهم ، إلا أن هجر وطنه إلى كنانة الله التي كانت ، ولا تزال ، موئل الأحرار.

هاجر الكواكبي إلى مصر وفي نفسه جيش من الآمال الكبيرة ، وفي فؤاده نزاوات ممضة من صلف الحكام ، وجراحات دامية من عنت المستبدين . فأطاق في مصر لأفكاره العنان يكتب في دك عروش الاستبداد وتقويض سلطة المستبدين ، ومازال إلى أن قضى ، بعد أن ترك ذلك الأثر النفيس الذي يقرؤه القارئ اليوم فيجد فيه هذه الصيحات العالية المنبعثة من قلب مليء بالإيمان ، ونفس حرة تكره العبودية ، وتريد الحرية المطلقة لجميع الأوطان ، وللشرق ، وطنه الغالي ، بصورة خاصة .

وإذا كان في سيرة الأحرار هذه الدروس الغالية التي لا تمل قراءتها ، فلا بأس أن نستعرض ، في سطور قليلة ، سيرة هذا الرجل الذي عاش يناضل ويكافح في سبيل فكرة عربية حرة ، ونزعة مثالية سامية ، تهدف إلى النهوض بالشرق وتحريره من سيطرة الطغاة المستبدين .

* * *

ولد السيد عبد الرحمن الكواكبي من أبوين كريمين في الثالث والعشرين من شهر شوال سنة ١٢٦٥هـ — ١٨٤٩م — أي قد مر ما يقرب من مئة سنة على ولادته ؛ وقد تعلم القراءة والكتابة في المدارس الابتدائية — وهي المعروفة بالكتاتيب لذلك العهد ، وبعد أن استوفى حظه منها استحضر له والده أستاذاً خاصا لتعليمه التركية والفارسية ، وكانت التركية اللغة الرسمية للدولة ، فبرع فيها ؛ ثم انتسب إلى المدرسة الكواكبية — المنسوبة إلى أسرته — حيث درس العلوم العربية والفقه والمنطق ؛ وكانت في نفسه هذه النزعة للإحاطة بشتى العلوم ، فعكف على دراسة الرياضة والطبيعة بالمراجعة والدرس على بعض الأساتذة ؛ وكان ذكاؤه الحاد من العوامل التي جعلته يحيط إحاطة شاملة بالكثير من فروع العلوم وشتى أنماط الثقافة ، وعرف منذ صغره بالتفوق ، وبالكثير من السجايا الكريمة . ويصفه الشيخ كامل الغزي ، مؤرخ حلب وصديق الفقيد ، بأنه كان منذ حداثة سنه تلمع في محياه مخائل النجابة والشهامة وعلو الجنان ، ويزيد علي ذلك بقوله : «كان سخي الطبع ، لا قيمة عنده للمال . ولوعاً بالتفضل على أقرانه وخلانه ، لا يرضى أن يسبقه بالبذل عليهم غيره ، يأنف من الكذب والتدليس والغيبة والنميمة ، ويرى التلبس بهذه الخلال الذميمة دناءة وغدراً وخوراً في الطبع ؛ وكانت نفسه العزيزة تأبى عليه الخضوع لأهل المجد الباطل ، ولا يرى شيئاً يطفىء نار غضبه منهم أفضل من

نهرهم وإذلالهم » . بهذه الكلمات الموجزة ، ذات المعاني الكبيرة ، وصف لنا الأستاذ الغزي — وهو رفيقه في الدراسة وخدينه في الحياة — نشأة السيد الكواكبي وطرفاً من خلقه وسجاياه . ونلمس من هذه الكلمات أن الكواكبي كان منذ حداثة سنه ، ذا صفات مرموقة ، أخصها أنفته وكرامته وكرمه وحدة طبعه ، مع نزوع إلى الحرية ، وإيمان بالمثل العليا . فما كاد يتجاوز دور الطفولة إلى عهد الشباب حتى لفتت هذه المواهب أنظار كبار رجال الدولة في حلب ، فعين وهو في الثامنة والعشرين من عمره محرراً في الجريدة الرسمية — جريدة « الفرات » — وكانت تصدر بالعربية والتركية ؛ وإذ كان الكواكبي يجيد اللغتين فقد وقع الاختيار عليه للقيام بهذه المهمة ، وحدد راتبه الشهري بثماني ليرات عثمانية ذهباً . وهو مبلغ ضخم بالنسبة لمعدل الرواتب في ذلك العصر . وكأن الدولة أرادت بإسناد هذا العمل الرسمي إلى السيد الكواكبي ، أن تشتري قلمه ، وأن تكم فمه ، ولكن ظنونها ذهبت بدداً . ولم يطق العمل في الجريدة الرسمية التي تلزمه أشياء تتنافى وطبعه ومنازعه ؛ وسرعان ما ترك العمل في الجريدة الرسمية وانصرف للأعمال الحرة .

وقد كان لاعتزاله العمل الحكومي أثره في نفوس رجال الحكم ، وخشوا أن يفلت من أيديهم ، وقدروا ما سيكون لنشاطه ، وهو غير مقيد ، من أثر في إلهاب النفوس ؛ فاحتالوا عليه وأعادوه إلى البيئة الرسمية . فعينوه في ديوان المعارف ، ثم نقلوه إلى كتابة العدل ، ثم إلى مديرية التنفيذ ، ثم إلى مديرية مطبعة الولاية ، ثم رفعوه إلى رئاسة بلدية حلب ، فرئاسة كتاب المحكمة الشرعية ، فمفتشية انحصار الدخان ، فرئاسة غرفة التجارة ، فرئاسة المصرف الزراعي . وقد يعجب القارئ من هذا التنقل من فرع إلى فرع ، ومن دائرة إلى أخرى . ولكن عجبه سيبطل إذا عرف أنه ما يكاد يتسلم دائرة من الدوائر حتى يباشر الإصلاح فيقلب عاليها سافلها ، ويعمل على تعديل أوضاعها . أي أنه كان في جميع الرئاسات التي تقلدها ذلك المصلح الثائر على الكثير من القيود والطرق العوجة . فكان يصطدم مع أولي الأمر ، وكان خلافه معهم على سنن الإصلاح هو الذي يحدوهم إلى نقله من دائرة إلى أخرى . وما زالوا إلى أن قرروا نقله من حلب إلى راشيَّا ، فعينوه قاضياً شرعيا فيها ، أي أرادوا نفيه بصورة غير مباشرة للتخلص من نزعاته الإصلاحية وميوله الحرة .

ومن يمعن النظر في الوظائف التي شغلها ، وهي ذات اتجاهات مختلفة ، من التجارة إلى الشريعة ، ومن الكتابة والتحرير إلى أمور التبغ والدخان مثلاً ، لا يجد تعليل ذلك إلا أن كفايته الذهنية كانت قابلة لاستيعاب كل عمل . وهذا شأن الأذكياء

الذين لا يهابون المسؤوليات ، بل يقدمون على العمل بجنان قوي للوصول به إلى أسمى غاياته ، وكان الكواكبي من هذا النفر .

وقد كان تمسكه بوجهات نظره ، ومحاولته التجديد والإصلاح ، من الأمور التي أثارت عليه حفيظة الولاة ورجال الدولة ، فناصبوه العداء واتهموه بتهم كثيرة كادت تودي بحياته .

ومن أبرز أعماله في حلب اشتغاله بالصحافة ، وهو أول صحفي مارس هذه المهنة في حلب . فقد أصدر جريدة « الشهباء » سنة ١٢٩٣ هـ ، وجعلها منبراً عالياً للصيحات الحرة . . . ولكن أنى لهذه الصيحات أن تأخذ طريقها إلى قلوب الجماهير ، والحرية مكبلة بالسلاسل ، والكابوس الحميدي يحاسب المرء على الكلمة والهمسة . لذلك لم تعش الجريدة طويلا ، فقد عطلتها الحكومة ؛ واستطاع بعد سنوات أن يصدر جريدة ثانية أسماها « الاعتدال » ، ولم يكد يصدر منها عدة أعداد حتى أقفلتها الحكومة ، وقد جعل منهاجها كزميلتها ، وهو التنديد بسياسة الدولة العثمانية . وظلت الميول الإصلاحية حبيسة في نفسه بعد تعطيل الجريدتين ، إلى أن أتيح لها أن تنطلق تحت سماء مصر ، والتي احتواها كتابه « طبائع الاستبداد » وهو فصول ومقالات نشرت متتابعة على صفحات « المؤيد » كبرى جرائد مصر والشرق آنذاك .

* * *

لقد كان الكواكبي من الأذكياء الذين سبقوا زمنهم ، فحاول إصلاح الدولة في بيئة لم تكن لتسمح له أن يبوح بآرائه حرة طليقة فوقف الحكام له بالمرصاد ، وكانت بينه وبينهم منازعات وخصومات . ولا يتسع المجال لإيراد الكثير من هذه الحوادث التي كانت من أسباب هجرته ، وكلها تنتهي عند هذه الغاية التي استهدفها ، وهي مناصبته طغاة الولاة الذين كانوا يحافظون على العهد الحميدي بأبشع صوره ، وقد اتهم اتهامات باطلة وزج في السجن وحوكم وحكم عليه ، واتهم بالعمل مع الأجنبي ضد الدولة العثمانية ؛ وكانت جميع هذه التهم باطلة ، وهي من عمل الوشاة والجواسيس . ولما ضاق ذرعاً بهذا الجو الموبوء بالوشايات قرر النزوح عن حلب . وقبل أن نشير إلى قصة فراره نلخص الحادثة التي اتهم بها ، ودخل من أجلها السجن ، وكاد يبقى في ظلماته سنوات طويلة ، لولا العناية الإلهية .

ففي سنة ١٣٠٧ هـ عينت الدولة عارف باشا ، أحد كبار رجال الدور الحميدي ، والياً على حلب ، وكان سيء الإدارة ، منهمكا بالرشا . يقول الشيخ الغزي الذي روى

هذه القصة : « إن السيد الكواكبي تسلط عليه — أي على الوالي — جرياً على منهاجه الذي كان يسير عليه مع أمثاله من الولاة ، فطفق يتتبع سقطاته ، ويفضح عوارته ، ويندد به في صحف الإستانة وبيروت ، ويكتب بمساوئه إلى المراجع العليا ، حتى نكد عيشه ، وسلب راحته ، وصار الوالي يتمنى أن لو ظفر له بسقطة يتسلط بها عليه لينتقم منه ، فلم يظفر له بشيء من ذلك .

وحدث في يوم ما أن قنصل دولة إيطاليا في حلب السنيور إتريكو ويتو بينما كان راكباً عربته ، مارا في محلة الجلوم ، التي هي محلة السيد عبد الرحمن الكواكبي ، إذ وقع على ظهره حجر عاثر صدمه صدمة عنيفة تألم منها جداً ، بحيث اضطرته أن يعود إلى منزله وأن يرسل إلى الوالي تقريراً ، يطلب فيه منه البحث عن الضارب ، وإجراء العقوبة القانونية » .

هذه الحادثة فتحت للوالي باباً يلج منه إلى إلصاق هذه الجناية بالسيد الكواكبي ، لاسيما وقد كانت الحادثة في محلته ؛ وعلى مقربة من داره . وفي الحال أوعز إلى بعض شياطينه بأن يرفع إليه تقريراً فحواه أن الكواكبي منضم إلى عصابة أرمنية — وكانت ثورات الأرمن في تلك الأيام كثيرة — وأنه قبل يومين أغرى بعض الناس فرشق على قنصل إيطاليا حجرة أصابت ظهره ، محاولا بذلك إحداث ثورة بين الأرمن والمسلمين بحلب ؛ وحالما قدمت هذه الإخبارية إلى الوالي أمر رئيس الشرطة بالذهاب إلى منزل السيد عبد الرحمن ، والدخول إليه قسراً ، وتفتيش مكتبه وخزانة أوراقه . فتوجه رئيس الشرطة على الفور إلى منزل الكواكبي ، وكان غائباً عنه ، فدخله قسراً ومعه طائفة من أتباعه ، وقصدوا خزانة كتبه وألقوا فيها ورقة مزورة استحضروها معهم ، وهي تركية العبارة ، محررة بحروف أرمنية ، مضطربة التركيب ، يفهم منها أن أحد زعماء الأرمن يعد السيد عبد الرحمن بأنه عما قريب يقوم بإحداث ثورة بين المسلمين وبين الأرمن في حلب ! . فقبض الشرطي على هذه الورقة وطار بها إلى الوالي ، فتسلمها منه ، وفي الحال أصدر أمره بإلقاء القبض على الكواكبي وزجه في السجن ، وما أسرع ما أخرج من السجن مخفوراً ، وأجلس على كرسي المحكمة لإصدار الحكم عليه . وكان رئيس المحكمة رجلا متهالكا بالتقرب إلى الولاة وكبار الموظفين ، فحكم على السيد الكواكبي بالإعدام ، على أن يكون الحكم قابلا للاستئناف ثم للتمييز ، فتلقى السيد الكواكبي الحكم بالرضى ، وشرع يطلب من المراجع العليا أن تكون محاكمته التميزية في محاكم بيروت لعداوة شخصية بينه وبين الوالي ، فأجيب طلبه ، ونقل مع أوراق

الدعوى إلى محكمة بيروت ، فتحقق لها أن الدعوى مزورة من أساسها ، ولا أصل لها ، وقد برأته ، وعاد إلى وطنه وهو أكثر اعتزازاً بدعوته إلى الحق ومناصبته العتاة المستبدين

* * *

لقد مل المقام في وطنه وهو في هذا الجو الموبوء بالدسائس والوشايات ، فوطن نفسه على الهجرة . . ولكن إلى أين ؟ . .

قال لنا الأستاذ الغزي ، وهو أوثق من يروي سيرته للصداقة الوثيقة التي كانت بينهما : « . . . وقبل سفره بيوم واحد زارني في منزلي يودعني ، وأخبرني أنه عازم في غده على السفر إلى استانبول لتبديل نيابته — أي نيابة قضاء راشيا — وكنت عالماً بكتابه «جمعية أم القرى» ، وقد شعرت منه العزم على طبعه ، فوقع في نفسي أنه سيعرج على مصر لطبعه ونشره ، إذ لا يمكنه أن يطبعه في غيرها ، فحذرته من ذلك ، وقلت له : إياك ياأخي والسفر إلى مصر ، فإنك متى دخلتها تعذر عليك الرجوع إلى وطنك ، لأنك تعد في الحال من الطائفة المعروفة باسم "جون تورك" لا يتأخر وسمك بهذه السمة قيد لحظة ، لما اشتهرت وعرفت به من شدة المعارضة ، وانتقاد الأحوال الحاضرة .. فقال : لم أعزم إلا على السفر إلى استانبول للغرض الذي ذكرته لك — وقد كتم سر سفره حتى عن أعز أصدقائه — ثم ودعني ومضى ، وأنا أسأل الله تعالى أن يرعاه بعين رعايته ، وأن يجعل التوفيق رائده ، والنجاح مرشده وقائده . وكانت مبارحته حلب في أوائل سنة ١٣١٦ هـ ، وبعد أن مضى على مبارحته حلب نحو بضعة عشر يوماً لم نشعر إلا وصدى مقالاته في صحف مصر ، وأخذت جريدة « المؤيد » تنشر تفرقة كتاب « طبائع الاستبداد » الذي لم يطلعنا عليه مطلقاً ، بخلاف كتاب « جمعية أم القرى » فقد أطلعنا عليه مراراً . . ثم إنه طبع الكتابين المذكورين ، وقام لهما في « المابين السلطاني » ضجة عظيمة ، وصدرت إدارة السلطان بمنع دخولهما إلى الممالك العثمانية ، بيد أنهما رغماً عن ذلك كله وصلا إلى حلب على صورة خفية وقرأناهما في سمرنا المرة بعد المرة » .

وفي مصر شعر أنه في وطن عربي حر ، فأخذ يرسل صيحاته المدوية التي انتظمها كتابه « طبائع الاستبداد . ومصارع الاستعباد » وهو كما قال : « كلمات حق وصيحة في واد ، إن ذهبت اليوم مع الريح ، فقد تذهب غداً بالأوتاد . . » .

ويصف لنا الصحفي العربي الكبير الأستاذ إبرهيم سليم النجار الفترة التي قضاها الكواكبي في مصر بقوله :

« اتصل المرحوم الكواكبي بالمرحوم الشيخ علي يوسف صاحب « المؤيد » على يد السيد رشيد رضا صاحب مجلة « المنار » ، فتمكنت بينهما روابط الصداقة والود . فكنا نجتمع كل يوم في حلقتنا المعروفة في القاهرة ، فكنت والسيد رشيد رضا والكواكبي ورفيق العظم والأستاذ كرد علي نؤلف حلقة مستقلة ، ولا نفترق ليلة إلا لنعود إلى الاجتماع في الغد . وحدث أن صدر « المؤيد » ذات يوم يحمل إلى قرائه كتاباً غريب الشكل واللهجة والأسلوب والموضوع ، لم يسبق للمقطم أو سواه من الصحف التي عرفت يومئذ بكتاباتها الحرة أن كتبت مثله ، فلفت الكتاب إليه الأنظار ، وشغل الخواطر ، وأخذت الدعوة الحرة تلبس شكلاً جديا ، وأخذ الكتّاب والقراء والناس يتساءلون عن صاحب هذا الأثر البديع في جريدة «المؤيد» ، التي سلكت مسلك الصحف الحرة على رغم اتصالها الشديد بالخديو عباس الثاني وبالإستانة ، ويقولون : ترى من يكون صاحب كتاب « طبائع الاستبداد » ؟ . . فاعتقد الجمهور — لأول وهلة — أنه من نتاج قلم وتفكير فقيد الشرق الشيخ محمد عبده ، لولا الجفاء الذي كان مستحكماً بين صاحب المؤيد وبينه — حتى قبل حادثة الموقوذة — ولولا بعد الشيخ محمد عبده ، رحمه الله ، عن كل من يتصل بالخديو قريباً وبعيداً ، فلم تمض أيام على انتشار ذلك الكتاب في « المؤيد » حتى عرف الكتاب الكواكبي ، فوضعوه دفعة واحدة في الدرجة الأولى بين رجال التفكير والقلم ، وأنزلوه منزلة الشيخ محمد عبده ، فعرفوا منزلته وأعلوا قدره » .

ولا يتسع المجال للإفاضة بالكلام عن كتاب« طبائع الاستبداد » فهو في متناول كل يد ، ولا تخلو منه مكتبة أديب ، وهو آيات سامية في بذر بذور الحرية في نفوس الناشئة وهدّ كيان المستبدين. وقد أعلمني نجله الكريم صديقي الدكتور أسعد الكواكبي أن والده — رحمه الله — قد أضاف على الكتاب بعد طبعه إضافات كثيرة ، والهوامش التي يحتفظ بها بقلم والده تؤلف كتاباً مستقلاً بحجم الكتاب المطبوع . وهو يعتزم طبع هذه النسخة الجديدة قريباً ، ليطلع العالم العربي على ثمرة أفكار والده في الحرية والاستعباد.

والمعروف عند قراء العربية أن الكواكبي لم يترك غير كتاب «طبائع الاستبداد» وسجل مجموعة « أم القرى » مع أنه كتب كتاباً كبيراً عنوانه « صحائف قريش » وهو من أثمن ما جادت به قريحته ... ولكن أين هذا الكتاب؟ لقد فقد ولا يعلم أولاده عنه شيئاً .. ومن يدري فقد تكون الأيدي الأثيمة التي سطت على أوراقه عقب وفاته هي التي أضاعت على العالم العربي هذا الكتاب الثمين .. وإذ نعرف أن السيد الكواكبي بعد مكثه في مصر ، قد قام برحلة كبيرة إلى بلاد العرب وشرقي إفريقية وبعض بلاد

الهند .. فمما لا شك فيه أنه دوّن الكثير من آرائه عن هذه الرحلة . وهذه الصحائف أيضاً قد عبثت بها أيدي المستبدين ، فخسرت العربية أثمن ما كتبه رحالتنا الكبير بعد أن هجر وطنه إلى بلاد الحرية ، وبعد أن طوف في مختلف أرجاء العالم الإسلامي

* * *

كان الكواكبي يهدف في جميع اتجاهاته إلى تقويض سلطان الظلم وبذر بذور الحرية وإصلاح العالم الإسلامي ، وكان يصرخ من الأعماق :

« الاستبداد داء أشد وطأة من الوباء ، أكثر هولا من الحريق . أعظم تخريباً من السيل ، أذل للنفوس من السؤال . داء إذا نزل بقوم سمعت أرواحهم هاتف السماء ينادي : القضاء القضاء . والأرض تناجي ربها بكشف البلاء . كيف لا تقشعر الجلود من الاستبداد ، وعهده عهد أشقى الناس فيه العقلاء والأغنياء . وأسعدهم بمحياه الجهلاء والفقراء ، بل أسعدهم أولئك الذين يتعجلهم الموت فيحسدهم الأصحاء . »

* * *

« لو كان الاستبداد رجلا وأراد أن يحتسب وينتسب لقال : أنا الشر ، وأبي الظلم . وأمي الإساءة ، وأخي الغدر ، وأختي المسكنة ، وعمي الضر . وخالي الذل ، وابني الفقر ، وبنتي البطالة ، ووطني الخراب ، وعشيرتي الجهالة . »

* * *

« يعيش الإنسان في ظل العدالة والحرية نشيطاً على العمل ، أما أسير الاستبداد فيعيش خاملا خامداً ضائع القصد ، حائراً لا يدري كيف يميت ساعاته وأوقاته ، ويدرج أيامه وأعوامه ، كأنه حريص على بلوغ أجله ليستتر تحت التراب . »

* * *

« من طبائع الاستبداد أن الأغنياء أعداؤه فكراً وأوتاده عملا ، فهم ربائط المستبد ، يذلهم فيئنون ، ويستدرهم فيحنون . ولهذا يرسخ الذل في الأمم التي يكثر أغنياؤها . أما الفقراء فيخافهم المستبد خوف النعجة من الذئاب ، ويتحبب إليهم ببعض الأعمال التي ظاهرها الرأفة ، يقصد بذلك أن يغضب أيضاً قلوبهم التي لا يملكون غيرها ، والفقراء كذلك يخافونه خوف دناءة ونذالة ، خوف البغاث من العقاب ، فهم لا يجسرون على الافتكار فضلا على الإنكار ، كأنهم يتوهمون أن داخل رؤوسهم جواسيس عليهم ، وقد يبلغ فساد الأخلاق في الفقراء أن يسرهم فعلا رضاء المستبد عنهم بأي وجه كان رضاؤه . »

* * *

« الاستبداد يقلب الحقائق في الأذهان ، حتى إنه قد مكن بعض القياصرة والملوك الأولين من التلاعب بالأديان ، تأييداً لاستبدادهم .

وقد وضع الناس الحكومات لأجل خدمتهم ، والاستبداد قلب الموضوع فجعل الرعية خادمة للرعاة ، وقد قبل الناس من الاستبداد ما ساقهم إليه من اعتقاد أن طالب الحق فاجر ، وتارك حقه مطيع ، والمشتكي المتظلم مفسد ، والنبيه المدقق ملحد ، والخامل المسكين هو الصالح الأمين ، وقد اتبع الاستبداد في تسمية النصح فضولا ، والغيرة عداوة ، والشهامة عتوا ، والحمية جنوناً ، والإنسانية حماقة ، والرحمة مرضاً ، كما جاروه على اعتبار أن النفاق سياسة ، والتحيل كياسة ، والدناءة لطف . والنذالة دماثة » .

* * *

« قد يبلغ فعل الاستبداد بالأمة أن يحول ميلها الطبيعي من طلب الترقي إلى طلب التسفل ، بحيث لو دفعت إلى الرفعة لأبت وتألمت ، كما يتألم الأجهر من النور ؛ وإذا ألزمت بالحرية تشقى ، وربما تضنى . . . يطيب له المقام على امتصاص دم الأمة فلا ينفك عنها حتى تموت ويموت هو بموتها » .

ويطول بنا المجال لو رحنا نقتطف هذه الكلمات الذهبية التي جاءت عرضاً في الفصول التي كتبها محللا طبيعة الاستبداد وطغيان المستبدين . هذه الفصول التي اختتمها بصيحات من الأعماق ، أهاب بالشرق أن يستيقظ وأن يثور ، ليؤدي رسالته السامية التي أداها أسلافه للحضارة ، فمن هذه الصيحات قوله :

« يا قوم : هداكم الله ، ما هذا الشقاء المديد ، والناس في نعيم مقيم وعز كريم ؟ أفلا تنظرون ! وما هذا التأخر ، وقد سبقتكم الأقوام ألوف مراحل أفلا تتبعون ؟.. وما هذا الانخفاض ، والناس في أوج الرفعة ، أفلا تغارون ؟

« يا قوم : وقاكم الله من الشر ، أنتم بعيدون عن مفاخر الإبداع ، وشرف القدوة ، مبتلون بداء التقليد والتبعية في كل فكر وعمل ، وبداء الحرص على كل عتيق ، فلماذا تقلدون أجدادكم في الخرافات والأمور السافلات ولا تقلدونهم في محامدهم ؟.. أين الدين ؟ أين التربية ؟ أين الإحساس ؟ أين الغيرة ؟ أين الجسارة ؟ أين الثبات ؟ أين الرابطة ؟ أين المناعة ؟ أين الشهامة ؟ أين النخوة ؟ أين الفضيلة ؟ أين المواساة ؟ هل تسمعون أم أنتم نائمون ؟

« يا قوم ، سامحكم الله ! لا تظلموا الأقدار ، وخافوا غيرة المنعم الجبار ، ألم يخلقكم

أحراراً لا يثقلكم غير النور والنسيم ، فأبيتم إلا أن تحملوا على عواتقكم ظلم الضعفاء وقهر الأقوياء ؟

« يا قوم ، جعلكم الله من المهتدين ، كان أجدادكم لا ينحنون إلا ركوعاً لله ، وأنتم تسجدون لتقبيل أرجل المنعمين ولو بلقيمة مغموسة بدم الإخوان ! وأجدادكم ينامون الآن في قبورهم مستوين أعزاء ، وأنتم أحياء معوجة رقابكم أذلاء ! البهائم تود لو تنتصب قامتها ، وأنتم من كثرة الخضوع كادت تصير أيديكم قوائم !.. النبات يطلب العلو ، وأنتم تطلبون الانخفاض ! لفظتكم الأرض لتكونوا على ظهرها ، وأنتم حريصون على أن تنغرسوا في جوفها ! فإن كانت هذه بغيتكم فاصبروا قليلا لتناموا طويلا » .

بهذه الصيحات كان ينبه الشرق ويثيره ، ويبذر في حقوله بذوره الصالحة لينشأ أفراده على بغض الاستبداد وتقديس الحرية والإيمان بالمثل العليا .

وقد ذهب البعض إلى أن كتاب « طبائع الاستبداد » منقول عن الإيطالية ، ومنهم من قال إنه معرب عن جان جاك روسو ، وذهب غيرهم إلى أن هذه الآراء هي آراء بطل الحرية مدحت باشا ، إلى آخر ما ذهب إليه المغرضون الذين لا تهدأ ثائرة ضغائنهم إلا إذا جردوا أصحاب المواهب من مزاياهم وفضائلهم ، وقد رد كثيرون على هذه التهم الباطلة ، ومما قاله المرحوم الشيخ رشيد رضا صاحب « المنار » بهذا الصدد :

« وقد زعم زاعمون أن معظم ما في هذا الكتاب مقتبس من كتاب لفيلسوف إيطالي . ومن كان له عقل يميز بين أحوال الإفرنج الاجتماعية وأحوالنا ، وذوقهم في العلم وذوقنا ، يعلم أن هذا الوضع وضع حكيم شرقي يقتبس علم الاجتماع والسياسة من حالة بلاده ، حتى كأنه يصورها تصويراً ، وإذا لاحظ مع ذلك أن هذا الكتاب كان مقالات مختصرة نشرت في المؤيد ، ثم مدها صاحبها مد الأديم العكاظي وزاد فيها ، فكانت كتاباً حافلا ، يتجلى له علمه الأول بصورة أوضح وأجلى ، وإذا علم بعد هذا كله أنه نقحه بعد الطبع فحذف منه قليلا وزاد فيه كثيراً ، يعلم علم اليقين أن ينبوع علم هذا الرجل صدره ، وأنه كان يزداد كل يوم فيضاً وتفجيراً . نعم ، إنه قال في مقدمته : إن بعضه مما درسه ، وبعضه مما اقتبسه ، وإننا نعلم أنه لم يولد إنسان عالماً ، ولكنّ فرقاً عظيما بين من يحكي كلام غيره كآلة « الفونوغراف » ، وبين من يحكم عقله في علوم الناس ، فيأخذ ما صح عنده ، وينبذ ما لا يصح »

ويقول زميله الأستاذ النجار بهذا الصدد :

« سبق لي أن قرأت في شبابي كتاب « الكونترا سوسيال » لجان جاك روسو

ثم انقطعت عن الرجوع إليه ، فلما قرأت كتاب « طبائع الاستبداد » أعاد إلى ذاكرتي كتاب الكاتب الإفرنسي العظيم . ولو كان الشيخ العربي يعرف ولو قليلاً اللغة الفرنسوية لاعتقدت بأنه أخذ عنه أو احتذى حذوه . ولكن الحقيقة هي أن العقول النيرة ، والقلوب الكبيرة نيرة وكبيرة ، مهما اختلفت لغاتها وبلادها وأقاليمها . ولو ملكت سلطة في هذا الشرق العربي لأوجبت تدريس هذا الكتاب في جميع المدارس ، لأنه ينشئ الشباب على حب الحرية ومقاومة الظلم والاستبداد أين كان مصدرها وعمن صدرا ، دون تعصب ذميم ، ولطبعت ألوف النسخ منه ووزعتها على الناس في هذه البلاد الضعيفة الخانعة المستكنة ، ففي بعض الكتب شعاع من أرواح الأنبياء ، وقبس روحاني من أقباس السماء » .

***

والواقع أن الكواكبي كان صاحب رسالة حرة ، فمذ نشأته إلى أن طواه القدر ظل هذا المفكر الحر الذي يرسل صيحاته المدوية في الحرية والاستبداد ، دون أن يهلع فؤاده أو يضطرب جنانه ، ودعوته كدعوة المصلحين الأحرار ، لم تذهب صيحة في واد. لا ... فقد كان لها أثرها المدوي. واستيقظ الشرق ، وهو يذكر اليوم لهداته المصلحين يدهم في هذا التحرر والبعث ... والكواكبي من هؤلاء الهداة الذين عملوا في سبيل نزع الغشاوة عن عقل الشرق ، ليهب ويستيقظ ، ويستعيد مجده السالف ، ثم ليبدع ويعمل في بناء دعائم الحضارة من جديد .

ومن المؤسف أن الكواكبي لم يعمر طويلاً ، فقد مات في نضوج كهولته ، أي في الخمسين من عمره . ولو مد الله في حياته لترك للجيل العربي الكثير من المؤلفات في شتى قضايا المجتمع ، ولكنه توفي في ظروف غامضة ، اختلف الناس في تأويلها ، ومنهم أصدقاؤه وذووه الذين لا يزالون يعتقدون أن يداً مجرمة هي التي دست إلى طعامه السم ، وأن هذه اليد قد امتدت من قصر يلدز ، أو ممن يمت بصلة إليه من مواطنيه ، ويريدون أن يقولوا إن للسيد أبي الهدى الصيادي يداً في هذه النهاية . ويروي الشيخ صالح عيسى ، أحد أصدقاء الفقيد ، وكان مقيماً في مصر نبأ ليلة الوفاة بقوله : « .. وفي اليوم الخامس من شهر ربيع الأول سنة ١٣٢٠ هـ ورد على السيد عبد الرحمن من قبل حضرة الخديو — وكان مصطافاً في الإسكندرية — بطاقة يدعوه فيها لحضور ضيافة يقيمها هذا اليوم في إحدى سراياته في الإسكندرية . فأجاب السيد الدعوة ، وركب قطار السرعة وسار إلى الإسكندرية ، وقابل الحضرة الخديوية وحضر ضيافته وعاد إلى مصر من يومه ، وفي الليل سهرنا معه في مقهى استانبول مع جماعة من أدباء مصر

وأفاضلها يزيد عددهم على العشرة ، وكنت جالساً جانب السيد عبد الرحمن ؛ ولما صارت الساعة الرابعة عربية من تلك الليلة هممت بالقيام ، لأن النوم غلبني ، فاستدعاني إليه وكنت جالساً في قربه ، وقال لي : أحس بوجع شديد في خاصرتي اليسرى ، وهو إذا دام معي ساعة أخرى فلا شك أنه يكون قاتلي . فقلت له : لا بأس عليك إن شاء الله . ثم انصرفت إلى منزلي ، ورقدت في فراشي ، وما كاد شفق الفجر يلهب فحمة الليل إلا والباب يطرق علي ، فنهضت من فراشي مسرعاً وقلت : من بالباب ؟ فأجابني الطارق بقوله : « أنا كاظم » إن أخاك والدي قد مات . فدهشت من هذا الخبر المفاجىء ، وشعرت كأن الأرض قد دارت تحت قدمي ، وما كادت تبرز الشمس من مطلعها حتى انتشر الخبر ، وأقبل الأطباء من قبل حضرة الخديو يفحصون جثة المتوفي ، فظهر لهم أنها في رقودها الأبدي ! . ثم شيعت جنازته على نفقة الخديو ، ومشى في موكبها طائفة كبيرة من العلماء والأدباء وذوي القدر ، واحتفل له السيد علي يوسف صاحب جريدة « المؤيد » بثلاث ليال ، أحضر فيها القراء ، وعرى الناس بموته دهشة عظيمة وحزن شديد وأسف ما عليه من مزيد » .

وهكذا انتهت هذه الحياة التي حفلت بجلائل الأعمال ، وانطوت بموته صفحة من أجمل الصفحات في تاريخ يقظة الشرق .

وأقف عند هذا الحد . ولا بأس من أن أختتم مقالي هذا بكلمة لشيخ الصحافة العربية صديقه الأستاذ إبرهيم سليم النجار ، قال مد الله في عمره :

« لقد حدث لي في حياتي الصحفية الطويلة في مصر وسوريا والإستانة والغرب أن حدثت كثيرين من أهل الرأي والعلم والسياسة في شؤون جمة ، فأقول ، وأشهد الله على ما أقوله : إنني لم أعرف كثيرين من الذين حدثتهم كانوا في مثل اطلاع الفقيد على شؤون الشرق وسعة علمه ، وجلاء رأيه ، وقوة حجته ، وصلابة يقينه ؛ ولقد كان يصرح لي بآراء أعترف اليوم على رؤوس الأشهاد بأنني لا أجرؤ على الجهر بها » .

رحم الله الكواكبي ، لقد كان فذا من الأفذاذ .

سامي الكيالي

عتاب

لابن الطَّثْرِيَّة ☆

عُقَيْلِيَّـةٌ أمَّا مَلاثُ إزارِها ... فَدِعْصٌ وأما خَصْرُها فبتيلُ

تَقَيَّظُ أكنافَ الحِمَى ويُظِلُّها ... بِنَعْمَانَ منْ وادِي الأَرَاكِ مَقيلُ

أليْسَ قليلاً نظرةٌ إن نظرْتُها ... إليكِ وكلاَّ ليْسَ منكِ قليلُ

فَيا خُلَّةَ النَّفْسِ التي لَيْسَ دُونَها ... لنَا من أخِـلاَّءِ الصَّفاءِ خَليلُ

وَيا مَنْ كَتَمْنا حُبَّهُ لم يُطَعْ بِهِ ... عَدوٌّ ولم يُؤْمَنْ عَلَيْهِ دَخيـلُ

أمَا مِنْ مقامٍ أشتكي غُرْبَةَ النَّوى ... وَخَوْفَ العِدَا فِيهِ إليكِ سَبيلُ

فَدَيْتُكِ أعْدائي كثيرٌ وَشُقَّتي ... بَعيدٌ وأشْياعِي لَدَيْكِ قَليلُ

وَكُنتُ إذا مَا جِئْتُ جِئْتُ بِعِـلَّةٍ ... فَأَفْنَيْتُ عِلاَّتي فَـكَيْفَ أَقولُ

فمَا كلَّ يَوْمٍ لي بِأَرْضِكِ حَاجةٌ ... ولا كلَّ يَوْمٍ لِي إلَيْكِ رَسُولُ

صَحائِفُ عِنْدِي لِلعِتَابِ طَوَيْتُها ... سَتُنْشَرُ يَوْماً ، وَالعِتابُ طَوِيلُ

فلاَ تَحْمِلي ذَنْبي وأنتِ ضَعيفةٌ ... فَحَمْلُ دَمِي يَوْمَ الحِسَابِ ثَقِيلُ

☆ هو يزيد بن الصمة أحد بني سلمة الخير بن قشير ، والطثرية أمه ، وهو شاعر إسلامي ، وكان جميل الوجه حسن الشعر حلو الشمائل ، وكان يقول من أفحم عند النساء فلينشد من شعري ، وكان كثيراً ما يتحدث إلى النساء، وقد قتله بنو حنيفة يوم الفلج ، وكان لبني عامر على بني حنيفة . ولأخته زينب شعر جيد ترثيه به .

توقيع

للأستاذ خليل مطران بك

رغبت إلى الشاعر آنسة أديبة في كتابة كلمة تصدر بها دفتراً جمعت فيه سوانح من أهل العلم والبيان . واتفق أن مرض الشاعر مرضاً ثقيلا أملى في بعض صحواته منه الأبيات التالية :

قبل أن أبرح الحياة سأوفي لك وعدي ، وإنّ وعدي وفاء

مهلةً يا قضاء أستودع اللـه الأحبّاء ، مهـلة يا قضاء

أتريدين في كتابك شيئاً من كلامي ؟ لبّيكِ يا حسناء

ولك الفضل أن يصيب به اسمي ما أصابت من فخره أسماء

فاقبلي هـذه القوافي أهديـها وفيها تحيّـةٌ وثناء

ليس بدْعاً وأنتِ من أنت إن أثـنى عليكِ الكتّابُ والشعراء

أدبٌ رائعٌ ونظمٌ ونثرٌ كلٌّ لفظٍ يشعُّ منه ضياء

ولسانٌ طَلْقٌ ولحظٌ يرى الغيْـبَ وجفنٌ يغضّ منه الحياء

ما معانيهم العذارى لدى أد نى معانيكِ أيُّها العذراء ؟!

كيف لايستبيهمُ ذلك الوجهُ الـبديع الحلى وذاك الذكاء ؟!

خليل مطران

المرأة أوحية فلتير

المرحوم إبرهيم الدباغ

عرضت بالأفعى ، وغفرانها ، في غارةٍ لا بُدَّ من شنّها
أخفي اسمها كي أتّقي سمّها وسمّها إن شئتَ أو كَنّها
أختلس الراحةَ من لتّها وأشتهي اللذّة من محنها
وأبتغي الحظوة في وجهها والويل في النظرة من عينها
كم للمساحيق على صدغها مسخٌ يضلّ الأرضَ عن وزنها
الراحُ والشّهدُ أحاديثها والبوم والورقاء في كنّها
أحدوثةُ الدهر وأدواره فاطرب بها إن شئت أو غنّها
وهي من التاريخ أغلوطةٌ فاهدم بها أركانه وابنها
وشرها الماثل في بنتها والخير لا يطلب عند ابنها
أما صفاء العيش في قربها فليس من فنّي ولا فنّها

الجندي المجهول

يهتف هتافته لدى الأفق الدولي المكفهر

للأستاذ رئيف خوري ببيروت

هل ضجَّ جوعك أم عطشت إلى دمي؟ يا أَرض ، ها أَنذا لديك فأولمي!
تلك الوليمة بكرُ كلّ عجيبةٍ قامت على الدنيا قيامَ المأتمِ
طرح الشباب إليك من ثمراته ما شئت ، فابتهجي بخصب الموسمِ
عهدي بجوفك لا يضيق بمطعمٍ وأخاف غبَّ هنيهةٍ أن تتخمي!

* * *

يا أرض عفوك إن أهانك شاعرٌ ظلماً، فشأنك لم يزل أن تظلمي

هل أنت إلا أمُّنا؟ سلمت يدٌ لك ليس تُذكر عندها يد منعمِ

هي في السهول وفي النجود أصابعٌ فضَّت عن الأرزاقِ كلَّ مختَّمِ

وكفى ربيعك نجمة، لضيائها ضاءت سويداء الفؤادِ المظلمِ

نلقاك والصفحات عابسة، فلا تلقيننا بسوى الفم المتبسمِ

فإذا تخطفنا الردى عانقتنا جيفاً معانقة الأرقّ الأرحمِ

ورددتنا ثمراً يطيب وزنبقاً يزهو ونغمة طائر مترنّمِ!

* * *

تالله، إنَّك ما فغرت لنا فماً لكنَّها الأطماع فاغرة الفمِ

زعموا جهنَّم في مكان آخرٍ، وعليك هم ضربوا قباب جهنَّمِ!

بأكفهم صنعوا المصائب، وادَّعوا أن المصائب فَعلة القدر العمِي

قدرٌ بريء أتهموه بلؤمهم وجنونهم — يا للبريء المتهمِ!

طغيان جنكيزٍ، وغمس ذراعه بدمٍ، وأصداء الزمان الأقتمِ

دمغت جبين العصر أعمق دمغةٍ يختال منها في توقحِ مجرمِ

ويح الشعوب! فكم تبيت رقابها للسيف تعرض أو لنير محكمِ

همجيّة رجف الظلام لوقعها واغرورقت منها عيون الأنجمِ!

* * *

الموقدون لظى الصراع تكلموا وبرئت من كذبٍ، فلم أتكلّمِ

وأنا الفتى الجنديُ تحمل راحتي روحي، وأوغل في المدى المتجهّمِ

بخنادقٍ ملأ الحمام جهاتهـــا وارتادها من واقعٍ ومحوّمِ
ولربّما زار الكرى فدفعته ، كيف القرار على الفراش المضرمِ
ولربمـا عرض القنوط فعافه قلب يعيش على الرجاء المبهمِ !

⁂

فإذا انقضى أجل الصراع ولم يدم إلاّ غبار من فتائت أعظمي
وتركت دنيا حرّة تُبنى على أنقاض عصري الدّاعر المتهكّمِ
فأنا السعيدُ وقد خلعت على الورى بدمي ، مواهبَ هنّ أغلى من دمي!
حلم يُلمُّ بخـــاطري وكأنّه لمح الحقيقة من خيال ملهمِ
حلم صفا لكنْ كأنّ صفاءَه يغشاه شيء من غرابٍ أسحمِ !

رئيف خوري

في بدء الخليقة

أسطورة قديمة

للأستاذ عبد الرحمن صدقي

حول عرش الله في أوج العلاء ضجّت الأرواح طرًّا بالدعاء
مثلما استقبل طيرٌ بالغناء موكبَ الشمس بهاءً في بهاء
وهي من آخرِ أجواز الفضاء أقبلت تنشر آيات الضياء
وإلـه الكون أرضاً وسماء أين من أنواره ضوء ذكاء

⁂

وقضى الرحمنُ أن يبلو البَشَرْ فحباهم هـذه الدنيا مَقَرّْ
« قسّموها بينكم بحراً وبَرّْ قسمةَ العدل تُوَقَّوْا كلَّ شرّ »

فانبرى يحتجن المالَ نفر[1] وانتحى للصيد في الغاب زُمَر
واستغلَّ الحقلَ أفواجٌ أُخَر ونهى بعضٌ عليهم وأمر

⁂

وأتى الشاعرُ في الدنيا ولمْ يَبْقَ في الدنيا حُطامٌ يُغتنمْ
فدعا اللهَ بصوتٍ كالنغم قد بَرَى التبريحُ منه والألم
فتجلى في تفاريج الرَّكَم[2] مثلُ وَهْج الفجر من خاف الأكم
يَخضِب الغيمَ بألوان الضَّرَم ويزيغ اللحظَ بالنور الأعمّْ

⁂

وإذا لحنٌ نديُّ الموقعِ واقعٌ في القلب لا في المسْمَعِ
قال : « يا عبدي ، حجاك الألمعي خيرُ ما أخرج كفُّ المبدع
إنما ألهاك بُعْدُ المنزع والأماني خمرُ كأسٍ مُترَع
قد تزوّدتَ بقِسْطٍ أرفع من حظوظ الأرض لو كنتَ تعي »

⁂

قال : « يا ربي ! لقد كنتُ لديْكْ شاخصَ الألحاظ ما اسطعتُ إليْكْ
فنسيتُ النفس ما بين يديْك فأنلني منزلاً في خافقَيْك ! »
قال : « لا أُغْلي سماواتي عليْك هي مغناك ومجْلَى ناظرَيْك
فانْطَلقْ فيها على قادِمَتَيْك[3] مُصعداً أُمْدِدْ بوَحْيي أَصْغرَيك »

عبد الرحمن صدقي

---

(١) احتجن المال : ضمه إلى نفسه واحتواه (٢) الركم : السحاب المتراكم
(٣) القادمة : جمعها القوادم ، كبار الريش في مقدّم الجناح

حفلة راقصة ودموع

للأستاذ علي شرف الدين

وزهراءَ من بِيضِ اللّيالي شهِدتُها ... هي الصُّبحُ لا يَسمو لإشْراقِهِ وصْفي
أقمْنا ولما مرَّ في الليلِ صدرُه ... دعا بعضُنا بعضاً إلى اللّهوِ والقَصفِ
وقادَ عميدُ النَّاي لحنَ رِفاقِهِ ... ونقّر حُذّاقُ البَنانِ على الدّفِّ
وهاجَ حنينُ الصَّنجِ كلَّ متيّمٍ ... وصفّقَ رُهبانُ الضلوعِ على العزْفِ
وراحتْ عيونٌ في عيونٍ مشيرةً ... وقد تُحسِن التّلويحَ إيماءةُ الطَّرفِ
وهمَّتْ بأعناقِ الظِّباءِ أوانسٌ ... وحنَّ أليفٌ ، واطمأنَّ إلى إلفِ
فهذي تشُقّ الجمعَ تجري لصاحبٍ ... وتلك تُلبّيهِ بمُنعطَفِ الصّفِّ
حماماتُ روضٍ يستبِقْن بحيرةً ... ونوْراتُ صبحٍ تشتهي ساعةَ القطفِ
جَلاهُنّ في عرشِ الجمالِ ومُلْكه ... ربيعُ الشّبابِ الغضِّ في مُجتلى الظَّرفِ
نواهِلُ من دُنيا الفتُونِ وسحرِها ... يُناغين في لين ، ويلعَبْن في لُطفِ
نهضْنَ وفي أفواهِهنَّ بقيّةٌ ... من الخمرِ ريّا النَّفحِ ، طيِّبةَ العَرفِ
وخاصرَ كلٌّ جارةً قاهريّةً ... وأسْلمها يُمناهُ كفًّا إلى كفِّ
وطوّق باليُسرى ، فمرتْ سعيدةً ... على ضامرٍ وهْنانَ يشكو من الضّعفِ
ترى كلَّ زهراءِ الجبينِ كأنّما ... سنا الصُّبحِ ، يبدو خلفَ أجفانها الوُطْفِ
لوى عودَها خمرُ الشبابِ وسكرُها ... فراحتْ بنصفٍ واستقامتْ على نصفِ
تُريكَ من الخطوِ المثقَّفِ صنعةً ... على مَهلٍ في نقلةِ الساقِ أو خطفِ
تروحُ بها مرَّ النسيمِ رفيقةً ... وتذهبُ في وثبٍ . وترجعُ في زَحْفِ

مُروَّضةُ السّاقين مسروقةُ الخطا أقولُ لنفسي حين تخطرُ : وَالهفي

كأنَّ لظىً بالأرض إن مسّ جمرُه لها قدمًا ردّته في لمحة الطَّرفِ

تروحُ وتغدو رِئمَ قاعٍ مُنفَّرٍ وفي دورانٍ يبهرُ العينَ أولفٍّ

وتقبلُ إقبالَ الأماني بطيئةً فيحسَبُها المعمودُ تمشي إلى خلفِ

لها صاحبٌ وسْنانُ يسرقُ ثغرُه من الثغر حسوًا لا يبلُّ ولا يُطفي

يُسرُّ لها قولاً ، وتهمسُ ردّه ألا ليتَ شعري ما يسرُّ وما تُخفي

حديثٌ كعقدِ الزّهر حبّاتُ نظمِه فنونٌ من الحب المضرَّم والعطْفِ

* * *

وما شغَلتْني غير حوراءَ ناهدٍ تقول إذا أبصرتها : جارةُ الخشْفِ

بَرا جسمَها ربُّ الفنونِ قصيدةً مُنزَّهةَ التّنغيمِ معصومةَ الرّصفِ

يفوق كعوبَ الرُّمحِ طولاً قوامُها وتلك التي إن مِتُّ كان بها حَتْفي

وفي نطقِها (غَيْنٌ) هي (الرّاءُ) حُرِّفتْ وأحْبِبْ بغين الراء في الثغر من حرفِ

يصُبُّ لها النّوبيُّ شبْهَ خدودِها وتشربُ عبًّا من مُعتّقةٍ صِرْفِ

مضتْ حيث كان اللهوُ تمشي ترنحاً وفي جفْنها شبهُ النُّعاسِ من الضّعفِ

كمطاولِ غُصنٍ داعبتْه يدُ الصَّبا تجيءُ على عِطفٍ ، وتغدو على عِطفِ

وراحتْ تريكَ الرقصَ جذلانَ هائمًا وفي نشوةِ المخمورِ يطربُ في عُنفِ

وجُنّتْ على الأنغامِ حين أذاعَها حماسيّةَ اللحنِ المُقيمُ على العزْفِ

كَعابٌ لعوبُ الرّوح ثقّف خصرَها رفاقُ الليّالي البيضِ في موطنِ القصْفِ

رفاقٌ أبتْ حملَ الهموم صُدورُهم وكانوا مع اللهوِ الجميلِ على حِلْفِ

فمِنْ راقصٍ لبّى دعابةَ ماجنٍ فأغرقَهُ فرط المجونِ إلى الأنفِ

ومن راقصٍ للفنِّ والفنّ وحدَه — وقد يشهدُ اللذاتِ كلُّ فتىً عفٍّ

* * *

وقال صديقي : قد دَعا اللهوُ فاستجِبْ — فقلت : فعندي من شجونيَ ما يكفي

فقال : وهذا الصّدرُ ما فيه خافقٌ — وهل هُو من صخرٍ، وهل هوفي غُلْفِ ؟

ومالكَ مطويًّا على نفسِ زاهدٍ — وزُهدكَ عنداللهوِضربٌ من السُّخفِ ؟

فقلت: فقد يُلهي الأسى بعضُ نظرةٍ — ويُغني سرابٌ يتبعُ الوعدَ بالخُلفِ

أُسايرُ فيه النفسَ وهي حزينةٌ — لعلّ شهودَ اللّهوِ من حزنها يَشْفي

أنا التّائه السّاهي طويتُ شراعَها — فلا غرضاً أبغِي ، ولا شاطئاً أُلفي

وماتتْ ضُلوعِي، فهْي خرساءُ مِلْؤها — يتامَى خريفٍ ودّعتْ جنّةَ الصّيف

وراحتْ على ثغري ابتسامةُ زاهدٍ — مُنزَّهةُ الإشراقِ عن صنعةِ الزّيْفِ

نسيتك يا دنْيا وأصبحت غافلاً — فما أدّعي شوقاً إليكِ ، ولا أنْفِي

وخير حياةٍ فيك عيشةُ راهبٍ — وأخرى لِأصْحاب الحوافرِ والظِّلْفِ

* * *

وعنّفَني صحْبي لها حين أقبلَتْ — ترَقْرقُ في جفْني ، وتَحطِمُ من طَيفي

وكنتُ إذا هاجتْ دفعتُ شجونَها — كما تُدْفعُ الحصْباءُ عن سُنْبكِ الطِّرْفِ

وإن خانَني صبْري ففاضتْ بدمعِها — فإنّ الذي تُبديه بعضَ الذي تُخفِي

وكم خنَقَتْني في نهاريَ عَبْرةٌ — وتمسحُها سرًّا إذا انحدرتْ — كَفِّي

فإمَّا طَواني اللّيلُ أطلقْتُ سجنَها — وأزهرَ ورْسُ الخدِّ بالمدمعِ الوَكْفِ

ولو قد تَرى ما بالجوانحِ من أسًى — لآثرتَني بعد الملامةِ بالعطفِ

على شرف الدين

الشعاع الخابي

للسيدة وداد سكاكيني

ولع سموحي بك بتدخين « الغليون » فكان يلتمسه في الصباح قبل القهوة . يتلمس مكانه منذ تنشق جفونه ويصحو من نومه ، ولا يتركه ليلاً حتى يصرفه عنه النعاس مكرهاً متململاً ، فإذا وضع هذا «البيب» بين شدقيه أمسك به بنابيه عن يسار ، وجعل ينفخ فيه منبسط النفس لدخانه وطعمه ، وقد دبت النشوة في رأسه ، فيسعى إلى مكتبه راضي المزاج رخيّ البال ، مأخوذاً بتلك النشوة التي كانت تنسيه أوان غدائه ، فلا تشتهي نفسه شيئاً حتى يعضه الجوع .

لقد تولع سموحي بك بهذه السلوى المترفة ولوع الطفل بلاهيته التي يمتصها وهو في المهد ، فتلهيه عن ثدي أمه أو تخادعه عن لبنها الصراح . وكان سموحي بك لا يحتمل فراق «الغليون» ، فإن حمله الأمر على انتزاعه من بين شفتيه لحظات ضاق بنفسه واختلجت شفتاه بابتسامة فاترة مازجها قلق وإشفاق ، ثم دارت عيناه فيمن حوله متجهماً لهيفاً ، فلا يروق مزاجه ولا تنطفىء حدته إلا بارتداده إلى «البيب» يحشوه بلذة ودقة ، ويتذوق طعم دخانه في ريث وزهو ، ويبقى هذا « البيب » بين نابيه متدلياً كخرطوم صغير معكوس ، لا يعوقه عن الكلام ، بل يلوي لسانه وهو في فيه بكلمات يقذف بها في تأنف وعنجهية .

كان يزداد تدخينه كلما زادت همومه ، وكانت السياسة مصدر هذه الهموم ، فما يقبل المساء حتى ينقلب إلى نادي حزبه ، وهناك كان يحاور صحبه ، ويتسقط أنباء الأحزاب المناوئة ، ويعيد النظر في صحف الصباح ، دون أن يقنط من عودة حزبه للحكم والسيادة .

ولحزب سموحي بك فصول أربعة على غرار فصول السنة . وما ربيعه إلا أيام الانتخاب لمجلس الشيوخ أو لمجلس النواب ، فإذا جاء ربيع الطبيعة يختال ضاحكا وطافت فيه

الفراشات ، أقبل موسم السياسة فانتشرت بشائره وتكاثرت حوادثه واتصل نهاره بليله ، وطوف سموحي بك في عزبته ودائرته فأقام الحفلات ووزع الصدقات ، وألم بزعماء الحي وأعيانه يعدهم ويمنيهم ويأخذ عليهم العهد والميثاق .

فإذا ولى موسم السياسة ، ولم يفز سموحي بك في الانتخاب وشالت كفة حزبه ، حل موسم الخريف فانفرط عقد الحزب كما تنفرط أوراق الخريف وتتساقط ، ولا يلبث أن ينتظم من جديد ويتماسك . وكان سموحي بك لا يسأم هذه الحياة الدائبة الصاخبة التي لا يفتر لوابها في الدعاية والتشهير ، فكان وهو خاسر ضمان التأمين يمر بسيارته في شوارع الحي ودروبه ، تدور عيناه في الحيطان وعلى عمد الكهربا ، حيث كانت بارزة أسماء الفائزين في الانتخاب ، وقد أعلنوها من قبل وأذاعوها في جمل مثقلة بالنعوت والوعود ، مقرونة بالألقاب الضخام ، وكان يتتبعها بنظره حتى ينصب على اسمه ولقبه إلى جنب أسمائهم ، أو في مكان أكثر وجاهة وقدراً ، فيتعزى في ضميره ويجمجم . وكانت عيناه تتسعان كلما وقعتا على اسمه ، وتعروه خيلاء زائفة كالتي تعتري القواد المنهزمين وهم عائدون من ساحة القتال .

ويمضي سموحي بك بسيارته الفخمة ، وفي نفسه كثير من هموم السياسة ، غير أن « الغليون » كان يعزيه ويداويه ، وإن لم يشفه مما هو فيه ؛ إذ كان له دواء آخر يدفع عن نفسه كل هم وألم . وكيف لا تداويه عينان أخاذتان نفاذتان ، كانتا تنفثان السحر في قلبه ؟ عينان واسعتان ناعستان من هذه العيون المصرية العريقة في سحرها وفتونها ، حملت مثلهما نفرتيتي وغانيات الفراعنة .

لقد ترقرقت الفتنة في تينك العينين النجلاوين كما ترقرق ماء النيل ، ورفت عليهما أهداب وطف كثاف ارتسمت ظلالها على الخدين مثل هذا النخيل الظليل الذي يرف على النيل فيرسم ظلاله في مطاوي الشطوط .

والنيل عيون مذابة ، محاجرها الندايا بين الضفاف ، ولعل هذا هو السر الدفين الذي كان ينطوي في نفس دولت هانم ، ويطل أحياناً من وراء نظراتها الفاترة الحائرة ، إذ كانت تنظر إلى النيل مأخوذة بغيرة مكبوتة تفسرها هي بالملال والكلال ، ويفسرها زوجها بالزهو والدلال ، وكأن النيل كان لها عدوا أو منافساً ، فماؤه يغرق ، وموجه يصرع ، وعيناها الساحرتان تغرقان وتصرعان . . .

وتململت دولت هانم واجتوت منزلها في ذهبية « عوامة » على ضفاف النيل ، وكانت إذا ضاقت بهذا المنزل الذي يحيط به الماء ، فلا هو فلك يجري ولا بيت يستقر ،

تضاحك لها سموحي بك وأخذها بالدعابة واللين. وقد علمها قيادة السيارة وسوقها لتلهو فيها وترفه عن نفسها .

ولم يكن الكيد الكمين والمكر الدفين هما اللذان زهدا دولت هانم في عوامتها الذهبية ، لكي تقيم في منزل على الأرض يكون أقرب للجار وأحسن للدار ، وإنما كانت تبتغي حولا إلى الإسكندرية في هذه السيارة الحمراء ، لتطاق هنالك عينيها السابيتين في الشواطئ الرحاب وفي الخضم البعيد الذي تغرق فيه كل العيون .

وكانت دولت هانم تعرف سلطان هذين الجوهرين على زوجها دون أن تشاهد حفلات فقراء الهند في تأثير العيون ، ومن غير أن تقرأ الكتب في سر التنويم ونفاذ الألحاظ .

كانت ساحرة ماكرة ، وكان سموحي بك عندها بمنزلة الوسيط « المديوم » ينام عقله تحت أشعة عينيها ويبقى قلبه صاحياً خفاقاً بهواها .

فإذا خرج مساء إلى نادي حزبه ، و « غليونه » بين نابيه ، انطلقت هي بالسيارة ، فمن حفلة راقصة قاصفة ، إلى جولة بشارع الأهرام ، أو دورة على ضفاف النيل مستمتعة بنسيم الليل وهوى الشباب ، ولم يكن سموحي بك يرافقها إلى هذه الملاهي الليلية إلا إذا ولى موسم السياسة ، فإذا حلّ ربيعها شغله الانتخاب عن كل ملهى واستغرقت السياسة وقته ، فتلهى عن دولت هانم بنادي الحزب وصحيفة الحزب ، وانصرفت هي إلى السيارة التي ملكت عليها نفسها ، تسوقها في هذه الأحياء المترفة مزهوة متطاولة مارقة من الميادين الحاشدة مروق السهم لا تبالي زحاماً ولا نظاماً .

وإذا عاد سموحي بك إلى منزله للغداء سبقته دولت هانم في عودتها من زوراتها وجولاتها ، فجددت زينتها وأحكمت فتنتها ، ووقفت في مستشرف العوامة تنتظره بلهفة ودلال ، حتى إذا طلع عليها من ناحية الضفاف سددت نحو مأتاه شعاع عينيها .

وكانت السيارة الحمراء منية المتمني من طول ما راوحت الطريق وغادته . وقد انقسم الناس في هواها ثلاثة : فريق يحب السيارة الحمراء ، وفريق يحب السائقة اللعوب المفتان ، وغير هؤلاء وأولئك يحبونهما معاً ، وحوادث السيارة في كشوف المرور كثيرة ، ونفقات إصلاحها في المرأب لا تنقطع .

ترى أ كانت الأقدار بالمرصاد ؟ فإن دولت هانم تجولت في سيارتها ذات يوم وخطرت بها ودارت في الأسواق والدروب كدأبها ، لا تعبأ بزحمة ولا تطيق ريثاً ولا أناة ، فداست سيارتها رجل فقير كان يتخطى الشارع إلى رصفته القريبة ، فهوى

من ألم فوق كوم من الخشب والأعواد وقد دخل طرف دقيق من تلك الخشُب في عينه فآذاها ، وصاح بصوت يفيض بالألم والشكوى ، فما وقفت دولت هانم سيارتها ولا أبهت للحادث ، بل مرقت كالسهم وتمتمت باللعنة على هؤلاء الذين يعكرون مزاجها في الطريق .

ولما درى بالخبر سموحي بك عرف كيف يخلص زوجته من هذه التهمة ، وقد عزّى نفسه وعزاها عما اجترحت ، فقال لها وهو ينفض كفيه تعباً من ذلك الخلاص :

— في مصر مكفوفون لا يحصيهم عدّ ، وفيها تعوير ورمد ، فليكن هذا الفقير من هؤلاء . . .

— لو أبصرته كيف وقف في طريقي لما أبقيت عليه . . .

— فدى عينيك هو وكل شيء سواه . . .

ونفخ سموحي بك في «غليونه» نفخات ملأ بها صدره وأخرجها من خياشيمه، ثم مجها وأطلق مع دخانها هواجس كانت تضطرب في ضميره فاستراح منها .

وكان القدر الراصد يسمع ذلك الحوار بين الزوجين ، فهمهم وغمغم ثم انسل في طريقه لا يلوي على شيء ، فلما بلغ ضفاف النيل ألم بالعوامة الذهبية وتسلل إلى السيارة يرصد لدولت هانم في غدوها ورواحها .

ولم يمهلها القدر طويلا ، فقد صدمت السيارة الحمراء سيارة نقل مثقله بقضبان من الحديد ، وكان أحد القضبان ناشزاً ممتدا ، اخترق زجاج السيارة الحمراء ، فبهتت الصدمة دولت هانم وحل الخوف يديها عن مقود السيارة وفلت زمامها فانزلقت هاوية قاحمة قضبان الحديد ، وكان القضيب الناشز كعصا القدر ، عارفاً طريقه إلى عين دولت هانم ، فأكبت على مقعدها دامية الوجه مغشيا عليها من الهول والفجيعة .

وكان سموحي بك بنادي الحزب في تلك الأمسية ، يقرأ الصحف نشوان بدخان « غليونه » سادراً في أمانيه ، فلما فاجأه النبأ سقط « البيب » من بين فكيه ، وداسه وهو يمضي شارد اللب زائغ البصر .

وطاف بعد أسابيع على باعة النظارات والعيون المستعارة طوافاً كان أروع وأشجى من تجواله في شوارع الحي بعد خسارة الانتخاب ، فلم يجد عيناً من الزجاج تشبه العين السلمة في وجه دولت هانم ، ودار طويلا وبحث حيران حتى اهتدى إلى بائع يعرفه ويعرف العيناء الفاتنة فقال له :

— لا تضيع وقتك يابك . . . فمصانع الزجاج لا تستطيع أن تبدع عيناً كعين « الهانم » .

وسقطت كلمة الهانم في سمعه ، ونفذت إلى شغاف قلبه فتاه في بحران من الهم والأحزان ، ورضي بعد لأي بعين تشابه عينها ، وكانت تنهشه الحسرة ، ولما ركبها الطبيب في محجرها ، انسدلت تلك الأهداب الطوال على عين مستعارة ، كما تنسدل أغصان شجرة جافة على ضفاف نبع غائر .

وتبدلت حياة سموحي بك فصار يجد البيت جحيماً ، وخبا ذلك الشعاع الذي كان يرسل إليه سحره الحلال ، يمس شعوره ويغلبه على قلبه ، فصار إذا انفلت من البيت إلى مكتبه أو انقلب إلى نادي حزبه حط فيه وقر آلامه وانغمر في هموم السياسة لينسى فيها همه المقيم .

وأبقى على صديقه القديم ، الذي كان يسليه ويلهيه ، فيطيل فيه التدخين ويصد الذكرى الأليمة كلما ألمت به من حبيبه ، الذي كان يسكن وراء الجفون ؟

وداد سكاكيني

في كفة الميزان

اتجاه التأليف في سنة ١٩٤٦ *

حرصت هذه المجلة من يوم إنشائها على خدمة الكتاب العربي بنقد الكتب الحديثة تارة وتعريفها تارة أخرى ، و بمتابعة التيارات الفكرية التي توجّه التأليف في الأقطار العربية من عام إلى عام .

وكان من آثار هذا الحرص أن ظهر في جزء يناير سنة ١٩٤٦ من هذه المجلة مقال بعنوان : « اتجاه التأليف في عام ١٩٤٥ » بذلنا له من الجهد ما يستطيع به القارئ أن يتابع حركة التأليف العربي في اطمئنان . ولعل ذلك المقال قد نال من تقدير القراء ما نبلغ به مبلغ الرضى من نفوسهم .

واليوم ـ في هذا الجزء الذي نستقبل به عاماً جديداً ـ يدور الزمان دورة جديدة ، فنرى من الواجب أن نمضي في خدمة الكتاب العربي إلى الغاية التي نهدف لها دائماً ، فنحاول في هذا المقال أن نعرض على القراء صورة صادقة للتأليف العربي واتجاهاته في بعض البلاد العربية خلال عام ١٩٤٦ .

ولا نحب في هذه التقدمة الوجيزة أن نتعجل الحكم على الإنتاج التأليفي قبل أن يمضي القارئ في المقال إلى نهايته ، فله وحده أن يحكم على هذا الإنتاج من حيث ضخامة عدده وجودة مادته واتجاه موضوعاته ؛ ولكننا مع هذا لا نجد بأساً من الإشارة إلى أن أزمة الورق التي كانت قد استحكمت حلقاتها في خلال الحرب الطحون قد أذن الله لها أن تجد الفرج ، وهي فُرجة لم تبلغ كل ما نرجوه لها من انطلاق ، ولكنها على كل حال فرجة تبشر بالقطر حين يبدأ بنهمر . . . فقد زاد الإنتاج في مصر زيادة واضحة ، وضوعف في لبنان وفلسطين كما يتضح من البيان الخاص بكل قطر على حدة .

---

* اجتزأنا في هذا الجزء بهذا المقال عن لهسر النقد والتعريف وصدى النقد .

مصر

تنوع الإنتاج بمصر لعام ١٩٤٦ المنصرم ، حتى لم يكد يخلو لون من ألوان العلم والأدب والفن من كتب كثيرة ، وهي كثرة نرجو أن تصادف من القراء ما تعتدل به كفة الميزان بين المؤلفين والقارئين .

وليس عجيباً أن تختلف اتجاهات التأليف من عام إلى عام تبعاً لعوامل مختلفة تكيف التيارات الفكرية وتوجهها وتصبغها بصبغ يختلف باختلاف الزمان والأحوال . فقد يطغى لون من التأليف في عام على ضريبه في عام آخر ؛ وقد تشيل كفة في الإنتاج كانت بالأمس راجحة . وقد يكون لأذواق القراء وميولهم وإقبالهم على هذا اللون وإدبارهم عن ذاك أثر في هذا الاختلاف .

القصص والمسرحيات

كان الإنتاج القصصي في عام ١٩٤٥ وافراً ، وظل في عام ١٩٤٦ على حال من الوفرة تكشف عن ميل الناس إلى هذا اللون من التأليف وتهافتهم عليه .

ولقد رأى الناس في القصة — القصيرة أو الطويلة — وسيلة شائقة جذابة لتصوير الحياة وعرض مشكلاتها واقتراح الحلول لها عن طريق لا يشق على القارئ ولا يثقله . وظفرت القصة في العام المنصرم برقم لم يدنُ منه لون آخر من ألوان التأليف ، فقد زادت على الأربعين كتاباً .

وكان «للجنة النشر للجامعيين» فضل التفرد بجهد خاص في هذا السبيل ، ولكن « دار الكاتب المصري » شاركتها في إخراج مجموعة من القصص المؤلفة والمترجمة .

ويظهر أن خطا القصاص المصريين تنفسح نحو التأليف ، فقد بلغ عدد القصص الموضوعة نصف الإنتاج القصصي للعام كله . وهو عدد لا يبلغ بنا الظن أن نحمله على الرغبة في كثرة الإنتاج ، ولكنه يحملنا على أن نحسن الظن بمحاولات الشباب في سبيل التجويد لهذا الفن الطريف . . .

ولم يبلغ بعض القصص الموضوعة الغاية التي كنا نرجوها بعد أن تهيأت للكتاب أسباب البحث عن قواعد القصة وأصول كتابتها فيما يكتبه الغربيون . ويلوح أن بعض شباننا القصصيين اختلطت عليهم الطريق واضطرب الأمر فخلطوا بين الرمزية والواقعية ، وأسرف بعضهم في الأسلوب وبالغ في اللفظ حتى ظن القصة كلاماً منمقاً وأسلوباً جزلاً

ولفظاً مستغرباً ، ونسي ماوراء ذلك من الفكرة والعقدة والحبكة والصدق والتشويق، كما أسرف بعضهم في الجناية على الأسلوب واللغة . حتى لقد بلغ الأمر بأحدهم أن يرتضخ العامية لغة لقصصه . ولم يكتف بذلك بل كتب لكتابه مقدمة حمل فيها حملة قاسية على أصحاب الأساليب البليغة .

وقد ظهر من القصص والمسرحيات الموضوعة « القاهرة الجديدة » لنجيب محفوظ و « ليلة النهر » لعلي أحمد باكثير ، و « نهاية الطريق » للسيد الدالي ، و « سبعة ملائكة وشيطان » لحسن رشاد السيد ، و « من حولنا » لمحمد سعيد العريان ، و « نفوس مضطربة » لأحمد زكي مخلوف ، و « أرواح تتآلف » لجميلة العلايلي ، و «طفل من القرية » لسيد قطب ، و « مائدة السمر » ، و « صريع المجد » لكامل محمد عجلان ، و « أقاصيص الغروب » للآنسة أماني فريد وميشيل تكلا ، و « تاجوج » لعثمان محمد هاشم وهي قصة سودانية ، و « أنوار » لمحمد عفيفي المحامي ، و « الشيطان لعبته المرأة » لأحمد الصاوي محمد ، و « عودة الفردوس أو استقلال أندونسيا » لعلي أحمد باكثير ، وهي من القصص السياسي . ويدخل في هذا الباب « أبو زيد الهلالي » لمحمد فهمي عبد اللطيف ، و« عنترة بن شداد » لمحمد فريد أبي حديد بك ، و«المدينة المسحورة» لسيد قطب ، وهذه القصص الثلاث الأخيرة مما نشرته دار المعارف في سلسلة « اقرأ »، و « بجماليون » لزكريا الحجاوي ، و« همزات الشياطين »لعبد الحميد جودة السحار .

وقد ظهر لمحمود بك تيمور ثلاث مسرحيات : « كليوباترة في خان الخليلي » وفيها كثير من التهكم الهادئ والابتسامة الساخرة للسلام العالمي الجديد ، و « شفاه غليظة » ، و « حواء الخالدة » وقد نحا فيها المؤلف نحواً جديداً جريئاً في تصوير عنترة وعبلة .

أما القصص والمسرحيات المترجمة فقد اتجهت اتجاهين : أحدهما إلى الأدب الأوربي القديم أو ما يضرب إليه من أدب عصر النهضة ، والثاني إلى الأدب الأوربي الحديث والمعاصر ، حتى لقد ترجم نزيه الحكيم « الباب الضيق » لأندريه جيد ، وظفرت الدار الناشرة بإذن المؤلف الفرنسي وفرحه بأن يترجم أحد آثاره إلى اللغة العربية . ولقد شك المؤلف أول الأمر في قدرة العالم العربي المسلم على أن يتلقى هذا اللون من القصص الذي يثير البلبلة في النفس العربية المطمئنة .. ولكن طه حسين بك كان لبقاً في الرد على أندريه جيد ، فقد أكد له أن الإسلام لا يغري بالدعة والخمول وإنما يحث على التروية والتفكير ، وأن الإسلام في أول أمره قبل ثقافة اليهود والنصارى

ووسع ثقافة الفرس واليونان والهند ، فإذا كان استطاع أن ينهض بهذا العبء من قديم فإنه قادر على تقبل الأدب الأوربي الحديث بقبول حسن ...

على أن الدكتور طه حسين بك لم يكتف بهذا الرد النظري ، فترجم لأندريه جيد نفسه « أوديب وثيسيوس » وهو يتصل بأبطال الأساطير اليونانية .

وظهر من القصص: « قيصر وكليوباترة » لجورج برنارد شو ، وترجمة الآنسة نرجس نصيف ، و « صورة دوريان جراي » لأسكار ويلد وترجمة لويس عوض ، و « شبح كانترفيل » للمؤلف والمترجم نفسيهما ، و « وازن الأرواح » لأندريه موروا وترجمة عبد الحليم محمود ، و « جنة على نهر العاصي » لموريس باريس وترجمة محمد عبد الحميد عنبر ، وعبد المجيد عابدين ، و « المقامر » لفيدور دستويفسكي وترجمة شكري محمد عياد ، و « الحب الأول » لإيفان ترجنيف وترجمة محمود عبد المنعم مراد ، و « رسائل النساء الأخيرة » لمارسيل بريفو وترجمة فرج جبران ، و « كانديد » لفولتير وترجمة لطفي فام ، و « أرض البشر » لأنطوان دي سانت أكسوبري وترجمة مصطفى كامل فودة ، و « روميو وجولييت » للشاعر العالمي وليم شكسبير وترجمة علي أحمد باكثير ، و « عربة التفاح » لشكسبير وترجمة محمد عوض إبرهيم بك ، و « إيفيجينا وإجمنت » للشاعر جوته وترجمة محمود إبرهيم الدسوقي ويمتاز بترجمته عن اللغة الألمانية أصلا ، و « مسرحيات يوريبيدز » وقد ترجمها محمود محمود عن الإنجليزية ، و « الأوذيسة » للشاعر الخالد هوميروس وقد ترجمها دريني خشبة في أسلوبه القوي الرصين ، و « قصة الإلياذة » لهوميروس وترجمة السيدة عنبرة سلام الخالدي من سيدات فلسطين . ويدخل في باب القصص كتاب « حكايات من الصين » التي ترجمها عن الإنجليزية عبده حسن الزيات ، و « حكايات من الهند ج ٢ » التي ترجمها الكاتب نفسه عن الإنجليزية ، و « حكايات فارسية » وقد ترجمها يحي الخشاب عن اللغة الفارسية .

الأدب والنقد

أما الأدب والنقد وما يتصل بهما من تاريخ الأدب والدراسات الأدبية فقد ظهر فيها في مصر بضعة من الكتب وهي « الغربال » لمخائيل نعيمة في طبعته الثانية ، و « كرم على درب » له أيضاً وهو طائفة من خطرات حكيمة كشفها المؤلف عن تجربة وساقها عن خبرة ، وتواضع المؤلف فافترض في كرمته الحصرم والعنب ، ولكنها في

الحق من أطايب الثمار ؛ و « الصور » للمرحوم محمد السباعي في طبعته الثانية ، و « رعاة الحب » للشاعر الهندي تاجور وترجمة لطفي شلش ، و « رسائل البلغاء » لمحمد كرد علي وقد أعيد طبعها و « أشهر الرسائل العالمية » لمحمد بدران وقد ترجمها عن الإنجليزية . والكتابان الأخيران يعرضان لوناً من ألوان الكتابة وهو فن الرسائل ؛ فالأول يجمع أبلغ رسائل العرب والثاني يجمع أبلغ الرسائل العالمية .

كما ظهر مما يتصل بالبحث الأدبي كتاب « يسألونك » لعباس محمود العقاد ، وفيه إلى جانب الدراسات الأدبية معالجة لمشكلات العلم والاجتماع ، و « الآداب السامية » لمحمد عطية الأبراشي ، و « حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر » لجاك تاجر وهو أول بحث مستقل مطبوع في هذا الموضوع ، و « كتب وشخصيات » لسيد قطب وهو دقيق في منهجه ، و « تاريخ النقائض في الشعر العربي » لأحمد الشايب وهو بحث فيه كثير من الجهد ، و « أبحاث ومقالات » له أيضاً وهو دراسات في الأدب والنقد ، و « الفن ومذاهبه في النثر العربي » لشوقي ضيف وهو كتاب تتبين فيه فضيلة الصبر على البحث العلمي المنظم .

التراجم

ويسوقنا الحديث عن الأدب والنقد إلى حديث التراجم ، ولقد كاد إنتاجها في العام المنصرم يقارب الإنتاج القصصي عدداً ، فبلغت بضعة وثلاثين كتاباً تختلف على التراجم الشرقية والأوربية ، وجمعت القدماء والمحدثين ، ومنها كتاب في الترجمة الذاتية أو الشخصية ، أي ترجمة المرء حياته بنفسه ، وهو كتاب «العصامي عبد العزيز رضوان» فقد ترجم هذا الثري حياته بقلمه ليضرب للشبان أحسن الأمثال على قدرة الرجل أن يصنع حياته بيديه ؛ فقد ذكر في صراحة كيف بدأ حياته صبيا في متجر بأجر قدره ثمانون قرشاً في الشهر . . . ولم يجد غضاضة في أن يذكر أيام فقره الأول التي أوصلته — بجِده وجَده — إلى ثرائه الأخير حتى صار عبد العزيز باشا رضوان !

ومن التراجم المعاصرة كتاب « جورج برنارد شو » لميشيل تكلا ، و « لمحة من سيرة الملك عبد العزيز بن سعود » لمحيي الدين رضا ، و « روح وريحان » لأحمد أنس الحجاجي ، وهو ترجمة لحياة الأستاذ حسن البنا المرشد العام للاخوان المسلمين .

أما التراجم الشرقية فهي : « الرسول » لبودلي وترجمة عبد الحميد جودة السحار ومحمد محمد فرج ، وهو كتاب منصف في سيرة النبي العربي ، وهو الكتاب الوحيد

هذا العام في حياة نبي المسلمين ، وقد كان نصيبه في عام ١٩٤٥ ثلاثة من الكتب . ومن التراجم الشرقية كتاب « الإمام علي بن أبي طالب » لعبد الفتاح عبد المقصود ، وهو قوي في أسلوبه سديد في منهجه ، و « أبناء أبي بكر الصديق » لعبد الحميد جودة السحار ، و « أبو عبيدة » لطه عبد الباقي سرور ، و « الدهاة الثلاثة : ابن العاص وزياد بن أبيه والمغيرة بن شعبة » لأبي النصر اليافي ، و « قصة عبقري — الخليل بن أحمد » ليوسف العش ، و «الشيخ الرئيس ابن سينا» لعباس محمود العقاد ، وهو فهم دقيق واضح للفلسفة الإسلامية مع مقارنتها بفلسفة اليونان ، وقد نشر هذان الكتابان الأخيران في سلسلة « اقرأ » ، و « أسامة بن منقذ » لمحمد أحمد حسين وهو كتاب يجلو شخصية هذا الأديب الإسلامي الفارس جلاء واضحاً ، و « إبرهيم بن سيار النظام » لمحمد عبد الهادي أبي ريدة وهو أول دراسة علمية وأوفاها لهذا العالم المتكلم العجيب ، و « ست الملك الفاطمية » للسيدة سنية قراعة ، و « ترجمة الإمام أحمد بن حنبل » مستخرجة من كتاب تاريخ الإسلام للحافظ الذهبي ، وقد حققها — نعني الترجمة — الشيخ أحمد محمد شاكر ، و « رجالات الحجاز » لإبرهيم هاشم الفلالي الحجازي ، وهو يترجم فيه لرجال الأمة الإسلامية الذين أنبتتهم أرض الجزيرة العربية ، و « ذو الرمة الشاعر » ، و « أبو عبادة البحتري » للدكتور محمد صبري وهما الجزءان الثالث والرابع من سلسلة « الشوامخ » التي يصدرها المؤلف ، والكتابان وما قبلهما دليل على تذوق المؤلف للشعر العربي الجميل ، و « تراجم إسلامية » لمحمد عبد الله عنان ، و « السيد أحمد الفيض آبادي » من بناة العلم في الحجاز الحديث لعبد القدوس الأنصاري ، و « ذكرى الامير عمر طوسون » وقد أصدرته الجمعية الزراعية الملكية التي كان الفقيد رئيساً لها ، و « عبد الله فكري » الأديب الشاعر لمحمد عبد الغني حسن ، وهو أول ترجمة مفصلة لحياته ودراسة لشعره ونثره وعصره ، وقد صدرت فيه رسالة أخرى لسيد عناني ، و « محمد عبده » لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبدالرازق .

أما التراجم الأوربية التي صدرت في خلال العام المنصرم فهي: « كليمنصو وحياته العاصفة » تأليف ليون دوديه وترجمة حسن محمود ، و « ألفريد دي موسيه » لصلاح الدين الشريف ، و « جان جاك روسو المصلح الاجتماعي » لمحمد عطية الأبراشي ، و « ديكارت » لعثمان أمين وقد أعيد طبعه ، و « نابليون ومحمد علي » لعزيز بك خانكي المحامي ، و « نابليون » لإميل لدويج وقد ظهرت منه ترجمتان : الأولى عن الألمانية لمحمود إبرهيم الدسوقي ، والثانية عن الفرنسية لمحمد عادل زعيتر ، وكتاب

« سبينوزا » لهنري سرديا وترجمة سليم سعدة ، و « هايني » لأحمد الصاوي محمد ، و « ملتون » بقلم اللورد ماكولي وترجمة محمد بدران ، و «أدباء الإنجليز المعاصرون» لفؤاد أندراوس، وهو عرض روعي فيه البسط أكثر من النقد ، و «لورنس — بطل الجزيرة» بقلم بريدج وتشرشل وقد ترجمه محمد بدران وأحمد حلمي، و«وحي العزلة» للسيدة أمينة السعيد ، وهو ترجمة للشقيقات شارلوت وآن وإميلي برونتي اللائي اشتهرن في الأدب الإنجليزي في القرن التاسع عشر .

التاريخ

ومما يتصل بالتراجم كتب التاريخ السياسي والاجتماعي والثقافي لأمة من الأمم ؛ فليست الترجمة إلا تاريخ فرد ، والتاريخ هو التأريخ لشعب أو جماعة كبيرة من الأفراد . وقد ظهر في هذا الباب بضعة عشر كتابا اختلفت على الموائد الحافلة بالأحداث للشرق والغرب . فذهب بعض المؤرخين بعيداً إلى عصور بعيدة في القدم فأرخوا لها ؛ وذهب بعضهم إلى العصور الوسطى فأرخ ناحية اجتماعية معينة فيها ؛ وذهب بعضهم إلى أوربة يقص علينا أفانين مما ازدحمت به عليها الحوادث . وذهب بعضهم إلى التاريخ العربي يجد فيه مادة لبعث جديد ، وذهب بعضهم إلى مصر فجعل كتابته وقفاً على تاريخها الحديث .

وإنك لواجد في كتب التاريخ لعام ١٩٤٦ « تاريخ مصر في عهد البطالمة » للدكتور إبرهيم نصحي في جزءين كبيرين ، و « موجز تواريخ الحروب والقرون » لحنا أبي راشد . وقد ظهر منه جزآن جامعان ، و « في موكب الشمس » للدكتور أحمد بدوي وهو بعث للتاريخ المصري القديم على غرار طريف ، و «التاريخ الإنجليزي» تأليف راوس وترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة ، و «تاريخ أوربا في العصر الحديث» تأليف فيشر وترجمة أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع، و «الإقطاع والعصور الوسطى» تأليف كوبلاند وترجمة محمد مصطفى زيادة ، و « الدراسات العربية والإسلامية » ، و « التعليم العربي والجامعي » لعبد الله حسين ، والكتاب الثاني يبحث في تاريخ التعليم ونشأته وتطوره في البلاد الإسلامية ، و « النزعات الاستقلالية في الخلافة العباسية » لعبد الفتاح السرنجاوي ، و « صور من التاريخ العربي » لنقولا زيادة ، و « أثر الشرق في الغرب » وقد ترجمه الدكتور فؤاد حسنين ، و « الأسرار السياسية لأبطال الثورة المصرية » لصالح علي عيسى السوداني ، و « ثورة سنة ١٩١٩ أو تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلى ١٩٢١ » لعبد الرحمن الرافعي بك ويمتاز الكتاب بالإنصاف والتحقيق

وصحة الحكم والنزاهة في القصد مما يجعله أثمن مرجع عن تلك الحركة الوطنية الرائعة التي طبعت مصر المتيقظة بطابع جديد ، و « طرائف تاريخية » لعزيز بك خانكي المحامي .

وقد يكون كتاب « أثر العرب في الحضارة الأوربية » ألصق بالتاريخ منه بفن آخر من فنون التأليف ، والحق أن العقاد لم يكن في كتابه هذا مؤرخاً يجمع الأثر إلى مشاكله فحسب ، بل كان محللاً دقيقاً كعادته ، وكان فوق ذلك دائناً عربياً جم الرصيد . . . كما أن كتاب « بين البحر والصحراء » الذي صدر في سلسلة « إقرأ » لشفيق جبري هو محاولة موفقة لإثبات التفاعل المستمر بين ثقافة العرب التي انتجتها الصحراء ، وثقافة الأوربيين التي قذفتها أمواج الماء . . .

الاجتماع

لما كتب الدكتور قسطنطين زريق كتابه الخالد « الوعي القومي » من سنوات قليلة فرحنا وفرح الشرق العربي كله لأن صيحة قوية من قلب عربي قوي بدأت تنبه العرب من جديد ، لتجعلهم أيقاظاً بعد طول الرقود . والحق أن الأمة العربية محتاجة إلى كثير من الكتب التي توقظ وعيها وتحيي حسها ، وتبصرها بحياة الأمم والشعوب ومقومات الحضارة ودعامات المجتمع الخليق بأن يسمى مجتمعاً والذي شرفته الإنسانية بانتسابه إليها . . .

وما علينا بأس أن نبحث عن مقومات الحياة والحضارة في تاريخنا العربي القديم ، أو في تاريخ الأمم التي أخذت من الحضارة بأوفى نصيب . فلا يهمنا المصدر الذي نستمد منه ما دام فيه صفاء النبع وجلادة الطبع . . . ولكن يهمنا الهدف الذي نرمي إليه من مسايرة الركب الحضاري في غير تعثر في السير . ويجدر بنا أن نشير في هذا الباب إلى أربعة من الكتب أولها « فك الأغلال » لإسمعيل مظهر رئيس تحرير مجلة المقتطف ، وهو أول صيحة ارتفعت في مطلع العام الفائت للتحرر من أغلال الثقافة البالية التي يراها الكاتب علة العلل في التعطل والتبطل في ميدان الإنتاج المصري ، وهو ينادي بضرورة العودة إلى الثقافة التقليدية وهي ثقافة الزراعة التي ورثناها عن أجدادنا . وما أحرى سياسة الكاتب أن تسمى سياسة العودة إلى الحقل والرجوع إلى الريف الذي يراه المؤلف قوام الحياة الاجتماعية في مصر .

أما الثاني فهو كتاب « هذه هي الأغلال » لعبد الله علي القصيمي ، ولقد عد العقاد هذا الكتاب جرعة قوية مما يحتاج إليه المسلمون في هذا الزمان . ولقد ذكرتنا

قوة المؤلف وإيمانه بالبعث العربي الجديد بقوة عبد المنعم خلاف في كتابه « أومن بالإنسان » حتى لقد زعم سيد قطب أن بين الكتابين مشابه وأن اللاحق منهما آخذ من سابقه . . . .

أما الكتاب الثالث فهو « السلام الاجتماعي » لعبد المجيد نافع المحامي وهو بحث قوي في قلقنا الاجتماعي في مصر لولا ما فيه من مغالاة في التصوير والتشاؤم .

أما الكتاب الرابع فهو « الرسالة الخالدة » لعبد الرحمن عزام باشا . ولك أن تسميه بحثاً في الإسلام أو الحضارة أو الاجتماع ، ولكنه فوق ذلك نفحة من نفحات السلم الصافي حين يدعو أهل الأديان إلى إشاعة الحب والتعاون والسلام .

أما بقية الكتب في الاجتماع والحضارة وما يتصل بهما فهي : « طريق الحرية » لعلي رفاعة الأنصاري ، و « الحرية » لجون ستيورات مل وترجمة طه السباعي باشا ، و « ميلاد الحضارة » لعبد الله حسين ، و « قصة الحضارة » تأليف جود وترجمة محمد بدران ، و « ديموقراطية جديدة » لأحمد جمال الدين ، و « العدالة الاجتماعية القومية والدولية » لصالح ميخائيل ، و « مائة يوم فوق الأنقاض » لمحمد علي العريان ، و « الحق والقوة » لأرمان لهناف وترجمة سليم سعدة ، و « الدعاية قديماً وحديثاً » لسليم تاوضروس الأسيوطي ، و « حرية الفكر » لبيوري وترجمة محمد عبد العزيز إسحق ، و « كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس » لديل كارنيجي وترجمة عبد المنعم محمد الزيادي ، و « ما الإنسان » لمارك توين وترجمة أنور عمر ، و « إيماني » لأحمد حسين ، و « هل أنت حي » وهو مختار مجلة « المختار » من سنة ١٩٤٣ — سنة ١٩٤٦ ، و « تأملات » لأحمد لطفي السيد باشا وهو مختارات مما كتبه في « الجريدة » منذ أكثر من ثلاثين عاماً ، و « العلم وعلاقته بالمجتمع » تأليف كروثر وترجمة الدكتور إبرهيم حلمي عبد الرحمن وأمين تكلا ، و « العلم والحياة » لعلي مصطفى مشرفة باشا عميد كلية العلوم بجامعة فؤاد الأول ، و « دفاع عن العلم » تأليف ألبر بابيه أستاذ الاجتماع والأخلاق بالسربون وترجمة الدكتور عثمان أمين . وهو أول كتاب يصدر عن سلسلة « نفائس الفلسفة الغربية » ، و « كيف نسوس حياتنا بعد الخمسين » لسلامة موسى ، و « هموم الشباب » و « الموت والعبقرية » لعبد الرحمن بدوي ، و « الظرفاء والشحاذون في بغداد وباريس » لصلاح الدين المنجد .

ولقد كانت المرأة موضوعاً للكتابة في بضعة من الكتب ، كما كانت قضيتها حبية وأمًّا وزوجة وناخبة أو نائبة مثار الكلام في الكتب الآتية : « الزواج والمرأة »

لأحمد حسين ، و « عاطفة الحب » للدكتور الطبيب محمد فتحي ، و « ثورة في البرج العاجي » للسيدة منيرة ثابت ، و « المرأة » للسيدة بهيجة بيومي سلمان ، و « حسن الانتخاب في الزواج » وهي رسالة لإلياس الغضبان .

الجغرافية والبلدان والرحلات

ظهر في العام المنصرم بضعة عشر كتاباً منها ثلاثة في الآثار وهي : « تاريخ المساجد الأثرية » لحسن عبد الوهاب وهو وصف تاريخي فني للمساجد التي أدى فيها الصلاة جلالة الملك فاروق ، و « الأزهر بين الماضي والحاضر » للشيخ منصور علي رجب ، و « الأزهر » لعثمان توفيق وعبد الحميد يونس . والكتابان وصف للأزهر من ناحية العلم والعلماء فيه لا من ناحية العمارة والبناء .

أما البلاد فظهرت فيها الكتب الآتية : « سيوة تحت نير الاحتلال الإيطالي » لعبد اللطيف واكد ، و « جنة الصحراء — سيوة » للقائمقام رفعت الجوهري بك ، و « ليبيا في العهد العثماني ١٨٣٥ — ١٩١١ » للميجر أنتوني جوزيف وترجمة يوسف حسن العسلي ، و « الهند » تأليف پالمر وترجمة مصطفى كامل منيب ، و « القاهرة جزء ٣ » للمهندس فؤاد فرج ، و « مهد العرب » للدكتور عبد الوهاب عزام ، وقد نشر في سلسلة « إقرأ » ، و « المدخل الشرقي لمصر » للدكتور عباس مصطفى عمار ، وهو بحث في شبه جزيرة سينا وأهميتها في المواصلات وفي كونها مجازاً للموجات البشرية ، و « فينيقية » للسيدة بنت بطوطة وقد كتبته بالفرنسية وترجمه إلى العربية من لم يشأ التصريح باسمه ، و « من صميم لبنان » لأسد الأشقر ، و « أندونسيا الثائرة » وقد أصدره المركز العام لجمعية استقلال أندونسيا ، و « صفحات من تاريخ الكويت » ليوسف بن عيسى القناعي ، و « في السودان » للدكتور إبرهيم عبده .

أما الرحلات فظهر فيها « كنت في السودان » لمحمد صبيح ، و « رحلة الربيع » لفؤاد شاكر ، وهي وصف أدبي بدوي لرحلة من الحجاز إلى نجد قلب المملكة العربية السعودية ، و « رحلاتي في مشارق الأرض ومغاربها » للرحالة محمد ثابت ، و « مشاهدات في الهند » لأمينة السعيد ، وقد نشر في سلسلة « إقرأ » ، وهو وصف رحلتها إلى الهند مشتركة في المؤتمر النسوي ، و « هيرودوت في مصر » وهو ترجمة من اليونانية لرحلة هذا المؤرخ القديم لوهيب كامل .

ولعل مما يتصل بهذا الباب من حيث الأجناس البشرية رسالة نفيسة للدكتور عباس مصطفى عمار بعنوان « شعوب الأقطار العربية الأسيوية » .

الاقتصاد

أما الناحية الاقتصادية من الإنتاج التأليفي لعام ١٩٤٦ فهي تبشر بإقبال الباحثين على معالجة موضوعات تهم الأعصاب الحيوية في البلاد . فقد ظهرت في هذا الباب عشرة كتب دسمة لعلها تكون الوصايا العشر لوضع دستور اقتصادي منظم في مصر ؛ وهي : كتاب « بحوث في الشئون المالية والاقتصادية » لمحمود صالح الفلكي بك ، وهو معالجة فطنة لمسائل المال في مصر على ضوء التجارب العالمية ، و « الاقتصاد السياسي » تأليف ليونتيف وترجمة راشد البراوي ، و « الاقتصاد السياسي » في طبعته الجديدة للدكتور علي عبد الواحد وافي ، و « مآل الرأسمالية » تأليف لويس مارليو وترجمة علي الحمامصي ، و « المالية العامة والضرائب » لمصطفى القوني ، و « الماركسية والنقد » لأوجست كورنو وترجمة محمود الشنيطي ، و«النظام الاشتراكي» لراشد البراوي وأحمد نظمي عبدالحميد ، و«حرب البترول في الشرق الأوسط » لراشد البراوي ، و «الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية » تأليف لينين وترجمة راشد البراوي و « مراقبة ميزانية الحكومة وحساباتها » لأحمد كامل عفيفي .

القانون

ظهرت في القانون كتب مما يرجع إليه طلاب الحقوق في معاهدهم ، ولذلك لم نجعلها من سبيل بحثنا الذي يتصل بالكتاب الحر الذي لايتقيد ببرامج المدارس والمعاهد ، وحبذا لو بسّطت الثقافة القانونية إلى حد يجعل القارئ غير القانوني مواطناً فاهما لروح القوانين ، ومدركا للمبادئ العامة التي لا تزحم الرأس بتفاصيل واعتراضات لا يحتاج إليها إلا المحامون ورجال القانون .

وأظن أن كتاب « مدونة جوستنيان في الفقه الروماني » — وهو الذي ترجمه معالي عبد العزيز باشا فهمي — هو خير مثال للمبادئ حين تكتب . اقرأه على أنك قانوني تر فيه مادة القانون ، واقرأه على أنك أديب تجد فيه أدب المشترعين حين يؤلفون ، وأدب العلماء حين يترجمون .

وقد ظهر كتاب « القانون الدبلوماسي » لمحمد حسني عمر بك ، و « النظرية العامة للفسخ في الفقة الإسلامي والقانون المدني» للدكتور حسن علي الذنون ، و «اشهر القضايا المصرية » لمحمود كامل المحامى .

د. حسن علي الذنون

السياسة والحرب

للعالم اليوم في كل ركن من أركانه قضية سياسية ، فلا عجب أن تظهر بعض كتب عربية تعالج بعض المشكلات ، ولكن العجب أن الإنتاج السياسي في المؤلفات العربية كان ضئيلا في العام المنصرم . ولعل فهم الناس للقضايا السياسية لا يبلغ من الخطر مبلغ اهتمامهم بقصة يتسلون بها . . ! ولعله يجيء اليوم الذي يدرك فيه القارئ العربي أن التندر بالأخبار السياسية الملفقة شيء وأن الفهم الحقيقي لحقائق السياسة شيء آخر .

أما الكتب التي ظهرت فهي « موسكو . برلين . لندن » لعصام الدين ناصف و « قضايا الأقطار الإسلامية » لأنور الجندي البنا ، و « الحكومة المحلية في السودان » لمحمد أحمد محجوب ، و « المسألة اليهودية » لعبد الله حسين ، و « صفحات مطوية » لأحمد لطفي السيد باشا ، و « عالم الغد » لويلز وترجمة عبدالحميد يونس وحافظ جلال ، والفرق بين فيلسوفنا وفيلسوف الإنجليز أن أستاذنا يكشف الحجب عن ماض من الصفحات ، وأن ويلز يرسم الخطط لمستقبل آت . . .

أما الحرب فقد ظهر فيها كتابان أولهما « شكل الحرب » للبكباشي عبد الرحمن زكي ومحمود عيسى ، والثاني « مصر الظافرة » للمؤلف الأول وهو وصف تاريخي للوقائع الحربية التي انتصرت مصر فيها على مختلف العصور .

العلوم والطب والزراعة

لا يزال الإنتاج العلمي ضئيلا بالنسبة إلى النواحي الأخرى من الإنتاج العام . فإن بضعة من الكتب ظهرت في العام المنصرم ، وكان ظهورها على شكل مبسط حتى يسيغ الناس فهمها ، والتبسيط مرحلة ضرورية على شرط أن يكون على يد العلماء المختصين لا على يد الخابطين من المترجمين ، وإلا كان في ذلك قتل للقيمة العلمية الصحيحة بطغيان القشور على اللباب .

ولقد كان نصيب الذرة والقنبلة الذرية ثلاثة كتب في العام الماضي هي : « رسالة في الذرة والقنبلة الذرية » لفؤاد قنديل ، و « قصة الذرة » لفوزي الشتوي ، وقد عدل فيه عن بعض الألفاظ المصطلح عليها في التعريب ، و « سيرة الذرة والقنبلة الذرية » لمحمود حامد . أما بقية كتب العلوم فهي « العلم يميط اللثام » لحسن عبدالسلام ، و « فلسفة التفاحة

أو جاذبية نيوتن » لنقولا الحداد ، و « شخصية الحيوان » لمنرو فوكس وترجمة أحمد مدحت عبد الهادي ، و « غرائز الحيوانات » لمحمد محمد فياض وهو من سلسلة « اقرأ »

أما الطب والصحة الوقائية وما يتصل بهما فقد ظهر فيها الكتب الآتية :

« على هامش الطب » لمعالي سليمان عزمي باشا ، و « مبادئ علم الأجنة » للدكتور يوسف حسن الأعسر ، و « قصة العدوى » للدكتور محمد عبد الحميد جوهر ، و « الفيتامينات » لمصطفى عبد العزيز ومحمد رشاد الطوبي وقد نشرا في سلسلة « إقرأ » و « مذكرات طبيب في الأرياف » للدكتور فخر الدين السبكي ، و « نحن الأطباء » للدكتور فخر الدين الظواهري ، وهو نقد صريح جرىء لصناعة الطب والأطباء في مصر .

أما الزراعة فقد ظهر فيها كتابان : « المخصبات الزراعية في مصر » للدكتور أحمد رياض بك ، و « الزراعة الاشتراكية السوفيتية والاقتصاد الزراعي الروسي في عصوره المختلفة » للدكتور حسن إسمعيل . هذا غير الكتب الدراسية للمعاهد الزاراعية .

الفلسفة وعلم النفس

أما الإنتاج الفلسفي في مصر فلا يزال معتمداً على التأليف طوراً ، وعلى الترجمة طوراً آخر ، ولا يزال المترجمون في الفلسفة على وعورة من الأسلوب تجعل الألفة بينهم وبين القراء شيئاً بعيداً . ويظهر أن ذلك بعينه كان الشأن في تراجمة العصر العباسي ، فأوائلهم لم يبلغوا من الفهم وحسن التعبير مبلغ الذين جاءوا بعدهم .

ومن الكتب التي ترجمت في العام الماضي : « مذهب الذرة عند المسلمين وعلاقته بمذاهب اليونان والهنود » للدكتور pinès وترجمة محمد عبد الهادي أبي ريدة ، و « علم الغيب في العالم القديم » لشيشرون وترجمة توفيق الطويل ، و « الألوهية والفكر » لآرثر جايمس وترجمة إسمعيل مظهر ، و « إرادة الاعتقاد » لوليم جايمس وترجمة الدكتور محمود حب الله من علماء الأزهر ورجال بعثاته ، و « الأخلاق بلا إلزام ولا جزاء » تأليف جويو وترجمة سامي الدروبي ، و « الطاقة الروحية » لهنري برجسون وترجمة سامي الدروبي أيضاً ، و « المشكلة الأخلاقية والفلاسفة » لأندريه كرسون وترجمة الدكتور عبد الحليم محمود وأبو بكر زكري . ومن الكتب المؤلفة في الفلسفة « الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي » للدكتور محمد البهي ، و « تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط » ليوسف كرم ، و « الشيخ الرئيس ابن سينا » لعباس محمود العقاد وهو دراسة توضيحية لفلسفة ابن سينا ، و « إبراهيم بن سيار النظام » وهو دراسة مفصلة

لمذهب هذا العالم المعتزلي ، و « ديكارت » للدكتور عثمان أمين . وهذه الكتب الثلاثة الأخيرة دراسة دقيقة لمذاهب التفكير عند هؤلاء المفكرين . فهي أدخل في باب التأليف الفلسفي ، وإن كنا أشرنا إليها قبل ذلك في باب التراجم .

أما في علم النفس فقد ظهرت الكتب الآتية : « العقل الباطن وعلاقته بالأمراض النفسية » تأليف سادلر وترجمة عباس حافظ ، و « طب النفس » تأليف الدكتور محمد كمال قاسم و « أسس الصحة النفسية » للدكتور عبد العزيز القوصي ، و « الانتباه الإرادي في علم النفس التجريبي » لأبي مدين الشافعي ، و « علم النفس الفردي » لإسحق رمزي ، و « مشكلة السلوك السيكوباتي » للدكتور صبري جرجس، و «كيف تفهم الناس ؟ » للدكتور إبرهيم ناجي ، و «كيف يعمل العقل؟ » للأساتذة سيرل برت وجونز وميلر ومودي وترجمة رياض عسكر ومحمد خلف الله وقد استقل الأول بالجزء الخاص بعمل العقل في حياة الفرد ، والثاني بعمل العقل في حياة المجتمع ، و « مشكلة التحليل النفسي في مصر » للمستشار محمد بك فتحي ، وهو دراسة لها من النواحي العلمية والاجتماعية والقضائية والتشريعية . أما التربية فقد ظهر فيها كتابان : « الحضانة » للسيدة سمية فهمي ، و « التربية البدنية » لمحمد كامل علوي وهو أول كتاب عربي يعالج تربية الأبدان على أساس من الفن الصحيح .

الدين والتصوف

لم يظهر من المباحث الدينية المتعلقة بالإسلام إلا كتابان أولهما « الإسلام والنظام العالمي الجديد » لمولاي محمد علي الهندي وترجمة أحمد جودة السحار ، والثاني « العقيدة والشريعة في الإسلام » للمستشرق جولدتسيهر وقد ترجمه الشيخ محمد يوسف موسى ، وعبد العزيز عبد الحق ، والدكتور علي حسن عبد القادر .

وقد ظهر بحث في « التوراة » للدكتور فؤاد حسنين علي وهو عرض وتحليل لها على ضوء الدراسات الأوربية .

ومن كتب فقه الأحكام كتاب « فقه القرآن والسنة والقصاص » للشيخ محمود شلتوت . وقد أتيح للكتاب الجليل العظيم الشأن « المسند » للامام أحمد بن حنبل أن يظهر الجزء الأول منه بتحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر . كما ظهر كتاب «التوحيد الذي هو حق الله على العبيد » للامام محمد بن عبد الوهاب بتحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر، و « الأصول الثلاثة وأدلتها » للامام ابن عبد الوهاب أيضاً ، و « القرآن ينبوع العلوم

والعرفان » لعلي فكري ، و « معجزة القرآن في جنة الرضوان » لمحمود شلبي ، و « تفسير المراغي » للشيخ أحمد مصطفى المراغي وقد ظهر منه أربعة أجزاء . وهو تفسير يشاكل حاجة الناس في هذا العصر .

أما التصوف فقد ظهر فيه كتاب « التصوف في مصر إبان العصر العثماني » لتوفيق الطويل ؛ وهو مما تنشره مكتبة الآداب بدرب الجماميز من كتب قيمة ، و «فصول من المثنوي » لجلال الدين الرومي وقد ترجمها من الفارسية إلى العربية الدكتور عبد الوهاب عزام ؛ وقد أخرجته لجنة التأليف والترجمة والنشر في سلسلة كتبها النفيسة .

الدراسة اللغوية

ظفر موضوع اللغة بدراسة اجتماعية للدكتور علي عبد الواحد وافي في كتابه القيم « اللغة والمجتمع » وهو بحث أُنُف في اللغة العربية ، كما ظهر كتاب « الأصوات اللغوية » للدكتور إبرهيم أنيس وهو من المباحث الجديدة ، وكتاب « اللغات في القرآن » برواية عبد الله بن حسنون ، وقد حققه ونشره صلاح الدين المنجد .

وظهر كتابان في نحو اللغة اليونانية واللاتينية وصرفهما وقواعدهما ، وقد وضعا على أحدث الطرق وأكثرها يسراً في تعلم اللغات القديمة ، كما اشتملا على كثير من النصوص الأدبية للترجمة . أما الكتاب الأول فهو « اللغة اليونانية » لأمين سلامة وصمويل كامل عبد السيد ، وقد زود بكثير من آثار صولون وأفلاطون وهيرودوت وسوفوكليس ومن إليهم ، والكتاب الثاني هو « اللغة اللاتينية » وقد اشترك في تأليفه ثلاثة من المشتغلين بهذه اللغة ، وهم محمد محمود السلاموني ، وعبد اللطيف أحمد علي ، وجاك يوسف كوهين . أما الكتابة العربية فقد ظهر فيها كتاب « تطور الكتابة العربية » لسعيد الشرباصي وهو معالجة لمشكلة الكتابة ومحاولة تيسيرها .

الشعر والموسيقى والتصوير

كان الإنتاج الشعري في عام ١٩٤٥ أربعة دواوين* ، فبلغ في العام المنصرم ثمانية ، ولعلها زيادة تبشر بتقدير القارئ العربي لهذا الفن الجميل ، فتشجع الشعراء على أن يحلقوا فوق القمم ليقعدوا من السماء مقاعد للسمع فيسمعونا في مهابط الأرض ألحان الخلود . .

---

* اقرأ مقال « اتجاه التأليف عام ١٩٤٥ » بمجلة الكتاب جزء يناير ١٩٤٦ ص ٣٩٢

ولقد كان ديوان « الملك » لمحمود حسن إسمعيل تصويراً لمآثر الفاروق وتسجيلاً ليده التي تطب الداء وتمسح الأعباء . أما « تغريدات الصباح » لمحمد الأسمر ففيه كثير من خفة الشاعر المصري ورقته ، وفيه كثير من إقبال الأسمر على الحياة والمشاركة فيها ، وفيه فوق ذلك نغمات من الوطنية الصادقة التي تضع الوطن فوق الأشخاص .

وظهر كذلك ديوان « مرآة نفسي » لعبد الرحمن بدوي ، وقد لقي نقداً عنيفاً على صفحات بعض الصحف والمجلات وخاصة مجلة « الرسالة » . أما ديوان « ليالي الشاطئ » لمصطفى علي عبد الرحمن ففيه من رقة الأنفاس ما فيه ، وإن كانت ألفاظه ومعانيه رتيبة مكرورة ، و « صوت الشعر في قضية فلسطين » لمحمد صادق عرنوس وهو من الشعر السياسي ، و « وأضواء ورسوم ج ٢ » لعبد السلام رستم .

وطبعت مصر ديوانيين لشاعرين عربيين : الديوان الأول هو « الهوى والشباب » للشاعر الحجازي أحمد عبد الغفور عطار ، والثاني هو « الحرب العالمية الثانية شعراً » للشاعر الفلسطيني إسكندر الخوري .

أما الموسيقى فقد ظهر فيها كتاب «القواعد الفنية في الموسيقى الشرقية والغربية» لعازف الكمان سامي الشوا . وكتاب واحد في الموسيقى هو شيء ضئيل .

وما دمنا في معرض الفنون الجميلة فلا بد من الإشارة إلى كتاب « صور ضاحكة » للرسام الكاريكاتوري اللاذع رخا ، ولا شك أن النكتة المصرية الحارة التي ظهرت في شعر البهاء زهير والشاب الظريف قد عادت لتظهر من جديد في ريشة هذا الرسام اللطيف .

كتب قديمة كانت مخطوطة فطبعت أو أعيد طبعها

لا يزال الاهتمام بالكتاب القديم يشغل جماعة من أفاضل العلماء والأدباء الذين يكشفون الغبار عن التراث العربي الفكري ، ذلك التراث الذي ظل مهملاً معطلاً إلى أن اتجهت إليه همم المحققين لينشروه على الناس شيئاً يستحق أن يقرأ وأن يدرس وأن يطال الوقوف عنده ويكثر الرجوع إليه . وهذه هي الكتب القديمة التي طبعت لعام ١٩٤٦ :

« الفائق في غريب الحديث » للعلامة الزمخشري ، حققه علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبرهيم ، و « الشعر والشعراء » لابن قتيبة بتصحيح أحمد محمد شاكر وتحقيقه ، و « وقعة صفين » لنصر بن مزاحم المنقري بتحقيق عبد السلام محمد هارون وشرحه . ولدار عيسى الحلبي فضل في إحياء هذا التراث . و « نهاية الرتبة في طلب

الحسبة » لعبد الرحمن بن نصر الشيزري ، حققه تحقيقاً دقيقاً السيد الباز العريني ، و « نحل عبر النحل » للمقريزي المؤرخ بتحقيق جمال الدين الشيال ، و « أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها » لابن الكلبي بتحقيق المرحوم أحمد زكي باشا ، و « رسائل ابن المعتز » وقد جمعها وشرحها وعلق عليها محمد عبد المنعم خفاجي ، و « العقد الفريد جزء ٤ » لابن عبد ربه الأندلسي بتحقيق أحمد أمين بك وأحمد الزين وإبرهيم الأبياري ، و « الجامع لأحكام القرآن — جزء ١٥ » للقرطبي وهو من مطبوعات دار الكتب المصرية . ولا بأس من الإشارة هنا إلى « مسند الإمام أحمد » وقد ظهر الجزء الأول منه، وإلى كتاب « اللغات في القرآن » لابن حسنون .

***

هذا بحث وبيان لاتجاه التأليف في مصر سنة ١٩٤٦ ، وقد حرصنا الحرص كله على أن لا يفوتنا كتاب مما ظهر في ذلك العام المودع حتى يكون البيان كاملا . فإذا فاتنا من ذلك شيء فعذرنا يمهد له حسن النية ويشفع له سلامة القصد . ولم نشر إلى الكتب التي أعيد طبعها إلا ما أضيفت إليه زيادة تجعل الطبعة الحديثة كتاباً جديداً . . .

أما تغيير العنوان القديم للكتاب إلى عنوان جديد فلم يحملنا على تسجيله في الثبت الجديد كما حدث في كتاب « تاريخ حياة معدة » لتوفيق الحكيم الذي أعيد طبعه باسم « ملك الطفيليين » . .

ولم ندخل الكتب المدرسية المقررة وغير المقررة في أعطاف هذا البحث خشية أن تطول بنا السبيل في مقام محدود ومجال محصور .

ولا بأس من الإشارة هنا إلى جهد المرأة العربية مؤلفة وكاتبة ، فقد ظهر من الجنس اللطيف عشر كاتبات في الإنتاج التأليفي لعام ١٩٤٦ . ومن الإنصاف أن نقول إنه جهد يستحق الثناء والإشارة إليه . وهؤلاء الكواتب هن — بترتيب حروف الهجاء ! ! — أماني فريد ، أمينة السعيد ، بنت بطوطة ، بهيجة بيومي سلمان ، جميلة العلايلي ، سمية فهمي ، سنية قراعة ، عنبرة الخالدي ، منيرة ثابت ، نرجس نصيف . أما كتبهن فارجع إليها في خلال هذا المقال . . .

فلسطين

بلغت المؤلفات العربية الفلسطينية سنة ١٩٤٥ زهاء ثلاثين كتاباً ، عرضنا موضوعاتها في جزء يناير سنة ١٩٤٦ من هذه المجلة . وقد بلغت مؤلفات عام ١٩٤٦

نحو ستين كتاباً ، أي بزيادة ١٠٠٪ وهي زيادة مدهشة حقاً ، ومبشرة بمستقبل زاهر . وإذا اعتبرنا أرقام السنوات السابقة رأينا هذا الرقم ثلاثة أمثال رقم ١٩٢٠ الذي كان أعلى الأرقام في جميع السنوات خلا رقم ١٩٤٥ .

ونصيب الكتب المدرسية من هذا الرقم تسعة عشر كتاباً ، بعضها في أكثر من جزء واحد . فالكتب المدرسية أكثر رواجاً وأبعد انتشاراً . ومن جهة أخرى إن عدد طلاب المدارس في ازدياد مطرد كل عام ، ومستوى التعليم ارتقى حتى أصبح ثانويا كاملا في بضع مدارس حكومية ، علاوة على المدارس الأهلية ، وشبه ثانوي في كثير من المدارس الابتدائية . ومن الطبيعي أن يؤدي هذا التطور المحمود إلى الإقبال على التأليف المدرسي يتفرغ له الأساتذة أصحاب الخبرة والاختصاص .

ومن أبرز هذا النوع سلسلة في القراءات الجغرافية المصورة ، ربما كانت فريدة في بابها ، اشترك في تأليفها أساتذة من لبنان وفلسطين ؛ وسلسلة الطرائف للأطفال يصدرها أربعة من المشتغلين بالتعليم ، وسلاسل كتب في المحفوظات ، ومبادىء الدين الإسلامي ، والهندسة ، وتمثيليتان للأطفال ، وقصص متنوعة ، وثلاثة كتب في التاريخ

أما كتب القراءة العامة فبلغت أربعة عشر كتاباً أسهمت فيها سلسلة الثقافة بثلاثة كتب صغيرة . ومن بينها رسائل لطيفة تقع في صفحات معدودات . وأغلب الموضوعات ذات طابع أدبي عام . والواقع أن مجال انتشار هذه الكتب ضيق جداً . وستظل على ضآلتها عدداً وحجما ما لم تتسع سوقها في فلسطين والأقطار العربية . ولا بد من الإشارة إلى أن حالة المطابع في هذه الأوقات لا تشجع على وفرة الإنتاج ، ولا تغري المؤلفين بدخول ميدان التأليف ، لأن نفقات الطبع في فلسطين تزيد على ما هي عليه في أي قطر عربي آخر .

ولقد كان نصيب الكتب المترجمة ضئيلا في العام الماضي ؛ فظهرت في هذا الباب ثلاثة كتب فقط هي « الإلياذة » للسيدة عنبرة سلام الخالدي ، وهو يدخل في عداد التأليف المدرسي ، و « أقنعة الحب » لأحمد سامح الخالدي ، و « نابليون » لأميل لدفيج وقد سبقت الإشارة إليه في البحث الخاص بالإنتاج المصري ومترجمه من أدباء المحامين في فلسطين . وهذا العدد الضئيل من الكتب المترجمة لا يتفق مع حاجة القارىء العربي إلى هذا الينبوع الزاخر بنفائس المؤلفات الأوربية الخليقة بالترجمة .

على أن العزاء عن هذه القلة في باب الترجمة أن الشعر كان أوفى نصيباً في العام المنصرم ، فظهرت فيه ستة كتب هي : « المرسحيَّة الشعرية » لمحسن حسن

علاء الدين ، و « العنقود » لإسكندر الخوري البيتجالي ، و « الحرب العالمية الثانية شعراً » له أيضاً ؛ وقد أشير إليه في الإنتاج المصري لصدوره عن إحدى دور النشر في القاهرة ، و « ابتسام الضحى » لحسن البحيري ، و « ديوان الفلسطينيات » لوديع البستاني ، و « شكوى ملكة اللغات إلى ملوكها » للأب جبرائيل سويدان . فهل معنى هذا أن الشعر ستعود إليه دولته ، وسيرجع إلى سيرته الأولى من الذيوع ؟ وهل ضاق الناس بقيود المادة وسلاسل الجسد فراح الشعراء يرتلون أغاريد الروح وأناشيد الحياة ؟

يقولون إن الناس يتجهون في الأزمات الروحية والأوقات العصيبة نحو الشعراء يلتمسون عندهم ري الأرواح الظامئة ، وراحة النفوس القلقة . والظاهر أن هذا صحيح إلى حد كبير ؛ ولعل الشعر العربي الحديث إذا روعي فيه البناء والفكرة واتساع المدى وعمق الأغوار يحقق أمل النفس الإنسانية فيه . . .

والحق أن مهرجاني الشعر اللذين أقيما في أواخر العام المنصرم دلا على حنين النفس العربية إلى سماع الشعر وهو ديوانها القديم .

وهناك اتجاه جديد في الإنتاج الأدبي للعام الماضي ، وهو الميل إلى نشر الكتب القديمة وإحياء التراث العربي الذي ضيعه بنوه . . فقد نشر أحمد سامح الخالدي ثلاثة كتب ممتعة هي : « الإعلام بفضائل الشام » للمنيني ، و « مثير الغرام » لابن غانم ، و « ملخص ثلاث رحلات في ديار الشام » . وهي تتصل بدراسات المؤلف المتواصلة في تاريخ بيت المقدس والتعليم عند العرب .

وهناك كتاب واحد في الرياضة البدنية يتناول الملاكمة وقواعدها للسيد حسين حسني . وهو على ما يبدو حلقة من سلسلة يرغب المؤلف في إصدارها . وكتاب آخر طريف في موضوعه وهو « من هو ؟ » نشره مكتب الصحافة والنشر على غرار الكتب الأوربية المعروفة في هذا الباب .

وقد رأينا في إنتاج عام ١٩٤٥ بعض الكتب في الاجتماع والسياسة . وهما الموضوعان الموجهان للتيارات العامة ، والملائمان للظروف السائدة . وقد خلا منهما إنتاج عام ١٩٤٦ ، ومن يدري فلعل الشعراء الذين ذكرنا دواوينهم سدوا هذا الفراغ .

أما سلسلة الثقافة العامة فقد أصدرت ثلاث حلقات ، ونرجو أن لا تقعد بها الظروف عن إتمام ما بدأته .

على أنه من المحقق أن عدداً من الكتب المخطوطة معد للطبع ، ولو أعانه القراء

والمطابع على الظهور لارتفع رقم الإنتاج الذي ذكرناه إلى سبعين أو ثمانين . ولعل العام المقبل يكون أرحب صدراً وأعم بركة .

لبنان

وفي لبنان أخرجت المطابع في العام المنصرم أضعاف ما أظهرته في كل سنوات الحرب . ولبنان عجيب غريب إذا نظرنا إليه من الناحية الفكرية ، فليس بين الأقطار العربية بلد يشبهه أو يجاريه غرابة ؛ فسكانه لا يزيدون على المليون إلا بقليل ، أي أنهم لا يكادون يبلغون قاطني القاهرة عدداً ، ومع ذلك فإن ما في لبنان من جمعيات أدبية وحلقات علمية ومجلات وجرائد ، تعنى بكل لون من ألوان النشاط الذهني ، هو في ازدياد مطرد .

وقد أثبتت دور النشر هذا العام وجودها ، وتبدت للأنظار نتائج حيويتها بما أصدرته للمؤلفين من تصانيف مختلفة الموضوعات متنوعة الأحجام والإخراج .

فهذه مكتبة صادر قد أبدت همة ملحوظة في بداية العام المنصرم ، فنشرت للكاتب المعروف ميخائيل نعيمة كتاباً بعنوان « الأوثان » يشير فيه المؤلف إلى الأصنام التي يتعبد لها الجيل الحاضر كالمال والقوة والقومية والكلمة السوداء ، أي المطبوعة ، وما إليها ؛ ورواية بعنوان « لقاء » مزينة برسوم فنية من ريشة الفنان رضوان الشهال ، وهي رواية واقعية أسطورية معاً ، حلل فيها الكاتب بأسلوبه الخاص وبراعته المعهودة المذهب القائل بانتقال الأرواح من جيل إلى آخر ، حاملة آمالها وأشواقها الغابرة . ونشرت للروائي كرم ملحم كرم رواية بعنوان « دمعة يزيد » تناول فيها المؤلف الحياة السياسية والاجتماعية في مستهل الخلافة الأموية ، وما اضطرب فيها من أحزاب متناحرة ، وعرض لغرام يزيد بن معاوية بالحسناء أرينب بنت إسحق التي يرى فيها المؤلف «زهرة من ياسمين على عود من الند » .

وأسهمت هذه الدار بنصيب في ميدان الشعر فأخرجت ملحمة شعرية رقيقة بعنوان « غلواء » لإلياس أبي شبكة . أما الدراسات القانونية فقد أخرجت منها كتابين لزهدي بك يكن ، وأولهما عنوانه « الشفعة » ويتناول عرضاً قانونيا لها وشرحا لموادها ، وثانيهما عنوانه « شرح قانون الموجبات اللبناني » .

وأخرجت دار المكشوف في لبنان عدداً من الكتب منها ثلاثة دواوين من الشعر هي « آفاق » للوزير اللبناني المفوض في إيران الدكتور سليم حيدر ، و « الخلود »

لقبلان مكرزل ؛ و « الزوابع » لمارون بك عبود ، الذي تجلى في مجموعته هذه شاعراً وطنيا وعربيا صميماً . ومنها دراستان أدبيتان : الأولى لرئيف خوري ، والثانية لمارون بك عبود أيضاً بعنوان « الرؤوس » . ثم كتابان آخران يبحث الأول منهما في حياة الرسام « ده لاكروا » بقلم المصور الصناع قيصر الجميل . والثاني «أشهر رسائل الغرام» ترجمة سمير شيخاني .

أما دار العلم للملايين — وهي أحدث دور النشر في لبنان — فقد عنيت أول أمرها بتعريف الفرد إلى نفسه ومشاكلها المتعددة ، فأصدرت سلسلة سيكولوجية من أربع عشرة حلقة ، وسلسلة الثقافة الجنسية من عشرة أجزاء ، وأدت خدمة جليلة لقضية العرب في لبنان وسواه من الأقطار العربية بنشر كتاب «العرب : تاريخ موجز» للدكتور فيليب حتي أستاذ اللغات السامية بجامعة برنستون بالولايات المتحدة ، وقد حاول فيه تلخيص الحضارة العربية منذ الجاهلية إلى النهضة الحديثة وإبراز الخدمات التي أدتها هذه الحضارة العربية للعالم أجمع ؛ وقد قام بترجمة هذا المؤلف القيم ثلاثة من رفاق المؤلف الذين أسهموا معه في منهاج التدريس الخاص بالجيش الأمريكي في الجامعة المذكورة . وكتاب « قضية العرب » لعلي ناصر الدين . و « نحو التعاون العربي » للدكتور عمر فروخ .

وقد أنشأت هذه الدار في أواخر عام ١٩٤٦ سلسلة جديدة بعنوان « أعلام الحرية » استهلتها بدراسة عميقة للزعيم الخالد سعد زغلول بقلم قدري قلعجي .

ولم تغفل الدار جانب الثقافة العامة التي لا تقع تحت هذه الأبواب ، فأصدرت كتاباً في الشعر الحديث والشعراء المحدثين باسم « على المحك » لمارون بك عبود . ونشرت ترجمة كتاب « الإسلام على مفترق الطرق » للدكتور عمر فروخ وهو من تأليف ليوبولد فايس النمسوي المسلم ؛ وكتابي « كيف تغلب الإنسان على الألم ؟ » للدكتور فياض . و « أشواق » وهي مجموعة قصصية لسهيل إدريس .

وعنيت الدار هذا العام بمؤلفات الأدباء العرب من غير اللبنانيين ، فأذاعت بعض المباحث القيمة لهم منها : « منهج البحث في الأدب واللغة » للدكتور محمد مندور وقد ترجمه عن لانسون ومابيه . و « تجديد مناهج إعداد المعلمين في العراق » للدكتور خالد الهاشمي عميد دار المعلمين العليا ببغداد . وطبعت ديوان « العرائس » لشاعر البحرين المعروف إبرهيم العريض .

وأما مكتبة الكشاف ومطابعها فقد ظهر من إنتاجها ثلاثة كتب هي « بواعث

الحرب العالمية الأولى في الشرق الأدنى وموجز لتاريخ حلول أوربة في الشرق » تأليف جان بيشون وترجمة محمد عزت دروزة ، وفيه دراسة قيمة للتنافس بين فرنسا وإنجلترا ، ولمنافسة الروس والجرمان على السيادة فيه ، ولموقف الدول الأوربية من الأقليات العثمانية ، وعرض لمشكلة النفط ، وكتاب « تركيا الحديثة » لمحمد عزت دروزة أيضاً يفصل فيه المؤلف مظاهر النهضة التركية منذ عهد كمال أتاتورك إلى الوقت الحاضر ويجمع فيه إحصاءات مفيدة تنشر لأول مرة في اللغة العربية ، وكتاب « نخب العدد » للمهاجر سعيد تقي الدين وهو يضم بين دفتيه تمثيلية في ثلاثة فصول وأقصوصات أخرى تتعلق بحياة المهاجرين العرب ، وما يختلج في نفوسهم من عواطف ، وما يتعقد بينهم من مشكلات .

وإلى جانب المطبوعات التي أشرنا إليها ، والصادرة عن دور معروفة في لبنان ، ظهرت مؤلفات أخرى متفرقة ، تختلف من حيث العمق والطرافة ، منها الترجمة العربية لكتاب «الأعماق» للكاتب العالمي أسكارويلد بقلم فوزي سابا ، وكتاب « البعث» لطه المدور، وفيه فصول متنوعة عن الحضارة العربية القديمة والغاية التي يجب أن يستهدفها العرب في المستقبل ، وكتاب « الإسلام دين الإنسانية » لمولانا محمد علي الهندي وترجمة السيدة حبيبة شعبان يكن ، والكتابان من منشورات المكتبة الأهلية ، والجزء الثاني من « وحي الرافدين » لمحمد علي الحوماني صاحب مجلة العروبة المحتجبة ، و « العقل في الإسلام » للدكتور كريم عزقول الذي يتناول فيه مباحث هامة في طرق المعرفة في الإسلام قبل الغزالي ، وقيمة العقل وحدوده عند أبي حامد ، ورسالة بعنوان « العالم العربي ومستقبله » للدكتور نبيه فارس ، وترجمة كتاب « ميكرو ميغاس » لفولتير التي قام بها إلياس أبو شبكة . و « التربية الوطنية » لجورج شهلا وشفيق جحا وصبحي المحمصاني . والمجموعة الشعرية « حل الطلاسم » لمحمد الجوال آل الشيخ أحمد الجزائري التي يعارض فيها قصيدة إيليا أبي ماضي ، والجزء الأول من «المجاني الحديثة » وهو مؤلف من ستة أجزاء يحي الأدب العربي القديم ويسهل فهمه بالشرح والمقدمات يقوم بوضعه فؤاد أفرام البستاني وكرم البستاني ، و « سلمبو » لغوستاف فلوبير نقلها إلى العربية سامي الرياشي ، و « الرياضة الشتوية » في لبنان لمنير غيتاني . وقد أصدرت دار الكتاب اللبنانية كتاب « خطب » وهو مجموعة خطب الدكتور شارل مالك الوزير اللبناني المفوض بالولايات المتحدة ، صرح فيها بآمال قومه وعبر عن آراء بلاده في غير التواء ، وكتاب « حسناء لبنان » لفريد مدور، وهي قصة تعالج مشكلة الصراع

بين المدينة والقرية ، وكتاب « قضية فلسطين » وهو كتاب رصين عميق انصرف فيه الدكتور نجيب صدقة إلى درس المشكلة الفلسطينية درساً علميا واستعرض مراحلها منذ بدايتها إلى الغاية التي انتهت إليها الآن وهو يستند إلى الوقائع والنصوص الرسمية والمراسلات الدبلوماسية ومحاضر المؤتمرات واللجان .

ومن المؤلفات القيمة هذا العام كتاب باللغة الفرنسية عنوانه « أبحاث في تاريخ الأبجدية الفينيقية » للعالم الأثري موريس دونان المكلف من قبل الحكومة اللبنانية أعمال الحفر والتنقيب في منطقتي جبيل وصيدا .

* * *

هذه المؤلفات إذا أنعمنا النظر فيها واجتلينا الغاية القصوى التي تصدر عنها يتبين لنا أن السياسة القومية هي التي توحي بها وتسيرها فتلهم الأفكار وتوجه هذه الفئات المفكرة في الطريق الذي تريد ، وهو طريق نرجو مخلصين أن يصل بالعروبة إلى تحقيق أهدافها وبلوغ غايتها .

سوريا

. . . أما في سوريا فمن الصعب تعيين اتجاه التأليف نظراً لتعدد العوامل التي تؤثر في هذا الاتجاه ، فهو يختلف تبعاً للموضوعات والمؤلفين . وسوريا تعاني أزمتين متناقضتين تحدان من التأليف من جهة وتدفعانه إلى النشاط من جهة أخرى ؛ فإذا بحثنا مثلا عن التأليف المدرسي وجدنا أن النشاط في هذا المضمار قد بلغ الأوج . على شرط أن يخضع هذا الانتاج — عند الحكم — إلى المفاضلة التقليدية بين الكمية والكيفية ؛ فقد أقبل المدرسون بحماسة لم تعهدها البلاد من قبل على تأليف الكتب المدرسية ، ورائدهم في ذلك الحرص على مصلحة الطلاب . ويمكننا القول إن هذا الإنتاج — على تأثره بروح السرعة التي يتطلبها الإنتاج المدرسي — لم يخل أكثره من غزارة في المادة وجودة في التبويب وأناقة مستملحة في الطباعة .

ولا بد في معرض ، الكلام على التأليف المدرسي من ذكر الصفة الغالبة عليه وهي أن التأليف الابتدائي بأجمعه يتجه ببطء نحو العدول عن الأسلوب العلمي الجاف إلى الأسلوب القصصي الشائق وإلى فكرة الشمول في جمع البرامج المقررة وضمها في كتاب واحد Livre unique مع فسح المجال لإنماء الفكرة القومية العربية في ذهن التلميذ .

ولقد اتجه التأليف للتعليم الثانوي إلى تبسيط المعلومات مع تنوع المادة الثقافية

التي يلقنها الطالب في هذه المرحلة الدراسية ، وهو اتجاه يخشى بعض الناقدين أن يؤدي إلى هبوط المستوى الثقافي في سوريا . ولا جدال في أن لكل من هاتين الطريقتين خصوماً وأنصاراً .

وفيما يتصل بمادتي الحقوق والطب في التأليف العالي فقد عرفت الأولى منهما نشاطاً ملحوظاً في هذا العام فظهر كتابان عن « الحقوق الدستورية » و « الحقوق الإدارية» لفؤاد شباط ، وكتابا « الحقوق الجزائية » و « الأصول الجزائية » لنادر الكزبري وكتابا « مجلة الأحكام العدلية » و « أحكام الأوقاف » للشيخ مصطفى الزرقاء ، وثلاثة كتب عن « الحقوق الرومانية » و «تاريخ الحقوق» و« الالتزام » لمنير العجلان ، وكتاب «أصول الفقة الإسلامي» لأبي اليسر عابدين ، وكتابا « التشريع العقاري » و «الحقوق التجارية » لعبد الجواد السرميني . وثلاثة كتب في « الاقتصاد السياسي » و « التشريع الاجتماعي » و « أصول المالية » لأحمد السمان ، وكتاب « الوصية في الشريعة الإسلامية على المذهب الحنفي » ، وكتاب « محاضرات نقابة المحامين في حلب » للسنة القضائية ١٩٤٥ — ١٩٤٦ ، وهو كتاب جليل القدر غزير المادة القانونية ، مصدّر بكلمة لسعادة أسعد الكوراني نقيب المحامين في حلب يومئذ . ويعتمد كثير من كتب القانون في سوريا على الترجمة أو الاقتباس من المصادر الفرنسية . في حين كان التأليف في الطب ضئيلا محدوداً . ولعل أحسن الأبحاث الطبية التي ظهرت كتاب « الأمراض الباطنة » للدكتورين حسني سبح وبشير العظمة .

كذلك كان لموضوع التراث العربي وأعلامه نصيب من جهود الهيئات العلمية والأفراد على السواء ، فقد طبع المجمع العلمي العربي بدمشق أربعة كتب من تأليف الرئيس محمد كرد علي ، أو من تحقيقه ونشره ، وهي : « أقوالنا وأفعالنا » و« مذكرات » و« المستجاد من فعلات الأجواد »للتنوخي و« حكماء الإسلام » للبيهقي . وقد كان ابن عنين — شاعر دمشق في العصر الأيوبي — موضوع كتابين قيمين : الأول « ديوان ابن عنين » مع مقدمة ممتازة لخليل مردم بك ، والثاني « ابن عنين وشعره » لياسين الحموي .

وانفرد بالتأليف عن دمشق الأثرية الشيخ محمد أحمد دهمان ، وموضوع بحثه «جبل قاسيون » . وصلاح الدين المنجد ، وأبحاثه تبدأ من « دور القرآن في دمشق » وهومقتطف من كتاب الدارس للنعيمي ، إلى « بيمارستان نور الدين » و « الكتابات العربية في قلعة بصرى » .

ولم يغفل المؤلفون وأرباب القرائح الأحداث التي طرأت على سوريا خاصة والعالم العربي عامة ، ونعني بذلك جلاء الأجانب عن سوريا وإنشاء الجامعة العربية والمشكلة الصهيونية . فقد أثار الحدث الأول مخيلة الشعراء وقرائح الكتاب على السواء ، فظهر كتاب « ثورة حماه على الطغيان الفرنسي » للسادة قطان وحداد والشيخ سعيد ، وكتاب « مذكرات حول الحياة العسكرية » لعز الدين الحفار ، و « صناعة الحرب » لعز الدين الجراح ، و « سوريا بين عهدين » لمنير الريس ، و « رواية ميسلون » وهي تمثيلية جرت حوادثها عند إعلان الملكية في سوريا سنة ١٩٢٠ ، و « وحي الجلاء » للسيد عبد الحسيب الشيخ سعيد ، وهو يشتمل على موضوعات سياسية واجتماعية وثقافية ، ومصدر بمقدمة تلخص الوضع السياسي السوري وصلته بالوضع الدولي ، و « الجهاد السياسي » لسعادة عبد الرحمن الكيالي ويبحث في تطور الجهاد في سوريا ضد الانتداب منذ سنة ١٩٢٠ حتى الجلاء ، و « الجزيرة السورية في عهد الاستقلال والحرية » لعز الدين السمان وشوقي البعاج .

أما الجامعة العربية ، التي تتجه إليها أفئدة العرب جميعاً ، فقد حملت حيدر الركابي على تعريب كتاب « يقظة العرب » للمرحوم جورج أنطونيوس ، كما دفعت رفيق كامل القطان إلى وضع كتاب عنوانه « الوحدة العربية ومشروع سوريا الكبرى والقضية الفلسطينية » . وكتب عن الصهيونية بشير كعدان وشفيق شالاتي تحقيقاً صحفيا شائقاً أسماه « هؤلاء الصهيونيون » .

والقصة — التي أصبحت لوناً شائعاً من ألوان التعبير في الأدب الحديث — لم يكن لها في التأليف السوري شأن يذكر ؛ وقد يكون مرد هذا إلى الوضع الذي تعانيه سوريا . والذي يبعدها عن روافد الفكر الأوربي والحركة الأدبية العالمية من جهة ، وإلى عدم وجود مذاهب فكرية ذاتية منبعثة من الحياة الأصيلة ومن مجاري التفكير القومي من جهة أخرى .

نعم ! لقد ظهرت عدة قصص في مجموعة « أحسن القصص » لجماعة الفكر الحديث بدمشق وهي مترجمة عن المصادر الأوربية والروسية ، وتدل على اتجاه تفكير مترجميها وعلى مثلهم في الحياة . وهناك محاولات فردية لترجمة روائع الأدب الأوربي ، ولكنها لما تأخذ مكانها من التنفيذ ، ولا بأس من الإشارة هنا إلى قصة « الواقع المحزن » للمحامي روحي الأتاسي وهي قصة تشيع فيها معاني اليأس من الحياة حتى لقد انتهى الأمر ببطلتها إلى الانتحار . . .

أما الفنون الجميلة من شعر وتمثيل وأدب وموسيقى فقد كان التأليف فيها محدوداً تبعاً لارتقاء عقلية الجماهير وتقديرها للفن الرفيع . فقد ظهر في خلال العام المنصرم ديوان « التيار » لأحمد الصافي النجفي ، و « رعشات » لعلي دمر ، و « ديوان أبي فراس الحمداني » جمعه ونشره الدكتور سامي الدهان ، وبه دراسة عن الشاعر وطبعات الديوان ووصف شامل للمخطوطات التي اعتمد عليها الناشر المحقق وفهرس مفصل للقصائد ، و « ديوان حروف من نار » لعمر أبي قوس .

وقد ترجم إبرهيم الكيلاني مسرحية « الدكتور كنوك » ، وألف عبد الرحمن عياش مسرحية تاريخية أسماها « الحجاج » . وأخرج خليل السباعي كتابه « أنا وأنت » وهو مجموع رسائل أدبية .

وأما الموسيقى فكان نصيبها تأسيس معهد فني للموسيقى العربية في حلب .

ولم تحرم السياسة العامة والاجتماع والجغرافية البشرية من عناية المؤلفين ؛ فقد ظهر كتاب « عبقريات شامية » في الحكم والسياسة والإدارة لإبرهيم الكيلاني ، وكتاب « علم الاجتماع الديني » ليوسف باسيل شلحت ، وهو جدي في معالجته ، و « العلويون من هم ، وأين هم ؟ » لمنير الشريف ، وهو دراسة طيبة لهذه الجماعة التي أساء الناس فهمها ، و « عشائر الشام » للمهندس الزراعي وصفي زكريا ، و « الدولة السعودية في الجزيرة العربية » للسيد محمد طارق الأفريقي رئيس أركان حرب الجيش العربي السعودي سابقاً .

أما الموضوعات الاقتصادية العامة مما لا يتصل بكتب الدراسة العالية فقد صادفت في العام المنصرم نشاطاً معتدلا ؛ وهو نشاط نرجو أن يضاعف الجهد فيه لمواجهة العالم العربي بعد الحرب بالتيارات العالمية التي توجه الاقتصاد المحلي وتترك فيه بعض آثارها . ومن الكتب التي ظهرت في هذا الباب كتاب « الاقتصاد المنهاجي في الاتحاد السوفيتي » لكورسكي وقد ترجمه منير سلمان ، وكتاب « الشباب العربي في الحقل الاقتصادي » وهو رسالة نفيسة على الرغم من إيجازها لمنير الشريف .

ومما يتصل بهذا الباب كتاب « التشريع الجمركي في سوريا ولبنان » منذ أيام السلطنة العثمانية حتى يومنا هذا للمحامي رزق الله الأنطاكي .

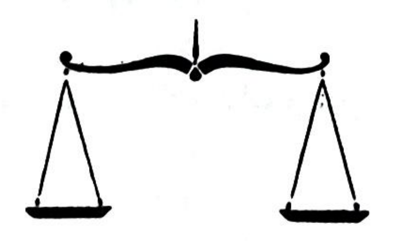
خاتمـــــة

يحق لنا بعد هذا العرض السريع أن نغتبط بعض الاغتباط بهذا الجدول الفكري الذي ينساب في بعض البلاد العربية التي أتيح لنا أن نعرض اتجاه التأليف فيها إلى حد يلقي كثيراً من الضوء على مناحي التفكير فيها ، وهو اتجاه نرجو أن يأخذ طريقه إلى الخلق والإبداع والأصالة ؛ وهي تلك السمات التي كانت طابع الثقافة العربية في عهد ازدهارها أيام العباسيين .

ولا شك أن القارئ يلمح في خلال حركة التأليف العربي الحديث آثار الترجمة والنقل طاغية على آثار الوضع والتأليف . وهي حركة لا بد منها اليوم حتي تتمكن فينا العقلية الأصيلة التي تأتي بعد إحيائنا لنفائس تراثنا العربي القديم ، وبعد تعرفنا إلى التيارات الفكرية المعاصرة . ولا ينبغي أن يصرفنا قصد السرعة وإرادة الكثرة عن حسن اختيار كتابنا لما يعرضونه على بني العروبة من موائد الغرب . فإن بعض ألوان غذائهم الفكري أولى بالترجمة من بعض .

على أن هذه الوفرة في إنتاجنا العربي الحديث ليست كل ما تنتهي آمالنا عنده بالنسبة إلى الأمم العربية التي أخذت طريقها إلى الوعي القومي وبدأت تعرف ما للعلم الصحيح والثقافة الصحيحة من قيمة في الحياة . فإن قليلا جداً أن يطبع من الكتاب العربي الواحد ألف أو ألفان من النسخ في مجموعة من الأمم العربية تبلغ الملايين ..

ومشكلة الكتاب العربي اليوم يقع اللوم فيها على القراء والمؤلفين . فواجب القراء أن يقبلوا على القراءة بشهية كما يقبلون على لذيذ طعامهم وسائغ شرابهم ؛ وواجب المؤلفين أن يتأنقوا .. ويتعمقوا .. في تقديم مايؤلفون . وتبقى بعد ذلك مشكلة العلم والجهل وهي متروكة إلى ضمير العرب المحدثين حكومات وهيئات وأفراداً . وهو ضمير نؤمن الإيمان كله بحيويته ويقظته وإخلاصه . والله يوفقهم إلى ما فيه خيرهم وصلاح أمرهم .



انبـاء

نشر في هذا الباب أخبار النشاط الفكري والأدبي وأنباء الـكتب والكتاب مما يوافينا به مندوبونا ومراسلونا بمصر والخارج .

مصر

يضع صاحب السمو الملـكي الأمير محمد علي كتاباً عن رحلاته الرسمية وغير الرسمية في عواصم أوربا . ولسموه مؤلفات قيمة عن رحلاته في جاوة وشمالي أفريقية وأمريكا الجنوبية وزعت على الخاصة ولم تعرض في الأسواق .

✿ ✿ ✿

يعمل صاحب المقام الرفيع عزيز عزت باشا في تنقيح مذكراته السياسية التي كتبها في أثناء إقامته الأخيرة بسويسرا خلال الحرب وضمنها الأحداث العالمية التي عاصرها . ولرفعته مذكرات سياسية عن السودان وعلاقة مصر بإنجلترا على جانب عظيم من الأهمية نشرها إبان وجوده في لندن كوزير مفوض لدى بلاط سان جيمس .

✿ ✿ ✿

نص المرسوم الملـكي الصادر بتعيين الأعضاء الدائمين لجوائز فؤاد الأول وفاروق الأول على أن يكون معالي وزير المعارف رئيساً ، وأن يكون تعيين الأعضاء الذين يمثلون فروع الثقافة المختلفة لمدة ثلاث سنوات قابلة للتجديد . أما هؤلاء الأعضاء فهم حضرات الدكاترة محمد حسين هيكل باشا وعبد الرزاق أحمد السنهوري باشا وحسن صادق باشا وأحمد زكي بك ومحمد رضا مدور بك والأستاذ مصطفى عامر بك .

✿ ✿ ✿

يسعى بعض علماء الأزهر لإنشاء هيئة علمية يكون من اختصاصها أن تتناول بأسلوب جديد بحث المسائل الإسلامية على أن يطلق عليها « مجمع فاروق الأول للشؤون الإسلامية » .

✿ ✿ ✿

من ضيوف مصر الآن مستشرقة أمريكية فاضـلة هي الدكتورة نبيا أبوت أستاذة الدراسات الإسلامية بجامعة شيكاغو ومؤلفة عدة كتب عن التاريخ الإسلامي منها : عائشة أم المؤمنين ، وقرة ابن شريك حاكم مصر ، وأديرة الفيوم ، وملـكتان في بغداد : الخيزران وزبيدة .

✿ ✿ ✿

تبرعت حكومة الولايات المتحدة بثلاثة آلاف كتاب في شتى العلوم والفنون والآداب للجامعة الشعبية بالقاهرة . وقد لاحظ المشرفون على الجامعة أن هذه المؤلفات تعلو فوق مستوى الطلاب .

✿ ✿ ✿

يصدر قريباً الجزء الثاني من « صفحات مطوية في تاريخ الحركة الاستقلالية » لمعالي الأستاذ أحمد لطفي السيد باشا ، ويتناول في هذه الصفحات مباحث اجتماعية ووطنية .

✡ ✡ ✡

يفتتح مجمع فؤاد الأول للغة العربية مؤتمره اللغوي في ٤ يناير الجاري ، وأهم ما يعرض على أعضائه في هذه الدورة ما أقره مجلس المجمع من المصطلحات في التشريح والكيمياء وأمراض الجلد.

وقد عقد المجمع في الحادي عشر من ديسمبر الماضي جلسة لاستقبال الأعضاء الجدد الذين تقرر ضمهم إليه بعد أن صدر المرسوم الملكي بزيادة عدد أعضائه وهؤلاء الأعضاء هم حضرات : معالى الدكتور عبدالرزاق السنهوري باشاوزير المعارف والدكتور إبرهيم بيومي مدكور والدكتور عبدالوهاب عزام بك وزكي المهندس بك والدكتور أحمد زكي بك والشيخ محمود شلتوت والدكتور محمد شرف بك والدكتور مصطفى نظيف بك ومحمد فريد أبو حديد بك والشيخ عبد الوهاب خلاف .

وقد افتتح الجلسة معالي الرئيس أحمد لطفي السيد باشا مرحباً بالأعضاء وأعقبه الأستاذ أحمد أمين بك فألقى خطبة الاستقبال فاستهلها بعرض ما قام به المجمع من الأعمال في مدة الأربع عشرة سنة التي مرت على إنشائه ثم نوه بالأعمال الأدبية التي أهلت الأعضاء الجدد لعضويته .

✡ ✡ ✡

نشرت « البورص إجبسيان » الفرنسية في عددها الصادر في ٢٤ ديسمبر الماضي مقالا افتتاحيا تساءلت فيه عما إذا كانت استوكهلم قد فكرت في منح جائزة نوبل لأحد الشرقيين وقالت إن هذا الشرقي الذي يستحق هذا التقدير هو الدكتور طه حسين بك .

وقد اختير الدكتور طه حسين بك أخيراً عضواً أجنبياً مراسلا في ندوة الآداب بباريس فسر جميع أصدقائه لهذا الاختيار الذي صادف أهله ، لا سيما أن هذا المعهد الذي أسسه كولبير في سنة ١٦٦٣ يختار أعضاءه بعد تدقيق شديد . وهذه هي المرة الأولى التي يقبل فيها مصري بهذه المؤسسة الشهيرة .

✡ ✡ ✡

أصدرت دار « الكاتب المصري » أخيراً قصة « أوديب وثيسيوس » من أبطال الأساطير اليونانية وهي قصة الثقة والشجاعة والاستبشار . تأليف الكاتب الفرنسي المعروف أندريه جيد وترجمة الدكتور طه حسين بك .

✡ ✡ ✡

صدر في أول المحرم سنة ١٣٦٦ ﻫ العدد الأول من مجلة « الأمانة » لصاحبها ورئيس تحريرها الأستاذ محمد عبد المنعم إبرهيم المحامي حافلا بالبحوث والمقالات الاجتماعية والاقتصادية والأدبية والتاريخية . ويشرف على توجيه هذه المجلة سعادة الدكتور منصور فهمي باشا .

✡ ✡ ✡

« الله » : كتاب جديد أعده أخيراً للطبع الأديب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد ، تناول فيه بالبحث — بما عرف عنه من دقة وعمق — فكرة الله وكيف نشأت وتطورت في مختلف العصور وعند شتى الأمم ، وما ورد عنها في كتب الأديان .

وسيكون لهذا المؤلف القيم عند ظهوره أثر أي أثر في الأوساط الدينية والعلمية .

✡ ✡ ✡

يصدر قريباً للأستاذ نجيب العقيقي كتاب « المستشرقون » ، وهو بحث في الاستشراق منذ فجره حتى اليوم ، وأثره في النهضة الحديثة ، والاتصال السياسي والاقتصادي والعلمي بين الشرق والغرب . كما ترجم للمستشرقين والعلماء الذين عنوا بدراسة الشرق وعلوم الغرب ، وذكر المكتبات الشرقية في خزائن الغرب وفهارسها . فهو دائرة معارف استشراقية .

وضعت جامعة الدول العربية الأسس التي يقوم عليها « معهد الفقه الإسلامي » الذي سيلحق بكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول . والغرض من هذا المعهد هو النهوض بالدراسات الإسلامية وأن يكون منبعاً ينهل منه المشرعون .

٭٭٭

أصدرت مجلة « المنهل » — التي يصدرها بمكة الأستاذ عبد القدوس الأنصاري — عدداً ممتازاً حوى الكثير من البحوث الأدبية والتاريخية القيمة .

٭٭٭

فقد عالم الأدب الكاتب المعروف المرحوم حافظ نجيب الذي اشتهر بحوادث المخاطرة والمغامرة التي ظلت حديث الناس فترة طويلة . وقد اشترك الفقيد في معارك استرداد السودان ، واشتغل بالتدريس ، وأتحف المكتبة العربية بطائفة من كتب الثقافة والتربية نشرت بعضها « دار المعارف » منها : « الاعتدال » و « غاية الإنسان » و « الناشئة والغرور » و « دعائم الأخلاق » . وقد أصدر الكتابين الأولين باسم زوجته السيدة وسيلة محمد . ثم غزا سوق الأدب بسلسلة من الروايات المترجمة منها « جونسون » و « ملتون توب » . وفي أواخر أيامه اعتزل الكتابة وتفرغ لتدوين مذكراته ، وقبيل وفاته بدقائق كان يناقش أحد المخرجين السينمائيين الذي زاره محاولا الاتفاق معه على تمثيل إحدى مغامراته . وقد سقط القلم من يده وهو يكتب السطر الأخير في الجزء الأول من مذكراته .

٭٭٭

انتهى المجمع اللغوي من النظر في معجم حجار وهو يشتمل على أكثر من تسعين ألف كلمة مع ترجمتها إلى الفرنسية ، وقد اقترح المجمع على وزارة المعارف أن تقوم بطبع المعجم على نفقتها لعظم فائدته للمشتغلين بالترجمة .

٭٭٭

افتتح في الإسكندرية « المعهد الثقافي الجمركي » للعمل على رفع مستوى الثقافة بين موظفي الجمارك والضرائب ، وهو يعد أول معهد من نوعه في البلاد العربية .

السودان

ظهر كتاب « الحركة الفكرية في السودان » للأستاذ محمد أحمد المحجوب ، وهو يتناول نشأة الرأي العام في السودان وتطوره ونضوجه ويبحث في العوامل التي أدت ، وستؤدي إلى تدعيم أسس الأدب السوداني .

٭٭٭

أخذت رابطة « أدباء السودان » — وهي تضم النابهين من رجال الفكر السودانيين — في جمع المتداول من الشعر السوداني في ديوان كبير يضم أشتاته كما يضم أشعار الشاعر السوداني المشهور المرحوم التيجاني يوسف بشير صاحب ديوان « إشراقه » .

✡✡✡

يبلغ عدد المدارس الأولية في السودان ١٨٦ مدرسة بها ٢٦,٢٩٠ تلميذاً ، ولا تتعدى نسبة الذين يجدون أماكن لهم في هذا النوع من التعليم ١ ٪ من عدد الأطفال الصالحين للتعليم في البلاد . على أن هذا مقصور على شمالي السودان دون جنوبيه ، ولم تفتح في الجنوب إلا مدرسة أولية واحدة في جوبا عاصمة المديرية الاستوائية منذ شهرين . أما المدارس المتوسطة — وهي مرحلة بين التعليمين الابتدائي والثانوي — فلا يزيد عددها على إحدى عشرة مدرسة . ونسبة الطلبة الذين يقبلون في هذه المدارس لا تتجاوز ٠,٧ ٪ ممن هم في سن التعليم . ومعنى هذا أن ٩٤ تلميذاً من كل مائة تلميذ ممن أتموا مرحلة التعليم الأولي لا يستطيعون مواصلة دراستهم .

✡✡✡

بلغ ما خصص للتعليم من ميزانية حكومة السودان ٤٠٨,٠٠٠ جنيه ، منها ٥٤ ألف جنيه تصرف في مرتبات إدارة التعليم .

✡✡✡

توصل الباحثون إلى كشف معدن الأورانيوم — الذي تصنع منه القنابل الذرية — في مديرية بحر الغزال ، كما كشفوا مناجم هائلة للفحم والحديد فيها . ويقدرون مساحة الأرض التي فيها الحديد بثمانين ألف كيلو متر مربع . وقد نشط مكتب الأبحاث فأرسل موظفيه إلى هذه المديرية لوضع الخطط اللازمة لاستغلال هذه المناجم التي يقال إنها أغنى بقاع العالم .

فلسطين

أقامت اللجنة العلمية للمجلس الدجاني في القدس مهرجاناً للشعر اشترك فيه اثنا عشر شاعراً من مختلف مدن فلسطين ، وهذا أول حادث من نوعه في حياة البلاد الأدبية . كما أقام النادي الإسلامي الرياضي في يافا مهرجاناً آخر اشترك فيه كثير من الشعراء .

✡✡✡

تفتح دار الإذاعة الفلسطينية صفوفاً لتدريس المقالة والقصة والرواية والأحاديث المتنوعة ابتداء من أول السنة الجديدة قصد إعداد المحدثين في مختلف الموضوعات .

✡✡✡

نال الجائزة الأولى في مسابقة المقالة التي نظمتها محطة الشرق الأدنى السيدة صفية توفيق « مصر » ، والجائزة الثانية الآنسة حبيبة جبالي « لبنان » ، والجائزة الثالثة السيد إبرهيم مطر « فلسطين » . وكانت لجنة التحكيم مؤلفة من الأساتذة خليل السكاكيني وإسحق موسى الحسيني وعبد السلام البرغوثي .

✡✡✡

كان سمو نظام حيدر أباد قد تبرع بمبلغ ٧٥٠٠ جنيه للجامعة الإسلامية التي كان في النية إنشاؤها في القدس . وقد تقرر أخيراً أن تدفع هذه الهبة إلى دار الأيتام الإسلامية في القدس .

✿✿✿

أقام مجلس التعليم البريطاني في القدس حفلة لرجال التعليم تحدث فيها أحد الإخصائيين البريطانيين عن علاقة الأفلام السينمائية بالتعليم .

✿✿✿

ظهرت في الشهر الماضي جريدة يومية في يافا اسمها « الشعب » ، وبذلك بلغت الجرائد اليومية أربعاً .

لبنان

أصدرت «منشورات كنوز الفكر العربي» الترجمة العربية للقصة الخالدة « سلمبو » للكاتب غوستاف فلوبير بقلم سامي الرياشي ، بعد أن عنيت بإخراج كتابين آخرين نفيسين هما : « رسالة في معطيات الوجدان البديهية» لهنري برغسون ترجمة كمال الحاج ، و«ميكروميغاس» لفولتير ترجمة إلياس أبي شبكة .

✿✿✿

صدرت عن « دار العلم للملايين » الحلقة الأولى من سلسلة أعلام الحرية ، تحمل في طياتها دراسة فنية عن سعد زغلول رائد الكفاح الوطني في الشرق العربي بقلم الأستاذ قدري قلعجي . وقد تحرّى فيها كاتبها الدقة في التحقيق واستخلاص العبرة من مواقف سعد الوطنية ، فجاءت حياته عبرة لشباب العرب المتوثبين إلى الحرية المتعطشين إلى الاستقلال .

وصدر عن الدار نفسها أيضاً رسالة بعنوان «نحو التعاون العربي» بقلم الدكتور عمر فروخ ، وهي دراسة في إمكانيات البلاد العربية ، والنواحي التي يجدي فيها التعاون بينها ، بين فيها الكاتب روابط الأرض والجنس واللغة والتاريخ والثقافة والشعور والأماني والأهداف التي تضم الأقطار العربية إلى بعضها .

✿✿✿

ظهر أخيراً كتاب طريف الموضوع ، جميل الإخراج ، محلى بالرسوم ، بعنوان « الرياضة الشتوية في لبنان » بقلم منير غيتاني بطل التزلج المعروف . وهذا الكتاب هو الأول من نوعه في اللغة العربية ، ويعد خطوة جريئة في سبيل تعريف هذه الرياضة ونشرها في لبنان والأقطار الشقيقة ، ويبحث بنوع خاص في تاريخ مدارس التزلج في الألب ، وفي أصول هذه الرياضة الشتوية ، وخصائص الأرض الصالحة للتزلج .

✿✿✿

يفاوض وفد من قبل الحكومة اللبنانية آل خيرالله لشراء المكتبة الدولية النفيسة التي كان يملكها فقيد الأدب والصحافة المرحوم خيرالله خيرالله . وتضم هذه المكتبة أكثر من ألف مجلد تعالج كلها القضايا الشرقية ، وهي من الكتب النادرة التي اقتناها الكاتب السياسي عند ما كان يحرر في الجرائد الفرنسية بباريس .

***

يصدر قريباً في منشورات « دار المكشوف » كتاب « أشهر رسائل الغرام » لجامعه روبرت شرمان . وهو يضم أرق الرسائل العاطفية التي تبادلها بعض مشاهير الرجال والنساء من أدباء وشعراء وفنانين أمثال فكتور هيجو ، وألفريد ده موسيه ، وجورج صاند ، وروبرت شومان ، ودوستويفسكي ، وساره برنار ، وإبراهام لنكلن ، وألكسندر بوشكين وغيرهم ، وقد نقله إلى العربية سمير شيخاني من أسرة تحرير المكشوف .

***

في التاسع من ديسمبر الماضي فجعت العروبة في زعيم من أبر زعمائها ، وروع الأدب العربي بفقد ركن من أركانه ، ذلكم هو المغفور له الأمير شكيب أرسلان .

ومما ضاعف التأثر في هذه الخسارة الأليمة وفاته إثر عودته إلى وطنه لبنان بعد غياب دام ربع قرن . وكان رحمه الله يعتزم — قبل مرضه الأخير — السفر إلى دمشق لزيارة صديقه الرئيس القوتلي ، ولكن شاء ربك أن لا يرى سوريا في ثوب حريتها كما رأى لبنان في عهد استقلاله .

وللفقيد الكبير مؤلفات كثيرة منها : كتاب « الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية » وهو سجل جامع لما كان في ذلك الفردوس من رجال العلم وآثار الحضارة الإسلامية ؛ وكتاب « شوقي » وهو تحليل لنفسية أمير الشعراء ؛ وكتاب « لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ » و « ديوان الأمير شكيب أرسلان » .

تغمده الله بواسع رحمته وأجزل عزاء آله الأجلاء وأصدقائه في جميع الأقطار .

سوريا

في مقدمة المشروعات التي عزم نقيب المحامين على تحقيقها إنشاء مكتبة عامة تحمل أسماء أصحاب الجلالة والفخامة ملوك ورؤساء البلاد العربية تشتمل على خزائن خاصة تتوج كل واحدة باسم عظيم منهم لتكون مرجعاً ينتفع منه علماء الحقوق والمحامون والقضاة في سائر أنحاء البلاد .

***

صدر في حماه كتاب « وحي الجلاء » للسيد عبد الحسيب الشيخ سعيد ، وهو أبحاث سياسية واجتماعية وثقافية ، ومصدر بمقدمة تلخص تاريخ الوضع السياسي السوري وصلته بالوضع الدولي .

وأصدرت مطبعة الإصلاح في حماه « الوصية في الشريعة الإسلامية على المذهب الحنفي » .

***

صدرت المجموعة السنوية لمعهد الدراسات الشرقية بدمشق، وهي تحتوي على أبحاث علمية قيمة ، منها مقال عن المخطوطات العربية المحفوظة في أديرة معلولا للأب يوسف نصرالله ، وبحث عن الرحالة فولناي ، وتعليم اللغة العربية للسيد غولميه ، ومقال عن كتاب « الأمر والنهي » للمزني للمستشرق برنشويك ، ومقال عن أناشيد بدوية في صحراء سوريا الشمالية للمستشرق بوشمان ، وبحث تاريخي فني عن لوحة زيتية لدمشق محفوظة في متحف اللوفر للسيد سوفاجه . وبحث عن أقمشة عباسية وفاطمية مطرزة للمستشرق بفايستر .

✲ ✲ ✲

صدر « ديوان أبي فراس الحمداني » الذي عني بجمعه ونشره السيد سامي الدهان ، ويقع في ٦٢٥ صفحة من القطع الكبير ، وهو مصدر بدراسة عن الشاعر ، وعن طبعات الديوان في الشرق والغرب ، وبه وصف شامل للمخطوطات التي اعتمد عليها الناشر ، وفهرس عام مفصل لقصائد الديوان .

✲ ✲ ✲

تصدر في اللاذقية مجلة « القيثارة » لجماعة الشعر الجديد ، ولعلها المجلة الفريدة من نوعها في الشرق العربي ، إذ لم يسبق وجود مجلة مقصورة مواضيعها على قصائد من شعر الشباب .

✲ ✲ ✲

سيقدم للطبع قريباً الجزء الثاني من سلسلة « عبقريات شامية » للأستاذ إبرهيم الكيلاني يتضمن أبحاثاً عن ثلاث شخصيات دمشقية هم أحمد أبو خليل القباني مؤسس حركة التمثيل والموسيقى في الشرق العربي ، ومحمود أفندي حمزة مفتي الشام في أواخر القرن التاسع عشر . والشيخ طاهر الجزائري حامل لواء الإرشاد والتوجيه العلمي في بلاد الشام .

✲ ✲ ✲

عزم الأستاذ الرئيس محمد كرد علي على نشر مخطوطة « البيزرة » لمحمد بن الحسن البازيار الفاطمي. وكذلك عزم الأستاذ خليل مردم بك على نشر ديوان «ابن حيوس الدمشقي» وسيكون الكتابان ضمن مطبوعات المجمع لعام ١٩٤٧ .

✲ ✲ ✲

أهدى الأمير سيف الإسلام عبدالله إلى دار الكتب الوطنية في كل من سوريا ولبنان ١٤ مجلداً من المخطوطات العربية .

العراق

تعنى مديرية الأوقاف العامة في العراق ، بتنظيم خزانة كتبها ببغداد على الأسلوب العلمي الحديث المتبع في ترتيب الكتب وتبويبها وفهرستها . وتضم هذه الخزانة زهاء ٧٠٠٠ مجلد ، منها نحو ٤٠٠٠ مخطوط . وبين هذه المخطوطات ما هو نادر أو فريد ، مما يحرص الباحثون على الوقوف عليه ومعرفة مظنته .

✲ ✲ ✲

وضع الدكتور مصطفى جواد سفراً نفيساً عنوانه «شعراء العراق وأدباؤه في المائة السادسة للهجرة » تناول فيه بالبحث تراجم نحو من خمسين شاعراً وأديباً ، بعضهم ممن لا يعلم عنه إلا النزر اليسير . وقد نشر المؤلف فصولا منه في مجلة « الغري » النجفية .

✲ ✲ ✲

صدر كتاب « تجديد مناهج إعداد المعلمين في العراق » للدكتور خالد الهاشمي ، عميد دار المعلمين العالية ببغداد . وقد وضعه بالإنكليزية ، وعني بنقله إلى العربية الأستاذ عبد العزيز البسام .

✡✡✡

أصدرت شركة الرابطة للطبع والنشر المحدودة ببغداد ، ديوان الشاعر الكردي المشهور «الشيخ رضا الطالباني» ، المتوفى سنة ١٣٢٨هـ (١٩١٠م) مصدراً بصورته وبكلمة « الإهداء » بالعربية لحفيده الشيخ علي الطالباني ، يليها ترجمة الشاعر لفتح الله أسعد . وقد حوى الديوان قصائد ومقطعات مختلفة بالعربية والكردية والفارسية والتركية ، وكان يجيد النظم بهذه اللغات الأربع .

✡✡✡

ظهر في النجف كتاب « الأرض والتربة الحسينية » للأستاذ الإمام كاشف الغطاء . بحث فيه في تاريخ التربة الحسينية بكربلاء ، ومنشئها ، ومقامها عند الشيعة الاثنا عشرية .

✡✡✡

فرغ الأستاذ خضر العباسي ، من « تاريخ الإمارة العباسية » التي قامت في شمالي العراق بعد سقوط الخلافة العباسية بيد المغول . وقد دام حكم هذه الإمارة من سنة ٧٠٠ إلى ١٢٥٩ هـ وكانت عاصمتها بلدة « العمادية » . والجدير بالذكر أن المؤلف ينتسب إلى هذه الأسرة العباسية .

✡✡✡

نشر الأستاذ سليمان أحمد العيسي ، ملحمته « شاعر في الإذاعة » ، وهي رواية في قصيدة من البحر الخفيف ، حاول المؤلف فيها أن يجمع بين الجد والهزل .

✡✡✡

وضع الدكتور عبد الرحمن الجليلي ، سفراً نفيساً في « النظام النقدي في العراق » . وقد نال به مؤلفه شهادة الدكتوراه في الحقوق .

ونشر الأستاذ المحامي صادق مهدي السعيد ، « محاضرات في قانون الانتخابات النيابية » .

وأصدر الأستاذ جبرائيل البنا ، صاحب المؤلفات الحقوقية المختلفة ، كتاباً في «الالتزامات» .

✡✡✡

انتخب الاستاذ المحامي عباس العزاوي ، رئيساً للجنة التأليف والترجمة والنشر في العراق . والأستاذ العزاوي في طليعة المؤلفين في تاريخ العراق . وقد ظهر من مؤلفاته : « تاريخ العراق بين احتلالين » (٣ مجلدات) و « تاريخ اليزيدية وأصل عقيدتهم » و « عشائر العراق » . ونشر « منتخب المختار في تاريخ علماء بغداد » للتقي الفاسي ، و «النبراس في تاريخ بني العباس» لابن دحية الكلبي .

✡✡✡

في ١٧ نوفمبر الماضي توفي ببغداد الشاعر الشعبي المطبوع « الملا عبود الكرخي » عن سبعة وسبعين عاماً . فقد ولد ببغداد سنة ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩ م) وتعلق منذ شبابه بالشعر العامي حتى صار رأساً في هذا الفن . وصف بشعره الحالة الاجتماعية العراقية خير وصف ، بلغة يطرب لها العامة ويأنس بها الخاصة . وقصائده التي نشرت في كثير من صحف العراق ، جمعت في ديوان حافل تناقلته أيادي الأدباء ، ولا يستغني عنه من يعني بدرس اللغة العامية العراقية . وقد كان الملا عبود إلى ناحيته الشعرية ، من رجال الصحافة في العراق : فأصدر جريدة « المزمار » ثم « الكرخ » ثم « الكرخي » ثم « الملا » ثم عاد إلى إصدار « الكرخ » .

✡✡✡

كان الدكتور داود الحلبي الموصلي قد وضع معجما في أمراض الجلد زادت مصطلحاته على ثلاثة آلاف مصطلح . وقد عرض هذا المعجم في المؤتمر الطبي الذى عقد أخيراً في حلب ، ورؤي حينئذ أن يتولى مجمع فؤاد الأول للغة العربية بالقاهرة النظر فيه لإقراره والإشراف على إصداره . وبعد أن درسته اللجنة الطبية بالمجمع وافقت عليه . وقد رأى معالي وزير المعارف تشجيع الدكتور الحلبي على مواصلة أبحاثه اللغوية فأصدر قراراً بمنحه لقب « عضو مراسل » بالمجمع .

✡✡✡

أصدرت لجنة الترجمة والتأليف والنشر العراقية ديوان « التيار » للشاعر المعروف الأستاذ أحمد الصافي النجفي . والديوان لون جديد من النغمات الشعرية فيها عمق وإرهاف حس .

كما أصدرت « النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس » لابن دحية الكلبي . وقد صححه وعلق عليه وقدم له الأستاذ عباس العزاوي المحامي .

الهند

احتفلت الجامعة الملية في دهلي بيوبيلها الفضي . وهذه الجامعة كان قد وضع أساسها الزعيم المرحوم مولاي محمد علي عندما قاطع الطلبة مدارس الحكومة سنة ١٩٢١ . ثم اعتنى بأمرها من من بعده الزعيمان المرحومان الحكيم محمد أجمل خان والدكتور مختار أحمد الأنصاري . وقد رأس الاحتفال سمو محمد حميدالله خان أمير بهو بال ، وهذه الجامعة موضع عناية المهاتما غاندي والزعماء جميعاً .

✡✡✡

قرر المؤتمر الوطني الهندي في احتفاله السنوي الذي أقيم أخيراً في مدينة ميرث برياسة الزعيم أشار يا كربلاني تكوين لجنة من أعضائه للبت في أمور التعليم والتربية ، كما قرر تأسيس لجنة قانونية من كبار رجال القانون المشتركين فيه للاستشارة عند الحاجة في التقلبات التشريعية والقانونية في البلاد .

✡✡✡

تعقد « جمعية العلاقات الدولية » بالهند في مارس المقبل مؤتمراً أسيويا لبحث المسائل الثقافية والاجتماعية المشتركة بين دول المشرق ؛ وقد وجهت الدعوة إلى جميع الدول العربية ، وستمثل في هذا المؤتمر جامعتا فؤاد الأول وفاروق الأول بمصر .

✡✡✡

اعتزمت « الجامعة الإسلامية » في دهلي الاحتفال بعيدها المئوي . وقد أرسلت دعوة رسمية إلى الأزهر باعتباره أقدم جامعة دينية في العالم للاشتراك في هذا المهرجان .

✡✡✡

يعقد في أواخر هذا الشهر مؤتمر « كل الهند » ، وسيحضره مندوبات من الاتحادات النسائية العربية .

شمال أفريقية

وصلت إلى برقة أخيراً لجنة من علماء الآثار والمنقبين البريطانيين لزيارة الآثار الإفريقية والرومانية في برقة . وتعمل الحكومة الآن على إعادة الآثار التي نقلها الإيطاليون إلى إيطاليا خلال الحرب الأخيرة .

☆☆☆

افتتح النادي الأدبي في طرابلس الغرب موسم المحاضرات هذا العام بمحاضرة للأستاذ حليفة الزنتاني موضوعها : « أثر الخطابة في نهضة الأمم » شرح فيها ما للخطابة من أثر في النهوض بالمجتمع أدبيا وسياسيا واقتصاديا . وقال : إذا نظرنا إلى النهضات الاجتماعية والوطنية في البلاد العربية وجدنا أبطالها من أساطين الفصاحة وأمراء البيان كالمصلح جمال الدين الأفغاني والزعيم مصطفى كامل .

☆☆☆

غادرت مدينة طرابلس الغرب في الشهر المنصرم بعثة علمية إلى القاهرة للدراسة في معاهدها على نفقة إدارة المعارف في طرابلس .

☆☆☆

في سنة ١٩٣٦ أسس جماعة من الأدباء التونسيين « جمعية الأدب التونسية » لتسهم في الأدب والفن بتونس ، وهي الآن من أهم الجمعيات الثقافية في أفريقية الشمالية ، فقد أقامت حوالي خمسين اجتماعاً للآداب والفنون أهمها مهرجان الشعر الذي أقيم أخيراً احتفالا بذكرى الشاعرين : أبي القاسم الشابي ومحمود قبادو .

وقد مثلت الجمعية عدة مسرحيات عربية منها « مجنون ليلى » لشوقي بك و « عواطف » لتيمور بك ، و « العصفور في القفص » و « من واحدة لأخرى » لمحمود أصلان ، وغيرها

انجلترا

أصدر المفكر المعروف برنارد رسل كتاباً نفيساً كان يشتغل في إعداده منذ سنوات بعنوان « تاريخ الفلسفة الغربية ، وصلتها بالظروف السياسية والاجتماعية منذ أقدم العصور حتى اليوم »

[A History of Western Philosophy by Bertrand Russell]

وسوف يكون هذا المجلد الضخم الذي تزيد صفحاته على التسعمائة مرجعاً للمشتغلين بالفلسفة . وإن أسلوب صاحبه الرياضي وما يتميز به من دقة ووضوح يوطىء عرضه إلى مستوى أي قارئ مثقف .

ويدعو رسل في هذا الكتاب إلى أنه ينبغي إن أردنا تفهم الفلاسفة أن نلم بجانب من الظروف التي كانوا يعيشون فيها ، ذلك « لأن لهذه الظروف أثرها البالغ في توجيه أفكار

الفلاسفة ، على أن لفلسفتهم أثرها البالغ أيضاً في توجيه الظروف التي كانت تحيط بهم » . ومن ثم كان هذا الكتاب دراسة لتفاعل الحوادث والأفكار على مر العصور .

وفي الكتاب كثير من أشكال النقد الأصيل الممتع ، من تجريح لفلسفة أفلاطون ومنطق أرسطو ، حتى التشكك في منطق العلوم الحديث والقول بأن الإسراف فيه لون من ألوان الجنون

✡✡✡

صدر كتاب «الضغط السوفيتي على العالم الغربي» [The Soviet Impact by Prof E. H. Carr] وهو يجمع سلسلة من المحاضرات ألقاها الأستاذ كار في أكسفورد في مطالع هذا العام عن أثر النظام السوفيتي من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية على حضارة البلاد الغربية الأخرى ، ويرى المؤلف أن فكرة الفردية التي شاعت في أوربا منذ عصر النهضة لابد أن تصل إلى لون من ألوان التوفيق بينها وبين سيطرة الدولة التي تدعو إليها روسيا وتؤمن بها .

✡✡✡

من الكتب القيمة التي ظهرت أخيراً كتاب بعنوان « دراسات في تطور الرأسمالية » [Studies in the Development of Capitalism by Maurice Dobb] استغرق إعداده من مؤلفه حوالي العشرين عاماً ، فخرج دراسة ممتازة في نظريات الاقتصاد وتاريخه تتناول الحقائق الخاصة بتاريخ أوربا منذ ثلاثة قرون ، وتستعرض أحوال المجتمع منذ انتهاء الرقيق في عهد الإقطاع حتى الثورة الصناعية ونظريات ماركس . ويعتبر هذا الكتاب من أهم ما ظهر من البحوث الاقتصادية والمؤلفات التي تلقي ضوءاً على مشكلات العالم في العصر الحاضر .

✡✡✡

من العبارات التي ذكرها برتراند رسل عن الصين قوله : «حين ذهبت إلى الصين ذهبت كي أعلم . غير أني يوماً بعد يوم كنت لا أفكر فيما أعلم بقدر تفكيري فيما يجب أن أتعلم . . » وقد صدر أخيراً عن حكمة الصين وفلسفتها ، وما يتميز به أهلها من هدوء النفس والتسامح كتاب ممتع بقلم سفيرهم في لندن بعنوان « حياة الصينيين في نظر الغربيين» [The Chinese Way in Western Light by F.T.Cheng] يدور حول فلسفة أهل الصين في الحياة وأثر كونفوشيوس فيهم .

✡✡✡

بيعت أخيراً صورة بيضاوية صغيرة تعود إلى عام ١٦٣٢ من ريشة الرسام رمبراندت رسمها لنفسه ، بمبلغ ثلاثة عشر ألفاً من الجنيهات .

✡✡✡

يتسابق كثير من الدول الآن في الاستيلاء على المناطق القطبية التي يكثر بها معدن الأورانيوم الذي يستخدم لاستخراج الطاقة الذرية . وقد أبحرت أخيراً من إنجلترا جماعة من العلماء تضم إخصائيين في علم النبات وطبقات الأرض لمواصلة البحث الذي بدأ عن هذا المعدن في تلك المناطق منذ سنة ١٩٤٣ .

✡✡✡

منحت جائزة نوبل في الطب وعلم وظائف الأعضاء التي تبلغ ٨٥٠٠ جنيه للأستاذ هرمان مولر أستاذ علم الحيوان بجامعة إنديانا بأمريكا ، عن أبحاثه في علم الوراثة . وهو ثاني من يظفرون بهذه الجائزة من علماء الحيوان . وقد درس على الدكتور مورجان أول من ظفر بها ، ثم اشتغل بالبحث والتعليم في موسكو ثم في اسكتلندا . وأهم أبحاثه ما قام به على ذباب الفاكهة والتعجيل

بتطورها تعجيلا يفوق ما يقع في الطبيعة ١٥٠٠ مرة . وقد بعثت نتائج أبحاث مولر التفاؤل عند العلماء بمستقبل الإنسان لو طبقت عليه مثل طرق مولر في انتقاء الفضائل وتوليدها .

✡✡✡

« راموز » هو أشهر كتاب سويسرا المعاصرين ، وقد ذاعت كتبه في أوربا منذ سنوات طوال . وقد ظهرت أخيراً هنا ترجمـة حسنة لإحدى قصصه بعنوان « انتصار الموت » [The Triumph of Death by C. F. Ramuz] تدور حول قرب نهاية العـالم ، وبها دراسة لمختلف القيم والتقاليد التي يؤمن بها الناس ويتواضع عليها المجتمع .

✡✡✡

صدر أخيراً كتاب « سوريا على مر العصور » [Syria. An Historical Appreciation by R. Fedden] وهو يصف سوريا وآثارها وتقاليد أهلها وخصائصهم وصفاً مطولا ، ويتحدث عن تاريخها القديم والحديث ، وأثر موقعها الجغرافي بين الشرق والغرب في مركزها السياسي . والكتاب مزود بالرسوم شائق العرض والإخراج .

✡✡✡

ظهر أخيراً في أمريكا كتاب عن فلسطين عنوانه : « فلسطين . المشكلة والموعد » [Palestine Problem a Promise by R. B. Nathan, O. Gass & D. Creamer] — كتبه إخصائيون في الاقتصاد يعرض مشكلة اليهود السياسية ويتحدث عن الصهيونية وعن مختلف الحلول التي يمكن أن تلتمس لهذه المشكلة .

وهو كتاب كبير يقع في حوالي السبعمائة صفحة ، ويحاول مؤلفوه أن يلتزموا جادة الحيـاد فيما يخرجون به من نتائج وأن يعالجوا المشكلة باعتبارها في الصميم مشكلة اقتصادية ينبغي أن يترك حلها للعرب واليهود معاً .

✡✡✡

بمناسبة عيد الميلاد تغص المتاجر وتشتغل أذهان الناس بانتقاء الهدايا التي تكاد توجب التقاليد تبادلها . ومن أهم ما يقبل عليه الناس كافة إهداء الكتب بهذه المناسبة ، ولهذا تحفل الصحف السيارة ، إلى جانب المجلات والصحف الأسبوعية ، بالإعلانات عنها . هذا إلى تسهيل إهداء الاشتراكات في الدوريات ، بل هم يتهادون الاشتراكات في المكتبات ودور القراءة ، أو الصكوك التي يستطيع المهدى إليه أن يبتاع بها ما يريد من الناشر . ومن أهم النواحي في ذلك أيضاً كتب الأطفال ، وشدة العناية في إخراجها والإبداع والتنوع فيها — حتى لقد نشرت إحدى دور النشر الكبيرة إعلاناً مبوباً عن مختلف كتب الأطفال التي تناسب كل سن ، فهناك كتب للأطفال من سن ٥ — ٧ ثم من ٧ — ٩ ثم من ٨ — ١١ ثم من ١٢ — ١٦ . وقد نشر الملحق الأدبي لجريدة التيمس هذا الأسبوع قسما خاصا بنقد كتب الأطفال .

✡✡✡

كاف المؤرخ بتلر بكتابة التاريخ الحربي للحرب العـالمية الأخيرة ، وينتظر أن يستغرق عمله عشر سنوات على الأقل مع كل التسهيلات التي زود بها وطرق التبويب والتنظيم وكثرة المساعدين الذين سوف يعينونه .

وبهذه المناسبة نذكر أن الجنرال إدموندز الذي كلف كتابة تاريخ الحرب العظمى السابقة لم يفرغ بعد من مهمته ، وقد تخطى اليوم الخامسة والثمانين من عمره . ذلك لأن الوثائق التي يرجع إليها تزيد على ما يشغل خمسة وعشرين ألفاً من الصناديق ، وقد ظهر له أخيراً مجـلد جديد عن تاريخ حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ .

أمريكا

منحت أكاديمية العلوم والفنون في أسلو بالنرويج ستة من العلماء والأدباء الأمريكيين ثلاثاً من جوائز نوبل . وهي جائزة نوبل للسلام نالتها الأستاذة بالك بالاشتراك مع الدكتور موط من المشرفين على أعمال جمعية الشبان المسيحيين . ونال جائزة العلوم الطبيعية الأستاذ برس برمدجمان من جامعة هارفارد . ومنحت جائزة العلوم الكيميائية لثلاثة من العلماء بجامعة كورنل ومن معهد روكفلر للأبحاث الطبية .

✡ ✡ ✡

أعلنت الجمعية الفنية للقوى الذرية التي يرأسها العالم الشهير ألبرت أينشتين فتح اكتتاب لجمع مليون دولار للقيام بحملة علمية في جميع أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية للاستفادة من استعمال القوى الذرية في الوسائل الاجتماعية .

✡ ✡ ✡

نجحت التجربة التي أجريت أخيراً لمعرفة مقدار وضوح الصوت في المحادثات التليفونية بين سيارات وبعض الأماكن البعيدة . وقد أصبح من المنتظر أن يعمم استعمال التليفون من سيارات في جميع أنحاء أمريكا . . وهكذا ستصبح السيارة الحديثة في أمريكا تحتوي على راديو ومدفأة وتليفون ...

✡ ✡ ✡

من الكتب التي ظهرت أخيراً كتاب « تاريخ الشعر الأمريكي » بقلم هوراس جريجوري وماريا زاتورنسكا [A History of American Poetry by H. Gregory and M. Zaturenska] وهو يعرض تاريخ الشعر في أمريكا في المدة بين عام ١٩٠٠ و ١٩٤٠ كما يعرض لشخصيات الشعراء الأمريكيين البارزين في هذه الفترة .

✡ ✡ ✡

إن السر في عظمة تولستوي الأدبية هو في العوامل المختلفة التي أثرت في حياته . وقد صدر أخيراً كتاب : « ليو تولستوي بقلم إرنست سيمونس » [Leo Tolstoy by Ernest J. Simmons] . وهذا الكتاب يعطي صورة كاملة لحياة هذا الأديب العظيم ، ويحاول أن يسبر أعماق هذه الحياة الفذة ، ليكشف عن العوامل والنوازع الخفية المستترة وراءها .

✡ ✡ ✡

أصـدر لاجوس إجرى كتاباً عنوانه : « كيف تكتب قصة أو تمثيلية أو أقصوصة » [How to plot a novel play, or short story by Lajos Egri] وكان المؤلف قد أصدر سابقاً كتاباً عنوانه « كيف تكتب تمثيلية » [How to write a play] ثم عاد فأدخل بعض التعديلات في هذا الكتاب وأعاد نشره في صورة جديدة ذات فائدة كبيرة للكتاب الناشئين إذ يعينهم هذا

المؤلف الجديد إلى حد كبير على فهم القواعد الفنية التي يجب أن تراعى في كتابة القصة ، وفيه إلى جانب ذلك تحليل فني لبعض القصص والتمثيليات الشهيرة .

✡✡✡

نشرت جامعة برنستون فى الولايات المتحدة كتاب « تاريخ الشعب الأمريكي » بقلم الأستاذين فرحات زيادة وإبرهيم فريجي تحت إشراف العلامة الدكتور فيليب حتي الذي قدم له بكلمة قيمة . والكتاب أول مصنف عربي يشرح نشوء الشعب الأمريكي وتاريخه . وقد صدر عن المطابع الأمريكية ببيروت .

✡✡✡

أصدر الأستاذ الشيخ خليل الرواف إمام جمعية الشبان المسلمين في نيويورك ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية للعلامة الشيخ عبدالله علي يوسف . ومن محاسن هذه الترجمة أنها مقرونة بالنص العربي . وهي تقع في مجلدين كبيرين يحتوي كل منهما على ١٠٥٠ صفحة .

✡✡✡

تحتفل جامعة برنستون في مارس المقبل بذكرى مرور مائتي سنة على تأسيسها . وقد دعي إلى الاشتراك في هذا الاحتفال الأزهر وجامعتا فؤاد الأول وفاروق الأول بمصر .

✡✡✡

عاد إلى نيويورك الأديب إسكندر اليازجي بعد أن قضى سنوات الحرب معتقلا في الصين طيلة الاحتلال الياباني .

✡✡✡

ألقى الدكتور فيليب حتي رئيس قسم العلوم والآداب الشرقية في جامعة برنستون — عقب عودته من رحلته في بلاد الشرق — خطاباً مستفيضاً في الحفلة التي أقامتها لجنة مؤسسة الدكتور رزق حداد بنيويورك تناول فيه الحالة الاجتماعية في البلاد الشرقية والتطورات النفسية بين سكان الشرق العربي .

رُوسْيا

أعيد افتتاح متحف الشاعر العاطفي « بوشكين » للفنون الجميلة بعد أن ظل مغلقاً سنوات خمساً ، وتكلفت أعمال التعمير التي أجريت به تسعة ملايين روبل ، ومن بينها إصلاح وتركيب عشرة آلاف متر مربع من الزجاج في سقف المتحف .

وفي المتحف صالات لعرض لوحات من الفن الأوربي الأصيل يرجع عهدها إلى بداية عصر النهضة حتى منتصف القرن التاسع عشر ، وأبهاء غاصة بتماثيل طبق الأصل من الفن الإغريقي — الروماني ، ومجموعات كاملة من الفن الأسيوي .

✡✡✡

ظهرت رواية « رسوم ستالينجراد » التي كتبها الروائي المهندس جروسمان في الخنادق وتحت أزيز الرصاص ودوي القنابل ، ووصف فيها الحيـاة بين خرائب عروس الفولجا في أثناء

الحصار الألماني ، والمؤلف تلميذ الأديب الأشهر مكسيم جوركي ، وقد سبق أن اشتهر برواية «ستيبان كولوشجين » التي ضمنها ملاحظاته ومشاهداته خلال السنوات العشر التي قضاها في مناجم الفحم بحوض الدونتز ، ويشبهها النقدة برواية «الأم» لجوركي .

✲✲✲

في موسكو ثلاثة روائيين مهندسين ظفروا بجائزة ستالين الأدبية ، أولهم فاسيلي جروسمان ، وثانيهم المهندس البحري جيتكوف الذي اشتهر برواياته الطلية للأطفال وضمنها اختباراته في البحرية مقرونة بمعلومات فنية مبسطة ، وثالثهم كريموف مؤلف « رسائل من الجبهة » وروايات أخرى بسط فيها العمليات الحربية لمدارك العامة .

✲✲✲

أنشئت وزارة جديدة للسـينما ، وسوف تسند للروائي ميخائيل شولوخوف مؤلف رواية « الدون يجري في هدوء » التي بيع منها عشرة ملايين نسخة .

✲✲✲

بلغ ما ربحه المخرج إيزنشتاين من فيلمه الأخير « بطرس الأكبر » ، الذي استغرق العمل فيه عامين وعرض في دور السينما الرئيسية بعواصم أوربا ، عشرة ملايين روبل .

✲✲✲

تحتل مؤلفات ستالين الصدارة في المكتبة السوفيتية ، وقد طبع من كتابه الأخير « مذكراتي من عام ١٩٠٧ — ١٩١٧ » أربعون مليون نسخة وترجم إلى ستين لغة .

✲✲✲

من المؤلفات الفكهة التي ظفرت بنجاح منقطع النظير « مذكرات قرد » للأديب كزوخشنكو حيث سخر فيها بنظرية داروين عن العلاقة المزعومة بين الإنسان والقرود .

✲✲✲

لقح العالم ميشيل زافدوفسكي بعض النعاج بمادة تفرزها غـدة موجودة في القسم الأسفل من الدماغ فكانت النتيجة أن تضاعف نسلها وبلغ عدد الحمل في البطن الواحـدة ثمانية حملان على حين لم يكن يتجاوز الحملين عادة .

فرنسا

لأول مرة تمنح إجازة دكتوراه شرف بالراديو ، فإن الأب مورو عميد جامعة منتريال منح هذه الإجازة لعميد جامعة كاين يوم ٣٠ نوفمبر الماضي « تكريماً للفكر الفرنسي » .

✲✲✲

اخترع المسيو روبير جيفروي آلة للترجمة بلغات متعددة في وقت واحد ، وهي الطريقة التي كانت متبعة في قضية نورمبرج . وهذه الآلة تسمح باستعمال الطريقة المتقدمة في المحادثات الخاصة . وقد سجل المخترع اختراعه وسافر إلى الولايات المتحدة معتزماً أن يخرجه إلى الصناعات المتداولة .

✡✡✡

عقد المجمع الطبي جلسة غير عادية يوم ٢١ نوفمبر الماضي لمناسبة مرور ٥٠ سنة على وفاة باستور . وقد تحدث المسيو روسي عن الدور الذي قام به باستور قائلا : إن عظمة الرجال في هذا العصر ترجع إلى عدم الفصل بين حبهم للعلم وحبهم للإنسانية » . ثم تحدث الأستاذ باستور فاليري من أعضاء المجمع العلمي الفرنسي عن الدراسات التي قام العلامة الكبير في البيكتريا ، وختم كلامه قائلا : « لقد انقضى خمسون عاماً على وفاة باستور ولكن عمله لا يزال في ذروة المجد » .

✡✡✡

تم أخيراً في وزارة الخارجية الفرنسية توقيع اتفاق ثقافي بين فرنسا وهولندة يرمي إلى تقوية الروابط الثقافية المدرسية والعلمية والفنية بين البلدين .

✡✡✡

توفي في باريس يوم ١٦ نوفمبر الماضي لوسيان ألفونس دوديه ثاني أنجال ألفونس دوديه ، وكان كاتباً موهوباً امتاز بالدقة والعمق . ومن مؤلفاته : المجهولة وخيال الأمبراطورة أوجني وحياة ألفونس دوديه والطريق الميت وبيت النمل والحجم الجديد وعمر العقل والعيون الجديدة .

✡✡✡

ألقى المسيو هريو محاضرة عن بسكال فقال : « إنه تصور — وهو في غرفة منفردة دون أن يكون لديه معمل — الفضاء الذي قاسه علماء الفلك ، كما تصور العالم الذري ، وعبر بخطوط من النور عن الحقائق التي أثبتها علماء الطبيعة » .

✡✡✡

بلغ عدد ما تحصل من بيع مكتبة آشيل بيرو محرر الطان السابق عشرة ملايين وخمسمائة ألف فرنك . وقد خصص هذا المبلغ بناء على وصيته لصندوق إعانة المتقاعدين من الصحفيين .

✡✡✡

تجري منذ بضع سنوات أعمال التنقيب عن الآثار في ناربون ، وقد كشفت مقبرة مسيحية من عهد الرومان ، كما كشفت أخيراً مقبرة أثرية يحتمل أن تكون من مقابر القرن الثالث وبها ستة توابيت منها خمسة من المرمر.

✡✡✡

أصدرت إدارة السينما أخيراً بياناً يؤخذ منه أن عدد دور السينما في مدينة باريس ٣٤ وفي الضواحي ٤٧٤ ، وفي جهات فرنسا الأخرى ٥,١٢٢ داراً تعرض أفلاماً في الحجم العادي و١,٧٩٤ داراً تعرض أفلاماً في حجم أصغر .



رسائل القراء

١

ديوان أسامة بن منقذ

لقد قرأت النقد الذي دبجته يراعة الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر لكتاب الأستاذ محمد أحمد حسين الموسوم باسم « أسامة بن منقذ » ، ولقد قرأت الكتاب المنقود فأعجبت بالكتاب القيم والنقد النزيه ، ورأيت أن حضرة المؤلف يذكر في مقدمة كتابه الذي قدمه بها عدم استطاعته العثور على ديوان أسامة . وكذلك الأستاذ الناقد يقول إن لأسامة « ديواناً مفقوداً رآه ابن خلكان بخطه في مجلدين » ويناشد الاستاذ أحمد محمد شاكر مؤلف الكتاب أو غيره من أفاضل الباحثين أن يبحثوا عن الديوان وينشروه

وأنا أرسل هذه الكلمة لأخبر المؤلف والباحثين أنني رأيت ديوان « أسامة ابن منقذ » واطلعت عليه عند صديقي السيد عبد الرحمن صالح الراوي . وهذا الديوان على ما أذكر يقع في حوالي ٤٠٠ صفحة متوسطة الحجم على ورق أسمر صقيل لماع . مخطوط بخط جميل للغاية يسر الناظر ويبهج الخاطر من حسن خطه واتساقه بعناوين مذهبة مزخرفة . وقد خط قبل نيف وستمائة سنة ، وقد أرخه صاحبه عند انتهائه من خطه .

والديوان يقع في مجلد واحد بغلاف جلدي جميل ، وفي الصفحة الأولى قد كتب عنوان الكتاب بخط مذهب كبير ، وتجد في نفس الصفحة التي كتب عليها العنوان ، اختاماً مختلفة تبين أسماء مالكيه وأسماء مهديه ، ويظهر أنه تنقل بين أكثر من شخص واحد . وعليها اسم المدينة المنورة ، وقد كتب عليه أحدهم أنه اشتراه بـ ٤٥ جنيهاً .

والديوان مقسم إلى أبواب مختلفة من مديح وغزل وفروسية وحماسة وإخوانيات ووصف للحروب والتعازي والرثاء وغيرها من أبواب الشعر .

ولقد أطلع صديقي السيد عبد الرحمن الراوي — صاحب الكتاب — الأديب الفاضل الأستاذ المازني عند زيارته الأخيرة للعراق على هـذا الديوان فأخذه الأستاذ

المازني معه إلى مصر على أمل تحقيقه ونشره في إحدى دور الطباعة . ولكن الأستاذ عاد فاعتذر بكثرة أشغاله وضيق وقته وغلاء الطباعة وعدم توافر الورق اللازم لطبعه وكتب للسيد عبد الرحمن الراوي بذلك .

ولقد كتب السيد مشكور الأسدي فصلا عن الديوان في جريدة الأخبار البغدادية بعد أن اطلع عليه لدى الأستاذ المازني في مصر .

عبد الملك السيد
كلية الحقوق ببغداد

٢

كتاب التصوف وفريد الدين العطار

أخرج الدكتور عبد الوهاب عزام بك كتابه القيم « التصوف وفريد الدين العطار » فسد فراغا في عالم التصوف ؛ وقد نقده الأستاذ محمد عبد الغني حسن في مجلة الكتاب الغراء ، وبين في هذا النقد أنه لم يفهم جملة « والأحوال تأتي من غير الوجود » من قول القشيري : «الأحوال مواهب ، والمقامات مكاسب ، والأحوال تأتي من غير الوجود، والمقامات تحصل ببذل المجهود » . وقد رد الدكتور على هذا النقد في مجلة الكتاب أيضاً وجاء في آخر رده ما نصه : « وأما قول القشيري " الأحوال مواهب ، والمقامات مكاسب ، والأحوال تأتي من غير الوجود ، والمقامات تحصل ببذل المجهود " وسؤال الأستاذ عن معنى قول هذا المؤلف " والأحوال تأتي من غير الوجود " فقد فهمت أن المراد " غـيَر الوجود " وأسقط الطابع الشكل . على أن الدكتور فؤاد الأهواني قال في كلمة له نشرتها مجلة الثقافة إنه رأى هذه الجملة في موضع آخر وفيها " عين الوجود " بدل " غير الوجود " » .

والقارىء لهذا الرد تعوزه إطالة الفكرة حتى يمكنه أن يفهم معنى هذه الفقرة ، وإني أسهل على القارىء ذلك بأن أبين له ما تحمله هذه الفقرات من معنى حسب إدراكي فأقول : الأحوال مواهب أي هبة من الله تعالى ، ومعلوم أن صاحب الحال متغير على مقتضى التجلي الإلهي ؛ والمقامات مكاسب أي يكتسبها المريد بالاجتهاد في العبادة ، والأحوال تأتي من غير الوجود ، أي من الله تعالى إذ أنها هبة كما ذكر المؤلف وهي

من الواجد تعالى ، والمقامات تحصل ببذل المجهود ، أى أن المقامات لا يصل الإنسان إليها ولا يترقى فيها إلا ببذل مجهود كبير من العبادة والتقوى .

شطانوف محمد منصور خضر

٣

مساحة الكويت

قرأت في « الكتاب » الغراء ، عدد يوليو سنة ١٩٤٦ ، تصحيحاً لما كان قد ورد في عدد يونيه سنة ١٩٤٦ عن مساحة أراضي الكويت . فخلافاً لما جاء في التصحيح أقول إن مساحة أراضي الكويت لا تزيد على ٤٠٠٠ ميل مربع وسكانها ١٢٠ ألف نسمة، منهم ٨٠ ألف في نفس المدينة والباقي من العشائر خارجها . ومساحة العراق ٢٠٠ ألف ميل مربع .

وقد أيد ذلك الأستاذ الرحالة أمين الريحاني في كتابه ملوك العرب ص ١٤٦ ج ٢

زين العابدين عبد القادر

٤

موقع مسقط عاصمة عمان

قرأت في كتاب « مهد العرب » للأستاذ الكبير والعلامة المدقق الدكتور عبد الوهاب عزام بك : « . . . ومسقط حاضرة البلاد اليوم وهي على أحسن مرافئ الخليج الفارسي . . . الخ . . . » ص ١١٤ .

يفهم القارئ من قول الدكتور أن مدينة مسقط عاصمة عمان ، واقعة على الخليج الفارسي . وهو خلاف الواقع إذ أن مدينة مسقط تقع على خليج عمان ، المتفرع من البحر العربي ، أي في الجنوب الشرقي للخليج الفارسي . هذه ملاحظة بسيطة عنت لي في أثناء مطالعتي لهذا الكتاب الثمين الذي له مكانته في الأوساط العربية ، رغم صغر حجمه . وإنني لولا اعتقادي بأن أستاذنا الكبير عبد الوهاب عزام بك سيسر عندما يقرأ هذه الملاحظة لما أرسلتها إلى النشر .

خالد خلف النيلجي
أحد تلامذة البعثة الكويتية بمصر

٥

الشوامخ (١)

سيدي الدكتور محمد صبري المحترم

من صميم قلبي أشكر لك مجهودك النافع ، وأجلّ فيك علمك الواسع لإخراجك أربعة أجزاء من كتابك « الشوامخ » ، وإنا لمعترفون لك بهذا الجميل ، شاكرون لك ذياك الصنيع . فقد سددت به فراغاً في المكتبة العربية ؟ غير أني أستميحك العذر — سيدي — إذ ألفت نظرك إلى اسم الكتاب وهو « الشوامخ » ورغبتي في أن تستبدل به « الشامخون » ، فإن فاعلا ، صفة لمذكر عاقل ، لا يجمع على فواعل ، وإنما الذي يجمع على فواعل فاعلة ، صفة لمؤنث عاقل ، نحو : شاعرة : شواعر وكاتبة : كواتب . وكذلك يصح أن يجمع فاعل صفة لغير العاقل على فواعل نحو : طير جارح : جوارح كما نص بذلك شيخ النحاة المصنفين سيبويه ، وشذ من ذلك فوارس وسوابق واستدرك هالك في الهوالك . والشاذ لا يقاس عليه فما رأيك في هذا يا سيدي ؟

بغداد عبد المطلب صالح

الشوامخ (٢)

اطلعت في مجلة « الكتاب » على تعريف الأستاذ محمد عبد الغني حسن بكتاب « الشوامخ — أبو عبادة البحتري » لمؤلفه الدكتور محمد صبري ، والأستاذ المعرّف في مختتم مقاله يقول : « وفي ص ٦١ من شعر البحتري :

بأبي أنت والله للبر أهل والمساعي بعد وسعيك قبل

والشطر الأول مختل الوزن ولم أهتد إلى صحته .. » . وأقول : صحيح أن الشطر الأول مختل الوزن بالصورة التي أوردها الأستاذ المؤلف في كتابه « الشوامخ » ، واختلاله إنما كان نتيجة تحريف أو تبديل وقع فيه ، وصوابه :

بأبي أنت . أنت للبر أهل والمساعي بعد وسعيك قبل

وهو من البحر الخفيف ، والأبيات كانت في مدح رجل بعث إليه بدنانير وشعر ، فرد البحتري عليه الدنانير وبعث إليه بهذه الأبيات الأربعة . .

الزيتون عدنان أسعد


بنك مصر
شركة مساهمة مصرية
س . ت ٢ — القاهرة
يؤدى جميع أعمال البنوك
المركز الرئيسى: ١٥١ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقاً)
فرع الإسكندرية : ١٩ شارع طلعت حرب باشا
للبنك فروع ومكاتب ومندوبيات بأهم مدن القطر المصرى
وله مراسلون فى جميع أنحاء العالم
صندوق التوفير يشجع على الاقتصاد والادخار
تأجير الخزن الحديدية بشروط مناسبة
مؤسس الصناعات الكبرى وشركات "مصر"



السنة الثانية | المجلد الثالث | ربيع أول ١٣٦٦
الجزء الرابع | | فبراير ١٩٤٧

أصوات وأصداء

الميناء الجوى فاروق

تسلمت الحكومة المصرية المطار الضخم الذي أنشأته السلطات الأمريكية إبّان الحرب على أرض مدينة الشمس فارتفع العلم المصري فوق المطار خفّاقاً بالعزة والكرامة والسؤدد والفخار فخفق له قلب مصر وقرّت عينها بهذا اللواء الذي ستحيّيه تحية الولاء والجلال كلما مرّت به قشاعم الدول ونسورها .

ولقد أطلقت الحكومة المصرية على هذا المطار اسم « الميناء الجوي فاروق » وسمّته بعض الصحف « ميناء فاروق الجوي » وسواء درجت الألسنة والأقلام في مستقبل الأيام على تسميته بهذا الاسم أو ذاك فإننا نحمد لحكومتنا الرشيدة أن أطلقت عليه اسماً عربيًّا وأنها لم تعمد إلى نحت اسمه من كلمتين إحداهما أعجمية كما هي الحال في « بور سعيد » و« بور توفيق » و« بور فؤاد » فما أثقل هذا البور في صدر هذه الأسماء العربية الكريمة وما ضرّ ولاة الأمر عند ذاك لو أنهم سموا هذه المدن « السعيدية » و« التوفيقية » و« الفؤادية » جرياً على تسمية الإسكندرية أو المحمودية وما إليهما وهبهم كانوا مغرمين بالمركّب الإضافي أو المركب المزجي يطلقونه علَماً على هذه المدن فقد كان من الميسور أن يستبدلوا بكلمة « بور » كلمة « ثغر » فيقولوا « ثغر سعيد » و « ثغر توفيق » و « ثغر فؤاد » .

ونذكر أن فقيد العروبة وشيخها المغفور له أحمد زكي باشا كان قد نبّه إلى هذا الخطأ واقترح التسمية النسبية ونحن إذ نبعث هذا الموضوع اليوم إنما نبعث به إحياءً لذكراه وتحية لروحه في الرفيق الأعلى على أنه لو أخذ القائمون بالأمر فينا بأحد المقترحين لكانت التحية مزدوجة .

اللغة العامية في التمثيل

ينهض فريق من الناس بين حين وآخر إلى الدعوة للغة العامية فيُعدُّون طبولهم ومزاميرهم ويرسلون منها دويّهم وصيحاتهم لتقرع الأسماع وتتوغل منها إلى الأذهان والقلوب وبعض هؤلاء الناس شعوبي من الطراز الأول يعرف ماذا يقصد من وراء هذه الدعوة وبعضهم مؤمن بدعوته يعمل على بثّها عن عقيدة ويقين لأنه يرى أن العامية هي لغة الحياة وأن الفصحى هي لغة الجمود ثم لا تلبث هذه الدعوة حتى تتلاشى وتضمحل وتذهب الصيحات فيها لا رجع لها ولا صدى أيًّا كان مصدرها .

وليس هذا مقام الخوض في رد هذه الدعوة وبيان وجوه البطلان في أدلتها بيد أنه يسوءنا أن تكون الفرقة المصرية للتمثيل والموسيقى من مشجعي هذه الدعوة عن غير قصد ولا عمد بما تقدمه للجمهور أحياناً من روايات ألبست العامية ثوباً زريًّا .

قد يكون المهيمنون على شؤون الفرقة يرون هم أيضاً أن اللغة العامية هي لغة الحياة وقد يرون كذلك أنها السبيل إلى تلقين الجمهور المبادئ السامية وغرس الفضائل في نفسه وتعويده ارتياد المسرح فيكون لهم من وراء ذلك كسب أدبي يسنده ويدعمه كسب مادي جليل الشأن ويخيّل إلينا أن فرقة حكومية تشرف عليها وزارة للمعارف تعنى ببث رسالة العلم وتنفق في سبيله الأموال الطائلة يجب أن تخرج الكسب المادي من حسابها فنجاح الفرقة لا يقوم على ما يتوافر لها في آخر العام من مال جمعته كأنها مؤسسة من المؤسسات التجارية وإنما يقوم على الجهد الذي بذلته في أداء رسالتها على أكمل الوجوه وإلا اضطربت المقاييس في أيدي مديريها ومخرجيها واستولت عليهم فكرة إرضاء الجمهور فمدّت بهم عن مواطن الرفعة والسمو ولولا أن التمثيل فرع من دوحة الأدب العالي ما عنيت به الحكومة ولا رصدت له مبلغاً من المال ومحال أن تكون غايتها من ذلك نشر لغة العوام من فوق منبر من منابرها ثم إن ما رأيناه من إقبال الجمهور على الروايات الفصحى بل على الروايات الشعرية وهي في المقام الأسنى معنىً ولغةً وأداءً يدحض حجة من يقصر لغة الحياة على اللغة العامية ويريد أن ينزل إلى مستوى الجمهور ليخاطبه باللغة التي يتكلمها ويحياها وما أشد ظلم بعض الناس لهذا الجمهور المسكين كأن ليس فيه إلا الجاهل والأمي والإمّعة .

فإن آثرت جميع فرق التمثيل إلا أن تكون اللغة العامية رسولها إلى الجمهور فواجب الفرقة الحكومية يتقاضاها أن تبث باللغة الفصحى رسالة الفكر والخلق والجمال .

الحروف العربية الجديدة

منذ عهد غير بعيد اقترح معالي عبد العزيز فهمي باشا استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية معتقداً أن هذا الاستبدال من شأنه أن يجعل اللغة دانية القطوف سهلة المأخذ للناس أجمعين فلقي اقتراحه تأييد فريق من الباحثين ومعارضة فريق آخر .

وفي مستهل الشهر الماضي نشرت زميلتنا الأهرام رسالة ثانية لمراسلها الخاص بنيويورك يشير فيها إلى أن « شركة الآلات الصناعيـة » قد دعت لفيفاً من الشرقيين والأمريكيين المستشرقين بين صحفيين وخبراء في فن الطباعة إلى اجتماع عرضت عليهم فيه حرفاً عربيًّا ابتكره السيد نصري خطار ولما كانت الشركة قد تحققت من ميزة هذا الطراز الجديد من حروف الطباعة فقد قررت استعماله في آلتها الكاتبة ولقد تعاقب الخطباء في ذلك الحفل مشيدين بفائدة هذا الابتكار وكان آخر الخطباء السيد نصري خطار صاحب الحروف المبتكرة فقد استعان بالأرقام والصور بالفانوس السحري للتدليل على ميزات الحرف الجديد وأهمها سهولة القراءة للمبتدئ والاقتصاد العظيم في تكاليف الطبع وتصغير الكتابة دون الإخلال بشرط الوضوح .

وخلاصة هذا الابتكار هي استعمال الحروف العربية منفصلة في شكل قريب من الخط الكوفي وتوحيد الحرف الواحد سواء أوقع في أول الكلمة أم في وسطها أم في آخرها .

وإننا لنرى أن أهمية هذا الابتكار تنحصر في الناحية الصناعية الاقتصادية منه ليس إلا ...

أمّا جمال الحرف المبتكر فلا يرقى إلى جمال الحرف المستعمل الآن ثم إن هذا الابتكار مع ما له من فوائد صناعية اقتصادية لا يعدّ حلاًّ للمشكلة الكبرى التي يقاسيها الباحثون الغيُر وهي مشكلة الحركات وتقوم عندنا مقام الأحرف الصوتية في اللغات الأخرى وسنبقى نعاني هذا العسر في القراءة ما لم نوفق أو توفق الأجيال المقبلة إلى حل هذه المعضلة بغير الالتجاء إلى الحروف اللاتينية .

✡✡✡

نصري خطار

العطلة الكبرى

من الفلاسفة من يرى أن الحرب ضربة لازب بل أنها أمر سام مقدس يسمح الله به لكي يغسل البشر معاصيهم وخطاياهم بالدم المسفوك والدمع المهراق فضلا عن أنها ينبوع لشتى الفضائل تنبثق من صخرتها جداول الشجاعة والعزيمة والأنفة والإباء والتضحية ونكران الذات في سبيل المجموع ويرون أن السلم مدعاة للخنوع وحب الذات والتفكك والانحلال كما أنه مدعاة للترف والبطر وهما علة انحطاط الأمم واضمحلالها .

ومن هؤلاء الفلاسفة أيضاً من يرى أن الحرب شرّ لا بد منه لبقاء الأقوى والأصلح ينخرط في هذا السلك عالم الإنسان وعالما الحيوان والنبات وإلا عاش الضعيف والعليل عالة على المجتمع وتبع ذلك انحطاط النوع الإنساني .

ويذهب هؤلاء وأولئك إلى التغني بمحامد الحروب وبما يستفيده المجتمع في أعقاب كل حرب من مزايا العلم والاختراع .

ومهما يكن في أقوال هذا الفريق من صحة وصواب فقد دحضتها أقوال فريق آخر يرى في الحرب كل الشر والبلاء فالله إن يسمح بها فلكي يشعر الناس بوجوده ومتى اعتقد الإنسان بوجود الله وأحبه وخشيه انتفت من قلبه صفات الظلم والطغيان وأحب أخاه كنفسه ولئن كانت الحرب ينبوعاً لبعض الفضائل إنها كذلك مثار لكثير من الرذائل كالوحشية والخيانة والسرقة والنهب والخراب والتدمير واقتراف كل منكر وموبقة .

فسنة بقاء الأصلح هي حجة للسلم لا عليه لأن الحرب تقضي على القوي الشجاع وتحقن دم العليل والضعيف والشيخ فكأنها تجتث من المجتمع أصلح عناصره ثم إن الحرب لم تعد في أيامنا هذه مجرد قوة بدنية بل إن للعقل والذكاء فيها مشاركة كبيرة وليست المحبة والعدالة والتعاون الإنساني مما يندّ عن أن يستوعبه العقل والذكاء ويعرف أثره وفائدته . وهب الحروب تمخضت عن مزايا في العلم والاختراع فالسلم حقيق كذلك أن يوفر للعقل البشري كل عناصر الاختراع والابتكار فالحرب إذن هي شر المحن

والكوارث مهما جرت وراءها من الفوائد والمنافع . إن « السلم فوق الحرب » كما قال المارشال فوش رجل الحرب والطعان وإنها لعبرة بالغة .

ولا يسع كل منصف تختلج في جوانحه عاطفة إنسانية إلا أن يصدر مثل هذا الحكم ولا سيما في عصر طال تغنّي الناس فيه بحرية الفرد وحرية المجتمع لقد كان الإنسان في العصور السحيقة متاعاً يمتلك تتصرف به الدولة كيفما شاءت فإذا احتاجت إلى مال أمرت النساء أن يهبن حليهن والدائنين أن ينزلوا للدولة عن ديونهم وأصحاب شجر الزيتون أن يقدموا الزيت الذي عصروه وإذا احتاجت إلى جند رأينا أثينا وإسبرطة تفرض قوانينهما على الرجل أن يكون جنديًّا طول العمر كما كانت تعاقب الأعزب أو من يتزوج متأخراً بل كانت شرائع إسبرطة ورومة تذهب إلى أبعد من هذا ذلك بأن تأمر الآباء أن يئدوا أبناءهم إذا كانوا مشوهين أو ذوي عاهات. وقل مثل هذا عن تقييد حرية الفرد في ملبسه وزينته فقد كانت رودس تحرم حلق الذقن وإسبرطة تفرض تحلاق الشارب وبيزنطة تعاقب من يمتلك موسى للحلاقة فاين هذا مما يتمتع به الفرد في هذه الأيام من حرية ومن حماية في ظل القوانين العادلة فالقانون في كل دولة قد قضى على العدوان الفردي ولم يبق إلا أن تسن الدول قانوناً دون عدوان دولة على دولة حتى يعيش الناس في سلام وأمن وطمأنينة .

ما أكثر ما أشاد الإنسان بالسلام وأحاطه منذ العصور الأولى بسياج من عاطفته ورحمته وعمله فخصّ به أشجار الزيتون وعبد آلهته وشاد لها الهياكل والأنصاب . فهذه روما الغارقة في الحروب والمعارك تقيم لابنة جوبتر ربة السلام هيكلا في ساحة إله الحرب احتفاء بعودة أغسطس إلى العاصمة بعد غياب ثلاث سنوات .

وما ونى الإنسان يوماً عن التفكير في بسط أجنحة السلام على العالم ليرتع في بحبوحة العز والأمن والصفاء « فالسلام الدائم » الذي أطلق في القرون الأخيرة على المعاهدة التي عقدها فرنسوا الأول مع المقاطعات السويسرية سنة ١٥١٦ كان له بعد ذلك رجال ذوو أثر فعال في هذا المضمار من مثل ملك المجر بودبراد وهنري الرابع وجروتيوس ونابليون الثالث ونقولا الثاني كما احتفى به طائفة من الفلاسفة ورجال الفكر والقلم من عهد أرسطوفان وإيسقراط إلى عهد بن ولبنيز وكَنْت وبنتام وشانج وروسو ولامرتين وهوجو وكلوتس « الملقب خطيب الجنس البشري » ومن طريف ما يؤثر عنه أنه تقدم يوماً إلى المجلس التشريعي مصطحباً ٣٦ رجلا من جنسيات مختلفة وأعلن باسمهم أن العالم أجمع يطلب الاعتراف بحقوق الإنسان وكان للسلام في مئة السنة الأخيرة أنصار

ومريدون ومع ذلك فلا مساعي « جماعة أصدقاء السلام » التي أسست في لندن سنة ١٨٤٧ وعقدت المؤتمرات دواليك في لندن وبركسل وباريس (برياسة فكتور هوجو) وفرنكفرت وغيرها من البلاد ولا مؤتمرا لاهاي في سنتي ١٨٩٩ و ١٩٠٧ ولا المؤسسات الإنسانية لنشر السلام وتحبيبه إلى النفوس من مثل نوبل وكرنيجي ولا عصبة الأمم قد استطاعت أن تقضي على جشع الإنسان وطغيانه وأن تستأصل من نفسه عوامل الشر والعدوان .

فإذا كان النرجس لا ينبت إلا من بصل كما يقول ابن الوردي والأجسام ربما صحت بالعلل كما يقول المتنبي فالآمال معقودة على أن يكون إخفاق كل أولئك سبباً في نجاح « هيئة الأمم المتحدة » وكل من أعضائها قد علم من الحرب ما علم وذاق منها ما ذاق على حد قول زهير :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم ... وما هو عنها بالحديث المرجّم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة ... وتضرَ إذا ضرّيتموها فتضرم
فتعرككم عرك الرحى بثفالها ... وتلقحْ كشافاً ثم تنتج فتتئم

* * *

وهذا الذي قاله زهير منذ أربعة عشر قرناً يجده الناس مرويا على ألسنة الشعراء وأسنة الأقلام إبان كل حرب وفي نهاية كل صدام ولقد أوحت الحرب الكبرى الماضية إلى فريق من الكتاب بتسجيل حوادثها فصوروا بشاعتها ورووا أحداثها وقصّوا ما عانوه وذاقوه من أهوالها ووقائعها وما تحملوه من هول المعارك وربقة الأسر ولا يزال الناس يذكرون حتى اليوم كتاب « كل شيء هادئ في الميدان الغربي » لمؤلفه أريك ماريا ريمرك وها هي ذي الحرب الكبري الأخيرة التي خمد أوارها واتقد تحت رمادها جمر القلق والاضطراب تحرك الأقلام إلى بعث صورها الشوهاء ونشر أسرارها وما انطوت عليه من محن وآلام فيظفر العالم بكتاب « العطلة الكبرى » لمؤلفه فرنسيس أمبريار متوجاً بجائزة ندوة جنكور معترفاً له بالسبق من أعضاء الندوة بالإجماع وليست « العطلة الكبرى » إلا الحقبة التي مرت على المؤلف من يوم أن ترك عمله وحمل السلاح ليدافع عن وطنه إلى اليوم الذي عاد فيه إلى وطنه واستأنف عمله فقد شاء له القدر أن يقضي من هذه الحقبة ٥٦ شهراً في الأسر رأى فيها ما رأى وعانى ما عانى مما هو مفصل مبسوط في كتابه هذا .

يستهل المؤلف كتابه بالكلام على ما سماه « حرب الحصيان » ويريد بذلك

وقوف الجيشين الألماني والفرنسي في مستهل الحرب وجهاً لوجه لا يبديان حراكا وينتهي منه إلى وصف « عهد الفزع والخوف » فيما قام به الجيش الألماني من اكتساح وغزو وفتح في آلاته الجهنمية وعدته السابغة وإلى وصف جموع الأسرى فيستدر شفقتك وعبرتك على سكونهم إلى حياة الأسر واضطرابهم النفساني عند تلقيهم رسائل زوجاتهم أو أنباءهن وكلها تنضح بالخيانة والهجران ثم يندد بـ « سوقة المعتقلات » وهم بعض الأسرى الذين كانوا لا يتورعون عن إظهار المذلة والمسكنة للحراس وقيامهم على مداهنتهم وخدمتهم خدمات وضيعة في سبيل كسب رضاهم أو الحصول على فتات موائدهم ويذكر لك بعد ذلك « الأشغال والأيام » وما كان الأسرى يلقونه من عنت وإرهاق في أعمالهم المضنية وما كان يبتكره الألمان من ضروب الإغراء لحمل الأسرى على التفاني في أعمال المصانع والمزارع وكان التغاضي عن مخالطة النساء بعض ذلك الإغراء وتراه يفيض بذكر « رجال الطريق » ويعني بهم أولئك الأسرى الذين كانوا يحاولون الفرار فيخفقون فيزجون في غياهب السجون ويسهب بذكر « الأباة » وهم الأسرى الذين كانوا يمتنعون عن العمل أو يعرقلونه وما كان يتبع ذلك من عقاب وقصاص ثم ينتقل بك إلى وصف معتقلات الأسرى الفرنسيين في بولونيا ولا سيما معتقل كويجرسين الذي نقل إليه المؤلف وإلى الإشادة بمظاهر العطف التي كان الأسرى يلقونها من البولونيين أما « النهاية والبداية » فيشير بذلك إلى نهاية الأسر وبداية تنسم ريح الحرية وما قام بين هاتين من حوادث وأحداث ثم يذيل المؤلف كتابه بالتقارير والمقالات التي كتبها وهو في الأسر .

وتنطوي أبواب الكتاب على كثير من الوقائع والحوادث انطواءها على كثير من الآراء والشذرات النفسية وحسن التصور وصادق التصوير ونعتقد أن قراء أمثال هذه الكتب التي تظهر إلى حيز الوجود في أعقاب كل حرب يخرجون منها جميعاً بنتيجة واحدة هي النفور من الحرب وصب جامات اللعنة على من يشعل نيرانها . ولئن اختلفت حوادث هذه الكتب باختلاف أشخاصها وأنواعها وأمكنتها إنها تتفق كلها على وصف الآلام الجسمانية والنفسانية التي يعانيها الجندي ويقاسيها معه أهلوه وذوو أرحامه وقرابته كما أنها تتفق على وصف وحشية الإنسان من جهة وعلى تلك اللمعات الإنسانية التي تنبعث من نفسه من جهة أخرى وتشير كلها إلى رغبة الإنسان في استعباد أخيه الإنسان وقد خلقه الله حرًّا طليقاً وإلى ضياع مقاييس الأخلاق في نفوس تملكها الجشع والطمع وأخرى هدها الجوع والظمأ في ميادين القتال ومعتقلات الأسر وأعدتها الدعوة الخاطئة الآثمة لتكون حطباً جزلا لأتون الحرب .

ولقد يطول بنا البحث لو حاولنا تقصي حوادث هذا الـكتاب وسرد الـكثير منها للدلالة على الأهوال والآلام أو للدلالة على الخلجات القاسية والرحيمة التي تختلج بها النفس البشرية خيبة أمل الجندي وحقارة الأسير وتهافته على الفتائت ملوثة بالتراب واكتساب المذلة لسد الرمق والقيام بالأعمال المرهقة وقسوة الأطباء وغلاظة الحراس والسجانين وحفاري القبور إلى تذكر الأسير وطنه وأسفه على أن لم يمت في ساحة القتال واضطراب نفسه إزاء الشائعات المتضاربة أو الكاذبة عن بلاده وعذاب الأمل يحز في صدره وفقدانه الـكرامة في فقدانه الحرية ودمعته المترقرقة في عينيه أيام المواسم والأعياد أو قلبه الكسير ونفسه القريحة عندما يعلم بخيانة زوجه أو بمصائب ولده وأهله كل هذا وما يتصل به من حوادث يفيض به كتاب « العطلة الكبري » وإنه لأكبر من أن يلم به مقال برأسه ولـكن حسبنا أن نذكر حادثتين من حوادث الـكتاب تدل الأولى على غلاظة كبد الإنسان وتبرهن الثانية على الرحمة المتأصلة في نفسه :

أما الأولى فهي أنه في الساعة الخامسة والدقيقة العاشرة من صباح يوم من الأيام وذلك قبل ميعاد استيقاظ الأسرى بعشرين دقيقة دخل حارس المعتقل وصاح في النائمين : « قيام » فهب الأسرى من نومهم إلى ارتداء ملابسهم وكان بينهم أسير تعب مرهق بقي يعمل في الحقل إلى الساعة العاشرة من الليلة الماضية فتثاقل عن النهوض ولما عاد الحارس إليه ووجده لا يزال متمدداً أطلق عليه من مسدسه رصاصة من خشب اخترقت عظم ساقه وألزمته المستشفى عدة أشهر خرج منه وهو أعرج .

وأما الثانية فحكاية أسير فرنسي كان يعمل منذ سنوات لدى ألماني ثري من أصحاب المزارع في إحدى ضواحي فرنكفرت فاتفق أن اقترب الجيش الأمريكي من الضاحية وأمطرها بوابل من قذائفه فرأى الرجل وهو في مخبئه أن الإصطبل يحترق فخرج لينقذ الدواب التي فيه فما كاد يقترب من باب الإصطبل حتي أصابته قذيفة فتحامل على نفسه وفتح باب الإسطبل وارتمى خائر القوى فانطلقت الدواب منه وهي ثائرة وداسته بحوافرها وفي اليوم الثاني استولى الأمريكيون على القرية وشيعت جنازة الفرنسي وأبنه راعي القرية قائلا :

« إن هذه الساعة من حياتنا لأجدر الساعات بالتدبر والتأمل وإني لأراني بعد أن دمرت قريتنا أتناول الكلام لأول مرة أمام نعش أسير حرب فرنسي جاد بنفسه وهو يحاول أن يخدمنا في اللحظة التي كاد يتحرر فيها من ربقة الأسر وإني لأحني هامتي أمام عظمة التضحية وأشيد بما تحلى به الأسير من صفة نكران الذات . . . . .

إن الحصان الذي طالما اعتنى به الأسير قد حمله إلى مرقده الأخير والأسرة التي خدمها خدمة مثلى عدة سنوات شيعته إلى مدفنه بادية الخشوع وزينت نعشه بالأزهار والرياحين وإن عدداً كبيراً من أعضاء رعيتنا يحيون في هذا الفقيد جميع أسرى الحرب الفرنسيين وكلهم ضرب لنا في هذه الضاحية أعظم الأمثلة للنبل وطيب القلب وها هم أولاء يحيون رفيقهم خاشعين قائلين له : " الوداع " إننا نحن الألمانيين نقف مروعين أمام هذا القبر المفتوح وإن قلوبنا لتخفق لهذا الأسير الفرنسي أشد من خفقانها للذين أصدروا أوامرهم بالدفاع عن قريتنا فكانوا السبب في تدميرها .

لذلك سننشر في الناس شريعة المحبة لأن المحبة هي على الأرض القوة الوحيدة التي تستطيع أن تقلب الجحيم فردوساً . .

إن الله في هذه الأيام يخاطب البشرية بلهجة قوية فعسى الناس يفهمون .

فلننحن لله ولتتحد قلوبنا في الصلاة على هذا الأخ الذي أودعناه صفوف موتانا ولنصل من أجل زوجه وولده ومن أجلنا نحن جميعاً ومن أجل سلام العالم . »

* * *

إن هذه الحادثة الثانية غنية عن التعليق ولها مثيلات أخرى في تضاعيف هذا الكتاب وهي تدل على أن في النفس البشرية زاداً كبيراً للخير والرحمة والمحبة فإن كانت الآلام التي يتحدث عنها المؤلف حقيقة بأن تكون عبرة لزعماء الأرض فيعملوا على استئصال شأفة الحروب فدروس الرحمة المبثوثة في هذا الكتاب أيضاً أحق بأن تحملهم على استغلال عناصر البر والرحمة في سبيل هناءة الناس وإسعادهم .

عادل الغضبان

حديقة الأفكار

الهجرة

للأستاذ عباس محمود العقاد

الهجرة عادة اجتماعية في عالم الحيوان ، بل هي أكثر من عادة اجتماعية ؛ لأنها غريزة نوعية في كثير من أنواع الطيور والأسماك والفقاريات . يدل على قدمها وتأصلها أنها نشأت في تلك الأنواع قبل انفصال القارات وتغير مواقع البحار فيما بينها ؛ فلا يزال بعض الأحياء ينتقل من مكان إلى مكان ، وبينهما بحر يشق عبوره على تلك الأحياء ، فتسقط في الماء من الإعياء ، ويحيق بها أو بمعظمها حائق الفناء . وهي بطبيعة الحال لم تكن تلقى هذه الهلكة الإجماعية في أول عهدها بالعبور من المكان الذي تهجره إلى المكان الذي تهاجر إليه ، بل كانت تبلغ البر الأمين ، وتكرر بلوغه والعودة منه مرات بعد مرات ، ولولا ذلك لما تأصلت فيها غريزة الانتقال ولا غريزة « التلمس » التي تهديها سبلها الطويلة في الذهاب والمآب .

ومن أغرب هذه الهجرات الإجماعية هجرة القارض الإسكندنافي المسمى « باللمنغ » [Lamming] الذي يعيش في تلال النرويج . فإنه يشاهد في العصور الأخيرة وهو يتجمع بالألوف والمئات ليصل إلى شاطئ المحيط ، ثم يندفع فيه فيغرق كله ولا ينجو منه حيوان واحد . ومن البديه أن هذه الرحلة ليست برحلة « انتحار » ، لأن غرائز الأنواع تقوم على حفظ النوع ولا تقوم على هلاكه ؛ ولكنها على الأرجح رحلة إلى قارة قديمة كانت موجودة على مقربة من شاطئ النرويج قبل انفصاله على النحو المعروف في القرون الحديثة ؛ ولعلها هي القارة الأمريكية ، أو الجانب الشمالي من جزرها وبرورها الكثيرة ... فتكون غريزة الهجرة في هذا الحيوان قد بدأت على هذا التقدير منذ عشرات الألوف من السنين .

أما في عالم الإنسان فقد بدأت الهجرة منذ العصر الجليدي ، في الشمال الغربي من أوربة ، وفي الشمال الشرقي من آسيا على السواء ؛ وتشابه الملامح بين الشعوب المغولية وبين الإسكيمو والهنود الحمر في أمريكا الشمالية دليل على قدم ذلك التاريخ . فهاجرت شعوب من آسيا إلى أمريكا ، وشعوب أخرى من أوربة إلى آسيا ، لم يبق من أصولها في مواطنها الأولى إلا آثار يتبينها الباحثون بالظن والتقدير .

وليس هناك من شك في قدم الهجرة بعد العصور الجليدية ؛ لأن الجماعات البشرية الأولى كانت جماعات رعاة لا تعرف الزراعة ولا استنبات العشب والحبوب ؛ فكانت تستقر في المكان ريثما تستنفد زرعه ، ثم تهجره إلى مكان آخر موفور الزرع والماء ؛ ولا تلبث أن تهجر هذا المكان أيضاً إلى غيره لتغلب سكانه على نصيبهم من المرعى ، أو تتجاوزهم إلى مرعى مجهول خلا من السكان .

وربما كان العرب أقدم المهاجرين في التاريخ الإنساني لهذه الأسباب وما جرى مجراها ؛ فمن جزيرة العرب خرج أجداد البابليين القدماء ، ومنها خرج أجداد الكنعانيين إلى فلسطين الجنوبية ، وسميت أرض كنعان باسم عربيّ قديم يطابق موقع الأرض التي كانت تعرف بالأرض الواطئة ، فلا تزال مادة كنع وخنع وقنع في اللغة العربية تفيد معنى الهبوط أو الخضوع .

والعبرانيون هم عرب مهاجرون وصلوا إلى ما بين النهرين ، ثم انتقلوا منها إلى فلسطين . أما الهجرة العربية الكبرى بعد الإسلام فهي هجرة المسلمين التي تهيأت لها أسباب دينية واجتماعية واقتصادية لم تتهيأ قبلها لأمثال هذه الهجرات .

ولما تعلم الناس الزرع في العصور التاريخية قلت الهجرة ولكنها لم تبطل كل البطلان ولم تنقطع كل الانقطاع ؛ وإنما تفاوتت دواعي الهجرة بين الأقطار المختلفة على حسب التفاوت بينها في الخصب ووفرة السكان ونظام الحكومات ؛ فالبلاد التي يكثر سكانها ويقل خصبها أكثر هجرة من البلاد التي تتسع لسكانها وتزودهم جميعاً بما يكفيهم من الأمواه والثمرات ، والبلاد التي تضطرب حكوماتها ، أو تجري على نظام يسوء بعض أهلها ، أكثر هجرة من البلاد التي ينتظم فيها الحكم ويندر فيها الاضطراب .

ومن قبيل الهجرات لأسباب «حكومية» هجرة الإسرائيليين من مصر في عهد موسى الكليم ، وهجرة إبرهيم الخليل قبل ذلك من العراق . ومن قبيلها في العصور الوسطى هجرة المتطهرين « Puritans » من الجزر البريطانية إلى القارة الأمريكية ، وهجرة المضطهدين أمثالهم إلى تلك القارة في الشمال والجنوب . وربما أضيفت إلى أسباب

الاضطهاد أسباب أخرى تتعلق بخلل الحكم ، وأسباب غيرها تتعلق بسوء الحال وانبعاث المطامع في أرزاق العالم الجديد .

على أن الهجرة الفردية لم تنقطع قط من أقدم الأزمنة إلى هذا الزمن الحديث ؛ فإن اليونان الأقدمين قد هاجروا إلى مصر أفراداً وأسراً منذ ألوف السنين ، كما يهاجرون إليها في هذه الأيام ؛ وبعض الأفراد أو الأسر المصرية تهاجر من إقليم إلى إقليم بين الوجهين ، حيث تقيم بعض الوقت ، أو تؤثر البقاء في موطنها الجديد .

ولم تكن للأوطان الأولى « أبواب سياسية » تفتح وتقفل على النظام المتبع عند المعاصرين في الرخص والجوازات ؛ فلما عرف هذا النظام خفت قيوده شيئاً فشيئاً حتى أصبح الحصول على الجواز كالحصول على تذكرة السفر من نوافذ المحطات ، ولولا طوارئ الحروب وخوف التجسس وإقلاق الخواطر بالدعوات المعادية لازدادت سهولة السفر من وطن إلى وطن ومن قارة إلى قارة ، ولم يعترضه من عائق غير العوائق المتفق عليها لوقاية الصحة أو مطاردة المجرمين .

* * *

فالهجرة أصيلة في غرائز الجماعات الحيوانية ، قديمة في حركات الجماعات الإنسانية ؛ ولا ينتظر أن تنقطع في العصر الحديث بعد أن تيسرت المواصلات بين جميع القارات وأوشكت « الوطنية العالمية » أن تصبح وطنية ثابتة معترفاً بها لأبناء كل أمة من أمم الحضارة ، ومصير هذه القيود التي استلزمتها المخاوف والشكوك في أيام الحرب أن تزول شيئاً فشيئاً ، ويخلفها نظام يوافق اتصال العلاقات بين أمم العالم كله في شؤون السياسة والثقافة والتجارة ومسائل التعاون الكبرى بين الأمم والحكومات .

وغاية ما في الأمر أن الهجرة الحديثة ستدخل في نطاق الرقابة والتنظيم بعد أن كانت عملاً مرسلاً بغير نظام مقرر يلاحظ في السماح للذاهبين بالذهاب أو في السماح لهم بالدخول حيث يذهبون .

ففي العصور الماضية كانت الهجرة الجامعة بمثابة الغارة الحربية من قبيلة على قبيلة ، أو من وطن على وطن . أما الهجرة الفردية فلم تكن مقيدة بالاستئذان في الخروج ولا في الدخول ، وكان لكل فرد يدبر وسائل السفر أن يبرح وطنه متى شاء إلى حيث شاء .

ولكن الغارات الحربية في العصر الحديث تسمى حروباً معروفة الأحكام في القوانين الدولية ، ولا يراد بها انتقال أمة من وطنها إلى وطن آخر كما كان يجري في مهاجرات القبائل البادية .

وقد استدعى قيام الأوطان والاعتراف بنظام الجنسيات أن يسأل ابن الوطن عن سفره إلى خارج بلاده ، وأن يسأل الغريب القادم إلى بلد من البلدان عن قصده من القدوم إليه . ولا ينتظر أن يزول هذا النظام في هجرة الجماعات أو الأفراد مع قيام الأوطان والاعتراف بالجنسيات ؛ ولكنه يتطور على حسب العلاقات العالمية بين الدول وعلى حسب المبادىء التي تقضي بالمساواة بين الأجناس والشعوب .

وربما جرى التطور على أساس القوانين التي اتبعت في القارة الأمريكية منذ أوائل القرن العشرين ، وجنح واضعوها تارة إلى الترحيب بالمهاجرين ، وتارة إلى المنع البات أو التقييد ببعض الشروط .

ففي أمريكا الجنوبية كانت الحكومات ترحب بالقادمين إلى بلادها ، وترغبهم بالأجور الحسنة والمعاملة الطيبة ، ولكن على درجات من التيسير تتوقف على مقدار الحاجة إلى الأيدي العاملة ومساحات الأرض المفتوحة للاستعمار .

أما في أمريكا الشمالية — أو في الولايات المتحدة — فقد كانت قوانين الهجرة ترمي أحياناً إلى الاختيار والتفضيل بين القادمين ، وتارة أخرى إلى منع القادمين من بعض الأجناس بلا استثناء ، ولا سيما الجنس الأصفر أبناء الصين واليابان . وكانت البواعث التي تسيطر على قيود الهجرة ترجع إلى العصبية الجنسية وإلى المصالح الاقتصادية في وقت واحد .

فالعصبية بين الجنس الأبيض والجنسين الأسود والأحمر في الولايات المتحدة قد جعلت مسألة الاجناس مسألة حاضرة في الأذهان متغلغلة في الشعور وآداب المعاملة ، فظهرت آثار هذا الشعور في النفور من بعض الأجناس التي لا تنتمي إلى الجنس الأبيض وإقامة السدود في وجهها كلما تكاثر القادمون من بلادها إلى البلاد الأمريكية .

أما المصالح الاقتصادية فقد ترجح فيها مصالح العمال ، فلا تسمح الحكومة بوفود المهاجرين من بلاد تهبط فيها تكاليف المعيشة ويرتضي أبناؤها بالقليل من الأجور ؛ وقد ترجح فيها مصالح أصحاب الشركات والمصانع فلا تتشدد الحكومة في المنع مراعاة لتكاليف المعيشة في بلاد المهاجرين ، بل تجعل المنع مقصوراً على الأسباب الصحية والأخلاقية وما إليها .

وقد انتهى الأمر في سنة ١٩٢٤ إلى تقدير نسبة للمهاجرين من كل أمة ما عدا أمم الأمريكتين ، واستثني من هذه النسبة أو هذه الحصة "Quota" أفراد معينون كزوجات الأمريكيين الغربيات وأبنائهم من أولئك الزوجات ، وكالأساتذة والطلبة

والقساوسة ورجال الدين . وصدرت الأوامر بعد عام من تقدير تلك النسب بالكشف على المهاجرين في بلادهم قبل التوقيع على جوازاتهم ، فلا يبرح المهاجر منهم وطنه إلا وهو على ثقة من قبوله حيث يختار المقام .

وإذا بطلت المآرب السياسية التي تنحرف بالأمور عن سوائها فمن الواجب أن تباح الهجرة بشروط تتفق عليها الأمم بلا استثناء .

ولا صعوبة في تقرير تلك الشروط ، فهي في الغالب :

« أولا » تقديم مصلحة أبناء البلاد على كل اعتبار ، فلا يجوز أن تباح الهجرة الجامعة أو الهجرة الفردية ما لم تكن مأمونة العاقبة على أبناء البلاد الأصلاء .

و « ثانياً » رقابة الصحة العامة ، لأنها مصلحة عالمية ومصلحة وطنية سواء في الوطن المتروك أو الوطن المقصود .

و « ثالثاً » رقابة الأمن والأخلاق .

و « رابعاً » صلاح المهاجر للعمل النافع الذي يعتمد عليه في معاشه ولا يفتئت به على حقوق غيره .

و « خامساً » اجتناب المشكلات السـياسية التي تسوء بها علاقة الشعوب أو الحكومات .

وهذه هي الشروط المعقولة في عصر يقال إنهم يعملون فيه للعالم كله ويتجنبون فيه دواعي الأثرة التي تقيم سدود النفرة والعداء بين الأوطان .

عباس محمود العقاد

مـــنًى

قال أبو بكر بن عبد الرحمن الزهري :

ولمّـا نزلْنا مَنزلاً طَلّه النَّدى   أنيقًا وبستاناً من النَّوْر حاليا

أجدّ لنا طيبُ المـكان وحسنُه   منًى فتمنَّينا فكنتِ الأمانيا

الذين قتلتهم أشعارهم

١ — تدليل الشعر والشعراء

للأستاذ علي الجارم بك

اتسع صدر الناس للشعر ، ونظروا إليه نظرتهم إلى الطفل المدلل ، فابتسموا له كلما أساء ، واستهانوا بوخزه وإن أدمى ، وضحكوا مع الضاحكين إذا تندر بهم أو جعل منهم سخرية للهو والفكاهة . وكأنما كانت محاباة الفنون ومجاملتها غريزة من غرائز الفطرة ، فقد اجتمعت الأمم عامة على غض الطرف عن الشاعر ، وإرخاء العنان له ، وترك فنه يهيم به حيث شاء في أودية الخيال والتصوير ، دون أن يقف في طريقه حائل . لأن الشعر يخلق لهم دنيا جديدة يستريحون في ظلالها كلما قست عليهم رمضاء الحياة ، ويفتح لهم من الخيال أبواباً كلما سدت في وجوههم أبواب الحياة ، ويصور لهم أحلاماً ضاحكة كلما عبست لهم حقائق الحياة ، فهم يحرصون دائماً على أن يرف الشعر طليقاً في جوه الروحي العجيب ، دون أن تنتزع من جناحه ريشة تعوقه عن الطيران ، أو ينصب له فخ يسكت صوته الصداح ، ويقضي على تلك النغمات الفردوسية التي هي نفحة من عالم الروح ، وصلة بين الأرض والسماء .

وكأن كل نفس تحس بهاجس يحوم حولها ويهمس : ماذا نعمل لو عشنا يوماً واحداً من غير شعر ؟ إن هذه الحياة بأرزائها وثقيل أغلالها لا تحتمل لحظة واحدة . ولا بد من الفرار منها بشيء يحط عنا هذه الأرزاء ، ويفك هاتيك الأغلال . أليس الأمل شعراً ؟ أليس الأمل بارقاً وضاء يلمع في حواشي سحب الحياة القاتمة ؟ أليس الأمل صيحة شعرية تذود عنا ذئاب الفكر القاتلة ، وصولة الحقائق الجامدة ؟ أليس الأمل اليد السحرية التي تمسح عناء المكدود ، وتجفف دمعة الحزين؟ الأمل شعر والشعر أمل، وهما مصباحا الحياة إذا انطفأا عاش الكون في ظلمة دامسة . إن الطفل الباكي يهدأ للترنيم ، والبائس الشاكي يستريح للغناء ، والإبل الناصبة تنسى نصبها بالحداء .

وكان الشعر حبيباً إلى قلوب النساء ، على شرط أن يصف بحق أو بغير حق ما لهن من رشاقة وجمال . فما رأت فتاة عربية من بأس في أن يكشف شعر عن محاسنها في القبائل ، أو يصور شاعر حولها قصة خيالية لم تطل برأسها إلى الوجود .

ولو أن حديثاً غير الشعر خاض في هذه المجالات لاشتعلت الفتنة ، وسلت سيوف من أغمادها . وأخبار تعرض حسان مكة لعمر بن أبي ربيعة في أيام الحج ، لكي يقول فيهن شيئاً ، سائرة مشهورة ليس الحديث فيها إلا معاداً . ولو صدق ابن أبي ربيعة حين يقول :

قالت لها أختها تعاتبها لتُفسِدِنّ الطوافَ في عمر
قومي تَصَدّيْ له ليبصرنا ثم اغمزيه يا أختِ في خفر
قالت لها قد غمزته فأبى ثم اسبطرّت تشدُّ في أثري

لو صدق في هذا لعددنا غانيات مكة أبرع في الإغراء وألعب بألباب الرجال من فاتنات العصر الحديث !

ودللت اللغة العربية نفسُها الشعر فأجازت فيه ما لم تجزه في غيره : أجازت فيه مد المقصور وقصر الممدود ، وتنوين ما لا ينصرف ومنع صرف ما ينصرف ، وتسكين المتحرك من الأبنية ، وتحريك الساكن ، إلى غير ذلك من منادح الشعراء .

ودلل الملوك الشعر فأباحوا للشاعر وحده أن يخاطبهم مخاطبة الند ، وأن يناديهم بأسمائهم عارية من ألقاب التمجيد والتعظيم ، وأن يجرؤ عليهم بالنقد والخوض في شؤون الدولة في صراحة وجهارة ؛ واستساغوا من الشاعر صوراً لا يستسيغونها من الناثر ، ولم يجدوا في أنفسهم حرجاً من أن يستمعوا إلى شاعر غزل يتجاوز حد الغزل العفيف ، أو شاعر يقذف بألفاظ يتوارى منها وجه الحياء ، أو شاعر معربد يصف الخمر ومجلسها ونشوتها ، ثم يقول للخليفة بعد أن لعبت برأسه سورتها :

خرجتُ أجرُّ الذيلَ تيهاً كأنني عليك أميرَ المؤمنين أميرُ

وقد جرؤ النابغة الذبياني على وصف المتجردة وصفاً يندى له جبين الأدب ، ولم يبال بما للنعمان بن المنذر ملك العرب من حول وصول . وهجا كعب بن زهير رسول الله فغضب وأهدر دمه ولو تعلق بأستار الكعبة ، ولكنه حينما جاءه معتذراً متوسلا بالشعر عفا عنه وخلع عليه بردته . وقد كان شيء من غزل كعب في قصيدته غزلا مكشوفاً سافراً فهو يقول في وصف حبيبته :

هيفاء مقبلةً ، عجزاء مدبرةً لا يُشتكى قصرٌ منها ولا طولُ

ولكنه كان يتحصن بامتياز الفن فلم يتجه إليه ملام .

وحبس ابن الخطاب — وكان صارماً في الحق — الحطيئة . بعد أن ولغ في

أعراض المسلمين ، غير أنه لم يلبث أن أطلقه حينما بعث إليه بأبيات من الشعر هزت أريحيته وأطفأت نار غضبه .

ولمعاوية — حليم العرب وأكبر ساستها — الكثير من الأخبار في هذه البابة . قالوا إن عقبة الأزدي بعث إليه يوماً برقعة كان فيها :

معاويُ إننا بشرٌ فأسجح فلسنا بالجبال ولا الحديد

نزلتم أرضنا فجردتموها فهل من قائمٍ أو من حصيد ؟

فهبنا أمةً هلكت ضياعاً يزيدُ أميرها وأبو يزيد

فدعا به معاوية وقال له : ما جرأك علي ؟ قال : نصحتك إذ غشوك ، وصدقتك إذ كذبوك . فأطرق معاوية طويلا ثم قال : ما أظنك إلا صادقاً . ثم قضى له حاجته .

وروى الرواة أن عبد الرحمن بن حسان كان يتغزل في عاتكة بنت معاوية ، وقال فيها قصيدته النونية التي ذاعت في الآفاق والتي أولها :

صاحِ حيّا الإلهُ أهلاً وداراً عند أصل القناة من جَيْرون

فدخل يزيد على معاوية مغضباً وهو يقول : أما سمعت قول عبد الرحمن بن حسان في ابنتك ؟ قال : وما الذي قال ؟ قال : إنه يقول :

وهي زهراء مثل لؤلؤة الغوّ اص مِيزَتْ من جوهر مكنون

فقال معاوية : صدق . فقال يزيد : ويقول :

وإذا ما نسبتَها لم تجدها في سناء من المكارم دون

فقال معاوية : صدق أيضاً . فقال يزيد : ويقول :

ثم خاصرتُها إلى القبةِ الخضـــراء تمشي في مَرْمَرٍ مسنون

فلم يزد معاوية على أن قال : كذب . وانتهى الأمر عند هذه الكلمة !

وروى الرواة أن إبرهيم بن المهدي حينما سقطت عنه الخلافة واستخفى من المأمون ، هجاه دعبل الخزاعي ، فدخل إبرهيم على المأمون فشكا إليه حاله وقال : يا أمير المؤمنين إن الله سبحانه فضلك في نفسك علي ، وألهمك الرأفة والعفو عني ، والنسب بيننا واحد ، وقد هجاني دعبل فانتقم لي منه . فقال المأمون وماذا قال ؟ لعلك تقصد قوله :

نعر ابنُ شَكْلَةَ بالعراق وأهلِهِ فهفا إليه كلُّ أطلسَ مائقِ

إن كان إبرهيم مضطلعا بها فلتصلُحَنْ من بعده لمُخارق
أنّى يكون وليس ذاك بكائن يرث الخلافةَ فاسقٌ عن فاسق!

فقال : هذا من بعض هجائه ، وقد هجاني بما هو أقبح من هذا . فقال المأمون : لك أسوة بي ، فقد هجاني واحتملته حين قال في :

أيسومني المأمونُ خُطةَ جاهل أوَ ما رأى بالأمس رأسَ محمد ؟
إني من القوم الذين سيوفُهم قتلت أخاك وشرّفتك بمقعد
شادوا بذكرك بعد طول خموله واستنقذوك من الحضيض الأوهد

فقال إبرهيم : زادك الله حلماً يا أمير المؤمنين !

ودعبل هذا شاعر هجاء بذيء اللسان مولع بالحط من أقدار الناس ، وقد هجا الخلفاء فمن دونهم ، وطال عمره ؛ وكان يقول : لي خمسون سنة أحمل خشبتي على كتفي، أدور بها على من يصلبني عليها ، فما أجد من يفعل . ودعبل في هذه الدعوى كاذب نفاج ، فإنه كان شديد الخوف والحذر ممن يهجوهم ، وكان لا يجد له منجاة منهم إلا بالفرار في أقطار الأرض ، فإنه لما هجا المعتصم طلبه في كل مكان ، ففر منه إلى مصر ونزل بأسوان وقال :

وإنّ امرأً أضحت مطارحُ سهمه بأُسْوانَ لم يترك من الحزم مَعْلَما
حللتُ محلاًّ يقصُر الطرفُ دونه ويعجِزُ عنه الطيفُ أن يتجشّما

وهذا المعنى من أروع المعاني وأبدعها .

واشتهر المتنبي بالتيه على ممدوحيه ، والإدلال عليهم ، ومخاطبتهم مخاطبة النظير ، والتهجم في شعره على ما لا يحسن الحديث فيه . فقد هدد سيف الدولة بالرحيل عنه تلويحاً في قوله :

أخا الجود أعط الناس ما أنت مالك ولا تعطينّ الناسَ ما أنا قائل

ثم تصريحاً في قوله :

لئن تركن ضُمَيْراً عن ميامننا ليَحْدُثَنّ لمن ودّعْتهم ندمُ

ثم تدلل عليه تدلل الأخ على أخيه في آخر بيت من هذه القصيدة :

هذا عتابُك إلّا أنه مِقَةٌ قد ضُمِّن الدُرَّ إلّا أنه كلم

ولو أن شاعراً كتب إلى صديق له يعاتبه ما تجاوز ما كتب به المتنبي إلى سيف الدولة وقد بعث إليه كتاباً يدعوه إلى حلب :

وما عاقني غيرُ قول الوشاةِ وإنّ الوشاياتِ طُرْقُ الكذب
وتكثيرُ قوم وتقليلُهم وتقريبُهم بيننا والخَبَب
وقد كان ينصرهم سمعُه وينصرني قلبُــه والحسب

ولم أر شاعراً قبله يرثي أم ملك فيقول :

صلاةُ اللهِ خالقِنا حَنوطٌ على الوجه المـكفَّن بالجمال

أو أخت ملك فيقول :

يعلمْنَ حين تحيّا حسنَ مبسِمها وليس يعلم إلاّ اللهُ بالشنب

وانتهى تدلل المتنبي واعتزازه بشعره بعد أن بلغ منزلة من الشهرة إلى أنه كان يأبى أن يمدح غير الأمراء ، حتى إنه لم يقبل أن يمدح أبا القاسم طاهراً العلوي إلا بعد رجاء الأمير الحسن بن طغج وطول إلحاحه . ويتحدث أبو علي الكاتب فيقول : كنت حاضراً هذا المجلس فما رأيت ولا سمعت في خبر أن شاعراً جلس الممدوح بين يديه مستمعاً لمدحه غير أبي الطيب ، فإني رأيت طاهراً تلقاه وأجلسه في مجلسه وجلس بين يديه وهو ينشد قصيدته التي أولها :

أعيدوا صباحي فهو عند الكواعب وردّوا رقادي فهو لحظُ الحبائب

والكلام في المتنبي من هذه الناحية يطول بما لا تحتمله هذه العجالة .

وحينما زج الشعر بنفسه في ميدان السياسة فسد كما يفسد كل شيء ، واتخذه الخلفاء والملوك ذريعة لإعلاء شأنهم ونكاية أعدائهم ، حتى أصبح عدة الدول وجيشاً يساير جيوشها ، وأداة لإذاعة مآثرها ، وبوقاً للدعاية لها ، وجمع القلوب حولها . وقد غالى كثير من الملوك في دفع هذه الدعاية إلى أبعد مداها ، فتملقوا الشعراء واستجدوا مديحهم ، وأغروهم بالمال والمناصب ، وتجاوزوا عن آثامهم .

فشاعر القصر في عهد عبد الملك بن مروان كان الأخطل . وكان المنصور العباسي على صرامته وتشدده في الدين يغضي عن عربدة ابن هرمة وإدمانه ، حتى إنه وقد أراد أن يبرىء نفسه أمام نفسه من تغاضيه عن مجاهرة الشاعر بشرب الخمر ، أمر رئيس شرطته أن يقيم حد الخمر على ابن هرمة إذا جيء به إليه سكران ، على شرط

أن يضرب الذي يحضره مائة جلدة . فكان ابن هرمة يترنح في طرق بغداد فلا يتقدم أحد لأخذه إلى رئيس الشرطة ، وكان يصيح متحدياً والخمر تعبث بلسانه : أيها المسلمون : من منكم يشتري ثمانين بمائة !

وتأخر أبو دلامة الشاعر أياماً عن باب المنصور ، فلما حضر أمر بإلزامه القصر وإلزامه الصلاة في مسجده ، ووكل به من يراقبه ، فمر به يوماً أبو أيوب وزير المنصور فإذا أبو دلامة يدفع إليه برقعة مختومة ويقول : هذه ظلامة لأمير المؤمنين فأوصلها إليه فلما فتحها المنصور قرأ فيها :

ألم تعلموا أن الخليفة لزّني بمسجده والقصرِ مالي وللقصر ؟
أُصلّي به الأولى مع العصر دائماً فويلي من الأولى وويلي من العصر !
ووالله مالي نيـــــة في صلاتهم ولا البر والإحسان والخير من أمري
وما ضرّه والله يُصلح شأنه لو اُنّ ذنوبَ العالمين على ظهري !؟

فضحك المنصور طويلا ثم أحضره وقال : ما قصتك ؟ قال : دفعت إلى أبي أيوب رقعة مختومة أسأل فيها إعفائي من لزوم ما أمرتني بلزومه . فقال له المنصور : اقرأها . قال : ما أحسن أن أقرأ . وقد علم أنه إن قرأها حده الخليفة حد تارك الصلاة . فلما رآه تنصل من ذلك قال : أحببت لو كنت أقررت لأضربك الحد . ثم قال : أعفيتك من لزوم المسجد ، فقال أبو دلامة : أو كنت ضاربي يا أمير المؤمنين لو أقررت ؟ قال : نعم . قال : مع قول الله عز وجل : « يقولون ما لا يفعلون ؟ » فضحك المنصور ووصله .

والقصة كما هي موضوعة ظاهرة الوضع ، ولكنها تصور حقيقة لا نزاع فيها هي أن الملوك كانوا يصانعون الشعراء ويجاملونهم مجاملة لا يظفر بمثلها سواهم .

وقد بلغ من استظهار بني العباس بالشعر واتخاذه قوة متممة لملكهم أن أبا العتاهية الشاعر في إحدى لحظات نسكه طاف به طائف من الزهد ، فعقد العزيمة على أن لايقول الشعر . فلما علم الخليفة المهدي بما اعتزمه أمر بحبسه ، فحبس في سجن الجرائم مع حاضر صاحب عيسى بن زيد . فلما طال حبسه أحضرهما المهدي ، فسأل صاحب عيسى : أين عيسى بن زيد ؟ فقال : ما يدريني أين عيسى بن زيد ؟ تطلبته فهرب منك في البلاد ، وحبستني فمن أين لي أن أقف على خبره ؟ قال له : أين كان متوارياً ؟ ومتى كان آخر عهدك به ؟ وعند من لقيته ؟ قال : ما لقيته منذ توارى ،

ولا عرفت له خبراً . قال : والله لتدلن عليه أو لأضربن عنقك الساعة . قال : اصنع ما بدا لك ، فوالله ما أدلك على ابن رسول الله ، وألقى الله تعالى ورسوله بدمه ! ولو كان بين ثوبي وجلدي ما كشفت لك عنه . قال : اضربوا عنقه ، فضربت عنقه وأبو العتاهية واقف يرتعد فرقاً ،فلما دعي قال له المهدي : أتقول الشعر أم ألحقك به؟ قال : بل أقول الشعر والله يا أمير المؤمنين ! !

وكان كبار الشعراء في الأندلس يحددون للقصيدة ثمناً لا يحظى بها ملك بأقل منه : حكوا أن المعتمد بن عباد ألح على أبي علي العبدري أن يمدحه . فما كان من العبدري إلا أن أجابه في كبر واعتزاز قائلا : إن أشعاري مشهورة ، وبنات صدري كريمة ، فمن أراد أن ينالها فعليه أن يعرف مهرها . وكانت جائزة قصيدته لا تقل عن مائة دينار .

وبلغ من إعزاز ملوك الطوائف للشعراء أنهم كانوا يتجاوزون عن هجائهم ، ويقابلون سلاطتهم بالإعطاء والإغداق . كان النحلي الشاعر من صنائع المعتصم بن معن ابن صمادح ، فلما سار إلى إشبيلية مدح المعتضد بن عباد بقصيدة قال فيها :

أَباد ابن عبّاد البربرا وأَفنى ابن معنٍ دَجاج القرى

ثم مر زمن نسي فيه النحلي ما قال ، وذهب إلى المرية حاضرة ملك المعتصم ، فدعاه إلى منادمته وأعد للعشاء موائد ليس فيها إلا الدجاج ، فقال النحلي : يا مولانا ، أما عندكم بالمرية غير الدجاج ؟ فقال المعتصم : إنما أردنا أن نكذبك في قولك « وأفنى ابن معن دجاج القرى» فإن الدجاج لا يزال عندنا والحمد لله كثيراً ، فطار لب النحلي وطفق يعتذر ويعتذر ، ولكن المعتصم أسرع إلى تهدئة روعه ووصله بأكرم صلة .

قلنا إن الشعر فسد لأنه زج بنفسه في ميدان السياسة ، فاندفع الشعراء في هذا الميدان ، وزهاهم أن يتزاحم الأمراء على أبوابهم ، ولم يعلموا أن السياسة سلاح ذو حدين، وأن الأمراء الذين يبسمون لهم اليوم قد يعبسون غداً ، وأن الفن إذا بيع بالمال ودفع به في سوق المساومات ارتفع حيناً وكسد أحياناً ، وأن الشاعر الذي يبيع نفسه لسواه يدخل في رقه ، ويتعرض حيناً لرضاه وحيناً لسخطه ، وأن الذي يجعل من نفسه وضميره وفنه أداة لإعلاء قوم والحط من آخرين لا يفتأ إن وجد الحياة وطيبها عند هؤلاء ، أن يجد الموت وأهواله عند أولئك .

وذلك ما سنبسط الكلام فيه في حديث آخر إن شاء الله .

علي الجارم

الطاقة الذرية بين النفع والسيطرة

للأستاذ فؤاد صروف

ليس ثمة ريب في أن منافع الطاقة الذرية في أيام السلم هي على الزمن أبقى أثراً في حياة الناس واجتماعهم إذا سلموا من شرها. أما ما تكون وجوه الانتفاع بها فتقديره اليوم على وجه من الدقة أمر صعب. فمنذ قرن من الزمان وضع «فاراداي» الأساس العلمي للهندسة الكهربية، ولكن من كان يستطيع يومئذ أن يقدر ما تبلغه هذه الهندسة من عظم الشأن؟ حتى «فاراداي» نفسه قال يوم سألته سيدة في محاضرة له: «وما نفع هذه التجربة ياسيدي؟» فقال: «وما نفع الوليد ساعة يولد؟». والعلماء مجمعون على أن أوسع مجال للانتفاع بالطاقة الذرية اليوم هو مجال توليد الحرارة والقوة والحركة التي تلدها الحرارة. فالحضارة القائمة اليوم لاغنى لها عن موارد الطاقة، ونحن نولد الطاقة بحرق الفحم أو الزيت تحت مرجل؛ فحرارة الفحم تتحول إلى طاقة ميكانيكية أو طاقة كهربية، وحرارة الشمس هي التي تبخر الماء فيرتفع في الجو ثم ينعقد مطراً مدراراً، فتتدفق الأنهار وتنحدر مساقط المياه التي تولد الطاقة الكهربية إن لم تولد من الفحم المحروق. والحرارة المتولدة من تفجرذرات اليورانيوم أو البلوتونيوم خليقة بأن تدير عجلات المصانع الكبيرة في المستقبل القريب؛ فيغلب على الرأي أن النفع الصناعي الأول من الطاقة الذرية هو إحلال حرارتها محل حرارة الاحتراق في بعض الشؤون.

والمصانع التي أنشئت في الولايات المتحدة خلال الحرب لتحضير المواد اللازمة للقنبلة الذرية تولد مقادير كبيرة من الحرارة تذهب الآن بدداً في الهواء أو في مياه نهر جار؛ ففي الوسع أن ينتفع رجال الهندسة والصناعة بهذه الحرارة في تسخين الهواء أو البخار أو معدن سائل كالزئبق ثم تدفع هذه المادة الساخنة في آلة تحول الحرارة إلى حركة في تربين.

والعلماء لم ينشؤوا حتى اليوم فيما نعلم مصنعاً يتحرك بالطاقة الذرية لتوليد الكهربا، وذلك لأنهم كانوا منصرفين حتى عهد قريب إلى صنع القنبلة الذرية،

ولأن الطاقة الكهربية المولدة من الفحم المحترق أو مساقط المياه كانت موفورة ، فإذا اشتد الطلب على أن يقيموا الدليل على إمكان ذلك كان في وسعهم — على رأي الدكتور أرثر كومثون — أن يصنعوا في خلال سنة واحدة مصنعاً من هذا القبيل تتحرك تربيناته ببخار شديد الحرارة أخذت حرارته من حرارة التفجر الذري ، ولكن لابد من أن تنقضي سنوات أخرى قبل أن يصبح هذا المصنع قادراً على منافسة المصانع القائمة اليوم لتوليد الطاقة الكهربية على أساس تجاري رابح . والمصنع الذي يتم فيه التفجر الذري بالتفاعل المتسلسل ينبغي أن تكون فيه مقادير كبيرة من اليورانيوم أو البلوتونيوم ، وحواجز تلطف سرعة النوترونات حتى تصير نافذة الفعل في شطر نواة الذرات . ومع أن المصانع التي تصلح لذلك قد صارت الآن أصغر حجما مما كانت في أول الأمر ، فإنها لا تزال كبيرة ، ولا يمكن أن تكون أصغر من حجم معين ، لأن هذه المصانع في حاجة إلى إقامة حواجز ضخمة من حولها تمنع انطلاق إشعاعها المؤذي في الفضاء . ونحن إذا استثنينا الأشعة الكونية التي تستطيع أن تخترق ما سمكه بضع أقدام من الرصاص ومئات الأقدام من الماء وجدنا الإشعاعات المنطلقة من التفجر الذري أعظم ضروب الإشعاع نفاذاً في الأجسام . فإذا أردنا أن ننشئ محركا يولد قوة مئة حصان لسيارة مثلا كانت الإشعاعات المنقذفة من الذرات المتفجرة أقوى من الأشعة المنطلقة من قدر غير يسير من الراديوم أو من أنبوب من الأشعة السينية ؛ فلكي نمنع هذه الإشعاعات من الانطلاق ينبغي أن نحوطها بحاجز يبلغ مبلغ لوح من الحديد ، سمكه قدمان أو ثلاث أقدام ؛ ويلوح مما يعرف من نواميس الطبيعة وطبائع الإشعاع أن الاكتفاء بحاجز رقيق خفيف لحجب هذه الإشعاعات ليس ممكناً ، وهذا يعني أنه لا يحتمل أن تبنى مولدات للطاقة الذرية يقل وزنها عن خمسين طناً أو نحو ذلك .

إن للطاقة الذرية مزايا عظيمة إذا استعملت في مصانع مركزية كبيرة لتوليد الكهربا أو القوة المحركة ، وفي طليعتها قلة ما يستهلك من الوقود ، والوقود في هذه الحالة هو اليورانيوم القابل للانشطار ، أو البلوتونيوم ؛ فالانشطار الذي يتم في رطل واحد من اليورانيوم يولد طاقة كالطاقة التي يولدها حرق ١٤٠٠ طن من الفحم أو ٩٠٠ طن من البنزين ؛ ولو تحول الرطل كله إلى طاقة لوجب بمقتضى معادلة أينشتين أن تعدل تلك الطاقة طاقة مليون ونصف مليون طن من الفحم ؛ وإذن ففعل الانشطار لا يحول إلا نحو جزء من الرطل إلى طاقة . وشطر جميع الذرات في رطل من اليورانيوم شيء لم يتم بعد ؛ فإذا فرضنا أن ثمن رطل اليورانيوم ثلاثة ريالات كما كان قبل الحرب ،

وأن ثمن الطن من الفحم ثلاثة ريالات كما كان في أمريكا قبل الحرب ، وجدنا الانتفاع بالطاقة الذرية المستخرجة من رطل يورانيوم رخيصاً بالقياس إلى الطاقة المستخرجة من حرق الفحم . والتقدم مطرد في زيادة الانتفاع بالمتفجر من ذرات اليورانيوم ، ولذلك يرى الدكتور كومثون أن الشركات الكبيرة التي تولد الطاقة المحركة لخدمة الصناعات في المدن والريف خليقة في عشر سنوات أن ترى جدوى الانتفاع باليورانيوم دون الفحم لأسباب اقتصادية بحتة . أما المزايا الأخرى فهي أن هذا الوقود لا يولد دخاناً ولا أبخرة مؤذية ولا هو قابل للاشتعال .

على أن المسألة — مسألة الانتفاع بالطاقة الذرية في مصانع كبيرة تولد طاقة كهربية للصناعة — لها نواح أخرى معقدة ولن تنكشف الحقيقه فيها إلا بعد التجربة في إنشاء هذه المصانع . خذ مثلا المال الذي ينبغي أن يرصد لهذه المصانع ، وثمن وحدة الطاقة التي تباع لصاحب المصنع ، فهذا بحث لا يزال في أوله ، ولا بد لكل شركة من أن تنفق ملايين من الريالات على مواصلة البحث ؛ ولكن هذا الإنفاق يسوغه ما يحتمل أن تصير إليه مناعة توليد الطاقة المحركة عن طريق الانتفاع بالطاقة الذرية .

ثم إن الانفجار المخيف الذي دوى فوق هيروشيما ونجازاكي صار مقترناً بذكر التفجر الذري ، فصار الناس يخشون خطأ أن يلازم هذا الانفجار كل انتفاع بالطاقة الذرية في المصانع . والحقيقة أن الانفجار الذي تم في المرات الخمس التي استعملت فيها القنبلة الذرية لايقع مصادفة بل يرتب أمره ترتيباً دقيقاً ؛ وخطر الانفجار في المصانع التي تعتمد على الطاقة الذرية لايزيد على خطر الانفجار في مصانع توليد البخار ، أي أنه شيء لا يذكر إذا أحسن تصميم المصنع في الحالين وأتقن صنعه وقام على العمل فيه رجال أكفاء .

ولكن هناك خطر حقيقي يتعرض له رجال المصنع من جراء الأشعة التي يطلقها المصنع نفسه ، والمواد التي تخرج منه ، وهذه المواد إذا ألقيت كيفما اتفق ، أو إذا لم تدفن على عمق عظيم في جوف الأرض، صارت مصدر خطر عام ، ولكنها مشكلة تخضع للنظام الدقيق والمراقبة واليقظة الدائمة ، فمصانع الطاقة الذرية ستظل سنين طوالا في حاجة إلى رقابة صحية دقيقة ، وهذا كله مما يزيد نفقة الانتفاع بالطاقة الذرية .

ومجمل القول أن دراسة جميع الاعتبارات العلمية والصناعية والاقتصادية والصحية تشير إلى أن الانتفاع بالطاقة الذرية خليق أن يتم أولا — وليس هذا ببعيد — في المصانع التي تزود المدن الكبيرة بالطاقة اللازمة للإضاءة والصناعة ، أو المناطق الصناعية

والزراعية التي تحتاج إلى هذه الطاقة ، دون أن تجدها الآن في متناولها. وإن هذه الطاقة في الحالين تكون أقل ثمناً مما هي اليوم ، وتوليدها لا يفضي إلى نفث الدخان والهباب في الجو . وهذه وجوه للانتفاع بالطاقة الذرية تكاد تكون في متناول اليد ، وقد تكون مخيبة لأمل الذين غذوا أخيلتهم بما قيل عن الاستغناء بالطاقة الذرية عن الفحم والزيت ، وما قرؤوه عن إمكان الانتفاع بالطاقة الذرية التي يولدها الماء في كوب من الماء لتسيير سفينة كبيرة من أوربا إلى أمريكا .

أفلا نستطيع إذن أن ننتفع بالطاقة الذرية في أسباب النقل ؟ يغلب على الرأي أن سفائن البحار والطائرات الضخمة والصواريخ الكبيرة وربما القاطرات العظيمة خليقة بأن تنتفع بالطاقة الذرية في مستقبل غير بعيد . فبضعة أرطال من اليورانيوم قد تولد طاقة لدفع سفينة ضخمة ، ولكن الجهاز الضخم اللازم للانتفاع بطاقة هذه الأرطال القليلة من الراديوم قد يزن عشرات الأطنان على الأقل .

فالطائرات الضخمة التي تتحرك بالطاقة الذرية تستطيع أن تستعمل جهازاً تنفجر فيه الذرات فينتفع بحراراتها في توليد بخار يحرك الطائرة ، أي أن الطائرات تستبدل محركاً بخاريًّا بمحرك الاحتراق الداخلي الذي ينتفع بالبنزين ، ويكتفى فيها في أثناء الطيران بحاجز يحول دون وصول الإشعاع إلى المكان أو الجهة التى يقعد فيها الركاب ورجال الطائرات ، أما الجوانب الأخرى فتترك بغير حاجز فينطلق الإشعاع في الفضاء ، فإذا صنعت طائرات ضخمة على هذا الأساس كان مداها لا حدود له . وطائرة « زورق الأحلام » التي جاءت القاهرة من جزائر هواي وصلتها وقد أشرف وقودها من البنزين على النفاد ، أما الطائرة التي تتحرك بالطاقة الذرية فتستطيع أن تستمر — إذا قصرنا النظر عن الوقود — في الفضاء زماناً لا يقاس بالساعات والأيام بل بالأسابيع والأشهر، ويؤمئذ يصير الطيران حول الأرض بغير توقف أمراً يسيراً . وإذا استعين بالمحركات النفاثة استطاعت الطائرات أن تحلق إلى ارتفاع عظيم وأن تنطلق بسرعة عظيمة أيضاً .

وأما السفن الكبيرة فتستطيع أن تنتفع بالطاقة الذرية كما تنتفع بها المصانع التي تولد طاقة الحركة وطاقة الضوء ، ويحتمل أن تعتمد على حرارة الطاقة الذرية في توليد البخار الذي يدفع السفينة ، ويومئذ تزول المدخنة التي تلازم صورة السفينة في أذهاننا، وتذهب أيضا المواقد التي يوقد فيها الفحم ، إذ لا حاجة بالسفينة إلى أن تحمل في جوفها وقوداً كالفحم أو النفط ، وحسبها وقوداً أن تكون فيها المادة التي تولد الطاقة من تفجر الذرات ، وكل هذا يفضي إلى تصميم السفن على نظام جديد ، فتزداد حمولتها ،

وتجعل ممراتها وردهاتها أوسع وأدنى إلى راحة المسافرين . ومدى هذه السفن كمدى الطائرات لا يحد منه حاجتها إلى أن تقف لتتزود بالفحم أو النفط ، ويومئذ ينقضي ما لبعض الأمم من سيطرة على ملاحة البحار والمحيطات ، وتصبح البحار حرّة حقا وهذا يؤثر على الزمن في خطط الأمم المرتبطة بالقوة البحرية ، ويفضي إلي تغيير أساسي في الخطط وفي القوة البحرية جميعاً .

وهنا يعرض لنا سؤال خطير : لماذا نرى الناس — من رجال العلم ورجال الصناعة ورجال الحكم — يعلقون هذا الشأن الخطير بالطاقة الذرية في شؤون الصناعة والاقتصاد ؟ فنحن نعيش في عالم نرى فيه موارد الطاقة ممثلة في ضياء الشمس وحرارتها والرياح ومساقط المياه والمد والجزر وغيرها أكثر كثيراً مما ننتفع به ، وكثير منها يضيع جزافاً ، وإذا لم يزد ما يستهلكه الناس من الوقود زيادة عظيمة تفوق الحسبان فإن موارد الفحم تكفي ألف سنة . وإذا كانت موارد النفط تطرد نقصاً ، ففي وسع العلماء أن يصنعوه من الفحم ، وفي وسعهم أن يستخرجوا من محاصيل الأرض كحولا يمكن الانتفاع به وقوداً سائلاً ، فيبدو أن الحاجة إلى وقود جديد أو مصدر جديد للطاقة ليست حاجة ماسة .

والجواب طبعاً هو أن اهتمامنا ليس منصباً على مصدر جديد للطاقة وحسب ، بل على مصدر جديد للطاقة نستطيع أن ننتفع به كيف نشاء وحيثما نشاء ووقتما نشاء ، فضياء الشمس الساقط على الأرض لا يجدي أحداً في عمل ما إلا إذا ركز منه قدر كبير يكفي للقيام بذلك العمل ، وهذا التركيز يقتضي أجهزة ضخمة من مرايا ومراجل وما أشبه . أما الفحم والنفط فلن تستطيع أن تظفر بهما حيث تريد إلا بعد عمل شاق في التعدين والاستنباط والنقل ، وهذا كله مرتبط بمشكلة العمل والعمال ، وبأدوات كثيرة معقدة ، ومال ضخم يستثمر في هذه الأعمال ، فحين تنتفع بالبنزين في سيارتك وتنفق خمسة جنيهات ثمناً لما تشتريه منه فإن بضعة قروش تمثل ثمن مادة الوقود نفسها ، والبقية تمثل كل ما طرأ على النفط من عمل منذ استنبط من الأرض إلى الساعة التي وضع فيها في خزان سيارتك . ولم تنشر حتى الساعة الأرقام التي تدل على ثمن الطاقة الذرية ، فالمقارنة مع سائر ضروب الوقود مستحيلة الآن .

ولكن المعدات اللازمة لإطلاق الطاقة من ذرات اليورانيوم والبلوتونيوم ، ثم المعدات اللازمة للانتفاع بحرارة هذا التفجر ، تجعل جدوى الانتفاع بالطاقة الذرية في شؤون تصلح لها طاقة الفحم وطاقة مساقط المياه أمراً مشكوكاً فيه الآن ؛ بيد أن

الطاقة الذرية لها مزايا منها أنها لا تحتاج إلى أوكسجين لتوليد الحرارة بالاحتراق كالفحم أو الزيت ، فتوليد حرارتها لا يسفر عن غازات الاحتراق ، وهذا يجعل الانتفاع بها في أحوال خاصة أمراً مرغوباً فيه كأن تستعملها تحت الأرض أو تحت البحر بحيث يعسر أن تظفر بموارد الطاقة الأخرى إلا أذا أنفقت مالا جزيلاً .

وللطاقة الذرية نفع في علوم الطب وفروعها وما يتصل بها من علوم الحياة ؛ ففي السنوات الخمس الأخيرة من القرن التاسع عشر تم للعلماء أربعة كشوف خطيرة كان أولها الأشعة السينية التي كشفها «رنتجن» ، وكان ثانيها ظاهرة النشاط الإشعاعي التي كشفها « بكريل » ، وكان ثالثها كشف عنصر الراديوم الذي تم « لبيير كوري » وزوجته، وكان رابعها كشف الكهيرب [الألكترون] الذي تم «لجوزيف طمسون» . ولم تكن هذه الكشوف الأربعة أحداثاً خطيرة في تقدم علم الطبيعة ودراسة الذرة وحسب ، بل كانت أيضاً مراحل ذات شأن في تقدم علوم الطب والعلاج ، ولا سيما الثلاثة الأولى منها . ولست أخال أحداً ينكر أن للانتفاع بالأشعة السينية وأشعة الراديوم أثراً عظيما في وسائل العلاج الطبي الحديث ولا سيما السرطان ، وأبلغ دليل على أثرها ومنزلتها أن صار بين علوم الطب علم جديد هو علم الأشعة والانتفاع بها في التشخيص والعلاج .

ومنذ خمس عشرة سنة أو أقل كشف العلماء كشفين خطيرين آخرين ، أما الأول فهو النترون ، وأما الثانى فهو النشاط الإشعاعي المستحدث أو النشاط الإشعاعي الصناعي ؛ ولكن قبل أن يتم للعلماء الألمان شطر ذرة اليورانيوم تم لغيرهم في منتصف العقد الرابع من هذا القرن تحويل العناصر غير المشعة إلى عناصر مشعة ، فقد وجدوا أن عناصر ساكنة مستقرة كالفضة والنحاس والكربون وغيرها — وهي أبعد ما تكون في طبائعها عن عنصر دائم التفجر والانحلال كالراديوم — يمكن أن تهيجها فتصير عناصر مشعة ؛ فكأنك أخذت مقعداً مشلولاً ونفخت فيه روحاً جديداً ، أو حقنته بعقار قوي ، فقفز من سريره وأصر على أن يشترك في الألعاب الأولمبية . والعناصر المشعة نادرة في الطبيعة ، ولذلك نراها غالية الثمن ، وقدكان الجرام الواحد من الراديوم يباع بعشرة آلاف جنيه أو أكثر ، وكانت المستشفيات تتنافس في سبيل الظفر بقليل منه . فتحويل العناصر غير المشعة إلى عناصر مشعة خطوة عظيمة الشأن في دراسة طبيعة المادة . ولما كان لبعض العناصر نفع طبي ، أو شأن في دراسة طبائع الأحياء ووظائف أنسجتها وما يجري فيها من تفاعل كيمائي ، كان تحويل غير المشع منها

إلى مشع خطوة عظيمة الشأن في علوم الطب وما يتصل بها من علوم الحياة .

وهذا النفع لايقتصر على استعمالها في العلاج وحسب كالانتفاع بالصوديوم الذي استحدث فيه النشاط الإشعاعي بدلا من الراديوم ؛ ويمتاز الصوديوم المشع على الراديوم بأن « نصف حياته » أي نصف مدة الإشعاع منه لايزيد على ١٥ ساعة ، على حين نرى نصف حياة الراديوم مئات الألوف من السنين ، فلا خطر من الصوديوم المشع إذا استقر في أحد الأعضاء أو الأنسجة ، أما الراديوم فإذا استقر ظلّ يطلق القذائف الناشئة من انحلاله زمناً طويلا على الأنسجة المختلفة ، فينتهي به الأمر إلى إحداث الانحلال أو التسمم. ثم إن الصوديوم المشع لايطلق إلا أشعة « جما » أما الراديوم فيطلق دقائق « ألفا » ودقائق « بيتا » ، فاستعمال الصوديوم المشع في الطب أسهل وأقل خطراً من استعمال الراديوم .

وقد صنع العلماء حتى سنة ١٩٤٠ ما يزيد على ٣٧٠ نظيراً مشعاً من نظائر العناصر المعروفة ، وكثير من هذه النظائر له نفع في الطب والعلوم المتصلة به ، ولكنه نفع لايقتصر على العلاج وحسب ، بل هناك ما هو في نظري أجل شأناً من العلاج ، ذلك أن بعض هذه الذرات المشعة أصبحت الآن أداة نافعة في أيدي الرجال الذين يبحثون في وظائف الأعضاء والأنسجة وما يجري فيها من تفاعل كيمائي في حالتي الصحة والمرض فهي كالمجهر والمرقب وغيرهما من الوسائل الجديدة للبحث تعين الباحث على أن يسبر أسراراً كانت مخفية عنه في باطن الجسم الحي .

وأصل هـذه الأداة يعود إلى كشف تم مصادفة في سنة ١٩١٣ ولم يأبه له أحد غير نفر قليل من العلماء ، فقد وجد الباحثان « فون هيفيسي » و « بانيت » أن الخواص الكيميائية لمادة راديوم د — وهي مادة مشعة — لاتختلف عن الخواص الكيميائية لعنصر الرصاص ، أي أن الأول نظير الثاني ، فإذا مزج قليل من المادة الأولى مع كثير من الثانية تعذر بعد ذلك فصل إحداهما عن الأخرى بأية وسيلة كيميائية معروفة ، فأفضى هذا الكشف في مراحل متوالية إلى ابتكار الطريقة المعروفة باسم « الذرات الكاشفة ». خذ مثلا عنصراً كالصوديوم أو الحديد واصنع منه نظيراً مشعا ، أي استحدث فيه الإشعاع ، فهو ليس بالعنصر المشع ، ثم امزج قليلا من ذرات هذا النظير المشع بكثير من ذراته المعهودة وأدخل هـذا المزيج في أي مركب مثل « كلوريد الصوديوم » : ملح الطعام ، وضع هذا الملح في طعام فأر أو أرنب أو إنسان . ففي العادة لاتستطيع أن تعرف كثيراً عما يتم لهذا الملح متى دخل الجسم ، ولا أن تتبع مراحل تحويله ، ولكن

الذرات المشعة التي دخلت في تركيب هـذا الملح لاتلبث حتى تنم عليه ، أي تكشف وجوده في خـلال سـيره في الجسم ومن هنا أسماها الإنجليز "Tracer" وترجمتها العربيـة « الذرات الكاشفة » . ومن أعجب التجارب التي تمت في هـذا الصدد تجربة أجروها على ميناء ثنايا الجرذان ، فقد وضعوا في اللبن فسفوراً يحتوي على قليل من ذرات نظير مشع من نظائر الفسفور ، ثم قدم اللبن للجرذان فتتبع العلماء سير هذا الفسفور في جسمها حتى استقر في ميناء ثناياها . أو خذ عنصر اليود ، فهو من العناصر التي ولدت لها نظائر مشعة ، فثبت أن نظير اليود المشع يغني عن الراديوم وعن مبضع الجراح في علاج النوامي السرطانية في الغدد الدرقيـة ، وذلك لأن اليود المشع يسير بطبيعته بعد أن يدخل الجسم إلى مستودعه الرئيسي في الجسم وهو الغدد الدرقية ، فإذا بلغها جعلت الذرات المشعة تطلق إشعاعها إلى حين ، فيفعل هذا الإشعاع فعل إبر مغروزة في الغدة وتحتوي على مقدار من الراديوم .

ثم إن الذرات المشعة في هذا المقدار من اليود ، أي « الذرات الكاشفة » ، تمكن علماء وظائف الأعضاء والكيمياء الحيوية من أن يتتبعوا مسير اليود في الجسم .

وقد وجدوا منذ بضع سنوات بواسطة الذرات الكاشفة من الفسفور المشع أن جرعة من الفسفور تتركز بعد تناولها في المراكز التي تولد الدم ، فصار هذا الكشف أساساً لعلاج بعض أمراض الدم مثل «اللوكيميا» التي تطغى فيها كريات الدم البيض؛ ومع أن الفسفور المشع ليس علاجاً ناجعاً في مرض «اللوكيميا» إلا أنه من الوسائل التي تفضي إلى تحسن الحالة ؛ وقد استعمل الزنك المشع في دراسة موضوع الغذاء في النبات ، والكربون المشع في استطلاع أسرار التركيب الضوئي الذي هو عماد كل غذاء نباتي وحيواني في الطبيعة ؛ فإذا عرفت هذه الأسرار كانت معرفتها خطوة من أعظم ما تم للعلم في التاريخ .

ثم إن الانتفاع بالطاقة الذرية — كما كانت معروفة منذ أوائل العقد الرابع من هذا القرن — قد أنقذ من الناس أكثر من الذين فتكت بهم قنبلة هيروشيما ؛ فإن التطور الجديد في إطلاق الطاقة الذرية على النحو الذي تقدم ذكره قد زاده زيادة كبيرة وفرة النترونات المتولدة في اليورانيوم وأشباهه ، وهي لازمة لتوليد النظائر في مقادير أكبر وأقل ثمناً ، ولاستعمالها مباشرة أيضاً ، فترى العلماء يعتقدون اليوم أن ما تم حتى الآن ليس سوى توطئة يسيرة لما ينتظر .

فؤاد صروف

على بساط الريح .. عبر المحيط

للأستاذ محمود تيمور بك

[سافر الكاتب في أبريل الماضي إلى أمريكا ، على متن الطائرة « أبي الهول » ، وقد دون خواطره في أثناء السفر . وهو في هذه القطعة يصف الرحلة على بساط الريح عبر المحيط إلى نيويورك . . .]

. . . وعدنا إلى « أبي الهول » فوجدناه قد تملّأ من شبع وريّ ، وتزود زاداً يستطيع به أن يواصل الصوم ساعات غير قصار .

نحن الآن بصدد رحلة لن تستغرق أقلّ من إحدى عشرة ساعة ، نَعْبر فيها المحيط الإطلنطي ، أو كما يسميه العرب « بحر الظلمات » .

هيّا « أبا الهول » . . . على بركة الله !

وتسامى بنا صديقنا الكبير يضرب في عرض الأفق وقد اتقد حَمِيّة وحماسة ؛ ورأينا السحب تنبسط على صفحة المحيط ، وتغدو كأنها بساط من جليد . . . وقد يلتبس الأمر لعين الرائي فيحسب أن ذلك السحاب المنتشر ليس إلا المحيط قد راعه « أبو الهول » الذي اقتحم عليه سماءه ، فارتفع بموجه الأشهب وعبابه الصخاب يريد أن يناقشه الحساب !

ولبثنا نطير ونطير في سهولة ويسر . . .

إن « أبا الهول » رزين مجدّ في سيره ، يريد أن يثبت لنا أن ليس في الكون شيء يتعذر عليه ، وأن عبور المحيط ليس إلا نزهة طيبة رائقة !

حقا إنها لنزهة ليس فيها ما يعكر الصفو ، فقد امحى من أذهاننا ما كان مستقرا فيها من أهوال عبور المحيط ، وما يعترضه من مخاطر . . . إن « لندبرج » كان أحكم الناس رأياً حين راح ينتزع من الأذهان برحلته الموفقة أوهام الخوف والحذر من بحر الظلمات ، فاستطاع بتجربة جريئة أن يصل بين قارتين عظيمتين ، بل دنياوين حافلتين : دنيا الماضي ، ودنيا المستقبل .

وظلت الشمس تسايرنا طويلاً من الوقت ، فلم تأذن لنفسها في المغيب إلا بعد التاسعة والنصف . وانتشر على أطراف ذلك البساط الثلجي الناصع لهيب أنفاسها المحترقة ، فهب الليل يرسل شملته الحالكة يحاول أن يطفئ بظلامه لهيب تلك الأنفاس .

ووجدتني أضغط زر المقعد ، فمال بي طيّعاً إلى الوراء ، ومددت على ركبتي دثاري يحميني من هجمة القرّ ، ثم أطبقت جفني أستدني هادئ النعاس .

وبين سدول الليل المتراخية هبطنا مطار « جندار » في الأرض الجديدة . . .

وحملتنا سيارة حافلة ، ومضت بنا تجتاز طرقاً ودروباً تقوم على جوانبها بعض أبنية مختلفة . وعرفنا أننا في بقعة منعزلة عن العمران ، مستعمرة من مستعمرات الجو . . . إنها أشبه شيء بقرية تكفي نفسها بنفسها ، فيها المقصف والنادي والفندق والمستشفى والمصنع وكل ما يسد حاجة الطائرة وراكبها .

وبدت لي هذه المستعمرة كئيبة عابسة ، على الرغم مما يبدد حلوكة الليل فيها من مصابيح فياضة الضوء .

وأبلغتنا السيارة الحافلة مقصف المطار ، فخطونا على أرض خضبتها قطرات المطر ، وكست حواشيها بقايا الصقيع . وصافح وجوهنا هواء قارس ، فحثثنا الخطى إلى المقصف نلتمس الدفء . إنه لمقصف فسيح الجوانب ، أقيم من الخشب الغليظ ، على نحو ساذج قروي ، كل ما فيه يكفل راحة المتعب المكدود ...

ونظرت في ساعة يدي فوجدتها الخامسة ، وتطلعت حولي ، فلم أجد أثراً لتباشير الصباح ... إنه ليل دامس ثقيل الوطأة ... وغمرتني الحيرة هنيهة ، ثم حانت مني التفاتة فصادفت ساعة الحائط تعلن أن الوقت منتصف الليل ! . . .

ووقفت لحظة أرجع البصر بين ساعة يدي وساعة المقصف ، ثم انسرحت أفكر . .

هنا يعود المرء إلى عهد التلمذة ، ويستنجد بما علق بذاكرته من معلومات جغرافية في شأن دوران الأرض حول الشمس واختلاف الزمن بين قارة وأخرى . . .

وطال بي الاستذكار والتفهم والموازنة ، فتبرم رأسي بهذا العبث . . .

إنه منتصف الليل وكفى !

عليّ أن أضبط ساعة يدي راجعاً بها القهقرى خمس ساعات . . .

ها قد أضيفت إلى صفحات الليل صفحات جدد لم تكن في الحسبان . . .

يالله ! . . . أما لهذا الليل من آخر ؟

ودخلنا المقصف نتناول الفطور ، ثم تركنا قاعة الأكل إلى بهو الجلوس ،

نترامى على مقاعده المريحة ، كأننا في ضيافة فلاح ثري من أعيان تلك الناحية ... وأخذ يطرق أسماعنا نقر كرات « البليار » يتلاعب بها بعض الرفاق تزجية للوقت . . . لست أدري أأخذتني في مجلسي سنة من نوم أم ظللت ساهراً يقظان ؟ ولكني أعلم علم اليقين أني قضيت وقتي ملازماً مقعدي الفسيح لا أريمه ، مطلقاً لأفكاري حرية التحليق !

إنها القارة الثانية التي أهبطها في رحلتي هذه . . . قارة الدنيا الجديدة . . . إننا على شاطئها نقف وقفة الفضولي يتطلع فيما حوله ، كأنما يحاول أن ينفذ ببصره إلى عباب ذلك المجهول المترامي الأطراف . . . إننا على شاطئها نقف وقفة الرائد الكشاف حين تلامس قدمه أول مرة شاطئ الجزيرة المنشود ، فهو يحدّ بصره طامحاً أن يقرأ في تلك الأرض العذراء الحافلة بالكنوز صحيفة أقداره . . . يقف صامتاً يتأهب لحياة جديدة ، ويرحب باستقبال ما يصابحه به الغدّ من مفاجآت وأحداث . . . ويهيئ نفسه للتأقلم في هذا المقام الجديد . . . ويؤمّل أن يرجع إلى وطنه وقد أصاب ما سمت إليه نفسه من مآرب ورغاب !

وسمعنا مضخم الصوت يذيع : « ركاب أبي الهول إلى نيويورك . . . دنت ساعة الرحيل » .

فماج البهو بمن فيه ، وتعالى الضجيج ، وقمنا نحمل لفائفنا إلى الباب ، فإذا بالسيارة الحافلة في الانتظار . . .

واستقبلنا الهواء القارس يلسع وجوهنا ، ورأينا الأرض ما برحت بليلة ، ونَثير الصقيع ما زال على حواشيها . فهرعنا إلى السيارة نلوذ بأحضانها . وعدنا نجتاز تلك القرية الكئيبة ، بل تلك الثكنة الموحشة التي تبدو منكمشة تحت أنقاض الشتاء !

وفي الساعة الثانية صباحاً كان « أبو الهول » يدوي بصوته الغليظ ، مودعاً تلك البقعة بما يغشاها من ظلمة وعزلة وصمت .

أمامنا سويعات ، ثم نلاقي « نيويورك » . . .

لقد قاربت الرحلة ختامها ، فلأزج ما بقي من الوقت في أي شيء .

هل أقرأ ؟

لا سبيل إلى المطالعة ، فلأعالج النوم . . .

حتى هذا يتأبّى عليّ . . . إن يقظة نادرة تسري في أعصابي جميعاً . . . وهذا الليل ، إنه يتطاول ، ولايزال يتطاول . . . لكأن «أبا الهول» يغتصب لنا من الزمن وقتاً نضيفه إلى يومنا الذي نعيش فيه !

وفطنت إلى سلاح ماض يقطع الوقت قطعاً . . . إنه الثرثرة بارك الله فيها . . . فلأكن ثرثاراً يتصيد الموضوعات ويجعلها مرنة مطاطة تطاوع جذباً وإرخاء . . . ويبدو لي أن هذه الفكرة ما كادت تحوم في خواطري ، حتى انتقلت عدواها إلى الرفاق ، فإذا كل ركن في الطائرة يسترسل في ثرثرة وتضاحك ، وإذا الوقت ينفرط عقده في سهولة ويسر ، وإذا بسنا الفجر يقتحم علينا خلوتنا ... لقد أزعجناه عن رقاده بما أفضنا فيه من لغو الحديث ، فبا كرنا معاتباً غضبان !

ودانينا سماء « نيويورك » ، وجعلت أدلي ببصري لأتبين شيئاً ، فلم يتوضح لى إلا مروج وسهول ومناقع ماء ، يسايرها بحر بعيد الأطراف .

وبعد قليل أخذت الطائرة تصوّب . . .

نحن الآن في مطار « لاجورديا » العظيم !

تركنا الطائرة مهرولين . . . وما إن خطوت بضع خطوات حتى تذكرت ذلك الصديق الكريم الذي كان هادي الطريق ، ونعم الرفيق !

كبير علينا أن لا نودعك « أبا الهول » ...

وألقيت عليه نظرة أحييه تحية إقرار بالجميل ، ولكني رأيت الرفاق يحثون الخطى، فخشيت أن أتخلف عنهم ، ولم أملك إلا أن أسارع إليهم . . .

واعجباه « أبا الهول » . . . أين هـذا من موقفنا نحوك ، يوم بدأنا صحبتك ، زاخرة نفوسنا بأدق العواطف لك ، متعلقة أفئدتنا بكل نأمة تصدر عنك ؟

معذرة أيها السيد النبيل . . . إننا الآن في شغل عنك بجديد ما نستقبله . . .

لسنا ننكر صنيعك الجميل ، ولسنا ننسى صحبتك الصافية طوال هذه الرحلة ، ولكنها يا صديقي سنة الكون . . .

فَخَلِّ عنك الملام !

محمود تيمور

الثقافة العربيّة بين التعثّر والنهوض

للأستاذ حسنين حسن مخلوف المفتش بوزارة المعارف

العالم العربي مِرْجَل يغلي يريد أن يثب وثبة صادقة في عالم السياسة والثقافة والاقتصاد ، أو بعبارة أخرى تريد كل أمة عربية أن تجمع شملها وتبعد الزيف عن نهضتها ؛ فبعد أن كانت أهـدافها من سنوات عواطف وأماني تلهج بها الألسنة وتدعو إليها الصحف انتقلت إلى المرحلة الثانية ، مرحلة العمل المجدي والتفكير في المثل العليا ، بوضع دعائم البناء الذي لا تزعزعه الرياح ولا يكون في مهب الأعاصير في الداخل والخارج .

هذه الروح القوية دعت الباحثين في هذه الأيام إلى أن يُشرعوا أقلامهم لإصلاح التعليم الذي يصنع الأمم ويربي الشعوب ، فقد عقدت مجلة « الكتاب » باباً في « اللغة العربية بين المعلم والطالب » ، وحذا حذوها الكتاب في التعقيب على هذا المقال ونقاشه ، ودرس أساليب التعليم في الماضي والحاضر ، وما كان فيها من خلل فيسد ، أو عوج فيعدل ، حتى إذا تكاملت أعواد السفينة ، واختير لها الشراع الهادي سارت قدماً في محيط الحياة ، فاستوت على الجودي ، وقيل بعداً للأمم الضعيفة المتخاذلة .

لقد تعلمت الأمم العربية كيف تتقي لدغ العقارب ، وتحوي جسمها فلا تؤثر فيه المطامع التي طالما نفذت في الجسم فأوهنته . وفي عزة النفوس فزلزت أركانها ؛ وكان من آثار ذلك الاستعداد للوقاية . ثم اعتركت العقول وتضامت الهمم فوجـدت أن لا سبيل إلى البعث الجديد إلا بالتعليم الصحيح للنابتة الذين يحملون مصاير الأمم العربية في المستقبل القريب .

وكان على مصر أكبر الآمال وأفدح الأحمال ، فهي مسئولة عن ضعف التعليم وتزعزع أركانه مسئولية أدبية ، أو قل إنها بعد إنشاء الجامعة العربية مسؤولة مسؤولية فعليه ؛ فمنها يشع النور وعليها المعوّل وهي القدوة والمثال .

وأظنني — بحكم عملي ، وقيامي بتعليم اللغة العربية في مختلف المدارس المصرية أمداً طويلا ، ثم التفتيش على تعليم اللغة العربية في المدارس — أستطيع بقدر جهدي أن أصف الداء والدواء ، ثم أهيب بالكتاب والعاملين على خير التعليم في وزارة المعارف

أن ينهجوا هذه السبيل ، فتستجيب وزارة المعارف إلى ما ينتهي إليه الرأي الناضج والعقل الحصيف .

أريد أن يكون هدفنا التفكير أولا : هل النشء الحديث بثقافته وتفكيره وأخلاقه وسلوكه هو النشء الذي ننشده ليحمل على أكتافه عبء المستقبل المنشود والأمل الحلو الذي نحلم به ونترقبه ؟ أهو حقاً دخل المدرسة وتخرج فيها فتكوّن عقله وتهذبت أخلاقه ، وأحس بمواطن الغيرة فيما يجب الحفاظ عليه ، حتى يستطيع غداً أن يتسلم السفينة من أيدي ربابنتها القدماء ؛ فيكون خيراً منهم وأقوم ؟

إن الذين نبغوا في علم أو صناعة أو سياسة في العصر الحاضر إنما نبغوا بمحض المصادفة والجهاد الشخصي ، فليسوا قافلة ضخمة علمتهم المدارس فبنوا مجد الجماعة وحملوا الأعباء ؛ فالأدباء والساسة والعلماء لا يذكرون المدرسة التي علمتهم بخير ، ولا يرجعون إليها الفضل في بروز أو شهرة .

ثم أسأل سؤالا آخر : هل يعتبر الطالب المصري واسع المعلومات فاهماً لما درس مقتنعاً بصحته متصرفاً في الحكم والاستنباط مما تعلم ؟

يدخل التلميذ المدرسة الابتدائية فيحوطه المعلمون بما أوجبته وزارة المعارف من كتب مقررة يبدئ فيها ويعيد حتى يتم مرحلة التعليم الابتدائي ، فإذا امتحنت عقله شعرت بقصوره وضعف ذاكرته في شؤون الحياة التي لا ينبغي أن يجهلها من كان في سنه ؛ وإذا تبسطت معه في شأن قومي سمعت كلاماً مكروراً هو رؤوس موضوعات تلقفها من أساتذته . أما الثبات والاستقرار فيما تضمنته الكتب التي درسها فهو شيء يدعو إلى الأسى والأسف على أفكاره الضحلة التي لا يثبت شيء منها على النقاش أو تطلب الحكم الصحيح .

وأما التعليم الثانوي فهو المشكلة الكبرى ؛ فالطالب في سن المراهقة وتشتت الذهن والاستعداد للتعقل الصحيح إن تهيأت الظروف واستجابت له النظم ؛ سن الثقافة الحقيقيـة التي تربي الرجولة الكاملة وتروض العقول والعواطف والأذواق . الطالب يتطلع إلى ما في الحياة الاجتماعية من خير وشر ؛ يتطلع إلى المدرسة التي يذهب إليها كل يوم ، ويتطلع إلى البيئة الاجتماعية التي تحيط به ، فأيتهما كانت أكبر جاذبية استجاب لها ، وضعف عنده الجانب الآخر .

وإذا سألت القائمين بالأمر في المدارس الثانوية أن يدلوا إليك برأيهم في صراحة وصدق : أي الناحيتين أقوى تأثيراً وأعمق في حياة طلبة المدارس سمعت العجب العجاب .

ثم لا نلبث أن نجد أمامنا جيشاً جراراً من حملة الشهادة الثانوية . تعال نجلس إلى جمهرة منتخبة من هؤلاء الطلاب الكبار الفائزين في الامتحان لنتحدث إليهم فيما بقي في عقولهم مما درسوه . إنهم لايريدون أن يستمعوا إليك في شيء فقد انتهى الامتحان ، وحملت ورقاته في طياتها كل ما تعلموه . لا يا أبنائي أنا لا أريد أن أختبركم مرة ثانية بل أريد رأيكم في بعض شؤون الحياة والناس والعلوم والفنون في القديم والحديث ؛ فهل فيكم من يسترسل في الكلام خمس دقائق بلغة عربية صحيحة لا يتطرق إليها اللحن والخطأ في الإعراب ؟ هذه صفحة من كتاب فهل فيكم من يقرؤها قراءة صحيحة بلا غلط ولا اضطراب ، ثم ما رأيكم في هؤلاء الكتاب والشعراء الذين درسوا في مختلف العصور ؟ وما أثرهم في جيلهم والأجيال الأخرى ؟ وما بقايا البلاغة العربية التي لم تمح من أذهانكم ولا يزال ذوقها في عقولكم إلى اليوم ؟ وما رأيكم في وسائل النهوض لهذه الأوطان ؟ فأصموا آذانهم واستكبروا استكباراً . إذن فلأعد بذاكرتي إلى أوراق الامتحان التي قدرت درجاتها ففاز من فاز وخسر من خسر . لقد وجدت ضالتي ، فالأسئلة التي تعتمد على شيء محفوظ من نص الكتاب المقرر أو قريب منه ، أجابوا عنها وكانوا من الفائزين ؛ والأسئلة التي تتجه إلى الحكم العقلي ، وامتحان القوة الفكرية ، أو تعتمد على مجموعة الثقافات الماضية التي لا ينبغي أن يجهلها طلبة المدارس ، خبطوا فيها خبط عشواء في ليلة ظلماء ، وكانت مواطن الاضطراب والضعف والأحكام الفجة التي لا تستند إلى علم ولا رأي ، أو ترك السؤال من غير جواب

ما كلّف الله نفساً فوق طاقتها ولا تجود يدٌ إلا بما تجد

ثم تذكرت أيضاً أنني كنت أدرس للطلبة الأدب المقرر في السنة الخامسة التوجيهية منذ أربع سنوات ، وكنت أطلع وأتوسع وأناقش ، وأحملهم على تذوق الأدب والحكم فيه؛ فاستأذنني طالب في الكلام فأذنت فقال: إنني أريد أن أنقل إليك رأي إخواني في أساليبك في التدريس، فقلت : قل أسمع . قال : نحن في المرحلة الأخيرة من التعليم الثانوي ، فأنا أريد غداً كلية الهندسة ، وهذا يريد كلية الطب ، وذاك يريد كلية الزراعة ، وذلك يريد كلية الحقوق ؛ وعندنا من المواد الأخرى ما يشغلنا عن هذا البحث الطويل ، فافعل ما يفعل غيرك من خبراء المدرسين : ضع لنا ملخصاً في المنهج وأمله علينا لنكتبه ، وامتحنا في حفظه ، حتى إذا اجتزنا الامتحان كنا لك من الشاكرين . لقد ضاقت بي الدنيا ، وسقط في يدي وخابت آمالي ، فماذا أصنع ؟

كان من لطف الله بي أن انتدبت أستاذاً للأدب العربي بكلية غردون بالخرطوم

وأنقذني القدر مما أصابني من حيرة واضطراب ؛ فكنت أعلّم الطلبة كما أحب وأهوى ، وقمت برسالتي إلى حين .

وبعد مرحلة التعليم الثانوي يذهب الطلبة إلى الجامعة ليتخصصوا ، ثم يضربوا في آفاق الحياة محدودي الفكر موزعي الشؤون .

غير أن هناك مدرسة واحدة توسع مداركهم ، وتلعب بعقولهم ذات اليمين وذات اليسار هي الصحف والمجلات ، هي مجموعة الثقافات التي تسيطر على العقول ، وهي الصورة البارزة الوضاحة في حياتنا الفكرية والاجتماعية والسياسية ، فإليها يعود الخير والشر وعوامل الاستقرار والذبذبة . أما المدرسة التي علمت الطالب في القديم فيرحمها الله ، وهو أرحم الراحمين .

أنا لا أنكر كما قلت أن فينا نبغاء في كل علم وفن ، وإنما هي الدوافع الشخصية والبواعث الخاصة دفعت بهم إلى الأمام فقرؤوا وأنتجوا ، وما زلنا نتغذى بعصارة عقولهم ونتاج بحوثهم القيمة ، وهم الشعلة الوضاءة ، ومشغلة القراء في مصر والعالم العربي في هذا الطور من حياتنا الحاضرة ومشكلاتنا الراهنة . والآن فأين السبيل وما طرق العلاج ؟

مهما يكن من شيء فالسبيل القويم تغيير الأوضاع ومسايرة الزمان وتكوين النشء الصالح والتثقيف المجدي الذي يربي الطالب تربية صحيحة معتمدة على أسس صحيحة ، فنغير مناهج التعليم بما يناسب المصلحة والتطور الحديث بدلاً من أن ننتظر بها مستقبلا مجهولا ، فتكون عقولنا وأهدافنا في واد ، والمدارس ونظمها في واد آخر .

أمامنا غرضان للإصلاح : المنهج والمعلم ؛ وقبل أن أخوض فيهما أسأل نفسي : هل يعتبر الطالب المصري قارئاً ؟ وهل أفاض معه المعلم في الشؤون الحيوية فبعثه على البحث والتوسع ؟ وهنا يتطرق البحث إلى مكتبات المدارس ؛ فهل تحتوي على كتب وقصص وموضوعات يرى المعلم لزاماً عليه أن يقرأها ثم يحدث تلاميذه بقدر ما تسع عقولهم أن يتجهوا إليها ؟ فإن كان الأمر كذلك أحب التلاميذ العلم ، ونمت عقولهم الصغيرة شيئاً فشيئاً ، فرأيت جمهرة منهم لا تجلس في منتدى عام أو في مراكب الترام إلا فتحوا صفحات الكتاب واستوعبوا ما فيه حرصاً على الوقت أن يضيع سدى . فإذا عادوا إلى منازلهم قضوا الساعات في تَعْبر ما أحبوا من كتب وقصص ، فرأيت على وجوههم دلائل العلم ، ووقار التعلم والفهم . ولئن صح ذلك لقد حل كثير من المشكلات الاجتماعية وغيرها التي يرزح تحت أثقالها الشباب . وهل بعثت وزارة المعارف رجالها

إلى المكتبات العامة في الأسواق فانتقوا منها خير الكتب والقصص الحديثة فأودعوها مكتبات المدارس ، وألزمت المدرسين أن تكون تغذية التلاميذ بهذا النوع من الثقافة أول واجباتهم في التعليم ؟ وهل ذهب المفتشون إلى المدارس فسألوا التلاميذ عن أحدث ما قرؤوا ، وعما بقي في أذهانهم من خلاصة الأفكار والآراء ؟ ! أما الجواب الحق عن ذلك فعند وزارة المعارف الخبر اليقين .

ولِمَ أتجه إليها بالسؤال ، وفي كل مدرسة مكتبة لها أستاذ خاص بالإعارة ولكن ما الكتب وما نوعها وكم عدد النافع منها الذي يلائم مدارك التلاميذ ؟ وما مقدار استعداد الأستاذ المختص لهذا النوع من التكاليف التي تضاف إلى واجباته المدرسية المختلفة ؟

حينما كنت مدرساً في مدرسة ثانوية كنت أذهب بتلاميذي إلى المكتبة حسب النظام الموضوع ، فلا يسمح أمين المكتبة إلا بمقدار محدود من المجلات يقرؤه التلاميذ كل أسبوع حتى ملّوا وصرخوا من أن نوع الطعام واحد لا يتغير ، فلجأت إليه أن يخرج من صواوين المكتبة مقداراً من الكتب اخترته بعدد التلاميذ فتضايق ، ثم قبل على كره بشرط أن أستعيرها وأحتفظ بها عندي لأردها بعد أن يقرأها التلاميذ وأنا مسئول عنها . فحرت أين أضعها ؟ وأين الخزائن التي تسعها ؟ ثم تكاسلت عن الذهاب بالتلاميذ إلى المكتبة وكان الله يحب المحسنين .

الحق أن واجبنا شيء آخر ليس هو حشو أذهان التلاميذ بالمناهج المقدسة التي تطير من الأذهان بعد فترة الامتحان ، بل واجبنا أن نوسع عقولهم ونربي أخلاقهم وندرس غرائزهم ، وأن نحوطهم بروح من الرعاية التي تجعلهم يثقون بنا ويعتمدون علينا في بنائهم وتكوينهم حتى ينتهوا من مراحل التعليم فيذكرونا بالخير ، وتبقى تعاليمنا أساساً صالحاً في حياتهم الاجتماعية والخلقية والدينية ، فهل نحن كذلك ؟ وهل المناهج تؤدي هذا الغرض المنشود ؟ الحق أننا نعلم علوماً ولا نربي رجالا ؛ فصلة التلاميذ بالمعلمين مقصورة على تلقي الدروس التي يحرص المدرسون على إنجازها قبل أن تجيء فترة الامتحان ، وإلا حقت عليهم المسئولية الكبرى . وها هم أولاء المفتشون يذهبون إلى المدارس فيسألون أول ما يسألون : ماذا درست أيها المعلم من المنهج المقرر ؟ فيجيب : لقد سبقت وقطعت فيه مرحلة طويلة ، فيكون جوابه داعياً إلى الاطمئنان .

مسألة المناهج من المسائل التي تطورت مع الزمن في وزارة المعارف ؛ فقد كانت في القديم عسيرة الهضم طويلة الذيول ؛ كان الغرض منها الإكثار من موضوعات العلوم ؛

ثم لما عمت الشكوى في كل مجموعة من السنين السالفة عدلت فيها الوزارة عدة مرات ، فهي تزيد وتنقص وتصلح وتشذب ، وتلجأ إلى تقصيرها طولا لتوسعها عرضاً . ولكن هل أدّت الغرض المقصود ، واستجابت لهذه النهضة العقلية في مصر وسايرت الزمن ؟ وهل موضوعات الدروس التي اخترناها كفلت تربية التلاميذ وأثرت في حياتهم الخاصة وحياة أمتهم العامة ؟ فذلك هو المقياس الصحيح للعلم الصحيح . لقد اقتنعت الوزارة من خمس سنوات بوجوب تغيير المناهج في مراحل التعليم المختلفة ، وكوّنت اللجان لمختلف المواد ، وانتهت إلى العزم على الهدم والبناء . وسأضرب مثلا بالأدب العربي في المدارس الثانوية : يدرس التلاميذ العصور الأدبية ، وتطور العقلية العربية في مصر والشرق من العصر الحاضر إلى العصر الجاهلي ؛ فانظر أيها القارىء الكريم كيف يدرس الطالب في السنة الأولى الثانوية وسنه ما بين الثانية عشرة إلى الخامسة عشرة : إنه يدرس تطوّر الكتابة والشعر من عصر محمد علي باشا إلى الآن ، وكيف انتقل الأدب من الضعف إلى القوة ، ويكون من صميم المنهج «تأثر الأدب قوة وضعفاً بعوامل البيئة والثقافة والحكم» . تلك بحوث فلسفية اجتماعية سياسية أدبية لا يمكن أن تقوى على هضمها عقول التلاميذ ، ولا سبيل إلى دخول الامتحان إلا بحفظ ملخص عنها . فإذا انتقلوا إلى السنة الثانية الثانوية كانت دروسهم طريقة ابن العميد والقاضي الفاضل في الكتابة ، وفهم حياة المتنبي وأبي العلاء فهماً صحيحاً وعصور المماليك التي فيها الغث والسمين والعلو والهبوط ، وهكذا باقي المنهج . أما البلاغة وتذوقها في السنتين الثالثة والرابعة ، وأما تأثر عقولهم وقلوبهم بما درسوا ، وأما حكمهم على عوامل الرفعة والضعة ، فحسبهم أن يحفظوها ويخلطوا في التطبيق عليها . وهل البلاغة إلا فرع عن تذوق الأدب ؟ هذا قليل من كثير مما جعل اللجنة تقترح تعديل المنهج في المواد المختلفة من سنوات . ولكن هل تغير المنهج إلى اليوم ووضع بدله منهج جديد سارت عليه المدارس على ضوء هذه المقترحات ؟ لم يحصل شيء من ذلك إلى الآن . ذلك أن تغيير المنهج إنما يصدر بقانون يقدم إلى البرلمان ؛ فإذا أعدته وزارة قائمة فمتى تعرضه ومتى تنفذه ؟ والقارىء اللبيب بالإشارة يفهم .

فمن الخير أن يكون في وزارة المعارف لجنة دائمة تنظر في المناهج في أثناء العام المدرسي وفي آخره وفي كل وقت ، وتبحث البواعث الحقيقية لتغيير المناهج وطرق التدريس . وآمل أن يكون أمر تعديل المناهج ميسوراً تستطيعه الوزارة في أول كل عام مدرسي؛ فالأمة متجددة دائماً ، والعقلية المدرسية تحتاج في كل عام إلى علاج جديد .

أما المعلمون فالسبيل العملي إليهم موكول إلى المفتشين يبلغونهم رسالة وزارة المعارف ، ويشاركونهم في العمل في رفق ولين ، ويطبقون معهم المقترحات الجديدة التي تكفل خير التعليم ؛ وهذا يقتضي أن يكون لكل مفتش مجموعة صغيرة محدودة العدد من المدارس يكاد يقيم فيها طول العام ، فلا يشغل بغير عمله الفني الذي هو الغرض الأسمى من وظيفته .

هذا ما أردت أن أقوله في هذا المقال ، ولعلي أوفق لخدمة التعليم وبث رسالتي صادقة بين المعلمين، فإنا نريد أن نبني الجيل الجديد على أسس سليمة وأخلاق قويمة وعلم صحيح يكفل السعادة لهذه الأوطان .

حسنين حسن مخلوف

تمليح الأطفال

لا تزال في الدنيا عادات غريبة وتقاليد لا يفهم المرء منشأها ولا الحكمة فيها ؛ فمن ذلك عادة شائعة في بعض بلاد الغرب ، وفي أرجاء آسيا ، وهي عادة تمليح الأطفال عند ولادتهم . والطريقة المتبعة في هذا التمليح تختلف باختلاف الشعوب . . .

أما الأرمن فقد اعتادوا أن يغطوا بشرة الوليد بغشاء من الملح الناعم الدقيق ، ثم يتركونه هكذا « مملحا » مدة ثلاث ساعات أو أكثر ، ثم يغسلونه بالماء الساخن . ومنهم من يبقيه مغشى بالملح يوماً كاملا . . .

وفي بلاد اليونان الحديثة يغسلون الأطفال عقب ولادتهم بالماء المملح . وتتوهم الأمهات أن ذلك يأتي بالصحة والقوة للطفل وأنه وسيلة أيضاً لطرد الأرواح الشريرة عنه!

سيكولوجية الأخطاء عند فرويد

للأستاذ محمد عثمان نجاتي بنيويورك

كثيراً ما يخطئ الإنسان في نطقه بعض الكلمات، بأن ينطق كلمة تخالف ما كان ينوي أن يقول. وكثيراً ما يحدث مثل هذا الخطأ في القراءة والكتابة. وقد يخطئ الإنسان في سماع بعض الكلمات، فيظن أنه قد سمع شيئاً آخر يخالف ما قيل له بالفعل.. مثل هذه الأخطاء شائعة بين الناس عامة ولعل كلاًّ منا له في هذا الصدد شواهد كثيرة وتجارب عديدة.

ولم يكن علماء النفس في الماضي يعيرون هذه الأخطاء اهتماماً خاصًّا، بل كانوا — منساقين في ذلك إلى الرأي الشائع بين عامة الناس — يعتبرونها من الأمور الطبيعية، تأتي في الأغلب عرضاً واتفاقاً، أو تنشأ عن التعب أو عدم الانتباه أو الاضطراب أو المرض.

ولعله يكون من الغريب في نظر كثير من الناس أن تكون هذه الأخطاء ليست في الحقيقة من التفاهة كما يعتقدون، وليست تقع في الأغلب عرضاً واتفاقاً كما يظنون. وإنما هي ظواهر سيكولوجية لها مدلول خاص، وتسببها عوامل خاصة تحتاج إلى كثير من البحث والتمحيص.

ولقد أثار هذا الموضوع اهتمام ميرنجر "Meringer" — من علماء اللغة — وماير "Mayer" — معالج نفساني — في عام ١٨٩٥م، فقاما بمحاولة لتفسير أسباب حدوث هذه الأخطاء؛ غير أنهما تناولا الموضوع من الناحية اللغوية، أي من ناحية ما بين الكلمات من تشابه المقاطع والحروف، وما بينها من تشابه صوتي؛ وقد بينا عدة أسباب لحدوث الخطأ، منها إدماج كلمتين في كلمة واحدة. ولعلي أذكر مثالا لذلك ما حدث لي شخصيًّا وأنا أكتب هذا المقال إذ حدث أن نطقت اسم «فرويد» خطأ فقلت «درويد»؛ وقد كنت أفكر في تلك اللحظة في «دروين»، فاختلط الاسمان واندمجا في «درويد».

ومنها التبادل بين الكلمات أو بين المقاطع والحروف، فمن أمثلة التبادل بين الكلمات أن يقول الإنسان «باب المفتاح» بدلا من «مفتاح الباب»؛ أو حينما يطرق الخادم باب

مخدع سيده فيقول السيد : من بالباب ؟ « فيرد الخادم قائلا : "The lord, my boy" بدلا من أن يقول: "The boy, my lord" . ومن أمثلة التبادل بين الحروف أن يقال : « معيد » بدلا من « عميد » . . وعلى العموم فقد أرجعا أسباب أخطاء اللسان والقلم إلى عوامل لفظية وصوتية ، وإلى ما في توالي المقاطع المختلفة والحروف الساكنة والمتحركة من تشابه أو تنافر .

ومع أن هذا التفسير قد يبدو معقولا ومرضياً ، وقد يكفي في بعض الأحيان لإعطائنا تفسيراً صحيحاً لبعض الأخطاء ، إلا أن سجمند فرويد "Sigmond Freud" لا يراه كافياً لتفسير جميع الأخطاء تفسيراً مقنعاً ؛ وهو إن استطاع أن يفسر بعض الأخطاء فلا يستطيع أن يفسر ما يحدث غالباً حين يقول الإنسان كلمة تخالف مخالفة تامة ما كان ينوي أن يقول ؛ وهو يضرب لذلك مثلاً أن أحد رؤساء البرلمان وقف يوماً يعلن افتتاح الدورة البرلمانية فقال : « أيها السادة ، أتشرف بأن أعلن انتهاء الدورة البرلمانية » بدلا من أن يقول : « افتتاح الدورة البرلمانية » . وقد يقع الخطأ أيضاً على صور مختلفة يتعذر تفسيرها في ضوء الأسباب التي ذكرها « ميرنجر » و « ماير » . ألقى مرة أحد أساتذة التشريح درساً عن تجويف الأنف ، ثم سأل تلاميذه عقب الدرس : هل فهموا درسه جيداً ؟ فردوا بالإيجاب ، فقال الأستاذ : « لا أستطيع أن أصدق ذلك ، فإن الأشخاص الذين يفهمون جيداً تشريح تجويف الأنف يمكن أن يعدوا فقط على إصبع واحدة . . أقصد أن أقول على أصابع اليد الواحدة » .

قد يقال إن الأسباب التي ذكرها « ميرنجر » و «ماير» ، وغيرها من الأسباب الفسيولوجية كالتعب والاضطراب والمرض تمهد السبيل لحدوث مثل هذه الأخطاء ؛ ولا يرى « فرويد » مانعاً من الموافقة على أن هذه الحالات قد تكون فعلا من الأسباب الممهدة لحدوث الخطأ ، ولكنه يتساءل : هل إذا مهد أمامي سبيل يكون حتما علي أن أسير فيه ، أم لا بد أن تكون هناك قوة تدفعني ، ورغبة تلح علي في أن أسير في هذا السبيل المعين دون غيره من مئات السبل ؟ ليست هذه الأسباب كافية وحدها في تفسير الأخطاء ، وليست هي العامل الرئيسي في حدوثها . ثم إنها ليست شرطاً ضروريا لحدوث الخطأ ؛ فقد يقع الخطأ في حالات الصحة التامة ، وفي حالات اليقظة والانتباه الكاملين . وعلى العموم فكل ما يمكن أن يقال عن هذه العوامل إنها مهيئة ومساعدة فقط لوقوع الخطأ ، ولكنها ليست العامل الرئيسي في وقوعه .

يرى « فرويد » أن أخطاء اللسان والقلم والقراءة ظواهر سيكلوجية لها معناها الخاص . وقد يبدو هذا المعنى غامضاً لأول وهلة ، فليس من اليسير أن نفهم معنى الخطأ الذي وقع فيه رئيس البرلمان في المثال الذي سبق ذكره ؛ ولكننا إذا بحثنا الظروف التي أحاطت بهذا الرجل ، وأحطنا بدوافعه النفسية وآرائه في تلك اللحظة وجدنا في هذا الخطأ ظاهرة طبيعية لها معناها ومدلولها ؛ فقدكان رئيس البرلمان في الواقع غير راض عن الدورة البرلمانية ولا ينتظر منها خيراً ، وكان يود لو أغلق البرلمان ، وهكذا أصبح للخطأ الذي وقع فيه مدلول واضح ، فهو قد عبر عن دوافع الرجل بطريقة غير شعورية. كما أنه من اليسير أن نفهم مدلول الخطأ الذي وقع فيه أستاذ التشريح حينما قال : « على إصبع واحدة » بدلا من أن يقول « على أصابع اليد الواحدة » فهو كان يعتقد فعلا أنه لا يوجد غير شخص واحد يفهم جيداً تشريح الأنف ، ولعله يقصد نفسه ؛ وهكذا عبر هذا الخطأ عن معنى يجول في ذهنه .

ومن الأمثلة التي ذكرها « فرويد » في هذا الصدد أن رجلا من أعضاء إحدى الجمعيات كان يخطب في أحد اجتماعاتها مهاجماً بعض أعضائها ، فأشار إليهم في كلامه قائلا : "Le nders of the committee" بدلا من أن يقول : "members of the committe" وقد تبين فيما بعد أن هذا الرجل كان في ارتباك مالي ، وكان يفكر جديا في اقتراض المال . ولعله كان يفكر في اقتراض المال من بعض أعضاء هذه الجمعية ؛ وهكذا ظهر هذا التفكير الجائل في نفسه على صورة هذا الخطأ اللفظي .

من هذا يستنتج « فرويد » أن هذه الأخطاء ليست أموراً عرضية ، وليست نتيجة لتشابه أو تنافر لفظي بين الكلمات ؛ وإنما هي في حقيقة الأمر ظواهر سيكولوجية تنشأ من تصادم رغبتين مختلفتين . وفي هذا الضوء وحده ينبغي أن نبحث عن مدلول هذه الأخطاء ، وأن ندرسها في مجموعة الظروف المحيطة بالإنسان ، وكجزء من حالته السيكولوجية ، وكنتيجة لدوافع نفسية ، وإن لم تكن واضحة ومعروفة لدى الشخص الذي يرتكب الخطأ .

قد تكون هذه الأخطاء واضحة سهلة التفسير كالأمثلة التي ذكرناها ، وقد تكون في بعض الأحيان غامضة غير مفهومة ، وهنا تظهر مهمة المحلل السيكولوجي الذي قد يقتضيه الكشف عن سر هذه الأخطاء استقصاء دقيقاً لتاريخ حياة الشخص ، وتحليل أحلامه وكشف الستار عن ميوله ورغباته ونزعاته المكبوتة .

وليست أخطاء اللسان والقلم والكتابة والقراءة والسماع هي وحدها التي أثارت

اهتمام « فرويد » ، بل إنه يرى أن هناك أنواعاً أخرى من الأخطاء قريبة الشبه منها، ويرى أنه يجب أن تبحث أيضاً في ضوء هذه النظرية ؛ من ذلك النسيان : فقد يحدث أن ينسى شخص اسم شخص معروف له جيداً ، ويحاول عبثاً أن يذكر اسمه . وتبين لفرويد من دراسة أمثال هذه الظاهرة أن هذا الشخص الذي نسي اسم صديقه يحمل في نفسه شيئاً ضد صديقه ، كرهاً أو عداء أو غيرة أو حسداً ، ويود أن لا يفكر فيه، وهكذا أتى هذا النسيان منفذاً لرغبة دفينة . ومن أمثلة ذلك : أن شخصاً أحب فتاة ورغب في الزواج منها ، ولكنها رفضت هذا الزواج ، ثم حدث أن تزوجت هذه الفتاة صديقاً لهذا الشخص تربطه به صلة في العمل ؛ وكثيراً ما حدث بعد ذلك أن ينسى هذا الشخص اسم صديقه ويحاول عبثاً تذكره ، وكلما أراد أن يكتب إليه في أمر يتصل بالعمل أخذ يسأل عن اسمه

ومن هذه الأخطاء أيضاً فقدان الأشياء ، فقد يحدث أن يفقد الإنسان هدية قدمت إليه من شخص قد ساءت علاقته به . ومن أمثلة ذلك هذه القصة التي رواها أحد الأشخاص لفرويد ، وهي تتلخص في أنه حدث بين هذا الرجل وبين زوجته سوء تفاهم دام بضع سنين ، وحدث يوماً أن اشترت زوجته كتاباً وقدمته إليه هدية ، فأخذ الزوج الكتاب شاكراً ثم وضعه بين أشيائه .. مرت بضعة شهور ثم تذكر الرجل ذلك الكتاب ورغب في قراءته . فأخذ يبحث عنه دون جدوى ؛ ثم مرت بضعة شهور أخرى . وحدث أن مرضت أم الزوج فانتقلت زوجته إلى دارها ، وعنيت بها عناية فائقة وأظهرت نحوها عواطف رقيقة . أعجب الزوج بموقف زوجته ، وسر لعنايتها بوالدته هذه العناية الفائقة ، وعاد ليلة إلى منزله ممتلئاً إعجاباً ورضى عن زوجته ؛ وفي نفس هذه الليلة حدث أن سار إلى مكتبه وبطريقة غير شعورية فتح أحد أدراجه ، وإذا به يجد الكتاب المفقود أمامه ، ذلك الكتاب الذي بحث عنه طويلا فيما سبق دون جدوى . وقد فسر فرويد ذلك بأنه عندما زالت عاطفة الغضب نحو زوجته ، وحلت محلها عاطفة الإعجاب والرضى ، أمكن هذا الرجل أن يعثر على هدية زوجته ، وزال ذلك المانع الخفي الذي كان يحول بينه وبين الكتاب .

ومن الأمثلة لظاهرة النسيان : أن رجلا حرر خطاباً ثم تركه بضعة أيام دون أن يبعث به بدون سبب مفهوم ؛ ثم قرر أخيراً أن يرسل الخطاب ، ولكنه رد إليه لأنه نسي أن يكتب العنوان ، فكتب العنوان وسار به إلى صندوق البريد ، ولكنه تبين أنه نسي أن يضع عليه طابع بريد ؛ وأخيراً قرر أنه يجدر به أن لا يرسل الخطاب .

من كل هذه الأمثلة التي ذكرناها تتبين لنا بوضوح نظرية فرويد في تفسير أخطاء اللسان والقلم والقراءة والسماع والنسيان وفقدان الأشياء؛ فهي ظواهر سيكولوجية، أو كما يعبر عنها أحياناً ظواهر عقلية تنشأ عن تصادم رغبتين مختلفتين، فينشأ الخطأ نتيجة لهذا التصادم، سواء أكان هذا الخطأ في بعض حروف الكلمة، أم في صورة استبدال كلمة بكلمة أخرى أم في إدماج الكلمتين في كلمة واحدة.

وهذا البحث في سيكولوجية الأخطاء يعتمد في أساسه على نظرية « فرويد » المشهورة في الرغبات المكبوتة في الإنسان، وخاصة الرغبة الجنسية، تلك الرغبات التي تحاول أن تعبر عن نفسها بشتى الطرق، سواء في هذه الأخطاء، أم في الأحلام المختلفة. ولا مجال الآن للافاضة في ذكر هذه النظرية على وجه التفصيل.

محمد عثمان نجاتي

الطائرات لوقاية الحاصلات

جهزت الطائرات التي تصعد عموديا وتهبط عموديا بأجهزة خاصة لنثر المواد القاتلة لحشرات النبات وإصابتها بالأمراض. وتزود هذه الطائرات المعروفة «بالهليكوبتر» بخزانات تتسع لأربعة أطنان من المواد الواقية للنبات، فتطير ببطء فوق الحقول، وتنثر موادها فوق النبات، وتقيه من الطفيليات والأعشاب التي تفتك بالحاصلات الزراعية.

رسوم الحيوان والنبات في التصوير الهندي الاسلامي

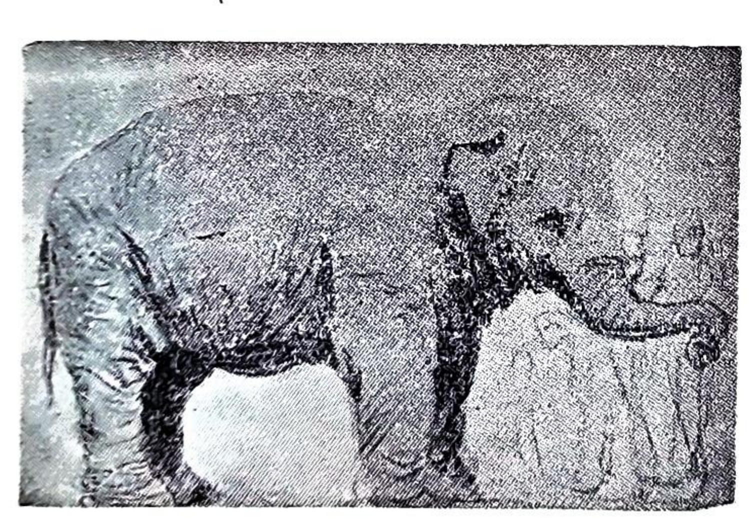
للدكتور زكي محمد حسن

غزا العرب بلاد السند سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) على يد القائد الأموي الشاب محمد ابن القاسم ، وظل هذا الإقليم يحكمه ولاة من العرب نحو قرنين من الزمان ؛ ولكن استقرار الحكم الإسلامي في بلاد الهند يرجع إلى عصر الدولة الغزنوية التي أقامت لنفسها بين القرنين الرابع والسادس بعد الهجرة (١٠ — ١٢ م) ملكا واسعاً في أفغانستان وشمالي الهند « إقليم البنجاب » .



(شكل ١) رسم حصان منقوش في أحد الكهوف قبل التاريخ

ثم تعاقب في حكم الهند الإسلامية الغوريون وسلاطين دهلي وملوك بنغالة وأمراؤها ثم غيرهم من الملوك والأمراء في الولايات الهندية الإسلامية ، حتى بدأ حكم الأباطرة المغول في الهند على يد « بابر » سنة ٩٣٣ هـ (١٥١٦ م) ، وظل هؤلاء الأباطرة المغول يحكمون الهند إلى منتصف القرن الماضي .



(شكل ٢) رسم فيل لرمبرندت بمتحف فكتوريا وألبرت بلندن

وازدهر في الهند على يدهم طراز فني إسلامي تأثر بما كان فيها من أساليب فنية وطنية قديمة ، كما تأثر إلى حد كبير جدا بالأساليب الفنية الإسلامية التي ازدهرت في إيران . وعرف التصوير الهندي الإسلامي مدرستين رئيسيتين : المدرسة المغولية ومدرسة راجبوت . أما الأولى

فقامت على أكتاف بعض المصورين الإيرانيين ومن تتلمذ عليهم ونسج على منوالهم من المصورين الهنود ، ولذا كانت بمثابة فرع هندي من مدارس التصوير الإيرانية في حين أخذت مدرسة راجبوت جل أساليبها الفنية من النقوش التي كانت تزين جدران المعابد والعمائر الهندية القديمة ، ولذلك كانت شعبية إلى حد كبير . واختلفت المدرستان في موضوعات الصور التي غلبت في كل منهما ، فأقبل المصورون في المدرسة المغولية على تصوير الأباطرة وحياة البلاط وتسجيل الأحداث العظيمة في عصرهم ، بينما أقبل زملاؤهم ومعاصروهم من مصوري مدرسة راجبوت على تصوير الموضوعات المستمدة من الأساطير والملاحم الهندية القديمة ومن القصص الشعبية .

على أن الذي يعنينا اليوم ضرب من موضوعات التصوير الهندي المغولي ، حازت فيه الهند قصب السبق على سائر بلاد العالم الإسلامي وبلغت شأواً بعيداً لا يكاد يوازيه ما قطعته البلاد الغربية في هذا المضمار ؛ ذلك هو تصوير الحيوان والنبات .



(شكل ٣) طائران من رسم المصور منصور في بداية القرن السابع عشر

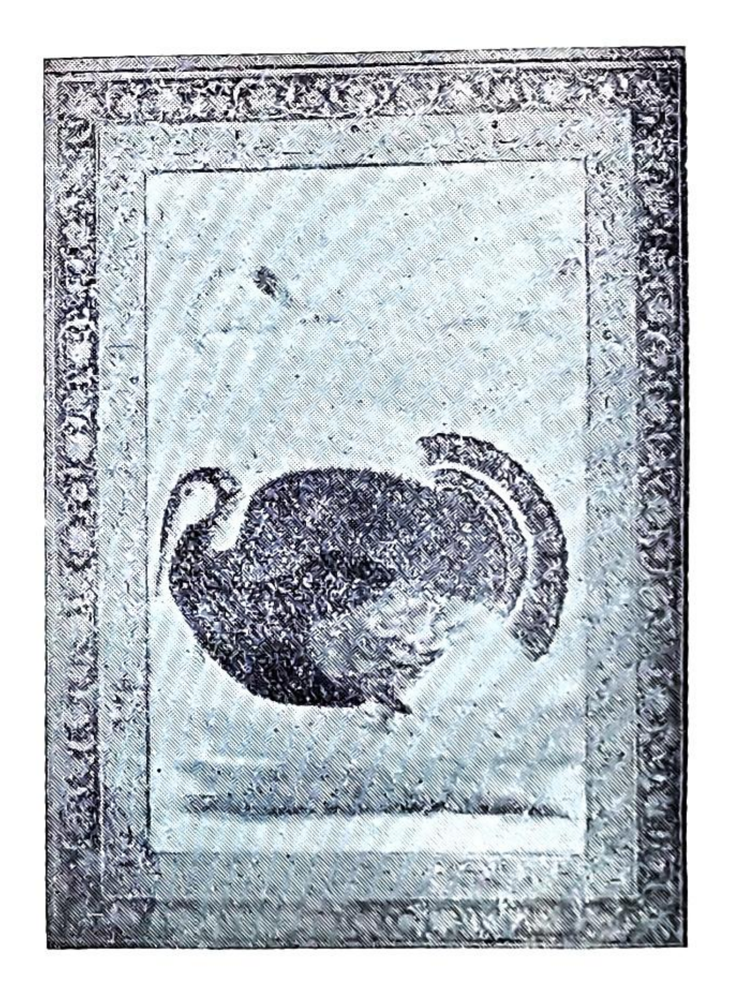
وتصوير الحيوان قديم جداً . فقد كانت صور الحيوان على العظام وعلى جدران الكهوف من أقدم الآثار الفنية التي خلفها الإنسان الأول . وحسبنا ان نذكر رسوم الحيوان المتقنة في الكهوف التي ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ (شكل ١) . وبينما كان المصريون القدماء يسيرون في تصوير الإنسان على أساليب فنية اصطلاحية نراهم في رسوم الحيوان والطيور المستأنسة يقلدون الطبيعة ويعملون على أن تكون رسومهم صورة صادقة لها . وحسبنا أن

نشير إلى النقوش المرسومة على جدران مقبرة « تي » في سقارة ، وتمتاز كلها ببساطتها ، فتختلف في ذلك عما رسمه المصورون في عصر النهضة وبعده من رسوم الحيوان التي تبدو فيها الدراسة العميقة والمران الطويل (شكل ٢) .

✡✡✡

وتمتاز المدرسة الهندية المغولية على المدارس الإيرانية بالدقة في رسم الأشخاص وبمراعاة قسط وافر من قوانين المنظور وبإتقان رسم المناظر الطبيعية وبهدوء الألوان وتلاؤمها ، حتى إن الصور الهندية لتبدو نتاج أمة آرية متأثرة بالشرق الأدنى . ولكن الحق أن قوام الصور الهندية شرقي ، وإن كان في بعض عناصرها أساليب مشتركة مع الصور الغربية في العصور الوسطى وعصر النهضة ، حتى لقد ظهرت لبعض مؤرخي الفنون كأنها صور إيطالية مصغرة .

أما رسوم الحيوانات في الفن الهندي الإسلامي فتمتاز بالبساطة وبصدق تمثيل الطبيعة في الوقت نفسه . والغالب في هذه الرسوم أنها كانت تسجل صور الحيوانات والطيور وهي ساكنة هادئة ، فلم يعمد المصور إلى تسجيل رسومها وهي تتحرك إلا فيما ندر .



(شكل ٤) صورة ديك رومي يرجح أنها من عمل المصور منصور

وإذا كان المصورون الهنود قد عرفوا الصور الأوربية على يد المبشرين والتجار ، ولا سيما من أهل البرتغال ؛ وإذا كانوا قد تأثروا ببعض أساليبها في المنظور وصدق تمثيل الطبيعة ومزج الألوان في اللوحات ، فإن إتقانهم رسوم الحيوان والنبات لم يكن نتيجة تأثر بالأساليب الفنية الغربية ؛



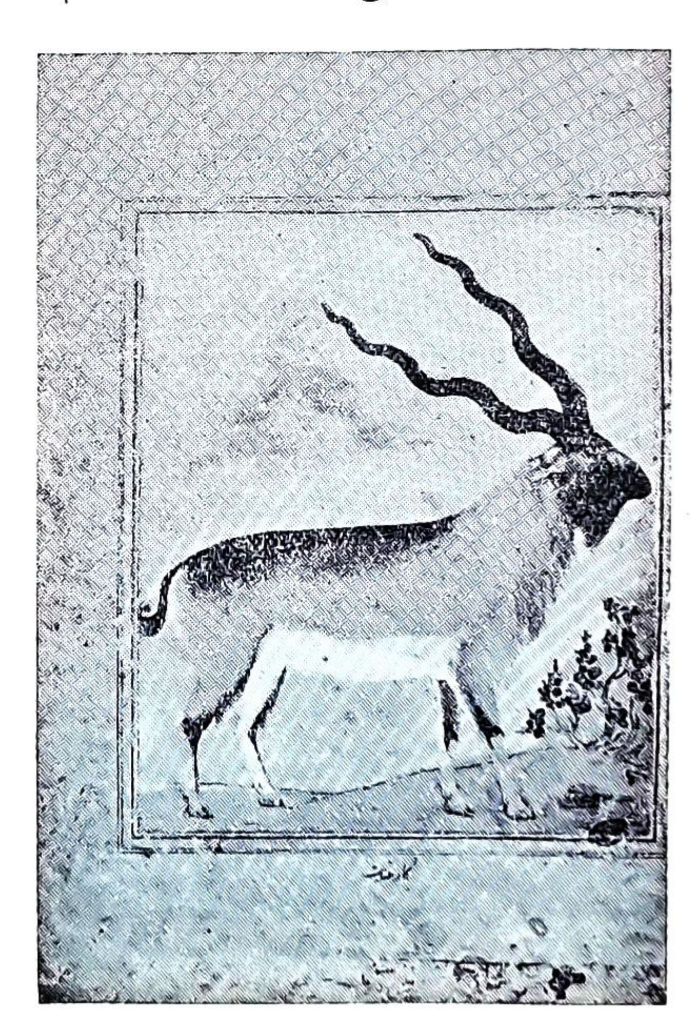
(شكل ٥) صورة درّاج بريشة الأستاذ منصور

وإنما نشأ من عناية بعض الأباطرة بالنادر من أنواع الحيوان والنبات . من ذلك أن الإمبراطور جهانجير (١٦٠٥ — ١٦٢٧ م) كان مغرماً بجمع الحيوانات النادرة ودراسة أطوارها ، وكان يأمر المصورين في بلاطه بتصويرها ، وكان يجمع هذه الصور في مرقعات « ألبومات » يعني بها أشد عناية . ويتجلى إقبال جهانجير على هذه الهواية في مذكراته ، فقد سجل في مواضع كثيرة منها حصوله على الحيوانات النادرة ، وإرساله البعثات لشرائها أو صيدها ، واستقباله المخلصين من أتباعه مع ما يحملونه إليه من تلك الحيوانات . وقد أشار جهانجير في مذكراته إلى أن الإمبراطور بابر وصف في المذكرات التي خلفها بعض الأنواع النادرة من الحيوان ولكنه لم يأمر المصورين في بلاطه بتسجيل صورها ، كما فعل جهانجير نفسه . والحق أن سيرة الإمبراطور جهانجير حافلة بأخبار إقباله على اقتناء الحيوانات ودرس طبائعها ومشاهدة معاركها ؛ ومن ذلك ما يروونه عن اقتنائه اثني عشر ألف فيل ، وعن سروره برؤية الفيلة تمزق أجساد الذين يحكم عليهم بالإعدام ، وبإطلاق الوحوش على الرجال الذين يختارهم ليكونوا طعاماً لها . وكذلك أقبل جهانجير على دراسة النادر من أنواع الزهور والنبات ، وقد سجل في مذكراته : « أن الزهور في منطقة كشمير لا تعد ولا تحصى ، وأن الذي رسمه منها نادر العصر الأستاذ منصور مائة نوع » .

ومن أعلام المصورين الذين برعوا في تصوير الحيوان والنبات في المدرسة الهندية المغولية منصور ومراد وعنايت ومانوهار وغلام علي ومادهوخان أزاد .

أما منصور فقد ذاع صيته في بلاط الإمبراطورين أكبر وجهانجير . وكتب عنه جهانجير في مذكراته أنه أصبح مصوراً عظيم الشأن حتى استحق لقب نادر العصر، وقد وصل إلينا عدد من آثاره تشهد كلها بتفوقه في رسم الطيور ، ومن هذه الآثار الفنية رسم طائرين من فصيلة الكركي محفوظ في متحف فكتوريا وألبرت (شكل ٣) . وكان هذا الطائر يعرف في الهند باسم « سارس » ، وأشار إليه جهانجير في عدة مواضع من مذكراته ، وجاء في أحدها أن السارس من نوع الكركي، وأن الناس يقتنونه في بيوتهم، وأنه يألفهم ، وأن زوجاً من هذا الطائر عند جهانجير فأطلق عليه اسمي « ليلى » و « المجنون » . وعلى هذه الصورة عبارة : « كار أوستاد منصور جهانكير شاهي » أي : عمل الأستاذ منصور تابع الشاه جهانجير . ولا ريب في أن تأليف هذه الصورة ودقة رسمها وجمال نسبها وتوفيق المصور في رسم شتى أجزاء الطائرين ، كل ذلك يشهد بأنها من ريشة مصور صناع لا يكاد يوازيه في رسم الطيور أي مصور في مدرسة أخرى .

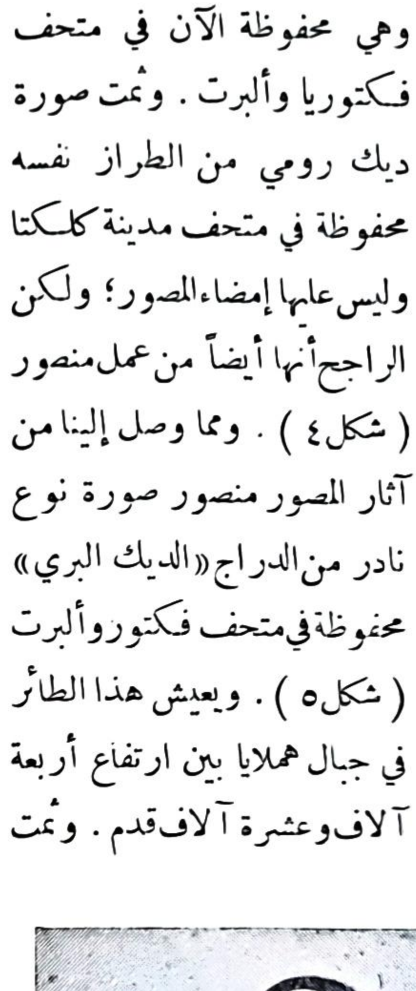
ومن الطيور التي أعجب بها جهانجير « الديك الرومي » ، والمعروف أن وطنه الأول بلاد المكسيك، وأنه عرف في أوربا ثم في آسيا في بداية القرن السابع عشر . وقد كتب الإمبراطور جهانجير في مذكراته نحو صفحتين في وصف هذا الطائر ، وقص فيهما كيف أرسل تابعاً مخلصاً من أتباعه - اسمه مقرب خان - إلى ثغر جوا سنة ١٦١٢ م ، فعاد منها بمجموعة من التحف والحيوانات النادرة ، من بينها الديك الرومي . وقد وصلت إلينا صورة هذا الطائر بريشة الأستاذ منصور وعليها إمضاؤه،



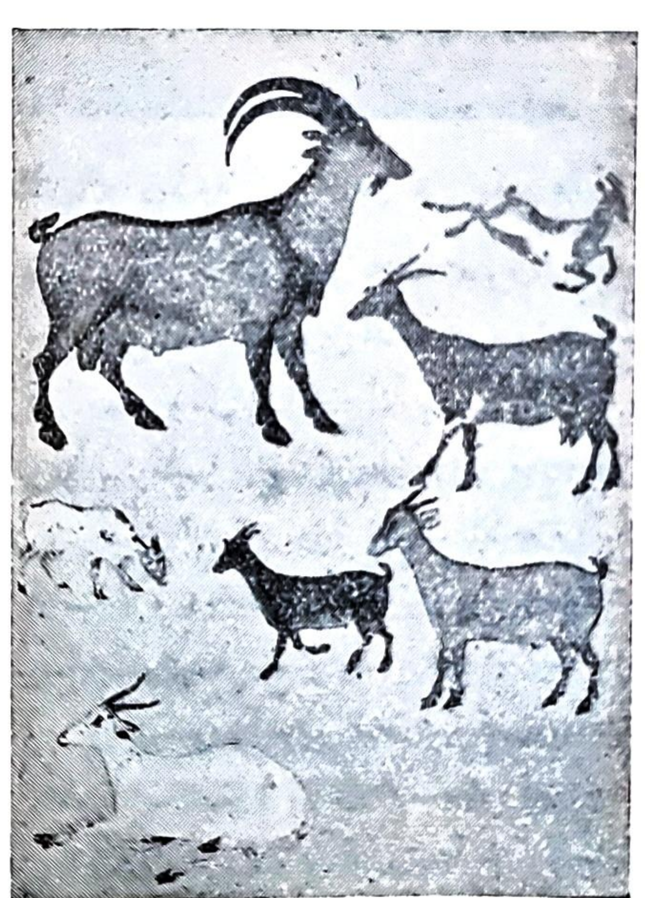
(شكل ٦) رسم عنز وحشي بريشة المصور عنايت في بداية القرن السابع عشر



(شكل ٧) رسم غزلان يرجح أنها بريشة المصور مراد في بداية القرن السابع عشر



وهي محفوظة الآن في متحف فكتوريا وألبرت . وثمت صورة ديك رومي من الطراز نفسه محفوظة في متحف مدينة كلكتا وليس عليها إمضاء المصور؛ ولكن الراجح أنها أيضاً من عمل منصور (شكل ٤) . ومما وصل إلينا من آثار المصور منصور صورة نوع نادر من الدراج «الديك البري» محفوظة في متحف فكتور وألبرت (شكل ٥) . ويعيش هذا الطائر في جبال هملايا بين ارتفاع أربعة آلاف وعشرة آلاف قدم . وثمت صورة أخرى لهذا الطائر تشبه هذه الصورة كل الشبه ؛ ولا عجب فقد كان مألوفاً أن يصور الرسام عدة نسخ من صورة واحدة ؛ وكان الإمبراطور جهانجير يطلب في بعض الأحيان عدة صور من الرسم الواحد إذا أعجب به ، وذلك ليقدمها هدية إلى أمرائه وندمائه أو ليحتفظ بها في مجموعاته الفنية .



(شكل ٨) رسم حيوانات من القرن السابع عشر

ونلاحظ في إطار هذه الصورة وغيرها من الصور الهندية المغولية أنه غني برسوم الزهور


(شكل ٩) رسم زهر النسرين من القرن السابع عشر

المختلفة ولا سيما زهور السوسن والخشخاش والفراولة والأقحوان والنرجس والورد والزنبق .

أما المصور عنايت فقد عاش أيضاً في بلاط الإمبراطور جهانجير في بداية القرن السابع عشر ؛ ومما وصل إلينا من آثاره الفنية رسم عنز وحشي « مارخور » ذي قرنين طويلين ولولبيين . وهذا الرسم محفوظ الآن في متحف فكتوريا وألبرت (شكل ٦) وعليه عبارة « كار عنايت » أي : عمل عنايت . وقد دون جهانجير في مذكراته سنة ١٦٠٧ أن أفراداً من الأفغان من قبائل شنواري قتلوا عنزاً برياً «مارخورا» حملوه إليه ولم يكن قد رأى مثله أو تصور وجوده ، فأمر المصورين في بلاطه بتصويره .

ومن أعلام المصورين الذين تخصصوا في رسم الحيوان في بلاط جهانجير المصور مراد . وقد وصل إلينا من آثاره رسم غزال ، وعليه إمضاؤه وهو محفوظ الآن في مجموعة الكونتيسة بهاج «Comtessc de Behague» بباريس. وكان في القسم الإسلامي من متاحف برلين إلى بداية الحرب الأخيرة رسم غزلان في حركات مختلفة وعلى « أرضية » وردية اللون (شكل ٧) ، وهو شديد الشبه برسم الغزال المحفوظ في مجموعة الكونتيسة بهاج ، ولذا يرجح أنه أيضاً بريشة المصور مراد .

وثمت صورة أصاب الفنان فيها قسطاً وافراً من التوفيق في رسم حركة طائفة من الحيوانات الصغيرة ، كان الإمبراطور جهانجير يظن أن من العسير تسجيل حركاتها الغريبة (شكل ٨) ، وهي تمثل نوعاً من الحيوان بين الأعناز والنعاج ، أقبل جهانجير على تربيتها وكان يجد أعظم التسلية في مشاهدة صغارها كما أشار إلى ذلك في مذكراته .

ولم تكن الأشجار موضوعاً أقبل المصورون على تصويره ، وإن كان من اللوحات الفنية المشهورة رسم شجرة دلب رسمت نحو سنة ١٦١٠ م ومحفوظة الآن في مكتبة وزارة الهند «India Office» بلندن . وفي هذه المكتبة « ألبوم داراشكوه » ومن رسومه رسم بديع لزهر النسرين (شكل ٩) يتبين من إتقانه تفوق المصور في هذا الميدان .

وصفوة القول أن التصوير الهندي الإسلامي امتاز على سائر مدارس التصوير الإسلامية بالتفوق في رسم الحيوان والنبات ، ووصل في هذا الميدان إلى درجة عظيمة في صدق تمثيل الطبيعة وتصوير الحركة .

زكي محمد حسن

فيتامين غريب

كشف الإخصائيون في التغذية مادة أو عاملا جديداً مجهولا له خواص الفيتامينات . وقد وجدوا أن طعم الغذاء يتوقف إلى حد كبير على توفر هذا العامل المجهول الذي لم يكشفوا سره بعد ، ولكنهم يعتقدون أنه سيكون بالغ الأهمية في المستقبل .

وأجريت تجاربه على الفيران فوجد أنه يقلل نسبة الوفاة أو يزيدها فإنها بلغت ٦٥ في المائة في فيران خلا طعامها من هذا العامل ، فلما أضيف إلى غذائها هبطت نسبة الوفيات فيها إلى ١٥ في المائة في مدة متساوية .

وأسفرت البحوث أيضاً عن توفره في بعض منتجات اللبن والخس ومح « صفار » البيض واللحم وكثير من الخضر والأعشاب ولكنه قليل في القمح .

أعلام النهضة الحديثة

١٦

شكيب أرسلان

١٨٦٩ — ١٩٤٦

للأستاذ رفائيل بطي

ثلاثة عوامل كوّنت هذه الشخصية الفذّة في ميدان الجهاد السياسي وفي رحاب العلوم العربية وفي دولة الأدب ، فكان أمير البيان وطليعة المجاهدين في العرب والمسلمين « شكيب ارسلان » : أرومته الكريمة ذات الحسب الباذخ ، والسجايا العربية القوية في تنوخيتها ومنذريتها بحيث تفوقت في العشيرة ، وغنمت مفاخر بني معروف ، منذ حلت لبنان ، قبل ثلاثة عشر قرناً ، فظل هذا اللبناني الصلد يناضل في سبيل العروبة والإسلام ستين سنة من غير أن يصيبه الكلل . ومواهبه الفياضة التي ولدت معه وتفجرت من طفولته فبدت عليه مخايل النبوغ وهو يافع ، ولم يقف اتساع الشمول في ما تناوله هذا الدماغ الجبار من معرفة وبيان دون التفوق والبروز . وتوثب قومه وتحفز ملته ، فعرقه العربي اللبناني الأصيل النابض بالحيوية المتدفقة دفعه إلى النجدة والحمية فتجند لداعي الوثبة ، وخاض غمار النهضة ، وعمل هذه الأعوام الطويلة في خدمة العرب والمسلمين : أديباً محبباً بروائعه إلى القلوب ، ومفكراً سياسيًّا حرا ينشد العزة والحرية لإخوانه



والمجد لأوطانه ، وعالماً وباحثاً دارساً يغذي بني جلدته بنتاج فضله في كتب ورسائل ستبقى آثاراً خالدة على وجه الزمن .

* * *

ولد الأمير شكيب بن حمود أرسلان في الشويفات بلبنان يوم الاثنين في ٢٥ كانون الأول « ديسمبر » سنة ١٨٦٩ الموافق أول رمضان ١٢٨٦ هـ .

تعلم في « مدرسة الحكمة » ببيروت حيث كان من أساتذته الشيخ عبد الله البستاني العالم اللغوي الشهير مؤلف معجم « البستان » والشيخ يباهي بتلميذه ، وطالما ردد أنه أنبغ فتى درس عليه . وفي معهد الحكمة شاهد الشيخ محمد عبده لأول مرة إذ أقيمت هناك حفلة دعي إليها الإمام ، فلما قدم إليه الفتى قال له : « إني أعرف اسمك — لما كان ينشره آنئذ في الصحف من منظومه — وإنك ستكون من أعظم الشعراء » . ثم زار الشيخ بعد ذلك دار أرسلان في الجبل وتعرف إلى والد الشاعر ، وتوثقت صلات المودّة بين الإمام المصلح والأمير الناهض . فلما جاء مصر سنة ١٨٩٠ لازم الأستاذ الأكبر وحلقته الحافلة بنوابغ ذلك الجيل بينهم علي الليثي وسعد زغلول وحفني ناصف وعلي يوسف وأحمد زكي . ويقول شكيب بصدد قرض الشعر : « وكان الأستاذ الإمام لا يرغبني في الشعر ، وما عهدته أوصاني بنظم شيء إلا مرتين لا غير . . . وذكرهما »

ويظهر أن شدو الأمير الأدب يافعاً جعله يتصل بأرباب الأقلام ويختلف إلى إدارات الصحف ، إذ يذكر أنه رأى أول ما رأى الدكتور يعقوب صرّوف أحد صاحبي « المقتطف » في مكتب جريدة من جرائد بيروت ، فانجذب للعلم الغزير الذي يبدو في شرح صروف لبعض المسائل ، ولم يكن يزيد عمر الناشئ عن خمسة عشر عاماً ؛ فلما هبط وادي النيل بعد خمس سنوات دعاه أصحاب المقتطف إلى الغداء وتذاكروا في موضوعات كثيرة ، وصار ينشر مقالات وأبحاثاً في مجلتهم ، واتصلت بينه وبين صروف المكاتبة في شؤون المجلة ومسائل أدبية منوعة .

واتسعت معرفة الرجل بجماعة من صدور المصريين والمقيمين في مصر من الأعلام منهم الأمير عمر طوسون وقد أهداه أحد مؤلفاته مسجلاً أن صداقتهما ومكاتبتهما تنيف على ثلاثين عاماً ، وأحمد شوقي بك « أمير الشعراء » ، ويعزى إليه هذا النعت فتق به لسانه ، وقد التقيا في باريس حيث ذهب الأرسلاني مستشفياً ، وجاءها شوقي من مونبليه يطلب علم الحقوق في جامعتها ، فتعارفا وتحابا وانعقدت أواصر الأخوة بينهما ، وعند ما

اقترح عليه جمع شعره اختار اسم ديوانه أيضاً « الشوقيات » ، كما أثبت ذلك أحمد في مقدمة الطبعة الأولى سنة ١٨٩٨ .

بدت لوامع نبوغ الأمير منذ نعومة أظفاره ، فقد روى بعض الثقات أنه دخل مجلس علامة الشام الشيخ جمال الدين القاسمي فوجده يقرأ في مؤلف له في التوحيد لشاب يبدي ملاحظات على آراء الشيخ فيخف لتصحيحها ، ولم يكن هذا الشاب غير شكيب أرسلان .

بعد أن غادر الأمير مقاعد المدرسة — وشهرته الأدبية آخذة في الذيوع لما تنشره الصحف من آثاره شعراً ونثراً — قام برحلة إلى مصر وتركية . وفي استنبول لقي باعث الفكر الحديث في العالم الشرقي السيد جمال الدين الأفغاني فلازمه واستفاد كثيراً من توجيهه وتلقينه ، بل ليعد متتبعو أعمال مفخرة أرسلان أنه استقى من ينبوعي النهوض والإصلاح : الأفغاني ومحمد عبده ، الرسالة الاستنهاضية والإصلاحية التي حملها لأمته نصف قرن . والمنقول عن جمال الدين أنه قال أول ما رأى « شكيباً » وسمع حديثه : « سقياً لأرض أنبتتك ». وفي تضاعيف كتاب « حاضر العالم الإسلامي » مجمل حكم المجاهد الكبير على مرشده الأعظم .

إن ما امتاز به الرجل من استعداد فطري وثقافة واسعة مضافين إلى مقام بيته في الزعامة والأصالة رفعته إلى مكانة علية في بلاده وعند رجال الدولة العثمانية ، فلما اعتدى الطليان على مملكة بني عثمان في طرابلس الغرب ونشبت الحرب بين الدولتين سنة ١٩١٠ رافق الأمير شكيب أنور باشا القائد العثماني إلى الديار الطرابلسية ، فأبلى في الجهاد بلاء حسناً في سداد المشورة وإصابة الفكرة ؛ وقد أثر عن الزعيم الطرابلسي سليمان باشا الباروني قوله : « لو أخذت الحكومة العثمانية بتفاصيل الخطة التي رسمها الأمير شكيب أرسلان ونفذتها بحذافيرها لما ضاع الأمل في إنقاذ طرابلس وبرقة ، أو لاستطعنا على الأقل إطالة الحرب ثلاث أو أربع سنوات أخرى » وقد أثبت الأمير رأيه في انسلاخ طرابلس الغرب وحرب إيطالية في ملحق الجزء الأول الذي كتبه تعليقاً على « تاريخ ابن خلدون » .

وكان قد قصد إلى عاصمة الخلافة عام ١٩١٢ ، فلما اندلعت نيران حرب البلقان كلف القيام على رأس بعثات الدولة في هذه الحرب، حتى إذا أطبقت الحرب العالمية الأولى أوصى القائد العام أنور باشا قائد الفيلق الرابع جمال باشا الذي وجه إلى ديار الشام — بما فيها فلسطين ولبنان عهدئذ — أن يعول على صديقه العربي الذي خبره في حرب

طرابلس وبرقة ، وكانا يعيشان أياماً في خيمة واحدة في ميدان القتال . فلما وصل جمال إلى سورية نقل للأمير شكيب وصية رئيسه . ولا نكران في أن شكيب أرسلان تعاون مع قائد الجيش العثماني الذي لقب « بالسفاح » بعد اضطهاده لأحرار العرب ، وكتب في جريدة «الشرق» التي أسسها القائد للدفاع عن سياسته ، ولكن المنصفين من رجال العرب أكدوا مراراً باللسان والقلم — بعد أن انقشعت غياهب الحرب العظمى الأولى وبمناسبات كثيرة في حياة الفقيد الجليل وبعد وفاته — بأنه كان واسطة خير لكثيرين ودريئة شر عن كثيرين في تلك الأيام الحالكة ؛ فقد روى الأستاذ أمين الغريّب صاحب مجلة « الحارس » : « أنه عند ما قابل البطريرك إلياس الحويك رئيس الموارنة جمال باشا في فندق صوفر الكبير وأخذ الرئيس يستدرك الأمور بذكره أفعال الدولة وتعلق الموارنة بها ، صدم جمال غبطته بقوله : " هذا الكلام لا يطابق المعلومات التي لدي " فأسرع الأمير شكيب إلى تدارك الأمر وشرح لجمال باشا أن صلات الموارنة بالدولة كانت دائماً حسنة ، ومنهم أفراد امتازوا بإخلاصهم لها في قلب الآستانة ، فلابدّ من أن يكون اتهامهم بغير ذلك من فعل الأفاقين الذين لهم اشتباه في كل طائفة ، أما البطريرك فكلنا نشهد له ولرفقائه المطارنة بالإخلاص والمحبة » . ثم عاد البطريرك إلى بكركي ، وبعد يومين التقى حبيب باشا السعد ، عميد الموارنة ، بالأمير في بيروت وقال له : « إن جميع الموارنة يشكرون فضلك في المحافظة على شرف بطريركهم » . وممن كتبوا في تبيان يد شكيب على رجال سورية ولبنان في أيام المحنة سليم بك المعوشي .

وانتخب شكيب نائباً عن حوران في البرلمان العثماني ، فسعى في مركزه هذا لإنقاذ كثير من المنفيين إلى الأنضول من أعيان سورية والجبل ، وخفف من كارثة المجاعة في لبنان ، وحمل الدولة على توزيع المال على فقراء اللبنانيين ، وكانت له يد طولى في المحافظة على امتيازات لبنان التي استفاد منها الأهلون كثيراً في تلك الأيام الحرجة . وأقنع أنور باشا بالموافقة على دخول مراكب أمريكية تنقل خمسة عشر ألف طن دقيق إلى لبنان ، إلا أن الحلفاء رفضوا هذه الحركة خشية ذهاب الدقيق إلى ألمانيا ، فبقيت المؤن في الإسكندرية في المركبين .

ويلوح أنه كان راضياً مطمئن النفس عن سلوكه السياسي في الفترة التي نتحدث عنها إذ قد ورد في قصيدة له يصف موقفه هذا :

سيعلم قومي أنني لا أغشهم ومهما استطال الليل فالصبح واصله

ولما وقفت رحى الحرب العالمية الأولى كان في برلين حيث وجد جماعة من

أقطاب الأمبراطورية الممزقة ، وغادرها بعدها عائداً إلى الشرق، وإذ تعذر عليه العودة إلى وطنه اختار الإقامة في مرسين سنة ١٩٢٤ لقربها من بلاده ، ثم نزح إلى سويسرة ، وفضلها على غيرها لصفة الحياد التي لها ، واتخذ جنيف مقراً له .

ولم يقعد هذا المجاهد عن الدفاع عن وطنه إزاء ما انتابه من استعمار بعد الحرب ، فقرر المؤتمر السوري الفلسطيني المنعقد في القاهرة انتدابه مع اثنين من العاملين في سبيل حرية بلادهم لمتابعة القضية السورية لدى عصبة الأمم في جنيف . وما كانت مساعيه مقصورة على سورية وحدها بل تناولت كل قطر عربي بينها شمال أفريقيا ، لهذا تجد أهل المغرب العربي — شأن بقية أبناء العروبة — متعلقين به تعلقاً شديداً . وظل هذا الوفد العربي يتابع الشؤون العربية في قاعدة عصبة الأمم ست عشرة سنة ، وقدم إلى مكتب العصبة من الوثائق والمذكرات ما قدر بعشرين مجلداً أهديت في سنة ١٩٣٧ — وبعد عقد المعاهدة بين سورية وفرنسة — إلى وزارة الخارجية السورية .

ولبى في شتاء سنة ١٩٢٨ دعوة المغتربين في أمريكا ، فزار نيويورك حيث استقبل استقبالا عظيما ، وحضر المؤتمر السوري الملتئم في ديترويت ، وفي هذه الرحلة أتيح له أن يجتمع بالكاتب الأمريكي لوثروب ستودارد مؤلف « حاضر العالم الإسلامي » الذي علق عليه الأمير الحواشي الضافية مما أربى على حجم الكتاب ثلاثة أضعاف .

وزار البلاد الأندلسية « فردوس العرب المفقود » سنة ١٩٣٠ ودرس معالمها واستوحى أمجادها مما كان له تأثيره على جهوده في التأليف بعد ذلك ، وتنقل في أوربا بين سويسرا وفرنسا وألمانيا ، وفي إقامته عن كثب من مقر عصبة الأمم شعر بالحاجة إلى الدعاية للقضية العربية عامة وفلسطين بوجه خاص باللغات الأجنبية فأنشأ سنة ١٩٣٠ مجلة "La Nation Arabe" شهرية تعالج الشؤون العربية باللغة الفرنسية وتطبع في جنيف ، وبقيت تواصل نشاطها إلى الحرب العالمية الثانية ، وحظيت بتأييد المشتغلين بالسياسة العربية ، وقد رحب بها كبراؤهم — الملوك والرؤساء وزعماء السياسة والفكر — منهم جلالة الملك فيصل الأول الذي كان يعتبر الأمير شكيب من الأعلام المنافحين عن وطنهم بقوة وإخلاص فكان يجتمع به ويتذاكر معه في المسائل القومية كلما زار سويسرة ، واستحكمت كثيراً هذه الصداقة بين الملك والأمير ، ووجد معه لما اختاره الله إلى جواره في برن في خريف ١٩٣٣ فكتب أمير البيان أبلغ الصفحات وأصدق كتابة فى تأبينه والتأريخ له. وما انقطعت المكاتبة بين الأمير وجلالة الملك عبد العزيز آل سعود الذي يكن له أعظم تقدير .

وكم كافح هذا الكاتب الجبار الاستعمار المخيم على البلاد العربية حتى حرم عليه أن يزور الشرق العربي أو المواطن التي يهيمن عليها هؤلاء المستعمرون ولا سيما أن مقدرته الفائقة وحماسته العربية الإسلامية وصرير قلمه الحاد مسموع في كل قطر من أقطار العروبة وديار الإسلام بحيث اكتسب أصدقاء ومعجبين وأنصاراً ، ليس في هـذه البلاد فحسب بل لدى المسلمين في روسيا وبولندا وفنلندا والهند وأندونوسيا والفلبين وأفريقيا والبلقان فضلا عن المهاجر الأمريكية .

وبعد التسوية التي جرت بين الوطنيين السوريين والفرنسيين سنة ١٩٣٦ سمح للأمير شكيب بالعودة إلى بلاده مع من سمح لهم من الأحـرار والمناضلين ، فخف إلى موطنه ، وما لبث أن عاد إلى جنيف ، ليواصل توضيح مشكلة الوطن العربي .

ومن مواقفه المشهودة انتدابه مع أعضاء وفد السلام بين المملـكة السعودية واليمن سنة ١٩٣٤ فكتب لهذا الوفد التوفيق فأوقفت الحرب بين البلدين المجاورين الشقيقين وعقدت معاهدة الصلح . ولا يزال في آذان الناس دوي الضجة التي أثارها على الظهير البربري قبل الحرب الأخيرة . كما تمـكن من أن يستخدم نفوذ شخصيته التي أصبحت عالمية فأرجع ثمانين ألف عربي من طرابلس الغرب إلى بلدانهم وقراهم بعد أن أجلاهم عنها المارشال بادليو الإيطالي في أثناء سيطرته على تلك البقاع .

ولاستفاضة شهرة هذا السيد الفاضل وتقديراً لخدماته العظيمة انتخبه المؤتمر الإسلامي الـكبير المنعقد في مكة المـكرمة أميناً عامًّا لسره . كما أن هناك جمعيات علمية وأدبية كثيرة إختارته لعضويتها ومنحته درجاتها العلمية ، منها الجمعية الأسيوية الفرنسية التي نظمته في سلـكها في صدر شبابه ، وهو من الأعضاء المراسلين للمجمع العلمي العربي في دمشق ، وكان رحمه الله يعتز بهذه الصفة فينتسب إليها في تواليفه .

وبعد أن قضى شكيب في مغتربه خمسا وعشرين سنة أذن له بالعودة إلى عشه في الجبل الأشم فبلغ بيروت يوم ٣٠ تشرين الأول « أكتوبر » ١٩٤٦ وحظي بلقيا أمه العزيزة عليه وقد أربت على المائة وفرح به مواطنوه وعارفو فضله وأصبح الناس في عيد من لقياه بعد هذه الغيبة ، ولـكن القدر إذا حم لا يمهل ، فقضى في بيروت يوم الاثنين ٩ كانون الأول « ديسمبر » ١٩٤٦ على أثر النوبة القلبية ، ولما ينعم ببلده وأهله وصحبه شهرين ؛ إلا أنه حقق له ثلاث أماني عزيزة عليه : ألا يموت في دار الغربة وأن يكحل عينيه برؤية والدته ولثم يدها ، وأن يشهد بلاده حرة مستقلة . وقد خلف ابناً وابنتين تعلموا في المدارس الأوربية .

وكتب الفقيد ترجمته الوافية مودعاً إياها أسراراً سياسية ووثائق خطيرة عن العهد التركي أودعها مكتب « المؤتمر الإسلامي » في القدس لتنشر بعد وفاته .

ومن صفات هذا المؤمن المحتسب الصبر على المكاره واحتمال الأذى ، وقد عاش في أوربا عيشة الكفاف بل في ضيق وضنك كما يتحدث بعض من عرفوه وعاشروه في ألمانيا في خلال الحرب المنتهية . ولما زار الأديب الأرسلاني قبر جوتة شاعر الألمان العظيم قال فيه بيتين من الشعر العربي نشرتهما صحف برلين بعنوان « من شاعر الشرق إلى شاعر الغرب » .

وإذا حاول المرء أن يلم بأطراف شخصية الأمير شكيب أرسلان يلقى الصعاب لتعدد نواحي هذه الشخصية من ناحيتي العلم والعمل . فيحار المستوعب لأعماله كيف وجد من نفسه ووقته متسعاً للقيام بهذه المهام السياسية والانصراف إلى الكتابة والتأليف والإجادة في أكثرها إجادة بز بها الأقران، وقد تشعبت الموضوعات التي طرقها من أدب إلى تاريخ إلى فلسفة إلى نقد إلى اقتصاد إلى ترجمة . واشتهر بقوة الذاكرة إلى حد يكاد لا يصدق . روي عنه أنه صحح المؤرخ اليمن الشيخ عبد الواسع اليمني في كتابه « تاريخ اليمن » أموراً كثيرة في الفقه والتاريخ والتراجم من ذاكرته فوراً . وقد رزق قريحة مؤاتية أسعفته في أن يكتب ثلثمائة مقال في السنة وأن يؤلف بضعة آلاف صفحة من كتبه ، ويجيب عن أكثر من ألفي كتاب يتلقاه من معارفه وأصحابه أو مستفتيه وسائليه .

وها إنني أورد أسماء مؤلفاته أو ما نشره :

« الدرة اليتيمة » لابن المقفع . عني بتصحيح النسخة الخطية ووضع مقدمة لها وطبعها في بيروت مرتين سنة ١٨٩٣ و١٨٩٧ ، وقد نشر المستشرق الألماني بروكلمن في المجلة العلمية الشرقية الألمانية "ZPMG" رأيه في أن هذا الكتاب هو كتاب الآداب لابن المقفع وأن اسم « الدرة اليتيمة » من صنع النساخ ، فرد عليه الأمير شكيب في مجلة « المشرق » البيروتية سنة ١٩٠٠ : « أنه قد طبع الكتاب كما وجده بدون تحريف » بعد أن ذكر مراجعاته مع أفاضل عصره ومصادره . وهذا موضوع خلاف أدبي تعرض له الباحثون في آثار ابن المقفع ليس هنا موطن بحثه بالتفصيل .

« المختار من رسائل أبي إسحق إبرهيم الصابيء » الجزء الأول، نقحه وعلق حواشيه وصدره بترجمة الصابيء وتعريف أدباء زمانه طبع في بعبدا « لبنان » سنة ١٨٩٨

« الباكورة » ديوان شعره الأول طبع في بيروت سنة ١٨٨٧

« ديوان الأمير شكيب أرسلان » طبع في مصر سنة ١٩٣٥

« رواية آخر بني سراج » تأليف الفيكونت دو شاتوبريان ، ترجمها ونشرها قبل خمسين سنة ، وأعاد طبعها بعد ذلك وقد أضاف إلى الترجمة خلاصة تاريخ الأندلس إلى سقوط غرناطة وكتاب أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر وأثارة تاريخية سلطانية .

«حاضر العالم الإسلامي» تأليف لوثروب ستودارد الأمريكي وترجمة الأستاذ عجاج نويهض — من فلسطين — علق عليه الأمير شكيب هوامش وفصولا عن أحوال العالم الإسلامي المعاصرة حتى غدا موسوعة منقطعة النظير في هذه المباحث ، طبع مرتين ، والثانية في أربعة أجزاء ، ونشرته مكتبة ومطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر .

« السيد رشيد رضا أو أخبار أربعين سنة » طبع بدمشق سنة ١٩٣٧

« شوقي أو صداقة أربعين سنة » . طبع بمصر سنة ١٩٣٦

« أناتول فرانس في مبازله » تأليف جان جاك بروسون مع خلاصة كتاب « محادثات مع أناطول فرانس » لنقولا سيفور ، وزبدة أقوال صحف فرنسة يوم وفاته ، ترجمها وأضاف إليها تعليقات في الأدب والفلسفة والتراجم .

« الارتسامات اللطاف إلى أقدس مطاف » يصف حجه سنة ١٣٥٤ ﻫ إلى بيت الله الحرام .

«تاريخ غزوات العرب في فرنسة وسويسرا وإيطالية وجزائر البحر المتوسط» ، ألفه بعد زيارته لهذه الأقطار ووصف فيه فتوح العرب لها إبان القرون : الثامن والتاسع والعاشر للميلاد ، وسلك في كتابته سبيل الرحلة وفيه فوائد تاريخية عن النقود والملابس وأسماء البلدان .

«الحلل السندسية في الأخبار الأندلسية » . وهي معلمة أندلسية تحيط بكل ما جاء عن بلاد الأندلس . ظهر منه ثلاثة أجزاء حتى سنة ١٩٣٩ من عشرة ، فيه بحث عن جغرافية هذه البلاد وتاريخها ، وأدب وتراجم ، يصحح فيه المؤلف أغلاط المؤرخين والكتاب من العرب والإفرنج ، ويحوي أطالس وصوراً نادرة .

« لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم » . كتبه إجابة لاقتراح الشيخ محمد بسيوني عمران إمام مهراجا جزيرة سمبس برنيو « جاوه » ونشر فصولا في « المنار » وطبع ثانية مع حواش لصاحب المنار وإضافات للمؤلف طبع بمصر ١٩٣٩ . وخلاصة رأيه أن الأمة لا يتم لها النهوض والغلبة إلا بالتضحية بالمال والنفس فإذا تعلمت هذا العلم دانت لها سائر العلوم والمعارف .

« تكملة تاريخ ابن خلدون » ، تعليقات الأمير شكيب على كتاب « العبر وديوان المبتدأ والخبر » لابن خلدون في الطبعة المنقحة التي قام بها محمد علال الفاسي الفهري وعبد العزيز بن إدريس من المغرب ، صدر تعليق الأمير على المجلد الأول باسم ملحق للجزء الأول وفيه تفصيل لتاريخ الصقالبة والترك والدولة العثمانية إلى سنة ١٩١٤ مما لا تجده في كتاب عربي آخر ، وسيكون الكتاب الأصلي في ثمانية أجزاء . وفي هذا الكتاب يقول الكاتب إنه سيؤلف كتاباً خاصًّا عن « الدولة العثمانية في خلال الحرب العامة الأولى وذيولها إلى معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ »

« محاسن المساعي في مناقب الإمام ابن عمرو الأوزاعي » نشره سنة ١٩٣٣ بمصر عن نسخة مخطوطة في خزانة برلين . تأليف الشيخ زين الدين بن تقي الدين بن عبد الرحمن الخطيب ، وقد نقحه الناشر وعلق حواشيه وصدره بمقدمة عن الإمام الأوزاعي وتراجم العلماء له وترجم لمن ورد ذكرهم في متن الكتاب .

« روض الشقيق » هو ديوان شقيق شكيب ، الأمير نسيب أرسلان نشره وحشاه بالهوامش والفوائد ولا سيما في تاريخ ونسب آل أرسلان ؛ حيث دون لمعة وافية بهذا الغرض .

هذه كتب المؤلف المطبوعة وقد خلف آثاراً خطية بينها « مذكراته » الثمينة جدًّا وكان قد شرع في نشر صفحات منها في جريدة « الجهاد » المصرية قبل الحرب . و « سيرته » وقد كتبها بيده في مائتي صفحة كبيرة ، و« القول الفصل في رد العامي إلى الأصل » ، والجزء الثاني من « رسائل الصابئ » و « بيوتات العرب في لبنان » ومئات المقالات والأبحاث والدراسات . فنرجو أن ينهض الغُير لنشرها لينتفع بها القارئون .

٭٭٭

هي إلمامة موجزة وليست سيرة لهذه الحياة الفخمة، لأن التبسط لا يتحمله المقام، ولا بد من أن يقوم بالتأليف في هذا الموضوع القادرون وفاء لرجل خالد أفنى حياته في خدمه أمته وأعلامها القدامى والمحدثين٭

رفائيل بطي

٭ جاءتنا برقية من الأستاذ مبروك بباريس يقول فيها إن المقيم الفرنسي العام بتونس قد منع خريجي المدرسة الصديقية من الاحتفال بتأبين المغفور له الأمير شكيب أرسلان ويستنكر هذا المنع .

نوادر المخطوطات

الرسالة المصرية

لأبي الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الأندلسي

تحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون

تقديم :

نزح كثيرون من رجال الأندلس إلى المشرق طلباً للعلم أو المال أو الجاه أو رغبة في أداء فريضة الحج ، وكان من أولئك النازحين إلى مصر رجل جمع إلى الأدب الحكمة ، وإلى الطب التنجيم والموسيقى والرياضة والبراعة في علم الحيل . هذا الرجل هو أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت ، المولود في مدينة دانية ، من بلاد الأندلس سنة ٤٦٠ هـ .

قدم أبو الصلت إلى الإسكندرية ومعه أمه — فيما يروي ابن خلكان — سنة ٤٨٩ ، أي في أيام الخليفة الفاطمي المستنصر بالله أبي تميم معد بن الظاهر بالله علي ابن الحاكم بأمر الله ؛ ووزيره إذ ذاك والقائم بأمر دولته الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي الأرمني .

وكان يأمل أبو الصلت من وراء رحلته هذه بسطة في العيش ، وثراء من المال، كما أشار إلى ذلك في صدر رسالته . ويبدو أنه ظل دهراً خاملا يتحين الفرص ،إلى أن أتيح له أن يتصل بأحد المقربين إلى الوزير الأفضل(١) ، في أيام الخليفة الآمر (٢) ، وذلك الرجل هو تاج المعالي مختار (٣) ، فخدمه بصناعتي الطب والنجوم ، فأعجب به ،

(١) بدأت وزارة الأفضل للمستنصر الفاطمي سنة ٤٨٧ بعد وفاة أبيه بدر الجمالي ، ثم وزر للمستعلي بالله أحمد سنة ٤٨٨ ، ثم للآمر بأحكام الله سنة ٤٩٦ . وقد استبد بهؤلاء الخلفاء جميعاً إلى أن تمكن منه الآمر ودبر مقتله ، فقتل سنة ٥١٥ . انظر النجوم الزاهرة [٥ : ٢٢٢] .

(٢) هو الآمر بأحكام الله منصور بن المستعلي بالله أحمد بن المستنصر بالله . ولد في سنة ٤٩٠ واستخلف وله خمس سنين ، وقتل سنة ٥٢٤ . انظر النجوم الزاهرة [٥ : ١٧٠] والخطط المقريزية عند ذكر « الجامع الأقمر » .

(٣) انظر معجم الأدباء [٧ : ٥٤] .

ووصفه بحضرة الأفضل وأثنى عليه ، وكان كاتب الأفضل ينفس عليه ذلك ، ويخشى بأس تاج المعالي ؛ وحدث أن تتابعت من تاج المعالي السقطات فأدى ذلك إلى أن يقبض عليه الأفضل ويعتقله ، فيجد كاتب الأفضل الفرصة سانحة للقضاء على أبي الصلت ، فيختلق له ما يدفع الأفضل إلى أن يلقي به في سجن المعونة[1] بمصر ، مدة ثلاث سنين وشهر[2] ، بعد الذي دبج فيه من المدائح والشعر[3] .

ويروي ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء ، أن دخول أبي الصلت إلى مصر كان في حدود سنة ٥١٠ هـ ، وأنه حبس في الإسكندرية في خلافة الآمر بأحكام الله ووزارة الأفضل[4] . فإن صحت هذه الرواية كانت سنداً في أن أبا الصلت ورد مرة أخرى بعد وفاة ولي نعمته أبي الطاهر يحي بن تميم بن المعز باديس[5] المتوفى سنة ٥٠٩ ، الذي رحل إليه أبو الصلت بالمهدية بعد سنة ٥٠٦ ، وهي سنة خروجه من مصر .

ضاق أبو الصلت ذرعاً بمصر ، وما لقي فيها من الخيبة والعنت ، قال القفطي[6] : « ودخل مصر في أيام أفضلها فلم ينل منه إفضالا ، وقصده للنيل فلم يجد لديه نوالا » . فحينئذ شد رحاله إلى المغرب في سنة ٥٠٦ ، واستعاد صلته بحضرة أبي الطاهر يحي بن تميم بن المعز بن باديس ، الذي وضع له هذه « الرسالة المصرية » يصف له فيها ما عاينه

---

(١) ذكر المقريزي هذا السجن عند ذكر الدار المأمونية المنسوبة إلى المأمون البطائحي . قال : « وكان بجوار الدار المأمونية حبس المعونة » . ثم قال : « ولم يزل هذا الموضع سجناً مدة الدولة الفاطمية ، ومدة دولة بني أيوب ، إلى أن عمره الملك المنصور قلاوون قيسارية أسكن فيها العنبرانيين في سنة ٦٨٠ » . وقال : « وكان حبس المعونة هذا يحبس فيه أرباب الجرائم . . . وأما الأمراء والأعيان فيسجنون بخزانة البنود » . والدار المأمونية هي المعروفة بالمدرسة السيوفية .

(٢) وقد روى المقري في نفح الطيب [١ : ٥٣٠ ليدن] رواية عجيبة : أن عمر أبي الصلت ٦٠ سنة ، منها ٢٠ في أشبيلية ، و ٢٠ في أفريقية عند ملوكها الصنهاجيين ، و ٢٠ في مصر محبوساً في خزانة الكتب .

(٣) انظر بعضها عند ابن أبي أصيبعة [٢ : ٥٣ ، ٥٦] .

(٤) ذكر ابن أبي أصيبعة سبب حبسه في الإسكندرية : أن الأفضل طلب إليه أن يعمل الحيلة في رفع مركب غارق في البحر ، فاجتهد أبو الصلت ، ولكنه حينما قارب النجاح خانه جده ، فهبط المركب إلى قعر البحر ، بعد ما كبد الدولة خسائر فادحة ، فحبسه الأفضل لذلك .

(٥) ملك أبو الطاهر يحي بن تميم ، المغرب سنة ٥٠١ واستقر في ملكه إلى أن توفي سنه ٥٠٩ . انظر تاريخ طرابلس الغرب لابن غلبون [ص ٣٩ — ٤٠] .

(٦) انظر إخبار العلماء للقفطي [ص ٥٧] طبع السعادة .

في مصر وما عاناه ، وتناول في هذه الرسالة القيمة : —١— الوصف البلداني للديار المصرية ونيلها ؛ —٢— ثم أخذ في تصوير جمال ربوعها ومغانيها تارة بالشعر ، وأخرى بالنثر ؛ —٣— وعقّب على ذلك بالكلام في سكانها وأجناسهم ومذاهبهم وأخلاقهم وعقائدهم ، منذ عهد الفراعنة إلى ظهور الإسلام ؛ —٤— وتحدث بعد ذلك فيما تحتويه من الآثار العجيبة ، كالهرمين والبرابي ؛ —٥— وذكر عواصم مصر في القديم والحديث ؛ —٦— وقدامى العلماء من اليونان والروم ، مستطرداً بذلك إلى ندرة من لقيه بمصر من المشتغلين بالعلم والحكمة والطب ؛ —٧— وعجب من جهل من لقي بها من الأطباء ، ونوه بفضل بعض الأطباء البارعين ؛ —٨— وتحدث عن ولوع المصريين بأحكام النجوم وكثرة استعمالهم لها ، وأورد في ذلك نوادر وطرائف ؛ —٩— ثم عرّج على ذكر من لقيه بها من الأدباء والظرفاء .

فهذه الرسالة تضرب بأسباب إلى علوم وفنون شتى ، وتعدّ اليوم كما عدت بالأمس ، وثيقة يرجع إليها البلداني والمؤرخ وباحث الآثار والاجتماعي والحكيم والطبيب والمنجم والأديب .

⁂

هذه الرسالة الصغيرة الحجم العظيمة القدر كانت متعارفة متداولة بين كبار العلماء والمؤرخين ، ثم أضحت نادرة مجهولة ، إلى أن تمكن المغفور له العلامة أحمد تيمور باشا — طيب الله ثراه — من اقتنائها في مكتبته الخاصة وهي برقم ٦٠١ أدب . وعلى هذه النسخة الوحيدة في العالم — كما يتضح من مراجعة فهارس بروكلمان [(١)] — أعتمد في نشر هذه الرسالة الفريدة ، التي أورد طرفاً منها ياقوت في « إرشاد الأريب » ، والعماد في « الخريدة » ، والقفطي في « إخبار العلماء » ، وابن أبي أصيبعة في « عيون الأنباء » ، والأسعد بن مماتي في « قوانين الدولة » ، والمقري في « نفح الطيب » ، والمقريزي في « الخطط » ، والأدفوي في « الطالع السعيد » ، والسيوطي في « حسن المحاضرة » ، كما سيتضح لك عند تحقيق نصوصها .

⁂

ولأبي الصلت غير الرسالة المصرية « كتاب الحديقة » على أسلوب « يتيمة

---

(١) انظر بروكلمان [١ : ٤٨٦ — ٤٨٧] وملحقه الأول [ص ٨٨٩] . على أنني عثرت فيما بعد على قطعة من الرسالة المصرية في دار الكتب المصرية برقم ٣٥٤ تاريخ سأنبه على موضع بدئها ونهايتها في الحواشي .

الدهر » للثعالبي ، وقد نقل منه العماد في « الخريدة » . وله أيضاً « الأدوية المفردة » وهو محفوظ في مكتبة بودليان ، و « رسالة في العمل بالأسطرلاب » في برلين وليدن وبودليان ، و « تقويم الذهن » في المنطق ، بمكتبة الإسكريال ، و « أوراق من كتاب في الفلك » بالإسكريال ، و « كتاب في المعاني المختلفة للفظة نقطة » في مكتبة ليدن ، و « قصيدة » بمكتبة برلين . وقد صنف معظم هذه الكتب وهو في اعتقال الأفضل بمصر ، كما نص ابن خلكان .

* * *

انتهت أيام أبي الصلت في المهدية ، وقد اختلف المؤرخون في سنة وفاته ، فقيل سنة ٥٢٠ وقيل سنة ٥٢٨ .[١]

وإليك الرسالة :

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت رحمه الله تعالى :

كنت إبان عصر الشباب مونق ، وغصن الصبا مورق

إذ لمتي مسـودة ولماء وجهي رونق[٢]

ممن سامحه الدهر بغفلة من غفلاته ، وتجافى له عن غفوة من غفواته . فعاش آمن السرب ، سائغ الشرب ، لا يتفرغ من أدب يرود رياضه ، ويرد حياضه ، إلا إلى طرب يعمر ميدانه ، ويسحب ذيوله وأردانه . ثم تلون فقلب لي ظهر مجنه ، وسقاني درديّ دنه ، فتدارك ما أغفله ، واسترد ما بذله ، واضطررت إلى مفارقة الوطن ، والخروج عن العطن ، فتماسكت إشفاقاً من مفارقة أول أرض مس جلدي ترابها ، وشدت علي التمائم بها . وجاءت أمور لا تطاق كبار ، فلما لم يمكن القرار ، ولم يبق إلا الفرار ، قلت : ليس لي إلا أن أرمي بنفسي كل مرمى ، وأطرحها كل مطرح .

---

(١) انظر ترجمته عند ياقوت [٧ : ٥٢] وابن خلكان [١ : ٨٠] والقفطي [٥٧] والمقري [١ : ٥٢٠] وابن أبي أصيبعة [٢ : ٥٢]

(٢) اقتبسه من قول أبي الطيب المتنبي وتصرف فيه :

ولقد بكيت على الشباب ولمتي مسودة ولمـاء وجهي رونق

لأبلغ عذراً أو أنال رغيبة ومبلغ نفس عذرها مثل منجح[1]

وسكنت إلى البيت المشهور :

تلقى بكل بلاد إن حللت بها أهلا بأهل وأوطاناً بأوطان[2]

وإن كان يقول العامة ليس بين بلد وبلد نسب ، فخير البلاد ما حملك ، فجعلت أستقري البلاد لأتيمم أرفقها للمقام ، وأعونها على مقارعة الأيام ، فكانت مصر مما وقع عليه اختياري ، وصدقت حسن ظني قبل اختباري ، وسرت قاصداً إليها أعتسف المجاهل والتنائف ، وأخوض المهالك والمتالف ، فطوراً أمتطي كل حالكة الإهاب[3] ، مسودة الجلباب ، ثابتة كصبغة الشباب ، قد فسح ميدانها ، ووضع براحة الريح عنانها ، فجرت جري الطرف الجموح ، وفاتت مدى الطرف الطموح ، وطوراً كل نقب الأياطل كالهياطل[4] ، سبط المشافر جعد الأشعار ، احتذى العقيق ، أو الصنو الشقيق ، إن علا قلت ظليم خاضب ، وإن هوى قلت شهاب ثاقب . يصل الذميل بالوخاد[5] ، ويلتهم التهائم والنجاد ، فكم جزع واد جزعته ، وجلباب ليل ادرعته ، وكم بر خرقت مخارمه وفجاجه ، وبحر شققت غواربه وأمواجه ، وليس لي غير مصر مقصد ، ولا وراءها مذهب ، ولا دونها للغنى متطلب .

وكم في الأرض من بلد ولكن عليك لشقوتي وقع اختياري

فلما تغمرت ركابي من النيل ، واستذرت بظل المقطم ، ألقيت عصا التسيار ، واستقرت بي النوى ، وخفت ظهورهن من الرحال ، وأرحتهن من الحل والترحال ، وقلت : ضالتي المنشودة ، وبغيتي المقصودة ، هاهنا ألبث وأقيم ، فلا أبرح ولا أريم ، « بلدة طيبة ورب غفور » . وحيث التفت فروضة وغدير ، وخورنق وسدير ، وظل ظليل ، ونسيم عليل .

---

(١) اقتبسه كذلك من قول عروة بن الورد ، ورواه أبو تمام في الحماسة [١ : ١٧٨] :

ومن يك مثلي ذا عيال ومقتراً من المال يطرح نفسه كل مطرح

ليبلغ عذرا أو يصيب رغيبة ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

(٢) البيت من أبيات الحماسة [١ : ٩٨] . وقبله :

لا يمنعنك خفض العيش في دعة نزوع نفس إلى أهل وأوطان

(٣) يعني السفينة .

(٤) إنما نقبت أياطله من إدمان السير . والنقب ، هنا ، تنفط الجلد . والهياطل : جمع هيطل، وهو الذئب ، يشبه به الفرس في شدة العدو . وفي الأصل : « نقب الأياطيل كهياطيل » .

(٥) المسموع في مصدر وخد هو الوخد والوخدان .

وكم تمنيت أن ألقى بها أحداً يسلي من الهم أو يعدي على النوب[١]
فما وجدت سوى قوم إذا صدقوا كانت مواعيدهم كالآل في الكذب[٢]
وكان لي سبب قد كنت أحسبني أحظى به فإذا دائي من السبب
فما مقلم أظفاري سوى قلمي ولا كتائب أعدائي سوى كتبي[٣]

ولم تطل مدة اللبث حتى تبينت بما شاهدته أني فيها مبخوس البضاعة، موكوس الصناعة، مخصوص بالإهانة والإضاعة؛ وأن عيشها الرغد، مقصور على الوغد، وعذابها المر، موقوف على الحر، فلو تقدمت فعلمت ذلك لخف عنها مركبي[٤] وصرفت إلى سواها وجه مطلبي، ولكان لي في الأرض مرمى شاسع، ومنتاب واسع، بل تثبطت حتى تورطت، حتى عوملت بما يعامل به ذوو الجرائر والذنوب، وجرعت من المذلة بأوفى ذنوب. هذا مع ما حبرته من المدح التي اشتهرت شهرة الصباح، وهبت هبوب الرياح، ولهج بها الحادي والملاح[٥].

فسار بها من لا يسير مشمراً وغنى بها من لا يغني مغرداً

إلا أن الله جلت آلاؤه، وقدست أسماؤه، تدارك برحمته فأزال من تلك المحنة بالمنحة، ونسخ تلك النقمة بالنعمة، وختم بالوصول إلى حضرة الملك الأجل أبي الطاهر يحيى بن تميم بن المعز بن باديس، الذي لم تزل حضرته مصاد العناة[٦]، ومراد العفاة، ومجتمع الفضائل، ومنتجع الأفاضل، ومشرع الجود، ومشعر الوفود. فلما استترت بجناحه. واستظهرت باسماحه، أعذب لي بسماحة الدهر جناه، واعتذر لي مما جناه، فكف دوني كفه، وصرف عني صرفه.

كريم رفضت الناس لما بلغته كأنهم ما خف من زاد قادم

فكنت فيما مضيت عليه، وآلت حالي إليه، من إشراقها بعد الأفول، وإيراقها بعد الذبول، كنصل أهمل أمره، من جهل قدره، ولما وقع إلى الخبير به صان

---

(١) في الأصل: «من النوب» صوابه في ياقوت [٧ : ٨٠] والقفطي [٥٧] وابن أبي أصيبعة [٢ : ٦٠]. وقد اقتبس هذه الأبيات من شعر له قديم، كما يفهم من رواية ابن أبي أصيبعة.

(٢) في الأصل: «كالألف» صوابه في ياقوت والقفطي وابن أبي أصيبعة.

(٣) في الأصل: «كتائب أعواني» والصواب من المراجع المتقدمة.

(٤) في الأصل: «خف».

(٥) انظر مديحه للأفضل في ابن أبي أصيبعة [٢ : ٥٦].

(٦) المصاد: موضع الصيد. والعناة: جمع عان، وهو الأسير.

صفحته وحده ، وحلى حمائله وغمده ، ثم ادخره فيما يدخر وأعده ، فإن انتضاه يوماً ارتضاه ، وإن جرده أحمده ، وإن هزه سره في الضريبة حزه . ولكن أبى الله أن يكون الفضل إلا لمن نشأ في مغارسه، ونجم في منابته، وربي في حجره، وغذي بدره.

فلم أستسغ إلا نداه فلم يكن ليعدل عندي ذا الجناب جناب
فما كل إنعام يخف احتماله وإن هطلت منه علي رباب[1]
ولكن أجل الصنع ما جل ربه ولم يأت باب دونه وحجاب
وما شئت إلا أن أدل عواذلي على أن رأيي في هواك صواب
وأعلم قوماً خالفوني فشرقوا وغربت أني قد ظفرت وخابوا

والأولى أن أضرب عما سلف، وأترك ما فرط ، وآخذ فيما أجريت إليه وقصدته ، ونحوته واعتمدته ، مما آثرت به الحضرة السامية[2] — أدام الله سموها — من وصف ما عانيته من أرض مصر وعاينته ، والاقتصار على الذي رأيته ، دون ما رويته ، فليس من يقول : علمت هذا من طريق العلم والسماع، كمن يقول : تحققته بالمشاهدة والاطلاع؛ فإن ذا اللب الأمين لا ينخدع بمحال ، ولا يرضى بانتحال .

* * *

وأنا أبتدىء بذكر هذه البلاد وموقعها في المعمورة ومجرى النيل منها ، وغنائه فيها ، وأشفع ذلك بنبذ من ذكر أحوال أهلها في أخلاقهم ، وسيرهم وعاداتهم ، وما يتصل بذلك وينجر معه ، ويجيء بسببه ، ويدخل في تضاعيفه . وها أنذا آخذ في ذلك ، وبالله أستعين ، وعليه التوكل .

« البقية ستأتي »

---

(١) الرباب : سحاب يركب بعضه بعضاً ، الواحدة ربابة . وفي الأصل : « لدي ولامنه علي » صوابه من ياقوت [٧ : ٥٩] ، وقافيته فيه « سحاب » .
(٢) في الأصل : « الشامية » .

نظرة في أدب الألمان

للأستاذ محمود إبرهيم الدسوقي

في تاريخ الأدب الألماني ظاهرة جديرة بالملاحظة ، هي أنه يزدهر بانتظام ، وينحط كذلك بانتظام . فبين كل فترة ازدهار وأخرى ٦٠٠ سنة ، وبين كل فترة انحطاط وأخرى ٦٠٠ سنة كذلك . فقد بلغ الذروة حوالي سنة ١٢٠٠ ميلادية ، وعاد في القرن الثامن عشر فارتفع إلى القمة . فلما انحط كانت أعمق هوة تردى فيها في القرنين العاشر والسادس عشر . ويختلف الرأي في عهود ازدهاره : هل هي اثنان أو ثلاثة ؟ والواضح إلى الآن أنها اثنان ، وأن الأدب الألماني ارتفع إلى القمة في القرنين الثاني عشر والثامن عشر . لكنّ رأياً قيما يرجح أنه كان هنالك عهد ثالث يسبق هذين العهدين حوالي سنة ٦٠٠ ميلادية ؛ ففي ذلك العصر تم الانقلاب الهائل في أوربا ، وأحس الجرمان سلطان الفكر الذي خلفه الرومان بعد هزيمتهم ، وازدهر شعر الملحمة الوطنية الجرمانية ، وشاعت بذلك الازدهار أساطير الأبطال . والأدب في ذلك العهد الأول وكذلك في العهد الثاني كان أدب ملاحم وأساطير غير مدون ، يجري على اللسان ويعيه الجنان ، يلقيه الشعراء على الناس نظماً وكلاماً . ويبلغون به عند الملوك والأمراء والنبلاء حظوةً ونفوذاً ، ويرسلونه في المدح والهجاء على السواء . لكن الطابع الغالب عليه كان طابع البطولة يُتغنى بها في قصص رائعة ، دامت إلى اليوم في الأدب الألماني ، واكتست على الأيام حللاً قشيبة ، وعالجها بالشعر والنثر كتّاب نابهون .

وقد قابل الذُّرى في العهود الثلاثة الزاهرة هُوى ووديان كان إليها الهبوط ومنها الصعود ، فكانت ثَمّ موجات ثلاث بين الجبل والوادي ، تتعاقب بانتظام ، تصعد الموجة الناهضة كل ٦٠٠ سنة ، وتهبط الموجة الهابطة كل ٦٠٠ سنة كذلك . فلما كان القرن العاشر والقرن السادس عشر انحطت الشاعرية وضاع الشعر في الأدب الألماني ، فلم يعد شيئاً في متناول الشعب بأسره ، بل بات أداة حماقة ووسيلة من وسائل التسلية

الخشنة . وفسدت الأذواق ، فانصرف الناس عن الشعر الغنائي الرقيق الذي كان يطوف به الشعراء قبل أن يعرف التدوين ، لأن رعاة هؤلاء الشعراء باتوا أنفسهم في عداد المنحطين ، فلم تعد هناك تلك الطبقة النبيلة المنظمة ، الراعية للآداب والفنون ، بل جاء على أثرها نبلاء لا فرق بينهم وبين اللصوص وقطاع الطرق ، ولا توقير عندهم لسير الأبطال ، يؤثرون سخافات المضحكين على روائع الشعراء والفنانين . فتوارت من ثَمّ ملاحم الفروسية المجنحة التي اكتنفها إذ ذاك الضباب ، وحلت في القصص محل العذوبة المستمدة من الأساطير الأجنبية خشونة تتسم بها بطولة همجية ، وانتشرت التهكمات اللاذعة ، والمثالب الشخصية في الأدب الألماني ، وتخلله الغَشّ والسخر من طبقة القرويين ، واختفى كمال الشكل الذي عرفه القرن الثالث عشر في النظم الألماني ، فعصفت به ريح التدهور في القرن الخامس عشر .

على أن هذا العصر — عصر انحطاط النظم الألماني — لم يخل من نهضة للنثر الألماني ، فاتخذت كتب التسلية شكلا ثابتاً ، وعولجت ملاحم الفروسية القديمة نثراً ، وترجمت قصص فرنسية تدور حول الفرسان ، وأقاصيص إيطالية في نفس الموضوع ، وأنشئت الفكاهات والهزليات والخرافات ؛ وكتبت الأساطير الدينية نثراً ، بعد أن كان كل هذا مقصوراً على النظم . وبالجملة لم يخل هذا العصر من إنتاج وابتكار ، ومن أنماط أخلاقية على جانب من البراعة ، وإن جاءت ثمرة البغض والسخر ، وإن انتهبها التسرع ، وجافاها سحر الشكل ، وتجردت من العمق والتبحر والرقة .

ولعله جدير بالذكر أن الأدب الألماني كان في تطوره مطبوعاً بطابع المفاجأة فوق انطباعه بطابع الانتظام ، فما إن يكاد يبلغ شيئاً ذا قيمة حتى يضيع هذا الشيء . ذلك أن الثروة الأدبية كانت تختفي في البلاد الألمانية بسرعة ، وتخلف فقراً أدبيا عاما . فيعود أناس غير يجاهدون جهاداً عسيراً في سبيل الخروج من هذه المحنة ، ويبذلون أحياناً جهوداً تدعو إلى الإعجاب وتثير الدهشة ، وتنهض بالأدب الهاوي كما حدث في القرن الثامن عشر ، إذ وثب الأدب الألماني فجأة من الهوة التي كان يتردى فيها إلى ذروة الذرى على يد « ليسِنْغ » و «جوتة » و « شيلر » وغيرهم ممن زاملوهم أو خلفوهم ، وممن جمعوا في أنفسهم ما استمدوه من الأدب الفرنسي والإنجليزي ؛ وما استوحوه من الأدب القديم ، وما نهلوه من أدبهم القومي ؛ فنقّوه وهذبوه ، وقدموه للذهن القومي غذاءً سائغاً . وقد كانت هذه الظاهرة الجديدة فريدة في بابها ، عديمة المثال في المحيط الذهني ، وإن كانت في المحيط السياسي كثيراً ما تقع في أفعال فاتح عظيم كالإسكندر .

على أن هذه النهضة التي رفعت الأدب الألماني إلى القمة لم تلبث أن ألمّ بها الدُّوار في عليائها ، فاختل توازنها ، وزال عنها الكثير مما كان يزينها ، فجعلت المثل العليا — التي كانت في عصر « جوتة » فخار الأمة الألمانية ورمز عظمتها — تتهاوى ، في حين ظلت الشعوب الأخرى تنعم بمثلها ، وتعرف كيف تحرص عليها كتراث أدبي تورثه أجيالها القادمة . وكما كانت فتوحات الإسكندر خاطفة : لمحت في أفق الزمن ثم اختفت ، كذلك أبدت تلك النهضة الأدبية الألمانية الكبرى التي لازمت عصر جوتة نُذُراً على بدء الانحدار ، فلم تلبث دولة الأدب التي أسسها «ليسنغ» و«جوتة» أن انهارت كما انهارت دولة الملك المقدوني . ذلك أن تجاوز الحدِّ لا القصد هو طابع التطور الفكري الألماني ، فهو يطير إلى العلا ثم يقع إلى الحضيض . وكذلك كان الجرماني الذي آتاه الله من فضله وبسط في جاهه ، فقَدَ ثروته كلها في لعب « الزهر » ، فلما بات صفر اليدين قامر على حريته فخسرها في آخر رمية ، وبيع كما تباع العبيد . وفي هذا الجرماني يقول «تاسيتوس» : «إن العناد الألماني شديد حتى في الشر ، والجرمان يعدون هذا إخلاصاً» . إخلاص ! عناد في الطيب والرديء على السواء ! ولعله ليس أدق من هذا في وصف الخلق الألماني .

لقد تجلت في عهد الازدهار الثاني والثالث الرغبة في التطلع والبحث ، وتغلبت الأمة على كل تحامل ، وسعت إلى الهناء الحقيقي من طريق النفس النبيلة ، فلم تصرفها الخلافات السياسية عن احترام الأمم الأجنبية ، ولم تحل منافستها إياها والسعي إلى التفوق عليها في الميدان السياسي دون التعلم منها ؛ فكان الألمان من التسامح بحيث لا يعدون الاعتراف بفضل الأجنبي عليهم ماسًّا بكرامتهم وكبريائهم القومية . وتطورت القصة أو الرواية عندهم تطوراً توفر فيه الشكل الجميل ، والذوق السليم ، وأثر المحاكاة التي تبدو فيها التبعية ، لكنها لا تمس في الواقع الاستقلال . وزامل التسامح القومي تسامح ديني ، فلطف التعصب للعادات ، وتعدّل الشعور بمعنى الشرف ، وإن لم يخرج به عن معناه الحقيقي ، وكان أساس ذلك خير الإنسانية . وبدت الرغبة في تنبيل الإنسان ، فحرص القوي على أن لا يسيء استخدام قوته ، وعفّ المنتصر عن أن يزدري عدوه المهزوم . وكبتت الدوافع الأنانية القاسية ، فكف القادر عن أن يشيع الخوف في الضعفاء ولكن يبث الحب ، وحدت الكثيرين الرغبة في أن يروا الوجوه مستبشرة راضية شاكرة ، وأن يتلقوا الإكبار من طريق المحبة .

وعظم في الفرد الاعتداد بالنفس ، ولكن في وعي للإرادة الخالصة ، وصمت

الناس في المجتمع الراقي عما يشين ، وأخرسوا الشهوات المنحطة ، وأدخلوا الحماسة في قلوب النساء ، فهذبت المرأة كيانها الخاص ، فلم تعد تسعى إلى ستر ضعفها بدرع لامع تجيز فيه على الرجل أنها قوية ، ولكن جعلت تنسج شبكة دقيقة متينة تحتبل فيها الرجل ، وتحاشت الظهور العلني للتأثير في الشؤون العامة ، واكتفت بأن تؤثر على الرجل لتؤثر منه على العالم . وعرف الناس أن ابتسامتها خير جزاء للشجاع والكيس والحصيف والشاعر ، وأنها حامية الفضيلة .

هذه النهضة الأخلاقية التي أوجدتها النهضة الأدبية سبقتها صيحة مدوّية ودعوة عامة إلى تنشئة اللغة الألمانية وتبسيطها حتى لايلازمها ذلك التعقيد الذي أدخله عليها الكثيرون من الكتاب . واللغة الألمانية إحدى لغات ثلاث ترجع إلى أصل واحد هو الأصل الجرماني الغربي ، واللغتان الأخريان هما الإنجليزية والهولندية أو لغة الأراضي الواطئة . وهذه اللغة الأخيرة لهجة عامية من اللغة الألمانية ، وإن باتت لغة مستقلة تحمل طابعها الخاص . فلما اعتنق الجرمان المسيحية ، وحوربت واستؤصلت عاداتهم الوثنية القديمة ، تغلب الدخيل على الأصيل ، وتفوقت التربية الرومانية واللغة الرومانية أواللاتينية على التربية الجرمانية واللغة الألمانية ، فباتت هذه اللغة الأخيرة لغة العوام والجهلة ، ولم يستخدمها رجال الدين وحملة لواء التعليم الجديد إلا على قدر ضرورتها في حمل من لم يتنصر من الجرمان على اعتناق النصرانية . حتى إذا كان القرن الثامن بدأت ترجمة الكتب الدينية إلى هذه اللغة الألمانية المنبوذة ، ولم يُهل القرن التاسع حتى كان « شرلمان » قد أسدى إلى هذه اللغة خدمة جليلة بجمع أساطيرها وأغانيها وملاحم أبطالها وقوانينها . وكذلك ُعني الإمبراطور العظيم بوضع أجرومية لهذه اللغة ، وسمى الأشهر والرياح بها ، وأوصى باستعمالها في العظات الدينية ودوائر القضاء .

وهكذا تدرجت اللغة الألمانية فخرجت عن النطاق المضروب حولها ، وشبت عن طوق العامية ، وجعل ينقل إليها كل ذي قيمــة ، ويحيي فيها ما اندثر من تقاليدها ، وتُكتب بها الملاحم والقصص ، وتتكلمها الخاصة بعد العامة ، فتبوأت مكانها اللائق بها ، واستردت قليلاً قليلاً ما كانت اللاتينية تحتله من مناطقها ، حتى كتبت بها العلوم فوق ما وعته من الآداب والفنون . ولم يأت القرن الثاني عشر الميلادي حتى كان أحدَ العهود الثلاثة التي ازدهرت فيها الآداب الألمانية ورقت فيها حاشية اللغة الألمانية .

فالتعقيد الذي ألم بها قد دخل عليها بعد ذلك بقرون بدافع من رغبة الكتاب في الإغراب ، وتنكبهم الاستقامة إلى الالتواء ، وتعمدهم الحذلقة ، حتى كان قارئ هذه

اللغة من نفس أبنائها يعاني منها ويظهر عليه أثر الإجهاد الذهني . ولا تزال هذه الظاهرة بادية فيها حتى الآن ، ولكن في صورة شرعية تستمدها من قواعد الأجرومية .

وبين الأصوات التي ارتفعت بطلب الإصلاح صوت «فردريك» الأكبر. ولعله كان أعلاها صوتاً وأشدها وطأة ، إذ كانت هذه اللغة في رأي فردريك تنقصها كل فتنة ، قاصرة عن الأداء ، يجب أن تُبرد وتُمسح وتعالجها أيدٍ صَنَاع . وكان كثير من الكتاب الألمان في رأي فردريك أيضاً مزهوين بأسلوب مشوش تتراكم فيه الجمل الاعتراضية ، وترد فيه الكلمة التي يتوقف عليها فهم الجملة بأسرها في آخر الجملة ، وهذا صحيح ، فما يزال تركيب الجملة الألمانية من الصعوبة بحيث يجهد فهمها الغريب غير المتضلع لطولها وكثرة جملها الإضافية ، وورود أفعالها موزعة في أول الجمل وفي آخرها ، وضرورة الصبر عليها حتى تنتهي لأنها لاتساير مجرى الفكر . وقد قال « فردريك » في وصف هؤلاء الكتاب الذين أسلفت الإشارة إليهم : « إن حل لغز أبي الهول أسهل من تتبع مجرى أفكارهم » .

وعيوب اللغة الألمانية هذه قد كان لها أكبر الأثر في أنها ظلت زمناً طويلاً لا تكتب بها العلوم ، ولا يتخاطب البلاط الألماني بها . بيد أن النهضة التي بدت طلائعها في عصر « فردريك » ، وأعني بها نهضة الأدب والعلم ، قد زاملها ظهور أول معجم في اللغة الألمانية ، وكتابة العلوم بهذه اللغة ؛ كما دلّ عليها انقلاب الأفكار ، والوعي القومي ، والسعي إلى النهوض إلى مستوى الجيران ، وشق الطريق للفكر ليُصعِّد إلى القمة .

على أن « فردريك » كان يشهد في أواخر أيامه نهضة هذه اللغة وآدابها ، فكان يؤمن بأنه سيأتي اليوم الذي يتعلمها فيه جيرانه، ويقبل عليها فيه البلاط في غير بلد أجنبي حتى قال : « مثل هذه الأيام الجميلة لم تحن بعد لأدبنا ، لكنها تقترب ، فأنا أبشر بها وهي وشيكة الظهور ، ولن أحضرها ، فالسن التي بلغتها تقطع هذا الأمل ، فأنا كموسى: أرى أرض الميعاد من بعيد لكن لن أطأها » .

وقامت ضرورة الإصلاح ، ونبتت في الأرض الألمانية عبقريات جبارة لتنفيذه . ولقد جاء «كلوبفستك » و « جوتة » و « برجر » لتنبيل المنتجات الوطنية ، وتنقيتها من الصبغة الأجنبية ، وطبعها بطابع التعدد لا الأناقة . فقد استأثر الأدب الفرنسي مثلا بالجمال ، وضحى في سبيله بالشيء الكثير ، واطرح كل ما لا ينسجم معه ، فنال هذا من شاعريته بعض الشيء وأعوزه إلى التعدد . أما الألماني فكالإنجليزي يؤثر التعدد على أسمى

جمال ، ويفضل أن يرسم وجهاً مفرطحاً على أن لا يرسم إلا الأنف الأقنى . ولا شك أن هذه الأمم قد سلكت إلى معبد الذوق طرقاً مختلفة ، وأن ما كتبه « شكسبير » عن مصرع « قيصر » يختلف عما كتبه « فلتير » . « ففلتير » يقول بصريح العبارة إنه استعار ما كتبه « شكسبير » بحذافيره ولم يهمل إلا ما لا يتفق والقواعد المرعية في المأساة والمسرح الفرنسي . وفي « شكسبير » يرى المرء شعباً ثائراً تتحرك عضلاته جميعاً ، وترتعش شفتاه ، وتنتفخ أوداجه ، وتقدح عيناه الشرر، وتتفصد رئتاه بالزبد ؛ شعب موتور ساخط هائج حانق ، بينه رجل دموي يريد انتزاع قلب سنا « Sinna » المسكين من صدره ، «وسنا» يصيح أنه ليس بسنا قاتل قيصر ، وإنما هو سنا الشاعر ، فيريد أن يفتك به من جراء أشعاره — وهؤلاء الأسود والنمور والقرود ، يحرضهم « أنطنيو » بسحر بيانه على قتلة قيصر ، وهم إنما اجتمعوا لتأييد هؤلاء القتلة . فماذا يفعل فلتير ؟ يمسح كل هذه الملامح القوية ويمحوها ، ويعطينا صورة مصقولة جميلة لامعة لا مثيل لها في هذا الفن ، لكنها خلو مما ينبغي أن يكون .

وقارن بين حديقة إنجليزية وأخرى فرنسية ، تشهد في الأولى صوامع وجبلايات وأدغالا وحجارة ضخمة وقبوراً وخرائب ومغاور وأحراجاً ورياضاً ومراعي ، وتعدداً لا آخر له يختلط بعضه ببعض كما تختلط خلائق الله . لكنك ترى في الحديقة الفرنسية المماشي المستقيمة الجميلة ، والأسيجة المشذبة ، وأشجار الفاكهة الرائعة منظمة أزواجاً مقوسة تقويساً مصطنعاً ، وترى الأزهار وأحواضها منسقة ، والملاهي على أرق صورة تتفق والذوق ، تستطيع في الذهاب والإياب أن ترسمها — أي الحديقة — بخطوط قليلة ، وتصطدم في كل خطوة بالوحدة السائدة فيها ، والتي تؤلف بين هذه الروائع . وكذلك يتباين الإيطالي والألماني ، إلا في أن هذا يحاكي الإنجليزي وذاك يحاكي الفرنسي. والأدب الألماني كتلك الحديقة الإنجليزية ، فيه ألف شيء ، متعدد الألوان والأنواع التي تؤلف في النهاية وحدة واحدة . فهل هذا خير أم وحدة تؤلف بين خمسة أشياء ؟ هل أغنية مقدسة تنشدها جوقتان لباخ «Bach» خير ، أم نغمة ساحرة تأخذ بمجامع القلب ؟ كل ذلك مرجعه إلى الذوق ، ولكل أدب طابع ، ولكل أدب أشياع .

محمود إبراهيم الدسوقي

غضبة

للفند الزِمّاني*

صفحنا عن بني ذُهْلٍ وقلنا القومُ إخوانُ
عسى الأيام أن يرجعـــن قوما كالذي كانوا
فلما صرّح الشّرْ رُ فأضحى وهْو عريان[1]
ولم يبقَ سوى العُدوا ن دِنّاهم كما دانوا[2]
مشينا مِشية اللّيـــث غدا والليث غضبان
بضرب فيه توْهين وتخضيع وإقـــرانُ
وطعن كفم الزِّقْ قِ غذا والزقّ ملآن[3]
وبعض الحلم عند الجهـــل للذلة إذعان !
وفي الشر نجاة حيـــن لاينجيك إحسان![4]

* الفند الزماني : اسمه سهل بن شيبان بن ربيعة بن زمّان الحنفي ، منسوب لجده ،وهو شاعر جاهلي، وكان أحد فرسان ربيعة المشهورين المعدودين ، شهد حرب بكر وتغلب .

(١) صرح الشر : انكشف . وهو عريان : مثل لظهور الشر ووضوحه .
(٢) العدوان : الظلم الصريح . دناهم : جازيناهم بفعل القبيح كما ابتدأونا به .
(٣) غذا : سال . (٤) وفي الشر : أي في دفع الشر ، أو في عمل الشر .

في ملعب الحياة

للأستاذ أحمد محفوظ

شهدتُ الحياةَ على الملعب ... فما ازدَدْت إلا يقينَ الغبي

أمور تصير إلى عكسها ... وأُخرى تروح إلى الأصوب

وحظ يرود قرار النحوس ... ويصعد بعدُ إلى الكوكب

وما صرّفتْه أكف الرجال ... ولكنْ من القدر المختبي

يموت الشباب على نبرة ... وتُبقي السنون على الأشيب

يغصُّ الكريمَ بأكدارِه ... ويسقي اللئيمَ منَ الأعذب

وقد يمنع البغيُ أصحابَه ... وقد يشرقون من المشرب

وقد يذهب الخير في أهله ... كما يذهب الماء في السبْسب

وقد يستفيد به الأكرمون ... فيجزون بالصالح الطيب

وقد يكذب البر في الأبعدين ... وقد يستمال به الأجنبي

وقد يطرب الناسُ من باغم ... ويلوون أذناً عن المطرب

وقد يسمعون لإسحاقه ... وقد ينكرون على جندب

فطوراً تراهم مع السامريّ ... وطوراً على هَدْي موسى النَّبي

كأَنهم من رياح الفصول ... ومن كلّ ضربٍ منَ المُغرِب

فيا ساعة ساءها ربّها ... فسارت على خطأ اللولب

* * *

قضاةٌ يضجُّون من عائب ... ويغترفون من الأعيب

وينتقص المـــرء أترابه ويصبح منهم على مرقب
وكلهم في الهوى واحد وكلهم في دجى الغيهب

٭٭٭

وقلب يصفّق من وجده ويصبُو ويهفو إلى الرَّبرب
ويحْسب أنَّ الغرام الحياةُ وأنَّ السلُوَّ مُنى الأخيب
ويتعب من خلجات الهوى فيرجو الخلاص من المتعب

٭٭٭

ويخشع قوم لذكر المسيح وينحرفون عن المذهب
يفيض حناناً على البائسين ويعفو سماحاً عن المذنب
ولـكنّهم كقطيع الوحوش وإن جاوزوا خسَّةَ الأَذؤُب
وفاقُوا الضباع على جيفـة وفاتوا الدّهاء من الثعلب
وما يستوون همُ والأسود فـكل يُخالف في المطلب
ففتك الأُسود طعام الصَّيُود وفتكهمُ بطنـــة المحتبي
وإن بلغوا وثبات الفهود فما بلغوا البرَّ في الأكلب

٭٭٭

وآخر يسجد صدر النَّهار وفي اللّيل يقرأ في القرطبي
يسبح باُسم الإله القـدير وبالشر يضرب كالعقرب
يهيّئ بالرأي أشراكه ويمشي الضراء إلى المكتب
وقد يغصب الطفل أرزاقَه وكان أُقيم مكان الأب

* * *

وآخر يسبح في غيّه ويَنفر من سجدة المغرب

يقصِّر بالكأس أيامه ويهجر هنداً إلي زينب

ولكنّه عُمَريُّ الهوى حسام من الحقّ لم يرهب

يشاكل طبعَ الهدى طبعُه فلم يؤذِ يوماً ولم يغصب

* * *

وشيخ على أُخْريات السنين تعلق باللهو حتّى صَبي

تذكره ناسجات النّذير بياضاً على رأسه الأشيب

فيلتمس العذر خلف الخضاب ويأبَى المسيرَ مع المُصْحب

* * *

ويَنْضي سواه ثياب الشّباب وجدَّتها بعدُ لم تذهب

يساهم في هَدَجان الشيوخ بظهر من الثقل محدودب

وتحسبه عند سوق الكلام أرسطو يحاضر في المكتب

يظل يخافت من غيّه وما زال ينزع للمأرب

* * *

فيا ملعباً ضجَّ بالمضحكات وغصَّ من المدمع المكتئبِ

جلوتَ العجائبَ فى ساحةٍ تضلُّ العقول على المذهبِ

ففي الشرق منها العجيب الغريب وفي الغرب منها ذكاء غبي

أحمد محفوظ

الروض المستباح

للآنسة فدوى عبد الفتاح طوقان بنابلس

أين الغناء العذب يا طائري تسبق فيه كلَّ شادٍ طروبْ
وأين أفراح الصبى الزاخر باللَّهو ، أم أين المراح الدؤوبْ
ما لك تلقي نظرةَ الحائر يريدُ يستجلي خفايا الغيوبْ
وما الذى في قلبك الشاعر قل لي، فإن البثَّ يشفي القلوبْ

٭٭٭

أما ترى حولك همس الورقْ يسكبه في أُذن الجدولِ
كأنه نجوى محبٍّ سرقْ هنيهةً من غفلة العذَّلِ
والزَّهَر الرفاف إمَّا عبقْ عبيره يسري مع الشَّمْأَلِ
وهذه الدنيا ، وهذا الألَقْ فمتع النفس ولا تُمهل

٭٭٭

بين الفراشات وزهر الربيعْ هَيْنمةُ الصَّبِّ إذا يعتبُ
ويحَ الفراشات ، هواها خَدُوعْ تلهو بهذا ، وبذا تلعبُ
كمْ توهم الزهر هيام الولوعْ وقلبُها يا طائري قُلّبُ
فيها إلى التبديل طبعٌ نزوعْ والطبعُ غلاَّبٌ فما يُغلبُ

٭٭٭

وهذه الوردة ذات الرُّواء كم تشتهي لحنك في حبِّها
بلبلها اليوم إليها أفاء وأرسل العطر إلى قلبها

وفىٰ لها ، والنفس تلقى الوفاء · أجمل ما تُهداه من صحبها
غنٍّ ، ومتِّعها بهذا الصفاء · أوْ لا ، فلن تنجوَ من عتبها

٭٭٭

واعجبي ! صمتك هذا رهيبْ · يا طائري ، ضُمِّن معنى الحذَرْ
ترمي بلحظ الصقر نحو الدروب · كأنما أُنذرتَ منها بشرّْ
ما تأتلي ترقبُ كالمستريب · أُشعِرَ من حوليه وشْكَ الخطر
أقعىٰ — على أُهْبته للوثوب — · في كبرياء تتحدَّى القدر

٭٭٭

ماذا أرى ؟ هذاك طيرٌ غريبْ · منطلقٌ ، جهْم المحيَّا وَقاحْ
يحوم في الروضة حوْماً مريبْ · غُدُوُّه متَّهمٌ والرَّواح
يُطلُّ من عينيه قلبٌ جديبْ · لكنَّه أرعنُ ، فيه جماحْ
اقتحمَ الباب اقتحام الغصوب · وجاس في الروض طليقَ الجناحْ

٭٭٭

عيناه إذ رأْرأتا جمرتانْ · قد شبَّتا ، ما تطعمان الكرى
عن وكرك المطلول لا تحسرانْ · تطلُّعاً ، يا طائري ، مُنكرا
أشرعَ منقاراً كحدِّ السِّنان · مضاؤهُ ، مُلتوياً أحمرا
ومخلباً يصرع قلبَ الامانْ · يا ضيْعة الوكر وقد أُشهِرا !

٭٭٭

ما شأن ذيَّاك الدَّعيِّ الدخيلْ · في الروض ، والروضُ حماك الحبيب
وكيف يغدو مستباحاً ذليل · أو غرضاً يُرمى بسهم غريب

أغفيتَ عن روضكَ دهراً طويل	يا طائري، مغرىً بحُلْمٍ كذوب
واليومَ تصحو عن خيالٍ جميل	مضى مع السُّحْرة غِبَّ الهبوب

* * *

أنفضْ جناحيْكَ من الرَّقدةِ	يا طائري، أخشى عليك المصيرْ
لا تمكّنِ الطيرْ من الروضةِ	أرى لذاك الطير شأناً خطيرْ
أضَبَّ للوكر على شرَّةِ	فيما أراه، وأذّى مستطيرْ
عليكَ بالحِذْر فكم غفلةٍ	يُؤخذُ منها المرء أخذاً نكير

* * *

ويلك، لا تأمنْ غريبَ الديارْ	فخلفه من مثله معشرُ
يا طائري، إنّ وراء البحارْ	مثل عديد الذّرّ لو تنظرُ
تربَّصوا في لهفةٍ وانتظارْ	ودبّروا للأمر ما دبّروا
تحفزهم تلك الأماني الكبارْ	وأنتَ أنتَ المطمعُ الأكبرُ

فدوى عبد الفتاح طوقان

بيني وبين الدهر

للدكتور عبد الجبار جومرد

بيني وبين الدهر معترك	ولطالما قصرت يدُ الدهر
يزجي كتائبه مدججة	فيردها جيش من الصبر
وأبيت مدرعاً على حذر	ويبيت يرقبني على غدر

قلقاً تعاف النومَ أعينُه فكأنه طاوٍ على وَتْر

***

حتى إذا ملَّ الدّجَى سهراً ومحا النجوم غلائل الفجر
رقصت جوانحه على حنق فمشى عليّ بفتكة بكر
ولربما اشتبكت سواعدنا والتف صدر الخصم بالصَّدر
فيميل مصروعا ويترك بي بعضَ الجروح و بعضها يجري
وينام مِلْءَ جفونهِ تعبًا خزيانَ لا يلْوِي على أمر
فأعبّ لذات الحياة فتًى مرح الشبيبة طافح البشْر
والعيش غضٌّ والكؤوسُ كما يهوى صفاءً ، شارب الخمر

***

يا طيبَ ساعاتٍ لهوتُ بها مرّتْ وعينُ الدهر لا تدري
حتى إذا عبرت أفاق كما أيقظت مخموراً من السكر
فيعيد كرّته غداة غدٍ وأعيدها أخرى على إثر
فتجيء أيام قد امتلأت أحشاؤها بحوادث نكر
هوجاء تقذف بي عواصفها فأظل في كَرٍّ وفي فَرّ
فكأنني طيرٌ أضرَّ به نأيٌ عن الأفراخ والوكر
كم ليلةٍ ملّ الفراشَ بها جنبي وعانق صمتَها سرِّي
وطويتها طيّ الإزار ولم يهدأ بها شجوي ولا فكري
وأحسّ جفني حين أغمضه جرحًا أُحَرّقه على جمر

* * *

ذنبي لدى الأيام أعرفه   نفس لها ثوب من الكِبْرِ

أجد الحياة على مكانتها   لا تستحقّ إهانة الحر

فأصون وجهي أن يفرط بي   وأصون لفظي عن غدٍ يزري

وأرى الرجال ثعالبًا نفرت   مذعورة في مهمهٍ قفر

أمضى الطّوى فيها مخالبه   فأتت تبث حبائل المكر

تجد الطبيعة في غوايتهم   غرضاً يحقّق منهج الشرّ

عبد الجبار جومرد

نشوة الألحان

للأستاذ مختار الوكيل

أنا في نشوةٍ من الأنغامِ   فدعُوني معانقًا أحلامي !

أنَا في صمتيَ الكئيبِ قريرٌ   سابحٌ في عوالمٍ من هيامي

مستعيد في خاطري ما تقضّى   من متاعٍ وشقوةٍ في غرامي

أيُّ لحنٍ منغَّمٍ يتهادى   ويُناجي الفؤاد دون كلامِ !

لستُ أسطيع صوغه في قريضٍ   آدميّ الألفاظ والأنغامِ

لحنه ثائرٌ يُداعب روحي   وَصداه معانقٌ إلهامي !

* * *

يا فتى الشعْر يا رقيق المعاني   يا غريقًا في لجَّة الأيَّامِ

لا تُفِقْ ، لا تفق ، كفاكَ نعيماً رشفةٌ من رحيق هذي المدامِ
واعتزلْ ضجّةَ الحياة ، وغرِّدْ في سكونٍ ، واسبحْ مع الأجرامِ
كَثُرَ اللاّغطون بالقول نظماً واختفَى الملهَمون بين الزحامِ !

٭ ٭ ٭

يا فتى الشعر يا بعيدَ الأماني طِرْ عن الأرض واعتصِمْ بالغمامِ
لا ترُمْ نُصْفَةً من الناس واهدأ إنّ ما ترتجيــه فوق المرامِ
داعِبِ اللحن في ضميرك وابعثْ علويَّ الأنغامِ للأنسامِ
وارتشفْ من رحيق عذب الأغاني وترفّقْ بلحنها المستهامِ ! !
بعضُ هذي الأنغام يسري إلى الرو ح رخاءً ، وبعضها كالضِّرامِ
ولفيفٌ يشع نوراً مع الليْـــل ويأتي مع الضحى بظلامِ ! !
وفريقٌ يروي حديث الليالي في قطوبٍ مُستملحٍ وابتسامِ
آهِ من خمر هذه الأنغام آهِ منها وآهِ من أوهامي
يا فتى الشعرِ لا تُفِقْ ، واتخذها خيرَ عونٍ على أذى الأيامِ

٭ ٭ ٭

يا فتى الشعر ، حسبنا هذه الرحْـــلة ننأى بها عن الآلام . . .
بين زهرٍ من الخيال بهيجٍ وشعاعٍ من السنا المترامي
لا تلمني ـ وأنت أدرى بنفسي ـ إنْ رأيت الأحلام كلَّ حطامي
قد قضيتُ الشبابَ أعبرُ نهر الْـــعمرِ وحدي في زورق الأحلامِ

٭ ٭ ٭

أيها الزّورقُ الذي يعتلي الموْ ج جريئاً لأنت أنت إمامي ! !

أنت علمتني كفاح الليالي   أنت صيّرتني حليف ابتسام !

أنا ـ لولاك ـ ماغفرتُ لدهري   بعض ما نالني من الآثامِ

أنت بُوركت قدأسيت جراحي   وترفقت بالفؤاد الدامي

وكما شئتَ صرتُ لا أحفل المجـ   ـهولَ ، كلاّ ، ولا أهاب حمامي

* * *

أيها الزورقُ الذي ألهم الشعر   م فؤادي وصان لي أنغامي !

اجمع اللحنَ من هزيم الأعاصيـ   ـر وعصْفِ الرياح في الآ كامِ

وغناء العصفور في مطلعِ الفجْـ   ـر ونعْقِ الغربانِ في الآ كامِ

واصطفاق الأمواج عند التلاقي   ونعيب البومات فوق الركام

وثغاء الحملان بين المراعي   وزئير الأسود في الآجام

كلُّ هذا لحنٌ يداعب روحي   ورحيقٌ يزيل عني سقامي

* * *

آهِ من خمر هذه الأنغام !   آهِ منها ! وآه من آلامي

يا فتى الشعر لا تُفِقْ واتخذها   خير عون على أذى الأيام

مختار الوكيل

الوردة البيضاء

للأستاذ رشدي ماهر

أنتِ يا بيضاء يا رمز النقاء — أنتِ والعذراء في العرس سواء

أنتِ كالفجر نقيًّا خالصاً — من شجى اليوم ومن ظل المساء

أنتِ كالأمنيَّة البيضاء في — ظلمة اليأس وفي ليل الشقاء

يا عروسَ الروضِ يا فرحته — أنتِ في ربوته نورُ الرجاء

صانكِ الطهر من الوجد الذي — سال في الروْض دموعاً ودماء

حسدتْكِ الوردةُ الصفراء واحْ — مَرَّتِ الحمراء من فرط الحياء

قد جمعتِ الطهرَ من أطرافه — فتجلّى فيكِ قلباً ورداء

صاغكِ الرحمنُ روحاً صافياً — طاهراً من شهوةٍ أو من رياء

فتمثلتِ لعينَيْ شـــاعرٍ — ذوبَ نفسٍ من نفوس الأَبرياء

رشدى ماهر

المسرح الغنائي الإيطالي ✡

بمناسبة قيام موسمه بدار الأبرا الملكية

للأستاذ عبد الرحمن صدقي

بعد غيبة طويلة ، يحصيها عشاق الفن على الحرب في جملة أوزارها ، تعاود دار الأبرا الملكية سيرتها الأولى ، وتستأنف ما جرت عليه تقاليدها في الأعوام المتعاقبة من تخصيص موسم بين مواسمها للمسرح الغنائي الإيطالي .

ومن المقررات التاريخية أن المسرحية الغنائية « dramma per musica » — التي شاعت تسميتها بالأبرا — من المبتدعات الإيطالية . ويرجع ابتداعها إلى نفر من العلية المثقفين ، في أرقى حواضر أوروبة ثقافة في ذلك الحين ، ونعني بها فلورنسا في إيطاليا الشمالية . ولقد ظلت إيطاليا الشمالية أكثر من مائة عام مركز الثقافة الفنية من عمارة ونحت وتصوير ومن شعر وموسيقى ، في رعاية الأمراء الحاكمين والسادة من أبناء البيوتات العريقة . ومن المعلوم الذي لاحاجة إلى التنبيه إليه أن المسرحية لاتكون أبرا إذا كانت الموسيقى فيها إضافية عرضية ، لأن الموسيقى في الأبرا عنصر أساسي جوهري مكمل لها داخل في صميم كيانها . وأول أبرا من هذا القبيل وعى التاريخ موسيقاها كاملة موفورة أبرا عنوانها « إردتشي :Euridice» للشاعر الإيطالي الموهوب « رينتشيني : Rinuccini » بتكليف من دوق فلورنسا . وكان تمثيلها في السادس من أكتوبر عام ١٦٠٠ في قصر « بتي : Pitti » في أبهة عظيمة احتفالا بزفاف الأميرة ماري دي مديتشي إلى هنري الرابع ملك فرنسا . وقد بلغ من نجاح المسرحية الغنائية أن طلب إعادة تمثيلها .

وكانت قد ظهرت قبل هذه الآونة أبرات للشريف الروماني « إمليو كافليري : Emilio del Cavaliere » الذي استوطن فلورنسا سنوات عدة في عهد فرديناندو دي مديتشى ، وألف موسيقى روايات عدة منها « قصة الروح والجسد » ، فكانت

✡ رجعنا في كتابة هذا المقال إلى « الأبرا » لإدوارد دنت ، و « الأبرا في ماضيها وحاضرها » لأبثورب ، و « ما هي الموسيقى الجيدة » لهندرسن ، وإلى غير ذلك من المراجع الخاصة والعامة .

هذه الأبرا من طلائع فن القصص التمثيلي الديني أو شبه الديني ، وقد أطلق فيما بعدعلى الأبرا الجدية البحتة ذات الأسلوب الخطابي الوعظي اسم « أوراتوريو : Oratorio » نسبة إلى كنيسة بهذا الاسم في روما كان يخطب قساوستها الناس في الشوارع ، وكان صاحبها في غيرته على اجتذاب الناس يتوسل لذلك بعرض تمثيليات دينية تذكرنا باحتفال أصحاب الديانات القديمة بما يسمونه « الأسرار » ، وكان يزيد على الموسيقى والتمثيل ما يوافق الموضوع من المناظر ، ويزيد على أولئك مشاهد من الرقص متوخياً بهذا جميعه الاستعانة بروح العصر على هداية أهل العصر .

أما الرجل الذي أدرك بوحي من حسه ما ستكون عليه الأبرا مستقبلا فهو « كلوديو مونتفردي :Claudio Monteverdi » ، وكان قد دخل في خدمة « فنشنزو جونزاجا : Vincenzo Gonzaga » دوق مانتوا مغنيا وعازفاً ثم مديراً لموسيقى الكنيسة «Maestro di Cappella» ثم مؤلفاً موسيقيا. ويعد مونتفردي من أعظم الرواد الذين أحدثوا انقلاباً في الموسيقى ومهدوا لتطورها . ولقد خرج هذا الفنان المجدد عن الأسلوب المثالي « stile rappresentativo » الذي كان من تقدموه يتحرون التزامه جهد الاستطاعة محاكاة للتمثيلية اليونانية ، وانتقل بالغناء من حركته المتثاقلة المتصلبة ، وبالموسيقى المصاحبة له من نغمتها الوئيدة المديدة إلى الخفة الحيوية والحرارة العاطفية ، ويعرف هذا بالأسلوب الانفعالي« stile concitato ».وكان من ذلك أن أطلق الآلات المصاحبة أن تستقل بحركتها وتردد من الأنغام ما شاءت في حد الميزان العام ، وبذلك وضع أساساً من أهم أسس المسرح الغنائي الحديث . ولقد أفضى ترديد الأنغام بالقدر اللازم من السرعة إلى تهدج الوتر «Tremolo » ثم زاد صاحبنا المتفنن على ذلك أن أدخل نبض الوتر بالإصبع « Pizzicato » في موسيقاه . ويمكن أن يقال من غير أن يكون هناك غلو في المقال أن فن تنسيق الموسيقى لمختلف الآلات معاً يرجع في أصله إليه . ونخلص مما تقدم جميعه أن مونتفردي تقدم بالأبرا خطوة لامراء في أنها جليلة الخطر .

وكان أول ما أخرجه مونتفردي من المسرحيات الغنائية « أورفيو : Orfeo » في ٢٨ من مايو سنة ١٦٠٧ في مجمع محبي الفنون بمانتوا . وفي ٢٨ من مايو سنة ١٦٠٨ أخرج مونتفردي آيته الكبرى وهي « أريانا : Arianna » للشاعر رينوتشيني ، وكان ذلك احتفالا بزواج الابن الأكبر لدوق مانتوا من مرغريتادي سافويا .

وبقيت المسرحيات الغنائية هذه الأعوام وقفاً على تسلية الأمراء وعلية القوم وخاصة المثقفين إلى أن أطل عام ١٦٣٧ إذا بدار للأبرا تنشأ للجمهور عامة للمرة الأولى

في مدينة البندقية ، وقد أطلقوا على الدار اسم الكنيسة المجاورة : « تياترو القديس كاسينو : Teatro di San Cassino » . وكان من جراء هذا الاتصال بالجمهور أن نزلت الأبرا من علياء أساطير الأرباب في الأدب القديم إلى حوادث البشر في التاريخ القديم . بل إنها في حقيقة الواقع نزلت إلى أبعد من ذلك ، فلم تكن الأبرا تاريخية إلا بعناوينها وأسماء أبطالها ؛ أما الحياة الاجتماعية والخلقية المعروضة فيها فلم تكن تعدو تصوير الحياة الاجتماعية الخلقية في البندقية في القرن السابع عشر . وهكذا ذهبت المأساة القديمة وتركت الميدان للمسرحيات الصاخبة المتفززة ذات المفاجآت المؤثرة المشجية، وتدور كلها على الدسائس سواء أكان الشأن فيها للغرام أم للسياسة أم للأذى والانتقام . وكانت البندقية في ذلك الحين جمهورية تحكمها الأسر الغنية ، وكانت تغص بالدهاقين من رجال المال وأهل السعة والرفاهية وأصحاب اللهو والخلاعة . ولا غرو فقد كانت أرض الحرية الفكرية المكفولة ، واللذات الوافرة المبذولة ، على نحو ما صوره لنا الكاتب الإنجليزي « بن جونسون » في رواية «فولبوني» . ومن ثمة لايستغرب قيام بعض ذوي الفطنة من رجال الأعمال بإنشاء دور عامة للأبرا بلغت في نهاية القرن إحدى عشرة ، على حين لا يزيد سكان المدينة على أربعين ومائة ألف نسمة . وفي مسرحيات هذه الدور أدخلت العناصر الفكهة المضحكة . وأكبر الظن أن الخاصة المثقفين لم يكونوا في الصميم من قلوبهم مبغضين لهذه الروايات يتفرجون بها ويستجمون بما فيها من الدعابة واللهو إلى جانب ما يشهدون في الاحتفالات الخاصة من مسرحيات الأدب القديم . على أن ما فقدته المسرحية في دور الأبرا الشعبية من وقار الماضي الداثر قد عوضه أوفى العوض ما دخل عليها من الحياة والقوة بتعبيرها الصادق الصريح عن روح الحاضر .

ولم تقصر هذه الدور الشعبية في الاحتفاظ بما كان للمناظر في الاحتفالات الخاصة من الأبهة والروعة ، بل هي قد زادت فيها وأضافت إليها ، وقد أعان على ذلك ما كان من التقدم في علوم الهندسة وعمل الحيل المتحركة في القرن السابع عشر حتى بلغ التدبير الآلي المسرحي مبلغاً يصعب تصديقه من حيث الابتكار والإتقان .

وكانت العبقرية المسيطرة على هذا العهد من عهود الأبرا في البندقية فتى ممن تخرجوا على مونتفردي، ويعرف هذا الفتى باسم «فرنشسكو كافللي :Francesco Cavalli» . وكان كافللي مشبوب العاطفة ، وعر الجانب ، في طبعه رجولة مستولية عليه مستأثرة به ، يغوص بوحي السليقة إلى صميم الموقف التمثيلي ويخرج من غير كدٍّ للروية وإعمالٍ للفكر بالخلاصة واللباب في بعض مقاطع من الموسيقى الفريدة المنقطعة النظير . وكان مولعاً

بالضربات المتألقة السريعة التي تطرق السمع فتنفذ إلى القلب . وفي موسيقاه فخامة حماسية وحدة مقتضبة من حين إلى حين كنفخات الأبواق ، وخيال متنوع المناظر شديد الوهج . وهو أول من جعل شيئاً من الغناء الشعبي في الأبرا . وقد رحب بمقدم الشخصية المضحكة إلى المسرح الغنائي ، وكان تناوله لها بالموسيقى غاية في البراعة والإحسان . وبالجملة كان ، وهو من أبناء الشعب ، خير من صدع بالتعبير الرائع الجامع عن روح الشعب

وقد مات كافللي عام ١٦٧٦ في البندقية عن تسع وثلاثين مسرحية غنائية . و يعد ظهور مسرحيته المسماة « دوريكليا : Doriclea » على مسرح سان كاسينو عام ١٦٤٥ تأريخاً لظهور العنصر الفكه في الأبرا . وهذه الظاهرة من أهم سمات الحركة المسرحية الغنائية في البندقية ، وبديهي أنها لقيت الحظوة كلها عند جمهور الناس . وعنها شاعت في سائر أنحاء إيطاليا « الأبرا الهزلية : Opera buffa » بنوعيها الفكاهي المضحك والنقدي اللاذع حتى كادت تعفي على الأبرا الجدية البحتة « Opera seria » . ومما تجب ملاحظته أن الأبرا الهزلية كانت في حقيقة الأمر جامعة بين الجد والهزل مع تفاوت في النسب والمقادير . ولم تلبث الأبرا الإيطالية أن اجتازت جبال الألب إلى باريس وفينا وهامبرج وانتشرت حتى غزت معظم القارة الأوربية .

ولقد جاء دور نابولي في الحركة المسرحية الغنائية فصارت المركز الرئيسي للأبرا الإيطالية في أواخر القرن السابع عشر . وما برحت نابولي وروما وميلان من أهم مراكز الأبرا إلى الآن .

على أن هذه النهضة في الأبرا الإيطالية قد تعرضت لنكسة شديدة حين سلك بها بعضهم منطقة الموسيقى التي بدأها باخ وهاندل ، وهي بلا نزاع موسيقى جديدة عالية ولكنها غير صالحة من الناحية المسرحية . ولما كان هذا البعض لم يقف عند اصطناعه للأبرا ضروباً من الموسيقى لم ينظر فيها إلى المقتضيات المسرحية ، بل زاد فأجلى عنها العنصر الفكه الشعبي ، فقد قطع بذلك ما كان بين الجد والهزل من صلة في الأبرا الهزلية ، وعاد بالأبرا إلي صورتها الجدية البحتة مع الانحطاط بها من الناحية التمثيلية المسرحية . ودخلت الأبرا فيما يسمونه « العهد الخطابي : oratorio » ، وأصبحت نوعاً من الخطاب يغنيه المغنون وهم مرتدون ملابس التمثيل في وسط مناظر مسرحية يتفاوت مقدار مناسبتها للموضوع . وقد شاع هذا الأسلوب الخطابي من أواخر القرن السابع عشر إلى أواسط القرن الثامن عشر . ولا مشاحة في أن موسيقى هذا العهد لم يكتب موسيقار قط أجمل ولا أروع منها ، وتعد أبرات هاندل مثلها الأعلى ،

وموسيقاها في الغالب الأعم شجية مؤثرة ولكنها تتعارض والمقتضيات المسرحية الحقيقية ؛ فهي عند النقاد ليست أبرا بأخص معاني الأبرا .

ولم تعتم الأبرا أن انصلحت حالها على يد أعلام من الموسيقيين يرى رواد دار الأوبرا الملكية في القاهرة على مدار سقفها تصاويرهم منقوشة في دارات بيضاوية ومن تحتها أسماؤهم . ونكتفي هنا بالكلام على بعض الذين يقوم على رواياتهم موسم الأبرا الحالي عندنا .

وأولهم في الترتيب الزمني مؤلف «حلاق أشبيلية» وهو «روسيني : Rossini » المولود عام ١٧٩٢ . وتعد مسرحيته الغنائية هذه أبدع ما أبدع المؤلفون في فن الأبرا الفكه وألطفه روحاً وأكثره مراحاً وأرقه صنعة وألمعه تألقاً . ولهذه المسرحية من المزايا ما كفل لها النجاح الأوفى حتى اليوم ، وما هو كفيل لها به إلى ما بعد اليوم . فليس من شك أنها في نوعها من الآثار الخالدة التي لا تبلى على الأيام جدتها ولا تذهب بهجتها وهي مثال على أسلوب روسيني في الزخرفة الصوتية وتشتمل على مايسمونه « Coloratura » تلك الرجفة في ترجيع الصوت وتنويعه التي تتمثل للسامع كأنها انفراط حبات الجمان انحل عقد نظامه ، وتقع في السمع من خفة الحركة وازدواج النبرة كزقزقة الطير وشدو الكناري .

وندع روسيني على سعة مجال القول فيه لنقول كلمة عن معاصره « دونيزتي : Donizetti » مؤلف « لوتشيا دي لامرمور » وهو لم يبلغ في زمانه ما بلغه روسيني من الشهرة إلا أنه مع ذلك ثبت قدمه وحافظ على منزلته وحمى حوزته إلى جانبه . ومن المحقق أنه في المسرحية الغنائية الجدية أدفأ من معاصره الأشهر قلباً وأظهر شعوراً .

وقد شاعت في هذه الحقبة أبرا الشعور الرقيق والنغم الجميل الذي يناغي السمع ويداعبه حتى أصبحت الأبرا معرضاً للذوق اللطيف أكثر منها مجلى لفحولة الحيوية الفنية . وفي وسط هذه المسرحيات التي تذوب من الرقة برز إلى الميدان « جوزبي فردي :Giuseppe Verdi » ولا يعرف فنان ظهر في وقت أدعى إلى ظهوره وأشد مناسبة له من فردي . فقد بدأ أصحاب الأذواق المترفة أنفسهم يملون الشراب المسكر المعطر ويجتوونه وتلقس منه نفوسهم ، وكانوا — من حيث يشعرون أو لا يشعرون — أشد ما يكونون اشتياقاً إلى جرعة تحذو اللسان ويحس لها حريق في الحلق والجوف ، وقد كان فردي أجدر من يعطي هذه الجرعة ، فهو من أبناء الشعب ، ولعل فن الموسيقى لم يعرف أحمى دماً منه ، وقد ارتفع صوته من القرار الشعبي صريحاً عنيفاً خلاباً لم يسمع

نظيره على المسرح الغنائي من قبل . فأقحم على هذا الفن الذي طغت عليه الحذلقة ما يشبه الغناء الشعبي ، وأحال التغريد والمناغاة إلى منطق حار اللهجة جياش الشعور حتى ليخيل لسامعي « ريجوليتو » و « عايدة » وغيرهما من مسرحياته أن الحرارة المندلعة منها يوشك أن يشيط منها خشب المسرح .

وقد اشتهر بعد فردي كثيرون ، منهم من جاءته الشهرة دفعة واحدة في لحظة كمؤلف « الحمية الريفية : Cavalleria Rusticana » ومؤلف « المهرج : Pagliacci » ؛ وكلتا المسرحيتين القصيرتين طبيعية غير متكلفة ، وإن كانتا تنضحان دما ، ولكن المؤلفين لم يوفقا أي توفيق في غيرهما مما يدل على أنهما قد صدرا فيهما عن وحي طارئ لا عن ملكة راسخة . أما صاحب الملكة الراسخة الخصبة فهو « بوتشيني : Puccini » مؤلف « لا بوهيم » و « توسكا » و « مدام بترفلي » التي ما برحت جميعاً من أروج المسرحيات الغنائية وأحبها إلى قلوب الجمهور وأحظاها بالقبول .

ونجتزئ بهذا الذي قدمناه عن نشأة الأبرا وعن أشهر مؤلفيها الموسيقيين عند الطليان ، لنلم كذلك بفن الغناء عندهم بعض الإلمام . فمهما يكن اختلاف المؤرخين فيما كان عليه فن الغناء في مستهل تاريخ أوربة الحديث ، فإن الذي لاخلاف عليه أن الغناء الصرف في أرقى مراتبه من الإتقان والإحكام ، وهو المعروف في اصطلاح القوم بـ « فن الغناء الجميل : Arte del bel canto » كان منشؤه في إيطاليا . ولقد شاع بعد ذلك الأخذ به والممارسة له في حواضر الموسيقى ، ولكنه في حيثما أحسنوه وحذقوه كان إحسانه وحذقه على الأسس والأصول الإيطالية . فلا غرو إذا قيل إن الغناء الإيطالى في أرقى مراتبه هو المثال الأساسي الذي يقاس عليه كل الغناء .

ولقد اجتاز الغناء الإيطالي مرحلتين بلغ فيهما الذروة : الأولى « عهد الأسلوب الخطابي » وكانوا فيه يؤدون الغناء من غير احتفال بالحركة التمثيلية أو التفات إلى المناظر المسرحية ، وهي حال يسهل معها التوفر على تجويد الغناء من حيث التأدية الفنية للجمل الموسيقية ، ومن حيث الصنعة الصوتية بما يدخل فيها من تحقيق النغمة في جرمها وحد طبقتها ، مع التحكم في الأنفاس ، وسلاسة المنطق ، وحسن الترجيع . ولم يكن الأساتذة المغنون يلقون بالاً إلى صدق التعبير ، وذلك أنهم في ذلك العهد لم يكن مطلوباً منهم الترجمة عن عواطف الشخصيات في القصة على نحو يقرب من الحقيقة ، بل كان المطلوب منهم كله هو الأصوات الرخيمة المنغومة ، أو على حد قولهم « الغناء الجميل » . ويستوفي الغناء الجميل عندهم مقوماته إذا استوفى الجمال في لحن الصوت وفي تصاريف

أشكاله الموسيقية ، مع شيء من الحماسة في الإلقاء لمجرد الخروج به عن الركدة والجمود ، دون مراعاة للتمييز بين مختلف العواطف وأنواع الطبائع التي يتناولها موضوع الغناء . ولم يكن المغني ليشغل باله بمقتضيات التمثيل في الحركة والإيحاء ، فكان قصارى ما يشاهد منه حركة أو حركتين من تلك الحركات الخطابية الاصطلاحية يكررها أحياناً .

وخلاصة القول أن المغني التمثيلي في ذلك العهد لم يكن عليه إلا أن يغني ، ولم تكن الصعاب التي تواجهه تخرج عن المجال الموسيقي ، وأخصها الاشتباك بين الغناء والموسيقى المصاحبة له . وترجع هذه المرحلة الأولى إلى القرن الثامن عشر .

أما المرحلة الثانية فتبدأ مع القرن التاسع عشر ، وقد اتفق أن ظهرت فيه المسرحيات الغنائية التي هي ذخر المسارح العالمية وعتادها حتى اليوم . وموسيقى هذا العهد تجمع الخصائص التمثيلية والمنظرية ، وقد أفسحت المجال لإبراز الفوارق العاطفية والمميزات الشخصية ، كما دعت إلى ابتداع المناظر المسرحية . ومن ثمة صار على المغني في المسرحيات الغنائية أن يكون مغنياً وممثلا معاً . ولقد يسر على المغني مهمته الجديدة ما أخذ به مؤلفو هذه المسرحيات الغنائية من تبسيط الموسيقى في عموم مبناها ، ومن مراعاة موافقتها لصوت الإنسان . فبعد أن كان الغناء والموسيقى أجزاء متداخلة لا يشعر المغني معها أن غناءه له وجود قائم بنفسه مستقل برأسه . جاء « روسيني » و « دونيزتي » و « بليني » ، فأطلقوا الجزء الغنائي من عقاله وجعلوا له الأمر كله ، وصارت الأجزاء الموسيقية بمثابة الحاشية المصاحبة ، وصار الغرض الأساسي منها أن تسنده وتشد أزره ، وظهر على رأس العازفين من يتولى قيادتهم لمتابعة المغني حتى لا يكون منهم عليه حرج . وهذا التيسير الموسيقي يعدل ما أصبح المغني مطالباً بمعاناته — مع إتقان الغناء — من تحري التعبير العاطفي وقوة النبرة التمثيلية وتوخي الحركة المسرحية . على أن الصعوبات الموسيقية لم تلبث أن أخذت في الزيادة من حيث التركب في البناء الموسيقي ، وتعقيد حركات الإيقاع ، والمغامرة في إرسال اللحون وتراجيع الصوت . وقد أصبح لزاماً على المغني أن يواجهها جميعاً ، وأن يجاهد وسط غمار من أصوات الآلات العازفة التي تتطلب منه أحياناً ما لا مزيد عليه من إجهاد الصوت ليعلو على عجيجها ويبلغ غناؤه إلى الأسماع مبينا رائعاً . وهـذه الأعباء المضاعفة التي يضطلع بها من موسيقية غنائية ومن تمثيلية مسرحية تجعل عمله ولا ريب من الأعمال التي تضني الفكر والجسد والعصب على نحو لا يكاد يتمثل على حقيقته للسامعين ، وذلك أن مغني الأبرا يخيل إليهم — لطول مرانه ، واقتداره على فنه وإحكامه — أنه يرتجل غناءه ارتجالا .

وبعد ، فهذه هي الموسيقى ، وهذا هو الغناء اللذان تتردد أصواتهما العلوية بدار الأبرا الملكية في هذا الموسم من مواسمها الغراء ، فتتجاوب بها المقاصير والقاعة الكبرى والأبهاء وسائر الأرجاء ، حتى لتبعث من ليالي إسمعيل العظم في داره التاريخية غابر الأصداء ، وترن هذه الأصداء جميعاً في كل قلب فتهز منه الأعماق ، وتبعث فيه دواعي الذكرى وتهيج منه نوازي الأشواق ، فإذا القلوب قد استولى عليها سرور كالشجو وشجو كالسرور ، وإذا كل قلب شعلة حرّى يشع منها النور . ولا جرم ، فهذه أخص خصائص الفن الإيطالي ذي الدم الحار الدفاق والقلب الجائش المضطرم الخفاق .

إلى زوجتي

لقد جاء قومُكِ أهل الفنونْ جِهارُ العقائر هُوجُ الشجونْ
بأرضِ الفراعين أفواجُهُمْ تهزّ القلوبَ بشتّى اللحون
بنو رُومةٍ ما شَدَتْ أُمّةٌ كشَدْوِهِم في عرامٍ ولين
ولا ارتفعت مثلُ أصواتهم تقُصّ المآسي على العالمين
لكَمْ قد صَغَيْتُ لألحانهم سنينَ توالت عليها سنون
أُصيخ إلى اللحن صاحي الحِجَا طَروبَ الفؤاد قريرَ العيون
أُتابع منها أفانينَها وأظفَر منها بذُخرٍ ثمين
أُقضّي بقيّةَ عامي بها مِن الهمّ في ظلِّ حصنٍ حصين
لقد حَطّتِ الحربُ أوزارَها وعاد بنو رومةٍ للفنون
أولئك هُمْ قَدِموا أرضَنا وكلهُمُ جِلّةٌ مُحسنون
فمالي وقد عادني شَدْوُهم أُصيخُ فيَمْلكني كالجنون
وتطرق ألحانهم مَسْمعي فأشْرَق منها بدمعٍ هَتون
أولئك قومُكِ في أرضِنا وقد طال للشّدْوِ منكِ الحنين
توَافوْا وأنتِ دفينُ الثّرى فيا ليْتَهم يُسمعون الدّفين

عبد الرحمن صدقي

دنيا القصص

أيام من العُمر

للأستاذ نجاتي صدقي

جلس السيد ماجد كاتب العرائض خلف صندوقه وهو يتطلع يمنة ويسرة مفتشاً عن شخص يكتب له عريضة ضد مستأجر لم يدفع أجرة مسكنه ، أو ضد شخص تأخر عن دفع قيمة سند مستحق ، أو ضد امرأة تشاجرت مع جارتها وتهجمت عليها بأقبح الألفاظ ، أو ضد مزارع حرم مزارعاً آخر الاستفادة من بئر عام ، فنشب بينهما خلاف كاد يؤدي إلى فتنة في القرية .

وبينما هو كذلك إذ بسيدة أجنبية تقف أمام لوحة علقها إلى جانبه وقد كتب عليها : « نكتب ونترجم باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والتركية والعبرية والألمانية إلخ . . وأسعارنا متهاودة » .

فرفع السيد ماجد ناظريه إلى السيدة وابتسم لها مشجعاً ، ثم نهض من على كرسيه وسألها بالإنكليزية قائلا : هل بوسعي أن أقدم لك خدمة ياسيدتي ؟ أأحرر لك دعوى ؟ أم أترجم لك لائحة قضائية ؟ مري تجدي خدمة سريعة فعالة .

قالت وعيناها مغرورقتان بالدموع : أريد أن تحرر لي عريضة لحاكم الصلح تلتمس منه أن يوقف تنفيذ أمر الحبس الصادر ضدي في قضية مالية . . لكنني — واحمر وجهها خجلا ، وانحدرت دمعة أشبه بحبة اللؤلؤ على خدها المرمري — لكنني لا أملك أجر هذه العريضة ، فهل لك أن تمهلني في الدفع ؟ . .

ارتبك السيد ماجد إزاء هذه المفاجأة ، وأعرب لها عن موافقته ، وكتب لها العريضة ودفع الرسوم القانونية ، فشكرته على حسن صنيعه بعبارات مؤثرة رقيقة .

وزارته بعدئذ أكثر من مرة في مكتبه وبيته ، وزارها هو في بيتها ، إلى أن أصبحا صديقين حميمين .

وقال لها يوماً : ألم يحن الوقت بعد ياريتا «Rita» أن يفضي كل منا إلى صديقه بدخيلة نفسه ؟ . . أما أنا فسأ كشف لك الستار عن حياتي الخاصة . . فهلا تعديني أيضاً بكشف الستار عن حياتك الخاصة ؟

فلوت السيدة ريتا عنقها نحو كتفها الأيسر خجلة ، وقالت : أنت طيب السريرة يا ماجد . . لقد قدمت لي مساعدة قيمة لن أنساها مدى حياتي وإني لأشعر في قرارة نفسي بأن الأقدار تخبىء لنا حدثاً هاما . . أجل ، حدثني عن خصوصياتك وسأحدثك أنا أيضاً عن خصوصياتي . .

وهنا تشجع السيد ماجد وراح يقص عليها نبذة من حياته ، فقال : أنا كبير إخوتي ، إلا أنني لا زلت أعزب في حين أنهم كلهم تزوجوا وخلفوا أولاداً . . والسبب في ذلك أنني لم أوفق حتى الآن بالتعرف إلى فتاة عذراء ، أو امرأة مطلقة ، يميل لها قلبي ، وتحن إليها مشاعري .

والواقع أنني لا أبحث في المرأة عن جمال وجهها ، وإنما عن جمال خلقها . . فقلب المرأة ياسيدتي هو كل شيء في حياتي . . إلا أنني لم أعثر بعد على هذا القلب . . وأصارحك !القول إنني أخشى الزواج بفتاة صغيرة جميلة ، فهي تتطلب مني أن أفكر فيها دائما ، وأن أراقبها مراقبة شديدة ، وأن أقتفي أثرها من مكان إلى آخر . . والداعي إلى هذه الخشية هو أنني هرمت قليلا ، كما ترين ، والفتاة في سن العشرين مثلا تستقبل الحياة ، وأنا الآن في طور بدأت فيه أودع الحياة . . فلا هي تستطيع اصطناع الهرم ولا أنا أستطيع اصطناع الشباب . . وعلى ذلك ترينني أفضل الزواج بامرأة مطلقة ، أو مهجورة ، أو توفى الله زوجها . . فهي تكون لي بمثابة صديق ومعين . . والأهم من هذا وذاك أنني أتركها في البيت وأنا مطمئن القلب ، هادىء البال . . لكن أين هي هذه المرأة ؟ . . إنني لم أعثر عليها بعد . . حقا تعرفت مرة إلى امرأة ومال لها قلبي ، لـكنها استهلت حديثها في موضوع الصداق . . . تصوري أنني أجني من عملي يوميا نصف جنيه على وجه التقريب ، فهل يكفي هذا الدخل لجمع ثمن عروس ؟ . . ولا أذيع سرا إن قلت لك إنني ادخرت مبلغ سبعين جنيهاً لأستعين به في الساعات العصيبة ، وهو مبلغ لا ترضى به أية امرأة بمثابة صداق لها . .

أريد زوجة طيبة القلب ، وأتمناها أن لا تكون جميلة ولا مادية . . فما أربحه في عملي أنفق بعضه على معيشتنا نحن الاثنين ، وما يتبقى ادخره لمستقبل أطفالنا .

وصفوة القول أن حياتي الآن موزعة بين البيت والمـكتب ، كما أنني لا أدخن ،

ولا أشرب الخمرة ، وأركن إلى غرفتي بعد مغيب الشمس مباشرة .

هذا هو موجز حياتي عرضته على مسمعيك ، ورائدي الصراحة التامة . . وإنني لمصغ لك الآن ، هات ما عندك .

فتنهدت ريتا ، وشبكت أصابعها الطوال بعضها في بعض ، وتطلعت بعينيها العسليتين إلى أسفل ، فانسبل شعرها الخرنوبي على خديها الناصعي البياض المشوبين بمسحة من الحمرة الطبيعية ، وراحت تروي لصديقها الجديد ما أحب أن يعرفه عنها .

قالت : أما أنا فقد قادتني الأقدار من ألمانيا إلى هذه الديار . . وتزوجت مهاجراً من ألمانيا أيضاً ، وخلفت منه ابنتنا « برتا » وهي الآن في العاشرة من عمرها . . لكن يالشقائي بهذا الزواج . . فهو بطيء الحركة ، بليد الذهن ، يدب على الارض بخطوات متأرجحة كما لو أنه يستنجد بمن يسنده . . ولم يكن ليتقن مهنة واحدة ؟ فاشتغل في تكسير الحجارة عندما جاء إلى فلسطين ، ثم كان مزارعاً في إحدى المستعمرات اليهودية ، ثم غدا أمين مكتبة ، ثم تعطل عن العمل ، ولما أعلنت الحرب تجند ، وسافر إلى ليبيا . . وأنا وابنتي نعيش الآن من مخصصات الجيش ، وقدرها ستة جنيهات فلسطينية ، فمن هذا المبلغ الضئيل أدفع أجرة البيت ، وأسدد أقساط المدرسة ، وابتاع قوتنا وملابسنا . . إننا نعيش بالكفاف والقلة . . واضطررت يوما إلى اقتراض مبلغ من المال وعجزت عن إيفائه ، فقاضاني صاحب الدين في المحاكم ، وحكم علي بدفع ماله على أقساط ، فقصرت عن الدفع مرة أخرى ، فاستصدر أمراً بحبسي ، وكانت معونتك وقتئذ . وصمتت قليلا ، وتنهدت تنهداً عميقاً ، ثم تابعت كلامها قائلة : فالفارق بيني وبينك ياصديقي أنك لم تتزوج بعد ، لأنك لم تجد الزوجة التي تريدها ، وأنا تزوجت لكنني لم أوفق للزوج الذي أريده . . فكلانا تعس ، وعند هذه النقطة التقينا .

قال ماجد : أو لا تظنين أن بوسعنا استبدال هذه التعاسة بالسعادة ؟

قالت : ولم لا . . . إنني أعتقد جازمة أن التعاسة والسعادة هما من عمل الإنسان ، فمن أراد أن يكون تعساً فله ذلك ، ومن أراد أن يكون سعيداً فالمجال أمامه واسع ، وما عليه إلا أن يسعى وراء السعادة التي يحس بها ، ويرضى عنها ، فتأتيه مسرعة .

قال : نحن متفاهمان . . وهذه هي وجهة نظري أيضاً في التعاسة والشقاء . .

وتم الاتفاق فيما بينهما على السكنى معاً .

وهكذا اعتزم ماجد على أن يترك غرفته التي قضى فيها أكثر من عشر سنين بمفرده ، ينام فيها ويطبخ ، ويستحم ويغسل ملابسه بيده ، ويستقبل فيها ضيوفه .

ويستأجر بيتاً في حي حديث من أحياء القدس الواقعة خارج السور ، يتألف من غرفتين وقاعة استقبال ، وحمام عصري ، ومطبخ كهربيّ ، وغير ذلك من المنافع الضرورية للحياة الراقية .

وفي يوم الانتقال ذهبت « ريتا » إلى غرفة ماجد لتساعده في إعداد حوائجه ، وكانت تقلب هذه الحوائج قطعة فقطعة ، فما راق لها وضعته في صندوق خاص ، وما لم يرق لها قالت عنه بالألمانية « Das is sehr shmutsig » أي هذا قذر جدًا ورمته جانباً .

وبدأ ماجد حياته الجديدة إلى جانب السيدة « ريتا » ، وكان سعيداً في هذه الحياة الأوربية بالرغم من تكاليفها الباهظة . . يستيقظ في الساعة السابعة صباحاً . . فيغتسل ، ويتناول فطوره المؤلف من الحليب ، والزبدة ، والبيض ، والمربى أو العسل . . ثم يذهب إلى عمله بعد أن يقبل « ريتا » . . ثم يعود إلى الغداء . . فيجد صديقته قد أعدت له ألواناً من المأكولات الشهية . . وعند العصر يخرجان إلى النزهة معاً . . ثم يتناولان العشاء . . ثم يذهبان إلى دار السينما أو إلى المسرح أو إلى قاعة الموسيقى للاستماع إلي الجوقة الفلسطينية . . ثم يكملان السهرة في لعب الشطرنج ، أو في تدريسه إياها العربية ، وتدريسها إياه الألمانية . وما إن ينتصف الليل حتى يسود البيت جو من المجون العنيف ، فتسرع « ريتا » وتطفئ المصابيح ، وتضيء مصباحاً أحمر وهاجاً موضوعاً في إحدى زوايا غرفة النوم..ثم تندفع إلى مائدة الشهوة البهيمية كما لو أن فيها مسا وتسكر ماجد بألوان من العبث الصارخ ، وتقول له بين حين وآخر مداعبة « ... Majed, du bist ain klainer - aisel » أي : يا ماجد ، إنك لحماري الصغير ! . . فيطرب ماجد لهذا الإطراء ، ويسمعها هو أيضاً عبارات تنطوي على شيء كثير من التودد .

وحينما ينهض ماجد في الصباح تفاجئه « ريتا » بطلباتها الملحة كقولها له : هات قسط إيجار البيت ، وهات قسط المدرسة لا بنتي ، وأريد اليوم ثوباً ، وأريد اليوم حذاء لا بنتي ، وهات مبلغاً من المال لأشتري به مؤونة الشهر ، وينقصنا كذا وكذا . . إلى ما هنا لك من طلبات لا نهاية لها .. وكان ماجد لا يتوانى في دفع ما تطلبه منه ريتا، إلا أنه أحس بعد مضي ثلاثة أشهر أنه واقع في ضيق مالي شديد.فقد أنفق مبلغ السبعين جنيهاً التي كان يدخرها ، ثم أخذ يقترض فترا كمت عليه الديون .. ومع ذلك كان يواصل هذا النمط اللذيذ من العيش إلى جانب « ريتا » ، ويقول معزياً نفسه : « تحمل يا ولد . . إن هي إلا أيام معدودات من العمر » . .

وحدث أن أقامت « ريتا » حفلة في البيت بمناسبة حلول رأس السنة الجديدة دعت إليها عدداً من الرجال والنساء الأجانب ، وكلفت ماجد أن « يبيض » وجهها حيال ضيوفها ، وقدمت له قائمة طويلة بما تحتاج إليه من مأكول ومشروب .

فاقترض ماجد وجلب لها كل ما أرادته . .

ويا لها من ليلة . . أكل فيها القوم ، وشربوا الخمرة ، ورقصوا ، ولما أزفت الساعة الثانية عشرة ليلاً أطفئت الأنوار وتعالت أصوات القبل ممتزجة بدمدمة « عام جديد سعيد » !.. وفي ساعة متأخرة من الليل ، أخذ الملل يتسرب إلى نفوس ضيوف « ريتا » ، فكانوا يتثاءبون ويترنحون ثملين ، ويرسلون النكات السمجة تباعاً ، ثم نشب شجار بين فريق منهم لأن أحدهم صب قليلاً من الخمرة على ذراع سيدة فصفعته ، فثارت ثائرته . . وهنا رأت « ريتا » أن الواجب يحتم عليها أن ترفه عن ضيوفها وتشجعهم على المضي في الحفلة حتى الصباح ، فدعت ماجد وقالت له : يجب علينا أن نرفه عن ضيوفنا .. وإني لأقترح عليك أن تفاجئهم بلعبة طريفة ، وهي أن تغطي جسمك ورأسك بجلد الخروف الكبير الموضوع في غرفة النوم ، ثم تدخل القاعة وأنت تحبو على أربع وتقلد الخراف بالمأمأة . .

فقال لها ماجد : ولكن هذه مهزلة ! . . قالت : إن حفلات رأس السنة هي سلسلة مهازل . . هيا افعل ما قلته لك ثم اضحك مع الضاحكين . .

ودخل ماجد على القوم وهو يحبو على يديه ورجليه ، وقد غطى جسمه ورأسه بجلد الخروف الكبير ، وهو يقول : ماء . . ماء . ماء . .

وسرعان ما أدرك الضيوف أن في الأمر لعبة يقصد بها تسليتهم ، فانبرى أربعة منهم وهم سيدان وسيدتان ، وأطبقوا على ماجد ، وطرحوه أرضاً ، وانطرحوا فوقه وهم يضحكون ويعربدون .

وكان لهذا الحادث أثره في نفس ماجد إذ مسّ عزته وكرامته ، إلا أنه تحمل تلك الإهانة في سبيل امرأة تراءى له أن جمالها في قلبها لا في وجهها . .

وفي ليلة من ليالي « الضوء الأحمر » قالت ريتا لماجد : لدي خبر أظنه لا يسرك . . قال : وما هو ؟ . . قالت : جاءتني برقية من زوجي تفيد أنه عائد من الجهة قريباً . . قال : وما العمل ؟ . . قالت : نبقى على ما نحن عليه . . فأقول لزوجي إنك استأجرت عندي غرفة مفروشة . . ويظل هو زوجي ، وتظل أنت صديقي . . ونأكل على مائدة واحدة ، ونسهر معاً ، ونتنزه ثلاثتنا ، وهكذا نواصل حياتنا وحبنا

دون أن يطرأ عليهما أي تغيير أو تعديل . . قال : إنها لفكرة رائعة حقاً . .

وجاء السيد « وولف » زوج « ريتا » ، وتعرف إلى ماجد وسأله عما إذا كان مرتاحاً بالسكنى في بيته . . فأجابه ماجد بأنه جد سعيد ، وأن زوجته تعنى به كعنايتها بابنتها . .

وفي أحد الأيام ، وبينما كانوا يجلسون حول مائدة الطعام ، قدمت « ريتا » لزوجها وجبة كبيرة من الأكل ، وكان نصيب ماجد أصغر منها ، فأكلته نار الغيرة ، ولم يطق صبراً على هذه المعاملة الشاذة ، وخاطب السيد « وولف » قائلاً : لقد عدت من الجبهة وأنت لا تملك قرشاً واحداً ، وأنت الآن عاطل عن العمل ، ومن الذي يطعمك ويطعم زوجتك وابنتك سواي ؟ . . فهل أنا ملزم بك أيضاً ؟ . . أما آن لك أن تسهم في مصروف البيت ؟ . .

اضطرب السيد « وولف » ، ووقفت اللقمة في حلقه ، وجحظت عيناه ، واحمرت وجنتاه ، ورقص شارباه ، فنهض متباطئاً وهجم على ماجد وأوسعه لكماً ورفساً ، ثم تمالك ماجد نفسه ورد للسيد « وولف » الكيل كيلين ، ولما رأت « ريتا » أن زوجها سيغلب في المعركة أنجدته بضرب ماجد بعصا المكنسة على يده اليمنى ، فصرخ من شدة الألم واستغاث ، ثم فر من البيت ، والسيد « وولف » وزوجته في إثره ، إلى أن أصبح في الشارع .

وبعد نصف ساعة عاد ماجد إلى البيت برفقة شرطي ، فحرر هذا في الحادث محضراً قال ماجد فيه إن السيد « وولف » وزوجته سرقاه وضرباه . . وقال السيد « وولف » إن ماجد حاول الاعتداء على شرف زوجته فأدبه ! . .

وخرج ماجد برفقة الشرطي أيضاً ، وكان يشعر في تلك الساعة أنه أشقى إنسان على وجه الأرض . . وإذ بلغ الشارع سمع صوتاً يناديه ، فالتفت إلى مصدر الصوت ، فشاهد السيد « وولف » يقف على شرفة المنزل ، وسمعه يقول له بالألمانية بصوت عال : Majed, du bist ain Grosser aisel!... ، أي : يا ماجد إنك لحمار كبير ! . .

نجاتي صدقي

في كفة الميزان

نشر في هذا الباب نقد النقاد على علاته نزولاً عند حرية الرأي تاركين لأقلام غيرهم من الكتاب مناقشة ما قد يدعو إلى المناقشة .

النقد

عصر السريان الذهبي

تأليف الفيكنت الأستاذ فيليب دي طرازي

١١٩ صفحة من القطع الكبير . مطبعة جدعون . بيروت ١٩٤٦

نقد الأستاذ محمد عبد الغني حسن

الفيكنت فيليب دي طرازي معروف في عالم التأليف العربي بكتابه الجليل « تاريخ الصحافة العربية » الذي يعد أول مرجع وأوفاه في هذا الموضوع ؛ وهو يقع في أربعة أجزاء ضخام ، توفر المؤلف على تأليفها منذ عام ١٩١٣ ، فجاءت في نهاية الأمر سفراً جامعاً لطائفة كثيرة من المعارف لا يستغني عنها المؤرخ والأديب والصحافي .

ولقد بلغ كتابه هذا مكان العمدة في التاريخ الأدبي للصحافة العربية ، حتى إن كل كتاب آخر في هذا الموضوع يعد راجعاً إليه أو مستفيداً منه .

ويمتاز هذا العالم الجليل بمزية الصبر على البحث والمثابرة على التحقيق ، حتى ليستطيع القارىء المنقب أن يطمئن إلى أخباره ورواياته التي تعتمد على الثقة ، وتستند إلى التثبت وترجع إلى المصادر الوثيقة التي يعنّي المؤلف نفسه بمتابعتها ومراجعتها .

والمؤلف من أمة السريان التي تنطق اللغة السريانية ، ولكن كان لها في اللغة العربية مشاركة عريقة من أقدم العصور ، وهي مشاركة عادت على اللسان العربي بأطيب النتائج وأجزل الفوائد . فقد نقلوا إلى العربية كثيراً من ألوان المعارف اليونانية ، وكانت حركة نقل التراث اليوناني مزدهرة على أيديهم في العصر العباسي .

والحق إن نشاط الأمة السريانية — وهي شقيقة العربية — لما يثير الإعجاب بهؤلاء القوم ، فقد كانوا على نهضة علمية واسعة قبل الإسلام في مدارسهم التي اشتهرت بها نصيبين والرها وأنطاكية وقنسرين ورأس العين وعشرات غيرها مما لا يدعو المقام إلى حصره .

ولقد بلغ من نشاطهم في ظل الدولة الإسلامية القائمة في العصر العباسي أنهم تعلموا العربية بجانب السريانية ، التي هي لغتهم الأصلية ، وبجانب اليونانية التي كانت لغة العلم ، وأتقنوا هذه اللغات إتقاناً جعل الخلفاء يتجهون إليهم لتصدر حركة الترجمة التي رأى العرب الناهضون تشجيعها نشراً للعلم وإذاعة للمعرفة التي كانت طبيعة الحضارة الإسلامية في ذلك الزمان .

وقد اجتذبت بغداد هؤلاء السريان ، وخاصة أهل الطب والحكمة منهم ، أو اندفعوا هم إلى هذه العاصمة المزدهرة تقرباً إلى الخلفاء الذين أغدقوا عليهم حتى ازدحمت بهم بغداد ، وأقبل الناس عليهم يلتمسون الطب عندهم ، فكسدت سوق الأطباء من العرب ، حتى كان ذلك موضع نقد لاذع من الجاحظ الذي قال في كتابه البخلاء عن أسد ابن جاني الطبيب البغدادي : « وكان أسد بن جاني طبيباً أكسد مرة ، فقال له قائل : السنة وبيئة ، والأمراض فاشية ، وأنت عالم ولك صبر وخدمة ولك بيان ومعرفة . فمن أين تؤتى في هذا الكساد ؟ قال : أما واحدة فإني عندهم مسلم . وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبب ، لا بل قبل أن أخلق ، أن المسلمين لا يفلحون في الطب ! . واسمي أسد ، وكان ينبغي أن يكون اسمي صليباً ومرايل ويوحنا وبيرا . وكنيتي أبو الحارث ، وكان ينبغي أن تكون أبو عيسى وأبو زكريا وأبو إبرهيم . وعلي رداء قطن أبيض ، وكان ينبعي أن يكون رداء حرير أسود ، ولفظي لفظ عربي ، وكان ينبغي أن تكون لغتي لغة أهل جنديسابور » .(١)

وقد اشتهر من علماء السريان يوحنا بن ماسويه الذي كان مجلسه في الطب أعمر مجالس بغداد(٢) ، وحنين بن إسحق شيخ المترجمين الذي حدثوا أن الخليفة المأمون كان يعطيه وزن ما ينقله ذهباً ، وكان لذلك يثقل حجم الكتاب المترجم ويكثر وزنه حتى يكثر بذلك عطاؤه ! ! . ومنهم يحيى بن عدي الفيلسوف وشيخ المناطقة في عصره (٣) وجورجيس بن بختيشوع طبيب المنصور الذي استقدمه إلى بغداد من بيمارستان جنديسابور واستشاره(٤) .

---

(١) البخلاء للجاحظ [جزء٢ ص ٤] طبعة وزارة المعارف ، القاهرة سنة ١٩٤٠ .
(٢) تاريخ التمدن الإسلامي للمرحوم جورجي زيدان [ج ٣ ص ١٤٤] .
(٣) الأعلام للزركلي [ج ٣ ص ١١٥١] .
(٤) من مبحث للدكتور ماكس مايرهوف . نشر في محاضر جلسات الأكاديمية البروسية للعلوم . وترجم في كتاب « التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية » لعبد الرحمن بدوى [ص ٥٦]

وهذا الطبيب السرياني الأخير لم يشر إليه المؤلف في الفصل الموجز الذي تحدث فيه عن السريان والخلفاء المسلمين، مع أن الأستاذ المؤرخ جورجي زيدان ذكره حين الكلام على نقلة العلم في العصر العباسي وأشار إلى صلته بالخليفة المنصور .

على أن المؤلف الفاضل عد يعقوب الكندي فيلسوف العرب من علماء السريان الذين لا يصح إغفال ذكرهم . وقد وقفنا عند هذا الكلام وقفة العجب . فالذي نعرفه أن الكندي هذا هو يعقوب بن إسحق بن الصباح بن عمران بن إسماعيل بن محمد ابن الأشعث بن قيس . وهو نسب يضرب في الإسلام بجذر عميق . وأول من أسلم من آبائه الأشعث بن قيس ، كما ذكر ذلك ابن الأثير الجزري (١) . وقد نبه إلى إسلام الكندي فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق في كتابه : « فيلسوف العرب والمعلم الثاني » الذي نشرته الجمعية الفلسفية المصرية (٢) . وقد حرص فضيلة الشيخ الأكبر على أن يؤكد هذا المعنى غير مرة في كتابه . فهو طوراً يقول عنه : « والكندي هو بلا ريب أول مسلم عربي اشتغل بالفلسفة » ، وطوراً يذكر سلسلة نسبه في الإسلام ، وطوراً ثالثاً يحقق الكلام في عقيدته فيرد ما نسب من نصرانيته إلى ما كان يدسه على الكندي خصومه تشويهاً لذكره وتشنيعاً عليه » (٣) .

ولعل للسيد الفيكنت دي طرازي عذراً حين يرجع في تاريخ العصر الذهبي للسريان إلى ما كتبه السريان أنفسهم وخاصة رجال الدين منهم ، ولكن المؤرخ يعدل كثيراً إذا ما رجع إلى المصادر المتباينة ! فهنا قد يبين وجه الحق في كثير من المسائل . ولكن هناك من الأمور ما يغفله بعض المؤرخين ويذكره فريق منهم ، كحكاية كنوز (أبونيس) السرياني التي قيل إنها ظلت مطمورة في داره مدة قرنين من الزمان ، إلى أن وصل علمها إلى الخليفة هرون الرشيد فعمل على ضمها إلى خزانة ملكه . وقد رجع المؤلف في هذه الحكاية إلى ما ذكره الرهاوي وميخائيل الكبير وابن العبري في تواريخهم ؛ على أن مؤرخي المسلمين لم يشيروا إليها فيما نعلم .

ولقد عقد المؤلف فصلا عن آثار السريان فيما بقي من أديرتهم وكنائسهم ، وهو فصل يهم عشاق الآثار والمنقبين عنها ؛ فمثل هذه الدراسة ذات أثر للمشتغلين بالعمران وتخطيط البلدان وتاريخ الأديان . كما أنها تهم المتصلين بدراسة العمارة والطرز مهما

---

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة [ج ١ ص ٩٨] .
(٢) طبع دار إحياء الكتب العربية . القاهرة سنة ١٩٤٥
(٣) المصدر السابق [ص ٥٠]

كانت ألوانها . إلا أن كلام المؤلف عن بعض الأديرة بلغ من الإيجاز حدًّا لا تشفى معه غلة الباحث مهما كانت ديانته . ولا شك أن الحديث عن دير السريان في وادي النطرون بمصر كان يحتاج إلى شيء من التفصيل والتوضيح . فقد ذكر المؤلف أن رهبان القبط في وادي النطرون : « ما برحوا يتلون تحت الشجرة الأفرامية صلواتهم الفرضية عند غروب الشمس » . والواقع أنهم لا يكتفون فقط بالصلاة تحت هذه الشجرة العجيبة بل كانوا يزورون دير السريان ويصلون فيه . فقد ذكر المغفور له الأمير عمر طوسون أن الأنبا بنيامين — وهو الثاني والثمانون من بطاركة القبط — قد ذهب من المعلقة بمصر القديمة إلى وادي النطرون وركب في يوم الجمعة باكراً وتوجه إلى دير السريان[1]. وأن الأنبا غبريال — وهو السادس والثمانون من بطاركتهم — دخل كنيسة السريان وصلى السادسة[2] . وهذا الخبر الثاني نقله الأمير عن كتاب «تحفة السائلين في أديرة رهبان المصريين » . وكذلك الخبر الأول . والكتاب مخطوط في المتحف القبطي بمصر القديمة لمؤلفه القمص عبد المسيح صليب المسعودي البراموسي.

ولم يذكر لنا المؤلف شيئاً عن صيرورة هذا الدير إلى السريان ؛ فهل صحيح ما ذكره المقريزي من أنه : « دير بإزاء دير بوبشاي وكان بيد اليعاقبة ثم ملكته رهبان السريان من نحو ثلثمائة سنة وهو بيدهم الآن[3] — أي في زمان المقريزي » . وقد جزم الأمير عمر أنه دير السريان[4] .

وقد نقل المؤلف حكاية الشجرة العجيبة بدير السريان في وادي النطرون بمصر عن : « رحلة إلى صعيد مصر سنة ١٨٨٢ » للأب ميخائيل جوليان اليسوعي . ولكن رحالة فرنسيًّا قد زار هذه الشجرة قبل الأب ميخائيل وتحدث عنها حديث العيان ، وروى ما قيل في أصل نبتها من عصاً غرسها القديس « أفرام » في الرمال . وهذا الرحالة الفرنسي هو الجنرال «Andréossy» أحد قواد نابليون الذين صحبوه في حملته على مصر سنة ١٧٩٩ م .

ولكن كتاب « عصر السريان الذهبي » على الرغم من ذلك يعد مرجعاً لتاريخ

---

(١) وادي النطرون ورهبانه وأديرته ومختصر تاريخ البطاركة . تأليف الأمير عمر طوسون . مصر سنة ١٩٣٥ [ص ٦٤] .
(٢) المصدر السابق [ص ٦٧] .
(٣) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي . طبعة النيل [ج ٤ ص ٤٢٠]
(٤) وادي النطرون [صفحة ٧٠ ، ٧١] .

هذه الطائفة الشقيقة التي امتازت بالعلم والذكاء والنشاط ، وأسدت إلى الحضارة عامة وإلى الحضارة العربية الإسلامية خاصة أيادي لا ينكرها إلا الجاحدون .

محمد عبد الغني حسن

التعريف

أوديب وثيسيوس

تأليف أندريه جيد . وترجمة الدكتور طه حسين بك

٣١٠ صفحة من القطع المتوسط . دار الكاتب المصري . القاهرة ١٩٤٦

كان سوفوكليس من شعراء المسرح اليوناني ، جاء بعد إسكيلوس الذي خطا بالشعر المسرحي خطوات فساحاً . وقد تعاصر الشاعران زمناً ، وأكثرا من عمل المسرحيات إكثاراً لم يبق الزمان على أغلبه ، فبقي لكل منهما بضع مسرحيات كانت مدداً لشعراء الرومان وشعراء أوربا وكتابها منذ عصر النهضة الحديثة فيها .

ولقد عرف سوفوكليس بمسرحيته «أوديب» التي تمثل مأساة من أروع ما يلقاه البشر أمام سلطان القضاء وصولته ؛ وهو سلطان حاول الشاعر اليوناني أن ينهض أمامه حرية الإنسان ؛ وأن يجعل لهذه الحرية وجـوداً أمام سلطان لا مفر منه ولا سبيل إلى رده .

وقد صور سوفوكليس حيلة الإنسان حين يحاول أن يستطلع الغيب من مصادره ويحتال على معرفته قبل وقوعه ، فهو لا يتلقاه جاهلا به ، ولا جاهلا بمصدره من الآلهة الذين كانوا يوزعون الخير والشر على الناس ، وهو يحاول جهده أن يتفلت منه، وهي محاولة تدل على نزوع في الإنسان إلى التحرر في الاختيار .

ولعل أهل اليونان قديماً كانوا يحاولون الخلاص من الشر المكتوب عليهم ؛ ولعل الإنسان من قديم حاول ما فعله اليونان ، فلم يكتف بأن يرفع يديه بالدعاء إلى الله لا يسأله رد القضاء ولـكن يسأله اللطف فيه . . .

وقد تناول شعراء وكتاب أوربيون بعد سوفوكليس مسرحية « أوديب » فحاولوا فيها محاولات جديدة ، وأخرجوها للناس إخراجاً يتفق مع فلسفة عصرهم

وتفكير زمانهم ؛ كما يتفق إلى حد كبير مع ذوقهم الأدبي . ولم تجد أوربا غضاضة في أن يشغل شعراؤها وكتابها بمسرحيات اليونان وأن يحيلوها إلى لون جديد ، ومنها مسرحية « أوديب » فتناولها « كورني » و «فولتير» تناولا لم يسلم من النقد في أحدهما ومن الإعجاب في الآخر . وتناولها في القرن العشرين الكاتب الفرنسي المعاصر « أندريه جيد » والكاتب الشاعر « جان كوكتو » . وتناولها غيرهم ممن أشار إليهم المترجم في مقدمته الرائعة .

والدكتور طه حسين بك قرأ «أوديب» في أصلها اليوناني، وقرأها في الصورة التي أخرجها عليها « أندريه جيد » ، فهو لذلك خبير حين يحدثنا عن أوجه المقاربة بين الشاعر اليوناني القديم والكاتب الفرنسي الحديث . وهو ينبئنا أن أندريه جيد لم يبعد كثيراً عن الخطة التي رسمها سوفوكليس في مسرحيته .

وهناك بطل آخر لا يذكر « أوديب » إلا ذكر بجانبه : هو « ثيسيوس » الذي لجأ إليه « أوديب » ملتمساً عنده الأمن والدعة بعد أن أضناه الصراع . وكان هذا البطل خليقاً أن يظفر من أندريه جيد بقصة أخرى تحمل في عنوانها اسمه . وهي القصة التي ترجمها الدكتور طه حسين بك أو ألف بينها وبين قصة « أوديب » في مجلد واحد. ولعله بذلك قد صنع الخير كله ، فهما قصتان لاختلاف المصاير في الحياة . وما ظنك « بأوديب » وقد لقي الشقاء والعنت من الحياة ، على حين كان حظ « ثيسيوس » ، سعادة لم تنقطع . ولكن أشقاهما حظاً مات راضياً في يأسه ، وأطيبهما حظاً في الحياة مات راضياً في ثقته وأمنه .

والحق أن الدكتور طه حسين بك قد أخلص لأوديب الجديد حين ترجمه ترجمة أمينة وفية لا تملك النفس إعجاباً بجمالها ، وفتوناً بالمقدمة النفيسة التي قدم بها بين يدي القصتين ، فكانت دراسة أدبية من أمتع الدراسات وأرفعها .

الحرية

تأليف جون ستيوارت ميل . وترجمة طه السباعي باشا

١٨٢ صفحة من القطع المتوسط . دار المعارف . القاهرة ١٩٤٦

قد يقول قائل إن كتاب « الحرية » لجون ستيوارت ميل المفكر الإنجليزي الحر قد فات أوانه ، وإن الناس بحاجة إلى أن يسمعوا في الحرية أناشيد جديدة مما أخرجه الأحرار في عصرنا الحديث . وقد يقال إن كتاباً ألف في منتصف القرن

التاسع عشر ليس جديراً بأن يشغل المطابع ودور النشر والقراء في منتصف القرن العشرين.

ولكن الأحرار من الناس حين يكتبون ، وحين يذيعون في الناس آراءهم ويبشرون بدعواتهم إنما يدفعونها إلى طريق الخلود حتى تأخذ سبيلها إلى سمع الناس في كل جيل وإلى قلبهم في كل عصر .

وقد أعلى صاحب « الحرية » من قيمة الفرد وحريته ما لم تتعارض هذه الحرية مع منفعة الآخرين ؛ وقد يكون « ميل » من أشد الناس كرهاً للقيود وأكثرهم سخطاً عليها ؛ وقد يبدو كذلك من أكثر الناس دفاعاً عن الفرد ، ولكنه يتخلى — طيّب الخاطر — عن هذه المدافعة إذا خاف جلب الضرر إلى المجموع .

فليس « ميل » حينئذ « فرديا » على الإطلاق ، وليس « جماعيا » على الإطلاق ؛ لأنه يمكن الحرية في الفرد لتكون سبيلاً إلى قوة المجموع حتى تتمكن الأمم من الاضطلاع برسالتها في الحياة . وقد خص المؤلف حرية الفكر والمناقشة بكلام هو أقوى ما قرأناه من حجج الأحرار في الدفاع عن حقهم . فهو يعطي لخصومه الفكر حقا في المعارضة مهما بلغ بها العدد من الضآلة والقلة « فلو أن الناس قاطبة أجمعوا على رأي واحد ، وخالفهم في ذلك فرد فذ ، لما كان لهم من الحق في إخراسه أكثر مما له من الحق في إخراسهم لو استطاع إلى ذلك سبيلا » . [ص ٣٧] . وهذا كلام فيه ما فيه من رحابة الصدر وعدم التبرم بالمخالفة والمناقشة . ولا يحسبن المضيقون على المخالفين أنهم بذلك ينتصرون عليهم ؛ فإن «ميل» يؤكد أن تعريض العقيدة للمناقشة هو المسوغ للثقة بها . ولولا ما امتحنت به فلسفة إسحق نيوتن من تعرضها للجدل والمناظرة ما صارت اليوم حقيقة علمية مقررة . [ص ٤٥] .

ولكن حرية « ميل » الواسعة تضيق أشد الضيق حين تجتاز أوربا المتحضرة إلى الأمم الهمجية ؛ فهو هنا يرى الاستبداد وسيلة مشروعة لحكمها . ولا يرى عليه بأسا أن يأخذ بمذهب تبرير الوسائل ليصل إلى غايته من إصلاح هذه الأمم ...[ص٣٠]

ولكن الشرق حري أن يقرأ هذا الكتاب لكي يكون له على الغرب حجة... وحري أن يتقبله من صاحبه بقبول حسن لأنه دعـوة إلى استقلال الشخصية وإثبات الذاتية [ص ١٠٦] .

لقد أحسن المؤلف الدفاع عن « الحرية » ولكن طه السباعي باشا أحسن ترجمتها وجمّل عرضها ، فلن ينسى له تاريخ الفكر العربي أنه كان من أوائل الأحرار في في هذا الاختيار ...

التصوف في مصر إبان العصر العثماني

تأليف الدكتور توفيق الطويل

٢٣٢ صفحة من القطع المتوسط . مكتبة الآداب . القاهرة ١٩٤٦

بحث جديد في اللغة العربية يفسر ظاهرة اجتماعية لا نزال نشهدها حتى اليوم فيما نعرفه من الطرق الصوفية المنتشرة في أرجاء القطر المصري . وهي طرق لم تنشأ فجأة ولكنها ظهرت عام ٥٦٩ هجرية ، كما يذهب المؤلف مرجحاً رواية المقريزي ، وذلك بعد قيام الخوانق والرُبط والزوايا . ويجعل الدكتور الطويل الحد الفاصل بين التصوف والطرق الصوفية : الصفة الاجتماعية المميزة لكل منهما « فالتصوف في أصله ظاهرة نفسية فردية ، تحول في مصر إلى ظاهرة اجتماعية » . [ص ٣٨] . ولما كانت دراسة الظواهر الاجتماعية مما يستدعي تتبع أصل نشأتها وتطورها حتى تبلغ الحالة التي هي عليها في الوقت الحاضر، فلا بد من النظر في التاريخ ، ولهذا سمي المؤلف هذا العمل — كما جاء في مقدمة الكتاب — دراسة تاريخية فلسفية ، أو أنه يفلسف التاريخ .

ثم وصف الطرق الصوفية وأحصى عددها وذكر مميزاتها ومنها الاختلاف في الورد إذ كان لكل شيخ أوراد خاصة ، ومنها أن بعض الطرق تصحب الذكر بالغناء . ويمتاز الخلوتية بكثرة الاستغفار والتسبيح ، ويكثر البرهامية من قول : يا دائم. يادائم . ويشتهر الرفاعية بأكل الزجاج واستخراج الثعابين . ومن المميزات الفاصلة بين الطرق أخذ العهد على الشيخ : أي البيعة له فيصبح من المريدين . وعن الشعراني في «الجوهر المصون » أن أركان الطريق قبيل العصر العثماني أربعة : تلقين الذكر ، وإدخال الخلوة وإرخاء العذبة ، وإلباس الخرقة [ص ٦٩] .

وقد ناقش المؤلف رأي « لين » في أسباب انتشار هذا النوع من التصوف « بأن العرب قوم شديدو الإيمان بالخرافات وليس بين الشعوب العربية شعب أشد إيماناً بالخرافات من المصريين » ، فأنكر عليه هذه القضية وقال إن انتشار الخرافات يتناسب مع شيوع الجهل . فإذا أضفنا إلى ذلك التأخر والانحلال لم نعجب من استهتار المشايخ والأولياء وارتكابهم الفواحش والدعوى بسقوط التكاليف الشرعية عنهم ، مما نقله المؤلف عن النابلسي والجبرتي وغيرهما في كثير من التفصيل .

ولقد أنكر الفقهاء على أرباب الطريق أسلوبهم ، كما قاومهم الجند والحكام .
ومهما يكن من شيء فقد كان للطرق الصوفية تأثير عظيم في توجيه الحياة المصرية ، مما بينه المؤلف في الفصل الختامي للكتاب .

صور من التاريخ العربي

تأليف الأستاذ نقولا زيادة المدرس بالكلية العربية بالقدس

٣٠٤ صفحات من القطع المتوسط . دار المعارف . القاهرة سنة ١٩٤٦

هو في الحق صور من التاريخ العربي ، فلم أجد عنواناً فيه كثير من الصدق على الكتاب مثل هذا العنوان . . إنه صور لم ينظمها عصر واحد ولا بلد واحد ، ولكن ألّف بينها جميعاً معرض كبير واحد ؛ هو معرض العروبة التي امتدت من مطاوي البيد في شبه الجزيرة العربية إلى دنيا واسعة وملك كبير .

ولقد يمر كثير من الناس بمعارض التحف أو الصور فلا يُلقون عليها بالاً . ولا تثير في أنفسهم شغفاً بإنعام النظر إليها وإدامة الفكر فيها . ولكن الأستاذ نقولا زيادة مولع أشد الولوع بمعرض العروبة فهو دائماً كثير الجولان فيه . وهودائماً مطيل الوقوف في كل زاوية من زواياه أو ركن من أركانه . وهو دائماً كلف بالتطلع . في قاعات هذا المعرض لعلها تزيده علماً إذا ما زادها نظراً .

وكتاب اليوم هو في ذاته معرض من معارض التاريخ العربي ، وليس (مخزناً) من مخازنه . . . وشتان بين كتب ترى السلع فيها منظمة معروضة عرضاً يغري العيون بالنظر ويغري العقول بالتفكير ، وبين كتب تكدس فيها المعارف تكديساً يزهد الناس فيها وينفرهم منها .

فالمؤلف هنا يأخذك في رفق ولطف مصاحباً له — والحق إنه مصاحب لك ! — فينتقل بك ساعة مع مجلس أطباء في القرن الخامس للهجرة ، وساعة مع الإمام الغزالي في عزلته ببيت المقدس ، وساعة أخرى في بلاط « روجر الصقلي » ملك صقلية بعد ضياعها من يد العرب ، وساعة رابعة مع «ابن جبير » الرحالة في البحر المتوسط ، وساعة في الأندلس بين مجد العرب وعزهم ومجالس أنسهم هناك .

وهكذا ترى أن الأستاذ نقولا زيادة أخو سفر جوّاب أرض . فهو تارة بين

الشرق وتارة بين الغرب ، وهو حيناً في البر وحيناً في البحر . وهو يتخذ من التاريخ الإسلامي الذي ثقفه وتخصص فيه مطية لهـذه الرحلات التاريخية الممتعة التي لم ينقل لها قدماً ، ولـكنه قرأ لها كتباً ومخطوطات وأسفاراً كثارا . . وليس معنى ذلك أنه لم يغرم بالسفر الحقيقي ، ولم يعن بالرحلة كما كان يعنى بها الرحالون من العرب ، فهو رحالة أمين دقيق الملاحظة . ولعل الفصل الذي عنوانه : « سورية كما عرفتها » هو دليلنا على هذه الشهادة له . وهو لا يرى في الرحلات سبيلا إلى التسلية ولـكنه مؤمن بأنها سبيل إلى المعرفة وسبيل إلى التحبب إلى الأرض العربية الـكبرى التي يجب أن نزداد إليها تعرفاً لنزداد فيها حبا .

من صميم لبنان

تأليف الأستاذ أسد الأشقر

١٠١ صفحة من القطع المتوسط . مطبعة كوستا تسوماس . القاهرة ١٩٤٦

كل صيحة رشيدة من أحد أفواه هذه الأمة العربية المجيدة إنما هي تكبيرة الأذان بمطلع فجر جديد ؛ وكل يهتف على قدر ما أودع في فطرته من الفطنة والفكر والشجاعة والصدق . وهو هتاف سيكون له شأنه في الغد المأمول والمستقبل المنشود .

ولا يحسبن متشائم أن هذه الصيحات التي يتفجرعنها فم العربي من حين إلى حين إنما هي صرخة تذهب في الهواء وتضيع في الهباء ، فإن أصداء هذا الصوت المتيقظ ستجتمع كلها في وتر واحد ، بعد أن افترقت في نفخة من هنا ونفخة من هناك .

والذين يستعجلون الإصلاح في الأمة ويظنون له أجلا موقوتاً وموعداً مضروباً إنما يغفلون من حسابهم حساب الزمان ، وهوما لايقاس في تاريخ الأمم بتقدير وحسبان.

ولا يحسبن امرؤ أن يقظة الأمم كيقظة الفرد حين يدركه الصباح . . . فإن ليل الأمم قد شدت نجومه بكل مغار الفتل إلى طود عظيم . . وصباح الأمم ليس صيحة ديك ولا إشراقة شمس . . . ولـكنه صباح يتناسب مع ليل الأمم في طوله ، ومع نجم الأمم في أفوله . ومن هنا نفرح بكل نشيد يطلع به صباح جديد .

سمعنا بالأمس نشيد « الوعي القومي » من كتاب الدكتور قسطنطين زريق ، وسمعنا نشيد « الأداة الحكومية » من كتاب الدكتور إبرهيم مدكور ومريت غالي ، وسمعنا نشيد « آراء وأحاديث في الوطنية والقومية » من كتاب الأستاذ الـكبير ساطع

الحصري ، فقلنا للمتشائمين : هذه أناشيد لم تنظم لتتلى في ضجيج مهرجان أو حماسة احتفال ، ولـكنها عصارة أفكار وثمرات دراسات .

وها نحن أولاء اليوم نسمع نشيد « من صميم لبنان » للأستاذ أسد الأشقر ، فنقرأ صفحات جديدة من سفر اليقظة القومية ، دبجتها يراعة لبناني عربي مؤمن بقوميته وعربيته . وهذه اليقظة المتوثبة المتلهبة في كل قطر عربي إنما هي فخر للعروبة كلها في كل أقطارها ، وكل ترنيمة في النشيد العربي الجامع إنما هي ترنيمة النفس العربية في مختلف بلادها . فنحن في آلامنا عرب ، وفي آمالنا عرب . وما أجمل أن توحد الآلام والآمال !

نصحت ونحن مختلفون داراً ولـكن كلنا في الهم شرق

إن معالجة عللنا وشؤوننا تحتاج إلى كثير من الصراحة والصدق . ولقد كان المؤلف صريحاً وصادقاً حينما عالج تحرير لبنان فكريا وروحيا من الأمراض المزمنة التي تفتك به منذ عهود . وليس بنافع تحرير شعب سياسيا إذا كان من قيود الروح والفكر في أصفاد وأغلال .

ليس المؤلف في كتابه هذا رجل خيال وصاحب أحلام ، ولـكنه رجل عملي يتكلم والحقائق تسعفه ، والوقائع تؤيده ، والاقتراحات السديدة تعضده وتسنده ولاسيما أنه قد عرك الدهر مهاجراً ومقيماً ، فإذا هو مؤمن في حاليه مخلص في قبلتيه . فلندع ذلك إلى قارئيه من لبنان وأشقائه ؛ وإنهم لواجدون فيه صوتاً قويًّا من أصوات العرب .

الغرر التاريخية في الأسرة اليازجية

تأليف الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف

جزءان في ٢٨٣ صفحة من القطع المتوسط . المطبعة المخلصية . لبنان ١٩٤٦

رحم الله اليازجيين ، فقد ملأوا القرن التاسع عشر الميلادي وعقدا من القرن العشرين بأدبهم ومقالاتهم وكتبهم التي تمثل فيها جميعاً الحفاظ العربي والذوق الأدبي السليم . وقد وافق مولد النهضة الأدبية في القرن التاسع عشر مولد الشيخ ناصيف اليازجي في شهر مارس سنة ١٨٠٠ . فكأنما كان المولدان على موعد . .

والشيخ ناصيف من أوائل البانين في هذه النهضة التي نتمتع اليوم بكثير من ثمراتها . وقد أراد الله له أن لا يكون من أسرته وحيداً في هذا الميدان ، كأن الله

قد خص الأسرة اليازجية بنصيب من البناء الأدبي اللغوي تضطلع به ، فلا يستأثر به واحد منها ، وقد ظلت على ذلك قرناً كاملا وبعض قرن يتلقف اللواء منها رجل إلى رجل . حتى اجتمع الفضل لأربعة منهم هم المشايخ ناصيف وخليل وحبيب وإبرهيم اليازجي ، كما اجتمع لجماعة من نسبهم وصهرهم منهم نجيب الحداد الشاعر الرقيق وأخوه أمين الحداد الكاتب القصصي .

ولم يختص الرجال اليازجيون بالمواهب الأدبية التي أفاءها الله عليهم ، فقد شاءت الأقدار أن يكون للسيدة وردة اليازجي ابنة الشيخ ناصيف مشاركة في النهضة الأدبية النسوية التي شارك فيها السيدة عائشة هانم التيمورية . والسيدة ملك حفني ناصف التي اشتهرت باسم باحثة البادية . تلك النهضة التي بلغت أوجها الفكري والثقافي في المرحومة الآنسة مي زيادة .

ومن عجب أن اليازجيين لم يشتهروا بالأدب واللغة فحسب ؛ ولكنهم جمعوا إلى ذلك الفضل ، وأضافوا إليه الخلق الرفيع . فما وقع لداتهم وزملاؤهم والمتصلون بهم ـ على القرب والبعد ـ إلا على كل جميل من الخلال ورقيق من الصفات .

وقد ظاهرت أفعالهم في ذلك أقوالهم ، حتى نصع ذلك في موقف الشيخ إبرهيم اليازجي مع منتقدي والده الشيخ ناصيف . فقد أوجعوا في النقد وأسرفوا على الشيخ المهذب فيه . فرد الابن ـ إبرهيم ـ على الطاعنين المسرفين ببيتين من الشعر فيهما من دلالة الخلق الكريم ما يعتز به ذلك النسب الصميم . قال :

ليس الوقيعة من شأني فإن عرضت أعرضت عنها بوجه بالحياء ندي

إني أضن بعرضي أن يلم به غيري فهل أتولى خرقه بيدي

ولو تطاول الابن في الجواب ، لاتسع بين الناقد والمنقود باب السباب . ولكن الولد المؤدب قد أوصد على السالكين الباب .

إن آثار اليازجيين ـ نضر الله ثراهم ـ لما يعتز به تاريخ الأدب العربي الحديث . ولقد خدموا لغة القرآن خدمة يحفظها لهم الإسلام ؛ حتى لقد بلغ الشيخ إبرهيم مكان الأثبات الثقات في الاحتجاج والاستشهاد ، وبلغت ترجمته التوراة إلى العربية نهاية السؤل في فصاحة العبارة وجزالة الأسلوب .

وقد أحسن الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف في كتابة هذا التاريخ على طريقته في التحقيق والتدقيق ، وعلى عاداته في تقصي الشوارد وتتبع الفرائد ، فإن هذا الكتاب مرجع وثيق دقيق لأعلام جمعتهم أواصر الأصل ، ونظمتهم عقود العلم والأدب والفضل .

قضية فلسطين

تأليف الأستاذ نجيب صدقة

٣٩٠ صفحة من القطع المتوسط . دار الكتاب . بيروت ١٩٤٦

تتوجه قلوب العرب على اختلاف بلدانهم نحو فلسطين الشهيدة ، ويألمون لما نزل بها من المصائب على يد الصهيونية والاستعمار الغربي ، ويودون لو توفرت لديهم القوة الكافية لرد العدوان عن إخوانهم ، وإنقاذ تلك البقعة العزيزة المقدسة من البراثن الناشبة فيها . وقد تعددت مؤتمرات العرب ، يعقدها ملوكهم ورؤساؤهم ووزراؤهم وساستهم ، فيدرسون فيها نصوص المعاهدات ويراجعون العهود والمواثيق ، ويقررون حق إخوانهم في أرض الآباء والأجداد ، ولكن السياسة تأبى الإصغاء إلى صوت الحق ، فتخاتل وتتردد ثم تساق بالدعوة الفاسدة ومطامعها الخاصة .

انصرف الأستاذ نجيب صدقة في السنوات الأخيرة إلى دراسة هذه القضية درساً علميا رصيناً ، فاستعرض فصولها وأبوابها ، وتطورها من نشوئها إلى الغاية التي انتهت إليها الآن بعد تدخل حكومة الولايات المتحدة الأمريكية تدخلا مباشراً في مصلحة الصهيونية ، فعرض لوعود الحلفاء للعرب في الحرب العالمية الأولى ، ولوعد بلفور وللانتداب . وفصل الحالة التي اضطربت بها فلسطين بين ١٩١٩ و ١٩٢٩ ، وذكر الأعمال التي قامت بها لجنة التحقيق الثالثة ، والحوادث التي رافقت الثورة العربية . وختم كل ذلك بقسم خصه بالوثائق والإحصاءات ، فكان كتابه من أنفس الكتب التي وضعت لبحث قضية فلسطين بحثاً علميا مستنداً إلى الوقائع والنصوص الرسمية والمراسلات الدبلوماسية ومحاضر المؤتمرات واللجان . وقد بدأ الأستاذ بإعداده في فرنسا وأتمه في لبنان ، فخرج من بين يديه كتاباً سويا ، وبينة جلية على عدالة النظرية العربية ، وحاول في كثير من المقاطع إبراز المخاطر التي تتهدد كل قطر عربي فيما لو كتب الانتصار للصهيونية ؛ فالشعوب العربية تنتصر لفلسطين لأن الصهيونية تهدد مستقبل كل بلد عربي وتضر بمصالحه الحيوية . لذلك يجعل من « قضية فلسطين » قضية كل عربي ، ويبين له « أن الخطر الصهيوني ليس كسائر الأخطار السياسية بل هو خطر دائم يرهق الأمة والأفراد معاً . ويهدد الناس في حياتهم اليومية ، وفي موارد عيشتهم وفي عقر دارهم .

فإن دافعنا عن فلسطين نكن قد دافعنا عن وطننا
و إن أنقذنا فلسطين نكن قد أنقذنا أنفسنا » .

وفي يقيننا أن المؤلف أدى خدمة جليلة للقضية العربية عامة والفلسطينية خاصة . وقد تنبه إلى أهمية هذا المؤلف كل من صاحب السعادة عبد الرحمن عزام باشا والسيد جمال الحسيني فقدما له ، وأشارا إلى الجهود الطيبة التي بذلها المؤلف في وضع كتابه النفيس .

الحجّاج

مسرحية من تأليف الأستاذ عبد الرحمن عياش
٨١ صفحة من القطع المتوسط . مطبعة أبي الفداء . حماة ١٩٤٦

في فترة من الزمان الذي لا تنقطع له فترات منذ الأزل القديم والأبد الآبد وقعت حوادث هذه الرواية التي كان مسرحها نهباً مقسما بين الشام والعراق والحجاز . . وفي خمسة وعشرين عاماً من أعوام القرن الهجري الأول جرت في الدولة الأموية أمور واستحدثت شؤون ؛ فالخوارج والزبيريون والعلويون وبعض الأمويين كانوا للدولة الناشئة بالمرصاد .

وعبد الملك أمام هذه العوامل يصطنع الناس ويجزل العطاء للشعراء ويكرم الوفود ويدعو إلى كلمته بالصوارم والرماح .

في هذا الجو نشأ الحجاج ، وقد تتلمذ على « روح بن زنباع » وكان رئيس الشرطة عند ابن مروان . وهنا يظهره المؤلف على حقيقته : شرطي نظامي لا ينفذ إلا بالصرامة ! ولا يقبل من الجنود غير الطاعة ، حتى لقد كان معسكرهم يضج بالهذر والعبث يوماً فما هو إلا أن يقبل الحجاج عليهم فتنقطع الأنفاس حتى ليفر مغنيهم ويخلص لنفسه بالنجاة قائلا : لا غناء بعد اليوم ! !

وتمتاز هذه المسرحية ببراعة الحوار فيها ، وهو حوار متلاحق موصول الأنفاس لا يحس القارىء فيه بالبهر والانقطاع ، وقد جعله المؤلف مزيجاً من العبارات التاريخية التي نسبت إلى أصحابها كما وردت في كتب التاريخ والأدب ، ومن الحوار الذي اصطنعه المؤلف حتى يسير الكلام كله على نسق واحد . وهذه الملاءمة بين حوار قديم وآخر مستحدث هي سر من أسرار النجاح في هذه المسرحية التي تصور عصراً من عصور التاريخ العربي .

محاضرات نقابة المحامين في حلب

في السنة القضائية ١٩٤٥ — ١٩٤٦

بإشراف سعادة الأستاذ أسعد الكوراني نقيب المحامين في حلب

٥٤٣ صفحة من القطع الكبير . مطبعة الضاد . سوريا ١٩٤٦

جميل من نقابة المحامين في حلب أن يتجه نشاطها إلى العناية بتنظيم سلسلة من المحاضرات في التشريع والقانون وما يتصل بهما من الشؤون التي تدخل في طبيعة عمل المحامين والقضاة الذين يخدمون العدالة ، ويهيئون للناس فيما يشجر بينهم من خلاف حياة تصان فيها الحقوق وتحفظ فيها العهود ، ويهيئون للمجتمع أركاناً سليمة شديدة يأوي إليها ويعتصم بها .

وليست مهمة المحامين هي الدفاع حين يلجأ إليهم المظلوم ليأخذ الحق من ظالمه ولكن مهمتهم فوق ذلك هي إقامة مجتمع قوي وإشاعة مبادئ الحق والخير فيه حتى يعيش الناس في أمن ، ويقضوا الحياة في سلام .

ولن تنعدم الجريمة إذا استمر المجرمون في إجرامهم ، واستمر المحامون في دفاعهم . فإن ذلك لايعدو أن يكون عملا مملا وجهداً ضائعاً . وخير للمجتمع وللقضاة وللمحامين أنفسهم أن يعالجوا المشكلات التي تواجه المجتمع وأن يهيئوا لها من أسباب الدراسة والبحث ويقدموا لها من وسائل العلاج ما ترتفع به مهنتهم فوق واجب الدفاع إلى جمال الإصلاح .

والمحامون ورجال العدالة أحوج الناس إلى أن تتصل بينهم أسباب الفكر ، وأن يقف بعضهم على جهود بعض ، وأن يتعاونوا جميعاً لخدمة الحقيقة التي هي هدف صناعتهم . ولقد أوجبت الظروف المعاصرة على رجال الأقطار العربية أن يخرجوا من عزلتهم ، وأن يسهموا مع الناس في بناء عالم جديد تشيع فيه العدالة والطمأنينة ، وأن تشترك كل أمة بنصيب في بناء الحضارة البشرية على أسس متينة بما تقدمه من ثمرات فكرها ونتاج عقلها .

ولقد عقد أول مؤتمر عربي للمحامين في مدينة دمشق سنة ١٩٤٤ . فكان ذلك أول صلات الفكر بين رجال القانون والعدل في البلاد العربية ، ولكن فترات هذه المؤتمرات يبلغ البعد بينها مبلغاً قد يؤثر في قيمتها ، ولكن ذلك ليس بمانع رجال المحاماة

في كل قطر عربي أن يتصلوا فيما بينهم في أقطارهم ، وأن تنشط نقاباتهم المحلية لتقوم في حدودها الضيقة بما يعين على التقريب بين رجال القانون .

ولقد أحسنت نقابة المحامين في حلب حين قصدت من وراء هذه المحاضرات إلى غايات أشرفها أن توسع آفاق البحث أمام رجال القانون ؛ وأن تمهد السبيل للدراسة القانونية المقارنة حتى تتأكد الصلة بين التشريع المحلي وتشريعات الأمم الأخرى ؛ وأن تتناول دراسة التشريع الإسلامي على أسلوب حديث حتى لا تنقطع الصلة بين الماضي والحاضر . وقد كانت محاضرة سعادة الأستاذ النقيب أسعد الكوراني — الذي كان وزيراً للعدل واليوم مديراً له — أخذاً في ذاتها بهذه الغاية ، فقد تحدث عن الحكم بالقرائن في القضايا المدنية والتجارية ، وأثبت في اعتزاز أن الأخذ بالقرائن كان مبسوطاً في كتب فقهاء المسلمين على أكمل وجه وأجلى بيان ، واعتمد في ذلك على مراجع وثيقة في كتب « بدائع الفوائد » و « أعلام الموقعين » لابن قيم الجوزية ، و « معين الحكام للإمام علاء الدين الطرابلسي ، و « الأشباه والنظائر » لابن نجيم .

ولقد امتازت هذه المحاضرات الثماني عشرة بحرية الفكر وبالدعوة إلى التجديد ، وهما مزيتان تحتاج إليهما البلاد العربية في تطورها القانوني الحديث ، ويتحلى بهما النقيب فيما يتحلى به من فضائل العلم والأخلاق .

صَدَى النَّقد

في موكب الشمس

إلى صديقي الأستاذ عبد الهادي حمادة

للدكتور أحمد بدوي

يا أخي تفضلت — حفظك الله — فنظرت في الكتاب نظرات قيمة ، سجلتها على صفحات هذه المجلة ، وإنها لنظرات جديرة بالاعتبار حقا ، لأنها نظرات رجل يحسن الفهم ويجيد النقد ؛ وأنا أعرف أنك من أولئك القلائل بين المشتغلين بالدراسات الفنية والأدبية في هذا البلد ، الذين تعمقوا في دراسة التاريخ والحضارة المصرية ؛ وأعرف أنك كنت — وما تزال — في طليعة المشتغلين بالآثار المصرية من أبناء جيلك . وأشهد أن لك في نفسي صورة استقرت فيها منذ عرفتك أيام الطلب في الجامعة المصرية ،

كانت دائماً تدفعني إلى الإعجاب بك . لأنها صورة رجل دؤوب طموح ، صادق الجد ، موفور القوة ، مستكمل النشاط ، لا تكاد تعرض لك مسألة من مسائل الدرس دون أن تنكب عليها باحثاً مستقصياً ، منفقاً في ذلك الأيام والليالي ، حتى تقتلها بحثاً وتمحيصاً . وما زلت أذكر نشاطك العجيب ، وقدرتك الفائقة على الدرس والتحصيل في أيامنا الخوالي ، أيام كنا نطلب العلم في أوربا . وأذكر كيف كنت تدعوني إلى الدرس فأكره نفسي على ذلك إكراهاً ، لأن صبرك على الدرس والاستقصاء كان يضايقني ، ويملأ نفسي بالملل والسخط ، لما كنت أجد في ذلك من الامتناع على الراحة ، وحرمان لهو الحياة الأوربية ومتاعها . ثم أذكر ما كان بيني وبينك يومئذ من مداعبة حول الدرس ، وحول السن أيضاً . فياطالما أثارتك دعابتي حتى أسخطتك ، على أننا لم نختلف إلا بمقدار ، ولم يسخط أحدنا من صاحبه إلا عاد إليه سريعاً صافي القلب ، راضي النفس ، مخلصاً ، مستأنفاً دعابته على خير ما تكون الدعابة بين صديقين .

يرحم الله الماضي فإنه حلو ، وتزداد حلاوته كلما ذكرناه ، فتعال يا صاحبي أداعبك لنتذكر الماضي الجميل . وإني لأشكر لك أن أتحت لي الفرصة إلى ذلك ، حينما تفضلت فنقدت كتابي المتواضع ، نقداً لست أشك في صدقه وقيمته وبراءته . وإن كان يدعوني إلى أن آخذ عليك أموراً أنكرتها مني ، وأخرى أنكرتها عليّ :

١ — أنكرت مني عدم التوفيق في تبويب الكتاب ، حين لم تجد حكمة ظاهرة في تسجيل ما جاء عن العقائد الدينية في أعقاب العصر العتيق . وذكرت أن تلك الكلمة قد جاءت في غير موضعها ، ففصلت بين العصر العتيق وبين أيام الدولة القديمة . وإني لأدعوك يا صاحبي أن تتفضل وتتنازل فتفتح عينيك معي على مرآة التاريخ المصري ، لتشهد معي أن صبحه لم يشرق على هذا الوادي إلا في مطلع العصر العتيق . هنالك اتضحت معالم الحضارة ، ومن حولها أصول العقائد الدينية . فهل كنت يا صاحبي بمستطيع أن أتبين شيئاً من أصول العقائد قبل صبح التاريخ ؟

قد يكون في الناس يا حمادة من يستطيع أن يبصر في الظلام ، على أني لست منهم على كل حال .

بصرت بالأمر على ضوء التاريخ فاتضحت لي معالم الحضارة في العصر العتيق فسجلتها ، ونظرت في سياسة الدنيا من ذلك العهد على شواطئ النيل فسجلتها . ولم يبق أمامي بعد ذلك إلا أن أنظر في العقائد الدينية فسجلتها مؤثراً أن أجعل منها سبيلا إلى النظر في تاريخ الدولة القديمة وحضارتها لأنني أدركت أن الدين والحضارة توأمان

ما ينبغي لدين أن ينتشر بغير حضارة ، وما ينبغي لحضارة أن تقوم بغير دين . ولو نظرت يا صاحبي نظرة المتأني لوجدتني قدمت لكتابي بما أسميته «قصة الكتاب» وهي قصة يدور فيها ذلك الحوار الطويل حول بعض العقائد المصرية . فإذا لم تكتف يا حمادة بهذا كله فتعال أحيلك على مؤرخنا وأستاذنا الكبير شفيق بك غربال الذي تفضل فقرأ الكتاب قبل نشره ، ثم تفضل مرة أخرى فقرأه بعد أن تم طبعه ، ثم تفضل مرة ثالثة فقدمه إلى القراء بتلك الكلمة القيمة وذكر فيها من محاسن الكتاب أنه مطبوع بطابع الدين .

٢ — أنكرت مني أن أجعل الفصل السابع خاتمة المطاف من جولاتي في أيام الدولة القديمة ، ورأيت أن يكون مكانه في أعقاب الحديث عن الأسرة الرابعة لأن كل ما جاء فيه إنما يتناول الكلام عن أيامها وحوادثها . .

ولكن ما رأيك يا صاحبي في أن أقدم ما ورد من ذلك القصص عن أيام الأسرة الرابعة قد كتب بعد انتهاء حياتها بعشرة قرون . وأن أقدم ما ذكر عن الهرم وما حوله من آثار تلك الأسرة قد كتب في أيام هرودت وبعد أيام هردوت ؟

وإنك تعلم كما أعلم أن أيام الأسرة الرابعة إنما تعد واسطة العقد من تاريخ الدولة القديمة، وأنها بالنسبة لذلك التاريخ وبناء حضارته بمثابة العمود الفقري من بناء الجسد . فهلاّ يكون من منطق التاريخ بعد ذلك أن نجعل مثل هذا الحديث خاتمة الكلام عن أيام الدولة القديمة ؟ وهل علينا من حرج أن نستبيح لأنفسنا من رواية الخبر وترتيبه ما استباحه أصحاب ذلك التاريخ من أجدادنا أيام الفراعنة . وأحب أن تعلم يا صديقي أنني لا أرى في مثل ذلك القصص تاريخاً صرفاً ، وإنما الواقع أنني رأيت فيه بعض الحديث والذكرى . ولم أر في حكم الرواية ومنطقها أن يكون ذلك الكلام وقفاً على أيام الأسرة الرابعة ، وإنما رأيت فيه ما استملحت أن أسميه « ذكرى الدولة القديمة في وعي الزمن ، وصوتها في ثنايا الأيام » . ولقد كنت أطمع منك في أن توافقني على هذا الترتيب وخصوصاً بعد الذي ذكرت في صدر نقدك « من أن الكاتب قد فكر وقدر ، ورتب ووازن » . على أني لا أحمل ذلك على التجني ، وإنما أعذرك وأكاد أشعر بأن للسن وكثرة ما تختزن ذاكرتك الحافظة الواعية أثراً في هذا النسيان الذي سبب التناقض في قولك . وكثيراً ما ينسي آخرُ القول أوله . لا تغضب يا صديقي فإني أداعبك ! .

٣ — وأخذت علي ياصاحبي عدم الكمال في ناحية « الأسانيد التاريخية » .

والكمال لم يكتب لبشر من الناس ، وإن كان الناس يسمون إليه ويطمعون فيه ، وإنما الكمال لله وحده ، والكمال لا يتوفر في هذا العالم الذي نعيش فيه ، وإنما جعل مكانه ومستقره في عالم آخر نحلم به ونطمع فيه ، ونرجو أن نكون من أهله بعد عمر طويل .

نعم ، أخذت علي ذلك حينما عرضت لرأيي في قصة العصا وموقف الملك من الكاهن ، ونسيت فخلطت بين قصة الكاهن وقصة الوزير ، إلى آخر ما جاء في كلامك [ص ٧٧١ من هذه المجلة] وهالك مني ما ذكرته من تلك القصة حين شككت وفرضت أن يكون أمرها قصداً لا عفواً . هالني منك أن يختلط عليك الأمر فتنظر فيه بإحدى عينيك . نسيت ياصاحبي أن الأمر أمر حادثين لا حادث واحد : حادث العصا بين الملك والكاهن ، وحادث موت الوزير فجأة بين يدي الملك . ففيم يا صاحبي هذا الخلط ، وفيم هذا التسرع في الحكم ونحن نعرف فيك الأناة والروية وحكمة الشيخ الخبير . لا تغضب يا حمادة فلست من الشيخوخة في شيء وإنما هي دعابة صادقة .

أفهم أن يتسرع الشباب ولست منهم ، وأن يتروى الشيوخ وأنت منهم . ولكن لا تغضب ياصديقي فإني أداعبك ؛ لأني أحبك ولن أداعب إلا من أحب . هالك ما أجزته في القصة أو القصتين فأنكرت فيهما رأيي ، ولم تستنكر أن يعتذر فرعون للكاهن من ذلك الحادث التافه ، وأن يبالغ في الاعتذار حتى يأمر بتسجيله في قبر الكاهن ليقرأ الناس قصته جيلا بعد جيل ، ولم تستنكر ذعر فرعون وجزعه وحزنه وبكاءه لموت الوزير ، والإشراف على تحنيطه وتجهيزه للدفن بنفسه . . إلى آخر ما جاء في القصة . فمتى اعتذر الملوك للرعية على هذا النحو يا صديقي ؟ لئن صح ذلك فلست أشك مطلقاً في أن يكون في الأمر ما يدعو إلى الريبة . ولو أنك قرأت على مهل واستوعبت ما جاء بين صفحتي [١٩٣ ، ١٩٧] لما استنكرت رأيي على هذا النحو ، ولرابك من أمر الحادثين ما رابني . فالحادثان قد وقعا في عصر ملك واحد ، ووقعا لرجلين عظيمين من رجال الدولة أحدهما كبير الكهان ، والثاني كبير الوزراء ؛ يدير أحدهما دفة الدين ، ويدير الآخر دفة الدنيا . وحياة الناس منذ مطلعها قسمة بين الدين والدنيا . والتاريخ يشير إلى أن فرعون قد كان يضيق بنفوذ الرجلين . لئن هالك مني ما رأيت إن عذري أنني فكرت وقدرت وشككت ففرضت . وإن هالني منك حكمك على رأيي إن عذرك يا صديقي بيّن لأنك تسرعت ونظرت في الأمر بإحدى عينيك ، فصدر حكمك جائراً ، وجاء رأيك مبتوراً .

وبعد فإني أعتذر إليك من تلك الدعابة المقصودة ، وأحكم القراء بيني وبينك ،

وأرجوهم أن يقرأوا نقدك ثم يتنازلوا بالرجوع إلى ما جاء في الكتاب عن هذين الحادثين . ثم أذكرك أخيراً بما جاء في صدر نقدك حين تقول : « وقد وفق الكاتب في إيراد الحقائق التاريخية وبسط آرائه مع الملاحظة والاستنتاج كما أبدع في بيان الأسباب والأغراض » .

٤ — وتقول [ص ٧٦٨ — ٧٦٩] : « وقد وصف الكاتب في شيء كثير من الطنطنة والتهويل صورة من العالم الآخر . . . متخذاً من الخيال سبيلا إلى الحقائق وإبداء الآراء ، ويذكرني مايرويه الكاتب هنا " بجحيم دنتي " وربما كان لذلك الكتاب أثر في وصف جحيم أزوريس »

ولست أنكر مطلقاً أنني قرأت «دنتي» ومن الجائز أن يكون له أثر فيما كتبت ، ولكن كيف أتأثر « بدنتي » وحده وعند المصريين من وصف الجحيم ما هو أقوى وأروع . هل نسيت يا صاحبي ماجاء عن عقائد المصريين في كتاب « ما في العالم السفلي » وكتاب « الأبواب السبعة » « ورحلة الشمس في الليل والنهار » ثم ما صوره المصريون من وصف العالم الآخر في الفصل الخامس والعشرين من كتاب « الموتى » ، وهل نسيت قصة « ساتني » وماجاء فيها من تلك الأهوال المروعة في جحيم أزيريس . كيف نسيت هذا كله ؟ وكيف فاتك أن يكون له أثر فيما كتبت أو صورت من جحيم أزوريس ؟ . ولم تراه طنطنة وتهويلا ما صورته في كتابي عن ذلك الجحيم ، كأنك نسيت ما جاء عن جهنم في كتاب الله الكريم ، وأنا أعلم أنك كثير النظر في ذلك الكتاب وفي غيره من كتب السماء وكتب الأديان . وإن بيني وبينك حول ما تقرأ وأقرأ حواراً مستمرا وجدالا لايكاد ينتهي . كأنك نسيت هذا كله يا صديقي سامحك الله !

٥ — ثم ماذا ؟ رميتني في نقدك بشدة التعصب لوطني ، وذلك شرف لا أدعيه وإن كنت أطمع في أن أسمو إليه . حقيقة إن التعصب شيء ذميم ، إلا في هذا المقام لأنني أراه من حب الوطن ، وحب الوطن من قواعد الإيمان ، ولا جناح علي مطلقاً أن يبلغ بي إيماني بوطني أبعد الحدود والغايات مما تسميه تعصباً .

وهل من التعصب يا صديقي أن أسجل لمصر بعض الفضل على أقطار الدنيا ، بعد أن شهد به غيرنا من الناس ؟ وهل يستطيع امرؤ أن ينكر هذا الفضل ؟ وهل ترى من تحصيل الحاصل وإعادة القول أن ندعم ذلك بالأسانيد التاريخية بعد أن شهد به أعداء هذا الوطن . والفضل ما شهدت به الأعداء !

أليس من الخير أن نذكر هذا الجيل بعظمة ماضيه علها أن تنفع الذكرى . أليس من الخير أن نذكر الشباب المصريين بنصيب وطنهم في تحضير هذه الدنيا ؟ أليس من الخير أن نغرس في قلوب النشء حب هذا الوطن وأن نغنيه بمجده القديم ؟ ستقول إنك تكتب للناس علماً ، والعلم يجب أن يخلو من الغناء والشعر . وأقول لا بارك الله في علم لا يحرك الناس ولا يحقق لأصحابه المجد والحرية في هذه الدنيا ومن وراء هذه الدنيا .

بعض هذا اللوم ياصديقي ! ليتني بلغت من تعصبي ما أريد . وليتني أستطيع أن أؤدي لهذا الوطن الكريم بعض ما يجب على ، في وقت تبذل فيه شعوب الأرض كل ما تملكه في سبيل أوطانها . ومصرنا يا حمادة خير أوطان الدنيا جميعاً . فماذا قدمنا لها من خير ؟ .

يا الله ! وحتى التغني بحب مصر يعد تعصباً في هذا الزمن ويحتاج إلى دعامات من إسناد التاريخ ! ليتني أعيش حتى يصبح التعصب لهذا الوطن المصري ولبقية أوطاننا من الشرق القريب عقيدة تدفع الناس إلى النهوض بما يجب عليهم نحو أوطانهم المنكوبة .

كفاني منك يا صاحبي هذا اللوم . وحسبك مني ذلك التعصب البريء لأنه شيء لا خطر فيه ولست ببالغ من الأمر ما هو أخطر منه .

فلا الخيل من تحتي ولا السيف في يدي ولا نافخ في البوق يدعو فأنبري

ثم تعال حدثني عن سر هذا التناقض العجيب في نقدك : ترميني يا صاحبي بالتعصب الشديد لوطني ، ثم تعود علي باللائمة لأنني أتوجع لحظ مصر والشرق ، وأنعي على الشباب تواكلهم وضعفهم وجهلهم بأمور البلاد ؟ ! إذا كانت حالنا ترضيك ، وإذا كنت تلمس الخير في حياتنا المصرية فإني أعتذر إليك وأرجوك أن تغفر لي عجزي لأنني لا أكاد أرى من ذلك شيئاً . ولا جناح عليّ في ذلك إذا كان العجز يعميني عن هذا الخير « وليس على الأعمى حرج » ؛ على أن الأعمى قد يبصر يا صاحبي « ويد الضرير وراءها عين ترى » ، وأنا أشهد الله على أنني لا أكاد أرى في حياتنا غير كل منكر من الأمر ، وأذكرك بكلمة قالها رسول الله وحكيم العرب صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه ، وهذا أضعف الإيمان». وإني لأحمد الله الذي سما بي من أضعف الإيمان إلى أوسطه ؛ وأرجوه أن يمد في حياتى حتى أبلغ أقوى درجات الإيمان ؛ وإني لصابر حتى يأتي أمر الله .

ولو وافقت أخاك العاجز يا حمادة لرأيت معه أن ليس من الخير أن نغض أبصارنا

عن عيوبنا ؛ وإنما الخير في أن نفتح أبصارنا عليها لنتجنبها ونطمع في الإصلاح ، وأن نعترف على أنفسنا بالجهل فنطمع في المعرفة .

وبعد فإنني أسجل لك شكراً آخر على ذلك الدفاع الخالص الذي ختمت به نقدك حينما وقفت تنصفني من تحامل أولئك الذين اتهموني بالطمع في الأدب ، ولن يضيرني ما يقولون ؛ لأن الطمع في الأدب خير من الانصراف عنه ، وشيء من الأدب خير من عدمه . فالتاريخ المصري القديم — كما قال أستاذنا شفيق بك غربال — يجب أن يكون غذاء للروح . وفي الأدب للروح أحسن الغذاء وأجمل العزاء . والخير كل الخير في أن يتاح لأصحاب العلوم والفنون المختلفة في هذا الشرق من الثراء الأدبي ما يحبب العلوم والفنون إلى الناس .

ولتتقبل مني ياصديقي هذه الدعابة الصادقة التي لا تخفي وراءها غير الود الصادق والوفاء الخالص ، والله يحفظك لاخيك المخلص والسلام عليكم ورحمة الله .

أحمد بدوى

علم النفس الفردي

رد على رد

للدكتور أحمد فؤاد الأهواني

جاء في رد الدكتور يوسف مراد مدرس علم النفس بكلية الآداب على نقد كتاب «علم النفس الفردي» المنشور في العدد الممتاز من مجلة الكتاب أنه يبعد عني سوء النية ، وما كان ينبغي أن ينظر في النوايا لأنها من بواطن الأنفس لا يعلمها إلا الله وإلا صاحبها . ولهذا كانت عناية علم النفس الحديث بالظواهر دون البواطن .

ونحن إنما نسوق الكلام في الموضوع دون التعرض للأشخاص أو محاولة المساس بهم . وغايتنا هي تجلية الحق . والجدل حول العلم مطلوب على كل حال لأنه يفتح أبواب المعرفة ، ويزيد في تحصيل الناس منها .

وقد فهم الدكتور يوسف مراد خطأ أنني جعلته مسئولا عن كتاب إسحق رمزي لأنه قام بامتحانه ، والتقاليد الجامعية التي نعرفها لا تضمن الأستاذ مسؤولية أعمال التلميذ . غير أن صاحب كتاب « علم النفس الفردي » شكر الدكتور يوسف مراد في مقدمته على « مراجعة فصول الكتاب » . ولعل المؤلف أخطأ التعبير .

وقال الدكتور مراد بصدد ما ذكرته عن الأستاذ جيوم : « إنني أريد أن أوهم القارىء أن علم النفس قطع كل صلة بالفلسفة » . وقد أثبت رأي جيوم من جملة كتابه لا من جملة منه . والرأي عندي — وقد أثبته في النقد — صريح هو أن علم النفس الآن « علم » ، كالطبيعة والكيمياء وعلم الحياة .

فهل لنا أن نعرف على هذه الصفحات رأي الدكتور مراد ؟ أهو علم أم فلسفة أم بين بين . إنا لفي انتظار الجواب .

أحمد فؤاد الاهوانى

نحل عبر النحل

رد على نقد

للأستاذ جمال الدين الشيال

تفضل صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر فنشر في عدد أكتوبر من مجلة الكتاب الغراء نقداً لكتاب « نحل عبر النحل » لتقي الدين المقريزي ، الذي قمت على نشره وتحقيقه وتعليق حواشيه .

وقد تفضل الأستاذ فأشاد بالجهد الذي بذلته في جملة قصيرة عابرة فقال : « وقد اجتهد الأستاذ الشارح في تحقيق متن الكتاب ، وتعب فيه تعباً شديداً ، وهو جهد مشكور » ، فله مني الشكر الجزيل .

ثم تفضل الأستاذ — بعد ذلك — فنقد الكتاب نقداً طويلا أوافقه على بعضه ، بل أشكره شكراً جزيلا أن هداني إلى صواب ما فاتني إدراكه ؛ وأخالفه في البعض الآخر . وفيما يلي رأيي فيما أخالفه فيه :

١ — أخذ الأستاذ الناقد على الكتاب أن يظهر وعلى جانب من غلافه العنوان باللغة الإفرنجية ، وأنا — في الواقع — لم أفكر في أن أخرج الكتاب بهذا العنوان ، ولم أطلبه من الناشر ، وإنما هذا كان من صنعه . غير أنني أحب أن أناقش المبدأ من حيث هو . يقول الأستاذ : « ولكن يجب أن يعلم الناس أن التعلق بأذيال الإفرنج ، ومحاولة كسب ثنائهم ورضاهم ليس مما يسيغه أبناء العروبة في هذا العصر . كتاب عربي ينشر للعرب ، ولمن يعرف العربية ، من غيرهم ، فما بالنا نضع له عنواناً بغير لغته ؟ ! الإفرنجي الذي يطلب مثل هذا الكتاب يعرف العربية ، والذي لا يعرف العربية منهم

لا يطلبه . أخشى أن يكون هذا تقليداً صرفاً لهم حين ينشرون شيئاً من آثارنا ؛ ونحن لا نستطيع أن نرغمهم على ما يرضينا ، ولكننا نستطيع أن نعرف لأنفسنا قدرها ، وللغتنا حقها فنخرج الكتاب عربيا أصلا وعنواناً » ، ونبدأ بالجملة الأخيرة فنؤكد للقراء أن الكتاب خرج عربياً أصلا وعنواناً ، وإنما أراد الناشر — لحكمة خاصة — أن يظهر الناحية الأخرى من الغلاف وعليها عنوان للكتاب بالفرنسية ، فماذا يضير الأستاذ الناقد ، وهل يتنافى هذا مع معرفتنا قدر أنفسنا وحق لغتنا علينا ؟ ! إن الناشر رجل تاجر ويعنيه جدا أن يروج الكتاب ويطلبه أكبر عدد من القراء ، فإذا أرسل نسخاً منه إلى محال بيع الكتب بأي بلد أوربي وليس على غلافه عنوانه بالحروف اللاتينية ، فكيف يستطيع « الكتبي » الأوروبي أن يعرض هذا الكتاب للبيع أو يبرزه للشاري إذا طلبه منه ، وهل من واجبنا أن نفرض على كل كتبي أوروبي أن يتعلم العربية إرضاء لي أو للأستاذ الناقد ؟ ! أخشى أن يكون الدافع لهذا النقد مطلق كره للمستعربين ، وهم قوم لهم فضلهم الذي لا نستطيع إنكاره على العلوم والدراسات العربية بوجه عام ، وعلى المخطوطات العربية ونشرها بوجه خاص .

٢ — انتقل الأستاذ الناقد بعد هذا إلى أصول النشر ، فاتهمني بأنني غلوت غلوا شديداً في تحكيم النصوص الأخرى في نص المؤلف « حتى إنه ليغيره في أكثر المواضع إلى ما في المصادر الأخرى دون ضرورة ولا موجب من خطأ يصححه أو نقص يكمله » . وإن هذا النقد يقودنا إلى التحدث قليلا عن أصول النشر العلمي كما يتبعها الناشرون الثقاة . هناك في هذا الميدان مدرستان : الأولى ترى — كما يرى الأستاذ الناقد — أن يلتزم الناشر نص المؤلف التزاماً تاما فيخرجه كما هو ؛ وترى الثانية أن يراجع النص على النصوص الأخري في المراجع المباشرة — أي النسخ الموجودة من المخطوطة — والمراجع غير المباشرة — أي الكتب التي تحمل نفس النصوص الموجودة في المخطوطة التي تنشر — أو المراجع التي ينقل عنها مؤلف المخطوطة ، وخاصة إذا لم يكن لدى الناشر إلا نسخة واحدة كما كانت الحال في كتاب « نحل عبر النحل » . وممن أخذ بهذا الرأي واتبعة في كتبه التي قام على نشرها الأستاذان « فان فلوتن » في « البخلاء » للجاحظ ، و« دَن » في « الأوراق للصولي » . ولكن عفواً ، فهذان من المستعربين ، وأخشى أن يعتبر الأستاذ الناقد استشهادي بهما « تعلقاً بأذيال الإفرنج ، ومحاولة لكسب ثنائهم ورضاهم » ، فلنتركهما إلى غيرهما من المصريين ، فممن اتبع هذا الرأي : أستاذي الدكتور محمد مصطفى زيادة عند نشر « السلوك » للمقريزي ، والأساتذة القائمون على

نشر المخطوطات التي تخرجها دار الكتب المصرية .

ولكن مالي أذهب بعيداً ، ففضيلة الأستاذ الناقد ينهج هذا النهج — وعلى مدى أوسع — في كتبه التي ينشرها ؛ وسأقدم إلى القارئ مثلا مما أخذه عليّ الأستاذ لرجوعي إلى المراجع الأخرى لتصحيح ما بالنص من خطأ أو إكمال ما به من نقص ، ثم أقدم له مثلا آخر مما فعله الأستاذ نفسه — في نفس الموضوع — من كتابه الأخير « ترجمة الإمام أحمد » ، وللقارئ الكريم أن يتساءل — كما تساءلت أنا — : إن كان هذا الذي ينقد الأستاذ خطأ فما باله يقع فيه ؟ !

جاء في كتاب « النحل » للمقريزي : « النحل حيوان وهيئته ظريفة وخلقته لطيفة ومهجة نحيفة وسطه مربع إلخ » ، وقد صححت أنا هذه الجملة عند النشر [ص ١ — ٢] إلى مايلي : « النحل حيوان [ذو] هيئة ظريفة ، وخلقة لطيفة ، وبنية نحيفة ، وسط [بدنه] مربع .. إلخ » ، وذلك بعد مراجعة « عجائب المخلوقات » للقزويني و « مسالك الأبصار » للعمري وغيرهما من المراجع التي كتبت عن النحل . لقد قلت في مقدمة الكتاب : إنه تبين لي بالمقارنة والمراجعة أن جميع كتب الحيوان العربية ينقل بعضها عن بعض ، وهي إذ تفعل ذلك إنما تنقل عن الترجمة العربية الأولى لحيوان أرسطو التي لم تصلنا . ألم يكن من حقي إذن — وأنا أصحح النص وأحققه — أن أقدر أنه من الجائز أن يكون حرف الذال من لفظ « ذو » قد سقط من الأصل فأضيفه ، وخاصة أن النسخة التي اعتمدتها للنشر ليست نسخة المؤلف ، وإنما هي نسخة كتبت بعد وفاته بنحو أربعة قرون ، وقد تداولتها خلال هذه الحقبة الطويلة أيدي الكثيرين من النساخ ، وقد قوى ترجيحي اتفاق أكثر من مرجع على هذا النص الذي أثبته .

هذا ماأخذه عليّ الأستاذ الناقد أن زدت حرف الذال قبل الواو فأصبحت « ذو » ، وأن غيرت « مهجته نحيفة » إلى « بنيته نحيفة » ؛ واعتبر هذا تغييراً « دون ضرورة ولا موجب من خطأ أصححه أو نقص أكمله » ، فهل يرى الأستاذ أن « مهجته نحيفة » قول صحيح مع أن المعاجم العربية تذكر أن « المهجة : الدم ، ودم القلب والروح » ؟ فكيف يكون الدم أو الروح نحيفاً ؟ ! ألم يكن من واجبي هذا التصحيح ، وخاصة إذا كانت هذه المراجع الأخرى التي اعتمدت عليها تتفق والمقريزي في النص ما عدا هذا اللفظ .

والآن لنترك هذا إلى آخر كتاب نشره الأستاذ الناقد وهو « ترجمة الإمام أحمد » فإنا نجده ينقل نصوصاً كثيرة عن ابن الجوزي — تبلغ السبعة سطوراً أحياناً —

فيقحمها في كتابه إقحاماً ، ويضمنها نص الذهبي « دون ضرورة ولا موجب من خطأ يصححه أو نقص يكمله » ، وفيما يلي مثل واحد مما فعل — وفي الكتاب أمثلة أخرى — ننقله عن ص ٧٦ من الكتاب سالف الذكر : « . . . وجاء رجل من جيراننا قد خضب ، فقال أبي : إني لأرى الرجل يحي شيئاً من السنة فأفرح به ، [فدخل فجعل يدعو له ، فجعل يقول : له ولجميع المسلمين ، وجاء رجل فقال : تلطف لي بالإذن عليه ، فإني قد حضرت ضربه يوم الدار ، وأريد أن أستحله ، فقلت له ، فأمسك ، فلم أزل به حتى قال : أدخله ، فقام بين يديه وجعل يبكي ، وقال : يا أبا عبد الله ، أنا كنت ممن حضر ضربك يوم الدار ، وقد أتيتك ، فإن أحببت القصاص فأنا بين يديك ، وإن رأيت أن تحلني فعلت ، فقال : على أن لا تعود لمثل ذلك ؟ قال : نعم ، قال : فإني قد جعلتك في حل ، فخرج يبكي ، وبكى من حضر من الناس] ، وكان له في خريقة قطيعات ، فإذا أراد الشيء أعطينا من يشتري له . . إلخ » ؛ وما بين الحاصرتين كلام ابن الجوزي .

لقد قال الأستاذ الناقد لتبرير نقده السابق : « لو كان القزويني وابن فضل الله العمري متأخرين عن المقريزي ، ونقلا كلامه ، لكان له عذر أن يعتبر النص فيهما نسخة أخرى من كلام المقريزي ، ولكنهما متقدمان عليه ، والمقريزي لم يزعم أنه نقل كلامهما ، بل كل مؤلف يعبر عما يعلم مما قرأ في كتب المتقدمين بالعبارة التي تروقه .. إلخ » وأنا لست أملك إلا أن أستعير من الأستاذ حجته فأقول : « لو كان ابن الجوزي متأخراً عن الذهبي ونقل كلامه لكان له عذر أن يعتبر النص فيه نسخة أخرى من كلام الذهبي ، ولكن ابن الجوزي متقدم على الذهبي ، والذهبي لم يزعم أنه نقل كلامه . . » ، ثم أقول للأستاذ بعد ذلك : إن هذا القول يصدق تماماً على ما فعلت أنت — لا على ما فعلت أنا — لأن ما فعلتُ أنا لم يزد على حرف قدرت أنه سقط فأثبته ، ولفظ استعمل خطأ فصححته ؛ أما هذه الفقرة التي نقلتها فليست تصحيحاً لخطأ أو إكمالا لنقص ، بل هي مقحمة إقحاماً ، وكان من الممكن ، بل من الواجب أن تثبتها في الهامش إن أردت . فكيف يبيح الأستاذ هذا لنفسه ثم يأخذ على غيره أن زاد حرفاً وأن صحح لفظاً كان واجب التصحيح بعد مراجعة أكثر من نص ؟ !

٣ — وعاب عليّ الأستاذ الناقد أن أكملت نصًّا لابن سينا نقله عنه المقريزي في [ص ١٣] . لقد نص المقريزي في [ص ١١] على أنه ينقل عن كتاب « الشفا » لابن سينا ، أليس من واجبي إذن أن أقارن مانقله على الأصل الذي أخذ عنه لتصحيح

الخطأ وإكمال النقص؟ ومن عجب أن الأستاذ يعيب عليّ في مكان آخر أنني لم أراجع نصا آخر نقله المقريزي عن « الإحياء » للغزالي على أصله في ذلك الكتاب .

٤ — ويقول الأستاذ الناقد : « ومما لا يعجبني من تصرف المحقق في التراجم أن يترجم لابن سينا في هامش ص ١١ ، ثم يقول " انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة ابن سينا وما بها من مراجع ". أفأفلست كتب التراجم من مؤلفات علماء الإسلام المطبوعة حتى يحيل القارئ على مراجع نادرة يشير إليها مؤلفو دائرة المعارف الإسلامية الأجانب ، وكثير من مراجعهم مطبوعات أوربية نادرة ، وأكثرها مصادر غير عربية ؟ فليت الشارح ترك هذه الترجمة ، فابن سينا أشهر عند أبناء العروبة من أن يعرفوا ترجمته من مصادر أجنبية » . هذا قول الأستاذ الشيخ شاكر ، وقد كنت أجله عن أن يصدر عنه مثل هذا القول ، لأنه من جلة العلماء ، والعالم الحق يسعى وراء الحقيقة أنى كانت وبأي لغة كتبت ، وليس يضير أبناء العروبة أن يقرؤوا عن ابن سينا أو غيره من علماء الإسلام في دائرة المعارف الإسلامية أو غيرها من الكتب التي ألفها الأجانب ، بل إن من يريد أن يتعرف على شخصية ابن سينا ويكتفي بالمراجع الإسلامية ، ويهمل المراجع التي كتبها عنه الأجانب هو الذي يجب أن يؤاخذ ويؤاخذ بشدة . ثم إن من مزايا دائرة المعارف الإسلامية أنها تعطي القارئ — في نهاية كل مادة — قائمة كاملة بالمراجع الإسلامية — التي يريدها الأستاذ — وغير الإسلامية ؛ ثم إذا كان « كثير من مراجعهم مطبوعات أوربية نادرة » فليس هذا بالعيب الذي يؤاخذون عليه ، بل إنه لمزية كبرى ، لأن الأستاذ الناقد يعلم جيداً أن الكتب العربية التي طبعها هؤلاء العلماء تمتاز على غيرها بالدقة والضبط والفهارس الوافية المنظمة المصنفة التي توفر على القارئ الكثير من الجهد والوقت ، وهي نواح طيبة أخذها المشتغلون بالنشر العلمي — ومن بينهم الأستاذ الشيخ شاكر — عن هؤلاء الغربيين . أما قوله : « فليت الشارح ترك هذه الترجمة » فإني لم أفهم الغرض منه لأني قصدت أن أترجم لابن سينا قصداً ، وذلك لأن المقريزي ينقل عن كتابه « الشفا » في أكثر من موضع ، وقد أشار إلى الكتاب مرة ، وأهمل الإشارة إليه — وهو ينقل عنه — مرات ، فأردت أن أعرف القارئ — في كلمة موجزة — بشخصية ابن سينا وكتبه — ومن بينها " الشفا " — ثم أرشدته — إن أراد التوسع — إلى دائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع ، ولم أشأ أن أنصّ على هذه المراجع خشية أن أحمل الحاشية أكثر مما يجب .

٥ — وذكر الأستاذ الناقد أني ترجمت للترمذي مرتين [في ص ٦٠ وص ٧٠] ،

وذكر أنني أخطأت في الأولى فذكرت أنه مات سنة ٧٩ وأصبت في الثانية حيث ذكرت أنه مات سنة ٢٧٩ ، وأنا أترك الحكم على هذا النقد للقارئ الكريم ، فإنه سيحكم بداهة أن الخطأ الأول ليس إلا خطأ مطبعيا ، إذ كيف يعقل أن أترجم له مرتين فأجعل موته في إحداهما في سنة ، وفي الأخرى في سنة غيرها ، وإن اشتراك رقمي الآحاد والعشرات في المرتين يظهر بوضوح أن رقم المئات سقط في المرة الأولى عند الطبع ، وفاتني استدراكه عند تصحيح التجارب ؛ ومن عجب أن الأستاذ الناقد بدأ نقده بقوله : « فما أريد التعنت ولاتتبع الأغلاط ، ولكني أريد الخير له ولقراء العربية » ، وهل هناك تعنت أو تتبع — بل تلمس — للأغلاط أكثر من هذا يا سيدي الأستاذ ؟ ! وقد أتبع الأستاذ الجملة السابقة بقوله : « وما كانت به حاجة إلى ترجمته هنا ولا هناك ، فالترمذي معروف لأكثر القارئين » ، والحقيقة أنني ترجمت للترمذي عامداً أيضاً ، لأن هناك ترمذيين : أحدهما أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي صاحب « جامع الصحيح » في الحديث والمتوفى سنة٢٧٩ ، والثاني الحكيم أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي صاحب « نوادر الأصول في معرفة أخبار الرسول » والمتوفى سنة ٢٥٥ ، وقد ذكر في ص ٥٧ من كتاب النحل ، وترجمت له في هامش ٢ بنفس الصفحة ، فالتعريف بالرجلين كان يجب أن أترجم لهما جميعاً .

٦ — كذلك يعتب عليّ الأستاذ الناقد أنني خرجت حديثاً ورد في ص ٥٦ من كتاب " المعارف " لابن قتيبة ، لأن هذا الكتاب ليس من كتب السنة ، وأنا أعلم يا سيدي الأستاذ تمام العلم أن « المعارف » ليس من كتب السنة ، وأنا أيضاً لم أشأ أن أخرج هذا الحديث ، وإلا لخرجت جميع الأحاديث الواردة في الكتاب — وهذا ما لم أفعله — وإنما أنا لاحظت في أثناء بحثي في « المعارف » أنه أورد هذا الحديث بإسناده الخاص فأردت أن أشرك القارئ معي في هذه المعرفة علّ المقارنة بينهما تشوقه أو تفيده ، وإلا فإنه من المعروف بداهة — كما يقول الأستاذ — أنني لست من علماء الحديث ولا كانت علوم الحديث صناعتي .

٧ — ونقل المقريزي في [ص ٦٨] حديثاً عن « تاريخ أصفهان » ، وقد علقت على هذا في الهامش بأن المقريزي لم يعين اسم مؤلف هذا التاريخ ، ونقلت عن الصفدي أسماء الكتب التي ألفت في تاريخ أصفهان ، وقلت إنه لم يطبع منها إلا « أخبار أصفهان لأبي نعيم » وأنه طبع في ليدن سنة ١٩٣١ ؛ وقال الأستاذ تعقيباً على هذا كله : « وهذا تقصير شديد منه ، فإن المحدثين إذا أطلقوا النسبة إلى تاريخ أصفهان ، فإنما

يقصدون كتاب أبي نعيم ، وهو مطبوع كما ذكر المحقق ، فلو أنه نشط إلى مراجعته بدلا من مراجعة الوافي للصفدي لوجد هذا الحديث فيه . . إلخ » وأنا أكرر أنني لست من علماء الحديث ، ولا كانت علوم الحديث صناعتي ، ولهذا لم أفطن إلى أن المقصود هو كتاب أبي نعيم — كما فطن إلى ذلك الأستاذ الناقد — ومع هذا فقد نشطت لمراجعة كتاب أبي نعيم ؛ وبحثت عنه فى مكتبتي الجامعة والبلدية باسكندرية فلم أوفق للعثور عليه فاكتفيت بالتعليق السابق ، فهل يعد هذا « تقصيراً شديداً منى » .

٨ — نقل المقريزي في [ص ٦٤] أثراً عن مسند الطبراني ، جاء فيه : « ليس بفاحش ولا بسخاب » ، ولما كان هذا المسند غير موجود ، وكان الدميري قد نقله كاملا عن نفس المرجع ، فقد راجعته عليه وصححته إلى : « ليس بفاحش ولا صخاب » ، وقد لامني الأستاذ الناقد على هذا محتجاً بأن لفظي « فاحش وسخاب » صحيحان . ولكن ألا يرى القارئ معي أن رغم اللفظين الأصليين فإن الرسم الذي ورد في الدميري يوحي بترجيح قراءتهما : « فحاش وصخاب » لأن إيراد اللفظين على وزن « فعال » أفضل وأقرب من إيراد أحدهما على وزن « فاعل » والثاني على وزن « فعال » ، كذلك استعمال « صخاب » أكثر تداولا من استعمال « سخاب » ، ولم يعرف عن المقريزي إيثاره للغريب من الألفاظ ، وكان من الممكن أن يكون لرأى الأستاذ وجاهته لو أن النسخة التى اعتمدتها للنشر كانت نسخة المؤلف وبخطه ، ولكنها نسخة كتبت بعد عصر المؤلف بنحو أربعة قرون . ألا يكون من المعقول أن يكون هذا التحريف من صنع الناسخين ؟

٩ — في [ص ٣٢] : «فتجدها الرعا» ، وقد صححتها الى «الرعاة» ، ولكن الأستاذ الناقد يأخذ علي هذا التصحيح ، ويرى أنه كان من الواجب أن تصحح إلى « الرعاء » لأن المعتاد في الخطوط القديمة حذف الهمزة لا حذف الهاء ، وكنت أرحب بنقد الأستاذ لو أن « الرعاء » هي الصيغة الوحيدة لجمع « راع » ، ولكن ما دام اللفظان صحيحين فما وجه الخطأ في إيرادى أحدهما؟ أليس من الجائز — بل من المرجح — أن يسقط الناسخ حرف الهاء كما يسقط حرف الهمزة ، وخاصة في هذه الكلمة بالذات لأن لفظ « رعاة » هو الأكثر تداولا واستعمالا . جاء في نفس الكتاب [ص ٢] : « ويقال لها الأوب واحد [٥] آيب . . » ولفظ واحد موجود فى الأصل دون الهاء فأثبته أنا بين حاصرتين ، فهل من المعقول ، اتباعاً لرأي الأستاذ ، ولأن المعتاد فى الخطوط القديمة حذف الهمزة لاحذف الهاء أن أثبت هنا همزة بعد لفظ « واحد » !؟

وبعد ، فهذه بعض المآخذ التي أراني أخالف فيها الأستاذ الناقد ، وبقي أن أشير إلى أن الأستاذ قد اصطنع لنفسه عند النقد برجاً عاجيًّا ، وفرض — وهو يتحدث من هذا البرج — أنه فوق كل الناس علماً ومعرفة ، فهو يخاطبهم دائماً كما يخاطب الأستاذ الكبير تلاميذه الجاهلين أو المبتدئين ، فترى في نقده أمثال هذه الجمل : « يحب أن يعلم الناس » ، « ومما لا يعجبني من تصرف المحقق » ، «ومن المعروف بداهة أن المحقق ليس من علماء الحديث ولا كانت علوم الحديث صناعته » ، « وهذا تقصير شديد منه » ، « فإن هذا عبث وإقدام على العلم وجرأة نعيذ أبناءنا المتثبتين أن يفعلوه ، أو أن يعود إليه من فعله منهم مرة » . . الخ . فهذه جمل شوهت ما في النقد من جمال ، وهي إلى هذا لا تتسق وتواضع العلماء ، فالعالم الحق أكثر الناس تواضعاً ، والأستاذ الناقد عالم من كبار علمائنا ، وفوق كل ذي علم عليم .

جمال الدين الشيال

مرحلة وأجواء

رد على نقـد

للأستاذ توفيق اليازجي

توخياً للوصول إلى ما يستهدفه النقد رأيت أن أسوق بعض الملاحظات على ما تفضل به الأستاذ الناقد محمد عبد الغني حسن في نقده كتاب « مرحلة وأجواء » :

١ — اقتبس الناقد من صفحة ٦٠ ما يلي : « أنت النور في عيني والخيال في فكري والحقيقة في وجودي والملموس في شعوري » واستشهد به على منزلة المرأة في قلب المؤلف . مع أن ما اقتبسه هو من قطعة منثورة عنوانها « عودة إلى القرية » وهو خطاب للقرية لا للمرأة كما أسنده الناقد .

٢ — يصيب الناقد في ما ذكر من الاختلال في وزن البيتين التاليين :

(١) فداكِ العيون وقد ملها السهـــــد سقها مما يعانيه يا عاتبه

(٢) أي فجر علا شفتيك ، عزائي فجـــرك الدائم

ويرجع هذا الخلل إلى سهو مطبعي لم ينتبه فيه إلى التصحيح في المخطوطة . وقد طبع الكتاب في بيروت وكان المؤلف في عمله بيافا . والتصويب الذي كان يقصده المؤلف هو ما يكون فيه البيت الأول :

فداك العيون وقد ملها السهـــد مما يعانيه يا عاتبـــة

بحذف لفظة « سقها » بدلا من « مما » التي أشار إليها حضرة الناقد . ويكون فيه البيت الثاني :

أيّ فجـر علا لماك ، عزائـــي فجـرك الدائم

٣ — نشكر للناقد ما يظهره من رحابة صدره في تقبل « بعض الأوزان الجديدة من تفعيلات الشعر المعروفة » والتي جاءت فيها قصيدة « شقراء » غريبة على الأذن ، وكأني بغرابة هذا الوزن قد عكرت على أذن الناقد الفاضل فالتبس عليه الوزن في قصيدة « ما لها » صفحة ٤٤ فقال عنها إنها « اختلط فيها الوزن على بحرين هما مجزوء الرجز ومجزوء الرمل المحذوف » . ولو أمعن الناقد قليـلا لرأى أن القصيدة بكاملها على وزن واحد هو مجزوء الرمل بضربه المحذوف . وكون بعض الأبيات مدورة جاءت في بعضها المقاطع في عجز البيت بدلا من صدره، وكذلك لفظة « في » في البيت الأول ـ كون الأبيات على ما ذكر ليس فيه ما يعذر عليه الناقد من تخطيء وزن معروف مطروق اعتادت عليه الأذن وليس فيه شيء من غرابة الجدة على تعبير الأستاذ . ولذلك فقد قطعنا الأبيات التي رأى فيها الناقد الفرق بعيداً بين وزنها ووزن الأبيات التي يذكرها من مجزوء الرمل :

ما الذي روعهـا ، في خدرها محتجبـه

ويح من أمسى بهـا أيـــامه ملتهبـــه

يجرف الوجـد به أحـــلامـه منتهبـه

« فاعلاتن فاعـلاتن فاعلاتن فاعلن »

ولا نرى من مبرر لهذا الالتباس والأستاذ الناقد يعلم أن العروض الثانية لشطر الرمل هي مجزوءة أي « فاعلاتن » ولا يصح أن ترد « فاعلن » كضربها إلا مرة واحدة للتصريع الذي لم يرد في القصيدة . وعلاوة على ذلك فالأبيات المدورة التي ظهرت فيها مقاطع الـكلمة في مكانها من صدر البيت وعجزه قد أظهرت أن الوزن الذي تسير عليه القصيدة هو مجزوء الرمل . نشير مثلا إلى البيت الخامس :

وعلى أحداقه هو ل شجون متعبه

٤ — ونشكر للناقد أيضاً رأيه في عدم التساهل في اللغة . ولـكن يظهر أن غيرته اللغوية تحتاج إلى دقة وضبط . فقـد أخذ على المؤلف لفظة « غشتها » قائلا : وأي تساهل أكثر من أن يقول الشاعر :

سكرة في خفوق قلبي غشتها . والصواب « غشيتهـا » .

فنقول له إنه على صواب لو لم يكن هناك فعل « غشا » الواوي . ولو أنه تريث قليلا ورجع إلى المعجم لظهر له صواب ما ذكرنا ولرأى : « غشا فلاناً يغشوه غشوا (واوي) : أتاه ، وغشيه يغشاه غشيانا (يائي) : أتاه .

فلماذا يريد الأستاذ الناقد من المؤلف أن يكون فعل « غشا » يائيا لا واويا وهما يؤديان المعنى ذاته ؟ وهل بلغ به عدم التساهل في اللغة أن يخطىء ما هو صواب لغة .

وأخذ عليه كلمة «مادة» قائلا : «بفتح الدال من كلمة مادة والصواب تشديدها». فنقول إنها لم ترد في البيت مشكولة والوزن يطلبها مشددة كما أرادها المؤلف وكما استعملها . والقصيدة صفحة ٨٥ على وزن البحر الخفيف . فهل يقصد بقوله هذا عدم اجتماع ساكنين (الألف والدال الأولى) في « تن » من « فاعلاتن » ؟ كأنه بذلك يحرم على هذه اللفظة وسواها من الثلاثي المضاعف على وزن فاعل وغيرها — يحرم عليها دخول حظيرة الأجزاء العروضية . وكأني به قد سها عن باله أن يسوق الانتقاد نفسه إلى الكلمة نفسها (وهي مشددة الوزن وغير مشكولة أيضا) في البيت الأول من القصيدة :

أنت في مادة الحياة تشعين وإني من روحهـا ألتهب

هذا ما أردنا أن نسوقه تحقيقاً لغرض النقد لا بغية الاعتذار — كما نوه حضرة الناقد — فقد اهتممنا بالوزن حيث أراد أن يخطىء وزن بعض الأبيات ، وباللغة حيث خطأ صواباً لغويا .

ولا بد في الختام من أن نشكر لمجلة «الكتاب» الغراء وللأستاذ الناقد اهتمامهما بالإنتاج الأدبي وما لنقدهما من قيمة وفائدة .

مرمريتا . سورية **توفيق اليازجي**

الفن ومذاهبه في النثر العربي

رد على نقد

الدكتور شوقي ضيف

تفضل الأستاذ الأديب محمد عبد الغني حسن فكتب فصلا ضافياً* في نقد كتاب « الفن ومذاهبه في النثر العربي » وقد استهل نقده بالإطراء على منهج الكتاب في

* انظر الكتاب جزء نوفمبر ١٩٤٦

التحليل والتعليل والموازنة الصحيحة بين عصر وعصر وكاتب وكاتب وبيئة وبيئة ، ثم استطرد من هذا الإطراء إلى سرد بعض مآخذ كنت أوثر أن يروي قبل كتابتها ، لأن قسماً منها غير وارد ، وقسماً ثانياً هو خطأ مطبعي واضح ، وقسماً ثالثاً كان في غنية عن أن يعرض له .

أما القسم الأول غير الوارد فيندرج فيه أكثر ما سماه مآخذ عامة ، وأول هذه المآخذ أنني ذكرت في صفحات [٨١ ، ٨٢ ، ٨٨ ، ٨٩] أن التصنيع في الكتابة الفنية كان ثمرة التصنيع في الحياة الاجتماعية ، فتساءل لماذا — إذن — لم يكن سهل ابن هرون والجاحظ من أنصار مذهب التصنيع في الكتابة ، وقد عاشا في عصور التصنيع في الحياة الاجتماعية ؟ . والاعتراض غير وارد لأن من المعروف في دراسات الأدب أن القوانين الأدبية ليست كقوانين العلوم الطبيعية إذ كثيراً ما يتخللها الشذوذ والاستثناء ، وكثيراً ما تتخلف المعلولات عن عللها ، ولهذا كان من الممكن أن يقوم مذهب فلا يتبعه جميع الأدباء ، بل تتبعه طائفة وتتخلف طائفة أخرى ، وهذا هو ما يتيح للنقاد دائماً أن يتكلموا عن المحافظين والمجددين في الأدب والحركات الأدبية . على أنني أشرت في ص ٤٦ إلى العلة التي جعلت سهل بن هرون والجاحظ وأضرابهما من أصحاب الكتابات الطويلة يقفون عند المذهب القديم ، مذهب الصنعة ، ولا يعدلون إلى المذهب الحديث ، مذهب التصنيع ، إذ كانوا في شغل بالموضوعات والمعاني الجديدة التي كانوا يتناولونها ، ومن أجل ذلك انصرفوا عن زخرفة أساليبهم والتصنيع فيها على نحو ما كان يصنع أصحاب النثر الرسمي أو الحكومي ممن تعودنا أن نسميهم كتاب الدواوين .

ويخرج الأستاذ الفاضل محمد عبد الغني حسن من هذا الاعتراض الذي لم يلتفت إلى ردنا عليه في الكتاب إلى اعتراضين آخرين يتصلان بابن العميد . أما أولهما فهو أن ابن العميد لم يكن يسجع دائماً كما أذهب في الكتاب، بل إنه ينقل عن ابن سنان الخفاجي أن ابن العميد كان يترك السجع ويتجنبه ، وكنت أحب أن ينظر في النص المسجوع الذي سقته لابن العميد ليرد رأي ابن سنان ، أو على الأقل ليصححه ، لأن هذا الرأي هو الذي ضلل بعض الباحثين المحدثين فزعموا أن ابن العميد كان من أقل كتاب عصره التزاماً للمسجوع وأقربهم إلى المطبوع ! . . ومع ذلك فإنه لو تأمل في فصل التصنيع لعرف أنني جعلت السجع يعم دواوين المشرق منذ عصر المقتدر [٢٩٥ — ٣٢٠ ه]. ومعنى ذلك أنني خالفت مؤرخي الأدب ، وجعلت السجع ظاهرة عامة انتشرت في دواوين المشرق قبل ظهور ابن العميد ، وما زلت أتعقبه حتى وصلت إلى ابن العميد

فلاحظت أنه كان يستخدم السجع من جهة كما كان يستخدم البديع من جهة أخرى ، ومن ثم جعلته أستاذ مذهب التصنيع فهو الذي أعطاه صورته النهائية . أما الاعتراض الثاني الذي يتصل بابن العميد فهو أنني ربطت بين علمه بالحيل « الميكانيكا » وبين فنه ، ولم ير الأستاذ وجهاً لهذا الربط ، وكأني به لم يلتفت إلى النص الطويل الذي نقلته عن مسكويه ليتنبه القارئ إلى أن علم الحيل يعنى بمعرفة مركز الأثقال ودراسة التوازن والتعادل بينها، وقد حاولت أن أربط بين هذه المعرفة وبين تحايل ابن العميد في سجعاته، إذ رأيته يعنى بالمعادلة الدقيقة بينها ، وقد وقفت طويلا عند هذه النزعة في صياغته محاولا أن أفسر حيله في هذا الجانب وما سلكه إليه من طرق افتنان .

ويدخل في هذا القسم الذي لا أجد فيه مأخذاً وارداً على الكتاب محاولة الأستاذ الفاضل أن يرد علي ما عللت به بطء ظهور الفلسفة في الأندلس ، فقد رجعت ذلك إلى أن أهلها نفروا منها لما فيها من زندقة وأن ملوكهم كثيراً ما أمروا بإحراق كتب الفلسفة إذا وجدوها . وهذا أمر معروف فالأندلس بلد محافظ ولم تعرف اللغة العربية في تاريخها بلداً محافظاً مثل الأندلس ، ومن أجل ذلك كانت تمتاز بقوة رجال الدين الذين كانوا يقومون من الأمراء مقام المعارضة وكانوا يستشارون في شؤون الحكم عامة كما أشرت إلى ذلك في ص ١٦١ وكل ذلك معناه أن الأندلس لم تكن مستعدة للتفكير الفلسفي أو على الأقل للمسارعة في هذا التفكير . ولكن الأستاذ الناقد لا ترضيه هذه الحقيقة الكبرى التي عللت بها لبطء ظهور التفكير الفلسفي هناك ، ومن ثم ذهب يعلل لهذه الظاهرة بأن الجداول اليونانية كانت بعيدة عن الأندلس ، وفاته أنني ذكرت في ص ١٥٩ ، ١٦١ أن الأندلس شاركت في التراث اللاتيني قبل الفتح الإسلامي ، وكلنا نعرف صلة هذا التراث بالجداول اليونانية ! ومن أجل ذلك لم أحاول أن أذكر أنا هذه العلة ، بل إن الجداول اللاتينية لا نرى لها أثراً واضحاً في الأندلس العربية . أما العلة الأخرى التي ذكرها وهي عدم شيوع المذاهب العلوية هناك فأرى أنها سيقت في غير مكانها لأن المذاهب العلوية لم تسرع بظهور الفلسفة في المشرق فضلا عن المغرب . أما العلة الثالثة وهي أن الأمويين في الأندلس صبغوا دولتهم صبغة عربية جعلت أهلها لا يفكرون في الفلسفة فهي محض افتراض تورط فيه بعض الباحثين . ولعل الأستاذ الفاضل يقتنع الآن بما عللت به بطء ظهور التفكير الفلسفي في الأندلس ، فهي بلد محافظ في القديم والحديث ، ومن هنا كان من المعقول أن لا تسارع إلى التفكير الفلسفي الذي يقوم على الحرية في إبداء الآراء وعرضها .

وقد ترك الأستاذ الأديب محمد عبد الغني حسن الفصل الخاص بالأندلس إلى الفصل الخاص بمصر ، فتجنى علي وتحكم في ، إذ طلب إلي أن أحكم بما بقي من نثر ابن الصيرفي على فنه ، وقد وضحت في الكتاب أن ما بقي له لا يفسر صورة التصنع التي نجدها عند كاتب قبله هو ابن الشخباء ، وكاتب بعده هو القاضي الفاضل ، ولذلك ذهبت إلى أن ما بقي من نثره لا يصوره . وقد وقف عند قولي في هذا الفصل الخاص بمصر : « إننا لا نجد لمصر على عهد الإخشيد كاتباً مشهوراً يمكن أن نقرنه إلى إسحق بن نصير فضلا عن ابن عبد كان » وتعجب من ذلك قائلا : إنني أغفلت من قائمة الكتاب المصريين إبرهيم بن عبد الله النجيرمي الذي كان رأس الكتاب في عهد الإخشيد . وهذا صحيح ولا يرد علي ، لأني قرأت ما كتبه القدماء عنه ، ونظرت في الرسالة التي أثرت له فلم أجد فيها لوناً من ألوان الجمال الفني ، وأكبر الظن أن من حقي أن أغفل من لا أجدهم يستحقون الذكر .

أما القسم الثاني الذي قلت إنه أخطاء مطبعية واضحة فينطوي فيه ثلاثة مآخذ ، أما المأخذ الأول فمجيء كلمتي حزن وعدن بتحريك الثاني وهما في موضع يقتضي التسكين ومثل ذلك المأخذ الثاني الخاص بسقوط ألف القطع من عبارة « در أخلاف الرزق » وأما المأخذ الثالث فاتصال ألف الوصل باللام في كلمة « يمكن العقل أن يتصوره » وبذلك أصبحت « يمكن للعقل . . . » . وبين أن هذه المآخذ الثلاثة ترجع كلها إلى أخطاء مطبعية وكلنا نعرف ما تقتضيه مراجعة طبع الحروف العربية من جهد وأنه لا يسلم كتاب — مهما بذل صاحبه — من أخطاء تفلت منه أثناء الطبع .

وأما القسم الثالث الذي كان الناقد الفاضل في غنية عن أن يعرض له ، فعلى رأسه ملاحظته في تعليقي على قطعة من رسالة ابن زيدون أني رددت بعض الأمثال إلى أصولها وتركت بعضاً آخر كما تركت الشعر فلم أنبه على أصحابه ، ومن حقي أن أصنع ذلك ما دمت لا أجد ضرورة . ومن هذا القسم ملاحظته أني أعبر كثيراً بقولي « يخيل إلي كأن » وقد عقب على هذا التعبير بأن الصواب « يخيل إلى أن » ولا أدري من أين يأتي هذا الصواب وأنا أريد أن أضعف من شأن هذا التخيل ولا يستقيم لي ذلك إلا بعبارتي الأصلية التي قصدت إليها قصداً . ومن هذا القسم أيضاً رده على كلمة إفساح إذ أقول « في سبيل إفساح اللغة العربية » وقد ذهب يقول : إن الصواب فسح لأن الفعل فسح الثلاثي متعد بنفسه فلا معنى لتعديته بالهمزة ، واستشهد على ذلك بآية من الذكر الحكيم وهي قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنو إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا

يفسح الله لكم » . والآية الكريمة فيها فعل فسح الثلاثي لازم لا معتد كما توهم ! ولم يذكر اللسان ولا غيره من كتب اللغة أنه متعد بل يمضون في تفسيرهم على أنه لازم . ومن هذا القسم أنه أنكر علي أن أقول القواميس اللغوية ، ودعاني إلى أن أستبدلها بكلمة المعاجم ،لأن القاموس علم على كتاب بعينه في اللغة ،ويخيل إلي كأنه نسي باب التغليب في لغتنا العربية ، وهو باب يبيح لي أن أسمي كتب اللغة باسم القواميس لاباسم المعاجم . وأخرى من هذا القسم وهي أنه يأخذ علي أني استخدمت في الكتاب طائفة من العبارات لمعنى واحد وهي : الجمال الصوتي ، الترادف الصوتي ، التعادل الصوتي ، الموازنات الصوتية ، المعادلات الصوتية ، التوقيع الصوتي ، الإيقاع الصوتي ، التوازن الصوتي ، التقطيع الصوتي ، التلوين الصوتي ، التحاسين الصوتية . ومثل الأستاذ الفاضل يعرف معرفة وثيقة ما بين هذه الألفاظ من مفارق ، فالجمال الصوتي شيء عام كالتلوين الصوتي والتحاسين الصوتية ، أما الترادف الصوتي فيراد به أن يعبر الكاتب عن معنى واحد بعبارتين لغرض الصوت والموسيقى وهو ما كان يسميه القدماء باسم الازدواج ، وأما التعادل الصوتي والمعادلات الصوتية فيقصد بهما أن يحس القارئ بأن الجملتين تتساويان في كمية الصوت وإن لم تتساويا في الصورة مثلهما في ذلك مثل معادلات الجبر ، وأما التوازن الصوتي والموازنات الصوتية فيقصد بهما التساوي في الصورة والكمية جميعاً ، وأما الإيقاع الصوتي فهو الموسيقى العامة ، وأما التوقيع الصوتي فهو النغمات وما يصحبها من ضغوط وارتفاعات وانخفاضات ، وأما التقطيع الصوتي فهو تقطيع العبارتين المتقابلتين تقطيعاً موسيقيا بحيث تتقابلان تقابلا دقيقاً في الحركات والسكنات .

وعلى هذا النحو يرى الأستاذ الفاضل محمد عبد الغني حسن أنه كان ينبغي أن يتريث في مآخذه ، ومع ذلك فأنا أعترف بأن العبارة التي جعلته يظن بأنني أرى أن أسرة بني ثوابة المسيحية كانت أجنبية عبارة موهمة حقا ، وكذلك أعترف له بما نقله عن ياقوت فيما يختص بابن الصيرفي وما نقله عن كتاب «الإشارة إلى من نال الوزارة» فيما يختص بيعقوب بن كلس . وبعد فأنا أشكر له عنايته بالكتاب كما أشكر له تنويهه به وبموضوعه وأسلوبه وما فيه من بحث ودرس ، وإني لا أملك إلا أن أحييه تحية طيبة .

شوقي ضيف

انبـاء

ننشر في هذا الباب أخبار النشاط الفكري والأدبي وأنباء الـكتب والـكتاب مما يوافينا به مندوبونا ومراسلونا بمصر والخارج .

مصر

جورج دوهامل

يزور مصر في هذه الآونة علم من أعلام الأدب الفرنسي هو الأستاذ جورج دوهامل ، ويسرنا أن نزيد القراء معرفة به في هذه الكلمات :

ليس من شك في أن هناك ناحية من حياة الكاتب تظل خافية على المؤرخ العادي ، وهي ناحيــة تكوينه . وقد سئل جورج دوهامل ذات يوم عن تلك الناحية فأجاب :

« أكاد أكون مديناً للفقر بكل ما أعرفه الآن . وإني أقصد فقر سني حداثتي . ومع ذلك ، فإني إذ أنظر إلى أبنائي ، إلى أولادي الثلاثة الأعزاء ، أشعر برغبة حارة ، وقد تكون سخيفة ، تدفعني إلى أن أجنبهم تلك المتاعب المؤلمة التي صيرتني رجلا ، وعلمتني ، وروضتني . كانت طفولتي فقيرة ولكنها لم تكن معدمة . كان أبي ابن مزارع فقضى الجانب الأكبر من حياته في جهاد عنيف عاملا في محل تجاري . ثم أم باريس قبيل الحرب السبعينية وظل يعمل في محل تجاري . وتزوج ، ثم اشتغل بتجارة الأعشاب ، ثم صيدليا ، وعندما بلغ الخامسة والأربعين بدأ دراسة الطب وأتمها عام ١٩٠٠ وهو في الحادية والخمسين من عمره . وبعد عامين من مغادرته الكلية ، التحقت أنا بها . وهكذا نكون قد تخرجنا على نفس الأساتذة تقريباً . ولم يتم هذا الصعود البطيء بغير جهاد لما تخلله من تنقلات وانتقالات . فالذي أذكره أن أبي انتقل إلى أكثر من أربعين مكاناً ، وقد رافقناه في جميع مغامراته . وإني مدين لأمي بأحسن ما فيّ وفي كتبي . وقد ألهمتني كثيراً من صور الأمهات التي وصفتها في بعض مؤلفاتي » .

* * *

ولد جورج دوهامل عام ١٨٨٤ وهو سابع ثمانية أولاد . وكان للفقر تأثير كبير فيه وفي تعليمه لأنه كان مضطراً إلي مرافقة أبيه في تجولاته . وبدأ دراساته الأولية في مدرسة القرية ، ولم

يكن — على حد قوله : « من الموهوبين » ، ولكنه كان كثير الاهتمام بشتى الأمور ، تصدمه آلام الإنسانية القريبة والبعيدة التي كانت تكتنفه وتحوم حوله .

وعندما بلغ العاشرة من عمره ، أجريت له عدة عمليات جراحية في حلقه ، فتأثر — كما يقول — « من رؤية آلات الجراحة » . وقد يكون هذا التأثر هو السبب في رغبته وميله إلى دراسة الطب . وقد ازدادت تلك الرغبة عندما شاهد أباه يكد ويكدح في طلب العلم والسعي وراء الإجازات الدراسية وهو في سن يخلد فيها الرجال عادة إلى الراحة .

ونصحه أحد رفاقه بأن يدرس الطب ، فعمل بنصحه . وفاتح أباه بفكرته فكان عند رغبته . وألحقه أولا بمدرسة الليسيه لإتمام دراسته الثانوية . وساعده بعض الأساتذة في الخارج على تحصيل ما لم يتوفر على تحصيله . وما إن كانت سنة ١٩٠٢ حتى التحق بالسنة الإعدادية في الطب .

وأدت به الحاجة إلى العمل — خلال العطلة الدراسية — في مكتب مسجل للعقود . وهناك تعلم أشياء كثيرة يقول فيها : « إن هذه الأشياء تحيا أحياناً وتتمثل أمامي بشدة إذ أكون جالساً إلى مكتبي . وأنا أفكر وأتأمل أمام القرطاس الأبيض ، أن ما لا أستطيع أن أخفيه ، هو يقظة ميولي الأدبية . فمنذ الثانية عشرة من عمري بدأت أنظم القريض . وبينما كنت أدرس الفلسفة كتبت قصة ، ولكنني لحسن الحظ أحرقتها قبل الحرب العالمية الأولى » .

وكان قد تعرف على بعض الشبان الأدباء بينهم شارل فيلدراك ، الذي تزوج فيما بعد من أخته ، ثم أركوس ثم جول رومان . وفي غضون ذلك نبتت عنده فكرة الأدب ، ومن الغريب أن هذه الفكرة كانت — كما يقول — على أتم وفاق مع ميله إلى الطب. وكان هو وأصدقاؤه في ذلك العهد يؤلفون نواة جيل الشعراء الرمزيين . فكانت مهنة الأدب في نظرهم مقدسة ، فحملوا إليها قلوباً طاهرة خالصة من كل رغبة مادية ، وعقدوا النية على أدائها بدون أن يطلبوا من الأدب أي جزاء عليها . وهكذا كان دوهامل يشتغل في وضع مؤلفاته الأولى في نفس الوقت الذي كان منكبا فيه على متابعة دراساته الطبية .

وكان هو ورفاقه يتناوبون الاجتماع مساء عند واحد منهم عدة مرات في الأسبوع. وفي النهاية اختمرت عندهم فكرة الانتقال إلى الريف ، ليعيشوا كالرهبان الأحرار ، تجمعهم رابطة الصداقة وتضمهم أواصر الأدب فيخصون جزءاً من وقتهم بخدمة الشعر والآخر بأداء مهنة يدوية يستعينون بها على ضمان عيشهم .

وفي سنة ١٩٠٥ تجسم لهم هذا الحلم — ومثل هذه الأحلام متى تجسمت تنتهي بتحقيق جزء منها — فاختاروا مهنة الطباعة إذ كانت تلائمهم جميعاً ، واستأجروا منزلا يبعد أحد عشر فرسخاً من باريس ، وأقاموا فيه آلاتهم الجديدة بإشراف عامل قبل أن يكون مدرباً لهم ومعلماً . وإذ ذاك تأسس ما أطلقوا عليه اسم « الآبئي » [الدير] .

وصدرت عن هـذه « الآبئي » مؤلفاتهم الأولى ، ومن بينها كتاب دوهامل « خرافات ووقائع حربية » .

وتلك المغامرة المؤثرة التي تفتقت عنها أذهان هـذه الفئة من الشبان قد انتهت مع الأسف بالإخفاق . ففي فجر سنة ١٩٠٨ أخـذ كل منهم طريقه عائداً إلى باريس وإلى العزلة . ويقول دوهامل : « وإنني لسعيد بهذه المغامرة لأنني تعرفت بفضلها على زوجي بلانش في حفلة الصيف التي أحياها هؤلاء الأصدقاء في حديقة « ديرهم » عام ١٩٠٧ .

ولم يهجر دوهامل دراسة الطب . وجاز امتحان القبول ملحقاً خارجيا بالمستشفيات بعد سنة من دراسته ، وتأثر من التحيز البين في الامتحانات ، حتى لقد كاد يهجر الطب . وخشي مذمة أبيه ، والتحق بكلية العلوم إلى جانب كلية الطب ، وبينما كان يعمل في المعامل والمستشفيات كان عاكفاً على وضع مؤلفاته الأولى . وكان ، إبان العطلة المدرسية ، يقوم بسياحات في فرنسا وإيطاليا وسويسرا وجنوبي ألمانيا وجبال النمسا ، بصحبة رفاقه وتكاد تكون كلها سيراً على الأقدام . ويقول في ذلك : « ما أكثر المغامرات والثرثرة ! ومع ذلك فقد كانت مواردي ضئيلة . ومنذ ذلك الحين بدأت أكسب عيشي بشق الوسائل ، حتى لقد وضعت مؤلفات في الطب » .

وفي سنة ١٩٠٩ تزوج من الآنسة بلانش ألبان ، وظل حتى سنة ١٩١٤ يجاهد في المعامل والتأليف ومراسلة « المركور دي فرانس » . وكانت الحرب العالمية الأولى ، فألحق طبيباً من الدرجة الثانية ، وذهب تواً إلى جبهة القتال حيث قضى خمسين شهراً في عمل متواصل حتى لقد قال فيه أحد زملائه : « قلما رأيت جراحاً أمهر من دوهامل وأصلب عوداً فهو لا يكف عن الجراحة » . وفي غضون ذلك ، وفي وسط هذا الأتون المتوقد وضع كتابه : « حياة الشهداء » بين عامي ١٩١٤ و ١٩١٦ ولم ينشر إلا عام ١٩١٧ . وفي السنة التالية ظهر كتابه « مدنية » تحت اسم دنيس تفونان فنال جائزة « جنكور » . إن المحاولة التي قام بها دوهامل بتغيير اسمه لا تخلو من سحر ولباقة وتتطلب شيئاً من الجرأة ولكنه كوفئ عليها .

وكانت الحرب أثمن ذخر وأفظع مجـال للاختبار . وقد ألهمته مؤلفين آخرين يمتازان بطابع خاص « محادثات في الضوضاء » و « امتلاك العالم » . وفي سنة ١٩٢٨ نشر « الضربات السبع الأخيرة » ، ويمكن أن يعد تعليقاً على السابقين .

ومرت الزوبعة وهدأت العاصفة ، واختلطت حياة دوهامل اليومية بحياته الأدبيـة ، فكان يكتب ويسيح ، ويستمتع بهناءة الحياة الزوجية البريئة . ومن يتصفح مؤلفاته يجد فيها مزيج حياته ، ومن يرد أن يقف على رحلاته وأسفاره يجدها في مؤلفيه « رحلة إلى موسكو » و « الأمير جعفر » . أما حياته الزوجية فتتجلى في كتابه « الملذات والألعاب » .

وزار مصر عام ١٩٢٧ . وكتب خمسة دواوين من الشعر وسبع مسرحيات ، ودراسات في النقد ، وعدداً كبيراً من القصص يتجلى فيها شعوره وحساسيته : « النور » و « الرجال المنبوذون » و « رجلان » و « اعتراف نصف الليل » و « ليلة عاصفة » و « سالافان » .

لقد نظر دوهامل إلى العالم نظرة هادئة وكتب بيد ثابتة بعد إمعان وتفكير بلغة سلسلة وعبارات دفاقة . وكانت ثقافته العلمية تحد من حساسيته ، فكان لا بد له أن يهدم في كل كتاب ، وهذا ما فعله بعد الحرب الأولى . فعسى أن يبدأ الآن بالبناء بعد الحرب الثانية . وإنه لاشك فاعل .

٭٭٭

من ضيوف مصر المسيو إدجار بونيه المدير العام السابق لشركة قنال السويس ، وهو يعمل في تأليف كتاب عن فرديناند دي لسيبس الذي اقترن اسمه بمشروع حفر القنال .

ومن ضيوفها أيضاً المركيز دى فوجيه رئيس الشركة الحالي ، والمسيو فرنسوا شارل رو العضو في مجلس الشركة ورئيس جمعية « فرنسا — مصر » ، والمسيو لويس ما رنبو ، ويعتزم هذا الأخير إلقاء عدة محاضرات في القاهرة .

يزور القاهرة المستشرق الألماني « هرتزل » أستاذ الآثار الشرقية بجامعة برنستون للإشراف على طبع كتاب « آثار الشام » الذي ينشره المعهد الفرنسي للآثار.

✲✲✲

أقيم في منتصف شهر يناير بالقاهرة برعاية حضرة صاحبة السمو الأميرة شويكار معرض للمؤلفات الفرنسية النفيسة الفاخرة التجليد والطبع. وقد أشرفت على إقامة هذا المعرض الآنسة دلايوم كريمة السفير دلايوم مبعوثة من قبل الأوساط الفرنسية المختصة بنشر مثل هذه المؤلفات .

✲✲✲

ستقيم دار الآثار العربية بالقاهرة متحفاً لبدائع التحف الإسلامية القديمة تشترك فيه الدار ونفر من هواة الآثار الإسلامية ، وقد افتتح هذا المعرض في نهاية شهر يناير .

✲✲✲

افتتح في القاهرة معرض للفن السوفيتي بصالة مدارس الليسيه عرضت فيه رسوم فوتغرافية للتماثيل التذكارية البارزة وأعلام الثقافة والعمائر الممتازة ، ومجموعة فنية للحيوانات البرية والبحرية .

✲✲✲

بعث سعادة كامل البنداري باشا وزير مصر المفوض في موسكو بكتاب إلى وزارة الخارجية يطلب فيه موافاته بنبذ عن تاريخ حياة رجال السياسة والفكر البارزين في مصر في خلال ربع القرن الأخير لنشرها في دائرة المعارف السوفيتية بناء على طلبها .

✲✲✲

انتدبت جامعة الينوي بالولايات المتحدة الدكتور أمير بقطر رئيس قسم التربية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة لإلقاء سلسلة محاضرات في هذه الجامعة لفترة أقصاها عام دراسي .

✲✲✲

من المطبوعات التي تنشرها وزارة المعارف قريباً : كتاب « إيران تحت حكم الساسانيين » للدكتور يحيي الخشاب ، و « مفارقات الحياة » ترجمة الأستاذ عثمان نويه ، و « فرويد » ترجمة الأستاذ أحمد عزت راجح ومراجعة الأستاذ محمد فتحي بك المستشار ، و « الفلك » للدكتور محمد رضا مدور مدير مرصد حلوان . وقررت الوزارة تكليف أحد أساتذة كلية العلوم ترجمة كتاب « الذرة » للسير جورج طمسون .

✲✲✲

ترجم الأستاذ كرم قربه المهندس بمصلحة المنائر والموانئ كتاب « ميناء الإسكندرية » عن ملافال وجونديه ، ويشمل تاريخ الميناء في عهد الأسرة العلوية الكريمة .

✲✲✲

نوقشت في كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول رسالة عن « عائشة أم المؤمنين » من الطالبة اللبنانية الآنسة زاهية مصطفى مدور ، للحصول على درجة الماجستير ، وهي أول لبنانية تقدم رسالة إلى الجامعة المصرية .

السودان

قررت وزارة المعارف المصرية إنشاء وحدة صحية بمدرسة الملك فاروق الثانوية بالخرطوم ، على غرار الوحدات الصحية التي تنشئها في مصر . وقد عين الدكتور عبد الوهاب زين الدين طبيباً لها . ومما يذكر أن المدرسة قد أتمت في أوائل شهر يناير الماضي عامها الأول ، إذ احتفل بافتتاحها في صبيحة يوم ٨ يناير سنة ١٩٤٦ . فكانت هذه المدرسة هدية جميلة من مصر لجنوبي الوادي ، ورمزاً للعلاقات الثقافية التي نبتت منذ القدم .

✲ ✲ ✲

تقرر ضم عضوين جديدين لمجلس إدارة كلية غردون العليا بالخرطوم ، أحدهما من جامعة بيروت ، والآخر من جامعة فؤاد الأول بالقاهرة .

✲ ✲ ✲

توالي مصلحة المعارف اختيار عدد من المدرسين في المدارس الأولية والوسطى ، لإيفادهم إلى الصومال البريطاني ، للعمل على نشر التعليم بين ربوعه ، وبين أهله الذين ما يزال أكثرهم يعيشون على الفطرة .

✲ ✲ ✲

احتفل في أواخر الشهر الماضي بالذكرى الخامسة والعشرين لتأسيس كلية المعلمات في أم درمان، التي افتتحت في سنة ١٩٢١ بخمس طالبات فقط ، وقد صار عدد طالباتها الآن ١٣١ طالبة .

✲ ✲ ✲

أنشأت مصلحة المعارف مكتباً للنشر ، هدفه العمل على نشر المؤلفات الأدبية ذات الصبغة الشعبية ، لسد حاجة العدد المتزايد من عشاق الأدب من السودانيين . وسيقوم المكتب بإصدار مجلة للشبان ، وأخرى للأطفال ، وصور وكتيبات تصور نواحي الحياة السودانية .

✲ ✲ ✲

يبلغ عدد الطلبة في التعليم الثانوي الحكومي ٥٥٥ طالباً ، ويدفع التلميذ الخارجي ١٨ جنيهاً ، ويدفع التلميذ الداخلي ٣٠ جنيهاً . ويقبل في هذا النوع من التعليم سنويا عدد يتراوح بين ١٢٠ طالبا و ١٣٠ طالباً ، بينما يزيد عدد المتقدمين على السبعمائة . ولذا أخذ الراغبون في العلم يقبلون على تقييد أنفسهم في البعثات إلى المدارس المصرية ، على النحو الذي كان قد أوضحه معالي الدكتور عبد الرزاق السنهوري باشا وزير معارف مصر ، في خطابه الذي ألقاه في مثل هذه الأيام من العام الماضي في الحفل الذي أقامه لاستقباله مؤتمر الخريجين بأم درمان .

فلسطين

يبحث عبد الفتاح حلمي بك مدير دائرة حفظ الآثار العربية في القاهرة مع المجلس الإسلامي الأعلى أمر إصلاح أهم أثر تاريخي إسلامي في فلسطين وهو قبة الصخرة في الحرم الشريف .

✡✡✡

تألفت في مدينة يافا لجنـة لإقامة حفلة تأبين للشاعر المرحوم الشيخ إبراهيم الدباغ في أواخر شهر يناير .

✡✡✡

أصدر اتحاد الأندية الأرثوذكسية في فلسطين مجلة شهرية اسمها « المنبر » .

✡✡✡

دعا عطوفة أحمد حلمي باشا فريقاً من الأدباء لإقامة حفلة تأبين لفقيد العروبة والإسلام المرحوم الأمير شكيب أرسلان .

✡✡✡

صرح مدير المعارف بأن الحكومة تفكر في تأسيس جامعة عربية في فلسطين علاوة على توسيع الكلية العربية . وقد قيل إن عربيا فاضلا تبرع بمبلغ ثلاثين ألف جنيه لإنشاء جامعة عربية فى القدس تؤلف من معاهد فنية . وتبذل مساع في حيفا لإنشاء كلية عربية بها .

✡✡✡

نشرنا في جزء ديسمبر الماضي أن الانسة شارلوت سابا هي أول طالبة عربية فلسطينية تتلقى الطب في بريطانيا . وقد جاءنا من الأستاذ نظام المدني بنابلس أن أول فتاة عربية فلسطينية تدرس الطب في إنجلترا هي الآنـة عصمت إبرهيم صنوبر .

✡✡✡

عثر في حديقة قلعة برج داود في القدس على آثار تعتبر من أهم ما وصلت إليه الحفريات من اكتشافات خلال السبعين عاماً الأخيرة . ومن جملتها سور يعتقد أنه أول أسوار المدينة القديمة .

✡✡✡

وضع الدكتور إسحق موسى الحسيني كتاباً في أساليب تدريس اللغة العربية بجميع فروعها . وهو الآن تحت الطبع .

✡✡✡

صدرت في هذا الشهر الكتب الآتية :

(١) صور من الحيـاة العربيـة للسيد نقولا زيادة . (٢) دماء ودموع للسيد عيسى السفري . (٣) الهر الأليف ، وهو الحلقة الأولى من سلسلة سمير الطلبة للسيد شوكت عبد الهادي . (٤) كيف نكسب الأصدقاء للسيد جميل أبو ميزر من أعضاء الندوة الأدبية في القدس .

لبنان

احتفل لبنان في مستهل العام الجديد بعيد الجلاء بعد أن خلت أرضه من كل أثر للقوات الأجنبية . وقد شاركت لبنان أخواته البلدان العربية في إحياء هذا المهرجان . وفي هذه المناسبة وجه فخامة رئيس الجمهورية كلمة إلى اللبنانيين المقيمين والمغتربين ، مجد فيها ذكرى المجاهدين الذين استشهدوا في سبيل الاستقلال ، وأزاح فخامته الستار عن نصب تاريخي ، جاءت فيه الكلمات الخالدة الآتية :

«في ٣١ كانون الأول سنة ١٩٤٦ تم جلاء جميع الجيوش الأجنبية عن لبنان في عهد فخامة الشيخ بشارة خليل الخوري رئيس الجمهورية » .

☆☆☆

نشرت «دار المكشوف» الحلقة الأولى من « سلسلة الثقافة السياسية » بعنوان « النصارى في الشرق » ، لبيير روندو ، وهو بحث في قضية الأقليات العنصرية والدينية في الشرق ، هذه الأقليات التي يدعي الغرب حمايتها ليوطد أقدامه في بلادنا . والبحث يفصل وجهة نظر واحد من المفكرين الغربيين في هذه القضية التي ما برحت موضع أخذ ورد .

☆☆☆

طلبت جامعة « نيوهمشير » في الولايات المتحدة من وزارة الخارجية أفلاماً سينمائية عن مناظر لبنان ومظاهر الحياة فيه لعرضها على طلابها من حين إلى آخر . وتسعى وزارة التربية الوطنية ، بالاتفاق مع بعض الشركات السينمائية إلى تلبية هذه الرغبة .

☆☆☆

من المباحث المقتضبة التي ظهرت أخيراً كتيب بعنوان « الخلافة في الدستور الإسلامي » بقلم محمد جواد الثري . يبحث في أشكال الحكومات وأفضلها ، والشكل الحكومي الموافق لطبيعة المبادئ الإسلامية ولظروفها الأولى .

☆☆☆

وصل إلى بيروت الأديب الفرنسي المعروف جورج دوهامل عضو الأكاديمية الفرنسية ، وألقى فيها بعض الأحاديث القيمة ، منها المحاضرة التي ألقاها في قاعة « دنيا » وشملها فخامة رئيس الجمهورية برعايته .

☆☆☆

صدر عن «دار العلم للملايين» كتاب «كيف تغلب الإنسان على الألم ؟» للدكتور نقولا فياض. ويريد المؤلف بالألم ألم المادة وحده دون سواه ، أي ذلك الذي ينتاب الجسم في مختلف أدوار الحياة بما يتطرق إليه من الفساد أو يعتوره من الآفات سواء أكان في أعضائه الظاهرة أم الباطنة ، فيستعان عليه بالطبيب أو بالجراح .

وصدرت عن الدار نفسها الحلقة الثانية من « أعلام الحرية » للأستاذ قدري قلعجي ، وهي

عرض لحياة إبراهام لنكولن محرر العبيد وموحد الولايات الأمريكية ، ولجهاده المستمر في سبيل جعل العالم خيراً مما هو عليه وأسمى . وختم المؤلف بحثه ببعض مختارات بليغة للمترجم له .

وصدر عنها أيضاً كتاب « على المحك » للأستاذ مارون بك عبود ، وهو عبارة عن نظرات وآراء في الشعر والشعراء ، ولاسيما في بعض المعاصرين كبشاره الخوري الأخطل الصغير ، وشبلي الملاط ، وعباس محمود العقاد ، وأحمد الصافي النجفي ، والزهاوي ، والرصافي ، وحبيب ثابت ، والمعلوف وسواهم . وعرض لهؤلاء بأسلوبه الخاص ، فجاء كتابه زاخراً بالحياة والجديد من الآراء .

✡✡✡

نزل الدكتور عبد الرحمن بدوي ضيفاً على مدرسة الآداب العليا حيث ألقى ثلاث محاضرات في النزعة الإنسانية عند العرب والزمان الوجودي . وقد لاقت هذه المحاضرات الثلاث إقبالا كبيراً في البيئات اللبنانية الراقية .

✡✡✡

تقوم مديرية الآثار بحفريات في مدينة صور التاريخية ظهرت فيها أعمدة رخامية يعتقد أنها كانت لأحد الشوارع الرومانية المرصوفة بالرخام . وعثر المنقبون تحتها على أرض مرصعة بالفسيفساء .

✡✡✡

وضع الأستاذ يوسف أسعد داغر أمين دار الكتب اللبنانية كتيباً بعنوان « القصة الروسية في الأدب العربي الحديث » عرض فيه المؤلف للأدب الروسي بكلمة عامة ومدى تأثيره في مجرى التفكير العربي الحديث ، ثم تحدث عن المؤلفات الروسية التي نقلت إلى العربية وذيله بفهرس للقصص الروسية المترجمة إلى العربية ؛ وقد تناولت هذا الكتاب المجلات الاستشراقية بالتقريظ والتحليل .

سوريا

يقوم فريق من الجغرافيين السوريين بتأسيس جمعية جغرافية علمية تضم جميع مدرسي هذا العلم في سوريا وكل من يرغب الانضمام إليها من جغرافيي البلاد العربية ، وغايتها العمل على إيجاد مصور لسوريا يذكر فيه موارد الثروة والمعادن والمياه المعدنية والمناطق الغنية . وسيكون من غايات الجمعية الإشراف على كتب الجغرافية وتنظيم الرحلات العلمية الكشفية .

✡✡✡

صدر الجزء الأول من كتاب « العرب في طريق الاتحاد » للسيد شاكر الخرده جي وهو بحث تحليلي في القضية العربية وطرق تحقيقها ، ويحوي آراء ونظريات بعض الملوك وأمراء ورؤساء الجمهوريات والمجالس النيابية والوزراء في قضية الوحدة العربية .

✡✡✡

بدأت نقابة المحامين بحلب بإلقاء سلسلة محاضرات حقوقية في دار الكتب الوطنية عن السنة القضائية ١٩٤٦ — ١٩٤٧ أما المواضيع فهي :

(١) الثلمة في قانون الجزاء للأستاذ مصطفى مالك . (٢) مدى اختصاص المحاكم الشرعية

والمجالس الروحية في قضايا الأحوال الشخصية للأستاذ جان مظلوم . (٣) الأحوال الشخصية للأجانب في سوريا للأستاذ إلياس الضباعي . (٤) الجنسية في سوريا للأستاذ ظافر الرفاعي . (٥) الشركات المساهمة في سوريا للأستاذسامي ناقوز . (٦) الملكية العقارية في سوريا للأستاذ عبد الجواد السرميني . (٧) الاتجاهات الحديثة في الحقوق التجارية للأستاذ شفيق محسن . (٨) الصلح الواقي من الإفلاس الأستاذ ليون زمريا . (٩) تملك العقار بوضع اليد للأستاذ أسعد كوراني . (١٠) النظام العام في القانون الدولي الخاص للأستاذ عزة الصقال .

✡✡✡

كلفت الحكومة السورية الأستاذ خليل مردم بك تمثيل سوريا في مؤتمر العلاقات الأسيوية الذي سيعقد في مدينة دلهي في شهر مارس المقبل .

✡✡✡

صدر في دمشق كتاب « الصحة والرياضة في الوضوء والصلاة » للمدرب الرياضي واصل الحلواني . وصدر كتاب « الحمل والأسنان » للدكتور مصون عابدين . وكتاب « الحقوق الإدارية » للدكتور صلاح الطرزي المدرس في كلية الحقوق السورية .

✡✡✡

من مقتنيات دار الكتب الظاهرية مخطوطتان نفيستان من كتاب « بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة » لجلال الدين السيوطي كتبت الأولى سنة ٩٧٦هـ والثانية سنة ١٠٧٤هـ . وديوان عفيف الدين بن سليمان التلمساني كتب سنة ٩٩٨ هـ . والمجلد الثاني من خطط المقريزي كتب سنة ٩٩٨هـ . وجميع هذه المخطوطات تختلف عما في أيدينا من النسخ المطبوعة اختلافاً ملحوظاً .

العراق

في السابع من يناير الماضي فقدت العربية علماً من أعلامها المبرزين وحجة كان الفيصل في الكثير من مشكلاتها ذلكم هو الأب أنستاس ماري الكرملي الذي أفنى حياته باحثاً مجداً متوفراً على رفع شأن العربية ، فقد انقطع للتنقيب عن الألفاظ والغوص في المعاجم ودواوين اللغة ، وساعده على ذلك تضلعه في لغات كثيرة شرقية وأعجمية وأوربية كما أسعفته عزلته في الدير بعيداً عن مشاكل العالم ومشاغل الأسرة .

وما من شك في أن لغة الضاد فقدت فيه فقيهاً عالماً وابناً باراً توفر على خدمتها خدمة مثلى رحم الله الفقيد رحمة واسعة وأجزل ثوابه جزاء مأثراته الكثيرة الخالدة .

✡✡✡

يعنى فخامة الأستاذ طه الهاشمي ، صاحب المؤلفات المختلفة ، بنقل كتاب « تاريخ الإسلام — Annali dell' Islam » للمستشرق الإيطالي كايتاني "Leone Caetani" وهذا الكتاب يتناول بالبحث التاريخي الدقيق حوادث السنين الأربعين الأولى للهجرة . وهو في عشرة مجلدات تربو صحائفها على ٣٥٠٠ من قطع الربع الكبير . وقد فرغ فخامة الأستاذ الهاشمي من نقل المجلدات الأربعة الأولى منه عن أصله الإيطالي .

✡✡✡

وافقت لجنة التأليف والترجمة والنشر العراقية ، على طبع كتاب « تاريخ العلوم العربية » للمرحوم الأستاذ طه الراوي .

✡✡✡

فرغ الأستاذ علي الخاقاني صاحب مجلة « البيان » النجفية ، من وضع كتاب نفيس في « المكتبة العباسية في البصرة » . سرد فيه تاريخ خزانة كتب آل باشي أعيان العباسي في البصرة ، ووصف ما تضمه من مخطوطات . وهذه الخزانة من أجل خزائن كتب الخاصة في العراق .

✡✡✡

نشرت لجنة التأليف والترجمة والنشر العراقية ، كتاب « النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس » لابن دحية الكلبي ، المتوفى سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٥ م) . وهو يبدأ بذكر خلافة السفاح وينتهي بخلافة الناصر لدين الله . وقد عني بتحقيقه الأستاذ المحامي عباس العزاوي .

✡✡✡

عني الأستاذ ناصر جرجيس ، صاحب جريدة «النديم» ، بوضع كتاب « رحلة الوصي وولي العهد إلى تركيا » ، ضمنه أنباء وصور هذه الرحلة التي قام بها سمو الأمير عبـد الإله إلى تركيا سنة ١٩٤٥ ، وجمع فيه ما قالته الصحف ووكالات الأنباء العالمية فيها .

✡✡✡

صدر حديثاً كتاب « توجيه العقل الروسي » تأليف جورج كاونتس وترجمة الأستاذين حسن الدجيلي وهاشم الحلي .

✡✡✡

طلبت لجنة التأليف والترجمة والنشر العراقية من دار الكتب المصرية تصوير كتاب «مختصر كتاب العين » للزبيدي ، استعداداً لطبعه .

✡✡✡

أصدرت كلية الهندسة العراقية ، كتابها السنوي لعام ١٩٤٥ — ١٩٤٦ وفيه تاريخ هذه الكلية ونظامها وأخبار طلبتها وخزانة كتبها وسائر شؤونها .

✡✡✡

يطبع في مدينة النجف ، كتاب « أدباء الأطباء » للأستاذ المتطبب ميرزا محمد الخليلي .

✡✡✡

أصدر الأستاذ صادق عبـد الغني البعلي ، كتاباً جليلا في الزراعة والنبات سماه « الحدائق والأزهار » . وهو بحث علمي عملي يقوم من مجلدين .

✡✡✡

نشر الأستاذ المحامي خالد الدرة مجموعة من مقالاته الأدبية بعنوان « في قفص الاتهام » ، عالج فيها بأسـلوب انتقادي فكاهي مناحي مختلفة مما في المجتمع العراقي . وقد أفرغها في قالب مرافعات نصب نفسه في كل منها « محامي الدفاع » عمن يبغي انتقاده .

الهند

توصل الدكتور داوي الهندي إلى اختراع دواء ناجع ذي أثر فعال سريع في القضاء على أنواع حمى الملاريا سماه بالودرين ، وقد جرب هذا الدواء في نطاق واسع بقسم المباحث في الجيوش ولا سيما في أستراليا فكان مفعوله سريعاً موكداً ، فهو أفضل من الكينا إذ يقضي على طفيليات الملاريا قضاء تاما مع عدم ضرره .

✲ ✲ ✲

احتفلت جمعية نساء الهند احتفالها السنوي برياسة السيدة راماراؤ وقررت تهنئة الرجال على جدهم المتواصل لتحرير الوطن ، كما أوصت بالاعتناء التام بتربية الأولاد تربية تليق بالهند الحرة .

✲ ✲ ✲

تقدمت صناعة الألومنيوم بالهند في السنين الأخيرة ، وللهند مكانة بارزة في البلاد التي تنتج معدن الألومنيوم ، فإنتاج المنجم الذي في تراوتكور جنوبي الهند كاد أن يبلغ خمسة آلاف طن كل سنة ؛ والمنجم الذي في موري بمقاطعة بهار يبلغ إنتاجه أربعين ألف طن كل سنة ، عدا منجم أسنسول الذي ينتج ألف طن كل سنة .

✲ ✲ ✲

يوجد الذهب في الهند في حقول كولار في إمارة ميسور جنوبي الهند ، وينتج هذا المنجم ذهباً يبلغ ٢.٪ مما ينتج العالم بأسره ، ففي سنة ١٨٨٢ م عند اكتشافه أول مرة أنتج ٩ أوقيات بلغ ثمنها ٣٧½ جنيه ، وفي سنة ١٩٤٣م بلغ إنتاجه ٢٥٢,١٩٣ أوقية قيمتها ٥٠,٨٣٩,٧٨١ جنيهاً وقد بلغ عمق المنجم في الحفر ٩٠٠٠ قدم عموديا .

✲ ✲ ✲

اعتنت الحكومة الهندية الحاضرة بصناعة الطيارات بالهند وأنشأت لذلك مصنعاً في بنكلور جنوبي الهند بإشراف ماهري الفن الأمريكيين ، ويرجى أن تتم فيه صناعة أول طيارة بأيدي الهنود في يناير سنة ١٩٤٨ م .

✲ ✲ ✲

اخترع الأستاذ جانيش آير « السيفون الحلزوني » للسيطرة على أثر الفيضان في الخزانات ، ويعد هذا الاختراع تقدماً جديداً بين الاختراعات الأمريكية وغيرها ، ويدل على مساهمة الهنود في الهندسه المائية .

✲ ✲ ✲

عقدت اللجنة التعليمية المركزية في بمباي جلساتها للبت في إصلاح أمور التعليم وإصلاح أحوال الطلبة الصحية في المقاطعة .

شمال أفريقية

ينتظر أن يتقدم الأستاذ مصطفى عبدالله بعيو أحد الأدباء الليبيين برسالة في تاريخ ليبيا للحصول على درجة الماجستير من الجامعة المصرية .

✡✡✡

تأسست في مدينة درنة جمعية ثقافية أطلق عليها اسم « الندوة الأدبية » وقد خصصت لإلقاء المحاضرات والمناظرات العلمية .

✡✡✡

عادت جريدة « برقة الرياضية » إلى الظهور في ثوب قشيب بعد أن توقفت مدة من الزمن. وتصدرها جمعية عمر المختار في بنغازي ، ويشرف على تحريرها نخبة من الأدباء برياسة الأستاذ مصطفى عامر ، وينتظر أن يغير اسمها في المستقبل القريب باسم « الوطن ! » .

✡✡✡

أهدى سعادة عبد الرحمن عزام باشا الأمين العام للجامعة العربية عدة نسخ من كتابه « الرسالة الخالدة » إلى النادي الأدبي بطرابلس الغرب .

✡✡✡

نظمت إدارة معارف طرابلس مسابقة لتأليف كتابين للتاريخ والجغرافيا لتلاميذ المدارس الابتدائية ، وألفت لجنة خاصة للفصل في هذه المسابقة .

انجلترا

يظهر في هذا الشهر كتاب بعنوان « ريح في الصحراء » [Wind in The sahara by R. V.C. Bodley] يقال عنه إنه سجل لسبع سنوات قضاها المؤلف بين العرب في الصحراء. وإنه دراسة لتاريخهم وعوائدهم وقد نشر للمؤلف من قبل كتاب عن بلاد الجزائر .

✡✡✡

ليونيد ليونوف هو أحد النابهين من كتاب روسيا ، وقد منح في العام الماضي وسام لينين ، وظهر له أخيراً باللغة الإنجليزية قصة يبدو فيها ما لأسلوبه من دقة وقوة ويتبين منها ما للكاتب من قدرة ممتازة على تحليل المشاعر الانسانيــة والتغلغل إلى ما وراء مظاهرها ، واسمها : [The Badgers by leonid leonov]

✡✡✡

« وداعاً يا بلاد الهنـد » [Good - Bye, India. by sir Henry Sharp.] كتاب طريف بقلم واحد ممن قضوا هناك سنوات طويلة يشتغل بالتعليم والإدارة ، وهو يروي ما شاهده من تغيرات وقعت في الأحوال الاجتماعية والسياسية ، والكتاب حافل بكثير من الملاحظات والدراسات والأقاصيص الممتعة .

✲ ✲ ✲

«أساس قوة السوفيات» [The Basis of Soviet Strength by G. B. Cressey] كتاب ألفه أحد الأمريكيين من علماء طبقات الأرض والجغرافيا ارتحل كثيراً في روسيا ، وقد خرج كتابه دراسة ثمينة مدعمة بالحقائق عن سر قوة روسيا . وهو يقول إن الزراعة هنالك ما زالت عماد الحياة الاقتصادية .

✲ ✲ ✲

سوف تنشر هذا العام قصة « جديدة » بقلم الـكاتب الفرنسي المعروف دوماس الأب ، — الذي مضت على وفاته ست وسبعون سنة — واسم هذه القصة « الـكونت ديموريه » ويبلغ حجمها حوالي مائتي ألف كلمة . وكانت قد ظهرت في فرنسا خلال سنة ١٨٦٥ ، ونشر جانب منها بعد ذلك في أمريكا خلال القرن التاسع عشر .

✲ ✲ ✲

يقول نيلز هولمر أحد مدرسي جامعة أوبسالا في بلاد السويد ، بعد أن توفر على دراسة مائتي لغة من لغات أوربا وآسيا وأمريكا ، إنه يستطيع أن يثبت أن لغات العالم كافة يشبه بعضها بعضاً من حيث التكوين وأنها صدرت جميعها عن صميم القارة الأسيوية . وهو يرد مائة من لغات الهند التي بحثها إلى أسرة واحدة .

✲ ✲ ✲

جاء من أمريكا أن الأستاذ پيكار سوف يحاول في يونية المقبل أن يصعد في الجو إلى مدى تسعة عشر ميلا لدراسة طبقات الجو العليا . وسوف يبلغ قطر كل منطاد من مجموعة المناطيد التي سوف يستخدمها ٥٧ قدماً .

وجاء أيضاً أنهم قد توصلوا إلى صناعة فرن للطهو يمكن أن ينضج فخذ اللحم في دقيقتين وينتج خبزاً وفطائر لا قشرة لها ، ويعود ذلك إلى أنهم يستخدمون فيه صمامات مما يستخدم في جهاز الرادار الذي كان يستخدم خلال الحرب للكشف عن الطائرات والسفن من مسافات بعيدة .

✲ ✲ ✲

يقول الدكتور هارلو شاپلي أحد العلماء بجامعة هارڤرد إن ما يهدد حضارة العالم في هذا العصر هو تقدم علوم الطبيعة تقدماً لا يتناسب البتة مع تقدم علوم الاجتماع . ويذكر الأخطار التي تهدد الجنس الإنساني بهذا الترتيب : وباء شديد يشمل العالم كله ، حرب يستخدم فيها الغاز والجراثيم والمعدات الذرية ، ثم الملل الذي ينتشر وفقاً لتشابه المنتجات وأشكال الحياة في هذا العصر الصناعي .

✲ ✲ ✲

بلغ من تقدم الأبحاث الخاصة بالمجهر الألكتروني أنهم قد استطاعوا في بعض الأحوال رؤية الأشياء مكبرة خلاله إلى مائتي ألف مرة من حجمها الأصلي .

أمريكا

من الكتب التي صدرت أخيراً « بلزاك » بقلم ستيفان زويج [Balzac by Stefan Zweig] يصور فيه المؤلف حياة بلزاك الخاصة وحوادث غرامه ، ويحلل شخصيته الفذة ويبين روائع أدبه الممتاز وأسلوبه الرائع .

✡✡✡

وصدر أيضاً كتاب « الديانات الكبرى في العالم » بقلم لويس براون [The World's Great Scriptures by Lewis Brown]

وهو عرض تاريخي لجميع الديانات والكتب المقدسة التي ظهرت في عصور التاريخ المختلفة . فيبدأ بذكر الديانات والكتب المقدسة التي ظهرت في فجر التاريخ في بابل ، وفي مصر ، فيشير في هذا الصدد إلى كتاب بتاح حتب وكتاب الموتى وأنشودة الإله الواحد ، ثم يذكر الديانات الهندية والبوذية والكونفوشية والطائية والزردخية واليهودية والمسيحية والإسلام .

✡✡✡

« أورفان بول » بقلم مسكيم جوركي [Orphan Paul by Moxim Gorky] ترجمة ليلي تيرنر [Lily Zurner] ومارك ستريفر [Mark Strever] وهذه الترجمة هي أول ترجمة لهذه القصة باللغة الإنجليزية .

✡✡✡

« قصص دوستوفسكي » [The Short stories of Dostovesky] نشرها وليم فيليبس ، وهي تحتوي على سبع عشرة قصة لدوستوفسكي كتبها فيما بين عام ١٨٤٧ وعام ١٨٨٧ .

✡✡✡

وفقت جماعة من العلماء إلى العثور على بقايا جثة هرناردو كورتيز القائد الأسباني الذي فتح بلاد المكسيك ، فأماطت بذلك اللثام عن سر بقي مكتوماً حقبة طويلة من الزمن . وقد استعان العلماء بوثيقة تاريخية دلتهم على المكان الذي خبئت فيه جثة كورتيز في أثناء المظاهرات العدائية ضد الأسبان في تلك المنطقة .

✡✡✡

تدل الإحصائيات الأخيرة على أن في مدينة نيويورك ٧٠٠ دار للسينما و١٣١٥ مرقصاً وملهى ليليا ، وفيها ٨ قاعات كبرى للحفلات الموسيقية و ٥٤ مسرحاً تمثيليا و ٤٠٥ فنادق تسع ١٢٨ ألف نفس . وفيها من الحدائق العامه ما مساحته ٢٢٫٦٠٠ فدان . وتباع فيها من الصحف اليومية ٥٫٧٦٣٫٠٠٠ نسخة ، ويستعمل سكان نيويورك التليفون ١٢٫٩٤٢٫٠٠٠ مرة كل يوم . ويصل إليها كل دقيقة قطار ، ويشب فيها كل ١٥ دقيقة حريق . ويشرب سكان نيويورك ١٤ مليون جالون من المشروبات الروحية في العام .

رُوسيا

شرعت الحكومة في تشييد بعض الأكواخ في ضواحي المدن لأعضاء أكاديمة العلوم ليتاح لهم وقف جميع جهودهم على العمل في معاملهم دون أن يقلقوا أنفسهم بالأمور المادية الضرورية للحياة، وسيبنى حول موسكو ١٢٥ كوخاً وحول لينجراد ٢٥ كوخاً تجهز بالأثاث المريح وتدفأ بالبخار.

✡ ✡ ✡

افتتحت في موسكو أول مكتبة مركزية من نوعها فيها نحو مائة ألف مجلد عن المسرح، يشمل كافة العصور وكافة الشعوب وعموم المسائل المتعلقة بالثقافة المسرحية من الملابس والزينة وغيرها.

✡ ✡ ✡

سمحت وزارة التعليم العالي لأول مرة هذا العام بالتحاق الطلاب الأجانب بالجامعات الروسية، وفتحت جامعات موسكو ولينجراد وسفيردلوفسك أبوابها لطلاب أموها من أنحاء أوربا كافة.

وقررت الوزارة كذلك إعادة فترة الدراسات الجامعية في جميع الكليات إلى خمسة أعوام كما كان الأمر قبل الحرب.

✡ ✡ ✡

ظهر ديوان « الفصول الأربعة » الذي أسهم في وضعه أربعة من الشعراء الأفذاذ، فنشرت فيه قصائد عن الصيف لكرسانوف وعن الخريف للنكوفسكي وعن الشتاء لبرزيغانسكي وعن الربيع لسيلفانسكي.

✡ ✡ ✡

ظهرت ترجمة حديثة عن الماريشال ستالين بقلم شقيقة زوجته المتوفاة، ومما روته المؤلفة أن ستالين نجا مرتين من الموت في صباه وشبابه، ففي المرة الأولى أصابه خدش في كوعه تسمم دمه على أثره ولكن جسمه تغلب على التسمم وإن كان كوعه ظل معطوباً إلى اليوم. وفي المرة الثانية أصابه ضعف في الرئتين إبان نفيه في سيبريا، فأدركته عاصفة ثلجية طمرته وكادت تقضي عليه لولا أن أنقذه بعض الفلاحين وحملوه إلى كوخ دافئ فلما عاد إليه وعيه شفي تماماً من مرض رئتيه.

✡ ✡ ✡

اخترع العالم نيقولا كرازيلنيكوف دواء أقوى من البنسلين إلى حد أن قطرات منه تكفي لقتل جراثيم السل، وتجري الأوساط العلميــة والطبية تجارب مختلفة لاستخدام هذا الدواء في مكافحة الحميات لا سيما الطاعون والهواء الأصفر.

✡ ✡ ✡

وضع تحت تصرف الكنيسة دار كبيرة للنشر معروفة باسم « بيز بوزنيك » وقد نشرت عدة مؤلفات دينية، وأعادت طبع الكتاب المقدس في أحجام مختلفة.

فرنسا

كشف فريق من علماء الأجناس في مونبليه عظاماً يرجع عهدها إلى ما قبل التاريخ في حفرة عمقها ١١٣ متراً في ضواحى سان باتريل دي باتوا من أعمال ولاية هيرولت .

✡✡✡

منح المسيو جاك نيلز « جائزة الحلفاء » عن مؤلفه « غبار الزمن » . وهذه الجائزة هى رابعة الجوائز الأدبية وآخرها في هذا العام . وقد وضعت هذه الجائزة لتكون مكافأة للصحفي الذي يخرج رواية ممتازة في العام .

✡✡✡

احتفل في ١٥ ديسمبر الماضى بإقامة تمثال « هيكتور برليوز » على قاعدته الجديدة في ميدان فنتمبل برياسة وزير المعارف الفرنسية . والمعروف أن هذا التمثال المصنوع من البرونز كان مقاماً في هذا المكان ثم انتزعه الألمان .

✡✡✡

قررت لجنة « فرنسا — مصر » توزيع الجائزتين المعروفتين باسم جائزتي واصف غالي باشا — وقيمة الواحدة منهما خمسون جنيها — بين مستحقيهما ، فمنحت أندريه ليشتنبرجر الجائزة الأولى تقديراً للمؤلف الذي وضعه قبل وفاته عن « سليمان باشا » ثم أنجزته كريمته مرغريت ليشتنبرجر ، فجاء صورة صادقة لحياة الرجل وأعماله رسمت لجماهير الشعب . وترجو « لجنة فرنسا — مصر » أن تقوم بطبع هذا الكتاب قريباً . أما الجائزة الأخرى . فقد منحها الأستاذ يوسف مراد — وهو أحد أساتذة جامعة فؤاد الأول — تقديراً للمؤلف الذي أصدره فى مطبعة الكان بباريس بعنوان « بزوغ الذكاء » .

✡✡✡

صدر عن البلاد السويسرية كتاب بعنوان « أروبة والإسلام » للأمير أغاخان والدكتور زكي علي . يعرض فيه المؤلفان للفكرة الإسلامية فيبينان ما فيها من سمو ورفعة والدور الذي قام به الإسلام كدين في نشر الحضارة بين القرنين الثامن والثالث عشر المسيحيين وأهمية مراكز الإشعاع الحضري في المدن الإسلامية ولاسيما في بغداد وجنديسابور وأصفهان وسمرقند ودمشق والقاهرة والقيروان وفاس وأشبيلية وغرناطة وقرطبة وطليطلة .

✡✡✡

نشرت مجلة « ديار الإسلام » الفرنسية الصادرة عن مدينة ليون سلسلتها الحادية والعشرين المؤلفة من ثلاث نشرات تعنى بالشؤون الإسلامية عامة والعربية خاصة . وفيها نخبة من مباحث لمشاهير المستشرقين وذكر لأهم الأحداث الأدبية والفكرية والاجتماعية والسياسية في ديار الإسلام .

✡✡✡

في الساعة الخامسة بعد ظهر يوم ١٠ ديسمبر الماضي أذيعت لأول مرة نشرة لاسلكية مصورة عن الحالة الجوية وتقلباتها بالاتفاق بين قسم التليفيزيون في باريس وقسم الأرصاد الجوية . وكانت هذه النشرة تحتوي خاصة على أحدث خرائط الأرصاد .

رسائل القراء

١

حول
تحقيق بيت من الشعر منسوب إلى
أبي فراس الحمداني

اطلعت في عدد يناير سنة ١٩٤٧ من مجلة « الكتاب » الغراء على المقال الخامس من سلسلة المقالات القيمة التي يكتبها الأستاذ الجليل علي الجارم بك في موضوع المعارضات في الشعر العربي . وقد استوقف نظري من المقال المذكور قول الأستاذ :
« أما قوله (أي قول أبي فراس الحمداني) :

إذا صح منك الود فالكل هين   وكل الذي فوق التراب تراب

فهو بعينه بيت المتنبي :

إذا نلت منك الود فالمال هين   وكل الذي فوق التراب تراب »

وأقول مع الأستاذ الجليل إن البيتين لاشك شيء واحد ، وإن البيت أصلاً للمتنبي ، ولا عبرة بالتغيير الطفيف الذي أدخل على صدر البيت الأول . بيد أني قد عجبت لأن يعمد أبو فراس — على منزلته العالية من الشعر والبلاغة ، ومع ما كان بينه وبين المتنبي من خصومة أدبية شديدة — أن يعمد إلى بيت من عيون شعر المتنبي ، وفي حال حياة قائله فيأخذه هذا الأخذ السافر المكشوف ، ويجعل منه ختاما لقصيدة من أمهات قصائده . ووقع في ظني أن البيت موضوع على أبي فراس منقول عليه ، وأردت تحقيق هذه المسألة ، فتبين لي أن البيت المذكور غير وارد في طبعتي أبي فراس الصادرتين في بيروت ، الأولى في سنة ١٨٧٣ والثانية في سنة ١٩٠٠ ، وقد تكررت بعد مرتين على ما أعلم . ثم رجعت إلى بحث علمي عن أبي فراس وشعره كتبه المستشرق رودلف دفوراك ونشره بالألمانية في سنة ١٨٩٥* ، وقد ذيله بنص الباب الثالث من الجزء الأول من

* Abu Firas, Ein Arabischer Dichter und Held Dr. Rudolph von Dvorak.

يتيمة الدهر للثعالبي ، وهو خاص بأبي فراس . وقد رجع هذا المستشرق في إعداد بحثه وفي نشر الباب المذكور من يتيمة الدهر وإلى مخطوطات ديوان أبي فراس ويتيمة الدهر ومجموعات الشعر العربي المحفوظة في المكتبات الأوربية . وتبين أن البيت المذكور غير وارد في أصل من هذه الأصول ، ولذلك أسقطه من بائية أبي فراس وأشار في تعليقاته في [ص ٢٠٤] إلى ورود البيت في الطبعة الدمشقية من يتيمة الدهر .

وعلى ذلك تكون الطبعة الدمشقية من يتيمة الدهر هي التي انفردت بإيراد البيت ضمن بائية أبي فراس☆ . وهولعمري انفراد جدير بألا يعتد به أمام الكثرة الكاثرة من الأصول الأخرى التي لا تروي البيت مطلقاً .

بقيت دلالة نقد البيت من الناحية اللغوية والبيانية . فقوله " فالكل هين " تعبير ضعيف عن معنى مبهم فوق ما فيه من تكلف إدخال " أل " على " كل " وإدخالها على " كل " و " بعض " لم يسمع عن العرب الذين يحتج بكلامهم ، وإن كان المتأخرون قد جوزوه وجرت به أقلامهم . ثم إن البيت يبدو مقحماً على قصيدة أبي فراس وهو مستغنى عنه بالبيتين السابقين عليه اللذين يتألف منهما ختام للقصيدة طبيعي قوي جميل وهما قول أبي فراس :

فليتك تحلو والحياة مريرة   وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر   وبيني وبين العالمين خراب

☆☆☆

فإذا اعتبرنا كل ما تقدم من أدلة نقلية وفنية ، واعتبرنا موقف أبي فراس من المتنبي موقف الخصومة الأدبية الشديدة تبين لنا أن الأحوط من الناحية العلمية والأليق بمنزلة أبي فراس الأدبية أن نمسك عن نسبة البيت المذكور إلى شاعر حلب وفارسها المغوار .

وإني أنتهز فرصة هذه المناسبة فأهدي إلى صديقي الأستاذ الجليل علي الجارم بك خالص تحيتي وعظيم إعجابي بعلمه وأدبه .

رمل الإسكندرية   **عبد الحميد العبادي**

☆ وقد تابع على ما يظهر السيد محسن الحسيني العاملي الطبعة المذكورة فأورد بائية أبي فراس مشتملة على البيت المذكور في كتابه عن أبي فراس الحمداني المطبوع في دمشق سنة ١٩٤٧

٢

حول المعارضات في الشعر العربي

ما زال حضرة صاحب العزة الأستاذ الكبير علي الجارم بك يفيد طلاب الأدب بكل طريف لذيذ .

وقد جاء في الجزء الثاني عشر من مجلة الكتاب في مقال « المعارضات في الشعر العربي — للعصر العباسي » . أن الأستاذ قال عن قصيدة عبد الله بن المعتز العباسي الغاضبة إن هذه القصيدة ما زالت تجتاب السنين بلا معارض حتى جاء الشاعر صفي الدين الحلي فسأله نقيب الأشراف ببغداد أن يعارضها فقال :

ألا قل لشر عبيد الإله وطاغي قريش وكذابها

مع أن هذه القصيدة قد عارضها من قبل الشاعر الفاطمي تميم بن المعز (٣٣٧ — ٣٧٤ﻫ) على الوزن والقافية والمفاخرة والإشادة في النسب والحقوق . ابتدأها بقوله :

إذا فزع الشوق حب القلوب كواها بشدة تلهابها

... دعاني فلست بمستحسن لطرق المجون وآدابها ... إلخ

وقد أشار إلى هاتين القصيدتين حضرة الدكتور عبد الوهاب عزام بك بمجلة الثقافة في العدد ١٣٨ الصادر في ٢٩ أغسطس سنة ١٩٤١

لهذا أقدم هذه النظرة مع احتراماتي وإعجابي بأدب الأستاذ وشاعريته .

نزيل لبنان

محسن جمال الدين

٣

هذه هي الأغلال

إلى الأستاذ رئيس تحرير الكتاب

اسمحو لي أن أعتب عليكم عتباً شديداً — إن لم أسمه اسماً آخر — على تعبير غير كريم ، أفلت من قلم التحرير ، في عدد يناير الماضي خاصا بي ؛ وذلك في مقال « اتجاه التأليف في سنة ١٩٤٦ » . وما دام المقال بلا توقيع ، فلي أن أوجه هذا العتب إليكم خاصة !

جاء هذا التعبير في أثناء الكلام عن كتاب « هذه هي الأغلال » كما يلي :

« ولقد ذكرتنا قوة المؤلف وإيمانه بالبعث العربي الجديد ، بقوة عبد المنعم خلاف في كتابه « أومن بالإنسان » حتى لقد زعم سيد قطب أن بين الكتابين مشابه ، وأن اللاحق منهما آخذ من سابقه . . . » .

فتعبيركم بكلمة « زعم » هو التعبير الذي لايرضاه كاتب مثلي قد أخذ نفسه بالتحرج والتثبت من كل جملة يكتبها في « النقد » خاصة . وما يجوز لكم إسناد هذا الوصف إلي إلا ومعكم إثباته بدراسة مفصلة . أما إلقاؤها هكذا كلمة عابرة بلا دليل فهو الأمر الذي لم أكن أوده لكم ، ولم أكن أنتظره منكم .

سيد قطب

(الكتاب) لاندري أتستحق كلمة « زعم » هذا العتب الشديد وذلك الاسم الآخر الذي عف عنه القلم فبقي في الضمير ؛ ونحن لئن كنا سوغنا لأنفسنا استعمال كلمة « زعم » فما قصدنا بها إلا معنى من معاني القول لا نسبة البطل والمحال إلى الأستاذ العاتب والله من وراء القصد .

٤

شاعر

تحت هذا العنوان الشامخ ، اطلعت في الجزء الأول الممتاز من السنة الثانية على قصيدة الأستاذ الشاعر « عادل الغضبان » رئيس تحرير الكتاب وهي لعمري ، نفحة من عبقري الوحي ، وآية بينة من آيات القصيد النضير

فمن ذا الذي يسمع قوله :

كلما خاب في مناه وأخفق شد قيثاره فأبكي المحاجر

ولا يبكي لتلك المحاجر بكاء ، يطرح السم في عروق البحار ! .

لقد ، والله ، أكبرت القصيدة كشاعر يتذوق حلاوة الشعر وروعة الألحان ؛ ولكني استعرت لدقائق عدستي العروضي الذي يترصد الحركات والسكنات . . فرأيت الأستاذ الشاعر يقول :

ثم صغها حبائكا منضوده للذي أكبر الأنام فنونه

ويقول : هزه شوقه إلى أحبابه فجرى شعره يفيض بدائه

وفي البيتين وقع خطأ عروضي هو « التشعيث » إذ المعلوم أن التشعيث لايجوز

دخوله على الشطر الأول كما وقع في كلمتي (منضوده وأحبابه) وإن جاز دخوله في الأشطر الثانية من الأبيات . . وليرجع الأستاذ الناظم إلى كلمة الأستاذ الشاعر « العوضي الوكيل » في الجزء التاسع من « الكتاب » في صدد الكلام على التشعيث وفيه الكفاية والمراد .

وبعد : فالحق وحده كثيراً ما يكون الدافع لمثل هذه اللفتات، ولا إخال الأستاذ إلا عند حسن الظن ، والسلام ؟

الزيتون عدنان أسعد

نشكر للأستاذ الناقد حسن ظنه وجميل شعوره ونرجو أن يعتقد أننا على ما يصل إليه علمنا لسنا ممن يتسامح في علل العروض وعيوبه فما كان ليخفى عنا أن التشعيث في غير الضرب عيب من العيوب غير أننا نرى أن قطعة الشعر إذا جرى صدر أبياتها على قافية واحدة كان حكم عروضها حكم الضرب فالتشعيث فيها لا يعد خطأ ولا عيباً والله أعلم .

عادل الغضبان

٥

الشوامخ

قرأت ما كتبه الأستاذ عبد المطلب صالح في عدد يناير ١٩٤٧ يقترح فيه على الدكتور محمد صبري أن يستبدل « الشامخون » بـ « الشوامخ » لشذوذ هذا الجمع ؛ لأن فاعلا صفة لمذكر عاقل لا يجمع على فواعل . ونحن وإن اتفقنا معه على صحة القاعدة إلا أنا نخالفه في أن « الشوامخ » ليس شاذا وإنما هو مقيس جاء على بابه .

ونحب أن يلاحظ هنا أن لفظ « الشوامخ » عنوان لسلسلة من الكتب تبحث في شعر طوائف من فحول الشعراء الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين . ولقد تكلم النحاة ، متقدموهم ومتأخروهم ، في هذا الجمع كثيراً وأخرجوه آخر الأمر عن محيط الشذوذ ورجعوه إلى بابه .

***

يرى متقدمو النحاة أن « فواعل » لا يطرد في « فاعل » وصفاً لمذكر عاقل ، وإنما الذي يطرد فيه « فُعَّل » و « فُعَّال» فرقاً بينه وبين مؤنثه . وما جاء من ذلك

في كلام العرب فشاذ أو اضطر إليه اضطراراً . وقد تابعهم في الشذوذ ابن مالك . وقد جاء في كلام العرب نظماً ونثراً شيء من هذا القبيل . قال الفرزدق يمدح يزيد بن المهلب :

وإذا الرجال رأوا يزيد رأيتهم خضع الرقاب نواكس الأبصار

وقال آخر :

فدت نفسي وما ملكت يميني فوارس صدقت فيهم ظنوني

فوارس لا يملون المنايا إذا دارت رحا الحرب الزبون

وقال آخر :

فأيقنت أني ثائر ابن مكدم غداتئذ أو هالك في الهوالك

وقال عتبة بن الحارث لجزء بن سعد :

أحامي عن ديار بني أبيكم ومثلي في غوائبكم قليل

فقال له جزء : نعم ، وفي شواهدنا . فنرى هنا أن عتبة قد جمع « غائب » في الشعر ، وأن جزءاً قد جمع « شواهد » في النثر : فأنت ترى هنا خمسة ألفاظ جموعاً جاء فيها « فاعل » مكسراً على « فواعل » أنخمسة الجموع هذه جاءت شاذة أم اضطر إليها اضطراراً أم جاءت مقيسة على بابها ؟

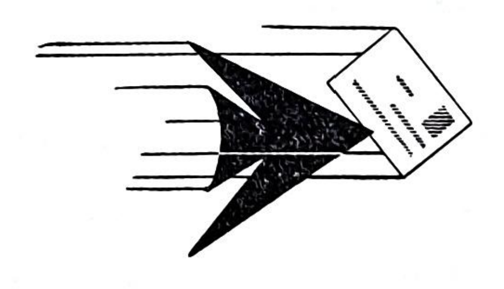
أما ابن مالك فيرى أنها كلها شاذة حيث قال في الخلاصة : « وشذ في الفارس مع ما ماثله » . أما غيره ، كسيبويه والأعلم الشنتمري والزمخشري وابن يعيش وابن الحاجب ومن إليهم فيرون أن « نواكس » قد اضطر إليه الفرزدق اضطراراً فأخرج ما كان من الصفة المشتركة وعدل به إلى الأصل وبناه في الجمع بناءه ؛ ذلك لأن «فاعل» صفة هو الأصل في بناء « فواعل » ثم عدلوا عنه لأنهم قد جمعوا عليه المؤنث فكرهوا التباس البناءين ؛ إذ لو قالوا ضوارب وكواتب لم يعلم أهو جمع فاعل أم جمع فاعلة .

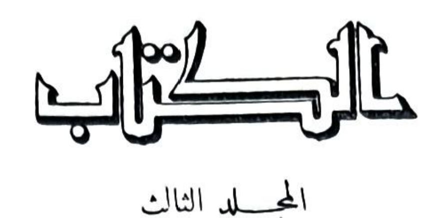
وأما « فوارس » فمجازه أمران : أحدهما أن فارساً قد جرى مجرى الأسماء لكثرة استعماله مفرداً غير موصوف . والآخر أن فارساً لا يكاد يستعمل إلا للرجال ، ولم يكن في الأصل إلا لهم ، فلما لم يكن للمؤنث فيه حظ لم يخافوا التباساً . وكذلك القول في « غوائب » و « شواهد » فإن عتبة لم يرد أن مثله في نسائهم قليل ، وكذلك جزء. أما«هوالك» فقد جرى مثلا في كلامهم، والأمثال تجري على لفظ واحد ، فلذلك جاء على أصله . (انظر في ذلك : سيبويه وشواهده للأعلم الشنتمري والمفصل للزمخشري وشرحه لابن يعيش والإيضاح لابن الحاجب ، وهو شرح للمفصل أيضاً) .

لكن البغدادي في خزانة الأدب ـ عند الكلام على بيت الفرزدق هذا ـ نقل عن أبي الوليد أنه قال في شرح كامل المبرد : « هذا (يريد كلمة نواكس) مخرج على غير الضرورة ، وهو أن تريد بالرجال جماعات الرجال ، فكأنه جماعات نواكس وواحده جماعة ناكسة فيكون مقيساً جارياً على بابه كقائلة وقوائل » .

ثم قال في التصريح ، وهو شرح توضيح ابن هشام عند قوله وشذ فوارس ونواكس . . . إلخ . « وزعم بعضهم أن ذلك كله غير شاذ وأنه جمع لفاعلة ، وكأنه قيل طائفة هالكة وطوائف هوالك ، وكذا الباقي نقله الموضح في الحواشي وأقره » . وبعد ، فمما قاله أبو الوليد والشيخ خالد في التصريح نستطيع أن نقول إن « شوامخ » يطرد في « فاعل » وصفاً ، وهو مقيس فيه جار على بابه لأنا نقول : طائفة من الشعراء شامخة وطوائف شوامخ . أو نقول جماعة من الشعراء شامخة وجماعات شوامخ . على أنه يحتمل أن يكون صاحب الشوامخ أراد بهذا اللفظ قصائد هذه الطوائف وحينئذ يكون جارياً على بابه مقيسا فيه .

عباس عبد القادر





السنة الثانية — الجزء الخامس
المجلد الثالث
ربيع الآخر ١٣٦٦ — مارس ١٩٤٧

أصوات وأصداء

علي إبرهيم باشا

فقدت مصر في أواخر يناير الماضي عالماً من علمائها النابهين النابغين هو المغفور له النطاسي البارع والجراح الأشهر الدكتور علي إبرهيم باشا فجزعت لفقده دوائر العلم ومكارم الأخلاق ، وناح عليه خلق كثير ، وفيهم من كان قد أصبح اليوم في عداد الأموات لولا مشرطه الذي كان يقصّ به حواشي الموت ، ويبقي على الناس نعمة الحياة .

وليس المجال مجال تأبين الراحل الكريم وتعداد مآثره ، ولا مجال الرثاء للوعة وطنه عليه وحزن أهليه الأقربين ، ومن بينهم ذلك المشرط اليتيم الذي يقول فيه شوقي وفي اليد التي تجريه :

لا عدمنا (للسيوطي) يداً   خلقت للفتق والرتق بنانا
تصرف المشرط للبرء كما   صرّف الرمح إلى النصر السنانا
يد (إبرهيم) لو جئت لها   بذبيح الطير عاد الطيرانا

وإنما هي كلمة تقاضتنا الذكرى الكريمة أن ننشر بها على الناس مأثرة من مأثراته ، لتكون لبنة في صرح علمه وشهرته ، وإن كان في غنى عنها ؛ ولتكون منا بنفسجة نبعث بها إلى ذكراه الخالدة المحفوفة بأكاليل الورد والريحان :

أصيبت سيدة بتحجر في أحد ثدييها فعالجها طبيب الأسرة زمناً ، ثم جزم بأنها مصابة بداء السرطان الوبيل ، وحكم بوجوب بتر الثدي سريعاً ، وكانت السيدة جميلة ، لم تبتعد كثيراً عن درجات الشباب الناضج ؛ وكانت ذكية فطنة ، فعرفت أن أسرتها والطبيب يخفيان عنها حقيقة الداء العضال ، فرثت لحالها في صمت وسكون ، وانطوت على نفسها متألمة معذبة ، واستسلمت لله ، واستعدت في صباح يوم محدد للذهاب إلى

المستشفى ليجري لها الطبيب جراحة خفيفة كما قيل لها ، ولـكن في الحقيقة ليجتث زينة صدرها ويترك شفعه وترا .

وكان للسيدة ابنة شابة واقفة على داء أمها ، فعز عليها أن يفصل في أمر كهذا دون استشارة علي إبرهيم باشا فعرجت بأمها ، وهما في الطريق إلى المستشفى ، على عيادة علي إبرهيم .

فحص نابغة الطب المريضة ، ثم جلس إلى مكتبه يكتب لهـا الدواء ، فأخذت المريضة وابنتها تصعدان فيه النظر مشدوهتين مدهوشتين من عدم مبالاته ، واستجمعت الأم شجاعتها لتستوضحه الأمر فيما يخامرها من ريبة ، فانعقد لسانها ، ولم تلفظ شفتاها إلا يادكتور ... ابتسم الدكتور فأحيت ابتسامته ميت الآمال ، وقال للمريضة وقد فطن إلى مايعذبها : مخطئ من يقول لك ماتريدين الإفصاح عنه وترتجفين منه . . . خذي هذا المرهم ففيه بإذن الله الشفاء . فانفجرت المرأتان تبكيان بدموع غزار ، وأكبت المريضة على يده تريد تقبيلها ، ثم انصرفتا مشرقتين زاهيتين تكاد تطيران من الفرح . وها هي ذي السيدة تعيش بثدييها ، وقد مر على هذا الحادث نحو من خمسة عشر عاماً ، ولكن الدهر رماها بأقسى وآلم : خطف ابنتها التي أشارت عليها بالذهاب إلى علي إبرهيم

مجلة الأديب

زميلتنا « الأديب » مجلة راقية نافعة ، كان لها منذ نشأتها إلى اليوم مكانة مرموقة عند أهل الفضل وعند ورّاد مناهل العلم والأدب ، فقد عني صاحبهـا بجهده الأوحد أن يجعل منها للفكر الحر منبراً ، وللثقافة الصحيحة حديقة دانية القطوف. وسار بمجلته بين الوهاد والنجاد حتى تعبت مذاكيه العتاق ، وبليت أرسان المال في يديه ، فلم ير بدا من أن يصيح صيحة عزيزة يلتمس بها المعين النصير . . .

ولا نشك في أنه سيكون لصيحته الصدى المأمول في نفوس الغُير ، لتظل قافلته تسير إلى غاياتها النبيلة من التهذيب والتثقيف في عصر نحن أحوج ما نكون فيـه إلى الغذاء الثقافي السليم ، نقدمه إلى أبناء هذا الشرق في صحاف من الجدّ والرصانة ، وإلا كانت جناية صاحب « الأديب » على نفسه أنه توخى في عمله المثال الأعلى . .

بين المضاف والمضاف إليه

اضطلع بالـكتابة في دواوين الحـكومة ، إبان نهضتنـا الأخيرة ، قوم كانوا — وياللأسف — جناة على لغة الضاد لغة وأسلوباً ؛ وقد يكون الجهل عذرهم الواضح

فيما خلفوه لنا من تعبيرات وتراكيب تتردى ثياب العجمة ، وتجافي برود البيان العربي الصحيح .

وما ونى رجال اللغة — منذ أن تفتحت في حدائق الفكر براعم الوعي القومي — عن أن يصححوا مواقع الخطأ في أساليبنا ، ويرشدونا فيها إلى الصحيح الفصيح ، فدفنت ألفاظ وهجرت تراكيب ، ولكن لا يزال هناك من هذه الأساليب الركيكة طائفة طويلة العمر ، على ما بها من ضعف عناصر الحياة ؛ فلو أن هذه الأساليب تجري على أقلام أفراد من الكتّاب لهان فيها الخطب ، وما تجاوزت دوائر ضيقة من محيط هؤلاء الكتّاب ، ولكنها تصدر عن دوائر حكومية ، في بلد يتزعم البلاد العربية ، ويحتضن مجمعاً لغويا هو ملتقى عدد وافر من الجهابذة الأعلام ، ويمتاز بما يزخر به من جلة الكتاب والأدباء وعلماء اللغة .

ومن تلك التراكيب ما فصل فيه بين المضاف والمضاف إليه ، فإن توارت من وزارة المعارف جملة « مفتش أول اللغة العربية » فلا تزال مثيلات لها تتوّج ألقاباً وعنوانات حكومية أخرى من مثل : « مدير عام مصلحة سكة الحديد » و « مجلس محلي أسيوط» ، و «مجلس بلدي الإسكندرية » . وكلها ترجمة حرفية لنصها الأعجمي ؛ ولا سبيل إلى أن يتمحل لها التأويل إبقاء عليها ، فقد سمع عن العرب الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالعطف على المضاف كقول الشاعر :

يامن رأى عارضاً أسر به بين ذراعي وجبهة الأسد

وقد يكون المعطوف غير مضاف كقول الراجز :

علقت آمالي فعمت النعم بمثل أو أنفع من وبل الديم

ولكن لم يسمع عنهم الفصل بالنعت ، كما هي الحال في الأمثلة التي سقناها ، إذ التقدير في الفصل غالباً أن يكون هناك مضاف إليه محذوف ، وهو ما ينتفي تقديره إذا كان الفاصل نعتاً . فهل نطمع يوماً أن نرى دوائرنا الحكومية تعنى باستعمال ألقابها وعنواناتها على وجهها الفصيح الصحيح .

☆☆☆

إبرهيم الدباغ شاعر الإنسانية

اربأ بنفسك أن تكون نجيبا ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ وازجر خليلك أن يكون أديبا
إني أرى موت الأديب حياته ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ والعيش موتاً يلتقيه ضروبا

خليل مطران

لئن صح أن حياة الأديب والشاعر ورجال الفكر تبتدئ من يوم وفاتهم وتبقى على الدهر ذكراً خالداً ما شاء لها الخلود أن تبقى ليصحن أيضاً أن حياة الشاعر الكبير المغفور له إبرهيم الدباغ قد بزغت في عالم الخلود منذ أن ارتقى من نحو عام إلى الرفيق الأعلى .

ما أكثر ما ازدحمت الأرض بالشعراء وما أكثر من ادعى الشعر من أبنائها ولكن ما أقل من كتب له الخلود منهم فكانت آثاره في الصالحات الباقيات وهل يكتب الخلود لشاعر إلا إذا هبط الأرض وفي جوانحه روح سماوية تبصره بمجالي الخير والحق والجمال وتوحي إليه فيها بأعذب الأناشيد والألحان .

إن روح إبرهيم الدباغ كانت من هـــذه الأرواح السماوية التي يرسلها الله إلى النـــاس بسمة فجر ونفحة زهر وجلوة سحر ومهما تلاشى الفجر وذبل الزهر وبطل السحر فوراء هذه الروائع أثرها في القلوب والنفوس لا يتلاشى ولا يضمحل وربما أعرضت هذه القلوب وهذه النفوس عن تلك الروائع وهي حاضرة وتفقدتها بعد ضياع .

وكذلك كان شـعر الدباغ نوراً روحانيا يتألق من نفس موهوبة ولحناً قدسيا ينبعث من قلب رحيم شفيق فإن كان قد لاقى من الزمن عنتاً وإرهاقاً ومن أبناء هذه الفانية إغفالا وإنكاراً فقـد نسج الخلود له أجمل ثوب من التذكار أضفاه على روحه وعاطفته ليحيا به على توالي الحقب والأزمان .

* * *

إذا قيل إن هذه الحياة حرب بين الأنواع والأجناس في عالمي الحيوان والنبات بحيث يكون البقاء للأصلح فإن الشعر الخالد الباقي على الزمن لن يظفر بالبقاء ما لم يكن قويا في روحه قويا في هيكله وتجاليده يسمق كالدوحة الباسقة تطغى على طفيلي

النجم وتظلل ضعيف النبات وشعر الدباغ هو شعر القوة والعنفوان لما اجتمع لصاحبه فيه من أدوات البيان شأنه فيه شأن كبار الشعراء في هذا العصر ممن تمرس بالشعر على نهج الأقدمين وسلك فيه سبيله الواضحة المعبدة فبدا شعره ولم يعتوره لوثة ووهن ولا تكاءدته رخاوة ولا تبذل وكان لما نهله من ينابيع الفصاحة العربية والبلاغة القحطانية أثر برز فيه شعره قويا صافياً كالصخر ينبجس بالعذب الزلال على أن تأثره بالأقدمين في النهج والأسلوب لم يدفعه إلى أن ينظر إلى الحياة نظرتهم ويستشعرعاطفتهم ويصور بيئتهم ويتغنى بعاداتهم فما شاء لنفسه أن يعيش بين الأموات ويتعثر في القبور بالحجارة والجنادل ويظهر في القرن العشرين بدويا يستطيب خباء الشعر ورمال الصحراء وإنما كان شاعراً عصريا أحس إحساس العصر وعاش في بيئة العصر فصور ما تختلج به النفوس من آلام وآمال وشاطر الناس حياتهم في أفراحهم وأتراحهم وترنم بالوحي كلما هزته الحوادث والأحداث وجلاه شعراً عربيا تمتزج فيه الجدة والرصانة ويأتلف فيه النسج القديم والمعنى الحديث على خير نحو يأتلق فيه الوحي والبيان .

وهذه القوة التي استمدها الدباغ من وقوفه على أسرار بلاغة العرب نلمسها منه في شعر كثير المناحي متعدد الجوانب كلما لاح لنا منه جانب جميل بدا لنا بعده جانب جميل كاللؤلؤة يشع منها النور والبهاء من أي جانب نظرت منه إليها .

امتاز شعر الدباغ بالقوة ثم بالعاطفة في أبهى وجوهها ولم تكن عاطفة رخية تقوم على البكاء والنحيب وراء حبيب هجر وعذول رقب وعلى التوجع والتأوه لنفس قريحة وفؤاد جريح كما هي الحال في شعر العشاق في الشرق والغرب بل كانت عاطفة قوية فيها رقة القلب وكرامة النفس وفيها الحدب على الإنسانية في أبلغ صور العطف والحنان . والشاعر الرقيق الإحساس لا معدى له عن أن يتألم للإنسانية المعذبة تألمه لجراحات نفسه أو يطرب لمسراتها طربه لأفراحه فينشج أو ينشد في حلقته الخاصة المحدودة حتى تهز نفسه الحوادث العامة فينتقل بنشيجه أو نشيده إلى مآتم الإنسانية أو أعراسها فيسمعها آياته البينات .

والدباغ ككل رجل فياض الشعور تألم في هذه الحياة وشكا من عسفها وجورها فلا عجب أن شغلت آلامه وشكاته حيزاً من شعره قاله نبضاتٍ من قلبه ليسجل على هذا الزمن العاتي أنه حرب على الضمائر الحية والنفوس الكريمة فمن هذه الآلام قوله يصف نصيبه من الحياة :

تقلّب قلبي على جمرها حياة تحيّرت في أمرها

وما في يدي غير لأوائها فهل غيب الدر في غمرها

فإذا رأى أن نفسه تعلقت بالأوهام في هـذه الحياة وأن الحظ الأعمى هو الذي يدير كاسات النعيم على النـاس لا رعاية في ذلك للعقل الفاره والذكاء الثاقب ولا للألمعية والنبوغ جأر يزجر نفسه فقال :

لكِ الله يا نفسي تعللت بالمنى وفارقت أسباب المسرة والهنـا
فمن أنت يا نفسي ومن ذلك الذي تحكم في نفعي وضري ومن أنا
أعقلٌ وما لا قيت بالعقل نعمة من الفضل والإقبال والجاه والغنى
أم الحظ والآمال يا نفس جمـة إذا جمحت كرت على الدين والدنا

ولـكن زجر النفس لا يعوضه عن سعادة مفقودة ولاعن رخاء مشتهى فلا بد له أن يذوق طعم الحرمان والضنى ولا بد أن يكون فريســـة للأسى والحزن صباحه ومساءه حتى لتشاركه فيه الورق والعنـادل فيتأسى إذ تأسى له غير أن هذه المشاركة لا تبدله حالا بحال :

الأسى سلوتي ومنـه صبوحي والضنى لذتي وفيـه غبوقي
كم بكت من صبابتي وحنيني كل ورقاء فوق غصن وريق
وتجـلدتُ إذ بكتني فلا غا ض معـين الأسى ولا جف ريقي

وربما ظل على هذه الحال حتى يألف الأسى ويرى فيـه الصديق الصدوق الذي لايخفر ذمته ولا ينقض عهده :

ما لنفسي من صـديق كالأسى يصدق الوعد ولا ينكث عهدا

وهو يقنع من دنياه بصـداقة الأسى ويتحمل أثقال الدهر بصبر ونبالة وترباً به نفسه الرقيقة الحساسة أن ينتحب علناً ويشكو جهاراً وأن يشرك الناس في ألمه وبلواه ولقد بلغ غاية السمو والرفعة ونبل الشيم إذ يعبر عن هذه العاطفة السامية فيقول :

قد جد بي بؤسي فواريته عن سامع ناء وعن ناظر

ولو أنه أراد أن يتمسح بالزمن ويتذلل له وأن يتخلق بغير ما تتحلى به نفسه الكريمة من أخلاق وشمائل لـكان من دنياه في دعة ولرفعه الرياء والمداجاة والصغار والهوان إلى مراقي العزة والمجد ولو أنه فعل لما خرج عن طبيعة هذا البشر المخلوق من ماء وطين ولكن نفس الشاعر أكرم عنصراً من أن تتلوث بهذه الأوحال :

لقد تطهرت من خبث ومن دنس فلست يانفس من ماء ولا طين

وضمير الشاعر يأبى إلا أن يكون في المكان العالي من العزة والكرامة والشرف

والفخار فالشاعر من هذا الضمير الصعب المراس في هم مقعد مقيم حتى ليود لو يفقده ويرتاح منه :

لى ضمير به شقيت فيـــا من يشتريه يريحني من ضميري
أنا منــه في حالتين فما زلـــت أميراً عليه وهو أميري
يرغب الأصغرون مني صغاراً وهو يأبى إلا مكان الكبير

ففي نفس نبيلة وقلب كبير وضمير شريف عف الدباغ عن مباهج الحياة ترفعاً وكبرياء وهو لو شاء لكان الأسد الغاصب والنسر السالب ولكن :

رب نسر في الجو عف عن الصيـــد فأعطى نصيبــه للغراب

فأحر بحياة هذا ديدنها وتلك أخلاقها أن يرذلها العيوف العفيف وأن يتمنى الخروج منها إلى عالم الطهر والراحــة والهناءة أفندهش إذن إذا مرض الدباغ مرضاً شديداً جعل الموت عنده ألذ طعماً من الفاكهة وأطيب شذاً من الفاغية فالتمسه فلم يجده زائراً ولا مسلماً فقال :

مرحباً بالموت إن زا ر وأهــلا بالمنـــايا
أيها المنكر ما للــــموت من بعض المزايا
ترك دنيا علمت أبـــناءها صنع الدنايا
وارتياح من حياة تعبت فيها الرزايا

ولقد بلغ الدباغ من رقة الشعور حــدا دفعه إلى التوجع حتى للنبات فمذهبه في ذلك مذهب كسرى أنو شروان الذي رأى وردة ملقاة على الأرض فالتقطها قائلا : رمي الله من رماك وأهان من أهانك والدباغ لا يكتفي بهذا الدعاء السلبي بل يردفه بلوم الجاني وتقريعه والبكاء على الزهر في مأساته :

أيها الغادي إلى الرو ضة كم غصن ثنيت
ضحك الزهر ولكـــني على الزهر بكيت

وقد يتبع اللوم والتعنيف بالتوعد والتهديد فيقول :

ياثاني الغصن دع للغصن نضرته وخل قامته من كل تكسير
وخل للروض والأغصان زينتها وغادها بين مشموم ومنظور
كم وردة جرحت كفا بشوكتها وزهرة مزقت أحشاء هيصور

وكيف لا يحيط الزهر بهذه الرعاية وهو نديمه وجليسه يغنيه عن صداح القيان ورشف الكؤوس ويملأ فراغ وحدتة ويؤنسه في حبسه حبس العمى :

تخيرت بين الماء والزهر مجلساً فلا غاب ندماني ولا فض مجلسي
مدامي حديث من كتاب وشاهد فلا صوت صداح ولا رشف أكؤس
وكنت أحب الورد بهجة ناظر وما زلت أهوى الورد راحة معطس
وما كادني حبس العمى إذ ألم بي وقد طال في سجن من الجسم محبسي

ومن يتقص أسباب الرقة في قلب الدباغ الشاعر تتجلى له في شريعة المحبة التي يدين بها فكل الناس في عرفه يجب أن يكونوا أخوة أشقاء حتى الأرض والسماء يجب أن تجمعهما صلات هذه القربى التي تعتز بها الأرض فيقول بلسانها :

السبعة الشهب بعض أهلي وسابحات الفضاء قومي
ومن بناتي بنات نعش مرحن يتما بغير يتم
ومن جمالي جمال ليلي ومن نسيجي ثياب نعم
الطين أصل والروح فرع في يوم بدء ويوم ختم

وأكثر ما يحز في صدر الشاعر أن لا تسود شريعة المحبة والأخوة هذه بين الناس وأن تحل محلها شرائع الظلم والغدر والجور والطغيان فينسى عندئذ آلامه بل تزيد آلامه غوراً وتنكأ جراحاته بعد نسيان والتئام :

أرى بؤس الورى فيهون خطبي ويكبر ما أرى فيعود بؤسي

وأين يرى صور آلام البشر وأوجاعهم :

يراها بين جدران الأكواخ المظلمة المعتمة وما هي إلا قبور الأحياء وبيوت الأحزان تتردد في زواياها أنات المعوزين البائسين أو الفقراء المدقعين الذين ما توانوا عن عمل يبنون به ثراء إخوانهم في الإنسانية ومجد أوطانهم :

نازل الكوخ رقيق الحال بالرفق خليق
يرد الماء وبكفيه قليل من سويق
وعلى أكتافه قام بنا المجد العريق
سعة الأرض بمن فيها على البعض تضيق

يراها في « ولوغ أهل الجشع والطمع في أموال اليتامى حتى ليحاول بعضهم قتل وصي على أيتام ليحل محله » :

أرى فئة الحراس ترعى وتمتري بمال يتيم أو بميراث قاصر
وقد أقعد الجوع اليتامى على الطوى تئن وقد فاضت دموع الحرائر

يراها في خسة الإنسان وغدره وجوره وكفره وهي عوامل تنثر سهام الشقاء

في الناس وتقضي على عناصر السعادة فيهم أفكان الدباغ ظالماً الإنسان لما قال :

فإذا يئست من السعادة فالتمس جوا خلا من خسة الإنسان

يراها في الرذائل يتمرغ في حمأتها كل صغير العقل جبان القلب خائر النفس :

يبعثر هذا ماله في مقاصف وينفق هذا إرثه في مواخر

يراها في منوع مجالي السوء فيزجر ويعظ وينـدد ويقرع العصا ثم يبث في الناس شريعة المحبة تتـلألأ في أنوارها أشعة النبل والحكمة لعل الظالمين يفقهون فيرتدعوا :

لو عف عن حق الورى طامع أصبح ما فوق الثرى طلقا

فكل وكر طيره آمن وكل حي بالغ رزقا

ولا يرضى أن يرسل الحكمة الخالدة والعظة الزاجرة دون أن يشفعها بآهة تفيض بذكر قسطاس القدر وميزان العدل وتذكير القوي السادر في غلوائه بنعمة الدهر عليه وواجبه الإنساني :

آه لو حوسب القوي على البغـــي ونال الضعيف بعض الحقوق

لفتحنا للخير كل سبيل وسددنا في الشر كل طريق

وكأني به قد يدرك في بعض الأحيان أن جبلة البشر خبث ورياء وأن المروءة غريبة :

بين أناس لئام قد لوثوا كل بيئه

من سابح في الدنايا وغارق في الخطيئه

ويوقن أن ما لجرح بميت إيلام وأن لا تنفع النصيحة في أموات الهمم فيستسلم لله ويرجو من حكمته أن تدفع المحن والكوارث فيقول في شبه يأس قاتل :

لا تعتب النــاس فقد ماتت من الناس الهمم

وحاسبوا الظلم على ما قد جنى وما اجترم

يا حكمة الله ادفعي بنوره هـذي الظلم

هذه العاطفة المشبوبة الفياضة بالتفجع والأسى لأوجاع صاحبها وأوجاع الإنسانية نجدها عند الدباغ أرهف حسا وأعمق حزنا وأقوى صوتاً وأصخب ثورة عند ما تجيش نفسه حسرات بالغة على حق سليب وظلم فادح وعند ما يرتفع صوته صرخات مدوية ليحمي عرين العدل والكرامة والحرية وليدفع عن بلاد العرب وعن وطنيه فلسطين ومصر نوازل القدر وطغيان البشر .

وتكاد قوافيه تكون في حسرته لبناتٍ من نور في صرح العدالة وفي غضبته صواعق من نار في وجوه الطغاة فهو من :

قومٍ غضاب لحق هان بينهم والحق أضيع مغلوب إذا هانا

وهل من الحق أن :

تشبع من لذاتها أمة وأمة في غير محل تجوع

ولو أن هذه الأمة الجائعة كانت ذات محل وجدب لا نطوت على نفسها ترفعاً وكرامة :

ويعجبني أن يكرم المرء نفسه على ما به من حال بؤس ومن فقر

بيد أن احتراس الشاعر إذ يقول « في غير محل » إشارة لطيفة فاتكة بمهجة باعث ذلك الجدب وتلميح أقوى من التصريح إلى الحق المسلوب الذي يبكيه ولو أن الشاعر كان ذا أثرة ما طمع في الحرية إلا لوطنه ولكنه شاعر إنساني مذهبه المحبة وشريعتة الأخوة فإن رجا الخير فإنما يرجوه للانسانية عامة وإذا بكى على الحرية المكبلة بالأغلال أو سعى إلى تحريرها فإنما يقصد حرية الناس طرا .

أنا أبكي حرية الناس طرا وأراها حصناً لكل العباد

وأروع من هذا وأدل على شعوره المشرب حب الإنسانية جمعاء قوله :

يا سائلي عن هوى نفسي وبغيتها من الحياة وقد غصت بتكدير

هواي تحرير أهل الأرض عن ملأٍ من الهداة وأقطاب الدساتير

فكل نفس لها من سعيها أمل ولا تنال مناها دون تحرير

على أن الحرية لا تدرك بالتعلة والرجاء ولا تفك إسارها قوافي الشعر بل تدرك بهم الأحرار وتضحيات أبنائها المخلصين وطالما ألهب شعر الدباغ حماسة أولئك المخلصين ونفخ فيهم روح البأس والحمية في سبيل الشرق العربي كقوله :

أين الفتى العربي المستعان به يوم الكريهة هل ضاع الفتى العربي

إلى مثل هذا من غمزات الكرامة وإيغار الإباء وشحذ العزائم وبعث الهمم

ولما كان الدباغ فلسطيني المنبت مصري المنشأ فقد طبعت نفسه على آلام هذين البلدين وآمالهما فكان شعره فيهما بلبل أفراحهما وعندليب أشجانهما يرقى بغنائه إلى السماء إذا أصابا من الزمن خيراً وجميلا ويهز بغضبته الغاب والآجام إذا مسهما ظلم الطبيعة وغدر الإنسان ويحمل علم الثورة إذا كاد لهما الكائدون وقسروهما على الاستعباد والاستعمار .

وشعر الدباغ مترع بهذه الصور النبيلة في هذين البلدين : تنكب فلسطين بزلزال فيميد له قلبه وتتصدع نفسه ويعول باكيا راجياً :

الدمع والغيث رزم أيهما الذي انسجم
فاضا على طول العرا ء والجبال والقمم
فما الذي ضرهما لو وقفا عند العلم
أو سكنا مع الريا ح عند أبواب الحرم

ويرميها الزمن بألاعيب السياسة وأحابيلها وطمع الطامعين فيها فيصرخ ويستغيث ويبكي وينتحب ويتوعد ويهدد ويهزأ ويسخر ويقذف الحجة تلو الحجة يقدّها من أصلاب التاريخ وصفاح الحق وينبه النوام ويحذر الغافلين ويسكب نفسه وقلبه في كل هذا عبرات ساخنة وقطرات دامية .

وتنهض مصر إلى تحطيم القيود والأغلال وشراء حريتها بالثمن الغالي من دماء أبنائها الأبرار وتندلع فيها نار الثورة من أقاصي الصعيد إلى فراض البحر ويخوض لهبها الرجال والنساء بين كبير وصغير وعالم وجاهل وشيخ وشاب وأصيل وتزيل وتسكن مصر إلى ظل الدستور تستوحيه العدل والأمن والنظام في تصريف شؤونها وإسعاد بنيها وحماية قطانها وتصغي إلى طبيعتها النقية الصافية فتحسن الظن بما تسمعه من كلام معسول ووعود براقة وبما تراه من سراب لامع وبرق خلب ثم تحزم أمرها على انتزاع حقها ولو من جبهة الليث أو قبة الفلك فلا نرى الدباغ إلا متوغلا في صميم الحياة المصرية ينبعث شعره فيها جائلا صائلا محذراً منددأ مسجلا للحوادث حافزاً للهمم يقطر بالصدق والإباء والوطنية وينضح بالإخلاص لواديها الأمين وعرشها المفدى ورجالاتها العاملين .

✡✡✡

خرج الدباغ من هذه الدنيا حميد الأثر سامي النفس لم تغره أباطيلها ولاخدعته مباهجها فإلى روحه الزكية نبعث بهذه الكلمة احتفالا بميلاده في عالم الذكرى والنور لعله وقد كان يحب الزهر ويهوى الصدق يجد فيها زهرة متواضعة تحمل في ثناياها شذا شعور صادق تنبض به القلوب رحمة وحسرة على أن غادر سكان هذه الأرض فانقطع عنهم شدوه وغناؤه وتخفق به عزاء وسلوى على أنه خالد في الخالدين .

عادل الغضبان

احاديث الكتاب

تحالف الشرق والغرب

ذكرنا في الجزء الماضي من هذه المجلة لمعة وجيزة عن ضيف مصر المسيو جورج دهامل عضو المجمع الفرنسي . ويسرنا في هذا الجزء أن نردف تلك اللمعة بحديث أفضى به أديب فرنسا الكبير إلى مندوبنا مشفوعاً بجملة خطها بيده إلى قراء « الكتاب » وها هي ذي :

C'est au Caire que
l'Orient et l'Occident
doivent signer leur
alliance, pour la
paix et la grandeur du
monde futur

Duhamel

pour les lecteurs
de Ketab

Le Caire Janvier 1947

وترجمتها :

« إنه في القاهرة يجب أن يوقع الشرق والغرب على تحالفهما لسلام عالم الغد وعظمته »

جورج دهامل
« إلى قراء الكتاب »
القاهرة . يناير ١٩٤٧

قال مندوبنا :

من السهل لقاء أشهر رجال السياسة والمال والتحدث معهم ، أما لقاء رجل اشتهر بتوغله في أعماق النفس البشرية فقد أقدمنا عليه في شيء من الرهبة والوجل ، ولكن سرعان ما تبددت هذه الرهبة في مقابلتنا للمسيو دهامل وحل محلها جو من اليسر ، نقلنا إليه ظرف الرجل ولطفه ومن الحق أن نقول إن الرجل لايقابل زائريه متوجاً بأكاليل المجد والعظمة حتي لينسى زائره أنه أمام طبيب عظيم وعالم كبير وأديب من أشهر أدباء عصره ، فلا يرى فيه إلا رجلا سمح النفس والخلق ، يحمل رسالة العقل والروح إلى العقول والأرواح ؛ فهو رجل شغلته مشكلات الحضارة ، لأنه يرى فيها الجسر الذي يجب أن يبنى بين بحر وبحر ، وبين سماء وسماء ، ليتبادل الناس ما لدى الإنسانية من خير عميم .

بدأنا الحديث بالكلام على أثر الشرق في الغرب ، وعلى أثر الغرب في الشرق ، فذكرت أن سفير فرنسا بمصر لما قدم المسيو دهامل إلي الجمهور في أول محاضرة ألقاها قال : « إن فرنسا إذ ترسل المسيو دهامل إلى الشرق وإلى مصر تفي ببعض ما عليها من دين للشرق ولمصر » فطلبت من محدثي أن يفصل مجمل ذلك الدين فقال :

« إن علم الفلك والرياضيات والطب ، وجميع أزاهير الحضارة الأوربية فالعالمية ، قد نبتت أولا على ضفاف النيل ، ثم حملها النيل إلى البحر المتوسط فشواطىء أوربا . .

وكثيراً ما فكرت في أثناء الحربين العالميتين أن الحضارة الغربية لو قضي عليها أن تهدم وتبيد لبقيت للعالم أصول الحضارة المصرية قائمة لا تموت » .

ولما رأيته يضفي على الحضارة المصرية هذا الجلال سألته : ما ذا بقي من هذه الحضارة في الحضارة العصرية ؟

فقال :

« إن الأسس التي تقوم عليها الحضارة العصرية قد اتخذناها من الحضارة المصرية ، فهي دائماً أبداً حاضرة ملموسة الأثر في حضارات العالم الحديث ، ولا سيما في حضارة البحر الأبيض المتوسط ...

إن العقول اليونانية واللاتينية والإسلامية قد ارتكزت عليها حضارة البحر الأبيض المتوسط ، وهذه الحضارة يجب أن يكون لها المحل الممتاز بين الحضارات ، فمنها نشأت الفلسفات والديانات والعلوم »

ثم انتقل المسيو دهامل إلى مصر الحديثة فقال :

« إن مصر الحديثة ستضطلع بأعباء الاستقلال ، وستمشي قدماً إلى العظمة والمجد ؛ ونحن نترقب منها أن تجد وتعمل لنرى أي نصيب ستشترك به في حضارة العالم. ويخيل إلي أنها بذلت قسطاً وافراً من الجهد في سبيل الشعب ، وأن الجهات العليا معنية بتهذيب الشعب ، ودرء الأدواء المادية والمعنوية عنه » .

وساقنا الحديث عن الشعب إلى ما أطلعه الشعب في غير مكان واحد من نوابغ وعباقرة فقال :

« أجل ! ففي فرنسا مثلا يلتمس العظماء من بين الشعب شرطاً بأن توفر له تهذيب حكيم يستطيع به أن يرقى الدرجات الأولى من سلم المعرفة . إن الشعب ذخيرة لا تنفد ... ثم إن على المجتمع الراقي أن يعنى بالتربة التي ستنبت له الأزهار ليستطيع أن يلتمس عند تلك الأزهار ما يبغيه من بذور ... » .

تمثلت للأديب الفرنسي هذه الخواطر عندما علم أن المجتمع المصري ماض في عمله وجهاده ، وأن مساعي مشكورة تبذل لتحسين حال الفلاح فقال :

« إننا إذن على ثقة من الحصول على طبقة جديدة من النوابغ ، وإن المسألة كلها تنحصر فيما يأتي : ثقفوا الشعب ، بلا تمييز بين طوائفه ، ووفروا له الغذاء وابذلوا له جانب الرعاية والعناية ، واشفوه من أمراضه البدنية والأدبية تروا قد انبثق من أعماقه فلاسفة وشعراء وموسيقيون وأدباء » .

ثم طرقنا الموضوع الذي للمسيو دهامل فيه القدح المعلى ، والذي حدث به سامعيه غير مرة في القطر المصري ، وهو الحضارة فقال :

« إن الفرق الكبير بين الثقافة والحضارة يقوم على أن الثقافة إنما هي جزء من الحضارة ، فقد يكون المثقف غير متحضر ، والمتحضر غير مثقف » .

وسألته رأيه في الحضارة الأدبية وماذا يقصد بها ؟ فقال :

« المقصود بها أدب النفس أو الشعور بالعدل والنظام وعاطفة الإحسان والحرية واحترام الإنسان ونكران الذات ، وكل هذا تنص عليه جميع الأديان » .

وحلا لي أن أسأل الأديب الفرنسي الكبير عن رأيه فيما قاله ألكسيس كاريل

في معهد ركفلر وهو : « في اليوم الذي ينضب فيه معين الغرب في استطاعة الشرق أن يحتل المقام الأول » . فقال :

« لا أظن أن معين الغرب يوشك أن ينضب ، ولماذا نفكر في الاستبدال ولا نفكر في المشاركة ؟ ولقد سرني في جولتي في ربوع الشرق أن أرى أمم الشرق تشارك الغرب في الفنون والحضارة ؛ وهذه المشاركة لا سبيل إلى صدها ولا إلى الاستغناء عنها . وكلما أسرعنا في توثيق عراها عظمت الحضارة العامة بها نصيباً » .

فقلت : وإلى أي مدى تظنون أن الشرق في المستقبل سيشترك في بناء حضارة العالم ؟ وما هي رسالتكم إلى هذا الشرق ؟ فقال :

« إننا ننتظر أن نرى الشرق يعمل إلى جانب الغرب في سبيل تنمية الحضارة الإنسانية الصحيحة ، وتدعيم أسسها ، وزيادة ثروتها . فلم يكن الشرق والغرب يوماً في حاجة إلى التفاهم حاجتهما إليه في هذه الأيام . وكل نزاع بينهما فيه قضاء على تنسيق الحضارة وتساوقها » .

ويطيب لي أن أقف قليلا ، في نهاية الحديث ، عند هذه الفكرة الأخيرة التي أعرب عنها المسيو دهامل ، فالرجل جاء يزور العرب فأعجب بأن يرى العرب يحفلون بالشؤون الفكرية . وإذا كان ذاك رأيه في المشاركة بين الشرق والغرب فإنه لا شك جد موقن بأن رجال الفكر منا سيحملون مشعال النور إلى عالم تسوده دياجي الاضطراب والذعر .

وليست كلمات المسيو دهامل عن الشرق العربي حديث مجاملة ، وإنما هي كلمات تنبض بالحق الناصع ؛ فعلينا أن نتدبرها لتزداد حياتنا نوراً جوال الشعاع ، فنجعل من هذا الشرق العربي عاملا من عوامل الحضارة .

م . ك . بولاد زكي

حديقة الأفكار

فلسفة الضحك

للأستاذ عباس محمود العقاد

قد يقال في تعريف الإنسان إنه هو الحيوان الضاحك ، كما يقال في تعريفه إنه هو الحيوان الناطق . ويستوي التعريفان في الدلالة عليه بين سائر أنواع الأحياء ، لأنه الحيوان الوحيد الذي يضحك وينطق بالمعنى المفهوم من النطق في هذا التعريف . ومن كلام نيتشه في فصوله عن إرادة القوة : « إن الإنسان دون غيره يعالج من الألم المبرح في هذه الدنيا ما قد ألجأه إلى اختراع الضحك » . وقد تواتر هذا المعنى في أقوال كثير من الشعراء والأدباء ، فقالوا على اختلاف العبارات ما مؤداه : « إنهم يضحكون لكيلا يبكوا . . » كأنما الضحك أسلوب آخر من أساليب البكاء . وقد يصدق هذا المعنى على اعتبار واحد ، وهو الاعتبار الذي لخصه الشاعر الفيلسوف الإنجليزي كولردج حين قال : « إن حصر الضحك في التعبير عن الازدراء مناقض للواقع ، وفيه ما يكفي من بواعث الضحك . وإنما الضحك اختلاج في الأعصاب يبدو أن الطبيعة تقتضب به السرور باختلاج الأعصاب فجأة قبل أن يصبح ذلك الشعور متجاوزاً للطاقة فيؤلم .. ».

فما لاشك فيه أن الضحك يكون في كثير من الأحيان تنفيساً عن شعور مفاجئ يفوق الطاقة ، سواء من الفرح أو من الحزن والخيبة ، ولكنه أعم وأوسع في أسبابه ومظاهره من أن يستوعب كله في ذلك التفسير .

وانفراد الإنسان بملكة الضحك وملكة النطق يدل على ارتباط الأمرين ورجوعهما إلى خاصة واحدة ، وهي قوة الإدراك والتصور العاطفي سواء كانت عاملة أو مستكنة تتهيأ للعمل . فالطفل الإنساني يضحك بعد أسابيع من ولادته . وقد سجل بيني الأكبر في تاريخه الطبيعي أن الطفل قد يضحك بعد أربعين يوماً من ولادته ، ويعتبر هـذا

تكبيراً بالقياس إلى الأطفال عامة . أما الحيوان فلا يضحك على الإطلاق كما يضحك الإنسان ، وما يسمى بضحك الضبع أو ضحك القرد هو في الواقع صوت يشابه الضحك في السمع ولا يشابهه في دلالته العقلية وبواعثه النفسية من قريب ولا من بعيد .

وقد تعددت آراء الفلاسفة والمفكرين في تعليل أسباب الضحك ودلالته ، ولكنها لم تتناقض فيما بينها ذلك التناقض الذي يمنع الجمع بينها لتنويع أنواع الضحك على اختلافها ، فكل منها يصلح لتعليل نوع من أنواعه ، وهو ولا شك كثير الأنواع .

فيقول الفيلسوف الإنجليزي هوبس « Hobbes » : إنه « ليس إلا زهواً فجائياً ينجم من إدراكنا الفجائي لضرب من التفوق في أنفسنا بالمقابلة بينه وبين نقص نكشفه في الآخرين أو نقص كان فينا قبل ذلك » .

ويأبى العالم النفساني الأمريكي مكدوجال هذا التعميم لأننا قد نضحك من بدوات الأصدقاء الذين نحبهم ، وقد نضحك مع تبادل العطف بيننا وبينهم. فليس شعور « الأنانية » هو باعث الضحك الوحيد ، بل يكون حب الآخرين من بواعثه ودواعيه. وهـذا صحيح على الجملة ، ولكنه لا ينفي سبب الضحك الذي مبعثه الزهو والإعجاب بتفوق الإنسان على غيره ، فلا يزال تعليل هوبس صالحاً لتعليل هذا النوع ولو بعض الصلاح .

ويرى هربرت سبنسر أن الإنسان يضحك كلما فوجئ بما يحبس إحساسه من مجراه فتحول إلى العضلات . وينطبق رأي سبنسر على جميع أنواع الضحك إذا أردنا به حركته الجسدية ، فإننا نشاهد جميعاً الإحساس إذا حبس في مجراه تحول من الأعصاب إلى العضلات . ويبدأ بأسهل العضلات حركة وأسرعها تأثراً وهي عضلات الوجه والشفتين ، ثم عضلات العنق والرئتين . ولهذا نضحك إذا غلبنا الغيظ والحزن ، كما نضحك إذا غلبنا السرور والمرح ، وننفس عن الأعصاب بهذا التحول فنستريح إليه .

وراقب مثلا جماعة من الناس يستمعون إلى واعظ وقور أو إلى مطرب محتفل بغنائه ثم يفاجأون بنهيق حمار في الطريق ! . فإن هذه المفاجأة تمنع إحساسهم أن يسترسل في مجراه فيتحول فجأة إلى حركة عضلية ، لأن الإحساسين لا يتمشيان في طريق واحد فيحدث الضحك لهذه المفاجأة ، ولكل مفاجأة من هذا القبيل .

ولـكن تعليل سبنسر ينطبق كما أسـلفنا على حركة الضحك في جميع عوارضه وحالاته ، أو هو يرينا كيف يحدث الضحك متى حدث ، ولأي سبب جسدي يكون حدوثه ؛ ولا يرجع بنا إلى أصول البواعث والأسباب .

وقد كان الفيلسوف الألماني عمانويل كانت يعلل الضحك بتحول الشعور من لهفة التوقع وتوتر الانتظار إلى غير طائل ، فكان رأي سبنسر بمثابة شرح « فزيولوجي » لذلك التعليل ؛ ووقف كلاهما عند نهاية واحدة في مداه .

أما الفيلسوف الفرنسي برجسون فيرجع بالعلة إلى ماوراء الطبيعة جرياً مع مذهبه العام في الحرية والضرورة . فهو يقول إن عالم المادة هو عالم الضرورة الآلية ، وإن عالم العقل هو عالم الحرية والاختيار ، وإن التطور هو مغالبة العقل للمادة ونجاحه شيئاً فشيئا في تقرير مشيئته بين قوانين الضرورة القاسرة ، وعنده أن قوانين الضروزة ليست هي كل شيء في هـذا العالم ، لأنهـا لو كانت كل شيء فيه لسارت أعمال الناس في سهولة وطواعية كما تسير حركات الآلات التي لايعترضها معترض من قوة أخرى . فوجود الضرورة وحدها يزيل الصعوبة عن حركاتها ، ووجود العقل وحده يزيل الصعوبة كذلك عن حركاته . ولكن المغالبة في الاختيار تدل على وجود القوتين ، أو تدل على أن قوة الحرية تأتي من جانب العقل ، وأن قوة الضرورة تأتي من جانب المادة . وإن الإنسان يترقى في سلم التطور كلما تجاوز طور الحركة الآلية إلى طور الحرية والاختيار .

وعلى هذا يرى برجسون أن الضحك هو سلاح من أسلحة العقل في محاربة المادة ، وأننا نضحك من الإنسان كلما تصرف في أعماله تصرف الآلات ، ونترقى في الضحك كلما ترقينا في فهم الفارق بين العقل والآلة .

فالطفل مثلا يضحك من الرجل إذا اصطدم بالحائط ، لأن الفرق ظاهر بين الإنسان البصير الذي يحيد عن طريق الحائط وبين الآلة التي تمضي في طريق واحد ولا تحيد عنه إلى غيره .

فإذا فهم التصرف الآلي في المسائل العقلية ، كما يفهم التصرف الآلي في المسائل الحسية ضحك من الرجل الذي ينقل المنطق « نقل مسطرة » كما يقولون . ومثال ذلك أن خادماً يؤمر بوضع قليل من الماء في إناء على المدفأة منعاً للجفاف الذي ينشأ من فرط التدفئة ، فيرهق الأعصاب ويصدع الرؤوس . ثم يؤمر بوضع المدفأة في الحمام الذى يملأه بخار الماء ، فإذا هو لاينسى الإناء الذي تعود أن يضعه عليها في حجرة الاستقبال ! . . فهذا منطق « نقل المسطرة » أو منطق الآلة ، وليس بمنطق الإنسان ؛ وهذا هو علة الضحك منه . لأن الضحك في مثل هذا التصرف حافز للعقل الإنساني على الترقي من الضرورة إلى الحرية ، أو من سلطان المادة إلى حرية العقل والروح .

وفي تعليل برجسون جانب واحد لاشك فيه ، وهو أن تصرف الإنسان تصرف

الآلات مضحك في جميع الأحوال ، إلا أن يكون عن عاهة قاهرة لا حيلة فيها ولا طاقة للعقل بالتغلب عليها ، فيضحك في هذه الحالة لأنه عبث خلو من المعنى وخلو من المروءة .

ومن مزايا تعليل برجسون أنه يربط الصلة بين الإنسان الضاحك والإنسان الناطق ، فنعلم أن الإنسان إنما كان هو الحيوان الضاحك الوحيد لأنه هو الحيوان الناطق الوحيد . ولهذا نعتقد أن أفضل التعريفات للضحك أنه « منطق سريع » وأننا نضحك لأننا نقيس الأمور بمقياس العقل لا بمقياس الآلات .

وقد أسلفنا بيان هذا الرأي في تعقيبنا على كتاب الأستاذ البشري رحمه الله « في المرآة » حيث قال في مقدمة هذا الكتاب : إن مرد النكتة « إلى خلل في القياس المنطقي بإهدار إحدى مقدماته أو تزييفها أو وصلها في حكم التورية ونحوها بما لا تتصل به في حكم المنطق المستقيم ، فتخرج النتيجة على غير ما يؤدي إليه العقل لو استقامت مقدمات القياس .. ». قلنا في التعقيب على هذا التعليل إن رأي الأديب صواب في جزء واحد من أجزاء هذا التعريف ، وهو الذي يقول فيه إن التحلل في القياس المنطقي مضحك وإن التلفيق والتزييف داعية من دواعي السخرية . أما الجزء الذي نراه على غير الصواب فيه فهو قوله إن النكتة هي التي تشتمل على الخلل أو التلفيق والتزييف ، لأن اشتمال النكتة على خلل في القياس يسقطها ويلحقها بالهذر والمجانة . والذي نظنه نحن أن النكتة تضحكنا لأنها تفضح الخلل ، وتهتك الدعوى الملفقة ، وتطلعنا على سخافة العقول التي لا يستقيم تفكيرها ولا تطرد حجتها ، ومن ثمّ تكون النكتة هي المنطق الصحيح ، وهي الحجة المفحمة ، وهي البرهان الذي يرجح بالبراهين في معرض الجدل .

* * *

ولما ظهرت المدارس النفسانية الحديثة تناول أقطابها ملكةَ الضحك في الإنسان ، فعللها « فرويد » بما يناسب مذهبه عن الكبت والبوح ، وقال ما فحواه : إن الضحك هو مقاومة الكبت للتفريج عن النفس بنوع من البوح يشترك فيه الوعي والإرادة . وهو تعليل على فرض صحته يقف بنا في منتصف الطريق ، لأننا لا نزال في حاجة بعده إلى السؤال عن صلة بين الكبت والمتناقضات ؟ وسؤال آخر عن الفرق بين الضحك « الهستيري » وضحك المقابلة بين النقائض القليلة ... فنعود كرة أخرى إلى النقائض والمنطق السليم .

أما اختلاف أنواع الضحك فلا يغير تفسيره على وجه من الوجوه التي أسلفناها ، ولكنه يشير إلى اختلاف بواعثه ولا يشير إلى اختلاف معناه .

فالفرق بين ضحك السخرية وضحك الفكاهة وضحك الفوز وضحك التسلية وضحك العطف وضحك الخلاعة هو اختلاف بين أخلاق الضاحكين لا يخرج الضحك عن معناه الأصيل ؛ ولا يزال الإنسان الخبيث والإنسان الطيب سواء في الحد الذي يجعلهما معاً من الحيوان الضاحك ، أو الحيوان الناطق ، ويجعل الإدراك والتصور علة انفراد الإنسان بملكة الضحك بين سائر الأحياء .

فلا بد من عنصر المفاجأة وعنصر المقابلة في جميع هذه الأنواع ، ولا بد أن يكون الإنسان مفكراً ومنفساً عن شعوره المفاجئ في جميع هذه الحالات ، ولا استثناء في ذلك لضحك المجانين أو ضحك المرضى ، لأن خلل الأداة العقلية أو خلل الأداة الحسية لا يعطلهما عن العمل، بل ينحرف بهما عن سواء الفطرة بعض الانحراف أو كل الانحراف . ولا فرق بين القطار الذي تنكسر دواليبه والقطار الذي يجري على أمتن الدواليب في سبب الحركة وفعل البخار ، وإن كان بينهما أبعد الفرق في الوصول إلى غاية القطار .

***

وإذا قلنا إن « الضحك منطق سريع » ففي ذلك جواب مجمل لمن يسأل : هل الضحك ملكة اجتماعية ؟

فإن الإنسان يفكر لأنه حيوان ناطق لا لأنه حيوان مدني بالطبع كما جاء في تعريفاته السياسية . فالضحك ملكة فردية فيه لا تتوقف على وظائفه الاجتماعية ، ولا يلزم من توافر الصفات الاجتماعية في إنسان أن تتوافر فيه دواعي الفطنة للمضحكات.

وقد يقال إن الإنسان لا يضحك على انفراد كما يضحك في حفل من أبناء نوعه ، وقد يقال إن الإنسان لا يضحك بين من يجهلهم ويجهلونه كما يضحك بين من يفهمهم ويفهمونه ، ولا يخطئ من يقول هـذا أو ذاك في تقرير الواقع المشهود . ولكن الاختلاف هنا اختلاف في المقدار والمناسبة وليس باختلاف في أصل الملكة أو في تكوينها من النفس الإنسانية ، فإنه كذلك لا يبكي وحده كما يبكي إذا كثر الباكون من حوله ، ولا يقال من أجل ذلك إن الحزن والبكاء ينبعثان من المجتمع ولا ينبعثان من بنية الآحاد

ولا شك أن السامع الوحيد في حجرته يضحك أو يبتسم إذا فوجئ بالمفارقة المضحكة من جانب السابلة في الطريق أو جانب المتحدثين في المذياع . وكل ما هنالك من فرق فهو الفرق بين تعبير المرء مع نفسه وتعبيره مع الجماعة ، وليس فرقاً في طبيعة النكتة ولا في ملكة الفكاهة ولا في استعداده للضحك منها .

عباس محمود العقاد

تنظيم السلم الأوربي ومصير ألمانيا المغلوبة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

انتهى مجلس وزراء خارجية الدول الأربع الكبرى — بريطانيا وأمريكا وروسيا وفرنسا — من وضع معاهدات الصلح مع إيطاليا والمجر ورومانيا وفنلندة وبلغاريا، وهي الدول الخمس التي كانت حليفة لألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية، وتم التوقيع على تلك المعاهدات الخمس في شهر فبراير، ولكن ما زال على مجلس وزراء الخارجية أن يضطلع بأعظم وأخطر مهامه، وهي وضع معاهدة الصلح مع ألمانيا المغلوبة. وسوف يجتمع المجلس لمعالجة هذه المهمة في موسكو في العاشر من مارس، وقد سبقه إلى بحثها وتنسيق موضوعاتها مؤتمر وكلاء الخارجية الذي يعقد في لندن منذ بضعة أسابيع، والذي عهد إليه أن يستمع لوجهات نظر الدول الصغرى ذات الشأن ومطالبها نحو ألمانيا.

ووضع معاهدة الصلح مع ألمانيا هو مسألة المسائل في تنظيم السلم الأوربي، وفي تنظيم حياة أوربا الجديدة. ومن المحقق أن مؤتمر موسكو سيبذل جهوداً فادحة قبل أن يصل إلى تحقيق هذه الغاية الكبرى. ومما هو جدير بالذكر أن عقد الصلح مع ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، وتصفية المشاكل المترتبة عليها، لم يستغرق سوى بضعة أشهر؛ فقد عقدت الهدنة مع ألمانيا الامبراطورية في نوفمبر سنة ١٩١٨، واجتمع مؤتمر الصلح في فرساي في أوائل شهر مايو سنة ١٩١٩، ووقعت معاهدة الصلح في ٢٨ يونيه ولكن الحرب العالمية الثانية انتهت في أوربا بتسليم ألمانيا النازية في الثامن من مايو سنة ١٩٤٥، وما زال مصير ألمانيا المغلوبة منذ نحو عامين معلقاً في كفة القدر، ولم توضع بعد خريطة أوربا الجديدة بصورة قانونية، ولم تشعر أوربا إلى اليوم بنعمة الاستقرار أو السلم الحقيقي. وقد يرجع هذا البطء في تنظيم السلم إلى خطورة التبعات التي لحقت بألمانيا النازية في الحرب المنقضية، وإلى فداحة المحن المخربة التي نزلت بأوربا من جرائها، وإلى فداحة المشاكل التي ترتبت عليها، ولكنه يرجع بالأخص إلى خلاف الدول الكبرى على مصير ألمانيا المغلوبة، وعلى الأسلوب الذي يجب أن تعامل به، وعلى مدى الضمانات التي يراد وضعها للحول دون عود الخطر الجرماني من جديد.

وقد وضعت المبادئ الأساسية لمعاملة ألمانيا المغلوبة في مؤتمر الأقطاب الثلاثة الذي عقد في بوتسدام « برلين » بين ١٧ يوليه و٢ أغسطس سنة ١٩٤٥ . وتنحصر هذه المبادئ في الأمور الآتية :

أولا — القضاء على النازية والروح العسكرية في ألمانيا .

ثانياً — نزع سلاح ألمانيا نزعاً تاما ، والقضاء على صناعاتها الحربية .

ثالثاً — معاقبة مجرمي الحرب الألمان .

رابعاً — إلزام ألمانيا بأداء التعويضات المطلوبة للدول المعتدى عليها .

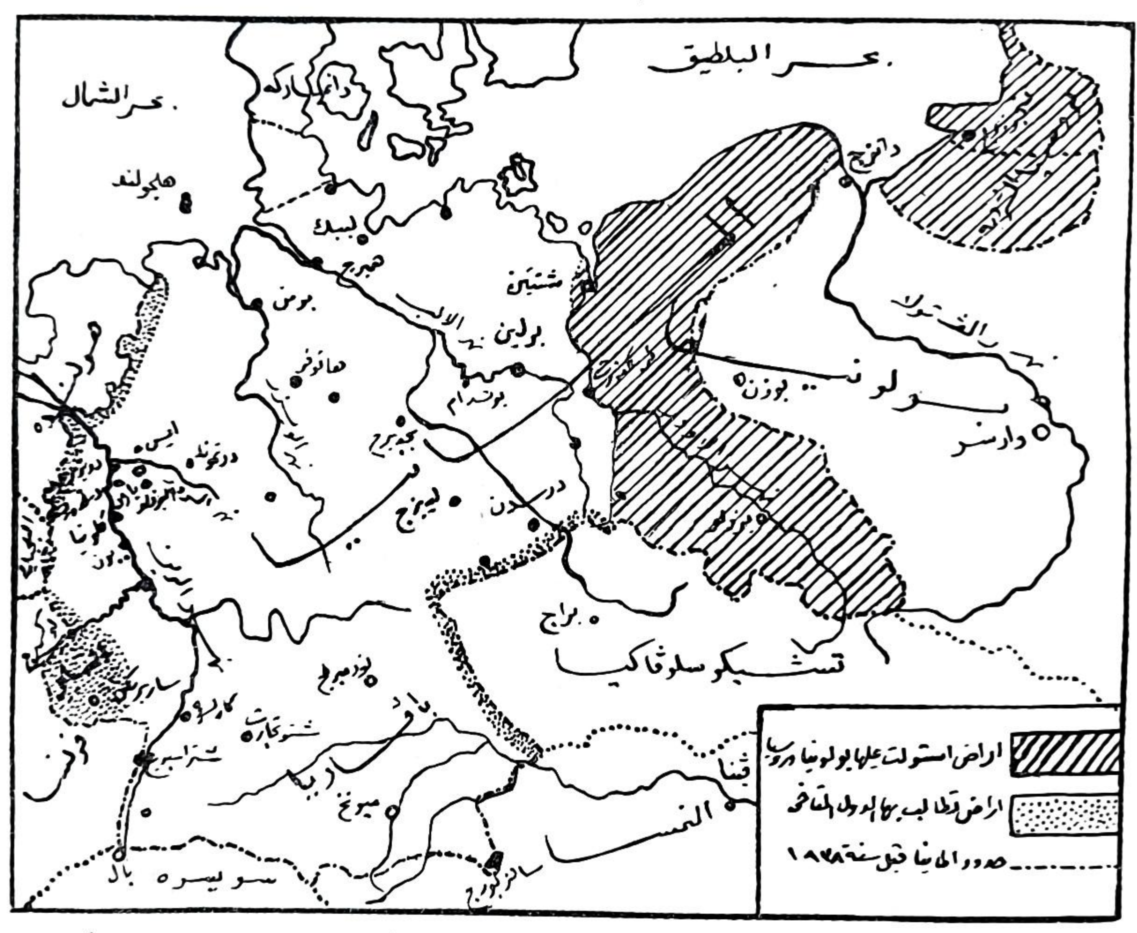
خامساً — إجراء التعديلات الإقليمية اللازمة في حدود الريخ الثالثة .

وبالرغم من أن الدول الأربع المحتلة لألمانيا تعمل منذ مؤتمر بوتسدام على مكافحة النازية ونزع سلاح ألمانيا ومعاقبة مجرمي الحرب فإنها ما تزال بعيدة عن التفاهم على المسألة الكبرى المتعلقة بمصير ألمانيا ذاتها ، وذلك سواء من حيث الأوضاع الإقليمية أو السياسية أو الاقتصادية . هل تعاد إلى ألمانيا — التي تقسم الآن إلى مناطق احتلال أربع — وحدتها الإقليمية والاقتصادية ؟ وهل تقوم فيها حكومة ألمانية موحدة ؟ وهل يسمح لها بأن تحتفظ بصناعاتها السلمية وإلى أي حد ؟ وماذا يكون مصير صناعاتها الثقيلة ، وبالأخص مصير منطقة الرور التي تتركز فيها هذه الصناعات ؟ وهل يسمح لألمانيا الديمقراطية المستقبلة أن تستعيد مركزها السياسي والاقتصادي في أوربا ؟ تلك هي المسائل الشائكة التي ترتبط بمصير ألمانيا ، والتي ستكون محور البحث والدرس في مؤتمر موسكو . ومن المعروف أن هناك خلافاً كبيراً بين الدول الأربع على هذه المسائل ولا سيما بين روسيا السوفيتية وإنجلترا وأمريكا ، ولفرنسا أيضاً وجهات نظر خاصة في بعض المسائل لاتقرها الدول الأخرى .

المسألة الإقليمية

ولنبدأ بالمسألة الإقليمية وهي في ذاتها متعددة النواحي . وقد اتخذت الخطوة الأولى في سبيل حل « الريخ » الثالثة حينما قرر الحلفاء الظافرون في وثيقة النصر الأولى الصادرة في ٥ يونية سنة ١٩٤٥ ، أن تعود حدود ألمانيا الهتلرية إلى ما كانت عليه في ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٧ وبذلك فصلت عنها سائر الأراضي التي ضمت إليها غصباً في عهد هتلر ، وحررت النمسا وتشيكوسلوفاكيا ، وردت الألزاس واللورين إلى فرنسا . واتخذت الخطوة التالية حينما قرر مؤتمر بوتسدام أن يعترف بصورة مؤقتة وبصفة

فعلية «de Facto» بسيادة بولونيا على رقعة كبيرة من أراضي ألمانيا الشرقية تشمل معظم أراضي بروسيا الشرقية ودانزج وبومرانيا وسيليزيا العليا وتمتد على طول نهر الأودر وفرعه نيسي حتى مصبه ، وتشمل ثغر شتيتن ، وأن يقر استيلاء روسيا السوفيتية على ثغر كنجزبرج عاصمة بروسيا الشرقية وما حوله من الأراضي . ويعتبر هذا البتر بالنسبة لألمانيا أفدح خسارة إقليمية نزلت بها منذ عصور طويلة . وتبلغ الرقعة المنسلخة نحو ربع أراضي ألمانيا كلها ، وتشتمل على قسم كبير من أخصب مناطق ألمانيا الزراعية كما تشتمل



على مدن ألمانية عريقة محضة مثل برزلو وشتيتن ويقطنها نحو عشرة ملايين من الألمان . هذا إلى ما تضمه من ثروات وصناعات معدنية . ويوصف هذا البتر لجزء من الوطن الألماني الصميم بأنه تعويض لبولونيا عما خسرته من أقاليمها الشرقية التي استولت عليها روسيا . وتقول بولونيا إن ما ضم إليها من الأراضي الجديدة لا يزيد إلا قليلا على نصف ما فقدته من أراضيها . وقد استقدمت الحكومة البولونية نحو ثلاثة ملايين بولوني لاستعمار الأراضي الجديدة ، والمفهوم أنه ستوضع خطة لإجلاء السكان الألمان الأصليين إلى داخل ألمانيا وذلك اتقاء لتفاقم المشكلة العنصرية في هذه المنطقة . وقد وافقت بريطانيا في مؤتمر بوتسدام مكرهة على هذا التعديل الإقليمي الخطير ، ومع ذلك فلم

يحجم مستر تشرشل عن أن يندد به في مجلس العموم ، وأن يعرب عن مخاوفه مما قد ترتكبه بولونيا من الأخطاء في حكم هذه الأراضي الألمانية العريقة .

ولفرنسا أيضاً نحو ألمانيا رغبات إقليمية خاصة فهي تطالب بضم منطقة السار « سارلند » الغنية بمناجم الفحم إليها وجعلها وحدة سياسية مستقلة تحت الحماية الفرنسية، كما تطالب بفصل ولايات الرين ومنطقة الرور عن ألمانيا ، وجعلها دولا مستقلة تحت إدارة دولية في ظل احتلال عسكري دائم، وتعديلات أخري لحدود الألزاس واللورين. وتطالب كل من هولندة والبلجيك واللوكسمبرج ودانماركة وتشيكوسلوفاكيا كل منها بتعديلات يسيرة في حدودها على حساب ألمانيا .

ولكل من الدول الأربع الكبرى إزاء هذه المطالب والتعديلات الإقليمية موقف خاص ، فبينما تعضد كل من روسيا وفرنسا بولونيا ، وتقر استيلاءها على الأراضي الألمانية التي وضعت تحت إدارتها ، بصفة نهائية ، إذا ببريطانيا تعارض هذا التعديل الخطير وترى أن ما قرره مؤتمر بوتسدام لم يكن سوى حل مؤقت وبصورة فعلية فقط « de Facto » ، وأنه يجب إعادة النظر في حدود ألمانيا الشرقية مرة أخرى قبل أن تتخذ الصفة الشرعية النهائية «de Jure» . وأما فيما يتعلق بمطالب فرنسا فقد صرحت الحكومة البريطانية أنها لا تعارض في وضع السار تحت الإدارة الفرنسية ، بشرط أن يدخل ذلك في حساب التعويضات المطلوبة لفرنسا ، ولكنها لا تؤيد اقتراحات فرنسا بخصوص ولايات الرين ومنطقة الرور . وتتخذ حكومة الولايات المتحدة في هذه الشؤون الإقليمية موقفاً مماثلا لموقف السياسة البريطانية .

مشكلة الرور

وتتخذ مشكلة الرور أهمية بارزة ؛ وتشمل هذه المنطقة الألمانية الصناعية سلسلة من أعظم المدن والمراكز الصناعية تمتد — على طول نهر الرور « فرع الرين » من مدينة درتموند حتى أبسن والبرفلد وبارمن ودويزبرج — من الشرق إلى الغرب نحو خمسين ميلا ، وتمتد من الشمال إلى الجنوب نحو خمسة وعشرين ميلا ؛ ويعتبرها البعض مشتملة على ولايتي رينلاند وستفاليا بما في ذلك مدينتا كلونيا ودسلدورف وغيرها ، وهو توسع في تحديد هذه المنطقة . ومنطقة الرور — فضلا عن كونها أعظم مناطق الصناعة الألمانية الثقيلة — هي أعظم مناطق الفحم في أوربا كلها ؛ وتنتج منه ما يعادل سبعين في المائة من فحم ألمانيا كله ، وبها أعظم مصانع الحديد والصلب الألمانية . وقد اعتبرت

منطقة الرور دائماً بصناعاتها الثقيلة أعظم موارد ألمانيا العسكرية ومصدر قوتها المتفوقة في التسليح ، ولذلك تجمع الدول الأربع الكبرى على وجوب القضاء على هذه القوة الصناعية الخطيرة ، وحرمان ألمانيا من إحيائها مرة أخرى ، وذلك على خلاف في الوسائل التي تتخذ للقضاء عليها .

وقد أصيبت منطقة الرور أثناء الحرب بتخريب واسع المدى قضى على نحو من نصف صناعاتها الثقيلة ؛ وقررت الدول المحتلة أن تنقل كل منها آلات المصانع التي تقع في منطقتها ، ومع ذلك فإنه يتبقى بعد ذلك في هذه المنطقة نسبة عظيمة من الصناعات الثقيلة صلبية وغيرها ، وتبقى مشكلة القضاء عليها قائمة .

وتختلف آراء الدول الكبرى اختلافا بيناً في معالجة هذه المشكلة ، فقد أبدت أمريكا رأيها أولا بوجوب القضاء على صناعات الرور ومحوها من الوجود بصورة قاطعة ، ولكن الاعتبارات الاقتصادية الخطيرة المتعلقة بألمانيا وأواسط أوربا حملت السياسة الأمريكية على تعديل هذا الرأي . والمعروف أن أمريكا ترى الآن أن توضع صناعات الرور تحت إشراف دولي من الناحية الاقتصادية فقط ، وذلك لتحول دون تحولها إلى صناعات حربية ، هذا مع معارضتها في فصل الرور عن ألمانيا من الناحيتين الإدارية والسياسية ، لأن ذلك يعارض قرارت مؤتمر بوتسدام في وجوب اعتبار ألمانيا وحدة اقتصادية . ويتمثل رأي روسيا في تصريح المارشال ستالين الشهير : «يجب أن ننزع من ألمانيا القوة التي تمكنها من إثارة الحرب في المستقبل ، ولهذا يجب أن ننزع الرور من ألمانيا ؛ لأنه يمدها بمعظم القوة التي تمكنها من خوض الحرب » . والمفهوم أن السياسة الروسية لا تعنى بالوسيلة قدر ما تعنى بالغاية ، فهي تريد أن يقضى على الصناعات الثقيلة في الرور وأن يخفض إنتاجه الصناعي إلى أدنى حد ممكن ، وهي لا تعنى بأمر النظام المستقبل الذي يوضع لمنطقة الرور إلا بقدر ما يحقق هذه الغاية . أما فرنسا فرأيها صريح معروف وهي ترى في نظام الرور المستقبل حجر الزاوية في صرح السلام الأوربي ؛ وتعتقد أنه يحق لها — باعتبارها جارة ألمانيا المباشرة من الغرب — أن تفوز بأكبر قسط في الإشراف على هذه المنطقة ، وفي رأيها أنه يجب أن تفصل منطقة الرور عن ألمانيا ، كما يجب أن تفصل ولايات الرين كلها ، وأن تجعل دولا خاصة ذات استقلال ذاتي ، وأن توضع تحت إشراف دولي ، ويحتلها جيش دائم فرنسي أو دولي . وقد أصرت فرنسا على موقفها منذ البداية ، ولم تقبل أن تقر ما قرره مؤتمر بوتسدام من وجوب معاملة ألمانيا كوحدة اقتصادية . ولكن السياسة الفرنسية تصطدم في مسألة

الرور بمعارضة شديدة من جانب السياسة البريطانية ؛ ومنطقة الرور تقع كما هو معروف في منطقة الاحتلال البريطانية . ووجهة نظر بريطانيا التي أكدتها غير مرة هو أنها مع حرصها على أن لا توضع « ترسانة » الرور مرة أخرى في يد حكومة ألمانية عسكرية ، فإنها لا يمكن أن تؤيد سياسة ترمي إلى فصل ولايات الرين أو منطقة الرور عن الوطن الألماني . وقد نوه مستر بيفن بهذا الرأي لآخر مرة في مجلس العموم في أكتوبر الماضي حيث صرح بأن الحكومة البريطانية على استعداد لأن تقبل مقترحات فرنسا في شأن منطقة السار ، ولكنها لا تستطيع أن تؤيد مقترحاتها في شأن ولايات الرين ومنطقة الرور ؛ وفي البلاغ الرسمي الذي أصدرته الحكومة البريطانية في منتصف يناير عن المحادثات الفرنسية البريطانية بشأن عقد ميثاق تحالف جديد بين البلدين أشير إلى أن مسألة السياسة التي تتبع نحو ألمانيا في المستقبل قد قتلت بحثاً ، وإلى ما انتهى إليه الفريقان من أنه يجب أن تتخذ خطوات فعالة من شأنها أن لا يصبح انتعاش ألمانيا الاقتصادي خطراً يهدد سلام العالم مرة أخرى ، وأنه يجب لمصلحة الدولتين ، واتقاء للخطر الألماني في المستقبل أن تعقدا معاً معاهدة تحالف في حدود ميثاق الأمم المتحدة ؛ وإن عقد معاهدة كهذه بين البلدين ييسر سبيل الوصول إلى تسوية جميع المسائل التي تقوم بينهما ؛ ومع أنه قد اتفق بين البلدين على أن تفصل المسائل المختلف عليها بالنسبة لألمانيا ، عن موضوع التحالف الثنائي ، فإنا نستطيع مع ذلك أن نتوقع أن مشروع التحالف قد يمهد سبيل التقارب بين السياستين الفرنسية والبريطانية فيما يجب أن يتبع نحو ألمانيا ، وأن بريطانيا العظمى قد تستطيع بنفوذها أن تلطف من حدة المقترحات الفرنسية المتعلقة بالمعاهدة الألمانية وبمصير ولايات ألمانيا الغربية .

مصير ألمانيا السياسي والاقتصادي

ويلقى مصير ألمانيا السياسي والاقتصادي نفس الخلاف في وجهات النظر ، وقد رأينا أن مؤتمر بوتسدام قرر أن تعامل ألمانيا كوحدة اقتصادية ، ولكن الدول الأربع تنقسم إزاء ذلك إلى فريقين . وبينما تؤيد بريطانيا وأمريكا قيام هذه الوحدة إذا بروسيا وفرنسا تعارضان في تحقيقها. وقد رأت بريطانيا وأمريكا إزاء ذلك أن تعملا على توحيد المنطقتين البريطانية والأمريكية وإدماجهما من الناحية الاقتصادية ، وهما تشملان أهم مناطق ألمانيا الصناعية . على أن المارشال ستالين قد صرح في أحد أحاديثه الأخيرة بأن روسيا لا تعارض في توحيد ألمانيا الاقتصادية ، بل لا تعارض في توحيدها السياسي أيضاً .

فإذا كانت سياسة موسكو تجنح أخيراً إلى هذا الاتجاه فإن الرأي قد ينعقد في موسكو على تحقيق وحدة ألمانيا السياسية والاقتصادية ، وذلك بالرغم من معارضة فرنسا التي تصر على وجوب تقسيم ألمانيا إلى وحدات سياسية اتحادية كما كانت عليه قبل تحقيق وحدتها ؛ وتعارض في توحيدها السياسي أشد المعارضة . ويرى الذين يؤيدون وحدة ألمانيا السياسية والاقتصادية أن تحقيقها خير وسيلة لتذليل الصعاب الفادحة التي تلاقيها الإدارة العسكرية الحاضرة في حكم الشعب الألماني ، وفي إطعامه وتموينه ، وفي إنعاش ألمانيا اقتصاديا إلى الحدود التي تمكنها من الوفاء بالتعويضات التي ستفرض عليها .

ومن جهة أخرى فإنه لا بد من الوصول إلى تحقيق هذه الوحدة عاجلا أو آجلا، والعمل على إقامة الحكومة الألمانية الديمقراطية التي يوكل إليها حكم الشعب الألماني ، والتكلم باسمه ، وتوقيع وثائق الصلح بالنيابة عنه ، وتنفيذ ما تضمنته من المطالب والعروض . والمرجح أن ينعقد الرأي في مؤتمر موسكو على أن يوضع لألمانيا نظام انتقالي تحكم في ظله بعض الوقت حتى تحين الفرصة لتحقيق وحدتها وقيام الحكومة الوطنية فيها .

ويرتبط بوضع المعاهدة الألمانية وضع معاهدة الصلح مع النمسا ، وهذه لن تثير فيما يرجح صعاباً كبيرة . وإذا كان لموسكو في شأنها بعض تحفظات خاصة فمن المنظور أن تذلل بسهولة ؛ وتنحصر موضوعات المعاهدة النمسوية في مسائل رئيسية ثلاث ترجو النمسا تحقيقها وهي : إنهاء الاحتلال الأجنبي واسترداد النمسا لاستقلالها الفعلي، والمحافظة على وحدة الأراضي النمسوية وذلك برفض مطالب يوغسلافيا الإقليمية (في كارنثيا وغيرها) وتسوية المشكلة الاقتصادية ومعاونة النمسا على اجتيازها . وهناك ما يدل على أن النمسا تلقى كثيراً من العطف والجنوح إلى الرفق والتيسير .

* * *

وعلى أي حال فإنه يلوح لنا أنه بالرغم مما يكتنف المشكلة الألمانيـة من مختلف الصعاب ، وبالرغم مما يتجاذبها بين الدول الأربع من مختلف الآراء والغايات المتناقصة ، فإن البواعث الخطيرة التي تدفع الدول إلى وجوب معالجتها ، والتي ترتبط بتنظيم السلم الأوربي ، ستعمل عملها في تذليل هذه الصعاب . وإن ما يبدو منذ حين من صفاء الأفق الدولي نوعاً ، ومن دلائل التقريب بين روسيا والدول الغربية ، قد يعد عاملا قوي الأثر في تمهيد الجو الملائم لمؤتمر موسكو الذي سينعقد في الغد القريب ، والذي ستغدو نتائجه حجر الزاوية في صرح السلم الأوربي المستقبل ، وخريطة أوربا الجديدة .

محمد عبد الله عنان

الذين قتلتهم أشعارهم

٢ — ابن العشرين

للأستاذ علي الجارم بك

أتخيل طرفة بن العبد شابا ريان الشباب ، ناضر العود ، عربي الوجه والسمات متين البناء فارعاً . وأتخيله وقد أرسل شعره جثلا أثيثاً ، فانساب خلف عنقه خصلا سوداً كأنها قطع الليل البهيم . ويصوره لي الوهم وقد أطبق أجفانه في وجوم وذهول ، كأنه ينظر إلى عالم آخر فيه استهواء وإغراء وفتنة ، وفيه حياة هانئة بين ظل وماء ونسيم رفاف وجنة ونعيم ، حتى إذا فتح عينيه أرسلهما سابحتين في مضطرب من الخيال تجاوز به حدود الصحراء وانطلق محلقاً في السماء .

وكلما ذكرت هذا الشاعر أو مر بي طائف من سيرته ، تجلت لي العبقرية الوثابة، وقد ضاقت بها ساحة العمر ، وضنت عليها الحياة بالبقاء ، فأخذت تملأ بآثارها أرجاء الحياة ، وتتحدى حصار السنين . فترسل من خلال قضبانها آيات بينات تزاحم الخلود ، وتصارع الآباد . قال ابن العبد كثيراً ، وأنتج كثيراً ، وكأنه أحس بأن العمر لن يتنفس له طويلا فعاجل الموت ، ونطق بالشعر صبيا . فقد قيل إنه خرج يوماً مع عمه وهو صغير فنصب فخا لصيد الطير ، فلما هم بالرحيل رفع الفخ وقال :

يالك من قبرة بمعمر خلا لك الجو فبيضي واصفري
ونقري ما شئت أن تنقري قد رفع الفخ فماذا تحذري ؟
لابد يوماً أن تصادي فاحذري !

وكأن الرواة أرادوا أن يكرموه بعد موته ، أو عز عليهم أن تقطع الطريق على هذه العبقرية قبل اكتمالها فانتحلوا له كثيراً من الشعر ؛ ولكن الأديب البصير بمعادن الكلام يستطيع أن يشم ريح طرفة في كل بيت يعرض عليه .

نشأ طرفة في أسرة كريمة الحسب من ذؤابة بكر بن وائل ، ومات أبوه صغيراً فكفلته أمه «وردة» ؛ ولمحت فيه عشيرته مخايل النبوغ فدللته ، وبذلت له المال في سخاء وإغداق . ورأت أمه فيه كثيراً من صفات أبيه وسجاياه فشغفت به حبا ، وبذلت له كل رغبة وأغضت عن كل هفوة ، حتى نشأ طفلا بطراً متحكما ، يقول ما يشاء ويفعل

ما يريد . وترك اليتم في نفسه عقدة نفسية دفعته إلى السخط على العظماء والأغنياء ، والثورة على نظم الحياة وأساليبها ، والعطف على الصعاليك «وبني غبراء» . وزادت تلك العقدة إحكاماً حينما منع أعمامه أمه من مال أبيه ؛ فقال وهو طفل :

ما تنظرون بحق « وردة » فيكم صغر البنون ورهط «وردة» غيب

قد يبعث الأمر العظيم صغيره حتى تظلّ له الدماء تصبب

أدوا الحقوق تفر لكم أعراضكم إن الكريم إذا يحرب يغضب

وكانت شاعرية طرفة صدًى لنوازع قوية تسيطر على نفسه ، وسيلا هداراً لأربعة ينابيع تصطخب في فؤاده : كان يتحكم فيه حب الحياة ، والميل إلى التمتع بكل ما فيها من لذائذ وعبث ، كأن إحساساً روحيا أوحى إليه بأن حياته ستكون قصيرة الأمد ، فأخذ يتملأ من كل ما فيها من متع طولا وعرضاً وعمقاً ، ويسرح في تيهاء اللهو بين شباب القبيلة المترفين بعد أن أعدوا للمجون عدته من فراغ وشباب وجدة ، حتى إذا جارت به الطريق ، وأسرف في العبث خلعه بعض أهله . فهو يقول في معلقته :

وما زال تشرابي الخمور ولذتي وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي

إلى أن تحامتني العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المقيد

رأيت بني غبراء لا ينكرونني ولا أهل هذاك الطراف الممدد

ألا أيهاذا الزاجري أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي ؟

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي

ويقول فيها :

نداماي بيض كالنجوم وقينة تروح إلينا بين برد ومجسد

إذا نحن قلنا أسمعينا انبرت لنا على رسلها مطروفة لم تشدد

وكان إذا صحا من نشواته ، وأفاق من صباباته ، اتجه إلى ينبوع آخر فوار هو ينبوع العقل والحكمة والتفكير في شؤون الكون وصروفه ، فقد كان على حداثته خبيراً بالحياة ، عليما بأسرار النفوس . فهو يقول :

وأعلم علماً ليس بالظن أنه إذا ذل مولى المرء فهو ذليل

وأن لسان المرء ما لم تكن له حصاة ، على عوراته لدليل

ويقول :

خالط الناس بخلق واسع لا تكن كلباً على الناس يهر

ويقول :

وعين الفتى تنبي بما في ضميره وتعرفه باللحظ حين تناطقه
ومن كابد الدنيا فقد زاد همه ومن عف واستغنى رأى ما يوافقه
إذا المرء لم يبذل من الود مثلما بذلت له ، فاعلم بأني مفارقه

أما الينبوع الثالث فهو الزهو بنفسه ، والإعجاب بمواهبه . فإنك ترى شعره في هذه الناحية صورة صادقة لفتى غض الإهاب ، كريم المنبت ، لماع العبقرية ، عرف قدر نفسه فحتم على الناس أن يزنوها بميزانه ، وأن ينظروا إليها بعينه . وزهاه أنه ولم يبلغ العشرين أصبح في القبيلة فتاها المدلل وصوتها المجلل .

وأنمى إلى مجد تليد وسورة تكون تراثاً عند حي لهالك
أبي أنزل الجبارَ عاملُ رمحه عن السرج حتى خر بين السنابك

ويقول في معلقته :

فان تبغني في حلقة القوم تلقني وإن تلتمسني في الحوانيت تصطد
وإن يلتق الحي الجميع تلاقني إلى ذروة البيت الشريف المصمد

ويقول :

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدب فينا ينتقر
ولقد تعلم بكر أننا آفة الجزر مساميح يسر

ولكن ينبوعاً رابعاً كان أشد الينابيع غلياناً ، وأطغاها طغياناً ، ذلك هو الحقد على كل عظيم ، والثورة على كل نحام لئيم . وكأن طرفة كان يميل إلى ضرب من الاشتراكية ينال فيه الفقراء من الأغنياء ما يرد عنهم ألم الحاجة فهو يقول :

فلو شاء ربي كنت قيس بن خالد ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد !

ولم يمدح طرفة فيما نعلم إلا سعد بن مالك وقتادة بن سلمة ، ، لأنهما كانا جوادين يبذلان أموالهما في السنين العجاف . ولكنه هجا غير قليل من سادة القبائل ، ورشق كثيراً من أبناء عمومته بالكلم الممض . هجا ابن عمه عبد عمرو بن بشر ، وكان من خاصة الملك عمرو بن هند ، فقال :

أيا عجبا من عبد عمرو وظلمه لقد رام ظلمي عبد عمرو فأنعما
ولا خير فيه غير أن له غنى وأن له كشحاً إذا قام أهضما
له شربتان بالنهار ، وأربع من الليل ، حتى صار سخداً مورما

وهجا الملك عمرو بن هند أقذع الهجاء بأبيات منها :

فليت لنا مكان الملك عمرو رغوثا حول قبتنا تخور

وهجا بني المنذر عامة فأفحش وأساء .

وقد كان هذا الهجاء سبب قتله ، وهو في سن العشرين ، أو فوقها قليلا ، وقد خلط الرواة في قصة مقتل طرفة واضطربوا ، وحاولوا أن يحسنوا الوضع فلم يحسنوا . زعموا أن طرفة بن العبد قدم مع خاله المتلمس إلى عمرو بن هند لمديحه واستجداء صلته ، فجعلهما في حاشية أخيه قابوس ، وكان قابوس شابا ماجناً كثير اللهو ، يقضي يومه بين الصيد والشراب ، وكان يكلف طرفة والمتلمس الوقوف على بابه إذا جلس للخمر ، فضاق طرفة بالأمر ، ولم يحتمل هذه الذلة فهجا عمراً وقابوساً بالقصيدة التي منها :

فليت لنا مكان الملك عمرو رغوثا حول قبتنا تخور

وبعد أن أقاما قليلا رحلا عن الحيرة ، ومر زمن نُسي فيه ما كان من هجائهما لعمرو ، واتفق أن خرج ابن هند مع بعض حاشيته للصيد وبينهم عبد عمرو بن بشر ابن عم طرفة فأصابوا طريدة فاشتووها ، وبينما كان عبد عمرو يأكل إذ بدا كشحه فقال له ابن هند : لقد أبصر طرفة حسن كشحك حين قال :

ولا خير فيــه غير أن له غنى وأن له كشحا إذا قام أهضما

فغضب عبد عمرو وقال : لقد قال في الملك ما هو أقبح وأشنع ، وأسمعه القصيدة التي هجاه بها فسكت عمرو وأسرها في نفسه ، وانتوى أن يأخـذ طرفة على غرة ، وكان المتلمس قد هجا الملك قبل ذلك. ومرت فترة من الزمن قدم بعدها طرفة والمتلمس على ابن هند لالتماس صلته ، فكتب لكل منهما كتاباً ليوصله إلى عامله بالبحرين وقال لهما : انطلقا إليه فاقبضا جوائزكما . فخرجا فلما وردا « النجف » قال المتلمس لطرفة : إنك غلام غر ، والملك من عرفت حقده وغدره ، وكلانا قد هجاه ، فلست آمناً أن يكون قد أمر فينا بشر ، فهلم ننظر ما في كتابينا ، فإن يكن أمر لنا بخير مضينا فيه ، وإن كان أمر بغير ذلك لم نهلك أنفسنا . فأبى طرفة أن يفض خاتم الملك ، وعدل المتلمس إلى غلام من غلمان الحيرة فأعطاه الصحيفة فقرأها وصاح : ثكلت المتلمس أمه ! فعلم المتلمس ما فيها ، وانتزع الصحيفة من الغلام وألقاها في نهر الحيرة وقال لطرفة : إن ما في صحيفتك مثل الذي في صحيفتي فلنعجل بالفرار . فقال طرفة : إن كان اجترأ عليك فما كان ليجترىء عليّ ! ففر المتلمس إلى الشام ، وذهب طرفة إلى عامل البحرين . فلما قرأ كتابه قال له : هل تعلم ما أمرت به فيك ؟ قال : نعم ، أمرت أن تجيزني . فقال له العامل : إن بيني وبينك لخؤولة ، فاهرب من ليلتك هذه فإني قد أمرت بقتلك . فقال طرفة : اشتدت عليك جائزتي وأحببت أن أهرب وأجعل لابن هند عليّ سبيلا . والله

لا أفعل هذا أبداً. ولكن العامل تكرم عن قتله وكتب إلى ابن هند : أن ابعث إلى عملك غيري فإني غير قاتل الرجل . فعزله واستعمل رجلا آخر يسمى عبد بن هند ، فلما قدم أمر بقتل طرفة فقتل .

وهذه الرواية بينة الوضع ، ظاهرة الكذب ، لأن ابن هند إذا كان يريد قتل الرجلين فقد كان من الهين عليه وهو الملك المطاع أن يأمر بقتلهما وهما بحاضرة ملكه ، وإذا كان يخشى صولة قبيلتهما فإن سما يدس في طعام ، أو رجلا من رجاله يثب عليهما في غبش الظلام ، كفيل بأن ينيل الملك إربته في غير جلبة أو صخب . ولم لم يمنحهما الملك جائزتيهما من خزانته ، ويضطر إلى أن يبعث بهما إلى عامله بالبحرين ؟ إن أحط الناس إدراكا — بله طرفة والمتلمس — لا يستطيع أن يصدق أن خزائن الملك تضيق بجائزة شاعرين ! وإذا أجزنا هذا فلم يعطي الملك كلا منهما رسالة ؟ وهل كانت رسالة واحدة لا تكفي لإبلاغ عامل البحرين إرادة الملك ؟ وهل من السائغ في طرائق العقول أن يأبى طرفة فض كتابه بعد أن علم ما في صحيفة المتلمس من موت محقق ، وبعد أن نصح له المتلمس بالفرار ؟ وهل يصدق مأفون أن طرفة يأبى الفرار ، ويتهم العامل بما يتهم ، بعد أن قرأ له الرسالة وأعلمه بما فيها وحضه على الهرب ؟

يجب أن نرفض هذه الرواية من أولها إلى آخرها . وفي رأينا أن الذي يستسيغه العقل أن يكون عبد عمرو قد وشى للملك بأن طرفة والمتلمس يهجوانه ، فصبر الملك طويلا ، وهو يضمر لهما الشر ، ثم بعث إلى كل منهما برسالة يدعوه فيها ويمنيه الأماني . أما المتلمس وكان داهية ماكراً فحين بلغته الرسالة علم أنها مؤامرة لهلاكه فألقاها في مجرى ماء وقال :

وألقيتها بالثني من جنب كافر ... كذلك يلقى كل قط مضلل
رضيت لها بالماء لما رأيتها ... يجول بها التيار في كل جدول

وأما طرفة فصدق ما في رسالته وذهب إلى عمرو بن هند فقتله ، بعد أن عرف أنه خدع ، وأن ابن عمه هو الذي أوغر عليه صدر الملك ، وفي ذلك يقول :

أسلمني قومي ولم يغضبوا ... لسوأة حلت بهم فادحه
كل خليل كنت خاللته ... لا ترك الله لهم واضحه !
كلهم أروغ من ثعلب ... ما أشبه الليلة بالبارحه

هذا كل ما في الأمر . ولكن الرواة طغى بهم الخيال فأوقعهم في الحبال .

علي الجارم

الوضع الاقتصادي يقرر النظام الاجتماعي

للأستاذ سلامة موسى

تختلف طرق الارتزاق في الأمة ، ولكنها مع اختلافها تغلب عليها طريقة معينة ، هي طريقة الكثرة الساحقة من السكان . ففي مصر يرتزق أكبر عدد من السكان بالزراعة، وأقلهم بالصناعة والتجارة . وفي بريطانيا يرتزق أكبر عدد من السكان بالصناعة والتجارة ، وأقلهم بالزراعة . وقد ظهرت أمم عاشت بلا زراعة كالبدو . أو عاشت بالزراعة والصناعة مثل فرنسا وإيطاليا . أو عاشت بالتجارة فقط مثل البندقية .

والطريقة التي نرتزق بها ، والوسط الارتزاقي الذي نعيش فيه ، كلاهما يكسبنا عواطف ، من الحب والكره ، والاحترام والاحتقار ، والفضيلة والرذيلة ، والشرف والخسة ، بحيث نلتزم قواعد في الأخلاق ، ونسير على خطط في ما نفهم عن العدل والظلم ، نسير عليها ولا نختلف في مدلولها ؛ وذلك لأن طريقة الارتزاق هي نفسها طريقة العيش وأسلوب الحياة ، فعواطف الارتزاق هي عواطف العيش ، وأخلاقنا الاجتماعية يجب أن تتفق وتتناسق مع أسلوب ارتزاقنا ، وإلا إذا تناقضت لم نستطع العيش إلا مخالفين مجرمين .

عواطف الارتزاق هي نفسها عواطف العيش لأننا بالارتزاق نكسب القوت وسائر الحاجات لنا ولأولادنا ، فما يعوق هذا الارتزاق أو ينقصه أو يغيره ينعكس أثره في عيشنا ، أي في حياتنا الاجتماعية ونظامنا الحكومي وأخلاقنا الفردية وسائر أوزاننا وقيمنا .

كانت الكنيسة الكاثوليكية في القرون الوسطى تحرّم استغلال النقد بالربا ، وكانت شعوب أوربا إلى حوالي سنة ١٤٠٠ أو ١٥٠٠ تعيش بالزراعة فقط ، أو أن الزراعة كانت الأسلوب الغالب في العيش، فكان هذا التحريم إحدى قواعد الارتزاق ،كما كان إحدى قواعد الأخلاق . أي أن أسلوب الارتزاق كان يندغم ويتناسق في أسلوب الحياة وأوزان الأخلاق . ثم بعد ذلك فشت التجارة العالمية مع آسيا وأمريكا ، وظهرت في أوربا طبقة جديدة لا ترتزق بالزراعة ، ولكنها ترتزق بإرسال السفن إلى الهند

أو مكسيكا أو الصين . وكان هؤلاء المرتزقون الجدد يحتاجون إلى وفرة من الأموال كي يعبئوا سفينة بالبضائع والرجال لم يحتج إلى مثلها ، إلى مثل هذه الوفرة ، مزارع قط . فحدث هنا تناقض بين أسلوب ارتزاق جديد وفضائل قديمة : فضائل زراعية تمنع الربا ولذلك أجازت الكنيسة الكاثوليكية الربا في التجارة ، وأبقت على منعه في الزراعة ، وبذلك استطاعت طبقة التجاريين الجدد أن تمارس التجارة العالمية باقتراض المال بالربا ، ولم تعد تحس أن الربا رذيلة لأنه صار يتناسق مع طريقة الارتزاق عندها .

* * *

كان اللورد ما نسفيلد يقول : إن القانون وضع أولا لحماية العقار ، ثم بعد ذلك لحماية الإنسان . وكان اللورد مانسفيلد يستطيع أن يزيد ويقول : إننا استعملنا الإنسان في فترة طويلة من التاريخ عقاراً كما في الرق ، فكنا نبيعه ونشتريه ونضع قوانين لحمايته ما دام راضياً أن يبقى عبداً ، أي عقاراً يشترى ويباع . ولكننا كنا نجيز قتله إذا فر من الرق وأصر على أن يكون إنساناً . وليس في هذا أي مكان للاستغراب ، لأن وسائل الارتزاق ، ووسائل الإنتاج ، هي التي تعين الأخلاق ، لأنها تحدث لنا عواطف الحب والكراهة والاحتقار والاحترام فتتألف من ذلك فضائلنا ورذائلنا وأوزاننا وقيمنا الاجتماعية .

وما دامت غاية القوانين هي حماية العقار فإن المالكين للعقارات يجب أن يكونوا هم أيضاً المؤلفين للحكومات ، وهم أيضاً الذين يسنون قوانين الأخلاق ويعينون الفضائل والرذائل . وقد كان نيتشه يقول : إن الأخلاق السائدة هي أخلاق السادة . ونحن نترجم هذه العبارة بقولنا : أخلاق الأمة إنما هي أخلاق المالكين المنتجين .

ولذلك نجد أنه إذا تغيرت وسائل الإنتاج في أمة ما تغيرت الطبقة الحاكمة وتغيرت الأخلاق . اعتبر الأمة البريطانية :

١ — قبل نحو ٣٠٠ سنة كان الإنتاج الغالب ، أو الارتزاق الغالب ، زراعيا، ولم يكن بالأمة غير طبقة صغيرة ناشئة تعمل في التجارة ، فكان البرلمان بمجلسيه مؤلفاً من الزراعيين فقط . وكانت الأخلاق زراعية ، أخلاق التدين والإيمان بالقدر وسيادة الرجل على المرأة .

٢ — ثم ظهرت ، منذ نحو ١٥٠ سنة ، طبقة الصناعيين والتجاريين . فأصبح مجلس النواب مؤلفاً منهم ، لأن الصناعة والتجارة غلبتا في الإنتاج على الزراعة . وكان

المجلس الآخر ، مجلس اللوردات، مؤلفاً من الزراعيين ، فمنع من حقوقه التشريعية المهمة في ١٩١١ . وترك كما لو كان مجلساً للتسجيل .

٣ — في ١٩٤٥ حدث وجدان جديد بين العمال الإنجليز بأنهم هم المنتجون الحقيقيون ، وأنهم يجب أن تتكون منهم الحكومة ، وأن يأخذ المجتمع بأخلاقهم ، فتم لهم ذلك . أو بالأحرى ابتدأوا في إتمام ذلك ، لأن الانتقال من أخلاق قديمة إلى أخلاق جديدة يحتاج إلى زمن .

ومن هنا يجب أن ننظر إلى كل تغير اجتماعي، حكومي، أخلاقي ، إلى تغير اقتصادي من حيث أن وسائل الإنتاج — الارتزاق — قد تغيرت ، فتغير في إثرها الطبقة المالكة المنتجة السائدة . ويجب أن لا ننسى مثلا أنه كان خلف الثورة الفرنسية الكبرى في ١٧٨٩ تغير اقتصادي خطير ، إذ بعد أن كان المنتجون هم النبلاء الزراعيون أصبح المنتجون طبقة جديدة كبيرة من التجاريين والصناعيين يحسدون النبلاء لأنهم يستغلون الفلاحين بالتسخير أو بما يقاربه ، فانتقل الحكم بعد الثورة إلى هذه الطبقة الجديدة . كما تغير نظام الحكم ونظام الأخلاق .

***

هناك نظرية تسمى : «التفسير الاقتصادي للتاريخ» أو «التصور المادي للتاريخ» ومعناها أن طراز المجتمع ونوع الحكومة والمقاييس الأخلاقية ، كل هذا يساير الأساس الاقتصادي الإنتاجي الذي ترتزق به الأمة . أي أن وسائل الارتزاق المادية كالزراعة والتجارة والصناعة تعين وسائل العيش ، كما تعين أخلاق الفرد وطراز المجتمع ونوع الحكومة . فالأساس هو الاقتصاد ، والبناء فوق الأساس هو الاجتماع .

اعتبر جماعة من الإسكيماويين الذين يعيشون حول القطب الشمالي في كندا وسيبريا فإنهم لايعرفون معنى الحكومة ، وكذلك لم يعرفوا قط معنى الرق ، ولهذا أيضاً ليس لهم تاريخ إذ هم يعيشون على المستوى الجغرافي فقط، ولكن لماذا ؟

ذلك لأن الرجل الإسكيماوي ، بوسائله الساذجة في الصيد ، لاينتج سوى قوت يومه، بحيث لايفيض من إنتاجه شيء آخر لغيره . فلو قصدت أنا أو أنت إلى هؤلاء الناس وحاولنا استعبادهم لما انتفعنا من هذا الاستعباد ، أي الرق ، بشيء . لأن الرق إنما ينتفع به إذا كان الناس قد وصلوا إلى طرق للانتاج تجعل مثلا خمسة من الناس ينتجون ما يكفي ستة ؛ ففي هذه الحال أقتني أنا أو أنت خمسة من الإسكيماويين بالسلاح مثلا

ونستعبدهم فيعملون وينتجون بعملهم مايكفيهم ويكفينا أنا أو أنت بلا عمل . ومن هنا نفهم أن الرق باعتباره نظاماً اجتماعيا لايمكن أن ينشأ بين الإسكيماويين .

ثم اعتبر الحكومة أيضاً ، فإنها تحتاج إلى موظفين يقعدون في مكاتبهم ولا يعملون في الصيد ، وما دام الإسكيماوي لا ينتج غير ما يكفيه فإنه لا يستطيع أن ينتج لهؤلاء الموظفين ؛ ولذلك تصبح الحكومة بينهم أيضاً غير ممكنة ؛ حكومة بلا ضرائب أي بلا مرتبات : حكومة غير ممكنة . فالحكومة والرق نظامان اجتماعيان لايمكن أن ينشآ إلا حيث يكون العامل قادراً على أن ينتج أكبر مما يستهلك ؛ وما يفيض منه عندئذ يؤخذ للإنفاق على السادة ، في حال الرق ، أو على موظفي الحكومة أو موظفي الدين إلخ . وكذلك أيضاً لايمكن أن يكون لهؤلاء الإسكيماويين تاريخ إذ ليست لهم حكومة ، وليس بينهم بطل يتزعم في حرب أو ثورة ... إلخ .

وتاريخ الإنسان هو تاريخ أنظمته الاجتماعية أو ما تبعثه هذه الأنظمة في فوراتها أحياناً من الأشخاص المتزعمين . ولنضرب مثالين بالثورة والحرب وكيف تحدثان ، أي ما هي علاقتهما بالتغير الاقتصادي المستتر أو الظاهر ؟

لنفرض أن هناك أمة زراعية مستقرة يعيش فيها المالكون والأجراء ، فإن الحكومة بطبيعة هذا الوضع تتألف من المالكين . ولذلك فإن القوانين تتجه نحو حمايتهم ، وكذلك الأخلاق العامة يجب أن تكون أخلاقهم التي ينتفعون بها في الاستقرار ، ولكن لنفرض أنه — مع هذا الاستقرار — كانت هناك عوامل اقتصادية تعمل رويداً وفي خفاء على ظهور طبقة جديدة من المنتجين بالمناجم أو بالصناعة أو بالتجارة ، ثم كبرت هذه الطبقة ووجدت أن القانون يقرر أنه لاتجوز العضوية في البرلمان إلا لمالكي الأرض ، وأن البرلمان وقف على هؤلاء . ففي هذه الحال تهب الثورة ؛ لأن الوضع الاقتصادي قد تغير فيجب أن يتغير الوضع الاجتماعي بما فيه من حكومة وبرلمان . ومع الثورة تتغير الأخلاق بل يتغير الدين (اذكر الثورة الفرنسية) لأن الطبقة المنتصرة الجديدة تحتاج إلى أخلاق جديدة تلائمها وإن لم تكن تلائم الطبقة القديمة المهزومة .

أو اعتبر الثورة المصرية في عام ١٨٨٢ ، فإنها ثورة أعقبتها حرب ؛ وكلتاهما تعود إلى عوامل اقتصادية ، لأن أول بوادر الثورة أن عرابي ، وهو يمثل طبقة الضباط الفلاحين ، كان يجد أنه وطبقته قادرون على أن يهزموا الطبقة الصغيرة من الضباط الشركس والأتراك ويتساووا بهم في المرتبات . عوامل اقتصادية لا غش فيها . ثم نجد طبقة المالكين الفلاحين أيضاً تؤلف مجلس نواب لحماية مصالحها . ثم تجد هذه الطبقة

أنها هي وطبقة عرابي من الضباط على وفاق من حيث المصلحة : كلهم فلاحون يحاولون أن ينزعوا من الشركس والأتراك امتيازاتهم الاقتصادية القديمة . ولكن هنا يصطدمون : الجيش وعرابي ومجلس النواب ، بقوة اقتصادية أخرى هي قوة الماليين الإنجليز والفرنسيين الذين يخشون على ديونهم التي ربما ينكرها البرلمان ، لأن الشعور العام وقتئذ أن هذه الديون كانت غير عادلة . فهبّ الإنجليز إلى الوقوف ضد الشعب المصري كله ، وحاربه كي يحافظ على سداد الديون التي تملكها طبقة أخرى من الماليين الإنجليز . ثم احتل الإنجليز مصر ، ووجدوا أن القطن عامل آخر يصون قوتهم الاقتصادية ، لأنه يغذي مصانع لنكشير بالمادة «الخامة» التي كان أصحاب هذه المصانع يشترونها غالية من أمريكا ، أو كانوا لا يجدون مثلها في أمريكا .

وكل هذا بالطبع لا يقال باللغة الدبلوماسية . ولكن يقال إن الإنجليز يريدون حماية قناة السويس لأنها طريق الإمبراطورية . والواقع الذي لا ينكر أنه مع هذا الاحتجاج لم تحاول بريطانية قط طيلة الاحتلال ، وهو ٦٤ سنة ، إلى الآن أن تحصن قناة السويس لأنها لا تخشى أي عدوان عليها ! وإذن لماذا انحلت القبضة البريطانية عن مصر ، بعض الشيء ، هذه الأيام ؟ الجواب أيضاً يعود إلى العامل الاقتصادي . وهو أن الدين الإنجليزي قد استقر ، وأن مكانة القطن قد سقطت ، لأن الأقمشة الكيماوية تأخذ مكانه وتطرده .

فهنا ثورة ، وهنا حرب ، كلتا هما تعود إلى عوامل اقتصادية .

***

والظاهرة الجديدة في عصرنا ، أي في المئة والخمسين من السنين الأخيرة ، هي ظاهرة الإنتاج الصناعي الآلي . أي المصنع الذي يخرج في اليوم خمسة آلاف سيارة ، أو المصنع الذي يصنع ألف مليون بكرة خيط في السنة ، أو المصنع الذي يخرج خمسين ألف مليون متر من القماش . فكل هذه المصانع وأمثالها تحتاج إلى مواد « خامة » رخيصة ، وإلى أسواق عالمية تبيع فيها مصنوعاتها . فمن هنا كان الاستعمار للحصول على المواد « الخامة » الرخيصة التي تحدد أثمانها الأمة المشترية التي تحتل البلاد ؛ وأيضاً لتجد فيها السوق لبيع هذه المواد مصنوعات . وهي لهذا السبب تمنع الأمم المحكومة من الصناعات .

فالأمم الصناعية الكبيرة مضطرة إلى الحرب ؛ ولذلك هي تحارب على قدر مكانها الصناعي ؛ فإذا كانت متقدمة في الصناعة حاربت كثيراً ، وإذا كانت متأخرة قلت حروبها .

وللكبتن ستيفنز بحث قام به في عام ١٩١٥ ونشره تحت عنوان « قرن من الحروب فيما بين ١٨١٥ و ١٩١٥ » ، ويؤخذ من هذا البحث أن الدول التالية قد شنت في هذا القرن :

بريطانيا	٣٨	حرباً	مدتها ٦٤	سنة
فرنسا	١٧	«	« ٥٨	«
روسيا	١٣	«	« ٢٨	«
إيطاليا	٩	حروب	« ١٤	«
ألمانيا	٦	«	« ١٠	سنوات
الولايات المتحدة	٥	«	« ١١	سنة
اليابان	٣	«	« ٦	سنوات

فنحن نجد من هذه الأرقام أن الإنجليز الذين سبقوا غيرهم في التطور الصناعي سبقوا غيرهم أيضاً في الحروب ، وأن الأمم التي تأخرت في التقدم الصناعي مثل اليابان كانت أقلها حروباً .

فالعوامل الاقتصادية خلف الحروب الحديثة واضحة ؛ وهي الحصول على مواد « خامة » رخيصة تعمل بها المصانع ، وأسواق عالميـة تبيع فيها المصنوعات . وهذه العوامل هي التي أوجدت الاستعمار بصورته البشعة الحاضرة .

***

وهنا نحتاج إلى أن نقشع التباساً هو القول بأن نظرية « التفسير الاقتصـادي للتاريخ » تعني أننا لا ننبعث إلى عمل إلا إذا كنا نهدف منه إلى كسب مادي أو مالي ، فإن هذه النظرية لهذا السبب تبخس الطبيعة البشرية التي تسمو على ذلك . ولكن لم يقل أحد قط إن معنى هذه النظرية هو أن النشاط لا ينبعث إلا للكسب ، ولكن المعنى أن العوامل الاقتصادية أو الوضع الاقتصادي هو الذي يكوّن المجتمع ويعين أخلاقه . وكل فرد منا تابع للمجتمع في هذه الأخلاق .

ولهذا السبب لا نستطيع أن نقرأ خبراً في جريدة ، أو مقالا في مجلة ، إلا إذا كنا على معرفة بالعوامل الاقتصادية التي بعثت في الكاتب ، من حيث لا يدري أو يدري ، عاطفة حملته على الدفاع عن مبدإ أو الهجوم على مذهب أو امتداح خطة أو القدح في سياسة .

فهنا مثلا رجل محافظ مثل تشرشل ، بل هو أحياناً رجعي ، نراه يدعو إلى نزع

الأرض من كبار مالكيها اللوردات وتوزيعها على الفلاحين ، فكيف يتفق هذا التطرف اليساري في الأرض مع رجعيته في آراء أخرى استعمارية وسياسية داخل بريطانيا وخارجها ؟

الجواب أن تشرشل نشأ في طبقة الصناعيين ، وبقي إلى سنة ١٩٢٠ وهو مع الأحرار يحس عواطفهم ويزن بأخلاقهم ، ولذلك لم تنشأ عنده عواطف المحافظين من المالكين للأرض .

واعتبر خطة أمريكا في الدعوة إلى الأسواق الحرة وإلغاء القيود الجمركية . فإن المصنوعات الأمريكية قد فاضت ، وستفيض أكثر وأكثر ، وهي تحتاج إلى أسواق العالم . وضد هذا خطة الإنجليز في التفضيل الجمركي للمستعمرات وتقييد الجمارك ، لأن مصنوعاتهم لا تستطيع الوقوف للمزاحمة الأمريكية .

واعتبر ظهور الولايات المتحدة في أرض ابن السعود ، ودفاع الولايات المتحدة أيضاً عن استقلال الهند . ففي هاتين الحالتين المتناقضتين تجد العوامل الاقتصادية ، لأن الهند المستقلة تتسع للسلع الأمريكية ، ولأن أرض ابن السعود تفيض بكنوز البترول .

واعتبر طبقة الصناعيين الجديدة في مصر ، فقد شرع بعض أفرادها يقولون إن الفلاحين يجب أن يكسبوا أكثر مما يكسبون في الوقت الحاضر . وقد يتخذ هذا القول سيماء البر والرحمة ولكن أساسه اقتصادي ، لأنه ما دام الفلاحون فقراء فإنهم لن يشتروا المصنوعات ، ولذلك فإن المصانع لن تربح . فارتقاء الصناعة في مصر يقتضي زيادة الربح عند الفلاحين أي زيادة قوتهم الشرائية للمصنوعات المصرية .

عواطف اجتماعية تتكون لنا من المجتمع الذي نعيش فيه ، وتعين لنا ما يجب أن نحب وما يجب أن نكره . ويبلغ من قوة هذه العواطف الاجتماعية أنها تتغلب على ما نسميه عواطف عائلية بشرية أو طبيعية . كما نرى مثلا عندما نقاطع أخاً شقيقاً ونمنعه من زيارتنا لأنه ترك الديانة التي ولدنا عليها ، أو حين نحرص على أن نتجاهل قريباً لنا اتهم بتهمة يعدها المجتمع منافية للشرف .

لكل منا مجتمعه الذي يأخذ بأسلوب معين في الإنتاج والارتزاق . وهذا الأسلوب يعين طراز هذا المجتمع كما يعين عواطف أفراده وأخلاقهم التي ينبعث بها كل فرد في سعيه للارتزاق ، وأيضاً في سلوكه العام في البيت والسوق والمكتب والمصنع . فإذا تغير أسلوب الإنتاج والارتزاق تغيرت العواطف ، وتغيرت أوضاع المجتمع وأخلاقه وما يتواضع عليه من فضائل أو رذائل .

وليست هناك ظاهرة اجتماعية أخرى إلا وهي أيضاً خاضعة للنظام الاقتصادي ، أي أنها تدخل في البناء الاجتماعي الذي ينهض على الأساس الاقتصادي ، على أساس الارتزاق والإنتاج ، لأن عواطف البيت والسوق والمكتب والمصنع والمتجر تشترك بل تندغم مع عواطف الارتزاق ، حتى الأدب والفن والعلم ، كلها تجد جذورها أو أسسها ، التي تختفي تحت السطح في النظام الاقتصادي .

اعتبر كتاب الأغاني ، أشهر كتب الأدب في اللغة العربية ، لماذا وضعه المؤلف على هذه الصورة ، أليس هو الأخلاق السائدة للسادة الذين يملكون أسس الإنتاج والسيطرة ؟

ثم انتقل خمسة آلاف كيلومتر وألف سنة بعد ذلك إلى فولتير الذي كان يدعو إلى التسامح مع الحملة علي النبلاء والكهنة . لماذا ؟ أليس لأن فولتير نشأ في طبقة التجاريين له عواطفهم وكراهتهم للامتيازات الدينية واللقبية ؟

ثم اعتبر الفنون البنائية العظيمة في القرون الوسطى في الكنائس ، أليست هي التعبير عن القوة الاقتصادية العظمى للكهنة ؟

ثم اعتبر ، في العلم : اشتغال واط بالآلة البخارية . هل كان واط يلعب ويلهو ؟ أليست الحقيقة أنه كان يبغي تجفيف المناجم من المياه بهذه الآلة ؟

اعتبر كل شيء آخر في الحضارة والثقافة . فإنها جميعها تعبر عن عواطف اجتماعية ، نكاد نحسبها طبيعية ، تنهض على أسس وأنظمة من الإنتاج والارتزاق تختفي تحت السطح .

سلامة موسى

حيرة شاعر

درج شعراء العرب على تشبيه الشفاه بالعناب ، كقول الوأواء : « وعضت على العناب بالبرد » . واعتاد شعراء الفرنجة أن يشبهوها بالورد الأحمر ، بجامع اللون والطيب في كلٍّ ، ولقد حار بعض هؤلاء الشعراء المعاصرين بين الوردة الحمراء وثغر الحبيب ، فهو لا يدري أيهما أكثر اعتزازاً بتشبهه بالآخر ، ولا أيهما أقدر على بث العطر في جو الحياة . وهو كلما مال إلى أحدهما أغراه الثاني بجماله وشذاه ، وكلما حدق فيهما رآهما متشابهين لوناً وإشراق بسمة ، ولكنه يؤثر منهما في نهاية حيرته ذاك الذي يستطيع أن يقول له : إني أحبك ...

مجلس الدبّاغ

بمناسبة مرور عام على وفاته

صورة وصفية

للأستاذ محمود تيمور بك

كنت كلما حزبني ضيق من صخب هذه الحياة وماديتها الجافة ، وما يعشى العين فيها من وهج زائف وبهرج باطل ، فزعت إلى قلب المدينة الأصيل ، حيث الحياة في بعض أركانه ما زالت محتفظة بذلك الطابع الروحي الرخي ، طابع الشرق في عهده القديم ، فأتنسم منه عطراً زكيا يسبح بي في آفاق من السكينة والهدوء ، وأحلام كلها روح وريحان .

فكنت أطرق تلك الدروب والمسالك الضيقة التي تكاد دورها تتواصل وتتعانق في ألفة ووئام ، فأجوز بحوانيت العطور والسبح والمباسم وما إليها من الطرائف والتحف الشرقية الصميمة ، ينفح منها ريا العصور السوالف ، وتتراءى فيها أطياف الذكريات العذاب ، فيخيل إليّ وأنا أجوس خلال هذه المسالك والدروب كأني في مدينة من مدائن التاريخ الشرقي العتيق ، تتخايل فيها أشباح تغدو وتروح في ملابسها الفضفاضة وعمائمها المهندمة ، وهي ترسل نظراتها هادئة طيبة تنم عن سرائر صافية ونيات كريمة ، وكأن تلك الأشباح ليست إلا شخصيات محببة أعرفها حق المعرفة ، ألمح فيها أرواح ابن سينا والفارابي وابن رشد ومن إليهم من العلماء والأدباء والفقهاء ...

كنت أسير وأتابع سيري ، حتى يؤدي بي الطريق إلى « خان جعفر » فسرعان ما أتجه إلى مبنى أثري وديع ، فلا أكاد ألج بابه حتى أجد فيه على دكة في ركن قصي شيخاً وقوراً ، جالساً جلسته الرخية ، في ملابس ساذجة ، متلفعاً بعباءته ومطرفه ، وهو قانع بعزلته يستمرئ سويعات طمأنينة وصفاء ، ويحتسي الشاي على مهل ، ويدخن اللفافة تلو اللفافة كأنه يستعيض بمسامرتها عن مجالس الناس .

إذا تفرست في وجهه طالعت فيه غضوناً ومثاني تطوي أعباء السنين وتجارب الحياة ، وعلى جبهته العريضة تتوضح سمات من الألمعية وتوقد الذهن . ومن هذه الطلعة الزاخرة بألوان التعابير ينبعث نور يشعرك بأنك أمام رجل فذ وشخصية عامرة .

ذلك هو صديقي الشيخ إبرهيم الدباغ .

كان لا يكاد يحس قدومي ، حتى يغمرني بفيض من التحيـة والحفاوة يذكرني بشاشة الرجل العربي وما يحمل بين جنبيه من الشمائل الحسنى والسجايا الغر . . . وكان هذا اللقاء البهيج هو أول الغيث الذي ألقاه من متعة صافية في ذلك الجو الشرقي الحبيب .

وما أسرع أن يفيض الصديق علي من نبعه المتدفق إيناساً وإمتاعاً ، فيسترسل في حديثه ، وأنا مصغ إليـه ، أرقب محياه النبيل الذي أسبغت عليـه الشيخوخة روعة ومهابة .

كان ذلق اللسان ، عذب الكلام ، فكه الروح ، تتخلل نبراته تلك البحة الرقيقة وهو يفرغ نفسه في حديثه ، فيتجلى فيه صدق اللهجة ، وطهارة الإخلاص ، والدقة في الوصف والتعبير ... فكان كأنه يبعث أمامي صوراً حية مجسدة لمن يتناولهم بالحديث ، صوراً يضفي عليها من عبقرية الشاعر ، وروح الفنان ، ما يجعلها أمثلة جميلة من خلق الفن الرفيع .

ولقد كان آية عصره في قوة الذاكرة ، وحضور البديهة ، وسعة الاطلاع . وكان أعجوبة الزمن فيما يختزن في صدره من شؤون الناس وأحداث الدهر إلى جانب ما يروي من فاخر الشعر وبارع النوادر .

إنك لتمضي الساعة في إثر الساعة ، وأنت بهذا الحديث مسحور السمع مسحور الفؤاد ، تمر عليك أشتات العصور وألوان الشخصيات وضروب المشاهد والأحداث ، فكأنك تشهد « فلماً » رائعاً ترى فيه دولاً تدول وأخرى تنهض ، وقصوراً تتداعى وأطلالا تشخص ، وأقداراً تتناول أناساً بالطلوع والأفول ..

وإن محدثك العظيم ليبلغ قمة الروعة إذا تناول بحديثه تلك الحقبة التي عاصرها وتلك الشخصيات التي لقيها وصاحبها... إنه ليتحدث عن أمراء عروش ، ووزراء دول ، وزعماء شعوب ، وقادة فكر ، ورسل إصلاح ، وطلائع نهضة ... ويعرج بحديثه يمنة ويسرة ، فتراه يغوّر وينجد ، فيتحدث عن الصعاليك والمفاليك وأهل المغامرة ورواد السبيل وغيرهم من المبرزين في حلبات الحياة على اختلاف طبقاتها عالية ودانية ...

وتستمع إليه حيناً فإذا هو ينبش دفائن الأسفار في أدب أو لغة أو تاريخ ، وإذا هو يقص عليك من غريب الروايات وشائق الأسمار ما يدلك على أنه جوهري ماهر في التمييز بين اللآلئ والأصداف !

فإذا استنشدته من قريضه ، أنشدك قلائد وخرائد ، فتسمع شعراً رقيقاً يفيض بصدق العاطفة ، في ديباجة عربية المنزع ، ترجع بفصاحتها إلى عصور العربية الزواهر .

وإنه ليسهل عليك أن تعرف طابعه في شعره ، وأن تميزه من غيره من الشعراء بخصائصه التي لا ينازعه فيها منازع .

وإن كان لنا أن نأسى على شيء فاتنا منه ، فإن أول ما يؤسفنا أنه لم يعن بتدوين مذكراته ولم يودع بطون الصحائف ما أودع صدره الرحب من غوالي الذكريات ...

ولو عني بتدوينها لكان لهذه المذكرات أكبر شأن في اجتلاء روح العصر الذي عاش فيه ، وهو حقبة من تاريخ الشرق لها أكبر الأثر في توجيه مصائره . فإنها طليعة وعي الشرق ، ومشرق يقظته ، وفاتحة أهبته للجهاد في سبيل التحرر والنهوض .

باختفاء ذلك الشيخ الكبير تختفي تلك المعلمة الضخمة وذلك السفر النفيس ... فوا أسفاه عليه وعلى ما وعى صدره من تاريخ الجيل !

لقد عاش الشيخ الدباغ عمراً ليس بالقصير ، اتصل فيه بالناس خاصة وعامة ، وذاق فيه الحياة شهداً وصاباً ، فتغلغل في صميم الدنيا وفهمها حق الفهم . لم يعش حياته عبثاً ، بل أفاد من كل لحظة ، وانتهز كل فرصة ، فكانت تجاربه أضعاف عمره ، ولقد ولى عن الحياة بعد أن اشتف الكأس واستوعب الثمالة... وكأنه ينظر إلى الحياة قائلا :

« ماذا في مستطاعك أن تقدميه إلي بعد ؟

سأبرحك إلى ما هو خير وأبقى ...

سأواجه حياة جديدة أنعم بها في العالم الآخر ...

أيتها العاجلة الفانية : لقد بليت ، وذبلت زهرتك في يدي ، فأنا عنك ماض إلى نعيم مقيم ... »

أي صديقي الراحل :

أستودعك الله ...

وإلى لقاء نستأنف فيه حلو الحديث ، لا في « خان جعفر » ولكن في « خان رضوان » نجلس على أريكة الفردوس ، ونسقى من رحيق مختوم .

محمود تيمور

تكهرب النبات وعجائبه

للأستاذ عبد السلام فهمي

ألا ما أعجب شأن هذه الكهربا فهي عماد الحياة العمرانية ، بل قل إنها عماد الحياة البشرية ذاتها ، إذ لولاها ما صعد الغذاء قط من باطن الأرض إلى أقصى أطراف الأشجار ، وما سقطت من السماء أمطار ، وما استطاع المخ أن يرسل إشاراته لتحريك أعضاء الجسم ، وما استطاعت العيون أن تبصر ؛ بل ما استقرت لنا حياة مالم تتعادل كهربا القلب مع الكهربا الجوية . هذا إلى أن هنالك حيوانات مائية تدفع عن نفسها الضر بتوليدها الكهربا ؛ وعائلة النباتات الصائدة تلتهم فريستها بالكهربا ؛ فأنت ترى من هذا أنها ولا شك عصب الحيوات كلها عمرانية كانت أم مادية ؛ فأينما رحلت وكيفما كنت ، في يقظة أو في منام فأنت محوط بها ومغمور في لججها . فمن فوقك كهربا يقذف بها قرص الشمس ، ومن أسفلك كهربا تولدها الأرض نفسها ، وفي جسمك محطتان في القلب والمخ لتوليد الكهربا . فيالها من طلسم مازال كنهه طي الخفاء . وحسبك أن الله فاطر السموات والأرض قد تخذها أداة إرهاب وعقاب لمن يجادل في حقوقه ، وقد شرح أطوارها في كلمات هي الإعجاز في الإيجاز حيث قال : « هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشئ السحاب الثقال . ويسبح الرعد بحمده . والملئكة من خيفته . ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله» ✡ .

والتفسير العلمي الحديث لهذا القول الحكيم أن الرياح حينما تصعد بسرعة ثمانية أمتار في الثانية ، وتمر خلال السحاب فإنها تذر كرات الماء ، وتحملها معها إلى الطبقة العليا وهي مشحونة بالكهربا الموجبة ، أما المنطقة الجانبية للسحب فتتجمع فيها القطرات المشحونة بالكهربا السالبة ، ومن ثم يكون هنالك فريقان متضادان من نوعي الكهربا ينجم من تصادمهما معاً إما برق يلمع في السماء ، أو صاعقة تهبط بإذن ربها إلى الأرض ؛ ويصحب ذلك اتحاد كيميائي بين غازي الأزوت والأكسيجين ، وهما عنصرا الهواء فتنتج منه مادة مفرقعة لها قدر طاقة الديناميت أربع مرات ، وهي التي

✡ سورة الرعد : ١٣ .

تحدث عند انفجار صوت الرعد . فمن ذلك نخلص إلى أن أساس توليد الكهربا الجوية هو تكوين السحاب ، ومنها يحدث البرق والرعد والصواعق ، وهذا عين ما ورد في الآية السابقة . فياله حقا من كتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

أما النبات فهو خلق مثلنا يتنفس ويتغذى ويصحو وينام ويتأثر بالحرارة والبرودة ؛ بل منه الزوجان الذكر والأنثى ، فيتزاوج ويتوالد ثم يحيا ويموت ، ولكن أحيانا بعد عمر لايدركه الإنسان ، حتى لقد قدرت حياة بعض أشجار البلوط في أوربا بتسعة عشر قرناً ، ولقد شبه الله حياتنا بحياة النبات حيث قال : «واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً »* .

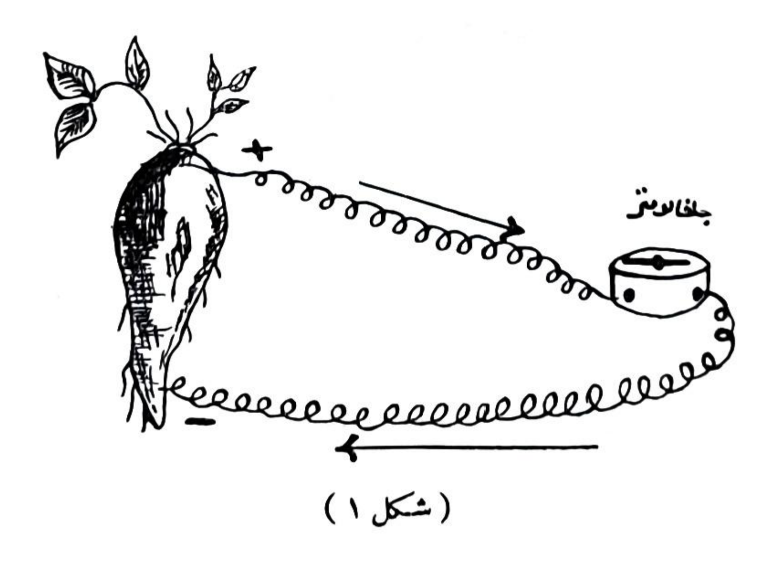
إذا كانت الكهربا قد أثارت منا الإعجاب بآثارها المعروفة لنا فهي أدعى إلى إثارة الإعجاب بانتشارها الذي عم الكائنات حتى جاز للإنسان أن يتساءل بحق : ما لهذه الكهربا لاتغادر شيئاً إلا لازمته ؛ ففي السماء كهربا وفي ضوء الشمس كهربا وفي أجسام المخلوقات الحية كهربا، وأخيراً لابد للنبات من كهربا تعمل لغذائه وصحوه ؛ ولسنا نحسب أن انتشارها على هذا الوجه كان عبثاً ، فإن سقوط الأمطار من السحب الحاملة لها يعزى أمره إلى وجود الكهربا الجوية . وإن حاسة إبصارنا إنما تؤدي وظيفتها بتأثير الكهربا الضوئية . وها نحن نرى الآن أن الكهربا من ضروريات الحياة للنبات فبها ينمو ، بل يمكنه أن يستدير بها تجاه أشعة الشمس إن كان يصيب منها نفعاً ، أو يتولى عنها إذا رأى منها ضرا .

إن أول من كشف سريان التيارات الكهربية في النبات هو العالم الفرنسي « هنري بيكيريل » ، والتيارات النباتية ليست في الواقع شديدة فتحدث رعشة كتيار الأسماك الرعاشة ، إذ أن ضغطها لا يعدو ٠,١٤ فولت ، ذلك لأن نسيج النبات قليل التوصيل للكهربا ، حيث تبلغ مقاومته بين مليون ومليوني مرة قدر مقاومة الزئبق؛ ومقاومة النبات تقل كلما ارتفعت درجة حرارته ، فيشترك بذلك مع زلال البيض في هذه الخاصية . ويعزى تولد الكهربا في النبات إلى عوامل طبيعية وأخرى كيميائية فالعوامل الطبيعية هي وجود فرق تكهرب بين الأرض والجو ، وكيفية سريان الماء في الأنابيب الشعرية ، ثم تأثير الأشعة الضوئية «الزرقاء والبنفسجية» . وأما عن التفاعل الكيميائي فهو الذي يجري خلال عملية الغذاء المعروفة بتمثيل الكربون ؛ ذلك أن النبات يستمد

---

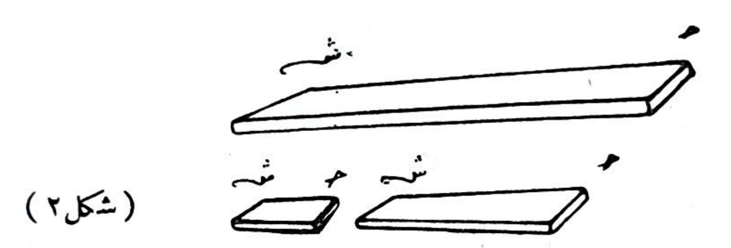
* سورة الكهف : ٤٥ .

الكربون الذي هو أحد عناصره الرئيسية من غاز ثاني أكسيد الكربون الموجود في الهواء الجوي، وأن الضوء هو العامل الأساسي الذي تتوقف عليه عملية امتصاص الغاز المذكور، بل إن مقدار المواد «الكربوايدراتية» أي: السكر والنشا التي هي غذاء النبات، يضطرد في الزيادة مع شدة الضوء. والقاعدة أنه حينما يحدث «تأكسد» أي امتصاص للأكسجين من الهواء، أو اختزال أي إعادة الأكسيجين للهواء في أنسجة مفصولة بمادة موصلة للكهربا كما هي الحال في النبات، فإن ذلك يؤدي عمليا إلى توليد الكهربا. وليس عجيباً أن ينتج التفاعل الكيميائي تياراً كهربيا فإنه أحياناً يحدث ضوءاً. وحسبك أن تجري ترسيب ملح الطعام في الظلام من محلول مالح مضاف إليه كحول أو حامض كلورايدريك مركز حتى يشع منه ضوء. ثم لإيضاح كيفية انتفاع النبات من الكهربا نقول إن المغناطيسية تؤثر في حياته وتنشط حركة التنفس في الخلايا الحيوية، وتفسير ذلك أن «السليلوز والزلال والكلوروفيل»، وهي من العناصر المركب منها النبات، هي مواد قابلة للمغناطيسية مثل الحديد، ولذلك فإنها تجذب إلى أعلى بتأثير المغناطيسية المنتشرة في الهواء، في حين أن المواد الأخرى مثل «النشا والسكر والماء» — وهي عديمة القابلية للمغناطيسية مثل الزنك — تهبط إلى أسفل بتأثير الجاذبية الأرضية، فلولا ظاهرة الصعود والهبوط هذه بين عناصر النبات لما أمكنه الغذاء. ويمكن التدليل عمليا على مبلغ ما للجاذبية من تأثير في نمو النبات بغرس بذور صغيرة مثل بذور الكتان والكرنب والقمح في طبقة من الرمل المندى بالماء ثم يعلق فوقه مغناطيس كهربي قوي فيرى أن حركة الإنبات قد نشطت في الجهة المجاورة للمغناطيس أكثر منها في غيرها، ولهذا يعالج نمو النبات أحياناً بإطلاق تيار فيه بحيث لا تزيد قوته عن التيار الطبيعي. وأما إذا أريد التدليل على وجود الكهربا ذاتها في النبات



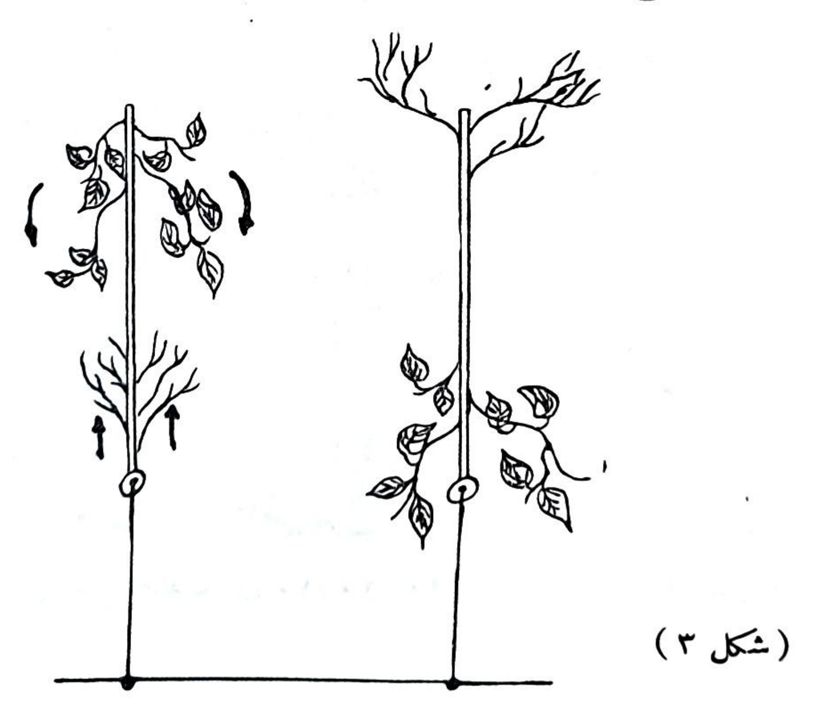
(شكل ١)

فنقلع جزراً من الأرض ونحرص في أثناء ذلك على عدم لمسه باليد أو الإضرار بشيء منه، ثم نلمس بطرفي سلكين بين سطحيه العلوي والسفلي بعد وضع جهاز كهربي حساس « كجلفا نومتر » في الدائرة فتجد أن إبرته تتحرك من تأثير التيار العادي المتولد في النبات والذي يتخذ اتجاها من الأوراق إلى الجزر كما في (شكل١) . ولو أننا قطعنا هذا الجزر قطاعاً عرضيا متعامداً إلى جزءين نراه كالمغناطيس تماماً حينما يقطع إلى أجزاء فإن كل جزء يكون من نفسه مغناطيساً كما في (شكل٢) ، ويكون السطحان اللذان قد مر بينهما القطاع متساويين فى الجهد الكهربي ،وتكون أكبر قيمة له بين وسط الساق وأحد



(شكل٢)

السطحين ، وتبقى كل من الأوراق والجذور محتفظة بقطبيها ومتخذة اتجاهها الطبيعي حتى ولو قلب وضع النبات كما يرى في (شكل ٣) .



(شكل ٣)

النباتات الصائدة

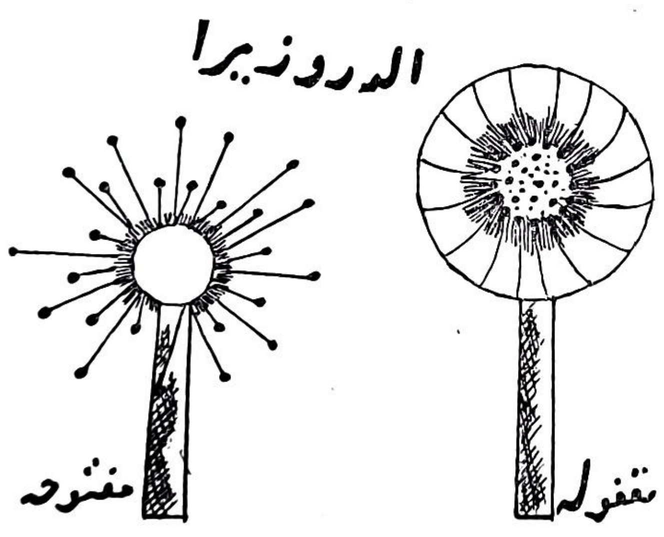
بيد أن هناك فصائل أخرى من النبات يتولد التيار فيها بقوة ميكانيكية ترد من مؤثر خارجي كما هي الحال في العائلة النباتية التي تسمى خطأً بآكلة الحشرات ، نظراً لغذائها بكل ما يقع عليها سواء أكان حشرة أو ذبابة أو فراشة أو ما شاكلها ، وهي

تنبت في الأراضي الحمضية التي لا تتوافر فيها الأزوتات اللازمة لحياة النبات ، فتضطر لذلك ، وبالنسبة لضعف جذورها وعدم قدرتها على نقل الغذاء الكافي للنبات لأن تستخلص غذاءها من صيدها .

الدروزيرا

من هـذه العائلة نبـات الدروزيرا «Drosera» الذي ينبت في أمريكا والهنـد وأستراليا ، وتوجد على أوراقه زوائد حساسة تفرز مادة حمضية لزجة تلتصق بهـا الحشرات التي ينجم من حركتها انثناء الزوائد مكونة شبكة محكمة الأطراف حول الفريسة فلاتجد لنفسها إلى الخلاص سبيلا . وبعد أن تتم عملية الامتصاص تعتدل الزوائد وتعود الورقة إلى شكلها الطبيعي لكي تستقبل ضيفاً آخر من جديد . وقد وجد « درون » أنه لو احتكت ريشة تزن ٠٫٠٠٠٨ من الجرام برؤوس الزوائد المستديرة فإن هذه تتأثر بها وتنطبق في مدى زمن يختلف بين ١٠و٢٠ ثانية !

(شكل ٤)



(شكل ٥)

الديونيا

هذا نبات صائد آخر من الفصيلة التي تعمل بالكهربا يسمى الديونيا «Dionea» حيث له مصراعان يتحركان على العرق الوسطى بحركة مفصلية ، فيفتحان ويقفلان كورقتي كتاب ، وينتشر على سطحيهما العلويين زغب ناعم الملمس ، فإذا وقعت حشرة أو جسم غريب على أحد نصفي الورقة انطبق المصراعان على بعضهما فجأة ؛ وبعد إتمام

امتصاص الفريسة تعود الورقة كما كانت أولا فاتحة مصراعيها من جديد . ويتولد التيار فيها خلال ٠,٠٤ من الثانية عقب اللمس ، وتتم حركة انطباق الورقتين على بعضهما بين خمس ثوان أو ست في درجة ٢٠ مائين ، وبسرعة قدرها ٢٠٠ ملليمتر في الثانية .

أما التعليل الصحيح لكيفية حدوث الفتح والغلق في هذه المصائد الطبيعية فهو أن أوراق هذه الفصيلة تتكون على سطحها العلوي شحنة موجبة وعلى وجهها الآخر شحنة سالبة تتولد من « تيار الراحة » الذي يعمل على تباعد

الديونيا

مغلوقه

مفتوحه

(شكل ٦)

المصراعين عن بعضهما ، ويختلف ضغطه بين ٠,٠٤ و ٠,٠٥ فولت . فحينما تقع الحشرة على الورقة تهيج الزغب الغددي المنتشر على سطحها ، ويستوي في هذا مصدر التهيج إن كان ميكانيكيا أو طبيعيا أو كيميائيا ؛ وينشأ من ذلك تيار عكسي الاتجاه ومكافئ في القوة لتيار الراحة ، ويعرف « بتيار الحركة » وينتج من تعادل هذين التيارين إقفال المصراعين. ولما كان الوقت الذي يمضي بين الحركة الميكانيكية الحادثة من المؤثر الخارجي بين الدورة التي يتم فيها إقفال المصراعين يصل إلى دقيقة في درجة حرارة ٢٠ مائين فلكيلا تطير الفريسة في هذه الأثناء زودت الطبيعة هذا الزغب بتلك المادة الحمضية اللازجة لكي تشل بها الحشرات حتى تنثني عليها الزوائد ، وهي التي تفرز المواد الهاضمة . وفي الفترة التي تكون هذه العملية قد تمت يكون التيار العادي قد تجدد في الأوراق فينفرج به المصراعان .

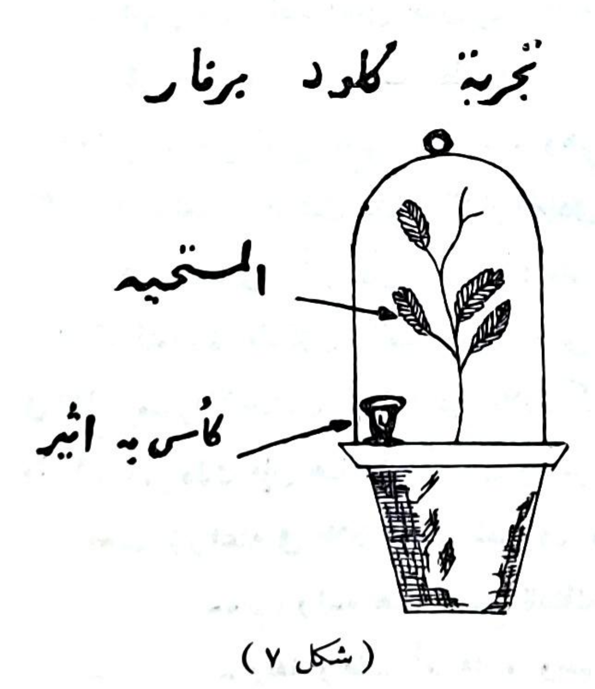
هنا يدعوني الأمر لأن أتساءل : لماذا — وقد خلق الله هذه الفصيلة العجيبة من النباتات المتعددة الأشكال والصفات ، والتي لا تقتات إلا على الحشرات ، وتنبت الآن في أقاليم بعضها لا يختلف مناخها عن بلادنا كثيراً ، بل إن منها ما يزرع في قارتنا إفريقية ، وأكثر من ذلك فإن هناك نباتاً ينبت في أمريكا ، وهي أحد مواطن هذه العائلة الصائدة قد نجحت زراعته في بلادنا وهو المعروف « بالمستحية » — أقول لماذا والحال هذه لا نفكر في تعميم زراعة هذا النوع للفتك بالحشرات والآفات الزراعية التي عظم خطرها وعم ضررها وهالنا أمرها ، وصرنا نصرف في سبيل مقاومتها المال الوفير

والجهد الكبير ، وذلك تشبهاً منا على الأقل بفلاحي هذه الأقاليم الذين يزرعونها فوق سطوح أكواخهم لكي تقيهم غائلة الذباب من غير ما كلفة أو نصب ، خاصة وأن أقوى نوع لهذه الفصيلة هو ما يزرع منها في الأقاليم الحارة حيث يبلغ طول الورقة الواحدة ثلاث أقدام ؟ !

المستحية

ليست المستحية « Mimosa Pudica » نباتاً مصريا بل هو كما قدمنا أمريكي الموطن ، وأوراقه حساسة جدا حتى إنها إذا لمست أو نفخ فيها أو هزت أو اشتدت عليها حرارة الشمس أو تأثرت من تيار كهربي فإن وريقاتها المتقابلة تنطبق كل وريقة على نظيرتها كما يتدلى ساقها من منبته إلى أسفل . وليس صحيحاً ما يقال تعليلا لحركة المستحية من أنها تعزى إلى خروج الماء الموجود في خلايا الأوراق، إذ أن « كلود برنار » قد أثبت عمليا فساد هذا الرأي حيث استحضر « المستحية » ووضعها داخل ناقوس زجاجي وبجانبها كأس صغيرة بها إتير ، فلاحظ بعد قليل وجود قطرات مائية على الأوراق خارجة من النسيج النباتي ، والأوراق مازالت منتشرة، ثم عاد ولامس بعد ذلك الأوراق فلم تتدل مع أن الماء قد تسرب كله من الخلايا . وأما لماذا لم تتأثر هي في هذه الحال بظاهرة الكهربا



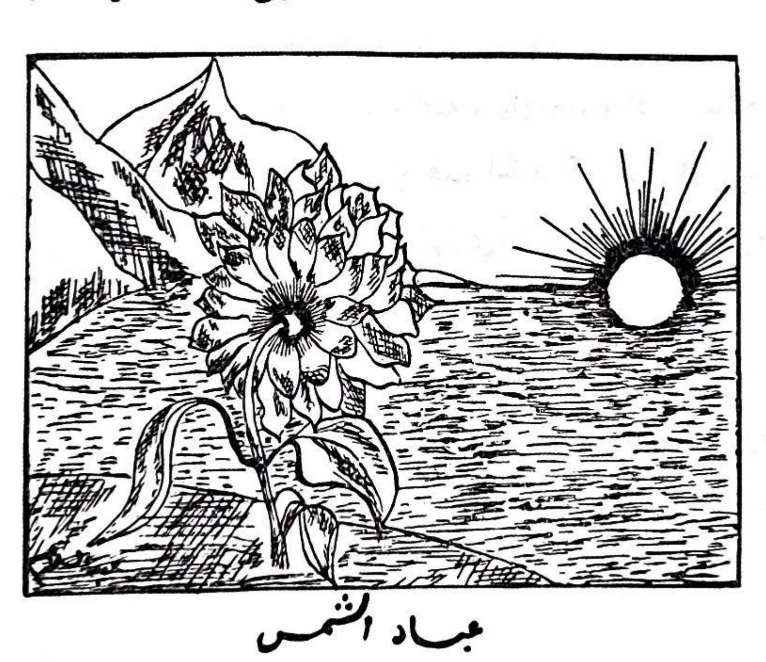


(شكل ٧)

فذلك يرجع إلى البرودة الشديدة التي أحدثها بخار الإتير فتسبب في تخدير النبات وحالت بين توليد الشحنات الكهربية في الأوراق التي تتطلب لتكوينها أن تكون درجة حرارة النبات بين ٤٠ و ٥٠ مائين . أما المستحية فإنها في درجة ١٠ تتثاقل حركتها ، وتبطل نهائيا في درجة ٥ مائين ، وحركتها في السقوط والانطباق أسرع من حركتها عند التمدد ، حيث إن حركة الانكماش تتم في سبع ثوان بينما هي تتطلب تسع دقائق لكي تعود إلى حالتها الأولى . أضف إلى كل هذا خاصية أوراق المستحية من حيث انطباقها الذاتي ليلا بدون لمس حينما يغيب عنها الضوء .

عباد الشمس

عباد الشمس « Helianthe » نبات يستقبل قرص الشمس ويواجهها منذ شروقها إلى غروبها بحركة آلية هي أثر من آثار الكهربا ، بل أكثر من ذلك أنك لو جعلت هذه الزهرة تتجه بوجهها إلى أسفل وتركت هكذا تراها تبقى وقتاً ما وهي مقلوبة الوضع بتأثير الجاذبية ولكنها لا تلبث طويلا بعد ذلك حتى تتقوس ساقها لكي تتجه الزهرة إجابة لغريزتها نحو قرص الشمس . لقد وسموه أو سموه عباد الشمس ! ! فليتهم قالوا لنا أية عبادة يعنون ؟ أهي ضرب من عبادة الأصنام والأوثان ؟ أم ترى كانت عبادة المحب الولهان ! فإن اسم هذا النبات بالإفرنجية « هليانس » وهي كلمة يونانية مركبة من لفظة « هليو » ومعناها الشمس و « أنثوس » ومعناها زهرة فتكون صحة التسمية «زهرة الشمس» وليست عبادها . على أن الأصل في دورة النباتات الشمسية وحركتها يرجع إلى تأثير أشعتها بما تحمله من الأيونات الكهربية مما يجعل الزهرة تتخذ لنفسها دائما وضعاً عموديا على هذه الأشعة في الفصيلة التي تستفيد من الحرارة مهما اشتدت ،



عباد الشمس

(شكل ٨)

أو وضعاً موازياً للأشعة في النبات الذي تضره شدة الحرارة . هذا ولا نستكثر على الضوء هذه الظاهرة فهو إذا أثر على مادتين مختلفتين مثل كبريتات النحاس مع سيانور حديد البوتاسيوم تولد من هذا التفاعل تيار كهربي . بل هناك حشرة تسمى « Pyrophorus » أي : حاملة الحرارة . فإنها من تأثير الأشعة الشمسية فيها نهاراً تضيء ليلا في وقت لا تحيد عنه ثانية واحدة كما في (شكل ٤) . هذا ولا ننسى أن عباد الشمس شديد الحساسية جدا فإن زهرته تتأثر من ضوء قوته ٠,٠١٦ من الشمعة فهي من هذه الناحية تكون أشد حساسية من عين الرجل نظراً لكونها تتأثر من ضوء لا يؤثر حتى في ورق برومور الفضة المستعمل في عمليات التصوير الشمسي والمعروف لدينا بالورق الحساس .

هذا ومن بين الفصيلة الشمسية نبات يسمى « Dimorphotica » لا تفتح زهرته إلا أمام الشمس فقط وتصير مطبقة آناء الليل ، وله خاصية عجيبة وهي أنه إذا حصلت زوبعة أو تلبد الجو بالغيم فإن هذه الزهرة تنطبق قبل حدوث هذه التغيرات الجوية ببضع دقائق ، وقد سمي لذلك الترمومتر .

وهناك نبات مائي يضيء اسمه « Pyro cystis » يستخدم ضوءه في جذب فريسته إليه . كما يوجد نبات أرضي له هذه الخاصية ينبت في البرازيل يسمى « Agaricus Gardineri » يحدث فيه الضوء النهاري بكتيريا ضوئية (شكل ٤) يشع منها النور ليلا بحيث تمكن القراءة عليه ، وهذا الضوء إما أن يكون كضوء القمر أو أحمر اللون ، وفي بعض الحالات يصدر منه شرر كهربي ؛ وإذا سحقت المادة المضيئة فيه ، ثم لفت عليها خمس طبقات من الورق فإن الضوء من شدته يخترقها ، وإذا وضعت في الجيب ثم كشف عنها وجدت متوهجة في شعلة من النور ، وتظل هذه المادة محتفظة بقوة نورانيتها العجيبة مدة خمس ليال .

عبد السلام فهمي

في معرض الآثار الإسلامية

بدار الآثار العربية بالقاهرة

(في فبراير ومارس سنة ١٩٤٧)

للدكتور زكي محمد حسن

جرت دار الآثار العربية في السنين الأخيرة على سنة حميدة لتعريف الجمهور — ولا سيما محبو الفنون — ببدائع الفن الإسلامي في مختلف ميادينه الزمنية والإقليمية. فعملت على أن تنظم في بعض قاعاتها كل عام معرضاً لطراز من الطرز الفنية الإسلامية، أو لبعض الطرز الفنية التي ازدهرت في إقليم من أقاليم الإمبراطورية الإسلامية، أو لنوع معين من منتجات الفنيين المسلمين كالتصوير أو السجاد. وكانت في كل هذه المعارض السنوية تبرز خير مقتنياتها وتستعير من أعلام الهواة في مصر بعض ما في مجموعاتهم من الدرر الفنية فتعرف أبناء الوطن ونزلاءه وزواره بخير ما تفخر به المتاحف والمجموعات الفنية في البلاد من نفائس التحف.

وقد رأى الأستاذ الجليل جاستون فييت مدير هذه الدار أن يكون معرض هذا العام جامعاً لنخبة طيبة من التحف الإسلامية التي ترجع إلى ما قبل القرن التاسع الهجري (١٥ م) والتي لم يسبق عرضها أو الكتابة عنها، وذلك ليتاح للمعنيين بدراسة الفنون أن يشاهدوا لأول مرة طائفة جديدة من التحف، عظيمة الشأن — على قلة عددها — ولتقدم إلى ميدان دراسة الآثار هذه النفائس الجديدة فتظفر بما تستحق من إعجاب ودراسة قد تكون حافزاً للوصول إلى نتائج جديدة في تاريخ الفنون الإسلامية.

وعدد التحف التي ألفت بينها دار الآثار في هذا المعرض مائتان واثنتان وخمسون تحفة، الجزء الأكبر منها تفضل بإعارته محبو الآثار الإسلامية في مصر ونفر من تجار العاديات فيها، وعلى رأس أولئك صاحب السمو الأمير يوسف كمال وصاحب المقام الرفيع محمد شريف صبري باشا وصاحب السعادة السيد محمود جم سفير إيران في مصر. أما المغفور له الدكتور علي إبرهيم باشا فقد اختار بنفسه، وهو طريح الفراش، نخبة من الأواني الخزفية النادرة في متحفه الذي تم إعداده قبل وفاته ببضعة أيام وأرسلها إلى الدار، مغتبطاً بأنها ستكون درة في جبين هذا المعرض. وقد كان له — رحمه الله —

فضل كبير في نجاح المعارض التي أقامتها الدار في السنين السابقة بوصفه رئيس مجلسها الأعلى وبإقباله على إعارة مئات التحف من مجموعته الثمينة .

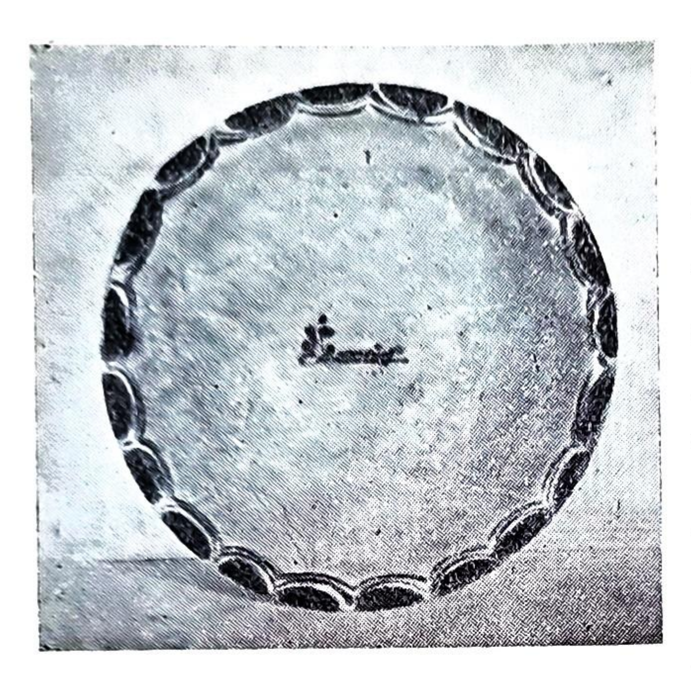
ومن الذين اشتركوا في تقديم الآثار التي يتألف منها هذا المعرض السيدة حرم أسعد باسيلي باشا والسادة أشيروف وكلمان عدس وريمون عدس وبنسلوم وماتوسيان وتانو والدكتور بالوج .

ولا ريب في أن الخزف له الشأن الأعظم في المعرض ، فعدد التحف الخزفية فيه يفوق غيرها من التحف ، وبين الخزف المعروض أنواع نادرة في المتاحف والمجموعات الفنية الخاصة . ومن بينها النوع الذي ينسب إلى مدينة نيسابور فيما بين القرنين الثالث والخامس بعد الهجرة (٩ — ١١ م) . ويمتاز هذا الخزف القديم بزخارفه المنقوشة فوق الطلاء والتي تضم رسوم بعض الطيور والحيوان فضلا عن الرسوم الآدمية البدائية والرسوم الهندسية ورسوم الحروف الكوفية التي يمكن قراءتها حيناً ولا تقرأ في معظم الأحيان . كما يمتاز بأن في ألوانه لوناً أحمر لا نكاد نراه في سائر أنواع الخزف الإيراني، وبأن زخارفه تدور في الغالب حول مركز واحد . وقد ضم المعرض نحو عشرين تحفة من هذا الخزف المنسوب إلى حاضرة إقليم خراسان ، معظمها من مجموعة السيد جاك ماتوسيان .



(شكل ١) سلطانية من الخزف المصنوع في شمالي إيران في القرن ٥ هـ (١١ م) من مجموعة السيد جاك ماتوسيان

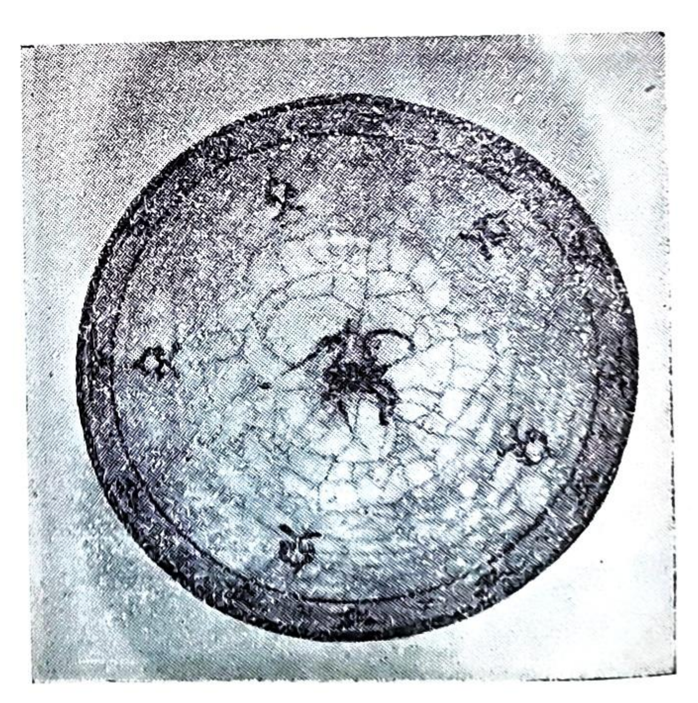
ومن التحف الخزفية الجميلة في هذا المعرض [رقم ٢٢ بين المعروضات] سلطانية زبدية اللون ، قطرها ١٩ سنتيمتراً وارتفاعها ثمانية سنتيمترات ، قوام زخرفتها المحفورة رسم طائر محور عن الطبيعة وحوله شريط من الكتابة بالخط الكوفي المزهر (شكل ١) وهي أيضاً من مجموعة السيد جاك ماتوسيان ، وترجع



(شكل ٢) صحن خزفي من القرن ٣هـ (٩ م)
في مجموعة المغفور له الدكتور علي إبرهيم باشا

إلى القرن الخامس الهجري (١١ م) .

ويضم المعرض ضرباً من الخزف الأبيض ذي النقوش البيضاء والخضراء يرجع إلى ما بين القرنين الثالث والخامس بعد الهجرة (٩ — ١١م) صنع أولا في إيران ثم انتشر منها إلى سائر أنحاء الشرق الأدنى . وبعض زخارفه هندسي كالمثلثات والدوائر والمثلثات المتداخلة والمتصلة على هيئة « خاتم سليمان » وبعضها نباتي كأوراق المراوح النخيلية « البالمت » والوريدات . وعلى معظم الأواني الخزفية من هذا النوع كتابات بخط كوفي أنيق وزخرفي ، ترسم في قاعدة الإناء أو تسير في عرضه ، وهذا النوع من الخزف ممثل تمثيلا طيباً في مجموعة دار الآثار العربيـة . كما أن مجموعة المغفور له الدكتور علي إبرهيم باشا غنية ببعض القطع الممتازة منه ، ومن بينها صحن صغير في هذا المعرض [رقم ٢٧] ، قطره ١٨ سنتيمتراً وارتفاعه سبعة سنتيمترات . وقوام زخرفتـه الزرقاء اللون رسوم أقواس تؤلف قطاعات من دوائر في حافة الإناء ، وفي وسط الصحن كتابة بالخط الـكوفي ، لعلها إمضاء الصانع ، ونصها « عمل صالح » (شكل٢) . وهذا الصحن مثال



(شكل ٣) سلطانية من الخزف الأبيض ذي النقوش السوداء . من صناعة الري في القرن ٦ هـ (١٢ م) .
في مجموعة المرحوم الدكتور علي إبرهيم باشا

طيب لبساطة الزخرفة وبعدها عن الازدحام الذي عرف في الفنون الإسلامية حيث تتجلى رغبة الفني في تغطية السطوح والمساحات بالزخارف والرسوم التي تحجبها عن العين .

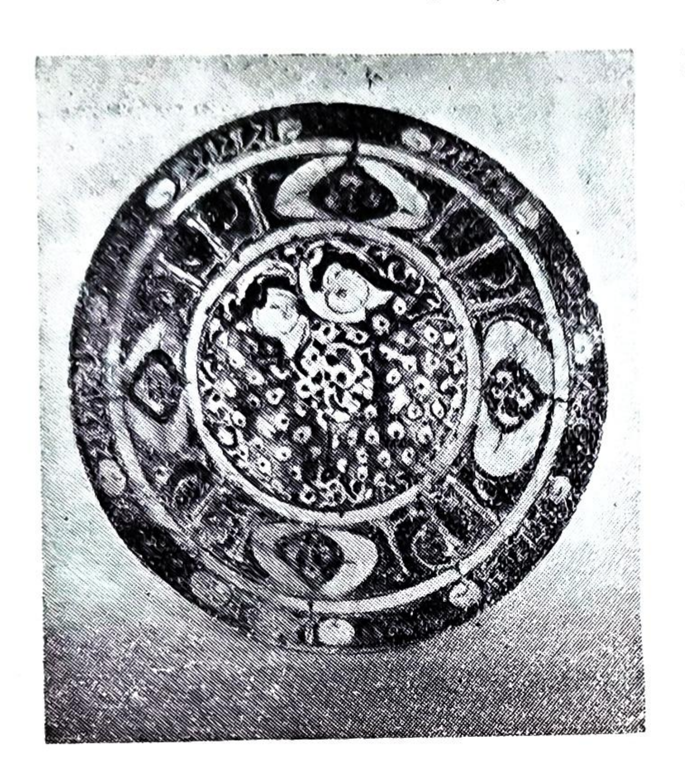
ومن التحف الخزفية ذات الزخارف البسيطة نوع كان مركز إنتاجه في مدينة الري حول القرن السادس الهجري (١٢م) . ودهانه أبيض زبدي أو أزرق وتبدو زخارفه القليلة كأنها رسوم تخطيطية مختصرة ولكنها تكسب الوضوح بفضل الفراغ الكبير الذي يحيط بها . ولعل هذا النوع من الخزف متأثر إلى حد كبير بالذوق الفني في الشرق الأقصى . ومن أمثلته في المعرض [رقم ٣٣] سلطانية من مجموعة الدكتور علي إبرهيم باشا ، رحمه الله ، وقطر هذه السلطانية عشرون سنتيمتراً وارتفاعها ثمانية سنتيمترات . وتتألف زخرفتها من رسم طائر في قاع الإناء ، تحيط به من بعيد رسوم زهور محورة عن الطبيعة (شكل ٣)

ومن المجموعة نفسها تحفة ثمينة أخرى في هذا المعرض [رقم ٧٥] ، مصنوعة من الخزف الدقيق ذي اللون الأبيض ، وقوام زخرفتها رسم بارز بروزاً خفيفاً يمثل ثلاثة حيوانات محورة عن الطبيعة ، ويفصل كلا منها عن الآخر رسوم نباتية (شكل ٤) . وقطر هذه السلطانية عشرون سنتيمتراً وارتفاعها ثمانية سنتيمترات ، وقد أعلى من شأنها البروز الخفيف في زخرفتها لأنه نادر في مثل هذا الضرب من الخزف ، ومن ضروب الخزف الذي أنتجته مدينة الري في القرن ٧ هـ (١٣ م) — وتبعتها مدينة قاشان — خزف أبيض ذو دهان أزرق وزخارف سوداء قوامها رسوم نباتية ومراوح نخيلية وزخارف شبه كتابية وأشكال آدمية يبدو فيها التأثر بالسحنة المغولية ، كما تغطي ملابسها فروع نباتية دقيقة . ومن الأمثلة البديعة من هذا الخزف سلطانية في هذا



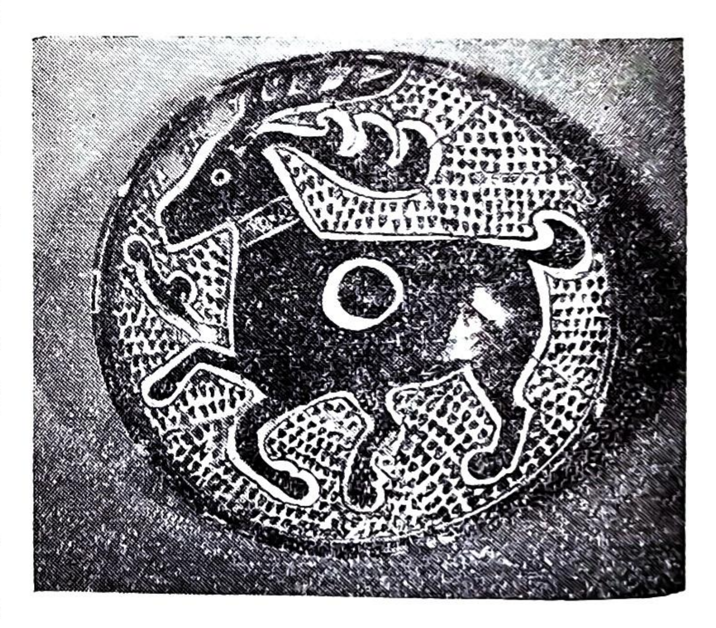
(شكل ٤) صحن من الخزف ذي الزخارف البارزة . من الري في القرن ٦ هـ (١٢ م) في مجموعة المرحوم الدكتور علي إبرهيم باشا

المعرض [رقم ٦٩] ، من مجموعة الدكتور علي إبرهيم باشا . قطرها ٢١ سنتيمتراً وارتفاعها تسعة سنتيمترات . وتتألف زخرفتها من رسم سيدتين جالستين ، وحولهما رسوم نباتية تفصلها رسوم حروف كوفية (شكل ٥) . وقد وفقت دار الآثار في هذا المعرض إلى جمع تحف بديعة جدا من الخزف ذي البريق المعدني الذي كان يغني المسلمين في العصور الوسطى عن الأواني الذهبية والفضية التي كان الفقهاء في الإسلام يكرهون استعمالها لما يدل عليه من ترف وإسراف .



(شكل ٥) سلطانية من الخزف المصنوع في مدينة الري في القرن ٧ ﻫ (١٣ م) . في مجموعة المرحوم الدكتور علي إبرهيم باشا

وقد عثر المنقبون عن الآثار على تحف من هذا الخزف في شتى أنحاء العالم الإسلامي من إيران إلى الأندلس ، واختلفوا في مهد صناعته التي ازدهرت من القرن الثالث إلى القرن الحادي عشر بعد الهجرة (٩ — ١٧م) . ومجموعة المرحوم الدكتور علي إبرهيم باشا غنية جدا بالتحف التي تمثل تطور هذا الخزف في هذه القرون التسعة . وقد ضم هذا المعرض طائفة منها ، أقدمها صحن صغير [رقم ٥٨] قطره ١٣ سنتيمتراً وارتفاعه ثلاثة سنتيمترات ، وتتألف زخرفته من رسم غزال في رقبته طوق (شكل٦) . وهو من صناعة الري في القرن الرابع الهجري (١٠م) .



(شكل ٦) صحن من الخزف ذي البريق المعدني . من الري في القرن ٤ ﻫ (١٠ م) . في مجموعة المرحوم الدكتور علي إبرهيم باشا

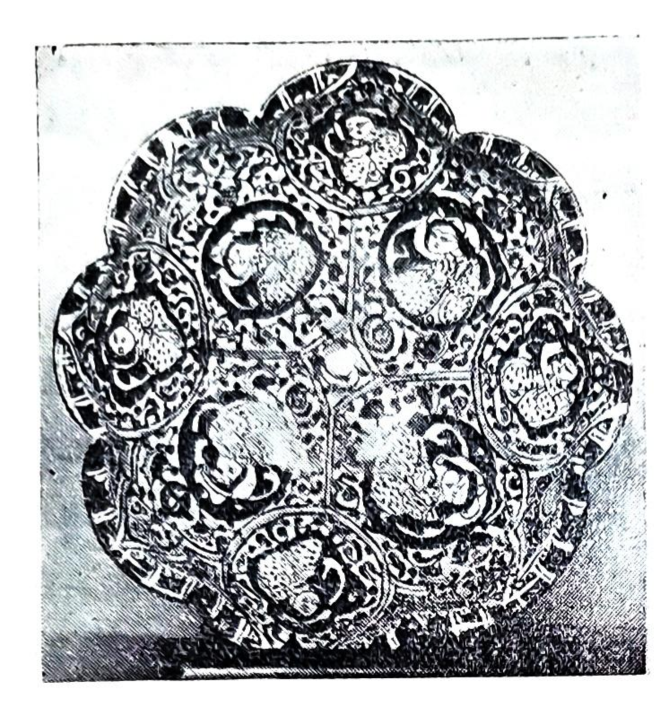


(شكل ٧) سلطانية من الخزف ذي البريق المعدني . من صناعة الري في القرن ٦ هـ (١٢ م) . في مجموعة المرحوم الدكتور علي إبرهيم باشا

ومنها أيضاً سلطانية من الخزف ذي البريق المعدني الأزرق ـ وهو نادر في ألوان هذا الضرب من الخزف ـ قطرها عشرون سنتيمتراً وارتفاعها ثمانية سنتيمترات [رقم ٦٧] وقوام زخرفتها مربع ممتد الأضلاع من زواياه الأربع ويضم رسم حيوان بين زخارف نباتية . وفي المناطق الأخرى الناشئة من امتداد الأضلاع رسوم طيور وفروع نباتية (شكل ٧) . وهذه التحفة من صناعة الري في القرن السادس الهجري (١٢ م) .

ومن التحف الخزفية الأنيقة الشكل في هذا المعرض سلطانية كبيرة متعرجة الحافة [رقم ١٢٦] وتتألف زخرفتها من ثمان دوائر تضم كل منها رسم سيدة جالسة . وهي من صناعة قاشان في القرن السابع الهجري (شكل ٨) . والحق إن مدينة قاشان

أصابت في صناعة التحف الخزفية عامة ـ والبريق المعدنى خاصة ـ شهرة توازي ما أصابته مدينة الري . وفي المعرض سلطانية من هذا الخزف [رقم ٧٠] ، عليها كتابة نصها « كتبه محمد بن محمد النيسابوري المقيم في قاشان »



(شكل ٨) سلطانية من الخزف ذي البريق المعدني . من صناعة قاشان في القرن ٧ هـ (١٣ م) . في مجموعة السيد ريمون عدس

وكان الخزفيون في مدينة الري يصنعون بلاطات القاشاني ذي البريق المعدني ، وفي المعرض بلاطتان نفيستان من هذا النوع إحداهما من مجموعة صاحب المقام الرفيع محمد شريف صبرى باشا ، والأخرى من مجموعة المرحوم الدكتور علي إبرهيم باشا . وكلتاهما توضح منظراً من قصة بيثرن ومنيثرة فى الشاهنامة . والبلاطة الأولى [رقم ١٠١] مربعة طول ضلعها ٢٩ سنتيمتراً ، وفيها رسم رستم يرفع الحجر الذي كان يغطي البئر ليخرج بيثرن منها (شكل ٩)



شكل ٩) بلاطة من القاشاني ذي البريق المعدني . من الري في القرن ٧ هـ (١٣ م) . في مجموعة صاحب المقام الرفيع شريف صبري باشا

ومن التحف الخزفية النادرة في هذا المعرض تمثال وعل من الخزف ذي البريق المعدني الأزرق الداكن [رقم ١٤٠] ، يلتقي قرناه فوق الرأس وينتهي ذنبه برأس حيوان (شكل ١٠) . وطول هذا التمثال ثمانية وعشرون سنتيمتراً وارتفاعه ستة وثلاثون

وهو من مجموعة السيد جاك ماتوسيان ، ويرجع إلى مدينة الري في القرن السابع الهجري (١٣م)

وقد ضم هذا المعرض نخبة ممتازة من التحف المعدنية ، منها تمثال ظبي من البرونز [رقم ١٤٦] من مجموعة دار الآثار، طوله ١٥ سنتيمتراً وارتفاعه ثلاثة عشر(شكل ١١) وأكبر الظن أنه من صناعة العراق أو مصر فيما بين القرنين الثالث والخامس بعد الهجرة (٩ — ١١م) . ومنها شمعدانان من البرونز [رقم ٧٦ و ٨٠] في مجموعة صاحب المقام الرفيع شريف صبري باشا ، وهما تحفتان بديعتان من صناعة الموصل في القرن السابع الهجري (١٣ م) . ومنها وعل من البرونز أيضاً [رقم ٧٩] في مجموعة سمو الأمير يوسف كمال ويرجع إلى العصر الفاطمي في مصر . ومنها تمثال أسد من البرونز المخرم [رقم ٨٦] ، ذي زخارف نباتية جميلة ، وهو من مجموعة السيد بنسلوم . أما الصور التي ضمها المعرض فمن بينها رسم على رق يظهر فيها التأثر بالأساليب الفنية الساسانية، وإن كان من صناعة مصر في القرن الثالث الهجري . ومنها صفحة من مصحف مكتوبة بالخط المغربي الجميل وحروفها مذهبة ، وهي من منتجات بلاد المغرب الأقصى في القرن السادس الهجري . ومنها كذلك رسم قدم على ورق من مصر في القرن الثالث الهجري . والتحفتان الأخيرتان من مجموعة صاحب المقام الرفيع شريف صبري باشا .

ومن التحف المعروضة بضع صور من مخطوط فارسي في تاريخ المغول تمثل إحداها [رقم ٩٥] منظر استقبال في بلاط أمير من الأمراء (شكل ١٢) . وكلاهما في مجموعة سعادة سفير إيران



(شكل ١٠) تمثال وعل من الخزف ذي البريق المعدني . من مدينة الري . في القرن ٧ هـ (١٣ م) .



(شكل ١١) تمثال ظبي من البرونز . من العراق أو مصر فيما بين القرنين الثالث والخامس بعد الهجرة (٩ — ١١م) . في دار الآثار العربية

السيد محمود جم ، وترجع إلى القرن التاسع الهجري (١٥ م) .

وبين المعروضات خزانة ، من بين معروضاتها بعض الحلى الذهبية من مجموعة السيدة حرم أسعد باسيلي باشا وهي من صناعة مصر في القرن الرابع الهجري (١٠ م) .

أما المنسوجات المعروضة فمعظمها من الأقمشة الصوفية المصرية التي تمثل عصر الانتقال من الأساليب الفنية القبطية إلى الطرز الإسلامية في العصرين الطولوني والفاطمي . ومن بين تلك المنسوجات سجادة تركية بديعة [رقم ١٠٨] من النوع الذي يعرف باسم سجاجيد هولباين « Holbein » نسبة إلى المصور الألماني « Hans Holbein » الأصغر الذي عاش بين عامي ١٤٩٧ و ١٥٤٣ م . ورسم في بعض لوحاته الفنية سجاجيد من هذا النوع الذي نرى في إطاره زخارف مشتقة من الحروف الكوفية والذي تسود فيه الرسوم الهندسية والنباتية المحورة عن الطبيعة تحويراً كبيراً .



(شكل ١٢) صورة استقبال في بلاط أحد الأمراء في مخطوط من إيران في القرن ٩ هـ (١٥ م) . من مجوعه السيد محمود جم سفير إيران

وفي المعرض نخبة من التحف المصنوعة من الزجاج المموه بالمينا ، معظمها من مجموعة

سمو الأمير يوسف كمال . ومنها قنينة [رقم ١٤٢] ذات بدن منبعج ، وعليه ثلاث دوائر تحددها أشرطة من المينا الزرقاء وفي كل دائرة منها رسم موسيقي يعزف على آلته ، وبين هذه الدوائر رسوم طيور ، يبدو من دقة رسمها التأثر بالأساليب الفنية الصينية (شكل ١٣). وهذه التحفة من صناعة بلاد الجزيرة في القرن السابع الهجري (١٣ م) .



(شكل ١٣) قنينة من الزجاج المموه بالمينا . من بلاد الجزيرة في القرن ٧ هـ (١٣ م) . في مجموعة الأمير يوسف كمال

* * *

وصفوة القول إن دار الآثار العربية وفقت إلى جمع عدد طيب من التحف التي تشهد بما بلغه المسلمون من سبق في مضمار الفنون ، كما تشهد بأن في مصر من الهواة من يستحقون أن يفخروا بما جمعوه من تلك التحف النفيسة .

زكي محمد حسن

وفد الراعي النميري على عبد الملك بن مروان فلما دخل عليه أنشده :

فإن رفعت بهم رأساً نعشتهم وإن لقوا مثلها في قابل فسدوا

قال عبد الملك : فتريد ماذا ؟ قال : ترد عليهم صدقاتهم ، وتدر عليهم أعطياتهم ، وتنعش فقيرهم ، وتخفف مؤونة غنيهم . قال : إن ذلك لكبير . قال : أنت أكبر منه . قال : قد فعلت فسلني حوائجك . قال : قد قضيتها . قال : سلني لنفسك . قال : والله لا أشوب هذه المكرمة بالمسألة لنفسي .

قراءة في كتاب الكون

للأستاذ عبد المنعم خلاف

هذا الكون كتاب يقرأ من بعد ما فكت طلاسمه ، ووضحت معالمه ، وذهبت عن الأذهان البشرية أمية الجهل والعجز عن فهم أبجدياته وتصريف أفعاله ، ووصل « شمبليون » العلم إلى فك رموزه التي كتبها القلم القديم الأعلى !

كل كلمة منه واضحة بمعناها في الذهن البشري ، ولو كان مدلولها العدم والفراغ ؛ ومسموعة في الأذن ولو كان معناها الصمت ؛ ومضيئة في العين ولو كان مفهومها العمى؛ ومحركة للقلب ولو كان معناها الجمود ؛ ومفهومة للروح الحي ولو كان فحواها الموت !

إنه كتاب مزدوج الدلالة ، يسجل الموجود ويسجل معه ضده المعدوم ، فيقرأ العقل سطوره وما بين سطوره وما يناقض سطوره ، فيشعر أن معاني الوجود ومعاني العدم تتداول عليه كما يتداول النور والظلام على العين فتدرك وجود النور ووجود عدمه ، وتقرأ في الظلام سطوراً لا تدركها في النور ، هي سطور الطمس والمحـو التي يلعب الخيال في أطلالها ، وينطلق مع أشباحها وظلالها ، ويخرج بها من حدود عالم الصور المحدودة والشواخص الجامدة والألوان والعناصر المعدودة .

لقد استمر هذا الكتاب مفتوحاً أمام عيون البشر منذ أن وضعه مؤلفه المبـدع على كرسي السموات والأرض ، وهم يمرون عليه ويتطلعون إليه في لهفة تارة وفي غفلة تارة أخرى . أما اللهفة ففي بدء وعي الطفولة حينما تحدق في نوره بعيونها الصغيرة القادمة من ظلمات الأرحام ، وحينما تتلفت وتصغي في عجب للأصوات المنطلقة من حناجر الإنسان والحيوان ورنين المعادن وعزيف الرياح واصطدام الأجسام ، وحينما تلمس وتتذوق ما يقع في أيديها الصغيرة من كل شيء ، فتجد فيه أذواقاً تورثها مشاعر وتثير فيها أشواقاً نحو « الوجود » الذي تشعرها به قراءة هذا الـكتاب الأكبر الذي تقتحم كلماته منافذ الحس لتمدها دائماً بذلك الشعور العميق : « الحياة »

أما إذا أصابت النفس غفلة بعد الطفولة ، أو لحق بها تلف يحولان بينها وبين تلك القراءة وأشواقها فذلك هو التعطل « والحرمان » الذي يلحق بهذا الـكتاب

صفحات كأنها ليست منه ! هي صفحات الألم والفقد الذي يضيفه القلب البشري إلى صور الكون حينما يحس أشواقه مصلوبة معلقة على مهاوي الحرمان ! وحينئذ يبدو الكون هوة سحيقة القاع مطموسة الحدود لا يستطيع المصلوب المعلق على أفواهها الفاغرة أن يلقي بنفسه فيها ، بل يظل يصرخ ويئن ، فيعوي صدى صراخه وأنينه ويتردد في تجاويف تلك الهوة ، ثم يرتد إليه الصوت مضاعفاً كأنما عزفته الجن في ليلة شقاء على أعواد غابات الأرض وشعاف جبالها وحناجر وحوشها ، وأرسلته لحناً موحشاً موجعاً !

ومن هنا وجب تصحيح أداة القراءة في النفس البشرية وحفظها من المتالف والغفلات لتقرأ ذلك الكتاب ولتستمتع مع قراءته بالوجود والحياة وتحس بهما إحساساً صادقا هو إحساس التلميذ الذكي الشاعر الذي وجد أستاذاً عالما حكيما فنانا يفيض على قلبه ووعيه كل يوم فيضاً يجريه من منابع الوجود ومفاتح الغيب ومطالع النور .

***

لقد أدرك الأولون هذا الكتاب إدراكا غامضاً ، وعرفوه معرفة وجدانية فيها رهبة المجهول ولذة الانتفاع المحدود المختلس المخطوف من فكي الضرورة وقسوة الظروف وتهديد الأعداء الكثيرين وضيق القدرة وسعة الجهل وخيانة المرض، فحملوه في أوعيتهم النفسية في حرص وحفاوة ملهمة غير معلومة الأسباب ، كما تحمل الأم جنينها أو طفلها وهنا على وهن بين الضرورات والآلام وليس لها من حجة أو مدد إلا حجج الإلهام المطمور فيما وراء الوعي .

لقد أودعت الحياة الأمومة وديعة ، وجعلت حول تلك الوديعة مسرة وبهجة مبهمة هي التي تغطي على الآلام ، حتى يحين الزمان فيخرج البرعم النامي وتفصل الثمرة الوليدة ، ويدرج الناشئ مع القطيع في طريق مطروق إلى غاية مجهولة . وليس على الأم مع حمل هذه الأمانة الكبرى أن تحسب حساب الألم والدم والتمزق والفداء ، ما دامت قد حملت شرارة الحياة في قلب جنينها حتى وضعتها في موقد الشعلة الكبرى شعلة الحياة التي عندها الشرح والتفسير والتأويل .

وكذلك حمل الأولون كتاب الكون كجنين مبهم في نفوسهم وعقولهم لايعرفون تفسيره ولا تأويله ، أو كما يحمل العابد الأمي قرآنه أو إنجيله في تبتل وحفاوة وحفاظ وهو لا يدري إلا أن فيه مستقبل روحه ، حتى كشف الكتاب وفسر بعضه بعضاً ، وتلاقت أضواء كلماته في الذهن البشري ، واستقرت في وعيه ، فترجم عنه ببيان لسانه

واندفعت الرهبة المذخورة المكنونة في خبايا الوجدان البشري منطلقة في الأشعار والترانيم والأهازيج تسمع الكون حديثها عنه وعن بارئه، وتسكب في آذان نفسها أحاديث ثقتها بذاتها وبربها ، وانفلت العلم الحديث يقتص آثار الجهل القديم ليطبق عليه ، وانطلقت القدرة المأسورة من عقالها تشفي غليلها من العجز العتيق ، وتشبع خيالها الجائع الذي يستمر جوعه منذ أن يكون في حرية الطفولة يخلق الأشباح ويخاطبها وينطق الحيوان ويناغيه ويخلع على الجماد صوراً من أوهام نفسه وحركاتها ، ويقطع الأبعاد والمسافات في لحظات ، ويتمنى المستحيل ، ولا يعترف بما يلاقيه من سدود وقيود ، ولا يعرف الخوف لأنه لايعرف الموت . . إلى أن يصطدم بالوعي الذي يقيده بحدود النظم والقوانين الطبيعية والصناعية فيخضع لها فترة ، وهو يحتال على كسرها والتخلص من قوالبها ليعود إلى عالم الطلاقة والحرية ، وهو مسلح بالوعي والإدراك والعلم والقدرة ليفعل ما يشاء ، له عمل الرجولة وأشواقها إلى كشف المجهول ، لا كما كان وهو في عبث الطفولة ولهوها يعمل لغير غاية .

لقد أدرك الأولون هذا الكون إدراك الرؤية ولم يدركوه إدراك الرأي ، فوقع من نفوسهم موقع رهبة العاجزين الجاهلين ، فعبدوا ربهم عبادة العاجزين الجاهلين . أما نحن فقد أدركناه إدراك الرأي والعلم فيجب أن نعبد ربه عبادة القادرين العالمين الذين لهم غيرة على الكون أن يدخله نشاز في لحنه المتناسق أو تتطرق إليه جهالة تفسد علمه المتساوق ، أو ترتد به رجعية تعوق سيره المتلاحق ، أو تسعى به أفاع تسمم روضه المتفتح .

نعم ! إن الكون لن يرتد من كمال إلى نقص أو بالأحرى لن ترتد صورته في العقل البشري إلى ما كانت عليه ، لأن الكون كامل منذ أن كان ، ولكن النقص فينا نحن سكانه الذين درجوا في أحضانه كما يدرج الأطفال في أحضان أمهاتهم عاجزين جاهلين لايدركون من أمهاتهم شيئاً ثم يدركونهن شيئاً فشيئاً حتى يعرفوهن معرفة حنين الدم في قلوبهم ويقين الرأي في عقولهم وتشابه الطلعة في أجسامهم . وكما لايليق بالأبناء أن ينكروا أمهاتهم أو يجحدوا فضلهن أو يسيئوا إليهن ، كذلك لايليق بالناس أن يقطعوا أرحامهم الواشجة بالطبيعة وإلا صاروا كالمنبتين في متاهات السموات والأرض لا تمتد إليهم يد دليل ، ولا ينظر إليهم مالك هذه الطبيعة العجيبة الذي ما أدخلهم في رحابها ، وأسكنهم فيها ، وخولهم جميع مابها ، إلا ليتفرجوا ويعجبوا ويدهشوا ويحاروا ، فيحملهم العجب والدهش على السكينة أمامه والتعبد له ! ذلك التعبد الذي هو ثمرة العلم

وثمرة الفن وثمرة العمل ، بل ثمرة الحياة التي إن لم تدرك وتنضج قبل قطافها سقط صاحبها من شجرة الوجود كما تسقط الثمرة التي فسد سر النوع فيها ، فلن تستطيع أن تنقله إلى عالم المستقبل ، ذلك العالم الذي تتطلع إليه كل نفس ذاقت طعم الحياة الأبدية مع الله في خفقة من خفقات الروح ، أو لمعة من لمعات البصيرة أو ارتكازة من ارتكازات العقل الواعي الذي يتشعب ويمتد امتداد الجذور في أقطار السموات والأرض ، ويمتص منها عصارة اليقين . فيامؤلف الكون ! ذلك الكتاب الأكبر الذي تفرد علمك بوضع كلماته ! هب لنا من الفقه والقدرة على أن نقرأه قراءة الراسخين في العلم ، الذين يشهدون لك ويشهدون معك على صحة أوضاع ما وضعت ويحتفون به حفاوتك التي يدل عليها ما تواليه على الكون من وجود ورحمات وقوى تمسك السموات والأرض أن تزولا ، ويرون فيه توقيعك باسمك على كل شيء ، فلا ينكرون الجمال والنظام والدقة والوضوح والهول والقوة !... الذين صنعت عقولهم موازين حساسة تعي الذرة والمجرة وما بينهما ، وترى لنفسها وتري غيرها ، وتثقل فيها راجحات الامور وخفيفاتها مما بثثته في آفاق السماء . وفجاج الأرض وأعماق النفس .

عبد المنعم خلاف

الزجاج بدل الصلب والحرير

في وسع الإنسان الآن أن يصنع جميع حاجياته من الزجاج سواء كانت بيتاً يشيده أو مسكناً يؤثثه أو ملابس يرتديها أو سيارة تنقله إلى عمله . فقد أدت دراسة ألياف الزجاج إلى العثور على مواد أكثر مقاومة من الصلب وأكثر ليونة من الحرير . واستغلت مادة الزجاج في صنع أكثر من ٤٠٠٠ سلعة .

ومن مميزات ألياف الزجاج الحديثة أنها لا تحترق ولا تنكمش ولا تتمدد ولا تتأكل ولا تتأثر بالحوامض أو القلويات . وقد استخدمت أخيراً في صنع آلات وهيا كل السيارات والطائرات وأنابيب نقل الماء وستائر المنازل وجميع مفروشات المنزل فتيسر للصناع إخراجها في ألوان قلما نحصل عليها من المواد المستخدمة كالصلب أو الحرير .

ويتنبأ المتخصصون في الزجاج بأن أليافه ستحتل مكان المعادن والنباتات التي نستغلها في حياتنا اليومية لأنها لا تتأثر بالتقلبات الجوية أو الحرائق فضلا عن سهولة استخدامها .

تاريخ الغزل العربي

للأستاذ خلدون الكناني بدمشق

إن كان لكل أمة فن جميل برعت فيه وتميزت ، فالشعر فن العرب الجميل ، فيه برعوا ، وبه تميزوا . وإن كانت حياة الفنون الجميلة ، في تاريخ أكثر الأمم ، قصيرة الأمد ، سرت في عصر من عصورها الزاهية ثم خبت من بعد وانطفأت ، كالنحت والتصوير عند اليونان والرومان . فالشعر في تاريخ العرب طويل العمر ، متصل الحياة ، صحبهم منذ أن ظهرت آثارهم على صفحات التاريخ ، ولزمهم ملازمة اللغة والبيان .

ولما طغى العلم ، في هذا العصر ، على كل مسارح الحياة ، وتنكر للخيالات والأوهام ، خشيت الأمم التي تعز القريض — وفي مقدمتها الأمة العربية — أن لا يثبت الشعر وعبثه لضربات معاول العلم ، وخافوا أن يفقد مكانته في حياة المجتمع الحديث ؛ لولا أن وجد علم النفس أن الشعر حاجة ضرورية للنفس الإنسانية ، والمجتمع البشري ، وأن حياة النفس والمجتمع لا تنمو ولا تزدهر ولا تتكامل إلا إذا أدركت حاجاتها الضرورية . فعاد الشعر إلى الحياة الحديثة وهو أعز مما كان منزلة ، وأنبه شأناً ، لأنه كان من قبل ألهية وترفاً ، فأضحى اليوم حاجة حيوية لا بد منها .

وأغراض الشعر العربي كثيرة ، من أشهرها وأقدمها الغزل . وهو « في اللغة » محادثة النساء ، و « في الأدب » محادثتهن بما يعجبهن ، والحديث عنهن ، ووصف محاسنهن ، وبثهن عواطف الحب والشوق .

وقد تأخر ظهور الغزل في شعر أكثر الأمم ، طوال العصور التي لم ينظر فيها الرجل إلى المرأة نظرة الإنسان للإنسان ، والند للند ، بل نظرة الإنسان إلى ما دون الإنسان ، والسيد للعبد الرقيق .

يقول « استندال » الكاتب الفرنسي المشهور في كتابه عن الحب : « لذا كان مولد أطهر ألوان الحب والغزل ، في خيام عرب الجاهلية السمراء ، حيث الطهارة في

التربة والجو ، والصفاء في السماء ، وحيث ينظر البدوي إلى البـدوية نظرة الكفء الشريف للكفء الحبيب » .

كان الغزل في حياة الجاهليين حاجة نفسية . كان يبلل بنداه الرطيب قلوبهم التي جففتها شمس الصحراء ، ويخلق لهم في طرقاتهم المحرقة بعض الظلال الوارفة يأوون إليها ، ويبعث في قلوبهم الأمل والنشاط ، كلما هدتهم وعورة المسالك وقسوة الحياة في الصحراء . كانوا بأنغامهم العذبة يحدون إبلهم الصابرة وقوافلهم ، وكانوا بذكرى الأحبة يحدون قلوبهم الخافقة وآمالهم . ولم يكن العربي يحس الكمال إلا إذا جمع بين النفس العاشقة والقلب الشجاع ، وبين ذل الهوى وعز السطوة والشأن .

وكان الغزل في الجاهلية حاجة اجتماعية فنية أيضاً . كان تقدمة يقدمها الشاعر بين يدي أغراضه الأخرى ، فلا يبدأ مديحه ولا فخره ولا هجاءه حتى يهز العواطف بذكرى الأحباب ، ويلاين القلوب بصور العشق وأهـل الهوى ، ويطرب النفوس بتصوير محاسن النساء ؛ شأنه في ذلك شأن المطرب ، لا يبدأ الغناء إلا بعزف الآلات ؛ فمتى هيمنت الموسيقى على المشاعر ، وبعثت النشوة والسرور في قلوب السامعين ، وخلقت « الجو » المطلوب ، غنى وطرّب ، وتصرف بأهواء سامعيه كيف شاء ✡ .

ولعل تلك الدواعي النفسية والاجتماعية الفنية هي التي صيرت الغزل الجاهلي أميل إلى الذكرى ، وإلى بعث الماضي السعيد ، ودفعت الشاعر إلى الحديث عن قلبه المعذب ، ووصف وجده ولوعته وبعد أحبته ، وشغلته عن الإطناب في تصوير جمال المحبوب الحسي وهو يتثنى في بروده وعطوره وزينته ، كما فعل المتغزلون في العصور التالية .

قال امرؤ القيس — وهو من نعلم أقل شعراء الجاهلية صدقاً في الهوى ، وأجدرهم بأن لا يشكو الهيام وحرقة الصبابة — بعد أن ذكر أياماً صالحة كانت له من صويحباته :

أفاطم ، مهلا بعض هذا التدلل ! وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي !
أغرك مني أن حبك قاتلي وأنك مهما تأمري القلب يفعل ؟

وقال حسان بن ثابت يذكر أيام الصبا والغرام في الجاهلية :

قد تعفى بعدنا عاذب ما به باد ولا قارب
ولقـد كانت تكون به طفلة ممكورة كاعب
وكات قلبي بذكرتها فالهوى لي فادح غالب

✡ وقد فطن أبو العلاء المعري — وهو الشاعر النبيه الفطين — إلى ما ينشأ عن غياب الغزل في مطالع « لزومياته » من ضعف في روح الشعر ، ونقص في رونقه وبهائه ، فنبه إليه في مقدمة الـكتاب .

وكأني حين أذكرها ... من حميا قهوة شارب
لم تكن سعدى لتنصفني ... قلما ينصفني الصاحب
فابك ما شئت على ما انقضى ... كل وصل منقض ذاهب
لو يرد الدمع شيئاً لقد ... رد شيئاً دمعك الساكب

ولعل تلك الدواعى أيضاً هي التي قرنت معنى « الألم والحرقة » إلى لفظ الحب ومرادفاته « فالغرام » لغة الشر الدائم والهلاك والعذاب والحب ، و « الهيام » العطش والجنون من العشق ، و « العشق » إفراط الحب وعمى الحس عن إدراك عيوبه ، و « الوجد » الحب والحزن ؛ ويقال : « أحب الرجل » إذا أحس الحب و « أحب الجمل » إذا برك من المرض .

وخير ما يميز الغزل الجاهلي المصارحة في بث الصبابة ، وعناية الشاعر بالتعبير الصادق وإطلاق النفس على سجيتها ، وضعف رغبته في إظهار البراعة للسامعين ، وأسر إعجابهم بالتلفيق والمبالغة ، والعبث بأهوائهم وإحساسهم كما فعل شعراء العصور المتأخرة .

ولما جاء الإسلام وجم الشعر وحار وكبا جواده . لقد شق القرآن الكريم طريقة للبلاغة الرائعة غير طريقة الشعر : طريقة أبعد من العيوق منالا ، ممتنعة على المقلدين . ولم يرحب المجتمع الإسلامي الناشئ — وهو المشغول ببناء حياة جديدة قوية خالدة — بالشعراء الأقدمين ، ولا سيما بعد شهادة القرآن والرسول الكريم* . فسكت حسان بعد إذ فرغ من مسابة القرشيين ، وحبس الحطيئة لهجائه الزبرقان ، وطلب إلى الخنساء الكف عن البكاء والرثاء ، واشتد بعض الخلفاء الراشدين فمنع التغزل بالنساء ، فقال حميد بن ثور متغزلا بشجرة من السرح :

فيا طيب رياها ، ويا برد ظلها ... إذا حان من شمس الصباح شروق
وهل أنا ، إن عللت نفسي بسرحة ... من السرح موجود علي طريق ؟

وكان المجتمع الإسلامي ينتظر شعراً من طراز جديد ، يجري مع أغراض الدين ، وينهض بالقلوب إلى الطهر والفضيلة ، ويسمو بها إلى آفاق الحياة الفكرية الخصيبة والمثل العالية . لكن هذا الشعر لم يظهر ، وأقام أكثر الشعراء على جاهليتهم الشعرية ،

* في القرآن الكريم : « والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون » . وروي عن الرسول عليه السلام أنه قال : « الشعر كلام ، فما وافق منه الحق فهو حسن ، وما لم يوافق الحق فلا خير فيه » .

وانحرف المجتمع الإسلامي ، بعد حروب علي ومعاوية ، عن بعض أغراضه الأولى ، ونشأت في قلب البلاد العربيـة بيئـات جـديدة تتطلب الشعر ولاسيما المدح والهجاء والنسيب .

كان هذا النسيب ، زمن بني أمية ، شديد الشبه بنسيب الجاهليين ، إلا في الحجاز حيث صبغته البيئة الخاصة الناشئة بألوان جديدة متميزة .

لقد ملأ الأمويون الحجاز بالأموال والغنائم والعبيد والسبايا ، وصرفوا أهله بالمتع والمغريات عن المطالبة بالخلافة والثورة على ملوك الشام ، إلى حياة المجون واللهو والغناء . وكان لا بد لهذه الحياة العابثة الصاخبة من عندليب يصدح على أفنانها ، ويزين للناس حياة اللهو الرخيص والاستمتاع باللذات الحسية ، والتنقل في الهوى بين الجواري الحسان تنقل الطيور بين الأثمار والأغصان . فكان هذا العندليب عمر بن أبي ربيعة .

وقد نقم على عمر وأتباعه من المترفين المجان علماء الحجاز وصالحوه الذين شرفوا بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتابعوهم ؛ فجعلوا يرشدون اللاهين العابثين إلى طريق الجد والخير ، ويزينون في قلوبهم التقوى ، ويدعونهم إلى حياة كلها الطهر والشرف والسمو ، لكنها كانت في أعين عمر وأشياعه جافة قاسية لا تغريهم ؛ فيها كل الانصراف عن الدنيا والحياة المرحة التي يحبونها ويتعشقونها .

بالغ عمر وأتباعه في حب الحياة واللهو المبذول ، وبالغ العلماء والوعاظ في التنفير من الحياة والزهد في طيباتها ، وتطرف الفريقان وأفسحا المجال لينمو بينهما ، في القلب — حيث الحقائق الصحيحة — غزل جديد ما شهر قبل الإسلام ، ولا حفظت أشعاره . غزل فيه عفة وإخلاص ، فيه ما يرضي قلوب شبان الحجاز المتفتحة للحب العابق به جوه الماجن ، وفيه ما يرضي أهل الرشد والصلاح بطهره وشرف أصحابه .

فالغزل العذري إذن — إن لم يولد في الإسلام — ربيب الإسلام وحبيبه ؛ غذاه ورباه وسهر على نموه وازدهاره ، فكان للمتدينين المنقطعين في بادية التفكر ، والداعين إلى الحياة الصالحة المتقشفة المنجردة ورودا حمراء نافخة العطر ، سقاها الشعراء العذريون دماء قلوبهم ، وقطرات من الندى الرطيب أسالها أهل الهوى العفيف من عيونهم ، فأنعشت من تحن إلى ديار الصلاح وبوادي الطهارة نفوسهم . قال جميل بثينة :

وإني لأرضى من بثينة بالذي ... لو ابصره الواشي لقرت بلابله
بلا ، وبأن لا أستطيع ، وبالمنى ... وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضي ... أواخره لا نلتقي وأوائله

ولم يستطع العصر العباسي بما كان فيه من تهالك على اللذات الجسدية ، وإفراط في السكر والخلاعة ، ومجاهرة بالفحش وخلع العذار ، وتعشق للجواري الفاسقات والغلمان ، لم يستطع هذا العصر — على جوه المحموم بالغرائز الجامحات — أن ينزع حب الغزل العفيف من النفوس . فمال إليه بعض الشعراء كالشريف الرضي ، وأولع به المتصوفة والمبتدعون للغزل الديني المتشوقون لديار الرسول . قال ابن الفارض :

وتلطف واجر ذكري عندهم علهم أن ينظروا عطفاً إليّ
قل تركت الصب فيكم شبحاً ما له ، مما براه الشوق ، في
بين أهليـه غريبـاً نازحـاً وعلى الأوطان لم يعطفه لي
أوعدوني أو عدوني وامطلوا حكم دين الحب : دين الحب لي
بل أسيئوا في الهوى أو أحسنوا كل شيء حسن منكم لدي !

لـكن الغزل العفيف ليس هو اللون المميز للغزل في العصر العباسي. ولعل أهم ما كان يميزه غلبة الوصف الحسي عليه ، إذ لم يكن هم الشعراء ، في هذا العصر ، شكوى الصبابة الدائمة ، وبث الحب الصادق العميق ، كما فعل شعراء الجاهلية والعذريون ، بل كان همهم وصف محاسن الغواني : شعورهن وأحداقهن وخدودهن ونحورهن وقدودهن وألبستهن وعطورهن وتثنيهن في مشيهن وتخلعهن في سكرهن وطرقهن في الإغراء والعبث والمجون ، والمجاهرة بحبهن والتنقل بينهن من غير ما إقامة على حب إحداهن ، والمصارحة بكثرة عشاق كل واحدة منهن . قال العباس بن الأحنف ، وهو أعف شعرائهم وأبعدهم من شهوات الحس :

أتأذنون لصب في زيارتكم فعندكم شهوات السمع والبصر
لا يضمر السوء إن طال الجلوس به عف الضمير ، ولـكن فاسق النظر

وقال أيضاً :

ذكرتك بالتفاح لمـا شممته وبالراح لما قابلت أوجه الشرب
تذكرت بالتفاح منك سوالفاً وبالراح طعماً من مقبلك العذب

وهكذا فقدت المرأة ، في هذا العصر ، معانيها السامية وأضحت ألهية مغرية ، ومتعة رخيصة تستجيب لها إحساسات الرجال العارضة وأهواؤهم ، ولا تنفتح لها قلوبهم ولا تسمو بحبها نفوسهم . وغابت من غزل هذا العصر صور الحرائر الشريفات ، وامتلأ بتمجيد الإماء الفاسقات .

ومما يميز الغزل العباسي أيضاً مبالغة الشعراء في وصف شدة حبهم ، وما فعلته الأشواق بهم . هذا بشار بن برد أضخمهم يقول :

خففي يا عبد عني واعلمي أنني يا عبد من لحم ودم
إن في بردي جسما ناحلا لو توكأت عليه لانهدم

ويقول آخر :

ولو أن ما أبقيت من جسمي قذى في العين لم يمنع من الإغفاء

والمبالغة — كما نعلم — سبيل دائم لستر العاطفة الهزيلة والحب الكاذب .

وخلاصة القول في هـذا الغزل أنه وسيلة من وسائل الإغراء ، لا نتيجة من نتائج الوجد ، وأن أصحابه تقصدوا فيه إظهار شاعريتهم ورقتهم وظرفهم ورهافة حسهم ومجونهم أكثر من تقصدهم وصف حرقتهم وشوقهم ، والدلالة على وفائهم وصدقهم ، والتعلل بذكر الحبيب .

ولا يختلف الغزل في الأندلس عن هذا الغزل إلا من ناحيتين : أولاهما أنه أقل مجوناً وشططاً من الغزل العباسي ، وأشد منه استمساكا بالفضائل والآداب . والثانية أن طبيعة البلاد الجميلة زاحمت النساء على قلوب الشعراء الأندلسيين ، فأكثروا من وصف البساتين والرياض والأنهار والأزهار ومجالس الأنس . وكانوا يستعيرون محاسن النساء لتزيين مناظر الطبيعة الساحرة بعد أن كانت العرب تستعير محاسن الطبيعة لوصف جمال النساء . وكانوا إذا تغزلوا أو تشوقوا ارتسمت من وراء صور محبوباتهم وزفرات أشواقهم صورة مشهد فاتن من مشاهد الطبيعة الأندلسية الباسمة . قال ابن زيدون يتشوق إلى ولادة :

إني ذكرتك بالزهـراء مشتاقا والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا
وللنسيم اعتـــلال في أصائله كأنما رق لي ، فاعتل إشفاقا
والروض عن مائه الفضي مبتسم كما حللت عن اللبات أطواقا
يوم كأيام لذات لنـا انصرمت بتنا لها ، حين نام الدهر ، سراقا

ولما انحط الأدب العربي ، في عصر الدول المتتابعة ، تردى الغزل مع الأغراض الشعرية الأخرى في مهاوي الـكلفة والفقر والجدب والجفاف ، واستحال إلى استعارات غريبة اتخذها الشاعر معياراً لبراعته وافتنانه في النظم ، وإلى صناعات زخرفية تنوء بالعاطفة كما تنوء الأحجار الكثيرة الصلدة بنبتة الربيع ؛ وبات هم الشعراء إظهار افتنانهم وقدرتهم على تصيد التشابية النادرة والاستعارات البعيدة والتورية الغريبة والشعبذة

اللفظية ، لابيان ظرفهم ورقة عواطفهم كما فعل الشعراء العباسيون ، ولا الكشف عن طهر نفوسهم وصدق لوعتهم كما فعل العذريون والجاهليون . قال صفي الدين الحلي :

عانده في الحب أعوانه وخانه في الود إخوانه
متيم ليس له ناصر أول من عاداه سلوانه
ما شانه إلا مقال العدا وقد همت عيناه : ما شانه ؟

وقال الشاب الظريف :

يا ساكناً قلبي المعنّى وليس فيه سواك ثان
لأي معنى كسرت قلبي وما التقى فيه ساكنان ؟

والغزل في العصر الحاضر وارث تلك العصور المتقدمة ، وثمرة من ثمراتها ؛ يتنازعه اليوم تياران : تيار الأدب العفيف الطاهر ، وقد انقلب إلى أدب باك طافح بالآهات والعبرات والذل ، ولا سيما حين جرى بريح الأدب « الرومنتيكي » الأوربي ، واستمد من لعابه . يمثله قول القائل :

هل رأيت النجم في الأفق بدا ؟ إنه عيني تولاها الذبول
أو أتى سمعتك في الليل صدى ! إنه مني بكاء وعويل
فإذا بلل كفيك الندى فهو دمعي بين أيديك يسيل
آه ! كم حاولت أن أسلو الهوى وأريح القلب من عبء ثقيل
فإذا الحب على القلب استوى مالكا يحكم في عبد ذليل

والتيار الثاني يجرفه إلى مهاوي الرذيلة ، ويجعله عوناً للفجور على الأخلاق الفاضلة ويصيره أشبه بالصور الخليعة التي تتباهى اليوم بعض المجلات بنشرها . وهو في الغالب من عمل شعراء خاملين ليس لهم في الحياة مثل أعلى ينهضون إليه ، ولا عمل شريف يبذلون فيه جهدهم ونشاطهم ، فتركز انتباههم على الغريزة الجسدية وعلى كل ما يثيرها ويمجدها من الصور والأشكال والألفاظ .

وإذ كان الغزل من الأغراض الشعرية الرئيسية ، ينفذ إلى أعماق النفس الإنسانية ، ويؤثر في حياتها وفاعليتها ، وفي مكنته أن يشيع فيها الظلمة والخمول واليأس ، أو يضيء كهوفها القاتمة بنور الحب الصحيح ، ويزيد في نشاط القلب وتوثبه نحو الحياة المجيدة الخصيبة ، كان لابد من العناية بدراسته في هذا العصر ، وتوجيهه التوجيه الصحيح المفيد ، والتروي في اختيار أنواعه وتمييز السامية منها ، التي يجب أن تمنح وحدها حق الحياة والظهور في كتب الأدب الجيدة ، والمجلات الراقية و « الأفلام » الممتازة .

وأول ما نطلبه أن يهجر الغزل القديم ، ويجعل من حظ المتاحف ودور الكتب القديمة ، ولا سيما نوعه الماجن الذي يرفع أكثر مؤرخي أدبنا من شأنه ، على حين يجعله مؤرخي الآداب الأخرى — في أكثر بلاد الله حرية وتهتكا — من أنواع الأدب المنحط الوضيع . ونطلب ألا يرحب إلا بالغزل الذي يخرج النفس من فتورها ، ويزيدها عزماً وأريحية ويملؤها رضى بالحياة وقدرة على مغالبة صعابها وتكاليفها ، كقول القائل — وما أندره قولا وما أعذبه ! .

إذا كنت وحدي أكون وإيا ك ، أو خالياً فاشتغالي بك
وأطلب المجد والمكرمات لتحسن لي شيمة عندك

ونطلب أن ينخلع أدبنا من ربقة الجاهلية والإباحية ، فلا يقتصر على تمجيد الحسان اللائي لا تربطنا بهم رابطة الشرع أو الزواج أو « الخطبة » بل يعنى بالزوجة والخطيبة عناية الأقدمين بالحبيبة ... ولا يخفى ما لهذا الضرب من القول من أثر فاضل في تزيين معيشة الأسرة ، وترغيب الفتيان والفتيات في الحياة البريئة الشريفة .

وقد ظهرت بواكير هذا الغزل الجميل في شعر الشعراء الأفاضل* الذين فقدوا زوجاتهم ، فأنطقهم الحزن الصادق بوصفهن ، فأشادوا بذكر محاسنهن وفضائلهن وأثرهن العميق في حياة الأسرة السعيدة قبل غيابهن .

ونرجو كذلك من شعراء الجيل أن يذكروا أن الغزل ماهو في الحقيقة إلا تغن بمظهر واحد من مظاهر الجمال البديع واللذة الصحيحة ، وأن المظاهر الأخري بديعة أيضاً ، شديدة السحر والفتنة ، وأنها جديرة بعنايتهم ، قمينة بأشعارهم . فإن كان الطفل لايري متعة الحياة إلا في اللعب والطعام الطيب ، وإن كان المراهق والشاب الحدث لايرى الحياة إلا في الحب والتفاني في خدمة المحبوب ، فإن النفس الإنسانية الكاملة — كلما تقدمت بها الأيام وانفسحت أمامها الآفاق — تطلع على مظاهر أخرى منوعة من مظاهر الجمال الساحر واللذات العفيفة .

فعسى أن يرقى الغزل العربي الحديث هذه المراقي المزهرة العالية ، ليستعيد أدبنا منزلته في الأدب العالمي الخالد .

خلدون الكناني

---

* انظر في الكتابين : « أنات حائرة » و « وحي المرأة » .

أنستاس ماري الكرملي

١٨٦٦ — ١٩٤٧

للأستاذ رفائيل بطي

تفرد العراق في أزهر العصور العربية بمن أنجب من أئمة اللغة وفحول البيان ، فكان موطن الخليل وابن الأعرابي والأصمعي وثعلب وآخرين . وها هو ذا يحتفظ بهذا المجد التقليدي فيباهي في عصرنا بشيخ اللغويين وعماد المعجميين : الأب أنستاس ماري الكرملي . وإذا كان لأولئك الصدور أنداد ونظراء بين معاصريهم أو متقدميهم في الناطقين بالضاد فقد يكون أنستاس منقطع النظير بين أشياخ اللغة وعلماء العرب ، بما عرفه من اللغات الشرقية والغربية ، وما اهتدى إليه من المقارنة بين اللسان العربي وألسنة الأعاجم ، وما أنتجه من خطط البحث ، ورسمه من قواعد الدراسة اللغوية . وستبقى مقالاته ورسائله وكتبه شرعة للوارد وتراثاً ضخماً يعيش عليه الخلف دهراً .



ولد منشىء « لغة العرب » في بغداد يوم ٥ آب (أغسطس) ١٨٦٦، ونصر بعد أربعة أيام باسم بطرس . أبوه ميخائيل جبرائيل عواد ، يمت إلى بيت قديم ، ويرجع بنسبه إلى بني مراد المشهورين في تاريخ العرب على العهد الجاهلي . ظعن جدهم الأعلى إلى جبل

لبنان حيث عاش وذريته إلى يومنا ، وامتد له فرع إلى بغداد . وأمه مريم بنت أوغسطين جبران من النصارى القدامى في مدينة السلام . وكان جبرائيل عواد رجلا ديناً ، جاء الزوراء ، وألجأته الحال السياسية إلى أن يعرف بين الناس باسم : ميخائيل ماريني .

رضع الحدث أفاويق اللغة ومبادئ العلوم بين مدرستي « الآباء الكرمليين » و « الاتفاق الكاثوليكي » ، وكانت الثانية بإدارة خاله الأديب الشماس فرنسيس جبران . وإذ بدت عليه مخايل النبوغ ، ولوحظ ميله إلى الأدب اختاره مدير « المدرسة الكرملية » مدرساً للعربية ولما يزد عمره على ست عشرة سنة . وطفق في هذه السن يكاتب الجرائد بالمقالات الأدبية ، فظهر اسمه في « البشير » — بيروت — و « الصفاء » — لبنان — و « الجوائب » — القسطنطينية — وبعد أن نال حظا من اللغة الفرنسية مال إلى تعلم اللاتينية قبل أن يدرك العشرين ربيعاً . وقصد عام ١٨٨٦ إلى « المدرسة الإكليريكية » للآباء اليسوعيين في بيروت يدرس العربية ويتفقه في الرومية واليونانية ؛ ثم انتقل بعد لأي إلى الدير الكرملي في شفرمون ببلجيكا ؛ وهناك انقطع للنسك والعبادة مع العكوف على الدرس والقراءة .

وفي ٢٢ حزيران (يونيو) ١٨٨٩ نذر نفسه للرهبنة في العشيرة الكرملية باسم : « الراهب أنستاس ماري الإيليادي الكرملي الحافي »[١] ، مع أنه أكد في مقالته حول « المردة والجراجمة » أنه « مارونى قح »[٢] ، وتحول من شفرمون إلى لاغتو في كورة جبال الألب البحرية . وفي دير الكرمليين الحفاة تلقى دروسه الفلسفية ، وشخص على الأثر إلى المعهد الكرملي فى ليرو بمونبلييه ، فقرأ اللاهوت ، وتعمق في تفسير الكتاب المقدس ، ووقف على التاريخ البيعي الأكبر ، حتى إذا جاز امتحانات هذه الدراسة قُسّ سنة ١٨٩٤ بيد السيد « De Gabriere » كردينال مونبلييه ومن أحبار الفرنسيين وعلمائهم الأجلاء .

لم يغادر الأب أنستاس جدران الدير حتى هفت نفسه إلى رؤية فردوس العرب المفقود ، فشهد أمجاد العروبة في آثار الأندلس ، فزادته روائعها تعلقاً « بأم اللغات » ، وفتحت له خزائن الإسكوريال آفاقاً من المعرفة العربية . وعاد إلى مسقط رأسه في أول تشرين الثاني ١٨٩٤ ، فأنيطت به إدارة « المدرسة الكرملية » ، فتوزع وقته في تعليم العربية والفرنسية والوعظ في الكنيسة والدرس والكتابة في صومعته . ومن حسن حظ

---

(١) من طقوس الرهبنة الكرملية نسبة الراهب إلى قديس ، فانتسب أنستاس إلى مار إلياس وتعرف هذه الجماعة بالحفاة .
(٢) المشرق — بيروت — مجلد ٦ ص ٣٠١

العربية أن تناول منه عبء المدرسة راهب آخر ليفرغ هو للوعظ والبحث والتدوين، فصار يحبّر المقالات بالعربية والفرنسية لتنشر في مجلات العرب والإفرنج. وحرص على متابعة تعليم العربية للصفوف المنتهية في مدرسته قرابة أربعين عاماً. وجد في أن يكون طلعة في كثير من المباحث التي عالجها.

أما وقد انصرف إلى معالجة فلسفة اللغة العربية، والسعي لا ستكناه أسرارها، فإنه تهيأ لهذا المجهود بالتفقه في اللغات الآرامية — الكلدانية والسريانية — والعبرية والحبشية والفارسية والتركية والصابئية، فأخذ من أصولها وألفاظها ما افتقر إليه في أبحاثه؛ ولهذا برزت تحقيقاته آية في بابها في عمق التنقيب وسعة الشمول، وذاعت هذه البحوث في المجلات العربية الشهيرة وأخصها: المشرق والمقتطف والهلال والزهور والمقتبس والمباحث. واضطره رداء الكهنوت أن يحتجب في بعضها وراء التواقيع المستعارة ✡. وترجم كثير من مقالاته إلى الفرنسية والإنجليزية والألمانية والروسية والإيطالية والإسبانية؛ وطارت شهرته، وراسله رجال العلم وإخوان الفضل من المشارقة والمغاربة، وأحله المستشرقون وعلماء الفرنجة محلا رفيعاً على اختلاف أجناسهم ولغاتهم، وفي مقدمتهم: مرغليوث الإنجليزي، وهرتسفلد الألماني، وماسينيون الفرنسي — وقد عرفه في بغداد وأخذ عنه — وكراتشقوفسكي الروسي — الذي ألف رسالة في ترجمة اللغوي العربي — ونللينو الإيطالي؛ وقد اعتمد عليه مؤلفو «دائرة المعارف الإسلامية» في المشاركة في الكتابة فيها، فضلا عن رجوعهم في جملة من فصولها إلى دراساته؛ دع عنك ارتباطه بصداقة كبار العلماء الشرقيين ومراسلتهم. ومما تحسن الإشارة إليه في هذا الصدد أن اللجنة الأممية — التي أوفدتها «عصبة الأمم» بجنيف لدرس النزاع بين العراق وتركيا في «قضية الموصل» — استندت في تقريرها الخطير إلى أبحاثه في التدليل على حقائق تتصل بأقوام ولاية الموصل.

وأنشأ سنة ١٩١١ مجلته «لغة العرب»، فصدرت شهرية تسع سنوات، عدا فترة الحرب العالمية الأولى، وأقبل عليها المتأدبون وطلاب الفوائد، وذاعت في عالم العلم والأدب، وترجم كثير من فصولها إلى لغات أوربا.

✡ أعدد بعض تواقيعه المستعارة: الشيخ بعيث الخضري. ساتسنا. محب الفجر. أمكح «بالحروف الأولى لكل من أنستاس ماري الكرملي الحافي». كلدة. مستهل. المعتدل. نقيب. أحد القراء. بطرس ميخائيل جزويت. بطرس ميخائيل ماريني. الماريني. الجابري. مبتدئ. الجزويتي. الخضري. الماروني. محقق. متطفل. منتهل. ابن الخضراء. أبو الخير فهر بن جابر الطائي. عصام الدين أبو يوسف يعقوب العكاوي.

وأختارته مجامع علمية كثيرة عضواً فيها ، منها : « مجمع المشرقيات الألماني » ، و « المجمع العلمي العربي » في الشام ، و « المجمع العلمي » في جنيف ، و « المحفى العراقي » ، و « مجمع فؤاد الأول الملكي للغة العربية » في مصر ؛ ووقع عليه الاختيار بين منظمي « المعرض الفاتيكاني » في رومية عام ١٩٢٤ ، و « لجنة التأليف والترجمة والنشر » بوزارة المعارف ببغداد .

ومع أن الأب أنستاس منقطع عن دنيا السياسة ، غارق طول أوقاته في الكتب والبحث والكتابة فقد أصابه لهب الاضطهاد ، فاعتقلته السلطة التركية في الحرب العالمية الأولى ، ونفته إلي القيسرية من بلاد كبادوكيا في الأناضول بتهمة أنه يعمل للقضية العربية ويحبب « لغة العرب » لأهلها بمجلته ومقالاته ؛ وعانى شظف المنفى وآلامه اثنين وعشرين شهراً ، فوجد الفرصة لدرس اللغة التركية إلى أن أرجع إلى بغداد يوم ٣ تموز (يوليو) سنة ١٩١٦ .

ولم تقتصر نكبته على النفي ، بل لحقه ما هو أدهى وأمرّ ؛ فإن طبيعة اشتغاله العلمي دفعته إلى جمع خزانة كتب حافلة بالأسفار والمؤلفات بلغات الشرق والغرب ، حوت ذخائر من المخطوطات العربية ، ونوادر من مطبوعات الأجانب ، وطالما ازدحم في حجراتها الباحثون يؤمونها من بغداد وكربلاء والنجف ، فلم يكن من الترك إلا أن أعملوا فيها أيدي النهب والحرق ، قبل إخلائهم العاصمة ليلة ٧ آذار (مارس) ١٩١٧ ، فتبددت هذه الخزانة النفيسة التي انطوت على اثني عشر ألف كتاب ، منها نحو ثلاثة آلاف مخطوط تضم ديوان « السموءل » وديوان « امرىء القيس » وديوان « المزرد » ونسخة كاملة في اثنين وثلاثين مجلداً من « مرآة الزمن » لابن سبط الجوزي ، ونسخة كاملة من « الخصائص » و « المقاييس » لابن فارس ، ومثلها من « ديوان الأدب » للفارابي ؛ وتلقى فيها ما هو بخط مؤلفيها ، أو ما حفظته يد الحدثان من خزائن الملوك والخلفاء ، وأهمها سبعة عشر سفراً يتيما لايعرف لها مثيل . وقد أنفق الأب أنستاس على جمع هذه المكتبة في خمس وثلاثين سنة ثمانية آلاف جنيه ذهباً — بقياس ذلك العهد — وبعد أن وقعت الكارثة سعى لدى حكومة الاحتلال البريطانية لاستخلاص ما يمكن إنقاذه من متفرقها ، فلم يتمكن من أن يسترد بمعاونة السلطة إلا النزر اليسير ؛ كما أن هذه البعثرة لخزانته أضاعت جانباً من مؤلفاته المخطوطة . وعاد يقتني الكتب والأسفار من جديد ، ويملأ خزانته بالعزيز والمأثور ، فاجتمع له شيء كثير منها .

وقد أحسنت « لجنة الثقافة في جامعة الدول العربية » صنعاً في إيصاء حكومة

العراق بالحرص على هذه المكتبة — بعد أن تلقت نعي الفقيد — بما فيها من آثاره غير المطبوعة . وعني « المبعث الكرملي» نفسه بتأليف لجنة ترعى شؤون الخزانة ، وستشاد لها بناية خاصة تفتح أبوابها للدارسين والمراجعين .

وبعد الاحتلال الإنجليزي لبغداد استعانت المستشرقة والسياسية المعروفة المس جرترود بيل بالأب أنستاس في إنشاء جريدة «العرب» التي أصدرتها الحكومة المحتلة ، فأدار تحريرها سنة ونيفاً . ثم تركها واستقل بإصدار مجلة « دار السلام » الأسبوعية — بنفقة السلطة أيضاً — لمباحث العلوم والآداب ، مع نشر إجمال بالحوادث السياسية الجارية ، دامت نحو أربع سنوات ، وكانت فجر النهضة الأدبية في أرض الرافدين بعد الحرب الأولى .

واختير الرجل في خلال هذه الفترة عضواً في « مجلس المعارف » ، ومن زملائه فيه العلامة السيد محمود شكري الألوسي . وانصرف في عهد السلم إلى اشتغاله العلمي ، واستأنف إصدار مجلة « لغة العرب » .

ورحل إلى الديار الأوربية ، وحضر مؤتمر المستشرقين ، كما طاف في أنحاء الشرق العربي ، وتفقد الأقاليم العراقية ، وأتيح له أن يقضي شهوراً كل عام في وادي النيل ، في أثناء انعقاد المجمع اللغوي ، بدير القديسة تريزا بشبرا ، ويواصل طبع مؤلفاته والاجتماع بزواره من حضنة العلم وعشاق اللغة .

وقد قدرت الحكومات خدمة الأب الكرملي ، فمنحته الحكومة الفرنسية وسام العلم برتبة ضابط ، وأعطته الحكومة البريطانية وساماً مع لقب M. B. E. ، واحترمته حكومته العراقية ، وكان صديقاً حميماً للملك فيصل الأول ولخليفته الملك غازي .

وحدث أن رياسة الرهبنة أوعزت إليه سنة ١٩٢٤ أن ينزوي في دير جبل الكرمل بحيفا فصدع بالأمر ؛ وغاب عن الناس . فعزّت حاله هذه على أهل العلم وأعوان الفضل ، فاهتم أصدقاؤه ، وتعرضت الصحف المصرية لهذا الحادث ، فأفرج عنه ، وعاد إلى مستقره في مدينة الخلفاء بعد عام واحد من غيبته .

* * *

إن العالم اللغوي الذي طواه الموت في السابع من كانون الثاني (يناير) ١٩٤٧ اكتسب في حياته تقدير بني جلدته وحبهم ؛ ولو لم يكن جامعاً لأطراف الفضل ، متفوقاً في ميدان العلوم ، يفنى في حب العربية ، لما أحاطه — وهو قس في دير — هذا الإجلال الإجماعي من وطنييه على اختلاف أديانهم ونحلهم ومذاهبهم . وكان جريئاً في إعلان

رأيه ، فلم تحل نصرانيته دون أن يناقش العلامة الأب لويس شيخو اليسوعي فيما ذهب إليه من نصرانية امرىء القيس وغيره من الشعراء الغابرين . واشتهر بين معارفه بأنه في خلقه الشخصي آية في السذاجة وطيب القلب ، يقهقه لما يستحسنه بصوت هدار . أما إذا غضب فغضبته مضرية ؛ ولا سيما أن أعظم ما يخيفه الإساءة إلى اللغة أو الخلط فيها بحسب اعتقاده ، فهنا البحر الهائج ، وقد يباعد بين زمجرة قلمه وثوبه الرهباني التعابير النابية التي يسلق بها الآخرين .

ولا ريب في أن حياته الخاصة في تبتله واعتكافه في الدير ، وقد سلم من تكاليف الحياة ومطالب الأسرة والولد ، مضافة إلى مواهبه وصبره ، وما فطر عليه من حب لغته قد أسعفته بما لم تسعف به غيره ، فوجد الوقت الطويل ليقضي هذا العمر المديد في البحث والتدقيق ، فتسنى له أن يفوز بما لم يفز به غيره ، وتوفر لسيول من الكتابة والتحرير تذكر أسماءها بآثار السلف . إلا أن هذا الانقطاع للغة ومفرداتها ، وإدمان النظر في الكتب والدفاتر لم يسلم عند محرر « لغة العرب » من مفارقة تلفت النظر ، فإن كتابته من طراز كتابات العلماء والباحثين ، فلم يعرف له أسلوب متين ، وإن جزلت تعابيره أحياناً ، حتى إن بعض النقاد عابوا عليه ديباجته البسيطة وإنشاءه المهلهل .

***

بعد أن عالج الأب أنستاس علوم اللغة العربية ، وتصفح دواوينها ، ونقب في أسفارها ، وتعقب مؤلفيها ، وقارن بين ألفاظها وألفاظ اللغات الأخرى ، توصل إلى آراء ونظريات في العربية امتاز بها وانبثت في تضاعيف مقالاته وتصانيفه . وحسناً فعل أخيراً في تأليف كتاب « نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها » ونشره ، فقد ضم نظراته في اللغة التي يستفاد منها أن مذهبه بين اللغويين هو : « أن الكلمة وضعت في أول أمرها على هجاء واحد ، متحرك فساكن محاكاة لأصوات الطبيعة ، ثم فئمت* فتصرف المتكلمون بها تصرفاً يختلف باختلاف البلاد والقبائل والبيئات والأهوية ، فكان لكل زيادة أو حذف أو قلب أو إبدال أو صيغة معنى أو غاية أو فكرة دون أختها ؛ ثم جاء الاستعمال فأقرها مع الزمن على ما أوحته الطبيعة إليهم ، أو ساقهم إليه الاستقراء والتتبع الدقيق » . وهو يقول إنه اعتنق هذا المذهب منذ سنة ١٨٨١ ، ويؤكد أن الأصبهاني صاحب « غريب القرآن » قد بنى معجمه على هذا الأساس ، وأن المستشرقين اقتفوا أثر الأصبهاني فيما وضعوه من معاجم . ثم يواصل شرح نظريته قائلا : « إذا زاد

* أي زيد فيها حرف أو أكثر في الصدر أو القلب أو الطرف .

الهجاء حرفاً ، فصار هجاءين أو ثلاثة أو أربعة سمي ما زاد على أوله تصديراً [Préfixe] وما زاد في قلبه حشواً [Infixe] وما زاد في آخره كاسعاً [Suffixe] وما زاد في أوله أو آخره مطرفاً [Affixe] وما زاد في أي موضع كان سمي مفئما [Particule Augmentative] ومصدره التفئيم . ويقال له أيضاً الضم والتوسع » ؛ وساق الأمثلة الكثيرة في إثبات رأيه ، ودلل على اتفاق مصطلح العرب مع مصطلح أبناء الغرب في هذا ، وأورد الشواهد من اللاتينية واليونانية ، وخالف آراء المستشرقين بفقدان الصلة بين الألسنة السامية والألسنة اليافثية ، فوجد أن المشابهات بين العربية وهاتين اللغتين المؤتمتين عظيمة جدا ، وبحث تناظر الرومية واليونانية مع العربية ، وتناظر الفارسية واللغات المندثرة القديمة للعربية ، فضلا عن تناظر اللغات السامية والعربية ؛ والعجيب أنه أوغل فأوجد تناظراً بين اللغات السكسونية والعربية ، كما درس أوزان العربية وصيغها ، أي أبواب أفعالها وتوازن أسمائها ، وبلغ به التحقيق إلى تكامل اللغة العربية بوجوهها المختلفة . ورسم أخيراً مبدأ نسبه إلى نفسه مدعياً أنه لم يجده في كتاب ولم يسمعه من أستاذ ، وهو : « كل كلمة ذات هجاء أو هجاءين في الرومية واليونانية ، ولم تكن من أصل منحوت ، بل من وضع أصيل أو توقيفي ، فلا بد من أن يكون لها مقابل في لغتنا المضرية » . وبرهانه على أن ما وسع لغة العرب توسيعاً لا يماثله شيء في سائر اللغى المعروفة ما وقع فيها من القلب والإبدال والتصحيف والتحريف وتشابه رسم الحروف والتعريب ؛ وقد تبسط في كل هذه الدواعي . وفي هذا السفر آراء واستدلال لا يعثر عليه القارئ في موطن آخر .

ومن رأي الأب أنستاس : « أن أقدم شعر عربي انتهى إلينا هو نظم زرقاء اليمامة [(١)] » ومما ينسب إليه قوله : « إن أول متحف للهوام والحشرات قد أنشأه عربي هو الفضل جعفر بن الفرات المشهور بابن خزابة الوزير المحدث البغدادي نزيل مصر المتوفى سنة ٩٦٩ م [(٢)] » .

ومما عالجه هذا الباحث المجد وضع أسماء عربية لبعض المسميات والمصطلحات العلمية والفنية ، وهي أسماء استخرجها من نصوص قديمة فصيحة ، أو اختارها هو لصلة معناها بالمعنى الحديث ، فمما وضعه وتتداوله الأقلام الآن : برقية (Télégramme) وصنيعة (Bulletin) وكناشة (Carnet) وعلواء (Epopée) وإضبارة (Dossier) ومعلمة (Encyclopédie) وألبة (Album) ومبعث (Mission) وعشرات غيرها . ومظان هذه

---

(١) المشرق : المجلد ٦ . (٢) المشرق : المجلد ١٠ ص ٣٤٤ .

الألفاظ في الفهارس التي وضعها لمجلدات مجلته « لغة العرب » ، والكتب التي ألفها أو نشرها .

ولم يقتصر مجال الكاتب على المباحث اللغوية ، بل سبق أن كان رائداً في دراسات وبحوث ، فهو من أوائل من كتبوا في « اليزيدية » سلسلة مقالات في المشرق ، كما أن درسه بالفرنسية للكتابين المقدسين عن اليزيدية في مجلة (Anthropos) النمسية ظل عمدة الأجانب في تواليفهم . وقد اجتمعت له كتابات عن الأجناس والقبائل غاية في الطرافة ، كنت قد اقترحت عليه أن يجمعها في كتاب يطلق عليه عنوان : « أقوام العراق » يضم ما كتبه في اليزيدية والصابئة والصارلية — في أرجاء الموصل — والباجوران — في قرى الموصل — والشبك — حبل سنجار — والدواودة — خانقين — والمريمانية أو البربرانية — بلاد العرب — والنور وقبيلة الخزاعل أو خزاعة وعشيرة الصليب . كما حرر فصولا ممتعة عن بعض الأقطار العربية والأمكنة والأعلام البلدانية في العراق منها : طاق كسرى وعقرقوف والوركاء والكويت ودير الزور .

وبعث بعض الكتب المخطوطة الدفينة « كالمقامات النصرانية » لابن عباس يحي بن سعيد بن ماري النصراني البصري الطبيب المتوفى سنة ١١٩٣م ، وجد نسخته في جامع الحيدرخانة ببغداد فوصفها ونشر مقامة منها في المشرق . و « رحلة ميخا يوسف النجار البغدادي» من أهل القرن التاسع عشر ، إلى بلاد اليمن سنة ١٨٦١ ، نشرها بالفرنسية في مجلة (Anthropos) . وكتاب في الموسيقى « الرسالة الفتحية » لمحمد بن عبد الحميد اللادقي رآها في التكية الخالدية ببغداد ، فنشرها في المشرق أيضاً . هذا عدا ما أصدره من كتب الأقدمين ، مع أن هذا العلامة لم يهتم بتأليف الكتب ونشرها فوراً ، بل وزع جهده في دراسات متفرقة أودعها المجلات والصحف ، مع أنه قضى في هذا العمل خمساً وستين سنة .

وها نحن أولاء نذكر كتبه المطبوعة :

« الفوز بالمراد في تاريخ بغداد » : موجز صغير نشره صاحب الرياض ببغداد ، يتناول تاريخ هذه العاصمة من سقوطها في يد هولاكو إلى أواخر القرن الخامس عشر الميلادي — مطبعة الشابندر ١٩١١ .

« العروج في درج الكمال والخروج من درك الضلال » : كتاب في الزهد عثر على نسخته الخطية في إستامبول سنة ١٩٠٨ تأليف أبي الخير فهر بن جابر المشكال بن عائذ بن عمار الطائي من القرن الثاني الهجري ، مخطوط في ٢٥٠ صفحة ، نشر منها

الفاتحة والذيل ، وهو خلاصة الكتاب ، في المشرق المجلد ١١ .

« ترجمة الأب ماريا يوسف » رئيس الرسالة الكرملية في بغداد — المطبعة السريانية ببغداد ١٩٢٩ . جملة « رسائل دينية » ، بين معربة أو موضوعة . « الكلم الأخيرة للقديسة تريزا » . « مرشد الرهبان الثالثيين » . مختصرات في « التعليم المسيحي » .

« نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها » — المطبعة العصرية بمصر سنة ١٩٣٨ .

« نخب الذخائر في أحوال الجواهر » تأليف محمد بن إبرهيم الأنصاري السنجاري المعروف بابن الأكفاني المتوفى سنة ١٣٤٨ م ، نشره الأب أنستاس عن نسخة قديمة من خزائن ملوك مصر ، وقد زينه بتعليقات وحواش عن مصطلحات الجوهريين من العرب في العصر العباسي ، ولم يبق لفظ يتصل بالحجارة الكريمة إلا أورده وشرحه بحيث يصح أن يسمى هذا الأثر « معجم الحجارة الكريمة » بالعربية . المطبعة العصرية بمصر سنة ١٩٣٩ .

« بلوغ المرام في شرح مسك الختام فيمن تولى ملك اليمن من ملك وإمام » تأليف القاضي حسين بن أحمد الوشي . نشره الأب أنستاس وأضاف إليه إضافات حتى أوصل حوادثه إلى منتصف حزيران (يونيو) سنة ١٩٣٩ م ، وضمنه المعاهدات والاتفاقات المعقودة مع اليمن من أقدم الأزمنة إلى سنة ١٩٣٩ ، وفهارس بأسماء النبات اليماني ومعادن البلد وجغرافيته ومعجم للألفاظ اليمانية من قديمة وحديثة وغير ذلك . مطبعة ألبرتيري بمصر ١٩٣٩ .

« النقود العربية وعلم النميات » : سفر فريد في بابه ، جمع فيه ناشره ومحققه ومحرره الأب أنستاس كتاب النقود للبلاذري وكتاب النقود القديمة الإسلامية للمقريزي وجزء النقود العربية لعلي باشا مبارك في الخطط التوفيقية الجديدة ورسالة في النقود المتداولة بمصر تأليف مصطفى الذهبي الشافعي مضافاً إليها ما ورد في كتب العرب الأخرى عن النقود قبل الإسلام وبعده ، حتى أصبح بحواشيه وهوامشه خير مرجع للنقود العربية . المطبعة العصرية بمصر سنة ١٩٣٩ .

كتاب « العين » : هو أول معجم للغة العربية وضع على الأسلوب الهجائي بالطريقة التي ابتكرها الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري المتوفى سنة ٧٩١ م ، ومن بعد أن أكمل مقدمته دفعه إلى تلميذه الليث بن المظفر بن نصر بن سيار الخراساني فأتمه ، ولكن نسبته علقت بالخليل على الزمن . شرع الأب أنستاس في طبعه ببغداد سنة ١٩١٤ معارضاً النسخة التي لديه بثلاث نسخ نجفية وفضلية وعلوية فأتم منه ١٤٤ صفحة فقط

ولما يستطع إنجازه كله حتى بعد أن وضعت الحرب الأولى أوزارها .

« أغلاط اللغويين الأقدمين » : فيه مباحث لغوية عن القدماء وأغلاط المحدثين والمعاصرين ونقد المعاجم الثلاثة : « محيط المحيط » لبطرس البستاني و «أقرب الموارد» لسعيد الشرتوني و « البستان » لعبد الله البستاني ، ومساجلات مع بعض علماء اللغة منهم أسعد خليل داغر والشيخ منصور غزال — مطبعة الأيتام في بغداد سنة ١٩٣٣ .

« الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير » : لأبي طالب علي المعروف بابن الساعي الخازن المتوفى سنة ١٢٧٦ م — الجزء التاسع الذي سلم من الضياع ، حققه ونشره الدكتور مصطفى جواد وطبع بعناية الأب أنستاس .

« رسالة في الكتابة العربية المنقحة » : عالج فيها معضلة الحروف العربية وإصلاحها توصلا إلى القراءة العربية بلا ضبط ألفاظها وتسهيلا لها على الأميين . ولم يؤيد نظرية الحروف اللاتينية ولكنه استعان في رسمه المقترح بالصور التي أدخلها الفرس والترك والكرد والهنود في رسم كلم ألسنتهم — طبعت سنة ١٩٣٥ .

« شعراء بغداد وكتابها في أيام وزارة داود باشا » : تراجم أدباء العراق في عهد والي بغداد في القرن التاسع عشر تأليف عبد القادر الخطيبي الشهرابانی ، عني بنشره مع تعليقات ودراسة وفهارس مفصلة — دار الطباعة الحديثة ببغداد سنة ١٩٣٦ .

« خلاصة تاريخ العراق منذ نشوئه إلى يومنا هذا » ألفه إجابة لاقتراح الميجر بومن مدير المعارف العام للتدريس في المدارس . طبع في البصرة بمطبعة الحكومة سنة ١٩١٩ .

كتاب « الإكليل » لأبي محمد حسن بن أحمد الهمداني المشهور بابن الحائك المتوفى بسجن صنعاء سنة ٣٣٤ هـ ، وهو في تاريخ العرب قبل الإسلام وفيه يذكر محامد اليمن ومساندها ودفائنها وقصورها ومراثي حمير والقبوريات . نشر الجزء الثامن منه معارضاً النسخ الأربع الخطية ببعضها ، وعلق عليه حواشي تاريخية ولغوية وتراجم ، وختمه بالفهارس المتعددة التي اشتهر بها الأب أنستاس — مطبعة السريان الكاثوليكية ببغداد سنة ١٩٣١ .

أما تآليفه التي لا تزال مخطوطة فما نعرفه منها : تراجم عراقيين معاصرين وغيرهم من العرب . ومزارات بغداد . وأغاني بغدادية عامية عند النصارى . وديوان التفتاف : وهو حكايات ملتقطة من أفواه النساء باللغة الدارجة البغدادية . والمراسلات المايرنية ، وهي رسائله منذ صغره حتى سفره إلى فرنسا . وثبت الكتب الخطية في خزانة الآباء

الكرمليين ببغداد في ثلاثة مجلدات . وخواطر في العلم والدين والأدب واللغة والتاريخ بالعربية والفرنسية . والمجموعة الذهبية : وهي مباحث في التاريخ واللغة . وأسرار الموازين والجموع . وأديان العرب . وتاريخ الكرد . والشوارد اللغوية في الأشعار البدوية. وفوائد الشرائد أو الشوارد ، في اللغة والتاريخ بالفرنسية والعربية . والخطرات المقيدة . وبدوات الخاطر ، وأكثره في نقد معجم « أقرب الموارد » للشرتوني . والعرب قبل الإسلام . و Pensées Spirituelles بالفرنسية . ومعين المحقق ومعين المدقق في اللغة والتاريخ . ونقود وتعليقات على معجم دوزي «ملحق المعاجم العربية» و«معجم فريتاغ» العربي اللاتيني . وقد حقق الطبعة الجديدة « للقاموس العصري » العربي الإنجليزي تأليف الأستاذ إلياس أنطون إلياس بمصر . ومعجم لاتيني عربي . ومعجم فرنسي عربي. ومعجم يوناني عربي .

أما رائعته الكبرى فهو معجمه العربي الكبير « المساعد » ، اشتغل به منذ سنة ١٨٨٣ ، وأودعه ما لم يعثر عليه في معاجم العربية من ألفاظ الفصحاء وكلم المولدين ومفردات العوام والمعربات الحديثة . وقد ذكر أصل كل حرف إن كان دخيلا ، أو أصله الثنائي إن كان عربيا مع الإشارة إلى مرجعه . وفيه أسماء الحيوان والنبات والمعادن عند الإفرنج ، وتناظر الألفاظ العربية واليونانية واللاتينية ، ونبه على أغلاط اللغويين القدماء والمعاصرين .

ومن مجاميعه غير المطبوعة : «جمهرة اللغات » وكتاب « السحائب » في قوانين لم يذكرها الصرفيون ، ومثله كتاب « العجائب » وكتاب « الغرائب » وكتاب « الرغائب » و « حشو اللوزينج » في شؤون لغوية ، و « الأنباء التاريخية » و«اللمع التاريخية » في تاريخ العراق والبلاد العربية ، و « النغم الشجي في الرد على إبرهيم اليازجي » في النقد اللغوي .

هذا استعراض لحياة فقيد العربية الأب أنستاس ماري الكرملي وأعماله وأشغاله الكتابية وتآليفه . وخير ما يكافأ به أن تهتم حكومة العراق والمعاهد العلمية بطبع آثاره وكتبه التي لا تزال مخطوطة ، وتجمع المتفرق في بطون المجلات ، ففيها مقالات صرف الباحث في تحقيقها عشرات السنوات .

رفائيل بطي

نوادر المخطوطات

الرسالة المصرية

لأبي الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الأندلسي

تحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون

« تابع ما سبق »

(١) أرض مصر بأسرها واقعة من المعمورة في قسمي الإقليم الثاني والإقليم الثالث ، ومعظمهما في الثالث . وحكى المعتنون بأخبارها وتواريخها أن حدها في الطول(٢) من مدينة برقة التي في جنوب البحر الرومي إلى أيلة من ساحل الخليج الخارج من بحر الحبشة والزنج والهند والصين . ومسافة ذلك قريب من أربعين يوماً . قالوا : وحدها في العرض من مدينة أسوان وما سامتها من الصعيد الأعلى المتاخم لأرض النوبة إلى رشيد(٣) وما حاذاها ، من مساقط النيل في البحر الرومي ، ومسافة ذلك قريب من ثلاثين يوماً ، ويكتنفها من مبدئها في العرض إلى منتهاها جبلان [أحدهما في الضفة الشرقية من النيل ، وهو المقطم ؛ والآخر في الضفة الغربية منه . والنيل متسرب فيما بينهما . وهما](٤) أجردان غير شامخين يتقاربان جدا في وضعيهما ، من لدن مدينة أسوان إلى أن ينتهي إلى الفسطاط ، فثم تتسع مسافة ما بينهما وتنفرج قليلا ، ويأخذ المقطم منهما مشرقاً والآخر مغربا على وراب في أخذيهما(٥) وتفريج(٦) في مسلكيهما . فتتسع أرض مصر من الفسطاط إلى ساحل البحر الرومي الذي عليه الفرماء(٧) وتنيس ودمياط ورشيد والإسكندرية ، وهناك تنقطع في عرضها الذي هو مسافة [ما بين] أوغلها في الجنوب و [أوغلها(٨)] في الغرب والشمال . وإذا ما مسحت

(١) الكلام من هنا إلى كلمة « الاستقامة » نقله المقريزي في [١ : ١٥ — ١٦] .
(٢) هذا تسجيل تاريخي بلداني لما كانت عليه حدود مصر في عهده . (٣) في الأصل : « لأرض الشام ورشيد » صوابه من الخطط . (٤) التكملة من الخطط . (٥) في الخطط : « مأخذيهما » . (٦) في الأصل : « وتعريج » صوابه في الخطط . (٧) في الأصل : « الهرمان » وتصحيحه من الخطط . (٨) هذه التكملة والتي قبلها من الخطط .

بالطريق البرهانية في طريق هذه المسافة [من الأميال] لم تبلغ ثلاثين ميلا[١] ، بل تنقص عنها نقصاً ماله قدر ، وذلك لأن فضل ما بين عرض أسوان التي هي أوغلها في الجنوب وعرض مدينة تنيس التي هي أوغلها في الشمال ، تسعة أجزاء ونحو سدس جزء من الأجزاء التي بها تحيط الدائرة العظمى [وهي[٢]] ثلثمائة وستون جزءاً . وليس بين طوليهما فضل يقع بسببه في هذا الحساب ماله قدر يعتد به . فإذا ضاعفنا هذا العدد بما يخص الدرجة الواحدة من محاذاة ذلك من الأميال ، وذلك ستة وخمسون ميلا وثلثا ميل على ما دل عليه البرهان ، كان ذلك[٣] نحو خمسمائة وعشرين ميلا بالتقريب ، وذلك مسافة سير عشرين يوماً أو قريب من ذلك . وفي هذه المدة من الزمان يقطع السفار أبداً ما بين هذين البلدين بالسير المعتدل في أكثر من ذلك قليلا ، لما في الطريق من التعريج وعدم الاستقامة[٤]

وليس تشتمل أرض مصر بعد الفسطاط الذي هو مقر الملك وكرسي الدولة ، على مدائن لها قدر في كثرتها ولا فخامتها ، لكن أجل مدائنها وأفخرها أما في الجهة الشمالية من الفسطاط فالإسكندرية وتنيس ودمياط ، وأما في الجهة الجنوبية إلى أقصى الصعيد فقوص وقفط . فهذه صفة أرض مصر على الجملة[٥] . وأما النيل فينبوعه من وراء خط الاستواء ، من جبل هناك يعرف بجبل القمر ، فإنه يبتدئ بالتزيد في شهر أبيب[٦] ، الذي هو بالرومية يولية[٧] . والمصريون يقولون : «إذا دخل أبيب ،كان للماء دبيب» . وعند ابتدائه في التزيد[٨] تتغير جميع كيفياته وتفسد ، والسبب الموجب لذلك مروره بنقائع مياه آجنة[٩] ، يخالطها فيجتلبها ويستخرجها معه ، ويستصحبها إلى غير ذلك مما يحتمل[١٠] ، فتصير مثل الحال التي وصفه بها الأمير تميم بن المعز لدين الله :

أما ترى الرعد بكى فاشتكى والبرق قد أومض فاستضحكا[١١]

---

(١) في الأصل : « يوما » ووجهه ما أثبت من الخطط .

(٢) ليست في الأصل . (٣) في الأصل : « من ذلك » (٤) إلى هنا ينتهي نقل المقريزي . (٥) من هنا يبتدئ نقل آخر للمقريزي في [١ : ٥٩] . (٦) في الخطط : « في التزايد » والتزيد والتزايد بمعنى . (٧) ما بعد « أبيب » ليس فى الخطط . وفي الأصل : « قوليه » . (٨) في الخطط : « التزايد » . (٩) في الأصل : « بنقاء مع مياه آجنة » والصواب في الخطط . (١٠) الكلام والشعر بعد هذا لم يورده المقريزي .

(١١) في الأصل : «الجو من إظلامه قد اشتكى» ولا يستقيم به الوزن ، إذ هو من السريع . وأثبت ما في ديوان تميم الورقة [١٢٠] من مصورة دار الكتب ذات الرقم [١٦٠٢٥ ز] وهذه الرواية هي التي ذكرها الثعالبي في يتيمة الدهر [١ : ٣٤٩] الطبعة الأولى .

فاشرب على غيم كصبغ الدجى أضحك وجه الأرض لما بكى (١)
[وقد حكى العود أنين الهوى لكنه جود فيما حكى (٢)]
وانظر لماء النيـل في مده كأنما صندل أو مسكا

أو كما قال غيره من أهل العصر، من قصيدة يصف فيها أرض مصر :

ولله مجرى النيل منها إذا الصبا أرتنا به في مرها عسكراً مجرا (٣)
فشـط يهز السمهرية ذبلا وموج يهز البيض هندية تبرا
إذا مد حاكى الورد غضا وإن صفا حكى ماءه لونا ولم يعده نشرا (٤)

وهذا نظير ما أنشدنيه عبد الله بن سرية لنفسه :

راقني النهر صفاء بعد شوقي لصفائه
كان مثل الورد غضا ثم قد صار كمائه

ولأبي بكر الصنوبري (٥) في مثل هذا المعنى :

ولقد طربت إلى الفرا ت بكل ذي كرم ومجد
والشمس عند غروبها صفراء مذهبة الفرند
والماء حاشيتاه خضـــراوان من آس ورند (٦)
تحبوه أيدي الريح إن هبت على قرب وبعد
بطرائف من فضة وطرائف من لازورد
والسفن كالطير انبرت في الجو من مثنى وفرد
حتى إذا جزر الفـرا ت مضى وأعقبه بمد (٧)
أبصرتـــه وكأنـــه ملقى عليه رداء ورد
متململا كالصب أو ذن من أحبته بصد
وكأنمـــا بحشـــاه ما بحشاي من قلق ووجد

---

(١) في الأصل : « يشبه التحقيق كصبح » تحريف ، وأثبت ما في الديوان ويتيمة الدهر .
(٢) إثبات هذا البيت من ديوان تميم . (٣) يقال للجيش العظيم مجر لثقله وضخمه .
(٤) حكى ماءه ، أي أشبه ماء الورد في لونه . وفي الأصل : « حكى ماؤه لونا فلم » تحريف .
(٥) هو أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسن بن المرار المعروف بالصنوبري الحلبي . قال السمعاني في الورقة [٣٥٥] : نسبة إلى الصنوبر . وانظر تعليلا آخر في مختصر تاريخ دمشق [١ : ٤٥٦] . ووفاته سنة ٣٣٤ هـ كما في شذرات الذهب . وانظر فوات الوفيات [١ : ٧٧] .
(٦) الرند : شجر من أشجار البادية طيب الرائحة ، ويقال للآس « رند » . وفي الأصل : « وورد » ولا وجه له
(٧) في الأصل : « بورد » ووجهه ما أثبت .

وقال تميم بن المعز ، وأحسن التشبيه[١]

يوم لنا بالنيل مختصرُ ... وبكل يوم مسرة قصر

والسفْن تصعد كالخيول بنا ... فيه وجيش الماء ينحدر

فكأنما أمواجه غرف ... وكأنما داراته سرر

وقال محمد بن الحسن :

النهر مكسو من الأزهار ... برداً أنيقاً مثل ثوب . . .

. . . . يجري بمسك أو بذوب نضار[٢]

وإذا استقام رأيت صفحة مُنْصُل ... وإذا استدار رأيت عطف سوار

وقال الحسن محمد ابن الوزير ، في تدرج زيادة الماء إصبعاً إصبعاً ، ومنفعة ذلك التدرج:

أرى أبداً كثيراً من قليل ... وبدراً في الحقيقة من هلال

فلا تعجب فكل قليل ماء ... بمصر مسبِّب لخليج مال

زيادة إصبع في كل يوم ... زيادة أذرع في حسن حال

فإذا كان في الخامس عشر ذراعاً وزاد من السادس عشر إصبعاً واحدة كسر الخليج[٣].

ولكسره يوم معدود ، ومقام مشهود ، ومجتمع غاص ، يحضره العام والخاص . وإذا كسر فتحت الترع — وهي فوهات الخلجان — ففاض الماء وساح ، وعم الغيطان والبطاح[٤] ، وانضم الناس إلى أعلى مساكنهم من الضِّياع والمنازل ، وهي على آكام وربًى لاينتهي إليها الماء ، ولا يتسلط السيل عليها ، فتعود عند ذلك أرض مصر بأسرها بحراً غامراً لما بين جبليها المكتنفين لها . وتثبت على هذه الحال ريثما يبلغ الحد المحدود ، في مشيئة الرب المعبود . وأكثر ذلك يحوم حول ثمانية عشر ذراعاً ، ثم يأخذ عائداً في صبه ، إلى مجرى النيل [ومسربه . فينضب أولا عما كان [٥]] من الأرض مشرفا عالياً ويصير فيما كان منها متطامناً[٦] ، فيترك كل قرارة كالدرهم ، ويغادر كل تلعة كالبُرد المسهَّم . وفي هذا الوقت من السنة تكون أرض مصر أحسن شيء منظراً ، ولا سيما

(١) الأبيات التالية لم أجدها في ديوان تميم. (٢) في الأصل: «يجري لسك ذوب نضار» .

(٣) في الأصل : « نفعت نفعاً عظيما » وأثبت ما عند المقريزي في [١ : ٥٩] .

(٤) في الخطط : « وغمر القيعان والبطاح » . (٥) مكان هذه التكملة التي أثبتها من الخطط بياض في الأصل . (٦) بدل هذه الجملة في الأصل « . . . متحفظ . . . نسطاميا » ولاكاله وصوابه من الخطط .

متنزهاتها المشهورة ، ودياراتها المطروقة ، كالجزيرة ، وبركة الحبش[١] وما جرى مجراها من المواضع التي يطرقها أهل الخلاعة ، وينتابها ذوو الأدب والطرب .

واتفق أن خرجنا في مثل هذا الزمان إلى بركة الحبش فافترشنا من زهرها أحسن بساط ، واستظللنا من دوحها بأوفى رواق ، وطلعت علينا من زجاجات الأقداح شموس في خلع البدور ، ونجوم[٢] بالصفاء تنور ، إلى أن جرى ذهب الأصيل على لجين الماء ، ونشبت نار الشفق بفحمة الظلماء ، فقال في ذلك بعضنا[٣] :

لله يومي ببركة الحبش ... والأفق بين الضياء والغبش

والنيل تحت الرياح مضطرب ... كصارم في يمين مرتعش

قد نسجتها يد الغمام لنا ... فنحن من نسجها على فرش

ونحن في روضة مفوفة ... دبج بالنور عطفها ووشي[٤]

فعاطني الراح ، إن تاركها ... من سورة الهم غير منتعش

وسقّني بالكبار مترعة ... فهن أروى لشدة العطش[٥]

فأثقل الناس كلهم رجل ... دعاه داعي الصبا فلم يطش[٦]

وقال أيضاً :

علل فؤادك باللذات والطرب ... وباكر الراح بالنايات والنخب

أما ترى البركة الغناء لابسة ... وشياً من النور حاكته يد السحب

وأصبحت من جديد النبت في حلل ... قد أبرز القطر منها كل محتجب

من سوسن شرق بالطل محجره ... وأقحوان شهي الظلم والشنب

---

(١) كانت في ظاهر مدينة الفسطاط من قبليها فيما بين النيل والجبل . وسميت بركة الحبش نسبة إلى قتادة بن قيس بن حبشي الصدفي ممن شهد فتح مصر ، وكانت له حدائق بجوار هذه البركة تعرف بالحبش فنسبت البركة إليها . وهذه البركة موقعها اليوم منطقة الأراضى الزراعية التابعة لزمام قرية دير الطين وجزء عظيم من الأراضي الزراعية التابعة لقرية البساتين . انظر الخطط [٢ : ١٥٢] والنجوم الزاهرة [٥ : ١٤] . (٢) في الأصل : « وجسوم » .

(٣) يعني نفسه . وجاء في الخطط [٢ : ١٥٥] : « وقال ابن سعيد في كتاب المغرب : « وخرجت مرة حيث بركة الحبش التي يقول فيها أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي عفا الله عنه » . وأنشد الأبيات التالية . وجاء في [٢ : ١٦٠] : « بئر أبي سلامة وتعرف ببئر الغنم ، وهي قبلي النوبية ، وموضعها أحسن موضع في البركة ، وهي التي عنى أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بقوله » وأنشد الأبيات . ورواها ياقوت في ترجمة أمية منسوبة إليه .

(٤) في الأصل : « ذبح بالقطر » صوابه من الخطط ومعجم الأدباء . (٥) في الأصل : « لعل أورى » وفي الخطط ومعجم الأدباء : « فهن أشفى » . (٦) في الأصل : « يدعوه داعي الصبا » وأثبت ما في الخطط ومعجم البلدان

وانظر إلى الورد يحكي خد محتشم من نرجس ظل يبدي لحظ مرتقب
والياسمين وقد أربى على درر والراح من درر تطفو على ذهب
كم مرة قد شفينا فيه غلتنا بجاحم من فم الإبريق ملتهب (١)
شمس من الراح حيانا بها قمر موف على غصن يهتز في كثب
أرخى ذوائبه ، وانهز منعطفاً كصعدة الرمح ، في مسودة العذب
فاطرب ودونكها فاشرب فقد تعبت على التصابي دواعي اللهو والطرب

ومما يتعلق بوصف النيل من أبيات له كتبها إلى الأفضل ليلة المهرجان :

أبدعت للناس منظراً عجباً لا زلت تحي السرور والطربا
ألفت بين الضدين مقتدراً فمن رأى الماء خالط اللهبا
كأنما النيل والشموع به أفق سماء تألقت شهبا
قد كان من فضة فصار سماً وتحسب النار فوقه ذهبا

وقد تعاور الشعراء . . . . شعاع على صبح . ومن مليح ما قيل في ذلك قول بعض أهل العصر ، وهو أبو الحسن علي بن أبي البشر الكاتب :

شربنا مع غروب الشمس شمساً مشعشعة إلى وقت الطلوع
وضوء الشمع فوق النيل باد كأطراف الأسنة في الدروع

وأنشد أبو منصور الثعالبي في يتيمة الدهر لمنصور بن كيغلغ (٢):

قام الغلام يديرها في كفه فحسبت بدر التم يحمل كوكبا
والبدر يجنح للأفول كأنه قد سل فوق الشط سيفاً مذهبا (٣)

وأنشد فيه (٤) للقاضي أبي القاسم علي بن إبرهيم بن أبي الفهم التنوخي :

أحسن بدجلة والدجى متصوب والبدر في أفق السماء مغرب
فكأنها فيه بساط أزرق وكأنه فيها طراز مذهب (٥)

وقال ابن وكيع التِّنيسي :

غدير يدرج أمواجه هبوب الشمال ومر الصبا

---

(١) في الأصل : « علتنا » بالمهملة (٢) في الجزء الأول من يتيمة الدهر [ص ٦٥] . وقبل البيتين :

عاد الزمان بمن هويت فأعتبا ياصاحبي فسقياني واشربا
كم ليلة سامرت فيه بدرها من فوق دجلة قبل أن يتغيبا

(٣) في الأصل : « فوق اللحظ » وفي اليتيمة : « فوق الماء » . وانظر ما سيأتي في شعر ابن التمار الواسطي . (٤) أي في هذا المعنى ، أو في كتاب يتيمة الدهر . انظر اليتيمة [١ : ٦٥] .
(٥) في الأصل : « وكأنه فيه طراز » والوجه ما أثبت من اليتيمة .

إذا الشمس من فوقه أشرقت توهمتـه جوشنا مذهبـا

وقال بعض أهل العصر من قصيدة :

باطى نهر كان الر وهو اللجين به ذوبا (١)
إذا جمشته الصـبا رأيته كأنه زرداً مذهبـا

وقال أبو عبادة البحتري يصف بركة :

إذا علتها الصبا أبدت بها حبكا مثل الجواشن مصقولا حواشيها(٢)
إذا النجوم تراءت في جوانبهـا ليلا حسبت سماء ركبت فيها

وقد أحسن عبدالله بن المعتز في قوله :

وتبـدى لهن بالنجف المقـ فر ماء صـافي الجمام غريُّ(٣)
فإذا قابلتـه درة شمس خلته كسرت عليـه الحليُّ(٤)

وقال ابن التمار الواسطي يصف ضوء القمر على دجلة :

قف فانتصف من صروف الدهر والنوب واجمع بكأسك شمل اللهو والطرب
أما ترى الليـل قد ولت عساكره مهزومة وجيـوش اللهو في الطلب
والبـدر في الأفق الغربي تحسبه قد مد جسراً على الشطين من ذهب

وقال محمد بن عبد الله السلامي :

ونهر تمرح الأمواج فيـه مراح الخيل في رهج الغبار
إذا اصفرت عليه الشمس خلنا نمير المـاء يمزج بالعقـار

« البقية ستأتي »

(١) كذا ورد البيتان على ما بهما من تحريف . (٢) البيتان من قصيدة له يمدح فيها المتوكل ويصف بركته . الديوان ٣١٫٩ . (٣) الغري : البارد ، يقال غري الغدير : برد ماؤه .
(٤) في ديوان ابن المعتز ٦١ : « فإذا ضاحكته » .

من محيط الغرب

الأدب الفرنسي في طور النشوء

للأستاذ محمد روحي فيصل بحمص

إلى أن يطل عليك وجه القرن السادس عشر أو عصر « الرينسانس » في أوربا لن تستطيع أن تقف عند فنون الأدب في فرنسا ؛ وذلك لأن هذه الفنون بسيطة محدودة لا ترتقي إلى حد إعجابك كل الإعجاب ، وتحقيق لذتك وفائدتك ؛ ولأنك لن تفهمها أو تتذوقها لكون اللغة الفرنسية كانت يومئذ آخذة بأسباب التكوين من حيث مفرداتها وقواعدها و بلاغتها . وهذا إلى أن الأدب نفسه في هذه القرون الأربعة التي سبقت القرن السادس عشر لا يتصل كثيراً بالموضوع الذي تحب أن تقرأه أنت ، وأعرضه أنا ، وهو بيان المذاهب الأدبية في فرنسا . فسترى أن ما قيل في هذه الفترة من أغان وقصص وشعر لا يدل إلا على أدب يغرزم وعلى أمة ناشئة مضطربة في حضارتها لا تعرف الفن العالي ولا المذهب الفكري الرفيع .

واللغة الفرنسية بنت اللغة اللاتينية ، تفرعت منها بفعل الغزو الروماني لهذه البقعة من الجنوب الغربي لأوربا التي تدعى « غاليا » مدى خمسة قرون . وجاءت هجمات قبائل الفرنج فتفاعلت لهجاتها مع اللاتينية البنت فأعطت لغة بل لغات إذا أسميتها فرنسية فلأنها كانت سائدة في فرنسا . وأظهر هذه اللغات لغتان لا تتصلان فيما بينهما إلا من حيث هما فرعا دوحة واحدة هي اللاتينية . أولاهما كان يتكلمها سكان الشمال وطائفة من سكان أواسط وغربي فرنسا ؛ واسمها « Langue d'ail » وهي التي كتب لها الغلبة بعد ذلك على كل اللغات الفرنسية ، كما كتب للغة قريش الغلبة على كل لغات الجزيرة العربية قبيل الإسلام . والثانية كان يتكلمها أهل « بروفانس » وما حولها من الأصقاع الجنوبية ، واسمها « Langue d'oc » ، وهي التي تقلصت على الزمان في حدود هذه المقاطعات الجنوبية حتى يومنا هذا . وتطورت لغة الشمال شيئاً فشيئاً ، فكثرت مفرداتها وخصبت مصطلحاتها ، واتسعت دائرة مشتقاتها ، ثم تركزت قواعد صرفها ونحوها

وبيانها . حتى إذا جاء « مالرب » ، وتأسست الأكاديمية الفرنسية في القرن السابع عشر ، كانت الفرنسية قد أخذت أو كادت أن تأخذ شكلها الذي نعهده الآن ، وإن كانت أعمال الاشتقاق والصقل ما فتئت مستمرة طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وجعلت هذه اللغة الناشئة تحاول في القرون الوسطى أن تطرد من أرض اللاتينية « الكلاسيكية » الدخيلة التي كادت أن تظفر بكل كتب الفلسفة واللاهوت والعلوم . ففي عام ١٥١٥ رغب المصلح الديني « إيرازم » في أن تكتب جميع الكتب الدينية باللغة القومية ؛ وفي عام ١٥٣٩ قرر الملك فرنسوا الأول أن تحرر عرائض الدعاوى وعقود المحاكم باللغة الفرنسية ، وأصدر أساتذة الطب في « مونبليه » و « ليون » كتباً علمية شتى باللغة الفرنسية . على أن اللاتينية بقيت مع ذلك ذائعة في المعاهد والكنائس مدى عصور طوال ، حتى جاء « ديكارت » و « باسكال » فكتبا بعض مؤلفاتهما بالفرنسية بين عامي ١٦٣٧ و ١٦٥٦ ، وبهذا سادت اللغة القومية ميادين الفكر والفلسفة واللاهوت .

تلك هي قصة اللغة الفرنسية على وجه الاختصار . أما فرنسا كوطن فقد كانت في القرون الوسطى مجزأة إلى دويلات صغيرة يتنكر بعضها لبعض بل يحارب بعضها بعضاً . وكانت الحياة الاجتماعية قائمة على نظام الطبقات وروح الإقطاعية ، فالنبلاء هم السادة ، والعامة هم العبيد ، ومن فوق هؤلاء جميعاً رجال الدين متنفذون مسيطرون . ويثبت هذا الوضع القلق كله ملك أو أمير كبير صاحب سلطان صوري سطحي هو وحده الرمز الوطني للاستقلال إزاء الأجنبي والطامع . ولا أتوسع في خطوط هذه الصورة ، لأنها إلى التاريخ الخالص أدنى منها إلى الموضوع الذي أعالجه ، فحسبي منها ما ذكرت ، على أن يرجع في إتمامها إلى المطولات التاريخية من يشاء من القراء .

ظهر في فرنسا منذ أوائل القرن الحادي عشر نوع من الشعر الطويل غير المقفى هو عبارة عن « ملاحم » تدور حول حياة الأبطال ، وتضحية المؤمنين ، وخيانة الخائنين ، وما يقوم به السادة الإقطاعيون من ضروب المغامرة في تمردهم على صاحب التاج والعرش . وهذه الملاحم المطولة التي يسمونها أغاني المغامرة «Chansons de geste» يبلغ عددها ثمانين ، وتنتهي عباراتها بفواصل تشبه من بعض الوجوه فواصل السجع . وكان المنشدون وهم كثيرون يتلونها في أبهاء القصور وفي الساحات العامة ، فتحدث في أنفس السامعين هزة الطرب الحماسي البالغ . وليس لهذه الملاحم على طولها قيمة أدبية كبرى الآن ، وإن كان لها بعض القيمة في تصوير العادات والأخلاق والأوضاع في العصور الماضية .

يكاد « شرلمان الكبير » أن يكون البطل الأول في كثير من هذه الملاحم ، تروى فيها طفولته ، وتاريخ زوجته ، وقصة بعثته الأولى ، ثم غزواته هنا وهناك ، وما يتصل بهذه الغزوات من أحداث البطولة والمغامرة . ولا بد من وقفة عند ملحمة من هذه الملاحم وهي « أغنية رولان » أكبر ملحمة عرفت يومئذ ، بل أشهر قصة في خيال الشعب الفرنسي حتى يومنا هذا .

وقد كانت أغنية رولان معروفة في كل بقاع أوربا ، ولكنها ضاعت في جملة ما ضاع من الآثار الأدبية القديمة . فإذا كان عام ١٨٣٧ اكتشف « فرنسيسك ميشيل » نسخة منها في أكسفورد ، وأخرى ناقصة في البندقية . ومحور هذه الأغنية الشعبية موت البطل رولان في وادي « رونسيفو » من جبال البرانس ، وانتقام الإمبراطور شرلمان للشهيد ابن أخيه . وذلك أن أمير « ساراغوزا » العربي طلب من شرلمان مهادنة إلى أمد ، فنصح رولان الإمبراطور أن يرسل إلى الأندلس رسولا اسمه « غانيلون » مع طائفة من الجنود ، فأضمر القائد الرسول الحقد لرولان ، ثم ائتمر مع الأمير العربي على قتله . فلما هاجم العرب الجيش القادم ، كان رولان في مؤخرته يجتاز وادي رونسيفو ، وقد أبى إلا القتال حتى النصر الحاسم . وكان في استطاعته أن ينفخ ببوقه رجاء الاستعانة بالإمبراطور ، ولكنه رفض وقال لئن فعلت ذلك أضعت مجدي . ونحن سوف نظهر على العرب من غير شك . وتألبت عليه جيوش الأعداء ، وهي كثيرة ، فشتت منها فرقتين ، ثم استكان للأمر الواقع الذي لا مناص منه : الموت ! سقطت جنوده صرعى العرب من حوله ، وإذ بقي جريحاً وحده بين الجبال ، أخذ بوقه فهتف فيه هتافات طوالا ، ثم بسط يده اليمنى نحو السماء ، ورأسه مسند إلى ذراعه ، فاستغفر الله عن ذنوبه وخطاياه ومات . . ولكن الله على ما ورد في الأغنية أرسل إليه بعض ملائكته المقربين كميخائيل وجبرائيل فحملوا روحه إلى جنان الخلد ! هنالك انكفأ الإمبراطور فبكى الشهيد بكاء طويلا ثم قفل راجعاً إلى مدينة « إكس لاشبيل » على أن ينتقم من الخائن غانيلون . وتنتهي هذه الأغنية الطويلة بحلم يراه شرلمان في منامه وهو أن ملكا من السماء يوحي إليه باستئناف القتال مع الأعداء ...

ويبدو شرلمان من خلال هذه الأغنية كأمير إقطاعي قد ارتدى لباس الفرسان في القرن الحادي عشر . يبدو شيخاً مهيب الطلعة وقوراً يرى في نفسه ظل الله على الأرض ، ورسول المسيح إلى العالم الوثني إذ ذاك . أما رولان ففتى محارب شجاع يفوق «أخيل» في بطولته ومغامراته . ويرى الدكتور « غوستاف لانسون » أن احتضار رولان على

هذا النحو الرائع هو احتضار قديس لا احتضار جندي من الجنود .

وعمل الفن في هذه الأغنية ضعيف، فلغتها جافة، ووزنها رتيب، وصورها موجزة . فهي من الوجهة الأدبية في المرتبة الوسطى ، وإن لم تخل من عفوية السرد وبساطة الحديث . ويرى النقاد الفرنسيون أن قيمة الأغنية قائمة في هذه الروح الوطنية العالية التي تجلت في موت رولان وانتقام شرلمان ، وفي شعور الشرف والفضيلة والإيمان بالعقيدة الدينية . ومن أجل هذا كانت الأغنية مبعث إيحاء خصب لكثير من قصائد الشعراء الفرنسيين في القرن التاسع عشر كألفرد دي فني وفكتور هيغو . أفما ضمت محفوظاتنا المدرسية ، وتغنت ذاكرتنا اللدنة ، بقصيدة البوق « Le cor » الرائعة التي صورت لطفولتنا البطولة والكرامة في كلام هو العذوبة القوية أو القوة العذبة ؟ !

وإلى جانب أغنية رولان وأخواتها من أغاني المغامرة التي رسمت حياة الفروسية في العصور الوسطى ، كان في الجو الأدبي طائفة من الشعر تنقد المجتمع الإقطاعي، من ملك لا سلطان له ، وأمراء هم أصحاب الحول في البلاد ، ورجال دين مزيفون ، وانحطاط في الأخلاق كالكذب والحيلة وما إلى ذلك . وهذا النقد يجري تارة على ألسنة الحيوانات ، وتارة في صورة مجردات كالجمال واللذة والغنى والبطالة ...

وأبرز مثال لهذا الشعر الانتقادي روايتان : رواية الثعلب ورواية الوردة . فأما رواية الثعلب فقصيدة طويلة تبلغ الثلاثين ألف بيت من الشعر ، أنشأها في القرن الثاني عشر شعراء مجهولون ثم زيد عليها في الأعصر التالية حتى بلغت المائة ألف بيت في القرن الرابع عشر ، شأن هذه الرواية في تضخمها على الزمان شأن قصة عنترة وقصص ألف ليلة وليلة ونوادر جحا ومجونيات أبي نواس في الأدب العربي . ومآل الرواية أن الثعلب كان يغلبه دائماً من هو أضعف منه كالديك والغراب والقط ، فأما إذا اتصل بالأقوياء فهو الظافر المنتصر أبداً . لقد أمسك بطوق الذئب حتى كاد يرديه ، فإذا دعاه إلى الصيد في بركة متجمدة لباه سريعاً ، فغمس ذنبه في الماء من خلال بعض الثقوب ، ووجد سمكا كثيراً ولكن الثقب أطبق على ذنبه فبقي يتخبط في برد الجليد . ومر صياد فقطع ذنبه بضربة قوية ، فلما عول الذئب على أن يأكل حيات الماء عاد إلى الثعلب مرة أخرى، فنصحه هذا بأن يرتدي مسوح الكهان . . . وعلى هذا النحو تعددت ضحايا الثعلب حتى ضجت الحيوانات من فرط مكره ، فشكوه جميعاً إلى الأسد سيد الوحوش ، فلما مثل الثعلب بين يديه دافع عن نفسه بكثير من المهارة والكياسة . . . فأنت ترى أن رواية الثعلب تمثل عيوب العصر كأبشع ما تكون العيوب . وقد استغل الشاعر «لافونتين»

لون هذه الأقاصيص النقدية بعد ذلك فاتخذ من الحيوانات شخوصاً لكل أشعاره الرائعة في القرن السابع عشر .

أما رواية الوردة فقصيدة تبلغ اثنين وعشرين ألف بيت من الشعر ، أنشأها رجلان سبق أحدهما الآخر بأربعين سنة . وفحواها أن الوردة ، وهي رمز الحب ، تنبت في روض اللذة والغنى ، والشاعر يريد قطفها ، تظاهره في عمله الصراحة والرحمة ، ولكن الخطر والحقد والخوف تحول كلها بينه وبين غايته . ويطل العقل بوجهه وسط المعركة ، ولكن الغيرة تقيم حول الروض حائطاً يقي الوردة شر الأعادي . . . وللرواية تتمة هي ظهور النفاق كشخص يحاور الطبيعة حواراً طويلا ينتهي بانتصار الشاعر على الوردة !

ولأدب الخرافة أيضاً نصيب في القرون الوسطى بفرنسا ، وهو مجموع حكايات شعرية مضحكة في أغلب الأحيان ، بلغ عددها المائة والخمسين حكاية صيغت على مثال رواية الثعلب ورواية الوردة في تصوير طبقة رجال الدين ، وطبقة الأشراف ، وطبقة المتمولين . وقد برز «الإنسان» فيها كإنسان له أهواؤه وغرائزه ، ففي قصة أرستطاليس مثلا يبدو هذا الفيلسوف في زي الرجل صاحب الخلق قد جاء ليهذب السيدة الهندية محبوبة الإسكندر الكبير ، إلا أنه يقع بشباك جمالها وسحرها فإذا هو منقاد لها كالحمار ، وإذا هو يحملها على ظهره مدللا متولهاً ! وأشهر كتاب الخرافة « رتبيف » المتوفى عام ١٢٨٠ ، كتب أعجوبة تيوفيل وغيرها من قصص الأساطير ، فكان خير من نقد النساء والرهبان ، وكان ممثلا عاش عيشة بؤس وتشريد كالتي ستراها بعد قليل من حياة الشاعر « فيللون » .

أما المسرح فكان يسوده الطابع الديني ، نشأ في الكنائس، وصور الحياة الدينية ومثل فيه القسس أنفسهم . ظهر على خشبته الأنبياء مع فرجيل يبشرون بقدوم «المنقذ» والعذارى العاقلات يحاورن باللاتينية وبالفرنسية العذارى الطائشات ، ونبختنصر على العرش وبين يديه صنمه المعبود ، والأنبياء بلحى بيضاء ناصعة البياض . . . وما لبث المسرح أن استقل وخرج من بين جدران الكنيسة ، وعمل فيه علمانيون أحرار . ونرى في هذا العصر فن الإضحاك على شكل ابتدائي هو بفن التهريج أشبه . وأول ما عرف من الروايات المسرحية رواية آدم ، برز فيها أبونا الأكبر بخطيئته ، وهابيل بإجرامه . وسنرى أن فن الملهاة « La Comédie » عند «موليير» في القرن السابع عشر لم يكن إلا امتداداً منظماً لما عرف من المسرحيات المسلية في العصور الوسطى .

كذلك علم التاريخ . على أنه لم يكن « علماً » بالمعنى المعروف الآن ، وإنما كان قصصاً له من الأدب حظ كبير . وأجدر القصص التاريخي بالتنويه هو هذا القصص الذي يحكي حكاية الحروب الصليبية وما جرى فيها من رحلات شاقة وتضحيات كبرى . وكل هذا القصص مروي نثراً لا شعراً ، لأن النثر أرحب صدراً وأقدر على تسجيل دقائق الاحداث من الشعر . وأبرز المؤرخين في هذا العصر اثنان : « ويلهاردوين » و « جوانفيل » . عاش أولهما بين ١١٥٢ و ١٢١٦ ، وكان فارساً خطيباً ، رافق الحملة الصليبية التي أبحرت من البندقية عام ١٢٠٣ واستولت على القسطنطينية ، وقص حكاية هذه الحملة بقلم المتدين وبقلم السياسي أيضاً ، فكان ماهراً في عرض الأحوال التي جرت له . ويعتبر كتابه « الاستيلاء على القسطنطينية » من جملة مصادر التاريخ عن هذه الحملة الصليبية الكبرى . أما جوانفيل فقد رافق لويس التاسع أو القديس لويس كما يسميه الفرنسيون في رحلته الصليبية عام ١٢٤٤ ، وسجن مع سيده في مصر ثم عاد إلى فرنسا يعنى بممتلكاته وشؤون أتباعه ، وكان غنيا صاحب قصر فخم في مقاطعة شمبانيا . حكى في تاريخه حكايته وحكاية القديس لويس ، وكان بارعاً في سرد الحوادث بالنظر لملكة الخيال المشبوبة عنده ، فمن هنا كان شاعراً إلى حد ما ، تعنيه المشاهد الجميلة والحياة الضاحكة .

أما الشعر الوجداني الغنائي ، فلن تفهمه حقا حتى تدرس الحركة «الرومانتيكية» في القرن التاسع عشر ، هنالك ترى القلب إذا شعر ، والنفس بأهوائها بارزة فيما تقول. وقد عرضت عليك « المدرسة الرومنطيقية » بنشأتها وخصائصها ومكانها بين المدارس الأدبية في عدد سبتمبر (أيلول) الماضي من مجلة «الكتاب» الغراء ، ولكن الشعر الغنائي كان موجوداً في العصور الوسطى ، ووجوده يقتضيني ويقتضيك أن نقف معاً وقفة قصيرة عند مظاهره وبعض أعلامه ، فلنقل إذن كلمة في الشعر الوجداني الناشئ ، على أن نعود إلى الحديث عنه بشيء من التفصيل فيما كتبته لك في هذه المجلة .

كان في جنوبي فرنسا طائفة من الشعراء الجوالين بين القصور ينشدون الشعر ويغنونه في آن واحد ، فيبتسم لهم الأمراء وكرائم السيدات ، ويمنحونهم الأعطيات ، ويلقونهم بكل ترحاب وحفاوة . وكان شعرهم الغنائي يدور حول لذة الحب ورثاء الأبطال وأناشيد الحرب ، ليس بالطويل الممل ولا هو منظوم على الأبحر الضخمة ، وإنما كان مقطعات خفيفة قصيرة ذات جرس وإيقاع على نحو ما كان في الأندلس يومئذ من الموشحات الغنائية أو الزجل ذي الطابع العاطفي البهيج . وكان من هؤلاء الشعراء

الجوالين ، أوالتروبادور « Les Troubadours » كما كانوا يتسمون ، رجال أصحاب وجاهة ومكانة في الهيئة الاجتماعية مثل غليوم التاسع دوق أكيتانيا ، وغوفروا برودیل أمير بليز . وإنما كانوا يمارسون إنشاد الشعر والطواف بين القصور لتحقيق لذة أو تحقيق حب أو تحقيق موهبة أو تحقيق شهرة ، فكانوا بمظهرهم الرفيع وفنهم الغنائي مصدر سرور في الحياة الفرنسية مدى عصور طوال . فإذا كان القرن الثالث عشر تضاءل عدد هؤلاء التروبادور ، وضعف أثرهم في المجتمع الفرنسي ، ولجأ أكثرهم إلى إيطاليا . وما نعرف شعراً وجدانيا في اللغة البروفانسية بعد ذلك إلا في القرن التاسع عشر، يقوم به « رومانيل » و « أوبانيل » ولا سيما الشاعر الكبير « فريديريك ميسترال » الذي خلد عادات قومه من سكان الجنوب في صور بارعة طالما نسج على منوالها ، وتأثر بطريقتها ، في الأيام الأخيرة ، الشاعر رشيد بك نخلة وغيره من شعراء الزجل الحديث بلبنان .

دع التروبادور ، وهم الشعراء المنشدون المغنون ، ثم اصعد نحو الشمال والشمال الشرقي من فرنسا ، تجد شعراء آخرين من طراز خاص اسمهم تروفير «Les Trouvères» لم تكن لهم رقة التروبادور ولا فنهم الساذج ولا صباغهم الشعبي ، وإن تأثروا بهم بعد ذلك إلى حد بعيد . وكان يشوب شعرهم شيء من الحزن ، وشيء من النقد ، وشيء من التدين . وكانوا يتلون أحياناً هذا الشعر أمام هيئة مهذبة تتذوق الفن وتضع له الجوائز ، فيقف الشاعر من هؤلاء الشعراء يوجه الكلام لرئيس الهيئة أو الأكاديمية إن شئت ، ويستهل إنشاده بيأيها الأمير ، ثم يمضي يقص قصصه ما شاء له فنه الذي يمارسه عن صناعة وطلب للعيش .

هذا الشعر الوجداني الغنائي عاش طويلا في فرنسا ، نظم فيه « غوي الثاني » و « كونون » في القرن الثالث عشر ، و « غليوم ماشو » و « فرواسار » صاحب مقطوعة « جنة الحب » في القرن الرابع عشر ، و « آلان شارتيي » و « شارل دورليان » في القرن الخامس عشر . ولا أحب أن أقف بك عند واحد من هؤلاء الشعراء ، على ما كان لهم من بعض الأثر في المجتمع الفرنسي وفي نشأة الأدب الوجداني، وإنما أعرض لشاعر يمثل فنهم الغنائي كله أقوى تمثيل ، وأعني به فرانسوا فيللون « François Villon » . وقد عرضت له من قبل في مناسبة غير هـذه المناسبة ، فلأجتزىء مما ذكرته يومئذ بعض القول في حياته .

ولد بباريس عام ١٤٣١ من أم فقيرة بالغة الفقر ، بائسة إلى حد أن وضعت

طفلها بين يدي رجل تبناه وحدب عليه وعلمه علوم عصره من نحو ومنطق وبلاغة وأخلاق ولاهوت ، حتى نال شهادة الإجازة « Licence » وهو في الحادية والعشرين من عمره . وأخذ الشاب الذي استوثق من ثقافته يجري في حياة حرة غريزية لا تخلو من خطورة الانزلاق في مهاوي الرذيلة ، فلها بالنساء الحسان وغامر في سبيلهن كل مغامرة . وحدث وهو في السادسة والعشرين من عمره أن رمى راهباً بحجر في وجهه فأدماه فمات في صبيحة اليوم التالي . فهذا أول جرم ارتكبه الشاعر ، وإن لم ينل عليه عقاباً . وجرم آخر ، ولكنه شائن ، هو السرقة ! نعم ، لقد سرق فيللون في بعض الليالي خمسمائة قرش ذهباً من صندوق كلية « نافار » واستعان لهذا الغرض بطائفة من اللصوص المهرة وبعدد من المفاتيح المزورة ثم فر من وجه العدالة إلى بعض المقاطعات النائية في أطراف الأرض الفرنسية ؛ وليته فر ليختبىء وإنما فر ليسرق البيوت ، وينهب القرى ، ويقطع الطريق على المسافرين الآمنين . ويتزعم عصابة ذات خطر على المجتمع ، فيصير إلى السجن مرات ، وفي كل مرة كان يتوب أو كان يتظاهر بالتوبة ثم يعود إلى ما كان عليه من إفساد الحياة على الناس وعلى الحكام ، فيعود إلى مكانه من السجن . سجنه مطران أورليان ، وحبس عنه الماء ، وأوثق رجليه بالحديد ، فكان لهذه الآلام المتصلة في نفسه ذكرى أي ذكرى ، سنرى أثرها في شعره على صور من العاطفة القوية الزاخرة . وتدخل الملك لويس الحادي عشر في الأمر فعادت إليه حريته ورجع إلى باريس ، ولكنه رجع مع الأسف ليعاشر أهل السوء . وصدر بحقه ذات يوم حكم الشنق بالمقصلة ! وتستطيع أنت أن تتصور قلق شاعر صاحب إحساس من جراء هذا الحكم القاسي ، فلم يكن شبح المقصلة المخيف ليفارق مخيلته لحظة من الزمان . وقضى أياماً سوداً من عذاب النفس وخوف المصير حتى جاءه العفو من جانب البلاط الملكي . هنالك اطمأن على حياته وزايله الخوف والقلق ثم نظم قصيدتين من الشكر اشتركت فيهما كل جوارحه وخلجاته وما يملك من خيال وفن .

وتنتهي حياة فيللون ... كيف انتهيت ؟ ومتى انتهت ؟ ليس يدري أحد من المؤرخين ما فعلت الأيام بالشاعر البائس المنكود !

ولفيللون مجموعتان شعريتان : الوصية الصغرى ، كتبها عام ١٤٥٦ لأصدقائه ولأعدائه على السواء ، والوصية الكبرى جمع فيها عام ١٤٦١ شتى أشعاره . ويبدو فللون من خلال وصيتيه شاعراً لم يتحجر قلبه من جراء نكبات الدهر ، فقد وصف المحتضر فأطال في وصفه ، وبكى شقاءه فأجاد البكاء . وكان أخص ما وقف عنده وقفات ممعنة الشعور

بحياة الأسرة والشعور بفكرة الموت . نظم في ذلك شعراً كثيراً عذباً هو وغيره أول ما تلقاه من الأدب الوجداني الغنائي في الأدب الفرنسي .

وأحسب أني صورت لك خطوط الأدب الذي يغرزم : فأغاني المغامرة كأغنية رولان ، والشعر الانتقادي كرواية الثعلب ورواية الوردة ، والقصص الخرافي كقصة أرستطاليس ، والمسرحيات اللاهية كمسرحية آدم ، وتواريخ ويلهاردوين وجوانفيل ، والشعر الوجداني عند التروبادور والتروفير ولا سيما عند فيللون — كل ذلك مما نقلته عن كتاب « الأدب الفرنسي » تأليف « بارفي ومونتكاري » إنما هو جملة مظاهر الأدب الفرنسي في طور تكوينه ، فقد قصصته عليك بكثير من السرعة والإيجاز حتى تلم بحال الحلقة الأولى من سلسلة الأدب الفرنسي ، وحتى تصور لنفسك صورة عن « بذور » بعض الفنون والمذاهب التي « نبتت » قبل القرن السادس عشر ثم « أزهرت وأثمرت » فيما تلا ذلك من عصور الأدب .

محمد روحي فيصل

كان إيف فاليت وروبير بومبيه وجان مارتان — والأولان صحفيان والأخير مهندس ، تتراوح أعمارهم بين ٢٠ و ٣٠ سنة — كانوا قد قاموا في أوائل يوليو الماضي برحلة إلى لونجير سيتي ، وهو منجم فحم نرويجي في سبتزبورج ، ثم استقلوا من هناك زورقاً إلى الشمال حاملين أقل ما يمكن من الزاد والعقاقير الطبية والأدوات العلمية . وبعد ثلاثة أسابيع في سير وصعود شاق وصلوا إلى غرضهم من الرحلة وهو قمة جبل نيوتن على ارتفاع ١٧١٧ متراً . واستطاعوا أن يضعوا خريطة لخمسة آلاف كيلومتر مربع ، وأن يكشفوا قمة أعلى من القمة المتقدمة التي كان يظن أنها أعلى قمة في الشمال ، وهي على مسافة ٢٠ كيلومتراً في شمالها الغربي ، فأطلقوا عليها اسم « بيبريه » تخليداً لذكرى الجنرال بيبريه الذي كان مرشداً لهم بنصائحه في الاستعداد لرحلتهم . ولا شك أن كشفاً كهذا له أهمية عظيمة في هذا الوقت الذي تتجه فيه الأنظار إلى منطقة القطب الشمالي . وقد اعتزم هؤلاء الشبان القيام برحلة إلى جرونيلاند للبحث عن أماكن جغرافية جديدة وقياس كثافة الطبقة الثلجية .

صبر

للحصين بن الحمام المري[☆]

ولمّا رأيت الودّ ليس بنافعي   وأنْ كان يوماً ذا كواكبَ مظلماَ[(١)]

صبرنا وكان الصبر فينا سجيَّة   بأسيافنا يقطعن كفًّا ومعصما

يفلّقن هاماً من رجال أعزّة   علينا ، وهم كانوا أعقّ وأظلما[(٢)]

وجوه عدوّ والصدور حديثة   بودّ ، فأودَى كلُّ ودّ فأنعما[(٣)]

فلست بمبتاع الحياة بسبَّة   ولا مبتغٍ من رهبة الموت سلّما

☆ كان سيدا شاعراً وفيا ، يعد من أوفياء العرب ، وكان ذا رأي في قومه وقائدهم ورائدهم وسمي « مانع الضيم » .

(١) مظاما : أظلم اليوم من غبار الحرب حتى استبانت الكواكب .

(٢) الهام : جمع هامة وهي الرأس . كانوا أعق وأظلما : أي بدؤونا بالظلم على إعزازنا إياهم .

(٣) أودى : ذهب . فأنعم : بالغ ، أي بالغ الود في الذهاب .

مولد القوة والإخلاص

للدكتور جميل سلطان بدمشق

أيّ نور في الأفق ملء رحابِهْ | يصدعُ الجوّ ساطع من شهابه
لاح في ظلمة الحوالك بدراً | ضاحكَ النور في أتمّ إهابه
ولد المصطفى لأكرم فرع | عرفته قريش من أحسابه
نظرت أمُّه عجائب فضل | ما رآها الزمان في أحقابه
فرحةٌ في السماء والأرض تجلى | وائتلاق في البيت غمر حجابه
ذلك الهدي يسعد الكون فيه | بعد أن كان ينطوي في اكتئابه
ومضت شعلة إلى الشرق والغرْ | ب وكانت تشع من محرابه
ودوى في شعاب مكة صوت | أسمع الكون في سحيق شعابه
إنها دعوة السماء إلى الخيـ | ـر وغوث الوجود من أوصابه
ونحيت الأوثان كُبَّ على الوجـ | ـه مهيناً ممرغاً بترابه
وارتمى العرش عرش كسرى فثارت | ثورة الكبرياء في أعصابه
ذلك البغي ما له من بقاء | إن نبا السيف عن ظلام قرابه
وتدلت من السماء نجوم | كتدلي الجنى إلى طلابه
سجدت للرسول وهو وليد | ورجت لو تكون في أعتابه
تلك تيجان كل ملك عزيز | وهي المجد نَدَّ عن أربابه
وبدت راية على الشرق والغر | ب وفي البيت رفرفت كعقابه

إنهـا الفتح والعدالة والملـــك رخيًا في سهله وهضابه

حلّقت في السماء والأرض طير كاليواقيت جنحها في خضابه

والمناقـير كالزبرجـد خضر يملأ الجـو لحنهـا من عِذابه

إنهـا البُشرَيات بالخـير تترى وهي الأمن في مقر نصابه

بُشِّرَ الناس فيـه وهو وليد وتهادوْا أخبـاره في شبابه

ورأى العارفون فيـه خصالا لم يروا شبههـا على أترابه

فاستعاد العليم ذكرى النبوا ت وما خُطَّ في قديم كتابه

فإذا الهدي في الوليـد المفدى والعـلا تستكن في جلبابه

ياله يافعاً تعـز به الأر ض ويمشي السحاب إلف ركابه

ظِـله معشب الجوانب غضّ فهو ريّ الـثرى وبرد شرابه

يبهج الأرض بالأزاهر تنمي كنماء الربيع غِبّ سحابه

كلأته عـينُ الإله بريئاً من ضلالِ الزمان أو مِن عابه

فهو الخير نسبة وخصالاً وهو الفجر في بَهيٍّ نِقابه

وهو ملء العيون قولاً وفعلا وهو ملء القلوب في آدابه

عُرف الفضل والأمانة فيـه والفؤاد الذكي في أثوابه

عيشه الجـد والحياةُ غراسٌ والشباب الـبريء خـير صحابه

يبعث الفكر في الوجود فيلقَى سره لؤلؤاً خلال عبابه

ويرى الـكون آية لقدير فيفل اليقين حدّ ارتيابه

جاءه الوحي فاستقاد له الظلــم وهاب الضلال عصف خطابه

ومضى مخلصاً لأعظم أمر ما يبالي من أجله بمصابه

نازلَ الباطل المسيطرَ جلداً وأعـد القوى ليوم ضرابه
ورأى الحـق هيّناً يتولى أمرَه كلُّ طامع في استلابه
فانـبرى مرهف العزيمة ثبتاً هبّةَ الليث ذائداً عن غابه
مثل رائع لكل أبيٍّ ينشدُ الحقَّ مغرماً باكتسابه
يا لذكرى تثير غـرَّ الأماني وهي في القلب سلوة من عذابه
علّ في الذكريات عوداً فنحيي ما طواه الزمان حين اضطرابه
همـةً تنشد العـلى وإباء وثباتاً في الحق عند اغتصابه

جميل سلطان

السّباحة الشقراء

للأستاذ محمود عماد

يا ريحُ مِنْ أن تَغضَبي حذارِ يا بحرُ خفِّضْ سرعةَ التيّارِ
فاتنةُ الشطوطِ والبحـارِ قد أبْحَرتْ في زَوْرقٍ مُخَارِ
لِلعَوْم يَحكي فِلْقةَ المحارِ تَحمل إحدَى الدّررِ الأَبكار
بحّارةٌ لم تأتِ مِن بحّار تَضرِب بالمجذاف في استهتار
إلى يمينٍ وإلى يسـار فيَمْرُق الزروقُ دونَ صاري
ودون قلعٍ فيه أو بُخار كأنه يَجري إلى انحدار
أو أنه بمن عليه دارِ فهو يُبارِي كلَّ مَن يُبارِي
بهـا ولا يُحجمُ عن فخار تبدو بجسمٍ فيه نصفِ عارِ
ذي نَضْرةٍ كنضرة الأزهار يقطر منهـا الطـلُّ في أيّارِ

قامت على ساقين مِن جُمّار ... منصوبةَ الصدرِ من استكبار
يَطعَنُ نَهداها النسيمَ الجاري ... فيرتمي في حِضْنِها المِعطارِ
مُحْتَمِياً أو آخذاً بالثار ... وبعدَ ذا يُعجِلُ في الفِرار
فيقع المسكينُ في الإسارِ ... مكبَّلاً بشَعرِهـــا الجرّار
المسْبَكِرِّ أيّمـــا اسبكرار ... الأصفر الممعن في اصفرار
كأنه صُبِّـــغَ بالبَهارِ ... أو بشعاع الشمس دون نار
يأخذ بالألبـــاب والأبصار ... يا حُسْنَها إذ لَجّ في انتشار
وكاد يَثنيها عن الإبصار ... فنَفضَتْه نَفضَةَ استنكار
فعاد نحوَ الخلفِ في انكسار ... مثل ركام الذهب المنهار
يا زَيْنَها في عزمها الجبّار ... تَقذفُ بالزورق في الغُمار
فيُفجَأُ الزورقُ بازورار ... وترتمي كالكوكب السيّار
في اليمّ قِيدَ بضعةِ الأشبار ... ثم تُوالي العومَ في إصرار
عائدةً للزورق الغدّار

***

قاهرةَ البحرِ بلا إنكارِ ... قد زدتِ عن (كولمبَ) في الأسفار
عودِي إلى الشاطئِ مِن إبْحار ... إنّا على الشاطئ في انتظار

***

يا صورةً مِن خيرِ رسمِ الباري ... مُتقَنة الألوان والأحبار
مِن زُرقةِ الأمواج في إطار ... يعرِضُها البحرُ على النظّار
إنِّي في الشّارينَ أغنَى شارِ ... لو تُدْفَعُ الأثمانُ مِن أشعارِ

محمود عماد

لقاء

للأستاذ إبرهيم محمد نجا

التقينا   بعد أيام الغيابِ

فانتشينا   بالهوى روحِ الشبابِ

وانتهينا   من ملاقاة العذابِ

رفرف الحب علينا   وتغنَّى

وهفا الماضي إلينا   وتمنى

فتعالي نسكر النيل بأفراح اللقاء   ونزر مهد هوانا بعد أيام التنائي

٭٭٭

أيها النيل لقد جئنا إليكْ   نَنشد الأفراح في ظل الأماني

ونغني للهوى في شاطئيكْ   ونناجيه بأسرار التداني

ونرى الطير ، وقد حامت عليكْ   ثم باحت بهواها في الأغاني

كم لنا من ذكريات   هاهنا

تتغنَّى   راقصات   حولنا

نحن روحان وحيدان بمغناك الحبيبِ   نتناجى في روابيك بأحلام القلوبِ

٭٭٭

طَرِب النيل فغنى بهوانا

وسرى البدر على لحن خُطانا

وحنا الزهر علينا ودعانا

كل شيء هاهنا حلم شبابٍ وسلامِ

فلنخلِّدْ حبنا بين الروابي ياغرامي

ولْنجدِّد بهجة الماضي وأحلام الليالي فلقد عاد إلينا سحر أيام الوصالِ

إبرهيم محمد نجا

الخمّار الأعظم

للأستاذ عمر أبي قوس بحلب

يـأيها الخمارُ هل خمرةٌ أحظَى بها من بينِ هذي الخمورْ

دعوتَ شُرّابَ الطِلا فالتقى منهم على بابكَ جمعٌ غفيرْ

وجاءكَ العُشاقُ في زحمةٍ يرجون في حانكَ بعضَ السرورْ

وأنتَ فيهم صامت معجب ترسل في الآفاق لحظَ الغرورْ

يـأيها الخمـــــار فاجمعهمُ حولك في شوقٍ وعطف كثيرْ

والمسْ بكفيك جراحاتهم ودُرْ عليهم بالشراب الطهورْ

إن لم يكن من أجلهم ما أرى من دعوةٍ هيَّأْتها للحضورْ

فما لهذي الشهب أوقدتَها وَلِمْ نثرتَ اليوم هذي الزهورْ

وما لهذا الأفْـق باهي السنا يَزينهُ في الليـل بدر منيرْ

عمر أبو قوس

خردلة بوذا

« قطعة تمثيلية بفصل واحد وأربعة مشاهد مقتبسة من حياة بوذا الهندي »

للدكتور محمد يحيى الهاشمي

مهداة إلى روح ابني « مصلح » الذي شهد نور الحياة في ٢٢ نيسان ١٩٤٠ وأغمض عينيه إلى الراحة الأبدية في ٢٢ أيار ١٩٤٦

المشهد الأول

(أم فتية في قارعة الطريق وبيدها ابنها الميت)

الأم : ابني وفلذة كبدي الذي أرى الحياة بدونه قاتمة حزينة ، فقد الحياة بين يدي ، من منكم أيها الناس يعرف دواء يردها إليه ، فيرد السرور إلى قلبي ، ويأخذ بيد فتاة ساذجة مثلي فجعها الدهر بوحيدها . النجدة ، النجدة أيها الناس ! الغوث الغوث ! المعونة ، المعونة ! ارحموا ذلي، وأنقذوني من هذا العذاب الأليم الذي لا قبل لي باحتماله.

مار : مسكينة هذه المرأة فقد أصابها مس من الجنون ، ماذا تريد ؟ ألا تعلم أن الحياة إذا فقدت لايوجد في العالم من يستطيع ردها !

مار ثان : إنها ساذجة تجهل كنه الموت !

مار آخر : إن قلبي ليتفتت لمصاب هذه المسكينة ، ولكن كيف يمكن إقناعها بأن الموت ليس له دواء .

رجل شيخ : أنا أستطيع ذلك .

(مخاطباً الأم) : يابنتي المسكينة ، أنا لا أقدر أن أعطيك دواء ، ولكني أقدر أن أحيلك إلى طبيب يستطيع ذلك ، فإن أخفق فلا دواء لك أبداً .

الأم : سيدي ومولاي ! قل لي من هو هذا الطبيب ، كيلا أتأخر لحظة واحدة في الذهاب إليه .

الشيخ : هذا الطبيب هو « بوذا» ، وهو وحده الذي يستطيع إعطاء الدواء

الأم : شكراً يا سيدي على صنيعك ،كدت أفقد الأمل ، لولا هذا الشيخ الحكيم الذي دلني على أكبر طبيب في الهند

(مخاطبة طفلها) : وأنت يا طفلي المحبوب : أبشرخيراً ، فلسوف ترد لك الحياة عما قريب ، ولسوف أستقبل يومي بابتساماتك الحلوة ، وأودعه عند ما تغمض عينيك إلى الرقاد الهادئ الجميل ، أسمع الأمهات يداعبن أطفالهن ، وينشدن لهم الأناشيد كما كنت أعمل أنا من قبل ، ولكنك اليوم جثة هامدة بين يدي . لا ، لا . سوف تنقشع غيوم الحزن ، وتسطع شمس الفرح على قلبي ، عند ما يعطيني الطبيب الدواء الذي يشفيك وسأطبق كل مايصف ، مهما يكلفني ذلك من جهد وعناء ومال .

المشهد الثاني

(الأم عند بوذا)

الأم : سيدي الأجل ! ها هو ذا طفلي الميت ، فهل تعرف له دواء ينقذه من الموت ، فتجبر بذلك كسر قلبي المحطم .

بوذا : نعم ! أعرف دواء واحداً فقط .

الأم : ما هو هذا الدواء ، عجل في تعريفي إياه .

بوذا : إنه دواء صعب الحصول عليه ، بل من المستحيل .

الأم : ما هو ؟ قل لي ، سوف أجد في طلبه ولو كلفني حياتي .

بوذا : هو حبة من خردل في بيت لم يعرف أهله الموت ، من أسرة لم يمت فيها أب ولا أم ، ولا ابن ولا خادم ولا قريب ولا بعيد .

الأم : إنه لشيء بسيط ، لقد زعمت أنك سوف تتطلب مني ما لايطرق إليه سمعي. أما حبة الخردل فما أكثرها في أرض الهند ، ولسوف أحضرها عما قريب ، فأرد بذلك إلى ابني ووحيدي وروحي ومهجة كبدي نور الحياة . فوداعاً أيها الطبيب . وإليك شكري الجزيل الذي لايعادله شكر .

بوذا : (بينه وبين نفسه) تزعم أن طلبي بسيط ، بسيط في القول . غير قابل التطبيق في العمل . إنها جاهلة ، ولكنها سوف تتعلم عما قريب .

المشهد الثالث

(الأم على الأبواب)

الأم : (تطرق الباب) ...
أهل البيت : من بالباب ؟
الأم : امرأة مسكينة تريد المعونة !
أهل البيت : ماذا تريدين ؟
الأم : حبة من خردل .
أهل البيت : ما أرخص ماتطلبين ، خذي الحبة واذهبي بسلام .
الأم : أريد حبة من بيت لايعرف الموت ، فهل مات عندكم أحد ؟
أهل البيت : نعم ، اقصدي باباً آخر .
الأم : هذه الخيبة الأولى ولعلي في الباب الثاني أجد ما أتمنى !
(تقرع الباب) .
أهل البيت : من بالباب ؟
الأم : امرأة تريد حبة من خردل في بيت لايعرف الموت .
أهل البيت : اذهبي إلى باب آخر ، لأنه مات لنا خلق كثيرون .
الأم : هذه هي الخيبة الثانية ، ولعلي أجد سؤلي عما قريب ، فسأجرب هـذا البيت ، ويظهرأن أهله من ذوي اليسار ولعلهم لايعرفون الموت .
(تقرع الباب) .
أهل البيت : من بالباب ؟ وماذا يريد ؟
الأم : حبة من خردل في بيت لايعرف الموت .
أهل البيت : لايوجد عندنا ، اقصدي غيرنا .
الأم : (تطرق باباً آخر) حبة خردل من بيت لايعرف الموت !
أهل البيت : لايوجد .
الأم : (تطرق باباً جديداً) حبة خردل من بيت لايعرف الموت !
أهل البيت : لايوجد .
الأم : (لنفسها) ماذا أصنع لقد أعيتني الحيل ، لم أجد مطلوبي وقد كنت ظننته سهلا . حبة خردل ، ما أحقرها في الفم ، وما أصعب الحصول عليها في البيت

الذي أنشده ، ذلك البيت الذي لم يشرب أحد من ذويه كأس الموت ! !

امرأة عجوز : (تسمع شكواها) إيه يابنيتي ! إنك تطلبين المستحيل ، فالأموات أكثر من الأحياء فكل بيت كما رأيت قد مات فيه ولد أو أب أو أم أو أخ أو أخت أو غير ذلك من قريب أو بعيد ، اذهبي إلى طبيبك وأفهميه أن طلبك من المستحيل .

الأم : شكراً لك ياسيدتي ، وسأضع وحيدي هنا في الغابة ، لا مؤنس له ولا معين وسأرجع إلى بوذا مخبرة إياه باستحالة وجود مطلوبه .

المشهد الرابع

(الأم بين يدي بوذا)

بوذا : هل وجدت الخردلة التي طلبتها منك ؟

الأم : لا ياسيدي لم أجدها ، وقد علمت بعد جهد جهيد أن الأحياء قليلون ، والأموات أكثر منهم .

بوذا : إذن أنت لست الوحيدة التي فجعت بابنك ، فليكن ذلك عزاء لك ، واعلمي أن كل شيء على الأرض مصيره إلى الزوال .

الأم : والآن أيها السيد ، لقد كنت الوحيد في تعزيتي بمصابي فهل تسمح لي بالإقامة عندك ؟

بوذا : إن حياتي حياة زهد وتقشف ، فإن أعجبتك فعلى الرحب والسعة .

الأم : أي أمنية لي في الحياة بعد أن فقدت وحيدي ؟ !

بوذا : أشعلي المصابيح . أحب حياة التأمل، ولكن في النور لا وسط الظلمات !!

الأم : إذا نظرت إلى هذه الاضواء في تألقها وانطفائها أوحت إلي أن الحياة أيها السيد مثل هذه المصابيح ، تشتعل ومن ثم تنطفئ بالتدريج !

بوذا : أغمضي عينيك أيتها السيدة تشاهدي نوراً لا يطفأ ، هو نور القلب الذي يصبو إلى الكمال ، وفي ذلك النور فقط سر الخلود !

الأم : الموت هو الموقظ الأكبر لنتعمق في سر الوجود

بوذا : كل شيء في الكون يسير إلى الفناء ولا يزيد شقاءنا إلا تكالبنا على حطام الدنيا ، ويأسنا من الانتظار . إن الزهد في كل شيء ، هو راحة النفس وطمأنينة الروح .

محمد يحيي الهاشمي

في كفة الميزان

اتجاه التأليف في سنة ١٩٤٦

العراق *

تنوعت المطبوعات في العراق خلال سنة ١٩٤٦ ، وزاد عددها عما كان عليه في السنة التي سبقتها . وقد شملت الكتب مناحي شتى في حقل التأليف ، والترجمة ، ونشر الكتب القديمة . وأغلب هذه المطبوعات نشر في بغداد ، والباقي في النجف والموصل وغيرهما من بلدان العراق .

أما «النشرات الرسمية» فهي وإن لم تبلغ مبلغ الكثرة التي كانت عليها في السنوات التي سبقت الحرب ، إلا أن ما يلفت الأنظار إليه الآن هو وفرة « المجلات الرسمية » التي تصدرها دواوين الحكومة المختلفة ، كل منها في نطاق اختصاصها . فالزراعة ، والطب ، والآثار ، والتجارة ، والمعارف ، والجيش ، وغيرها ، تجد لكل منها مجلة حسنة تعنى بإصدارها في مواعيد معلومة .

أما فروع المعرفة من علوم وفنون وآداب وغير ذلك فسنحاول أن نلم بها فرعاً فرعاً في هذه العجالة .

الآثار

أخذت المساعي الحسنة التي بذلت للكشف عن آثار العراق وكنوزه القديمة تثمر ثمارها الطيبة . فإن « مديرية الآثار القديمة العامة » ببغداد ، أخرجت للقراء والباحثين جملة منشورات نالت استحسان دور الآثار ومؤسساتها في أنحاء العالم . ومن ذلك كتاب بالإنكليزية كتبه فؤاد سفر ، عن الحفريات في بقايا «واسط» مدينة الحجاج

---

* حال تأخر البريد دون نشر هذه الرسالة في الجزء الماضي من هذه المجلة فنشرناها في هذا الجزء تتمة للبحث

ضمنه وصف أعمال التنقيب فيها ، وصدره بخلاصة تاريخية خططية لهذه المدينة الإسلامية منذ نشأتها إلى انقراضها . ومنها رسالتان بالإنكليزية عن الحفريات في أطلال «عقر قوف» عاصمة دولة الكشيين في العراق . وقد كتبهما السيد طه باقر . ورسالة بالإنكليزية عن التنقيب في « تل حسونة » قرب الموصل ، وهو الموضع الذي يرقى عهده إلى أزمنة ما قبل التاريخ . ورسالة أخرى عن الحفر في «العقير» قرب بغداد وكلتاهما لفؤاد سفر .

ولعل أبرز المنشورات الأثرية مجلة «سومر» وهي أول مجلة عربية خاصة بالآثار، وقد كان مجلدها الثاني بجزءيه حافلا بالبحوث الأثرية والتاريخية التي لا يستغني عن مراجعتها المشتغلون بشؤون العراق القديم .

ومما يتصل بالآثار رسالة «خطط الكوفة» للمستشرق الفرنسي لويس مسنيون ، نقلها إلى العربية تقي بن محمد المصعبي .

التاريخ

والأثر التاريخي الوحيد الذي طبع في العراق هذه السنة هو « النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس» لابن دحية الكلبي، الذي نشرته لجنة الترجمة والتأليف والنشر ببغداد ، بتحقيق المحامي عباس العزاوي ، وهو يبدأ بخلافة السفاح وينتهي بخلافة الناصر لدين الله .

ومن أنفس التآليف التاريخية المصنفة حديثاً وأدقها بحثاً كتاب « دراسات في العصور العباسية المتأخرة » للدكتور عبد العزيز الدوري ، بحث فيه عن أيام الواثق والمتوكل ؛ وثورة الزنج والإسمعيلية ، والإمارات الفارسية الثلاث : الطاهرية والصفارية والسامانية ؛ وانتقل إلى البحث في القرامطة ، وعصر المقتدر ، وأيام البويهيين . وهذا السفر نشرته جمعية الرابطة الثقافية ببغداد .

أما الكتب المترجمة ففي طليعتها « تاريخ العرب » للدكتور فيليب حتي ، نقله إلى العربية محمد مبروك نافع ونشرته دار المعلمين العالية ببغداد . وكتاب « تكوين العراق الحديث » لهنري فوستر وترجمة عبد المسيح جويدة . والكتاب صفحة من تاريخ العراق بعد الحرب العظمى الأولى .

ومما يدخل في التاريخ كتاب « هاشم وأمية في الجاهلية » لصدر الدين شرف الدين . وكتاب «تاريخ مشاهير الألوية العراقية » لعبد المجيد فهمي حسن ، يحتوي على وصف لواء السليمانية وأشهر رجاله . « والتاريخ العربي » لعبد الله الفياض ومحمد حسن العضاض . و « تاريخ العرب والإسلام » تأليف لجنة في وزارة المعارف .

التراجم

أغلب ما ظهر منها ينطوي على دراسة شخصيات شرقية قديمة ومتأخرة ، وقد أحصينا من هذه الكتب ما يبلغ عشرة عدًّا ، ثلاثة منها تتناول تراجم جملة أشخاص ، والباقي خص كل منها بشخص واحد . ويأتي في طليعة الأولى كتاب « نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر » للدكتور محمد مهدي البصير . ترجم فيه لثمانية وعشرين شاعراً عراقيا من شعراء القرن الماضي ، وبينهم طائفة منسيون . وقد طال الأخذ والرد بصدد هذا الكتاب ؛ ولكنه إلى ذلك كله صفحة مهمة من تاريخ الأدب العربي في العراق . ومثله كتاب « من عبقريات نساء القرن التاسع عشر عند العرب » ليوسف مسكوني حوى تراجم عائشة التيمورية ووردة اليازجي وزينب فواز ، وطرائف من شعرهن . ثم كتاب « أدباء الأطباء » لميرزا محمد الخليلي ، وفيه تراجم من جمع بين الطب والأدب من الأقدمين . و « شخصيات عصامية عراقية » لرسول الجصاني وحميد حمدي .

أما التراجم الشرقية الخاصة فكتاب « جعفر الصادق » وكتاب « ميثم التمار » من أصحاب الإمام علي ، وكلاهما لمحمد الحسين المظفري . و «مالك الأشتر» لمحمد تقي الحكيم و « السيدة سكينة » لعبد الرزاق المقدم . و « عمار بن ياسر » لعبد الله السبيتي . و « جنكيزخان : أمبراطور الناس كلهم » لهارولد لامب وقد نقله إلى العربية اللواء بهاء الدين نوري .

ومن التراجم الغربية التي ظهرت في العراق «رجل آسيا» للكاتب الأميركي إدجار سنو وترجمة زكي خيري ، بحث فيه عن الزعيم الصيني ماوتستيتون . وكتاب « مكسيم غركي » لسليم طه التكريتي .

القصص — الأدب — الشعر

أقبل بعض الكتاب على القصص إقبالا حسناً في هذا العام ، فتنوع إنتاجهم بعض التنوع بما أدخل إليه من المنقولات عن لغات أجنبية . فظهر في عالم القصص « أربع قصص عالمية » ترجمها عامر عبد الله عن تلستوي وغوغولي وغركي وكبرن . ونشر عبد الملك عبد اللطيف نوري مجموعة قصصه : « رسل الإنسانية وقصص أخرى » . ونشر فؤاد بطي أقاصيصه : « ألف ليلة وليلة جديدة » . وأصدر عبد الجبار شوكة رواية « يوم الجلاء عن سوريا » .

وفي الدراسات الأدبية ، نشر كتاب «على باب سجن أبي العلاء» وهو من مخلفات الشاعر العراقي معروف الرصافي ، عرض فيه آراء المعري في الفلسفة وبحث في شعره ونظراته إلى الحياة .

أما الشعر فقد وقفنا على جملة دواوين في طليعتها « التيار » وهو ديوان أحمد الصافي النجفي . و « خفقات قلب » و « وابل وطل » لإبرهيم يعقوب عوبديا . و « الملحمة العربية » وهو ديوان في ألف بيت لسماحة السيد محمد حبيب العبيدي مفتي الموصل ، وصف فيه حال الأمة العربية في السياسة والاجتماع والدين . و « ديوان الشيخ رضا الطالباني » وفيه بعض مقطوعاته بالعربية والفارسية والكردية والتركية ، وكان ينظم بهذه اللغات الأربع . و « شاعر في الإذاعة » لسلمان أحمد العيسي .

الملحمة العربية للعبيدي

التربية وعلم النفس والاجتماع

فإذا التفتنا بأنظارنا إلى هذه المناحي الفكرية ، ألفينا الخزانة العربية قد أصابت حظا لا بأس به . فقد أخرجت المطابع تآليف حسنة منها كتاب « التربية : حقائقها وأصولها الأولى » تأليف برسي نن وترجمة عبد العزيز إبرهيم البسام . و « العقل الروسي» تأليف جورج كاونتس وترجمة هاشم الحلي وحسين الدجيلي. و «أصل العائلة» تأليف فردريك أنجلس وترجمة أديب يوسف .

ومن أثمن الكتب التي تجمع بين علم الإدارة والاجتماع والتاريخ كتاب « الحسبة » لعبد الرزاق الحصان ، تناول فيه بالبحث نظام الهيئة الاجتماعية عند العرب ولا سيما العصر العباسي .

ومما نشرته جمعية الرابطة الثقافية ببغداد كتاب « مقدمة في كيان العراق الاجتماعي » لهاشم جواد . ونشرت مجلة « المعلم الجديد » التي تصدرها وزارة المعارف كتاب « مركب النقص : مدلوله وعلاجه » تأليف مكبريد وترجمة نوري حافظ . وصدر ببغداد «القضايا الاجتماعية الكبرى» لرسول عبدالوهاب العسكر. كما صدر كتاب « التربية الاجتماعية » لحسين كبة . وكتاب « فلسفة اللعب » لحاتم عبد الصاحب . و « المدخل في الألعاب الأولمبية » لمجيد محمد السامرائي وهو من منشورات معهد التربية البدنية في بغداد .

ومما يتعلق بما نحن فيه ولا يمكن إغفاله مجلتان : الأولى « الأم والطفل » وهي مجلة شهرية إرشادية ، أصدرتها جمعية حماية الأطفال في العراق . والثانية «تحرير المرأة»

أصدرتها جمعية الرابطة النسائية ببغداد . وينهض بتحريرها سيدات وآنسات عراقيات .

وقد أصدرت المفوضية الصينية في بغداد كتاب « المبادئ الثلاثة للشعب » تأليف كان ناي كوان .

الرحلات

وقد ظهر في هذا الميدان ثلاث رحلات شرقية وغربية : فنقل القس بولس شيخو الكلداني بالموصل « رحلة السائح الإيطالي غسبارو بلبي سنة ١٥٧٩ — ١٥٨٨م » التي وصف فيها سياحته من حلب إلى العراق وهرمز ، مارا بالفلجا وبغداد والبصرة .

ونشر موسى حبيب كتاب « العراق وأمريكا بعد رحلة الوصي » وصف فيه رحلة سمو الأمير عبد الإله الوصي على عرش العراق إلى أميركا ، وضمنه العلاقات بين العراق والولايات المتحدة .

وأخرج عبد الرزاق الهلالي رحلته « ٤٠ يوماً في لندن» ، وهي خواطر دوّنها في وصف ما شاهده في تلك المدينة .

اللغة والمصطلحات

لم يظهر من البحوث اللغوية في هذا العام إلا كتابان يدخلان في عداد المعجمات : أولهما « المعجم العسكري : الإنجليزي — العربي » الذي وضعه ديوان الترجمة في وزارة الدفاع . ولعله أول معجم من نوعه في العربية ، وكان المرحوم عبد المسيح وزير ، المتوفى سنة ١٩٤٣ ، في طليعة من أسهم في تأليفه .

وثانيهما « مصطلحات القانون المدني » التي وضعها مجمع فؤاد الأول للغة العربية في دورته التاسعة سنة ١٩٤٢ — ١٩٤٣ وقد نشرتها وزارة العدلية .

الأديان والمذاهب

ومؤلفات هذا الباب وإن كانت قليلة ، إلا أنها جليلة القدر . من ذلك كتاب « عقيدة الشيعة » للمستشرق دنلدسن . وقد نقله إلى العربية ع . م . (العقيد عبد المطلب الهاشمي) . وهذا السفر من المراجع التي لا يستغني عنها من يعنى بدرس هذا الموضوع .

ومما يتصل ببحث الكتاب السابق « الشيعة والإمامة » لمحمد الحسين المظفري ، وقد نشره المجمع الثقافي الديني لمنتدى النشر في النجف .

وعني معالي توفيق وهبي أحد أفاضل الباحثين في العراق ، بوضع مؤلف نفيس في « اليزيدية وأصل ديانتهم وقدمهم » ، خالف فيه مؤلفه كثيراً من الباحثين عن

أصل اليزيدية . كما ظهر جزءان من كتاب « الغدير في السنة » تأليف عبد الحسين الأميني . و « الميزان الصحيح » لمسلم الحلي وهو رد على كتاب « تاريخ التشريع الإسلامي » . و « أسبوع الإمام » وهو مجموع ما قيل في أسبوع الإمام علي وقد أصدره المجمع الثقافي الديني « والأرض والتربة الحسينية » للإمام كاشف الغطاء . « والمنظورات الحسينية » للشيخ كاظم المنظور وهو باللغة الدارجة .

الطب والصحة

ولنا أن نطري في هذا الباب « مجلة الكلية الطبية العراقية » التي اختتمت سنتها العاشرة بهذا العام . وجميع مجلداتها حافلة بالبحوث والدراسات القيمة .

وأما النشرات الأخرى فبوسعنا أن نذكر منها ثلاثة كتب جمعت بين الطب والصحة وما إليها ، فنشر الدكتور مظفر مدحت الزهاوي رسالتين في الأمور الجنسية : « بيني وبينك » و « في مخدع المرأة » ، وقد أفرغهما المؤلف في أسلوب سهل طريف .

ونشر الدكتور فائق شاكر رسالة « الشيخوخة الخضراء » بحث فيها في أمراض الشيوخ واتقائها وعلاجها .

القانون

ولقد كان محصول هذا العام في ميادين النظم والقوانين وافراً متنوعاً ، فظهرت طائفة صالحة من المطبوعات ، بعضها جمع نصوص تلك القوانين والنظم وأهمها « مجموعة القوانين والأنظمة لسنة ١٩٤٥ » التي نشرتها وزارة العدلية . و « قانون العقوبات البغدادي والتعديلات والحواشي والذيول التي أدخلت عليه لغاية سنة ١٩٤٦ » وقد جمعها ونشرها فاضل محمود .

أما باقي المؤلفات فشرح ودرس وتعليق على قوانين مختلفة . فقد أصدر الدكتور صلاح الدين الناهي كتاب « الامتناع المشروع عن الوفاء » وهو أطروحته لنيل الدكتوراه . وله الجزء الأول من « شرح القانون التجاري العراقي » . ولكامل السامرائي « نظرة في مشروع قانون الأحوال الشخصية » . وقد أصدر حزب الاتحاد الوطني كراسة « السياسة أمام المحاكم » .

ومما يدخل في هذا الباب — نعني تطبيق القوانين على شؤون عراقية — « مذكرة في أحكام تصرف الأجنبي بالأموال غير المنقولة في العراق » لشاكر ناصر حيدر . و « قانون ضريبة الدخل وتطبيقاته في العراق » لحسن محمد علي . و « شرح الدستور العراقي » للدكتور مصطفى كامل .

الاقتصاد

والكتب التي عالجت هذه الناحية وإن كانت قليلة في عددها ، إلا أنها تدل على رغبة صادقة في تفهم اقتصاديات البلاد ودرسها درساً مفيداً . والذي وقفنا عليه في هذا الباب كتاب « النظام النقدي في العراق » للدكتور عبد الرحمن الجليلي . وهو مصدر أساسي لمن يعنى بهذا الموضوع . و « مشروع إنماء الثروة الوطنية في العراق » للدكتور يوسف عبود . و « اقتصادنا الوطني » لمحمد علي الزرقا . و « أصول التعبات وأحكامها في البصرة » للمحامي سليمان فيضي الموصلي . و « دولة النفط في العراق » وهو من رسائل الطليعة .

السياسة الحديثة

وأغلب الكتب والرسائل المصنفة في هذا الباب منقول عن لغات غربية ، مما يدل على تطلع بعض الكتاب إلى ما ينشر من بحوث في شؤون السياسة العالمية . وكان مما صدر منها سنة ١٩٤٦ : « نقد المثالية الحديثة » تأليف جون لويس وترجمة المحامي ناظم الزهاوي . وهو من منشورات جمعية الرابطة الثقافية ببغداد .

ومما أصدرته هذه الجمعية أيضاً « الأصول التاريخية للأمبريالزم الألماني » تأليف أ . فاركا ، وترجمة ناظم الزهاوي .

ولعل من أبرز ما طبع في هذه السنة وألصقها بشؤون العراق الحديث ، كتاب « نظام الحكم في العراق » للدكتور مجيد خدوري ، وكان وضعه أولا بالإنكليزية ، وتم نقله إلى العربية على يد مؤلفه وفيصل نجم الدين أطرقجي .

وطبعت رسالة « بعث الفاشية في العراق » لمعالي كامل الجادرجي . وأصدرت مكتبة بغداد « الحرب العالمية الثانية : منشؤها وطبيعتها » للكاتب الروسي ليونتيف ، وهوغفل من اسم المترجم . وكانت أولى منشورات « دار القارئ » ببغداد : « محاكمة المارشال بيتان » .

كما صدر كتابا : « الاستقلال والسيادة الوطنية » و « الجبهة الوطنية الموحدة » لحسين محمد الشبيبي . و« محاضرات في قانون الانتخابات النيابية » لصادق السعيد . كما أصدرت « عالم الغد » كتابي : « الميثاق القومي » و«رسالة الديمقراطية والاشتراكية القومية » لعبد المجيد عباس .

ولم تخل مؤلفات هذا العام من النظر في قضية فلسطين ومعالجتها . فنشر الدكتور

عبد الجبار جومرد كتاباً بالفرنسية في باريس عنوانه « مأساة فلسطين » دافع فيه عن وجهة نظر العرب في المعضلة الفلسطينية . ونشر ابن العراق كتاب « الخطر الصهيوني ».

ومما يتصل بهذا الموضوع كتاب «العرب والمشكلة اليهودية » للمحامي قاسم حسن .

مأساة فلسطين
الجومرد ٢٠٤

كلمة الختام

هذه لمحات خاطفة عن اتجاه التأليف في العراق سنة ١٩٤٦ . ولم نتعرض فيها للكتب المدرسية ، لأن طابعها معلوم معين ، فهي تابعة للمناهج الدراسية المقررة .

كما أننا لم نتعرض للصحف اليومية ولا لكثير من المجلات التي تصدر في بغداد والنجف والموصل . فإن الكلام عليها بما تستحقه يفضي بنا إلى تأليف صفحة جديدة من تاريخ الصحافة العراقية . وهو مالا يمكن الخوض فيه في هذه العجالة .

النَقـْـدُ

كتب وشخصيات

تأليف الأستاذ سيد قطب

٣٥٢ صفحة من القطع المتوسط . مطبعة الرسالة . القاهرة ١٩٤٦

نقد الأستاذ خليل هنداوي بحلب

إذا كان القدماء يقولون : « من ألف فقد استهدف » فمن الحري أن يقال للناقد الذي يرمي « قد لايخطئك من ترميه ! » .

هذا الكتاب يدل اسمه على ما احتواه من مقالات نشرها المؤلف في مناسبات عدة. ومن البدهي أن تكون متفرقة الجوانب ، مختلفة الموارد ، لكنها — على اختلافها — يجمع بينها اتجاه واحد ، هو اتجاه المؤلف في تفهم الأدب تفهماً صحيحاً . وعن هذا التفهم الصحيح تتوزع تلك النظرات ، وعليه تقوم تلك الموازين التي تبخس طوراً ، وترجح طوراً . ولكنها — في كل ذلك — لا تصدر إلا عن عقل رجيح ، وأدب صحيح .

وقبل البدء بالتحليل أحب أن ألفت القارئ إلى نظرة أجد ضرورة في ذكرها ، هي أن نقدنا الحديث يختلف بوجوه عن نقدنا الموروث . ولهذا النقد الحديث مدارسه المتعددة . ولعل في طليعة هذه المدارس « المدرسة التأثرية » للدكتور طه حسين بك التي تعتمد على انفعالاتها الخاصة ، وذوقها الشخصي . والمدرسة « العقادية المازنية » التي باشرت — بديوانها — تحطيم الأوثان الأدبية ، ونقد الآثار المهلهلة التي كان يعبدها جيل

من الناس . وهذه المدرسة تعتمد — في جل مميزاتها — على عقل باحث ، واستقلال في التفكير ، وتهكم جارح ، وتهديم بالغ . لا تعرف الملق ، ولا تبالي في سبيل عقيدتها الأدبية المتحررة بالكون ! ويبدو لي أن هذه المدرسة — برغم مانالها من اللوم — كانت ضرورية لتطهير ساحة الأدب من الأوثان والألاعيب . ضرورية بما جنحت إليه ، ضرورية بتهكمها وتحطيمها . وما يدرينا أننا لولا هـذه المدرسة لبقيت عندنا مفاهيم الأدب سقيمة جامدة . وقد آزرت هـذه المدرسة مدارس أخرى في الأقطار العربية ، ساعدت كلها على تهيئة هذا الجو العامل على إبداع أدب صحيح . وإني واحد من أولئك الذين تأثروا بهذه المدرسة ، وأفادوا من منهجها . وإني ملتق الآن برفيق من أتباعها هو « سيد قطب » تلميذ المدرسة العقادية في النقد . على أن هـذا التلميذ تراه أميناً في كثير من الأحيان لمبادئ تلك المدرسة ، حريصاً على عدم معارضتها في أفكارها البارزة ، كما تراه خارجاً — في كثير من الأحيان — عن حدودها . وما أجله خارجاً حين يبسط فكرته في المفاهيم الفنية والشعرية ، لأنها فكرة مستقلة ، ثابتة ، أصيلة .

على أن هذه المشاركة لا يقصد منها الاتباع الأعمى . لأن في الأدب العالي مقاييس فنية لا تتبدل ولا تتغير ، يقرها العقاد كما يقرها غيره ممن أوتوا إدراك أسرار هذا الأدب. ولكني أجد أبرز مزايا هذه المشاركة هذه الأصالة في تفهم الأدب .

إن صاحب « كتب وشخصيات » صاحب أصالة في تفهم الأدب ، وكتابة النقد حين يكتب . وقد أعجبني منه أنه ترك معاول الهدم التي كانت مشرعة في هذه المدرسة ، وهذب طرق معالجة المواضيع فيها ، حتى لا يقال ماقال الزهاوي فيها : « والحقد قد سموه نقداً » فلا تحطيم ، ولا حقد ، وإنما هو نقد هادئ ، موجه ، يسلك عليه ماقال عنه صاحبه : « وإذا كان للناقد وظيفة فليست وظيفته هي تغيير طبائع المؤلفين المخلوقة ، ولا زيادة طاقاتهم المحدودة . ولكن وظيفته أن يوجه الأنظار إلى المنهاج الأقوم ليسلكه من يملك الطبيعة ومن يطيق السلوك فيه » .

وإذا كان لي مأخذ على هـذا القول فهو في إهمال الكاتب لوظيفة ثانية وجيهة في النقد ،لا تقل عن الأولى أهمية . إذ لايليق بالناقد أن يكون أستاذاً فقط ، بل يجدر به أن يوسع لبعض الآثار الأدبية آفاقها عند جمهرة سقيمة الأذواق ، ضعيفة الإحساس الفني وذلك يكون بعرضها ، وبيان خصائصها . وكم ناقد جلا الغبار عن أثر عالمي مهمل ؛ وفتح للقراء بصائر كانت مغلقة !

في الكتاب باب في أصول النقد ، وفي عالم الشعر ، وفي عالم القصة والرواية ، وفي

النفس والعالم ، وفي البحوث والدراسات ، وفي التراجم والتاريخ . وليس معنى هذا التقسيم أن الناقد قسم نفسه أو وزع فكره ، أو خان الوحدة الأدبية ، وإنما كان متنقلا من فن إلى فن ، ومن موضوع إلى موضوع . ولا أستطيع القول إن الناقد قد اتخذ طريقة مرسومة في النقد ، لكنه كان بعيداً عن الطريقة « الانفعالية » التي تسجل أحاسيس الناقد المتأثر . لأنه أميل إلى الأخذ بأحكام العقل ، ولا أقول العقل وحده ، وأحكام الفن التصويري .

في فصل النقد ملحوظات قد تكون جديدة ، تولد مفهوماً جديداً للأدب . ويعجبني نقده للناقد . حين يقصر بصره ويتضاءل رصيده عن إدراك رصيد الفنان ، لأن صحة المقاييس تتكافأ مع قدرة الناقد ، واتساع آفاقه ، ورهافة ذوقه ، ولأن الفنان الكبير لا يدرك آفاقة إلا ناقد كبير . وكم ناقد عندنا زج نفسه في ميدان لم يخلق له ! على أن النقاد الحقيقيين لا يقدمون على النقد ، ولا يتخذونه مهنة إلا بعد أن يتزودوا له أحسن الزاد ، وبعد أن يشعروا بعظم الأمانة التي تتصل به . والناقد الحقيقي — عند سيد قطب — لا يجب أن تخدعه سيرورة الكتاب أو الفن المعروض . فما مثل الأذواق العامية بقاتلة للفن ، ولا بمخدوعة عن القيم الحقيقية . وفي الكتاب مقارنة محمودة — وإن كانت مكرورة — بين تجارب العلم وتجارب الفن ، من حيث أن تجارب الفن هي المقصودة بذاتها ، بينا تجارب العلم ليست إلا وسائل تنقرض ، إذا بلغت الغرض . وأرى أن مثل هذا الكلام لم يقل للتمييز بين العلم والفن فحسب ، بل قيل للتفريق بين عنصرين هما من نبعة واحدة : بين النثر والشعر . حين قيل : إن النثر كخطوات يمشيها الإنسان إلى غاية معينة ، وهو لا يعبأ بما تكون عليه هذه الخطوات ولا يلتفت إليها بعد أن يدرك غايته منها ، بينما يجعلون الشعر كالرقص ، إنما غاياته في هذه الدورات المتتابعة المقلقة ، لا غاية له إلا نفسه . وليت شعري فيم يدور الراقص إذاً ؟ أليملأ الفراغ ؟ وطبيعي هنا أن يكون الحكم على كل ما كان شعراً ، وإن كان نثراً . وما دمنا قد انتقلنا إلى الشعر ففي الكتاب آراء ، أو مدرسة في طريقة الشعر ، يستحق عليها الناقد شكر الأدب عامة ، والشعر خاصة . لأنه لا يسعى إلى فرض شعر دون شعر ولا تفضيل قطعة على قطعة ، وإنما يسعى إلى فرض « مفهوم » جديد في سبيل «اتجاه» جديد آن أن يحل محل المفهوم القديم . فشعرنا الذي نعتبره لا يزال قضية ذهن يحفل بالمعاني وتوليدها منطقيا . والمعاني والصور حين تمر بالذهن لا تأتي إلا ممسوخة لأن من هم الصور أن ترسم نفسها بألوانها ، دون أن تعود إلى الذهن الضيق الذي يعجز

عن الأخيلة المتتابعة . وما للشعر بالمعانى الذهنية ، والقضايا ، والمنطق ، وهو أخو الصور والظلال ؟ لهذا نجد في شعرنا « أن طابع المعاني العامة المتبلورة ، والقضايا الذهنية الكلية هو الذي يغلب عليه » وهذه قضية يجب أن تثار ، ويجب أن يدرس الشعر العربي على ضوئها ، وأن نجري غربلة القضايا والحكم الذهنية منه . ولكن الناقد لم يعلل حين أطلق هذا الحكم إطلاقاً على الشعر العربي : هل هو مجرد طبيعة اللغة ، أو طبيعة الشعر العربي نفسه ؟

أنا لا أجد هذا تابعاً لطبيعة اللغة نفسها أو الشعر نفسه . لأن اللغة العربية بامتداداتها ليست بالغدير الناضب ، وإنما هي تتسع للصور وظلالها ، بل تفيض بهذه الصور والظلال لو عرفنا أن نلتقطها . ولكن — هناك — عوامل صدت الشعر العربي عن تناول هذا النوع ، منها امتزاج شخصية الخطيب بالشاعر وتغلبها عليه ، حتى غلبت على الشعر لهجة الخطابة التي لا تزال من سماته البارزة ، وبذلك كان شعرنا شعر الأذن ، لا شعر العين والامتداد . وقد يكون شعر الأذن حافظاً للرنة الموسيقية ، لكن آذاننا نفسها لا تستقر لها الموسيقية قبل أن تتناول المعاني الذهنية . ولهذا خسرنا شعر الأذن ، وشعر العين معاً ! على أن في الشعر العربي لمحات أصيلة يعيبها الإيجاز ، لكنها لمحات من الإدراك العالي الذي يقبل على الطبيعة أو يصورها بكل ما وعتها أحاسيسه في جملة واحدة . من هذه اللمحات بيتان لامرئ القيس يصف بهما انتهاء السيل ، لا أرى أذهب منهما في عرض الصورة ، حتى بت أسأل نفسي : أقالهما صاحبهما في حالة وعي منه أو لا وعي ؟

السيل حادث طبيعي في الصحراء ، وهو عيد حيناً ، ونكبة حيناً ، قد تدفع على الروابي ، وجرف سباعها فيما جرف فباتت :

كأن السباع فيه غرقى عشية ... بأرجائه القصوى أنابيش عنصل

هذه صورة مكفهرة تركت وراءها ظلالها ! وتأمل معي مدى ما ذهب إليه تعيين الزمن من جمال ؟ لكن هذا السيل الذي تكشف عن هذه الفاجعة كان عيداً للطيور التي غدت تسرح على شطآن قراراته اللامعة راكضة مغنية .

كأن مكاكي الجواء غدية ... صبحن سلافاً من رحيق مفلفل

وهذه صورة من الصور الخالدات في صدق الإحساس ، ودقة التصوير ، يعجز عنها أي فن من الفنون ، لأنها صورة التطريب الدائم الذي لا ينقطع لطيور سكرى ، قد رشفت خمرة مفلفلة لا تزال تحك مناقيرها حتى تغني . وأحب أن تقارن معي بين

اختيار الوقتين في البيتين . لكن هذه الصور لا تزال تحتاج إلى لوحات وجزئيات متممة تزيد اللوحة الأساسية عناصر ملهمة . فهذه الصور البكر — لو امتدت — لاغتنى الشعر العربي بما اغتنى به الشعر العالمي، ولكن اللهجة الخطابية التي ظلت مسيطرة عليه، والعقلية المنطقية التي هبت على كل شيء في الشعر العباسي زادت الشعر تعقيداً وتكلفاً وإغراقاً في الذهنية . ولو أن الأدب اليوناني وجد إلى الأدب العربي سبيلا لألجم المنطق وأذن لأبواب جديدة ، وصور ممتعة !

وفي الكتاب أيضاً كلام عن الوعي في الشعر واللاوعي ، وهو تأثر بنظرية الشعور واللاشعور — تلك النظرية المستمدة من وقائع علم النفس — في أن النفس تختزن في قراراتها من الصور والأفعال ما لا يعد الظاهر منها شيئاً ، ولكن الناقد تناول ما يتصل منها بالشعر ، « وليست الألفاظ إلا رموزاً لملابسات شتى متشابكة فيما وراء الوعي ... وتبقى اللفظة رمزاً على الظلال والمعاني التي حملتها في تاريخها الطويل ، والشاعر الملهم هو الذي يستوحي الألفاظ ورموزها العميقة ويستدعيها في اللحظة المناسبة ، وإن يكن هذا العمل سيتم غالباً في غيبته عن الوعي عند الشعراء الملهمين ... » . وقد يتسامى الناقد حين يريد أن يحرر الشعر من هذه الأردية إذ يقول : « والشعر هو نبضة قلب قبل أن يكون لمعة فكر ، وهو خفقة حياة قبل أن يكون فكرة ذهن ، وهو ظلال إنسان قبل أن يكون التماع أفكار ... ». إني مع الناقد في هذه الثورة ، وفي هذا الاتجاه في سبيل إيجاد شعر جديد ، يتفق له أن يقف بجانب الشعر العالمي .

وبعد ذلك يتناول الناقد كتباً ودواوين وتراجم وأقاصيص ومسرحيات بنفس الروح . وإن كانت تختلف وسائل عرضها . والطريقة التي تمشي بها هذه النظرات النقدية طريقة توجيهية المؤلف . وإن كانت لا تخلو من الانفعال الذي يؤخذ به الناقد حين يكتب مهما حمل نفسه على التجرد . والطريقة التوجيهية نفسها تحمل كثيراً راكبها محمل الشطط ، لأنه يكلف نفسه فوق الوسع حين يريد أن ينصب نفسه منصب المعلم الذي يكافىء تلميذه على الحسنات ، ويقرعه للسيئات . ولكن ما عسى تكون الحسنات ، ومتى تكون السيئات ؟ ما هي حدودها ؟ وما هي مدلولاتها ؟ سيحملنا الناقد طبعاً إلى ما وضع من مقاييس . ولكن متى صحت هذه المقاييس حتى تصح نتائجها ؟ لعلك تظن أني أدعو أمثال هذه الدرسات عبثاً . لا . . . ولست بعابث . لكني أوثر في أمثال هذه الدراسات أن تتجه اتجاهاً تسجل انطباعاً فيّ دون أن أفرض نفسي وأحكامي الشخصية .

وهناك ملحوظة ثانية أريد أن أبديها . قلت : إن الناقد متأثر بمدرسة العقاد

وبكل ما أنتجته هذه المدرسة تأثراً عنيفاً . ومن الحق الاعتراف أن هـذه المدرسة مدرسة قوية لها أثرها في الجيل . لكن إعجابنا بها ينبغي أن لا يملك علينا كل أفكارنا وطرق أحكامنا . ونحن لا نستطيع أن نبرئ هذه المدرسة من بعض التحيز في بعض أحكامها . من ذلك : موقفها من شوقي ، ذلك الموقف الذي خرج عن حياد الناقد ، وعدالة الحاكم . ويبدو لي أن هذا الحكم لا يزال يسيطر على عقل صاحبنا الناقد ، فإذا مرّ اسم شوقي ، أوطبقته ، أو شعره تداركته اللعنات ، وحاقت به من كل مكان . على أن شوقي يظل شاعراً قد ورث عن الشعر العربي أحسن حسناته ، وفيه سيئاته . ومثل شوقي لن تظهر قيمته «مدرسة عقادية» لأنها أظهرت فيه تحيزها يوم كانت تريد أن تجعل من المازني الشاعر الأكبر ، ومن عبد الرحمن شكري الشاعر المصور . وها قد طلق المازني الشعر ، لأنه لم ير نفسه أهلا له ، وها شعر شكري لا يردده أحد . ولم يبق من تلك الفئة إلا العقاد . والعقاد رجل ذهنية جبارة ، وعقل خصيب عجيب ، لا يسمح له أن يطير إلا بقدر . فهو كالنسر العتيق إذا طار حلق ، ولكن ما أثقل جناحيه !

وتبقى للطريقة العقادية في النقد ميزتها الخاصة في التهكم والسخرية ومناقشة الآراء الغربية الحديثة التي تتردد في النقد والأدب والفن . ولكن تبقى لنظرات سيد قطب أصالتها الفنية ، ونسبها الصحيح ، وإحساسها الصادق لأنها نبعة فياضة من صميم نبعتنا الأدبية العربية . ولهذا الإحساس قوته وقيمته لأنه وليد الشعور بنقصنا الأدبي .

فله الجزاء الأوفى من الشعر والأدب ورجالها في هذا الجيل .

خليل هنداوي

قصة الإلياذة

نقلتها إلى العربية السيدة عنبرة سلام الخالدي بالقدس

٢٦٢ صفحة من القطع المتوسط . دار المعارف . القاهرة ١٩٤٦

نقد السيدة وداد سكاكيني

قلت لنفسي وأنا أقرأ إلياذة هوميروس مترجمة إلى العربية بقلم الأديبة السيدة عنبرة سلام الخالدي : ترى كم ذا كنا نفيد لو أن الإلياذة نقلت إلى لغة العرب حينما هبت ريح النهضة الأدبية والعلمية في عصر المأمون ؟

لقد تصرم أحد عشر قرناً على تاريخنا الأدبي ، منـذ ذلك العصر وهو محروم هذه المنحة الفنية الغالية التي جاد بها أدب الإغريق ، ولا ريب أن ذلك لو قدر لمضى أدبنا قدماً ، ولما تأخر في ركب الآداب العالمية ، وهـذا سر الروعة في أدب الغرب ، فإن فن هوميروس تغلغل في عبقرية هذا الأدب منذ نشأته إلى اليوم ، أفلا نجد روح يونان بادية في فينوس عند هوجو وآبولون لدى أندره شينيه وأفروديت أسـترته عند بيير لوئيس ؟ ولا يزال سحر يونان العريق يفيض في أدب الغرب المعاصر .

وما أذهب مذهب من زعم أن العقيدة الإسلامية كانت تحول دون نقل الإلياذة في تلك العصور ، لما فيها من ذكر الأوثان والآلهة ، فإني أجد أثر الأوثان وذكر الآلهة فيما نقله الناقلون على عهد المأمون من فلسفة حملت عليها فتنة خلق القرآن ، فما خلت فلسفة اليونان وهي في أصفى آفاقها وأوسع مراحلها من هـذه البدع في العقائد ، وإن في جمهورية أفلاطون وأخلاق آنا كساجور مياسم ميثولوجية خلع عليها الأولمب العتيق روح الفن والجمال ، وأرى أن العرب ألهتهـم فلسفة يونان عن أدب يونان لولوعهم بالجدل .

وكيف دار الأمر فإن أدباء العصر وصلوا ما فات ، ورأبوا ما انصدع ، فقد هب في مستهل هذا القرن سليمان البستاني اللبناني من أعلام النهضة العربيـة ونقل الإلياذة بقضها وقضيضها إلى الشعر العربي ، غير تارك منها جملة أو عبارة ، ثم ترادف جيلان ، فقفى على آثار البستاني أديب شغوف بأدب يونان ، هو الأستاذ دريني خشبة ، فقص أخبار طروادة في أسلوب من النثر البديع ، فكان السابق إلى إخراج الإلياذة في حلة النثر بعد أن طلعت في حلة الشعر ، لـكنه لم يتبع النقل الحرفي ، ولا ترجم النص التاريخي بل ذهب مذهباً جديداً في الأدب الإغريقي القديم ، بأن سكب روائعه في قوالب القصص ، حيث يحفظ الأصل في حوادثه ومعانيه ، ويخلع عليه أسلوب الرواية الفنية التي هي ملكه وحده لا ملك هوميروس .

وقد بقينا نتشوف إلى ترجمة للإلياذة في النثر العربي تكون تلواً للترجمة الشعرية حتى طلعت علينا الأديبـة السيدة عنبرة سلام الخالدي بنقلة طريفة لقصة الإلياذة عن الإنجليزية لألفريد تشرش أستاذ اللاتينية في جامعة لندن ، فكان شأنها في الصدور عن هذه اللغة شأن الأستاذ دريني ، ولا ريب أن النقل من لغة الأصل يجيء أوفى للمعاني وأحكم للبناء ، كما فعل البستاني . لاسيما وقد ذكرت الأديبة المترجمة في تمهيدها أن ترجمتها مختصرة بعض الاختصار .

ويظهر للمتتبع المقارن أن ترجمتها هذه جاءت على الرغم من اختصارها أقرب إلى الأصل في الحفاظ على الحوادث وقرابة التعبير ، وقد أبرزت الإلياذة في ستة وعشرين فصلا ، وأحسب أن المصدر الذي ترجمت عنه رغب عن تسمية هذه الفصول بالأناشيد كما كانت في الأصل ، لتبدو الإلياذة فصولا في نثرها ، كما بدت أناشيد في شعرها .

لقد قدمت الأديبة إلياذتها بتمهيد بينت فيه خلاصة الحرب الطروادية والأسباب التي دعت إليها ، ثم ذكرت موضع هوميروس من الشعر اليوناني ، وعالجت بلمحات دقيقة مقولة خلق الإلياذة وأسطورة وضعها ، غير مستفيضة في آراء العلماء الذين أفاضوا في التحقيق عن نسب الإلياذة ووجود هوميروس وكيف نظمها وكيف جمعت من بعده ؛ لكنها تبسطت في تاريخ طروادة وشعبها .

ولست بسبيل أن أقص الإلياذة ، فأضع بين أيدي القارئين والقارئات مجملا يحمل إليهم شذى من هذه الطاقة الأدبية الرفيعة ، فإن سهام آشيل وهكطور في رنين قوسيهما وريش نصالهما أفصح من قولي ، وذكاء عولس الممزوج بالشجاعة وبراعة المخارج من المآزق أجل من أن يحتويها البيان . وأغا ممنون ، ذلك الداهية المحنك ، يحاكيه بريام في الدهاء ، فيعيا فيهما الوصف . أما الحديث عن بنات جنسنا في هذه القصة ، فإن مفاتنه تعجز الكلم ، فمن لهيلانة اللعوب وأندروماك السابية ؟ إن النثر والشعر يتراميان عليهما كفراش على زهر منذ أبدعهما خيال هوميروس .

لقد عرفت السيدة عنبرة رصينة القلم ناضرة البيان ، كذلك كان مجلى قلمها في نقل الإلياذة ، فقد عرته من زخرف الصنعة وأحكمت قصده ، فجاء أسلوبها في النقل سهلا في امتناعه ؛ تبرز منه معانيه في غير تحير أو تكلف .

ولئن رددت ذيول الكلام إلى صدره لأسألن نفسي : أو أفاد أدب العرب اليوم من نقل الإلياذة وكاد يأتي على نسختها الشعرية العربية زهاء نصف قرن ؟

ثم لأجيبن : إن نهضة العرب حديثة العهد ، وهم اليوم في الحفاوة بآثارهم الدفينة أجدر ، حتى إذا استقام لهم حاضرهم استطاع هذا الأدب أن يفيد من الآداب اليونانية القديمة وفنون الأمم الحديثة ، وسيجد الأدب العربي في قوابل أعوامه — وقد أتيح له اليوم نهوض من عثار — أطايب التمازج الثقافي ، حتى يأتي عليه عهد من النضارة والإثمار يكون من منتوجه نظم إلياذة عربية ، يسجل ناظمها مجد العرب من فواتحه إلى خواتمه ، في أنشودة حماسية لا تبلى . ولعل يوماً عزيزاً كذلك اليوم

المنشود يجلس فيه منشد الملحمة العربية في ملأ من علية العرب وسادة الفصحى ، فيرتدي رداء الحفاوة ، ويضع على رأسه إكليلا من الذهب ، كما كان يصنع « جماعة الرابصود » ، وهم شعراء اليونان القدامى ، إذ كانوا ينشدون ملحمة هوميروس في عصر أفلاطون .

وداد سكاكيني

هيرودوت في مصر

نقله من اليونانية الأستاذ وهيب كامل

١٥٦ صفحة من القطع المتوسط . دار المعارف . القاهرة ١٩٤٦

نقد الدكتور باهور لبيب

نقل الأستاذ وهيب كامل المدرس بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول الكتاب الثاني من كتب هيرودوت إلى اللغة العربية بعنوان : « هيرودوت في مصر » ، وقامت بنشره دار المعارف للطباعة والنشر . وقد صدره بمقدمة في حياة هيرودوت وفنه ، ثم تكلم عن إقامة هيرودوت في مصر .

وإننا لا يسعنا إلا شكر الأستاذ وهيب على ما قام به من مجهود في ترجمة هذا النص من اليونانية إلى العربية ، هذا النص اليوناني التاريخي الذي يعتبره علماء الآثار والتاريخ والاجتماع عمدة في تاريخ مصر ، إذ أنه أول نص مفصل متعدد النواحي وصلنا عن مصر القديمة ، فضلا عن النقوش المصرية القديمة التي لم يوفق العلماء إلى قراءتها والكشف عنها إلا منذ القرن الماضي .

ولقد جاء بعد هيرودوت من أرخ لمصر وكتب عنها ، ولا يقل جدارة بالعناية عن هيرودوت ، فيا حبذا لو عكف الأستاذ وهيب على ترجمة كتب هؤلاء المؤرخين أمثال : ديودور الصقلي ، وسترابو الجغرافي ، وهيكاتيوس الميليتي ، وهيكاتيوس الأبديري ، ومانيتون المصري ، وغيرهم .

وقد أصبح هذا الكتاب بعد ترجمته في متناول أيدي دارسي التاريخ ، كما تيسر لأساتذة هذا الفن أن يوحدوا عبارتهم عند الإشارة إلى نص هيرودوت .

وإننا مع اعتبارنا لأزمة الورق ، وما يتطلبه ذلك من اختصار في المقدمات

والشروح ، فلنا بعض اقتراحات نرجو أن تضاف في طبعة تالية إلى المقدمة والشروح إذا رأى المترجم ذلك تكملة للفائدة .

قال المؤلف في مقدمة الكتاب (ص ٢٠) : « وليس الكتاب الثاني مع كل ذلك وحدة قائمة برأسها ، بل هو جزء من تاريخه الطويل ، ليس له مقدمة ، ولا هو ينتهي تماماً عند نهاية الجزء الثاني ، ففي الكتاب الثالث فصول كانت جديرة بأن تلحق بالكتاب الثاني » . فلماذا لم يترجم المؤلف هذا الجزء من الكتاب الثالث إتماماً للفائدة ؟ ويا حبذا لو جمع المترجم ما تفرق في سائر كتب هيرودوت ، عن مصر ، وترجمها حتى تضاف إلى طبعة تالية .

كذلك قال المؤلف في المقدمة (ص ١٣) و (ص ١٩) إن معلومات هيرودوت الجغرافية ناقصة معيبة وضعيفة ، وكان يجدر بالمترجم أن يشير في المقدمة إلى أنه كان هناك — إلى جانب هذا النقص — معلومات جغرافية صحيحة جديرة بالتنوية . نذكر على سبيل المثال ما أورده عن حدود مصر الجغرافية شرقا وغربا (فقرة ٨ من الكتاب الثاني) وبحيرة موريس (فقرة ١٤٩) وأسماء بعض البلاد المصرية وموقعها مثل هليوبوليس وطيبة ومنف (فقرات ٣ ، ٩ ، ٥٩ ، ١١٩ ، ١٥٣) وفروع نهر النيل (فقرة ١٧ وفقرة ١٥٥) .

كما أن هناك معلومات أخرى صحيحة غير هذه ذكرها « Ball » في كتابه « Classical Geographirs » نذكر منها ما جاء في صفحة ١٤ عن الدلتا وصفحة ١٠ وصفحة ١٦ وما بعدها عن أقاليم مصر وواحاتها ، مما يجعلنا لا نسيء الظن بمعلومات هيرودوت الجغرافية إلى هذا الحد .

كذلك ذكر المؤلف في صفحة ١٨ من المقدمة بعض أخطاء هيرودوت التاريخية وكان عليه أن يشير أيضاً إلى صدق روايته في مواضع أخرى عند كلامه عن هذه الأخطاء وأن يشيد بفضل هيرودوت على كثير من الحقائق التي وصلتنا عن مصر ، أذكر منها على سبيل المثال : وصف اللابيرنت (فقرة ١٤٨) وطريقة بناء الأهرام (فقرة ١٣٤،١٢٤) واكتشاف علم المساحة في مصر وانتقاله منها إلى اليونان (فقرة ١٠٩) وأن المصري أول من عرف السنة الشمسية (فقرة ٤) وطريقة التحنيط (فقرة ٨٦—٨٨) وذكره الملك مينا (فقرة ٤ ، ٩٩) .

أما في الشروح عند تعليقاته في الهوامش فيشير المؤلف في صفحة ٢٣ أن أبسمانيك حكم سنة ٤٤٦ ق . م تقريباً ، بينما يذهب رأي فريق آخر من العلماء إلى أن حكمه

كان حوالي سنة ٦٦٤ ق . م تقريباً ، وكان يجمل به أن يشير إلى هذا الرأي .

وقد دأب المترجم في شروحه على الإشارة إلى المواضع التي وردت فيها بعض الكلمات في العهد القديم ، ولكنه أغفلها في موضعين : أولهما عند ذكر كلمة «أشدود» — أنظر هامش ٢ صفحة ١٢٨ — فقد وردت في صموئيل الأول (٥ : ١) ، وثانيهما مدينة فيثوم — هامش ٢ صفحة ١٢٩ — فقد وردت في الخروج (١ : ١١) .

كذلك أشار المؤلف في الهوامش إلى الكلمات المصرية القديمة التي وردت في الكتاب ، وكان من المستحسن أن يجمعها في ثبت واحد ويكتب ما يقابلها في اللغة المصرية القديمة استيفاء للبحث .

وكذلك نفى المؤلف أثر القوانين المصرية في صولون — هامش ١ صفحة ١٤٠ — نفياً قاطعاً ، وكان الأولى أن ينال هذا الموضوع الذي يتناول أثر الحضارة المصرية القديمة في الحضارة اليونانية قسطاً أوفر من العناية والبحث .

أما ترجمة الكتاب فإن المؤلف راعى فيه الحرفية محافظة على النص ، وهذا عمل مرهق يحتاج إلى جهد عظيم مع معرفة دقيقة باللغتين اليونانية والعربية . ويحق لدارسي التاريخ أن يتوجهوا بالشكر لحضرة المترجم ، فقد كفاهم مؤونة الترجمة عن الأصول الإفرنجية ، وأعطاهم نصا صحيحاً كاملا لهيرودوت ، يمكنهم الاعتماد عليه .

ونحن نأمل قريباً أن نرى بين أيدينا بقية نصوص المؤرخين الذين كتبوا عن مصر مترجمة عن اللغة الأصلية على هذا النحو من الترجمة الدقيقة ؛ ويا حبذا لو قارن المترجم حينئذ الفقرات المتشابهة في الكتب المختلفة .

باهور لبيب

التعريف

يسألونك

تأليف الأستاذ عباس محمود العقاد

٢٧٢ صفحة من القطع الكبير . لجنة البيان العربي . القاهرة ١٩٤٦

المقالة لون من ألوان الكتابة في الآداب الشرقية والغربية ، القديمة والحديثة . فما من شك في أن كتاب العالم القديم سجلوا ألواناً من الكتابة ينطبق عليها إلى حد ما

تعريف المقالة اليوم ؛ ولكنهم لم يسموا تلك الآثار مقالات . فالأستاذ « هارولد ميريام» بجامعة مونتانا الأمريكية يرى أن محاورات أفلاطون ، ورسائل بليني الصغير وبلوتارك ، وتأملات ماركس أوريليوس ، ومحاجات شيشرون يمكن أن تدخل في باب المقالة بمعناها الحديث .

على أن المقالة بدأت في الآداب الأوربية تأخذ كيانها الواضح في الربع الأخير من القرن السادس عشر على يدي ميشيل دي مونتاني في فرنسة ، وفرنسيس باكون في إنجلترة ، وكانا متعاصرين، إلا أن الأول غلب على مقالاته الجانب الشخصي الخفيف ، على حين اهتم باكون بالجانب التقريري ، وأضفى على مقالاته من العمق وتركيز الفكرة ما رفع قيمتها بين الأدباء .

أما المقالات الدورية فقد بدأها « ديفو » في أول القرن الثامن عشر : وزاد « ريتشارد ستيل » في تطورها حتى أصبحت تطالع القراء على فترات متقاربة في صحيفتي « التاتلر » و « الاسبكتاتور » وأخذت المقالات منذ ذلك الحين تختلف على موضوعات الأدب والاجتماع والتراجم والتاريخ والنقد حتى الدراسات الاقتصادية التي تناولها «والتر بادج هوت » الإنجليزي .

فإلى أي أصل ترد المقالة في الأدب العربي ؟ إن العقاد يردها إلى « الفصل » من الكتاب . ولكن لاريب أن المقالة العربية الحديثة قد تأثرت كثيراً خطى المقالة الأوربية وراقبت اليوم تطورها منذ القرن السادس عشر .

وللأستاذ العقاد مكانته في أدب المقالة العربية منذ الساعة التي بدأ فيها « فصوله » و « مطالعاته » و « مراجعاته » و « ساعاته » التي قضاها بين الكتب ؛ إلى أجوبته في كتابه الجديد : «يسألونك» . وإذا كان العقاد مسؤولا فلا تنتظر أن تكون الأسئلة إليه في باب الأدب وحده ، أو في مسائل الاجتماع وحدها ، أو في مشكلات الفلسفة لاغير . ولكن الأسئلة ترد عليه من كل لون ، فيجيب عنها إجابة المتثبت ويعالجها معالجة التمكن ، ويظهر من خلال ذلك اطلاع وسيع هو ثمرة القراءة الموصولة الفاهمة والدراسة العميقة ، أو الفطرة السليمة المستقيمة في فهم الأشياء وإصدار الأحكام . ولئن كانت مقالات العقاد مركزة دسمة مليئة بالجد إنها صفات ميزت من قبل فرنسيس باكون . وحاجتنا إلى هذا اللون من المقالات أشد من حاجتنا إلى اللون الخفيف أو المستخف .

الغـــــــدير

في الـكتاب والسنة والأدب

تأليف الأستاذ عبد الحسين أحمد النجفي

في سبعة أجزاء كبار ، صدر منها الأول والثاني في أكثر من سبعمائة صفحة من القطع الـكبير
مطبعة الغري بالنجف العراق ١٩٤٦

غدير « خمّ » بضم الخاء كما جاء في معجم الفيروزبادي موضع على ثلاثة أميال بالجحفة بين الحرمين. وقد ورد ذكره في « تاريخ بغداد » للخطيب البغدادي (ج ٨ ص ٢٩٠) بفتح الخاء ولعله تطبيع من مصححه .

وقد ورد ذكر الغدير في أقدم شعر عربي لحسان بن ثابت حيث يقول :

يناديهم يوم الغدير نبيهم   بخم وأسمع بالرسول مناديا

ومما يروى من الشعر للإمام علي بن أبي طالب قوله :

وأوصاني النبي على اختيار   ببيعته غداة غدير خم

وقد ورد هذا البيت في هامش معجم الأدباء (ج ١٤ ص ٤٨)

وأوصاني النبي على اختيار   ببيعته غداة غــــد برحم

وهو تصحيف صوابه ما ذكرناه سابقاً .

وقد ورد حديث الغدير في طائفة من كتب الحديث والتاريخ والتفسير والأدب . وإن كان يروى بصيغ مختلفة . وفي الحديث ذكر لعلي بن أبي طالب ، فقد قالوا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من حديث الغدير : « من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه »

وقد اهتم رجال الشيعة بهذا الحديث وأفردوا له كتباً كثيرة بلغت ستة وعشرين كتاباً ، كما أثبته مؤلف الكتاب الذي نحن بسبيل تعريفه اليوم .

ولعل كتاب « الغدير » هو أوفى المراجع العربية وأوسعها إحاطة بما دار حول حديث الغدير وما اتصل به من تأييد وإنكار ، وهو من هذه الناحية يعد عملا أدبيا جليل الشأن ، فلم يترك المؤلف الفاضل مسألة تتصل بحديث الغدير إلا عرضها وناقشها ، ولـكنه يقسو في كثير من المواطن على من يخالفه في الرأي ، كما صنع مع المؤرخ ابن كثير واتهمه بتحريف الحديث ، وكما صنع مع ابن حزم الفيلسوف ، وكما صنع مع الرازي المفسر حينما شرح لفظة « المولى » بما لا يتفق مع رأي المؤلف وجماعته .

وليس بعجيب أن يتسع كتاب «الغدير» حتى يبلغ سبعة أجزاء ضخام ؛ فإن المؤلف قصد به إلى أن يكون موسوعة عربية محورها حديث الغدير . ففيه رواة الحديث من عهد الصحابة إلى القرن الرابع عشر ، وفيه تراجم لكثير من الرجال والأعلام . وفيه ذكر الشعراء الذين أشاروا إلى الغدير في أشعارهم مع تراجمهم المفصلة ، وفيه استطرادات كثيرة تدل على غزارة العلم وكثرة التنقير في الأسفار .

مختصر تاريخ الحضارة الغربية

في الأزمنة الحديثة

تأليف الأستاذين جورج حداد وبسام كرد علي

٢٠٧ صفحات من القطع المتوسط . مطبعة دمشق ١٩٤٦

يذكرنا هذا الكتاب المفيد بكتاب « تاريخ التمدن الحديث » الذي ألفه الأستاذ شارل سنيوبوس «Ch. Seignobos» المدرس بكلية الآداب في باريس ، والذي ترجمه إلى العربية كاتب فاضل محجوب .

وقد استحدثت في ثلث القرن الماضي أمور ، وكشفت خواف أضافت إلى تاريخ الحضارة فتحاً جديداً . وسار العالم اليوم منذ مطلع القرن العشرين بخطى فساح تعوض فترة الوقوف في العصور المظلمة ، وهي عصور لم تكن الحضارة في خلالها عالمية واسعة ، ولكنها كانت محلية لانقطاع الصلات بين أجزاء العالم المعروف في تلك الأزمان .

ومزية هـذا الكتاب الجديد أنه يصل من كتاب سنيوبوس ما قطعه الزمان في أواخر القرن التاسع عشر ؛ فهو يأخذ القارئ إلى العصر الذي نعيش فيه ، ويتحدث إليه عن تيارات ومذاهب ومدارس في العلم والآداب والفنون ، وفي ميادين الاجتماع والاقتصاد والسياسة . وهي اتجاهات لابد للمثقف أن يقف عليها وأن يحيط بها خبراً ، وأن يعرف عواملها والرجال الذين قاموا بها والبلاد التي احتضنتها .

وتاريخ الحضارة شيء طويل ، لأنه تاريخ الإنسانية في عصورها أو في بعض عصورها . وهو تاريخ يتسع فيه مجال القول ، وتقصر دونه الإحاطة ، وتضيق به أضخم المجلدات . ولكن المؤلفين استطاعا في كتاب صغير أن يجمعا تاريخ الحضارة الأوربية منذ اخترعت المطبعة حتى وقتنا هذا .

وقد تناول المؤلفان الحضارة الغربية قرناً فقرناً منذ عصر النهضة ، ولم يفتهما أن يشيرا في إيجاز إلى أثر الحضارة العربية في حضارة الغرب . وهو أثر كان جديراً بإطالة الوقوف عنده ما دام المقام مقام حضارتين ، إحداهما مؤثرة ، والأخرى متأثرة .

وقد عولجت الحركات الأدبية والفنية في نهضة الغرب معالجة دقيقة على إيجازها . فيحس القارئ وهو ينتقل من سطر إلى سطر أثر التدرج والانتقال في المذاهب ، ويرى كل مدرسة ملونة بألوانها الخاصة التي تفصلها في تحديد ووضوح عما عداها من المدارس والمذاهب .

والحق أن في هذا الكتاب جهداً بيناً ، وفيه نفع كبير لمن يهمهم التاريخ للحضارة ، في الوجيز من الإشارة .

العلويون من هم ؟ وأين هم ؟

تأليف الأستاذ منير الشريف

١٧٨ صفحة من القطع المتوسط المكتبة الكبرى . دمشق ١٩٤٦

العلويون أو النصيريون هم قوم عرب الدم والخصال واللسان على الرغم مما قاله فيهم القائلون من ذوي الأغراض والغايات . وقديماً وقف الشعوبيون للعرب بالمرصاد يحاولون إيجاد الفرقة فيهم ، وبث الخلافات بينهم ترويجاً لغايتهم من تفريق الكلمة وتوهين الصلة . ولقد ذهب المغرضون من غير الشعوبيين مذهبهم فجردوا العلويين من عروبتهم وقالوا إنهم أخلاط من بقايا الفينيقيين والرومانيين والحيثيين واليونان والصليبيين. بل لقد غالوا في الرأي فجردوهم من إسلامهم .

وقد هالت هذه التهم منصفاً عربيا عاش بين القوم سنوات ، ودرس عاداتهم ، وصادق كثيراً من رجالهم بعد خبرة ، وفتشهم عن تجربة . فرأى من الإنصاف لجنسه ودينه أن يخرج في القوم كتاباً يؤرخ تاريخهم ، ويعرض مذهبهم الإسلامي الشيعي ، ويصف أرضهم ، ويعدد عشائرهم ويذكر عاداتهم ويشرح أعيادهم وأفراحهم وأسمارهم ، ويسجل فضائلهم ومزايا النفس العربية فيهم .

والأستاذ منير الشريف ليس علويًّا حتى يتهم في حكمه أو يتظنى في رأيه ؛ وهو من الناحية الأخرى ليس محابياً لهم حتى يصح فيه قول القائل : « ولكن من أحب الشيء حابى » . ولكنه يؤرخ في صراحة وينقد في صدق . فهو حين يشيد بفضائلهم ،

ويثني على وطنيتهم ويقظتهم ، ويمتدح أخلاقهم التي هي أنفس تراثهم العربي ، ويعجب بسماحة نفوسهم ، وهدوء فطرهم ، وبعدهم من نوازع الشر ونوازع الفوضى حين يفعل ذلك لا يفوته أن ينتقد مثلا القرية العلوية لضيق طرقاتها وتكدس الأقذار فيها وحرمانها وسائل الصحة ، كما ينتقد الإقليم كله لحاجته إلى العمران الذي هو أهم مطالب العصر الحديث . ولعله بذلك ينتقد الزمان الذي حكم على هذا الإقليم بالحرمان . . . !

صَدَى النقد

علم النفس الفردي

رد على نقد

للأستاذ إسحق رمزي

وصلني عدد « الكتاب » الذي حاول حضرة الدكتور أحمد فؤاد الأهواني أن يتعرض فيه بالنقد لكتابي عن « علم النفس الفردي » . والحق أني رغم شكري للناقد على أنه من قبل ومن بعد قد تفضل فلم ينكر على المؤلف « اجتهاده في البحث وتوفيقه في كثير من أبوابه . مع طرافة العرض وعظيم الإحاطة » ، ورغم أن بحوث علم النفس — إن أردنا منها النفع حقا — تستلزم المناقشة الدقيقة الرصينة التي قد تطول وقد لاتسعها صفحات « الكتاب » ، ورغم أن الزمن قد خلف بين أصحاب علم النفس وبين هـذا الضرب من الجدل العقيم الذي لاجدوى منه ولا إنتاج فيه — رغم هذا كله يبدو لي أن من واجبنا نحو القراء أن نصحح الأثر الذي قد يتركه مثل هذا النقد ؛ وخاصـة لأن علم النفس في البلاد العربية لا يزال في مطالعه ، ولا يزال في حاجة إلى تجنيد حشد من الجهود الخالصة التي يلزم أن تقبل على البحث فيه مكشوفة الأبصار ، وأن تعرف السبيل إليه حق المعرفة ، حتى تستطيع أن تنتج فيه وأن تطبق منه ما يعوز الناس في كثير من وجوه الحياة .

***

يبدأ القسم الأول من نقد الدكتور الأهواني بأن يتخذ من شكرنا للأستاذ القباني بك وللدكتور مراد — وبعد أن بدل ألفاظ هـذا الشكر تبديلا نتركه دون تعليق — بأن يقول « فنحن إذن بإزاء مجهود جمعي لا فردي » . وليس من العسير

أن يدرك القارىء مرمى هذا الغمز . وليس من العسير أيضاً أن يدرك الغاية التي يهدف إليها إن حاول المؤلف أن يرد على هذا الغمز . ولو أن الناقد كان غريباً عن ميدان التأليف أو الدراسة الجامعية ، أو لو أنه لم يكن بطبيعة عمله أو ثقافته ممن يقرؤون قليلا أو كثيراً من الكتب العربية والأجنبية ، لاستطعنا أن نلتمس له بعض العذر .

يقرب من هذه الناحية بالذات أن الناقد قد تعمد أيضاً ، كما يبدو ، أن يغفل جانباً كبيراً من الشكر قدمناه إلى أستاذنا لالاند ، وليس يمكن تفسير ذلك إلا بأن الدكتور الأهواني قد أدرك أن ذكر هذا الأستاذ سوف يؤدي إلى هدم قضاياه الخاصة بالتبعية لبعض المدارس إذا كان المرء قد درس على بعض ممثليها : إذ أنه لو كان قد ذكره لارتدت إليه حجته ، ذلك لأنا قد درسنا والناقد على لالاند ، فإن كنا قد تأثرنا به فلا بد أن يكون هو أيضاً قد تأثر به . هذا إلى أنه كان من الأيسر عليه أن يرد تأثرنا بالمدرسة الفرنسية ، كما أراد أن يزعم ، إلى هذه الصلة المباشرة بدلا من الواسطة . أو لعله من الأيسر أن نقول ـــ ونحن في هذا نتبع بعض نظريات العلم التي قد يعرفها الناقد ـــ إن لالاند يمثل حتى في نفس الدكتور الأهواني مثلا من مثل المعرفة الحقة ، وإنه لا يزال على بعد الزمن يرمز إلى ما ينبغي أن يكون عليه البحث العلمي ، وإلى ما ينبغي أن يكون عليه المنطق ، وما ينبغي أن نتبعه في « فلسفة العلوم » ، وإن إغفال الدكتور الأهواني الإشارة إليه ، وقد ـــ وردت في غير مكان واحد من الكتاب ـــ ليس إلا من قبيل إنكار التعاليم التي يشير بها « الأنا الأعلى » ومن يمثلونه أو خشية الناقد من ملامته على أن يكون بعض إنتاجه مثل هذا النقد .

بقي أمر آخر من هذه الناحية الشكلية : هو أن الدكتور الأهواني بعد أن أشار في عبارته التي جانبها التوفيق إلى تأثرنا بالأستاذ القباني بك وبالدكتور مراد معاً ، قد انصرفت حملته كلها إلى نتائج صلتنا بالدكتور مراد . ومن اليسير هنا أن يدرك المرء سر ذلك ، إذ لا يخفى أن انصراف الحملة إلى أحد الطرفين يسقط حجة الناقد في الحالين ، لأنه لو كان قد قسمها بين الطرفين لأدى به ذلك إلى التناقض الصريح ، ذلك لأن الأستاذ القباني قد درس على الأسلوب الإنجليزي لا الفرنسي ، وقد أقبل على علم النفس من الناحية الرياضية العلمية ، وكانت الناحية التي انصرف انتاجه إليها أول الأمر هي قياس الذكاء ، وهي من أقرب نواحي السيكلوجية المعاصرة إلى العلم الصحيح ، ومن أشدها دقة واستخداماً لمناهج البحث العلمي ؛ ونحن إن كنا قد تأثرنا بالدكتور مراد في مرحلة الفراغ من إعداد هذا الكتاب فقد كان أثر الأستاذ القباني يعود إلى ما يقرب من عشرة أعوام .

وإني لأود أن أشير في هذا المقام ، ما دام حضرة الناقد قد رأى أن يتحدث عن هذه الناحية — رغم أن إنتاجي لم يصل بعد إلى حد يستحق أن أؤرخ له أو يؤرخ له أحد غيري — إلى أن التيارات الثقافية التي ترددت عندي أصداؤها قبل انصرافي إلى التخصص في علوم النفس ، تتراوح بين دراسة علوم الفلسفة حتى دراسة علوم الطبيعة والأحياء ، وإلى أني درست بعض هذا في أيام الشباب على أساتذة درس عليهم الدكتور الأهواني والدكتور مراد . فليس من حجة إذن للتفرقة بين آثار طائفة واحدة من الأساتذة في جيل واحد من المتعلمين ، إلا أن تكون العلة في منازع المتعلمين أنفسهم وتباين استعداداتهم . وإني لأستطيع أن أؤكد أني طوال اشتغالي بعلم النفس قد حاولت جهدي البعد عن التأثر فيه بتيار خاص ، وقد التزمت أن يكون منهجي فيه هو منهج الانتقاء الذي يدعو إلى التماس جانب الصواب في أي مذهب ، ومحاولة اختيار الصحيح من أية ناحية أمكن العثور عليه فيها .

* * *

وهنا أنتقل إلى عبارة أراد بها الدكتور الأهواني ملامة ونقداً ، فقد قال : « بهذا الروح الذي يمسك العصا من وسطها ، فلا يؤكد أن علم النفس أصبح علماً ، ولا يفصله كل الفصل عن الفلسفة ، أقبل المؤلف على بحث النفس الإنسانية » . ولو أنا أردنا أن ننكر من الدكتور الأهواني شيئاً لما استطعنا أن ننكر منه أكثر من تناسيه لأبسط قواعد البحث العلمي في توجيه النقد إلينا بهذه العبارة . يستطيع أن يعود إلى مراجعه كي يذكر أن الإقبال على بحث أية مشكلة ينبغي أن يبدأ بالحيرة التامة ، ويستلزم أن يبعد الباحث عن التحزب ، وأن يخلص من كافة الأفكار القبلية حتى لا يصل إلا إلى ما يؤدي إليه البحث وحسب .

فإذا كان الكتاب الذي نحن بصدده قد قامت فكرته على محاولة البحث عن اللبانة الشائعة التي تقرر أن « كافة » ما يقول به علم النفس حقائق علمية خالصة لا تتصل بالتفكير الفلسفي أو النظر الجدلي بأية صلة ، وإذا كان هذا الكتاب يبغي التفرقة بين الآراء التي تقوم على التفكير النظري وحده ، وبين الآراء التي تقوم على الملاحظة والتجريب ، وأن يكون دراسة نقدية لمذهب أدلر — أفليس مما يحمد له أنه يبدأ بالتزام الحياد ؟ ! لكن الدكتور الأهواني أراد رغم وضوح هذه الفكرة في الكتاب أن يدخل في روع القارئ فكرة تناقضها يلصقها بنا ، ولا يرى عبارة تؤدي إليها إلا بأن يبتر فقرة تؤيدها [ص ١٣٩ السطر ١٤] ، رغم أن تكملة هذه الفقرة

نفسها تقول : « بأنه ينبغي أن نتريث كثيراً قبل أن نعلن بأن علم النفس بأجمعه قد انفصمت عراه عن الفلسفة ، لأن هذا الزعم إذا كان يشبع زهو من يقبلون عليه من غير أبوابه فهو زعم خاطىء باعث على الخطأ ، إذ أن علم النفس في جملته ما زال يعمل في حقلين ويصطنع طريقتين : فمنه جانب وفق الناس إلى اصطناع البحث والتجريب فيه ، وجانب آخر ما زال أحصف أصحاب علم النفس يلجؤون فيه إلى الجدل والنظر المجرد» (ص٩ من الكتاب المنقود) . لكن لعل حضرة الناقد لم يقرأ الكتاب بأكمله . أو إن كان قد قرأه فإنه كان قد تعمد من قبل أن يلتمس فيه مايعيبه ، وهو في هذا لا يرعى واجب الناقد في أداء فكرة سليمة عن الكتاب المنقود . ونقتصر في هذه النقطة على أن نرده إلى الفصل الثاني من الباب الخامس حين بدأنا ننظر في سيكلوجية أدلر على ضوء المنهج العلمي وقلنا : « وإذا كان من مميزات العقلية العلمية أن تتحرر في نظرها إلى الأمور من الاعتماد على الثقات ، وأن لا تقوم إلا على الفحص الحر ، والاستقلال في النظر ، لا يهديها في ذلك سوي الحجة العقلية الواضحة التي تؤدي إليها الملاحظة والتجربة» [ص٢١١] ، ثم : « وإذا كان للعقلية العلمية إلى جانب ما تتميز به من قوة ودقة وعمق ولطف صفات خلقية لازمة أهمها حب الحق والإخلاص العلمي ... إذا كان ذلك بعض ما يميز العلم والنظر العلمي ، فلنر سيكلوجية أدلر ومقدار ما فيها من هذه الصفات » [ص ٢١٢] . ليس أحد يستطيع بعد هذا — ونحن ننقد علم النفس الفردي على ضوء المنهج العلمي وإيماننا بهذا المنهج واضح صريح — أن يقلب الأوضاع وأن يقيم نقده على أنا ندعو إلى إبقاء البحوث السيكلوجية في نطاق النظر الجدلي ، إلا أن يكون قد تعمد التشويه تعمداً ، أو لم يحسن قراءة الكتاب .

***

رضي الدكتور الأهواني لقلمه أن يزجي للقراء تلك المغالطة ، وتابعها بقوله : « إن هذا الاتجاه الفلسفي هو الذي جعل المؤلف يعرج على مسائل تعد في صميم الفلسفة ولم تكن به حاجة إلى الكلام عنها ، إذ تعرض لآراء سقراط وأفلاطون وأفلوطين ، فضرب في مجاهل ترجع بنا ألفي عام إلى الوراء » . أينكر حضرة الناقد — وهو كما نرجو يدعو طلابه إلى سرد تاريخ أية مشكلة يكتبون عنها قبل البدء بعرض الآراء الجديدة فيها — أينكر أن هذه هي طريقة البحث الجامعي وغير الجامعي ، وأن استعراض نتائج البحث في أية مسألة بحثاً علميا يستلزم البدء باستعراض الآراء التي سبقتها في العصور المختلفة ، وأن هذا هو السبيل الذي يتبعه أي باحث لعرض ما وصل

إليه في أية ناحية من نواحي المعرفة الإنسانية من تركيب الماء حتى بحوث الذرة ؟ أيستطيع حضرة الناقد أن يقول عندئذ إن لذلك الكيماوي ولعاً بالفلسفة أو إن لهذا العالم بالطبيعة نزعة للتفكير المجرد .

بل دعنا من هذه الأمثلة ولنر ما يفعله أصحاب علم النفس أنفسهم عند عرض بحوثهم . أيستطيع الدكتور الأهواني أن يقول عن سبيرمان ، صاحب البحوث الرياضية في الذكاء ، إنه من أشياع علم النفس الفلسفي لأنه يقدم لكل بحث بتاريخه أو لأنه كتب مؤلفاً ضخماً[١] من مجلدين في تاريخ مسائل علم النفس كان يتناول فيه تاريخ كل مسألة منها لا إلى ألفي عام إلى الوراء بل إلى أكثر من ألفي عام ؟ أيستطيع أن يقول عن روباك[٢] إنه ينكر علم النفس لأنه عند بحثه في سيكلوجية الخلق والشخصية قد شغل الشطر الأكبر من كتابه بالبحث فيما يتصل بهذه الناحية خلال العصور المختلفة قبل أن ينتهي إلى عرض نظريته هو ؟ بل لعله رأى كتاب فرويد عن الأحلام ورأى الفصل الأول منه وما أتى به عن الفلاسفة . أو تصفح كتاب بيرت عن عوامل العقل[٣] ، وهو كما قد تعرف من أساطين الطريقة الرياضية الإحصائية في علم النفس ، فوجد أنه يشغل مائتين وخمسين صفحة من صفحات الكتاب الخمسمائة بالبحث في نظرية العوامل من الناحية « المنطقية والميتافيزيقية » ، ولو أنه كان معنا يستمع إلى بيرت هذا يحاضر في الطاقة العقلية منذ أيام ورآه يصرف ثلثي المحاضرة في التعرض لآراء أرسطو وتوما الإكويني وديكارت وليبنتز ومالبرانش وغيرهم قبل أن يعرض آراء المحدثين ورأيه هو لكان الواجب عليه إذن — وفق ما يقول به — أن يطلب إلى جامعة لندن فصل أكبر أساتذة علم النفس بها لأنه ينكر علم النفس ويضيع وقت طلابه بالتحدث إليهم في الفلسفة وبالنشر عنها في كتبه ! . بل لعله لم يصل إلى حضرة الناقد بعد أن أصحاب علم النفس يشتغلون في منطق علم النفس ويبحثون في شروط التعريف فيه ، حتى لقد بدعوا في مناهج البحث العلمي جانباً جديداً اشتقوه من اشتغالهم بالمسائل السيكلوجية[٤] . ودعنا من هذا جميعه ، ماذا يمكن أن يقول الدكتور الأهواني في آخر مفصل ظهر عن سيكلوجية الطفل[٥] الذي نشره العلامة كارميكايل « مدير معمل سيكلوجية الحواس

(١) Spearman : Psychology Down The Ages, Macmillan, London, 1937

(٢) Roback : The Psychology of Characters, Regan Paul, London 1928

(٣) Burt : The Factors of the Mind, University of London Press 1940

(٤) Pratt : The Logic of Modern Psychology, Macmillan, New York 1939

(٥) Carmichael : Manual of Child Psychology, Wiley, New York 1946

والفسيولوجيا » في إحدى جامعات أمريكا ؟ وما قوله في كثرة ما ورد في بحوث العلماء الذين أسهموا في تأليف هذا المجلد الضخم عن أفلاطون وأرسطو وغيرهما من الفلاسفة .

أ كان يمكن إذن أن نبدأ بعرض آراء المدرسة التحليلية عن اللاشعور ، دون أن نستعرض ما يتصل بهذه المسألة في تاريخ الفكر الإنساني .

* * *

ثم يقول حضرة الناقد : « وليست بنا حاجة إلى إثبات أن علم النفس أصبح علما وقد أثبت رأيي هذا في كتابي "خلاصة علم النفس" » . وهنا نختلف معه ونعتب عليه : نختلف معه إذ نزعم أن هذه العبارة لا تصدق على كافة ما تعرضه كتب علم النفس عن الظواهر السيكلوجية ، كما نزعم أن أحداً لا يقرر صحة كافة الآراء والنظريات التي تفسر هذه الظواهر إلا أولئك الذين يرضون بعلم النفس يفكرون فيه جلوساً على الأرائك ، أو يملؤون به الصحف أو يتحدثون به على منابر الخطابة . أما أولئك الذين يخلصون حقا في التماس حقائقه فإنما هم من يبلونه في المعامل ومن يلجؤون إلى الأجهزة يستخدمونها عند البحث فيه ، ومن يحاولون الاختبار بعد الاختبار للتحقق من صحة فرض متواضع ، أو التماساً لحل مشكلة يسيرة من مشكلات النفس الإنسانية الكثر — أولئك يعرفون حدود الصحة العلمية للآراء السيكلوجية ويحاولون أن يفرقوا بين ما في علم النفس من حقائق قد دعمها التجريب وبين ما لا يزال فيه من فروض وآراء تستدعي زيادة الملاحظة ومداومة التجريب . ولكن مما يحير ويؤسف له في آن واحد أن يقلب الناقد حقيقة مانؤمن به ونكرر الدعوة إليه من وجوب اصطناع المنهج العلمي في دراسة علم النفس حتى نبعد به عن الجدل والدراسات المجردة . وفي هذا قلنا : « فإذا زعم أحد لهذا بأن علم النفس قد نضج واكتمل ، كان هذا الزعم ، إلى جانب بعده عن الحقيقة ، مدعاة إلى القعود عن استكمال ما ينبغي لذلك العلم من أصول الدراسة العلمية ، ومبعثاً إلى إيمان الناس بآراء ومذاهب لا يقوم كثير منها إلا على النظر المجرد ولا يعتمد إلا على الجدل ، رغم كل ما قد يكون فيها من الجدة أو ما قد تتسم به من ابتكار وأصالة » [ص ٩] .

ونعتب على حضرة الناقد في أن يسمح لنفسه أن يردنا — أو أن يرد أحداً من حضرات القراء — إلى كتابه الذي يتذاكر فيه فتيان المدارس الثانوية بسائط هذه المادة ، كأنا قد أنسينا أصول الفصول الراجحة منها ، وكأن الزمن على بعده قد عفى على تلك الذكرى . . . كما نعتب عليه إذ يذكرنا بما يقول بيرون ، وكان أجدر به أن

يرجع إلى مجلة علم النفس حتى يرى أني ترجمت ما يقول به بيرون* قبل أن يذكرنا به الدكتور الأهواني .

* * *

إذا انتقلنا بعد هذا إلى ما عرضه الدكتور الأهواني عن سيكلوجية أدلر رأينا الأخطاء التي وقع فيها بارزة واضحة في كل فقرة من فقرات هذا النقد . يقول : « انفصل أدلر عن مدرسة فرويد ١٩١٢ وأخذ يبشر بعلم نفس جديد . . إلخ » ، ولو أنه كان قد بذل جانباً من الجهد لقراءة بعض كتب أدلر أو ما يتصل بمذهبه — دون إشارة إلى ما في كتابنا من تحقيق — لعرف أولا أن أدلر التحق بجماعة فرويد عام ١٩٠٩ ، وأنه انفصل عنه عام ١٩١١ لا عام ١٩١٢ ؛ وثانياً — وهذا هو الأهم — أنه بدأ بنشر نظريته عن القصور العضوي والتعويض النفسي عام ١٩٠٧ لا بعد ذلك [ص ٥٦ ، ٥٧] . وليست هذه الفروق الزمنية في ذاتها أمراً هامًّا ، بل لب الأخطاء التي وقع فيها حضرة الناقد أن أدلر — كما قلنا مستشهدين في ذلك ببعض ما كتبه عنه أتباعه — لم يتشيع لمذهب فرويد تشيعاً تاما في يوم من الأيام ، حتى يمكن أن يقال إنه قد انفصل عن فرويد قبل أن ينضم إليه [ص ٢١٣ ، ٢١٤] .

* * *

يقول الدكتور الأهواني بعد ذلك : « هذا فيما يختص بتفسير الأحوال العصبية التي عني بها أول كل شيء ، أما الأشخاص العاديون فإن سلوكهم في الحيـاة . . إلخ » . فكأنه بذلك يقيم مقابلة بين الأسوياء والشواذ ينكرها أدلر كل الإنكار ، بل يخفى عليه أبسط مبدأ من مبادئ المدرسة التحليلية التي تقرر أن لا فرق بين سلوك الاثنين إلا في الدرجة لا في النوع ؛ وفي هذا يقول أدلر إن فحصه للأمراض النفسية أثبت له أن الشذوذ والعقد والأخطاء التي يقع فيها المرضى ليست مختلفة في تكوينها عن نشاط العاديين من الناس « والفرق الوحيد هو أن تلك الأمور تكون في الشخص المريض أكثر ظهوراً وبياناً » [ص ١٣٧] . وبهذا أخطأ الدكتور الأهواني في هذا الرأي اليسير من آراء المدرسة التحليلية ، وشوه ما يقول به أدلر الذي نصب الناقد نفسه مدافعاً عنه في كافة ما يقول .

ويستطرد الدكتور الأهواني بعد ذلك قائلا : « فلم يكن أدلر كاتب أخلاق أو فيلسوفاً ، بل كان عالماً نفسانيا : » ثم يكرر « ويبدو أن الروح الفلسفي الجدلي

* المنهج الموضوعي في علم النفس ، مجلة علم النفس . المجلد الأول ص ٢٣٧

الذي أقبل به الأستاذ رمزي على تأليف هذا البحث هو الذي حداه إلى الوقوع في هذا اللبس المنافي لعلم النفس » . فإذا صرفنا النظر عن أن المادة التي عالجناها في الباب الذي أشار إليه حضرة الناقد كانت تستلزم تسميته بباب الأخلاق ، كان العجيب هنا أن يطلق الدكتور الأهواني الأحكام جزافا دون التحقق مما يؤيدها . هو يعيب علينا أن خصصنا بابا عن الأخلاق أو فصلا عن معايير القيم ، ويزعم بهذا أنا قد وقعنا في لبس ينافي علم النفس ، وهو بهذا إما أنه يغالط أو يجهل : إما أنه يغالط إذ ينفي الصلة بين علم النفس والأخلاق أو هو يجهل هـذه الصلة إطلاقا ، ولنمثل له هنا بكتابين اثنين ، لعله لم يقف عليهما بعد ، مع أن أحدهما قد نشر منذ سنوات وكلاهما مما لا يمكن أن ينسب إليه الدعوة إلى إنكار علم النفس ، أو أن تنكر عليه مكانته في هذا العلم . أحدهما كتاب الدكتور هارفيلد[1] « علم النفس والأخلاق » ومؤلفه طبيب إخصائي في أمراض النفس لا زال حيا يرزق ، يعالج المرضى ، ويحاضر في هـذه الناحية ؛ والثاني كتاب الأستاذ فلوجل[2] « الإنسان والأخلاق والمجتمع » ومكانته معروفة في علم النفس التجريبي كما أنه من أساطين المدرسة التحليلية . أيستطيع الدكتور الأهواني أن يعيب على هذين المؤلفين إطلاق تلك الأسماء على كتب بأكملها ، أو يزعم أنهما قد وقعا في لبس ينافي علم النفس ؟

بل ما رأي حضرة الناقد في كتاب « الغلطة الناجحة[3] » الذي ألفه الدكتور ألرز في دراسة التحليل النفسي ونقده ، وما رأيه في فصل بهذا الكتاب عن « الأغاليط المنطقية في التحليل » ، وما رأيه في الفصل الذي يتحدث فيه المؤلف عن « فلسفة التحليل النفسي » . أيمكن أن يقال إن ألرز وهو دكتور في الطب ودكتور في الفلسفة وكان محاضراً لطب النفس في ميونخ وفينا ، وله في هذا الميدان مؤلفات أخرى ممتازة ، أنه ينفي علم النفس ويدعو إلى إرجاعه إلى نطاق الفلسفة والجدل لأنه نشر مثل ذلك الكتاب دراسة نقدية لمذهب فرويد .

ويزيد عجبنا شدة تحمس الدكتور الأهواني لنفي أية شبهة من التفكير الفلسفي عند أدلر ، رغم إشارتنا في عدة مواضع إلى كثرة التفكير الجدلي في مذهبه ، ورغم دراستنا وتدليلنا على التيارات الفلسفية التي أثرت فيه والتي أتت نصوصها صريحة بين كتاباته . فإذا أنت لم تقبل دراستنا هذه ، ولم تقتنع بما جئنا من أدلة [ص ٢١٧ —

---

(١) Hadfield : Psychology and Morals, Methuen, London 1923-39

(٢) Flugel : Man, Morals and Society, Duckworth, London 1945

(٣) Allers : The Successful Error, Sheed and Ward, London 1941.

٢٢٣] ، فما الرأي في أن أدلر نفسه قد سلم بأنه يفلسف ويستخدم التفكير الجدلي ، ولا يرى بأساً من الاعتراف به كما سجلنا ذلك [ص ٢٢٢] . ولعله لم يصل إليك بعد آخر ماظهر عن أدلر ، وهو كتاب بقلم المؤلفة المعروفة فليس بوتومي ✡ . وقد كانت هي وزوجها ممن تعلموا على أدلر ولازموه زمناً طويلا ، وما الرأى في أن تقرأ في مطالع هذا الكتاب قولها : « لقد كان أدلر فيلسوفاً بين أطباء النفس وطبيباً للنفس بين الفلاسفة »

✡✡✡

ثم ينكر منا الدكتور الأهواني قولنا أن ليس في كتب أدلر وأتباعه ما نستطيع أن نخرج منه برأي « حاسم » عن اللاشعور ، وهو عماد المدرسة التحليلية كلها . ثم يردنا إلى فصل من الفصول التي اعتمدنا عليها بل اقتبسنا منها نصوصاً أتت في سياق الكلام عن هذا الموضوع . لكن التوفيق قد أخطأ حضرة الناقد هذه المرة أيضاً فلم تقع عينه من حديث أدلر إلا على عبارة يتحدث فيها عن الملكات النفسية ، وليعفنا الناقد من أن نناقشه في صميم علم النفس الذي يشيد بالدفاع عنه ، إن كانت معارفه عن هذا العلم ما زالت تتضمن الإيمان بنظرية الملكات .

ومن أشد ما يبعث على العجب أيضاً أن الدكتور الأهواني يقول : « ويبدو أن الخطأ الذي وقع فيه المؤلف هو اعتباره أن أدلر وأتباعه رأوا أن الشعور ضرب من النشاط العقلي » . أي خطأ في هذا ، مع أنهم هم الذين يقولون به لا نحن ؟ ثم حدثنا بربك : إذا لم يكن الشعور نشاطاً عقليا ، فأي نشاط يكون ؟ أهو نشاط مادي؟ أم لعله نشاط روحي غيبي ؟ !

ثم تابع الناقد سنته في بتر العبارات ، فأهمل الفقرة الآتية كلها ولم يلقف منها سوى النتيجة مع إهمال كافة المقدمات التي تؤدي إليها . قلنا بعد سبع صفحات في مقابلة كافة ما ورد عند أدلر وأصحابه عن اللاشعور : « نخرج من هذا إذن أن أدلر وأصحابه عند الحديث عن اللاشعور ، يلعبون باللفظ كثيراً في حجتهم ، فيتهمون غيرهم بأنهم يدخلون فيه عمليات لا تدخل فيه ، مع أن الأمر ليس كذلك ، فلم يقل أحد — ولا فرويد على الأخص — إن كل عملية لا نشعر بها شعوراً واضحاً ، تدخل في اللاشعور كالتذكر أو العادة أو معرفة اللغة . ذلك لأن تلك العمليات ، كما يفهم السيكولوجيون كافة ، عمليات شعورية ؛ وهي إن غابت عن تفطن المرء . فذلك أمر يتعلق بالانتباه نفسه ،

✡ Bottome : Alfred Adler, Faber and Faber, London 1946

أي بوجود العملية في الشعور : بؤرته أو هامشه . ويخيل إلينا أن أدلر وأصحابه يخلطون هم عندئذ بين الشعور وبين الانتباه » [ص ١٢١] .

* * *

كان نقد الدكتور الأهواني بصفة عامة متداعياً بعيداً عن صميم الموضوع . ولو أنه كان قد بذل من وقته وجهده بعض ما بذلنا ، ولو أنه كان قد حاول أن يتصفح كتب أدلر وأتباعه كتاباً كتاباً وأن يقابل بينها فصلا فصلا بدلا من اطمئنانه إلى كتاب واحد من الكتب الموطأة التي كتبها أدلر ، بل إنه لو كان قد توفر على إمعان النظر في ذلك الكتاب الوحيد الذي تكررت إشارته إليه ، لكان الأرجح أن يخرج نقده إيانا أكثر عدلا نحو نفسه ونحو قرائه ولاتفق معنا في أغلب ما قلنا به .

وبعد فللدكتور الأهواني منا واجب الشكر على ما بذل في نقد الكتاب والتعريف به ، هداه الله وإيانا سواء السبيل .

إسحق رمزي

كتب وردت إلى المجلة في شهر يناير سنة ١٩٤٧

تاريخ القرآن	:	تأليف الأستاذ محمد طاهر بن عبد القادر الكردي المكي بمكة
قصص القرآن	: «	الأساتذة محمد أحمد جاد المولى بك ومحمد أبي الفضل إبرهيم وعلي محمد البجاوي والسيد شحاتة
الرسول	: «	ر . ف . بودلي وترجمة الأستاذين محمد محمد فرج وعبد الحميد جودة السحار
المشكلة الأخلاقية والفلسفية	: «	تأليف أندريه كرسون وترجمة الدكتور عبد الحليم محمود والأستاذ أبي بكر زكري
قصة النزاع بين الدين والفلسفة	: «	الدكتور توفيق الطويل
التعب	: «	الأستاذ أبو مدين الشافعي
دفاع عن العلم	: «	ألبير باييه وترجمة الدكتور عثمان أمين
معجم أدباء الأطباء	: «	الأستاذ محمد الخليلي بالنجف
التطور الاجتماعي والاقتصادي في فلسطين العربية	: «	الأستاذ محمد يونس الحسيني بالقدس

عذارى	:	تأليف الأستاذ عزمي علي البغدادي بدمشق
شفاه غليظة	:	« الأستاذ محمود تيمور بك
الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي	:	« الدكتور زكي محمد حسن
نعمة يافث	:	« الأستاذ أنطونيوس يافث بسان باولو
مجموعة نعمة يافث	:	جمعها الأستاذ أنطونيوس يافث بسان باولو
قصة البنفسج	:	تأليف الأستاذ فؤاد سليم بحماة
خيالات	:	نظم الأستاذ رياض المعلوف بزحلة
ليالي الشاطىء	:	« الأستاذ مصطفى عبد الرحمن
قرة العين	:	« الفيكنت فيليب دي طرازي ببيروت
في فجر العمر	:	« الأستاذ على حسن غسال
أحلام الربيع	:	« « طاهر زمخشري بالحجاز
القيصران	:	« الأب يوحنا الفاخوري البولسي بحريصا
الفتوح العربية في سورية (كتيب)	:	تأليف الأستاذ عمر أبي النصر اليافي ببيروت
رايات الإسلام (كتيب)	:	« « « « « « «
مواقف مؤثرة في تاريخ محمد بن عبد الله (كتيب)	:	« « « « « « «
الدراسات العربية في الاتحاد السوفيتي (كتيب)	:	« المستشرق كرتشكفسكي وترجمة أ . ق . بغداد
الرادار (كتيب)	:	« الدكتور إبرهيم حلمي عبد الرحمن
السياسة التوجيهية للتربية المصرية (كتيب)	:	« الأستاذ على حسن الهاكع
كيف نكافح الفقر والغلاء (كتيب)	:	« الأستاذ أحمد محمد رضوان

ISLAM The Religion of Humanity by Maulana Muhammad Ali M.A, LL.B

NUAGES par Riad Malouf

POEMES « « «

انباء

ننشر في هذا الباب أخبار النشاط الفكري والأدبي وأنباء الكتب والكتاب مما يوافينا به مندوبونا ومراسلونا بمصر والخارج .

مصر

فجعت المحافل الدينية والعلمية بعد ظهر السبت الخامس عشر من فبراير سنة ١٩٤٧ بفقد ركن من أجل أركانها وعلم من جهابذة أعلامها هو العالم الفيلسوف المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الجامع الأزهر. فقد وافاه الأجل فجأة وهو أوفر ما يكون عافية ونشاطاً ، فجاءت فيه المصيبة وعظم الخطب ، وأقبل الناس بعضهم على بعض يتبادلون التعزية في حزن بالغ وأسى عظيم ، ويتذاكرون ما كان للفقيد الجليل في نفوس الجميع — مسلمين وغير مسلمين ، عرباً وأجانب — من صادق الإجلال وخالص الود والتقدير جزاء وفاقا لسيرته الرضية .

وقد تميز — رحمه الله — في حياته العلمية منذ مطالع شبابه بالسبق والتبريز ، ونال شهادة العالمية من الدرجة الأولى في سن مبكرة ، فاختير على إثر ذلك مدرساً في مدرسة القضاء الشرعي ، ولـكنه لم يلبث غير عام واحد ، إذ حمله إقباله على العلم ورغبته في الاستزادة منه إلى فرنسا حيث واصل الدرس والتحصيل في باريس وليون ؛ وعهد إليه في خلال ذلك في تدريس الفقه الإسلامي في جامعة ليون فأدى مهمته العلمية على نحو مشرف للعلم والعلماء .

ولما عاد إلى وطنه في سنة ١٩١٦ عين سكرتيراً عاما للأزهر ، ثم مفتشاً بالمحاكم الشرعية ، ثم أستاذاً للفلسفة في كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، واستمر يؤدي رسالته العلمية حتى في أيام توليه الوزارة التي أسندت إليه غير مرة . وفي ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٤٥ صدر الأمر الملكي بإسناد مشيخة الأزهر إليه فتفرغ لمباشرة هذا المنصب الجليل الذي بلغ من قدره له يومئذ أن التمس من صاحب الجلالة الملك أن يعفيه من لقب « الباشوية » مكتفياً بما في لقب « الأستاذ الأكبر » من تشريف

وللفقيد في عالم التأليف آثار باقية منها بحوثه القيمة في تاريخ المذاهب الفلسفية ، وتواليفه عن « الإمام الشافعي » ، و« المدخل للفلسفة الإسلامية » ، « والوحي والدين والإسلام » و« البهاء زهير » و« محمد عبده » وغيرها . وقد نقل إلى الفرنسية مع العالم الفرنسي الأستاذ برنار ميشيل رسالة التوحيد للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده .

أحسن الله جزاءه لقاء ما أحسن إلى العلم والدين وما جرى على يده من خير للاسلام والمسلمين.

✡✡✡

كان أهم ما قرره المؤتمر اللغوي في دورته الحالية استعراض المصطلحات العلمية التي قررتها لجان مجمع فؤاد الأول للغة العربية تمهيداً لإدخال هذه المصطلحات وتعريفاتها في المعجم اللغوي الكبير، وتأليف لجنة لمواصلة البحث في معجم فيشر اللغوي التاريخي بعد أن تعذر على صاحبه الشخوص إلى مصر بسبب رفض السلطات العسكرية السماح له بمغادرة ألمانيا .

وقد فرغ المؤتمر من مراجعة مواد المعجم الوسيط بعد أن أعدتها لجنة خاصة في المجمع ظلت تعمل فيه نحو تسع سنوات مستعينة ببعض العلماء والأدباء من غير أعضائه .

✡ ✡ ✡

ترجم الاستاذ مبارك إبرهيم كتاب « لمن تدق هذه الأجراس؟ » عن الكاتب الأمريكي الشهير إرنست همنجواي ، وهو وصف للحرب الأهلية في أسبانيا التي انتهت بتقلد فرانكو زمام الحكم .

✡ ✡ ✡

وضع الدكتور محمود محمد غالي كتاباً علميا بعنوان « النواة والقنابل النووية » ، وستنشره الجمعية الملكية للمهندسين ، ويقع في قرابة سبعمائة صفحة .

✡ ✡ ✡

يقام في غضون هذا الشهر معرض للكتاب اللبناني بدار القنصلية اللبنانية بالقاهرة ، تعزيزاً للروابط الثقافية بين القطرين الشقيقين .

✡ ✡ ✡

دعيت نقابة الصحافة للاشتراك في المؤتمر الصحفي الدولي الذي سيعقد في مؤتمر براغ في خلال شهر يونية القادم ، وإلى الاشتراك في المؤتمر العربي للصحافة المزمع عقده في لبنان في أول سبتمبر المقبل .

✡ ✡ ✡

استقرت فكرة بعض أدباء العرب على إقامة مهرجان « يوبيل خمسيني » لشاعر الأقطار العربية الأستاذ خليل مطران بك على أن يدعى إليه أدباء العرب من البلدان العربية جميعها .

✡ ✡ ✡

يعمل الدكتور محمود عزمي في تأليف كتاب بعنوان « في المغرب » لتعريف قراء البلاد العربية بأحوال المغرب وكيانها الاجتماعي ووضعها السياسي .

✡ ✡ ✡

يقدم الأستاذ محمود تيمور بك للطبع رواية مطولة بعنوان « سلوى في مهب الريح » تقع حوادثها قبل بداية الحرب ، وقد سجل فيها أشواق قلب فتاة في مرحلة الشباب الأولى .

✡ ✡ ✡

اتصلت الأمانة العامة لجامعة الدول العربية بالمستشرق ريتر بإستنبول لموافاتها بفهرس مفصل عن المخطوطات العربية في خزائن الكتب في تركيا تمهيداً لاستنساخ نخبة منها .

✡ ✡ ✡

ألقى الأستاذ بوريس نهانوف بجلسة المجمع العلمي بالقاهرة في ٥ فبراير الماضي محاضرة عن « تباينات خاصة في الأعداد » قال فيها : « إن دراسة تباينات الأعداد يمكن التدليل عليها ببعض أمثلة غريبة . والطريقة التي طبقت مبسطة وغاية في المنطق وتكون بالبحث في جوار النهايات العظمى والنهايات الصغرى للمنحنيات والسطوح المعينة تحليليا » .

السودان

ابتهج السودانيون في أرجاء البلاد باللفتة الكريمة التي اختصهم بها جلالة الملك فاروق الأول لتشجيع العلم والرياضة بينهم ، فقد تفضل — حفظه الله — فأمر بمنح ثلاث جوائز سنوية قيمة كل منها عشرون جنيهاً مصريا للطلبة السودانيين الأوائل في كل من شعب الآداب والعلوم والرياضة بالقسم التوجيهي بمدرسة الملك فاروق الأول الثانوية بالخرطوم .

وقد اقتضت إرادة جلالته السامية عمل كأس فضية مستديمة تهدى سنويا للفريق المتفوق في الألعاب الرياضية في المدرسة نفسها .

وقد قرر معالي الدكتور عبد الرزاق السنهوري باشا وزير المعارف المصرية أن كل طالب سوداني ينال جائزة جلالة الملك فاروق يلحق بالبعثة الداخلية السودانية ليتم تعليمه في الجامعتين أو المعاهد العالية في مصر على أن يحصل كل منهم على مكافأة مالية قدرها خمسة جنيهات شهريا طيلة مدة تعليمه في مصر .

✡ ✡ ✡

رأت مشيخة الأزهر بالقاهرة أن تصرف مرتبات ثابتة من ميزانية الأزهر للطلبة السودانيين الذين يتلقون علومهم في المعاهد الأزهرية .

✡ ✡ ✡

وصل إلى الخرطوم المستر فورد مندوب المجلس البريطاني ، وسينشأ المكتب الرئيسي للمجلس بأم درمان لنشر الثقافة الإنجليزية ، وستكون له فروع في عواصم السودان .

✡ ✡ ✡

قررت مصلحة المعارف إيفاد بعثة تعليمية لإنجلترا في هذا العام مكونة من تسعة طلبة منهم خمسة للحصول على درجات علمية وثلاثة لتوسيع معلوماتهم لمدة سنتين والتاسع ليتدرب على أعمال المكتبات ليعين أمين مكتبة ، كما تقرر إيفاد بعثة أخرى إلى مصر مكونة من ثلاثة مدرسين ليلتحقوا بدار العلوم مدة سنتين ، وستة من طلبة المعهد الديني في أم درمان للدراسة بدار العلوم على غرار العام الماضي .

✡ ✡ ✡

صرح المستر وليامز مدير مصلحة المعارف أن المصلحة تسعى لإيجاد بيت في القاهرة يتسع لأعضاء البعثات السودانية التي تذهب إليها لتلقي العلم ، كما هو الحال في إنجلترا ، وذلك غير بيت السودان الذي تشرف عليه وزارة المعارف المصرية .

فلسطين

عقد مديرو فروع البنك العربي في فلسطين والأقطار العربية مؤتمراً اقتصاديا في القدس بحثوا فيه شؤون هذه المؤسسة المالية وتنسيق أعمالها وتوحيد نظام العمل في فروعها . وهو أول مؤتمر اقتصادي علمي من نوعه في البلاد ويدل على اتجاه حميد .

✡✡✡

احتفلت مدينة يافا بذكرى شاعرها المرحوم الشيخ إبرهيم الدباغ ، واشترك في الاحتفال عدد كبير من الأدباء من مصر حيث غرد الشاعر أكثر عمره . وسيحتفل في منتصف الشهر المقبل بذكرى وفاة الأمير شكيب أرسلان في يافا ، والعلامة الأب أنستاس الكرملي في حيفا .

✡✡✡

سيقام معرض الكتاب العربي الفلسطيني في منتصف شهر مارس في مدينة يافا ، ومن ثم سيقام في مدينة عمان تحقيقاً للفائدة التي ترجى منه .

✡✡✡

تكثر الاكتشافات الأثرية في فلسطين . فبالإضافة إلى ما عثر عليه من آثار في القدس عثر أخيراً في نابلس على مقبرة يعتقد أنها تحتوي على ملوك لبعض الكنعانيين وأمرائهم .

✡✡✡

انتدب المجلس الإسلامي الأعلى مدير المعهد الأحمدي في عكا للسفر إلى مصر للاتصال بإدارة المعاهد الدينية وربط المعهد ثقافيا بالمعاهد الدينية العالية في مصر .

✡✡✡

ظهرت في هذا الشهر الكتب التالية : (١) « التطور الاجتماعي والاقتصادي في فلسطين العربية » للسيد محمد يونس الحسيني ، وهو يشتمل على مقدمة تاريخية وافية وإحصاءات على جانب كبير من الأهمية . (٢) « الناطقون بالضاد في أمريكا » ترجمة « البدوي الملثم » وقد أضاف إليه المترجم فوائد كثيرة . (٣) « تشيخوف » للسيد نجاتي صدقي وقد أصدرته دار المعارف في سلسلة اقرأ وهو دراسة رصينة لحياة هذا القصصي وتعريف ممتع بقصصه ورواياته . (٤) « العقد الذهبي » للسيد جمال الدين عمر حجازي ويبحث في الزواج وتوثيق صلاته ، وهو الجزء الثاني من سلسلة الندوة الأدبية في القدس . (٥) « أساليب تدريس اللغة العربية للصفوف الابتدائية » تصنيف الدكتور إسحق موسى الحسيني وهو يعالج تدريس العربية بجميع فروعها من الصف الأول إلى السابع الابتدائي . (٦) « الجغرافية الفلكية » للمدارس تأليف السيد عبد الرحيم مرعب ، وفق منهج إدارة المعارف للصف السابع الابتدائي .

لبنان

توفي الشاعر الوجداني الأستاذ إلياس أبو شبكة . وقد فاجأته المنية وهو في أوج نضجه وإنتاجه . وأبو شبكة يعد من أغزر الأدباء اللبنانيين تأليفاً في الشعر والنثر . وله من الدواوين المطبوعة : « الباكورة » و« القيثارة » و « أفاعي الفردوس » و « الألحان » و « نداء القلب » و « إلى الأبد » و « غلواء » . وله مجموعة نثرية منها : « الرسوم » و « تاريخ نابليون » وترجمات لأشهر مسرحيات موليير و « روابط الروح بين العرب والفرنجة » و « أسكاروبلد أمام القضاء » .

✡✡✡

صدر عن « دار المكشوف » كتاب « صحون ملونة » تأليف الأستاذ رئيف خوري .

ذكرى أبو شبكة

وهو مجموعة من روايات تمثيلية بناها على حكايات من مخزون الأدب العربي القديم . وأكثر هذه التمثيليات قصير مما يحسن الانتفاع به في الحلقات المدرسية أو السهرات البيتية . على أن الكتاب يشتمل على مسرحيتين لا بأس بطولهما ، هما « صحون ملونة » و « التابوت يشهد » . وفي الكتاب على الجملة جهد موفق لاستغلال معادن الأدب القديم للانتاج الفني الحديث .

وصدرعن « دار المكشوف » أيضاً الحلقتان الثانية والثالثة من « سلسلة الثقافة السياسية » . الأولى منها بعنوان « الوحدة العربية : نشأتها ، وعوامل تطورها » بقلم الكاتب الفرنسي روبير مونتاين . وتتناول هذه الحلقة بالدرس والتحليل المراحل التي اجتازتها القضية العربية ، وفكرة الوحدة ونشأتها وظهور الجامعة ، ونواحي القوة والضعف فيها . والثانية بعنوان « الإسلام حيال الدول العظمى » لألفونس جوبي ، فيها عرض مسهب لأحوال المسلمين في أوطانهم ، وعلاقاتهم بالدول المستعمرة ، ووصف لمراحل النضال الذي يقومون به للتحرر من ربقة هذه الدول ، والغاية التي وصلت إليها جهود كل شعب منهم .

✡✡✡

يعد المهندس إبرهيم الشريقي سلسلة أبحاث في الزراعة والاقتصاد ، تتناول أهم القضايا المتعلقة بهذين المرفقين من مرافق الحياة في الشرق العربي . وظهر منها إلى الآن ثلاث حلقات تعنى بإصلاح حالة الريف الزراعية والاجتماعية والصحية ، وتطبيق الأساليب الفنية تطبيقاً علميا صحيحاً . وتدعو إلى التعلق بالأرض ، واستثمار ثروتها في سبيل التحرر الاقتصادي .

✡✡✡

تابع « دار العلم للملايين » نشر سلستها المثقفة « أعلام الحرية » للأستاذ قدري قلعجي . ولقد أصدرت في منتصف الشهر الفائت بعد « سعد زغلول » و« إبرهام لنكولن » الحلقة الثالثة من هذه السلسلة « مدحت باشا أبو الدستور العثماني وخالع السلاطين » . والواقع أن في هذه الدراسة من الجهد والتحقيق ما يجعل من المؤلف كاتباً للسير من الطراز الأول .

وأصدرت هذه الدار أيضاً في مطلع السنة الحالية سلسلة شهرية جديدة تقصد فيها إلى أن تعرض على القارئ العربي مشكلات الساعة السياسية في الشرق والغرب . وقد اختارت أن يكون أول هذه السلسلة كتاب : « هذه هي الديمقراطية » للدكتور بنيش ، وهو درس مفصل لماضي الديمقراطية وحاضرها ومستقبلها بعد الحرب العالمية الثانية . وقد نقله إلى العربية الأستاذ حسن صعب نائب قنصل لبنان في إستنبول .

✡✡✡

صدر للأستاذ إميل حيوش كتاب « أساليب السياسة الفرنسية » . وهو تقرير عن سياسة فرنسة ، وأوضاع سورية ولبنان ، أرسل إلى الحكومة الإنكليزية ، وإلى لجنة التحرر الفرنسية في لندن عام ١٩٤١ قبل إعادة الحكم الدستوري إلى سورية ولبنان ، وقبل قيام الجامعة العربية .

✡✡✡

صدرت مجموعة من الشعر لعجاج المهتار بعنوان « زوبعة » . تمتاز بما يثور فيها من روح قومية وثابة .

سوريا

تعمل مصلحة الآثار السورية على إصدار نصوص تاريخية لها علاقة بتاريخ الأبنية في سورية . وقد قدم للطبع كتاب « مختصر تنبيه الطالب » للعلموي المتوفى سنة ٩٨١ هـ وهو يتضمن خارطة أثرية تبين مواقع المدارس القديمة والمساجد والزوايا والرباطات والترب . وقدم أيضاً للطبع كتاب « المروج السندسية في تاريخ الصالحية » لابن كنان المتوفى سنة ١١٥٣ هـ ويتضمن الكتاب خارطة أثرية تبين الصالحية ومحلاتها وأسواقها وحماماتها ومدارسها في القرن العاشر . وقد أفرد قسم خاص في مكتبة مديرية الآثار العامة بدمشق للحجج الشرعية والوقفيات المتعلقة بالأبنية الأثرية وقد أخذت في جمعها وترتيبها .

✡✡✡

صدر كتاب « تقارير عن أحوال المعارف في سوريا خلال سنة ١٩٤٥ » للأستاذ ساطع الحصري وهو يتضمن فصولا عن : (١) آلة الإدارة وتعقيدات المعاملات (٢) تأشير ديوان المحاسبات (٣) المعارف السورية خلال السنة الدراسية ٤٤ — ١٩٤٥ (٤) سياسة التعليم ومطالب الفرنسيين (٥) المعارف في سوريا والعراق خلال قرن (٦) السياسة التي يجب اتباعها في توسيع نطاق التعليم الثانوي . ويقع الكتاب في ١٣٩ صفحة من القطع المتوسط .

✡✡✡

طبع المجمع العلمي العربي البحث القيم الذي كتبه الأستاذ عارف النكدي عن فقيد العروبة والإسلام الأمير شكيب أرسلان ، وعناصر هذا البحث هي : شخصية الأمير شكيب ، مولده ونشأته ، دراسته ، وظائفه ، مؤلفاته المطبوع منها والمخطوط ، رحلاته ، سياسته ، إباؤه وصبره ، شعره ، أخلاقه . وقد اعتمد الكاتب على رسائل الأمير الراحل الخاصة وعلى أخبار التقطها من أفواه الثقات العارفين .

✡✡✡

كان لإعدام مدعي الربوبية سليمان المرشد أثره في إثارة نشاط المؤرخين ورواد التحقيق الصحفي فقد أصدر السيد أحمد الفيل كتاب « المجلس العدلي أو الحكم على الرب المرشد » وهو مصدر بمقدمة طيبة عن الجبل العلوي وعن تاريخ حياة المرشد وشعوذته وعن كل ما يتعلق بهذا الموضوع من أوله حتى إعدام المرشد . ويقع الكتاب في مائة صفحة ونيف وفيه صور كثيرة . وأصدرت دار الحداد للطباعة والنشر في اللاذقية كتاباً عنوانه « مدعي الألوهية في القرن العشرين أو سليمان المرشد رب الجوبة » ومؤلفه المهندس الزراعي أمين حداد . وسيصدر السيد جورج دكر السكرتير السابق للمستشار الفرنسي في الحفة كتاباً عن سليمان المرشد .

✡✡✡

أصدرت المكتبة الكبرى للتأليف والنشر بدمشق كتاب « عذارى » للأستاذ عزمي علي البغدادي وهو مقالات شتى على الطريقة الرومانتيكية ، وقد رفع كتابه إلى « الحب والفن اللذين أمليا عليه هذا الكتاب واللذين يدين لهما جميعاً . »

العراق

يعنى جماعة من الكتاب والباحثين بوضع مؤلفات ورسائل في حياة الأب أنستاس ماري الكرملي: فقد صنف الأستاذ رفائيل بطي رسالة ثمينة في ترجمته . وجمع الأستاذ روكس زائد العزيزي من شرقي الأردن رسالة في ترجمة الأب وما قيل في حفلات تكريمه في القدس في السنة الماضية . وتهتم لجنة الترجمة والتأليف والنشر العراقية بجمع ما يرد في الصحف عنه ونشره في كتاب . وعني الأستاذ كوركيس عواد بوضع مؤلف في حياة الأب أنستاس ووصف مؤلفاته المطبوعة والمخطوطة ، وإيراد ثبت كامل بما نشره الأب من مقالات في مختلف المجلات .

✡✡✡

نشرت « دار القارئ » ببغداد رسالة «الدراسات العربية في الاتحاد السوفيتي» للمستشرق الروسي الذائع الصيت كراتشكوفسكي وترجمة ألبير قطان . وهذه الرسالة صفحة لامعة من عناية المستشرقين الروس بدرس الآداب العربية ونشر بعض كنوزها .

✡✡✡

فرغ فخامة الأستاذ طه باشا الهاشمي من نقل كتاب « تاريخ الوحدة الإيطالية » تأليف بولتن كينج ، تناول فيه بالبحث حقبة من تاريخ إيطالية في العصور الحديثة .

✡✡✡

تم طبع كتاب « مملكة العراق » باللغة الإنكليزية ، الذي أعدته مديرية الدعاية العامة العراقية سنة ١٩٤٥ وهذا الكتاب مطبوع طبعاً أنيقاً بأميركة في مطابع بلتيمور — ماريلند وهو يصف العراق في مختلف مناحيه . ففيه فصول عن تاريخ العراق وآثاره واقتصادياته وأحوال المعارف فيه والجيش والشرطة ونظام الري وطرق المواصلات .

✡✡✡

صدر ببغداد كتاب « وطننا » تأليف ن . ن : ميخائيلوف . وقد نقلته إلى العربية المرحومة السيدة سنية خالد الحيدري والأستاذ كامل قزانجي . وفيه وصف شامل لبلاد الاتحاد السوفيتي .

✡✡✡

نشر الأستاذ المحامي عبد الرزاق الظاهر ، كتاب « الإقطاع والديوان في العراق » ، تناول فيه بالبحث المشاكل التي يشعر بها العراقيون في ناحية التصرف بالثروة العامة ، وفي ناحية الجهاز الحكومي الذي يهيمن على المرافق العامة كلها .

✡✡✡

بين « رسائل البعث » المنشورة حديثاً ببغداد ، ظهرت « الأصول التاريخية لحركة العمال العالمية » تأليف أي . دبليو كامبل وترجمة ج . ف . وفيها عرض لحركة الطبقة العاملة في العالم وأثرها في التاريخ الأوربي .

الهند

طبع بالهند بإمارة حيدر آباد من التراث العربي جزء من كتاب « الأمالي » للامام محمد بن الحسن الشيباني ، في الفقه الحنفي . وقد ذكر هذا الكتاب ابن النديم باسم الكيسانيات نسبة إلى تلميذ المصنف سليمان بن شعيب بن سليمان الكيساني . وطبع في اللغة كتاب « الأفعال » لأبي القاسم علي بن جعفر المعروف بابن القطاع الصقلي المتوفى سنة ٥١٥ هجرية ، لخص فيه المؤلف « أبنية الأفعال » لابن القوطية وزاد عليه كثيراً من الأبواب . وطبع في التاريخ كتاب « المحبر » لأبي جعفر محمد بن حبيب البغدادي المتوفى سنة ٢٤٥ هجرية ، وهو يشتمل على تاريخ الأنبياء والملوك وأنساب القبائل قبل الإسلام . وطبع في الحديث « مشكل الحديث » للامام الحافظ أبي بكر محمد ابن الحسن بن فورك المتوفى سنة ٤٠٦ هجرية شرح فيه الأحاديث التي تتعلق بالعقائد . كذلك طبع في الحديث « مسند الإمام الحافظ أبي عوانة » المتوفى سنة ٣١٦ هجرية جمع المؤلف فيه الأحاديث في الأبواب الفقهية . وطبع في الطب « المختارات » لمهذب الدين أبي الحسن علي بن أحمد بن هبل البغدادي المتوفي سنة ٦١٠ هجرية . وهو في ثلاثة أجزاء : الجزء الأول في المبادئ الكلية ، والثاني في الأدوية المفردة والمركبة ، والثالث في طرق معالجة الأمراض المختلفة . وطبع في الهندسة « رسالة في الإسطرلاب » لإبرهيم بن سنان المتوفى سنة ٣٣٥ هجرية . صنفها المؤلف لأبي يوسف حسن بن إسرائيل . و « رسالة في الهيئة » لأبي الوفاء محمد بن محمد البوزجاني المتوفى سنة ٣٧٦ هجرية صنفها لأبي علي أحمد بن علي بن السكر . « ومقالة في رسم القطوع الثلاثة » لإبرهيم بن سنان بن ثابت بن قرة المتوفى سنة ٣٣٥ هجرية . و « رسالة في الأبعاد والأجرام » لأبي الريحان البيروني المتوفى سنة ٤٣٠ هجرية . وطبع في طبقات الأرض « إنباط المياه الخفية » لأبي بكر محمد ابن الحسن المحاسب الكرخي ، صنفه للوزير أبي غانم معروف بن محمد كادور مسعود ، وهو في استخراج المياه من باطن الأرض ، ويحتوي على صور الآلات والأدوات أيضاً .

وترجم إلى اللغة الأردية الهندية الملل والنحل ، لابن حزم ، وتم طبعه في السنة الماضية

٭ ٭ ٭

من الكتب الهامة التي ظهرت أخيراً كتاب عن « الإسلام في الهند » مؤلفه محاضر للتاريخ الإسلامي في لاهور ، وقد توفر على دراسة تاريخ المسلمين هناك في السبعين السنة الأخيرة ورجع في دراسته هذه إلى كثير من الوثائق باللغتين الأردية والإنجليزية فخرج كتابه بحثاً ممتازاً في دقته وإحاطته . والقسم الأول من الكتاب يعرض جهود المسلمين في التوفيق بين عقائد الإسلام وبين ظروف الحضارة الصناعية ، كما يعرض لتطور نظرة المفكرين عندهم إلى الغرب من أحمد خان حتى أمير علي ثم محمد إقبال . والقسم الثاني يبحث في الأحوال السياسية لمسلمي الهند والعلاقة بينهم وبين الهندوس وهو يدرس هذه الناحية دراسة مفصلة يحلل فيها العوامل الاقتصادية التي تدفع المسلمين إلى الرغبة في الانفصال ، وعنوان الكتاب . [Modern Islam in India by Wilfred C. Smith]

ابن القطاع

ابن هبل

شمال أفريقية

أصدر الأستاذ محمد الطيب الأشهب كتابا أسماه « برقة العربية أمس واليوم » وهو بحث تاريخي مفصل عن حالة البلاد من الناحية السياسية والاقتصادية والثقافية ، وعن سكان هذا القطر العربي وأنسابهم وتقاليدهم وعاداتهم ، كما يفصل حركة الجهاد من عام ١٩١١ إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية ، إلى غير ذلك مما يهم القراء في الشرق العربي عن برقة ، وهو مزين بصور رائعة ، وعدد صفحاته ٦٠٠ صفحة .

✡ ✡ ✡

أوفدت دائرة المعارف العمومية في برقة الأستاذ السيد عال صفي الدين السنوسي إلى مصر للتدرب على أعمال التفتيش المدرسي في وزارة المعارف المصرية .

✡ ✡ ✡

عينت إدارة معارف برقة الأستاذ إبرهيم أحمد المهدوي أستاذاً للتربية وعلم النفس في مدارس مدينة بنغازي ، وهو أول ليبي يتولى هذا المنصب في بلاده ، وقد تخرج هذا العام في معهد التربية العالي بالقاهرة .

✡ ✡ ✡

افتتح نائب سمو الأمير السنوسي معرض الفن الوطني في مدينة بنغازي للرسام الليبي المعروف الأستاذ عوض عبيدة ، والمعرض مزود بعدة رسوم فنية رائعة كانت موضع إعجاب كبار المتفرجين من عرب وأجانب .

✡ ✡ ✡

وضع شاعر برقة الكبير الأستاذ رفيق المهدوي نشيداً قوميا موضوعه « ليبيا » ويعمل الأستاذ الشاعر على تلحينه .

انجلترا

ينتوي الدوق وندسور ملك إنجلترا السابق كتابة تاريخ حياته . وقد قال للمراسلين الذين ذكر لهم هذا النبأ : « إن لديه مادة وافرة لذلك وكثيراً من الذكريات والتجارب التي مرت به في الحياة » .

✡ ✡ ✡

يقوم أحد المستشفيات هنا بعدة تجارب لدراسة أسباب الإصابة بالبرد وطرق الوقاية منه . وقد شرع في تجربة دواء جديد يرش على حوائط الغرف بمدارس لندن فينتشر في جوها حين تدفأ ، ويرجى منه أن يجدي فى وقاية التلاميذ . هذا إلى أنهم أعلنوا عن الحاجة إلى ألف متطوع يعرضونهم للاصابة بالبرد ثم يحاول الأطباء دراسة الجرثومة التي تسبب ذلك ، وهم يضيفون المتطوعين عشرة أيام ويدفعون للواحد ثلاثة شلنات في اليوم وبعض البرد . . !

✡✡✡

أذيع أخيراً أن المخترع النابغة جون بيرد الذي توفي أخيراً لم يترك سوى بضعة آلاف من الجنيهات بينما تدر مخترعاته الملايين . وهو الذي يعود إليه الفضل في اختراع التلفزيون « الرؤية على البعد » وقد كان آخر ما اهتدى إليه طريقة « للاذاعة » بالألوان جربت في لندن أخيراً ونجحت تجربتها .

✡✡✡

من العوامل الهامة التي وجهت حياة الشاعر شللي وتفكيره صلته بوليم جودين . وقد ظهر أخيراً عن حياة هذا الأخير كتاب [William Coodwin by Woodcoch] لاقى ترحيباً وثناء طيباً من كافة النقاد ، وهو يعرض مالاقاه هذا المفكر من نجاح سريع منقطع النظير بكتابه عن « العدالة السياسية » الذي ظهر ١٧٩٣ وما أصاب نجمه من أفول بعد ذلك ؛ والكتاب ترجمة مشوقة لهذا الرجل وصلته بأدباء عصره وأثره فيهم .

« العربي الأسود » [The Black Arab by Mikhail Prishoin] أحد الكتب الكثيرة التي تكثر ترجمتها هذه الأيام عن اللغة الروسية ، إذ يبدو أن اهتمام الجمهور يشجع على نشر كثير من المؤلفات عن روسـيا : مدنها وأهلها وأدبها وصناعتها وعلمها . والكتاب الذي نحن بصدده مجموعة من القصص لمؤلف روسي اتخذ عنوانه من أهم قصة فيه .

« أنا والبيضة » [The Egg and I by Betty Mc Donald] من الكتب الأمريكية التي لاقت رواجا فائقاً حتى لقد بيع منها مايزيد على المليون نسخة في عشرة شهور . وهو قصة تدور حول حياة مؤلفها في مزرعة للدجاج في صميم الريف وتحفل بالفكاهة والمرح ويتخللها كثير من الملاحظات عن طباع الناس وخصائصهم

✡✡✡

« صدى صيحة » [Echo of a Cry by Mai-Mai. Sze] كتاب طريف بقلم سيدة صينية تصف فيه وصفاً مليئاً بدقة الشعور وخفة الروح حياتها في إنجلترا وأمريكا وفرنسا ثم عودتها إلى بلادها

« تشريح السلام » [The Anatomy of Peace by E. Reves] كتاب لاقى ذيوعاً كبيراً في أمريكا ، ثم طبع في إنجلترا وقد ترجم إلى سبع عشرة لغة . وهو دعوة تدور حول ضرورة إقامة حكومة عالمية هي الأداة الوحيدة لضمان السلام ، وليست فكرة الكتاب بجديدة غير أن مايميز الكتاب هو عمق مافيه من تحليل وقوة الحجة التي يعرضها المؤلف ويدعو بها إلى الإقلال من سيادة الدول المنفردة ، وخطر هذه السيادة على حرية الأفراد وعلى السلام العالمي

أمريـكا

ألقى الأستاذ جون بيد - رئيس الجامعة الأمريكية بالقاهرة — محاضرة عن الشرق الأوسط في جمعية الشؤون الخارجية الأمريكية في نيويورك انتقد فيها إهمال وزارة الخارجية الأمريكية العناية بشؤون العالم العربي ، وقال إن مصالح أمريكا الحيوية في الشرق الأوسط قد أصبحت مهددة لأن العرب قد فقدوا الثقة في الديموقراطية البريطانية التي لم تقدم إلى الشرق الأوسط إلا نماذج من الاستعمار الغربي ، وإن اتكال أمريكا على سياسة بريطانيا لتعزيز النفوذ الأمريكي في الشرق الأوسط ومناصرة أمريكا للحركة الصهيونية قد أضاعا كثيراً من المكانة والاحترام اللذين كانت أمريكا تتمتع بهما بين العرب .

✡✡✡

أذاع سعادة سفير مصر المفوض في أمريكا بيانا على جميع أفراد الجالية العربية في الولايات الأمريكية يحثهم فيها على الاكتتاب لتنفيذ بناء مسجد واشنطن الذي سيكون رمزاً للفكرة الإسلامية وللوحدة العربية في أرض الدنيا الجديدة .

✡✡✡

عقد أعضاء الجالية العربية بجمهورية كولمبيا . اجتماعاً لجمع اكتتابات لشراء دار يهدونها إلى الحكومة اللبنانية لتكون مقراً لقنصليتها في كولمبيا . فتبرع الوجيه نعمان باسيل وحده بجميع ثمن الدار ويقدر بمبلغ مائة ألف دولار .

✡✡✡

ظهرت أخيراً في ديترويت بأمريكا مجلة عربية جديدة باسم « نهضة العرب » يصدرها الشيخ سعيد داود فياض .

✡✡✡

أعلنت جريدة الهدى اليومية التي تصدر بنيويورك انضمام الدكتور أحمد زكي أبو شادى إلى إدارة تحريرها .

✡✡✡

توصل الكيمائيون إلى إضافة مادة فسفورية إلى حبر الطباعة فصارت حروف الكلمات المطبوعة تضيء في الظلام فتغني عن الاستعانة بنور المصباح . وقد استفاد رجال البحرية الأمريكية من هذا الاكتشاف فكانوا يقرؤون خرائطهم في الليل الدامس . وقد جرب أخيراً رجال الصناعة في أمريكا إدخال هذه المادة الفسفورية في نسيج الأقمشة حتى يصبح لها طاقة الإشعاع في الظلام ، فيمكن بذلك تخفيف حوادث الاصطدام بالليل . وقد نجحت هذه التجربة .

✡✡✡

تمكن الدكتور هيوبرت لورنغ والدكتور كارلتون سوردت من فصل جرثومة شلل الأطفال فصلا نقيا تقريباً . وتعتبر هذه النتيجة خطوة كبيرة في سبيل الكفاح الذى يقوم به العلماء لاكتشاف مصل فعال ضد شلل الأطفال .

✡✡✡

من الكتب التي صدرت أخيراً كتاب « العلاج بالتحليل النفسي » بقلم فرانز ألكسندر وتوماس فرنش [Psychoanalytic Therapy : Principles and Application] وقد قام مؤلفا هذا الكتاب وهما طبيبان في معهد التحليل النفسي بشيكاغو بعدة تجارب أدت بهم إلى اكتشاف وسائل جديدة مبسطة تمكن الطبيب من علاج المريض في أقصر وقت ممكن ، وتغنيه عن التعرض لكثير من التفاصيل الثانوية في حياة المريض . وفي هذا الكتاب شرح لهذه الوسائل .

✡✡✡

أصدرت أخيراً المكتبة الفلسفية بنيويورك طبعة جديدة لكتاب « العلم منذ عام ١٥٠٠ » بقلم بلدج [Science since 1500 py H.T. Pledge] وهو يحوي عرضاً لتاريخ العلوم وابتداء تطورها وتقدمها منذ القرن السادس عشر إلى اليوم .

وظهر كتاب « شلي : قصة حياته » بقلم إدموند بلاندن [Shelley : Life Story by Edmond Blunden] وهو عرض لحياة هذا الشاعر الإنجليزي الشهيرومحاولة لبيان أثر حوادث حياته المختلفة في شعره .

✡✡✡

لعل شخصية إبراهام لنكولن هي أهم شخصية في تاريخ أمريكا ولعلها مع ذلك أكثرها غموضاً . وقد تناقضت الآراء التي ذكرت حوله ، واختلفت الكتب الكثيرة التي ظهرت عنه في تحليل شخصيته ومااتصل بها من أحداث . ومن ثم كان ظهور تاريخ جديد لحياته بقلم أستاذ محقق أمراً يرحب به الناس في أمريكا وخارجها ، والكتاب الجديد دراسة عميقة في مجلدين للظروف الاجتماعية والسياسية التي أدت إلى نشوب الحرب الأهلية في أمريكا حول تحرير العبيد وللدور الذي قام به لنكولن فيها وعنوانه : [Lincoln The President by Prof. J.G. Randall] .

✡✡✡

عقد اتحاد الطلبة العرب بالولايات المتحدة في ٢٨ ديسمبر الماضي مؤتمراً بقاعة معهد الشؤون العربية الأمريكية في نيويورك ، ووضع دستوراً يتوخى تقوية أواصر الإخاء بين الطلبة ، وتعريف الشعب الأمريكي بحقائق القضايا القومية للعرب عن طريق المحاضرات والنشرات وحفلات التعارف والاتصال . والاتحاد يتألف من الطلبة العرب في معاهد أمريكا ومن الطلبة الأمريكيين المنحدرين من أصل عربي وممن يناصرهم . وقد انتخب المؤتمر التأسيسي لجنة مركزية للاتحاد من حضرات :

الدكتور مأمون المهايني (سوريا) — رئيسا . والأستاذ زكي هاشم (مصر) — نائباً للرئيس. والأستاذ عمر حليق (فلسطين) — أميناً عاماً . والأستاذ بهجت الطويل (مصر) — أميناً للصندوق . والأستاذ غسان التويني (لبنان) والدكتور جبرائيل صوايا (لبنان) والأستاذ نافد العسكري (العراق) أعضاء .

واتخذ المؤتمر قرارات يؤيد فيها الشعوب العربية في كفاحها لاستكمال استقلالها كما اتخذ قراراً بشكر معهد الشؤون العربية الأمريكية لمساهمته في توفير أسباب الراحة للمندوبين كما قرروا اتخاذ الخطوات التحضيرية لتأمين دار للطلبة العرب في نيويورك .

روسيا

تحتفل روسيا قريباً ، حكومة وشعباً ، بمرور ثمانمائة عام على تأسيس موسكو ، العاصمة السوفيتية ، وبدأت دور النشر الكبرى تعد أشتاتاً من مختلف الكتب والمطبوعات ، ومجموعة الرسوم التاريخية ، وأشهر اللوحات التي سجلت المزارات التاريخية والأماكن الأثرية لعاصمتهم ، وفي مقدمة الكتب التي ستنشر بهذه المناسبة كتاب « ماضي موسكو في أسماء شوارعها وميادينها» و « جغرافية موسكو » و « موسكو السوفيتية » و « لينين في موسكو » و « المزارات التاريخية في العاصمة الخالدة » والكتاب الأخير يحوي تفاصيل تاريخية عن الأمكنة الشهيرة التي تغنى بها الأدباء والشعراء في مقطوعاتهم والموسيقيون في ألحانهم .

✿✿✿

أخرج الأستاذ كراتشفويفسكي كتاباً جديداً بعنوان « الأدب العربي في القرن العشرين » تناول فيه دراسة التيارات الأدبية المعاصرة ومؤلفات كتاب العرب البارزين ولمحات من حياتهم الفكرية وذيله بفهرس مفصل عن المؤلفات الشهيرة التي أخرجتها المطابع العربية في نصف القرن الأخير

✿✿✿

لا تزال الحرب تؤثر في مجرى تفكير الروائيين والشعراء والكتاب ، فبعد أن أخرج ميخائيل شولوخوف روايته « الدون يجري هادئاً » التي طبع منها عشرة ملايين من النسخ ظهرت له رواية ضخمة بعنوان « لقد حاربوا من أجل الوطن » وصف فيها الحياة في قرية فيشنسكايا القوقازية ، القائمة على ضفاف الدون في غضون الحرب . وأخرج الكاتب فيسيفولود إيفانوف روايته : « الاستيلاء على برلين » ؛ ويظهر قريباً للشاعر قسطنطين سيمونوف رواية مطولة عن الحرب الروسية — اليابانية ، ورواية «شاباييف» لديمتري فورمانوف ، وقد رسم فيها شخصية المجاهد السوفيتي في أثناء الحرب الأهلية التي نشبت بين الحمر والبيض ؛ والمؤلف يمثل الآن المجاهد المتعصب لمبدئه ، وكل مجاهد أصبح يسمى الآن « شاباييف » .

✿✿✿

كان الأديب الكنت ألكسي تولستوي ، الذي توفي منذ بضعة أشهر وصاحب سلسلة الروايات عن بطرس الأكبر ، أغنى أغنياء الاتحاد السوفيتي ، وقد قدرت إحدى المجلات أرباحه من إنتاجه الأدبي بنحو نصف مليون جنيه في السنة الواحدة .

✿✿✿

وضع الكاتب إكساكوف رواية « تاريخ أسرة » نحا فيها منحى أقطاب الأدب الفرنسي مثل زولا وبلزاك في معالجة القصة ، والكاتب ليس من كتاب الجيل الحديث ولكنه من الأدباء المخضرمين الذين عاصروا القديم والحديث وتمتاز الرواية بعمق التحليل النفساني وتصوير الحياة الروسية في العهد البائد .

فرنسا

كشف المسيو جاك كولو والمسيوفوترا كشوفاً هامة ترجع إلى ما قبل التاريخ في حفرة بالقرب من شوليبور في أعالي السون منها دبوس نحاسي طوله ٣٥ سنتيمتراً وبجانبه حلقات كثيرة من البرونز والخرز والسنابك وشكل جرو مثقوب يرجح أنه كان يستعمل تميمة ، وأوان فخارية بعضها مزين برسوم جميلة ، وهيكل عظمي بشري وجمجمة حيوان .

✡✡✡

يقام في باريس معرض للرسم الحديث في « خط الاستواء وهايتي وبيرو » بقاعات هيئة الثقافة والعلوم والتربية التابعة لهيئة الأمم المتحدة بناء على اقتراح وزير « خط الاستواء » المفوض . وقد لفت هذا المعرض نظر الجماهير لأن أكثر الرسامين المشتركين فيه غير معروفين في أوربا ، ولرسومهم طابع خاص . ورسامو « هايتي » كلهم بدائيون ، ولم يكتشف فنهم إلا أخيراً . أما رسامو « بيرو » و « خط الاستواء » فإنهم معروفون أكثر منهم ، وهم فنانون ماهرون فعلى الرغم من أنهم يقتبسون من الفن الأوربي فإنهم يعنون بجعل رسومهم مطبوعة بطابع الفن القديم الذي عرفته أمريكا قبل أن يكتشفها « خريستوف كولمب » .

✡✡✡

تعلق الدوائر المختصة أهمية كبيرة على اكتشاف منجم هام للفحم في تافيلاليت جنوبي قصر الشوق بمراكش وينتظر أن تكون لهذا الاكتشاف نتائج هامة بالنسبة للحركة الاقتصادية العامة في السلطنة الشريفية

✡✡✡

قرر المسيو فرانسوا أندريه . وهو أكبر ثرى في « كان » أن يقدم الأموال اللازمة لبناء « قصر الصناعات السينمائية » على أن يبنى في الطرف الأقصى من المدينة وسيكون ارتفاعه ١٨ متراً ، ويشتمل على غرف لايواء ٢٥٠٠ شخص وقاعة واسعة للمحاضرات . ومكاتب للادارة وقاعة كبيرة للتحرير مزودة بالآلات التليفونية ومقصف. وغرفة لإدارة الأفلام على أحدث طراز وصالة استقبال

وتقدر النفقات اللازمة لتنفيذ هذه الأشغال بخمسة ملايين فرنك . وسيشترك منتجو الأفلام من الفرنسيين والأمريكيين بجزء من هذا المبلغ .

✡✡✡

تؤلف دراسة الأجناس قسما من أقسام متحف التاريخ الطبيعي . فهو يشتمل على مجموعة مدهشة من الجماجم والهياكل العظمية الضخمة وحيوانات ما قبل التاريخ . وبه جناح يحتوي على مجموعة من الحيوانات المفترسة التي قتلها دوق أرليان . وفي متحف الفنون والصناعات آلات غريبة . وقد تجلى الفن الهندسي في متحف الأشغال العامة حيث يجد المهندسون نماذج وافية لجميع « المهمات » وقد زاد العلم تقدماً فنظم في قصر الاستكشاف معرض سنة ١٩٣٧ وتقام فيه الآن معارض وقتية للراديوم والبنسلين . وقد يقام فيه قريباً معرض للطاقة الذرية .



جلالة ملكي مصر والحجاز يحف بهما ممثلو بلاد العرب في افتتاح مقر الجامعة العربية بالقاهرة

هدية مجلة الكتاب





السنة الثانية
الجزء السادس

المجلد الثالث

جمادى الأولى ١٣٦٦
أبريل ١٩٤٧

أصوات وأصداء

الملكية الأدبية

انتهى إلينا أن اللجنة القانونية بجامعة الدول العربية قد وضعت مشروع قانون لحماية الملكية الأدبية والفنية ، وأرسلته إلى دول الجامعة ، لإبداء ملاحظاتها عليه .

وهذا الذي عنيت به اللجنه القانونية المشار إليها إنما هو أمنية أهل الجد والكرامة من حملة الأقلام ؛ لأن الملكية الفكرية : « لايجوز أن تبقى نهباً لدى لصوص الإجهاد العلمي والإنشاء الفكري ، فلا بد من حمايتها كالملكيات الأخرى ، فهي ملكية مشروعة لها قوتها وسلطانها ويقينها » كما يقول الدكتور عبد السلام ذهني بك ، في رسالته « لمحة خاطفة في حقوق المؤلفين » .

ولقد أشارت مجموعة القوانين الأهلية إلى قانون حماية الملكية الأدبية ، ولكنه لمّا يخرج إلى النور ، فبقي ذلك الأمل الذي داعب أجفان المؤلفين والكتّاب حقبة من الزمن طيفاً من الأطياف ، فلعله يتجسم في هذه الأيام هيكلا سويًّا بهمة اللجنة القانونية التي يرأسها قطب كبير من أقطاب القانون ، هو معالى الدكتور عبد الرزاق السنهوري باشا .

كانت الفكرة التي أدت إلى التقاعس عن سن هذا القانون — فيما نعلم — أن بلاد الشرق العربي هي اليوم في طور النهوض ، فهي إذن في حاجة إلى الاقتباس والترجمة عن مؤلفات الغرب ، بلا قيد ولا شرط ؛ ولكن إذا صح هذا ، وصح أيضاً نسخ مؤلفات الغرب أو مسخها ، أفيصح سطو الأديب على إنتاج الأديب ، أو سطو الناشر على جهد الناشر ، في بلد من بلاد الشرق العربي ، دون أن يكون هناك قانون رادع ، يزدجر به جناة المال والشهرة من أيسر سبيل ؟ إن « طبع مؤلف الغير غصب بين

واعتداء صارخ على ملكية صاحب الكتاب ؛ لأن الغاصب يستفيد مالا بما لامبرر له ، كمن يسرق شيئاً يضعه في وعاء ، ويبيع الوعاء وما احتواه ، فيصيب ثمناً يشمل الوعاء ومشتمله ، فالوعاء له ومشتمله لغيره ، والغصب واقع في الاحتواء » .

ورجاؤنا أن تقدر الحكومات العربية مسعى اللجنة القانونية ، وتعمل على وضع ذلك القانون المنشود حتى تقر به العدالة عيناً ، ولا يبخس الناس أشياءهم .

أول أبريل

يصل هذا الجزء من المجلة إلى أيدي القراء ، في اليوم الأول من شهر أبريل (نيسان) ، يحمل إليهم في بردتيه الحقائق والأنباء الصحيحة . ولقد تعود الناس في الغرب ، وسرت عدوى هذه العادة إلى الشرق ، أن يستبيحوا لأنفسهم الكذب في اليوم الأول من هذا الشهر الذي كان الرومان قد خصصوه بالزُهرَة ، ومثلوه في رجل يرقص على نغمات آلة من آلات الطرب . أما منشأ هذه العادة فقد تضاربت الأقوال فيه ؛ ويطيب لنا أن نجلو للقراء عن أصل هذه العادة رأيين مغايرين وقفنا عليهما :

أما الأول فقد قيل إن الملك شرل التاسع أصدر في يوم من الأيام مرسوماً يقضي بأن يكون بدء السنة يوم أول يناير ، بدل يوم أول أبريل ؛ فتبع ذلك أن صار الناس يتبادلون التهنئات والهدايا في اليوم الأول من يناير ؛ فمن بقي منهم ثائراً على النظام الجديد ، متذمراً منه ، أمطروه بتهنئات تنطوي على الدعابة والمزاح ، ثم انتهى بهم الأمر إلى أن يرمزوا إلى الهدايا برسائل كاذبة ، وأشياء يوارونها في حجاب بعد حجاب فذهبت عادة .

وأما الثاني فقد كان ذكره الشيخ إبرهيم اليازجي عن كتاب قديم ، ومحصله أن إكليريكيا من أهل الصلاح والضمائر السليمة كان له مؤلفات غريبة ، منها كتاب طبعه ونشره ، موضوعه « كيف يداوى الإنسان صحته بعد سن المئة » ، فتواطأ بعض معارفه على أن يقنعوه أن هذا الكتاب قد انتهى إلى ملك سيام ، فأعجب به ، وعزم على أن يوجه بعثاً من بطانته إلى المؤلف ، يبلغه بأنه يود أن يجعله طبيبه الخاص ، وينعم عليه برتبة وزير . واتفق في تلك الأيام أن وفد على فرنسا سفراء من قبل ملك سيام ، فتزيا أصحاب الكاهن بزي أولئك السفراء ، وجاءوه وفي أيديهم الأوراق الرسمية من ملكهم إلى ملك فرنسا ، يعرض عليه رغبته في جعل الأب من وزرائه ، وجواب ملك فرنسا

عليها ، حتى اقتنع بصحة الأمر ، وانقاد لهم في كل مادبروه ؛ وعملوا له احتفالا خارقاً ، تمَّ على مشهد المدينة كلها . قالوا : وبقي الأب بعد ذلك مدة سنتين يعتقد نفسه وزيراً من وزراء ملك سيام ، ولم يتمكن من إزالة هـذا الاعتقاد من نفسه إلا بعد مراجعة وعناء . ومن غريب مايروى في هذه القصة أن لويس الرابع عشر نفسه كان ممثلا لأحد أولئك السفراء .

وكان هذا الاحتفال في أول شهر أبريل ، فاتخذ مذ ذاك سنة ، وانتشرت هذه العادة في غالب ممالك أوربا ، ولا سيما في إنجلترا ، وانتهت إلى بعض آفاق الشرق .

اليازجي ومطران

في الوقت الذي تحتفل فيه مصر بخليل مطران ، وتعقد له مهرجاناً عظيماً ، تدعو إليه أدباء العرب ليشتركوا في تكريم الخليل ، يشاء القدر أن يعقد ذلك المهرجان في الشهر الذي يتفق ومرور مئة عام على مولد الشيخ إبرهيم اليازجي ، أستاذ خليل مطران . ولا نخال الشيخ ، وهو في علياء مقامه من عالم الخلود إلا مغتبطاً قرير العين بإجماع أهل الفضل على الحفاوة بتلميذه . ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن الخليل كان قد رثى أستاذه بقصيدة من عيون الشعر ، قال في مطلعها :

ربَّ البيان وسيِّد القلم　　　وفّيت قسطك للعلى فنم

ولما احتفل بإزاحة الستار عن تمثال اليازجي ببيروت نظم الخليل فيه قصيدة عصماء استهلها بقوله :

قم لابساً ثوب الخلود وعلم　　　بفم المثال الصامت المتكلم

أترى الخليل حذا حذو من قال « ومن بالعراق » فوصل في المعنى بين فعلي نم وقم ، وعطف على نومة الجسد بعثاً للروح ، تحيا به في عالم الذكرى والخلود !

***

فتح السماء

قالوا لنابليون ذات عشيّةٍ　　　إذ كان يرقب في السماء الأنجما

هل بعد فتح الأرض من أمنيّةٍ　　　فأجاب : أنظر كيف أفتتح السما

خليل مطران

مهرجان الخليل

رعى الله مصر العزيزة ومليكها المعظم ورعى الله سرواتها الصيد الأماثل وأبناءها الصيّابة النجب فلها في كل مفخرة ومنبهة عمل أثير يتألق برعاية المليك ويزدان بإجماع الأمة عليه ويدل ذلك الإجماع على مبلغ ما تتحلى به من وفاء قلب ونضوج ذهن يتمثلان في قدرها قدر العاملين وفخرها بالعباقرة النبغاء .

يجدّ المسافر في سيره ويقطع إلى غايته النجاد والوهاد بين عامر وغامر ويجتاز البحر والبيداء بين رقعة منبسطة وآفاق واسعة ويركب إلى تلك الغاية بساط الريح أو متن البخار أو صهوة نجيبة فارهة فلا يشغله الجد في السفر عن لفتة إلى جبل شاهق وصيحة إعجاب بفلك زاهر أو روض ناضر ووقفة سحر ودهشة تتملى العين فيها رونق شلال فياض بدفقات الماء والأضواء .

كذلك تجدّ الأمة في سيرها إلى غاياتها فلا تشغلها أحداث السير بين غمرات السياسة ومسالك الكفاح عن لفتة إلى نابغ من أبنائها يزاحم مجده شوامخ الأطواد ويتلألأ ذكره تلألؤ زواهر الأفلاك وتتدفق أنوار الوحي والعبقرية خلل آثاره النواضر .

ومصر رعاها الله لم تشغلها قط نواصب الحوادث والأحداث عن أن تسبغ حلل التمجيد والتعظيم على عباقرة الفكر من أبنائها الناهين فعقدت لهم في كل فينة وفينة مهرجاناً تلو مهرجان شمله المليك برعايته وعطفه وأحيت به مصر أسواق العرب وندوات قرائحهم فخف إليه رجال شقيقاتها الجارات ليشاطروها الفرحة والخيلاء بأبنائها العظماء .

« كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها وصنعت الأطعمة وأتت النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون في الأعراس ويتباشر الرجال والولدان لأنه حماية لأعراضهم وذبّ عن حياضهم وتخليد لمفاخرهم وإشادة بذكرهم وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ أو فرس تنتج » .

وكان يوم أمس وعلى الأدق اليوم التاسع والعشرون من شهر مارس (آذار) يوماً من تلكم الأيام الغر المشهرة هادنت فيه مصر الزمن فلبست ثياب الأعراس



خليل مطران

بريشة الأستاذ جمال الدين السجيني

وحفلت دارتها بالأبناء والوفود ملؤوا منها الرحبات والمقاصير وازدحمت الحجال بالغيد الحسان وانطلقت مزاهر النثر والشعر تصدح بكل ساحر مطرب تهنئ به مصر وتهنئ أقطار العرب جمعاء بشاعر عظيم من شعراء الرعيل الأول حمل هو وصحب له لواء الشعر مدة نصف قرن أو تزيد خفاقاً بين مسابح النجوم .

ذلك هو مهرجان خليل مطران شرفه المليك بإيفاد مندوبه وزانه وزير المعارف وعظماء الرجال بشهوده وضفر فيه الخطباء والشعراء إكليل المجد وغار الفخار لرجل لم ير إلا زاهداً في المجد والفخار .

على أن عبقرية الخليل المشعشعة في آثاره السواطع ستحيط اسمه بالمجد والفخار على مدى الأزمان ومختلف الأجيال ما دام للشعر سدنة وأحبار يرعون قدس منازله ويبثون في الناس آياته الخوالد .

وليس هذا مقام التوسع والإفاضة في مذهب الخليل في الشعر والإبانة عن أسرار فنه فيه وإنماهي تحية تزجى إليه في يوم عيده المشرق الوضاح ولئن كان الكلام على فنونه جدولا جدولا تضيق به الأسفار الضخام ناهيك بالمقال العابر لقد يحلو لنا مع ذلك أن نضمن هذه التحية إشارة إلى المنبع الفياض بتلك الجداول .

٭٭٭

عالج مطران الشعر يوم عالجه فحذا فيه حذو كل شيء في عصره تدفعه الملكة إلى أن ينفس عن صدره ويقول شعراً وأغلب ما يكون ذلك الشعر مطبوعاً بطابع التقليد والمحاكاة وقلما انبثقت منهما أشعة شعر جديد تختلج فيه روح العصر ويتسم بسمات الشاعر حتى تنجلي للشاعر الموهوب حقيقة الشعر ويستبين له فيه وضح السبيل وهكذا كان مطران .

نظم مقلداً ومحاكياً فاجتمع له في ذلك النظم تلال من الطروس ولكن روح الشعر كانت قلقة نابية فيما ضرب عليها من هيكل وألبست من ثياب فجفا مطران الشعر واطرح كل ما نظم ولم يبق منه إلا على قصيدة واحدة نشرها في مستهل الجزء الأول من ديوانه ليستروح منها نسمات الصبا ويستذكر بها خطرات الشباب .

غير أن موهبة الشعر لظى يضطرم في الفؤاد لا يخمده الهجران والقطيعة فما هو إلا عصف ريح من رياح الحيـاة حتى يشب ويتأجج والريح تطفئ لهب الشمعة ولكنها تزيد مارج النار ضراماً فحركت ريح الحياة موهبـة مطران فاتقدت وعاد مطران إلى الشعر بعد إذ وضحت لعينيه سبله واستقام له أوده فتغنى وصدح وكان

من غنائه : « فتاة الجبل الأسود » و « مقتل بزرجمهر » و « الجنين الشهيد » و « أشعة رنتجن » إلى قصائد أخرى من هذا الطراز كانت الأسس في بنيان الشعر الحديث .

طلع مطران على العالم العربي بهذا الشعر الحديث فأكبره فريق وازورّ عنه فريق وكذلك شأن الناس في كل جديد حتى أثبتت الأيام بعد نظره وسداد رأيه وصدق صيحته وسار معه نفر قليل تعب منهم من تعب فتوقف وتابع السير من تابع إلى أن استقرت الفكرة في نفوس الشباب اليوم بعد اعتمال فنهضوا يسلكون هذا النهج الجديد ويبرز فيه من اجتمعت له موهبة الشعر وأدوات البيان وما من شك في أن ثقافة العصر ستجعل من هذا الشعر شعر الغد وستسجل للخليل أنه سبق عصره بنحو نصف قرن .

ولعل ذلك الازورار أو مجاراة العصر أو أعباء الحياة الثقال فالخليل إذا إشتغل بالشعر ساعة اشتغل ساعات بالقطن والقمح والسماد وقضاء حاجات الناس لعل كل هذا قد صرف الخليل عن السير في أداء الرسالة إلى غاية غاياتها فما كان الناس يشيمون منها حيناً بعد حين غير لمعات متقطعة في مثل « رعمسيس الثاني » و « نيرون » وأشباههما إلا أن يكون بين دفتي ديوانه الضخم الكبير ما لم ينشر من آيات بينات هن مصداق هذه الدعوة التي قام بها .

وكيفما كان الأمر فشعر الخليل مرآة عصره وبلاده رثى وواسى ومدح وهنأ ووصف ورسم وعلم وهذب وجمع وسجل وثار واستثار ورضي واسترضى ومج مرقمه بالسحر ينفثه أفانين وألواناً ويخلد على الزمن فضائل النفوس ومأثرات الكرام ويصور في « حكاية عاشقين » أعلى درجات السمو في الحب والوفاء .

***

أما فن مطران فمتعدد الجوانب تعدد الألوان والأصباغ في لوحة الرسام ولما كان وحي الرسام وفنه يبرزهما في أجمل صورة معرفة الرسام بالأخلاط وعلمه بقواعد الرسم وأصول النسب فقد تجلى وحي مطران وفنه في ثقافة شاملة وعلم واسع وعقل كبير يوازن بين الكليات والجزئيات بحيث ينفض قلمه عن القصيدة الواحدة فإذا هي خلق سوي جميل الهيكل متناسب الأعضاء وآية هذا أنه يعرف ما يريد أن يقول ويعرف كيف يضع معانيه مواضع استحقاقها ويوفق بين حلقاتها فهو الذي يقودها ويعين مواقعها فلا يستسلم لها ولا يعنو لجور قافية أو تركيب .

وفن مطران جلي في تقصي المعنى والإحاطة به إحاطة تامة لا يندّ عنه شعاع منه مهما دق واستتر فأكثر تشبيهاته صور كاملة وحسبنا أن نشير منها إلى مثل واحد فيه كل الغناء : رثى مطران أخاه شوقي وناح عليه نوح المفجوع بالأخ الشقيق ثم عرضت له عبقريته وعظمته فشبهه بالنيل ولكن أتراه قنع بالتشبيه العابر كلا فقد مضى فيه إلى أبعد دقائق التشبيه فقال :

فأرى مثالا رائعاً في صورة للنيـل تملأ منه عين الرائي
النيـل يجري في عقيق دافق من حيث ينبع في الربى الشماء
يسقي سهول الريف بعد حزونه ويديل عمراناً من الإقواء
ما يعترضه من الحواجز يَعْدُه ويعد إلى الإحياء والإرواء
حتى إذا رد الفيـافي جنـة فيما علا ودنا من الأرجاء
أوفى على السد الأخير ودونه قرب المصير إلى محيط عفاء
فطغى وشارف من خلاف زاخراً كالبحر ذي الإزباد والإرغاء
ثم ارتمى بفيوضه من حالق في المهبط الصادي من الجرعاء
فتحدرت وكأن منهمراتها خصل من الأنوار والأنداء
مسموعة الإيقاع في أقصى مدى جذلى بما تهدي من الآلاء
إن أخطأت قطراً مواقع غيثها أحظته بالنفحات والأصداء
لله در قريحة كانت لهـا هذي النهاية من سنى وسناء
رفعتك من علياء فانيـة إلى ما ليس بالفاني من العليـاء

وعلى هذا الغرار تجري صور مطران في قصائده زاخرة بألوان الخيال والجمال منبئة عن تلك القوة الكامنة وراء ريشته كمونها في تجاليد مارد جبار .

وحدث كذلك ما شئت عن الشعور الرقيق السامي الذي تفيض به قصائد مطران وتحمله إلى أعلى قمة من قمم الشعر الإنساني الخالد ومطران في هيكله النحيل وحديثه الرقيق ونظرته الحالمة وتواضعه السامي وحدبه على ذوي الحاج قطعة من شعور متنقلة بين الناس تحوم حولها العيون والقلوب حومان القطا على الغدير وأقل ما تجزيه به هـذا المهرجان الذي بسمت فيه العيون زهواً بمطران ونبضت فيه القلوب بحب مطران وكلها تهتف معنا قائلة :

العبقـرية بوأتك سريرا فاجلس على عرش البيان أميرا
إن تنه فضلك أن يذيع فإنما تنهى الأزاهر أن تفوح عبيرا

عادل الغضبان

الذين قتلتهم أشعارهم

٣ — وضّاح اليمن

للأستاذ علي الجارم بك

امتزج فيه الدم الفارسي بالدم العربي العريق ، فأبرزا صورة تأنق فيها الجمال ، وأبدعت فيها يد القدرة ما شاءت أن تبدع . كان أبوه إسمعيل حميريًّا ، وكانت أمه فارسية النبعة ، تعتزبكل مافي الفرس من جمال ساحر ، ورشاقة فاتنة . ومات أبوه وهو لايزال رضيعاً فكفلته أمه ، وتزوجت رجلا من أبناء الفرس ، فشبّ الغلام في ظلال حبهما قرير العين ناعماً مدللا . وكثيراً ما كانت الهواجس تتواثب على الأم ، وهي ترى ابنها يثب في فناء الدار عابثاً مرحاً ، وقد تلألأ وجهه ، وتفتحت محاسنه كما تتفتح أكمام الزهر لأشعة الصباح : إن عبد الرحمن زينة كل فناء ، وملتقى إعجاب كل عين . وهو حقيق بأن تصونه في سويداء فؤادها ، وأن تتحدى به نساء القبيلة ، وأن تحرص عليه حرصها على نسمات الحياة . ولكن القدر يأبى أن يعطي كل شيء كاملا . وهو لا يجود بالنعيم إلا لكي يملأ القلوب حزناً على زوال النعيم ، ولا يبسم إلا بمقدار ما يتألق البرق في الليلة المظلمة ليجر وراءه جيشاً من الرعود والصواعق .

تتنهد الأم الوالهة في ألم وحسرة ، وتضرب بكف على كف فعل اليائس القنوط ، حتى إذا سكنت عنها غشية الحزن ، صاحت بعبد الرحمن فأقبل نحوها صخّاباً ضحوكا ، فتمسح دمعة عرفت طريقها إلى جفنها بعد طول الاحتباس ، ثم تميل برأسها على الغلام فتقبله في وله ولهفة وتهمس في أذنه والحزن يكاد يخنقها قائلة :

— أتحبني يا عبد الرحمن ؟ فيشب الغلام على أصابع قدميه ليملأ خديها لثما وتقبيلا ، ويصيح :

— ما هذا السؤال يا أماه ؟ لقد مللته وضجرت به ! إني أحبك كما أحب نجم

الصباح الخفاق ، وصمت الصحراء الهادئ ، وظل السرحة في يوم قيظ . ولن يجد رأسي راحة إلا في أن يميل على ذلك الصدر الذي يموج بالرفق والحنان ، فيستريح بعد كد ، ويهدأ بعد اضطراب . إني أحب الجمال وتفتنني الملاحة في كل شيء . أحب الجمال فيك يا أماه ، وأحبه في النخلة الفارعة وقد عبث بسعفها النسيم فماست تيهاً واختيالا ، وأحبه في الأقحوانة الباسمة سقاها الندى فاهتزت كما يهتز الشارب الثمل ، وأحبه في الشمس الغاربة وهي تأبى إلا أن تغوص في لجة من الذهب كما بزغت في لجة من الذهب ، فتلصق أمه وجهها بوجهه في شغف وتقول :

— شاعر ابني ورب الأكاسرة ! فينحيها عنه مترفقاً ويقول :

— أتسمين الكلام شعراً ؟

— لا يابني ! إن الشعر كلام حقـًّا ، ولكن ليس كل كلام شعراً . ثم تنظر طويلا في وجهه وتهمس :

— أتحب أن تفارقني يا عبد الرحمن ؟

— أفارقك ؟ ! كيف يا أماه ؟ إن غصن الدوحة إذا فارق أمه مات . وتجيبه الأم بين الزفرات والعبرات :

— إن أخشى ما أخشاه يا عبد الرحمن أن يطلبك أعمامك ، وأن يغتصبوك مني . ولو فعلوا لذهبت حياتي معك . لقد قلت الآن : إن غصن الدوحة يموت إذا فارق أمه ، ولكن الدوحة التي أنت فرعها سوف تموت ضربة لازب إذا انتزعوا منها فرعها ، لأنه ينبثق من قلبها ، وتتغلغل جذوره بين جوانحها . أعرفت كيف أخشى عليك يا عبد الرحمن ، وكيف يزيد همي كلما زدت نمواً وجمالا ؟

وبينما هما في الحديث إذ يدخل زوجها فتنطلق إليه باكية حزينة ، تبثه لواعج نفسها ، وتكشف له عما يساورها من خوف وآلام . ولكن الرجل يطويها إلى صدره في حنو وإشفاق ، ويهدئ نفسها القلقة الواجفة هامساً : انضحي عنك الخوف يافتاتي ، فإن عبد الرحمن لم يكن ابن أحد غيري . إنهم لن يستطيعوا أن ينالوا منه منالا ؛ إنه فارسي لا عربي . ولن يكون للعرب فيه نصيب . إن كل شعرة في جسده تصيح بأنه فارسي الأرومة كسروي النسب . انظري إلى عينيه ، ثم إلى جبينه ، ثم إلى أنفه ، هل ترين فيه إلا ملامح الفرس وسماتهم ؟ لا ! إنه ليس من العرب ، ولن يستطيع أعمامه أن يستلبوه من أيدينا ، ولوأعانهم الخليفة الأموي . وتهدأ الأم وتعود إلى وجهها الوسيم بشاشته ونضارته بعد أن عصفت بهما الأحزان .

ويتوثب القدر ، ويضرب الدهر ضربته ، وتزدحم الدار بعم عبد الرحمن وجدته لأبيه ، ومعهما جماعة من حمير ومن آل قَيْفان ومن آل ذي جدن يطالبون بابنهم عبد الرحمن في شراسة وصخب . فيشتد الحزن بأمه ، ويتملكها الهلع ، وتحتضن الغلام في ذعر يشبه الجنون ، وتأبى أن تسلمه إليهم ، ويصيح زوجها : إن هذا الغلام ابني، وهو فارسي، ولن أتركه لأحد منكم ولو لقيت الموت دونه . ويشيع الخبر في الحِلّة فيسارع أبناء الفرس إلى نصرة أخيهم ، وتدفع الحمية العرب إلى مظاهرة عم الغلام لاستنقاذه من أيدي أخواله الفرس ويتفاقم الشر ، وتتأجج الفتنة ، ويصبح الأمر نزاعاً على شرف الجنس بعد أن كان نزاعاً على غلام . ويقبل شيخ الحي فيشير بعرض الأمر على حاكم القبيلة ، فتطمئن النفوس الثائرة إلى رأيه ، ويرحل القوم ومعهم الغلام إلى الحاكم . ويتقدم إليه عم عبد الرحمن مدعياً أن الغلام عربي ، وأنه ابن أخيه إسمعيل ، وأن نسبه ينتهي إلى يعرب بن قحطان . وتؤيده البينة ، وتزكي قوله الشهود ويقبل زوج أمه فينكر أن يكون إسمعيل أبو الغلام من جد عربي ، ويؤكد أن آباءه الأولين كانوا من الفرس الذين قدموا لنصرة سيف بن ذي يزن على الحبشة . ثم يتجه إلى الحاكم قائلا : « وإذا رجعت إلى نسبه أيها القاضي رأيت أنه عبد الرحمن بن عبد كلال بن داذ ، و "داذ" اسم فارسي ما في ذلك شك ، فكيف يزعم هؤلاء أنه عربي خالص النسب ؟ » ولكن الحاكم يرد عليه بأن العرب قد تسمي أبناءها بأسماء العجم فقد سموا بأبرهة وهو اسم حبشي ، وأن الأسماء علامات ودلالات لا توجب نسباً ولا تدفعه ، وأن أحد أجداد الغلام يدعى بأبي جمد ، وهي كنية يمانية ، ولا يعلم أن أمة من الأمم تكتني غير أمة العرب . ثم يحكم بالغلام للحميريين ، ويتجه إليه فيبهره جماله ، فيمسح بيده على رأسه ويقول : « اذهب فأنت وضاح اليمن » .

ويخرج الحميريون من لدنه فرحين يتسابقون إلى حمل الغلام وإلى تقبيله وتدليله ، وتنتحي الأم وزوجها ناحية وهي تشهق بالبكاء وتردد الحسرات .

* * *

ينشأ الغلام بين أعمامه ، بعد أن نال نصيبه من مال أبيه ، نشأة ناعمة مترفة ، وينتقل من الطفولة إلى الشباب مرحاً تياهاً ، وسيما سمحاً ناضر العود ، يزهى بوجه صباحي ألقى عليه الحسن رداءه ، وقامة كأنها عامل الرمح ، وجسم وثيق العضل فوار ماء الشباب . وكان شديد إحساس النفس ، واسع الخيال ، مطبوعاً على الشعر مجيداً فيه ؛ جم الشهوات والنوازع ، مولعاً باللهو والعبث ولذائذ الحياة . وكأنما أطغاه حسن

صورته فراح يشبب بكل فتاة ، وينصب شباكه لكل عذراء نفور ؛ وكان يتقنع لفرط حسنه إذا ورد مواسم العرب كما كان يفعل المقنع الكندي وأبو زبيد الطائي .

أولع بفتاة من بنات الفرس تدعى « روضة » فقال فيها شعراً كثيراً منه :

قالت : ألا لا تلجن دارنا ... إن أبانا رجل غائر

قلت : فإني طالب غِرّة ... منه ، وسيفي صارم باتر

قالت : فإن القصر من دوننا ... قلت : فإني فوقه ظاهر

قالت : فإن البحر من دوننا ... قلت : فإني سابح ماهر

قالت : فحولي إخوة سبعة ... قلت : فإني غالب قاهر

قالت : فليث رابض بيننا ... قلت : فإني أسد عاقر

قالت : فإن الله من فوقنا ... قلت : فربي راحم غافر

قالت : لقد أعييتنا حجة ... فأت إذا ما هجع السامر

واسقط علينا كسقوط الندى ... ليلة لا ناه ولا زاجر

ولما شفه حبها ؛ واشتهر أمره معها ، خطبها إلى أهلها فأبوا أن يزوجوه إياها ، فرحل عنها يائساً وهو يقول :

يا أيها القلب بعض ما تجد ... قد يعشق المرء وهو يتئد

قد يكتم المرء حبه حقباً ... وهو عميد وقلبه كمد

ماذا تريدين من فتى غزل ... قد شفه السقم فيك والسهد؟

يهددوني كيما أخافهم ... هيهات أنى يهدد الأسد

* * *

وكان وضاح اليمن يرحل إلى مكة في موسم الحج ليتلقى وفود الحجاج مقبلة من الشام وفيها الهوادج المطرزة بالذهب ، يحملن الكواعب الحسان ، والجواري الساحرات ، والغيد الفواتن ، كما كان يفعل ابن أبي ربيعة وغيره من فتيان الشعراء . وكان النساء يتعرضن في هذا الموسم للشعراء ، ويغرينهم على التشبيب بهن ؛ وينصبن لهم أشراك الفتنة وكان الشعراء في هذا العهد أشبه بالمصورين في عصرنا الحاضر تتعرض لهم الفتاة المدلة بجمالها لترى صورتها في المجلات السائرة بعد يوم أو يومين .

وحج الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي بالناس سنة إحدى وتسعين ، وحجت معه زوجه أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان . وكانت بارعة الحسن فاتنة الملاحة . عرفت أنها جميلة فزادت بجمالها زهواً ، وقويت فيها غريزة المرأة فأغرتها بالتبرج ،

ففتنت الناس وفتنت الشعراء . رآها وضاح اليمن بمكة فسحره جمالها ، وكان معه كثَيّر صاحب عَزّة ، فرأى أن يحتفظ برأسه بين كتفيه ويكتفي بالغزل بجاريتها غاضرة ، ولكن وضاحاً كان شاعراً مفتوناً مغامراً ، خدعته نفسه فسوّلت له أن جماله سحر أم البنين وأوقعها في حبائل حبه ، فأرسل الشعر في التشبيب بها طليقاً غير هياب ، وكأنما غاب عنه أنه يحوم حول عرّيسة أسد، ويعدو إلى الموت عدواً . لقد تغزل غيره من الشعراء في أم البنين ، ولكنهم كانوا أحزم منه ، كانوا يرسلون أبياتهم في خفية ومكاتمة ، كما كان يفعل عبيد الله بن قيس الرقيات . ولما انقضى موسم الحج رحل شاعرنا إلى دمشق ليكون إلى جوار فاتنته وسالبة لبه ، ومدح الوليد بقصائد منها :

فإنك لو رأيت الخيل تعدو سراعاً يتخذن النقع ذيلا
إذاً لرأيت فوق الخيل أسداً تُفيد مغانماً وتفيد نيــلا
إذا سار الوليد بنا وسرنا إلي خيل نلفُّ بهن خيلا
وندخل بالسرور ديار قوم ونعقب آخرين أذى وويلا

⁂

ويذيع شعر وضاح في أم البنين ، وينتهي خبره إلى الوليد فيعقد العزم على قتله . ولكن ابنه عبد العزيز يحاول أن يرد أباه عنه ، فيدخل عليه راجيا أن لا يقتل الرجل. ثم يتوسل إليه بقوله : لا تأبهْ للرجل يا أبي فإنه مائق مضطرب مسلوب العقل ، وإذا قتلته يا أمير المؤمنين حققت قوله في أمي ، وتركت لي سبّة الأبد . ولكن افعل به ما فعل معاوية بأبي دهبل ، فإنه لما شبب بابنته ، وشكاه إليه ابنه يزيد ، وطلب إليه أن يقتله ، قال له معاوية: لو قتلته لحققت قوله، ولكنا نـَبَرّه ونحسن إليه فيستحيي ويكف ويكذّب نفسه . ولكن الوليد يأبى أن ينصت إلى رجاء ابنه ، ويصيح : ألم تسمع قوله ؟

قد أصبحت أم البنين مريضــة نخشى ونشفق أن يكون حماما
يارب امتعني بطول بقائهـا واجبر بها الأرمال والأيتاما
كم راغبين وراهبين وبؤس عصموا بقرب جنابها إعصاما
بجناب طاهرة الثنا محمودة لا يستطاع كلامها إعظاما

يكفيني أنه يصرح باسمها في شعره ليطير في الآفاق ويجمع حولها الشبهات . ثم إنه لم يكتف بذكر أم البنين حتى تعدى إلى ذكر أختي فاطمة إذ يقول :

بنت الخليفة والخليفة جدها أخت الخليفة والخليفة بعلها
فرحت قوابلها بها وتباشرت وكذاك كانت في المسرة أهلها

أما لهذا الكلب مزدجر عن نسائنا وأخواتنا ؟ أماله عنا مذهب ؟ ويل له مني! والله لأسكتن لسانه. ثم يأمر بعض أعوانه أن يحملوا إليه وضاحاً وحين يساق إليه يأمر بحفر بئر فتحفر ويدفن فيها حيًّا .

* * *

هذا مجمل قصة وضاح اليمن . وقد زاد فيها الرواة كثيراً من أكاذيبهم ، وبدت فيها أصابع الشعوبية عابثة ساخرة من العرب وخلفائهم . فقد زعموا أن أم البنين بعثت إلى وضاح وكثيّر وطلبت إليهما أن ينسبا بها . وادعوا أنها دعت وضاحاً إلى الشخوص إلى دمشق ومدح الخليفة ، وأنها وعدته بأنها ترفده عنده ، وتقوي أمره لديه . وروى أصحاب الأخبار أنه وقع بين رجل من زنادقة الشعوبية ورجل من بني الوليد فخار خرجا فيه إلى أن أغلظا المسابة وذلك في دولة بني العباس ، فوضع الشعوبي كتاباً زعم فيه أن أم البنين عشقت وضاحاً ، وأنها كانت ترسل إليه فيدخل إليها ويقيم عندها ، فإذا خافت أن يراه أحد وارته في صندوق وأقفلت عليه ، وأن الوليد بعث إليها مرة بجوهر ثمين مع خادم له ، فدخل عليها الخادم مفاجأة ووضاح عندها فأدخلته الصندوق وهو يرى ، فأدى إليها رسالة الوليد ، ثم قال : يا مولاتي هبي لي منه حجراً فأبت عليه وزجرته ، فعاد إلى الوليد وأخبره الخبر ، فدخل على أم البنين وهي جالسة في هذا البيت تمشط شعرها ، فجلس على الصندوق ثم قال لها : هبي لي هذا الصندوق ، فقالت : كل ما في البيت لك يا أمير المؤمنين . قال : لا أريد إلا هذا الصندوق . فقالت : خذ غيره يا أمير المؤمنين فإن لي فيه أشياء أحتاج إليها ، قال : ما أريد غيره ، قالت : خذه ، فدعا بالخدم وأمرهم بحمله وأن يحفروا بئراً عميقة، ثم دعا بالصندوق وأخذ يشير إليه ويقول: إنه بلغنا شيء إن كان حقا فقد كفناك ودفناك ، ودفنا ذكرك ، وقطعنا أثرك إلى آخر الدهر ، وإن كان باطلا فإنا دفنا الخشب وما أهون ذلك ! ثم قذف بالصندوق في البئر وهيل عليه التراب .

هذا هو حديث الإفك الجديد ، وهو حديث لا يدخل في عقل عاقل ، ولا يقابل ممن يعرف سيرة الوليد وصرامته ، ومكانة أم البنين وشدة حفاظها وتمسكها بدينها إلا بالسخرية والاستهزاء .

على الجارم

الحكم الذاتي للهند

حقيقة مسألة الجلاء

للأستاذ محمد عبد الله عنان

وثبت مسألة الهند إلى الطليعة حينما أعلن المستر أتلي رئيس الوزارة البريطانية في مجلس العموم، في يوم ٢٠ فبراير المنصرم : « أن الحكومة البريطانية قد اعتزمت بصورة نهائية أن تتخذ الإجراءات الضرورية لتسليم السلطة في الهند إلى أيد هندية مسئولة، وذلك في موعد لا يتجاوز شهر يونية سنة ١٩٤٨ » .

ونستطيع أن نصف هذا القرار، الذي اتخذته الحكومة البريطانية بالتخلي عن سلطان الحكم في الهند، بأنه قرار تاريخي يضع حدا لمرحلة طويلة مؤلمة من تاريخ الهند كما يضع حدا لمرحلة من الكفاح القومي الشاق الذي شهرته الهند على بريطانيا، في ربع القرن الأخير . بيد أنه يجب علينا مع ذلك أن نمعن النظر في حقيقته، وأن نفهمه على ضوء التحفظات التي اقترنت به، وأن نتريث في تقدير النتائج العملية المترتبة على تنفيذه بالنسبة لقضية الهند واستقلالها .

ويجدر بنا قبل ذلك أن نتقدم إلى القارىء بإلمامة قصيرة عن تاريخ السيادة البريطانية في الهند، وهي السيادة التي تصارحنا بريطانيا اليوم بعزمها على التخلي عنها .

إن استيلاء بريطانيا على الهند قصة من أعجب قصص الاستعمار الأوربي، وهي ترجع إلى نحو ثلاثة قرون . فمنذ اكتشف فاسكودا جاما الرحالة البرتغالي طريق الهند البحري في سنة ١٤٩٨ والدول البحرية الاستعمارية تتطلع إلى غزو هذه القارة الشاسعة الغنية، أعني الهند . ونشب التنافس حول استعمارها زهاء قرن بين الهولنديين والبرتغاليين، ولكنهم لم يفوزوا إلا ببعض القواعد الساحلية . ثم نزل الإنجليز منذ أوائل القرن السابع عشر إلى هذا الميدان الخصب، على يد شركة تجارية هي شركة الهند الشرقية الشهيرة، فبدأت نشاطها في بعض المناطق الهندية الشرقية، مثل بنغالة ومدراس، وامتد نفوذها شيئاً فشيئاً إلى المناطق الوسطى والغربية في بومباي وغيرها . ولم يكن ينافس بريطانيا يومئذ في استعمار الهند سوى فرنسا، التي ظفرت أيضاً ببعض القواعد الساحلية . واضطرم النضال بين الدولتين، طوال القرن

السابع عشر ، في أوربا وخارجها ، حول السلطان السياسي والمغانم الاستعمارية . وكان النصر حليف إنجلترا . ولقيت إنجلترا في نفس الوقت مقاومة عنيفة من الإمارات الهندية المختلفة ، التي قامت على أنقاض الدولة المغولية الكبرى ، وخاضت معهم عدة معارك ، أشهرها معركة بلاسي الحاسمة (١٧٥٧ م) . وكان القائد الشهير « روبرت كلايف » أول مؤسس حقيقي لسلطان إنجلترا في الهند ، وعلى يده استطاع الإنجليز أن يبسطوا حكمهم على عدة أقاليم شاسعة ، ولا سيما بنغالة وأورسا وبهار ؛ ولم تأت أواخر القرن السابع عشر حتى انهار نفوذ الدول المنافسة : هولندة وفرنسا والبرتغال تباعاً ، وعين أول حاكم إنجليزي للهند في سنة ١٧٧٣ ، وهو « ورن هاستنجس » . ولما اتسع نطاق الحكم البريطاني في الهند على هـذا النحو انتقلت السلطة والإدارة من يد شركة الهند الشرقية إلى العرش ، وانشئ لإدارة الهند مجلس خاص ، اشترك فيه بعض مديري الشركة ، واستمر حكام الهند المتعاقبون يفتحون إقليما بعد إقليم ، ويقضون على الإمارات المحلية واحدة بعد أخرى ، سواء بالفتح أو بإرغامها على عقد معاهدات تضعها تحت حماية إنجلترا ؛ فلم تأت أوائل القرن التاسع عشر حتى كانت إنجلترا قد بسطت سلطانها على معظم أنحاء الهنـــد الشاسعة . وكانت البنجاب آخر الأقاليم التى استولت عليها (سنة ١٨٤٩) ، وحطمت إنجلترا في الوقت نفسه معاقل السيخ ، وهم أشد خصومها مراسا ، واستولت على بورما في أواخر القرن الماضي ، وبذا تم استيلاؤها على القارة الهندية من أقصاها إلى أقصاها .

وفي سنة ١٨٧٧ أعلنت الملكة فيكتوريا ملكة إنجلترا إمبراطورة للهند ، ومن ذلك الحين يلقب حاكم الهند الإنجليزي بنائب الملك « Viceroy » وفي سنة ١٩١١ زار الملك جورج الخامس ، ولد الملكة فكتوريا ، الهند وتوج إمبراطوراً فيها .

وبذلت الهنـــد خلال هذا الصراع الطويل غير محاولة لتحطيم النير البريطاني ، وكانت أخطر محاولة بذلتها في هذا السبيل هي الثورة الهندية العامة التي نشبت في سنة ١٨٥٧ ، والتي كادت تقضي على سلطان الإنجليز في الهند ، لولا أن تداركتهم ظروف إنقاذ مدهشة ، فاستطاعوا سحقها بعد كفاح دام عامين .

ومن ذلك الحين يتوطد سلطان إنجلترا في الهند بصورة نهائية ، وتمضي إنجلترا قدماً في سياستها لحكم الهند واستثمارها ، ويسود الهند نوع من الركود القومي ، فلا تستأنف يقظتها القومية إلا في أواخر الحرب الكبرى .

وأما عن الوضع السياسي فإن الهند تعتبر من أملاك التاج البريطاني ، وسوف

يستمر اعتبارها كذلك حتى ينفذ النظام الجديد الذي أشار إليه التصريح البريطاني ؛ وهي تنقسم في ظل التاج إلى وحدتين كبيرتين : الأولى الهند البريطانية ، وتبلغ مساحتها مليون ومائة ألف ميل مربع ، ويبلغ سكانها نحو ٢٧٠ مليوناً ، وتشمل الولايات الآتية : بنغالة وأسام وبهار وأوريسا والأقاليم المتحدة والبنجاب والولايات الشمالية الغربية وبومباي وبلوخستان البريطانيـة والأقاليم الوسطى وبيرار وكورج ومدراس وجزائر أندمان ونيكوبار ؛ والثانية هي الولايات الوطنية المستقلة ، وتبلغ مساحتها سبعمائة ألف ميل مربع ، ويبلغ سكانها نحو ثمـانين مليوناً ، وأهمها حيدر أباد وميسور وكشمير وراجبوتانا والهند الوسطى وولايات بومباي وولايات مدراس والولايات الوسطى وولايات بنغالة وولايات الأقاليم المتحدة وولايات البنجاب وبلوخستان وولايات السيخ وولايات الحدود الشمالية الغربية ؛ وتعترف هذه الولايات أو الإمارات المستقلة بسيادة التاج البريطاني ، ويتولى الحكم فيها أمير وطني مطلق ، ولكل منها جيش خاص وميزانية خاصة ، ويقوم إلى جانب الأمير مقيم بريطاني يراقب أعماله ويحد من تصرفاته التي لا يرغب فيها ، وللحكومة البريطانية أن تعزله إذا أساء السيرة ، وأن تعين مكانه أميراً وطنيا آخر ، وبذلك يعتبر أمراء الولايات المستقلة في الواقع حكاماً محليين مصيرهم مرهون بمشيئة التاج البريطاني .

✡✡✡

وقد بدأ كفاح الهند في سبيل أمانيها القومية منذ أواخر الحرب الكبرى ، حيث كانت التضحيات العظيمة التي اضطلعت بها الهند ، إلى جانب الإمبراطورية ، عاملا قويا في بعث الشعور القومي، وحيث بدأت السياسة البريطانية تدرك من جانبها أنه لا بد من عمل شيء لتهدئة الفورة القومية الهندية . ولسنا بحاجة إلى أن نستعرض قصة هـذا الكفاح المر الذي بدأته الهند منذ نحو ربع قرن ، والذي كان لتعاليم غاندي ووحيه أثر عظيم في إذكائه وتوجيهه ؛ فقصة العصيان المدني ، وحركة عدم التعاون ، والفورات والمظاهرات المضطرمة في سائر أنحاء الهند ، وأعمال القمع الدموية التى قامت بها بريطانيا ، ثم المفاوضات ، وندب اللجان ، وبذل الوعود المختلفة : كل هـذه أمور معروفة . على أنه يجب علينا مع ذلك أن نشير بإيجاز إلي الخطوات المختلفة التي اتخذتهـا بريطانيا لمعالجة المسألة الهندية ، وهي التي تزمع اختتامها اليوم بالخطوة الأخيرة التي تضمنها التصريح البريطاني الأخير .

ويمكن تلخيص هذه الخطوات في ثلاث مراحل : فقد بدأت بريطانيا محاولتها

الأولى لتعديل دستور الهند — والمسألة الهندية في نظرها مسألة دستورية قبل كل شيء — بإصدار قانون الهند الجديد ، المعروف بقانون « مونتاجو شلمسفورد » في سنة ١٩١٩ وفيه منحت الهند جمعية تشريعية ذات اختصاصات محدودة ، ومنحت طوائف الأقليات بعض الضمانات الخاصة ، وتقرر أن يمثل الهند لدى حكومة لندن مندوب سام ، كما تقرر أن يعاد النظر في هذا القانون بعد عشرة أعوام ، على يد لجنة خاصة ، تقترح ما يجب عمله لتعديل النظام الدستوري في الهند .

وبذلت المحاولة الثانية على يد لجنة « سيمون » بعد ذلك بنحو عشرة أعوام ، وتقدمت اللجنة على ضوء بحوثها بعدة توصيات لتعديل النظام الدستوري في الهند ، فأشارت إلى وجوب تحويل الهند إلى دولة اتحادية ، وإلى اعتبار الضمانات الطائفية أساساً لكل تغيير دستوري ، ومنح حقوق الانتخاب لطبقات معينة . هذا إلى بعض إصلاحات إدارية وثقافية أخرى ، كما أوصت بوجوب فصل ولاية بورما عن الهند ، وجعلها وحدة مستقلة ، وهو ما نفذ بالفعل من ذلك الحين .

على أن توصيات لجنة « سيمون » لم تثر حماسة ، ولم ترض حتى أشد المعتدلين من الوطنيين الهنود . وعلى أثر ذلك بذلت الحكومة البريطانية محاولة جديدة لحل المسألة الهندية على يد مؤتمر ، دعت إلى عقده في لندن سنة ١٩٣٠ ، ومثلت فيه الطوائف الهندية الكبرى : الهندوس والمسلمون والسيخ ، كما شهده ممثلو الإمارات المستقلة. ولكن المؤتمر انتهى إلى الفشل المطبق لتفاقم الخلاف بين الهندوس والمسلمين ، وعمدت الحكومة البريطانية إلى معالجة الأمر بمفردها ، فأصدرت في سنة ١٩٣٥ قانونا جديداً للهند ، ينص على أن يكون للولايات الهندية حكومات برلمانية مسئولة ، وأن تقوم بالهند جمعية تشريعية عامة ، تمثل الهند البريطانية والإمارات المستقلة معاً ، وأن تقوم إلى جانبها وزارة هندية مسئولة ، وأن يقتصر اختصاص نائب الملك على تولي شؤون الدفاع والشؤون الخارجية . ومع أن هذا القانون كان يمثل أبعد ما ذهبت إليه السياسة البريطانية في المنح الدستورية ، فإنه لم ينفذ إلا بطريقة جزئية في بعض الولايات الهندوسية لتخلف المسلمين والإمارات المستقلة عن التعاون في تنفيذه ، ومن ثم فقد بقي النظام القديم قائماً ، وبقي نائب الملك متمتعاً بسائر سلطاته القديمة .

ولما نشبت الحرب العالمية الثانية ، وشعرت بريطانيا بخطورة الموقف في الشرق الأقصى ، هذا فضلا عما تعلقه من أهمية بالغة على معاونة الهند في الدفاع الإمبراطوري ، بادرت تقطع على نفسها عهداً جديداً بأنها سوف تمنح الهند نظام الدومنيون أو الأملاك

المستقلة ، وأن هذا العهد سوف ينفذ عقب انتهاء الحرب مباشرة. على أن الدوائر الوطنية الهندية لم تبد حماسة في استقبال هذا العهد الجديد ، بعد ما أنسته من مطاولة السياسة البريطانية ونكثها المتكرر . ومرت خلال الحرب فترات عصيبة كانت الهند فيها تجيش باضطرابات قومية عنيفة ، وتشدد في مطالبها الوطنية ، وتلوح بالاتفاق مع اليابان إذا لم تنزل بريطانيا عند هذه المطالب . وهنا بعثت الحكومة البريطانية باللورد « ويفل » إلى الهند نائباً للملك سنة ١٩٤٣ ، ليحاول تهدئة الأمور وإقناع الهنود بتنفيذ الدستور الجديد ، حتى تسنح فرصة نظام تحقيق الدومنيون كاملا . على أنه لم يصب في مهمته نجاحا يذكر .

٭٭٭

وقد بذلت حكومة العمال البريطانية الحالية ما يمكن أن يسمى أقصى محاولة لتسوية المسألة الهندية ، وما يمكن أن يعتبر تنفيذاً للعهد الصادر بمنح الهند نظام الدومنيون ، أو ما يقرب منه ، فأوفدت في مايو من العام الماضي إلى الهند لجنة وزارية على رأسها اللورد « لورنس » وزير الهند ومعها مشروع تسوية جديدة ، يقضي بأن تؤلف في الحال حكومة هندية مؤقته ، يتولى الهنود فيها جميع الوزارات ، وأن تتولى وضع دستور الهند الجديد جمعية تأسيسية تمثل فيها الطوائف الثلاث الكبرى — الهندوس والمسلمون والسيخ — كل بحسب نسبتها العددية في سائر الأقاليم، على أن يمثل كل نائب مليونا من الأنفس . وتتلخص قواعد الدستور الأساسية في وجوب إنشاء دولة هندية اتحادية ، تضم الهند البريطانية والإمارات المستقلة مع اختصاص مشترك في شؤون الدفاع والمواصلات والشؤون الخارجية ، وإنشاء مجلس تشريعي مشترك يضم ممثلي الهند البريطانية والإمارات المستقلة ؛ وأن يسمح للولايات بأن تؤلف حكوماتها الخاصة ، وأن تتولى شؤونها المحلية الخارجة عن اختصاص الاتحاد ، ويستبعد المشروع الجديد كل الضمانات الطائفية ، ويستبعد بالأخص مشروع الباكستان ، أو الدولة الإسلامية المنفصلة التي تطالب بإقامتها أغلبية الكتلة الإسلامية ، وهي تبلغ ثمانين مليوناً إزاء مائتين وعشرين مليوناً من الهندوس .

وقد بدئ بتنفيذ الدستور الجديد بالفعل ، ولكن بصورة جزئية ، حيث عارضته الرابطة الإسلامية، التي تنطق باسم الكتلة الإسلامية ، بكل قواها ، لأنه ينكر على المسلمين كل ضمانة طائفية وكل استقلال ذاتي ، ويعرضهم لطغيان الأكثرية الهندوسية الساحقة ؛ وكذا أبت الإمارات المستقلة أن تشترك في تنفيذه ، ولم يقبل تنفيذه سوى حزب المؤتمر

الذي ينطق باسم الأكثرية الهندوسية . وهكذا قامت الحكومة الهندية المؤقتة ممثلة لحزب المؤتمر وحده ، وقامت التأسيسية دون أن الجمعية يشترك فيها أحد من نواب الرابطة الإسلامية أو الإمارات المستقلة . ويبلغ عدد أعضاء هـذه الجمعية وفقاً للنسبة العددية لمختلف الطوائف ٣٨٩ نائباً منهم ٨٠ نائباً مسلماً . وقد افتتحت الجمعية بالفعل في ديسمبر الماضي ولم يشترك في أعمالها سوى ٢٢٢ نائباً ، منهم ٢٠٥ من نواب حزب المؤتمر ، وستة نواب مسلمين من المشايعين لحزب المؤتمر . وعلى ذلك فإن هـذه الجمعية التأسيسية لا يمكن أن تعبر إلا عن رأي الأكثرية الهندوسية . وقد شعرت الحكومة الهندية المؤقتة التي يرأسها الباندت نهرو زعيم حزب المؤتمر بهذا النقص الذي يعتور صفة الجمعية التأسيسية ، فأوعزت إليها بأن ترجئ بحث الدستور الجديد حتى يتسنى للمتخلفين من أعضائها ، وهم نواب الرابطة الإسلامية ونواب الإمارات المستقلة ، أن يشتركوا في أعمالها إذا شاؤوا . على أنها قررت بصفة مبدئية أن يقوم دستور الهند المستقبل على مبادئ الجمهورية .

***

والآن لنر ماذا ينطوي عليه التصريح البريطاني الجديد ، وما هو مداه الحقيقي؟

لقد قرأ الكثيرون في هذا التصريح أكثر مما يعني ، وحملوه فوق ما يرمي إليه ، فتحدثوا عن جلاء بريطانيا عن الهند قبل شهر يونيه سنة ١٩٤٨ ، ورتب بعضهم على هذا التفسير مقارنات بين موعد الجلاء عن الهند وموعده عن مصر .

ولكنا لم نجد بإمعان النظر في هذا التصريح ، وبخاصة بعد مراجعة نصه الإنجليزي ، وتعليقات الصحف البريطانية عليه ، ما يسوغ تفسيره على هذا النحو . فقد تحدث المستر أتلي عن نية الحكومة البريطانية النهائية في أن تتخذ الإجراءات الضرورية لتسليم السلطة إلى أيد هندية مسئولة : «To take the necessary steps to effect the transference of power to responsible Indian hands.»

وهذه العبارة ، وهي لب التصريح البريطاني ، تتفق مع فهم السياسة البريطانية المسألة الهندية ، فهي في نظرها مسألة دستورية تتعلق بتنظيم دستور الهند المستقبل ؛ وقد تجلت هذه النظرة في جميع الخطوات المتعاقبة التي اتخذتها لتسوية المسألة الهندية ؛ وقد كان العهد الذي قطعته على نفسها بمنح الهند نظام الأملاك المستقلة (الدومنيون) خلال الحرب هو أقصى ما ذهبت إليه ، وهو العهد الذي تجري في ظله التسوية الدستورية الحالية ، وهي تلتقي في ذلك مع هدف الحركة القومية الهندية الذي اتخذته شعاراً لها منذ ربع قرن وهو « الاستقلال الذاتي » (أو السواراج) .

فالتصريح البريطاني بتسليم السلطة في الهند إلى أيد هندية مسئولة لا يعني أكثر من تحويل الحكم البريطاني المباشر إلى حكم هندي ذاتي أو داخلي ، وهذا هو بالضبط ما فهمته الصحف البريطانية ، حيث تحدثت غداة التصريح عن منح الحكم الذاتي « Self-government » أو الحكم الداخلي « Home-rule » إلى الهند .

ومع ذلك فإن تصريح رئيس الوزارة البريطانية يتعلق بالهند البريطانية وحدها ولا تدخل فيه الإمارات الهندية ، حسبما أوضح المستر أتلي . فهذه ستبقى على خضوعها للتاج البريطاني حتى تعدل حالتها باتفاقات جديدة ؛ وتشمل الإمارات المستقلة نحو ثلث أراضي الهند ونحو ربع سكانها .

وفوق ذلك فإن رئيس الوزارة البريطانية يقرن تسليم السلطة إلى الحكومة الهندية المسئولة بتحفظ هو أن تكون حكومة تستند إلى تأييد شعبي قوي . ولهذا كان واجباً أن تنبذ جميع الأحزاب خلافاتها ، وأن تتفق بصورة تجعلها قادرة على تحمل المسئوليات العظيمة . ويزيد المستر أتلي على ذلك بأنه إذا ظهر أن الدستور المطلوب لم يتم وضعه على يد جمعية تأسيسية تامة التمثيل فإن الحكومة ستضطر إلى النظر في أمر من يجب أن يعهد إليه بالسلطة في الوقت المحدد ، فإما أن تعهد بها إلى الحكومة المركزية ، أو إلى الحكومات المحلية ، أو أن تتخذ في ذلك ما تراه مناسباً لصالح الشعب الهندي .

وهكذا نرى أن تصريح الحكومة البريطانية لم يشر من قرب أو بعد إلى المسألة العسكرية ولا إلى جلاء القوات البريطانية عن الهند . وإغفال هذه المسألة من التصريح له قيمته ومغزاه . أجل ، حدث بعد إلقاء التصريح بأيام أن أشار المستر أتلي في رده على سؤال ألقي بخصوص الدفاع عن الهند إلى أن مسئولية هذا الدفاع تقع على عاتق حكومة الهند متى تم نقل السلطة إليها ، وأنه إذا كانت الهند ستبقى في مجموعة الامم البريطانية فشأنها في ذلك شأن كل عضو فيها . أما إذا قررت الخروج من هذه المجموعة فإن مستقبلها سيظل مع ذلك موضع اهتمام الحكومة البريطانية . ورد المستر أتلي على سؤال آخر في هذا الموضوع « بأن العلاقات المستديمة لبريطانيا مع الهند ومصر لم تتقرر بعد » . ولما فتح باب المناقشة في المسألة الهندية في مجلس العموم في الخامس من مارس جرى ذكر الجلاء عن الهند لأول مرة على لسان السير ستافورد كريبس وزير التجارة حيث صرح بأن تحديد موعد جلاء القوات البريطانية عن الهند بشهر يونيه سنة ١٩٤٨ هو دليل على إخلاص الحكومة البريطانية ونزاهة موقفها . وحمل المستر

تشرشل زعيم المعارضة على قرار الحكومة بمغادرة الهند في ظرف أربعة عشر شهراً ، وذكر أن الحكومة البريطانية لا تحتفظ للدفاع عن الهند إلا بما يوازي ربع أو خمس القوات المرابطة في فلسطين وهي تبلغ زهاء مائة ألف .

ونحن نخشى ألا يكون لهذه التصريحات والإشارات اللاحقة لتصريح الحكومة البريطانية أثر في تدعيم قيمة التصريح أو التلطيف من تحفظاته . ولغة السياسة البريطانية شديدة المرونة واسعة المدى ، وقد ألقت بريطانيا منذ ستين عاماً عشرات التصريحات بالجلاء عن مصر وما تزال بها .

والمفهوم على أي حال أن المسألة العسكرية ستكون موضوع مباحثات خاصة بين بريطانيا والهند فإما أن تعقد بينهما محالفة عسكرية أو تستبقي بريطانيا إشرافها على الجيش الهندي والموانئ الهندية ، هذا فضلا عن بقاء قوات الاحتلال في الإمارات الهندية الوطنية .

والخلاصة أن الحكومة البريطانية لم تذهب في وعدها الجديد بصفة قاطعة إلى أكثر من منح الاستقلال الذاتي للهند البريطانية وحدها وإلغاء الحكم الإنجليزي المباشر الذي يتركز في يد نائب الملك . ومن الصعب علينا أن نتوقع أن تذهب بريطانيا في سياستها الهندية إلى أبعد من ذلك فتنزل من تلقاء نفسها وبصورة نهائية مطلقة عن سلطانها الباذخ في ألمع جوهرة في التاج البريطاني وأعظم دعامة في الإمبراطورية البريطانية .

محمد عبد الله عنان

أتى الأعشى الأسود العنسي ، وقد امتدحه فاستبطأ جائزته . فقال الأسود : ليس عندنا عين ، ولكن نعطيك عوضاً ، فأعطاه بخمسمائة مثقال دهناً وبخمسمائة حللا وعنبراً . فلما مر ببلاد بني عامر خافهم على ما معه ، فأتى علقمة بن علاثة فقال له : أجرني ! فقال قد أجرتك ! قال : من الجن والإنس ؟ قال : نعم ! قال : ومن الموت ؟ قال : لا ! فأتى عامر بن الطفيل فقال : أجرني ! قال قد أجرتك ! قال : من الإنس والجن ؟ قال : نعم ! قال : ومن الموت ؟ قال : نعم ! قال وكيف تجيرني من الموت ؟ قال : إن مت وأنت في جواري بعثت إلى أهلك الدية . فقال : الآن علمت أنك أجرتني من الموت . ثم مدح عامراً وهجا علقمة ، فقال علقمة : لو علمت الذي أراد كنت أعطيته إياه !

لذات العقل والرّوح

للأستاذ شفيق جبري

نشر مجمعنا اللغوي العربي في دمشق في أواخر السنة الماضية كتاب : « تاريخ حكماء الإسلام » لأحد مؤلفي القرن السادس ظهير الدين البيهقي المولود في ناحية من نواحي خراسان .

لقد ظهر هذا الكتاب في الوقت المناسب لظهوره ، فإن العالم قد مرت به بعد الحرب التي لا نزال نكابد شدائدها ، وبعد الحرب التي كانت قبلها ، أزمة من النزعة المادية وفتنة الأثرة ، فإن حضارة الآلات التي استفحلت مذاهبها في بعض الدول ، مثل أمريكا وألمانيا ، قد ثلمت القيم الأدبية حتى انصرفت معظم الأمم عن آفاق الفكر وتغلغلت في آفاق المادة وحدها ، فقلّ اهتمام الناس بالغايات التي تنشئ للأمم عظمة وللشعوب سعادة ، وأعني بها الغايات التي ترمي إلى مصلحة البشرية العامة ، فكأن عيون الناس قد لصقت بالأرض ومات فيهم ذوق لذة النظر إلى السماء . على أن التأريخ علمنا أن الدول المبنية أصولها على النفع المادي وحده لاتلبث أن تنهار وتذهب بين سمع الأرض وبصرها. هكذا كانت عواقب اليونانيين والرومانيين وأمبراطورية شرلمان .

لما قلت في صدر هذا المقال إن « تأريخ حكماء الإسلام » ظهر في الوقت المناسب لظهوره عنيت بقولي أن هذا الكتاب يشتمل على بعض خطرات روحية وعقلية يجدر بنا أن نجعلها نصب أعيننا في خلال هذه النزعات المادية التي غرقت فيها البشرية ؛ وإذا لم ينجها أحد من الغرق فلا شك في أنها بعد سنين قريبة أو بعيدة تقع في حرب أشد هولا من الحرب التي وقعت فيها أخيراً .

الكتاب الذي جعلته موضوع مقالي يحتوي على تراجم لحكماء القرن الثالث والرابع والخامس والسادس ، وأصحاب هذه التراجم بعضهم من الصابئة والمجوس واليهود واليعاقبة والنساطرة الذين نشأوا في ديار الإسلام وكتبوا تآليفهم بلغته ، وبعض من مسلمي القرنين الثالث والرابع الذين اقتبسوا الحكمة عن اليونانيين .

لست أحاول أن أشغل جمهور القراء الكرام بالكلام على أصحاب هذه التراجم ،

وإنما أريد أن أستنبط طوائف من محاسن حكمهم ، تبين لنا أن رجالنا في العصور الفارطة لم يشتغلوا بالمادة وحدها ، وإنما جعلوا للذات الروح والعقل نصيباً من أوقاتهم . وقد كان رجال حكومات الإسلام في تلك العصور يحرصون على ارتباط الحكماء بهم ، وانقطاعهم إلى قصورهم ، مما يدل على أن حياة الروح والعقل كانت مستفيضة في رجال الحكومات أنفسهم ، فكأن الناس قد ملوا لذات الدنيا التي فنيت فيها تلك العصور فردهم حكماء الإسلام إلى لذات أرفع .

الحكم الروحية والعقلية التي شاعت في «تأريخ حكماء الإسلام» كثيرة ، ولكني أستخرج منها شيئاً قليلا ؛ فمن الحكماء العالم الحكيم أبو سهل المسيحي . صنف أبو سهل كتاباً في النفس قال فيه : « من لم يرض بما عنـده من أسباب المعاش لم يرض بإضافة مال غيره إلي ماله ، فإن غريزة الإنسان لا تشبع » .

ولست أعلم حكمة أشد مطابقة للحق من هذه الحكمة ، فقد وجدنا في هـذه الحرب من الأفراد والجماعات والأمم من ربح الملايين ، ولم نجد من اكتفى بربحه ؛ فلما قال أبو سهل : « إن غريزة الإنسان لا تشبع » قال قولا مبنيا على التجارب . وقد أيد هذه الحكمة الحكيم علي المنادلي النيسابوري الذي قال : « ما أصبت من الدنيا شيئاً إلا احتاج ذلك الشيء إلى شيء آخر ، فصاحب الدنيا أبداً فقير محتاج ! »

من هذا يتبين لنا أن سلسلة المطامع متصـلة الحلقات ، يعرف أولها ولا يدرك آخرها ، ولذلك قال الحكيم الفريد أبومضر الأصبهاني : « من لم يقنع لم يزده المال ثروة ، بل يزيده فقراً » .

كان همّ أولئك الحكماء في زمنهم أن يرغبوا الناس في لذات العقل والروح ؛ فمن كلام الفيلسوف بهمن بار : « اللذات العقلية شفاء لا يعقبه داء ، وصحة لا يلزمها سقم ! »

فما أشد حاجة رجال الأدب والفكر إلى فهم هذه الحـكمة البليغة ، فإذا كان الأدباء والمفكرون يريدون من ثمرات أدبهم وتفكيرهم المال وحـده فقد ضل سعيهم ، لأنهم مهما يبلغوا من هذا المال فلا يبلغون منه مبالغ الأغنياء ، فلذات العقـل والروح إنما هي ثروتهم الوحيدة ، وهي أعظم من كل ثروة وأرفع من كل جاه ، وليس يهدم هـذه اللذات شيء من خشونة العيش ، فقد قال الحكيم أبو زكريا يحي بن عدي : « العاقل مع خشونة العيش عند العقلاء أسر منه مع لين العيش مع السفهاء » . وهذا كله برهان على أن لذات العقل والروح تنسي الإنسان خشونة العيش ومرارة الحياة ، ولكنها لا تستطيع أن تنسيه هذه الخشونة وهـــذه المرارة إلا إذا كان يعرف كيف يطلبها عاملا بكلام

الفيلسوف أبي الفتح الذي قال : « من طلب لذة عقلية فليس له أن يطلب لذة حسية تمنعه عنها ، كي لا يكون كمن باع الذهب بالخزف » .

لقد هجّن حكماء الإسلام أمر النزعة المادية لما علموا من انطوائها على آلام البشرية وعذابها ، فمن كلام يحيى بن منصور المنجم ، وقد كان متبحراً في علوم الهندسة : « إذا غلبت القوة الغضبية والشهوانية العقل ، لا يرى المرء الصحة إلا صحة جسده ، ولا العلم إلا ما استطال به ، ولا الأمن إلا في قهر الناس ، ولا الغنى إلا مكسبة المال ، وكل ذلك مخالف للقصد ، مقرب من الهلاك » .

لم يبعد هـذا الحكيم عن الحقيقة ، فإذا علمنا أن الحرب — التي لم تفارقنا أهوالها — كانت نتيجة نزعة مادية خالف أصحابها القصد فقربوا العالم من الهلاك أدركنا صدق ماقاله يحيى بن منصور المنجم .

وليس في حكم أولئك الحـكماء مايزهد الناس في الأعمال المادية ، فقد عرفوا للمادة قدرها ، فقال الحكيم يحيى النحوي : « الفقر الموت الأكبر ! » فهم لم يريدوا أن يصبح الناس فقراء ، وإنما أرادوا في حكمهم أن يجعلوا الناس مقتصدين في طلب الغنى ، حتى لا يكون هلاكهم في هذا الطلب ، وخلقوا لهم آفاقاً يعيشون فيها بأرواحهم وعقولهم حتى يدركوا فيها سعادتهم الكبرى ؛ فقال القاضي الفيلسوف محمد الأفضل عبد الرزاق التركي : « السعادة الخيالية ألذ من لذة الملك فكيف السعادة العقلية ! » .

والسعادة الخيالية يستطيع أن يخلقها الإنسان بتصوراته ، فهو يستطيع أن يخلق لنفسه أفقاً يعيش فيه بعقله وروحه دون أن يتعبه شيء من متاعب الحياة . ولا يخطرن ببال أحد أن هذا النوع من الحياة فيه شيء من خلو العظمة ، فقد قال أبو الصقر عبد العزيز ابن عثمان القبيصي الهاشمي : « عظم في أعين الناس من صغرت الدنيا في عينه ! » .

ولم يكتف حكماء الإسلام بإرسال الحكم وحدها وإنما قرنوا القول بالعمل فجرى قولهم وعملهم معاً ؛ فقد كان الحكيم أبو الفتح عبد الرحمن الخازن نقي الجيب عن الأطماع الخسيسة ؛ بعث السلطان الأعظم سنجر إليه بألف دينار على يد الإمام شافع الطبيب فرده وقال : « لا أحتاج إليها ، وبقي لي عشرة دنانير ، ويكفيني كل سنة ثلاثة دنانير ، وليس معي في تلك الدار إلا سنور ! » .

وبعثت إليه زوجة الأمير لاحي آخور بك بألف دينار فردها أيضاً ؛ فالحكمة لا تعمل في قلوب الناس إلا إذا كانت صادرة عن القلوب الصادقة .

وقد ختم ظهير الدين البيهقي كتابه : « تاريخ حكماء الإسلام » برسالة للسيد

الإمام زين الدين إسمعيل بن الحسن الحسيني الجرجاني ، لعل من الحكمة أن أختم بشيء منها هذا المقال : « مالي أراك يا أخي ، أيدك الله وإياي بتوفيقه ، شديد السكون إلى هذه الدنيا الزائلة والدار الفانية ، كثير الميل إلى تربية هذا الجسد المظلم الكثيف ، الذي هو أجمح مركب وأخبث مسكن للنفس ، سهل الانقياد لقوتيك الغضبية والشهوانية ... عسر الإجابة لقوتك العاقلة التي تؤدي بك إلى جنة المأوى وترقيك الدرجة العليا ، لعلك قد انخدعت بل اغتررت بمباشرة هذه اللذات التي محلها في الحقيقة آلام وأي آلام !

أما علمت أن اللذات الدنيوية كلها في أكل الطيب وشرب العذب ولبس اللين وركوب المهملج وقهر العدو والتمتع بالحسناء ، وهذه كلها حاجات متعبة ، وخصوصاً للعقلاء ، وضرورات مزعجة للمتيقظين من العلماء ... وكل لذة في أن لايؤلم جوع ولا يؤذي عطش ولا يتعب شيء ! » .

* * *

فهل لنا في حكم أولئك الحكماء ، وفي حياة أصحابها ، عبرة لنا في زمن كاد الناس فيه ينكرون كل لذة عقلية أو روحية ، ولا يعتنون إلا بلذات المادة وحدها ، تلك اللذات التي أتعبت العالم في الحاضر ، وستهلكه في الآتي إذا هي استمرت ! .

شفيق جبري

خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له ، فنزل على نخيل قوم فيها غلام أسود يقوم عليها ، فأتي بثلاثة أقراص ، فدخل كلب ، فدنا منه ، فرمى إليه بقرص فأكله ، ثم رمى إليه بالثاني والثالث فأكلهما ، وعبد الله ينظر إليه ، فقال : ياغلام ، كم قوتك كل يوم ؟ قال : مارأيت ! قال : فلم آثرت الكلب ؟ قال : لأن أرضنا ليست بأرض كلاب ، وإخاله قد جاء من مسافة بعيدة جائعاً ، فكرهت رده ! قال : فما كنت صانعاً اليوم ؟ قال : أطوي يومي هذا ! فقال عبد الله : والله إن هذا لأسخى مني ! فاشترى النخل والعبد ، وأعتقه ووهب ذلك له !

مؤرخ الأهرام وأبي الهول

جمال الدين أبو جعفر الإدريسي

للدكتور مصطفى جواد ببغداد

عاش في أثناء القرن السادس والقرن السابع للهجرة بمصر أديب بارع ومحدث ماهر ومؤرخ حفيظ ، وترك آثاراً جليلة وأخباراً حساناً ، وتآليف محكمة جميلة معاً ، موسومة بميسم الطرافة والإتقان ، ولكنه بقي منسياً مطوية أخباره حتى في أيامنا التي تميزت بالبحث والاستقصاء والتحري والانتقاء . وإن كان أبو عبد الله محمد بن محمد الإدريسي الأكبر معروفاً بعض المعرفة مذكوراً بعض الذكر[1] فإن جمال الدين أبا جعفر محمد بن عبد العزيز الإدريسي الأصغر ، وهو الذي ذكرنا شيئاً من نعته ، لم ينشر أحد من أخباره وسيرته ماتستوجبه براعته ، وما تستحقه مهارته ، وما يقتضيه تاريخ الآداب العربية المتدرج إلى الكمال .

قد يغتفر التهاون بتعريف عالم من العلماء القدماء لزوال آثاره أو ضياع تآليفه أو خفاء تصانيفه ، أما أن يكون تأليفه باقياً محفوظاً كأبي جعفر الإدريسي الأصغر فإن ذلك منبهة على وجوب تعريفه ، وداع إلى تقصي أخباره ، وباعث على الإيفاء بحقه من الترجمة والنعت ، وسبب إلى إكمال تاريخ الثقافة ، في الدنيا العربية . وهذا المؤرخ العالم قد تميز بالتأليف في موضوع طريف هو « تاريخ الأهرام وأبي الهول » فاستحق أن نسميه « مؤرخ الأهرام وأبي الهول » .

ولد أبو جعفر محمد بن عبد العزيز الإدريسي بواد من صعيد مصر في شهر رمضان سنة ٥٦٨ ، وكان أبوه قد قدم مصر من بلد آخر ، ولعله قدم من بلاد المغرب ، معدن السادة الأدارسة . ونشأ أبو جعفر بمصر ، وسمع الحديث النبوي من البوصيري[2] ، والسيدة فاطمة بنت سعد الخير الأندلسية ثم العراقية ثم المصرية المكتنية بأم

---

(١) جرجي زيدان في « آداب اللغة العربية ج ٣ ص ٨٤ » ولد بسبتة سنة ٤٩٣ وألف كتابه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » سنة ٥٤٨ ولم تعلم سنة وفاته (٢) هو أبو القاسم وقيل أبو المكارم هبة الله بن علي الأنصاري الخزرجي أحد الكتاب المحدثين المشاهير ولد سنة ٥٠٠ وتوفي سنة ٥٩٨ ودفن بسفح المقطم . «وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٢٦ » وتواريخ أخرى وهو غير محمد بن سعد البوصيري صاحب البردة .

عبد الكريم[1] ، ومن أبي عبد الله محمد بن حمد الأرتاحي ، نسبة إلى حصن أرتاح من أعمال حلب ، الحنبلي المصري[2] ، وعبد المجيب بن زهير البغدادي الحربي المتوفى سنة ٦٠٤ ، وكان الخليفة الناصر لدين الله أرسل عبد المجيب المذكور رسولا إلى الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب ، فلقيه الشريف أبو جعفر الإدريسي في مصر أو فلسطين وروى عنه الحديث ، وعن غيره سماعاً وإجازة .

أما الأدب فقد درسه على ظهير الدين أبي علي الحسن بن الظُّر الفارسي ثم المصري الفقيه اللغوي النحوي ، وكان ينتسب « النعماني » ويقول « أنا من ولد النعمان ابن المنذر ومولدي بقرية تعرف بالنعمانية ، ومنها ارتحلت إلى شيراز فتفقهت بها ، فقيل لي الفارسي ، وأنتحل مذهب النعمان وأنتصر له فيما وافق اجتهادي »[3] ودرس الأدب أيضاً على أبي الفتح عثمان بن عيسى بن منصور البلطي النحوي الأديب المشهور ، وعنه نقل شهاب الدين ياقوت الحموي أخباراً تخص بأبي الفتح البلطي المذكور[4] والظاهر أنه درس على غير ذينك الأديبين ، إلا أن قلة المراجع التاريخية وقفت بنا دون معرفتهم.

وكان أبو جعفر الإدريسي عليما بأخبار الشيوخ والأدباء ، متصرفاً في أفانين الأحاديث ، لقيه غير ياقوت الحموي من العراقيين محب الدين محمد بن النجار المؤرخ الكبير ، وقال في ترجمة أبي الحسن علي بن محمد بن غليس اليماني « ذكر صديقنا الشريف أبو عبدالله محمد بن عبد العزيز أبي القاسم الإدريسي أن الفقيه إبرهيم بن عيسى الحسني اليماني أنشده لابن غليس اليماني :

ألا قل لمن [كان] يهوى سوانا هواه حرام ولكن هوانا
ومن كان يبغي رضا غيرنا له الويل ، أخطا ، ولكن رضانا
ألا قف وخيم على بابنا تر الخير منا جهاراً عياناً[5]

وقد تُرجم أبو جعفر الإدريسي في لسان الميزان وذكر فيه أنه محمد بن عبد العزيز ابن عبد الرحيم بن عمر بن سلمان الشريف الإدريسي المقرئ الأجلح القاري[6]

---

(١) توفيت أم عبد الكريم فاطمة بمصر سنة ٦٠٠ هـ كما في كثير من التواريخ

(٢) توفي سنة ٦٠١ هـ بمصر « النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٨٨ » وتواريخ أخرى .

(٣) ياقوت الحموي في « معجم الأدباء ج ٣ ص ٦٥ » توفي بالقاهرة سنة ٥٩٨ (٤) توفي البلطي سنة ٥٩٩ بالقاهرة « معجم الأدباء ج ٥ ص ٤٣ »

(٥) ابن النجار في « التاريخ المجدد لمدينة السلام » مخطوط بدار الكتب الوطنية بباريس ، برقم ٢١٣١ في الورقة ١٢ ، ١٣

(٦) لم نجد لهذه النسبة وجهاً تاريخيا فلعلها تصحيف ، وفي حسن المحاضرة « الغاوي » وغاوة جبل وقيل قرية بالشام أو بحلب .

المولد نزيل القاهرة » ثم قال مترجمه « وذكره ابن مسدى في معجمه وقال : ذكر لي أنه من ولد إدريس بن إدريس الحسني ، ورأيت المطاعن عليه بمصر في ذلك[١] » .
وقال ياقوت الحموي في ترجمة أبي الفتح البلطي الذي أسلفنا ذكره : «لم يذكر العماد[٢] وفاته وإنما أخبرني بوفاته وما بعده الشريف أبوجعفر محمد بن عبد العزيز بن أبي القاسم ابن عمر بن سليمان بن الحسن بن إدريس بن يحى العالي بن علي المعتلي — وهو الخارج بالمغرب والمستولي على بلاد الأندلس — ابن حمود بن ميمون بن أحمد بن عمر بن إدريس بن إدريس بن عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب — ع —[٣]» .
وقال الذهبي « قدم أبوه فولد له هذا بواد من صعيد مصر في رمضان سنة ثمان وستين ونشأ بمصر وسمع بالإسكندرية وغيرها وتصدر بالعمرية بالقاهرة . أخذ عنه الدمياطي[٤] والشريف الحسيني[٥] وأحمد بن يوسف الإربلي وأبو صادق بن الرشيد العطار وآخرون . وقال القطب[٦] : كان إماماً عالماً ومحدثاً حافظاً عارفاً بالتاريخ والأدب والحديث والنسب وله كتاب « المفيد في ذكر من دخل الصعيد » وكتاب في « الأهرام » جيد . وقال ابن مسدى : «وكان متسامحاً في باب الرواية متساهلا فيه إلى الغاية وقد سمعت منه فوائد من أصل سماعه . وربما حسن حاله بأخرة[٧] في تصانيفه وأنشد له :

ولم أر علماً كالحديث فنونه تطول إذا عددتهن وتكثر
ويحسب قوم أنه النقل وحده ونقل شروزى أمنه عندي أيسر

وشروزى : بفتح المعجمة والراء وسكون الواو بعدها زاي مقصورة جبل

---

(١) ابن حجر العسقلاني في « لسان الميزان ج ٥ ص ٢٦٢ » طبعة حيدر آباد ، وابن مسدى المذكور هو أبو بكر محمد بن يوسف الأندلسي الغرناطي المحدث المتوفى سنة ٦٦٣ « طبقات الحفاظ للذهبي ج ٤ ص ٢٢٣ »
(٢) يعني عماد الدين محمد الأصفهاني الكاتب مؤلف « خريدة القصر » وغيرها
(٣) معجم الأدباء « ج ٥ ص ٤٣ — ٤٤ » (٤) إذا أطلق اسم الدمياطي أريد به شرف الدين عبد المؤمن بن خلف المحدث المصنف النسابة المتوفى بمصر سنة ٧٠٥ كما في كثير من التواريخ مثل الوافي بالوفيات وفوات الوفيات والنجوم الزاهرة ومنتخب المختار وشذرات الذهب
(٥) هو عز الدين أحمد بن محمد العلوي الإمام النسابة المتوفى سنة ٦٩٥ « ذيل طبقات الحفاظ ص ٩٠ » وشذرات الذهب « ج ٥ ص ٣٠١»
(٦) هو المؤرخ الفقيه قطب الدين عبد الكريم بن عبد النور الحلبي ثم المصري المتوفى سنة ٧٣٥ كما في كثير من التواريخ
(٧) على وزن « قصبة » أي أخيرا

معروف . وكانت وفاة المذكور في صفر سنة أربع وأربعين وستمائة[١] »

وذكره السيوطي في عداد « من كان بمصر من المؤرخين » وقال : « محمد بن عبد العزيز الإدريسي الشريف الغاوي ، كان من فضلاء المحدثين وأعيانهم سمع الكثير وألف « المفيد في أخبار الصعيد » ولد في رمضان سنة ثمان وستين وخمسمائة وتوفي بالقاهرة في صفر سنة تسع وأربعين وستمائة ، ولده جعفر ولد بالقاهرة في شوال سنة إحدى عشرة وستمائة وسمع من ابن الجميزي وابن المقير ، روى عنه الدمياطي وأبو حيان وكان نسابة الشرفاء بمصر ، أديبا ، صنف تاريخاً للقاهرة ، ومات سنة ست وسبعين وستمائة [٢] » .

قال مصطفى جواد : حصل في سنة وفاة الإدريسي الأصغر خلاف ، فالذهبي ذكر أنه توفي سنة ٦٤٤ والسيوطي قال إنه توفي سنة ٦٤٩ والفرق خمس سنوات — كما هو ظاهر — ولعل حاجي خليفة اعتمد في تقييد وفاة أبي جعفر الإدريسي ، عند ذكره « المفيد في أخبار الصعيد » في كتابه « كشف الظنون » فقد قال « المفيد في أخبار صعيد (كذا) لمحمد بن عبد العزيز الإدريسي المتوفى سنة ٦٤٩ تسع وأربعين وستمائة » على أنه لم يذكر وفاته في وصف الكتاب الذي صنفه في تاريخ الأهرام ووسمه بـ « أنوار علو الأجرام في الكشف عن أسرار الأهرام » واقتصر على قوله « للشريف جمال الدين أبي جعفر محمد بن عبد العزيز الإدريسي : مختصر أوله الحمد لله الذي جعل ما أبقاه . إلخ ذكر أنه ألفه للملك الكامل محمد بن خليل (كذا) سنة ثلاث وعشرين وستمائة » اهـ

ووهم المؤرخ الفاضل جورجي زيدان في عده سنة تأليف الكتاب سنة وفاة المؤلف فإنه قال « ابن عبد العزيز : هو أبو جعفر بن عبد العزيز الإدريسي ، كان كاتباً للسلطان الملك الكامل بمصر ، وصف الأهرام وما يجاورها في كتاب سماه « أنوار علو الأجرام[٣] في الكشف عن أسرار الأهرام » ألفه للملك الكامل ، وقد هذبه وصححه عبد القادر البغدادي المتوفى سنة ١٠٩٤ هـ يوجد في منشن وباريس »[٤] . ذكر هذا ولم تتهيأ له معرفة ترجمة المؤلف .

أما قول حاجي خليفة « ألفه للملك الكامل محمد بن خليل » فصوابه « محمد ابن العادل خليل أمير المؤمنين » والخليل من ألقاب الملوك العظماء يومئذ[٥] .

---

(١) لسان الميزان «ج٥ ص٢٦٢» (٢) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ج١ص٢٣٨ من طبعة المطبعة الشرفية (٣) في الأصل « الأعلام » وهو خطأ (٤) جورجي زيدان في « تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص٨٨ » (٥) المقريزي في السلوك مجلد ١ ص ٣٦٢، وأصول التاريخ والأدب ج ٢٦ ص ١٣١ « وهو من مجموعاتنا الخطية في « ٣٦ » مجلداً

أخبار ادبية وتاريخية لأبي جعفر الادريسي

أخبار أبي الفتح عثمان بن عيسى البلطي : قال ياقوت الحموي : « وأخبرني الشريف المذكور — وكان من تلامذته — قال: كان البلطي رجلا طوالا جسيما طويل اللحية واسع الجبهة ، أحمر اللون ، يعتم بعمة [١] كبيرة جدا ويتطلس بطيلسان لا على زي المصريين بل يلقيه على عمامته ويرسله من غير أن يديره على رقبته ، وكان يلبس في الصيف المبطنة [٢] والثياب الكثيرة حتى يرى كأنه عدل عظيم . وكان إذا دخل فصل الشتاء اختفى حتى لا يكاد يظهر ، وكان يقال له : أنت من حشرات الأرض . وكان إذا دخل الحمام يدخل إلى داخله وعلى رأسه مزدوجة [٢] مبطنة بقطن ، فإذا حصل عند الحوض الذي فيه الماء الحار كشف رأسه بيده الواحدة وصب على رأسه الماء الحار الشديد الحرارة بيده الأخرى ثم يغطيه إلى أن يملأ السطل ثم يكشفه ويصب عليه ثم يغطيه ، يفعل ذلك مراراً ، فإذا قيل له في ذلك قال : أخاف من الهواء . قال الإدريسي : هذه كانت حاله في هيئته وسمته [٣] .

قال ياقوت : « وحدثني الإدريسي قال : ومن نوادره ما أخبرني به صاحبنا الفقيه أبو الجود ندى بن عبد الغني الحنفي الأنصاري قال : حضر يوماً عند البلطي بعض المطربين المحسنين فغناه صوتاً أطربه ، فبكى البلطي ، فبكى المطرب ، فقال له البلطي : أما أنا فأبكي من استفزاز الطرب ، أنت ما أبكاك ؟ فقال له : تذكرت والدي فإنه كان إذا سمع هذا الصوت بكى . فقال له البلطي : فأنت والله إذن ابن أخي . وخرج فأشهد على نفسه جماعة من عدول مصر بأنه ابن أخيه ولا وارث له سواه . ولم يزل يعرف بابن أخي البلطي إلى أن فرق الدهر بينهما [٤] .

وقال ياقوت في ترجمة « الحسن بن الظئر » [٥] : « كان فقيهاً لغويا نحويا مات بالقاهرة من الديار المصرية في شهور سنة ٥٩٨ ، حدثني بجميع ما أورده عنه ههنا من خبره ووفاته تلميذه الشريف أبو جعفر محمد بن عبد العزيز الإدريسي الحسني الصعيدي بالقاهرة سنة ٦١٢.. » [٦] قال : « وكان الغالب عليه علم الأدب ، حتى لقد رأيت الشيخ أبا الفتح عثمان بن عيسى النحوي البلطي — وهو شيخ الناس يومئذ بالديار المصرية —

---

(١) العمة هيئة الاعتمام واستعمالها بمعنى « العمامة » عامي منذ ذلك القرن ولا تزال مستعملة كذلك في مصر
(٢) يعني قلنسوة مبطنة (٣) معجم الأدباء « ج ٥ ص ٤٤ » من الطبعة الأولى (٤) المرجع المذكور ص ٤٥ (٥) قدمنا الإشارة إليه وأنه ظهير الدين أبو علي الحسن بن الظئر الفارسي
(٦) معجم الأدباء « ج ٣ ص ٦٤ — ٦٥ » من الطبعة الأولى .

يسأله سؤال المستفيد عن حروف من حوشي اللغة ، وسأله يوما بمحضري عما وقع في ألفاظ العرب على مثال « شقحطب ، فقال : هذا يسمى في كلام العرب « المنحوت » ومعناه أن الكلمة منحوتة من كلمتين كما ينحت النجار خشبتين ويجعلهما واحداً[١] ، فشقحطب منحوت من « شق » و« حطب » . فسأله البلطي أن يثبت له ما وقع من هذا المثال إليه ، ليعول في معرفتها عليه ، فأملاها عليه في نحو عشرين ورقة من حفظه ، وسماها كتاب « تنبيه[٢] البارعين على المنحوت من كلام العرب »[٣]

وقال ياقوت في ترجمة القاضي المهذب أبي محمد الحسن بن علي بن إبرهيم بن الزبير المصري المتوفى سنة ٥٦١ : « . . . قبض شاور على المهذب وحبسه ، فكتب إلى شاور شعراً كثيراً ليستعطفه فلم ينجع ، حتى التجأ إلى ولده الكامل أبي الفوارس شجاع بن شاور ، ومدحه بأشعار كثيرة وهو في الحبس ، حتى قام بأمره واستخرجه من حبسه وضمه إليه واصطنعه . . . وحدثني الشريف أبو جعفر محمد بن عبد العزيز الإدريسي أن السبب في حبسه كان أنه كاتب شيركوه الملقب بأسد الدين وهو نازل على بلبيس بعساكره في محاربة شاور . . . »[٤] .

فيرى القارئ أن كثيراً من أخبار مصر الأدبية والتاريخية كانت مما حدث به ذلك العالم الفاضل ، ولم يقع ذلك إلينا إلا نقاباً[٥] ، ونرجو أن يتابع إخواننا المولعون بالتاريخ التحري لأخباره ، والفحص عن سيرته وآثاره ، وآثار ابنه جعفر الذي نقلنا خبر تأليفه تاريخاً للقاهرة فيما مر من الأخبار .

تاريخ الأهرام وأبي الهول

لقد أسلفنا فيما قدمنا من القول أن الشريف أبا جعفر الإدريسي وسمه « بأنوار علو الأجرام في الكشف عن أسرار الأهرام » وقد تصفحنا من هـذا الكتاب الفائق الرائق نسختين مخطوطتين إحداهما نسخة دار الكتب الوطنية بباريس[٦] ، والأخرى

---

(١) يعني شيئاً واحداً

(٢) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون « ج ١ ص ٤٨٦ » من طبعة وكالة المعارف التركية سنة ١٩٤١ وسماه « حسن بن الخطير النعماني » كما في بغية الوعاة والمزهر وغيرهما

(٣) « معجم الأدباء أيضاً ج ٣ ص ٦٦ »

(٤) المرجع المذكور « ص ١٦١ — ١٦٢ »

(٥) قال الجوهري في الصحاح « وناقبت فلاناً إذا لقيته فجأة ، ولقيته نقاباً مثل التقاطاً ووردت الماء نقاباً إذا هجمت عليه من غير طلب »

(٦) رقمها « ٢٢٧٤ من العربيات »

نسخة كانت في ملك الشيخ إبرهيم الدروبي أحد كتاب المحاكم بالعراق ، إلا أن هذه النسخة قد حرف أحد المحرفين اسمها فجعله « المقصد المرام في عجائب الأهرام » لأن الاسم الأصلي ثقيل عليه أو مستبهم .

وجاء في نسخة باريس : « كتاب أنوارعلوم[1] الأجرام في الكشف عن أسرار الأهرام[2] » وبعد البسملة : « أما بعد فهذا كتاب في الأهرام والصنم المسمى بأبي الهول، كان مكتوباً على درج قديم ، وقد أخلق كالعظم الرميم ، وانمحت أطرافه ، وتغيرت أوصافه ... » وهذا من كلام عبد القادر البغدادي كما هو ظاهر ، ويعنينا أن نعرض ههنا نماذج من مضامين الكتاب ، وقد اتبع فيه مؤلفه طريقة الإسناد في الأخبار ، وهي الطريقة المثلى لقدماء المؤرخين خاصة . قال المؤلف بعد ذكره خبراً من أخبار الأهرام : « وهذا يقرب مما نقلناه عن عمر بن يوسف الكندي : أن الصابئة تحج إلى الأهرام ، ويعضد هذا ماقرأته أنا في بعض كتب أخبار مصر القديمة أن الأهرام بيت الجوزاء وهيكل عطارد ، ومعلوم من ديانة الصابئة تعظيم الكواكب وأجرام هياكلها ، على مانقله أرباب المقالات عنهم ، وصرح به في رسالته لحكاية ديانتهم أبو إسحق الصابي ، وهو واحد منهم ، وهم يزعمون أنهم أخذوا هذه الديانة عن صاب الذي ينتسبون إليه ، وهو صاب بن هرمس الذي يسميه اليونانيون هذا الاسم ويسميه العبرانيون أخنوخ ، ونسميه نحن معاشر العرب إدريس عليه السلام[3]

وقال : « فممن خيم بالأهرام من الخلفاء أمير المؤمنين أبو العباس عبد الله المأمون ابن أمير المؤمنين الرشيد هارون ، وكان دخوله في مصر في شهور سنة سبع عشرة ومائتين[4] — على ما أخبرني به الشيخ أبو القاسم عبد الرحمن بن موقا (كذا) ابن علاس بمنزله بالإسكندرية بخط القمرة مشافهة من لفظه وكتابة بخطه ، قال : أنبأنا أبو عبد الله محمد بن أحمد الرازي ، قال : أخبرنا الشيخان أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعي ، والحافظ أبو زكريا عبد الرحيم بن أحمد البخاري ، قال[5] أنبأنا أبو محمد

---

(١) قدمنا أنه « علو » لا « علوم » ولا نعلم الصحيح منهما (٢) وفي أول النسخة تقدمة أولها « هذا الكتاب استخرجه من درج قديم الشيخ الفاضل عبد القادر بن عمر البغدادي النحوي وكان أديباً فاضلا مبرزاً في اللغة العربية والفارسية » وفي هذا إشارة إلى قول من قال : إن البغدادي المذكور صححه وهذبه ، وقد ذكرنا ذلك (٣) المخطوط ٢٢٧٤ في الورقة ١٧ — ١٨ من دار الكتب الوطنية بباريس وأصول التاريخ والأدب « ج ٢٦ ص ١٣٠ »

(٤) قال الطبري في حوادث سنة ٢١٧ « وورد المأمون فيها مصر في المحرم فأتى بعبدوس الفهري فضرب عنقه وانصرف إلى الشام » (٥) لعله « قالا »

عبد الرحمن بن عمر بن محمد البزاز عرف بابن النحاس ، قال : أنبأنا أبو عمر أحمد ابن سلمة بن الضحاك الهلالي ، قال : أنبأنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن سعيد بن الحكم ابن أبي مريم الجمحي المؤرخ ، قال : "وفي سنة سبع عشرة — يعني ومائتين — قدم[١] المأمون أمير المؤمنين فنزل قبة حاتم بن هرثمة التي على الجبل ، وصار ابن عبيدس[٢] بمن معه إلى ضخا بالصعيد ، فوجه المأمون في محاربته علي بن يحي الأرمني وبشيراً التركي فحاربوه فقهروه وهزموه وأخذوه أسيراً ، وخرج المأمون بنفسه إلى قبط البيمي[٣] فقتلهم وأسرهم وسبي ذراريهم ، وقدم عليه بابن عبيدس الفهري فأمر بضرب عنقه".

انتهى قول ابن أبي مريم في تاريخ قدوم المأمون مصر . وقبة هرثمة التي ذكر أن المأمون نزلها هي التي كانت تعرف بقبة الهواء ، وكانت بأعلى الجبل المطل على بركة الفيل الذي عليه القلعة الآن التي تولى عمارتها بأمر السلطان الملك الناصر صلاح الدين — رح — قراقوش الأسدي ، وهي اليوم مسكن السلطان الملك الأجل سلطان المسلمين سيف الدنيا والدين أبي بكر خليل أمير المؤمنين ابن الملك الأفضل نجم الدين — عمرها الله تعالى بطول بقائه في مدارج السعود ودوام ارتقائه في معارج الصعود — وكان موضع تلك القبة من موضع هذه القلعة من الجبل المذكور موضع مسجد سعد الدولة الذي كان الفقيه الزاهد نازلا به منقطعاً فيه للعبادة ... وهذا المسجد اليوم داخل في حريم ما اختاره السلطان الملك الكامل لسكناه بالجانب الغربي منها وسوره وحماه ، أخبرني بذلك الشيخ المفيد أبو محمد عبد القوي بن ياسين القيسراني ، وقد كان صاحبنا الحافظ المؤرخ عبد الله بن خلف بن رافع المسيكي — رح — يرجع في مثل هذا من أخبار مصر وخططها إليه » . وذكر له رأياً في ذلك ثم قال : « بيد أن صاحبنا الشريف العالم تاج الشرف أبا عبد الله محمد بن نجيب الدين أبي القاسم الحسيني المعروف بالحلبي قال : قوله إنها كانت بأعلى الجبل وهم منه ، وإنما كانت بسفحه ، وقد كان ابن طولون ينزلها ، وكانت تشرف على القطائع والجامع . والسيرة الطولونية تشهد لمتصفحها ، متى خالجه شك في هذا بتصديقه وصحته وتحقيقه[٤]

قال : « ولا خلاف بين مؤرخي مصر وعلمائها في تخييم أمير المؤمنين عبدالله المأمون بمصر ، وحلوله وإناخة ركائبه بنواحي الأهرام ونزوله ، وأنه المتقدم بالأمر

---

(١) أي قدم مصر (٢) قدمنا ذكره بصورة « عبدوس الفهري » نقلا من تاريخ الطبري

(٣) في مراصد الاطلاع « بما بالكسر ثم الفتح والقصر قيل هو صقع من بلاد الكفر متاخم لصعيد مصر » وفي الأصل التيمي (٤) الورقة ١٩ — ٢١

إلى النقابين بنقب الأهرام الكبير[١]. قرأت في كتاب المهتمين بأخبار مصر من مؤرخي المصريين : وفي سنة ثمان [وتسعين] ومائتين قتل محمد الأمين ببغداد ... وتولى بعده الخلافة أخوه عبدالله المأمون ، وقدم بعد ذلك إلى مصر ، وبنى مقياساً للنيل بالشدودين ونقب الهرم الشرقي ...[٢] »

وهو يسمي الخط الهيروغليفي « القلم البرباوي » و « قلم الطير » قال : وذكر أبو زيد البلخي في كتابه « صفة الأرض والأقاليم » من تصنيفه عند ما انتهى إلى ذكر مصر منه ما هذا معناه : « وبحذاء الصعيد أبنية عظيمة ، اثنان منها طول كل واحد منهما أربعمائة ذراع ... وقد ملئت ظواهرهما بكتابة اليونانية[٣]... غير أن قوله : وقد ملئت ظواهرها بكتابة اليونانية [٣] غير صحيح ، لا يحتاج ، مع حجة شاهد العيان بخلاف ما ذكره ، إلى إقامة البرهان . وكل خاصي وعامي لا يكاد يجهل بالحس ما بين القلم البرباوي واليوناني من الفرقان ، ومن الحجة على إبطال ما قاله لمن لم يشارك أهل مصر في نظرها من أهل جميع البلدان أن أمير المؤمنين [المأمون] ابن الرشيد وهو الذي ترجمت كتب اليونانيين بالإجماع في زمانه ... لم يجد مترجماً يترجم له عنها ويعرب عن معجم ما استعجم منها غير أيوب بن سلمة ، وهو شيخ من شيوخ المصريين دلت المأمون الحكماء عليه ، وأشاروا بأجمعهم إليه في معرفة حل أشكال حروف أقلام البرباوية عليه فترجم للمأمون ما على الهرمين وعمودي عين شمس ، وما كان على حجر كان بالإصطبل من قرى مدينة « منف » ، وما كان على حجارة كانت بمدينة منف وببوصير وبسمنود وجميع ما ترجمه من ذلك في الكتاب المعروف بكتاب « الطلسمات الكاهنية » فلو أن الكتابة التي على الأهرام باليونانية أو بالسريانية لما افتقر المأمون في شيء من حل رموزها وفك لغوزها إلى ابن سلمة أيوب[٤] ... »

ولنختم هذا البحث بذكر جماعة ممن روى عنهم الشريف أبو جعفر الإدريسي وجملة من الكتب التي قرأها واستعان بها في تأليف المحكم وأخباره المتحراة ، فمنهم :

---

(١) يعنى « الهرم الكبير » وهذا من توهم الجمع مفرداً فإنك إذا كسرت همزة « الأهرام » كما يلفظه العوام صار على وزن « إهرام » مصدر أهرمه يهرمه ، ومن الثابت عندنا أن جمع الجمع لايجوز إلا على عد الجمع الأول مفرداً ، وعلى هذا يكون جمع « أهرام » أهاريم وأهرامات

(٢) المرجع المذكور في الرقم المزبور (٣) أي بكتابة اللغة اليونانية (٤) الورقة « ٤٠ — ٤١ » وأما ذكره لقلم الطير فقد جاء في قوله « وقد تقدم إخباري عن الشريف العالم تاج الشرف ابن الحلبي أنه تأمل الخطوط المكتوبة على الأهرام فوجدها مختلفة الأقلام قال : ومعظمها بقلم الطير الذي يعرفه من خطوط البرابى » .

أم عبد الكريم فاطمة بنت أبي الحسن سعد الخير الأندلسي الأنصاري المحدث المشهور ، وقد ذكرناها قبل هذا . وأبو عبدالله محمد بن أحمد بن حامد الأرتاحي ، وقد أشرنا إلى اسمه فيما سبق من نقلنا . وأبو محمد عبدالله بن خلف بن رافع المسيكي المؤرخ المقدم الذكر . والشيخ الموفق أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف البغدادي الفيلسوف المؤرخ النحوي مؤلف « الإفادة والاعتبار » . وأبو طاهر بركات ابن إبرهيم بن طاهر بن بركات الخشوعي المحدث المشهور . وأبو القاسم هبةالله بن علي بن مسعود البوصيري الكاتب المحدث المقدم ذكره . وأبو طاهر أحمد بن محمد بن سلفة الأصفهاني المعروف بالسلفي ، روى عنه بالإجازة . وتاج الشرف أبو عبد الله محمد بن نجيب الدين أبي القاسم الحسيني العبيدلي الحلبي المذكور قبل هذا . وخالد بن الوزير أسعد بن مماتي المصري ، وأبوه مؤلف قوانين الدواوين . قال : « ما حدثنا به خالد ولد القاضي الوزير الأسعد شرف الدين بن الخطير أبي المكارم بن مماتي ، وله في الأهرام تصنيف لطيف يحتوي على عشرين ورقة ، كان صنفه للملك العزيز في الأهرام ، حين نزل بحرمها ، وعزم على هدمها ، وقد ضمنا كتابنا هذا ما تضمنه ذلك التصنيف[1]... » . وأبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي الفقيه الواعظ المفسر الخطيب الحنبلي المشهور . والشيخ تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي الفقيه النحوي الأديب . والأمير عضد الدولة مرهف به أسامة الكناني الشيزري الأديب جمّاعة الكتب الطائر الصيت .

وأما الكتب التي نرى ذكرها فهي : « كتاب البلدان » للجاحظ ، وكتاب « الاستذكار لما مر في سالف الأعمار » ، وكتاب « ذخائر العلوم فيما كان في سالف الدهور » ، وكتاب « أخبار الزمان » و« التنبيه والإشراف » و« مروج الذهب » ، وهي كلها لأبي الحسن المسعودي ، وكتاب « مسيسون الراهب » المنقول من كتاب « العلم المخزون في علم الطلسمات » ، وكتاب « صفة الأرض والأقاليم » لأبي زيد البلخي ، و « تاريخ قسطنطين السرياني » ، وكتاب « يوسف بن كريون الإسرائيلي » لابن كريون نفسه ، وكتاب « طبقات الفلاسفة والأطباء » لسليمان بن حسن المعروف بابن جلجل ، و « رسالة فضائل مصر » للوزير أبي العباس ابن الفرات ، و « تاريخ أبي عبد الرحمن العتقي » ، و« رسالة الديانة الصابئية » لأبي إسحق الصابي ولثابت بن قرة الحراني ، وغيرها .

---

(١) الورقة ١٩

وعدة صفحات الكتاب ١٠٥ صفحات وقد كتب سنة ١٢٣٢ هـ وفي آخره ما هذا نصه: « ولله در الشريف أشرف الحسني تاج العلا النسابة الرملي[1] حيث يقول

سل المقطم عن قوم مضوا سلفاً بادوا فجل بقايا القوم أحجار

سل عن دلول وسور أحدثته وعن قوم بأخميم من أعدائها ثاروا

فأحكمتهم وأجلتهم وأبعدهم عن شاطىء النيل إذلال وإصغار

وهم ألوف فأفنتهم عزائمها وجحفل من حماة القبط أحرار

تالله ما قلل الأهرام كاذبة وإنما هي أكوار وأدوار

فسوف يصبحن لا عين ولا أثر ولا شبيه ولا جار ولا دار

بغداد مصطفى جواد

---

(١) تاج العلا والعلاء أشرف بن الأعز العلوي الحسني أحد الرواة العلماء الأدباء الشعراء المشهورين ذكره العماد الأصفهاني في كتاب « السيل على الذيل » وتوفي قبله فإن تاج العلا توفي بحلب سنة ٦١٠ هـ « زبدة الحلب في تاريخ حلب » لابن العديم ، مخطوط بباريس رقمه ١٦٦٦ ورقة ١٤٦ و « تاريخ الإسلام للذهبي » مخطوط رقمه ١٥٨ بباريس ورقة ١٧٨ و « نكت الهميان للصفدي ص ١١١٩) وابن فضل الله العمري في « مسالك الأبصار » مخطوط رقمه ٢٣٢٩ بباريس ورقة ١٨٢ ولسان الميزان ج ١ ص ٤٤٩ ، و « ذيل الروضتين » لأبي شامة ، مخطوط بباريس رقمه ٥٨٥٢ ورقة ٩٣

أول مجمع علمي عربي عرفه الشرق

للدكتور ابرهيم جمعة

يذكرون أن « خالد بن يزيد بن معاوية » ، الأموي ، هو أول من اشتغل من العرب بمسائل العلم ، ويذكرون كذلك أن « جابر بن حيان » : الكيميائي العربي الشهير ، حذق علم الكيمياء عن أستاذه الإمام « جعفر الصادق » . يقولون هذا في حين أن المعروف أن العرب لم تثر فيهم الرغبة الأكيدة في الإلمام بعلوم الأقدمين إلا في العصر العباسي . ومعظم الظن أن الذين يتحمسون إلى نسبة الاشتغال بالكيمياء إلى الأمير الأموي ، خالد بن يزيد بن معاوية ، إنما يقصدون من وراء ذلك إلى غرض قد يكون سياسيا ، وهؤلاء يريدون نسبة بدء حركة النقل إلى العصر الأموي . على أن اشتغال الأمير بالكيمياء أمر يجوز أن يكون حقيقة وقعت ، إذ ليس ببعيد على أمير مترف أن يجوب البلاد مشغوفاً بالعثور على القديم ، وليس بغريب أن يكون أمير بني أمية قد وفد على « حرّان » و « أنطاكية » ، وهما منذ زمن مبكر مركزان من مراكز العلم اليوناني ، وفيهما عكف الرهبان من النساطرة على دراسة التراث العلمي اليوناني وتلمس خباياه — ليس ببعيد أن يكون الأمير قد صادف في تجواله شيئاً من الثروة العلمية اليونانية ؛ والمقول أنه اتصل هنالك براهبين شهيرين هما « مريانوس » و « ستيفانوس » ، أولهما ترجم له نصوصاً في علم الكيمياء عن اللاتينية ، كانت أول ما عرف الأمير الأموي من علم الصنعة أو الكيمياء .

ويغلب على الظن أن نسبة « الحكمة » إلى جعفر الصادق ، وإلى علي بن أبي طالب من قبله ، لاتعدو أن تكون دعاية سياسية ، وأن المقصود بالحكمة المنسوبة إليهما إنما هو « العقل المتزن والرأي الأسد » ، لا الحكمة التي بمعنى علم الصنعة أو الكيمياء أو الدراية بالطب على صورة ما .

والمسلم به الآن أن علم العرب بتراث الأقدمين لم يتهيأ إلا في العصر العباسي ، وأن النقل بمعنى الترجمة كان وسيلته وبابه ، وأنه كانت لهذا العلم القديم برازخ مر بها إلى العرب ، فأول ماصادف العرب معارف القدماء كان في أنطاكية ، بعد فتح العرب

لها بزمن طويل ، إذ يحدثنا المسعودي عن العلم اليوناني أنه ظل قابعاً في وكره الوثني في أنطاكية ، ولم يقبل عليه العرب إلا بعد انقضاء مائة وثلاثين سنة على الفتح ، وغداة هجرة هذا العلم الوثني إلى « حران » موطن الصابئة من عبدة النجوم العارفين بالفلك والرياضة والتنجيم ممن سبقوا إلى حذق الثقافة الهلينية سكان الشرق الأدنى كافة .

وبقي العرب ينظرون إلى هـذين الموطنين نظرة السخط على ما امتلأت به خزائنهما من تراث وثني غير مرغوب فيه ، كذلك فعلوا بما صادفوه في الإسكندرية بعد فتحهم لها . وكان لابد للعرب من زمن طويل ينقضي قبل أن يقدموا على هذا التراث يقلبونه تقليب الفاحص ، لعلهم يجدون فيه بغية ، أو يقعون على ضالة منشودة .

ومهما يكن من الأمر ، فقد أخذ العرب أول ما أخذوا من علوم اليونان عن هذه الموارد الثلاثة ، ولم يكن ذلك إلا في العصر العباسي ؛ أما ما يقال غير ذلك ، فهو إما من قبيل الدعاوة التي لا تستند إلى سند من التاريخ الصحيح ، أو هو النتف التي لابد أن يصادفها الجائل المشغوف بالطارف والتليد .

والمعروف أن الثقافة الهلينية غزت الجزيرة وفارس مبكرة مع القرن الخامس الميلادي ، وكانت لغة السريان وسيلتها في الذيوع والانتشار ، ففي عام ٤٣٩ للميلاد أغلق الأمبراطور « زينو » مدارس النسطوريين في « الرها » ، وتفرق القساوسة والعلماء أيدي سبا ، وهاجر من هؤلاء فريق احتمى بكسرى أبرويز ملك الفرس ، ثم أقام أخيراً في « نصيبين » التي غدت منذ ذلك التاريخ وسطا علميا نسطوريا عظيم الإنتاج . وفي عام ٤٤٨ للميلاد قضى مجمع خلقدونيه الديني على عدد من المسيحيين بالهرطقة ، وهؤلاء هم المنوفستيون أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة ، ورغم ما لقيه هؤلاء من الأذى والاضطهاد فقد بقوا داخل الأمبراطورية الرومانية وكونوا الكنائس المناوئة في مصر وسوريا وعرفوا باليعاقبة ، وتطرقت آراؤهم الدينية المتطرفة إلى فارس ، واتخذوا السريانية لغة وتكلموها بلهجات مختلفة ، وتفهموا بها العلم اليوناني الهليني ، وشغفوا — فيما شغفوا — بالمنطق والفلسفة ، وجدوا فيهما عوناً على تفسير عقيدتهم الدينية وتأييدها ، وإليهم يعزى تحويل «الأورغانون» الأرسططاليسي إلى نظام تعليمي ثابت ، على نحو ما فعل الإسكندريون بتعاليم أبقراط وجالينوس في الطب ، حين جعلوا منها نظاماً تعليميا مدرسيا ، ظل يلقن من غير تحوير أو تبديل ، حتى أدركه العرب على هـذه الصورة غداة الفتح .

وهكذا تكون الحركة العلمية العربية قد بدأت أول أمرها في الشرق الأدنى

كيمائية على قول ضعيف غير مؤيد ، فلسفية اتخذت من « حران » وأديرتها النسطورية معقلا ، في حين بدأت في الإسكندرية طبية بحت . وفي هذه الحركة قام النساطرة بدور الوسيط وخدموا حركة النقل خدمة جلى .

وتعدت حركة النقل ثقافة الهلينيين إلى ثقافة الفرس والهنود والسوريين، وظهر العقل العربي في هذه الحركة بخصائصه الكامنة التي تتلخص في ميله العجيب إلى الاستطلاع ، ورغبته القوية في الاستيعاب، ومقدرته البالغة على التمثيل والهضم، وقديما هضم العرب ثقافة الآراميين وأخذوا عنها الكثير من مظاهرها المعنوية والمادية ، وأساغوا كل ما وجدوه في سوريا والعراق من ثقافة عند الفتح ، لأنه مت إلى هذه الثقافة الآرامية بصلة وثيقة .

ولم ينفق العرب كثيراً من الوقت في التردد ، بعد أن أطمأنت نفوسهم إلى تدعيم أركان الدين الجديد ، ولم ينقض على تأسيس مدينة المنصور ثلاثة أرباع القرن ، حتى استحوذوا على أكبر ثروة علمية إنسانية ، فغدا في متناولهم شيء غير يسير من فلسفة أرسطو وأفلاطون ، وإلهام أفلوطين وتصوفه ، وطب بقراط وجالينوس ، وهندسة أقليدس ، ورياضة أبولونيوس وثيون ، وفلك إراتوسثين ، وجغرافية بطليموس ، وغير هذا وذاك من معارف اليونانيين ، فضلا عما انتهى إليهم من حكمة الهنود والفرس. فلا تكاد تحصى تلك الكتب التي ترجمها العرب في هذا العصر عن اللاتينية واليونانية والفارسية والسنسكريتية الهندية .

وانقضى عصر الترجمة ودخل العرب بعده في طور جديد من أطوار تاريخهم الفكري ، هو طور إنتاج شخصي كبير ، وغدت العربية في القرن الرابع الهجري لغة وسعت الكثير من مصطلحات العلوم الفلسفية والطبية والرياضية ، إلى جانب ما كانت تؤديه من أغراض أخرى .

وينتهي الباحث في تاريخ الفكر العربي إلى حقيقة هامة تلك هي أن العرب قد أدركوا منذ زمن مبكر مزية التعاون الفكري ؛ وهم على الأرجح واضعو أساس نظام العمل الإنتاجي المشترك ، المعروف بين الأوربيين بنظام ال « Collaboration » وهم كذلك واضعو نظام المجامع العلمية الحديثة بلا جدال .

وأقدم مؤسسة علمية أكاديمية يعرفها تاريخ الفكر هي جماعة « إخوان الصفا » التي ظهرت في البصرة في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) آخذة نفسها بتعاليم الفيثاغوريين الفلسفية ، وناحية منحاهم في التفكير .

وليس هناك شك في أن هذه الجماعة كانت قد قرأت حكمة الهنود فيما قرأت وأعجبت بما تضمنته من عبر وعظات ، وفطنت إلى معاني التعاون والصفاء التي توحي بها قصة « الحمامة المطوقة » من قصص « كليلة ودمنة » ، وفيها يطلب دبشليم الملك إلى بيدبا الفيلسوف أن يحدثه عن « إخوان الصفا » ، كيف يبدأ تواصلهم ، ويستمتع بعضهم ببعض ، فيضرب له الفيلسوف مثل الإخوان المتعاونين على الخير ، والمؤاسين عندما ينوب من المكروه ، ويتمثل بالحمامة المطوقة والجرذ والظبي والغراب ، كيف تعاونوا فخلصوا من مرابط الهلكة مرة بعد أخرى ، لما بينهم من مودة وخلوص نفس وثبات قلب . وكان إخوان الصفا يرون أن الإنسان الذي منح العقل والفهم ، وألهم الخير والشر ، وأعطي التمييز والمعرفة أولى وأحرى بالتواصل والتعاضد ، وهكذا كانوا أول من قرر قواعد الفلسفة التعاونية .

ويرجح « جولدتسيهر » المستشرق الألماني اشتقاق الجماعة لاسمها من قصة الحمامة المطوقة هذه . ولم يكن « إخوان الصفا » جماعة فلسفية فحسب ، بل كانوا إلى جانب ذلك جماعة دينية سياسية تعتنق المذهب الشيعي المتطرف ، مذهب الإسماعيلية ، وكانوا بحكم هذا التطرف أعداء للنظام السياسي القائم في زمنهم ، وبمعنى آخر أعداء لنظام الحكم العباسي ، يجهدون في محاربته وهدمه عن طريق الإقناع العقلي والتشكيك في قيمة المعتقدات . وكان لهذه الجماعة فرع في بغداد يبث هناك دعايتهم الخاصة ويحقق غاياتهم العلمية والسياسية معاً .

ويحيط بآراء إخوان الصفا غموض هو من مميزات الآراء الإسماعيلية عامة ، ولهذا غلبت الصفة الدينية على نشاط هذه الجماعة ، فلم يخلص جهدهم العلمي من الشوائب . ولولا ذلك لكان إنتاجهم فذًّا أكثر مما هو ، ولكن العصور الوسطى التي لعب الدين فيها دوره المهم في الغرب والشرق على السواء ، لم تكن لتتجرد من العواطف والنزوات بحيث يأتي نتاجها الفكري خلواً من التأثر بالنزعات الخاصة ، فهذا «التجريد» في البحث العلمي إنما هو من خصائص العصر الحديث .

ورغم كل ما يؤخذ على هذه الجماعة من العيوب التي يشوه بها البحث العلمي الصحيح ، فقد خلفت ثروة علمية عظيمة القيمة متشعبة النواحي ، ورتبت إنتاجها ترتيباً موسوعيا غاية في الدقة ، وعرفت مصنفات أعضائها بالرسائل ، وفيها عالجوا شق مسائل المعرفة من المنطق والتاريخ الطبيعي وعلم النفس ، والموسيقى والرياضة والأخلاق والفلسفة ، ولا سيما الفلسفة التصوفية ، وأربت رسائلهم على الخمسين ، وهي خلاصة لكثير

مما انتهى إلى العقل العربي من المعارف حتى ذلك الوقت ، وتدل لغتها على أن العربية كانت قد أضحت في ذلك التاريخ قادرة على التعبير عن الأغراض العلمية المختلفة . وهم إذن أول من وضع النظام الموسوعي في التأليف ، ولذلك نجدهم لا يضيفون جديداً بقدر ما يسردون آراء الغير . ويرجح الأستاذ « دلاسي أوليري » أن زيد بن رفاعة كان روح هذه الحركة التصنيفية الموسوعية ، يعاونه أبو سليمان محمد البستي ، وأبو الحسن علي الزنجاني ، وأبو أحمد المهرجاني ، والعوفي .

وكان لهذه الجماعة تأثير أدبي ملموس على الشخصيات العلمية البارزة خارج النطاق الذي عملت فيه ، فهذا ديوان « سقط الزند » للمعري يظهرنا على مدى تأثر الفلسفة العلائية بآراء الإخوان ، عندما كان يختلف إلى العراق ويجلس إلى متحدثيهم أيام الجمعة ؛ وهذا أيضاً كتاب « الإحياء » واضح الدلالة على تأثر الغزالي بأسلوبهم في الكتابة وطرائقهم في التفكير . ولتعاليم هذه الجماعة أثر واضح في تفكير « أبي حيان التوحيدي » المعتزلي الكبير الذي يكوّن مع الراوندي والمعري ثالوث الهرطقة الأعظم .

وأول معرفة الغرب بآراء إخوان الصفا وجهودهم كان على يد الطبيب المسلم «مسلم بن محمد أبو القاسم المجريطي الأندلسي» المتوفى قرابة نهاية القرن الرابع للهجرة ؛ وكانت لآرائهم في أسبانيا قوة خاصة في تشكيل الفلسفة الإسلامية في الأندلس ، وهذه بدورها أثرت تأثيراً ملموساً في الفلسفة المدرسية فلسفة العصور الوسطى الأوربية .

ابرهيم جمعة

انظر شروط المباراة الشعرية في نهاية باب الشعر .

الألمـاس

للأستاذ حسن عبد السلام

ربما كان الألماس أجمل الأحجار الكريمة التي يتداولها الإنسان ، فهو يفوق في بهائه وإشراقه جميع الجواهر الأخرى المعروفة ، كما أن صلابته العظيمة تجعل له قيمة خاصة في كثير من الأغراض العملية في الحياة .

وهو غالي الثمن جدًّا ، لندرة وجوده في الطبيعة ، ولمزاياه العظيمة المتعددة . وقد عرفه الناس منذ بضعة آلاف من السنين ؛ وكتب عنه بليني « Pliny » المؤرخ الروماني الشهير ما يأتي : « الألماس أجمل شيء على الأرض ، فهو بؤرة مركزة من الضوء الجميل ، ويفوق في صفائه كل شيء آخر ، لا يعرف قيمته إلا الملوك ، ولا يوجد إلا في طبقات من الذهب الخالص في باطن الأرض » . والعبارة الأخيرة غير صحيحة طبعاً ، وهي تدل على جهل الناس في ذلك العهد بمصدر الألماس ، لأن الألمـاس لا يوجد في طبقات الذهب، والذهب ذاته لا يوجد خالصاً أو نقيًّا في طبقات الأرض.

أما الآن فيعرف الناس شيئاً عن الألماس أكثر مما عرفه بليني ، فالألماس مع بهائه وإشراق لونه في الحلى التي تقع عليها العين ، ليس له هذا البهاء وذلك الإشراق عند ما يعثر عليه في باطن الأرض ، وإنما يوجد في صورة أحجار داكنة اللون ، قد يتوهم رائيها أنها قطع من الصخر العادي ، بيد أنه عند صقل هذه الأحجار وإزالة الغشاء الأغبر الذي يكسوها يبدو بريقها الذي يخطف الأبصار ، والسبب في هذا أن الغشاء كان حاجزاً بين البلورات وأشعة الضوء ، ولمعان الألماس إنما يرجع إلى قدرته على عكس كمية كبيرة جدًّا من أشعة الضوء .

أما كيفية تكون الألماس في باطن الأرض، فلا يزال سرًّا غامضاً، ولم يقطع العلماء برأي فيه حتى الآن ، وجميع الفروض التي وضعت لتفسير طريقة نشوئه وتكوينه هي في الحقيقة من الحدس والتخمين . ومن هذه الفروض أن بعض قطع الفحم التي في باطن الأرض تحولت بفعل الضغط والحرارة إلى تلك القطع المتبلورة من الألماس ، وقد يبدو

هذا الفرض بعيداً عن التصديق إذا أنبأتك أنه لم يعثر حتى الآن على قطعة واحدة من الألماس في مناجم الفحم أو قريباً منها ، وأن جميع الألماس الذي عثر عليه وجد في طبقات لا علاقة لها البتة بطبقات الفحم . على أنه قد وجدت قطع صغيرة من الألماس في بعض النيازك التي تتساقط على الكرة الأرضية من الكواكب الأخرى ، مما يدل على أن الحرارة الشديدة لها شأن في تكوين الألماس .

وقد تمكن العلماء أخيراً من فحص الألماس بأشعة رنتجن ، وذلك لتعيين البناء الهندسي لبلوراته ومعرفة توزيع ذرات الكربون في الفراغ ، وطريقة اتصال هذه الذرات ببعض ، فوجدوا أن كل ذرة من الكربون متماسكة مع أربع ذرات أخرى على شكل هرم رباعي الأركان تقع هي في مركزه ، وهذا الوضع من أثبت الأوضاع الهندسية وأصلحها للاتزان الثابت المستديم ، وذلك يفسر لنا شدة صلابة الألماس وقدرته على خدش جميع المواد الأخرى المعروفة .

ومن المعلوم أن الألماس والجرافيت صنوان ، فكل منهما صورة من صور الكربون ، أما الجرافيت فتتصل ذراته ببعض في صورة أشكال سداسية متساوية الأضلاع يوازي بعضها بعضاً ؛ وهذا ما يجعل الجرافيت دهنيًّا ناعم الملمس . وما يحاول الكيميائيون الاهتداء إليه الآن هو الطريقة الاقتصادية التي يمكن بها تعديل التوزيع الهندسي للذرات داخل البناء الذي تتركب منه مادة الكربون ، وعند ذلك نستطيع صنع قطعة كبيرة من الألماس بأي حجم نشاء .

والكيميائيون في كثير من الجامعات بالممالك المختلفة جادون في البحث عن عملية اقتصادية يمكن بها تحويل الفحم إلى بلورات من الألماس. ولا ريب في أن أول عالم يهتدي إلى هذه العملية سيحوز شهرة عالمية أو يجني ثروة عظيمة . وأقول شهرة أو ثروة لأنه لن يستطيع أن يحوز كليهما . فهو إما أن يبقي أمر اهتدائه للعملية الصناعية سرًّا مكتوماً ويبيع الألماس على أنه ألماس طبيعي فيحصل على الثروة المنشودة ، وإما أن يذيع خبر اكتشافه فيحوز الشهرة ، ولكن ثمن الألماس سيهوي عندئذ . ويصبح مساوياً لثمن الزجاج ؛ ذلك لأن الناس متى علموا بإمكان صنع الألماس وتحضيره بكميات عظيمة سيعرضون عن استخدامه في الزينة وينصرفون إلى حلى أخرى أندر منه وجوداً . ويقال إن أصحاب مناجم الألمــاس لديهم مقادير وافرة من هذا الجوهر الثمين في مناجمهم ، ولكنهم لا يستخرجونها من باطن الأرض إلا بكميات صغيرة محدودة محافظة منهم على ندرة الألماس وإبقاء على أثمانه المرتفعة ؛ بل يقال إن بعض الشركات قد اكتشفت

مناجم جديدة للألماس ولكنها لم تذع خبر الاكتشاف حتى لا تتعرض أسواق الألماس لخطر نزول الأسعار .

وكان معظم الألماس المتداول في التجارة حتى عام ١٧٢٩ يؤتى به من الهند ، ثم اكتشفت مناجم جديدة للألماس في البرازيل ، فاحتلت المكانة الأولى في تصديره ، وبعد ذلك اكتشفت مناجم أخرى في بورنيو وأستراليا وجوانا البريطانية والولايات المتحدة . غير أن أعظم مناجم الألماس على الإطلاق في الوقت الحاضر هي تلك المناجم التي في جنوبي أفريقيا ، وقد جاء اكتشافها عفواً على أيدي صبية فلاحين كانوا يلعبون ببعض الصخور على أنها قطع من الحصى (الزلط) العادي ، وكانوا يخرجون إلى الصحراء وينتقونها لميزتها الخاصة في بعض ألعابهم ؛ وفي عام ١٨٦٧ اكتشفت قيمتها الحقيقية ، فكان ذلك بدء صناعة عظيمة للألماس في جنوبي أفريقيا . ولم يأت عام ١٨٧٠ حتى كان عشرة آلاف شخص قد هجروا أوطانهم ورحلوا إلى شواطئ نهري الأورنج والفال بحثاً عن هذه الحجارة ، وبعدها بسنتين فقط تضاعف العدد خمس مرات فأصبح ٥٠ ألفاً ، وكانوا في مبدإ الأمر يقطنون الخيام والمعسكرات ، ثم أقاموا البيوت من الأحجار والطوب ؛ وبذلك نشأت مدينة جديدة هي مدينة كمبرلي الشهيرة .

وكان امتلاك الأرض أولا بوضع اليد ، كل من يضع يده على مساحة منها أصبح له حق حفرها والاستيلاء على ما يجد في باطنها من الألماس ، ثم انتهى الأمر بتكوين شركة كبيرة اشترت الأرض من الأفراد ، وأصبحت مناجم كمبرلي جميعها تشرف على استغلالها هيئة واحدة ، وبذلك أمكن الاستفادة من هذه المناجم إلى أكبر حد بتنظيم عمليات الحفر واستخدام أحدث الطرق والآلات .

وكانت الأحجار تلتقط من الأرض واحدة بواحدة ، ثم استخدمت الآلات في تخليص الأحجار التي تحتوي على الألماس من المواد الترابية والأرضية ، وذلك بإمرارها فوق سطح مائل مكسو بالدهن ، فتلتصق أحجار الألماس بهذا السطح وتنزلق المواد الأخرى بعيداً عنه . ويبلغ ما يحصل عليه من الألماس في أحسن المناجم قيراطاً ونصف قيراط لكل طن من المواد الأرضية المحفورة من المنجم .

وقد بلغ إنتاج مناجم كمبرلي وحدها عام ١٩٢٦ ثلاثة ملايين قيراط . وقد اكتشفت مناجم أخرى في الكنغو بلغ إنتاجها مليون قيراط سنة ١٩٣٧ . وتنتج مناجم الألماس التي اكتشفت حديثاً في ساحل الذهب ما يعادل هذه الكمية أيضاً في كل عام .

حسن عبد السلام

محاكمة الحيوان في القرون الوسطى

للأستاذ عز الدين فراج

وضع الأوربيون أول قانون لمحاكمة الحيوانات وإقامة الدعاوى عليها في القرن الثاني عشر ، ثم عدل هذا القانون في القرن الخامس عشر ، فأدخلوا عليه مواد جديدة تتضمن محاكمة النبات الضار بالإنسان . وقد لبثت هذه القوانين معمولا بها حتى منتصف القرن الثامن عشر .

ومن الأسباب التي كانت تحمل الناس على رفع القضايا على الحيوان الأعجم تعديه على قوانين الطبيعة في نظرهم ! فكان يتهم بالسحر ! وهي جريمة كان مقترفوها يعاقبون عليها حرقاً بالنار !!

وكان الناس وقتئذ يحتفلون احتفالا كبيراً بتنفيذ العقوبات على الحيوان ، فقد وصف المسيو « إدورد روبرت » في كتابه « محاكمة الحيوان أمام القضاء » بعض طرق التنفيذ على القطط ، نقتبس إحداها فنقول :

« يأتي الجلادون بقطع من الحطب ، ويضعونها في وسط أحد الميادين ، وتحضر القطط المحكوم عليها ، كل هرة في قفص من حديد ، وعند مايحين وقت تنفيذ العقوبة يحضر بعض القساوسة يصحبهم بعض الحكام ، فيتقدم أحدهم وفي كلتا يديه شعلتان من نار لإشعال الحطب ، ثم يأمر أحد الحكام بقذف القطط في النار ! وهكذا تموت حرقاً بهذه الصورة الفظيعة ، عقاباً لممارستها السحر .

١ — الفئران متهمة أمام القضاء !

لقد عثر على بعض وثائق تشير إلى محاكمة طائفة من الفئران في بلدة أوتون ؛ في القرن الخامس عشر ، بتهمة التجمهر في شوارع القرية بشكل مزعج مقلق للراحة !

وتقدم للدفاع « شاسانيه » المحامي الفرنسي ، الذي نال شهرة واسعة بسبب هذه القضية ، فقال : « أطلب التأجيل لأن الفئران لم تتمكن من الحضور ، حيث فيها

الرضيع والمريض والعجوز ، وهي تستطيع أن تستعد للمثول بين يديكم لو منحتموها فرصة التأجيل ! » .

فوافقت المحكمة على التأجيل ، ومنحت الفئران مهلة لكى تستعد للحضور ! ولما حل ميعاد نظر القضية بعد ذلك ، ولم تحضر الفئران ، دفع محامي المدعى عليهم بدفع جديد قال فيه : « إن الفئران تذعن لأوامركم الموقرة ! وتود الحضور ! ولكنها ، ياحضرات القضاة ، تخشى وقوع الأذى عليها من القطط إن هي جاءت إلى هنا » .

فرد القاضي : « إن من واجبنا تأمين المتهمين على حياتهم » . فإذا بالمحامي يقول : « لهذا تطلب من المحكمة أن تأمر بحبس قطط البلد كلها قبل مرور موكب الفئران في الشوارع ، لتكون مطمئنة على حياتها ! » وقد وافقت المحكمة على هذا الطلب لعدالته وأصدرت أمراً بمنع القطط والكلاب من المرور في شوارع القرية تأميناً للفئران في أثناء حضورها إلى قاعة المحكمة ! .

ولكن أهل القرية رفضوا تنفيذ ذلك ، فاضطرت المحكمة على الفور إلى أن تحكم ببراءة الفئران لأنها حرمت وسائل الدفاع المشروعة .

وتستطيع الآن أن تسأل محامي المدعى عليهم: هل حصل على أتعابه من الفئران؟ لاشك أنه أخذ تعهداً وإقراراً من الفئران بعدم العبث بما في مكتبه من كتب وأوراق وهو على قيد الحياة على الأقل ! !

٢ — محاكمة الديك الذي باض !

ومن أغرب قضايا محاكمة الحيوان في القرون الوسطى ما وقع في مدينة بال بسويسرا عام ١٤٧٤ إذ قدم ديك للمحاكمة ! أتعرف لماذا ؟

لا لشيء إلا لأن الديك قد باض !

لقد اعتبر أهل ذلك الزمان أن في هذا جريمة شنيعة ، استحق عليها أن يقيموا الدعوى عليه ! إذ كان من المعروف في ذلك الوقت أن السحرة دائمو البحث عن بيضة الديك ليستخدموها في أغراضهم الشيطانية ! وكان الناس وقتئذ يعتقدون في السحر إلى أبعد غاية . لم يكن للديك أمل في النجاة ، لأن في البيضة الدليل الملموس على اشتراكه فعليًا في هذا الجرم الفظيع .

راح الدفاع يرعد ويبرق وهو يقول : « كيف يكون الديك مسئولا عن واقعة

لا حيلة له فيها ؟ » ولكن دفاعه باء بالإخفاق وحكمت المحكمة بإعدام الديك !
أتعرف لماذا ؟ ليكون في ذلك عبرة لغيره من الديكة .

٣ — محاكمة السوس

واشتهرت فرنسا أيضاً في عام ١٥٤٥ بقضية أخرى ، رفعها أصحاب مزارع العنب بمقاطعة سان جوليان على حشرات السوس ! بتهمة أنها أتلفت كرومهم وقضت على أشجارهم وصناعتهم وتجارتهم !

وتولى الدفاع عن هذه الحشرات اثنان من كبار رجال القانون ، واستمرت القضية قرابة أربعين عاماً ، انتهت بأن أصحاب الكروم سئموا هذا التأخير ، فاتفقوا على إقطاع السوس قطعة أرض خاصة ليعيث فيها فساداً !

هكذا كانت توجه التهم في القرون الوسطى إلى حيوان لا يعقل ، على اعتبار أنه مسئول عما ارتكبه ! أما اليوم فقد ارتقى القضاء ووجه المسئولية إلى من يعقل فقط ، فأصبح الآن مسئولا أمام القضاء إذا أضر بحيوان . وقد لفت نظري حكم قضت به محكمة جنايات أسيوط ، نشرته إحدى الصحف من سنوات بعنوان « حبس المتهم ستة أشهر لقتل عنز » ويتلخص هذا الحكم في أن شخصين تشاجرا ، فأحدث أحدهما بالآخر عاهة مستديمة ، وقتل عنزاً يملكها آخر ، فقضت المحكمة بسجنه ثلاث سنوات عن جناية الضرب ، وأضافت عقوبة الحبس لمدة ستة أشهر مع الشغل لقتل العنز . فطعن المحكوم عليه فقضت محكمة النقض برفض الطعن قائلة : «يشترط للضرورة الملجئة لقتل الحيوان أن يكون الحيوان المقتول خطراً على نفس إنسان أو ماله ، وأن تكون قيمة ذلك الحيوان ليست شيئاً مذكوراً بجانب الضرر الذي حصل اتقاؤه بقتله ، وأن يكون الخطر الذي استوجب القتل ما كان يمكن اتقاؤه بوسيلة أخرى . وفي هذه الدعوى لم تتوافر الشروط الملجئة للقتل » .

من هذا نرى أن القضاء المصري بهذا الحكم حرم قتل الحيوان باعتباره عملا ينافي الرحمة والرقي الروحي ، وإلا اكتفى بتغريمه ثمن العنز .

عز الدين فراج

متحف علي إبرهيم

للدكتور زكي محمد حسن

انتقل إلى جوار ربه في الثامن والعشرين من شهر يناير الماضي المغفور له الدكتور علي إبرهيم باشا ، ففقدت البلاد بوفاته عميد الأطباء في الشرق العربي ، وقائد النهضة الطبية في مصر منذ رفع شأن الأطباء المصريين ، واقتحم لهم ميدان العمل الذي كان وقفاً على زملائهم الأجانب ، وجاهد في سبيل إرسال البعثات إلى أوربا ، وفي إعداد الأساتذة لكلية الطب ، وفي بناء مستشفى قصر العيني الجديد . وفقدت جامعة فؤاد الأول مديرها الذي عرفت له المواقف الكريمة في الدفاع عنها ، والذود عن كرامتها ، والعمل على إعلاء شأنها وتدعيم استقلالها

والمغفور له علي إبرهيم باشا ملحوظ النشاط في مختلف النواحي العلمية والاجتماعية والخيرية ، بل كان في الطليعة بين العاملين فيها كلها . ولسنا نبغي هنا أن نعدد مناقبه ، أو نفصل الكلام على سيرته ، ولكننا نعنى في هذا المقال بناحية من نشاطه الجم : هي جمع التحف والآثار ،



المرحوم الدكتور علي باشا إبرهيم

ولا سيما ما كان منها متصلا بتاريخ الحضارة الإسلامية .

وليس جمع التحف النفيسة من الأمور التي ترجع إلى العصر الحديث ، فقد عرفه القوم في العصور القديمة ، حين دب الضعف إلى الفن الإغريقي ، وأدت فتوح الإسكندر إلى بداية العصر الهليني في تاريخ هذا الفن ، وانتقلت مراكز الإنتاج من بلاد اليونان نفسها إلى آسيا الصغرى وسورية والإسكندرية ؛ ذلك أن رجال الفن في هذه المراكز الجديدة لم يستطيعوا التجديد أو الإبداع ، فأقبلوا على تقليد التحف المصنوعة في العصور الذهبية من تاريخ الفن الإغريقي ، وعني الأمراء والأثرياء بجمع هذه التحف لتكون نبراساً يستضاء به . وممن ذاع أمرهم في هذا الميدان أمراء برغمة « Pergamon » وهي المستعمرة التي أسسها الإغريق في آسيا الصغرى في القرن الثالث قبل الميلاد .

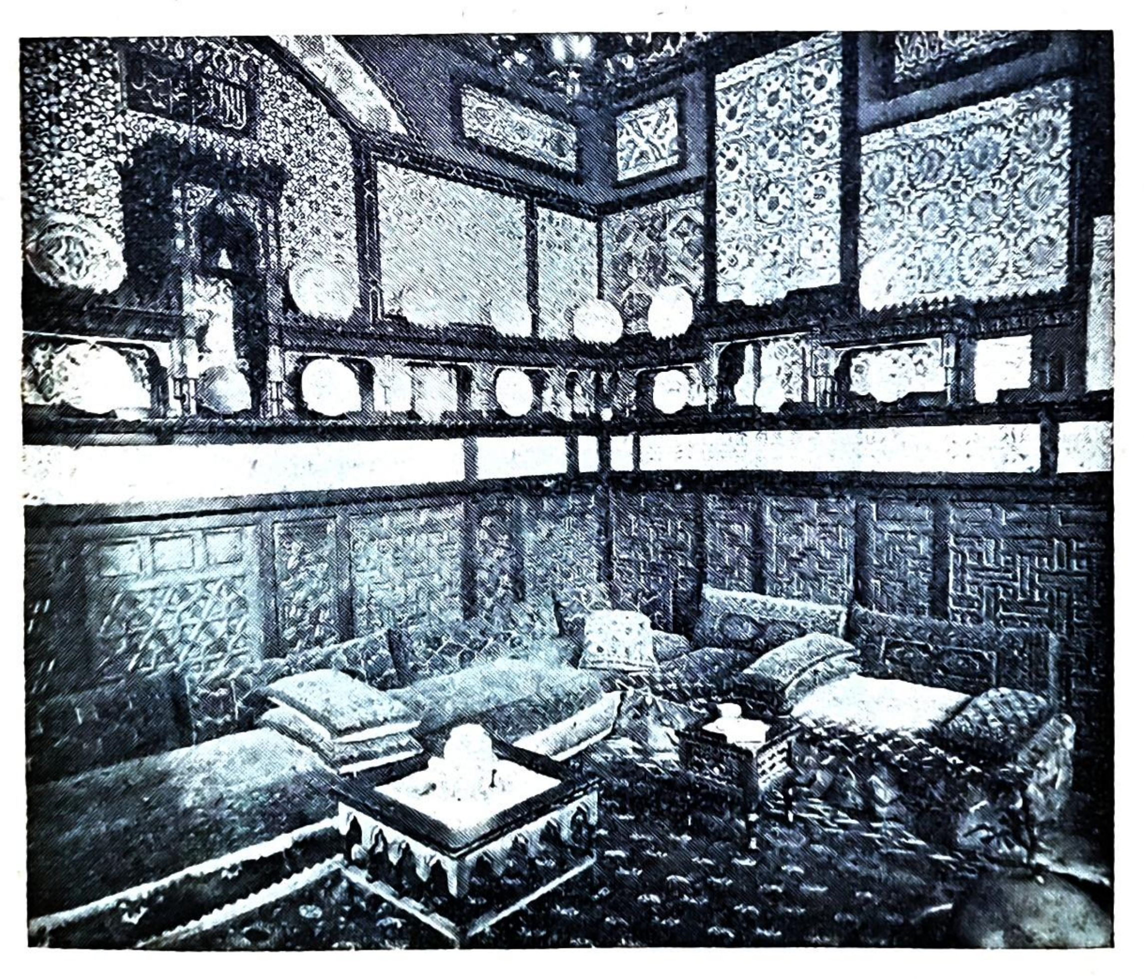


منظر في إحدى قاعات متحف المرحوم الدكتور علي إبرهيم باشا

وكان الرومان يقدرون الحضارة الإغريقية حق قدرها ، ويحبون الجميل من المصنوعات ؛ فأقبل كثير منهم على جمع التحف الإغريقية والرومانية ، بل ذهب بعض ذوي الرأي فيهم إلى وجوب التفكير في تمكين الشعب من زيارة المجموعات الفنية ،

ليعجب الشعب بما فيها من آيات الفن فيظرف ذوقه ، ولتكون مصدر وحي للفنانين فيرقى إنتاجهم . أما في العصور الوسيطة فقد كان الهواة لا يحرصون على جمع التحف لقيمتها الفنية ؛ وإنما كان مطلبهم الأول الأحجار النفسية والتحف المصنوعة من المواد الغالية النادرة ، فضلا عن المخطوطات والآثار الدينية من مخلفات القديسين والصالحين . وكان الحجاج المسيحيون ينقلون معهم إلى أوربا كثيراً من منتجات الشرق الأدنى تذكاراً لزيارتهم بيت المقدس .

ثم كان عصر النهضة حافزاً كبيراً إلى جمع التحف . ولا غرو فقد قام هـذا العصر على إحياء التراث القديم والإعجاب به والنسج على منواله ؛ وحرص كثير من الملوك والأمراء والبابوات والأثرياء على اقتنـاء التحف والآثار ؛ بل أوفدوا الرسل والخبراء لشرائها في مختلف الأقاليم ، وكانوا يزينون بها قصورهم ، أو يرتبونها في قاعات خاصة يفخرون بفتح أبوابها للزائرين ولرجال الفن . ولم تلبث قصور أولئك الأمراء



ركن في إحدى قاعات متحف المرحوم الدكتور علي إبرهيم باشا

أن ضاقت بما فيها من تحف وآثار . وكانت مجموعاتهم الفنية نواة للمتاحف التي أنشأتها الدول الغربية في القرون الثلاثة الماضية .

أما في الدول الإسلامية في العصور الوسطى فقد أقبل بعض الخلفاء والأمراء على اقتناء التحف وعرضها في قصورهم أو حفظها في خزانات خاصة ؛ وممن ذاع أمرهم في هذا الميدان : الفاطميون في مصر ، وملوك الدولة الأموية ، ثم ملوك الطوائف في الأندلس ، والصفويون في إيران ، والأباطرة المغول في الهند ، ثم سلاطين آل عثمان في تركيا .

وفي مصر الحديثة عني أمراء الأسرة العلوية بجمع التحف والآثار ، ونمت مجموعات المغفور له الملك فؤاد الأول ، ثم أمر قبل وفاته بإهدائها إلى متاحف الدولة . وكذلك جمع المغفور له الأمير كمال الدين حسين مجموعة طيبة من التحف الإسلامية ، خلفها لدار الآثار العربية . أما جلالة الملك فاروق — حفظه الله — فمقبل على جمع التحف



لوحة فنية للمصور ديلاكروا ، في متحف المرحوم الدكتور علي إبرهيم باشا

الفرعونية والأسلحة . ونمت مجموعة صاحب السمو الملكي الأمير محمد علي حتى استطاع أن ينشيء في قصره بالمنيل متحفاً عظيما للطراز التركي .

وإذا استثنينا أمراء البيت المالك فقد ظل جمع التحف في مصر إلى بداية القرن الحالي وقفاً على الأجانب من قناصل وأطباء وتجار وغيرهم . ثم غزا هذا الميدان نخبة من رجال مصر ، وعلى رأسهم شريف صبري باشا ويوسف ذو الفقار باشا وبهي الدين بركات باشا ومحمد محمود خليل بك وخليل ثابت بك . ولكن المغفور له علي إبرهيم باشا كان أقدمهم عهداً بهذا المضمار وأكثرهم انصرافاً إليه ؛ إذ يرجع حرصه على اقتناء التحف إلى أربعين سنة خلت . وكان — رحمه الله — شديد الغيرة على آثار الوطن ، يكره أن يراها تتسرب إلى أوربا وأمريكا على يد التجار والهواة من السائحين أو النزلاء الأجانب أو علماء الآثار الذين توفدهم الدول أو الجامعات لشراء الآثار لمتاحفها . وكان وثيق الصلة بأسواق العاديات في مصر والشام وأوربا وتركيا ، يعرف ما يرد إلى تجارها ، وما يظهر فيها من بدائع الفنون ، ويحرص أولئك التجار على أن يعرضوا عليه ما يتلقونه ، ليسمعوا رأيه فيه ، وليكون له الرأي الأول في شرائه لمجموعته أو عرضه على دار الآثار العربية ، أو على متحف الجامعة . وكان — رحمه الله — يحرص في رحلاته خارج الوطن ، على الاتصال بأسواق العاديات لاستكمال ما ينقص مجموعته من التحف . ولم يكن يقف عند جمع نوع معين من التحف ، فقد أقبل على جمع اللوحات الفنية من تصوير أعلام المصورين الأوربيين مثل هوبما «M. Hobbema» و جيروم « Gérôme » وفيدلر « Fiedler » و ديلاكروا « Delacroix » وعني بجمع التحف الصينيـة من الخـزف والشـبه (البرونز) فضـلا عن قطع الأثاث من الطرز الفنية التاريخية في الغرب؛ ولكنه بذل الجهد والمال في سبيل تكوين مجموعة كاملة من السجاد الشرقي والخزف المصري والإيراني والقاشاني التركي ، فضلا



إناء خزفي من صناعة مدينة الري بإيران في القرن ٧ هـ (١٣م)
في متحف المرحوم الدكتور علي إبرهيم باشا

عن اللوحات الفنية الإيرانية والتحف المعدنية المملوكية .

أما السجاد الشرقي فقد جمع المرحوم علي إبرهيم باشا عدداً وافراً منه يمثل أنواعه المختلفة باختلاف العصور وأمكنة الصناعة في إيران وبلاد التركستان والقفقاز والعراق والشام والأناضول وإسبانيا ومراكش ، فضلا عن السجاجيد الصينية المصنوعة في آسيا الوسطى ، وكثير من تلك السجاجيد نادر وثمين جدا . ويستطيع الذين يدرسون السجاد الشرقي أن يجدوا في هذه المجموعة نماذج من منتجات البلاد التي اشتهرت بنسج السجاد ، بل إنهم يستطيعون أن يتتبعوا تطور الرسوم المختلفة على السجاجيد المنسوبة إلى البلد الواحد . ولا ريب في أنها أكبر مجموعه من السجاد الأثري الشرقي في المتاحف والمجموعات الفنية الخاصة ، إذا استثنينا متاحف إيران وتركيا .



سجادة إيرانية من القرن ١٠ هـ (١٦ م) في متحف المرحوم الدكتور علي إبرهيم باشا

وتضم مجموعة الخزف نماذج من معظم أنواعه المعروفة في إيران وتركيا ومصر فيما بين القرنين الثاني والحادي عشر بعد الهجرة (٨ — ١٧ م) . ويمتاز الخزف المصري ذو البريق المعدني في هذه المجموعة بأن تحفاً كثيرة منه عليها إمضاء صانعيها ، وبعض هذه الإمضاءات يثبت أن هذا النوع من الخزف كان يصنع في مصر على يد

صناع مصريين في العصر الفاطمي . أما مجموعة بلاطات القاشاني التي كانت تغطى بها جدران العمائر في تركيا فغنية جدا ، وتمتاز بتنوع زخارفها ، وهي في هذا الميدان لا تكاد تدانيها مجموعة أخرى خارج تركيا .

والحق أن المجال لا يتسع هنا لتفصيل الكلام على التحف التي جمعها المغفور له علي إبرهيم باشا ، وحسبنا أن نشير إلى أن جامعة فؤاد الأول قررت أن تطبع مؤلفاً علميا في وصفها ، يوزع على الدوائر العلمية والفنية في العالم . وكان علي باشا — رحمه الله — يعمل منذ سنتين في تنسيق هذه التحف وإعداد الخزانات اللازمة لعرضها وما إلى ذلك ، مما جعل معظم قاعات قصره تبدو كأنها متحف بما تضمه من خزانات التحف المختلفة أو بما علق على جدرانها من اللوحات الفنية أو بلاطات القاشاني . والحق أن إعداد هذا المتحف كان أحب ما اشتغل به الفقيد في الشهور الأخيرة من حياته .

علبة من النحاس المطعم بالفضة من صناعة مصر في القرن ٨ هـ (١٤ م) في متحف المرحوم الدكتور علي إبرهيم باشا

زكي محمد حسن

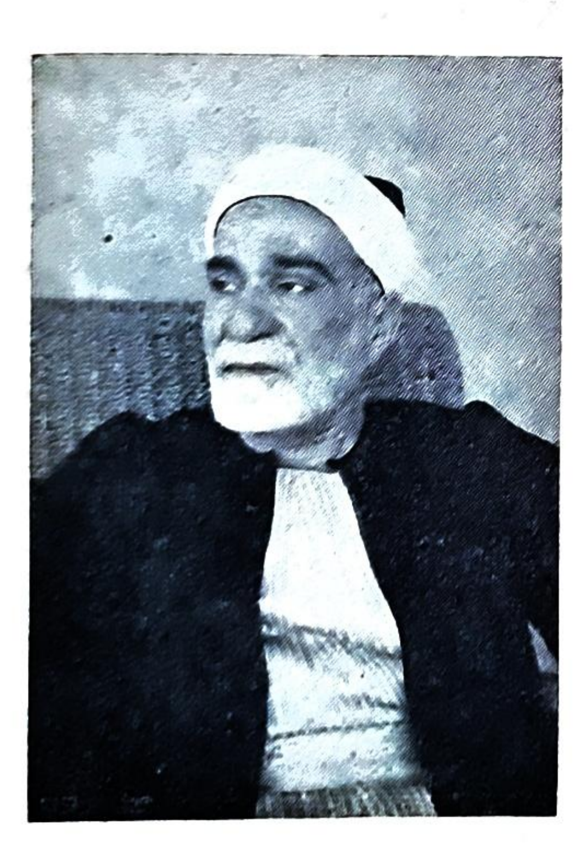
مصطفى عبد الرازق

١٨٨٢ — ١٩٤٧

للأستاذ عباس محمود العقاد

ولد المغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق ومطلع الثورة العرابية ، وكان مولده في أبي جرج ، مقر الأسرة الرازقية ، فتعلم كجميع أبناء حسن باشا عبد الرازق في ذلك الكتاب الخاص الذي أنشأه لتعليم أبنائه وأبناء أهل القرية ، وكان من شيوخ الفقيد وقتئذ الشيخ حسن الهنساوي فحفظ عليه القرآن .

ولما أتم حفظ القرآن رحل إلى الأزهر الشريف ونال منه شهادة العالمية . وقد تفرد هو والشيخ عبد المجيد سليم في ذلك العهد في الحصول عليها من الدرجة الأولى .



ومن شيوخ الفقيد الذين تلقى عنهم العلم في الأزهر : محمد عبده وعبد الكريم سلمان ومحمد حسنين وهو والد المغفور له أحمد حسنين باشا.

وما إن يظفر الفقيد بإجازة العالمية وهو في رونق الشباب حتى يدعى إلى التدريس في مدرسة القضاء الشرعي ؛ وذلك بأن ناظر المدرسة يومئذ المغفور له عاطف بركات رأى أن يبعث في المدرسة نهضة جديدة

باختيار طائفة من الشباب فكان الفقيد منهم .

وسافر مصطفى عبد الرازق بعد ذلك إلى أوربا وتردد بين مدينتي باريس وليون صارفاً جهده إلى التزود من العلوم والمعارف ، وعاد بعد سنة من إعلان الحرب الكبرى الماضية .

وتقلب بمصر في عدة مناصب ، فكان سكرتيراً للمعاهد الدينية ، فمفتشاً في المحاكم الشرعية ، فأستاذاً في الجامعة المصرية ، فوزيراً ، ثم شيخاً للأزهر .

ولقد كان له مشاركات جمة في الأدب والفلسفة تجلت في الكتب التي ألفها وفي المقالات التي نشرها في الجريدة والسفور والسياسة الأسبوعية بإمضاء مستعار حيناً كامضاء « الفزاري » وباسمه الصريح حيناً آخر ، وعنوانات تلك المقالات معروفة مشهورة منها : « صفحات من سفر الحياة » و « مذكرات مقيم » و « مذكرات مسافر » . وفي مقال من هذه المقالات الوجدانية وصف رحمه الله : موقف التوديع فقال

« في يونيه سنة ١٩٠٩ سافرت إلى أوربا أول مرة ؛ وكنت يومئذ فتى لم ير ماوراء القاهرة من جهة الشمال ، ولم يعرف البحر تجري سفائنه في موج كالجبال . لم أسكن في غير دارنا ، ولا عشت إلا بين أهلي ، ولا نطقت إلا لغتهم ؛ وكنت من السذاجة ورقة القلب وفرط الحياء على ما كان عليه ناشئة الأزهر في ذلك الزمن ! كل هذه العوامل ملأتني من السفر حين دنا موعده ، فاضطربت أعصابي وهاجت عواطفي ، ودخلت إلى والدتي أودعها ، وبي من التأثر مالا طاقة لي بكتمانه ، وكنت أقدر أنها ستبكي وتعطيني فرصة للبكاء تريحني ، ولكن الشيخة القوية توسمت حالتي فلقيتني باسمة ، تخفي قوة الإرادة وتجاعيد الكبر ما قد يساورها من ألم . قالت : لو كنت جازعة لفراق أحد من أولادي لجزعت يوم سفر أخيك البكر ، وهو طفل لا يستغني بنفسه ! أما أنت فرجل نضجت مواهبه وكملت تربيته . سافر على بركة الله وفي ذمته .

« ثم ضمتني إلى صدرها وقبلتني . هنالك استعنت بكل ما أملك من عزم ، وكل ما في قلبي من حب وإجلال لهذه الأم البارة على كتمان عواطفي المتأججة ، وقبلت يدها وانصرفت ساكناً مبتسما برغم ما أعاني من وجد واضطراب ، وكان ذلك أول ما علمني كظم المواجد . والابتسام عند الشدائد ؛ وتوالت دروس بعد ذلك عودتني أن أكتم العواطف وهي جائشة ، وأن أرزن للخطوب وهي طائشة . على أن هذه الأشجان المكظومة تضيق بها ساحة الصدر أحياناً فتلتمس هدأة من هدآت الحياة وتنفجر انفجاراً ... »

هذا مقال قيم له أكثر من قيمة واحدة .

فليست قيمته أنه نموذج من أسلوب الفقيد الجليل وكفى ، ولا أنه صورة من صور نفسه كتبها بقلمه . ولكنه مع هذا وذاك عظيم الدلالة على قوام الشخصية كلها . لأن كظم المواجد — كما سماه ، رحمه الله — كان أقوى سمات تلك الشخصية وأوضح خصائصها ، وكان لا يسهو عنه لحظة إلا بدأ منه الأسف لحينه ، وثاب إلى سكينة بالغة كأنه يعتذر بها إلى عزيمته ويستعيد بها رضاه عن نفسه .

كان الفقيد يحضر ندي الآنسة « مي » — رحمها الله — مساء الثلاثاء ؛ وكنا هناك ذات مساء ، وفي الندي الشاعر الكبير خليل مطران وبعض الأدباء ، فدخل الشيخ مصطفى باسماً يهم بالضحك ، وروى لنا أنه مر ببار اللواء — وهو على مدى خطوات من منزل الآنسة — فاستوقفه المرحوم أمين واصف بك ، وقال له : ليتك كنت معنا فترى رئيسنا — أحمد شفيق باشا — في الزي المصري الجديد . وقد كان البحث عن زي يناسب الجو المصري شغلا شاغلا في تلك الأيام لجماعة من المفكرين الذين أرادوا أن يحققوا استقلال مصر في كل شيء . وكان قد خطر لشفيق باشا أن يبتدىء القدوة فخرج في ذلك اليوم بالزي الذي ارتضاه هو وجماعة من أصحابه ، وهو قميص كالجلباب إلا أنه قصير ينتهي إلى الركبتين ، وسروال واسع ونعلان مكشوفتان ... ومشى بزيه هذا من دار الرابطة الشرقية بشارع خيرت إلى محطة العاصمة ليودع بعض الأصدقاء ..!

قال الشيخ مصطفى : فسألت أمين بك — هل أعجبك الزي ؟ وهل تنوي أن تتزيا به ؟ فصاح أمين بك مستنكراً : كيف ألبسه يا أستاذ ؟ والله لقد رأيت الرجل من بعيد فكان أول ما خطر لي أنه مسجون من الألمان يرحلونه إلى سجون الأقاليم .

فضحكنا وأغربنا في الضحك لاستطراد المناسبة بعد المناسبة . ثم التفت الشيخ مصطفى متسائلا في استحياء : ما بالنا ننطلق في الضحك هكذا ؟... قال المطران : نضحك يا سيدي ونضحك .. وهل يطول الضحك أحد ؟

لكن الأستاذ كف عن الاسترسال في الضحك بعد ذلك ، ولم يزد على الابتسام والمشاركة في الحديث .

والفقيد الكبير يرجع بهذا الخلق فيه إلى الدرس الذي تعلمه من السيدة والدته في موقف التوديع . ولكننا نعتقد أن هذا الخلق أقوى من خلق التعليم وأقرب إلى خلق الوراثة ، لأن الابن خليق أن يرث قوة الكظم من الأم التي تملك عاطفتها وتخفي شعورها في موقف يستباح فيه البكاء ، ومتى كانت هذه الخليقة في الأبوين كليهما فلا

حاجة بسليل ذينك الأبوين إلى تعلمها واقتباسها ، وإنما حاجته كلها إلى تنبيه تلك الوراثة فيه .

ولقد كان كظم المواجد والانطواء في حجاب من السمت والوقار سمة الأستاذ الأكبر في حياته العقلية ، فضلا عن حياته الخاصة أو حياته الاجتماعية ؛ لأنه كان في مؤلفاته يتجنب إبراز نفسه ، ولا يحاول أن يقحم رأيه على قارئه ؛ ويخيل إلى قارئه من التزامه هذه الخطة أن المؤلف يقنع بالنصوص والشواهد ولا يتجاوزها ، وهو في الواقع غير الحقيقة ؛ لأن أمانته في عرض النصوص والشواهد لم تكن لتحجب العارض ، ولا لتخفي منحاه ونتيجة بحثه . بل هو — لحرصه على التمحيص — كان لايعفي نفسه منه بمحاولة التوفيق بين الروايات المتضاربة ؛ وكان يرى لزاماً أن يختار منها الرواية التي تتوافر لها أدلة الصحة ، كما قال في كتابه عن الإمام الشافعي :

« ليس من رأيي التوفيق بين الروايات المتضاربة ، قويها وضعيفها على هذا الوجه ؛ فتلك طريقة ليست من التمحيص التاريخي في شيء ؛ بل يجب تخير الروايات الصحيحة السند ، التي يرجحها ما يحف بها من القرائن ... »

فقبل أن تصل النصوص والشواهد إلى القارئ تكون قد عبرت بمحك النقد وميزان التخير ، ويكون عرضها نفسه أسلوباً أميناً من أساليب الإبراز والترجيح ، أو التضعيف والإهمال .

ولا شك أن أثر « الشخصية » ظاهر في كل ما اختاره الأستاذ من السير والموضوعات . فإذا كانت كتابته عن الكندي والفارابي وابن سينا وغيرهم من فلاسفة الإسلام كتابة تقضي بها دراسته لموضوعه واستيفاؤه لأعلامه ، فإن كتابته عن الإمام الشافعي والبهاء زهير والشيخ محمد عبده لا باعث لها غير تقديراته الشخصية وميوله النفسانية ؛ فإننا نلمح دماثة الشيخ مصطفى ورقته حين نلمح دماثة الوزير الشاعر ورقته واتفاق المزاج العربي والمصري فيه ، ونلمح هذه المصرية العربية في ترجمة الإمام المتمصر وأسلوبه في التقرير والتحقيق ، ونلمح التلميذ البار في كل ما كتبه الشيخ مصطفى عن محمد عبده معلمه العظيم .

ولعلنا لا نخطئ سبباً من أهم أسباب تقديره للامام الشافعي حين نعلم طريقة الإمام في التوسط بين الرأي والرواية ، وهي طريقة الشيخ مصطفى نفسه في تمحيصه وتعقيبه . قال : « كان أهل الرأي يعيبون أصحاب الحديث بالإكثار من الروايات الذي هو مظنة لقلة التدبر والفهم ... وكان أهل الحديث يعيبون أهل الرأي بأنهم يأخذون

في دينهم بالظن، وأنهم ليسوا للسنة أنصاراً ، ولاهم فيها بمتثبتين ، فإن أصحاب أبي حنيفة يقدمون القياس الجلي على خبر الواحد .. »

والإمام الشافعي لم يكن من هؤلاء ولا هؤلاء ، بل كان يعطي الرواية حقها ، كما يعطي الرأي حقه ، ويتوسط بين الطريقتين ، وذلك هو دأب الشيخ ، أو قريب من دأبه ، في كتب العرض والتاريخ .

وإن الروايات لتكاد تجمع على شيء ، ثم لا يستريح الشيخ إلى قبوله ، كما صنع بعد إثبات الروايات المتعددة عن شخص الكندي وغرائبه ، فقد أثبتها ثم قال : « هكذا يبلغ العبث بالتاريخ حدا يشوه من خلق الكندي ومن عقله ، وقد كان الرجل في خلقه وفي عقله من أعظم ما عرف البشر .. »

ومن خبر الكتابة التاريخية ، وعرف انتقاء الشواهد والأمثلة ، فهو خليق أن يعرف أن الانتقاء من الشواهد الكثيرة لا يتأتى بغير ميزان مستقل يعتمد عليه المؤلف في اختياره وترتيبه . فكتاب مثل كتاب « الدين والوحي والإسلام » أو مثل كتاب « التمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية » كان يمكن أن يتضمن عشرة أضعاف الشواهد التي اشتمل عليها ، ولا يحس القارىء فيها أثراً للترتيب والدلالة المفيدة ، ولكنه تضمن هذه الشواهد دون غيرها لأنها أقرب إلى مقياس المؤلف وميزانه ، وأدل على وجهته وحكمه وأنفع لمن يريد المراجعة والاستناد .

ومن هنا كان القارىء لا يحس شخصية المؤلف مقحمة بين السطور لأن المؤلف غلبت عليه خليقة الكظم والانطواء على السمت والوقار ، حتى سرت إلى عادات فكره كما سرت إلى عاداته الخاصة وعاداته الاجتماعية . وأعانها على التمكن والثبوت أنها وافقت أنماط حياته كلها بعد ذلك ، لأنها أنماط تتوازن جميعاً ، ولا تندفع بصاحبها إلى ناحية دون ناحية . فالرجل قد تثقف بثقافة الدين، كما تثقف بثقافة الأدب والعلم الحديث ، وقد اشتغل بالتعليم ، كما اشتغل بالأعمال السياسية والإدارية ، وعاشر المصريين من جميع الطبقات ، كما عاشر الأوربيين في ديارهم وفى ديارنا ، واعتدل مزاجه فلم يجنح به إلى شطط أو إسراف . فلا جرم كان تمالك النفس طبيعة فيه كما كان عادة وتعلما ؛ وكان إخفاء نفسه خصلة من خصال تفكيره وكتابته ، كما كان خصلة من خصال عمله ومعاملاته . وأفاده ذلك في تناول الحقائق على أقدارها ، من غير جنوح إلى المبالغة أو الحماسة . فلو أن حماسة الإعجاب كانت تندفع به وراء حدودها المحمودة لكان أحرى الناس بأن يستحمس له « محمد عبده » أستاذه العظيم ، فيأبى أن يقبل من صور سيرته ما يمس

هالات التقديس التي ينسجها إعجاب المعجبين حول أبطالهم المحبوبين ، ولكن العالم الأمين كان إلى جانب التلميذ البار في كتابة ترجمة الإمام . فلما عرض لحادث الإمام مع الشيخ عليش لم يستبعد أن يكون الشيخ قد أصاب الطالب محمد عبده بعصاه، ولم يذهب مذهب غيره من المترجمين الذين نفوا هذه الإصابة لأنهم كرهوا صورتها في الخيال ، ومع هذا لم ينشط أحد من تلاميذ الإمام لتخليد أثره كما نشط هذا التلميذ الأمين . فاهتم بتدريس كتبه ، وإيفاد البعثات باسمه ، وحفظ بقاياه ، والكتابة عنه للشرقيين والغربيين .

تلك هى شيمة الشيخ الفقيد في وفائه وعمله ، وتلك هي الدلالة التي يبرزها الواقع من حيث أراد إخفاءها . فليس يخفى على أحـد قرأ كتبه مدى ذلك الاطلاع الواسع على مراجع الفلسفة الإسلامية باللغة العربية واللغات الأوربية ، ولا مدى الخدمة القيمة التي أسداها إلى تلك الفلسفة بتوجيه العقول إليها وتعميم العناية بها والسهر على تجديدها وتنظيمها ، ولا مدى الفائدة التي استفادها منه مريدوه وقراؤه ؛ فإن هـذا كله أبرز وأكبر من أن يطويه كتمان ، أو يحجبه إخفاء .

وقد دعا له الأستاذ الإمام في مطلع شبابه ، فكتب إليه يقول . « لك عندي خالص الدعاء أن يمتعني الله من نهايتك بما تفرسته في بدايتك ، وأن يخلص للحق سرك ويقدرك على الهداية إليه ، وينشط نفسك لجمع قومك عليه » .

وقد استجيبت كل دعوة من دعوات الأستاذ الإمام ، فبلغ من النشأة الأزهرية غايتها حين تقلد مشيخة الجامع الأزهر ، وبلغ من المعرفة الإسلامية والمعرفة العصرية مكانة الأستاذ في أحدث الجامعات ، وخلص للحق سره وجهره ، وحسن في قومه توفيقه وبره إلا أن النهاية كانت أعجل مما يرجى له ولقومه على يديه . فراع الناس نعيه ساعة كانت آمالهم فيه على أقواها ، وسمع الناس ذلك النعي كأنه آخر ما يخطر على بال من خبر يذكر فيه .

✡ ✡ ✡

ذلك مجمل ما يقال عن العالم الفيلسوف . أما الأديب فقد رأينا مثلا من أسلوب نثره ، ورأينا في « البهاء زهير » مثلا من أسلوب نقده ، وينبغي أن نذكر في هـذا المقام أنه كان يقرض الشعر أيام تلمذته ويجيد نظمه . ومن قصائده القليلة قصيدة استقبل بها الشيخ محمد عبده بعد عودته من تونس والجزائر يقول في مطلعها :

أقبل عليك تحيـة وسلام   يا ساهراً والمسلمون نيام

ويقول منها :

إن يقدروا في الغرب علمك قدره   فلمصر أولى منهمُ والشـــام

فيك الرجاء لأمة لعبت بما   يلهي الصغار ، وجـدت الأيام

ولـكنه ترك النظم ، ولا نعلم أنه رجع إليه في أخريات أيامه .

وأما الوزير أو السياسي فمن تحصيل الحاصل أن يقال إنه كان في منصبه مثلا للنزاهة والإنصاف وحسن التصرف في الأعمال . وشاء الله أن يتقلد وزارة يتولى فيها باسم الأمة فضيلة كان يتولاها بنفسه ، وهي فضيلة البر والإحسان ، فبرو أحسن ، وجرى على سنن معروف في بيته ، ولم تخلقه له وظيفة الديوان .

عباس محمود العقاد

انظر شروط المباراة الشعرية في نهاية باب الشعر .



في كفة الميزان

الاستعمار

أعلى مراحل الرأسمالية

تأليف « لنين » وترجمة الدكتور راشد البراوي

١٨٨ صفحة من القطع المتوسط . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة ١٩٤٦

نقد الدكتور مصطفى القوني

« الأمبريالية » أو السيطرة الاستعمارية ، رسالة من رسائل « لنين » التي ساهم بها في تكوين النظرية الاشتراكية .

و « لنين » ، إن كان يحتاج إلى تعريف ، هو منشئ الحزب البلشفي ، وزعيم الثورة الروسية . والبلشفية فرقة من الفرق الاشتراكية العديدة ، تتميز عما عداها بأنها تقول بضرورة تكوين حزب للعمال يقوم بالكفاح الصريح ليستولي على زمام الحكم . والبلشفية كلمة روسية معناها الأغلبية ، وترجع تسمية الثوريين من الاشتراكيين بهذا الاسم إلى سنة ١٩٠٣ حين اجتمع مؤتمر للاشتراكيين الديمقراطيين في « لندن » فانقسم أعضاؤه فريقين فريق الأغلبية بزعامة « لنين » الذي نادى بضرورة القيام بالثورة الروسية ، وفريق الأقلية الذي كان يقول بإمكان تحقيق النظام الاشتراكي تدريجاً عن طريق التشريع . وقد سمي الفريق الأول «البلشفيك» ، ومعناها الأغلبية ، وسمي الفريق الثاني « المنشفيك » وهذه هي الأخرى كلمة روسية ومعناها الأقلية .

وقد ولد « لنين » في عائلة روسية كل أبنائها ثوريون . درس الحقوق وتخرج محامياً ، غير أنه أكب على دراسة كتابات « كارل مركس » و « فردرك إنجلز » مؤسسي الاشتراكية العلمية ، واستوعب آراءهما استيعاباً قل أن أتيح لغيره من المشتغلين بالحركة الاشتراكية . وفي سن الثالثة والعشرين (سنة ١٨٩٣) انتقل ، من حيث كان يعيش في مدينة على نهر الفولجا ، إلى العاصمة « سان بطرسبرج » وهناك انضم إلى جماعة الاشتراكيين الديمقراطيين ، التي تكونت سنة ١٨٨٣ ، للدعاية لمبادئ كارل مركس . غير أن اتجاه «لنين» الثوري أدى إلى نفيه ، في سنة ١٨٩٧ إلى سيبيريا

لمدة ثلاث سنوات ، وهناك توفر على دراسة كتابات الاشتراكيين الإنجليز ، وبخاصة « سدني وبياترس وب » وترجم كتابهما « تاريخ النقابية » . وبعد انقضاء مدة نفيه قضى معظم الوقت في أوربا حتى الثورة الروسية في سنة ١٩١٧ ، وعاش في ألمانيا وسويسرا وفرنسا وإنجلترا والنمسا ، وكان لا يفتر عن العمل في التحرير والتأليف وتوسيع دائرة الحزب البلشفي .

كتب « لنين » كتاب « الإمبريالية » ، الذي نعرض له ، في سنة ١٩١٦ أثناء مقامه في سويسرة . والكتاب تدليل ، مدعم بالإحصائيات والأرقام ، على ما وصل إليه مركس ، باستقراء التطور التاريخي ، من أن الرأسمالية دور من أدوار التطور الاقتصادي ، كانت له بداية ولا بد أن تكون له نهاية ، ومن أن نهاية الرأسمالية سوف تكون بداية نظام آخر ، هو النظام الاشتراكي . ويعني بالرأسمالية : استحواذ طبقة ، قليل عديدها ، على أدوات الإنتاج ، أي على رأس المال ، واستغلالها أفراد الطبقات الأخرى . أما الاشتراكية فيعني بها أن تعود أدوات الإنتاج ، كما كانت في بداية تاريخ المجتمعات البشرية ، ملكا عاما للمجتمع ، لا ملكا خاصا لبعض أفراده ، وأن تحل مصلحة المجموع المشتركة محل مصلحة الطبقة الرأسمالية الخاصة .

ويقول «مركس» في الفصل الثاني والثلاثين من الجزء الأول من كتابه« رأس المال » ما معناه : حالما يتحول العمال إلى صعاليك (بروليتاريين) ، وحالما يجردهم الرأسماليون من أدوات عملهم ، وحالما تثبت أقدام أسلوب الإنتاج الرأسمالي . . يطغى الممول (صاحب رأس المال) الكبير على من هم أصغر منه . وهذه سنة من سنن الإنتاج الرأسمالي نفسه ؛ هي سنة تركز رأس المال . ويساير سلبَ أقلية الممولين ما تمتلك كثرتهم اضطراد نمو الروح الجماعية بين العمال في أثناء تأديتهم عملهم ، وتقدم الصناعة عن طريق الإفادة مما تصل إليه العلوم ، والتوفير في وسائل الإنتاج نتيجةً لاستخدامها على نطاق واسع واتصال الجموع البشرية بعضها ببعض عن طريق السوق العالمية ، ونمو المميزات الدولية للنظام الرأسمالي والمنشآت الرأسمالية التي يتجه حجمها إلى الاتساع ، ويتجه عددها إلى القلة ، تغتصب وتحتكر كل مزايا عملية التقدم الصناعي . ويصاحب ذلك كله زيادة البؤس والاضطهاد والعبودية والانحطاط والاستغلال . ولكن يصاحبه أيضاً نمو تمرد الطبقة العاملة ؛ هذه الطبقة التي يزداد عديدها دائماً ، والتي تدعو عملية الإنتاج الرأسمالي ذاتها إلى اتحاد أفرادها وتضامنهم وتنظيم أمورهم ، ويصبح احتكار رأس المال غُلاً في عنق أسلوب الإنتاج الجماعي الذي ازدهر معه ونما في ظله . وتركيز الإنتاج من

جانب ، ونمو الصورة الجماعيـة للعمل من جانب آخر ، يصلان في النهاية إلى درجة لا تحتملها « القشرة » الرأسمالية التي تحيط بهما . ولا مناص من أن تنفجر هذه القشرة أخيراً . وحينئذ يهدف النعاة بنهاية الملكية الرأسمالية الخاصة ، وحينئذ ينقلب السالب سلبياً .

وكتاب « لينين » عن « الاستعمار » يكاد يكون كله تفسيراً للمقطوعة السابقة من كتاب « مركس » وتدليلا عليها ، وشرحاً لهذه المرحلة الأخيرة من مراحل الرأسمالية . هذه المرحلة التي تتفشى فيها الحروب والثورات والأزمات والبطالة وغيرها من مظاهر الانحلال التي يحاول المحاولون مداواتها عن طريق « الفاشية » أو « النازية » أو ما إليهما . وهذه المرحلة الأخيرة من مراحل الرأسمالية هي « الإمبريالية » التى يمكن تعريفها بأنها « رأسمالية الاحتكار » ، وقد بدأت هذه المرحة في بداية القرن العشرين ، وهي لا تعدو أن تكون تطوراً لخصائص الرأسمالية الأساسية . وبمقدم « الإمبريالية » زادت حدة الصراع الذى يدور في ظل الرأسمالية ، والذي من مظاهره الإنتاج الجماعي من جانب ، وتركيز ملـكية أدوات الإنتاج من الجانب الآخر ، وما يؤدي إليه ذلك من الأزمات وفوضى الإنتاج وصراع الطبقات .

وحين يصل الأمر إلى مرحلة الاحتكار ، تصبح الرأسمالية على عتبة التحول إلى الاشتراكية . ومن هنا كانت تسمية « لينين » كتابه « الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية » ، ومعنى « أعلى » هنا « آخر » ، لأن التطور ، في نظر الاشتراكيين ، عملية تحول من الأدنى إلى الأعلى . وبذلك تكون أعلى مرحلة للتطور ، في دور من أدواره ، هي آخر المراحل التي تؤذن بالانتقال إلى دور أو إلى نظام جديد .

وقد ابتدأ « لنين » تحليله للامبريالية ببحث في تركز الإنتاج ، تلخصه العبارة التي صدر بها الفصل الأول من الكتاب ، ومؤداها : « إن نمو الصناعة هذا النمو الهائل ، وما نلحظه من تركز الإنتاج في مشروعات تزداد كبراً مع الأيام ، يمثلان ظاهرة من أهم الظاهرات الرأسمالية » . ثم يدلل على ظاهرة التركز بإحصائيات عن الصناعة في ألمانيا تبين أن أقل من جزء من مائة جزء من مجموع المشروعات يستخدم أكثر من ثلاثة أرباع القوة المحركة البخارية والـكهربية . ثم ينتقل إلى أرقام إحصائيات الصناعة الأمريكية ، فنرى أن نحواً من جزء من مائة جزء من مجموع المشروعات ينتج نحواً من نصف المنتجات الصناعية كلها . وقد كان الإنتاج الرأسمالي ، فيما مضى ، يتميز بشيوع المنافسة بين المنتجين . وكان يسود بين الاقتصاديين الاعتقاد بأن المنافسة سنة طبيعية . ولـكن المشروع الكبير أقدر في ميدان المنافسة من المشروع الصغير .

والمشروعات يأكل كبيرها صغيرها ، حتى يقل عددها إلى درجة يسهل الاتفاق بينها ، وبهذا تنتهي المنافسة إلى أن تصير احتكاراً .

ثم إن البنوك ، التي كان عملها في الأصل مجرد الوساطة في عمليات دفع النقود يطغى كبيرها على صغيرها ، وتتركز في منشآت قليلة ، يتجمع بين يديها معظم رأس المال النقدي الذي يعهد إليها به الممولون ورجال الأعمال ، والذي تقرضه لرجال الصناعة الذين يستخدمونه في زيادة ما في حوزتهم من وسائل الإنتاج . وبذلك تصبح مهمة البنوك تحويل رأس المال النقدي إلى رأس مال صناعي . وكذلك تساهم المصارف في مشروعات صناعية بجانب كبير مما يتجمع لديها من أموال ، فتمتلك بذلك جزءاً عظيما من رأس المال الصناعي وبهذا يصبح الصيارفة أمراء مال يتحكمون في صغار الرأسماليين ويصيغون أقدارهم ، وتجتذب المصارف لمجالس إدارتها بعض أمراء الصناعة ، كما يصبح بعض كبار الصيارفة أعضاء في مجالس إدارة الاحتكارات الصناعية ، وبهذا يمتزج رأس المال المصرفي برأس المال الصناعي . وحينئذ يتحكم في النظام المصرفي وفي المجال الصناعي قلة من كبار رجال المال أو من أصحاب « رأس المال المالي » .

وبتركز رأس المال يصبح أصحابه أقدر على استغلال غيرهم ، ويدعو ذلك إلى نمو رؤوس الأموال نمواً عظيما . ولكن هذا النمو يدعو إلى هبوط معدل الأرباح ، لأن زيادة الأموال لا بد وأن تدعو إلى قلة عائدها . وهبوط معدل الأرباح يعني زيادة استغلال موارد المجتمع وما يتبعها من ارتفاع مستوى المعيشة . ولكن لما كان ارتفاع معدل الربح ، دون ارتفاع مستوى المعيشة ، هو هدف الرأسماليين فإنهم سرعان ما ينقلون بعضاً من رؤوس أموالهم إلى الخارج ، ليستغلوه في مجتمعات أقل تقدماً ... مجتمعات ينخفض فيها مستوى المعيشة وتقل رؤوس الأموال ويرتفع عائدها . وبهذا يتجه أصحاب رأس المال إلى تصدير الأموال بدلا من زيادة إنتاج السلع لتصديرها ، ويحل تصدير رأس المال تدريجاً محل تصدير السلع . وتجري في السوق الدولية منافسة في استغلال المناطق المتأخرة ، تجر بدورها إلى التركز واحتكار مصادر المواد الخام وأسواق تصريف المصنوعات ... وقد رأينا كيف تنتهي المنافسة إلى أن تصير احتكاراً . وتقتسم الاحتكارات الرأسمالية الدولية العالم فيما بينها ، وتقسمه إلى مناطق نفوذ ؛ وتتم تجزئة الدنيا كلها بين حكومات الأمم الصناعية الكبيرة ، هذه الحكومات التي تمثل مصالح كبار رجال الصناعة والمال . ويتكون من هؤلاء الرجال الذين يدأبون على نشر سيطرة بلادهم الاستعمارية في البلاد الأخرى ، ليستغلوا في ظلها رؤوس أموالهم .

وتؤدي قلة منافذ الاستغلال الخارجي ، في بعض الأمم الصناعية ، لا إلى زيادة استغلال موارد الثروة الداخلية ورفع مستوى معيشة سواد الشعب ، وإنما إلى استغلال الأموال في التسليح والاستعداد للحرب للحصول على مستعمرات وإعادة تقسيم العالم بين الأمم الرأسمالية . وتقوم الحرب وتهلك الأموال والرجال ، ويعلو عائد رأس المال من جديد ، نتيجة لقلته ، ويقدر للرأسمالية أن تعيش فترة أخرى ، غير أن الأزمات والحروب تزيد من وعي كل طبقة في الدفاع عن مصالحها ، فيزيد طغيان الظالمين ، ويزيد تمرد المظلومين ، ويشتد الصراع بين أصحاب الأموال وبين طبقات العمال ، وتتمادى الأمبريالية في تعزيز مركزها ، على حين تكافح المستعمرات في سبيل استرداد حريتها . وذلك الصراع وهذا الكفاح فاتحة للتغير والتحول ، ودليل على أن السيطرة الاستعمارية الرأسمالية على وشك الفناء .

⁂

هذا ملخص لموضوع الكتاب ، ولكن الكلام عن الكتاب وعن كاتبه كاد ينسينا الكلام عن ترجمته العربية . لا شك أن الدكتور البراوي قد وفق كل التوفيق في اختياره نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية . ذلك لأنه أولا كتاب عن «الاستعمار» ، ونحن في كفاحنا ضد المستعمرين في حاجة إلى أن نقرأ كل ما كتب عن السيطرة الاستعمارية . ولأنه ثانياً يكاد يقتصر على جانب التحليل الاقتصادي ، وقد قصره كاتبه على هذا الجانب مضطرا لأنه كان يشفق من أن تمنع نشره الرقابة الروسية أيام القيصرية ، والتزام « لينين » جانب التحليل الاقتصادي جعل الكتاب رسالة علمية من الطراز الأول .

وقد كنت أحب أن أقول إن الدكتور البراوي قد وفق في الترجمة توفيقه في اختيار الكتاب ، لولا أن :

١ ـــ الترجمة كانت في بعض الأحيان مجرد نقل للألفاظ نقلا كان يقصر عن أداء المعنى . ومن ذلك ما جاء في بداية الفصل الثامن ص ٩٥ « يتعين علينا أن نتناول بالبحث مظهراً آخر للرأسمالية على جانب كبير من الأهمية وإن لم يلق سوى اهتمام طفيف في معظم الحجج التي أدلى بها في هذا الموضوع . ومن نواحي قصور هلفردنج المركسي أنه يتراجع خطوة بالقياس إلى هوبسن الذي لا ينتمي إلى المركسية . ونحن نشير هنا إلى الطفيلية إحدى ظاهرات الرأسمالية » وما جاء في صفحة ١٠٦ « وبما أن إصلاح الرأسمالية خداع وأمنية صالحة ، ولما كان البرجوازيون الذين يمثلون الشعوب المهضومة الحقوق لا يتقدمون أبعد من هذا ، فإن الممثلين البرجوازيين للأمم الحاكمة يسيرون

إلى الوراء : أي إلى موقف الذلة والخنوع إزاء الإمبريالية ، وإن أخفوا ذلك تحت ستار عبارات « العلم » و « المنطق ... حقاً ذلك !! » : وما جاء في صفحة ١٠٥ في بداية الفصل الذي عنوانه دراسة نقدية للامبرالية « نقصد بهذه العبارة بمعناها الواسع الذي تنطوي عليه ، ذلك الموقف تقفه طبقات المجتمع المختلفة إزاء السياسة الإمبريالية ، بمعنى أن هذا الموقف أو هذه النظرة مما يمثل أحياناً من مذهبية هذه الطبقات ، أي الفلسفة التي تعتنقها . »

٢ — حضرة المعرب يتصرف أحياناً في الترجمة تصرفاً لامسوغ له . ومن ذلك في بداية ص ١٥ « الصناعات التي تنتج سلع الطبقة العليا (أدوات الإنتاج) » وفي الأصل « التي تنتج وسائل الإنتاج » . وفي ص ١٢١ « رأينا أن جوهر الإمبريالية الصحيح » وفي الأصل « رأينا أن جوهر الأمبريالية الاقتصادي »

٣ — هناك خطأ في تعريب بعض المصطلحات ومن ذلك في ص ٣٨ « الرأسمالية المالية » ترجمة لعبارة « Finance capital » والترجمة الحرفية « رأس المال المالي » وهناك فرق بين رأس المال وبين الرأسمالية . وفي ص ٤٧ «يخفض النصيب في رأس مال الأسهم» وعبارة «النصيب في رأس مال الأسهم» ترجمة لعبارة «Share capital » التي معناها «رأس المال المقسم إلى أسهم» أو «رأس مال المساهمين» والتي تكفي في ترجمتها كلمة « الأسهم » . وفي ص ٨٤ « الاقتصاديات » ترجمة لكلمة « Economy » وصحتها الاقتصاد لأن الاقتصاديات قد اصطلح على وضعها مقابل « Economics » .

٭٭٭

غير أني لم أقصد بما أخذته على ترجمة الكتاب العربية من مآخذ أن أقلل من قيمة عمل الدكتور البراوي في ترجمته ، لأنه يكفي في تقدير قيمة هذا العمل أن صاحبه من السابقين في نقل لون جديد من ألوان التفكير إلى قراء العربية ، ومع ذلك فإن جدة هذا اللون تدعو إلى تحري الدقة في نقله ، مخافة أن يدق على جمهور القراء فهمه ، أو أن يفهمه بعضهم على غير ما أراد الكاتب أو الناقل .

مصطفى القوني

انظر شروط المباراة الشعرية في نهاية باب الشعر .

التعريف

المسند

شرحه ووضع فهارسه الأستاذ أحمد محمد شاكر

الجزء الأول في ٤٠٠ صفحة من القطع الكبير . دار المعارف . القاهرة ١٩٤٦

أحب صديقي الشيخ أحمد محمد شاكر السنة النبوية المطهرة منذ شبابه الأول ، وشغف بفقهها ، والتعمق في علومها ، والتنقيب عن روائعها ، ونفائس كتبها ، وما زال يتعهد هذا الحب وينميه ويسقيه بما يتيح الله له من التوفيق ، وجمع كتب الحديث وعلومه المخطوط منها والمطبوع في كل بلدان العالم ، مما جعل مكتبته لا نظير لها مطلقاً عند عالم ممن أعرف ، على كثرة من أعرف في البلدان الإسلامية ، وقد وهبه الله صبراً دائباً على الدرس ، وحافظة قوية لا يكاد يند عنها شيء ، وذوقاً رفيعاً في استكناه الآثار واعتبارها بالعقل والنقل، وإجالة النظر وإعمال الفكر دون تقليد لأحد ، أو تقبل لرأي من سبق . وقد ساهم الأستاذ في إحياء كتب السنة مساهمة مشكورة ، فنشر كثيراً من كتبها نشراً علميا ممتازاً ، وهو اليوم يتوج أعماله بنشر كتاب « المسند » للامام العظيم أحمد بن حنبل . والمسند مع نفاسته لا يكاد يستفيد منه إلا من حفظه على طريقة الأقدمين ، وهيهات ! ولعله أوضح مثال لقول الخطيب البغدادي : « فإني رأيت الكتاب الكثير الفائدة المحكم الإجادة ربما أريد منه الشيء فيعمد من يريده إلى إخراجه ، فيغمض عنه موضعه ، ويذهب بطلبه زمانه فيتركه وبه حاجة إليه وافتقار إلى وجوده ». ولقد كانت صعوبة المسند هذه مصدر شكوى من كبار المحدثين وأعلامهم ، وهذا ما جعل الحافظ الذهبي يقول : « فلعل الله تبارك وتعالى أن يقيض لهذا الديوان السامي من يخدمه ويبوب عليه ويتكلم على رجاله ، ويرتب هيئته ووضعه ، فإنه محتو على أكثر الحديث النبوي » . ولعل دعوة الذهبي قد أجيبت بما صنع الشيخ أحمد شاكر في نشر هذه الطبعة الممتازة التي كانت أمنية حياته ، وغاية همه سنين طويلة ، فقد جعل لأحاديث الكتاب أرقاما متتابعة كانت كالأعلام للأحاديث ، بنى عليها فهارس ابتكرها منها : فهرس للصحابة رواة الحديث مرتب على حروف المعجم ؛ وفهرس الجرح

والتعديل ، وفهرس للأعـــلام والأماكن التي تذكر في متن الحديث ، وفهرس لغريب الحديث .

أما الفهارس العلمية فهي الأصل لهذا العمل العظيم ؛ وما نظن أحداً سبق الأستاذ المحقق إلى مثلها ، وقد بناها على أرقام الأحاديث فذلل الصعوبة التي يعانيها المشتغلون بالسنة ؛ فإن الحديث الواحد قد يدل على معان كثيرة متعددة في مسائل وأبواب منوعة مما ألجأ البخاري – رضي الله عنه – إلى تقطيع الأحاديث وتكرارها في الأبواب ، فصار من الميسور للباحث – بعد هذا الجهد البالغ الذي قام به الأستاذ المحقق – أن يجد الباب الذي يريده أو المعنى الذي يقصده بالاستقصاء التام والحصر الكامل .

وبعد : فهذا العمل العظيم حقا ، ليس وليد القراءة العاجلة ، أو إزجاء الفراغ فيما يلذ ويشوق ويسهل . وانما هو نتاج الكدح المتواصل، والتنقيب الشامل، والتحقيق الدقيق ، والغوص العميق في بطون الكتب وثنايا الأسفار . وقد أنفق فيه صديقي نحو ربع قرن من الزمان، لو أنفقه في التأليف أوفي نشر الكتب الخفيفة لكان لديه منها الآن عشرات وعشرات ، ولجمع منها مالا جزيلا ، وذكراً جميلا ، ولكنه آثر السنة النبوية وتقريبها لطالبيها على كل ذلك ، فحقق الله أمله ، وبارك عمله ، ووفقه لطبع الجزء الأول من «المسند» هذه الطبعة الممتازة التي لامثيل لها بين طبقات الكتب الإسلامية دقة ، وأناقة ، وجمالا يشرح الصدور ، ويونق الأبصار ، ويشوق النفوس إلى إدمان المطالعة ، وذلك أجل ما يسدى إلى شباب العربية في هذا الزمان . فجزى الله الناشر على صنيعه خير الجزاء ، وأعانه على إتمام طبع بقية « المسند » وغيره من المصادر التي اعتزم نشرها خدمة لقراء العربية ، وحفظاً لتراثها العظيم ، إن شاء الله تعالى .

محمد حامد الفقي
رئيس أنصار السنة المحمدية

الأدب المصري القديم

تأليف الأستاذ سليم بك حسن

في جزءين كبيرين صفحاتهما ٦٥٠ . لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٤٦

حين يؤرخ المصري لأدب بلاده إنما يتجه تفكيره إلى هذا الأدب العربي الإسلامي الذي دخل مصر مع الفاتحين العرب ، وهم يحملون إليها دينهم وتفكيرهم ولغتهم وثقافتهم

العربية التي انتهت إلى ثقافة متميزة واضحة شائعة في الممالك التي شملتها حضارة الإسلام .

وهذا الأدب المصري يستطيع الناس أن يتتبعوه في مظانه ، وأن يقرءوه فيفهموه، وأن يجدوا بينه وبين عواطفهم نسباً مشتركا . ويستطيعون كذلك أن يعرفوا عصوره في مصر من أيام حكم الولاة إلى يومنا هذا ، وإن كان فيه بعض فجوات لا نشك في أن الدراسة الجادة ستزيح عنها الستر في يوم قريب أو بعيد .

أما الأدب المصري القديم ، أي أدب الفراعنة ، فقد طمرته الأرض فيما طمرت من آثار . وظل كل من الأدب والآثار مطويا ، إلى أن أتيح لكثير من الآثار أن يكشف النقاب عنها ، وأن ترى النور على وجه الأرض من جديد ، وأن تدرس دراسة كان للأجانب فيها فضل السبق وتعمق البحث وموصول الجد ، حتى أضحى للآثار المصرية القديمة علم بعيد السواحل ، روي المناهل . ولكن الأدب القديم ظل محجباً ، حتى أتيح لشيخ الأثريين « إرمان » أن يكتب فيه كتاباً حبب سليم بك حسن في ترجمته إلى العربية ، حتى يهيء للمصريين المحدثين سبيلا إلى التعرف بأدب أجدادهم الأقدمين .

ولكن سليم حسن لم يترجم كتاب إرمان حين قرأه لأول مرة ، وقد خار الله له حينما انتظر حتى تقدمت الكشوف العلمية التي غيرت بعض الحقائق القديمة . فعدل عن الترجمة إلى التأليف ، بعد أن اتضح له من معالم البحث العلمي الحديث مازاد الكتابة قيمة في الأدب المصري القديم .

وقد صنع سليم بك خيراً حين اختار التأليف بدلا من الترجمة ؛ فقد يكون أليق بالمصري أن يؤلف عن أدب بلاده ، لا أن يعمد إلى الأجانب فيما كتبوا . وإذا كان مؤلفنا المصري قد استفاد منهم وتأثر بطريقتهم إلا أنه خالفهم حين وقف عند كل صورة أدبية وقفة طويلة ، فعالج نشأتها ، وسارمعها في تدرجها حتى يصل إلى نهايتها .

ولقد اختلف كثير من علماء الآثار المصرية في تراجمهم للنصوص القديمة . وهو خلاف لم يكن منه بد في لغة رمزية . ومن هنا كانت صعوبة المؤرخ للأدب المصري القديم حين يجد نفسه في مواجهة نصوص تذهب فيها الأفهام — أو الأوهام — كل مذهب ، حتى لتجد للنص الواحد ترجمات قديمة وحديثة لمعان استغلقت اليوم علينا ، لأنها تعبر عن أفكار وعادات غامضة بعيدة منا ؛ ولايزال العلم يديم المحاولات لكشف أسرارها .

ومن هنا كثرت علامات التعجب والاستفهام في ترجمة المؤلف لهذه النصوص . ولكنه مضى في خطته وآثر أن لا يطول بنا الانتظار في دراسة الأدب القديم إلى أن يرفع العلم الحجاب عن هذه الآثار . ومن هنا أيضاً ترك المؤلف بعض العبارات المضطربة

بدون ترجمة حتى تستقيم على تقدم الزمن . وهذه سبيل قد تتعرض لنقد ناقد ، ولكن العلم لا يعرف الوقوف ولا الانتظار .

إن مصر العربية لتعتز بأن لها أدباً قوميا قديماً ! وليس بضائر عربيتها أن تمتد بها الشخصية الأدبية المستقلة إلى ما قبل الفتح الإسلامي . وإنها لتعتز بأن أدبها المصري أقدم من أدب الإغريق ، كما أثبت عالمنا المصري في كتابه . ولقدكان الأدب الخالص أو الأدب للأدب أول ما عرف المصريون قبل الميلاد بألفي عام ، وقبل أن يتغنى الشعراء بأساطير اليونان .

ولقد عرف المصريون القدماء ألوان الأدب كما يعرفها الناس اليوم ؛ عرفوا الأدب القصصي قبل أن يعرفه اليونان ؛ وأشركوا الأرباب في تمثيلياتهم قبل أن يشركها اليونان . وهذه دعوى لاتقوم بغير دليل ، ففي قصة « مخاصمة حور وست » يحتكم المتخاصمان إلى محكمة الآلهة برياسة الإله « رع » « ص ١٢٧ — ج ١ » .

وفي الأقاصيص المصرية القديمة لم يهمل التحليل النفسي المناسب الذي مهد الطريق لهذا المذهب عند قصاص الإغريق . وللمصريين فضل السبق في ناحية تحتل مكاناً عظيما في أدب القصة الحديث . أما أدب الحكمة والتأمل ، أو الأدب التعليمي فكان أول وأمتع ما عرفته الآداب القديمة . وقد لقي من الذوق المصري قبولا ، فافتن الكتاب فيه وبالغوا في تحسينه وتوسيع أفقه ، حتى ليوقن سليم بك حسن أن حكم « بتاح حتب » وأمثاله كانت نواة لظهور أمثال سليمان الحكيم .

إن قراءة هذا الكتاب الثمين لن تكون مجالا لافتخار أو كشفاً عن أستار . ولكنها ستوضح الطريق للباحثين في الأدب المصري قديمه وحديثه حتى يتتبعوا التأثيرات ويحددوا العلاقات بين التيارات التي تعاورت الفكر المصري على ممر العصور . وقد أدى سليم بك واجبه في ناحيته ، وبقي أمام الباحثين نواح كثيرة في عقد الموازنة والبحث عن الصلة .

تاريخ حكماء الإسلام

تأليف ظهير الدين البيهقي
نشره وحققه الأستاذ محمد كرد علي بك

٢٠٤ صفحات من القطع الكبير . مطبوعات المجمع العلمي . دمشق ١٩٤٦

كان أبو سليمان محمد بن طاهر السجستاني علماً عظيما من أعلام الفلسفة في القرن الرابع الهجري ، وكانت مجالسه مثابة لطلاب الفلسفة وملاذاً ينشدون فيها متاع العقل ،

وصقال الفكر ، وينشقون روح المعرفة وبرد اليقين ، فقد كان الرجل غزير العلم قوي الذهن محيطاً بمذاهب الحكماء ومنازع الفلاسفة قادراً على شرح غوامضها وبيان دقائقها في سرعة فائقة وبيان شامل . وقد حفظ لنا طائفة من أفكاره وآرائه تلميذه العبقري أبو حيان التوحيدي أعظم مؤرخ لثقافة القرن الرابع . ولم يصل إلينا من آثار أبي سليمان المدونة إلا منتخبات موجزة من كتابه العظيم « صوان الحكمة » ، وقد كان هذا الكتاب متداولا معروفاً حتى القرن السادس ، فرأى ظهير الدين البيهقي (٤٩٩ — ٥٦٥ هـ) أن الكتاب في حاجة إلى تتمة تشتمل على تراجم الحكماء الذين فاته ذكرهم والذين جاءوا بعده . ولم يتعرض البيهقي في « تتمة صوان الحكمة » لمن ذكرهم أبو سليمان لاعتقاده أنه أنصف في ذكرهم وبالغ في حقهم . وقد طبع كتاب التتمة في لاهور سنة ١٣٥١هـ بتحقيق الأستاذ « محمد شفيع » مع ترجمة بالفارسية ، ونهض في هذه الآونة الأستاذ محمد كرد علي بك فأعاد طبعها مع تحقيقات الناشر الأول وقدم لها بمقدمة ألم فيها بتاريخ البيهقي وتحدث فيها عن كتابه ووازن بينه وبين طبقات الحكماء للقفطي . وإعادة طبع هذا الكتاب النفيس تيسر سبيل الاطلاع لعدد كثير من القراء كان يتعذر عليهم قراءته في طبعته الأولى نظراً لندرة وجودها . ولعل الأستاذ كرد علي بك ينشط إلى طبع « منتخب صوان الحكمة » ثم إلى نشر « تتمة التتمة » فيسدي إلى المكتبة العربية خيراً كثيراً هو بإسدائه قمين وعليه قدير .

دفاع عن العلم

تأليف ألبير بابيه ، ترجمة الدكتور عثمان أمين

١٥٤ صفحة من القطع المتوسط . دار إحياء الكتب العربية . القاهرة ١٩٤٦

عنوان هذا الكتاب في اللغة الفرنسية « أخلاق العلم » وآثر الدكتور عثمان أمين أن يكون العنوان « دفاع عن العلم » لأنه — كما يقول — أدل على الموضوع وأبعد عن الالتباس من العنوان الأصلي .

ويدور موضوع الكتاب حول الصلة بين الأخلاق والعلم الذي خطا خطوات واسعة غيرت من شكل المجتمع وأسلوب الحياة فيه خلال القرنين الأخيرين . وذلك على أثر الكشوف الواسعة في ميدان الطبيعة والكيمياء وعلم الحياة والطب ، حتى انتهينا إلى القنبلة الذرية .

فهل موقف الأخلاق من العلم موقف ينافية أو يجافيه ؟

وهنا ينبري الأستاذ بابيه للرد على المعترضين ، فالعلم ليس مسئولا عن الشرور والآثام التي يرتكبها البشر بأسلحته . فهو قبل كل شيء منهج للبحث ، وتطلع إلى المعرفة وكشف أسرار الطبيعة واستخدامها لمصلحة الإنسان . لهذا يجب التفرقة بين العلم الخالص وبين تطبيقات العلم ، أو بين العلم والعمل .

وهو على العكس من ذلك يذهب إلى رأي جديد : هو أن للعلم أخلاقاً خاصة .

فما هو الفرق بين علم الأخلاق ، وبين أخلاق العلم ؟

علم الأخلاق يبحث فيما يجب أن يكون عليه سلوك الفرد ، ومن حيث أنه يطلب الواجب فله مثل أعلى ينشده . وقد سعى الأستاذ « لفي بريل » منذ بضعة وعشرين عاماً إلى أن يجعل من الأخلاق علماً كسائر العلوم الطبيعية ، غير أن بابيه يعترض على هذه المحاولة قائلا : إن هذا العلم الجديد ليس فيه من العلم إلا الاسم .

أما الذي يريده بابيه فهو إقامة أخلاق للعلم بعد أن اتسع أفقه وانتشرت آثاره . وتقوم أخلاق العلم على أمور ثلاثة نستمدها من طبيعة العلم نفسه بالنسبة للانسان وهي : كرامة الفكر ، وحرية الرأي ، وائتلاف البشر ، فهي بالنسبة لأخلاق العلم كلمات السر .

فالعلم يعتمد على سلطان العقل ، ويطلب المعرفة لأنها لذة في ذاتها ، بدليل هذه الكشوف في علم الفلك ، وليس لها ثمرة عملية مادية . وهكذا نحفظ على الفكر كرامته ، ونبسط للعقل سلطانه .

ولست تجد من جهة أخرى في البحث العلمي أثراً من آثار التعصب والهوى ، بل الحرية في أوسع مداها هي شرط وجوده حتي يتنفس وينمو ويزدهر .

نظام الحكم في العراق

تأليف الدكتور مجيد خدوري الأستاذ بدار المعلمين العالية ببغداد

٤٠٠ صفحة من القطع المتوسط . من منشورات مجلة المعلم الجديد ببغداد ١٩٤٦

بدأ العراق منذ قيام الملك فيصل على رأس حكومته الوطنية يتطلع إلى مستقبل جديد حافل بالآمال بعد أن كان في عهد الإمبراطورية العثمانية لايزيد على ولاية تركية مهملة عديمة الشأن .

فمنذ تلك اللحظة الحاسمة في تاريخ العراق عاد الحكم العربي إلى العراق بعد أن زال عنه في منتصف القرن السابع الهجري ، وبالتحديد في سنة ٦٥٦ هـ عند سقوط بغداد في يد التتار .

وليس الحكم الوطني المستقل جديداً على العراق ولا دخيلا عليه ولا غريباً منه ، فقد كان في عهد العموريين والآشوريين دولة ذات شأن في العالم القديم ، ولم تكد تضيع سيادته في عهد الفرس واليونان والرومان حتى استعادها في عهد العرب وفي ظل الدين الجديد الذي انتشر بالفتوح الأولى في عهد عمر بن الخطاب ، والذي استقر سلطانه على يد الخلفاء من أبناء العباس .

وظل العراق منذ تأسيس الدولة العباسية في الثلث الأول من القرن الثاني الهجري إلى منتصف القرن السابع مركزاً من مراكز الحضارة في العالم المتمدن طيلة خمسة قرون ازدحم فيها بلاط بغداد بألوان ناصعة مشرقة من الحكم والازدهار الأدبي والتقدم الحضاري ، حتى وصلت الحضارة العربية إلى قمتها في القرن الرابع .

ولقد كان العراق في جملة الأمم العربية التي تعاونت مع الحلفاء في الحرب العالمية الأولى أملا في التخلص من السيادة العثمانية ، وطمعاً في الفوز بالاستقلال ، وانسياقاً إلى وعود مغرية لتقرير الأمم حق مصيرها .

ولقد فرض الانتداب أول الأمر على العراق دون استشارة الشعب العراقي في أبريل سنة ١٩٢٠ ، ولكن العراقيين استنكروه وعالنوا بالثورة عليه حتى انتهى الأمر إلى تنصيب الأمير فيصل ملكا على العراق في سنة ١٩٢١ ، وإلى وضع الدستور العراقي والتصديق عليه في سنة ١٩٢٤ ، وإلى عقد معاهدة مع بريطانية وقعت في سنة ١٩٢٢ .

ولقد خطا العراق نحو الحكم المستقل خطى سريعة ؛ واتخذت فيه الأداة الحكومية شكلا يتفق مع وضعه السياسي الجديد . فأحيط التاج فيه بامتيازات ، وحددت فيه مسئولية الوزراء أمام مجلس النواب ، ونظم فيه حق الانتخاب لمجلس النواب وحق التعيين لمجلس الأعيان ، وحددت العلاقات الخارجية ، ووضعت التنظيمات الإدارية .

وقد تحدث المؤلف عن هذه الموضوعات حديث المؤرخ المحقق وأضاف إليها فصولا عن الأحزاب والوزارات العراقية وتجربة الانقلابات في العهد الأخير من تاريخ العراق . لا تخلو من صراحة محمودة .

الشيخوخة الخضراء

اشترك في تأليفه جماعة من أطباء العراق . ونشره الدكتور فائق شاكر
١٣٨ صفحة من القطع المتوسط . مطبعة الجيش العراقي . العراق ١٩٤٦

صدق الشاعر الحكيم زهير بن أبي سلمى حين قال في معلقته الميمية المشهورة :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا — لا أبالك — يسأم

والواقع أنه ليس وراء الهرم وكبرة السن إلا السآمة من العيش والملل من الحياة . وليست هذه السآمة لطول العمر بذاته ، ولكن لما يصحبه ويصطلح عليه من الوهن والضعف الذي عبر عنه الشاعر الإسلامي بقوله :

وإذا الشيخ قال أف فما مل حياة وإنما الضعف ملا !

وقد يبغي الناس الحياة لأنفسهم ويحرصون عليها ؛ وليس بعد ذلك إلا الضرر وفناء البشاشة ومرارة العيش ومساءة الأيام . . وهي مظاهر قد عبر عنها النابغة الذبياني أصدق تعبير في أبياته المعروفة :

المرء يأمل أن يعيش وطول عيش قد يضره
تفنى بشاشته ويبقى بعد حلو العيش مره
وتسوءه الأيام حتى لا يرى شيئاً يسره
كم شامت بي إن هلكت وقائل لله دره !

ولقد طال عمر تمثال أبي الهول حتى عجب شاعرنا شوقي بك من هذا المدى المتطاول فخاطب أليف الرمال بقوله :

أبا الهول ماذا وراء البقاء إذا ماتطاول غير الضجر !

لهذا كره العقلاء الشيخوخة لما يصحبها من الصمم وضعف القلب وسوء التغذية واستهلاك الأعصاب وماء العين الأزرق وانبهار النفس وما إليها من الأدواء التي تجد في أجسام الشيوخ المرتع الخصيب والجناب الرحيب .

على أن الشيخوخة نهاية لابد منها ومصير لامفر من الصيرورة إليه ، ولا بد للطب أن يعمل على التوقي من أدوائها وتخفيف آلامها ومعالجة مايمكن علاجه من من أمراضها ، حتى يتحول جفافها وتصلبها إلى شيخوخة خضراء . وليست هي الخضرة التي تنبض بالحياة ، ولكنها الخضرة التي تجعل الحياة محتملة في السن العالية .

ولتلك الغاية اشترك الأطباء توفيق رشدي وصفاء الدين وعلي حيدر وعاطف خالد وقاسم البزركان وكمال السامرائي ومهدي فوزي وهادي الباجه جي في تأليف هذا الكتاب الذي يبصر القراء — شيوخاً كانوا أم شباناً — بالنذير الذي ينزل بهم على تطاول العمر ، ويقفهم على أسرار الجسم وتركيب الجسد ودورة الدم ووظيفة الأعضاء ومظاهر الأدواء . وبهذه المعرفة يستطيع الشيوخ أن يلقوا الشيخوخة في ابتسامة المستعد لا في غرة المفاجأ .

والكتاب مفيد في موضوعه كله ، وما من شك في أن مؤلفيه العراقيين قد أحسنوا الكتابة حين كتبوا ، كما أحسنوا الترجمة حين ترجموا إلا أن ظهور هذا الكتاب اليوم يثير من جديد مسالة توحيد المصطلحات الطبية في البلاد العربية . وهي مسألة لاينبغي إغفالها أو إغماض العيون عليها ، ففي العراق يسمون مرض الـ Angina Pectoris ذبحة القلب ، ونحن نسميها « الذبحة الصدرية » وهناك كثير من المصطلحات تختلف عما اصطلح الأطباء عليه في مصر، وعما ألفه الناس هنا حين يقرؤون كتاباً في الطب أو بحثاً في العلاج .

الناطقون بالضاد في أمريكا

نشره بالإنجليزية معهد الشؤون العربية الأمريكية في نيويورك

ترجمه وعلق عليه « البدوي الملثم »

١٠٢ صفحة من القطع المتوسط . المطبعة التجارية بالقدس ١٩٤٦

الآن — وبعد أن أخرج معهد الشؤون العربية الأمريكية هذا السجل الزاخر الميمون : « الناطقون بالضاد في أمريكا » — يستطيع الوادي في أحد مكانيه من المنبع إلى المصب أن يقول : «أنا هو فيأخي الشامي، فانظرني أيها الناطق الإنجليزية في عالميك القديم والحديث ! » .

والآن — وبعد تبيان ذلك النشاط الفذ الذي ترجم به الرهط العربي في المهجر — تنتضي الجامعة العربيّة في وجه الاستعمار سلاحاً ما يستطيع أن يفله أفتك أسلحته الحاضرة ، والتي هي في عالم الغيب .

والمستعمر رجلان : منافق وهو ما ليس بحاجة إلى حجاج ، لأنه في قرارة نفسه مؤمن يكذب نفسه ؛ وآخر مَرَد على النفاق . وهذا يقيمه ويقعده وهمه أن الشرق

ما يصلح إلا على يد المستعمر! فماذا ترى يقول لنفسه حين يتجسم أمام ناظريه — بتلك النشرات التي يصدرها معهد الشؤون العربية الأمريكية — مآثر العربي في عالم الحرية الذي أتيح له في أمريكا؟ وماذا تراه يقول لخيمه حين تجبهه الدنيا الواقفة موقف الحيرة بل علماء الاجتماع في بلده وغير بلده وقد وقفوا على ما ضمن «كتاب الناطقون بالضاد في أمريكا»، بعكس دعواه، وتصيح به ساخرة: «إنما تأخرت نهضة الشرق والعالم العربي إلى هذا التاريخ لأنك كنت تكتم أنفاسه، وتحول بينه وبين المشاركة في الحياة الكريمة الفسيحة!».

فيارعاكم الله إخواننا الأنصار في المهجر! ومد في حيويتكم الجارفة المباركة، فقد قدمتم — بذلك السفر — العربيَّ العالم يجهله أو يتجاهله، وسلكتم أقصد السبل في «إنماء شعور التفاهم وحسن الثقة المشتركة بين الولايات المتحدة من جهة والشعوب الناطقة بالضاد من جهة أخرى» وقمتم لأوطانكم الأصيلة بأصدق دعاية في عالم ما أحوجنا فيه إلى كثير من أساليب الدعاية.

ولقد ترجم هذا السجل الجليل عن الإنجليزية الأستاذ «البدوي الملثم» فقدم بذلك لأمة العرب عملا جليلا؛ فإننا هنا بحاجة — أي حاجة — إلى من يضع يدنا على مقادرنا، فيوثقنا بأنفسنا، ويمحو من أذهاننا ما ضربه المستعمر على بصائرنا من توهين وإيئاس. وما نصرة قضية لا يعتقد الشاكي في طويته صدقها وأحقيتها؟ أو غابت عنه أسانيد الدفاع فيها والتبست عليه؟ فنحن أحق بإقناع أنفسنا بعدالة قضيتنا، قبل أن نقنع الغير بها. فترجمة هذا الكتاب قد سدت فراغاً في المكتبة العربية، وأسدت إليها يداً لا تنسى.

والكتاب إحصاء دقيق لمساهمة الشاميين المتمركين في جميع ضروب النشاط الحيوي العالمي؛ ولن يملك القارئ العربي أنفاسه دهشة وعجباً حين يعرف منه طلع هذا النفر النجب من قومه، وقد برزوا في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والفنية. وإنه ليعصوصب، ويشتد حبا لجنسه ونفسه حين يرى فيهم المخترعين في الطب والكيمياء، وسابقي الغرب في التصوير والموسيقى، والقافزين بالأدب إلى مكانة لم تكد تتهيأ له في أوطانه التي ران عليها الاستعمار.

وكتاب «الناطقون بالضاد في أمريكا» هداية كذلك ورائد لمن يهتمون بالنواحي التاريخية، وينقبون عن السير الشخصية والمهنية، فقد ذيلته الترجمة بنبذ مختصرة عن تراجم هؤلاء الغر الميامين.

المرأة في مختلف العصور

تأليف الأستاذ أحمد خاكي

١٤٤ صفحة من القطع المتوسط . دار المعارف . القاهرة ١٩٤٧

تشغل المرأة حيزاً بعيد الغور ، منفسح الأرجاء من شخصية الرجل ، وتلعب دوراً قويا خطيراً في تكوين حياته ، وطبعها بطابع خاص . ومنذ بدء الخليقة والمرأة هدف آمال الرجل ، ومحور عواطفه ، ومثار غيرته ، ومشرق إلهامه ، ومبعث وحيه . ومرد هذا إلى تزويده بوعي الأنثى ، فتراه منجذباً إليها بدوافع طبعه ، وبواعث تكوينه ، وأشواق روحه . فليس هذا الولع بالمرأة ، والكلف بكل ما يتعلق بها من العوارض الطارئة على الطبع ، بل هي من بنية الشخصية ، وجزء من كيان الروح ؛ فكان لها من الآثار في حياة الرجل الروحية والنفسية والأدبية والمادية والاجتماعية ، ما هيأ لها أن تحتل هذا العرش المرموق . غير أن تلك العواطف التي تفيضها المرأة على شخصية الرجل لم تتخذ رداء خاصا ولا لوناً متحداً ؛ بل قد ظهرت بزي العصر الذي عاشت فيه ، وطابع البيئة . فالعصر والبيئة هما اللذان كانا وما زالا ينسجان دائماً تلك الأردية والمعاطف التي تتجلى فيها هذه العواطف ، فالعصر القديم له زيه الذي يغاير العصر الوسيط ، والعصر الحديث يباين كل هذا . فللخطوات التي يخطوها الإنسان في سبيل الرقي والتقدم ، ولازدهار المعارف ولنضوج العقل والعاطفة ، واكتمال نمو الأحاسيس ونشاطها ، ولظهور الأديان وإشراقها ، كل هذه الأنواع تتعاون على نسج الثوب الذي تخطر في وشيه تلك الأشواق التي تثيرها الأنثى ، فدراسة هذه الأطوار ، والكشف عن ملامحها وبيان سماتها من ألذ وأنفع الدراسات ، ففي ضوء تلك الدراسات يستطيع الباحث أن يتتبع نمو العاطفة ويلاحظها ، وهي تدرج في سلم النشوء والارتقاء ، وتنتقل من البساطة إلى التعقيد . والأستاذ أحمد خاكي قد قدم بهذه الدراسات التي تناول فيها نظرة الرجل إلى المرأة ، ومقدار فهمه لها ، وتغلغله في سرائرها ، وغوصه في أعماقها في مختلف العصور ما يشوق ويمتع ، والأستاذ خاكي من ذلك الطراز من الكتاب الذين يعنون بقدر الإمكان بما يتصدون للكتابة فيه ؛ فهم يحاولون الإلمام بجميع أطرافه ، والاحتكام إلى المنطق الهادئ الرزين ، حتى إذا استوى عندهم الرأي واطمأنوا إليه عرضوه عرضاً طليا صافياً شائقاً ؛ فتخلع هذه الخصائص الذهنية على

آثارهم من الروعة ما يجعلها حية موحية . وقد عمد الأستاذ المؤلف في هذا الكتاب إلى تناول الفروق بين الرجل والمرأة ، والمرأة في العصر القديم ، وفي أوروبا ، والنهضة الحديثة وفي المسيحية ، وفي الجاهلية والإسلام وغيرها ، فاستطاع أن يعرض في هذه الأبحاث تلك المشاهد التي تشوق النظر إلى مطالعتها ، وتغري العقل بالنهوض إلى استيعاب ما فيها من جمال ومتعة ؛ وهي فوق هذا لها مكانتها العلمية من حيث هي تسجيل لتطور هذه العاطفة .

صَدَى النَّقد

علم النفس الفردى

حول رد على نقد

للأستاذ أحمد فؤاد الإهواني

كنا نؤثر للأستاذ إسحق رمزي في رده على نقدنا كتابه « أصول علم النفس الفردي » لو رجع إلى الحق ، والرجوع إلى الحق فضيلة ، ولم يتمحل الرد في مسائل جلية واضحة أخذناها عليه .

جاء في رده قوله : « يبدأ القسم الأول من نقد الدكتور الإهواني بأن يتخذ من شكرنا للأستاذ القباني بك والدكتور مراد — وبعد أن بدل ألفاظ هذا الشكر تبديلا تركه دون تعليق — ... » والشكر الذي يومئ إليه هو المدون في كتابه « على ماقاما به من جهد في مراجعة فصول الكتاب » . فإذا به يجترئ على الحق ، ويرمينا بتحريف الكلم ، ولا جدال في أن « مراجعة فصول الكتاب » تقتضي النظر في الموضوع ، والتعليق عليه ، وبيان مافيه من أخطاء . فكان عليه قبل طبع رسالته إما أن يأخذ بهذه التعليقات والمراجعات ، وإما أن يغفل الإشارة إلى «المراجعة» . أو كان عليه أن يصوغ عبارة أخرى لاتفيد هذا المعنى ، إلا إذا قصد إلى التأويل في حين أن اللفظ لا يحتمل التأويل . أما أننا نذهب إلى التحريف والتبديل فهذه زلة كنا نود ألا يتورط فيها .

* * *

ولقد انصرف نقدنا إلى أربع مسائل . الأولى : هل علم النفس علم أو فلسفة أو بين بين . والثانية : أن أدلر لم يكن فيلسوفاً ولا عالماً أخلاقيا . والثالثة : ما كتبه

الأستاذ إسحق رمزي عن اللاشعور . والرابعة : أن أدلر كان يقصد «الحب love» فجعلها في رسالته « الغريزة الجنسية » . وهذه المسائل الأربع هي التي قال عنها إن النقد « كان بصفة عامة متداعياً بعيداً عن صميم الموضوع » مع أنها في صميم كتابه .

ونبدأ بالمسألة الرابعة ، فلا نجد لها في الرد ذكراً ، لأنه لا يستطيع لها دحضاً أو إنكاراً ، وهي في صميم الموضوع ، وكان واجب الحق يقتضيه أن يقرنا على هذا الرأي بدلا من الاجتراء علينا من وراء البحار بقوله « لم يحسن قراءة الكتاب » وقوله « لعل حضرة الناقد لم يقرأ الكتاب بأكمله » إلى آخر هذه التهم التي يعافها أدب النقد .

***

أما المسألة الثالثة فأمرها أعجب وأطرف . فقد قلنا في نقدنا ونقلنا نص كلامه — بدون تبديل — ونعيده هنا : « ينقب المرء في مؤلفات أدلر ، ويذرعها هي ومؤلفات أتباعه جيئة ، ثم يذرعها ذهوباً ، كي يقع على فصل واحد يغنيه في الحديث عن اللاشعور أوعن جانب من فصل يستطيع أن يخرج منه برأي حاسم عما يقولون فيه — واللاشعور عماد المدرسة التحليلية كلها — فلا يخلص من هذا كله إلا بفقرة هنا ، وسطور عارضة هناك ، يأتي ذكر اللاشعور فيها ذكراً لاتوفير فيه ولا غناء » فراح يتخبط في رده ، ولا يذكر شيئاً عن هذه المسألة بل يخرج منها إلى « أن معارفنا عن هذا العلم مازالت تتضمن الإيمان بنظرية الملكات » فأخرجنا إلى ميدان ثالث لم نتحدث عنه ولم نتعرض له وراح يتهمنا بأن معلوماتنا هي كذا وكذا ... ولا شأن لنا بهذا التخبط والتعريض ، بعد أن دللناه على أحد كتب أدلر ، وأرشدناه إلى فصل عنوانه « اللاشعور » يقع في عشر صفحات. على حين أنه يقول كما أثبتنا بغير تحريف ولا تبديل إنه ذرع كتب أدلر ذهوباً وجيئة . والطريف في هـذا الموضوع قوله في رده « ولو أنه كان قد حاول [يقصدنا طبعاً] أن يتصفح كتب أدلر وأتباعه كتاباً كتاباً ، وأن يقابل بينها فصلا فصلا ، بدلا من اطمئنانه إلى كتاب واحد من الكتب الموطأة التي كتبها أدلر ... » وهو يقصد بهذا الكتاب الموطأ ذلك الذي تعرض فيه أدلر إلى اللاشعور . فإذا كان قد راجع جميع كتبه ، وذرعها ذهاباً وإياباً — ولست أفهم كيف يكون الإياب في قراءة الكتاب — فكيف لم يقع على هـذا الفصل ؟ أفهذا عيب الناقد الذي تتهمه بعدم القراءة والاطلاع .

***

أما أنك يا صاحبي لا تزال تصر على اعتبار أدلر فيلسوفاً ، وفيلسوفاً أخلاقيا ،

فهذه والحق مسألة كنا نجهلها ، ونعرض رأيك هنا ليأخذ به القراء وجمهرة العلماء ، وإنهم ليحفظون لك بالحمد أنك بصرتهم بما كانوا يجهلون . أما أنا فسوف أظل على الجهل مقيما ، فلا أعد أدلر إلا عالماً من علماء النفس .

* * *

والمسألة الأولى هي : هل علم النفس علم أو فلسفة أو بين بين ؟ والرأي الذي لا يزال مصراً عليه هو « أنه ينبغي أن نتريث كثيراً قبل أن نعلن بأن علم النفس بأجمعه قد انفصمت عراه عن الفلسفة » .

ولتطمئن أيها القارئ فهذا نص كلام الأستاذ إسحق رمزي في رده تستطيع أن تراجعه في مجلة الكتاب حتى تثق من أننا لم نعمد إلى التحريف أو التبديل .

فإن شئت أن تتريث معه حتى يصبح علم النفس علماً ، وحتى ينفصل عن الفلسفة فتريث . ولكني أؤكد لك أن انتظارك سوف يطول إلى أبد الدهر ، وأنك تعيش في عالم من الخيال والوهم ، لأن علم النفس أصبح الآن علماً بمعنى الكلمة .

احمد فؤاد الاهوانى

كتب وردت إلى المجلة فى شهر فبراير سنة ١٩٤٧

أقوالنا وأفعالنا	: تأليف الأستاذ الرئيس محمد كرد علي
ثورة قازان	: « « محمود شريف
فاتحة الدراسات النفسية والروحية	: « « عبد الله حسين
اسرار الحياة الدولية وحظ مصر منها	: « « « « «
الدولة الإسلامية	: « « « « «
عصر النبي	: « الأستاذ محمد عزة دروزة
الحكر في مصر	: « « عثمان فهمي بك
أسرة آل طرازي	: « الخوري إسحق أرملة السرياني
ديمقراطية جديدة	: « الأستاذ أحمد جمال الدين
سخريات صغيرة	: « « محمد قطب

خطط الكوفة وشرح خريطتها (كتيب)	: تأليف	«	ماسينيون وترجمة ت المصعبي
إخوان الصفاء	: «	«	الأب يوحنا الفاخوري البولسي
تطور الكتابة العربية	: «	«	الأستاذ السعيد الشرباصي
اللغة العربية في أوربا	: «	«	الفيكنت دي طرازي
الوحدة العربية: نشأتها وعوامل تطورها	: «	«	روبيرمونتابن ــ منشورات دار المكشوف
التليفزيون	: «	«	الأستاذين محمد غريب ومحمود أبو زيد
دي . دي . تي ــ مبيد الحشرات	: «	«	الأستاذ محمود محمد سلامة
المنبر	: مجلة اتحاد النوادي الأرثوذكسية العربية بالقدس		

The NEW WORLD by Maulana Mohamed Ali M.A·L.L.B.
A Question in Parliament by Sir Herbert William
Survey of The Anglo-Egyptian Sudan by K.D.D. Henderson

• قيل لأفلاطون : ما هو الشيء الذي لايحسن أن يقال وإن كان حقا ؟ قال : مدح الإنسان نفسه .

• مثل الذي يعلم الناس الخير ولا يعمل به كمثل أعمى بيده سراج يضيء به غيره وهو لايراه .

• كان قس بن ساعدة يفد على قيصر زائراً فيكرمه ويعظمه ؛ فقال له قيصر : ما أفضل العلم ؟ قال : معرفة الإنسان نفسه ! قال : وما أفضل العقل ؟ قال : وقوف المرء عند علمه ! قال : فما المال ؟ قال : ماقضي بحق!

• لا تحمل على يومك هم سنتك . كفاك كل يوم ما قدر لك فيه ، فإن تكن السنة من عمرك فإن الله سبحانه وتعالى سيأتيك في كل غد جديد بما قسم لك ، وإن لم تكن من عمرك فما همك بما ليس لك ؟ !

• قيل لبزرجمهر : أي الاكتساب أفضل ؟ قال : العلم والأدب كنزان لا ينفذان وسراجان لا يطفآن وحلتان لا تبليان ! من نالهما أصاب الرشاد وعرف طريق المعاد وعاش رفيعاً بين العباد .

عبث الشيطان

للأستاذ صديق شيبوب

ما كاد سمير يتقدم خطوات في حديقة مقهى « المرح الجميل » حتى رأى صاحبته « ميمي » جالسة في حفل من الناس ورأى شفتيها السميكتين تفتران عن ابتسامة عذبة تنتشر على وجهها وتشع بريقاً في عينيها . فتشجع وتقدم منها . فقامت تصافحه ، فأنبها في رفق على انقطاعها عنه منذ أسبوعين وضرب لها موعداً في مساء غد ، ثم انصرف عنها إلى أصدقائه الذين كان على موعد معهم في ذلك المساء .

كان سمير قد تعود أن يتردد بين حين وحين على حديقة « المرح الجميل » القائم على ربض من البحر لا يفصل بينه وبين شاطئ «ستانلي باي» غير طريق الكورنيش ، وكان يلتقي في تلك الحديقة بعضاً من أصدقائه الذين يطمئن إلى أحاديثهم بالرغم مما بينه وبينهم من تفاوت في السن ، ويجد في مجتمعهم ما يطلبه من راحة بال وهدوء أعصاب . وكان واسطة عقد الاجتماع شيخ ناهز السبعين من العمر وعرك الحيـاة فاستشف من أسرارها ما استشف وعالج من أحداثها ما عالج . وقد عرفه سمير منذ حداثته ، ولزمه طويلا في مستهل شبابه ، فأحب فيه فلسفة في الحياة رضية ناعمة ، وروحاً إنسانية وثابة ، وخبرة واسعة بأخلاق الناس وغرائزهم ، وصبراً جميلا عليها . ولا يزال سمير يذكر عطف الرجل عليه ، وتزويده بالنصائح الغالية يسوقها كما يفعل الصديق لا الأستاذ . فهي تارة في شكل قصص مروية ، وطوراً في ثوب حوادث جارية ، فيستشف سمير النصح من خلالها ، ويتأثر بها من حيث لا يشعر ، ولـكن سميراً لم ينتفع بتلك الحكم المبذولة إلا بقدر ما وافقت مزاجه ولاءمت غرائزه ...

جلس سمير إلى أصدقائه على عادته ولـكنه لم يشعر في ذلك اليوم بالراحة التي ينشدها . . . طالما نهى ميمي عن صحبة الفتاة « بولا » التي لمحها حين دخل والتي رآها

بعد أن جلس تنظر إليه وملء فيها ضحكة تشف عن تهكم وشماتة . ولاحظ بعد ذلك أن الشاب الجالس بالقرب من صاحبته يزيد في ملاطفتها ، وأنه يختلس النظر إليه ضاحكا ، ويتحدث إلى ميمي مداعباً .

فكر سمير غير مرة أن يختصر مجلسه مع أصدقائه وأن ينصرف ، ولكنه تجالد على هذا الفعل الذي ظنه استفزازاً مقصوداً . وأسعفه اطمئنانه إلى حب ميمي وما عهده فيها من صدق وعاطفة وإخلاص ، وأنه على موعد معها في غد فيعرف منها حقيقة الخبر ، فانصرف إلى أصدقائه وأخذ نصيبه فيما يتداولونه من الحديث .

✡ ✡ ✡

عرف سمير صاحبته منذ أكثر من عشر سنوات على شاطئ « سيدي بشر » حيث كانا يستحمان صيفاً . كانت في نحو العشرين من عمرها سوداء الشعر والعينين ، بيضاء البشرة ، فارعة القامة في تناسق يجعل جسمها كأنه الدمية المنحوتة ، مستطيلة الوجه ، في شفتيها قليل من الغلظة يجعل ثغرها كأنه الزهرة الناهدة الناضجة . وكان سمير قد تعدى الثلاثين ولكن بياض بشرته ونضارتها يظهرانه كأنه لم يتجاوز العشرين ، ولا يزال يحتفظ إلى اليوم بهذا المظهر الفتي بعد أن جاوز الأربعين . كان مستدير الوجه أزرق العينين ؛ أشقر الشعر ، يضرب بياض لونه إلى الاحمرار .

ولا يزال سمير يذكر صيف ذلك العام الذي عرف فيه ميمي . كانوا جماعة من الشبان والشابات يلتقون على الشاطئ فيستحمون في البحر ثم يستلقون على الرمل الناعم تحت أشعة الشمس المحرقة فيتطارحون الأحاديث في الحب وغير الحب . بعضها صريح واضح وبعضها لمح وإشارة إلى أشياء كانت ميمي لا تفهمها . ولعل هذه السذاجة التي كانت تبدو في أحاديثها وفي الأسئلة التي كانت تلقيها على رفيقاتها هي التي مهدت لها السبيل إلى قلب سمير وجعلتها أثيرة لديه . أما هو فقد عرف منها فيما بعد أنها أحبت مظهره الفتي وجسمه الناعم الأملس الذي كانت تتندى عليه قطرات الماء . وكأن الرفاق شعروا بتجاوب قلبيهما فجعلوا يقربون فيما بينهما في خبث خفي وممالأة ظاهرة . فصاروا يفسحون لهما المجال ليختليا ، ويتباعدون عنهما إذا رأوهما يسبحان نحو الصخرة البعيدة عن الشاطئ . وكثيراً ما كانا يصعدان إليها ويجلسان عليها . وقد جرى في بعض الأيام أن كان البحر مضطرباً فشعرت ميمي بشيء من التعب في مكافحة أمواجه فأسعفها سمير وتلاقى الجسمان في الماء . ثم تلاقيا بينما كان يساعدها على تسلق الصخرة ... وكانت لذيذة تلك القبل التي تبادلاها على الصخرة النائية بينما كانت أمواج البحر تتكسر عليها،

وأشعة الشمس تنساب حولهما ، والرفاق مشفقين عليهما من النصب الذي سيلقيان في مكافحة الأمواج عند عودتهما .

واستمرت الصداقة بين سمير وميمي منذ ذلك اليوم . كانت ميمى خلية القلب ساذجة النفس . فاستسلمت لغرامها الأول بكل ما في قلبها الفتي من قوة دافعة ، وبكل ما في روحها الشابة من فضول .

أما سمير فقد كان غير ذلك . . . لقد عرف قبل ميمي من النساء من عرف ، وابتلي بحبهن بما ابتلي به . فتماسك في هذا الحب ما استطاع ليحتفظ به بريئاً طاهراً . . ولكن عوامل الشر كانت أصيلة في نفس سمير . . . كان يزرع الشر أينما سار عن قصد وعن غير قصد . فقد ضرب عرض الحائط بما كان يسوقه إليه صاحبه الشيخ من صور للحياة ، ولم يحفظ من فلسفته المشربة بروح إنسانية طيبة غير أن الحياة قصيرة . وأنها قلب ، وأن الفناء يحيق بها من كل جانب ، وأن الخير في انتهاز الفرص السانحة لإشباع أطماع النفس والفوز بالملذات . وقد ساقت غرائز الشر سميراً إلى السيطرة على نفس ميمي وقلبها ، فوثقت بوعوده ، واندحرت الفضيلة أمام الغريزة وطويت صفحات ساذجة لتنتشر مكانها أوراق شجرة المعرفة .

* * *

كانت هذه الذكريات تطوف بعقل سمير وقلبه بينما كان ينتظر صاحبته في مطعم الحلوى الذي اعتادا أن يلتقيا فيه بالإسكندرية . وطال انتظاره فلم تحضر وفجأة ذكر أنه لم يحدد مكان الموعد وظن أنها ربما فهمت أنه في مقهى « المرح الجميل » حيث لقيها أمس . فكتب لها بطاقة يخبرها فيها بأنه ذاهب إلى ذلك المقهى ، وتركها لخادم المطعم ثم دلف مسرعاً إلى الترام فركبه .

كان الشك قد أخذ يساور قلب سمير . هل سلت ميمي حبه وانصرفت عنه إلى غيره ؟ هل شرعت تخونه ؟ . . . أيجدها بانتظاره في الحديقة أم تخلفت عن الموعد فلم تحضر ؟

كان يحاول أن يتغلب على قلقه واضطرابه . . . صار يعزي نفسه ويمنيها بشتى الأفكار والخواطر في حين كان الترام ينهب الأرض مسرعاً وينتقل من محطة إلى محطة ، وكان سمير لاهياً عما حوله مفكراً بما هو فيه . طالما قالت له ميمي : إنه علمها الحب حتى صارت لا تستطيع الصبر عنه فهي إذن ستعود إليه . إنه يسيطر على قلبها بما أثاره فيه من شهوات ، ولكن أتراها وجدت هذا الحب عند غيره من الشبان ؟ إنه يحصد إذن

ثمار الشر الذي زرعه في قلبها الطاهر ! وطافت في رأس سمير ذكريات متنوعة مما نثره حوله من شر : صور نساء متعددات الأجناس مختلفات الأشكال والألوان . كم من قلوب أذوى نضارتها وكانت طاهرة كالزنبق ، وأذل تصونها وكانت تخوراً كالورد . وكم من مال استنفده وكان مصدره ثمناً للفضيلة المبذولة والعرض المباح . . . ولكن ميمي غير أولئك النسوة . شاءها لنفسه وأباها على غيره فناضل في سبيل الاحتفاظ بها. أساء إليها في قلبها وفي أنوثتها فصبرت عليه ، وعق حبها بخياناته المتكررة فغفرت له .. أترى قد مات حبها له وذهب هذا الماضي فلن يعود ؟ . . .

وسمع سمير فجأة صوت كمساري الترام ينادي محطة رشدي باشا . فكأن هذا النداء أيقظه من ثبات عميق فنزل مسرعاً من الترام .

كانت الشمس عند المغيب ، وكانت تخضب الأفق باحمرار باهت ، أخذ لونه يتماسك ويربد في حين كان سمير يرتقي الطريق الصاعد الذي يؤدي من محطة رشدي إلى الطرف الغربي من خليج ستانلي باي . ودخل الحديقة مكدوداً وأدار طرفه فيها فرأى أصدقاءه يشيرون إليه من أحد أطراف الحديقة ورأى كذلك «بولا» جالسة في الطرف الآخر إلى شاب لا يعرفه . فتجاهل أصحابه وقصد إلى حيث بولا ، وهو يعرف أن مايفعله عمل فضولي ممقوت . ولكنه يريد أن يعرف منها أين ميمي . وقد قالت له حين سألها عنها إنها لاتدري عنها شيئاً وأنها ليست على موعد معها . فتماسك سمير وقصد إلى حيث كان أصدقاؤه ، فوصل إليهم بينما كان بعضهم آخذاً بالانصراف . على أن صاحبه الشيخ رضي أن يطيل مجلسه ، وأن يعرض نفسه لبرد المساء رجاء أن يسدي إلى سمير بعض النصح ، وكان لم يخف عليه بادرة من بوادر أمسه ويومه ولا خلجة من خلجات نفسه بالرغم من أن الشاب كبتها في دخيلة قلبه وروحه . فأخذ الشيخ يقص عليه بعض أحاديث شبابه ويستخلص منها نتائج ترمي إلى وجوب مصانعة الأحداث وأن الصبر موصل حتما إلى اليسر . وكان يخاطبه بين حين وآخر بقوله : يا ابني ، كما اعتاد ذلك من قبل . ولو عرف ذلك الشيخ أي مخلوق شاذ مخيف يتمثل في الشاب الذي يتحدث إليه لراعه أمره وأنكر تلك الأبوة الروحية .

ونهض الشيخ يقصد منزله القريب وقام الفتى يسير معه حتى باب المنزل . ثم عاد إدراجه إلى المقهى فلم يكد يدخل الحديقة من جديد حتى اتجه نظره إلى حيث تجلس بولا فرأى صاحبته ميمي آخذة مجلسها مع صديقتها ورفيقها ورأى بجانبها شابا وسيم الطلعة أنيق الهندام عرف فيه صاحبها الذي كان أمس يتودد إليها . ولما رأته ميمي

ابتسمت ابتسامة خفيفة ماكرة وأطرقت رأسها .

أحس سمير كأن كل ماحوله يتحرك : المناضد المبعثرة في الحديقة ، والمقاعد التي تدور بها ، والناس الجالسون حول بعضها . وتردد لحظة واحدة أيذهب إليها فيقبض على يدها وينتزعها من ذلك المجلس كأنها بعض مقتنياته . لقد فعل ذلك من قبل مرة مع إحدى النساء . ولكن تلك كانت غير ميمي . كانت امرأة مستهترة ذات حنكة ودراية بأخلاق الرجال. تعرف كيف تثير سخطهم ولا تخضع لغير سلطان العنف والقوة. أما ميمي فغير تلك تماماً ، إنها لينة الطبع وديعة النفس رقيقة الحاشية ، فهي لا تؤخذ إلا بالمهادنة والملاطفة . وجلس سمير عند أول منضدة وجدها أمامه .

تلك كانت أول مرة شعر فيها سمير بأنه كاد يفقد سيطرته على نفسه وأعصابه ، وأن دلائل الاضطراب أخذت تطفو من أعماق نفسه وتبدو عليه . رن في أذنيه صوته حين طلب من خادم المقهى كأساً من الخمر فكان صوت مغيظ حانق ، ورأى يده ترتجف حين تناول الكأس ، ودار نظره فيما أمامه وحوله فإذا النجوم تنظر إليه في بريق مضطرب عجيب كأنها تعبث به أو تبتسم له بسمات الساخر الشامت ، وأصاخ بسمعه إلى أمواج البحر الهادرة فإذا صوتها يصل إليه كأنه همس يوسوس في أذنيه أخبار خيانة ميمي : « إنها تخونك ، إنها تعبث بك » ، وحمل إليه النسيم ضحكات الجالسين في الحديقة وأشتاتا من الكلمات التي يتلفظون بها في أحاديثهم فكأنها جميعاً تتناوله ؛ إنهم يضحكون من موقفه الزري ويتحدثون بخيانة ميمي على مرأى منه ومسمع . وطلب سمير كأساً ثانية من الخمر لعلها تساعده على استعادة سيطرته على أعصابه . وكان سمير لايتناول الخمر إلا في بعض الساعات الحاسمة من حياته ، ولا يكثر منها لأنه يخشى أن تطوح به إلى أبعد مما يريد . وسمع سمير نفسه يقول « لقد جعلتني أضحوكة بين الناس » . وذكر أنه سمع من قبل مثل هـذه الألفاظ . ولكن أين وكيف . . . أجل إنه يذكر أن ميمي قالتها له من قبل .

كان ذلك منذ سنوات ، وكان سمير على موعد معها لحضور حفلة راقصة . ولكنه رأى في ذلك اليوم أن يشهد الحفلة منفرداً غير مرتبط بصاحبته لعل إحدى النساء تقع في الشباك التي اعتاد أن ينصبها لهن في مثل هذه الحفلات . فاعتذر إلى ميمي عن عدم حضور الحفلة مؤكداً أنه متعب وأنه سيلازم منزله مستجما . ولما اطمأن إلى أنها صدقته ذهب إلى الحفلة . وقد فاز بما أراد فتعرف إلى سيدة لازمها طيلة السهرة .

وكانت بولا وغيرها من صديقات ميمي يشهدن الحفلة ، ففطن إلى أنهن سوف

يروين لها ما شاهدنه منه . لذلك بادر حين لقيها في غد ذلك اليوم في إحدى دور السينما فروى لها حكاية كاذبة عن صديق جاءه في منزله واضطره إلى الذهاب معه إلى الحفلة وعرفه بالفتاة . رأى ميمي تقوم من مكانها بالسينما وتخرج ، فتبعها . ورآها تترنح حتى لتكاد تسقط ، فأسعفها حتى وصلا إلى سيارة ركباها ورافقها إلى منزلها . وكان في أثناء الطريق يتمتم كلمات الاعتذار مما يعلم أنه يؤثر في نفسها مؤكداً أنه لا يشركُ في حبها غيرها ، وأن حبها يملأ فؤاده فلا يترك فيه مجالا لأخرى ، أما ميمي فلم تفه بكلمة .

وزارها سمير في اليوم الثاني فوجدها محمومة ، فجلس إلى سريرها يداعبها وأبدى لها من مظاهر العطف والاهتمام ما جعلها تغفر له فعلته ، ولم تلبث أن بادلته قبلاته بقبلات أخرى حارة بما في هذه الكلمة من معنى مادي وفعلي . . . ولما انتزع سمير نفسه من بين ذراعي ميمي الملتهبتين رآها تبكي فسألها ما بها فقالت له : « عندما لقيت صديقاتي أمس أظهرن لي من العطف ما جعلني في حيرة من أمري ، ورأيتهن يتبادلن الابتسامات الماكرة عند ما حدثتهم عنك . . . لقد جعلتني أضحوكة بين صديقاتي . . . »

هكذا قالت له ميمي يومئذ ، وكذلك ردد قولها سمير من بعد . لقد جعلها من قبل أضحوكة بين أصدقائها كما توهم أنها تجعله اليوم سخرية بين الناس . خانها من قبل مراراً وهو اليوم يتوهم أنها تخونه وثارت رجولته لهذه الفكرة الأخيرة . النساء غير الرجال . إنهن خلقن لكي يعبث بهن الرجال ويخونون حبهن . ولكن الرجال ... إنه لا يدري من قال له من قبل إن المرأة لرجل واحد ولكن الرجال لجميع النساء . فحفظ هذا القول وعمل به . فكيف تجرؤ ميمي اليوم على قلب الوضع الذي يضطره إلى تغيير مجرى حياته . وضاق صدره حتى كاد يختنق حين أحس بلذعة الحب وألم الغيرة وشعر بأنه يحب ميمي ، وأنه بحاجة إلى حبها كحاجته إلى الهواء الذي يتنفسه ، وأنه إذا فقدها أضاع نفسه وحياته ، وأن عليه أن يناضل ليحتفظ بها لنفسه ، وأنه يحس ، بالرغم من مظاهر الفتوة البادية على وجهه وجسمه ، أن شبابه يزول وأعصابه تخور وأنها لن تساعده على ذلك النضال وما يتطلب من حذق ومهارة وسيطرة على نفسه وما حوله .

وكان الظلام قد انتشر في الفضاء الممتد أمامه . ولكن النجوم لا تزال ترمقه كأنها تبتسم له ساخرة متهكمة ، ولا يزال يرن في أذنيه هدير أمواج البحر كأنها تردد فيه أن ميمي تخونه ، ولا يزال النسيم ينقل إليه ضحكات القوم المنتشرين في الحديقة وأشتاتاً من أحاديثهم ، فيخيل له أنهم جميعاً يتحدثون بخيانة ميمي .

وفجأة سمع نفسه يقول بصوت يكاد يصل إلى سمعه : كلا إنها لم تخن ! ويجب أن

لا تخون ! فهاله أن يصل اضطرابه إلى هذا الحد من الهوس ، ونظر حوله ليعرف هل سمعه أحد ممن حوله يحدث نفسه بصوت مرتفع . وشعر بأنه يحصد اليوم في أعصابه وفي نفسه ذلك الشر الذي طالما زرعه بين النـاس . أما آن له أن يقتصد وأن يستقر .

تحدثت إليه ميمي غير مرة بأمر زواجهما ، ومناها به كذلك غير مرة في وعود مبهمة . إذا لم يكن الزواج سبيلا للاستقرار والطمأنينة فإنه الوسيلة للاحتفاظ بميمي .

وقام من مجلسه وقصد الشارع الذي تسكنه ميمي حيث تعود أن ينتظرها حين كان يريد أن يفضي إليها بأمر مفاجىء .

على أنه في تلك الليلة طال انتظار سمير رجوع ميمي إلى منزلها..لأنها لم تعد إليه..

صبري شبوب

أصاب الناس قحط في خلافه أبي بكر ، فلما اشتد بهم الأمر جاءوا إليه وقالوا : يا خليفة رسول الله ، إن السماء لم تمطر ، والأرض لم تنبت ، وقد توقع الناس الهلاك ، فما نصنع ؟ فقال لهم : انصرفوا واصبروا ، فإني أرجو الله أن لا تمسوا حتى يفرج الله عنكم

فلما كان في آخر النهار ورد الخبر بأن عيراً لعثمان بن عفان جاءت من الشام ، فخرج الناس يتلقونها ، فإذا هي ألف بعير موسقة براً وزيتاً وزبيباً ، فأناخت بباب عثمان ؛ فلما جعلها في داره جاءه التجار، فقال لهم : ماتريدون ؟ قالوا : إنك لتعلم مانريد! بعنا من هذا الذي إليك فإنك تعلم ضرورة الناس إليه ! قال : حبا وكرامة ، كم تربحوني على شرائي ؟ قالوا : الدرهم درهمين . قال : أعطيت زيادة . قالوا : أربعة . قال : أعطيت زيادة . قالوا : خمسة . قال : أعطيت أكثر من هذا . قالوا : يا أبا عمرو ما بقي في المدينة تجار غيرنا ، وما سبقنا إليك أحد ، فمن ذا الذي أعطاك ؟ قال : إن الله أعطاني بكل درهم عشرة ، أعندكم زيادة ؟ ! قالوا : لا ! قال : فإني أشهد الله أني جعلت ما حملت هذه العير صدقة لله على المساكين وفقراء المسلمين !

المسرح والخيالة

أرستوفان والمسرح الهزلي

للدكتور أحمد فؤاد الإهواني

علمان يذكران إذا ذكر أدب اليونان التمثيلي : سوفوكليس وأرستوفان ، الأول زعيم المأساة ، والثاني زعيم الملهاة .

ولم يكن الأدب اليوناني يعرف في نشأته الملهاة أو الكوميديا ، بل كان يؤثر المأساة أو التراجيديا ويحتفظ لها بالمكانة الرفيعة ، ثم ظهرت بين حين وآخر بعض تمثيليات كوميدية لا تحتل من الأدب منزلة لها قيمتها ، بل كان الغرض منها تسلية الجمهور وإشاعة روح اللهو والمرح والفكاهة .

ثم استقلت الملهاة عن المأساة ، واختصت بيوم معين لتمثيلها في أثناء الاحتفال بأعياد ديونيسوس إله الخمر ، وهناك يتبارى المؤلفون ، وتمثل رواياتهم واحدة بعد أخرى في الملعب الكبير أو المسرح الخاص بالإله ديونيسوس في سفح الأكروبوليس ، حيث لا تزال آثاره باقية حتى اليوم . ويمنح صاحب أفضل ملهاة جائزة تتطلع إليها الأنظار ، وتدور عليها الأطماع .

وليست الملهاة بضاعة أثينية ، وإنما وفدت إلى مدينة أثينا من صقلية ، التي عرفوا عنها كذلك فن الخطابة . وفي أوائل القرن الخامس قبل الميلاد ساعدت الديمقراطية والحرية على ازدهار الملهاة حتى أصبحت في أثينا الطريقة المألوفة في التهكم من الأخلاق والسياسة . وكانت تقاليد الاحتفال في عيد ديونيسوس تسمح بحرية لا حد لها في القول، فلما أسيء استعمال هذا الحق صدر في عام ٤٤٠ ق . م قانون يقضي بعقاب القذف الشخصي في الملهاة ، ثم ألغي هذا القانون بعد ثلاث سنوات ، واستعادت الملهاة حريتها الواسعة في النقد ، فكانت للأثينيين أشبه شيء بالصحافة الحرة في العصر الحديث .

ولسنا نعرف إلا الشيء القليل عن حياة أرستوفان ، فقد ولد عام ٤٥٠ أو

٤٤٤ ق . م . قيل في أثينا وقيل إنه أجنبي عنها . ولقد سعى كليون ، وهو الذي خلف بركليس في أثينا ، إلى محاكمة أرستوفان ليثبت أنه أجنبي عنها فيخلع عنه الحقوق التي يتمتع بها الأثينيون ، غير أنه أخفق في ذلك ، مما يدل على صحة انتسابه إلى المدينة . ويذهب بعض المؤرخين إلى أن غزو الإسبرطيين لأتيكا دفعه إلى هجرة موطنه والاستقرار في أثينا ؛ ولم يكن يؤثر معيشة المدن ، فسخط على الحياة فيها كما سخط على الحروب التي أكرهته على هجرة الريف إلى المدينة . وهذا فيما يقال هو السر في إيثاره السلم على الحرب في تمثيلياته .

وتوفي عام ٣٨٠ ق . م ، وقد خلف ثلاثة أبناء لا يحدثنا التاريخ عنهم شيئاً . وهو معاصر للحروب البلوبونية التي وقعت بين عام ٤٣١ وعام ٤٠٤ ، وأثرت أبلغ الأثر في حياة الإغريق . وظل يؤلف للمسرح فأنتج نحواً من أربعين تمثيلية ، عدها بعض المؤرخين اثنتين وأربعين ، لم يبق منها إلا إحدى عشرة .

وتمتاز هذه التمثيليات بالتحرر من القيود الأدبية التي كانت مفروضة على المأساة بوجه خاص ، كما تمتاز بحرية واسعة في اختيار الموضوع والأسلوب والمنهج مما يقارب بينها وبين الآثار الأدبية الحديثة ، سواء أكانت خاصة بالمسرح أم بغير المسرح . والناظر في هذه المسرحيات يرى أن جمهورها لا بد قد بلغ منزلة راقية من الحياة العقلية ، كما يرى أن حياة المدينة كانت على شيء عظيم من الحضارة ييسر لأهلها تذوق ذلك الفن الرفيع .

ولعلك توهمت أن كوميديا أرستوفان تشبه تمام الشبه كوميديا المحدثين التي تتوجه إلى تمثيل الأحداث الشخصية وأدب السلوك على وجه العموم ، ويتألف نسيجها من المؤامرات والدسائس المتعلقة بالحياة الاجتماعية والمنزلية . ولقد عرف اليونانيون هذا اللون من الكوميديا ولكن في زمن متأخر عن عصر أرستوفان ، وميزوا بين النوعين : فالنوع القديم كان يمثله كراتينوس الذي عاصر بركليس وشن عليه الحرب في تمثيلياته ، ثم نسج على منواله فيما بعد إيبوليس وأرستوفان ، وقد تعاونا على التأليف معاً أول الأمر ، ثم اختلفا فافترقا وتهكم كل منهما على صاحبه تهكماً لاذعاً ، غير أنهما اتفقا في المشرب وهو مهاجمة الديمقراطية ، و النوع الجديد من الكوميديا هو المعروف باسم « كوميديا العادات » ولم تؤلف هذه المسرحيات إلا بعد وقوع أثينا تحت نير مقدونيا ، وهي لا تعالج السياسة . وأشهر المؤلفين في هذا النوع ميناندر الذي سار على نهجه فيما بعد بلاوتوس وتيرنس في روما . وتمتاز كوميديا العادات بعدم وجود الكورس أو الجوقة

وعدم وجود « الباراباس » أو المونولوج ، وهو الخطاب الذي يوجهه رئيس الجوقة للجمهور . ويعد البارباس من الصفات الهامة المميزة لتمثيليات أرستوفان ، وهو خطبة تعبرعن رأي المؤلف يجريها على لسان رئيس الجوقة ؛ ولها نظم مخصوص ، وكانت تلقى عادة في ختام التمثيل ، ويضمنها الشاعر آراءه في أحاديث الساعة والنصائح التي يود أن يتوجه بها إلى الناس .

وكما اختلف المؤرخون في سيرته اختلفوا كذلك في الحكم على فنه : يصور بعض النقاد بضاعته مزيجاً من الجمال والحكمة والفحش أو البذاءة . فإذا كان مزاجه معتدلا فلن تجد شعراً يجاريه في جمال النظم ، وحواره قطعة من الحياة ، مما يذكرنا بشكسبير وموليير . وإنك لتحس في شخصياته عبير الزمن وروح العصر الذي كان يعيش فيه ، حتى لقد قيل : إن من لم يقرأ أرستوفان لا يعرف الأثينيين حق المعرفة .

ويقسو عليه هؤلاء النقاد من جهة أخرى فيقولون : إن العقدة في رواياته سخيفة لا تلحظ فيها عناية ، وقد تنحل عند منتصف الملهاة . ثم الفكاهة عنده ذات مستوى منحط تعتمد على المحسوس من أمور البطون والتناسل ومخارج الفضلات . في ملهاة « السحب » يمزج أقذر الفضلات البشرية بأسمى ما وصلت إليه الفلسفة من صفات . ويصف منافسه القديم كراتينوس في بعض التمثيليات بالضعف الجنسي . ولقد أدى هذا الفحش والأدب المكشوف إلى صدور قانون يحرم التهكم من الأشخاص ، ومع أن ذلك القانون ألغي بعد قليل ، إلا أن الكوميديا السياسية التي تقوم على النقد السياسي والتهكم من الساسة والحكام ماتت مع موت أرستوفان ، وحلت محلها كوميديا العادات والسلوك .

ويرى بعض النقاد أن الضحك الذي يبلغ حد القهقهة والقرقرة والإغراب هو عماد الفكاهة في ملهاة أرستوفان ، حتى الآلهة لم تسلم من سخريته ولسانه الحاد . ولعلنا نعجب اليوم كيف يسيء المؤلف في حق الآلهة ويسمح لنفسه بهذه الجرأة ، ولكن عجبنا يبطل إذا نفذنا إلى صميم المجتمع اليوناني وعرفنا روحه في ذلك الحين . فمن حق الشعراء الهزليين أن يذهبوا إلى أقصى الحدود في فكاهتهم . وكان الشعب الأثيني سريع الفهم للنكتة ، شديد الضحك للفكاهة في ذاتها ، حتى لو كانت تمس أشخاصهم ، بل ذهبوا إلى أن الآلهة تشعر بالسرور من الفكاهة الباعثة على الضحك كما يسر منها البشر . ويبدو أن الإغريق لم يؤمنوا بآلهتهم الوثنية إيمان الاعتقاد واليقين . أما الطبقة المستنيرة منهم فقد وجدوا في الآلهة لوناً من التشبيه البارع ، وأما الشعب فكانت عنايته

منصرفة إلى الاحتفالات والأغاني والرقص والمآدب ، وإلى هذه المظاهر الخارجية التي تثير الفضول دون أن يكمن وراء ذلك إيمان جدي أو إخلاص قلبي، فقد آمن الأثينيون بالآلهة عن طريق الخيال لا عن طريق العقل ، وكانوا يقيمون الطقوس المفروضة بغير تقوى تصدر عن القلب . ولهذا السبب لا نجد الجمهور يهب لتأييد الآلهة إذا مست بشر على المسرح ، بل كانوا يتركونها تحمي نفسها إذا استطاعت .

وإذا كان أرستوفان قد استطاع أن يؤثر في جمهور المستمعين على اختلافهم في الثقافة والرأي ، وتباينهم في النشأة والثروة ، فلا ريب أنه قد امتلك عنان البيان ، وأوتي حظا كبيراً في تصريف شئون اللغة بكل أسلوب . وهذا هو سر العبقرية في شاعرنا الهزلي ؛ فإن أسلوب تمثيلياته هو الذي كفل لها الخلود .

ولست تجد لشعراء اليونان نظيراً من جهة البساطة والوضوح والأناقة والرشاقة . وأرستوفان يبين بلسان قوي ، ولفظ محكم ، ونضد سوي ، فيمضي إلى صميم المعنى وينفذ إلى عين الموضوع . وقد يبدو على أسلوبه طابع التهلهل والإهمال حتى إذا كشفت عنه الغطاء وجدت الغاية في الإبداع ، ونهاية الكمال ، وروعة الفن ، وجمال الصنعة . وحواره يفصح عن قدم راسخة في الفن .

أما أناشيده التي يجريها على ألسنة الجوقة فإنه يتابع فيها خطى بندار وسوفوكليس وهما زعيما فن النشيد في الشعر اليوناني بلا منازع .

ومن المحسنات التي كان أرستوفان مغرماً بها الاستعارة يكسو بها المعاني ، فهو يشخص الأفكار المجردة فيلبسها ثوب الكائنات المتحركة حتى يسهل على الجمهور إدراكها والإحساس بها ، ولم يكن يفوته الإشارة إلى مألوف الأعمال مهما تكن تافهة أو فاحشة.

ولقد عابوا على أرستوفان هذه الحرية الواسعة في تصريف الكلام مما ذكرناه عن الطائفة الأولى من النقاد ، ثم قالوا : لقد كان أرستوفان قادراً على تجنب الفحش والإسفاف. ويحسن قبل أن نصدر الحكم على هذا الشاعر أن ننظر في العصر الذي كان يعيش فيه ، وفي نشأة الكوميديا اليونانية ، وفي تأليف جمهور النظارة والمستمعين . فلا ينبغي أن يغيب عن بالنا أن الكوميديا نشأت في أحضان الاحتفال بإله الخمر ، وكان إله التناسل «فالونوريا» يمشي في الاحتفال حاملا أعضاء التناسل ، وكانت هذه العادات الدينية وما يصحبها من حرية لا تزال قائمة في الوقت الذي ألف فيه أرستوفان تمثيلياته . ولا ينبغي أن يغيب عن بالنا كذلك أن حضور المسارح لم يكن مباحاً لجميع النساء أو الأطفال. وإلى جانب ذلك كله علينا أن نحيط علماً بالعادات الاجتماعية والخلقية المألوفة في ذلك

العصر . فقد كان الأثينيون يتحدثون في صراحة عن كل شيء ، ولا يثير في أنفسهم ما نعده اليوم فحشاً وبذاءة أي اشمئزاز . لهذا يجب أن لا نعيب أرستوفان بالبذاءة والابتذال لأنه كان يتابع المألوف من العادات . وإذا كانت شخصياته التي يصورها وحشية الطباع فإنما كان يصف المجتمع الذي عاش فيه ، وهو كالمرآة التي ينعكس على صفحتها ذلك المجتمع . فإن قلت : إن بعض الحاضرين من علية القوم يأنفون من الألفاظ المبتذلة ويتذوقون الأدب غير المكشوف ، قلنا إن أغلب الحاضرين كانوا من الجمهور الذي يحب القهقهة والفحش ، فكان على الشاعر أن يقدم إلى السواد ما يطلبون وتشتهي أنفسهم ، ليكسب التقدير والتصفيق والتهليل .

ومع ذلك فقد مدحه قوم من الصفوة ، وهذا أفلاطون يسوق إليه المديح بعد وفاته ، مع أنه هاجم سقراط في تمثيلية « السحب » مهاجمة عنيفة ، ومع ذلك لم يغضب منها سقراط الذي يروى أنه حضر تمثيلها طول الوقت . ويحدثنا أفلاطون أن سقراط وأرستوفان خرجا بعد هذه التمثيلية صديقين . ويقال كذلك إن أفلاطون قدم هذه الملهاة إلى ديونيسوس الأول ملك صقلية . وأكبر الظن أن الملهاة تفاعلت على مر الزمن فأشاعت عن سقراط الشهرة غير الحميدة التي قدم من أجلها إلى المحاكمة .

ولقد عالج أرستوفان كل موضوع ، ونزل إلى كل ميدان ، وتحدث عن طبائع وأعمال الإنسان . غير أنه كان يقصر الخطاب على الأثينيين ، فيوجه النقد إلى الأخلاق الشائعة ، والسياسة القائمة ، والشعر الغالب والفلسفة الجارية ، والدين الموجود .

ويعد أرستوفان أرستقراطي النشأة ، واسمه نفسه يدل على النبل والشرف ، ولهذا كان من الطبيعي أن يهاجم الديمقراطية السائدة في عصره ، وأن يجد فيها مادة غزيرة صالحة للنقد . والواقع لا تستطيع الملهاة أن تعيش إلا على النقد اللاذع ، وفي الديمقراطية والديماجوجيا معين لا ينضب لشعراء الكوميديا . وليس معنى ذلك أن أرستوفان أدلى بدلوه في نظام الحكم والسياسة بحكم الفن والصناعة ، بل عن اقتناع وإيمان . وآية ذلك أن آراءه السياسية لم تتغير خلال تمثيلياته المختلفة ، لأنها تقوم على شيء ثابت في طبيعة هذا الفنان .

الحكومة التي كان ينشدها هي الحكومة العادلة التي تفسح المجال للحرية ، ولا تستبد بالحقوق أو تحجر على العقول . ولو أن الارستقراطية انتصرت كما كان ينبغي ثم استبدت ما تردد في أن يوجه إلى رجالها سهام النقد والسخرية .

ولم يكن من اليسير على أرستوفان أن يطعن الديمقراطية بحيث يشهد الجمهور

مصرع نفسه ويصفق للتحقير من شأنه ، ومع ذلك فقد استطاع بعبقريته أن ينتزع إعجاب الجمهور فيصفق له مع أن السخرية موجهة إلى النظارة والحاضرين .

وهو يكره الحرب ويؤثر السلم ، فقد رأينا أن الحرب هي التي دفعته إلي هجرة الريف والذهاب إلى أثينا . لهذا السبب كانت أهداف الملهاة السياسية تطلب السلام . وقد بقيت لنا أربع تمثيليات سياسية : « الفرسان » يهاجم فيها كليون وسياسة الحرب على وجه العموم . و« الأخارينون » يبين فيها البؤس الناجم عن الحرب ، وبخاصة هذا الذي يحل بالمزارعين كما يمثلهم ديقوبوليس الأخارني وأتباعه . و « السلام » يشيد فيها بنعمة السلم . « ولسستراتا » وهي مؤامرة من نساء الإغريق على رأسهن لسستراتا الأثينية لإرغام الرجال على إبرام الصلح .

وكانت أهدافه الخلقية غاية في السمو ، فهو يرمي إلى إصلاح مفاسد الشعب حتى يعود إلى صفائه القديم الذي استمد منه القوة والإلهام . ولهذا السبب يلح أرستوفان في إظهار « أهل ماراتون » على المسرح ، وهم أولئك الذين يدين لهم الأثينيون بالحرية والعظمة في حربهم مع الفرس . والواقع ليس امتداح الشاعر للجيل الماضي نوعاً من الحنين أو العبث ، لأن أحداث التاريخ تثبت أنه على حق ، ولأن العادات المستحدثة كانت العلة في أغلال الأثينيين . فقد تعود الشعب الكسل وماتت في نفسه حوافز الهمة منذ اتسعت المجالس النيابية لحكم الجمهور . ومن جهة أخرى تعلم الناس الكلام والخطابة في الميادين فصرفهم هذا عن العمل . ومن جهة ثالثة أفسدت تعاليم السفسطائيين الشباب : فهم يقدمون إليهم حشداً من النظريات ولا يحفلون بالأخلاق . هذه هي السموم الثلاثة القاتلة للأخلاق ، والتي عني أرستوفان بعلاجها : المجالس النيابية ، والاجتماعات العامة ، وتعاليم السفسطائيين . وسبيل أرستوفان في العلاج هو تذكير الشعب بفضائل السلف ، في مقابل العبث السائد عند الخلف .

نجد هذه الآراء مبسوطة في تمثيلية « السحب » التي يتهكم فيها أرستوفان على سقراط والسفسطائيين والتربية الحديثة . وفي ملهاة « الزنابير » يسخر من شغف الأثينيين بالتقاضي ويبين مساوىء المحاكم . وفي ملهاة « الإكلزيازس » أو « مجلس النساء » يسخر من المدن الفاضلة مثل جمهورية أفلاطون وما أشبه ، وهي التي يطلب أصحابها تغيير النظم الاجتماعية والاقتصادية . وفي ملهاة « الطير » يضيق إقلبيدس وبستاروس بأحوال أثينا فيبنيان مدينة جديدة في مملكة الطير . ويرى بعض المؤرخين في هذه الملهاة تعريضاً بالحملة على صقلية وبمدينة ألقبيادس الفاضلة . وفي

تمثيلية « بلوتوس » وهو إله الثروة ، يصيبه زيوس بالعمى فيفقد بصره ، ثم يتخفى بلوتوس في زي الفقراء والمساكين إلى أن يكتشف كريملوس أمره ، وكريملوس هذا رجل شيخ أصابه الفقر من شدة الكرم والجود على أصحابه . ثم يعيد أسقلبياذس ، وهو إله الطب ، إلى بلوتوس بصره . وعندئذ يكافئ كريملوس مكافأة حسنة ، ويوزع الثروة على البشر توزيعاً عدلا على أسس جديدة ، فيغنى العادل ويفقر الظالم .

وليست نظرات أرستوفان في الأدب أقل سمواً من نظراته في السياسة والاجتماع والأخلاق . وهو لا يهاجم الأدباء بدوافع شخصية بل ينقد نقداً عاما . ليس غريمه في الواقع هو أوربيذس ، شاعر اليونان المشهور ، ولكنه يتخذ من اسمه رمزاً لانحراف الذوق الأدبي ، والبعد عن البساطة الشريفة التى كانت تميز طابع عصر بركليس . ولقد كان أوربيذس شاعراً من شعراء المأساة المشهورين ولا نزاع ، غير أن أرستوفان لم يعجب بطريقته في الأداء .

وفي تمثيلية « الضفادع » يسخر من أوربيذس ومن التراجيديا الحديثة . ويصور أرستوفان في هذه الملهاة ديونيسوس راعي الدراما ساخطاً على حالة الفن لأنها لا ترضيه ، فيذهب إلى بلوتون إله الجحيم ورب الموتى ليعيد إلى الأرض شاعراً من شعراء المدرسة القديمة الجديرة بالفن .

أما في ملهاة « تسموفروزياسوس » فإن أوربيذس يستدعى للدفاع عن نفسه أمام نساء أثينا وقد اجتمعن في الاحتفال بعيد بعض الآلهة .

هذا عرض سريع لما بقي بين أيدينا من تمثيليات أرستوفان التي كان يصفق لها آلاف المتفرجين إعجاباً في مسرح ديونيسوس ، فقد كان يتسع لخمسة عشر ألفاً من الأثينيين . وهو عدد يدل على مقدار مابلغه فن التمثيل من أهمية وأثر في الشعب اليوناني . ولم يكن فوق المسرح سقف يغطيه ، فإذا جاء في التمثيلية ذكر الأرض والسماء والشمس والنجوم رأى النظارة أموراً حقيقية إلى جانب ما يسمعون من شعر وغنـاء وتمثيل ، مما يبعث على عمق الإحساس وصدق الشعور . وجرت عادة الممثلين أن يرتدوا أقنعة تخفي ملامحهم الحقيقية ، فإذا كان أشخاص الرواية من الأحياء المعروفين ، مثل أوربيذس أو سقراط ، رسموا القناع بحيث يشبه وجه ذلك الشخص . وكان النظارة من الجنسين ، للنساء جانب خاص ، وللرجال جانب آخر ، ولم يكن يسمح للمحصنات من النسـاء حضور الملهاة . وأمر النظارة عجيب حقا : فهم يأكلون الفاكهة ، ويشربون الخمر ، ويقشرون اللوز والبندق وهم يتفرجون . ولقد اقترح أرسطو أن يكون مقدار ما يأكله

النظارة من طعام مقياساً لنجاح التمثيلية أو عدم نجاحها ، لأنه الدليل على إقبال الجمهور واهتمامه . أضف إلى ذلك التشاحن على الجلوس في المقاعد ، والتهليل في وجه الممثلين استحساناً أو الصفير استهجاناً ، والدب على الأرض ، والصفير والتصفيق ، وقذف الممثل الفاشل بالزيتون والتين بل بالحجارة . ومن الفكاهات التي يذكرونها أن أحد الموسيقيين اقترض حجارة يبني بها داره ، ووعد بردها لصاحبها مما ينتظر جمعه بعد التمثيل . كيف إذن نلوم أرستوفان إذا مزج المعاني الشريفة ، والآراء الفلسفية ، بالفحش من الكلام إرضاء لمثل هذا الجمهور .

وجرت العادة في سابق العهد أن تكون الجائزة التي ينالها أفضل شاعر في التراجيديا شاة ، وأفضل شاعر في الكوميديا سلة من التين وجرة من الخمر ، ثم تطور الأمر في العصر الذهبي ، أي في عصر بركليس، فأصبحت الجائزة مالا . وكان عدد الحكام عشرة يؤخذ برأي خمسة منهم فقط ، ومع ذلك فكثيراً ماامتدت يد الحكام للرشوة أو تأثروا بهوى الجمهور . ويروي أفلاطون في كتاب « النواميس » أن القضاة كانوا يخشون الجمهور فيحكمون بما يشهدونه من تصفيق ، مما أدى إلى تأخر الفن في هذا « المسرح الشعبي » .

وبعد فلم يكن أرستوفان أعظم شاعر هزلي لأنه نال إعجاب الجمهور في عصره فقط ، بل لأنه حاز تقدير صفوة رجال الفكر في زمانه وإعجاب المحدثين .

أحمد فؤاد الاهوانى

* * *

التمثيل

يا لفن رافل في عصرنا	بثياب زاهيات قشب
فيه تهذيب وفيه حكمة	ومثار للشجى والطرب
هو للجاهل درس صادق	وهو للعالم بعض الكتب
عظة للناس فيها ارتسمت	صور الجد بلوح اللعب

عادل الغضبان

همّة

لسعد بن ناشب ✡

سأغسلُ عنّي العارَ بالسّيفِ جالباً ... عليَّ قضاءُ اللهِ ما كانَ جالبا

وأذهلُ عنْ داري وأجعلُ هدْمها ... لعرْضيَ من باقي المذمّةِ حاجبا

ويصْغرُ في عيني تلادي إذا انثنتْ ... يميني بإدْراكِ الّذي كنْتُ طالبا(1)

فإنْ تهْدموا بالغدْرِ داري فإنّها ... تراثُ كريمٍ لا يُبالي العواقبا

أخي غمراتٍ لا يُريدُ على الّذي ... يهُمُّ به مِنْ مُقْطِعِ الأمْرِ صاحبا(2)

إذا همَّ لمْ تُرْدعْ عزيمةُ همِّهِ ... ولمْ يأتِ ما يأتي من الأمْرِ هائبا(3)

إذا همَّ ألقى بيْنَ عينيْهِ عزْمهُ ... ونكّبَ عن ذكرِ العواقبِ جانبا(4)

ولم يستشرْ في رأيهِ غيْرَ نفسهِ ... ولمْ يرْضَ إلاّ قائمَ السيفِ صاحبا

✡ شاعر إسلامي في الدولة المروانية .

(١) التلاد : المال القديم وخصه بالذكر لأن النفس تضنّ به .

(٢) الغمرات : الشدائد (٣) الردع : الكف والزجر .

(٤) التنكيب عن الشيء : الانحراف عنه .

ذكرى اليازجي

احتفاء بمرور مائة سنة على ميلاده

للأستاذ شبلي الملاط بك

أيها الهاجر الوجود فراراً   من ديارٍ يشقى بها الأدباء
أذكرت الماضي وعيشك مُرٌّ   وعليك العيون والرقباء
عشت شطراً من الحياة بأرضٍ   ضاق فيها على الكريم الفضاء
أسكت الجور أمة الضاد بالأمـ   ـس وعاشت كأنها خرساء
وإذا استنكر المظالم حُرٌّ   فالجزاء الردى أو الإقصاء
يؤخذ الآمنون من غير ذنبٍ   وعلى الظن يقتل الأبرياء
فسجونٌ مفتوحةٌ ورمالٌ   تحتويهم ولجّةٌ حمراء
بلغ العسف أبعد الحد حتى   كره الناس أنهم أحياء

* * *

أيها الراحل الذي جاز عهداً   رافقته غمامةٌ سوداء
وعلى الصحف واليراع سيوفٌ   مصلتاتٌ تسيل منها الدماء
والأُباة الأحرار منهم طريدٌ   متوارٍ ومنهمُ سجناء
عد إلينا فاليوم لبنان حرٌّ   لا عبيدٌ في أرضه وإماء
وعليه رمز الخلود لواءٌ   ذلك الرمز أرزة خضراء
يتولى الدفاع عنها شبابٌ   وكهولٌ وقادةٌ أمناء
مثلما دافع الأوائل عنها   وحمتهم جبالها العصماء

أيُّ فخرٍ أُتيح للأرز لما مثّلته في الخارج السفراء
نثرتهم في الشرق والغرب أمٌّ مثلما تنثر النجوم السماء
وصلوها بالنازحين حبالاً فاطمأنّت كما تشاء وشاؤوا
أصبحت لا ترى المزار بعيداً فبنوها من حولها نزلاء
بارك الله في ثرى الشرق زرعاً حيث لبنان وردةٌ بيضاء

✡✡✡

يا فقيد البيان لو عشت لليو م لمالت بعطفك الخيلاء
وعقدت الفصول في وصف عهدٍ حاولته الجدودُ والآباء
وتمنّته مطلعاً تتجلّى في سماه الحرية الحسناء
تلك حسناؤك التي حجبتها عنك في النعيم أمها الزهراء
كنت تهوى جمالها من بعيدٍ وهي والفرقدان منك سواء
وإذا ما ذكرتها في حديثٍ أو كتابٍ قضى عليك القضاء
بل إذا مرّ طيفها بك ثارت حول مثواك غارةٌ شعواء
عطشاً أعطشتك شوقاً ولكن في الرمالِ الرمضاءِ عزَّ الماء
قيل في مصر أمها وأبوها وهناك الهوى وثمّ اللقاء
فقصدت الوادي وكنت لديه عروةً رحبت به عفراء
ولقيت التي تبعت خطاها لا قناعٌ من دونها وخباء
وبظل النخيل أنهيت عمراً هكذا العمر نشأةٌ وانتهاء

✡✡✡

يا سمير الكتاب وابن نصيف أين في لفظك الأنيق الصفاء ؟

أين ذاك الضياء في اللغة الفصـ حى أما غاب حين غاب (الضياء)؟
أين ذاك اليراع يضرب في الأخـ طاء حتى تسدّد الأخطاء ؟
كنت للضاد حجة فتوارت مذ تواريتَ حجةٌ شهباء
ولعمري لو تُبعث اليوم حيًّا وترى ما أجازه الدخلاء
لأنفت المقام — والقول فوضى — أنكرته الأئمـة القدماء
ليت شعري لو يردع النشء عنـ ـه في ظلال المدارس الرؤساء !

* * *

يا نزيل الخلود إنّا رثينا ك قديماً وحُقّ ذاك الرثاء
وأتينا نجدّد اليوم عهـداً مثلما شاء أن نكون الوفاء
وأمام التاريخ نذكر حرًّا ينحني عند ذكره العلماء
أبصر النور منذ قرن وأودى ملء برديه عفـة وإباء
عاش حرًّا ومات حرًّا فقيراً كسب الفخر باسمه الفقراء

* * *

أرضَ لبنان أكبري شيخ علمٍ شرّف الفقر واعجبي يا سماء ! !

شبلي الملاط



عيد الشعر

في تكريم خليل مطران

رأى جماعة من أهل الفضل بمصر أن يقيموا للشعر عيداً ، وأن يحتفلوا بشيخ الشعراء ، وشاعر الأقطار العربية ، الأستاذ خليل مطران بك ، اعترافاً منهم بعبقريته وجليل مكانته من شعراء العربية .

وما هو إلا أن يذيع نبأ تكريم الخليل حتى ينضم إلى اللجنة ممثلون من جميع بلاد العرب ، وكلها تريد أن تعرب للشاعر الكبير عن منزلته في نفوس أبنائها ، وعن قدرها شاعريته وجهاده في سبيل الشعر .

وانهالت على اللجنة رغبات الهيئات والأفراد ، تريد الاشتراك في الحفاوة بشاعر ملك القلوب بسحر شعره ونبيل خلقه ، فقررت إقامة سلسلة حفلات ، كانت حلقتها الأولى ذلك الحفل العظيم الذي أقيم في دار الأبرا الملكية يوم السبت الموافق ٢٩ من مارس ١٩٤٧ برعاية مولانا الملك المعظم فاروق الأول حفظه الله ، وبرياسة وزير المعارف حضرة صاحب المعالي الدكتور عبد الرزاق أحمد السنهوري باشا .

ويسرّ مجلة «الكتاب» أن تنشر على صفحاتها بعض قصائد الشعراء في الحفلين الأولين ، وأن تجعل مسك الختام تلك القصيدة الوفيّة الكريمة ، التي شكر بها الأستاذ خليل مطران بك جميع من احتفوا بتكريمه ، ولئن أعجزته كثرتهم عن التخصيص ، كما يقول فيها ، لقد نظمهم قلادة جميلة من الجاه والمجد والبراعة والفضل ، وتلألأ شكره بالدعاء لرجالات العرب ورؤسائهم ، وفي طليعتهم « فاروق » المحبوب .

وسيلقي الخليل في نهاية حفلات تكريمه قصيدة أخرى من عيون الشعر سوف ننشرها في الجزء القادم إن شاء الله .

وصلت إلينا بعد طبع قصائد الشعراء في مهرجان خليل مطران بك قصيدة شبلي الملاط بك فنشرناها في صفحة ٩٦١ .

غاية الإطراء

للاستاذ عباس محمود العقاد

يومٌ تألّق واستضاء يومٌ تعطّر بالثناء
يومٌ أطلّ على الحمى والفضل مرفوع اللواء
هـذا وفاء العارفيـ ـنَ لشاعرٍ عرف الوفاء

٭٭٭

مطرانُ محراب القريـ ـضِ، خليل ناديه الحميمْ
قدسٌ يزين وقارَه أنسٌ يهشّ له النديمْ
خلقان لم يتجمّعا إلا لذي فضلٍ عميمْ

٭٭٭

ماذا أعـدّد من سجا ياك الحسان، وهنّ شتّى
أدباً وعـرفاناً وآ لاءً محبّبـةً وسمتا
وإذا أطلتُ فغاية الإ طراء أنك أنت أنتا

٭٭٭

ناداك أبناء العرو بةِ باسم شاعرها المجيدْ
فألٌ تجـدّده الطـوا لع كلّ يومٍ في سعودْ
الآن فاهنـأ بالعـرو بةِ وهي «جامعة» تسودْ

* * *

أنطقت بالعربيّة الـ فصحى أعاجم شكسبيرْ
ونقلتهم نقل الأما نةِ في الكبير وفي الصغيرْ
بدّلت في لغة اللسا نِ ولم تبدّل في الضميرْ

* * *

ودعمت للتمثيل كعـ بتهُ فعاودها المزارْ
هُجرتْ فحين حللتها حفلت بحجّ واعتمارْ
لقّنتهم فتلقّنوا منك التلاوة والحوارْ

* * *

وجمعت فحوى « الاقتصا د » كما تنزّل في كتابْ
قلمٌ يعلّم علمهُ ويدٌ تجود بلا حسابْ !
في العرفِ والعرفانِ سا ئلك المؤمّل مستجابْ

* * *

ذمم اليراعِ قضيتها في كل ميدانٍ دعاكْ
ليس النظيم أو النثيـ ر قُصار ما استرعى هواكْ
إن « الجوائب » و « المجلـ ة » في الصحافة شاهداكْ

* * *

لما سبقت إلى الجديـ د سبقت فيه إلى كمالْ
أتعبت خلفك من سعى في العدوتين على ضلالْ
لم يدركوك وإن جروا من بعد شوطك في المجالْ

* * *

حرّرت أوزان القصيـــدِ فزاد في الميزان وزنا

وتوسّعت فيه البحو ر فأرسلت دررا ومُزنا

هــذي الثلاثيات حقّـــك من لدنْك ومن لدنّا

* * *

وأقمت في ديوانك الـــعالي أميراً لا تُجارى

أولى الربوع بشاعرٍ آفاق أنجمه العذارى

لا يبتغي سكناً سوا ها حيث حلّ ولا مدارا

* * *

والله لو وفّوك بالـــتجديد حقّك من ثوابْ

لم توف عهد كهولةٍ إلا رُددت إلى الشبابْ

متجـدّد الريعان في ظلّ الخلود المستطابْ

* * *

لـكنّ حقك في الشبيـــبة شائعٌ بين القلوبْ

يدعو بشعرك من شدا أو عنك في النجوى ينوبْ

هبةٌ قضوك ديونهــا والحرّ سدّادٌ وهوبْ

* * *

عش يا خليـل ممتّعاً بأحبّ عيشٍ ترتضيهْ

في الأوج من عرش البيا ن ، وفي الرعاية من ذويهْ

لك حظوةٌ في عهد « فا روقٍ » وحظّ من سنيهْ

أنعم بمحفلك الذي وسع العروبةَ في مكانْ
كرمتْ بإكرام النهى وعلت بإعلاء البيانْ
هي ترجمتْ بك عن فضائلها فنعم الترجمانْ

* * *

عيشا معاً متعاهدين وأبلغا العهد التّمامْ
منها لك الآذان صاغيةٌ، ومنك لها الكلامْ
متقابلين على الرضى متلازمين على الدوام

عباس محمود العقاد

مُعَلِّم الجيل

للأستاذ محمد الأسمر

هل مرَّ يومٌ كنتَ غيرَ مُكرَّمِ فيهِ، وكان الشرقُ غيرَ مُكرِّمِ
حفلٌ أقمناهُ وكم من مثلهِ لكَ في القلوب علمتَ أم لم تعلمِ
تُغفِي وفضلكَ في المحافل ساهرٌ يُثني عليك فليس بعضَ النُّوَّمِ
ستون عاماً أنتَ بلبلُ روضةٍ مترنِّمٌ أو مرشدُ المترنِّمِ
تشدو وتهدي الناشئينَ إذا شَدَوْا متعلمونَ مَشَوْا وراءَ مُعلِّمِ
يمشون خلفَ مُغرِّدٍ عرفوا له حقَّ المحبِّ لهمْ وحقَّ المنعمِ
حتّى إذا نبتتْ قوادمُ ريشهم فوق القوافِي كالطيور الحُوَّمِ
حلّقتَ جبّارَ الجناح فحلّقوا وهمُ نسورٌ لائذون بقشعمِ

لمّا سموتَ سَمَوْا وأنتَ أمامهمْ إن المعلّمَ قُدوةُ المتعلّمِ
قدّمتهم نحو العلا فتقدّموا والفضلُ فضلُ مُقدِّمِ المتقدّمِ

* * *

شيخَ القوافي كيف رُضْتَ صِعابَها فَمَشَتْ وراءكَ مشية المستسلمِ
قلْ لي — وأنتَ بها الخبير — ألم تجدْ منها جُموحَ الصعبِ غيرِ الملجمِ
إنّي لألقى حينَ أطلبها الذي يلقاهُ بين الغاب طالبُ ضيغمِ
ولها بكفّي جذبُ أشوسَ نافرٍ كالفحل يجذبُ نفسهُ لم يُخْطَمِ
حتّى أراني قد سئمتُ مِراسَها وأراكَ صاحبها الذي لم يسأمِ
أخليلُ إن تهرمْ فإنك شاعرٌ غضُّ القوافي شعره لم يهرمِ
اللفظ والمعنى لديك كلاهما طَرَبُ السميعِ ، ولذّةُ المُتَفهمِ

* * *

لِحَريقِ (روما) في بيانك روعةٌ للفنّ فوق توهُّمِ المتوهّمِ
هي قِصّةٌ صوَّرتَها في مُحْكمٍ من شعر مطّلعٍ ، ونظم مُنَظّمِ
شعرٌ به تجري الدماءُ وما جرَتْ والنارُ ذاتُ توهُّجٍ وتضرُّمِ
(نيرون) فيهِ على أرائكِ جَنّةٍ من لهوهِ نُصِبَتْ حيالَ جهنمِ
صَوَّرتَ جنّةَ ظالمٍ وجحيمهُ حتّى الغناءَ ، وآهةَ المتألمِ
تصويرَ مقتدرٍ جلا في رسمهِ صوتَ المُصَوَّر وهو ما لم يُرسمِ
هي ريشةٌ كالصولجان ملكتَها فاسعدْ بما ملكتْ يمينُك وانعمِ
ما ذلك العجبُ العُجابُ تشيدُه شعراً به الآجرُ بعض الأنجمِ
هي (بعلبك) أعدتَ ماضيَ حسنِها فيما جلوتَ من القريضِ المحْكَمِ

شاد (ابن داود) العجائبَ فوقَها ... وتَهدّمتْ فبنيتَ ما لم يُهدَمِ *

شعرٌ على الأيام باقٍ حسنهُ ... متألِّقٌ كالكوكب المتبسِّمِ

هو صَرْحُ دنيا ليس صرحَ مدينةٍ ... مما بنَوْهُ في الزمانِ الأقدمِ

نحتتهُ كفُّكَ منكَ فهو كما أرى ... وكما تَرى من محْضِ لحمكَ والدمِ

هو صنعُ نفسِكَ والنفوسُ خوالدٌ ... فله الخلودُ ، وليس من صنع الفمِ

لا تحسبوا الشيطانَ أهمهُ الذي ... يشدو بهِ ، اللهُ أكبرُ ملهمِ

* * *

هذا وكم لك من شمائلَ حُرَّةٍ ... هي في الحقيقةِ روضةُ المُتوسِّمِ

أغصانُها رَفَّتْ على من حولها ... فعلى مسيحيٍّ ، وآخر مسلمِ

مِمّا دعا (عيسى) له و (محمدٌ) ... ولنِعْمَ ذلك عصمة المستعصمِ

كنزٌ حباكَ اللهُ أفضلَ ما به ... واللهُ جلَّ اللهُ خيرُ مُقسِّمِ

إن كان غيرُكَ نال بعضَ كريمهِ ... فكفاكَ أنَّكَ نلتَ كلَّ الأكرمِ

* * *

في ظلِّ (فاروقٍ) وحسبُكَ ظِلُّه ... زَفَّتْ إليكَ (عكاظُ) أجمل موسم

أبناءُ (يعرب) فيه حولكَ هالةٌ ... من مُنْجِدٍ وافَى إليكَ ، ومُتهِمِ

حَمَلوا مزاهرهمْ إليكَ وأقبلوا ... يترنمُونَ لديكَ خيرَ ترنُّمِ

مِنْ شاعرٍ يُثْـنِي عليك ، وناثرٍ ... هو شاعرٌ أيضاً وإن لم ينظمِ

عِشْ للقوافِي والخلالِ حميدةً ... واسعدْ على مرِّ الليالي واسلمِ

محمد الاسمر

---

* بعلبك هي المدينة التي ولد بها شاعر القطرين

جوانب الطّور

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

جئتُ أُلقي في بابك الأعذارا   كيف أُهدي للروضة الأزهارا ؟

أيها الشاعر المحلِّق عفواً   إن تهيَّبتُ عندك الأشعارا

أنت كالبدر في الوجود ائتلاقاً   أنت كالنجم في السماء مدارا

ترسل النورَ في الدياجي فتَهدي   في الحياة المضلّين الحيارى

كلما أظلم الطريقُ عليهم   آنَسُوا من جوانب الطور نارا...

✡ ✡ ✡

هات من نايك الشجيِّ ورتِّلْ   ثم أصلحْ في كفك المزمارا

وخذ العُود في يديك يغرِّدْ   ويُذِعْ من حياتنا الأسرارا

لا تقل حطَّمتْه مرّ الليالي !   لم تحطِّمْ من عُودك الأوتارا

هات لحن الخلود منك وأمتِعْ   بالحديث الصِّحابَ والسُّمَّارا

أسكرِ النهرَ من نشيدك عذباً   ثم أعجِزْ من لحنك الأطيارا

هي عجماء باللسان .. ولكنْ   تفهم اللحنَ كالرحيق مُدارا

أنتَ صاحي الخيال والعقلِ لكن   تجعل الكونَ والأنامَ سكارى !

✡ ✡ ✡

لم يزل قلبك الكبيرُ كبيراً   حين أمست بعضُ القلوب صغارا

أنت ذوَّبته حناناً وعَطفاً   أنت رققّتَه جوًى واستعارا

أنت أرسلته دموعاً على الطِّر　　س وسمَّيتها لنا أشعارا
أنت هوَّنتها بعينيك لـكن　　زدتهـا في عيوننا إكبارا

✡ ✡ ✡

يا دليلَ الركبان في القفر إني　　ما رأيتُ الحياةَ إلا قِفارا
كيف آنستَ بالقصيد الفيافي　　كيف أخصبت بالنشيد الصحارى ؟
يا دليل السفين في البحر إني　　لم أخُض في الحياة إلا بحارا
كيف ذللتَ موجها بالقوافي　　كيف جنَّبتَ فلكك الإعصارا
كلمـا زادك الزمان لجاجاً　　زدتَه من إبائكَ استكبارا
وإذا ما المنى نَفرنَ علينا　　فمن الخير أن نزيد نفارا
فعلينا المسعى الجميلُ ولـكن　　ما علينا أن نُدركَ الأوطارا ...

✡ ✡ ✡

يا جديد الخيال في الشِّعر إنَّا　　ما ألِفنا في الشِّعر إلا مُعارا
أنت مهّدت للجديد طريقاً　　لم نَخَفْ فيه من يديك العثارا
نقلةٌ في القصيد كانت وثابا　　وخُطًى في القريض كانت كبارا
لم تخُنْ للقديم عهداً ولا ثُر　　تَ عليه ولا نقضت الذمارا
إنما كنتَ للحيـاة مُجيباً　　كاشفاً عن جمالها الأستارا
وتراها بحاضر العين صِدْقاً　　لا بعين الماضي الذي قد توارى ...

✡ ✡ ✡

يا وَقور الأشعار في غير هُجر　　أرضُ لبنانَ علمتك الوقارا
جبل شاهق يُطلُّ على الأكـــوان كبراً ويحقِرِ الأدْهارا

تتوالى الأحداثُ فيه ولكن هو أقوى رُكناً وأعلى جدارا

غالبَ الدهرَ والحياةَ طويلا ولو اسطاع غالبَ الأقدارا

هو مثلُ الأهرام في الجو خُلداً يتحدّى الزمانَ والأعصارا

مرّتِ الحادثات فيه ولكن لم تُثِرْ في ذُراه إلا غبارا . . .

✡ ✡ ✡

نحن في ساحة العروبة أهلٌ اتفقنا مشاعراً وشعارا

انتظمنا عواطفاً وشعوراً وانتثرنا منازلاً وديارا . . .

لغة الوحي والنبوّة زادت شَجَرَ الوصل بيننا أثمارا

ألّفتنا الجراح بالأمس لما أعمل الغربُ في البلاد الشفارا

إن حرية الشعوب رباطٌ يجمعُ الثائرين والأحرارا

محمد عبد الغني حسن

بثّ الشكر

للأستاذ خليل مطران بك

طوقتموني بأطواقٍ من المِنَنِ فكيف أقضي حقوقاً جاوزتْ مِنَني

وما سبيلي إلى أدنى الوفاء بما لِكلِّ مبتدرٍ وافى ليكرمني

قد أعجزتني عن التخصيصِ كثرتكم فَمَنْ أقول له شكراً ومنْ ومنِ

أخاف من سُوءِ تأويلٍ لرأيكمُ في الفضل لو قلتُ إني لستُ بالقَمِنِ

قومي وفي هامتِه العلياءِ منزلهمُ هم صفوة الخلْقِ بالأخلاق والفِطنِ

إن عَزَّ من مَنَحوا نَصْراً فأَحرِ به ... أو هان من منعوهُ النصر فليهنِ
مواطنُ الضادِ شتَّى في مَظاهِرها ... وفي حقيقتها ليست سِوَى وطنِ
ممثلوها بهذا المنتدى لهمُ ... مفاخرٌ مِلء عينِ الدهر والأذُنِ
من كل ذي نسبٍ أو كلِّ ذي حسب ... ما في مصادرهِ من مصدر أسِنِ
وكل ذي منصبٍ تعتزُّ أُمَّتهُ ... بسيفهِ العَضْبِ أو بالرأي واللَّسَنِ
وكل مُقْتَبَل الأيام مجتهدٍ ... وكل طالب علمٍ نابهٍ ذَهِنِ
ومن مؤثَّل جَاهٍ في تجارتهِ ... أو في صناعتهِ أغنَى الحِمَى وغَنِي
وزارعٍ صائنٍ بالبرِّ سُمْعَتَهُ ... للوُجْدِ مبتذلٍ للحمدِ مختزنِ
وشاعرٍ يطربُ الدنيا ترنُّمهُ ... فما أفانينُ غِرِّيدٍ على فَنَن
وناثرٍ مُسرِفٍ في الدرِّ يُنفقهُ ... كأَنَّه يتلقَّاهُ بلا ثمنِ
يا للوزير رئيس الحَفْلِ هل وَسِعَتْ ... شأني جَلائلُ ما تُهدِي إلى الزَّمنِ
ليحفظ اللهُ « فاروقاً » لأمتهِ ... وللعُروبَةِ ولينصرْهُ وليصُنِ
هو الذي خَبَرت معروفَهُ أممٌ ... فما تنكَّرَ في سِرٍّ ولا عَلَنِ
لولاه لم تكُ مصرُ اليومَ بالغةً ... مكانَها واتحادُ العُرْبِ لم يَكُنِ
وليحفظِ الله أبناءَ الكنانةِ في ... يُمْنٍ وأمنٍ من الأحداثِ والمِحَنِ
وليحيَ مَن صانَ مَجْدَ الضاد من مَلِكٍ ... ومن رئيسٍ عليه اليومَ مؤتمنِ
فكلُّهم جاءَ في ميقاتِه وله ... تاريخُ فضل بهذا المجدِ مقترِنِ
دوموا وأيامُكمُ بالألفِ زاهرةٌ ... ولا عَدَتْهُ عوادي الخُلْف والإحَنِ
أبالغٌ بي وفائي بعضَ واجبهِ ... لو أن عمريَ في هذا الوَفاء فَنِي

خليل مطران

مباراة شعرية جائزتها : خمسون جنيها مصريا

كان الشعر ولن يزال قيثارة الزمن يوقع الوحي على أوتارها نغمات الرقة والحنان حيناً وألحان الحمية والنجدة حيناً آخر وهو في شتى صوره رسول صادق يحمل من القلب إلى القلب أسمى رسالات الحياة .

ولا خفاء أن مصر تجتاز اليوم مرحلة دقيقة من مراحل الحياة فقد فازت أو كادت بتحقيق أمنية من أمانيها الغوالي وهي الجلاء ومضت قدماً مستعينة بالله وبحقها الواضح الجلي إلى الظفر بباقي أمانيها فكان على الشعر أن يسير وإياها إلى غاية غاياتها يغنيها الألحان العذاب ويترجم ما تنطوي عليه الجوانح من زاخر الخلجات .

فرأت مجلة « الكتاب » أن تحفز القرائح إلى أن تكون قلب مصر الخافق ولسانها الناطق وأن تدعو شعراء العرب في جميع البلاد إلى التباري في وصف أماني مصر القومية في قصيدة عنوانها : « يقظة النيل » وخصصت بالمجلي منهم جائزة مالية قدرها خمسون جنيهاً مصريا .

وتتألف لجنة التحكيم من حضرات الأساتذة : خليل مطران بك وعباس محمود العقاد وأنطون الجميّل باشا وعلي الجارم بك وعادل الغضبان

شروط المباراة

(١) يجب أن لا تقل القصيدة عن ٢٥ بيتاً . (٢) يجب أن لا تكون القصيدة المقدمة إلى المباراة مما سبق نشره وأن لا تنشر قبل إعلان نتيجة المباراة .

(٣) ترسل كل قصيدة من خمس صور مكتوبة على الآلة الكاتبة وغفل من التوقيع .

(٤) يكتب كل متبار اسمه الحقيقي وعنوانه ومطلع قصيدته وتاريخ إرسالها على قسيمة المباراة الموجودة في هـذا الجزء من المجلة ويرسلها في ظرف صغير مقفل لا يكتب عليه شيئاً ويضع هذا الظرف الصغير والصور الخمس من قصيدته في ظرف أكبر ويرسله إلى : إدارة مجلة الكتاب بدار المعارف ٧٠ شارع الفجالة بالقاهرة — مباراة الشعر — (٥) لا تستخدم كل قسيمة إلا لقصيدة واحدة . (٦) آخر موعد لتلقي القصائد هو ٣١ مايو (أيار) ١٩٤٧ (٧) تنشر نتيجة المباراة وكذلك القصيدة الفائزة في الجزء الذي يصدر في أول أغسطس (آب) ١٩٤٧ من مجلة الكتاب . (٨) حكم اللجنة نهائي لا يقبل المراجعة .

أنبـاء

نشر في هذا الباب أخبار النشاط الفكري والأدبي وأنباء الكتب والكتاب مما يوافينا به مندوبونا ومراسلونا بمصر والخارج .

مصر

تفضل صاحب الجلالة الملك فافتتح في التاسع من مارس الماضي المعرض الدولي للفن الحديث الذي اشتركت فيه مصر وأمريكا وإنجلترا وبلجيكا وروسيا والصين وفرنسا واليونان .

ولقد عرضت في القسم الأمريكي مجموعة لأساتذة الفنون يرجع عهدها إلى سنة ١٨٠٠ ؛ واشتمل القسم الإنجليزي على طائفة من اللوحات الزيتية والرسوم المنفذة بطريقة الحفر ، وعلى مطبوعات أثرية ؛ كما امتازت معروضات القسم البلجيكي بالمرايا المزخرفة ؛ وضم القسم الروسي طائفة من الصور الكبيرة الحجم ، ومجموعة من أشغال الإبرة ، ونسج السجاد ، والعاج المنقوش ؛ وحوى القسم الصيني رسوما وقطعاً حريرية وتحفاً خزفية في غاية الجمال . أما القسم الفرنسي فقد تميز بطابعه الخاص من توفر الذوق الفني والإحساس المرهف وبروز شخصية الفنان في عمله ، وقد عرضت فيه مجموعة من الأستار المنفذة بطريقة «الجوبلان» ومجموعة من النقوش والزخارف على المعادن . كما أن لوحات القسم اليوناني وتماثيله قد أعادت إلى الذاكرة عظمة الفن الإغريقي القديم .

أما القسم المصري فقد نسق تنسيقاً بديعاً وتناثرت في جنباته تحف فرعونية أضفت عليه جمالا فوق جمال التحف الحديثة . وقد عبرت لوحات محمود سعيد بك عن صفاء جو مصر وما يشع على النفس من ألوان هذا الصفاء ، كما عبرت لوحات الأستاذ أحمد عثمان عن الخواطر الرصينة المكبوتة ، وإنك تلمح في « الرحلة » و « رأس مصري » التجاعيد الدقيقة التي تعلو أصابع اليد وتكسو الجبهة وما تحت العيون . وعبرت لوحات السيدة إيمي نمر عن الفن الشرقي الذي امتاز بالوقار ؛ كما خلع محمد حسن بك على مجموعة رسومه الهزلية صفات من رسمهم ودلائل أخلاقهم وسجل ملامحهم تسجيلا ينبئ عن هويتهم .

وقد عرض الأستاذ حسن الليثي المشرف على زركشة الكسوة الشريفة قطعاً مزركشة مما يحلي ملابس رجال الدولة . ونالت لوحة الأستاذ إبرهيم جابر تقدير الزائرين ، وهي تمثل فتاة ريفية تنشر ملاءتها على بدنها فتبين محاسن قدها المشوق ؛ كما أن الأستاذ محمد عزت مصطفى قد انتهج في مجموعته منهجه الخاص وإلهام روحه ؛ أما لوحتا الأستاذ منصور فرج : « عروس النيل » و « الربيع » فكأنهما قد رسمتا بألوان الطمي وأشعة الشمس . وهناك مجموعة المرحوم سحاب ألماس بك وكأنه استمد خمرة رسومه من ذلك اللون الذي ينعكس على الأرض المغمورة بمياه النيل .

وكان بالمعرض قسم لطوابع البريد التذكارية أقبل عليه الهواة ، وقد اشترى أحدهم منها بسبعمائة وخمسين جنيهاً . وقدرت محتويات المعرض بحوالي ثلاثة ملايين من الجنيهات .

✡✡✡

أسس في الجامعة الأمريكية ناد للصحافة ، ودعي كبار الصحفيين إلى إلقاء محاضرات فيه ، وقد افتتح سلسلة هذه المحاضرات نقيب الصحفيين الأستاذ محمود أبو الفتح بك بمحاضرة موضوعها : ما الذي أفدته من حياتي الصحفية ؟ .

✡✡✡

أنشئ بمقر الأمانة العامة لجامعة الدول العربية مكتبة تحوي مختلف المؤلفات والمستندات والإحصاءات الخاصة بكل بلد من البلدان المنضمة إلى ميثاق الجامعة .

وقد طلبت الأمانة إلى نخبة من المتخصصين موافاتها بجميع المطبوعات التي صدرت في مصر باللغات العربية والأوربية الخاصة بتاريخ العرب . ولا سيما تاريخ عظماء رجالات العرب ، ومدى التقدم في مختلف الشؤون السياسية والدستورية والثقافية والاجتماعية

✡✡✡

من ضيوف مصر الدكتور مورتيمر أستاذ الأدب الإنجليزي ، وقد ألقى سلسلة محاضرات عن القصة في الأدب الإنجليزي الحديث ، تناول فيها بالتحليل تيارات الكتابة القصصية واتجاهاتها ، وقدم صوراً وصفية واقعية عن البارزين من كتاب وكاتبات القصة .

ومن ضيوفها كذلك المستر دكسون المستعرب الإنجليزي المعروف ، وهو يقوم بجولة في العواصم العربية توطئة لإصدار مجلة بالإنجليزية في لندن للدفاع عن قضايا العرب في الشرق الأوسط وشمالي أفريقية .

✡✡✡

يطبع الدكتور محمد فهمي لهيطة أستاذ الاقتصاد بكلية التجارة بجامعة فؤاد الأول كتاباً جديداً بعنوان : « العدالة الاجتماعية » ، تناول فيه حالة مصر الاقتصادية والاجتماعية في غضون هذه الحرب وبعدها .

✡✡✡

ندبت جامعة فؤاد الأول سعادة الدكتور مشرفة باشا عميد كلية العلوم لتمثيلها في الاحتفال الذي تقيمه جامعة برنستون في غضون الشهر القادم لمناسبة مرور مائتي عام على تأسيسها .

✡✡✡

يطبع المعهد الفرنسي للآثار كتاباً للأستاذ جاستون فييت مدير دار الآثار العربية بعنوان : « منسوجات إسلامية عراقية من القرنين التاسع والعاشر الهجري » لم يسبق لأحد المؤرخين الكتابة عنها .

✡✡✡

أقيم في الحادي والعشرين من شهر مارس بدار القنصلية اللبنانية في القاهرة أول معرض للكتاب اللبناني ، تحقيقاً للغاية النبيلة التي تهدف إليها اللجنة الثقافية في جامعة الدول العربية من توثيق صلات الفكر وإحكام روابط الثقافة بين الدول التي تجمعها لغة الضاد .

وقد افتتح المعرض بكلمات مناسبة ألقاها سعادة الشيخ سامي الخوري وزير لبنان المفوض ، والأستاذ يوسف عكر قنصل لبنان في القاهرة ، والأستاذ مصطفى عبد الباسط فتح الله صاحب مكتبة الكشاف ومطبعتها ببيروت . وبعدها أخذ المدعوون من كبراء الدول العربية ورجال الفكر والقلم وأعلام الأدب يشاهدون الكتب وقد عرضت أجمل عرض يدل على سلامة ذوق القائمين بالمعرض وحسن ترتيبهم .

✡✡✡

يصدر قريباً في عالم الشعر ديوان « من وراء الأفق » للأستاذ محمد عبد الغني حسن وهو مجموعة من الشعر الوصفي استلهم الشاعر معانيه من مفاتن الطبيعة ومعالم الحضارة أيام تجواله في بلاد الغرب .

✡✡✡

يعد الدكتور كامل مراد مدرس اللغات السامية بجامعة فؤاد الأول كتاباً عنوانه « المراسلات السياسية باللغة السريانية في مصر » يعد فتحاً في العلاقات السياسية القديمة بين مصر وجاراتها الشرقية.

✡✡✡

كون مترجمو الصحف اليومية والأسبوعية اتحاداً لهم ، وأعدوا قانونه ، وقد سجل الاتحاد في وزارة الشؤون الاجتماعية .

السودان

في السودان بعثة لوزارة الأشغال المصرية تقوم بدراسة أنواع الحيوانات النيلية التي تعوق الملاحة ، وستصل قريباً بعثة لدراسة الحياة الاقتصادية في السودان ، وبعثة أخرى لدراسة لهجات بعض القبائل وتأثير اللغة العربية في لغات سكان أعالي النيل .

✡✡✡

يتتبع السودانيون باهتمام كبير قرار لجنة الشؤون الثقافية الخاص بإنشاء معهد دراسات عليا للسودان يلحق بجامعة فؤاد الأول يلتحق به المتخرجون في كليات الجامعتين المصريتين وذوو المؤهلات العالية من السودانيين .

✡✡✡

كان المغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الأزهر قد قرر قبل وفاته صرف إعانة لكل طالب مجد من أروقة السودان الثلاثة في الأزهر ، مقدارها جنيهان للطالب في القسم الابتدائي والقسم العام ، وثلاثة جنيهات للطالب في القسم الثانوي ، وخمسة جنيهات للطالب في القسم العالي وقد أعلمت مشيخة الأزهر بذلك مراقبة الشؤون الدينية برياسة مجلس الوزراء ، وأخذت المشيخة في الاستعداد لتنفيذها وإحاطة الجهات السودانية المسئولة علماً بذلك .

✡✡✡

قررت وزارة المعارف المصرية صرف إعانة قدرها ألف جنيه سنويا للمدرسة الملحقة بجامع جوبا ، وقد أوفدت مراقب عام التعليم المصري في السودان لزيارة المدرسة والجامع وتقديم مقترحاته بشأنهما .

✡✡✡

قررت لجنة المالية بمجلس النواب الموافقة على طلب فتح اعتماد إضافي قدره عشرة آلاف جنيه في ميزانية وزارة الأوقاف لبناء مسجد بالخرطوم .

✡✡✡

بلغت التبرعات ليوم التعليم بالسودان ١٥٥٠ جنيها من مديريات الخرطوم والمديرية الاستوائية وكردفان والنيل الأزرق .

فلسطين

وجهت اللجنة الثقافية في جامعة الدول العربية الدعوة إلى عدد من المشتغلين بالتعليم في فلسطين للاشتراك في المؤتمر الذي يعقد في الصيف المقبل لدراسة مناهج التعليم في اللغة العربية والجغرافيا والتاريخ والتربية الوطنية .

✡✡✡

عقد رؤساء المعاهد الأهلية في فلسطين مؤتمراً في القدس لدراسة شؤون التعليم بالبلاد ، وقرروا تأليف لجنة تتولى تنفيذ المشروعات التي يقرها المؤتمر . وينتظر أن تؤدي هذه الاجتماعات إلى فوائد في حقل التعليم .

✡✡✡

افتتح الموسيقار السيد رياض البندك معهداً للموسيقى في مدينة بيت لحم أطلق عليه اسم «معهد فاروق الأول للموسيقى » ، لتدريس أصول الموسيقى الشرقية والغربية .

✡✡✡

يبذل الشاعر السيد وديع البستاني – الذي ألف وترجم عدداً من الكتب الأدبية — الجهد لنشر مجموع من الأدب الهندي القديم نقله إلى اللغة العربية شعراً ونثراً كالرامايانا والمهبراتا وقصته نالا دوايبنتي ومسرحية الخاتم المفقود ، وبضعة أبواب من كليلة ودمنة ، عن الأصل السنسكريتي .

✡✡✡

عين الدكتور أنطون صهيون من عرب حيفا جراحاً في مدرسة الخريجين الطبية في مستشفى لندن بعد أن حاز على درجة زميل في كلية الجراحين الملكية . وهو أول عربي يعين في هذا المنصب .

✡✡✡

عقد الاتحاد الثقافي العربي في يافا اجتماعاً قرر فيه اتخاذ الوسائل لإنشاء مكتبة عامة في مدينة يافا .

✡✡✡

احتفل نادي الكرمل في حيفا بتأبين العلامة الأب أنستاس ماري الكرملي وألقيت القصائد والخطب في مآثر الفقيد .

✡✡✡

نشرت كلية الهندسة في جامعة فؤاد الأول المحاضرة القيمة التي ألقاها السيد قدري حافظ طوقان عن الأسلوب العلمي عند العرب . وهي من سلسلة محاضرات ابن الهيثم التذكارية .

✡✡✡

صدر في هذا الشهر كتاب « سدنة التراث العلمي » بقلم السيد ركس العزيزي في مآثر العلامة الأب الكرملي . ورواية الأشباح الحمر للسيد كامل نعمة .

✿✿✿

اشتركت محطتا الإذاعة والمجلات في إحياء ذكرى وفاة فقيد الشرق السيد جمال الدين الأفغاني في اليوم التاسع من مارس بإلقاء الأحاديث وكتابة المقالات المناسبة .

لبنان

صدر عن « دار العلم للملايين » الحلقة الرابعة من « أعلام الحرية » بعنوان « روبسبير » بطل الثورة الفرنسية المشهور الذي قضى حياته السياسية في الانتصار للمتألمين ، ومحاربة المستبدين الذين يجنون سعادتهم من شقاء الآخرين دون رحمة بالإنسان . والكتاب من وضع الأستاذ قدري قلعجي .

وصدر عن الدار نفسها كتاب بعنوان « عالم واحد » بقلم وندل ويلكي منافس روزفلت في رياسة الجمهورية الأمريكية . والكتاب عرض ممتع لرحلة ويلكي حول العالم إبان الحرب العامة الأخيرة ، ولاتصالاته بعظماء الرجال وكبار الزعماء في كل مكان ، وخاصة في روسيا والشرق الأوسط . وقد نقله إلى العربية الأستاذ مصطفى النصولي مدير الاقتصاد الوطني .

ومن منشورات الدار أيضاً كتاب في السلسلة السياسية بعنوان « عالمان » للناقد العسكري الأميركي وليم زيف . وهو يعالج المشكلات السياسية الحاضرة بأسلوب واقعي صريح يكشف عن كثير مما يكتنف الوضع الدولي الحاضر من أسرار . ولقد صدر هذا الكتاب في أمريكا خلال سنة ١٩٤٦ فأحدث دويا فكريا في دوائرها السياسية . وقد نقله إلى العربية الأستاذ منير البعلبكي .

✿✿✿

من أهم المطبوعات التاريخية التي ظهرت عن مكتبة الكشاف ومطبعتها كتاب «يوم ميسلون» . وهو مذكرات خطيرة الشأن للمربي الكبير ساطع بك الحصري وزير المعارف في حكومة الملك فيصل العربية في سورية ، وصفحة دامية من تاريخ النضال العربي الحديث ، ووثائق رسمية ، وأسرار سياسية يزاح عنها الستار لأول مرة ، مرفقة بالصور التاريخية الكثيرة .

✿✿✿

أخرجت دار المكشوف كتاب « أوسكار ويلد أمام القضاء » وهو مأساة غرامية بطلاها الشاعران الإنكليزيان الكبيران ويلد واللورد دوغلاس . وصف فيها مؤلفها موريس روستان « الحب الذي لايجرؤ أن يقول اسمه » وصفاً رائعاً ، وذكر ما انتهت إليه حياة أمير شعراء الإنكليز بعد محاكمته والحكم عليه بالأشغال الشاقة . والرواية مترجمة بقلم الشاعر المرحوم إلياس أبي شبكة .

✿✿✿

يعنى الأستاذ لطفي حيدر بترجمة كتاب جديد عن الرسول العربي الكريم بعنوان « محمد » لمؤلفه الباحث التركي محمد أسعد بك سفير تركيا في موسكو سابقاً . وينتظر أن تصدر هذه الترجمة في منشورات دار المكشوف .

✿✿✿

وافق يوم الأحد الثاني من مارس ذكرى مرور مائة سنه على مولد اللغوي إبرهيم اليازجي .

فاحتفلت المجلات بهذه الذكرى ، وأقامت محطة الإذاعة حفلة خاصة تكلم فيها نخبة من الأدباء أشادوا فيها بفضل العلامة اليازجي على اللغة العربية .

✲✲✲

ظهرت الحلقة الثالثة عشرة من السلسلة الأدبية « الطرائف » التي يصدرها حنا نمر أستاذ الأدب العربي في الكلية الأرثوذكسية ، يعرض فيها لمقدمات في فن الشعر والنقد الأدبي وتفصيل لخصائص النابغة الذبياني الشعرية .

✲✲✲

نشر الأب يوحنا قمير أستاذ الفلسفة العربيـــة في جامعة القديس يوسف الحلقة الأولى من « فلاسفة العرب » . خصها ببعض مقدمات في التصوف ، وبدراسة حياة ابن الفارض . وهدف الأب قمير في سلسلته هذه « إحياء تراث ، ونشر فكر ، ورسالة حق » . والكتيب جيد الطبع أنيق الإخراج .

✲✲✲

صدر عن المطبعة المخلصية رسالة بعنوان « حماقة أم خلاعة » بقلم جورج بربر . تدعو إلى مكافحة الإباحية والمجون وإلى التمسك بالفضائل في سبيل تنشئة جيل جديد قوي في جسمه وعقله .

✲✲✲

ظهر في السوق الكتبية كتاب « الطب العربي » للجراح أمين خير الله . وقد وضعه صاحبه باللغة الإنكليزية ، ونقله إلى العربية الطبيب مصطفى أبو عز الدين . وقدم له جراح مصر الكبير المغفور له علي إبرهيم باشا . ولم يقتصر الكتاب على ذكر العلوم الطبيعية فحسب ، بل عرض للعلوم والفنون وللترجمات إلى العربية ومنها . والكتاب يعد بحق من أنفس ماصدر هذا العام في لبنان .

سُوريَا

أعدت الحكومة السورية قانون « محو الأمية في سوريا » ، وهو ينص في مجمله على أن تعلم اللغة العربية واجب على كل من يتراوح عمره بين الست سنوات والخمسين سنة ، ولا يتمتع بالحقوق السياسية إلا من يعرف العربية قراءة وكتابة . ويلزم القانون كل متعلم أن يتكفل بتعليم عشرين أميا ، كما أنه يفرض إنشاء مركز لتعليم الأميين في كل حي أو قرية ، ويمكن أن تخصص أماكن العبادة والمقاهي والأندية وقاعات الملاهي لمثل هذا الغرض . وينص القانون على وجوب وضع كتاب نموذجي لتعليم القراءة تتوخى فيه السهولة وأبسط الألفاظ التي تدور على الألسنة ، وتخصيص جائزة كبرى لكل كاتب يؤلف كتاباً علميا في المواضيع الآتية : « أسهل الطرق العلمية لتعليم القراءة والكتابة » و « كيف تتقي المرض » و « الوطني الحقيقي » و « الفلاح الناجح » و « اعمل لوجه الله » . ويقام في كل قرية تتحرر من آخر أمي مهرجان شعبي . وواضع هذا القانون هو السيد جواد المرابط محافظ لواء دمشق .

✫✫✫

ظهر كتاب « الطبوغرافيا » للدكتور محمد علي صبري الخبير الجيولوجي ويحوي الكتاب :
(١) تمهيدات أولية في علم التخطيط (٢) الارتسامات الكارتوغرافية (٣) المقاييس النسبية وإنشاءها (٤) تمثيل تضاريس الأرض (٥) المصورات والاهتداء إلى جهة المصور (٦) نظرات حول مسح الأرض (٧) تربيع المصورات وتكبيرها وتصغيرها والمصورات النافرة (٨) كشف الطرق ودليل الرحلات ورسوم التصوير العمومية .

✫✫✫

صدر كتاب« تشخيص السل الرئوي بواسطة أشعة الراديوم » للدكتور روحي خياط ، وكتاب « تنظيم السلطات العامة في سوريا » للدكتور الحقوقي أمين دهبر . وكلا الكتابين باللغة الفرنسية .

✫✫✫

نشر السيد عبد العزيز الكرم رسالة عن « الرب المزيف سلمان المرشد » وهي تحتوي على نشأة الرب المرشد، وشعوذته وإجرامه ونسائه وأولاده وأعوانه وربوبيته ، ومعركة العذراء والقبض عليه ومحاكمته ووصيته وإعدامه . والرسالة مزينة برسوم .

✫✫✫

أصدر مكتب النشر العربي كتابين للأستاذ محمد ياسين الحموي الأول : « دمشق في العصر الأيوبي » وهويتضمن فصولا قيمة عن دمشق في عصر الأيوبيين وعن حالة الثقافة والاجتماع والاقتصاد والعمران وعناصر البناء فيها . والكتاب مزين برسوم أثرية للمدارس والمارستانات والرباطات التي أنشأها الأيوبيون .

أما الكتاب الثاني فهو « الملاح العربي أحمد بن ماجد » أو ناحية مجيدة من الثقافة البحرية العربية . ويحتوي الكتاب على تاريخ حياة ابن ماجد من رجال القرن العاشر الهجري وأشهر ملاح في بحار الهند ، وهوالذي قاد الرحالة فاسكودي جاما من الشاطئ الأفريقي إلى الهند سنة ١٤٩٨ . وابن ماجد عربي من عمان وهو أول من وضع المغناطيس في البوصلة وله عدة كتب ورسائل في الملاحة أشهر المطبوع منها :«حاوية الاختصار في أصول علم البحار» و « الفوائد في أصول البحر والقواعد » .

وقد اعتمد المؤلف في بحثه على ما وضعه المستشرق الفرنسي غبرييل فران وعلى مؤلفات ابن ماجد المطبوعة في باريس .

✫✫✫

صدر الجزء الأول من كتاب « مختصر تنبيه الطالب » للعلموي المتوفي سنة ٩٨١ هـ من نشر وتحقيق الأستاذ صلاح الدين المنجد . وهو يحتوي على مقدمة حلل فيها الناشر تآليف الذين أرخوا دمشق وبين شأن كتاب « تنبيه الطالب للنعيمي » ومن اختصره . ثم خلص إلى الكلام على مختصر العلموي . وقد اعتمد الناشر على ثماني نسخ خطية قسمها إلى زمر مبيناً خصائص كل منها .

✫✫✫

ظهر الجزء الأول من كتاب « المروج السندسية في تاريخ الصالحية » من نشر وتحقيق الأستاذ محمد أحمد دهمان وفصول الكتاب هي : (١) هجرة بني قدامة إلى دمشق وسببها وتأسيسهم الصالحية (٢) آثار جبل قاسيون قبل نشوء الصالحية (٣) جبل قاسيون وفضيلته (٤) نهر يزيد ومن أجراه وكيف كان أصله (٥) حمامات الصالحية وأسواقها وخاناتها ومحلاتها

وقصورها ومدارسها وخوانقها وزواياها وزياراتها وجوامعها ومساجدها ومآذنها وبيوتاتها (٦) حدود الصالحيه واختيار سكانها (٧) مغائر الجبل (٨) الجامع المظفري والجامع السليمي وجامع الشيخ محي الدين (٩) المدرسة العمرية .

✿✿✿

من مقتنيات دار الكتب الظاهرية بدمشق مخطوطتان نفيستان الأولى « ديوان عفيف الدين ابن سليمان التلمساني » مؤرخة سنة ٩٩٨ هـ وعليها تعليقات وتصحيحات قيمة . والثانية « السيرة الحلبية » لعلي بن برهان الدين الحلبي الشافعي المتوفى سنة ١٠٤٤ هـ وهي مؤرخة سنة ١١١٨ هـ .

العراق

من المطبوعات الحديثة في مدينة النجف ، كتاب عنوانه « الإمام السيد أبو الحسن » الموسوي الأصفهاني (١٢٨٧ — ١٣٦٥ هـ) وهو يتضمن سيرة هذا الإمام وعرضاً حسناً لتاريخ التقليد والاجتهاد وأسماء أهم المجتهدين عند الإمامية من العصر الأول حتى العصر الحاضر وجملة من المراثي المنثورة والمنظومة لطائفة من أعلام الأدب في العراق .

✿✿✿

جمع الأستاذ المحامي عبد الرزاق الظاهر ، ، قسماً من مقالاته ، وسمها بـ « صور من العراق » وهي تبحث في مشاكل العراق الحديث الاجتماعية والعمرانية .

✿✿✿

نشرت مكتبة المثنى ببغداد ، « خريطة العراق الحديث » فيها التقسيمات الإدارية والعشائر والمواقع الأثرية وطرق المواصلات والعوارض الطبيعية وهي بمقياس ١ : ٢٠٠٠٠٠٠ ولا يستغني عنها من يعنى بشؤون العراق .

✿✿✿

أصدر الشاعر الأديب مكي عزيز القرغولي ملحمته التاريخية الشعرية « محمد والخلفاء الراشدون » صور فيها سيرة النبي (ص) وأخبار الخلفاء الراشدين الأربعة .

✿✿✿

فرغ الأستاذ عبد الرزاق الهلالي من تأليف رسالة أدبية تاريخية بعنوان « ولادة وابن زيدون » ، وقد جعلها في فصول ستة ، تناولت وصف بلاد الأندلس وحياة ابن زيدون وولادة وعلاقات ابن زيدون بها وأخبار غرامه ومنافسيه في حب ولادة .

✿✿✿

طبع في النجف كتاب « الكواكب السماوية في شرح قصيدة الفرزدق العلوية » للأستاذ الشيخ محمد السماوي . وهو شرح مطول لقصيدة الفرزدق في مدح الإمام علي زين العابدين (ض) ضمنه مؤلفه كثيراً من الفوائد اللغوية والأدبية .

✿✿✿

نقل الأستاذ المحامي حسن زكريا ، عن الإنكليزية ، الفصل الخامس من كتاب « ما هي

القلسفة ؟ » للكاتب الأمريكي هوارد سلسام . وعنوان هذا الفصل « التاريخ والحرية : دراسة فلسفية » وهو من منشورات مكتبة الطريق ببغداد .

✡✡✡

فرغ الأستاذ روفائيل بابو إسحق من تأليف كتاب « تاريخ نصارى العراق » منذ عهد انتشار النصرانية في أنحائه إلى أيامنا ، ملخصاً فيه تقلبات أحواله عصراً بعد عصر ، ذاكراً أشهر علمائهم وكتابهم وما خلفوا من آثار مختلفة .

✡✡✡

وفرغ المقدم السيد محمد حسن المحاويلي من تصنيف كتاب « قلب اليمن » تناول فيه بالبحث تاريخ اليمن منذ أقدم العصور حتى الآن . وجغرافية البلاد ، وسيرة الإمام يحي وأنجاله ، ثم انتقل إلى وصف الحالة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية .

✡✡✡

من المطبوعات المهمة في النجف ، كتاب « مآثر الكبراء في تاريخ سامراء » للاستاذ الشيخ ذبيح الله المحلاتي تناول فيه بالبحث أسماء مدينة سامراء القديمة ، وبناءها ، وعمارتها في عصر المعتصم والواثق والمتوكل ، وما كان فيها من قصور وديارات وغيرها مما آل أمره الى الخراب . ثم التفت إلى سامراء الحديثة فوصف ما فيها الآن من مراقد مقدسة . وقد ألحق المؤلف بكتابة معجماً جغرافياً ذكر فيه البقاع والأمكنة في سامراء ونواحيها وحاضرها وماضيها .

✡✡✡

تكرم السيد محمد نجيب الجادر ، من سراة مدينة الموصل ، بإنشاء خزانة باسمه في دار الكتب العامة في الموصل ، وجهزها بكتب قيمة . وهذه هي المبرة الأدبية السادسة التى تلت مبرات أولاد الحاج أمين بك الجليلي ، والأستاذ سامي باش عالم المحامي ، والأستاذ محمود مفتي الشافعية، والأستاذ محمود بك الجليلي المحامي ، والسيد إسماعيل حقي .

الهند

من أهم الحوادث في تاريخ اللغة الأردية بالهند إنشاء الجامعة العثمانية بحيدر أباد ، التي أنشأها صاحب السمو نظام حيدر أباد في سنة ١٩١٧ وقرر تدريس جميع العلوم فيها باللغة الأردية فاستدعى الأمر إقامة دار الترجمة والتأليف لترجمة كتب العلوم الحديثة والقديمة ولتأليف الكتب المحتاج إليها حسب مناهج التدريس فيها ، وإلى تأسيس مجمع علمي لوضع الاصطلاحات العلميـة ، وقد قامت تلك الدار وكذلك المجمع بخدمات للغة الأردية لا يستهان بها .

فقد ترجم في تلك الدار منذ إنشائها إلى اليوم حوالي خمسمائة كتاب من أمهات الكتب عن لغات العالم المختلفة منها ٥٨ في الفلسفة وعلم النفس والمنطق والأخلاق و ١١٩ في تاريخ الإسلام وتاريخ الهند ، وتاريخ أوربا ، والتاريخ القديم والجغرافيا ؛ و٢٨ في الاجتماع والسياسة والاقتصاد ؛ و٢٣ في القانون والتشريع ؛ و٧٢ في الرياضيات والفلك والطبيعة ، والكيمياء وطبقات الأرض والنباتات وعلم الحيوان ؛ و٢٧ في علم الهندسة وفروعه المختلفة و٢٩ في علم الطب ؛ واثنان في علم التعليم .

أما المجمع فقد وضع منذ أن أنشئ إلى سنة ١٩٤٦ م ٨٣٧ كلمة اصطلاحية في الفلسفة و٦١٨ كلمة في التاريخ ، و١٧٢٩ كلمة في الاجتماع ، و٥٣٧٠ كلمة في التربية ، و١٨٠٠٠ كلمة في التشريع والقانون ، و ٥٣٧٠ كلمة في العلوم "Science" ، و ١٦٩٦ كلمة في الفلك ، و٢٠٠٠ كلمة في الطبيعة ، و ٢٤٥٢ كلمة في الكيمياء ، و ١٣٠٧ كلمة في طبقات الأرض ، و ٧٠٠٠ كلمة في علم الحياة "Biology" ، و ٤٠٠٠٠ كلمة في الطب ، و ١٠٠٠٠ كلمة في علوم الهندسة .

هذا عدا المجهود الذي بُذل ولا يزال يُبذل في اللغة من جانب الشعب بما تقوم به الجمعيات والأفراد من الأعمال العلمية بالترجمة والتأليف .

✡✡✡

تبرع المثري الكبير رتن شي بمائة وخمسة وعشرين ألف روبية لإنشاء المستشفى في مدينة كنتش "Cntchch" وهي المدينة التي ذكرها مؤرخو العرب في كتب الفتوحات باسم « قصّ »

✡✡✡

أقامت جامعة دهلي حفلة لتوزيع الشهادات الفخرية على كبار العلماء غير الهنود من أقطار العالم المختلفة .

شمال أفريقية

ازداد اهتمام العالم العربي بالبلاد العربية التي كانت تئن تحت كابوس الاستعمار الأجنبي ومن بينها ليبيا التي أصبحت موضع اهتمام كتاب العرب فراحوا ينشرون المقالات ويؤلفون الكتب عنها مطالبين بإنصافها ومنحها حقوقها كاملة في الحرية والاستقلال . ومن الكتب التي ستظهر قريباً في هذا الشأن كتاب للدكتور فؤاد شكري أستاذ التاريخ الحديث بالجامعة المصرية بعنوان «السنوسية دين ودولة»

✡✡✡

أصدر الأستاذ صالح بويصير الأديب الليبي المعروف في منتصف الشهر الماضي بمدينة بنغازي مجلة علمية أدبية اجتماعية سياسية حرة باسم « الفجر » وصدر العدد الأول منها مصدراً بمقدمة لسمو الأمير السيد محمد إدريس السنوسي ، حافلا بمقالات قيمه لكبار كتاب البلاد العربية الشقيقة .

✡✡✡

من نزلاء مدينة طرابلس الغرب الآن الأستاذ الفرنسي «أنوار» وهو من علماء النفس وقراء الأفكار في فرنسا ، وهو ينوي عقد بعض جلسات بطرابلس قبل سفره إلى مصر .

✡✡✡

أدخلت في معهد الفنون والصناعة بطرابلس الغرب صناعة الأدوات المنزلية الخفيفة المستخرجة من الزجاج والفخار ، وذلك أسوة بمعاهد الصناعة الحديثة في أوروبا .

✡✡✡

نشطت في طرابلس الغرب أخيراً حركة التمثيل المسرحي بين طلاب المدارس ، ومن بين

المسرحيات التي يمثلها طلاب المدارس الثانوية رواية « الفرسان الثلاثة » وهي رواية تاريخية تمثل مجد العرب التليد في شمالي أفريقية في عصر طارق بن زياد ، ورواية اجتماعية أخرى موضوعها « حذاقة الطبيب »

✡ ✡ ✡

أصدرت جريدة « برقة الجديدة » عدداً ممتازاً بمناسبة توقيع المعاهدة الإيطالية وتخلي إيطاليا نهائياً عن مستعمراتها في أفريقيا ، وقد احتفل احتفال رائع في جميع أنحاء ليبيا بهذه المناسبة .

✡ ✡ ✡

أصدرت أخيراً مكتبة المنار التونسية الجزء الثلاثين من القرآن الكريم برواية الإمام ورش عن نافع المدني مضبوطاً عن « مورد الظمآن » .

وأصدرت مطبعة الشريف بتونس للأستاذ محمد عطية مدير المدرسة الصادقية بمساعدة المرشدين السيد محمد ابو جميل والسيد عمر الجمالي المدرسين بالمدرسة كتاب « أصول التعليم الصحيحة » لتعليم القراءة والكتابة نحا فيه المؤلفون ناحية تسهل على المبتدئين تعلم العربية .

وأصدرت المطبعة الفنية بتونس ديوان « دموع وعواطف » للأستاذ الرزوقي ، وهو من شعراء الشباب التونسيين المنتجين. وأصدرت مطبعة النهضة للأستاذ المرزوقي أيضاً الجزء الأول من سلسلة أحاديث السمر ، وهو محاولة ناجحة لبناء القصة التونسية .

✡ ✡ ✡

وأصدرت مطبعة صابي بتونس كتاباً بالفرنسية عن « تاريخ تونس » تأليف ا . فيرو تناول فيه تاريخ تونس في العصور القديمة والغزوات العربية من القرن السابع الميلادي إلى القرن التاسع .

وظهر بالفرنسية أيضاً كتاب « تاريخ إفريقية الشمالية » تأليف بيار جلابير ، وهو بحث في جغرافية البلاد والحضارة القرطاجنية وحضارة الرومان والحضارة النصرانية وزحف البرابرة والحضارة العربية ، والأتراك في تونس والجزائر ، وفتح الجزائر وتونس ، وأثر المدنية الفرنسية فيهما .

✡ ✡ ✡

وفد إلى القاهرة في هذا الشهر الأستاذ محمد العربي العلمي مدير مدرسة ولي العهد الأمير مولاي الحسن بالدار البيضاء ، ليعمل على توثيق أواصر التعاون الثقافي بين المغرب وسائر بلاد العروبة ، بعد أن ظلت مراكش — كسائر بلاد إفريقية الشمالية — في عزلة تامة عن سائر البلاد العربية زهاء سبع سنين . وقد كانت زيارة الأستاذ العلمي لمصر ، بعد زيارة الدكتور محمود عزمي لبلاد أفريقية الشمالية عاملا له أثره في تنبيه الذهن إلى مايقتضى من بذل الوسائل لوصل ما بين الشرق العربي والغرب العربي من أسباب التعاون العلمي والثقافي .

وقد زار في سبيل مهمته صاحبي المعالي وزير المعارف ورئيس الديوان الملكي ، وسعادة الأمين العام لجامعة دول العرب ، وفضيلة المدير العام للازهر . وسعادة الدكتور طه حسين بك وغيرهم من الشخصيات العلمية الكبيرة .

✡ ✡ ✡

في المغرب العربي اليوم نهضة ثقافية تبشر بالخير ، وقد اعتزم القائمون على شؤون التعليم في بلاد المغرب على تكوين مكتبة تعليمية خاصة بتلاميذ المدارس المغربية ، تلائم طبيعة تلك البلاد وما تحتاج إليه في نهضتها الثقافية الحديثة .

وقد بدأ هذا الجهد بإصدار سلسلة كتب للمطالعة ، لتلاميذ تلك المدارس ، أخرجتها دار المعارف للطباعة والنشر بالقاهرة ، بإشراف طائفة من خيرة الأساتذة المشتغلين بالتعليم في تلك البلاد .

انجلترا

« صقر الصحراء » [Desert Hawk by W. Blunt] عنوان كتاب ظهر أخيراً عن حياة المجاهد المعروف عبد القادر وقصة كفاحه الباسل خمسة عشر عاماً للغزو الفرنسي في بلاد الجزائر .

✡ ✡ ✡

عرض للبيع بالمزاد العلني خلال شهر مارس كتاب من أقدم الكتب المطبوعة في العالم هو توراة جوتنبرج ، وينتظر أن يتراوح ثمنه بين عشرة آلاف وعشرين ألف جنيه . ويقال إن الدكتور روزنباخ أشهر جامعي الكتب النادرة سوف ينوب عن جامعة ييل بأمريكا في محاولة الحصول على هذه النسخة .

✡ ✡ ✡

في كتاب تبلغ صفحاته حوالي الثلثمائة ، أخذوا في إعداده منذ ثلاث سنوات ، نشر مجلس مقاطعة لندن مشروعه الخاص بإعادة تنظيم مدارس لندن وبنائها . وقد قدرت النفقات اللازمة لذلك بمبلغ ١٨٧ مليوناً من الجنيهات تصرف خلال ثمانية عشر عاماً .

✡ ✡ ✡

صدر في الأسبوع الأول من شهر مارس كتاب اللورد مونتجومري عن الحملة الأوربية بعنوان «من نورماندیا إلى البلطيق» [Normandy to the Baltic by F.M. Viscount Montgomery] . وقد طبع في ألمانيا منذ عام مضى وقصر تداوله على الضباط العظام ؛ لكن يقال إن الطبعة التي سيقرؤها الجمهور تحوي كافة ما تضمنته تلك النسخة الخاصة وما بها من خرائط ورسوم ، وإن وضوح الفكرة فيه وبساطة العرض توطئ هذا الكتاب ، الذي تناوله القواد بالدراسة ، إلى مستوى أي صبي في سن العاشرة .

✡ ✡ ✡

مما أتى من روسيا أخيراً أن أعضاء الهيئات السياسية الأجنبية هناك قد أخذوا يعنون بدراسة كتيب هو أكثر الكتب رواجاً في بلاد السوفييت ، وهو ينسب إلى قلم ستالين نفسه ، وهو « دراسة موجزة لتاريخ الحزب الشيوعي في اتحاد السوفييت » . وقد طبع من هذا الكتاب منذ أن ظهر لسبع سنوات مضت ، ٢١ مليون نسخة في ستين لغة .

✡ ✡ ✡

أذيع أخيراً أن العلماء الذين يشتغلون هنا « بالمعمل الوطني لعلوم الطبيعة » بصدد الاهتداء إلى جهاز « للذاكرة » يضمونه إلى ماذكرناه قبلا عن « الدماغ الكهربائي » وهو الاسم الشائع لآلة الإحصاء التي تستطيع في ثوان التوصل إلى حلول أشد المسائل الرياضية تعقيداً . بينما يتطلب حلها من أذكى العقول الإنسانية أسابيع بأكملها .

✡ ✡ ✡

سوف تجري خلال شهر إبريل على الشاطئ الجنوبي الغربي لإنجلترا تجربة الطائرات التي تفوق سرعتها سرعة الصوت . وهي طائرات آلية لا يضبط قيادها طيارون ، وينتظر أن تبلغ سرعتها ثمانمائة ميل في الساعة على ارتفاع ثلاثين ألف قدم .

✡✡✡

يصدر عما قريب كتاب للمفكر المعروف الدوس هاكسلي بعنوان « العلم والحرية والسلام» [A. Huxley : Science, Liberty and Peace] يدور حول أخطار المعرفة العلمية على حضارة العالم ويعرض ما يراه من علاج .

✡✡✡

« الهنود في جنوبي أفريقيا » [Shafa'at Ahmad Khan : The Indians in South Africa] كتاب يتضمن مجموعة كبيرة من الأحاديث والخطب التي ألقاها أحد رجال السياسة في الهند هو شفاعة أحمد خان ، تلقي ضوءاً على مشكلة الأجناس في تلك البلاد ، وما يتصل بحقوق الهنود في اتحاد جنوب أفريقيا وأحوالهم السياسية والاجتماعية والثقافية .

✡✡✡

كان المستر تشرشل قد أعلن في مطالع عام ١٩٤٤ أن الحكومة الإنجليزية قد قررت العمل على تشجيع اللغة « الإنجليزيه القاعدية » « Basic English » . وقد نشر أخيراً أنه قد تقرر شراء حقوق طبع ونشرهذه اللغة التي تبلغ عدد كلماتها ٨٥٠ كلمة فقط بمبلغ ٢٣ ألفاً من الجنيهات . حتى يستطيع المجلس البريطاني ووزارة الخارجية العمل على نشر هذه اللغة في العالم كلغة دولية .

✡✡✡

أتى من أمريكا أن الأوراق الخاصة بالرئيس أبراهام لنكولن المحفوظة بمكتبة الكونجرس سوف يؤذن بالاطلاع عليها هذا الصيف . ذلك لأن ابنه حين وهبها اشترط أن تبقى سراً إحدى وعشرين سنة بعد وفاته ، وقد توفي عام ١٩٢٦ . ورجح أنه اشترط ذلك لأن بها بعض ما يمس من كانوا أحياء إلى ذلك العهد . وهذه الأوراق تشغل عشرة صناديق ، وتضم على الأغلب كثيراً من الوثائق والرسائل التي تتصل بالحرب الأهلية في أمريكا .

✡✡✡

« زوجتي الصينية » [My Chinese Wife by Karl Eskelund] كتاب ممتع بقلم صحفي دنمركي نشأ في الشرق ثم عاد إليه وتجول بين بلاده ورأى كثيراً من الأحداث فيه خلال الحرب الأخيرة . وتزوج سيدة من الصين وخبر الحياة هناك عن كثب . وهو يقص في هذا الكتاب في أسلوب شائق حياته التي حفلت بكثير من ألوان الخبرة في الشرق والغرب .

✡✡✡

« البريطانيون في بلاد الهند » [The British in India by Griffiths] كتاب بقلم أحد الإنجليز ممن اشتغلوا بحكومة الهند زمناً ، يحاول فيه أن يعرض تاريخ الإنجليز هناك عرضاً محايداً ، فيسرد ما نجحوا وما فشلوا فيه ثم يصل إلى القول بأن الهند قد وصلت إلى حال لا يجدى فيه إلا أن تترك وشأنها وأن يتحقق استقلالها التام .

أمريكا

احتفلت الأمة الأمريكية في ١٢ فبراير سنة ١٩٤٧ بمرور ١٣٧ عاماً على ميلاد إبراهام لنكولن بطل تحرير العبيد وموطد أركان الوحدة والديمقراطية في أمريكا .

☆☆☆

واحتفلت الهيئات العلميـــة في أمريكا في يوم ١١ فبراير سنة ١٩٤٧ بالذكرى المئوية لمولد توماس إديسون مبتكر المصباح الكهربي الذي توفي في عام ١٩٣١ . وقد أقيم له نصب تذكاري على شكل منارة ستظل مضيئة باستمرار تخليداً لذكرى الرجل الذي منح العـالم نور المصباح الكهربي .

☆☆☆

واحتفلت معامل شركة « بل » في ٣ مارس سنة ١٩٤٧ بعيد ميلاد ألكسندر غراهام بل مخترع آلة التليفون . وقد أعدت لهذه المناسبة تمثالا نصفياً له رفعت الستار عنه كريمته .

وقد نقشت على قاعدة التمثال هذه الكلمات المأثورة عن غراهام بل نفسه وهي : « دع الطريق المعبد أحياناً وسر في الغابات إذ لابد من عثورك على شيء لم تره من قبل ! » . وقد أعدت الشركة لهذه المناسبة أيضاً مخاطبة تليفونية بعيدة المدى شملت عشرة آلاف من الأميال مابين كريمته وحفيدته .

☆☆☆

ينظم معهد الدراسات السامية والإفريقية متحداً مع المعهد الفيلولوجي والتاريخي للشرقيين والصقليين سلسلة من المحاضرات التاريخية عن الكنعانيين والعبرانيين والفينيقيين وعن اللغات السامية . وسيكون بين المحاضرين الدكتور أحمد زكي أبو شادي إذ سيلقي محاضرة عن الوجهات الأممية للأدب العربي .

☆☆☆

اهتم كثير من العلمـاء الأمريكيين بنبأ العثور قريباً من جوهانسبرج في جنوبي أفريقيا على جمجمتين لإنسانين يرجح أنهما كانا يعيشان منذ ثلاثة ملايين عام مضت . ويهتم العلماء الآن بدراسة هاتين الجمجمتين لعلهما تلقيان ضوءاً على صحة نظرية النشوء والتطور .

☆☆☆

تعد الآن حوالي تسعة مراكز رصد في الأرجنتين والبرازيل بأمريكا الجنوبية لرصد كسوف الشمس الذي سيقع في ٢٠ مايو المقبل . وسيشترك في هذا الرصد فلكيون من الأمريكتين ومن إنجلترا ونيوزيلندا . وينتظر أن ينضم إليهم فلكيون آخرون من أوروبا .

☆☆☆

أقامت جمعيات النهضة العربية الهاشمية ، والباكورة الدرزية ، والجمعية الأمريكية الإسلامية في ديترويت ميشغن حفلة تأبين لفقيد الأمة العربية الأمير شكيب أرسلان حضرها مندوبون عن الجمعيات والهيئات الوطنية والرؤسا. الروحيين والجرائد العربية .

☆☆☆

من الكتب التي صدرت أخيراً كتاب « أينشتين : حياته وأوقاته » تأليف فيليب فرانك : [Einstein, His Life and Time by Philipps Franck] الأستاذ بقسم الطبيعة بجامعة هارفارد

الأمريكية . ويعتبر هذا الكتاب أول مؤلف عن حياة هذا العالم المعاصر الشهير بقلم عالم طبيعي معروف وأحد أصدقائه المقربين . وهو يحاول في هذا الكتاب أن يصور حياة أينشتين الخاصة ويسرد تاريخ حياته ، كما يقرب إلى الأذهان فلسفته وآراءه العلمية . والكتاب مترجم عن الألمانية بقلم جورج روزن .

✲ ✲ ✲

« مستقبل الإنسانية » بقلم ليكومث دي نوي . [Human Destiny by Lecomte du Nouy] يهاجم المؤلف في هذا الكتاب المذهب المادي "Materialism" والمذهب الجبري "Determinism" وفكرة الاحتمال أو المصادفة التي اعتنقها كثير من العلماء المعاصرين محاولين بذلك إرجاع جميع الظواهر الطبيعية إلى مجرد المصادفة ، كما أنه يهاجم الرأي القائل بنشوء الحياة على سنة التطور من الكائنات غير الحية ، ويؤيد بطريقةعلمية فكرة الغائية التي تذهب إلى أن الظواهر الطبيعية إنما تؤدي غاية مرسومة ، وليست تجري اتفاقاً . وأن فكرة الغائية هذه تؤدي منطقيا إلى الاعتقاد بالألوهية وبالخلق .

✲ ✲ ✲

« الهند المقسمة » : بقلم روبرت أورا [Divided India by Robert Aura] كتاب يشرح الحالة السياسية السائدة الآن في الهند ويشير إلى الانقسام السياسي الناشئ عن الخلاف بين المسلمين والهندوس حول مشروع الباكستان ، كما يتعرض لشرح مظاهر الانقسام الأخرى . ويبين أثر هذه الانقسامات العديدة في تأخير استقلال الهند السياسي وتمتعها بالحكم الذاتي .

✲ ✲ ✲

« قاموس كولومبيا للأدب الأوربي الحديث » . قام بنشره هوراتيو سميث [Columbia Dictionary of Modern European Literature by Horatio Smith.] . وهو كتاب ضخم اشترك في تأليفه كثير من الكتاب الأمريكيين والأوربيين تناول الحركات والمدارس الأدبية المختلفة التي نشأت في البلدان الأوروبية في الخمس والسبعين سنة الأخيرة . كما تناول جميع الأدباء والكتاب المشهورين الذين ظهروا في هذه البلاد في هذه الفترة . ويبلغ عدد الأدباء الذين شملتهم هذه الموسوعة حوالي ١٢٠٠ أديب مع ذكر أهم مؤلفاتهم .

✲ ✲ ✲

« مستقبل الصين ونظرية الاقتصاد الصينية » بقلم تشيانج كاي شيك [China's Destiny and Chinese Economic Theory by Chiang Ka-Sheck] . وهو عبارة عن رسائل وخطب له قام بنشرها رجال النشر الأمريكيون لأنها تعبر عن آراء ونظريات وفلسفة أحد رجال السياسة المشهورين الذين أسهموا في توطيد السلام العالمي .

✲ ✲ ✲

« الفلسفة الروسية » بقلم جون سومرفيل الأستاذ بجامعة كولمبيا بنيويورك . [Soviet Philosophy by John Somerville] . ويعطي هذا الكتاب صورة دقيقة للعقلية الروسية ولطرائق تفكير الرجل الروسي ولآرائه وفلسفته .

من لبنان إلى مصر

للأستاذ شبلي الملاط بك

نزلتُ اليوم في الوادي السعيدِ ... على عهدٍ من الدنيا جديدِ
رفعتُ إلى ذرى الهرمين طرفي ... فدلاّني على المجد الوطيدِ
على الآثار من جيلٍ لجيلٍ ... مخلدة إلى أبد الأبيدِ
تعاقبت القرون فمن هبوطٍ ... تمر به القرون ومن صعودِ
وظلتْ مصر في مدٍّ وجزرٍ ... بجيد الشرق كالعقد الفريدِ
أليستْ مصر مورد كل صادٍ ... إذا ازدحم الوفود على الورودِ ؟
أليست مفزع الأحرارِ دوماً ... ومأمن كل مظلومٍ طريدِ ؟
أما خلعت ، وتخلع كل يومٍ ، ... على لبنانَ ضافية البرودِ ؟
حمت أحراره زمناً ومدّتْ ... إليه ذراع ذي مِقَةٍ ودودِ
ومد ذراعه شوقاً إليها ... كذاك يحن ذو القلب العميدِ
ولو نشر القدير لنا « بشيراً » ... و « إبرهيم » من ظُلَم اللحودِ
لقرّت منهما العينان بشرا ... بتجديد القديم من العهودِ
هو « الفاروق » ذو الرأي السديد ... يحالف صاحب الرأي السديدِ
أعاد « بشارةٌ » ومليك مصر ... بحلف اليوم أمجاد الجدودِ
لعينك يا بلادَ الأرْز فوز ... بتحطيم الأداهم والقيودِ
ومرحى أيها الوادي المفدّى ... ومربض كل جحجاحٍ نجيدِ
فإنا ما يشاء بنوك شئنا ... من استقلال آفاق الصعيدِ
أرادوا وحدة الوادي وإنا ... لما طلبوه من بعض الجنودِ
نجالد ما استطعنا لا نبالي ... متى عبأ الأعزّة بالوعيدِ
وكم دون التحرر من قتيل ! ... وكم دون الكرامة من شهيدٍ !
بلبنان الجلاءُ أصاب عيداً ... وفي مصر سنشهد أيَّ عيدِ

* * *

عذارى النيلِ هيئن الأغاني ليوم الفوز والعيد المجيدِ
وغنّين السيادة والمعالي على نغم القصائد والنشيدِ
ورنّحن القدود بكل لحن سماويّ على ميس القدودِ
وشاركن الشباب ، وكل حر يموت ولا يعيش من العبيدِ !

* * *

فتاة النيل إنك روح مصر بآتيها وموقفها العتيدِ
بلغت من الرقيّ اليوم شوطاً وإنك تطمحين إلى المزيدِ
تتبعت «الهدى» خطواً فخطواً إلى الأخلاق والنهج الرشيدِ
إذا شوك العنا أدمى فؤاداً شفيت جراحه بشذا الورودِ !

* * *

أرى عرشين : عرش مليك مصر فتى المجد المجدّد والتليدِ
سليل لابن « إسمعيل » فذّ فأعظمْ بالسلالة والحفيدِ
لقد نصر العلوم وكل فنٍّ وأحيا عصر هرون الرشيدِ !
وعرشاً للتي هزت يداها وراء خبائها مهد الوليدِ
وأيدها به الفاروق لطفاً ورقّ وقال : حقك أن تسودي
لأنك دولة بالحب رانت على قلب المسوّد والمسودِ
ولكن أيها المولى المرجّى : هواك دم الترائب والوريدِ
وهيكله المقدس في صدور لشعب لا يمل من السجودِ
وطوع هواك « جامعة » أهابت بعز العرب في الزمن البعيدِ
لئن يعرض لها أصحاب بأس لقد يشق الحديد من الحديدِ
لها في كل ناحية حدود وتأبى أن تنام عن الحدودِ
أجامعة العروبة في عرين ونازلة على غاب الأسودِ
ألا عزي بأرضك واستقلي وزيدي من جهادك واستزيدي

ودوناك في فلسطين الضحايا　　وناراً لا تبشّر بالخمود
فإن لم يعرفوا للعرب حقا　　فإن النار دائمة الوقود
ولكني أخو فأل بيوم　　به نجنين أثمار الجهود

✡✡✡

«خليل» أتيت وادي النيل صبًّا　　إليه معالجاً بعض الصدود
وقدماً جئتُ في الركب الوئيد　　وجئت اليوم في الركب الوخيد
على ذات القوادم والخوافي　　طويت الجوّ في خفق شديد
ومن قصد الحبيب فليس يخشى　　يد الأقدار في جوّ وبيد
أخا الصفحات بيضاً ناصعاتٍ　　وربَّ النثر والدر النضيد
وصاحب «حافظ» ورفيق «شوقي»　　ووامق طلعة النشء الجديد
ليهنك ما تراه من زحام　　على ذا المهرجان ومن وفود
ومن ربات أقلام وغيد　　ومن صيّابة غرّ وصيد
أطلوا يملؤون العين حسنا　　بنور في المباسم والخدود
على الإخلاص قد وفدوا شهوداً　　وإن الأرز في عدد الشهود
يتيه بعرسك الأدبي فخراً　　ويمشي فيه مرتفع البنود
أرى سمة الشباب إليك عادت　　أيا سمة الشباب إليَّ عودي
فإن مكارم «الفاروق» ردت　　إلى العشرين عشرات العقود

✡✡✡

ألا خلد الذي من راحتيه　　تسح غمامتا كرم وجود
ونال بظله الوادي مناه　　على عيش من الدنيا رغيد

✡✡✡

مليك النيل باسم الأرز أدعو　　لصنو النيل بالعمر المديد
وددت لك الخلود، وأي حي　　من «الفاروق» أولى بالخلود
جمال النيل «فاروق» وسحر　　وبسمات على ثغر الوجود

شبلي الملاط

فهرست المجلد الثالث

من مجلة الكتاب

١ — الكتّاب

إبرهيم إبرهيم يوسف ٤٠٠
إبرهيم جمعة ٥٦ ، ٨٦٩
إبرهيم الدباغ ٤٥١
إبرهيم محمد نجا ٧٧٩
أحمد أمين ٢٢
أحمد بدوي ٦٥٩
أحمد جدايل ٢٥٥
أحمد فؤاد الإهواني ١٣٩ ، ٦٣٥ ، ٩١١ ، ٩٢٢
أحمد محفوظ ٥٨٩
أحمد محمد شاكر ٢٩٤
إسحق رمزي ٨٠٧
إسمعيل مظهر ١٢٦
باهور لبيب ٨٠٠
بعضهم ٣٥٠
بنت الشاطئ ٢٦٩
توفيق اليازجي ٦٤٣
جمال الدين الشيال ٦٣٦
جميل خانكي ٢٧٢
جميل سلطان ٧٧٥
جورج حداد ٢٢٥
جورج دهامل ٦٨٤
حسن عبد السلام ٢٠٩ ، ٨٧٤
حسن عبد الوهاب ٣٧٩
حسنين حسن مخلوف ٥٤٦
الحصين بن الحمام المري ٧٧٤
خالد خلف التيلجي ٥٠٨
خلدون الكناني ٧٣٩
خليل مطران بك ٤٥٠ ، ٩٤٣
خليل هنداوي ٣٩٤ ، ٧٩٢
رئيف خوري ٤٥١
راشد البراوي ٢٤٧
رشدي ماهر ٥٩٩
رفائيل بطي ٢١٢ ، ٥٦٦ ، ٧٤٧
زكي محمد حسن ٣٥ ، ٥٥٨ ، ٧٢٥ ، ٨٨٠
زين العابدين عبد القادر ٥٠٨
سامي عازر جبران ٢٥٩
سامي الكيالي ٤٣٧
سعد بن ناشب ٩٣٠
سلامة موسى ٧٠٥
سليمان عزمي باشا ٣٦٨
سيد قطب ٢١٧ ، ٦٦٨
شبلي الملاط ٩٣١ ، ٩٦١
شفيق جبري ١٠٤ ، ٨٥٤
شهرزاد ١١٠
شوقي ضيف ٦٤٥
صبري جرجس ٣١٩
صديق شيبوب ٩١٥
أبو الصلت أمية الأندلسي ٥٧٥ ، ٧٥٨
ابن الطثرية ٤٤٩
عادل زعيتر ٣١٠
عادل الغضبان ٣ ، ١٢٤ ، ١٩٣ ، ٣٥٦ ، ٥١٦ ، ٦٧٠ ، ٦٧٦ ، ٨٣٦ ، ٩٣٩
عباس عبد القادر ٦٧٠
عباس محمود العقاد ١٠ ، ٢٨٨ ، ٣٦٢ ، ٥٢٢ ، ٦٨٨ ، ٨٨٧ ، ٩٣٥

عباس مصطفى عمار ٨٨
عبد الجواد جومرد ٥٩٤
عبد الحميد العبادي ٦٦٦
عبد الرحمن الخميسي ١٢٠
عبد الرحمن صدقي ١٧١ ، ٤٥٣ ، ٦٠٠
عبد السلام فهمي ٧١٦
عبد السلام محمد هارون ٥٧٥ ، ٧٥٨
عبد الملك السيد ٥٠٦
عبد الملك صالح ٥٠٩
عبد المنعم خلاف ٧٣٥
عدنان اسعد ٥٠٩ ، ٦٦٩
عز الدين فراج ٨٧٧
علي إبرهيم حسن ٢٢٨
علي الجارم بك ٤٠٤، ٥٢٧، ٧٠٠، ٨٤٠
علي الجندي ٢٨٣
علي شرف الدين ٤٥٥
عمر أبو قوس ٢٨٥ ، ٧٨٠
عوض جندي ٢٣٩
عوف بن عطية التيمي ٢٨٢
فؤاد صروف ٥٣٤
فدوى عبد الفتاح طوقان ٥٩٢
الفند الزماني ٥٨٨
فوزي المعلوف ٢٨٤
قارئ ٣٥٠
أبو محجن ١١٩
محسن جمال الدين ٦٦٨
محمد الأسمر ٩٣٨
محمد حامد الفقي ٩٠١
محمد روحي فيصل ٧٦٥
محمد صلاح الدين بك ١٣٦
محمد طلبة رزق ٣٢٨
محمد عبد الغني حسن ١٤٥، ٦١٤، ٩٤١
محمد عبد الله عنان ٦٩٣ ، ٨٤٦
محمد عثمان نجاتي ٥٥٣
محمد علي علوبة باشا ٤٢٩
محمد غلاب ٧٧
محمد فريد أبو حديد بك ٦٦
محمد لطفي جمعة ٤٥
محمد محمود زيتون ١٢٢
محمد علي قرة ١٢٤
محمد منصور خضر ٥٠٧
محمد يحي الهاشمي ٧٨١
محمود إبرهيم الدسوقي ١٧٢، ٥٨٢
محمود توفيق الحفناوي باشا ١٧
محمود تيمور بك ٥٤٢، ٧١٣
محمود عماد ٧٧٧
محمود اللبابيدى ١٥٨
مختار الوكيل ٥٩٦
مصطفى جواد ٣٤٨ ، ٨٥٨
مصطفى عبد الرازق ٨
مصطفى القوني ٨٩٤
م . ك . بولاد زكي ٤٨٤
ميخائيل نعيمة ٢٠٤
نجاتي صدقي ٦٠٨
أبو النصر أحمد الحسيني الهندي ٢٦، ٤٢٦
وداد سكاكيني ٤٥٨ ، ٧٩٧
يوسف مراد ٩٧ ، ٣٢٥
يوسف يعقوب مسكوني ٤١٢

٢ — الموضوعات

أصوات وأصداء ٣٥٣ ، ٥١٣ ، ٦٧٣ ، ٨٣٣

افتتاحيات

إبرهيم الدباغ شاعر الإنسانية	٦٧٦	عروس القصائد	١٩٣
أحلام	٣٥٦	العطلة الكبرى	٥١٦
الأمل	٣	مهرجان الخليل	٨٣٦
تهنئة	٢		

أحاديث الكتاب

تحالف الشرق والغرب	٦٧٤	المدنية الحديثة والحياة الدينية	٨

حديقة الأفكار

الإسكندرية في العصر الإسلامي	٣٧٩	الطاقة الذرية بين النفع والسيطرة	٥٣٤
الألماس	٨٧٤	عراق الغد	٢١٢
أول مجمع علمي عربي	٨٦٩	عظمة الفاطميين	٢٢٨
أولادنا	٦٦	على بساط الريح عبر المحيط	٥٤٢
بين البحر والصحراء	١٠٤	العناصر الإنسانية في أدبنا الحديث	٤٥
بين ضجيج الآلة وأنات النواعير	١٧	فلسفة الضحك	٦٨٨
تاريخ الغزل العربي	٩٧٣	فلسفة « يوج » الهندية	٤٢٦
تذوق الجمال	٩٧	في معرض الآثار الإسلامية	٧٢٥
التفاهم الدولي	٢٦	قراءة في كتاب الكون	٧٣٥
تكهرب النبات وعجائبه	٧١٦	قواعد النقد الأدبي بين الفلسفة والعلم	٢١٧
تنظيم السلم الأوربي ومصير ألمانيا المغلوبة	٦٩٣	لذات العقل والروح	٨٥٤
الثقافة العربية بين التعثر والنهوض	٥٤٦	متحف علي إبرهيم	٨٨٠
الحب عند ابن عربي	٣٩٤	مجاعة الغذاء في العالم	٤٠٠
الحكم الذاتي للهند	٨٤٦	مجرمو الحرب	٢٥٩
الذكرى المئوية للكشف عن نبتون	٢٥٥	مجلس الدباغ	٧١٣
الذين قتلتهم أشعارهم	٥٢٧ ، ٧٠٠ ، ٨٤٠	محاكمة الحيوان	٨٧٧
رسالة الجامعات في المجتمع الحديث	٨٨	المدرسة الرمزية	٣٦٢
رسوم الحيوان والنبات في التصوير الهندي الإسلامي	٥٥٨	مدارس واسط مدينة الحجاج	٤١٢
سكلوجية الأخطاء عند فرويد	٥٥٣	مستقبل المتاحف والآثار بمصر والشرق العربي	٣٥
الشيخوخة	٣٦٨	مستوى المعيشة في بلاد الجامعة العربية	٢٤٧
الصمامات الكهربية	٢٣٩	مشكلة الفلاح	٧٧
صناعات عزيزة	٥٦	المعارضات في الشعر العربي	٤٠٤

مهرجان العروبة	٢٢٥	الوجودية أو الوجدانية	١٠
مهماز البقاء	٢٠٤	الوضع الاقتصادي يقرر النظام الاجتماعي	٧٠٥
مؤرخ الأهرام وأبي الهول	٨٥٨	وقودنا الأول مهدد بالنفاد	٣٠٩
النبي المنتظر	٢٢		
الهجرة	٥٢٢		

عالم المرأة

حقوق المرأة وواجباتها	٤٢٩	المرأة والتصوير	١١٠
مخطوطات من الفن النسوي	٢٦٩		

أعلام النهضة

أنستاس ماري الكرملي	٧٤٧	شكيب أرسلان	٥٦٦
حسن الإسكندراني	٢٧٢	عبد الرحمن الكواكبي	٤٣٧
شبلي شميل	١٢٦	مصطفى عبد الرازق	٨٨٧

نوادر المخطوطات

الرسالة المصرية	٥٧٥ ، ٧٥٨

من محيط الغرب

الأدب الفرنسي في طور النشوء	٧٦٥	نظرة في أدب الألمان	٥٨٢

في ظلال الوحي

أحلام الربيع	١٢٢	ذكرى اليازجي	٩٣١
الأمل الحائر	١٢٤	الرسل	٢٨٥
بث الشكر	٩٤٣	الروض المستباح	٥٩٢
بيني وبين الدهر	٤٥٩	السباحة الشقراء	٧٧٧
ترانيم روحية	١٢٠	شاعر	١٢٤
توقيع	٤٥٠	شمم	٢٨٢
الجندي المجهول	٤٥١	صبر	٧٧٤
جوانب الطور	٩٤١	عتاب	٤٤٩
حفلة راقصة ودموع	٤٥٥	عيد الشعر	٩٣٤
حنين	٢٨٤	غاية الإطراء	٩٣٥
الحمار الأعظم	٧٨٠		

غضبة ٥٨٨ — معلم الجيل ٩٣٨
فتنة السيقان ٢٨٣ — من لبنان إلى مصر ٩٦١
في بدء الخليقة ٤٥٣ — مولد القوة والإخلاص ٧٧٥
في ملعب الحياة ٥٨٩ — نشوة الألحان ٥٩٦
لقاء ٧٧٩ — همة ٩٣٠
مباراة شعرية ٩٤٥ — الوردة البيضاء ٥٩٩
المرأة أو حية فلتير ٤٥١ — يسر بعد عسر ١١٩

المسرح والخيالة

أرستوفان والمسرح الهزلي ٩٢٢ — الوجوه الجديدة بين القول والعمل
المسرح الغنائي الإيطالي ٦٠٠ — وبين الشكل والموضوع ١٣٦

دنيا القصص

أيام من العمر ٦٠٨ — الشعاع الخابي ٤٥٨
حكايات البارون فون منشهوزن ١٧٢ — عبث الشيطان ٩١٥
خردلة بوذا ٧٨١ — فتاة الغورية ٣٢٨

في كفة الميزان*

اتجاه التأليف في سنة ١٩٤٦ (ب) ٤٦٣ ، ٧٨٥
الأدب المصري القديم (ت) ٩٠٢
٤٠ يوماً في لندن (ت) ١٥٧
الاستعمار (ن) ٨٩٤
أوديب وثيسيوس (ت) ٦١٨
تاريخ حكماء الإسلام (ت) ٩٠٤
تاريخ المساجد الأثرية التي صلى فيها فريضة الجمعة جلالة الملك فاروق (ت) ٣٠٤
التصوف في مصر إبان العصر العثماني (ت) ٦٢١
الحجاج (ت) ٦٢٧
حرب البترول في الشرق الأوسط (ت) ١٥٤
الحرية (ت) ٦١٩
حضارة العرب (ر) ١٥٨ ، ٣١٠
الحل السعيد (تقريظ) ١٧١
خطب (ت) ١٥٥
دفاع عن العلم (ت) ٩٠٤
ديكارت (ت) ٣٠٩
الرسالة الخالدة (ت) ٣٠٦
الشيخوخة الخضراء (ت) ٩٠٧
صفحات مطوية (ت) ٣٠٥
صور من التاريخ العربي (ت) ٦٢٢
عربة التفاح (ت) ٣٠٧
عصر السريان الذهبي (ن) ٦١٤

* اختصارات الفهرست : ب = بحث . ت = تعريف . ن = نقد . ر = رد

علم النفس الفردي (ن) ١٣٩
علم النفس الفردي (ر) ٣٢٥ ، ٦٣٥ ، ٨٠٧ ، ٩١١
العلويون من هم وأين هم (ت) ٨٠٦
الغرر التاريخية في الأسرة اليازجية (ت) ٦٢٤
الغدير في الكتاب والسنة والأدب (ت) ٨٠٤
فقه القرآن والسنة (ن) ٢٩٤
الفن ومذاهبه في النثر العربي (ن) ١٤٥
الفن ومذاهبه في النثر العربي (ر) ٦٤٥
في موكب الشمس (ر) ٦٢٩
قصة الإلياذة (ن) ٧٩٧
قضية فلسطين (ت) ٦٢٦
كتب وشخصيات (ن) ٧٩٢
كرم على درب (ن) ٢٨٨
محاضرات نقابة المحامين في حلب (ت) ٦٢٨
مختصر تاريخ الحضارة الغربية في الأزمنة الحديثة (ت) ٨٠٥
المرأة في مختلف العصور (ت) ٩١٠
مرحلة وأجواء (ر) ٦٤٣
المسند (ت) ٩٠٠
مشكلة السلوك السيكوباتي (ر) ٣١٩
من صميم لبنان (ت) ٦٢٣
الناطقون بالضاد في أمريكا (ت) ٩٠٨
نابليون ومحمد علي (ت) ١٥٣
نحل عبر النحل (ر) ٦٣٦
نظام الحكم في العراق (ت) ٩٠٦
هيرودوت في مصر (ن) ٨٠٠
يسألونك (ت) ٨٠٢
يقظة العرب (ت) ١٥٦

أنباء

مصر ١٧٨ ، ٣٣٤ ، ٤٩٠ ، ٦٥٠ ، ٨١٨ ، ٩٤٦
السودان ١٨٠ ، ٣٣٦ ، ٤٩٣ ، ٦٥٤ ، ٨٢٠ ، ٩٤٨
فلسطين ١٨١ ، ٣٣٦ ، ٤٩٣ ، ٦٥٤ ، ٨٢٠ ، ٩٤٩
لبنان ١٨٢ ، ٣٣٨ ، ٤٩٤ ، ٦٥٦ ، ٨٢١ ، ٩٥٠
سوريا ١٨٣ ، ٣٣٩ ، ٤٩٥ ، ٦٥٧ ، ٨٢١ ، ٩٥١
العراق ١٨٤ ، ٣٤٠ ، ٤٩٦ ، ٦٥٨ ، ٨٢٤ ، ٩٥٣
الهند ١٨٥ ، ٣٤١ ، ٤٩٨ ، ٦٦٠ ، ٨٢٥ ، ٩٥٤
شمالي أفريقية ٣٤٢ ، ٤٩٩ ، ٦٦١ ، ٨٢٦ ، ٩٥٥
إنجلترا ١٨٦ ، ٣٤٣ ، ٤٩٩ ، ٦٦١ ، ٨٢٦ ، ٩٥٧
أمريكا ١٨٧ ، ٣٤٤ ، ٥٠٢ ، ٦٦٣ ، ٨٢٨ ، ٩٥٩
روسيا ١٨٨ ، ٣٤٥ ، ٥٠٣ ، ٦٦٤ ، ٨٣٠
فرنسا ١٨٩ ، ٣٤٦ ، ٥٠٤ . ٦٦٥ ، ٨٣١

رسائل القراء

الرؤبة أم لحسان بن ثابت ٣٥٠
البلهبذ ٣٤٨
حول تحقيق بيت منسوب إلى أبي فراس الحمداني ٦٦٦
حول المعارضات في الشعر العربي ٦٦٨
ديوان أسامة بن منقذ ٥٠٦
شاعر ٦٦٩
الشوامخ ٥٠٩ ، ٦٧٠
كتاب التصوف وفريد الدين العطار ٥٠٧
مساحة الكويت ٥٠٨
موقع مسقط عاصمة عمان ٥٠٨
هذه هي الأغلال ٦٦٨
اليازجي ٣٥٠

٣ — الكتب

آثار البلاد وأخبار العباد ٤٢٣
آخر بني سراج ٥٧٣
الآداب ٥٧٢
الآداب السامية ٤٦٧
آراء وأحاديث في الوطنية والقومية ٦٢٣
الآراء والمعتقدات ١٦١، ١٦٢، ٣١٣
آفاق ٤٨٢١
آلة الزمن ١٧
ابتسام الضحى ١٨٢، ٤٨١
أبحاث في تاريخ الأبجدية الفينيقية ٤٨٥
أبحاث ومقالات ٤٦٧
إبراهام لنكولن (أعلام الحرية) ٦٥٦، ٨٢٢
إبرهيم بن سيار النظام ٤٦٨، ٤٧٠
الأبرا ٦٠٠
الأبرا في ماضيها وحاضرها ٦٠٠
أبناء أبي بكر الصديق ٤٦٨
أبنية الأفعال ٨٢٥
الأبواب السبعة ٦٣٣
أبو الهول يطير ٣٣٥
أثر الشرق في الغرب ٤٦٩
أحاديث السمر ٩٥٦
أثر العرب في الحضارة الأوربية ٤٧٠
أحدب نوتردام ٤٦
أحسن القصص ٤٨٧
أحكام الأوقاف ٤٨٦
أحكام القرآن ٢٩٨
الأحلام ٨١١
أحلام الربيع ٨١٧
أحمد بن حنبل (الإمام) ٤٦٨
أحمد الفيض آبادي (السيد) ٤٦٨
إحياء علوم الدين ٦٤٠
الأخاريون ٩٣٦
أخبار أصفهان ٦٤١
أخبار الزمان ٨٦٧
إخبار العلماء ٥٧٦ — ٥٨٠
اختصار علوم الحديث ٣٠٠
أخلاق آنا كساجور ٧٩٨
الأخلاق بلا إلزام ولا جزاء ٤٧٥
أخلاق العلم ٩٠٤
إخوان الصفا ٩١٤
أخي إبرهيم ١٨٢
الأداة الحكومية ٦٢٣
أدباء الأطباء ٦٥٩، ٧٨٧
أدباء الإنجليز المعاصرون ٤٦٩
الأدب الجاهلي ١٤٧، ٢١٨
الأدب العربي في الأندلس ١٤٩
الأدب العربي في القرن العشرين ٨٣٠
الأدب الفرنسي ٧٧٣
الأدب المصري القديم ٩٠١
أدبيات اللغة العربية ١٢٨
الأدوية المفردة ٥٧٨
أديان العرب ٧٥٧
إرادة الاعتقاد ٤٧٥
أربع قصص عالمية ٧٨٧
أربعون يوماً في لندن ١٥٧، ٧٨٩
الارتسامات اللطاف إلى أقدس مطاف ٥٧٣
إرشاد الأريب ٥٧٧
أرض البشر ٤٦٦
الأرض والتربة الحسينية ٤٩٧، ٧٩٠
أرواح تتآلف ٤٦٥
إريانا ٦٠١
الأزهر ٤٧٢

الأزهر بين الماضي والحاضر ٤٧٢
الأساس ١٥١
أساس قوة السوفيات ٦٦٢
أساليب تدريس اللغة العربية ٨٢١
أساليب السياسة الفرنسية ٨٢٢
أسامة بن منقذ ٤٦٨ ، ٥٠٦
أسبوع الإمام ٧٩٠
الاستذكار لما مر في سالف الأعمار ٨٦٧
الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية ٤٧٣ ، ٨٩٤
الاستقلال والسيادة الوطنية ٧٩١
الاستيلاء على برلين ٨٣٠
الاستيلاء على القسطنطينية ٧٧٠
أسد الغابة في معرفة الصحابة ٦١٦
الأسرار السياسية لأبطال الثورة المصرية ٤٦٩
أسرار الحياة الدولية ٩١٣
أسرار الموازين والجموع ٧٥٧
أسرة آل طرازي ٩١٣
أسس الصحة النفسية ٣٢٠ ، ٤٧٦
أسكار ويلد أمام القضاء ٨٢١ ، ٩٥٠
الإسكندرية وآثارها ٣٨٠
الإسلام حيال الدول العظمى ٨٢٢
الإسلام دين الإنسانية ٤٨٤
الإسلام على مفترق الطرق ١٨٢ ، ٤٨٣
الإسلام في الهند ٨٢٥
الإسلام والنظام العالمي الجديد ٤٧٦
الأسلوب العلمي عند العرب ٩٤٩
أسهل الطرق لتعليم القراءة والكتابة ٩٥١
الإشارة إلى من نال الوزارة
١٤٩ ، ١٥٠ ، ٦٤٩
الأشباح الحمر ٩٤٩
الأشباه والنظائر ١٨٥ ، ٦٢٩
إشراقة ٤٩٢
أشهر الرسائل العالمية ٤٦٧
أشهر رسائل الغرام ٤٨٣ ، ٤٩٥
أشهر العشاق ١٨٢
أشهر القضايا المصرية ٤٧٣
أشواق ٤٩٢
أصحاب مالك من الإسكندرانيين
لابن شعبان ٣٨٠
أصحاب مالك من الإسكندرانيين
لابن يونس ٣٨٠
أصل الأنواع ١٢٦ — ١٢٩
أصل العائلة ٧٨٨
الأصوات اللغوية ٤٧٧
أصول الاستعمار بين الأمم ٣٣٩
أصول التاريخ والأدب ٣٤٩ ، ٨٦١ ، ٨٦٤
الأصول التاريخية للامبريالزم الألماني
الأصول التاريخية لحركة العمال العالمية ٨٢٤
أصول التبعات وأحكامها في البصرة ٧٩١
أصول التعليم الصحيحة ٩٥٦
الأصول الثلاثية وأدلتها ٤٧٦
الأصول الجزائية ٧٨٦
أصول الفقه الإسلامي ٤٨٦
أصول المالية ٤٨٦
أصول الهندسة الحديثة ١٨١
أضواء ورسوم ٤٧٨
أطفال فينّا ٣٤٣
الأعاصير ٣٣٨
الاعتدال ٤٩٢
اعتراف نصف الليل ٦٥٢
أعجوبة تيوفيل ٧٦٩
الأعلام ٦١٥
الإعلام بفضائل الشام ٤٨١
أعلام الحرية ٤٨٣ ، ٤٩٤ ، ٦٥٦ ، ٨٢٢
أعلام الموقعين ٦٢٦
الأعماق ٤٨٤

اعمل لوجه الله ٩٥١
الأغاني ٧١٢
أغاني بغدادية عامية ٧٥٦
أغلاط اللغويين الأقدمين ٧٥٦
أغنية رولان ٧٦٧
الإفادة والاعتبار ٨٦٧
أفاعي الفردوس ٨٢١
الأفعال ٨٢٥
أقاصيص الغروب ٤٦٥
الاقتصاد السياسي للبراوي ٤٩ ، ٤٧٣
الاقتصاد السياسي للسمان ٤٨٦
الاقتصاد السياسي لوافي ٤٧٣
الاقتصاد المنهاجي في الاتحاد السوفييتي ٤٨٨
اقتصادنا الوطني ٧٩١
اقرأ ٤٦٥ ، ٤٦٨ ، ٤٧٥ ، ٨٢١
أقرب الموارد ٧٥٦ ، ٧٥٧
الإقطاع والديون في العراق ٨٢٤
الإقطاع والعصور الوسطى ٤٦٩
أقنعة الحب ٤٨٠
أقوالنا وأفعالنا ٤٨٦ ، ٩١٣
أقوام العراق ٧٥٤
الإكلزيازس ٩٢٧
الإكليل ٧٥٦
الالتزام ٤٨٦
الالتزامات ٤٩٧
ألف ليلة وليلة ٧٦٧
ألف ليلة وليلة جديدة ٧٨٧
ألفرد ديموسيه ٤٦٨
الله ٤٩١
الإلمام بما جرت به الأحكام المقضية
في واقعة الإسكندرية ٣٩١
الألوهية والفكر ١٣٣ ، ٤٧٥
إلى الأبد ٨٢١
إلى أين نحن سائرون ٣٤٤
الإلياذة ٤٦٦ ، ٤٨٠
الأمالي ١٤٧ ، ٨٢٥
الإمام أحمد بن حنبل ٤٦٨
الإمام السيد أبو الحسن ٩٥٣
الإمام الشافعي ٨١٨ ، ٨٩٠
الإمام علي بن أبي طالب ٤٦٨
الإمبريالية ٨٩٤ ، ٨٩٥
امتلاك العالم ٦٥٢
الامتناع المشروع عن الوفاء ١٨٤ ، ٧٩٠
الأمراض الباطنة ٤٨٦
الأمير شكيب أرسلان ٨٢٣
الأمريكيون المفقودون ٣٤٥
الأم ٥٠٤
أم القرى ٤٤٢ ، ٤٤٣
إما . أو ١١
أناتول فرانس في مباذله ٥٧٣
أنا والبيضة ٨٢٧
أنا وأنت ٣٣٩ ، ٤٨٨
الأنباء التاريخية ٧٥٧
إنباط المياه الخفية ٨٢٥
الانتباه الإرادي في علم النفس
التجريبي ٤٧٦
انتصار الموت ٥٠١
أندونسيا الثائرة ٤٧٢
أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام ٤٧٩
الإنسان والأخلاق والمجتمع ٨١٤
أنفاس الفساد ٣٤٤
أنات حائرة ٧٤٦
أنوار ٤٦٥
أنوار علو الأجرام في الكشف
عن أسرار الأهرام ٨٦١ ، ٨٦٣
الأهرام ٨٦٠

أهداف الأخلاق ١٨١
الأوثان ٤٨٢
أوديب وثيسيوس ٤٦٦ ، ٤٩١ ، ٦١٨
الأوديسة ٤٦٦
الأوراق ٦٣٧
أوراق من كتاب الفلك ٥٧٨
أوربة والإسلام ٦٦٥
أورفان بول ٦٦٣
أورفيو ٦٠١
أومن بالإنسان ٤٧١ ، ٦٦٩
إيران تحت حكم الساسانيين ٦٥٣
الإيضاح ٦٧١
إيفيجينا وإجمنت ٤٦٦
إيماني ٤٧١
إيون دي فاليرا ٣٤٥
أين الإنسان ٥٣
أينشتين ٩٥٩
الباب الضيق ٤٦٥
باحثة البادية ٥٢
الباكورة ٥٧٢ ، ٨٢١
بحث عن نوادر المخطوطات ٣٧٩
البحر المتوسط ١٠٤ ، ١٠٥
بحوث في الشؤون المالية والاقتصادية ٤٧٣
البخلاء ١٦٥ ، ٦٣٧
بدائع البدائه ٣٨٨
بدائع الفوائد ٦٢٩
بدوات الخاطر ٧٥٧
البردة ٨٥٨
برقة العربية أمس واليوم ٨٢٦
البريطانيون في الهند ٩٥٨
بزوغ الذكاء ٦٦٥
البستان ٥٦٧ ، ٧٥٦
بسمارك ١٠٤
بشكين : شاعر ومحب ١٨٨
البعث ٤٨٤
بعث الفاشية في العراق ٧٩١
البعثات العلمية في عهد محمد علي ٢٧٣
بغداد مدينة السلام ٣٤١
بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ١٥٠ ، ٦٥٨ ، ٨٦٣
بلزاك ٦٦٣
بلوتوس ٩٢٨
بلوغ المرام في شرح مسك الختام فيمن تولى ملك اليمن من ملك وإمام ٧٥٥
البهاء زهير ٨١٨ ، ٨٩٠ ، ٨٩٢
بواعث الحرب العالمية الأولى في الشرق الأدنى وموجز لتاريخ حلول أوربا في الشرق ٤٨٣
البؤساء ٤٦ ، ٥٢
البيادر ٢٩٠ ، ٢٩١
بياسكو : خمسون عاماً من فنه ٣٤٥
بيجماليون ٤٦٥
البيزرة ٤٩٦
بيمارستان نور الدين ٤٨٦
بين البحر والصحراء ٤٧٠
بين النهرين : دجلة والفرات ١٨٢
بيني وبينك ٧٩٠
بيوتات العرب في لبنان ٥٧٤
تأملات ٤٧١
التأملات الشعرية ٤٦
تاج العروس ٤٢١
تاجوج ٤٦٥
تاريخ آداب اللغة العربية ٨٥٨ ، ٨٦١
« أبي عبد الرحمن العتقي ٨٦٧
« الإسكندرية ٣٩٠

تاريخ الإسلام للذهبي ٨٦٨
« الإسلام لكايتاني ٦٥٨
« أصفهان ٦٤١
« أفريقية الشمالية ٩٥٦
« الإمارة العباسية ٤٩٧
التاريخ الإنجليزي ٤٦٩
تاريخ أوربا في العصر الحديث ٤٦٩
« بغداد ٨٠٤
« التمدن الإسلامي ٦١٥
« التمدن الحديث ٨٠٥
« التشريع الإسلامي ٧٩٠
« تونس ٩٥٦
« الجبرتي ٥١
« جوانفيل ٧٧٠
« الحركة القومية ٢٧٣ — ٢٨١
« الحقوق ٤٨٦
« حكماء الإسلام ٨٥٤ — ٨٥٦ ، ٩٠٤
« حياة معدة ٤٧٩
« ابن خلدون ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٥٧٤
« دمشق ١٨٣
« روضة الصفا ٣٠
« الشعب الأمريكي ٥٠٣
« الشعر الأمريكي ٥٠٢
« الصحافة العربية ٦١٤
التاريخ الصغير للبخاري ٢٩٩
تاريخ الطبري ٢٣٨ ، ٨٦٤ ، ٨٦٥
« طرابلس الغرب ٥٧٦
التاريخ الطبيعي لبيني ٦٨٨
تاريخ العراق بين احتلالين ٤١٨ ، ٤٩٧
« العرب ٧٨٦
التاريخ العربي ٧٨٦
تاريخ العرب والإسلام ٧٨٦
« العصر الذهبي للسريان ٦١٦
تاريخ عفيف الدين التلمساني ٦٥٨
« العلوم العربية ٦٥٩
« غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا ٥٧٣
« الفلسفة الأوربية في العصر المتوسط ٥٧٣
« الفلسفة الغربية وصلتها بالظروف السياسية والاجتماعية منذ أقدم العصور إلى اليوم ٤٩٩
« الفن التأثيري ٣٤٥
« قدوم المأمون مصر ٨٦٥
« القرآن ٨١٦
« قسطنطين السرياني ٨٦٧
« الكامل لابن الأثير ٣٢
« الكرد ٧٥٧
التاريخ المجدد لمدينة السلام ٨٥٩
تاريخ المساجد الأثرية ٤٧٢
« مشاهير الألوية العراقية ١٨٤ ، ٧٨٦
« مصر ٢٢٩
« مصر السياسي والدبلوماسي ٣٣٥
« مصر في عهد البطالسة ٤٦٩
« مصر القومي (ثورة ١٩١٩) ٤٦٩
« نابليون بونابرت ١٥٣ ، ٨٢١
« نصارى العراق ٩٥٤
« النقائض في الشعر العربي ٤٦٧
« النقابية ٨٩٥
« واسط ٤٢٠ ، ٤٢١
« الوحدة الإيطالية ٨٢٤
التاريخ والحرية ٩٥٤
تاريخ اليزيدية وأصل عقيدتهم ٤٩٧
« اليعقوبي ٣٠
« اليمن ٥٧٢

تاريخ اليهود في العراق منذ أقدم
العصور حتى الفتح الإسلامي ٣٤١
تتمة التتمة ٩٠٤
« صوان الحكمة ٩٠٤
تجديد أوربا الحاضرة ٢٨
تجديد مناهج إعداد المعلمين في
العراق ٤٨٣ ، ٤٩٦
تحالف أوربا ٢٨
تحفة السائلين في أديرة رهبان
المصريين ٦١٧
تحفة النظار في غرائب الأمصار
وعجائب الأسفار ٤٢٣ ، ٤٢٤
تدريب الأخلاق ١٨١
تراث الآباء ١٨٢
التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ٦١٥
تراجم إسلامية ٤٦٨
تراجم عراقيين معاصرين ٧٥٦
التربية : حقائقها وأصولها الأولى ٧٨٨
التربية للمستقبل ٦٦
التربية الوطنية ٤٨٤
ترجمة الأب أنستاس الكرملي ٧٤٩
« الأب ماريا يوسف ٧٥٥
« الإمام أحمد ٤٦٨ ، ٦٣٨
« الأمير شكيب أرسلان ٨٢٤
« جواهر لال نهرو ١٨٦
« القرآن الكريم ٥٠٣
الترجمات السريانية والعربية لكتاب
المقولات ١٨٢
تركيا الحديثة ٣٣٨ ، ٤٨٤
تسموفروزياسوس ٩٢٨
تشريح السلام ٨٢٧
التشريع الاجتماعي ٤٨٦
« الجمركي في سوريا ولبنان ٤٨٨
التشريع العقاري ٤٨٦
تشخيص السل الرئوي ٩٥٢
تشيخوف ٨٢١
التصريح ٦٧٢
التصوف في مصر إبان العصر العثماني
٤٧٧ ، ٦٢١
التصوف وفريد الدين العطار ٥٠٧
التطور الاجتماعي والاقتصادي
في فلسطين العربية ٨١٦ ، ٨٢١
تطور الكتابة العربية ٤٧٧ ، ٩١٤
التعب ٨١٦
التعليم العربي والجامعي ٤٦٩
« المسيحي ٧٥٥
تغريدات الصباح ٤٧٨
التفسيرات الأحمدية في بيان الآيات
الشرعية ٢٩٧
تفسير الفقهاء وتكذيب السفهاء ٤١٨
التفسير في التفسير (التفسير الكبير) ١٨٥
تفسير القرطبي (الجامع لأحكام
القرآن) ١٧٩ ، ٢٩٧ ، ٤٧٩
تفسير المراغي ٤٧٧
تقارير عن أحوال المعارف في سوريا
سنة ١٩٤٥ ٨٢٣
تقويم الذهن ٥٧٨
تكملة تاريخ ابن خلدون ٥٧٤
تكوين العراق الحديث ٧٨٦
التلفزيون ٩١٤
التمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ٨٩١
تنبيه البارعين على المنحوت من
كلام العرب ٨٦٣
تنبيه الطالب ٩٥٢
التنبيه والإشراف ٨٦٧
تنظيم السلطات العامة في سوريا ٩٥٢

التهذيب ٣٢٩
التوحيد الذي هو حق الله على العبيد ٤٧٦
توجيه العقل الروسي ٦٥٩
توسكا ٦٠٥
توضيح ابن هشام ٦٧٢
التوراة ٤٧٦ ، ٦٢٥ ، ٩٥٧
التيار ٤٨٨ ، ٤٩٨ ، ٧٨٨
ثبت الكتب الخطية في خزانة الآباء الكرمليين ٧٥٦
الثقافة السياسية ٣٣٨
ثورة حماة على الطغيان الفرنسي ٤٨٧
« سنة ١٩١٩ (تاريخ مصر القومي) ٤٦٩
« الفكر أو مشكلة المعرفة عند الغزالي ٣٤٢
ثورة في البرج العاجي ٤٧٢
ثورة قازان ٩١٣
جامع الصحيح ٦٤١
الجامع لأحكام القرآن الكريم (تفسير القرطبي) ١٧٩ ، ٢٩٧ ، ٤٧٩
الجامع المختصر في عنوان التاريخ وعيون السير ٤١٧ ، ٤١٩ ، ٧٥٦
الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي ٤٧٥
جان جاك روسو المصلح الاجتماعي ٤٧٥
جبل قاسيون ٤٨٦
الجبهة الوطنية الموحدة ٧٩١
جحيم دانتي ٦٣٣
الجرح والتعديل ٢٩٩
جزء ابن عرفة ٣٩٢
الجزيرة السورية في عهد الاستقلال والحرية ٣٣٩ ، ٤٨٧
جعفر الصادق ٧٨٧
جغرافية فلسطين ١٨١
الجغرافية الفلكية ٨٢١
جغرافية موسكو ٨٣٠
جمهرة اللغات ٧٥٧
جمهورية أفلاطون ٧٩٨ ، ٩٢٧
جنة الحب ٧٧١ ، ٩٢٧
جنة الصحراء (سيوة) ٤٧٢
جنة على نهر العاصي ٤٦٦
جنكيز خان إمبراطور الناس كلهم ٧٨٧
الجهاد السياسي ٣٣٩ ، ٤٨٧
الجواهر المضية في طبقات الحنفية ٤١٨ — ٤٢٠
جورج برنارد شو ٤٦٧
جونسون ٤٩٢
الجيش المصري البري والبحري في حرب القرم ٢٨١
حاضر العالم الإسلامي ٥٦٨ ، ٥٧٠ ، ٥٧٣
حاوية الاختصار في أصول علم البحار ٩٥٢
الحب ٧٣٩
الحب الأول ٤٦٦
الحجاج ٤٨٨ ، ٦٢٧
الحدائق والأزهار ٦٥٩
الحديقة ٥٧٧
حرب البترول ١٥٤ ، ٤٧٣
الحرب العالمية الثانيــة — شعراً ٤٧٨ ، ٤٨١
الحرب العالمية الثانية منشؤها وطبيعتها ٧٩١
حركة الترجمة بمصر ٤٦٧
الحركة الفكرية في السودان ٤٩٢
حروف من نار ٣٣٩ ، ٤٨٨
الحرية ٤٧١ ، ٦١٩
حرية الفكر ٤٧١
الحسبة ١٨٤ ، ٧٨٨
حسناء لبنان ٤٨٤

حسن المحاضرة ١٤٩ ، ٣٨٢ ، ٥٧٧ ، ٨٥٩، ٨٦١
حسن الانتخاب في الزواج ٤٧٢
حشو اللوزينج ٧٥٧
الحضارات الأولى ١٧٣ ، ٣١٣
الحضارة الإسلامية ١٤٨
حضارة العرب ١٥٨ — ١٧٠
حضارة الهند ١٨١
الحضانة ٤٧٦
الحفريات في بقايا واسط ٧٨٥
الحق والقوة ٤٧١
الحقوق الإدارية لشباط ٤٨٦
الحقوق الإدارية للطرزي ٦٥٨
الحقوق التجارية ٤٨٦
الحقوق الدستورية ٤٨٦
الحقوق الجزائية ٤٨٦
الحقوق الرومانية ٤٨٦
حكايات فارسية ٤٤٦
حكايات من الصين ٤٦٦
حكايات من الهند ٤٦٦
الحكر في مصر ٩١٣
الحكومة المحلية في السودان ٤٧٤
حل الطلاسم ٤٨٤
حلاق أشبيلية ٦٠٤
الحلل السندسية ٤٩٥ ، ٥٧٣
الحماسة ٥٧٩
حماقة أم خلاعة ٩٥١
حملات الأسطول المصري ٢٧٤
الحمل والأسنان ٦٥٨
الحمية الريفية ٦٠٥
حواء الخالدة ٣٣٤، ٣٥٣ ، ٤٦٥
الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ٤٢١ — ٤٢٤
حواشي ابن هشام ٦٧٢
حياة الشهداء ٦٥٢
حياة الصينيين في نظر الغربيين ٥٠٠
ابن حيوس الدمشقي ٤٩٦
الخاتم المفقود ٩٤٩
الخدمات الاجتماعية في بلاد الدنمرك ٣٤٣
خرافات ووقائع حربية ٦٥١
الخريدة (خريدة القصر) ٤٢٤ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٨٦٠
خريطة العراق الحديث ٩٥٣
خزانة الأدب ٦٧٢
الخصائص ١٧٩ ، ٧٥٠
خطب ١٥٥ ، ٤٨٤
خطب ابن نباتة ١٤٨
الخطر الصهيوني ٧٩٢
الخطرات المقيدة ٧٥٧
الخطط التوفيقية ٧٥٥
خطط الكوفة ١٨٤ ، ٧٨٦
خطط الكوفة وشرح خريطتها ٩١٤
خطط المقريزي ٥٧٥ ، ٥٧٧ ، ٦١٧ ، ٦٢١ ، ٦٤٢ ، ٧٥٨ ، ٧٥٩ ، ٧٦١ ، ٧٦٢
الخلاصة (ألفية ابن مالك) ٦٧١
خلاصة تاريخ العراق منذ نشوئه إلى يومنا ٧٥٦
خلاصة علم النفس ١٤١ ، ٨١٢
الخلاصة في الدستور الإسلامي ٦٥٦
خفقات قلب ٣٤٠ ، ٧٨٨
خواطر في العلم والدين والأدب واللغة والتاريخ ٧٥٧
الخلود ٤٨٢
خيالات ٨١٧

دائرة المعارف الإسلامية ١٦٣ ، ٦٤٠ ، ٧٤٩
دايتي ٩٤٩
الدراسات العربية في الاتحاد السوفيتي ٨١٧ ، ٨٢٤
الدراسات العربية والإسلامية ٤٦٩
دراسات في تطور الرأسمالية ٥٠٠
دراسات في العصور العباسية المتأخرة ٧٨٦
دراسة موجزة لتاريخ الحزب الشيوعي في اتحاد السوفييت ٩٥٧
درة البيان في احكام القرآن ٢٩٨
الدرة السنية في تاريخ الإسكندرية ٣٧٩
الدرة اليتيمة ٥٧٢
الدرر الكامنة ٤١٨
الدر المنثور في طبقات ربات الخدور ٥٢
الدستور المصري ٣٠١
الدستور في قانون الاستملاك الجديد ١٨٣
دعائم الأخلاق ٤٩٢
الدعاية قديماً وحديثاً ٤٧١
دفاع عن العلم ٤٧١ ، ٨١٦ ، ٩٠٤ ، ٩٠٥
الدكتور كنوك ٤٨٨
الدليل الفلسطيني الأردني ١٨٢
دليل الكتاب العربي الفلسطيني ٣٣٧
دماء ودموع ٦٥٥
دمشق في العصر الأيوبي ٩٥٢
دمعة يزيد ٤٨٢
دموع وعواطف ٩٥٦
الدهاة الثلاثة ٤٦٨
ده لا كرواه ٤٨٣
دور القرآن في دمشق ٤٨٦
دوريكليا ٦٠٣
الدولة الإسلامية ٩١٣
الدولة السعودية في الجزيرة العربية ٤٨٨
الدوله العثمانية ٥٧٤
دولة النفط في العراق ٧٩١
الدون يجري هادئا ٥٠٤ ، ٨٣٠
الديانات الكبرى في العالم ٦٣٣
ديكارت ٤٦٨ ، ٤٧٩
ديمقراطية جديدة ٤٧١ ، ٩١٤
الدين والوحي والإسلام ٨١٨ ، ٨٩١
ديوان الأجيال ٤٦
« الأدب ٧٥٠
« أسامة بن منقذ ٥٠٦
« أبي تمام ١٥١
« امرئ القيس ٧٥٠
« التفتاف ٧٥٦
« تميم بن المعز لدين الله ٧٥٩ – ٧٦٤
« حسان بن ثابت ٣٥٠
« الخليل ٨٣٧ ، ٧٣٨
ديوان رضا الطلباني (الشيخ) ٤٩٧ ، ٧٨٨
« سقط الزند
« السموءل ٧٥٠
« شكيب أرسلان (الأمير) ٤٩٥ ، ٥٧٣
« عفيف الدين التلمساني ٩٥٣
« بن عنين الأنصاري ١٨٣ ، ٤٨٦
« أبي فراس الحمداني ٤٨٨ ، ٤٩٦ ، ٦٦٦
« الفلسطينيات ٣٣٧ ، ٤٨١
« المزرد ٧٥٠
« ابن المعتز ٧٦٤
« الملك ٤٧٨
دي . دي . تي ٩١٤
ذخائر العلوم فيما كان في سالف العصور ٨٦٧
الذرة ٦٥٣

ذكرى الأمير عمر طوسن ٤٦٨
ذو الرمة الشاعر ٤٦٨
ذيل تاريخ واسط ٤٢١
ذيل الروضتين ٨٦٨
ذيل طبقات الحفاظ ٨٦٠
الذين يعملون في البحر ٤٦
رأس المال ٨٩٥
الرادار ٨١٧
الرامايانا ٩٤٩
رايات الإسلام ٨١٧
الرب المزيف سليمان المرشد ٩٥٢
الرباط المقدس ٥٣
رجل آسيا ٧٨٧
رجالات الحجاز ٤٦٨
الرجال المنبوذون ٦٥٢
رجلان ٦٥٢
رحلاتي في مشارق الأرض ومغاربها ٤٧٢
رحلة إلى صعيد مصر ٦١٧
« إلى موسكو ٦٥٢
« ابن بطوطة ٤٢٣ ، ٤٢٤
« ابن جبير ٣٨٦
« الربيع ٤٧٢
« السائح الإيطالي ٣٤٠ ، ٧٨٩
« الشمس في الليل والنهار ٦٣٣
« ميخا يوسف النجار البغدادي ٧٥٤
« الوصي وولي العهد إلى تركيا ٦٥٩
رسائل إخوان الصفا ٨٧٢
« البلغاء ٤٦٧
« دينية ٧٥٥
« الصابي ٥٧٢ ، ٥٧٤ ، ٨٦٤
« ابن المعتز ٤٧٩
« من الجبهة ٥٠٤
رسائل النساء الأخيرة ٤٦٦
رسالة الجامعة ١٨٧
الرسالة الخالدة ١٧٩ ، ٤٧١ ، ٦٦١
رسالة الديانة الصابئية ٨٦٧
« الديمقراطية والاشتراكية القومية ٧٩١
« عن التنقيب في تل حسونة ٧٨٦
« عن الحفر في العقير ٧٨٦
« عن الحفريات في عقر قوف ٧٨٦
« عن نوادر المخطوطات ٣٧٩
الرسالة الفتحية ٧٥٤
رسالة الفكر الحر ٣٣٤
« فضائل مصر ٨٦٧
« في الأبعاد والأجرام ٨٢٥
« في الأسطرلاب ٨٢٥
رسالة في الذرة والقنبلة الذرية ٤٧٤
« في العمل بالأسطرلاب ٥٧٨
« في فضائل الإسكندرية ٣٧٩
« في الكتابة العربية المنقحة ٧٥٦
« في معطيات الوجدان البديهية ٤٩٤
« في النقود المتداولة بمصر ٧٥٥
« في الهيئة ٨٢٥
رسل الإنسانية ٧٨٧
الرسول ٤٦٧ ، ٨١٦
الرسوم ٨٢١
رسوم ستالينجراد ٥٠٣
رشيد رضا (السيد) ٥٧٣
رعاة البقر ٤٦٧
رعشات ٤٨٨
الرغائب ٧٥٧
روابط الزواج بين العرب والفرنجة ٨٢١
رواية آدم ٧٦٩
« الثعلب ٧٦٨ ، ٧٧٣

رواية الوردة ٧٦٨ ، ٧٦٩ ، ٧٧٣
روبسبير ٩٥٠
روض البشر في أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ١٨٣
روض الشقيق ٥٧٤
الروضة في المخفوظات ١٨٢
ابن الرومي : حياته من شعره ٢١٨
روميو وجوليت ١٨٠ ، ٤٦٦
الرياضة الشتوية ٤٨٤ ، ٤٩٤
ريح في الصحراء ٦٦١
زاد المسافر (سفرنامه) ٢٣٥
زبدة الحلب في تاريخ حلب ٨٦٨
الزراعة الاشتراكية السوفيتية والاقتصاد الزراعي الروسي في عصوره المختلفة ٤٧٥
الزنابير ٩٢٧
زهور الشر ٣٤٧
الزوابع ٤٨٣
الزواج والمرأة ٤٧١
زوبعة ٨٢٢
زوجتي الصينية ٩٥٨
أبو زيد الهلالي ٤٦٥
ساتني ٦٣٣
سارة ٥٤
ساعات بين الكتب ٨٠٣
سالافان ٦٥٢
سبعة ملائكة وشيطان ٤٦٥
سبينوزا ٤٦٩
ستالينجراد باب النصر ١٨٩
ست الملك الفاطمية ٤٦٨
ستيبان كولوشجين ٥٠٤
السحائب ٧٥٧
السحب ٩٢٤ ، ٩٢٦ ، ٩٢٧
سخريات صغيرة ٩١٤
سدنة التراث العلمي ٩٤٩
سر الفصاحة ١٤٨
سعد زغلول (أعلام الحرية) ٤٨٣
٤٩٤ ، ٨٢٢
سفرنامه (زاد المسافر) ٢٣٥
سقط الزند ٣٣٥
سكينة (السيدة) ٧٨٧
السلام ٩٢٧
السلام الاجتماعي ٤٧١
سلسلة الطرائف ٣٣٧ ، ٤٨٠
سلسلة القراءات الجغرافية المصورة ٤٨٠
سلمبو ٤٨٤ ، ٤٩٤
السلوك ٦٣٧ ، ٨٦١
سلوى في مهب الريح ٨١٩
سليمان باشا ٦٦٥
السنوسية : دين ودولة ٩٥٥
سوريا بين عهدين ٤٨٧
سوريا على مر العصور ٥٠١
سوريا ولبنان ١٨٨
السياسة أمام المحاكم ٧٩٠
السياسة التوجيهية للتربية المصرية ٨١٧
سيرة الأمير شكيب أرسلان ٥٧٤
السيرة الحلبية ٩٥٣
سيرة الذرة والقنبلة الذرية ٤٧٤
السيرة الطولونية ٨٦٥
السيل على الذيل ٨٦٨
ابن سينا ١٤٩ ، ١٧١ ، ٤٦٨ ، ٤٧٥
سيوة تحت نير الاحتلال الإيطالي ٤٧٢
سيوة (جنة الصحراء) ٤٧٢
شابابيف ٨٣٠
شاعر الغزل عمر بن أبي ربيعة ٢٢٠
شاعر في الإذاعة ٤٩٧ ، ٧٨٨

الشاعر والمسرح ١٨٧
الشامل في القراءات السبع ٣٩١
الشباب العربي في الحقل الاقتصادي ٤٨٨
شبح كانترفيل ٤٦٦
شذرات الذهب ٨٦٠
شخصية الحيوان ٤٧٥
شخصيات عصامية عراقية ٧٨٧
شرح الأربعين النووية ٣٩١
« بحر على مذهب درون ١٢٧
« التأويلات ٣٤١
« التهذيب ٣٩٠
« الدستور العراقي ٧٩٠
« العمدة ٣٩١
« القانون التجاري العراقي ١٨٤ ، ٧٩٠
« قانون الموجبات اللبناني ٤٨٢
« الكامل (للمبرد) ٦٧٢
« المفصل ٦٧١
الشرع واللغة ٢٩٥
شعراء بغداد وكتابها في أيام وزارة داود باشا ٧٥٦
شعراء العراق وأدباؤه في المائة السادسة للهجرة ٤٩٦
الشعر والشعراء ٤٧٨
شعوب الأقطار العربية الأسيوية ٤٧٣
الشفا ٦٣٩ ، ٦٤٠
شفاه غليظة ٤٦٥ ، ٨١٧
الشفعة ٤٨٢
شكل الحرب ٤٧٤
الشوارد اللغوية في الأشعار البدوية ٧٥٧
شواهد الكتاب ٦٧١
شكوى ملكة اللغات إلى ملوكها ٤٨١
شلي : قصة حياته ٨٢٩
الشوامخ ٣٤٨ ، ٤٦٨ ، ٥٠٩ ، ٦٧٠

شوقي ٤٩٥ ، ٥٧٣
الشوقيات ٥٦٨
الشيخ الرئيس ابن سينا ١٤٩ ، ١٧١
٤٦٨ ، ٤٧٥
الشيخوخة الخضراء ٧٩٠ ، ٩٠٧ ، ٩٠٨
الشيطان لعبته المرأة ٤٦٥
الشيعة والإمامة ٧٨٩
صبح الأعشى ١٤
صحائف قريش ٤٤٣
الصحاح ٨٦٣
الصحة والجمال بالتربية البدنية الفنية ٣٤٢
الصحة والرياضة في الوضوء والصلاة ٦٥٨
صحون ملونة ٨٢١
صحيح البخاري ٣١ ، ٣٠١
صدى صيحة ٨٢٧
صريع المجد ٤٦٥
صفة الأرض والأقاليم ٨٦٧
صفحات من تاريخ الكويت ٤٧٢
صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية ٤٧٤ ، ٤٩٠
صفحة من تاريخ مصر في عهد محمد علي ٢٨١
صقر البحر ٩٥٧
صناعة الحرب ٤٨٧
صواعق العقاب ٤٦
صوان الحكمة ٩٠٤
صوت الشعر في قضية فلسطين ٤٧٨
صوت الضمير ١٨٢
الصور ٤٦٧
صورة دريان جراي ٤٦٦
صور ضاحكة ٤٧٨
صور من التاريخ العربي ٤٦٩ ، ٦٢٢
صور من الحياة العربية ٦٥٥
صور من العراق ٩٥٣

الضاحك الباكي ٣٣٥
الضربات السبع الأخيرة ٦٥٢
الضعفاء للبخاري ٣٢٩
الضعفاء والمتروكين للنسائي ٢٢٩
الضغط السوفيتي على العالم العربي ٥٠٠
الضفادع ٩٢٨
الطاقة الروحية ٤٧٥
الطالع السعيد ٥٧٧
طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد
٤٤٠ — ٤٤٧
الطب العربي ٩٥١
طب النفس ٤٧٦
طبقات الأطباء ٥٧٦
طبقات الحفاظ ٨٦٠
طبقات الحكماء ٩٠٣
طبقات الشافعية الكبرى ١٨٥ ، ٤١٨
طبقات الفلاسفة والأطباء ٨٦٧
الطرائف ٩٥١
طرائف تاريخية ٤٧٠
طريق الحرية ٤٧١
طفل من القرية ٤٦٥
الطلسمات الكاهنية ٨٦٦
الطوبغرافيا ٩٥٢
الطير ٩٢٧
طيف الخيال ٣٣٥
الظرفاء الشحاذون في بغداد وباريس ٤٧١
عالمان ٩٥٠
العالم البدائي ٤
العالم العربي ومستقبله ٤٨٤
عالم الغد ٤٧٤
عالم واحد ٩٥٠
عاطفة الحب ٤٧٢
عائشة أم المؤمنين ٤٩٠ ، ٦٥٣
أبو عبادة البحتري ٤٦٨ ، ٥٠٩
العبرات ٥٢
العبر في أخبار ما غبر ٣٤١
العبر وديوان المبتدأ والخبر
٤١٦ ، ٤١٧ ، ٥٧٤
عبقريات شامية ٤٨٨ ، ٤٩٦
عبلة وعنـــترة (حواء الخالدة)
٣٣٤ ، ٣٥٣ ، ٤٦٥
أبو عبيدة ٤٦٨
العجائب ٧٥٧
عجائب المخلوقات ٤٢٣ ، ٦٣٨
العدالة الاجتماعية ٩٤٧
العدالة الاجتماعية القومية والدولية ٤٧١
العدالة السياسية ٨٢٧
عذراء الهند ٥٢
عذارى ٨١٧ ، ٨٢٣
العراق وأمريكا بعد رحلة الوصي ٧٨٩
العرائس ٣٣٨ ، ٤٨٣
العرب : تاريخ موجز ٤٨٣
العرب في طريق الاتحاد ٦٥٧
العرب قبل الإسلام ٧٥٧
العرب والمشكلة اليهودية ٧٩٢
عربة التفاح ١٧٩ ، ٤٦٦
العربي الأسود ٨٢٧
العروج في درج الكمال والخروج
من درك الضلال ٧٥٤
عشائر الشام ١٨٣ ، ٤٨٨
عشائر العراق ٤٩٧
العصامي عبد العزيز رضوان ٤٦٧
عصر الاشتراكية ٣٣٤
« السريان الذهبي ٦١٤
« النبي وبيئته قبل البعثة ١٨٣ ، ٩١٣
العصفور في القفص ٤٩٩

العطلة الكبرى ٥١٨
العقد الذهبي ٣٣٧ ، ٨٢١
العقد الفريد ٤٧٩
العقل الباطن وعلاقته بالأمراض النفسية ٤٧٦
العقل الروسي ٧٨٨
العقل في الإسلام ٤٨٤
عقيدة الشيعة ٧٨٩
العقيدة والشريعة في الإسلام ٤٧٦
العلاج بالتحليل النفسي ٨٢٩
علاقات الهيئات في مدينة مسينا ٣٤٥
علم الاجتماع الديني ٤٨٨
علم الغيب في العالم القديم ٤٧٥
العلم المخزون في علم الطلسمات ٨٦٧
العلم منذ عام ١٥٠٠ ٨٢٩
علم النفس التجريبي ١٤١
علم النفس الفردي ١٣٩ ، ٤٧٦ ، ٦٥٣
٨٠٧ ، ٩١١ — ٩١٣
علم النفس والاخلاق ٨١٤
العلم والحرية والسلام ٩٥٨
العلم والحياة ٤٧١
العلم وعلاقته بالمجتمع ٤٧١
العلم يميط اللثام ٤٧٤
العلويون ، من هم وأين هم ٤٨٨ ، ٨٠٦
على باب سجن أبي العلاء ٨٨٨
علي بن أبي طالب (الإمام) ٤١٨
على المحك ٤٧٣ ، ٦٥٧
على هامش الطب ٤٧٥
عمار بن ياسر ١٨٤ ، ٧٨٧
العناصر الخالدة في الفردية ٦٩
عنترة بن شداد ٤٦٥
العنقود ٤٨١
ابن عنين وشعره ٤٨٦
عواطف ٤٩٩
عودة الروح ٥٣
عودة الفردوس أو استقلال أندونسيا ٤٦٥
العين ٧٥٥
عيون الأنباء ٥٧٧
العيون اليواقظ في الأمثال والمواعظ ٥٢
غاية الإنسان ٤٩٢
غبار الزمن ٦٦٥
الغدير في السنة والأدب ٧٩٠ ، ٨٠٤
الغرائب ٧٥٧
غرائز الحيوانات ٤٧٥
الغربال ٢٨٩ ، ٤٦٦
الغرر التاريخية في الأسرة اليازجيه ٦٢٤
غريب القرآن ٧٢٥
الغلطة الناجحة ٨١٤
غلواء ٤٨٢ ، ٨٢١
الفائق في غريب الحديث ٤٧٨
فاتحة الدراسات النفسية والروحية ٩١٣
فتح الباري ١٨٥
فتوح البلدان ٣٠ ، ٤١٤
الفتوح العربية في سورية ٨١٧
الفتوحات المكية ٣٩٤
فجر الإسلام ٢١٨
الفرسان ٩٢٧
الفرسان الثلاثة ٩٥٦
فرويد ٦٥٣
الفصول الأربعة ٦٦٤
فصول من المثنوي ٤٧٧
فضائل الإسكندرية للصباغ ٣٧٩
« « لأبي الفضائل ٣٧٩
فقه القرآن والسنة والقصاص ٤٧٦
فك الأغلال ٤٧٠

الفلاح الناجح ٩٥١
فلاسفة العرب ٩٥١
فلسطين : المشكلة والموعد ٥٠١
الفلسفة الباقية ١٨٧
فلسفة التفاحة أو جاذبية نيوتن ٤٧٤
الفلسفة الروسية ٩٦٠
فلسفه اللعب ٧٨٨
فلسفة النشوء والارتقاء ١٢٧، ١٢٨
الفلك ٦٥٣
الفن ومذاهبه في النثر العربي ١٤٥ — ١٥٢ ، ٤٦٧ ، ٦٤٥
الفن في روسيا ٣٤٥
الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي ٨١٧
فهارس بروكلمان ٥٧٧
الفهرست ٨٢٥
فهرست مخطوطات المتحف العراقي ١٨٤
فوات الوفيات ٧٦٠
فوائد الشرائد أو الشوارد ٧٥٧
الفوائد في أصول البحر والقوعد ٩٥٢
الفوز بالمراد في تاريخ بغداد ٧٥٤
فولبوني ٦٠٢
الفيتامينات ٤٧٥
فيصل بن الحسين في خطبه وأقواله ١٨٦
في السودان ٤٧٢
في قفص الاتهام ٦٥٩
في مخدع المرأة ٧٩٠
في المرآة ٦٩١
في المغرب ٨١٩
في موكب الشمس ٤٦٩ ، ٦٢٩
فيلسوف العرب والمعلم الثاني ٦١٦
فينيقية ٤٧٢
القاموس ١٥٢ ، ٢٩٨ ، ٦٤٩
القاموس العصري ٧٥٧
القاموس الفرنسي العربي ١٦١ ، ٣١٣
قاموس كولمبيا ٩٦٠
القاموس المحيط ٤١٦ ، ٤١٧
القانون الدبلوماسي ٤٧٣
قانون ضريبة الدخل وتطبيقه في العراق ١٨٤ ، ٧٩٠
قانون العقوبات البغدادي ٧٩٠
قانون العقوبات وإصلاح المجتمع ٣٤٣
القاهرة ٤٧٢
القاهرة الجديدة ٤٦٥
القرآن الكريم ١٥٢، ١٥٨، ١٥٩، ٢٩٦، ٣١٠ — ٣١٩، ٣٣٨، ٤٣٢، ٤٣٤، ٦٢٣، ٦٤٨، ٧١٦، ٧١٧، ٧٤١، ٩٥٦
القرآن ينبوع العلم والعرفان ٤٧٦
القراءات الجغرافية المصورة ١٨٢
قرة بن شريك حاكم مصر ٤٩٠
قرة العين ٨١٧
قصة أرسطاليس ٧٦٩ ، ٧٧٣
« الإلياذة ٤٦٦، ٧٩٧ — ٨٠٠
« البنفسج ٨١٧
« الحضارة ٤٧١
« الذرة ٤٧٤
« الروح والجسد ٦٠٠
القصة الروسية في الأدب العربي الحديث ٦٥٧
قصة عبقري ٤٦٨
« العدوى ٤٧٥
« عنترة ٧٦٨
« النزاع بين الدين والفلسفة ٨١٦
قصص دوستوفسكي ٦٦٣
قصص القرآن ٨١٦
قضايا الأقطار الإسلامية ٤٧٤
القضايا الاجتماعية ٧٨٨
قضية العرب ٤٨٣

قضية فلسطين ٤٨٥ ، ٦٢٦
قلائد الدرر في بيان أحكام الآيات بالأثر ٢٩٨
قلب اليمن ٩٥٤
القواعد النفسية في الموسيقى الشرقية والغربية ٤٧٨
قوانين الدواوين ٨٦٧
قوانين الدولة ٥٧٧
القوة ١٨٨
القول الفصل في رد العامي إلى الأصل ٥٧٤
القيثارة ٨٢١
القيصران ٨١٧
قيصر وكليوباترا ٤٦٦
كابتن فيرا كريلوفا ٣٤٨
كاتها أوبانيشاد ٤٢٧ ، ٤٢٨
الكاشف ٣٤١
الكامل ٤١٦ ، ٦٧٢
كانديد ٤٦٦
الكتاب ٦٧١
كتاب البلدان ٨٦٧
« عن الله ٤٩١
« في المعاني المختلفة للفظة نقطة ٥٧٨
« كلية الهندسة العراقية ٦٥٩
الكتاب المقدس ١٦٥ ، ١٦٧ ، ٦٦٤ ، ٧٤٨ ، ٨٠٢
الكتابات العربية في قلعة بصرى ٤٨٦
كتب وشخصيات ٤٦٧ ، ٧٩٢ ، ٧٩٧
كرم على درب ١٨٠ ، ٤٦٦
كشف الظنون ٨٦٣
كشف الهند ١٨٦
كل شيء هادئ في الميدان الغربي ٣٤٣ ، ٥١٨
الكلمة الأخيرة للقديسة تريزا ٧٥٥
كليلة ودمنة ٨٧٢،٩٤٩
كليمنصو وحياته الغامضة ٤٦٨
كليوباترا ١٧٩
كليوباترا في خان الخليلي ٤٦٥
كما تهواه ١٧٩
كما رأى ١٨٧
كنت في السودان ٤٧٢
الكنت ديموريه ٦٦٢
الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة ١٨٣
الكواكب السماوية في شرح قصيدة الفرزدق العلوية ٩٥٣
الكونتراسوسيال ٤٤٦
كيف تتقي المرض ٩٥١
كيف تغلب الإنسان على الألم ٤٨٣،٦٥٦
كيف تكتب تمثيلية ٥٠٢
كيف تكتب قصة أو تمثيلية أو أقصوصة ٥٠٢
كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس ٤٧١
كيف نسوس حياتنا بعد الخمسين ٤٧١
كيف نكافح الفقر والغلاء ٨١٧
كيف نكسب الأصدقاء ٣٣٧ ، ٦٥٥
كيف يداوي الإنسان صحته بعد سن المائة ٨٣٤
لابوهيم ٦٠٥
اللزوميات (لزوم مالا يلزم) ٧٤٠
اللسان ٦٤٩
لسان الميزان ٨٥٩ ، ٨٦٠ ، ٨٦١ ، ٨٦٨
لسستراتا ٩٢٧
اللغات في القرآن ٤٧٧ ، ٤٧٩
اللغة العربية في أوربا ٩١٤
اللغة اللاتينية ٤٧٧
اللغة والمجتمع ٤٧٧
اللغة اليونانية ٤٧٧
لقاء ٤٨٢

لقد حاربوا من أجل الوطن ٨٣٠
لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ٤٩٥، ٥٧٣
لمحات من تاريخ العالم ١٨٦
لمحة خاطفة في حقوق المؤلفين ٨٣٣
لمحة من سيرة الملك عبد العزيز بن سعود ٤٦٧
اللمع التاريخية ٧٥٧
لمن تدق هذه الأجراس ٨١٩
لنين في موسكو ٨٣٠
لوتشيادي لامرمور ٦٠٤
لورنس بطل الجزيرة ٤٦٩
ليالي الروح الحائرة ٥٣
ليالي سطيح ٥٣
ليالي الشاطئ ٤٧٨، ٨١٧
ليبيا في العصر العثماني ٣٤٢، ٤٧٢
الليلة الثانية عشرة ١٧٦
ليلة عاصفة ٦٥٢
ليلة النهر ٤٦٥
ليو تولستوي ٥٠٢
مآثر الكبراء في تاريخ سامراء ٩٥٤
مآل الرأسمالية ٤٧٣
مأساة فلسطين ٧٩٢
ما الإنسان ٤٧١
الماركسية والنقد ٤٧٣
ماضي موسكو في أسماء شوارعها ومياديها ٨٣٠
ما في العالم السفلي ٦٣٣
مالك الأشتر ٧٨٧
المالية العامة والضرائب ٤٧٣
ماهي الفلسفة ٩٥٣
ما هي الموسيقى الجيدة ٦٠٠
مائة يوم فوق الأنقاض ٤٧١
مائدة السمر ٤٦٥
المبادئ الثلاثة للشعب ٧٨٩
مبادئ علم الأجنة ٤٧٥
مبادئ في الدين الإسلامي ١٨١
المثل السائر ٤١١
مثير الغرام ٤٨١
المجاني الحديثة ٤٨٤
مجلة الأحكام العدلية ٤٨٦
مجلس الدولة ١٧٩
المجلس العدلي أو الحكم على الرب
المرشد ٨٢٣
مجلس النساء ٩٢٧
مجمع الأمثال ١٥٠
المجموعة الذهبية ٧٥٧
المجموعة الرسمية لمقررات المحاكم ١٨٤
مجموعة القرارات التمييزية ١٨٣
مجموعة القوانين والأنظمة لسنة ١٩٤٥ ٧٩٠
مجموعة نعمة يافث ٨١٧
المجموع اللفيف ٣٤٩
مجنون ليلى ٤٩٩
محاكم الأحداث ٣٤٣
محادثات في الضوضاء ٦٥٢
محاسن المساعي في مناقب الإمام الأوزاعي ٥٧٤
محاضرات في قانون الانتخابات النيابية ٤٩٧، ٧٩١
محاضرات نقابة المحامين في حلب ٤٨٦، ٦٢٨
محاكمة الحيوان أمام القضاء ٨٧٧
محاكمة المارشال بيتان ٧٩١
المحبر ٧٢٥
المحرر ٣٣٨
محمد ٩٥٠
محمد عبده ٤٦٨، ٨١٨، ٨٩٠
محمد والخلفاء الراشدون ٩٥٣
المحلى ٣٢٩

محيط المحيط ٧٥٦
المختارات ٨٢٥
المختار من رسائل الصابي ٥٧٢
مختصر تاريخ الحضارة الغربية في
الأزمنة الحديثة ٨٠٥
مختصر تاريخ دمشق ٧٦٠
مختصر تنبيه الطالب ٨٢٣، ٩٥٢
« التهذيب ٣٩٠
« كتاب العين ٦٥٩
« المفصل ٣٩٠
المخصبات الزراعية في مصر ٤٧٥
مخطوط ابن الدبيثي ٤١٦ ، ٤٢٤
مدام بترفلاي ٦٠٥
مدحت باشا أبو الدستور العثماني
وخالع السلاطين ٨٢٢
مدخل إلى علم النفس ١٣٠
المدخل الشرقي لمصر ٤٧٢
المدخل في الألعاب الأولمبية ٧٨٨
المدخل للفلسفة الإسلامية ٨١٨
مدعى الألوهية في القرن العشرين ٨٢٣
مدونة جستنيان في الفقة الروماني
١٧٩ ، ٤٧٣
مدنية ٦٥٢
المدينة المسحورة ٤٦٥
مذكرات الإمبراطور جهانجير ٥٦١
« الأمير شكيب أرسلان ٥٧٤
« حول الحياة العسكرية ٤٨٧
« ستالين ٥٠٤
« طبيب في الأرياف ٤٧٥
« محمد كرد علي ٤٨٦
« في أحكام تصرف الأجنبي
بالأموال غير المنقولة في العراق
١٨٤ ، ٧٩٠
مذهب الذرة عند المسلمين وعلاقته
بمذاهب اليونان والهنود ٤٧٥
مرآة الجنان ٣٨٢
مرآة الزمن ٧٥٠
مرآة نفسي ٤٧٨
المرأة ٤٧٢
المرأة في مختلف العصور ٩١٠ ، ٩١١
مراجعات ٨٠٣
المراسلات السياسية باللغة السريانية ٩٤٨
المراسلات المايرنية ٧٥٦
مراصد الاطلاع ٨٦٥
مراقبة ميزانية الحكومة وحساباتها ٤٧٣
مرحلة وأجواء ٦٤٣
المرسحية الشعرية ٤٨٠
مرشد الرهبان الثاثيين ٧٥٥
مركب النقص : مدلوله وعلاجه ٧٨٨
مروج الذهب ٨٦٧
المروج السندسية في تاريخ الصالحية
٨٢٣ ، ٩٥٢
مزارات بغداد ٧٥٦
المزارات التاريخية في العاصمة الخالدة ٨٣٠
المزهر ٨٦٣
المسألة اليهودية ٤٧٤
المساعد ٧٥٧
مسالك الأبصار ٨٦٨
المساكين ٥٢
المستجاد من فعلات الأجواد ٤٨٦
المستشرقون ٩٤١
مستقبل الإنسانية ٩٦٠
مستقبل الثقافة في مصر ٣٦
مستقبل الصين ٩٦٠
مسرحيات يوريبيدز ٦٦

المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا ٣٤٢
المسند ٤٧٦ ، ٤٧٩ ، ٩٠٠ ، ٩٠١
مسند الإمام أبي عوانة ٨٢٥
مسند الطبراني ٦٤٢
مسيسون الراهب ٨٦٧
المشاكل الحديثة في العلوم والفنون ٣٤٥
مشاهدات في الهند ٤٧٢
مشروع إنماء الثروة الوطنية في العراق ٧٩١
مشكل الحديث ٨٢٥
المشكلة الأخلاقية والفلاسفة ٤٧٥ ، ٨٠٦
مشكلة التحليل النفسي في مصر ٤٧٦
مشكلة الحديث ١٨٥
مشكلة السلوك السيكوباتي ١٣٩ ، ٤٧٦
مصر الظافرة ٤٧٤
مصطلحات القانون المدني ٣٤٠ ، ٧٨٩
مصير النصارى في الشرق ٣٣٨
مطالع الأنوار النبوية في صفات خير البرية ٤١٨
مطالعات في الكتب والحياة ٨٠٣
مع أبي العلاء في سجنه ٢١٨
المعارف ٦٤١
معجزة القرآن في جنة الرضوان ٤٧٧
معجم ابن مسدى ٨٦٠
« الأدباء ١٥٠ ، ٤٢١ ، ٥٧٥ ، ٦٧١ ، ٧٦٢ ، ٨٥٩ ، ٨٦٠ ، ٨٦٢ ، ٨٦٣
« أدباء الأطباء ٨١٦
« البلدان ٢٣٤ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٧٦٢
« السفر ٣٨٣
« فريتاغ العربي اللاتيني ٧٥٧
معجم فرنسي عربي ٧٥٧
« الفيروزا بادي (المحيط) ٨٠٤
« فيشر ٨١٨
« لاتيني عربي ٧٥٧
المعجم اللغوي الكبير ٨١٨
معجم المطبوعات ٤١٦
المعجم الوسيط ٨١٩
معجم يوناني عربي ٧٥٧
المعرب ٧٦٢
معين الحكام ٦٢٩
معين المحقق ومعين المدقق ٧٥٧
المغرب في حلى المغرب ١٥٠
مفارقات الحياة ٦٥٣
المفصل ٦٧١
المفهم في صحيح مسلم ٣٨٩
المفيد في أخبار الصعيد ٨٦١
المفيد في ذكر من دخل الصعيد ٨٦٠
مقالة في رسم القطوع الثلاثة ٨٢٥
المقامات النصرانية ٧٥٤
المقامر ٤٦٦
المقاييس ٧٥٠
مقدمة في كيان العراق الاجتماعي ٣٤٠ ، ٧٨٨
المقولات ١٨٢
المكتبة العباسية في البصرة ٦٥٩
مكسيم غركي ٧٨٨
الملاح العربي أحمد بن ماجد ٩٥٢
ملتون ٤٦٩
ملتون توب ٤٩٢
ملحق المعاجم العربية ٧٥٧
الملحمة العربية ٧٨٨
ملحمة ملتون ٤٦٩

ملخص ثلاث رحلات في
ديار الشام ٩٥٢
الملذات والألعاب ٤٨١
ملك الطفيليين ٦٥٢
الملك فؤاد وعلاقته بإيطاليا ٤٧٩
ملكتان في بغداد ١٧٩
الملل والنحل ٤٩٠
ملوك العرب ٨٢٥
ملقى السبيل ٥٠٨
مملكة العراق ١٢٨
منتخب صوان الحكمة ٨٢٤
منتخب المختار في علماء بغداد ٤٩٧، ٨٦٠
منهج البحث في الأدب واللغة ٩٠٤
من الإغريق إلى دارون ٤٨٣
من حولنا ١٢٦
منسوجات إسلامية عراقية من القرن ٤٦٥
التاسع والعاشر الهجري ٩٤٧
من صميم لبنان ٤٧٢، ٦٢٣، ٦٢٤
من عبقريات نساء القرن التاسع عند
العرب ٧٨٧
من كان بمصر من المؤرخين ٨٦١
من نورمانديا إلى البلطيق ٩٥٧
من هو ٣٣٧، ٤٨١
من واحدة لأخرى ٤٩٩
من وراء الأفق ٩٤٨
المنظورات الحسينية ٧٩٠
المهبراتا ٩٤٩
المهتمين بأخبار مصر من مؤرخي
المصريين ٨٦٦
مهد العرب ٤٧٢، ٥٠٨
المهرج ٦٠٤
المواعظ والاعتبار في الخطط والآثار
٥٧٥، ٥٧٧، ٦١٧، ٦٢١

مواقف مؤثرة في تاريخ محمد
ابن عبد الله ٨١٧
المواهب الفتحية ١٥٠
موجز تواريخ الحروب والقرون ٤٦٩
موجز علم الأمراض الباطنة ٣٥٥، ٤٨٦
موسكو السوفيتية ٨٣٠
الموسيقى العربية ١٨٣
موطأ الإمام مالك ٣٨٣، ٣٩٠
الموت والعبقرية ٤٧١
الموتى ٦٣٣
الميثاق القومي ٧٩١
ميثم التمار ٧٨٧
الميزان الصحيح ٧٩٠
ميزان العمل ١٨٣
ميلاد الحضارة ٤٧١
ميكرومغياس ٤٨٤، ٤٩٤
نابليون ١٠٤، ٤٦٨، ٤٨٠
نابليون ومحمد علي ١٥٣، ٤٦٨
الناسخ والمنسوخ ٤١٨
الناشئة والغرور ٤٩٢
الناطقون بالضاد في أمريكا ٨٢١، ٩٠٨، ٩٠٩
نالا ٩٤٩
نبحاح ٣٣٩
النبراس في تاريخ بني العباس ٤٩٧، ٤٩٨
٦٥٩، ٧٨٦
النجوم الزاهرة في ملوك مصر
والقاهرة ٥٧٥، ٧٦٢، ٨٥٩، ٨٦٠
النحل ٦٣٨
نحل عبر النحل ٤٧٩، ٦٣٦ — ٦٤٣
نحن الأطباء ٤٧٥
نحو التعاون العربي ٤٨٣، ٤٩٤
نخب الذخائر في أحوال الجواهر ٧٥٥
نخب العدد ٤٨٤

نداء القلب ٨٢١
النزعات الاستقلالية في الخلافة العباسية ٤٦٩
نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ٨٥٨
نشوء الإنسان ١٢٩ ، ١٣٠٠
نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها ٧٥٢ ، ٧٥٥
النصارى في الشرق ٦٥٦
النظام الاشتراكي ٤٧٣
نظام الحكم في العراق ٧٩١ ، ٩٠٦ ، ٩٠٧
النظام النقدي في العراق ٤٩٧ ، ٧٩١
النظام النقدي والصرافي في سوريا ٢٤٧
النظرات ٥٢
نظرة في مشروع قانون الأحوال الشخصية ٧٩٠
النظرية العامة في الفسخ في الفقه الإسلامي والقانون الدولي ٤٧٣
نعمة يافت ٨١٧
النغم الشجي في الرد على إبرهيم اليازجي ٧٥٧
نفائس الفلسفة الغربية ٤٧١
نفح الطيب ٥٧٦ ، ٥٧٧
النفس والجسد ١٤١
نفوس مضطربة ٤٦٥
نقد المثالية الحديثة ٧٩١
النقود للبلاذري ٧٥٥
النقود العربية وعلم النميات ٧٥٥
النقود القديمة الإسلامية للمقريزي ٧٥٥
نقود وتعليقات على معجم دوزي ٧٥٧
النكت اللطيفة في التحدث عن ردود ابن أبي شيبة على أبي حنيفة ٣٣٤
نكت الهميان ٨٦٨
النكت والعيون ١٨٥
نهاية الرتبة في طلب الحسبة ٤٧٨
نهاية السول في رواية الستة الأصول ١٨٥

نهاية الطريق ٤٦٥
نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر ٧٨٧
النواة والقنابل النووية ٨١٩
نوادر الأصول في معرفة أخبار الرسول ٦٤١
نوادر جحا ٧٦٨
النور ٦٥٢
النيل ١٠٤
هاشم وأمية في الجاهلية ٧٨٦
هايني ٤٦٩
هذه هي الأغلال ٤٧٠ ، ٦٦٩
هذه هي الديمقراطية ٧٢٢
الهر الأليف ٦٥٥
هل أنت حي ٤٧١
همزات الشياطين ٤٦٩
هموم الشباب ٤٧١
هنا وهناك ١٨٨
الهند ٤٧٢
الهنود في جنوب إفريقيا ٩٥٨
الهند المقسمة ٩٦٠
هؤلاء الصهيونيون ٤٨٧
الهوى والشباب ٤٧٨
هيرودت في مصر ٤٧٢ ، ٨٠٠ ، ٨٠٢
وابل وطل ٣٤٠
وادي النطرون ورهبانه وأديرته ومختصر تاريخ البطاركة ٤١٧
وازن الأرواح ٤٦٦
الوافي بالوفيات ٨٦٠
الواقع المحزن ٤٨٧
الوحدة العربية : نشأتها وعوامل تطورها ٨٢٢ ، ٩١٤
الوحدة العربية ومراحلها ٣٣٨

الوحدة العربية ومشروع سوريا الكبرى والقضية الفلسطينية ٤٨٧
وحي الجلاء ٤٨٧ ، ٤٩٥
» الرافدين ٤٨٤
» العزلة ٤٦٩
» المرأة ٤٤٦
وداعا يا بلاد الهند ٦٦١
الوسيط ١٤٨
الوصية الصغرى ٧٧٢
الوصية الكبرى ٧٧٢
الوصية في الشريعة الإسلامية على المذهب الحنفي ٤٨٦ ، ٤٩٥
الوطن الحقيقي ٩٥١
وطننا ٨٢٤
الوعي القومي ٤٧٠ ، ٦٢٣
وفيات الأعيان ٥٧٨ ، ٨٥٨
ولادة وابن زيدون ٩٥٣
وقعه صفين ٤٧٨
الوهم الأكبر ٢٨
يتيمة الدهر ١٥١، ٥٧٧، ٦٦٧ ، ٧٥٩ ، ٧٦٠ ، ٧٦٣
اليزيدية وأصل دياناتهم وقومهم ٧٨٩
يسألونك ٤٦٧، ٨٠٢، ٨٠٣
يقظة العرب ١٥٦ ، ٤٨٧
يوسف بن كريون الإسرائيلي ٨٦٧
يوليسيز التائه ١٨١
يوم الجلاء عن سوريا ٧٨٧
يوم ميسلون ٩٥٠
يوميات حسن الإسكندراني ٢٧٥

٤ – الكتب الإفرنجية

Abnormal Psychology 142
Abu Firas, Ein Arabischer Dichter und Held 666
A History of American Poetry 502
A History of Western Philosophy 499
Alfred Adler 815
L'âme et le Corps 141
The Anatomy of Peace 827
Annali dell' Islam 658
A Question in Parliamant 914
Arianna 601
Aristocracy and Democracy. Hindustan Review 31
As he saw it 187
The Badgers 661
Balzac 663
The Basis of Soviet Strength 662
The Black Arab 827
The British in India 958
Classical Geographics 801
Columbia Dictionary of Modern European Literature 960
Confederation of Europe 28
Contemporary schools of Psychology 142
Les Campagnes Navales de Mohamed Aly et d'Ibrahim 281
Cavalleria Rusticana 605
China's Destiny and Chinese Economic Theory 960
The chinese Way in Western Light 500
Desert Hawk 957
The Difficult Child 144
The Discovery of India 186
Divided India 960
Doriclea 603
Echo of a Cry 827
The Economic Development of the Middle East 248
The Egg and I 827
Einstein: His Life and Time 959
England seine staatliche und Politiche Entwickelung und derkrieg gegen Deutschland 28
The Factors of the Mind 811

Good-Bye, India 661
The Great Illusion 28
La guerre en Orient et dans la Baltique 281
History of the Warin Russia and Turkey 281
How to plot a novel play or short 502
How to write a play 502
Human Destiny 960
The Iceman Cometh 187
Imperial Germany 33
The Indians in South Africa 958
Industrialisation and Foreign Trade 250
Introduction à la Psychologie1 40,327
Islam the Religion of Humanity 817
Leo Tolstoy 502
Lincoln The President 829
The Logic of Modern Psychology 811
Man, Morals and Society 814
Manual of Child Psychology 811
Mission of the University 187
Modern Islam in India 825
My Chinese Wife 958
Navarin 281
The New World 914
Nisi Dominus 186
Normandy to the Baltic 957
Nuages 817
Orfes 601
Orphan Paul 603
Outline of Psychoanalysis 142
Pagliacci 605
Palestine-Problem and Promise 501
Pensées Spirituelles 757
The Perennial Philosophy 187
Poet and lover 188
The Poet in the theatre 187
Les Premières Civilisations 63
Les Premières frégates deMohamed-Aly 281
Problems of Power 33
Psychoanalytic Therapy : Principles and Application 829
Psychologie expérimentale 141
Psychology and Morals 814
Psychology Down The Ages 811
The Psychology of Characters 811
Science, Liberty and Pease 958
Science since 1500 829
Shelley : Life Story 829
The Short stories of Dostovesky 663
Soliman Pacha 281
Some Roads towards Peace 32
Soviet. Philosophy 958
Studies in the Development of Capitalism 500
The Successful Error,Sheed and Ward 814
Survey of the Anglo-Egyptian Sudan 914
Syria and Lebanon 188
Syria. An Historical Appreciation 501
The Time Machine 17
The Triumph of Death 501
Turkey and the Crimean War 281
Understanding human Nature 142,143,144
William Goodwin 827
Wind in the Sahara 661
The World's Great Scriptures 663
Zum ewigen Frieden 28